

وليم شايبر

قيام وسقوط

الرائع الثالث

تأليف ركنات

المجلد الأول
من سلسلة

جورج واشنطن

منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

وليم شيرر

قيام وسقوط الرايخ الثالث

«نهاية دكتاتور»

الجزء الأول

عند الله العبرية
جرجيس فتح الله

دار ئاراس للطباعة والنشر



السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - حي S٤٥٥١١ - اربيل- كُردستان العراق
ص.ب رقم: ١

وليم شابر

قيام
و
سقوط الرايح الثالث
« نهاية دكتاتور »

الجزء الأول

نقد إلى العربية
جرجيس فتح الله

اسم الكتاب: قيام وسقوط الرايخ الثالث «نهاية دكتاتور» - الجزء الأول
تأليف: وليم شايرر
نقله الى العربية: جرجيس فتح الله
من منشورات ناراس رقم: ١٧٠
التصميم والإخراج الفني: شاخوان كركوكي
الغلاف: شكار عفان النقشبندي
خطوط الغلاف: الخطاط محمد زاده
تنضيد: دار ناراس
تصحيح: شاخوان كركوكي
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن محمود
الطبعة الأولى: مطبعة وزارة التربية - أربيل ٢٠٠٢
رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في أربيل: ٤٩٦ / ٢٠٠٢

تاريخ التأليف ١٩٥٩

الطبعة الأولى ١٩٦٠

الطبعة الرابعة عشرة: آب ١٩٦١

"طبع في الولايات المتحدة الأمريكية"

الترجمة تمت بين ١٩٦٦/٤/٩ و ١٩٦٦/٩/٤

في سجن بغداد المركزي

ملاحظة الناشرين

يعرض هذا الكتاب لأول مرة قصة إمبراطورية هتلر بكل تفاصيلها ودقائقها. وهي واحدة من أهم قصص التاريخ تفرغ لكتابتها واحد من أعظم المثقفين المختصين.

لم يسبق لإمبراطورية جبارة أن خلّفت كما خلّف الرايخ الثالث أكادساً من الوثائق والمستندات للمؤرخين والمتتبعين، حول قيامها وإنهيارها. وحسبنا أن نذكر أن قيام الحلفاء بطلب الإستسلام دون قيد أو شرط، يعدّ طيّ آخر صفحة من صفحات القتال المرير وقبل تمكن النازيين من إتلاف وثائقهم وإحراق أضيابهم - قد زدنا بمستمسكات يمكن إحساب تفاصيلها بالساعات عن الكابوس الرهيب الذي نشرته إمبراطورية هتلر.

كان (ويليام شايرر) الذي ظل يرصد النازيين ويكتب عنهم منذ العام ١٩٢٥، قد تفرغ لخمس سنوات وستة أشهر يغربل هذه الوثائق وينخلها نخلّاً ليستخلص منها ومن التقارير الصحفية عن الأحداث وقت وقوعها في ألمانيا وأوروبا معلومات مستفيضة طريفة عن فترة أربعين عاماً أو تزيد - ليصنّف منها هذا التأريخ الوثائقي الدقيق. لفصل من أشدّ فصول تاريخ البشرية هولاً وإرهاباً.

في هذا الكتاب نجد قصة هتلر في حبّه وسجنه وتعلقه بفنون الحرب وعنقه الجنوني الإنتحاري الذي أدّى به الى تخريب بلاد طالما إدعى بأنه أحبها حب العباد.

وفي هذا الكتاب تجد أيضاً وثائق هيئة أركان الحرب الألمانية العليا وأحوال معسكرات الإعتقال والإرهاب البربري اللاسامي وتدهور قيم الشعب الألماني. والمقاومة الداخلية المتمثلة في المؤامرات التي حيكت للإطاحة بالنازية ولم يكن يُعرف عنها من قبل إلا القليل.

ونجد فيه أيضاً تفاصيل مدهشة مثيرة عن الميثاق السوفياتي-النازي للعام ١٩٣٩، والمكائد التي دُبّرت لإسقاط الجنرالات الألمان الكبار والمجهودات المضحكة المخجلة التي بُذلت لإسكات هتلر بإشباع أطماعه الأشعبية وفشل ألمانيا في غزو إنكلترا. وخطط هتلر لإختطاف الدوق وندسور وزوجته. الى مئات من الوقائع السرية المتعلقة بالحرب.

مقدمة المؤلف

عشت وعملت في بلاد الرايخ الثالث طوال النصف الأول من حياتها القصيرة أرقب عن كُتب (أدولف هتلر) وهو يفرض دكتاتوريته على هذا الشعب الذي حارت فيه العقول، ثم يقوده الى الحرب والفتوح. على إن تجاربي الشخصية هذه لم تدفعني الى تأليف هذا الكتاب لو لم تزودني نهاية الحرب العظمى الثانية بحافز فريد من نوعه في التاريخ.

هذا الحافز هو وضع اليد على أغلب الوثائق والمخابرات السرية للحكومة الألمانية ولكل أقسامها، ومن ذلك وثائق وزارة الخارجية، والجيش والأسطول وسجلات الحزب النازي ووثائق الغشتاپو (شرطة هاينريخ هملر السرية)، والحق أنه لم يحدث أن وقع كنز عظيم مثل هذا في أي مؤرخ معاصر. فالى هذا الزمن كانت أرشيفات الدول المعظمة تظل في حرز حريز ولا يكشف عن سرها عندما تهزم في حرب أو يطوّح بنظام حكمها كما حصل في ألمانيا السنة ١٩١٨ وروسيا في ١٩١٧. فلم تنشر الحكومات الجديدة منها إلا ما يخدم مصالح النظام الذي جاء على أنقاضها.

إن الإتهيار السريع الذي حاق ببناء الرايخ الثالث في ربيع ١٩٤٥ أدى الى تسليم أكداش هائلة من الوثائق السرية فضلاً عن مواد أخرى لا تُقيّم بثمن كاليوميات الخاصة والمحاطرات الشخصية ونصوص الخطب السرية جداً ومحاضر المؤتمرات السرية والمراسلات الملحقة بها. بل هنالك ملخصات المكالمات التليفونية بين زعماء النازي وأقطابهم كانت تلتقطها دائرة خاصة في وزارة الطيران إستحدثتها (هرمان غورنك).

كان الجنرال (فرانز هالدر Franz Halder) يحفظ يومياته القيّمة جداً بطريقة الإختزال المسماة Ga-belsberger ولم يكن يكتفي بتدوينها يوماً فيوماً بل ساعة فساعة خلال نهاره. وهي والحق يقال مصدر فريد للمعلومات في الفترة الواقعة ما بين ١٤ آب ١٩٣٩ وحتى ٢٤ أيلول ١٩٤٢، ويمثل الزمن الذي قضاه رئيساً لهيئة الأركان العامة للجيش الألماني، باتصال مباشر يومي بهتلر وغيره من أقطاب النازي. وهي أفصح يوميات وأصرحها وأحفها بالحقائق.

على أن ثم مذكرات لاتقل عنها قيمة كيوميات الدكتور جوزف غوبلز Dr. Joseph Gobbels وزير الدعاية والصاديق الحزبي الحميم لهتلر. ومذكرات الجنرال ألفريد يودل Alfred Yodl مدير دائرة الحركات في القيادة العليا للقوات المسلحة O.K.W. وهنالك أيضاً سجل الوقوعات اليومية للقيادة نفسها، ويوميات قيادة الأسطول العليا. والحق يقال أن الأضابير الستين ألفاً - وهي مجموعة سجلات الأسطول الألماني التي وقعت غنيمة حرب في شلوس تامباخ Schloss Tambach قرب كوبورج Coburg تحوي فعلاً كل الجفريات والرموز والمذكرات ورسائل مختلف قطع الأسطول ويومياتها من نيسان ١٩٤٥ وقت وضع اليد عليها، فنازلاً حتى ١٨٦٨ وهو تاريخ إنشاء أسطول ألمانيا الحديث.

أما وثائق وزارة الخارجية الألمانية التي تزن (٤٨٥) طناً فقد غنمها الجيش الأمريكي الأول : بجمعها من مختلف القلاع والمناجم في جبال (الهارز Harz) قبل إحراقها بوقت وجيز تنفيذاً للأوامر الصادرة من برلين. هذه الوثائق تتعدى فترة حكم الرايخ الثالث الى فترة النظام الجمهوري (جمهورية فايمر Weimer) وتصل الى مبدأ الرايخ الثاني أيام بسمارك Bismark. بقيت أطنان الوثائق النازية مختومة مخزونة في مستودع جيش الولايات المتحدة الكبير في مدينة ألكساندريا - بفيرجينيا. ولم يبد من حكومتنا ما يدل على إهتمامها بفتح الصناديق المحكمة الختم للبحث عن معلومات تاريخية فيها. وبعد مرور عشر سنوات على وقوعها فُضت أختامها ١٩٥٥ والفضل في هذا يعود الى (جمعية التاريخ الأمريكية) وسخاء مؤسستين علميتين خاصتين. وهنا بدأت مجموعة صغيرة جداً من الباحثين تساعد زمرة أصغر منها من الكتبة والموظفين وبقليل من المعدات والأدوات تتولى فحصها وتصويرها قبل أن تقوم الحكومة بإعادتها الى ألمانيا، إذ كانت في عجلة شديدة من أمرها. ولقد كانت تلكم الأوراق ذات قيمة عظيمة.

قيِّمةً والحق يقال! فهناك "المحضر الأمني" المكتوب بطريقة الإختزال لمؤتمرات هتلر الواحدة والخمسين حول الموقف الحربي اليومي كما كان يبسط وتتم المداولة فيه من مقر قيادة هتلر. وهناك أيضاً النص الكامل لمداولات أمير الحزب النازي مع قادة ومستشاري الحزب أثناء الحرب. إنتشل الأول منهما ضابط إستخبارات أمريكي تابع للفرقة المظلية المائة والواحدة - من بين بقايا أوراق هتلر الخاصة التي أحرقت ببرختسجادن Berchtesgaden. أما الثاني فقد تم العثور عليه بين أوراق (مارتن بورمان Martin Bormann).

وجُمعت مئات الألوف من الوثائق النازية المستولى عليها بغاية من السرعة في نورمبرگ Nu-remberg لتقديمها كوسائل إثبات في محاكمات مجرمي الحرب النازيين الكبار. وقد جمعت أثناء تعقيب الجزء الأول من وقائع تلك المرافعات - أكداً من النسخ المنقولة حرفياً على أصولها، ثم حصلت على المجلدات الإثنتين والأربعين من محاضرات الشهادات والمستمسكات مع ملحق لها يتألف من عشرة مجلدات الى جانب ترجمات لكثير من الوثائق المهمة. أما الوثائق الباقية فقد نشرت في مسلسل يتألف من خمسة عشر مجلداً آخر لمحاكمات نورمبرگ الإثنتي عشرة التالية، وهي ذات قيمة ولو أغفلت الطبعة أكثر الشهادات والوثائق.

وبالإضافة الى هذه الأكداً غير المسبوق من الوثائق، هناك أيضاً محاضر إستجابات مسهبة لضباط الحرب الألمان وموظفي الحزب والحكومة وشهاداتهم المعززة بالقسَم في مختلف محاكمات ما بعد الحرب، وقد زودني هذا بمواد ما كنت أحلم بها بعد حرب مثل هذه.

إني بالطبع - لم أقرأ كل هذا المقدار الهائل من الوثائق، فهذا ما لا طاقة به لأي فرد، على إني شققت طريقي خلال جانب كبير منها وكان عملي يتسم بالبطء كأني فلاح في بستان الكرم الغنية هذه، لإفتقاري الى الفهارست والقوائم المنظمة.

يعجب المرء حقاً من قلة ما كنا نعرف نحن الذين عشنا في ألمانيا أيام الحكم النازي دبلوماسيين

وصحفيين. ما أتفه ذلك الذي توصلنا إليه مما جرى خلف واجهة الرايخ الثالث! وتلك هي طبيعة الحكم الدكتاتوري المطلق فمن صفاته العمل بكتمان والحرص على الأسرار لئلا تنتهبها أعين الأجانب المستطلعة. قد يسهل علينا أن نصف ونؤرخ حوادث النازيين المثيرة والشنعاء أحياناً - مما جرى إبان الرايخ الثالث كوصول هتلر الى الحكم، وحرق الرايخشتاغ Reichstag ومؤامرة روهام Roahm الدموية وضم النمسا وإستسلام جمبرلين وإحتلال چيكوسلوفاكيا وغزو بولندا وسكندينايفيا والهجوم على الغرب والبلقان وروسيا وفضائع الإحتلال النازي ومعسكرات الإعتقال وتصفية اليهود. أما القرارات الحاسمة التي كانت تتخذ سراً، والمكائد والخبائات والأسباب والدوافع ولوثات الجنون التي كانت تدفعها الى حيز التنفيذ والأدوار التي مثلها الممثلون الرئيسون وراء الستار ومدى الخوف الذي كانوا يشيعونه في النفوس، وأساليبهم في تنظيم ذلك، فكل هذا وكثير غيره قد بقي معظمه مغطى الى أن رأت الوثائق الألمانية ضوء النهار.

قد يرى بعض الناس أن كتابة تاريخ للرايخ الثالث إنما هو عمل سابق لأوانه. وأن عملاً كهذا العمل يجب أن يُترك للجيل القادم من الكتاب الذين سيعجم الزمن عودهم ويتيح لهم مجالاً أرحب وقد وجدت هذا الرأي يسود جمهرة الباحثين في فرنسا، وخاصة عندما ذهبت إليها متصيداً مواد كتابي هذا، فقليل لي لا يجمل بالمؤرخ أن يتصدى لتاريخ حقبة من التاريخ أقرب من حقبة ناپوليون. في هذه الفكرة وجهة وبعد نظر. فقد إنتظر معظم المؤرخين خمسين سنة بل قرناً كاملاً بل أكثر من قرن قبل أن يحاولوا كتابة جزء محدود من تاريخ بلاد أو إمبراطورية أو عصر. أوليس السبب الأول في تلكؤهم هذا هو حتمية إنتظارهم وقتاً طويلاً ليستم الكشف عن الوثائق التي يحتاجونها كي يتزودوا منها بالمادة والمراجع والمصادر الموثوقة؟ وقد يتوفر هذا الزمن الطويل لكن بمروره يفقد المؤرخون شيئاً مهماً وهو المعرفة الشخصية بالحياة والزمن والشخصيات التاريخية وغير ذلك مما سيكتبون عنه.

إن قضية تاريخ الرايخ الثالث تقف حدثاً فريداً من نوعه. فكل الوثائق المتعلقة به تكاد تكون ميسورة بعد أن تم إنهياره، الى جانب إعتراقات الأحياء من قادته عسكريين ومدنيين. وهي إعتراقات قيّمة أخذ بعضها في آخر لحظات حياتهم. أو قبل إعدامهم الحياة. بهذه المصادر التي لا يمكن مضاهاتها، وبهذا المقدار المتوفر بنهاية السرعة إضافة الى ذكرياتي عن حياة ألمانيا النازية وتصرفات الرجال الذين حكموها وفي مقدمتهم أدولف هتلر وهي مازالت في مخيلتي وعظامي - قررت القيام بمحاولة كتابة مؤلفي "قيام وسقوط الرايخ الثالث".

قال "ثوكيديدس Thocydides" وهو من أعظم كتّاب التاريخ - في كتابه تأريخ حرب (الپلوبيونيز): "عشت هذه الحرب. وكنت في سن تؤهلني الى فهم الأحداث وإعطاء رأي فيها بحيث إستطعت الوصول الى كبد الحقيقة منها". على إني وجدت من الصعوبة القريبة من المستحيل أحياناً، معرفة الحقيقة عن ألمانيا الهتلرية. إن جبال المواد الوثائقية تُعين المرء على تلمس السبيل الى الحقيقة أكثر مما بدا ذلك ممكناً قبل عشرين عاماً. لكن كميتها الهائلة كثيراً مما توقع المرء في حيرة. وكل المدونات

البشرية لا تخلو من هذه التناقضات المحيرة.

وكان مقدراً لأحكامي وميولي الخاصة النابعة عن تجاربي ومعاناتي أن تتسلل وتزحف الى صحائف هذا الكتاب بين الفينة والفينة بطبيعة الحال. فأنا مثلاً مبعوض للدكتاتورية المطلقة كمبدأ أساسي ولطالما إشمأزت نفسي من هذه الدكتاتورية نفسها وسأبقى كارهاً لها طول حياتي بعد أن عشت رذحاً من الزمن في ظلها أرقب صولتها القبيحة على النفس البشرية. على أنني حاولت في هذا الكتاب أن أكون موضوعياً متمسكاً بأدق المقاييس، تاركاً الحقائق تفصح عن نفسها، مثبتاً مصادر تلك الحقائق بالترتيب. ولم أذكر حادثة أو مشهداً أو مقتبساً من وحي مخيلتي. إلا وهو مستند الى وثائق وإعترافات شهود عيان أو على ملحوظاتي الخاصة. وفي الحالات الخمس أو الست التي يلاحظ فيها بعض غموض أو إختلافات في وجهات النظر بسبب فقدان الحقائق لم أغفل عن التنبيه اليها في مواضعها.

ولست أشك في أن إيضاحاتي وتفسيراتي قد توضع موضع الأخذ والرد. وهو ما لا مفرّ لي منه مادام هناك آراء قد تبلغ حداً من الحصافة وشأواً من الكمال. وما أدرجته هنا من آراء إستهدفت منه توضيح الأحداث والغوص في أعماقها إنما هو خير ما توصلت اليه من إستنتاج، وعصارة ما كسبته من خبرة وتجارب ومعرفة.

ربما كان "أدولف هتلر" خاتمة الفاتحين المغامرين الكبار من طراز (الاسكندر) و(بوليوس قيصر) و(ناپوليون) وربما كان الرايخ الثالث آخر الإمبراطوريات التي أقيمت على غرار ما أقيم في مقدونيا وروما وفرنسا. ومهما يكن من أمر فقد أسدل الستار على تلك الحقبة من التاريخ، تاريخ إنشاء الإمبراطوريات بإختراع القنبلة الذرية والهيدروجينية المفاجيء وبالصواريخ الموجهة والمركبات التي يمكن تسديدها وإيصالها الى القمر. وفي عصرنا الجديد هذا عصر المخترعات الموهولة الفاتكة التي حلّت محل الأسلحة العتيقة بسرعة خاطفة، ستكون أول حرب عدوانية عظيمة -إن قُدّر لها أن تأتي- من عمل مجنون صغير ذي نزعة قتالة يبدأها بالضغط على زرّ إلكتروني. وحرب كهذه لا تدوم طويلاً ولا يتمكن أحد من متابعتها ولكن لن يكون فيها غالب أو مغلوب. وستتجلى آثارها في عظام متفحمة مبعثرة فوق سطح كوكب سيار ميت فقد كل أثر للحياة.

الكتاب الأول

ظهور « أدولف هتلر »

الفصل الأول

ميلاد الرايخ الثالث

- ١ -

ساد برلين توتر محموم في أول ساعة ولادة الرايخ الثالث. وبدأ لكلٍ أمرٍ تقريباً أن جمهورية (فايمر) على وشك السقوط. فهذه أكثر من سنة وهي تتداعى بسرعة مطردة. فالجنرال كرت فون شلايخر Kurt Von Schleicher الذي كان قليل الإكتراث بالجمهورية، وأقل إكتراثاً بالديمقراطية كسلفه فرانس فون باين Franz Von Papen والذي حكم مثله مستشاراً بموجب مرسوم جمهوري دون أن يحوز ثقة البرلمان - إنتهى حكمه بعد سبعة وخمسين يوماً فقط من تسلمه.

في نهار السبت الموافق ٢٥ كانون الثاني ١٩٣٣ أصدر الفيلد مارشال الهرم فون هندنبيرگ Von Hindenberg رئيس الجمهورية مرسوماً بتنحيته عن منصب المستشارية دون سابق إنذار. وراح أدولف هتلر زعيم الإشتراكيين القوميين وهو أكبر الأحزاب السياسية في ألمانيا، يطلب لنفسه المستشارية في تلك الجمهورية التي حلف على تدميرها.

وفي يوم الأحد القر الحاسم هذا، إنتشرت أغرب الشائعات عما يتوقع حدوثه. وأبعث تلك الشائعات على القلق لم تكن تخلو من أساس. كانت ثم أنباء تشير الى أن (شلايخر) يتهيأ بالإتفاق مع الجنرال "كرت فون هامرشتاين Kurt Von Hammerstein قائد الجيش العام للقيام بإنقلاب عسكري عن طريق إستخدام حامية بوتسدام Potsdam وإعتقال رئيس الجمهورية وإقامة دكتاتورية عسكرية. وتطاييرت إشاعات عن إنقلاب نازي تقوم به فرقة الصاعقة في برلين بمساندة أشياح النازي في الشرطة فتحتل "شارع فلهلم Wilhelmstrasse" حيث يوجد قصر رأسة الجمهورية ومعظم الوزارات. وأشيع عن إعلان الإضراب العام. وفي نهار الأحد الموافق للتاسع والعشرين من كانون الثاني إحتشد مائة ألف عامل نقابي في لوستگارتن Lustgarten بقلب برلين إحتجاجاً على تعيين هتلر لمنصب المستشارية. وحاول زعيم نقابي الإتصال بالجنرال (هامرشتاين) مقترحاً عملاً مشتركاً بين الجيش والمنظمات النقابية إذا ما استدعي هتلر لرأسة الحكومة^(١). فقد سبق لإضراب عام مماثل أن أنقذ رئيس الجمهورية في محاولة إنقلاب كاپ Kapp الفاشلة العام ١٩٢٠ بعد فرار الحكومة من العاصمة.

١- مذكرات هامرشتاين إقتباس "هويلر بينيت" من كتابه The Nemesis of Power ص ٢٨٥، كتب المذكرات ابنه "الدكتور كونراد فون هامرشتاين" عن ملحوظات أبيه ويوميته نشرت بعنوان "شلايخر، هامرشتاين والإستيلاء على الحكم".



ظل هتلر معظم ليلة الإثنين يقطع أرض غرفته في فندق كايزرهوف Kaiserhof في رايشسكانسلرپلاتز Re-icheskancylerplatz المجاور لدار المستشارية^(٢) غدوة ورواحاً. وكان واثقاً رغم هياجه العصبي أن ساعته قد حانت. فقد مضى عليه زهاء شهر وهو يفاوض في السر (پاپن) وغيره من زعماء اليمين المحافظين. وكان مضطراً إلى هذه المساومة فهو لا يستطيع تأليف حكومة نازية خالصة. إلا أنه يمكن أن يتأسس وزارة إئتلافية: ثمانية من أصل أعضائها الأحد عشر غير نازيين متفقون معه على إلغاء حكومة (فاير) ذات الطابع الديمقراطي. ولم يكن يعترض سبيله في ذلك غير الرئيس العنيد الهرم. فقبل يومين فقط من هذا التاريخ أي في ٢٦ كانون الثاني كان الفيلد مارشال الشائب قد قال للجنرال ثون هامرشتاين،

پاپن

إنه لا ينوي مطلقاً "أن يجعل نائب العريف النمساوي هذا وزيراً للدفاع ولا مستشاراً للرايخ"^(٣). ومع هذا فقد ضعف الرئيس الخرف تحت ضغط إبنة الرائد أوسكار ثون هندنبرگ، وأوتو ثون مايسنر Otto Von Meissner سكرتير الرئاسة لشؤون الدولة. وثون پاپن وغيرهم من موظفي القصر. كان هندنبرگ قد أناف على السادسة والثمانين وهو يغذ الخطى إلى الخرف وفي عصر يوم الأحد العصيب كان هتلر يتناول القهوة والكعك مع گوبلز ومساعديه الآخرين حين فوجئوا بهرمان گورنگ Hermnn Georing رئيس مجلس الرايخشتاغ، والتالي لهتلر في قيادة الحزب يدخل الغرفة ويعلن بلهجة جازمة أن هتلر سيعلن مستشاراً نهار الغد^(٤).

وقبيل ظهر يوم الإثنين الموافق للثلاثين من كانون الثاني ١٩٣٣ إنطلق هتلر إلى قصر المستشارية لمقابلة (هندنبرگ) الحاسمة له ولألمانيا وللعالم أجمع. وكان (گوبلز) و(روهم) وغيرهما من أقطاب النازيين يشربون بأعناقهم من إحدى نوافذ كايزرهوف متطلعين بقلق إلى باب المستشارية يرقبون موعد قدوم هتلر. وقال (گوبلز): سنقرأ على وجهه علائم النجاح أو الفشل. فهم لم يكونوا واثقين حتى تلك الساعة. وقد كتب گوبلز في يومياته: "كانت قلوبنا نهباً موزعاً بين الشك والأمل، والخيبة والفرح. لقد ذقنا مرارة الفشل عدة مرات حتى إننا لم نعد واثقين تماماً بوقوع المعجزة الكبرى"^(٥). وبعد دقائق قليلة شاهدوا المعجزة: هذا الرجل ذو الشارب الشبيه بشارب (شارلي شاپلن)، الذي قضى أيام شبابه في فيينا يعيش عيشة المتشردين، ثم أصبح جندياً خاملاً من جنود الحرب العظمى

٢- جوزف گوبلز: (من كايزرهوف - إلى المستشارية) ص ٢٥١.

٣- مذكرات هامرشتاين إقتباس هويلر بينيت Wheeler Bennet ص ٢٨٠.

٤- گوبلز المرجع السالف - Von Kaiserhof Zur Reichskanzler ص ٢٥٠.

٥- المرجع نفسه ص ٢٥٢.

الأولى، وأحد المنبذين في الأيام الأولى العصيبة لما بعد الحرب في مونيخ والزعيم المضحك لإنقلاب مشرب البيرة، هذا المشعوذ الذي لم يكن ألمانياً بل نمساوياً والبالغ من العمر ثلاثة وأربعين عاماً، قد خرج بعد أن أدى اليمين القانونية بوصفه مستشاراً للرايخ الألماني.

وسرعان ما وجد نفسه بين رفاقه في كايزرهوف بعد أن قطع الiardات المائة. وحفّ به غوبلز وگورنگ وروهم وغيرهم من ذوي القمصان الرمادية الذين ساعدوه في طريقه الشاقة القاسية الى السلطة. وكتب غوبلز عن ذلك: "لم يقل (هتلر) شيئاً ولم يتلفظ أحداً بكلمة، لكن عينيّه كانتا مخضلتين بالدموع"^(٦).

وفي مساء هذا اليوم قامت فرق الصاعقة النازية المتحمسة بإستعراض جبار بالمشاعل من الغسق الى ما بعد نصف الليل إحتفالاً بالفوز. خرجوا في أرتال منتظمة بعشرات الألوف من قلب "Teirgarten" ومروا من تحت باب براندبرگ وقوسه. واخترقوا (شارع فلهم) وأجواقهم تصدح بالمارشات العسكرية العتيقة على إيقاع الطبول الهادرة وكانت أصواتهم تزعق بنشيد "هورست فيسل Horst Wessel" الجديد وما إليه من الأناشيد العتيقة عتق ألمانيا. وأحذيتهم ذات الكعوب المعدنية تدق دقاً هائلاً على بلاط الشارع، ومشاعلهم مرفوعة الى فوق بهيئة تؤلف نارها شريطاً ملتهباً بدد غيبه الليل وانتزع هتاف الإعجاب من المتفرجين الآخذين بعضهم بحُجُز بعض على الأرضة. وكان (هندنبرگ) يتأمل من نافذة قصره تلكم الكتل المتراصة السائرة ويدق الأرض بعصاه لحون المارشات العسكرية الصادحة وهو ظاهر الجذل والحبور لأنه إختار مستشاراً في وسعه أن يرفع معنويات الشعب على الأسلوب الألماني التقليدي. ومن المشكوك فيه أن يكون هذا الشيخ الهرم قد أدرك بحرقه مغزى القوى التي أطلق لها العنان في ذلك اليوم المشهود، فعلى كل حال إنتشرت قصة في برلين ربما كانت ملفقة ومؤداها أن المارشال الشيخ إلتفت الى جنرال قريب منه أثناء مشاهدته العرض وقال له:

- لم أكن أدري أننا أسرنا هذا العدد الكبير من الروس!

كان أدولف هتلر واقفاً أمام نافذة مفتوحة في المستشارية على مسافة مرمى حجر من (قلهمشتراسه) والدنيا لاتكاد تسعه فرحاً وتأثراً وهو يدور في أرجاء الغرفة راقصاً نطاطاً رافعاً يده بالتحية النازية بإستمرار ضاحكاً مستبشراً وقد إمتلأت عيناه بالدموع.

هنالك مراقب أجنبي كان يتابع ما يجري في تلك الأمسية بمشاعر نفسية مختلفة وهو "أندريه فرانسوا پونسيه Andre` Francois Pocet" السفير الفرنسي الذي كتب خاطرته التالية: "إن نهر اللهب قد مر بالسفارة الفرنسية وأنا أرقب إضطرامه المتوهج بقلب مثقل بالإشمئزاز"^(٧).

وآب غوبلز الى بيته في الساعة الثالثة صباحاً منهوك القوى ولكنه سعيد وكتب قبل أن يستسلم الى الكرى ما يلي: "إنه لأشبه بحلم... بل أسطورة!... الرايخ الجديد وكُل الآن. أربعة عشر عاماً تُتوج

٦- المرجع نفسه ص٢٥٢.

٧- "السنوات الحاسمة" ص٤٨. كان السفير الفرنسي في برلين من ١٩٣٠ - ١٩٣٨.

بالنصر، لقد بدأت الثورة الألمانية^(٨).

إن الرايخ الثالث الذي ولد في الثلاثين من كانون الثاني عام ١٩٣٣، و"سيبقى ألف سنة كاملة"^(٩) على ما فخر به هتلر متخذاً له تعبير "الرايخ الألفي"، لم يدم غير إثنتي عشرة سنة وأربعة أشهر، إلا أنه في هذه الفترة القصيرة جداً من عمر التاريخ، أحدث انفجاراً على الكرة الأرضية أشد عنفاً من أي انفجار عرفتته من قبل. لقد رفع الشعب الألماني إلى أعلى عليين مما لم يره منذ ألف سنة أو أكثر وجعله سيد أوروبا من ساحل الأطلسي حتى ضفاف (القولكا) ومن القطب الشمالي حتى البحر الأبيض المتوسط، ثم هبط به إلى أسفل سافلين وقذف به إلى لجة من الخراب والدمار في أعقاب حرب عالمية أثارها ذلك الشعب ببرودة دم، ومارس خلالها حكماً من الرعب والإرهاب على الشعوب المغلوبة فاق كل ما عرفتته الأجيال السابقة من إضطهاد وحشي جرى وفق مجازر مخططة محسوبة لمعشر بني البشر.

لاشك في أن هذا الرجل الذي أوجد الرايخ الثالث وحكمه بصرامة، وبذكاء غير عادي أحياناً، ثم إرتقى به إلى هذا الإرتفاع المخيف الذي يقطع الأنفاس ثم هوى به من حالق إلى تلك الهوة المريعة، كان من العباقرة، إلا أنها عبقرية شريرة. إنه والحق يقال وجد في الشعب الألماني طبيعة منقاداً ساعدته على تحويلها إلى قوة ملاتمة لأغراضه المشؤومة كما إصطلحت على صياغة ذلك الشعب بهذا الشكل قرون من التجارب وأقدار غامضة. لكن الثابت إنه ما كان ليظهر الرايخ الثالث إلى الوجود لولا شخصية "أدولف هتلر" التي إجتمع فيها الشر الشيطاني والإرادة الصخرية والقسوة الباردة والذكاء الباهر والخيال المفرط والغرائز التي لاتعرف حدوداً والأهلية الكفوءة للحكم على الأشخاص والظروف حكماً صائباً، تلك الأهلية التي لم تفارقه حتى النهاية عندما أثملت خمرة النصر والنجاح. قال عنه فريدريك ماينكه Friedrich Meinecke وهو مؤرخ ألماني مشهور: "إنه مثّل من الأمثلة العظيمة لشخصية فريدة ذات قوى لايمكن قياسها في حياة التاريخ"^(١٠). وكان الأمر لبعض الألمان ولمعظم الأجانب يبدو وكأن دجالاً قد وثب إلى الحكم في برلين. أما بالنسبة إلى أغلب الألمان فقد كان هتلر -أو سيكون فيما بعد- الزعيم الملهم الحقيقي. ولقد قدّر لهؤلاء أن يتبعوه معصوبي الأعين - كأئمة سحرهم بسلطان إلهي - خلال تلك الأعوام الإثني عشر الملأى بالزوابع والأعاصير.

- ٢ -

مجيء أدولف هتلر

لو حكمنا على هتلر من أصله ومنبته وحياته الأولى لصعب علينا أن نتصور أهليته في إرتداء جبة

٨- غوبلز: المرجع السالف، الص ٢٥١-٢٥٤.

٩- بيان الخامس من أيلول في نورمبرگ عام ١٩٣٤.

١٠- فريدريك ماينكه: الكارثة الألمانية ص ٩٦.

(بسمارك) وأباطرة (هوهنزولرن Hohenzollern) والرئيس هندنبرگ. ذلك النمساوي الأجنبي المنحدر من أسرة فلاحيية ولد في الساعة السادسة والدقيقة الثلاثين من مساء يوم ٢٠ نيسان ١٨٨٩ في غاستهوف زُم پومر Gasthof Zum Pommer وهي حانة متواضعة في بلدة "براونو آم إن Braounou am Inn على حدود (بافاريا).

كان لمحل الميلاد على الحدود الألمانية النمساوية أهمية ودلالة خاصة لهتلر الشاب فقد جعله يفكر وهو في مقتبل العمر بعدم ضرورة وجود حدود بين هذين القطرين اللذين ينتسبان الى رايبخ واحد ويتكلمان الألمانية وكان شعوره بدرجة من الشدة، حتى إنه بدأ سطور كتابه الأولى وهو جالس في أحد السجون الألمانية وعمره خمسة وثلاثون عاماً بمعالجة قضية محل ولادته بأسلوب رمزي، وبهذه السطور بدأ كتاب كفاحي الذي أصبح خريطة تصميم بناء الرايبخ الثالث قال: "اليوم يبدو لي وكأن العناية الإلهية إختارت محل ميلادي في مدينة (براونو آم إن) فهي تقع على الحدود التي تفصل ما بين دولتين ألمانيتين أوقفنا حياتنا نحن أبناء الجيل الجديد على توحيدهما بكل طريقة تعنُّ لنا... تلك المدينة الصغيرة على الحدود بدت لي رمزاً لرسالة عظيمة"^(١١).

وهو الابن الثالث لزيجة ثالثة أقدم عليها موظف جمرك نمساوي صغير الشأن، ولد سفاحاً وظل يحمل لقب أسرة أمه شيكلگروبر Schicklgruber تسعة وثلاثين عاماً. ويظهر اسم هتلر في خط سلالة الأم كما يظهر في خط سلالة، الأب "فهتلر هو جده من ناحية أمه كهتلر هي جده من ناحية أبيه، أو هي بالأحرى أسماء متقاربة الجرس والكتابة مثل: هيدلر Hiedler، هوتلر Huetler، هتلكر Huettler، هتلكر Hitler. وأم هتلر هي ابنة عم أبيه، وقد وجب على الأب أن يحصل على (تفسيح) كنسي لإتمام عقد الزواج. وكان أسلاف زعيم ألمانيا المقبل صلباً ورحماً يعيشون في (فالدفيرتل Waldviertel) أجيالاً متعاقبة. وهي إقليم في النمسا السفلى يقع بين الدانوب وبين تخوم (بوهيميا) و(موراڤيا). وفي أثناء وجودي هناك مررت بهذا الإقليم وأنا في طريقي الى براغ أو الى ألمانيا فوجدتها منطقة غابات تنتشر على رقعتها قرى ريفية وحقول صغيرة. ومع أنها لا تبعد عن فيينا أكثر من خمسين ميلاً، فجوها الذي تعيش فيه يوحي ببعدها عن المدينة وبالفقر الشديد. حتى لكأن مسارب الحياة النمساوية الرئيسية لم تمر بها. ويميل السكان الى خشونة الطباع والعزلة كالفلاحين الچيكيين عن شمالهم. والتزواج فيما بينهم إعتيادي كأبوي هتلر. وأولاد الحرام فيهم كثيرون.

في خط سلالة الأم تجد بعض إستقرار. فقد ظلت أسرة (كلارا پولزل Klara Poelzl) تقطن الملك الفلاحي رقم (٣٧) في قرية شبيتال Spital أربعة أجيال متعاقبة^(١٢). أما حياة أسلاف هتلر الصلبيين فمختلفة تماماً. ولقد رأينا كيف تفاوتت تهجئة لقب الأسرة وكذلك محل السكنى. فهناك ميل جامع الى التنقل عند آل هتلر ورغبة في التحول من قرية الى أخرى ومن عمل الى عمل. وثم نفرة من

١١- كفاحي Mein Kampf الطبعة الأمريكية، بوسطن ١٩٣٤، ص ٣. في مقتبساتي الكثيرة حاولت أن أغير من الترجمة الإنكليزية لأجعلها قريبة من النص الألماني.

١٢- كونراد هايدن (الزعيم) ص ٣٦. كل من كتب عن الرايبخ لاشك مدين لهذا المؤلف بالمواد الخاصة بحياة هتلر الأولى.

العلاقات البشرية الثابتة وحب في بوهيمية العلاقة مع الناس.

كان (يوهان جورج هايدلر) جدُّ أدولف طحاناً جوالاً يزاوّل حرفته في قرية بعد أخرى من قرى النمسا السفلى. ولد له عام ١٨٢٤ إبن بعد زواجه الأول بخمسة أشهر لكن الإبن وأمه ماتا. وعقد بعد ثماني عشرة سنة زواجه الثاني من فلاحه تدعى "ماريا أنا شيكلگروبر" أثناء مزاولته العمل في دورنتال Duerenthal بقرية سترونز Strones وكان لها من العمر (٤٧) عاماً عند ذلك. وقبلها بخمس سنين (أي في ٧ حزيران ١٨٣٧) كانت قد وضعت إبناً غير شرعي سمته (ألواز) وهو على أغلب الإحتمال إبن (يوهان هايدلر) وإن لم يقد دليل كاف على البنوة. ومهما يكن فقد تزوج (يوهان) المرأة أخيراً إلا أنه لم يكلف نفسه مؤونة تبني الطفل الحرام خلافاً للعادة المتبعة ونشأ الولد يحمل لقب أمه "ألواز Alois شيكلگروبر".

توفيت آنا عام ١٨٤٧ وغاب يوهان هايدلر تماماً ثلاثين عاماً ثم ظهر ثانية في بلدة فايترا Weitra في فالدفيرل وهو في الرابعة والثمانين وقد تغيرت تهجئة إسمه الى "هتلر"، أثناء مثوله أمام كاتب عدل وبحضر من ثلاثة شهود للإقرار بأنه والد (ألواز شيكلگروبر!) لماذا إنتظر هذا الشيخ تلك المدة الطويلة لإتخاذ هذه الخطوة، وما الذي دفعه الى إتخاذها أخيراً؟ أمر لاكتشف عن أسبابه المدونات المتيسرة. على إن "هايدن Heiden" يذكر أن (ألواز) قد أسرّ فيما بعد الى صديق، أن الإعتراف ببنوته لم يجر إلا لتيسير حصوله على جزءٍ من ميراث عمه أخ الطحان الذي كان قد قام على تربية الشاب في بيته^(١٣).

لقد تم الإعتراف المتأخر في السادس من حزيران عام ١٨٩٧. وفي ٢٣ تشرين الثاني من العام نفسه قام راعي كنيسة دولرشفهايم Doellersheim بشطب إسم ألواز شيكلگروبر من سجل العماد وكتابة إسم (ألواز هتلر) بدلاً عنه بناءً على وثيقة البنوة التي دُفعت إليه. فصار أب (أدولف) يعرف منذ ذلك الحين فصاعداً بإسم ألواز هتلر. وإنتقل اللقب بطبيعة الحال الى إبنه. ولم تظهر هذه الحقائق للملأ إلا في عام ١٩٣٠ عندما قام صحفيون مغامرون من فيينا بتقليب سجلات الأبرشية حتى إكتشفوا الوقائع الخاصة بأسلاف هتلر وأطرحوا جانباً محاولة (يوهان جورج هايدلر) المتأخرة لإنصاف إبنه النغل محاولين شدّ لقب "أدولف شيكلگروبر" الى الزعيم النازي!

هنالك غرائب من تقلبات الحظ في حياة هتلر العجيبة، وليس ثم أغرب مما حصل قبل ثلاثة عشر عاماً من ميلاده. فلو لم يعد الطحان العجوز ذو الأربعة والثمانين عاماً ليظهر ظهوراً غير متوقع فيعترف بأبوته لإبنه البالغ تسعة وثلاثين عاماً (أي بعد ثلاثين عاماً من وفاة أمه) لظل أدولف هتلر معروفاً بلقبه الأصلي "أدولف شيكلگروبر". وربما لا أهمية في هذا التغيير، بيد أنني سمعتُ الألمان يتساءلون هل كان سيقدر لهتلر أن يتزعم ألمانيا لو ظل معروفاً بلقب شيكلگروبر؟ إن في الإسم جرساً مضحكاً عندما يخرج من شفتي ألمان الجنوب. والمرء لا يتمالك نفسه من أن يتخيل كتل الجماهير الألمانية المتحمسة وهي تهتف بالإسم مقروناً بلفظة التحية هايل! هايل شيكلگروبر!

إن جملة "هايل هتلر! Heil Hitler" لم تعد قاصرة على ترنيمة تشبيهاً بالأناشيد الفانغرية Wagenerian التي تطلقها ربّوات من الحناجر في مشاهد الدروشة المسرحية للكتل النازية المنتظمة صفوفاً متراصة. بل إنها أصبحت التحية المفروضة على الألمان في عصر الرايخ الثالث. وفي التلفون قامت مقام لفظة إفتتاح المكالمات المعروفة "هالو". فمن الصعوبة بمكان والحالة هذه أن نتصور إمكانية التحية بـ"هايل شيكلرغروبر"^(١٤).

ويبدو إن أبوي ألواز لم يعيشا تحت سقف واحد، حتى بعد تمام زيجتهما لذلك نشأ والد (أدولف هتلر) في كنف عمّه الذي كان يكتب لقيه بشكل لا يتفق مع كتابة أخيه يوهان. فقد عرف هكذا "يوهان فون نيبومك هوتلر Johan Von Nepomuk Huetler". وللبغض الخالد الذي أنماه الزعيم النازي في شبابه للجيح مما دفع به إلى تدمير أوطانهم، فإن إسم عمه الأوسط يستأهل شرحاً: إن (يوهان فون نيبومك) هو إسم القديس الوطني وشفيع الشعب الشيكي. ويجد بعض المؤرخين أن ظهور هذا الإسم في أسرة هتلر دليل على وجود دم جيكي فيها.

في مبدأ الأمر تعلم (ألواز شيكلرغروبر) صنع الأحذية في قرية (شبيتال). ولما كان حب التجوال مختلطاً بدمائه كأبيه، فقد سافر إلى فيينا ليحرب حظه. وإنخرط وهو في سن الثامنة عشرة في سلك شرطة الحدود المرتبطة بمصلحة الكمرك النمساوية قرب (سالزبرگ)، وبعد أن رفع إلى درجة موظف في الكمرك بإكماله تسع سنوات، تزوج "آنا غلازلهويرر Anna Glasl-Hoerer وهي بنت متبناة لأحد موظفي الكمرك، فجاءته بمهر صغير ورفعت من مركزه الإجتماعي على عادة البيروقراطية الصغيرة النمساوية-الهنغارية. لكن الزواج لم يكن سعيداً لأن الزوجة تكبره بأربعة عشر عاماً، وهي عليله الجسم، ظلت تشكو من العقم حتى إفتقرا بعد ستة عشر عاماً. وبعد ذلك بثلاثة أعوام وافاها الأجل في ١٨٨٣.

قبل أن تحصل بين الزوجين الفرقة بدأ ألواز (وكان يُعرف قانوناً بلقب هتلر) يعيش طاهيةً في فندق إسمها فرانتسكا ماتزلزبرغر Franziska Matzelsberger فولدت له سنة ١٨٨٢ طفلاً سفاحاً سماه (ألواز) وبعد شهر من وفاة زوجته، بنى بهذه الطاهية الشابة فولدت له بعد ثلاثة أشهر من العقد إبنته (آنجل) ولم يدم الزواج طويلاً فقد توفيت (فرانتسكا) بداء الصدر. وبعد موتها بستة أشهر تزوج (ألواز هتلر) للمرة الثالثة والأخيرة.

كانت العروس الجديدة (كلارا پولزل) التي أصبحت بعد فترة أمماً (لأدولف هتلر) تصغر زوجها بثلاثة وعشرين عاماً. وهو في الثامنة والأربعين وقد عرفا بعضهما بعضاً منذ أمد بعيد. فكلارا جاءت من قرية (شبيتال) مسقط رأس آل هتلر وأسلافهم. وجدّها هو (يوهان فون نيبومك هوتلر) الذي ربى ابن أخيه (ألواز شيكلرغروبر هتلر) لذلك فهما إبنا عمومة من الدرجة الثانية وكان من

١٤- يبدو إن ذلك لم يخف على هتلر نفسه، ففي عهد صباه أسرّ إلى صديق حدثته الوحيد قائلاً إنه لم يفرح بشيء في حياته قدر ما فرح بقيام أبيه بتغيير لقب الأسرة. وقال لأوغست كوتيشيك إن إسم "شيكلرغروبر" يبدو له غليظاً خشناً فضلاً عن كونه مضحكاً وغير عملي يجافي النطق. وقال إنه يرى لقب (هيدلر) رقيق اللفظ جداً. إلا أن لفظة (هتلر) جميلة سهلة الإستدكار.

الضروي أن يُستحصل (تفسيح) كنسي لإتمام الزواج.

ظلت فكرة هذا الزواج تساور موظف الكمرك عدة سنين بعد أن ضم (كلارا) الى بيته المقفر من الأطفال كابنة متبناة أثناء قيام زواجه الأول. وهذه الصبية كانت قد قضت رداً من الوقت مع آل شيكلرور في (براناو) وعندما ظهرت العلة على الزوجة الأولى بدا (ألواز) وكأنه إتخذ قراره في البناء بكلارا بعد وفاة زوجته. لقد تم الإعتراف ببنوته وفوزه بميراث عمه جد كلارا عندما كانت كلارا في السادسة عشرة من عمرها وهي أول سن الزواج لكن علة الزوجة طالت بها بعد الفرة كما رأينا ولعل إنشغال (ألواز) بعشرة الطاهية فرانتسكا حمل كلارا وهي في العشرين على الرحيل الى فيينا والعمل خادمة في أحد المنازل. لكنها عادت بعد أربع سنوات للإشراف على شؤون بيت ابن عمها لأن الزوجة الثانية (فرانتسكا) قضت الأشهر الأخيرة من حياتها بعيدة عن دار الزوجية. وتم قران (ألواز هتلر) بكلارا في ٧ كانون الثاني ١٨٨٥ وبعد أربعة أشهر وعشرة أيام ولد بكرها غوستاف Gustav وتوفي في مرحلة الصبا ولحقت به إبنتهما أيدا Aida المولودة في ١٨٨٦، وكان أدولف الولد الثالث لهذا الزواج الثالث. وولد إبنهما الرابع إدموند Edmund في سنة ١٨٩٤ ولم يعيش غير ست سنوات، أما الطفل الخامس والأخير پاولا Paula التي ولدت في ١٨٩٦ فقد ظلت حية وأنافت على أخيها الشهير.

أما (ألواز) أخ أدولف وأخته آنجيلا لأبيه وهما ولدا (فرانتسكا) فقد عاشا وأدركا سن النضوج وتزوجت (آنجيلا) الجميلة بموظف مالي يدعى (راوبال Raubal). وبعد أن توفي عنها عملت في فيينا كمديرة شؤون بيت وإن كانت معلومات (هايدن) صحيحة فإنها إشتغلت فترة من الزمن طاهية في مطبخ خيرى يهودي^(١٥). وفي ١٩٢٨ أرسل هتلر بطلبها لتكون مديرة شؤون بيته في (برختسجادن) ومنذ ذلك التاريخ وإسمها يجري على أفواه أقطاب النازيين في إطراء المعجنات والحلويات العجيبة الفنية التي تصنعها لأخيها وكان مغرمًا بهذه الأكلات. ثم ما لبثت أن تركته في ١٩٣٦ لتتزوج بروفسوراً في الهندسة المعمارية يدعى (درسدن Dresden) وغضب عليها هتلر لتركها بيته - وكان آنذاك مستشاراً ودكتاتوراً وأبى أن يرسل لها هدية عرس. وكانت الشخص الوحيد القريب منه من دون أعضاء أسرته - كما يبدو - في سنواته الأخيرة، بإستثناء واحد. فقد كان لأنجيلا بنت شقراء باهرة الجمال إسمها غيلي راوبال Geli Raubal. وهي حب هتلر الحقيقي العميق الوحيد في حياته كما سنرى. لم يكن "أدولف هتلر" يرغب أن يذكر أمامه أخوه لأبيه (ألواز ماتزلزيرغر) الذي كانت بنوته قد صُححت فأصبح (ألواز هتلر). إشتغل هذا خادماً في مطعم وظل عدة سنين من حياته طريد العدالة. وذكر هايدن أنه حُكم بعقوبة وهو في سن العشرين وقضى حكماً آخر بالسجن لمدة ثمانية أشهر لسرقة ثانية. ثم إنتقل من النمسا الى ألمانيا ليقع في ورطات أخرى. وفي ١٩٢٤ عندما كان هتلر يعاني غصص السجن لتنظيمه الثورة السياسية في (مونيخ)، أصدرت محكمة (هامبورگ) حكمها بالسجن ستة أشهر على (ألواز هتلر) بتهمة تعدد الزوجات. ويعدها يذكر (هايدن) أنه رحل الى

إنجلترا وهناك أسرع بتكوين أسرة ثم تركها ورحل^(١٦).

وبوصول النازيين إلى السلطة تحسنت أحوال (ألواز هتلر) ففتح مشرب بيرة صغير Bierstube في ضاحية من ضواحي برلين. وانتقل منها قبيل الحرب إلى حي فيتنبرگپلاتز Wittenbergplatz الراقي وهو حي (وست إند) برلين. وكان يغشاه موظفو النازي الكبار. وكان يبدو أثناء سنوات الحرب الأولى عندما عزت المأكولات، حسن التجهيز بمختلف الأطعمة وفي ذلك الزمن اعتدت غشيانه بين آن وآخر. وكان ألواز يناهز الستين، رجلاً طيب القلب فيه بساطة وبدانة وبعض شبه بأخيه لأبيه الشهير وأنت في الواقع لا تستطيع تمييزه بشيء عن عشرات أصحاب المشارب الصغيرة التي يكثر وجودها في ألمانيا والنمسا. إن الأعمال جيدة، ومهما كان ماضيه فهو الآن حسبما يبدو يستمتع بحياة هائلة وكان أخوف ما يخاف أن يخطر ببال أخيه مصادرة إجازته في ساعة غضب أو قرف منه. ويشاع في هذا المشرب أحياناً بأن مستشار الرايخ وزعيمه يتألم كثيراً لوجود هذا الذي يذكره بأصل أسرة (هتلر) الوضع. وأذكر أن ألواز نفسه كان يأبى أن يجره أحد إلى الحديث عن أخيه إباء تاماً وهذا بعد نظر منه وحكمة، إلا أنها حكمة تزعجنا نحن الذين كنا نحاول أن نعلم كل ما يتسنى لنا صيده عن ماضي هذا الرجل الذي راح يستعد لفتح أوروبا.

وإذا ضربنا صفحاً عن أخبار الأسرة المثبتة في (كفاحي) وهي أخبار متفرقة ومضللة في أغلب الأحيان، مبتورة بتراً شديداً، فنادرًا ما كان هتلر يخوض أو يسمح بالخوض في أحوال أسرته وحياته الأولى في المجلس الذي يضمه. ولقد رأينا كيف كانت أحوال أسرته ومطلع حياته.

-٣-

حياة أدولف هتلر الأولى

تقاعد والد "هتلر" من وظيفته في الكمرك وهو في الثامنة والخميسن في ١٨٦٥، وفي تلك السنة دخل الإبن مدرسة قرية فيشلهام Fischlham. وله من العمر ست سنوات. والمدرسة تقع على مسافة قليلة من مدينة لينز Linz. وواصل المتقاعد المغرم بالتنقل تجواله من قرية إلى أخرى في ضواحي (لينز) طوال الأعوام الأربعة أو الخمسة. وكان بإمكان الإبن أن يذكر عند بلوغه الخامسة عشرة سبعة تغييرات في محلات الإقامة وخمسة إنتقالات بين مختلف المدارس، وقد داوم خلال سنتين في دير لامباخ Lambach للرهبان البندكتيين حيث كان والده قد إبتاع حقلاً بالقرب منه. وكان في الدير يرتل مع جوقة المرتلين ويتلقى دروساً في الإنشاد ويحلم بمجيء اليوم الذي يرسم فيه قساً كما ذكر^(١٧). أخيراً إستقر الأب المتقاعد في قرية (ليوندنغ Leonding) وهي الأخرى من قرى لينز الجنوبية. وسكنت الأسرة منزلاً متواضعاً ذا حديقة.

١٦- المرجع السالف، ص ٤٣.

١٧- كفاحي، ص ٦.

وأرسل (أدولف) وهو في الحادية عشر الى ثانوية لينز، وكان ذلك من الأب تضحية مالية، ودليلاً على طموحه الى جعل ابنه موظفاً مدنياً مثله، وهو آخر ما كان يخطر ببال الفتى. قال "هتلر" فيما بعد^(١٨):

"ما بلغت الحادية عشرة حتى وجدتنى أعارض أبي لأول مرة... إنني لم أرغب أن أكون موظفاً". إن قصة كفاح هذا الطفل لإرادة أبيه وهو لم يدخل بعد عقده الثاني ووقوفه وقفة عنيدة أمام صلاته وسيطرته حسب وصفه، هي من إحدى القصص القليلة التي أفاض هتلر في وصفها بأمانة ظاهرة ولهجة صادقة في (كفاحي). وقد نجم عن هذا الصدام أول مظهر لتلك الإرادة العنيفة الهوجاء التي لايفلّ غرابها شيء. تلك الإرادة التي أركبته أحشن المراكب وانطلقت به بعيداً رغم العوائق التي بدت وكأنها لا تُفتنح، والمواقف الصعبة التي أدت به الى سحق كل من إعترض سبيله فُقدّر لها بالأخير أن تخيم بكابوس لا يطاق على ألمانيا وأوروبا.

"لم أرغب قط في أن أدخل سلك الوظيفة... وقد حاول والدي بقصصه عن حياته الخاصة إذكاء حب هذه المهنة في نفسي والإلتذاذ بها فكان لقصصه أثر معكوس تماماً. حتى ضقت ذرعاً وكنت أرتعد فرقاً من فكرة جلوسي في دائرة حكومية مجرداً من حريتي محظوراً عليّ أن أكون سيد وقتي مجبراً على حرف كل محتوى حياتي الى ملء إستثمارات وأوراق ليس إلا..."

"وظهر لي يوماً أنني سأكون رساماً فناناً... فعقلت الدهشة لسان أبي وصرخ: رسام فنان؟ شك في أنني مصاب بلوثة من الجنون أو لعله كذب أذنيه أو ربما خُيل له أنه أساء الفهم. وعندما أوضحت له غرضي وبخاصة عندما إقتنع أنني جاد، راح يعارض رغبتني بكل ما في طبعه من إصرار... فنان؟ كلا لن يحدث هذا ما دمت حياً. ولم ينصرف عن رأيه. ولم يتخل عن كلمة "كلا أبداً" وبقيت مصراً على كلمتي "مهما يكن من أمر"^(١٩).

وكانت نتيجة هذا الخلاف (كما ذكر هتلر فيما بعد) أنه إنصرف عن الدراسة "... فكرت أن والدي سيتركني أوقف نفسي على تحقيق حلمي عندما يجد قلة التقدم الذي أحرزه في الدراسة الثانوية. طوعاً أو كرهاً"^(٢٠).

هذا ما دونه بعد أربعة وثلاثين عاماً، ولعله أراد أن يتخذ عذراً لفشله في الدراسة. وكانت درجاته في الإبتدائية جيدة عموماً إلا أنها ساءت جداً في ثانوية لينز حتى أدت الى حرمانه الشهادة التقليدية. وإضطر أن ينقل تحصيله الدراسي الى ثانوية (شتيير Steyr) الحكومية التي تبعد قليلاً عن لينز وظل فيها حتى تركها قبل التخرج بوقت قصير.

ألهب فشل هتلر المدرسي في جوانب نفسه حقداً عارماً ظل يلاحقه حتى أواخر حياته. فكان يصب جام سخريته على أولئك السادة الأكاديميين ودرجاتهم العلمية وشهاداتهم العالية وأساليبهم التعليمية في معاملة الناس الآخرين. ولم يتحرج عن ذلك حتى في السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة من

١٨- المرجع السالف، ص ٨.

١٩- المرجع السالف، ص ٨-١٠.

٢٠- المرجع السالف، ص ١٠.

حياته. ففي مقر القيادة العسكرية العليا حيث سمح هتلر لنفسه أن يُتخَم بتفاصيل الاستراتيجية العسكرية والفنون السوقية قضى مرةً أمسية كاملة مع رفاق الحزب القدامى يستذكرون غباوة معلميه في عهد فتوته وصباه. وحفظت لنا المدونات طرفاً من هراء هذا العبقرى الملتاث. في الوقت الذي كان سيد الحرب الأعلى الذي يقود جيوشه الجرارة من حوض الثولغا إلى القنال الإنجليزي. فمن قوله:

"كلما فكرت بالرجال الذين تلقيت عنهم علومى الأولى، وجدت معظمهم مصابين بلوثات خفيفة من الجنون. إن المعلمين الذين يمكن أن يوصفوا بالجودة هم قلة. ومما يحز في النفس أن يفكر المرء في مدى السلطان الذي منح لهؤلاء للوقوف في سبيل طموح الشباب (٣ آذار ١٩٤٢) (٢١)".

"في نفسى أسوأ الذكريات وأقبحها عن أولئك المعلمين الذين درست عليهم. فمظهرهم الخارجي يدل على قذارتهم، وياقاتهم مدعوكية... إنهم ثمرة البروليتاريا العارية المجردة عن الاستقلال الذاتي في الفكر والمشهورة بالجهل، لا يوازيه جهل تلك البروليتاريا التي تريد أن تنتظم لتصير عماداً لنظام عقيم من أنظمة الحكم. وقد أصبح الآن والحمد لله أثراً من آثار الماضي: (١٢ نيسان ١٩٤٢) (٢٢)".

"كلما أحضرت في ذهني أساتذة المدرسة. أدركت أن نصفهم مخلوقات شاذة غير طبيعية... نحن تلاميذ النمسا ربنا ودرجنا تحت أقدام النساء وكبار السن. ولم تداخلنا بأساتذتنا رحمة فهم أعداؤنا الطبيعويون ومعظمهم مضطرب عقلياً. والحق إن قسماً لا يُستهان بهم كانوا ينتهون إلى البيمارستان... كنت قرفاً من المعلمين بنوع خاص ولم أكن أظهر أقل ميل إلى اللغات الأجنبية. وربما إختلف الأمر لو لم يكن معلمي ملتاثاً بالولادة. إنى ما كنت أطيع حتى رؤيته. ٢٩ آب ١٩٤٢ (٢٣)".

"كان معلمونا مثال الطغاة، لا يشفقون على الشباب. وكل همهم ينحصر في حشو أدمغتنا، وجعلنا قردهً لبقين مثلهم. وإن أظهر تلميذ أقل ميل للإبداع والألمعية إضطهدوه إضطهاداً قاسياً. إن التلاميذ المثلاليين الذين عرفتهم كانوا كلهم فاشلين في حياتهم العملية تماماً: ١٧ أيلول ١٩٤٢ (٢٤)".

ويظهر أن هتلر لم يغتفر لمعلميه الدرجات السيئة التي أعطوه إياها. وهو لم ينس لهم ذلك حتى يوم موته. إلا أنه كان قادراً على تشويه الحقيقة إلى درجة إكسائها ثوب السخر والدعاية.

بعد أن أصبح شخصية عالمية دُون بعض الإنطباعات التي خلفها في معلميه باختصار. ومن الأساتذة القلائل الذين حفظ لهم هتلر بعض الود، الأستاذ ثيودور جيسنجر Theodor Gissinger الذي حاول تلقيه العلوم. لقد ذكر هذا فيما بعد: "بقدر ما يتعلق الأمر بي أقول إن هتلر لم يخلف إنطباعاتاً سيئاً أو حسناً في (لينز) ولم يكن مقدّم الصف. وأذكره فتى ضامراً مشدود القامة شاحب الوجه معروقه كالمبتلى بدء السل. نظراته صريحة بشكل غير إعتيادي وعينه براقتان (٢٥) ذكيتان".

أما البروفيسور إدوارد هومر Eduard Huemer فالأرجح أنه المعلم الملتاث العقل من ولادته الذي نوّه

٢١- أحاديث هتلر السرية (١٩٤١-١٩٤٢) ص ٢٨٧.

٢٢- المرجع نفسه، ص ٣٤٦.

٢٣- المرجع نفسه، ص ٥٤٧.

٢٤- المرجع نفسه، ص ٥٦٦-٥٦٧.

٢٥- أوغست كويتشيك (هتلر الفتى الذي عرفته) ص ٥٠.

به هتلر، لأنه كان مدرس اللغة الفرنسية. جاء الى مونيخ عام ١٩٢٣ ليؤدي شهادة في صالح تلميذه السابق إبان محاكمته بتهمة الخيانة على إثر المحاولة الانقلابية المعروفة بـ(مؤامرة مشرب البيرة). ومع ثنائه على أهداف هتلر، وتمنيه من صميم قلبه أن يراه وقد حقق مثله العليا، إلا أنه رسم صورة علمية دقيقة لتلميذ الثانوية الشاب حين قال:

"لاشك إن هتلر موهوب. ومواهبه قاصرة على مواضيع معينة. على أنه يفتقر الى ضبط النفس وأقل ما يمكن القول فيه، إنه كثير الجدل أوتوقراطي، معتزّ برأيه، حاد المزاج، لا يستطيع أن يُخضع نفسه للنظام المدرسي. ولم يكن مثابراً مجدداً. ولو فعل لحقق نتائج أكبر بكثير لأنه من صنف الموهوبين^(٢٦)."

هنالك معلم آخر في ثانوية لينز كان ذا تأثير قوي، بل تأثير مصيري على الفتى كما ظهر فيما بعد. وهو مدرس التاريخ الدكتور (ليوبولد پويتش)، جاء من منطقة الحدود في جنوبي ألمانيا التي تنطق بالألمانية وتجاور السلاط الجنوبيين جعلته تجاربه في الكفاح العنصري هناك، قومياً متعصباً. وكان قبل قدومه الى لينز قد علّم في ماربورگ Marburg التي سميت ماريبور Maribor بعد ضمها الى يوغوسلافيا عقب الحرب العالمية الأولى. ومع إن الدكتور لم يمنح تلميذه غير متوسط الدرجات في مادة التاريخ فهو الوحيد بين المعلمين الذي أثنى عليه هتلر في (كفاحي) ثناءً حاراً ولم يتردد في الإقرار بدينه لهذا الرجل.

"كان عاملاً حاسماً في مستقبل حياتي أن وهبني حسن الحظ مدرساً فهمَ كما فهمت القلة النادرة. هذا المبدأ... مبدأ الاحتفاظ بالجواهر وإطراح القشور... وجدت مطلبي الأسمى متحققاً بالتمام والكمال في شخص معلمي الدكتور ليوبولد پويتش Leopold Poesch في ثانوية لينز. كان إنساناً مهذباً رقيقاً كبير السن لكنه شديد صارم في الوقت نفسه، قادر على جلب إنتباهنا إليه بذلاقة لسانه. فيستحوذ على عقولنا ويسحرنا سحراً وأنا أذكر الى الآن بخالص من عاطفتي هذا الرجل الشائب الذي كان يجعلنا أحياناً ننسى الحاضر في لظى كلماته فينقلنا بسحر بيانه الى الماضي ويقلب ضباب أحداث تاريخ ما قبل ألف سنة الى حقائق تاريخية تنبض بالحياة والثبات. وكنا نجلس مرهفي الأذان ونار الحماسة تضطرم في جوانحنا معظم الأحيان. وقد تتساقط الدموع من أعيننا أحياناً... كان يستخدم براعم تعصينا القومي كوسيلة لتثقيفنا ولطالما إستصرخ فينا مشاعرنا القومية.

هذا المعلم جعل التاريخ أحب الدروس الى نفسي. في الواقع إنني إنقلبت منذ ذلك الوقت، شخصاً ثورياً دون قصد منه أو تعمد^(٢٧)."

وفي عام ١٩٣٨، بعد زهاء خمسة وثلاثين عاماً. عرج هتلر مستشار الرايخ لزيارة معلمه الهرم المتقاعد في (كلاگنفورت Klagenfurt) أثناء ما كان يجوب أنحاء النمسا كالفاتحين بعد ضمها الى الرايخ. وقد سرّ حين وجد أستاذه الشيخ عضواً في فرقة الصاعقة النازية السرية التي كانت محظورة

٢٦- المرجع نفسه، ص ٤٩.

٢٧- كفاحي، ص ١٤-١٥.

في النمسا أيام الإستقلال. وبادله الحديث على إنفراد زهاء ساعة وقال لبعض أعضاء الحزب بعدها: "إنكم لاتدرون كم أنا مدين لهذا الشيخ"^(٢٨).

قضى (ألواز هتلر) نحبه على إثر نزف رئوي في ٣ كانون الثاني ١٩٠٣ وقد بلغ الخامسة والستين. أصابته النوبة وهو يمارس جولاته الصباحية المعتادة ولفظ آخر أنفاسه بعد دقائق في حانٍ مجاور بين ذراعي أحد الجيران. وعندما وقعت عليه أنظار ابنه البالغ ثلاثة عشر عاماً إنهار وطفق يبكي^(٢٩).

وإنقلت أمه التي كانت قد بلغت الثانية والأربعين الى شقة متواضعة في أروفاهر Urfahr في ضواحي لينز. وحاولت العيش مع ولديها أدولف وپاولا عيشة الكفاف على المدخرات القليلة وراتب التقاعد. وذكر هتلر في (كفاحي) أنها كانت تشعر بواجبها في تعليمه، تحقيقاً لرغبة أبيه الراحل وعلق بقوله: "وبكلمة أخرى أن تجعلني أتلقي دراسة تؤهلني الى الوظيفة". ومع إن الأرملة الشابة كانت مخلصه لابنها ومع أنه كان يحبها غاية الحب. فقد ظل -على حد قوله- "أصبح عزمياً وأشد إصراراً على أن لايتخذ الوظيفة مسلكاً". وبقي الخلاف قائماً بين الأم والابن رغم حبهما المتبادل العميق وواصل أدولف إهمال الدراسة.

"ثم أقبل المرض لإنفاذي من حيث لم يكن متوقعاً فقرر مستقبلي ووضع حداً للخلاف العائلي"^(٣٠). إن مرض الرئة الذي أبتلي به هتلر وهو في السادسة عشرة ألجأه الى ترك الدراسة سنة واحدة على أقل تقدير. وقضى هذه الفترة في قرية الأسرة "شبيتال" وحل في منزل خالته تريزا شميدت القروية. وبعد شفائه داوم في الثانوية الرسمية فترة الشتاء القصيرة. ويظهر من آخر التقارير المدرسية عنه المؤرخ ١٦ أيلول ١٩٠٥ أن درجاته في اللغة الألمانية والكيمياء والفيزياء والهندسة والرسم الهندسي متوسطة وفي التاريخ والجغرافية كانت "مُرضية". وفي الرسم "ممتازة". وغلبه شعور من الفرح لقرب تركه المدرسة الى غير رجعة حتى إنه احتفل بهذه المناسبة بشربه الخمر الى حد السكر. وذكر في أواخر أيامه أن بائعة حليب عثرت عليه وقت الفجر مطروحاً في قارعة الطريق خارج قرية (شتيبر) فأعانتة على العودة وعندها حلف ميمناً أن لايفعلها ثانية^(٣١).

وحافظ على يمينه وصار كارهاً كل شراب مسكر، لايدخن التبغ، نباتياً من قمة رأسه الى أخمص قدميه. أولاً بدافع الحاجة لأنه كان متشرداً عاطلاً في فيينا ومونيخ لايملك شروى نقيير، وأخيراً بدافع من العقيدة.

ووصف السنتين أو الثلاث التالية "بأسعد أيام حياته"^(٣٢). حيث أن أمه وأحد أقربائه إقترحاً أن

٢٨- كويتشيك المرجع السالف، ص٥٢. ومذكرات هتلر السرية، ص٥٦٧.

٢٩- كويتشيك المرجع السالف، ص٢٤.

٣٠- كفاحي، ص١٨.

٣١- قص حكايته هذه عن نفسه. في مناسبة من مناسبات إستعادة ذكرياته. في مساء يوم ٩/٨ كانون الثاني سنة ١٩٤٢. في مقر القيادة العليا (أحاديث هتلر السرية)، ص١٦٠.

٣٢- "تلك هي أسعد أيامي، وتبدو لي وكأنها حلم..." كفاحي، ص١٨. وذكر في رسالة له الى صديق الصبا كويتشيك مؤرخة في ٤ آب ١٩٣٣ بعد صبرورته مستشاراً بستة أشهر "إنني لفي غاية السرور... لإحياء تلك الذكريات =

يخرج الى الدنيا ويتعلم صناعة بينما كان هو يَمْنِي نفسه بصيرورته فناناً ويتطلع الى قضاء أيام تعطل وتسكع طيب على ضفاف الدانوب. ولم ينسَ قط تلك الأيام "الرخية الناعمة" عندما كان يستمتع بطيب الحياة وهو "عزيز أمه"^(٣٣) ما بين السادسة عشرة والتاسعة عشرة.

ومع إن الأرملة العليلة كانت تلقى صعوبة في سد حاجات الأسرة من الدخل المتواضع، فإن أدولف لم يساهم بشيء في إعانتها عن طريق مزاولة صنعة، لأن فكرة الإرتزاق من عمل منظم كانت تعافها نفسه وبقي كذلك طوال حياته.

وكان تحرره من العمل هو الذي جعل تلك السنوات الأخيرة من عهد صباه سعيدة هائلة. ذلك التحرر الذي منحه حرية التأمل ونسج الأحلام وقضاء أيام بطولها يتجول في شوارع المدينة وفي الريف، ملقياً خطبه على رفيقه في مساويء الدنيا والحلول التي تؤدي الى إصلاحها. وكان يقضي لياليه يقرأ كتاباً أو واقفاً في آخر صفوف مقاعد قاعة من قاعات الأوبرا في لينز وفيينا مصغياً بكل جوارحه الى موسيقى (ريچارد فاگنر) الصوفية الوثنية.

ووصفه صديق من أصدقاء الصبا فيما بعد بأنه "فتى شاحب هزيل ضامر حياؤه غير إعتيادي. إنطوائي يحب العزلة. كان ينفجر إنفجارات مفاجئة وبغضب من أولئك الذين لا يوافقونه رأيه غضباً هستيرياً! وتوهم طوال أربع سنوات بأنه مدله بحب شقراء فاتنة تدعى "ستيفاني" وكثيراً ما كان يبخلق فيها بشغف وهي تسير غادية رائحة في شارع لاند Landstrasse في لينز مع أمها، إلا أنه لم يحاول الكلام معها مفضلاً إبقاءها ككثير من الأشياء - في زوايا العالم المظلم لحيالاته المتضخمة. وظهرت فيما لا يحصى من قصائد الغزل والتشبيب التي كتبها ولم يرسلها قط (كانت واحدة من غزلياته بعنوان "ترنيمة الى المحبوب") وكان يصصر على إنشادها لصديقه الفتى الصبور أوگست كويبتشك^(٣٤). وقد ظهرت فيها محبوبته ترتدي ثوباً فضفاضاً من



فاگنر

= معك، ذكريات أجمل سني حياتي". كويبتشك (هتلر الفتى الذي عرفته) ص ٢٧٣.

٣٣- المرجع السالف، ص ٢١.

٣٤- إن كويبتشك الذي يبدو الصديق الوحيد لصبا هتلر، قدم في كتابه (هتلر الفتى الذي عرفته) صورة هامة لرفيقه في السنوات الأربع التي سبقت بلوغه التاسعة عشرة. وقد بلغ به المدى أن تناول بالوصف حياة تشرده في فيينا. وهي صورة ملأت ثغرة في سيرة حياة الزعيم الألماني- بل صحت كثيراً من الإنطباعات التي سادت قبلئذ عن تصرفاته الأولى. وشخصية كويبتشك لا تشبه شخصية هتلر في شيء. فقد كان سعيداً في منزله في لينز وورث صناعة التنجيد عن أبيه كما تابع بجد دراسة الموسيقى وتخرج بدرجة شرف من معهد كونسرفاتوار فيينا وبدأ مستقبلاً يبشر بالخير كمؤلف موسيقي وقائد أوركسترا لكن الحرب العظمى الأولى قضت على آماله.

القطيفة الزرقاء الغامقة وتمتطي صهوة جواد أبيض تجري به فوق المروج المزهرة^(٣٥). ومع إصراره على أن يصير فناناً، إن لم يكن في الرسم ففي الهندسة المعمارية، فقد مال بكليته الى السياسة وهو في السادسة عشرة. في ذلك كان حقه على آل هابسبورغ عنيفاً. وأبغض سائر الشعوب غير الجرمانية في الإمبراطورية النمساوية-الهنغارية متعددة الأجناس التي خضعت لهذا العرش. وقابل هذا البغض الشديد حب جنوني لكل ما هو جرمني. وهكذا إستقر رأيه في السادسة عشرة ليبقى غير متحول عنه الى آخر لحظة من حياته. ألماني متعصب جداً لقوميته. ويظهر أن شخصيته لم يكن فيها من نزق الشباب وروحه اللاأبالية رغم بطالته. وكان ينوء بحمل مشكلات الدنيا كلها "كان دائماً ضد شيء من الأشياء، وعلى خلاف تام مع الدنيا... لم أجده مرة يأخذ الأمور مأخذاً هيناً" كما عبّر عنه كويتشك فيما بعد^(٣٦).

في تلك الفترة أصبح الفتى الذي ضاق ذرعاً بالمدرسة، قارئاً نهماً مولعاً بالمطالعة. وإنتهى الى (جمعية مكتبة الثقافة للبالغين) في لينز وفاز بعضوية (جمعية المتحف) ليستعير كتبها بأعداد ضخمة ولا يذكره صديقه إلا وهو محاط بالكتب. وكان أحبها لديه كتب التاريخ الجرمني وأساطير الجرمان^(٣٧).

وكانت لينز مدينة إقليمية. لذلك أخذت فيينا العاصمة الوضاعة، حاضرة الإمبراطورية تجتذبه وتوميء بإصبعها الى طموحه الفني وخياله. ولم يمر به عيد ميلاده السابع عشر حتى كانت قدماه تغذان السير به الى فيينا وفي جيبه دربهات جمعتها له أمه وأقاربه لقضاء شهرين فيها. لقد أذهلته المدينة عند زيارته الأولى. وإن أصبحت فيما بعد مسرحاً لأفسى سني حياته حيث كان يعيش فعلاً عيشة المتشرد على قارعة الطريق. راح يتجول في شوارعها أياماً كوامل دون هدف، وهو مشدود بمنظر البنايات الفخمة التي تحيط به (الدائرة)، وقد طغى على أحاسيسه حال من الوحدة مستمرة لما رآه من المتاحف ودور الأوبرا والمسارح.

وراجع حول الدخول في أكاديمية فيينا للفنون الجميلة بعد قدومه الأول بسنة واحدة. إذ عاد إليها في تشرين الأول ١٩٠٧ ليدخل إمتحان القبول، وهو أولى الخطوات العملية لتحقيق أحلامه في فن الرسم وكان في الثامنة عشرة، مفعماً بالآمال العراض. لكنها سُحقت وتطايرت هباء، وتروي القصة نتائج إمتحان القبول كما هي مدونة:

"التالية أسماؤهم شاركوا في الإمتحان، وكانت نتائجهم غير مرضية أو لم يُقبلوا... أدولف هتلر - براناو أم إن- مولود في ٢٠ نيسان ١٨٨٩ - ألماني - كاثوليكي - الأب موظف - تحصيله الدراسي: أربعة صفوف في الثانوية. الدرجات قليلة. إختيار الرسم: غير مرضٍ"^(٣٨). وعاد الكرة وكانت رسومه تافهة الى حد لم تؤهله الى المشاركة في الإمتحانات هذه المرة. فكانت

٣٥ - كويتشك المرجع نفسه، ص ٥٩.

٣٦ - المرجع السالف، ص ٦٧.

٣٧ - المرجع السالف، ص ٥٤-٥٥.

٣٨ - كونراد هايدن "الفوهرر"، ص ٥٢.

ضربة قاصمة لطموح فني كطموحه - كما ذكر فيما بعد. لأنه مقتنع تماماً كما نوه في (كفاحي)، ولذلك طلب إيضاحاً من مسجل الكلية:

"أكد لي هذا السيد إن الرسوم التي عرضتها برهنت بما لا يقبل الشك أنني لأصلح لمزاولة فن الرسم. وإن كفائي كما أوضحت له الرسوم تكمن في الهندسة المعمارية، وقال لي لا شأن لك قط في أكاديمية الرسم وميدانك هو مدرسة الهندسة المعمارية"^(٣٩).

وإضطر الفتى إلى الرضوخ لحكم القدر. لكن ما عثم أن أدرك وهو حزين أن فشله في نبيل شهادة التخرج الثانوية سيحول بينه وبين دخوله مدرسة الهندسة المعمارية.

كانت أمه في ذلك الزمن تعاني سكرات الموت بدءاً سرطان الثدي فعاد إلى لينز ليكون بقربها. ظلت كلارا وأقاربها يساعدون الفتى ثلاث سنوات بعد تركه المدرسة، ولم يروا فائدة منها. وفي ٣١ كانون الثاني ١٩٠٨ والمدينة ترفل في حلة أعياد الميلاد دخلت أم أدولف في النزاع الأخير. ودفنت بعد يومين في (ليوندنغ) قرب زوجها. وكانت وفاتها للشباب ذي التسعة عشر عاماً "ضربة هائلة... لقد احترمت أبي وقدسته إلا أنني أحببت أمي... وموتها وضع نهاية مفاجئة لكل خططي الواسعة الأرجاء... وألجأني الفقر والحقيقة القاسية إلى إتخاذ قرار سريع... وجدت نفسي أواجه مشكلة تحصيل رزقي بوسيلة من الوسائل"^(٤٠).

وسيلة من الوسائل! لم يكن يتقن صناعة. فضلاً عن إحتقاره العمل اليدوي. لم يحاول قط أن يتكسب فلساً واحداً. إلا أن عزمته لم تشبط فما كان منه إلا أن ودع أقرباءه قائلاً إنه لن يعود إليهم إلا وهو ناجح.

"سارت بي قدماي إلى فيينا وليس معي غير حقيبة فيها ثيابي وقمصاني الداخلية وفي عزم لايلين. كنت أريد أن أنتزع من يد القدر ما إنتزعه أبي قبل خمسين عاماً. كنت أمل أن أصبح (شيئاً مذكوراً) لكن ليس كموظف مدني أبداً"^(٤١).

-٤-

"أكأب فترة في حياتي"

كانت السنوات الأربع التالية من ١٩٠٩-١٩١٣، من أحفل فترات حياة هذا الشاب النازح من لينز - بالشقاء والفاقة. في هذه السنين الأخيرة العابرة وقبل سقوط بيت هابسبورگ Hapsburg ونهاية دور فيينا كعاصمة لإمبراطورية قلب أوروبا التي تضم إثنتين وخمسين مليوناً من البشر. كانت هذه المدينة الفيحاء ترفل في حلل البهجة والرفعة لاتدانيه فيهما أية عاصمة من عواصم الدنيا. فهي

٣٩- كفاحي، ص ٢٠.

٤٠- المرجع السالف، ص ١٨.

٤١- المرجع السالف، ص ١٨.

لا تسمو على الأخريات بشمرات الهندسة المعمارية المختارة ولا بتمائليها فقط، بل بحبها للأنس واللهو، وبخفة روحها وروح سكانها المهذبين الرقيقين. إنها لتشيع جواً من طيب الحياة لا تعرفه أية مدينة أخرى من مدن الغرب.

تقع فيينا على ضفاف الدانوب الأزرق وتحتضنها تلال فينر فالد Wienerwald المكسوة بالغابات المزدانة بالكروم الخضراء الصفراء. إنه لموقع جمال نادر من الطبيعة يسحر الزائر ويحمل أهالي المدينة على الإيمان بمحابة العناية الإلهية في إختيار هذا الموضع لمدينتهم. الموسيقى تملأ الفضاء، موسيقى أبنائها الموهوبين العباقرة، أعظم من عرفت أوروبا منهم أمثال هايدن Hyden وموزار Mozart وبيتهوفن Beethoven وشوبرت Schubert وتأتي في ختام "الصيف الهندي" هذا أنغام فالس ابن فيينا المعبود "يوهان شتراوس Johann Strauss" بألحانها العذبة الساحرة لتمتع أناساً أنعم عليهم بهذه الحياة البهيجة فطبيعتهم بطابعها فكانت عيشتهم نفسها أشبه شيء بحلم متعاقب جميل. يقضي أهل المدينة المرحون أيامهم ولياليهم برقصات الفالس والغزل وتبادل الأحاديث الطلية الرقيقة في المشارب والمقاهي الهادئة وينصتون الى الموسيقى ويشاهدون التمثيليات في المسارح ودور الأوبرات والأوبريتات ويتناجون ويتعاطون أفانين الحب منفقين الجانب الأكبر من حياتهم في اللهو والأحلام.

وما لا مفر منه أن تُساس هذه الإمبراطورية المترامية، ولهذا وُجد جيش وأسطول وخطوط مواصلات حسنة وأعمال تجارية رائجة وحرف وصناعات لكن قلّ من عمل ساعات إضافية من أهالي فيينا. أو حتى من قضى دواماً كاملاً في عمله.

وتم بالطبع الجانب المظلم القبيح من الصورة. فللمدينة فقراؤها الذين يعيشون في أحقر البيوت ويرتدون الأسمال ولايسدون رملهم كسائر المدن الأخرى. على إنها كانت مدينة بطرة مرفهة وأعظم مركز صناعي في أواسط أوروبا فضلاً عن كونها عاصمة إمبراطورية. كان ثراؤها يهطل كالطر على الناس مدراراً ثم يرشح منه القليل الى الأسفل. فكتلة الطبقة الوسطى العظيمة كانت مسيطرة على المدينة سيطرة سياسية تامة. وكان ميدان العمل ينتظم في نقابات وفي حزب سياسي خاص به. هو "الحزب الإشتراكي الديمقراطي". هنالك خميرة تعمل في حياة المدينة التي تعد من السكان مليونين. فقد إنطلقت الديمقراطية لتندفع أوتوقراطية آل هابسبورگ العتيقة الى الخلف وفتحت الثقافة والتعليم أبوابهما للجماهير حتى كان متاحاً لأي فتى خالي الوفاض أن ينال تعليماً عالياً أو يظفر بمورد رزق حسن ويعيش كما يعيش مليون من العمال الأجراء في الظل الوارف الحضاري الذي أسبغته العاصمة على سكانها. تلك هي الحالة في فيينا عندما دخلها هتلر في العام ١٩٠٩، ودونك صديقه الأوحده (كوبيتشك) الذي يساويه فقراً وضعةً أما تراه كيف يكون نفسه تكويناً حسناً في أكاديمية الموسيقى؟ ولم يخفف هتلر الشاب من غلوائه في محاولته دخول مدرسة الهندسة المعمارية وهي ما برحت مفتوحة الأبواب أمامه رغم إفتقاره الى شهادة البكلوريا. فالذين يظهرون مواهب خاصة يُقبلون بصرف النظر عن الشهادة. إلا أنه لم يتقدم بطلب على قدر ما علمنا ولم يكن مهتماً بمزاولة حرفة خاصة أو مباشرة أي عمل منتظم، وفضل التنقل من عمل الى آخر لا يتسم بطابع الإستمرار، كجرف أكداش الثلج

ونفض السجاد وحمل حقائب المسافرين من محطة سكة الحديد الغربية، وزاول عمل البناء بضعة أيام. وفي تشرين الثاني ١٩٠٩، بعد أقل من عام على وصوله فيينا "لتجربة حظوظه" - أجبر على ترك غرفته المفروشة في حي سيمون دنك غاسه Simon Denk Gasse. وبقي يعيش طوال السنين الأربع التالية في بيوت تدفع أجور غرفها يومياً أو منازل توازيها وضاعة من الأحياء الدنيا في "منطقة ٢٧- ملدمانستراره Meldmannstrasse العشرين" من فيينا بالقرب من الدانوب. يحتال على سد رمقه بتناول الشوربا المجانية من مطابخ البلدية الخيرية.

ولا عجب أن وجدناه يكتب بعد عشرين سنة ما يلي: "يرى كثير من الخلق أن فيينا هي موطن اللهو البريء ومصدره، وساحة عيد لطلاب اللهو والقصف. إلا أنها تمثل لي ذكرى حية لأكأب فترة من حياتي". وإلى هذا اليوم لاتشيع المدينة في نفسي غير ذكريات حزينة، فإسم هذه العاصمة الروائي Phaeacial يعني عندي خمس سنوات من الضنى والشقاء. خمس سنوات اضطرت فيها الى كسب رزقي كعامل بأجر يومي ثم نقاش أصباغ صغير. وما كنت أحصل عليه لا يكفي لتهدئة جوعي اليومي" (٤٢).

"في تلك الأيام كان الجوع زميلي الدائم... كان الجوع في ذلك الزمن حارسي الأمين الخاص. لايتركني لحظة واحدة. يشاركني كل ما لدي. كانت حياتي كفاحاً مستمراً مع هذا العشير غليظ القلب" (٤٣).

ومع ذلك كله فلم يلجئه هذا الضيق الى بذل جهد كبير لإيجاد عمل منتظم وقد أوضح السبب لتقاعسه في كفاحي بقوله أنه كان يشعر بخوف البرجوازي الصغير من الإنحدار الى وهدة البروليتاريا والتسقل الى طبقة الشغيلة الكادحين وهو خوف كان ينهش قلبه وقد إستغله فيما بعد لبناء حزبه الاشتراكي القومي على أسس واسعة من هذه الطبقة التي لايقودها أحد، الطبقة المهملة ذات الياقة البيضاء والرزق القليل التي كانت ملايينها تتلذذ بالوهم المضحك في أنها أسمى إجتماعياً من طبقة العمال على الأقل!

ومع ذكره أنه إعتد في رزقه مدة من الزمن على عمله "نقاشاً صغيراً" إلا أنه لايزودنا في سيرته بأية تفاصيل، خلا قوله أن حالته المالية تحسنت بين سنتي ١٩٠٩-١٩١٠ ولم يعد مضطراً لمزاولة الأعمال اليدوية البسيطة. قال: "في ذلك الزمن كنت أزاول عملاً مستقلاً، كنت رساماً صغيراً ونقاشاً بالألوان المائية" (٤٤).

في هذا القول بعض التضليل كغيره مما ورد كثيراً في (كفاحي) عن سيرته الخاصة. ومع أن الأدلة التي عرضها من عرفه في ذلك الزمن لاتبدو أكثر صدقاً مما ذكره هو. فما جُمع من هذه المسائل إن يُلصق بعضه ببعض - يكفي ليقدم صورة قد تكون أدق، هي بالتأكيد أكمل (٤٥).

٤٢- المرجع السالف، ص ٢١.

٤٣- المرجع السالف، ص ٢١-٢٢.

٤٤- المرجع السالف، ص ٣٤.

٤٥- أنظر: "نهاية خرافة هتلر" لمؤلفه جوزيف غراينر Josef Gereiner الذي كان يعرف هتلر معرفة شخصية لفترة من =

لم يكن أدولف هتلر نقاش بيوت كما عاب عليه خصومه. وهو من الأعمال شبه الشابتة أو بكلمة أخرى ليس هناك دليل على مزاولته تلك الصنعة، وكل ما عمله هو رسم لوحات ساذجة صغيرة لمناظر قيينا تلوح فيها البنايات المشهورة مثل "كاتدرائية القديس إستفان" و"دار الأوبرا" وقصر شوينبورن Schoenburn" والخرائب الرومانية في حديقة شوينبورن. وعلى ما يقوله أصدقائه أنه كان يستنسخها عن صور ورسوم أخرى ويظهر أنه كان عاجزاً عن النقل رأساً من الطبيعة. وصورة تميل إلى الجمود مستطيلة مثل تصاميم مهندس معماري، مضطربة، غير متقنة بل تقريبية تتسم بطابع الإهمال أما أشكال الناس التي يحشرها فيها أحياناً فهي سيئة الرسم إلى الحد الذي تذكر المرء بصور الكاريكاتور الصحفية. وقد وجدت ملحوظة كنت قد دونتها مرة على إثر تقليبي محفظة فيها رسوم هتلر الأصلية "وجه قليلة فجحة. وجه واحد يشبه الغول". ويصف "هايدن" أشكال الأشخاص بقوله "إنها تقف مثل غرارات محشوة خارج قصور فخمة شامخة" (٤٦).

وربما كان هتلر يبيع هذه اللوحات التافهة من صغار التجار، لتزين الجدران، أو من أولئك الباعة الذين يضعونها في إطارات خالية معدة للبيع أو من صناع الأرائك الخشبية والمقاعد لتثبيتها وراء معروضاتهم الرخيصة من الكراسي والأرائك السائدة آنذاك. وأمكن هتلر أن يوسع نطاق تجارته برسم صور إعلانات للبقالين عن بضائعهم مثل المنتجات والمستحضرات: مسحوق تيدي Teddy المعروف. وثم إعلان واحد أكسبه قليلاً من المال في عيد الميلاد كان قد رسمه وهو يمثل (سانتا كلوز) يبيع شموعاً ملونة بألوان زاهية وثم إعلان آخر يمثل برج كنيسة "سان إستيفان" الغوطي الذي لم يكل هتلر عن إستنساخه - خارجاً من كومة من قوالب الصابون. ذلك هو مدى إنجازات هتلر الفنية. ومع ذلك فقد ظل يعتبر نفسه فناناً إلى آخر حياته.

كان يبدو بلاشك مثل (الكاولي) في سنوات التشرد بقيينا. والذين عرفوه يومذاك لا بد يذكرونه بمعطفه الأسود الطويل الرث المنسدل حتى كاحليه، الشبيه بالقفطان. وكان قد تكرم عليه بائع ثياب مستعملة يهودي هنغاري من أولئك البائسين زملائه الذين يسكنون تلك الفنادق الحفيرة فأصبح له صديقاً بحكم الجيرة وهم أيضاً يتذكرون بنظرونه الأسود كثير البقع الذي كان لا ينزعه على مدار السنة وكان يسرح شعره الوبري اللون إلى أسفل ليغطي بعض جبينه وظل مقيماً على ذلك فيما بعد. وكان يدفع بقسم منه إلى الخلف مشعثاً فوق ياقته القذرة. ونادراً ما بدا حليق الشعر أو الذقن. وكانت وجنتاه وذقنه يكسوها الشعر الأسود النابت كأنه بداية لحية. وإن نحن صدقنا "هانش" الذي أصبح فيما بعد فناناً متوسط الشهرة. فإن هتلر كان يشبه طيفاً ندر مثيله بين عالم النصارى (٤٧).

= حياته في قيينا. وأنظر أيضاً "هتلر البيدق" لمؤلفه رودولف أولدن Rudolf Olden. ويتضمن هذا الكتاب أقوالاً عن راينهولد هانش Reinhold Hanisch. وهو متشرد من بلاد السوديت كان زميلاً لهتلر في إحدى غرف منازل الإيجار اليومية للرجال. وكان يبيع صور هتلر عن طريق الدلالة. ومنه أيضاً إقتبس كونراد هايدن في كتابه (الزعيم) وقائع المحكمة الخاصة بالدعوى التي رفعها هتلر على المتشرد لغشه في سهمه من ثمن بيع اللوحات التي زعم هانش أنه كان يبيعها لحساب هتلر.

٤٦- هايدن "الزعيم" ص ٥٤.

٤٧- المرجع السالف، ص ٦٨.

وخالف سلوك بعض الشباب المحطمين الذين كان يعايشهم في أنه إبتعد عن رذائل الشباب المعروفة. فلم يكن يدخن. ولا يقرب النساء لا لشذوذ جنسي فيه، بل لحياء طبيعي على قدر ما علمنا. وذكر في (كفاحي) بلمحة نادرة من لمحات النكتة: "أعتقد أن من عرفني في تلك الأيام توهمني شخصاً شاذاً"^(٤٨).

تذكّر هؤلاء كما تذكّر معلومه تلك العينين الواسعتين النفاذتين الحادثتين اللتين تبرزان على كل قسمات الوجه وتعبران عن شيء كامن في شخصيته تناقض الهيئته الزرية لمتشرد قذر رث الثياب. كما تذكروا أن الشاب على كسله في العمل الجسدي، قاريء نهم يقضي جل أيامه ولباليه في إلتهاام الكتب.

"في ذلك الزمن كنت كثير المطالعة بشوق وإستغراق وقد أوقفت على دراساتي كل وقت فراغي المتخلف لي من العمل وبهذه الوسيلة بنيت في سنين قليلة أسس المعرفة التي مازلت أمتح من معينها حتى اليوم"^(٤٩). وهو يشرح في (كفاحي) فن القراءة فيقول:

"وبالقراءة أعني ولاشك، قارئاً يختلف عن الرجل العادي المعروف لدينا بإسم المشقف (الإنتلجنسيا). لقد عرفت أناساً يقرأون كثيراً جداً... ومع هذا فهم في رأيي ليسوا بالقارئين الجيدين. صحيح أنهم يختزنون مقداراً هائلاً من المعارف. إلا أن أدمغتهم عجزت عن تنظيم المواد التي إختزنوها وعن هضمها. ومن ناحية أخرى فمن ملك ناصية فن القراءة الصحيح سوف يدرك بالغريزة وبأسرع ما يمكن، كل ما يستأهل الحفظ دائماً. إمّا لأنه يتفق وأغراضه، وإمّا لأنه يستحق المعرفة بصورة عامة... إن فن القراءة مثل فن التعلم - وهو هذا: الإحتفاظ بكل ما هو جوهري ونسيان ما هو غير جوهري... وهذا النوع من القراءة هو وحده ذو غاية وذو معنى... وينظري الى فترة إقامتي في فيينا من هذه الزاوية فإني أجدها خصبة قيّمة"^(٥٠).

قيّمة لأي غرض؟ كان جواب هتلر على هذا أنه تعلم من القراءة ومن حياته مع الفقراء المعدمين في فيينا كل ما إحتاج الى معرفته لحياته القادمة.

"كانت فيينا ومازالت أقسى مدرسة في حياتي وأوسعها أفقاً. وضعت قدمي في المدينة وأنا شبه فتى وغادرتها وأنا رجل هاديء رزين. في تلك الفترة بدأ يتجسم في مخيلتي رسم للعالم وفلسفة أصبحت فيما بعد الأساس الصواني لكل تصرفاتي. وكان علي أن أتعلم قليلاً بالإضافة الى ما خلقت. ولم أغير شيئاً"^(٥١).

ماذا علمته مدرسة الحياة القاسية التي وضعتها فيينا أمامه بكل سخاء؟ ما هي الآراء التي إكتسبها هناك من المطالعة، ومن تجاربه التي ستبقى على حد قوله - ثابتة بجوهرها الى الأخير؟ أما وأن معظمها كان ضحلاً مهلهلاً، شاذاً في كثير من الأحيان لا يقبله العقل، مسموماً بنقيع التحامل

٤٨- كفاحي، ص ٣٤.

٤٩- المرجع السالف ص ٢٢

٥٠- المرجع السالف، ص ٣٥-٣٧.

٥١- المرجع السالف، ص ٢٢ و ١٢٥.

المستهجن. فهذا ما قدر أن يكون واضح المعالم لأي إختبار سطحي بسيط جداً. على أنها هامة لتاريخي هذا كما هي هامة للعالم لأنها الجانب الشكلي للأسس التي بنى عليها الرايخ الثالث ذلك الصرح الذي لن يعتمد أن يبدأ هذا المنتشر كثير القراءة بإشادته.

-5-

براعم آراء أدولف هتلر

باستثناء واحد منها، لا يمكن أن تعتبر أصيلة، وإنما التقطت مادةً أوليةً من مخيض لبن السياسة النمساوية. وحياة السنوات الأولى من القرن العشرين. كان النظام الملكي على ضفاف الدانوب يلفظ أنفاسه الأخيرة بعلة سوء الهضم، فقد ظلت أقلية من الألمان النمساويين أجيالاً بطولها تحكم إمبراطورية متعددة اللغات والشعوب. وفرضت على هذه الشعوب لغتها وثقافتها. إلا أن قبضتها بدأت تتراخى منذ العام ١٨٤٨ ولم يعد في الإمكان هضم الأقليات. لأن النمسا لم تكن قدراً صالحاً للإذابة. وفي عام ١٨٦٠ شق الطليان عصا الطاعة. وفي عام ١٨٦٧ نال المجرىون المساواة السياسية بالألمان تحت ما يسمى بالعرش الثنائي. ولم تطلع شمس القرن العشرين إلا وتملتت الشعوب السلافية المختلفة كالچيك والسلوفاك والصرب والكروات وغيرها وراحت تنادي بالمساواة أو بالحكم الذاتي القومي على أقل تقدير. وأصبحت الحياة النمساوية تسودها شحنة عنيفة بين القوميات. ولم يكن هذا كل شيء. فالعالم في ثورة إجتماعية أثلورة التي كثيراً ما فاقت النضال القومي عنفاً. فأخذت الطبقات الدنيا المحرومة من حق الإقتراع تطالب بحقوقها هذا. وراح العمال يطالبون بحق التنظيم النقابي وحق الإضراب للحصول على زيادة في الأجور وشروط عمل أفضل بل طالبوا بحقوقهم السياسية والديمقراطية. وحقق إضراب عام نتائجه المرجوة فمُنح حق الإقتراع للذكور وبهذا إنتهت السيادة السياسية للألمان النمساويين الذين لم يكن مجموعهم يزيد على ثلث المجموع العام في الجزء النمساوي من الإمبراطورية.

كان الشاب القومي النازح من لينز يعارض هذه التطورات معارضة شديدة، ويرى أن الإمبراطورية تغرق في "حماة مستنقع قذر" ولا يمكن إنتشالها إلا إذا استعاد الشعب الألماني المختار السيد سلطته المطلقة أما الشعوب غير الألمانية ولاسيما السلاف- وبخاصة الچيك، فهي شعوب منحطة ومن واجب الألمان أن يحكموها بيد من حديد. ومن الضروري إلغاء البرلمان ووضع حد نهائي لكل هذا الهراء الديمقراطي. ومع أنه لم يساهم قط في شؤون السياسة، إلا أنه كان يتابع نشاط الأحزاب السياسية الثلاثة الكبرى في النمسا وهي: الحزب الديمقراطي الاشتراكي، والحزب الاشتراكي المسيحي، وحزب كل ألمانيا القومي. وبدأت تتكون في رأس هذا الأشعث الأغبر كثير التردد على مطابخ البلدية الخيرية حدة ذهن سياسية ساعدته على أن يرى بوضوح مدهش مواطن الضعف والقوة في الحركات السياسية المعاصرة وأهلته عند نضوجها الى تبوء مركز أشد سياسيي ألمانيا دراية وحكمة.

إحتك أولاً بالديمقراطي الاشتراكي فنشأ فيه بغض عميق لهذا الحزب وقال: "وما زادني إشمئزازاً منه موقفه العدائي من العمل للمحافظة على الروح الألمانية ومداراته المشينة للرفاق السلاف. لقد حصلت في أشهر قلائل على ما يحتاج تحصيله الى عشرات السنين: قحبة^(٥٢) ذات داء وبيل تتجلبب بشوب الفضيلة الاشتراكية والمحبة الأخوية"^(٥٣).

ومع هذا كله فقد كان بدرجة من الذكاء بحيث قنع شعوره بالسخط على حزب الطبقة العاملة هذا، كيما يفحص بدقة أسباب نجاحه الجماهيري. ثم إستنتج عدة أسباب لذلك، وقد تذكرها في السنوات التالية وإستفاد منها في بناء الحزب القومي الاشتراكي الألماني. وذكر في (كفاحي) أنه شاهد يوماً مظاهرة عمالية في فيينا: "بقيت ساعتين كاملتين أحرق بعين لا تريم وأنفاس مبهورة في ذلك التين البشري الجبار يمر ببطء. وأخيراً تركت موقفني وفي نفسي هياج عنيف وجررت قدمي جراً الى المنزل"^(٥٤).

وفي منزله راح يقرأ أدبيات الديمقراطيين الاشتراكيين وينعم النظر في خطب زعمائهم وتدارس أساليب تنظيمهم ويطيل التفكير في تكتيكهم السياسي والسايكولوجي. ويتأمل في النتائج ليخرج منها بثلاث فسرت له سر نجاحهم: الأولى؛ أنهم عرفوا كيف يخلقون حركة جماهيرية لولاها لايسوى الحزب السياسي شروى نقيير. والثانية؛ أنهم أتقنوا فن الدعاية بين الجماهير. والثالثة؛ أنهم عرفوا قيمة إستخدام ما أطلق عليه عبارة "الإرهاب الروحي والجسدي".

هذا الإستنتاج الثالث المبني بالتأكيد على سوء فهم وخطأ في الملاحظة مختلطاً بتعامله الكبير. إستهوى هتلر الشاب وأوقعه في إساره. وقدر له بعد عشر سنوات أن يضعه موضع التنفيذ النافع ليصل به الى غاياته. "لقد تفهمت الإرهاب الروحي الذي قام به هذه الحركة ولاسيما على الطبقة البرجوازية التي لم تكن كفوءة عقلياً أو أدبياً للتصدي لأمثال هذه الهجمات. فهي بإشارة واحدة تطلق أساطيل من الأكاذيب والتهم والإفتراءات على أي خصم ذي خطورة، حتى تتحطم أعصاب الأشخاص الذين إستهدفتهم الحملة... ذلكم هو التكتيك المبني على حساب دقيق لكل موطن من مواطن الضعف البشري في الإنسان. وهو يؤدي حتماً الى النجاح... بالدقة التي تعرضها المسائل الحسابية...

وتوصلت الى إدراك مماثل لأهمية الإرهاب الجسدي الواقع على الفرد والجماهير... ففي الوقت الذي يُجعل من النصر الناجز أمام أشياعهم نصراً لعدالة قضيتهم. تجد خصمهم المغلوب في معظم الأحوال يائساً من النجاح مقتنعاً بعبث أي مقاومة"^(٥٥). لم يكتب قط تحليل دقيق مثل هذا التحليل عن التاكتيك النازي - كما طوره هتلر أخيراً.

٥٢ - هذه اللفظة حُذفت من الطبعة الثانية (لكفاحي) وما تلاها ووضع بدلها "وبيئة".

٥٣ - المرجع السالف، ص ٣٨-٣٩.

٥٤ - المرجع السالف، ص ٤١.

٥٥ - المرجع السالف، ص ٤٣-٤٤.

هناك حزبان سياسيان كانا يجتذبان هتلر المستجد اجتذاباً قوياً. وإليهما عزا تنامي قوى ذكائه وتحليله الهاديء الصلب، فقال: "كان أول ولائي لحزب (كل القوميين الألمان) الذي أسسه "جورج ريتير ثون شوينرر George Ritter Von Schoenerer" الذي نزح من إقليمه نفسه قرب شبيتال من النمسا السفلى كأسرة هتلر. في ذلك الحين كان يخوض غمار معركة خندقية للسيطرة الألمانية في الإمبراطورية المتعددة القوميات. ومع إن هتلر وجد (شوينرر) مفكراً عميقاً واعتنق مبادئه منهاجاً بحماسة وهو المنهاج المتعصب للقومية والعدو للدود للإشتراكية والسامية والمناهي بالوحدة مع ألمانيا. والمعارض لآل هابسبورگ، إلا أن هتلر استطاع بسرعة أن يقدر أسباب فشل الحزب. "إن عجز هذه الحركة عن تقدير أهمية المشاكل الإجتماعية، أدى بها الى خسارة الكتل الجماهيرية المناضلة. وإن دخولها البرلمان جردها من قوتها الدافعة الجبارة وحملها أعباء كل مواطن الضعف الغربية عن روحها الأصيلة. وإن إعلانها الحرب على الكنيسة الكاثوليكية... سلب منها ما يفوق حصره من العناصر التي يدعيها القومي لنفسه" (٥٦).

ومن الدروس التي تلقاها في سني إقامته ثمة، ونسيها عندما تولى زمام السلطة في ألمانيا، ما شدد عليه في كفاحي وفصله بإسهاب وهو: "عقم المحاولة التي يقوم بها الحزب السياسي لمحاربة الكنائس المسيحية" بصرف النظر عن ميدان الإنتقاد الفسيح في أي طائفة من الطوائف الدينية. وقال إثباتاً لخطأ خطة (شوينرر) المعروفة بـ"بعداً عن روما Los-Von-Rom":

"يجب أن لا يغيب عن بال الحزب لحظة واحدة أن الفشل سيكون حليفه إذا تقدم بمنهاج للإصلاح الديني" (٥٧).

إلا أن غلطة هذا الحزب العظمى في نظره، هو فشله في إثارة حماسة الجماهير وعجزه التام عن فهم نفسية مجموع الشعب. ومن إجماله للآراء التي بدأت تتخذ شكلها التام في ذهنه حين لم تكن سنّه تزيد عن الحادية والعشرين يظهر أنه كان الخطأ الأساسي. ولهذا لم يكرره بل تحاماه عندما أسس حزبه السياسي.

هنالك غلطة أخرى لم يرتكبها هتلر، وهي فشل الحزب في كسب عطف مؤسسة قوية واحدة على الأقل من مؤسسات البلاد، فإن لم تكن الكنيسة فالجيش، أو الحكومة، أو فليكن رأس الدولة. إن لم تكسب الحركة السياسية دعماً كهذا، يصعب عليها بل يتعذر أن تقيض على زمام السلطة وهذا ما تبيّنهُ آنذاك، وكان الشيء الذي أَمَنهُ لحزبه بالضبط بسعة حيلة وتفكير ثاقب في أيام شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٣ العصبية في برلين وهو الذي مكّنه ومكّن حزبه من السيطرة على شعب عظيم.

كان يوجد في أيام هتلر بقيينا زعيم سياسي واحد فقط يدرك هذا الأمر، فضلاً عن إدراكه ضرورة بناء الحزب على دعامة جماهيرية. ألا وهو الدكتور كارل لوغر Karl Lueger عمدة فيينا، وزعيم الحزب الإشتراكي المسيحي الذي أصبح معلّم هتلر الأعظم وإن لم يلتقيا. ظل يرى فيه: "أعظم رئيس بلدية

٥٦- المرجع السالف، ص ١١٦-١١٧.

٥٧- المرجع السالف، ص ١١٨.

ألماني في كل زمان. رجل سياسة بذّ كل من يسمى "بالدبلوماسيين" في عصرنا الحالي... لو عاش الدكتور كارل لوغر في ألمانيا لوضع في مصاف أعظم الأدمغة التي أنجبتها أمتنا"^(٥٨).

ومما لاشك فيه أنه يوجد بعض شبه بين هتلر المستقبل وبين معبود طبقة قيينا الأدنى من الوسطى ذلك الرجل المرح الماكر البدين. حقاً إن (لوغر) أصبح من أقوى ساسة النمسا بوصفه رئيس حزب يستمد قوته من الطبقة البرجوازية الصغيرة الساخطة جمع رأس ماله السياسي - كما فعل هتلر فيما بعد - من شنشة المعاداة للسامية. على أن (لوغر) الذي نشأ نشأة متواضعة وشق طريقه في الجامعة شقاً، كان واسع الثقافة يقرّ خصومه ومنهم اليهود أنه رجل طاهر النفس شهم كريم متسامح. (وشهد ستيفان سفايگ (Stefan Zweig) الكاتب النمساوي اليهودي الطائر الصيت الذي بدأ اسمه يلمع آنذاك في قيينا بأن (لوغر) لم يكن يسمح بعدائه الرسمي لليهود أن يحول بينه وبين صداقته لهم ومساعدتهم. وذكر سفايگ أن "إدارته لموافق المدينة كانت إدارة أمينة عادلة تماماً، لا بل كانت تتسم بطابع ديمقراطي مثالي... واليهود الذين إهتزوا فرقاً لفوز حزبه المعادي لهم ظلوا يعيشون كما كانوا محتفظين بحقوقهم ومكانتهم كما عاشوا دائماً"^(٥٩).

وهذا ما كان يكرهه فيه هتلر، فقد وجد (لوغر) متسامحاً أكثر مما ينبغي لا يقدر مشكلة اليهود العنصرية تقديراً صائباً. ونعى عليه فشله في تبني وإعتناق فكرة الوحدة الألمانية القومية وكان يشك في أنه يميل الى رجال الدين الكاثوليك البابويين، كذلك خالجه الشك في إخلاصه لآل هابسبورگ. ألم يرفض الإمبراطور الشيخ (فرانز جوزيف) مرتين متتاليتين المصادقة على تعيين لوغر عمدة للمدينة؟ على إن هتلر لم يسعه إلا الإقرار بعقوبة هذا الرجل الذي عرف كيف ينال عطف الجماهير الشعبية. ويتفهم المشاكل الإجتماعية لعصره. ويدرك أهمية الدعاية والخطابة في إلهاب مشاعر الجمهور، ولم يكتفِ إعجابه بطريقة تعامله مع الكنيسة القوية الشكيمة: "لقد رسم سياسته بحذق لا مزيد عليه" وكان "سريع الإفادة من كل الوسائل المتيسرة لكسب ود الهيئات والمؤسسات ذات التاريخ المديد. حتى يستمد من هذه المصادر ذات السلطان العريق أعظم ما يمكن من العون لحزبه"^(٦٠). "هاهنا... في قمع جورة تجتمع كل الآراء والتاكتيك التي إستخدمها هتلر فيما بعد لبناء صرح حزبه السياسي وقيادته الى الظفر بالسلطة في ألمانيا. وأصالته تكمن في أنه السياسي اليميني الوحيد الذي طبقها في الميدان الألماني السياسي. فقد كان الحزب النازي الوحيد بين الأحزاب اليمينية والقومية الذي نجح في الإستئثار بأتباع من سواد الشعب. وبعد تحقيقه هذا المطلب راح يكسب ثقة الجيش، ثم ثقة رئيس الجمهورية، وأخيراً ثقة المؤسسات التجارية الضخمة "المؤسسات ذات الجذور التاريخية العريقة" التي مارست سلطاناً عظيماً. وهذا الذي أوصله الى منصب مستشار ألمانيا. إن الدروس التي تلقاها في قيينا كانت مفيدة حقاً.

كان الدكتور (كارل لوغر) خطيباً مفوهاً لسنناً. وحزب كل ألمانيا القومي كان يعوزه خطباء شعبيون

٥٨- المرجع السالف، ص ٥٥، ٦٩، ١٢٢.

٥٩- إستيفان سفايگ "عالم الأمس" ص ٦٣.

٦٠- كفاحي، ص ١٠٠.

ذوو تأثير. وقد لاحظ هتلر هذا النقص وأكد في (كفاحي) أهمية الخطابة في ميدان السياسة تأكيداً شديداً. "القوة التي كانت تدفع بأعظم الموجات الدينية والسياسية في التاريخ هي دائماً قوة النطق السحرية بالكلمة..." و"لا يمكن تحريك أوسع الجماهير إلا بقوة الكلمة، والحركات العظيمة كلها كانت حركات جماهيرية، انفجارات بركانية لعواطف البشر وأحاسيسهم ونوازعهم يؤججها ويزيد سعارها أحد عاملين: إما آلهة العذاب القاسية أو نار الكلمة المضطربة التي تقذف بها الجماهير. إن الكلمة ليست شرية ليمون يصيبها صباً هيئاً أولئك المتأدبون من المتحررين فكراً أبطال قاعات الإستقبال الميامين"^(٦١). ومع إباطه المساهمة فعلياً في سياسة الأحزاب، إلا أنه شرع يدرّب نفسه على الخطابة أمام كل من وجد في دور إيجار فيينا، والمطاعم المجانية ومنعطفات الأزقة. وتسنى له أن يصقل موهبته هذه ويبلغ بها حد الإبداع والسحر المبين، وهو ما يشهد له به المؤلف الذي إتفق له وسمع عشرات من أهم خطبه. سحر لا يدانيه فيه خطيب ماثل في ألمانيا ما بين الحربين، يمكن أن يعزى إليه فضل كبير لنجاحه المدهش.

ويأتي اليهود في آخر قائمة تجاربه في فيينا. "في لينز يوجد من اليهود قلة. وفي بلدي لا أذكر أنني سمعت هذه الكلمة طول ما كان أبي في قيد الحياة" وفي الثانوية كان يوجد فتى يهودي "إلا أننا لم نكن نعلق أي أهمية على الأمر... حتى إنني كنت أتوهمهم (أي اليهود) ألمانيا"^(٦٢).

ونحن لانراه صادقاً في هذا إذا قورن كلامه بما كتبه صديقه (أوغست كويتشيك) مستعيداً ذكرى أيامهما معاً في لينز: "عندما إلتقيت بأدولف هتلر لأول مرة كان عداؤه لليهود واضحاً. ووجدته خصماً عنيداً للساميين عندما نزحنا الى فيينا. وربما كانت تجاربه في هذه المدينة سبباً في تعميق هذا العداء على أنها لم تكن عامل خلقها فيه"^(٦٣).

يقول هتلر: "ثم حللت في فيينا... وأنا مشغول الفكر بالكثير من إنطباعاتي الأولى... يزهد شظف العيش أنفاسي ويمسك بخناق، فلم أستطع النفوذ بفكري الى أغوار مشاعر الناس في هذه المدينة الضخمة. ومع أن مائتي ألف يهودي كان بين سكانها الذين يناهزون المليونين إلا أنني لم أتبيّنهم... إن اليهود لا يمثلون لي أشخاصاً إلا بديانته. لذلك رفضت الحملات الدينية عليهم على أسس من التسامح الإنساني. فهي كغيرها من الحملات الدينية الأخرى لا قيمة لها. وبدت لي لهجة صحافة فيينا المعادية لهم تافهة لا تسمو الى التقاليد الثقافية لأمة عظيمة"^(٦٤).

وذكر هتلر إنه كان يتجول يوماً ما في قلب المدينة: "... وإذا بي وجهاً لوجه أمام شيخ يرتدي قفطاناً أسود تتدلى من قمّة رأسه ظفيرة شعر سوداء. وكان أول ما تبادل الى ذهني أن تساءلت أهذا هو يهودي؟ إذ لا أكتسك أنهم لا يظهرون في لينز بهذا الزي. أخذت أنعم النظر بتأنٍ وحذر وكلما طال تحديقي في هذا الوجه الأجنبي مقارناً سيماً بسيماءٍ وقسماتٍ بقسماتٍ وجدت تساؤلي الأول يتخذ

٦١- المرجع السالف، ص ١٠٧.

٦٢- المرجع السالف، ص ٥٢.

٦٣- كويتشيك المرجع نفسه، ص ٧٩.

٦٤- كفاحي، ص ٥٢.

قالاً مختلفاً حتى رأيتني أقول: أهذا هو ألماني؟" (٦٥)

لا يصعب على المرء أن يحزر جواب هتلر. غير أنه إدعى قبل الجواب أنه قام "بمحاولة تبديد شكوكي بمراجعة الكتب" وسرعان ما دفن نفسه في الأدبيات المعادية لليهود والسامية التي كانت تباع في قبينا على أوسع نطاق. ثم إنطلق يتجول في الطرقات لملاحظة هذه الظاهرة "بدقة أكثر". يقول: "إنني صرت أرى يهوداً أتى سرت وكلما كثرت مشاهداتي كلما ازدادوا وضوحاً في عيني وإختلافاً عن سائر البشر... وأخيراً صرت أصاب بغثيان وبميل إلى القيء بمجرد وصول رائحة أصحاب القفطين هؤلاء إلى خياشيمي" (٦٦). وقال بعدئذ أنه إكتشف "لطخة العار الخلقية في هذا الشعب المختار... أهنك أي شكل من أشكال الدعارة والفجور ولاسيما في الحياة المثقفة خلت من يهودي واحد على الأقل؟ وإن أنت حزت في هذا الدمل بمضعك حزاً دقيقاً لما وجدت إلا كيكه مثل دودة في جسم متفسخ كثيراً ما يبهرها النور الفجائي!". وهم على حد قوله أول المسؤولين عن الدعارة وسوق النخاسة الأبيض. "لما وجدت لأول مرة في حياتي أن اليهودي يدير هذه التجارة الفاسقة المخزية بقسوة وغلاظة قلب وبدون إحساس بالعار وبحساب دقيق في أرجاء هذه المدينة العظيمة شاعت في فقرات ظهري قشعريرة باردة" (٦٧).

في كثير من هذيان هتلر عن اللاسامية، تجدد قدرماً من مرض الإنحراف الجنسي، وهو الطابع العام الذي كان يدمغ صحافة قبينا آنذاك. كما أصبحت فيما بعد الطابع الداعر المفحش لجريدة نورمبرغ الأسبوعية المسماة در شتورمر Der Stürmer التي يصدرها واحد من أخلص أصدقاء هتلر هو يوليوس شترايخر Julius Streicher زعيم الحزب في منطقة فرانكونيا Franconia وهو شخص عرف بالإنحراف الجنسي، وبأنه من أقذر شخصيات الرايخ الثالث. وزخر (كفاحي) بأضاليل تافهة عن الساميين البرابرة الذين يغدرون بالفتيات المسيحيات البريات، فيزنون بدمائهن. وإستطاع هتلر أن يكتب عن "كابوس مريع يتمثل بإغراء مئات الألوف من الفتيات من قبل أولئك اليهود النغولة ذوي الأرجل المقوسة والسحن القبيحة" ويعلل (رودولف أولدن) جذور عداة هتلر للسامية إلى حسده الجنسي المعبذ، وكان وهو في مقتبل العقد الثالث لم يعرف عنه أنه إتصل إتصلاً جنسياً بأي صنف من النساء خلال إقامته في قبينا.

يقول: "وبدأت أبغضهم شيئاً فشيئاً... كان هذا الزمن قد تمخض لي بأعظم ثورة روحية عانيتها. فلم أعد حضرياً واهي الركبتين وأصبحت لاسامياً" (٦٨).

وقدر له أن يبقى على تعصبه الأعمى إلى النهاية المريرة. فأخر وصية له كتبها قبل أن يلاقي حتفه ببضعة ساعات تضمنت آخر إنفجاراته ضد اليهود حين حملهم مسؤولية الحرب التي بدأها هو وختمت على مصيره وأنهت حكم الرايخ الثالث. كُره جائح سرت عدواه إلى كثير من الألمان في تلك

٦٥- المرجع السالف، ص ٥٦.

٦٦- المرجع السالف، ص ٥٦-٥٧.

٦٧- المرجع السالف، ص ٥٩.

٦٨- المرجع السالف، الص ٦٣-٦٤.

الإمبراطورية وأدى بالأخير الى مجزرة بلغت فظاعتها وسعة رقعتها الى الحد الذي تركت ندبة قبيحة شنعاء في وجه الحضارة البشرية ستظل باقية ما بقي البشر على وجه الأرض.

في ربيع عام ١٩١٣ ترك هتلر فيينا نهائياً وأقام في ألمانيا "حيث يقيم قلبه" دائماً على حد تعبيره. وكان في الرابعة والعشرين يبدو فاشلاً في الحياة لكل إنسان خلا نفسه. فهو لم يَعدُ رساماً ولا مهندساً معمارياً. لم يكن شيئاً كما هو جلي وظل متشرداً غريب الأطوار كثير المطالعة عديم الأصدقاء والأسرة لا علم له ولا بيت ولا يملك شيئاً سوى ثقة في نفسه لاتتزعزع. وشعور عميق محرق برسالته.

ربما كان تركه فيينا للتملص من الخدمة العسكرية فيها^(٦٩) ليس لجبن فيه، بل لأنه كان يكره الخدمة في صفوف جيش يضم أشتاتاً من اليهود والسلافي وغيرهم من الأقليات القومية في الإمبراطورية. وذكر في (كفاحي) أن نزوحه الى مونيخ كان في ربيع ١٩١٢ وهو في ذلك مخطيء لأن سجل الشرطة يشير الى أنه كان مقيماً في فيينا حتى شهر أيار ١٩١٣. وتلوح نغمة العظمة والغرور عند ذكر الأسباب التي دعت به الى ترك النمسا "إن كرهني الداخلي لدولة هابسبورغ كان يتعاطف بإطراء... ومما في صدور لكتل من القوميات التي عرضتها علي العاصمة. عافت نفسي كل هذا الخليط من الجيك والبولنديين والهنغار والروثيين والصرب والكروات. في كل مكان أجد هذا النبات الفطري الطفيلي على البشرية... يهود ومزيد من اليهود. ويدت لي تلك المدينة الجبارة بؤرة للندس العنصري... وكلما طال مكثي فيها كلما زاد حقدي على هذا الخليط من الشعوب الذي بدأ ينخر في هذا المعقل العتيق من معاقل الحضارة الألمانية... لكل هذه الأسباب بدأ شوقي يزداد ويبث في قوة ويدفعني الى ما كنت أصبو إليه منذ طفولتي... حب غامض وأشواق مستسرة^(٧٠).

وفي تلك الأرض التي أحبها كثيراً - قُدر له أن يصبح شخصية لم يحلم قط أن يكونها في أوسع دائرة وصلها خياله ورؤاه.

لقد كان وسيظل حتى قبيل وصوله الى منصب المستشار أجنياً عن الرايخ الألماني، فساوي الرعية

٦٩- خضع الى القرعة العسكرية منذ ١٩١٠ عندما بلغ الحادية والعشرين. ويقول "هايدن" أن السلطات النمساوية لم تكن تستطيع وضع اليد عليه أثناء إقامته في فيينا. وأخيراً تمكنوا من العثور عليه في مونيخ وأمر بالحضور لإجراء الفحص في (لينز) ونشر (جوزيف غرايتر) في كتابه "نهاية أسطورة هتلر" طائفة من الرسائل المتبادلة بين هتلر وسلطات التجنيد العسكرية النمساوية. أنكر هتلر نزوحه الى ألمانيا تخلصاً من الخدمة العسكرية. وطلب معذراً بضيق ذات اليد أن يحولوا دائرة فحصه الى سالزبرج لقربها من مونيخ. وتم فحصه هناك في الخامس من شباط ١٩١٤ فوجد غير صالح للخدمة العسكرية، بل غير صالح لوضعه في صف الاحتياط - لأسباب صحية ويظهر أنه مازال يشكو من علة صدره. لاشك أن عدم تلبية طلب الخدمة العسكرية - حتى عثر السلطات عليه وقد بلغ الرابعة والعشرين، كان من الأمور التي ضايقته وأقضت عليه مضجعه عندما صعد نجمه واستطارت شهرته في ألمانيا. وأيد (غرايتر) حكاية إنتشرت في الأوساط المعادية للنازية عندما كان المؤلف في برلين. وخلصتها أن هتلر أمر الكشتاوي بعد دخول الجيش الألماني الى النمسا عام ١٩٣٨، بالبحث عن الأوراق الرسمية المتعلقة بخدمته العسكرية. فلم يعثروا على أية أوراق في لينز رغم الجهود مما أثار غضب هتلر. إذ كان قد إنتزعها موظف حكومي وأخفاها ثم أطلع عليها (غرايتر) بعد نهاية الحرب.

٧٠- المرجع السالف، ص ١٢٣-١٢٤.

بالمفهوم القانوني. وكان النمساوي الوحيد البالغ الذي فشل في السنوات العشر السابقة لإنهيار إمبراطورية هابسبورغ في مد جذوره بتربة عاصمتها المتحضرة. والوحيد الذي إجتمع فيه كل البغض والتحامل غير المقبول عقلاً، السائد في دوائر متطرفيها الناطقين بالألمانية. والوحيد الذي أخفق في فهم كل ما هو نقيّ طاهر نبيل ونحوها من الفضائل التي تدمغ أغلبية المواطنين الساحقة سواء هم چيك، أو هنغار، أو يهود، أو ألمان. فقراء أم أغنياء، حرفيون أم فنانون. وبهذا وحده يمكن أن يفهم هتلر. ومما يشك فيه كثيراً أن يشارك هتلر في رأيه هذا أي ألماني آخر من الشمال أو من الراين أو من الغرب أو من بروسيا الشرقية أو حتى من بافاريا أو أن يكون في عقله أو دمه ما كان في هتلر من العوامل المختلطة التي دفعت به الى تنمية الأفكار حتى بلغ فيها الذروة. ولتضاف الى ذلك كله سمة العبقرية التي صعب التنبؤ بها في حينه.

هذه العبقرية لم يبدر منها شيء في ربيع ١٩١٣. وظل هتلر في مونيخ مفلساً كما كان في فيينا لا صديق له ولا عمل منتظم. ثم اندلعت نيران الحرب في صيف العام ١٩١٤ وأنشبت فيه مخالبها القاسية كما أنشبت في الملايين. وفي ٣ آب ١٩١٤ تقدم بطلب التطوع في الجيش البافاري الى لودفيك الثالث Ludwig III ملك بافاريا، فقبل طلبه وكانت هبةً سماوية هبطت عليه. فأصبح في وسع الأفاق الشاب أن يشبع شوقه الى خدمة بلاده المحبوبة الجديدة عن طريق ما رآه ووصفه بالكفاح في سبيل الحياة "قد يكون كذلك وقد لا يكون!" فضلاً عن فرصة أتاحت له بالتخلص من خيباته وإخفاقاته في حياته الخاصة، وكتب في (كفاحي): "جاءتني تلك الساعات بالخلاص من الهم الذي أناخ عليّ بكلّ كله في أيام شبابي. ولست أخجل من القول أن حماسة تلك الساعة غلبت على مشاعري فما رأيّني إلا وأنا أجثو على ركبتيّ شاكرًا للسماء حسن حظي الذي أبقاني حيًّا حتى هذه اللحظة... فبالنسبة لي ولكل ألماني بدأت الآن أخطر فترة في حياتي وعاد الماضي نسيًّا منسياً بمقارنته بأحداث هذا الصراع المارد الجبار"^(٧١).

والماضي بالنسبة الى هتلر كان سيظل جائماً في الظلال القائمة بكل وضاعته وعزلته وخيبته. وإن عمد فيما بعد الى بناء عقليته وأخلاقه بناءً جديداً. لقد منحته هذه الحرب التي صبّت حمم الموت على رؤوس الملايين نقطة إنطلاق جديدة في الحياة وهو لم يعد الخامسة والعشرين.

الفصل الثاني

ميلاد الحزب النازي

- ١ -

في يوم أحد من أيام الخريف المكفهرة. وبالضبط في ١٠ تشرين الثاني ١٩١٨ عانى أدولف هتلر ما دفعته أعظم مشاعر خيبته وحقدته، الى تسميته بأكبر دناءة إقترفت في هذا القرن^(١). فقد قدم قسّ يحمل الأنباء التي يصعب تصديقها للجنود الجرحى الراقيدين في مستشفى پاسفالك Pasewalk العسكري. وهي مدينة (يوميرانية) صغيرة تقع شمال شرق برلين حيث كان هتلر يُعالج من عمى وقتي أصيب به في هجوم بريطاني بالغازات السامة قبل شهر بالقرب من (إيبر Ypres)، أبلغهم هذا القس في صبيحة يوم الأحد ذاك، أن القيصر تنازل عن العرش وفرّ الى هولندا. وأن الجمهورية أعلنت في برلين قبل فراره بيوم واحد. وأن الهدنة وُقعت في ١١ تشرين الثاني في غابة كومبين Compiègne بفرنسا. وبهذا خسرت ألمانيا الحرب ووقعت تحت رحمة الحلفاء الظافرين. قال القس هذا وأنشأ يبكي. وصوّر هتلر المشهد نفسه بقوله: "لم أعد أحتمل أكثر من هذا وإسود كل شيء أمام عيني مرة أخرى، ورحت أتعثّر في سيرتي وأنا أتلمس سبيلي الى الردهة وقذفت بنفسي الى الفراش ودفنت رأسي المشتعل في طيات المطرح واللحاف... إذن فقد ضاع كل شيء. عبث في عبث كل هذه التضحيات والحرمان. عبث كل الساعات التي قضيناها متمسكين بقلوبنا في خوف مميت ونحن نؤدي واجبنا. عبث موت مليونين من الرجال... لاقوا حتفهم لأجل هذه النهاية؟ حدث هذا كله لتستولي عصاية من المجرمين السفلة على أرض الجدود^(٢)."

قال إنه طفق يبكي بأعصاب منهارة لأول مرة بعد وقوفه على قبر أمه. "لم أستطع السيطرة على نفسي" ولم يستطع إقتبال الحقيقة الصارخة القاصمة كغيره من ملايين الألمان لا في تلك الساعة ولا بعدها... أيداً، حقيقة أن ألمانيا هُزمت في المعركة وخسرت الحرب. كان هتلر مثل ملايين الرجال الآخرين أيضاً، جندياً بأسلاً مقداماً. لقد إتهمه خصومه السياسيون فيما بعد بالجن في سوح القتال. ولكن الإنصاف يقتضي منا القول أنه لا يوجد في كنيسته أقل دليل يثبت التهمة. فقد سبق الى الجبهة بوظيفة جندي مخابرة وساعياً بين الخطوط منسوباً الى السرية الأولى من اللواء السادس عشر للمشاة الإحتياط البافاري. وذلك في نهاية تشرين الأول ١٩١٤، بعد أن أكمل ثلاثة أشهر في مستودع تدريب، وأبيدت وحدته أو كادت بعد قتال مرير دام أربعة أيام في معركة (إيبر) الأولى حيث قام

١- هذه الكلمة وردت في أول طبعة ألمانية لـ(كفاحي) على أنها إستبدلت بـ(الثورة) في جميع الطبعات التالية.

٢- كفاحي، ص ٢٠٤-٢٠٥.

الإنجليز بصد إندفاع الألمان نحو القتال. وجاء في رسالة كتبها هتلر لزميل السكن الخياط (بوب): أن اللواء الذي كان يبلغ تعداده قبل المعركة (٣٥٠٠) أصبح ستمائة فقط ليس فيه غير ثلاثين ضابطاً وشُطبت من ملاكه أربعة أفواج.

وَجُرْح أثناء الحرب مرتين: الأولى في ٧ تشرين الأول سنة ١٩١٦ إبان معارك السوم Somme إذ أصيب بساقه. وبعد علاجه في ألمانيا أعيد إلى لواء "ليست List" الذي سُمي بإسم قائده الأصلي- في أواخر العام ١٩٧١ ورُقِع إلى نائب عريف، وشارك في معركة أراس Arras وفي معركة (إيبر) الثالثة أثناء ذلك الصيف وكان لواءه في قلب المعركة أثناء الهجوم الألماني الكاسح خارج الخنادق في ربيع وصيف العام ١٩١٨. وفي ليلة ١٣ تشرين كان أحد ضحايا غارة إنجليزية عنيفة بالغاز السام، على تل يقع إلى الجنوب من فيرثيك Werwick فيما يدعى بمعركة (إيبر) الأخيرة، "فإنكفأت على عقبي وعيناي تلتهبان ناراً وأنا أحمل آخر تقرير حربي عن الموقف. وأصبحت عيناي جمرتين متقدتين بعد بضع ساعات واطلم العالم من حولي^(٣).

ومُنح وسام الشجاعة مرتين. ففي كانون الأول ١٩١٤ قُلد وسام الصليب الحديدي من الدرجة الثانية. وفي آب ١٩١٨ قُلد وسام الصليب الحديدي من الدرجة الأولى. وهو لا يُمنح إلى جندي عادي في الجيش الإمبراطوري القديم إلا في القليل النادر. لقد شهد أحد زملائه في الوحدة أنه فاز بهذا الوسام الذي يصبو إليه الكل لأنه أسر خمسة عشر جندياً إنكليزياً بمفرده، وزعم آخر أن الأسرى فرنسيون أما الوقائع الرسمية للواء "ليست" فلا تتضمن كلمة واحدة عن هذه المأثرة. وهي تسكت عن الشجاعة الفردية لعدة أبطال قُلدوا أوسمة. ومهما كان السبب فالثابت أن نائب العريف هتلر فاز بوسام الصليب الحديدي من الدرجة الأولى وظلّ يتقلده بإعتزاز وفخر حتى آخر حياته.

ومع ذلك كله كان في مفهوم المسلك العسكري السائد بين الجنود شخصاً غريب الأطوار كما لاحظ أكثر من واحد من زملائه. فلم تكن تصله رسائل من الأهل أو طرود كما تصل الآخرين ولم يطلب إجازة واحدة وكان عزوفاً عن النساء خلافاً لعادة الجنود في سوح القتال ولم يكن يتشكى أو يتذمر كما يفعل أشجع الناس - من القذارة والحشرات والوحول والجيفة في خطوط القتال. كان مقاتلاً خالياً من المشاعر كثير الجد حول أهداف الحرب ومصير ألمانيا المقدّر. وذكر أحد أفراد سرّيته فيما بعد: "كنا نلعنه جميعاً ونجده لا يُطاق. هذا الغراب الأبيض بيننا، لايسايرنا وينضم إلينا عندما نلن الحرب ونهتف^(٤) بسقوطها. ووصفه آخر: وهو جالس في ركن إلى مائدة الطعام واضعاً رأسه بين يديه مستغرقاً في تأمل عميق. وعلى حين غرة يستوي قائماً ويسير بهيّا وسرعة ويقول بالرغم من مدفعيتنا الضخمة فالنصر سيكون بعيد المنال لأن خصوم الشعب الألماني المستورين هم أعظم مدفعية لدى العدو^(٥).

٣- المرجع السالف، ص ٢٠٢.

٤- هايدن "الزعيم" ص ٨٤.

٥- رودولف أولدن "هتلر البندق" ص ٧٠.

ثم يروح يشن هجوماً على أولئك الخصوم المستورين... اليهود والماركسيين. ألم يتعلم في فيينا أنهما مصدر الشر كله؟

ثم ألم يرَ ذلك كله بأم عينه على أرض ألمانيا نفسها عندما كان يقضي دور النقاهة من جرح ساقه في منتصف الحرب؟ بعد خروجه من مستشفى بيليتز Beelitz قرب برلين. زار تلك العاصمة ثم غادرها الى مونيخ وكان أينما حل يجد "أنذالاً يلعنون الحرب ويرغبون في إنتهائها بسرعة والإندحاريون كثيرون يفوقون الحصر. من يكونون غير أولئك اليهود؟". ووجد الدوائر مكتظة باليهود، يكاد كل الموظفين يكونون يهوداً، وكل يهودي موظفاً... في ١٩١٦-١٩١٧ كان "كل الإنتاج الإقتصادي تقريباً تحت سيطرة رأس المال اليهودي... واليهود نهبوا الوطن كله واحتلبوه وإعتصروه إعتصاراً... لقد رأيت دنو الكارثة بفزع شديد"^(٦). لم يطق هتلر تحمل ما رأى وسره أن يعود الى الجبهة على حد قوله. ولم يتحمل أكثر منها تلك الكارثة التي حلت بأرض آبائه في تشرين الثاني ١٩١٨ فهي بالنسبة له ولكل الألمان تقريباً "كارثة شنعاء" لا تستحقها ألمانيا. إن الجيش الألماني لم يقهر في ميادين القتال وإنما طعنه الخونة في الداخل طعنة في الظهر.

وهكذا تكونَ لهتلر كما تكونَ لكثير من الألمان عقيدة ثابتة، نبعت من خرافة (طعنة في الظهر) تلك العقيدة قوضت أركان جمهورية (فاير) بالدرجة الأولى ومهدت الطريق لفوز هتلر المحجل. هذه الخرافة لا تعدو كذبة مصنعة. فالجنرال لودندورف Ludendorff القائد العام الفعلي لهيئة الأركان العليا أصرَّ في ٢٨ أيلول ١٩١٨ على عقد الهدنة حالاً وأيدَ رأيه رئيسه الرسمي فيلد مارشال فون هندنبيرگ. وفي إجتماع مجلس العرش الذي تم في برلين في الثاني من تشرين الأول برئاسة القيصر فلهمل الثاني، كرر (هندنبيرگ) طلب القيادة العليا عقد هدنة فورية وقال: "إن الجيش لا يستطيع أن يصمد أكثر من ٤٨ ساعة" وذكر في رسالة كتبها في اليوم ذاته: إن الموقف العسكري يحتم "إيقاف القتال". ولم يرد أي ذكر لـ (طعنة الظهر) تلك. ولم يساهم بطل الحرب الألماني العظيم في ترويج هذه الخرافة إلا فيما بعد. فقد صرَّح في إفادة أداها أمام لجنة تحقيق في الجمعية الوطنية في ١٨ تشرين الثاني ١٩١٩ بعد الحرب بسنة واحدة ما يلي: "... وكما قال جنرال إنكليزي بحق، إن الجيش الألماني قد طعن في الظهر"^(٧).

٦- كفاحي، ص ١٩٣.

٧- إن إسناد هذه الخرافة الى جنرال إنكليزي لا ظلَّ له من الحقيقة. فقد بينَ هويلر بينيت في كتابه "هندنبيرگ: الطيطان الخشبي" أنه من مفارقات الصدف وغرائبها أن يساهم جنرالان إنكليزيان عن غير قصد في طبع هذه الأسطورة المخرفة. وأول الجنرالين هو "ميجر جنرال سر فردريك موريس Fredrick Maurice" الذي أسيء تفسير كتابه "الأشهر الأربعة الأخيرة" إساءة بالغة من قبل الصحفيين الناقدن الألمان. فقد زعموا إقتنائاً أنه برهن على "أن الجيش الألماني قد هُزم في الجبهة لخيانة الإشتراكيين من الداخل" فأنكر الجنرال صحة هذه الترجمة في الصحف الألمانية. ولم يفد عمله هذا فقد إستفاد لودندورف من التليفقات الصحفية لإقناع هندنبيرگ بتلك الخرافة. أما الضابط الثاني فهو ميجر جنرال مالكولم Malcolm رئيس البعثة العسكرية في برلين. كان الجنرال لودندورف يتناول العشاء معه وطفق بذلاقة لسانه المعهودة وطننته يطنب في وصف إفتقار القيادة العليا الدائم الى الإسناد الحكومي وكيف إن الثورة خانت الجيش وحاول الجنرال تلخيص شرح محدثه في جملة واحدة فسأله: أتعني أيها الجنرال أنكم طعنتم في =

وحقيقة المسألة أن الحكومة المدنية التي كان يرأسها الأمير ماكس بادن Max of Baden لم تخبرها القيادة العليا بتردي الموقف الحربي حتى نهاية شهر أيلول، فبقيت عدة أسابيع تعارض طلب (لودندورف) بعقد الهدنة.



هندنبرگ

ومن عاش في ألمانيا فترة ما بين الحربين يدرك كم كانت هذه الخرافة منتشرة ومقبولة عند الشعب الألماني. في حين كنت تجد الحقائق التي تكشف زيفها كثيرة أينما توجهت. إلا أن اليمين الألماني لا يريد أن يواجهها بشجاعة وصراحة. ولم يكف عن الزعيق أن الأثمين هم (مجرمو نوفمبر) وهي العبارة التي ظل هتلر يدقها دقاً لا هوادة فيه في ضمير الشعب الألماني. وليس مهماً قط أن الجيش الألماني استطاع وبحيلة منه وجبن أن يقوم بمناورة قاد بها حكومة الجمهورية إلى توقيع إتفاقية الهدنة التي أصر عليها

قواد العسكر. وإن قيادة الجيش الألماني نفسها هي التي نصحت بقبول شروط معاهدة فرساي. كما لم يبدُ مهماً أيضاً أن الحزب الديمقراطي الاشتراكي إمتنع عن قبول مسؤولية الحكم في ١٩١٨. ولم يقبل إلا بعد تردد طويل والحشيته أن تقع البلاد في حالة من الفوضى الشاملة رأى الجيش أنها قد تؤدي بالوطن إلى البلشفية. وإن هذا الحزب لم يكن مسؤولاً عن إنهيار ألمانيا، واللوم كله يقع على عاتق النظام القيصري^(٨) الزائل الذي كان يقبض على زمام السلطة. لكن ملايين الألمان رفضوا أن يفهموا ذلك أو يقتنعوا به. وكان عليهم أن يجدوا كباش فداء يقدمونها أضحى للهزيمة ولشقائهم وذلتهم. وسهل عليهم أن يقنعوا أنفسهم بأنهم وجدوا تلك الكباش في (مجرمي نوفمبر) الذين وقّعوا وثيقة الإستسلام وأسسوا حكومة ديمقراطية لتخلف الأوتوقراطية الزائلة.

كانت هذه الخدعة للألمان وتراً طالما ضرب عليه هتلر في (كفاحي) وما عثم أن جنى منه أعظم الفوائد. "عندما غادر القس مستشفى (پاسفالك) مساء ذلك اليوم الموافق ١٠ تشرين الثاني ١٩١٨

= الظهر؟ فبرقت عينا لودندورف والتقط الجملة كما ينط كلب الى عظم وردد قوله: "طعنة في الظهر؟ أجل تلك هي بالضبط، لقد طعنا في الظهر".

٨- ندر أن وجد الجنرالات الشجاعة ليؤيدوا هذا الكلام. ففي ٢٣ آب ١٩٢٤ نشر الجنرال فرايهر فون شوينباخ Freiherr Von Schoenbach مقالاً في صحيفة (فرانكفورتر تزايتونگ) يحلل فيه أسباب هزيمة ألمانيا وتوصل الى النتيجة "التي لا يمكن إغفالها أبداً. وهي [إن سبب خرابنا الأساسي هو طغيان سلطتنا العسكرية على السلطة المدنية... في الواقع أن العسكرية الألمانية إنتحرت بيدها لا غير] إقتبسها تلفورد تايلر Telford Taylor في كتابه "السيف والصليب المعقوف" ص ١٦.

و"جاءت أيام فظيعة ومرت بي ليالٍ أشد هولاً... لقد أدركت أن كل شيء ضاع. وأن الأغبياء والكذابين هم وحدهم يطلبون الرحمة من العدو. أخذ الحقد في تلکم الليالي يتنامى في نفسي، الحقد على أولئك المسؤولين عن هذا العمل... مجرمون متفسخون أنذال! كلما حاولت إستيضاح خفايا هذا الحدث الجلل في تلك الساعة كلما إزدادت حرقه جيبني بنار الخجل والسخط والعار. ما أهون آلام عيني إذا ما قورنت بهذا الشقاء" ثم "أصبح مصيري واضحاً أمامي فقررت إحتراف السياسة"^(٩). وقد تبين أنه قرار حاسم بالنسبة لهتلر والعالم.

- ٢ -

مبدء الحزب النازي

إن فرصاً لمستقبل سياسي في ألمانيا كانت أقل من المواثبة بالنسبة لهذا النمساوي البالغ من العمر ٣٥ عاماً المعدوم الصديق والمال والعمل. العاطل عن أي مهنة أو حرفة أو خبرة سابقة في عمل منتظم أو تجربة في ميدان السياسة. وقد أدرك ذلك من البدء وكتب بعد فترة وجيزة: "بقيت أياماً أفكر فيما يمكن عمله. وكان تفكيري يصل بي دائماً الى الحقيقة الواقعة وهي أنني ذلك الحامل الإسم، ليس لديّ ما أركز عليه للشروع بأي عمل نافع"^(١٠). وقفل راجعاً الى مونيخ في نهاية تشرين الثاني ١٩١٨ ليجد مسقط رأسه الجديد متغيراً تماماً. فقد إندلع لهيب الثورة هنا أيضاً وتنازل ملك أسرة "فيتلسباخ Wittelsbach" عن عرشه ووقعت مملكة بافاريا بأيدي الديمقراطيين الإشتراكيين الذين أقاموا "حكومة شعبية" برئاسة "كورت إيزنر Kurt Esner" وهو كاتب يهودي شهير ولد في برلين. ظهر (إيزنر) المعروف في مونيخ بلحيته البيضاء الفارحة وعيوناته ذات الحيط وقبعته السوداء الواسعة وجرمه الصغير يمشي في الشارع على رأس بضع مئات من الناس في ٧ تشرين الثاني. وإحتل مقر البرلمان والحكومة دون أن تُطلق رصاصة واحدة وأعلن قيام الجمهورية. وبعد ثلاثة أشهر إغتاله كونت أنطون آركو فالي Anton Arco-Valley وهو ضابط يميني شاب. وعندها هب العمال وأقاموا جمهورية سوفيتية إلا أنها لم تعيش طويلاً. ففي الأول من أيار أرسلت برلين وحدات عسكرية نظامية إلّتحق بها متطوعون بافارزيون عرفوا باسم (المحاربون الأحرار Freikorps) ودخلوا مونيخ وأزالوا النظام الشيوعي بالقوة وذبحوا عدة مئات فيهم عدد من غير الشيوعيين إنتقاماً لقيام السوفييت البافاري بإعدام عشرة من الرهائن. ومع قيام حكومة ديمقراطية إشتراكية معتدلة برئاسة يوهانس هوفمان Johannes Hoffmann في ذلك الحين فإن السلطة الحقيقية إنتقلت الى اليمين.

ما هي حقيقة اليمين في بافاريا في تلك الفترة المضطربة؟ إنها الجيش النظامي، جيش الرايخ Reichsweher. إنها الملكيون الذين يرغبون في إعادة أسرة فيتلسباخ الى الحكم. إنها كتلة من

٩- المرجع السالف، ص ٢٠٥-٢٠٦.

١٠- المرجع السالف، ص ٢٠٧.

المحافظين الذين يكرهون حكومة الجمهورية في برلين، راحت تجمع إليها بمرور الزمن أشتاتاً عظيمة من الغوغاء والصعاليك من أولئك الجنود المسرحين الذين قذفت بهم من حالق دنيا حرب ١٩١٨. رجال أجتثوا من جذورهم الاجتماعية إجتثاثاً، لا يجيدون عملاً ولا يتبينون طريقهم الى مجتمع مستقر آمن كانوا قد تركوه عام ١٩١٤. رجال إخشوشنوا وقست قلوبهم مما ذاقوا في الحرب، لا يستطيعون أن ينزعوا ذاتهم من حكم العادة التي أشربتهم إياها الحرب. قال عنهم هتلر الذي كان واحداً منهم: "لم يصبحوا ثوريين إلا أنهم لا يريدون الثورة لذاتها. يرغبون في الثورة كحالة دائمة ثابتة".

وإنشقت وحدات (المحاربين الأحرار) في طول ألمانيا وعرضها تقدم قيادة الجيش الألماني بالسلح. وكانوا في مبدأ الأمر يُدفعون لقتال البولنديين ودول البلطيق على الحدود الشرقية المتنازع عليها. لكنهم سرعان ما راحوا يساندون المؤامرات التي بدأت تحاك للإطاحة بالنظام الجمهوري. وفي آذار من السنة ١٩٢٠ تمكنت إحدى هذه الوحدات، وهي لواء إيرهارد Ehrhardt السيء الصيت الذي يقوده هذا الكابتن المغامر - من إحتلال برلين ومعاونة الدكتور ولفغانگ كاپ^(١١) Wolfgang Kapp وهو أحد الساسة الخاملين من أقصى اليمين على إعلان نفسه مستشاراً ووقف الجيش النظامي - وكان بقيادة الجنرال فون سيكت Von Seeckt الى جانب وقفة المتفجع بينما فرّ رئيس الجمهورية وأعضاء الحكومة وسط الفوضى الضاربة أطنابها - الى غرب ألمانيا. ولم يقد بإنقاذ الجمهورية وإعادة الحكومة إلا إعلان نقابات العمال إضرابها العام. وفي الوقت نفسه نجح نط آخر من أنماط الانقلابات العسكرية. ففي ١٤ آذار ١٩٢٠ أسقط الجيش الألماني حكومة هوفمان "الديمقراطية الاشتراكية" وأقام نظاماً يمينياً برئاسة "گوستاف فون كاهر Gustav Von Kahr وبذلك أصبحت العاصمة البافارية قبلة ومغطيساً تجذب كل القوى الألمانية التي حلفت يميناً غموساً على إسقاط النظام الجمهوري وإقامة حكم مطلق وتعديل معاهدة فرساي التي أمليت شروطها قسراً (Diktat) ووجد فيها زعماء المحاربين الأحرار ومن بينهم لواء إيرهارد ملجأ ودار ضيافة. وفيها أيضاً إستقر رجال لواء إيرهارد من ضباط الجيش الناقمين^(١٢) المسرحين. وفيها راحت تحاك مؤامرات القتل السياسي. وكان بين من أغتيل ماتياس إيرزبرگر Matthias Erzberger وهو من الساسة الكاثوليك المعتدلين وجد في نفسه الجرأة والشجاعة لوضع توقيععه على الهدنة عندما نكص الجنرالات على أعقابهم. وعقبه في المصير "فالتر راثناو Walter Rathenau" وهو وزير خارجية لامع جمّ الثقافة كان متطرفو اليمين يكرهونه لأنه يهودي، ولأنه كان يسيّر سياسة الحكومة الوطنية محاولاً الوفاء ببعض شروط معاهدة فرساي على الأقل.

١١- ولد كاپ في الرابع والعشرين من تموز ١٨٦٨ بمدينة نيويورك.

١٢- في نهاية الحرب فرّ الجنرال لودندورف الى السويد متنكراً بلحية وشارب مستعارين وعيونات زرقاء ثم عاد الى ألمانيا في شباط ١٩١٩. وكتب الى زوجته رسالة جاء فيها: "أعظم حماقة إرتكبها الثوريون هي الإبقاء علينا. وبقيناً لو أنني تسلمت زمام السلطة ثانية فلن يكون ثم عفو أو رحمة. عندئذ سأقوم بضمير مرتاح بشنق شايدمان لودندورف في: Alsich Ludendorff Frau War. ص ٢٢٩. كان إيبيرت أول رئيس لجمهورية فايمر وشايدمان أول مستشار لها. كان لودندورف دكتاتور ألمانيا الفعلي لسنتي الحرب الأخيرتين مع إنه يلي هتدبرگ في القيادة.

في هذا الحقل الخصب بدأ عمل هتلر.

عند رجوع هتلر الى مونيخ في نهاية تشرين الثاني ١٩١٨ وجد لواءه في أيدي "اللجان العسكرية" المؤلفة من الجنود فيأشماز من ذلك حتى إنه قرر "أن يترك المدينة حالاً وبأسرع ما يمكن" على حد قوله. وقضى شتاءه قائماً بواجب حراسة معسكر أسرى الحرب تراونشتاين Traunstein قرب الحدود النمساوية ثم كرّ راجعاً الى مونيخ في الربيع. وذكر في كفاحي أنه إستهدف سخط حكومة اليسار، وزعم أنه لم ينبج من الإعتقال إلا بعمل جريء، وذلك بتسديد فوهة بندقيته الى ثلاثة من الأوغاد الذين جاؤوا للقبض عليه. وبعد إسقاط النظام الشيوعي بدأ هتلر ما وصفه "بأول نشاط سياسي ضيق النطاق... هذا النشاط المحدود هو عبارة عن تقديم معلومات الى لجان التحقيق التي شكّلت في لواء المشاة الثاني لإستجواب أولئك الذين ساهموا في إقامة النظام السوقياتي في مونيخ. ويظهر أن خدمات هتلر في هذه المناسبة أعتبرت قيمة. مما حدا بالجيش الى إستخدامه في أعمال أخرى. فأُسند له مهمة في مكتب الصحافة والأنباء التابع للدائرة السياسية لآمرية الجيش المنطقية.

أصبح الجيش الألماني يتدخل في السياسة تدخلاً كبيراً وخاصة في بافاريا حيث تمكن من إقامة حكومة حسب ذوقه. ولتوسيع وجهات نظره اليمينية راح ينظم الجنود في حلقات دراسية تلقى فيها دروس سياسية. وكان "هتلر" أحد التلاميذ النابهين وذكر أنه قاطع مرة أحد المتكلمين لأنه ذكر اليهود بكلمة خير. ويظهر أن ضباطه الأمرين سرّوا بخطبته تلك المعادية للسامية فما لبثوا أن عبّوه ضابط تشقيف Bildungsoffizier في حامية مونيخ تنحصر وظيفته الأساسية في مكافحة الآراء الهدامة والمبادئ الاشتراكية والديمقراطية، والتهادن، تلك كانت مفاهيم الجيش لواجباته ودوره في جمهورية ديمقراطية أقسم على أن يخدمها.

كان المنصب الجديد فاتحة مهمة له، وأول تقدير لخدماته في الحقل السياسي الذي يحاول إقتحامه الآن. وأهم من كل ذلك أنه أتاح له الفرصة لوضع قابليته الخطابية في التجربة. والخطابة أولى مستلزمات السياسي الناجح في رأيه. ويقول في هذا: "فجأة سُمح لي بفرصة الكلام أمام محفل كبير وما كنت أفترضه دائماً من محض شعور فيّ دون أن أمحصه، تأكد لي الآن... إنني أستطيع الخطابة". هذا الكشف سرّه كثيراً وإن لم يكن مفاجأة كبيرة له. لقد كان يخشى أن يشوب صوته ضعف دائم من جراء إستنشاقه الغاز السام في الجبهة فوجده سالماً واضح النبرات مسموعاً "على الأقل في كل ركن من أركان قاعة الفصيل الصغيرة"^(١٣). وكانت فاتحة موهبة رفعت بهيسر وسهولة الى مصاف أبرع الخطباء في ألمانيا وأشدهم سحراً وأذا يُسمع من الراديو فهو كفيل بهز الملايين هزاً.

في يوم من أيام أيلول ١٩١٩ أبلغته دائرة الإستخبارات السياسية في الجيش بإستطلاع أمر مجموعة سياسية صغيرة في مونيخ تطلق على نفسها إسم "حزب العمال الألمان". وكان الجيش كثير الشك في أحزاب العمال لأن معظمها يتراوح بين الاشتراكية والشيوعية. أما هذا الحزب بالذات فالمعتقد أنه يختلف عن الباقي. يقول هتلر أنه كان يجهل وجوده بالمرّة، إلا أنه كان على صلة برجل

سيقوم بإلقاء خطاب في إجتماع لذلك الحزب ضُرب له موعدٌ.
قبل هذا ببضعة أسابيع كان قد أصغى الى محاضرة في إحدى ندوات الجيش الثقافية ألقاها
غوتفريد فيدر Godfried Feder وهو مهندس بناء ذو آراء إقتصادية غريبة إستولت عليه فكرة مؤداها أن
الرأسمال المضارب بإعتباره منافساً لرأس المال "الخالق" أو المستثمر هو العلة لمصائب الدنيا
الإقتصادية، وكان يدعو الى إزالة الأخير منهما. وألف في ١٩١٧ جمعية ترمي الى تحقيق هذه الغاية
سماها العصبة الألمانية المناضلة لإلغاء رقب الفئاض.

ولجمل هتلر المطبق في أمور الإقتصاد، أثرت فيه خطبة (فيدر) تأثيراً بليغاً ووجد في دعوة
الخطيب الى القضاء على عبودية الفئاض واحدة "من الأركان الرئيسية لبناء حزب جديد"، وقال عنها:
"لقد شمتت فيها رائحة شعار قوي للكفاح المقبل"^(١٤).

على أنه لم يجد في حزب العمال الألمان ما يسترعي الإهتمام باديء ذي بدء. ولم يحضر إجتماعه
إلا أنه أمر بذلك وبعد أن ظل جالساً طوال جلسة مملّة لحوالي خمسة وعشرين شخصاً في غرفة مظلمة
في مشرب البيرة المسمى شتيرنكربراو Sterneckerbrau لم يجتذب إهتمامه شيء ووجدها "منظمة
جديدة مثل كثير غيرها. في زمن يقوم كل شخص غير راضٍ عن سير الأمور... بتأليف حزب جديد،
فتجد هذه المنظمات تنبع من الأرض في كل مكان لتتلاشى بصمت وسكون بعد فترة من الزمن. وحكم
على حزب العمال الألمان: أنه لا يختلف بشيء عن الأحزاب الأخرى"^(١٥).

وبعد أن فرغ (فيدر) من كلامه وهمّ هتلر بالإنصراف نهض (أستاذ) وراح يناقش في صحة آراء
الخطيب وإفتراضاته. ثم إقترح إنفصال بافاريا عن پروسيا وتأليف دولة ألمانيا الجنوبية من إتحاد
النمسا وبافاريا، وقد كان هذا الميل السائد في مونيخ يومذاك. وأغضب الإقتراح هتلر الى حد الهياج
العصبي فنهض ليتحف "السيد المتعالم" بشيء مما يجول في ذهنه على حد ما عبّر عنه فيما بعد.
وكان هذا "الشيء" قاسياً شديداً الوقع ألجأ الأستاذ الى مغادرة الغرفة "كالجرو المبتل بالماء" بينما
أرسل المجتمعون أنظارهم الى المتعلم الشاب وعلى "وجوههم دهشة". وذكر هتلر أن واحداً فيهم نهض
وأسرع إليه ودس كتيباً في يده.

هذا الرجل هو أنطون دركسلر Anton Drexler ومهنته صنع الأقفال. ويمكن القول أنه المؤسس الفعلي
للقومية الإشتراكية، وهو رجل سقيم الصحة ذو نظارات يفتقر الى أوليات الثقافة والمعارف ذو عقلية
فردية ضيقة مشوشة. كاتب فج وخطيب أكثر فجاجة. كان في ذلك الحين يزاول صناعته في معامل
سكة حديد (مونيخ). أُلّف في ٧ آذار ١٩١٨ ما سماه "لجنة العمال المستقلين" لمحاربة ماركسية
نقابات العمال الحرة ودعا الى سلم عادل لألمانيا. ولجنته في واقع الأمر فرع من حركة واسعة نشأت
في شمال ألمانيا وإتخذت عنوان "جمعية تحقيق السلم على مبادئ الطبقة العاملة". (منذ تلك الفترة

١٤- المرجع السالف، الص ٢١٠-٢١٣.

١٥- المرجع السالف، الص ٢١٨-٢١٩.

حتى ١٩٣٣ كانت ألمانيا متخمة بالجمعيات السياسية الصحابة ذات العناوين البراقة الجذابة). ولم يستطع (دركسلر) أن يجمع حوله أكثر من أربعين عضواً. وفي كانون الثاني ١٩١٩ إندغمت في لجنة مشابهة كانت تعرف "بحلقة العمال السياسية" يتزعمها مراسل صحفي يدعى كارل هاربر Karl Harrer. وعُرفت المنظمة الجديدة التي كانت تضم أقل من مائة عضو (بحزب العمال الألماني). وكان (هاربر) أول رئيس لها. وهتلر الذي لم تكن من عاداته في (كفاحي) الحديث الكثير في رفاهه القدامى الذين ضاعت أسماؤهم في زوايا النسيان. لم يبخل على (هاربر) بالمديح. فنعتته "بالمخلص المثقف الواسع الثقافة". إلا أنه أبدى أسفه لإفتقاره الى موهبة الخطابة ولعل السبب الأعظم لزوال هاربر وأقول نجمه إصراره العنيد على رأيه في أن هتلر لا يصلح للخطابة. وهو حكم أثار ثائرة الزعيم وجعله يثابر بعزم متواصل كما أوضح ذلك في سيرة حياته. ومهما يكن من أمر فقد بدا أن (دركسلر) كان القوة المحركة الكبرى لهذا الحزب الصغير المجهول، حزب العمال الألماني.

بدأ هتلر في صبيحة اليوم التالي يتفقد محتوى الكتيب الذي دسه (دركسلر) في يده. وهو يصف المنظر وصفاً دقيقاً مسهباً في (كفاحي). كان الوقت الخامسة فجراً وهتلر متكئ على فراشه في ثكنات لواء المشاة الثاني يرقب فأرة تقضم كسراً من الخبز كان قد نثرها على الأرض ليلة أمس، قال: "لقد عرفت عن الفقر الكثير. وأصبحت أتصور تماماً وطأة الجوع، ومن ثم الفرح الذي يستولي على هذه المخلوقات الصغيرة" في تلك اللحظة تذكر الكتيب وراح يقرأ فيه وكان عنوانه "يقظتي السياسية" ووجد لدهشته أنه يعكس عدداً من الآراء التي تكونت في رأسه عبر السنين الماضية. لقد كان هدف (دركسلر) إقامة صرح حزب سياسي على قواعد جماهير الطبقة العاملة يختلف عن الحزب الاشتراكي في ميله القومي ميلاً شديداً. وكان (دركسلر) عضواً في "جبهة تربة الوطن" القومية لكنه إكتشف بسرعة عقلية الطبقة الوسطى التي تسيطر عليها ولم تكن على أية صلة بالجماهير. وقد رأينا كيف أن هتلر تعلم في قيسنا إزدراء البرجوازية لهذا السبب عينه، أعني إفتقارها التام الى الإهتمام بأمور الطبقة العاملة ومشاكلهم الروحية والإجتماعية، ولهذا أثارت آراء (دركسلر) إهتمامه بنوع خاص.

وفي ساعة متأخرة من ذلك اليوم تلقى لدهشته بطاقة بريدية جاء فيها أنه قُبل عضواً في حزب العمال الألمان وتذكر فيما بعد أنه "ما كنت أدري هل أغضب أم أضحك إذ لم تكن عندي نية في الإنضمام الى حزب كامل التشكيل. وإنما إنصرفت نيتي الى تأسيس حزب خاص؛ كان في طلبهم هذا جراً، وكان إنضوائي شيئاً مستحيلاً"^(١٦).

وهم بالإفصاح عن رأيه هذا في رد خطي إلا أن "حب الإستطلاع غلب عليه". فقرر أن يذهب الى

إجتماع اللجنة الذي دعي إليه، ليشرح شخصياً الأسباب التي تدفعه الى عدم الانضمام "الى هذا الحزب الصغير". "كان الإجتماع في آلتِه روزنباد Alte Rosenbad وهو مشرب حفير في شارع هرن Hrrenstrasse... إجتزت غرفة طعام معتمة خالية وفتحت الباب المفضي للغرفة الخلفية فوجدت نفسي أمام اللجنة. وفي ضوء متهافت ينشره مصباح نفطي كئيب وقع نظري على شبان أربعة قد تحلقوا مائدة. وتبينت منهم مؤلف الكتيب الذي نهض فوراً لتحيتني مرحباً مستبشراً بوصفي عضواً في حزب العمال الألمان".

"والحق يقال أنني فوجئت وبوغتُ. وقُرئت وقائع الجلسة الأخيرة ومنح السكرتير الثقة بعد تصويت. ثم تلي التقرير المالي وتبين أن مالية الحزب لاتعدو (٧) ماركات وخمسين فينيك. وصوت على تقرير أمين الصندوق بالثقة ودون ذلك في المحضر ثم قرأ الرئيس الأول للحزب ردوداً على رسائله من (كيبيل) وأخرى من (دوسلدورف) وثالثة من (برلين) وأعلن الجميع موافقتهم. وبعدها تلي تقرير عن البريد الوارد... فطيع! فطيع! إنها أسوأ من حياة النوادي. هل قُدر لي الانضمام الى هذه الجمعية؟" (١٧)

مع هذا كله فقد إجتذبه شيء ما في أولئك الرجال ذوي الثياب الرثة المجتمعين في غرفة خلفية سيئة الإنارة. هو "شوق الى حركة جديدة تكون أكثر من حزب العمال بالمعنى المألوف للحزب". وعاد الى ثكنته مساء ذلك اليوم "لبواجه أشق سؤال في حياته: "هل أنضم؟" وأقرّ معترفاً أن عقله أشار عليه ألا يفعل... مع ذلك فإن خمول شأن المنظمة قد يمنح الشاب النشيط المملوء أفكاراً فرصته في (نشاط شخصي حقيقي). وذكر ما يمكنه أن يحقق في هذا المجال: "بدا لي أن فقري وقلة مواردتي هو أسهل الجوانب التي يمكن التغاضي عنها في هذا المجال. لكن الجانب الصعب هو الإسم. فأنا معدود بين أولئك الذين لا إسم لهم. أنا واحد من ملايين البشر الذي عاشوا بالصدف ويزولون من الوجود دون أن يدري أقرب جيرانهم بأمرهم أو يلاحظوا وجودهم من عدمه. زد على ذلك الصعوبة المتأتية من إفتقاري الى التحصيل العلمي.

وبعد يومين من عذاب التفكير والتأمل وصلت أخيراً الى وجوب إتخاذي هذه الخطوة. وكان أعظم قرار حاسم إتخذه في حياتي ولم يعد لي أي مجال للنكوص الى الوراء" (١٨). وهكذا إنضم أدولف هتلر الى لجنة حزب العمال الألمان عضواً سابعاً.

في هذا الحزب الخامل يوجد عضوان يستحقان الذكر، كلاهما ذو أثر مهم في إرتفاع نجم هتلر. أولهما الكابتن آرنست روهم Ernest Roehm وهو ضابط ركن في القيادة المنطقية السابعة في الجيش المعسكر في مونيخ، إنضم الى الحزب قبل هتلر. وكان متين البناء غليظاً خشناً ذا عينين ضيقتين في وجهه ندوب تشهد على أنه جندي محترف- أطارت رصاصة الجزء الأعلى من أنفه في ١٩١٤- مغرم بالسياسة ذو ملكة وقابلية في التنظيم. كان مثل هتلر قد حقق على الجمهورية الديمقراطية حقداً

١٧- المرجع السالف، الص ٢٢١-٢٢٢.

١٨- المرجع السالف، ص ٢٢٤.

مسعوراً وأبغض (مجرمي تشرين) وعدّهم مسؤولين عن إقامتها. وهو يؤمن ويعمل على إعادة خلق ألمانيا قومية قوية. ويرى كهتلر أن تحقيق هذا الهدف لا يمكن أن يقوم به حزب تستند قواعده على الطبقات السفلى التي إنحدر هو منها خلافاً لمعظم ضباط الجيش. رجل قاسٍ مندفع، منحرف جنسياً مثل كثير من النازيين الأولين. ساعد في تنظيم أولى فصائل الصدام النازية التي عرفت فيما بعد برمز (S.A) وهو جيش فرق الصاعقة الذي ظل يقوده حتى فتك به هتلر في ١٩٣٤. أدخل (روهم) الى هذا الحزب النازي عدداً كبيراً من المحاربين القدماء وأفراد "المحاربين الأحرار" الذين صاروا عمود الحركة الفكري في أولى أيامها. ولم يكتف بهذا فقد أمّن الحماية لهتلر ولحركته لكونه أحد ضباط الجيش المسيطر على بافاريا. وأمّن أحياناً المساعدة من السلطة، وبدون هذا العون كان يُستبعد أن ينجح هتلر في البدء بمعركة حقّة لتعبئة الجماهير، وإسقاط الجمهورية. ومن المؤكد أنه ما كان يستطيع النجاة بجلده لأساليبه الإرهابية وإشاعة الرعب- دون تسامح الحكومة البافارية وجهاز شرطتها.

وثاني الشخصين "ديترش إيكارت Dietrich Eckart" وهو رجل يكبر هتلر بواحد وعشرين عاماً. وكثيراً ما لُقّب بـ"المؤسس الروحي" أو الزعيم النظري للقومية الاشتراكية. صحفي بارع النكتة، وشاعر دون الوسط وكاتب مسرحيات. كان قد ترجم مسرحية بير غنت Peer Gynt للمسرحي إيسن Ibsen وكتب عدداً من المسرحيات لم تُمثل. وعاش في برلين مثل عيشة هتلر في فيينا حياة تشرد وتعطل. وأدمن الخمر والمورفين. وذكر (هايدن) أنه أدخل مستشفى الأمراض العقلية، وفيه تسنى له إخراج مسرحياته موزعاً أدوارها على النزلاء المرضى.

وبنهاية الحرب عاد الى بافاريا موطنه. وكان يعقد ندوات تضم حلقات من المعجبين في مشرب خمر برنسل Bernssel الواقع في شتالبنك Swalbing وهو منتجع الفنانين في مونيخ، فيخطب في التفوق الآري ويدعو الى إستئصال شأفة اليهود وسقوط "الخنزير" في برلين. وذكر (هايدن) الذي كان يعمل في صحافة مونيخ عن (إيكارت) أنه كان يخطب بحماسة وإنفعال في مرتادي مشرب برنسل في ١٩١٩ قائلاً: "نحن بحاجة الى رجل في المقدمة. يستطيع أن يحمل المدفع الرشاش. إن الرعاع بحاجة الى خوف يدب في سراويلهم. نحن لانستطيع إستخدام ضابط فالناس ما عادوا يحترمون هؤلاء. والخير كل الخير في عامل متمكن من ناصية الكلام... إنه لا يحتاج الى عقل كثير... كما يجب أن يكون أعزب. وإذ ذاك ستفوز بالمرأة!"^(١٩) أي مادة أولية "كان هذا الشاعر السكير يجد خيراً من شخصية هتلر^(٢٠):"

إنه الشخص الذي يبحث عنه بالضبط. وبهذا أصبح إيكارت الناصح الأمين للشباب البازغ في سماء حزب العمال الألمان فأعاره كتباً وعاونه في صقل لغته كتابةً وتكلماً. وقدمه الى حلقة أصدقائه الواسعة التي كانت تضم بعض الأثرياء، مدّوا الحزب بالمال، وأمّنوا لهتلر عيشاً فضلاً عن تزويده

١٩- المرجع الأول، ص ٦٨٧.

٢٠- توفي إيكارت سنة ١٩٢٣ بسبب سكرة مفرطة.

بأعوان المستقبل، مثل رودولف هسّ Rudolf Hess وألفريد روزنبرگ Alfred Rosenberg. ولم يتحول هتلر عن إعجابه بـ(إيكارت) قط. وآخر عبارة في (كفاحي) هي تعبير عن إمتنانه من هذا المعلم الضالّ، قال: "كان واحداً من أفضل الناس. وقف حياته على إيقاظ شعبنا بكتابات وأفكاره ثم بأعماله"^(٢١). ذلكم هو الخليط المتناقض العجيب الذي خلق النازية. أولئك الذين بدأوا دون أن يشعروا بصوغ حركة قُدر لها أن تكتسح أقوى البلاد في أوروبا خلال ثلاثة عشر عاماً وتقدم لألمانيا رايتها الثالث. فـ(دركسلر) منحها تراثها و(إيكارت) الشاعر السكير ساهم بوضع بعض أسسها الروحية، والدجال الإقتصادي (فيدر) زودها بأيديولوجيتها المزعومة. وأمدها (روهم) المنحرف جنسياً بمساندة الجيش وتعريض المحاربين القدماء. أما أدولف هتلر المتشرد السابق المجهول الاسم الذي لم يتعد الحادية والثلاثين فقد مسك زمام القيادة في بناء ما لم يكن يعدو جمعية نقاش صغيرة في غرفة خلفية. ليجعل منها في وقت قصير حزباً سياسياً واسعاً. ووجدت تلك الأفكار التي كانت تقعقع في قحف رأسه منذ أيام العزلة والجوع في فيينا مجال إنطلاقها الآن. وإندفعت من أعماقه قوة كامنة لم تكن ظاهرة في شخصه من قبل ودفع لجنته الصغيرة المترددة الى تنظيم إجتماعات أوسع وكان يطبع بنفسه رقاع الدعوة على الآلة الكاتبة ويوزعها بيده. وتذكر مرة كيف انه بعد توزيعه ثمانين بطاقة "جلسنا ننتظر المدعوين المتوقع حضورهم. وإضطّر عريف الحفل بعد مرور ساعة على الموعد الى أن يفتح الإجتماع". كنا سبعة، سبعتنا القديمة لا أكثر^(٢٢). ولم يخب أمله وزاد من عدد البطاقات بإستنساخها بالكاربون وجمع بضعة ماركات دفعها أجراً لإعلان عن إجتماع في إحدى الصحف المحلية. وقال: "كان النجاح مذهلاً في الحقيقة. مائة وأحد عشر شخصاً حضروا". وكان من المقرر أن يلقي هتلر أولى خطبه العلنية بعد خطبة الافتتاح التي سيلقيها أحد "أساتذة مونيخ" فأصبح (هارير) رئيس الحزب الإسمي على هذا التدبير. وعقّب هتلر على المسألة بقوله: "هذا السيد كان مخلص النية في أمور أخرى. لا أدري كيف وثق بأني قادر على أمور معينة ليس الكلام من بينها. لقد تكلمت ثلاثين دقيقة وما كنت أحس به مجرد إحساس في أعماقي دون إدراك وتفهم. ثبت لي الآن بالدليل القاطع. إنني قادر على الكلام!"^(٢٣)

وإدعى هتلر أن الحاضرين كُهرّبوا بخطابه، والحماسة التي أظهروا في إكتتابهم بمبلغ ثلاثمائة مارك حلّت مشاكل الحزب المالية حلاً مؤقتاً. وفي مبدأ العام ١٩٢٠ أنيط به جهاز دعاية الحزب فأوقف عليه جلّ تفكيره منذ أن لاحظ أهميته في نشاط الحزبين الإشتراكي والمسيحي في فيينا وتفرغ حالاً الى تنظيم أعظم إجتماع حلم به هذا الحزب البائس الصغير. وقرر له الرابع والعشرين من شباط ١٩٢٠، وعُقد في قاعة الحفلات Festvaal المشهورة في هوفبراوهاوس Hofbrauhaus التي يزيد عدد مقاعدها على الألفين. وحكم عليه زملاؤه بالجنون. وإستقال (هارير) إحتجاجاً وإستخلفه (دركسلر)

٢١- المرجع نفسه، ص ٦٨٧.

٢٢- المرجع السالف، ص ٣٥٤.

٢٣- المرجع السالف، ص ٣٥٥.

الذي ظل شاكاً متردداً^(٢٤).

ويوضح هتلر أنه كان ينهض شخصياً بالإستعدادات اللازمة. والواقع أن الحادث كان يحتل حيزاً كبيراً في تفكيره حتى أنه ختم الجزء الأول من (كفاحي) بوصفه، لأنه كما أوضح - كان الفرصة المتاحة للحزب "لخرق قيود المنتدى الصغير التي كانت تكبله. ولأول مرة نجده يمارس نفوذاً حقيقياً على الرأي العام الذي هو أعظم عامل سياسي في أيامنا هذه".

ولم يكن هتلر الخطيب الرئيس. لأن ذلك أسند لشخص يدعى "يوهانس دينغفيلدر Johannes Dingfelder" وهو طبيب هوميويثي* homeopathic وكاتب دعيّ يزود الصحف بمقالات إقتصادية يوقعها بالإسم المستعار "جرمانوس أگریكولا Germanus Agricola ما لبث أن خبا ذكره وطواه النسيان. وقوبل خطابه بالصمت. ثم بدأ هتلر يخطب. ودونك إياه يصف المشهد:

"بدأت الهتافات تنثال كوابل من المطر. وكان ثمة صدامات عنيفة داخل القاعة قبضة من أخلص رفاق الحرب القدامى وغيرهم من الصّداميين كانوا يعتكرون مع مثيري الشغب من شيوعيين وإشتراكيين وأفلحوا بالتدريج في إعادة النظام وصرت قادراً على مواصلة خطابي، وبعد نصف ساعة بدأ هتاف الإستحسان يعلو على صراخ الإستهجان... وبعد حوالي أربع ساعات بدأت القاعة تخلو وعلمت أن المباديء التي شرعتها وهي حركة لم يعد تجاهلها ممكناً بعد الآن - أصبحت تتفاعل وتترسب في أفكار الشعب الألماني"^(٢٥). أعلن هتلر في خطابه هذا ولأول مرة النقاط الخمس والعشرين التي يتضمنها منهج "حزب العمال الألمان". وكان قد صاغها دركسلر وفيدر وهتلر بأقصى سرعة. وإنصب معظم الإستنكار على هتلر لفقرات قرأها من المنهج. ومع هذا فقد إعتبرها مقبولة من الجمهور برمتها وأضت المنهج الرسمي للحزب النازي بعد أن تم تبديل إسمه في الأول من نيسان ١٩٢٠ إلى "الحزب القومي الإشتراكي للعمال الألمان". والحق يقال أن هتلر لم يصرح في ١٩٢٦ بأن المنهج غير قابل للتعديل إلا لأسباب تكتيكية ومما لا مراء فيه أن مواده مزيج دجليّ وجمع إعتباطي لإستمالة كل من العمال والطبقة دون الوسطى والفلاحين. وتؤسسي هؤلاء كلهم عندما تسلم الحزب مقاليد السلطة. وسخر بمواد المنهاج عدد كبير من كتاب ألمانيا. حتى "الزعيم" نفسه فقد أدركه خجل منها فيما بعد عندما ذُكر ببعضها. ومع ذلك كله فقد تم تحقيق معظمها بقيام الرايخ الثالث. كما حقق أهم المباديء التي جاءت في (كفاحي) وكان من نتائجها أن إنصبت البلايا على رؤوس ملايين البشر داخل ألمانيا وخارجها.

كانت أولى مواد المنهج تدعو الى وحدة كل الألمان في "ألمانيا الكبرى". أليس هذا ما كان يصبر عليه بالضبط (هتلر المستشار) عندما ضم النمسا بملايينها الستة من الألمان وأرض السوديت بملايينها

٢٤- كان (هاربر) يعارض أيضاً في عنف هتلر بمبادئه للسامية. وكان يعتقد أنه ينقّر جماهير الطبقة العاملة، وهنا يكمن السبب الحقيقي لإستقالته.

* طبيب يتبع أسلوباً في المعالجة بإعطاء المريض جرعات صغيرة من دواء معين لو أعطي لشخص سليم لأحدث فيه أعراضاً شبيهة بالمرض المعالج.

٢٥- المرجع السالف، الص ٣٦٩-٣٧٠.

الثلاثة؟ وألم يكن طلبه إعادة الدانزك Danzig الألمانية وغيرها من المناطق الألمانية في بولندا التي تسكنها غالبية من الألمان هو الذي أدى الى هجومه على بولندا ونشوب الحرب العالمية الثانية؟ ألا يمكننا الإضافة الى هذا قولنا أن من أنكد حظوظ هذه الدنيا أن ظل الناس يتجاهلون أو يستخفون بأهداف النازية التي سطرها كتابته في فترة ما بين الحربين؟ لاشك أن المواد الأولية لمعاداة الشعوب السامية المنصوص عليها في ذلك المنهاج الذي دون في مشرب بيرة مونيخ مساء يوم ٢٤ شباط ١٩٢٤ كانت إنذاراً هائلاً مريعاً. فقد نصت على تحريم الوظائف وحقوق المواطنة على اليهود في ألمانيا ومنعهم من العمل في الصحافة وطرد كل الذين دخلوا الرايخ بعد الثاني من آب ١٩١٤.

هناك عدة مواد في منهاج الحزب تضليلية وضعت لإجتذاب مشاعر الطبقات الدنيا. في زمن كانوا يرزحون تحت أوضاع سيئة في الوقت الذي تحاشى الشعارات المتطرفة حتى الشعارات الاشتراكية منها. فالفقرة الحادية عشرة مثلاً تدعو الى إلغاء الدخول التي لاتأتي من العمل. والمادة الثانية عشرة تقضي بتأميم الإحتكارات والمادة الثالثة عشرة تدعو الى مساهمة الدولة في أرباح الصناعات الكبرى. والمادة الرابعة عشرة قضت بإلغاء بدلات إيجار الأرض وتحريم المضاربة بها بيعاً وشراءً. والمادة الثامنة عشرة فرضت عقوبة الموت على الخونة والمرايين والمتلاعبين بالأسعار والمادة السادسة عشرة دعت الى بناء طبقة متوسطة قوية وشددت على تأميم المخازن الكبرى وتأجيرها بإيجارات رخيصة للتجار الصغار، هذه المسائل أدرجت بإلحاح من (دركسلر) و(فيدر) اللذين كانا على ما يبدو يؤمنان بـ(إشتراكية) القومية الإشتراكية. وهي الآراء التي وجدها هتلر فيما بعد محرجة له عندما بدأ رجال الصناعة الكبار والإقطاعيون يصبون المال صباً في خزانة الحزب. وهو بالطبع لم يفعل شيئاً بخصوصها.

أخيراً هناك فقرتان في المنهاج أسرع بوضعهما في حيز التنفيذ حالاً عندما أصبح مستشاراً. وهما الفقرة الثانية التي دعت الى إلغاء معاهدتي فرساي وسان جيرمان. والفقرة الأخيرة الخامسة والعشرون التي شددت على خلق حزب مركزي للدولة وهي كالمادة الأولى والثانية تطالب بوحدة كل الألمان في رايخ واحد وإلغاء معاهدات السلم كلها وقد أدرجت بإصرار هتلر. وهي توضح أن الحزب كان حتى ذلك الزمن يمد أبصاره الى آفاق بعيدة رغم أنه غير معروف خارج مونيخ غير مبالٍ بخطر فقدانه المعونة الجماهيرية في معقله الخاص.

كانت الدعوة الى الانفصال قوية جداً في بافاريا آنذاك. والبافاريون مختلفون دائماً مع الحكومة المركزية في برلين حول طلبهم مزيداً من اللامركزية ليتسنى لبافاريا حكم نفسها وهو ما كانت تفعل في ذلك الحين. فقرارات برلين وأوامرها لاتحترمها الحكومة الإقليمية كثيراً. وكان هتلر يطمح الى السلطة لا في بافاريا كلها بل في الرايخ فيما بعد. وأراد أن يقيم ويمارس نظاماً دكتاتورياً يتصور أنه ضروري ليكون به سلطة مركزية قوية. ويريد إلغاء الحكم شبه الذاتي للأقاليم الذي تبنته جمهورية فايمر كما كان في عهد إمبراطورية هوهنزلرن. حيث كان كل إقليم يتمتع ببرلمان وحكومته. ومن أول أعماله بعد ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ أنه حقق فوراً هذه الفقرة الأخيرة من منهاج الحزب التي لم

يلحظها أحد ولم تؤخذ مأخذ الجد إلا عند القلة. لا أحد يستطيع الإدعاء إنه لم يُعطَ إنذاراً سابقاً عن طريق الكتابة، من البداية.

لم تكن الخطب الحماسية والمنهاج الخداع الموضوع إعتباطاً بالتي تكفي لجلب الإهتمام والحصول على التأييد الشعبي، مع أنها ضرورية لحزب ما يزال وليداً. فلذلك إنصرف هتلر الى إيجاد المزيد من وسائل الدعم، والمزيد جداً. وبدأت تباشير عبقريته الغريبة تظهر للعيان وتلمس لمساً. ففكر أن ما تحتاجه الجماهير ليست أفكاراً وحسب - أفكار قليلة بسيطة يمكن دقها دقاً في رؤوسها - بل هي في حاجة الى رموز تكسيبها إخلاصها والى مهرجانات وبيارق ترفع من حماسيتها والى أعمال إرهابية عنيفة تزيد من أشياعه ومريديه في حالة نجاحها (أليس من طبع الألمان محبة الطاغية القوي؟) وتمنحهم شعوراً بسلطانهم على الضعفاء الخائرين.

وقد وجدنا كيف إستنكر في قيينا ما سماه "أساليب الإرهاب الروحي والجسدي الشنيع" الذي زعم إن الديمقراطيين الإشتراكيين كانوا يمارسونه ضد خصومهم السياسيين^(٢٦).

ها هو الآن يستخدم تلكم الأساليب لغرض مفيد داخل حزبه المعادي للإشتراكية. فبالأول كلف الجنود القدماء بإسكات مثيري الشغب في أثناء الاجتماعات. وفي صيف العام ١٩٢٠ وبعد أن أضاف الى عنوان الحزب لفظتي (القومية الإشتراكية) فأصبح "الحزب القومي الإشتراكي للعمال الألمان" وهو الإسم الذي عرف بعدئذ، نظم زمراً من "المحاربين القدماء" الغلاظ في فصائل صدامية سماها (حرس النظام Ordenrtuppe) وأناط قيادتها بأميل موريس Emil Maurice وهو مجرم من أرياب السوابق ومصالح ساعات. وفي ٥ تشرين الأول ١٩٢١، وبعد أن تنكر هؤلاء تحت عنوان "عصبة الجمناسستيك والألعاب الرياضية" فترة قصيرة من الزمن للتخلص من تعقيب حكومة برلين، بادروا بتبديل إسمهم رسمياً الى "فرق العاصفة Sturmabteilung" الذي إشتق منه إسم (إس.أي) وهو إختصار لكلمة "جندي العاصفة". وإرتدى جنود العاصفة هؤلاء لباساً رسمياً بنياً وجُند معظمهم من مسرّحي أفراد (المحاربين الأحرار) ثم جعلوا تحت قيادة (يوهان أولريخ كلينتزيتز Johann Ulrich Klitzsch) وهو أحد مساعدي الكابتن (إيرهارد) السيء الصيت، الذي كان قد أطلق سراحه من السجن مؤخراً لعلاقته بمقتل (إيرزبرغر). هؤلاء الأوباش ذوو البزات الموحدة لم يقنعوا بواجب حفظ النظام في اجتماعات النازيين وإنما راحوا يشيعون الفوضى في اجتماعات الأحزاب الأخرى. ومرة في ١٩٢١ قاد هتلر بنفسه هجوماً على إجتماع للفيديريين الباقيين وكان يخطب فيه باللرشتيد Ballerstedt. فأعتدي على الخطيب بالضرب وحُكم على هتلر بالحبس ثلاثة أشهر لذلك السبب فقضاها كلها وكانت أولى تجاربه في السجن خرج منها أشبه بالشهيد وهو أكثر شعبية وعقب هتلر بقوله للشرطة متباهياً "لا بأس في هذا فقد نلنا ما أردناه ولم ندع باللرشتيد يخطب". كان هتلر قد خطب في مستمعيه قبل ذلك بشهر قائلاً: "إن حركة القوميين الإشتراكيين ستمنع في المستقبل بالقوة إن لزم الأمر - ستمنع كل الاجتماعات والخطب التي من شأنها حرف عقول أبناء وطننا"^(٢٧).

٢٦- أنظر ما سبق.

٢٧- كونراد هايدن "تاريخ القومية الإشتراكية" ص٣٦. معاهدة فرساي وقّعها الحلفاء مع ألمانيا في ٢٨ حزيران =

وفي صيف ١٩٢٣ خرج هتلر الفنان الشاب الخائب الذي أصبح الآن أستاذاً في فن الدعاية - بفكرة ملهمة لا يمكن وصفها إلا بأنها إحدى ومضات العبقرية. وجد أن ما يفتقر إليه الحزب هو علم وشعار ورمز. تعبر كلها عن أهداف الحركة وتأسر خيال الجماهير التي وجدها هتلر بحاجة إلى علم جذاب تسير خلفه وتحارب تحته. وبعد كثير من التأمل والتجارب في مختلف النماذج قرأ رأيته على علم أحمر في وسطه دائرة بيضاء رُسم داخلها سواستيكا سوداء. إن هذا الصليب المعقوف Hakenkreuz المستعار من الآثار القديمة الموعلة سيغدو رمزاً جباراً مخيفاً للحزب النازي ثم لألمانيا النازية. ولم يتحدث هتلر في (كفاحي) عن المصدر الذي إستقى منه فكرة إستخدامه علماً وشعاراً للحزب في كل حديثه الطويل عنه. إن الصليب المعقوف هو قديم قدم الإنسان في هذا الكوكب تقريباً. وقد وجد في خرائب (طرواده) وفي مصر والصين القديمتين. ووجدته أنا نفسي في مآثر الهنود والبوذيين. وظهر أيضاً في أزمان متأخرة كشعار رسمي لدى دول البلطيق كإستونيا وفنلندا حيث رآه "المحاربون الأحرار" أثناء حروب ١٩١٨-١٩١٩. ونقشت ككتيبة إيرهارد على خوذ رجالها الفولاذية هذا الرمز عند دخولها برلين في إنقلاب كاب العسكري ١٩٢٠. ولأشك أن هتلر شاهده في النمسا في شعارات أحد الأحزاب اللاسامية. أو ربما إنتبه إليه عند مجيء كتيبة إيرهارد إلى مونيخ. وهو يقول في هذا أن كثيراً من النماذج أقترحت عليه وعرضها أعضاء الحزب ومن بينها الصليب المعقوف، وإن مركب أسنان من شتيرنبرك Sternberg تقدم بتصميم لعلم "لم يكن شيئاً أبداً بل هو قريب جداً من تقويمه الخاص". أما بخصوص الألوان فقد إحتوى الأسود والأحمر والذهبي وهي ألوان علم جمهورية فايمر المكروهة. وأبى إتخاذ العلم الإمبراطوري القديم المؤلف من الأحمر والأبيض والأسود. على أنه كان معجباً بتلك الألوان ليس لأنها "أجمل تناسق لوني في الوجود" على حد قوله. بل لأنها ألوان ألمانيا التي تحارب لأجلها. لكن يجب أن يتم التآليف بينها في هيئة جديدة. فأضيف إليها الصليب المعقوف. وأشاد هتلر بإختراعه الفريد في (كفاحي) فهتف يقول: إنه لرمز حقاً. في الأحمر نرى فكرة الإشتراكية بحركتنا. وفي الأبيض تتجلى الفكرة القومية. وفي السواستيكا رسالة الكفاح لإنتصار الرجل الآري^(٢٨).

وإستحدثت عصاية كتف بالصليب المعقوف لبزة جنود العاصفة وأعضاء الحزب. وبعدها بسنتين صمم هتلر العلم النازي الذي يرفع في الإستعراضات الكبيرة ويزين منصات الإجتماعات العامة. وهو مأخوذ من المآثر الرومانية. ويتألف من السواستيكا الأسود المعدني في رأس العلم يحيط به أكليل فضي ويجثم فوقهما نسر وتحته الأحرف الأولى من إسم الحزب (N.S.D.A.P) في مستطيل معدني وتندلى منه خيوط تنتهي بأهداب ويعذبات يخرج منها شعار العلم وهو مربع فيه السواستيكا وقد نقشت عليه عبارة Deutschland Erwach! أي "يا ألمانيا إستيقظي!".

ربما لايفصح كل هذا عن شيء من الفن. إلا أنه دعاية من أعلى درجة. لقد أصبح للنازي الآن شعار

= ١٩١٩، ومعاهدة سان جرمان وقّعها الحلفاء مع النمسا في ١٠ أيلول ١٩١٩.
٢٨- (كفاحي) الص ٤٩٦-٤٩٧.

لايضاهيه شعار أي حزب آخر. ويبدو أن الصليب المعقوف يتضمن قوة غامضة ذاتية. مشيراً الى عمل ذي إتجاه جديد تنهض بأعبائه الطبقة دون الوسطى التي كانت تنتابها الحيرة والتردد لأولى سنوات ما بعد الحرب الحافلة بالفوضى. لقد بدأ أعضاء هذه الطبقة يتقاطرون ويتجمعون تحت علمه هذا.

-٣-

مجيء الزعيم (الفوهرر)

في صيف عام ١٩٢١ لم يعتم هذا الشاب الكثير الشعب الصاعد النجم الذي أظهر موهبة خطابية عجيبة، ومقدرة في الدعاية والتنظيم - أن تسلم قيادة الحزب دون منازع. ويعمله هذا أذاق رفاقه العمال أول طعم من قسوته ومكره وتاكتيكة الماهر الذي قدر له أن يحقق به كثيراً من النجاح في الأزمات الكبرى.

ورحل الى برلين في أوائل الصيف للإتصال بالعناصر القومية في ألمانيا الشمالية وإلقاء خطاب في المنتدى القومي الذي كان مقرهم الفكري. أراد تقدير احتمالات مدّ حركته الى ما وراء الحدود البافارية وشمولها باقي ألمانيا. فلعله مستطيع عقد تحالف نافع لهذا الغرض وفيه هو بعيد عن مونيخ قرر أعضاء لجنة الحزب أن الوقت مناسبٌ لتحدي زعامته فقد أصبح أشد دكتاتورية مما يطبقون وإقترحوا إقامة تحالف بينهم وبين ندوات تشابههم فكرياً في ألمانيا الجنوبية وبخاصة الحزب الاشتراكي الألماني الذي يبنيه (يوليس شترايخر) عدو هتلر اللدود وخصمه المنافس ومعدّب يهودي سيء الصيت في نورمبرك، وكان أعضاء اللجنة واثقين أن إندماج هذا الحزب مع زعمائه الطموحين سيقفل من نفوذ هتلر ويحدّ دكتاتوريته.

ولما أحسّ بما يتهدد مركزه أسرع بالعودة الى مونيخ لسحق تآمر هؤلاء (المجانين الأغبياء) كما وصفهم في (كفاحي) وقدم إستقالته من الحزب ولم يكن بالحزب طاقة على هذا كما أدرك أعضاء اللجنة بسرعة. فهتلر أقوى خطبائهم وأبرع منظميهم ودعاتهم. زد على ذلك أنه كان يجمع بمجهوده معظم مالية الحزب من الإكتتابات والإجتماعات العلنية التي يخطب فيها ومن مصادر أخرى بضمنها الجيش. فلو أنه إستقال فسوف يتحطم الحزب الوليد. رفضت اللجنة إستقالته وبذلك تقوى مركزه. وفرض على الزعماء الآخرين الإستسلام المطلق له. وطلب لنفسه سلطات دكتاتورية بوصفه زعيماً أوحده. وطالب بحلّ اللجنة ووضع حدّ لحبك الدسائس والمؤامرات مع أحزاب أخرى مثل حزب (شترايخر) وكان هذا فوق طاقة أعضاء اللجنة الآخرين. فقاموا بزعامة مؤسس الحزب (أنطون دركسلر) بتوجيه لائحة إتهام لدكتاتور الحزب المقبل ووزعوها بكراسة وكانت أقسى تهمة موجهة اليه من صفوف حزبه نفسه، من أولئك الذين هم أعرف الناس بخلقه وكيفية عمله بحكم قربهم منه: "إن الشهوة الى السيطرة، والطموح الشخصي دفعا هر أدولف هتلر الى العودة بعد ستة أسابيع من مكوثه في برلين لغرض لم يُكشف عنه بعد. إنه يرى الوقت مواتياً لشقّ وحدة صفوفنا وبذر الشقاق.

مدعماً بأناس ذوي نيات مشبوهة وراءه، وهو بهذا يدعم مصالح اليهود وأشياعهم. وبدأ يتضح شيئاً فشيئاً إستخدامه حزينا القومي الإشتراكي لوح قفز الى غاياته اللاأخلاقية والى القبض على زمام الزعامة ليدفع الحزب الى مسلك آخر في اللحظة السايكولوجية المناسبة. وهذا جلي من الإنذار الذي قدّمه الى أقطاب الحزب قبل أيام قليلة يطلب فيه (بين طلبات أخرى) منحه دكتاتورية مطلقة فردية على الحزب وأن تُنحى اللجنة ويضمّنها صانع الأقفال (أنطون دركسلر) مؤسس الحزب وقائده...

كيف تراه يخوض معركته هذه؟ مثل يهودي تماماً يحور كل حقيقة ووصف هايدن هذه الواقعة بقوله أنها تشبه إنتصار "فرسان" الحزب. على "ذوي الرؤوس المستديرة" منه، لكنه كان أكبر من هذا إذ ما جاء تموز ١٩٢١ حتى أنشأ هتلر "مبدأ الزعامة" الذي قدر له ان يكون دستوراً للحزب النازي أولاً ثم دستوراً للرايخ الثالث. لقد ظهر الزعيم (الفوهرر) على المسرح الألماني راح هذا الزعيم يعيد الآن تنظيم الحزب. فترك غرفة المغسل في الجناح الخلفي من حانة (شتيرنجربراو) التي وصفها (بعرية نقل الموتى أكثر منها دائرة) وانتقل الى مقرّ جديد في مشرب آخر في شارع كورنيليوس Corneliusstrasse أكثر ضياءً ورحابة. وإبتاع آلة كاتبة من ماركة (أدler) بالتقسيط وخزانة حديدية ودولاباً لحفظ الأوراق وآثاءاً ونصب تلفوناً واستخدم سكرتيراً بأجرة كاملة، كل ذلك حققه بالتدريج. وبدأ المال ينصب. كان قبل سنة تقريباً قد إبتاع (في كانون الأول ١٩٢٠) جريدة خاملة الذكر مثقلة بالديون اسمها (فولكشر بيوباختر Voelkscher Beobachter وهي جريدة إشاعات وحكايات معادية للساميين تصدر مرتين في الأسبوع. من اين جاءت الستون ألفاً من الماركات وهو ثمن شرائها؟ انه لسرّ نجاح هتلر في كتمانها. لكن من المعروف أن (إيكارت) و(روهم) أقنعا الميجر جنرال ريتز فون إيب Ritter Von Epp وهو قائد (روهم) وعضو في الحزب أن يزودهم بالمبلغ وأرجح الظن أنه صرفه من إعتمادات الجيش السريّة. وفي بداية ١٩٢٣ أصبحت الجريدة يومية ومنحت هتلر الأداة اللازمة لأي حزب سياسي ألماني. جريدة يومية يبشر فيها بانجيل الحزب. هذا ولاشك ان اصدار جريدة يومية سياسية يتطلب نفقات إضافية. وقد جاءت الآن من مصادر بدت غريبة مشبوهة لبعض الأعضاء الأكثر بروليتارية وتعصباً في الحزب. كانت السيدة هيلينه بخشتاين Helene Bechstein (زوج صاحب مصنع للبيانو ثري) أحد تلك المصادر. فقد اعجبت بهتلر في أول مقابلة ودعته ليحل ضيفاً في منزل بخشتاين في برلين كلما زارها. ونظمت حفلات لجمع مبالغ كبيرة بشكل إكتتابات للحركة. وجاء قسم من مالية الجريدة من السيدة غرتروود فون سايدليتز Gertrud Von Seidlitz وهي بطبيعية النشأة تملك اسهماً في مصانع ورق فنلندية شهيرة.

وفي آذار ١٩٢٣ تقدم المدعو "أرنست (بوتزي) هانفشتانگل Ernst (Putzi) Hanfstoengl وهو خريج جامعة هارفرد، وأمّه أمريكية أسرته المثقفة الفنية تملك دار طباعة فنية في مونيخ، ومنح قرضاً للحزب بمبلغ ألف دولار موثقاً برهن على جريدة (فولكشر بيوباختر^(٣١)). وكان مبلغاً ضخماً خيالياً

* في الحرب الأهلية الإنكليزية التي نشبت بين الملك چارلس الأول وبين البرلمان إنتهت بإعدامه في ١٦٤٨ عرفت القوات الملكية بفرسان الملك، وقوات البرلمان بذوي الرؤوس المستديرة.

٣١- يقول هانفشتانگل في مذكراته الموسومة (الشاهد الذي لم يدل بأقواله) أنه تعرف بهتلر لأول مرة عن طريق معاون =

إذا حول إلى ماركات في أيام التضخم النقدي وبذلك قدم خدمة هائلة للحزب ولجريدته. إلا أن صداقة آل هانفشتانكل تعدت المساعدة المالية. لقد كانت واحدة من أولى الأسر المحترمة الغنية في مونيخ فتحت أبواب منزلها لهذا السياسي الشاب الجريء. وأصبح (بوتزي) صديقاً حميماً لهتلر الذي ما لبث أن عينه رئيساً لقسم الصحافة الخارجية في الحزب وهانفشتانكل هذا رجل غريب الأطوار سهل الإنقياد تعوض دعايته ونكته التهكمية بعض التعويض عن ضحولة فكره. وهو عازف هاوٍ على البيانو. كان بعد وصول صديقه الحميم إلى برلين يستأذن منا ويتركنا معتنزاً لمن هم معه بلزوم إستجابته دعوة عاجلة من (الفوهرر). وقيل أن عزفه على البيانو العنيف الشديد وقيامه بدور المضحك كان يريح اعصاب هتلر بل ينعشه بعد يوم مضنٍ شاق. هذا الرجل الغريب الأطوار الميال إلى الدعاية، خريج هارفرد، اضطر فيما بعد - مثل بعض زملاء هتلر القدماء إلى الفرار من البلاد ناجياً بجلده (٣٢).

ومعظم من قدر لهم أن يصبحوا أقرب رؤوسيه. كانوا الآن أعضاء في الحزب. أو أنهم إنضموا إليه بعد قليل من هذا التاريخ. فقد انضوى (رودلف هيس) سنة ١٩٢٠. وهو ابن تاجر جملة ألماني سكن مصر. وقد قضى هيس سنواته الأولى الأربع عشرة في تلك البلاد ثم عاد إلى (الراين) لتلقي

= الملحق العسكري في السفارة الأمريكية ببرلين يومذاك. وهو الكابتن ترومان سميث. كانت السفارة قد أرسلته إلى مونيخ في تشرين الثاني ١٩٢٢ ليستطلع أمر داعية سياسي حامل الذكر يحوطه الغموض يدعى أدولف هتلر وإن يجمع معلومات عن حزبه الجديد. وكان هذا الضابط ذا تتبعات في علم التحليل السياسي. وأفلح في أثناء بقائه أسبوعاً (من ١٥-٢٢ تشرين الثاني) في مقابلة لودندورف وولي العهد الأمير روبرخت Rupprecht وأكثر من عشرة من الزعماء السياسيين في بافاريا. وأكد له معظمهم أن هتلر هو الشهاب الصاعد. وحركته قوة سياسية سريعة النمو. ولم يضع سميث دقيقة واحدة بل أسرع لحضور مهرجان نازي علني خطب فيه هتلر فكتب في يومياته "لم أر منظرًا مثله في حياتي. قابلت هتلر ووعدني أن يتحدث معي يوم الإثنين ويشرح لي أهدافه" وقصد سميث مسكن هتلر "... غرفة صغيرة للنوم في الطابق الثاني في بيت متواضع. قليلة الأثاث" وقد جرى له حديث طويل مع الدكتاتور المقبل الذي لا يعرف عنه شيء خارج مونيخ "ديماكوكي عجيب!" بهذه العبارة بدأ سميث الشاب يومياته مساء ذلك اليوم "لم أصغ في حياتي إلى رجل مثل هذا الرجل المتعصب المنطقي". وكان تاريخ المدونة في ٢٢ تشرين الثاني. وقبل مغادرته مونيخ ذلك اليوم سعى لمقابلة هانفشتانكل. وأعلمه بما جرى بينه وبين هتلر ونصحه أن يتعرف به. وكان مقرراً أن يلقي هتلر خطاباً في اجتماع يتم مساء اليوم فدفع الكابتن لهانفشتانكل ببطاقة الدعوة الصحفية. وسحر الشاب مثل كثيرين ببيان هتلر وتعرف به بعد الاجتماع. وما لبث أن إهتدى إلى النازية. وعلى اثر عودة سميث إلى برلين التي كانت تجهل هتلر إلا بالقليل، عمد إلى كتابة تقرير أسطوري عنه أرسل بالحقيبة الدبلوماسية إلى واشنطن في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٢٢. تقرير يدهش له المرء إن أخذ زمن كتابته بنظر الاعتبار. "إن انشط القوى السياسية في بافاريا الآن هي الحزب القومي الاشتراكي للعمال الألمان، انه حركة جماهيرية أكثر منه حزباً، ويمكن اعتباره صنواً للفاشية الإيطالية... لقد نال نفوذاً سياسياً كبيراً لا يناسب قط قوته العددية الحقيقية... كان هتلر من اللحظة الأولى القوة المهيمنة على الحركة ولاشك أن شخصيته كانت واحدة من أهم عوامل نجاحها... ان مقدرته في التأثير على الجماهير لا تبارى. وفي مقابلة خاصة لي معه وجدته محدثاً بارعاً يمازج التعصب المخلص فيخلف إنطباعاً جد عميق في السامع المحايد. كان كولونيل سميث الذي ظل ملحقاً عسكرياً في برلين أثناء حكم النازي الأول، قد تلطف فوضع تحت تصرف المؤلف مذكراته عن رحلته إلى مونيخ. وكانت قيمة جداً في اعداد هذا الفصل.

٣٢- قضى هانفشتانكل جانباً من سني الحرب العالمية الثانية في واشنطن. ظاهرياً بوصفه أجنبياً من الاعداء معتقلاً. لكنه كان في الحقيقة (مستشاراً) للحكومة الأمريكية في أحوال ألمانيا النازية هذا الدور الأخير من حياته الذي بدا هزلياً للغاية لكل من عرفه وعرف ألمانيا النازية من الأمريكان - لا بد وأنه استمتع به جداً.

العلم وفي زمن الحرب خدم مدة في (لواء ليست) وهو وحدة هتلر لكنهما لم يلتقيا فيه وجرح مرتين ثم أصبح طياراً. وبعد الحرب سجل طالباً في القسم الإقتصادي من جامعة مونيخ. ويظهر أنه قضى جل وقته يوزع نشرات لاساميّة. ووُجد في زخم النار



روزنبرگ

أثناء معركة ثلّ النظام السوفييتي في مونيخ في ١ أيار ١٩١٩ واصيب بجرح في ساقه. وبعد سنة قادته قدماء في إحدى الأمميات لسماع إحدى خطب هتلر فسحره بيانه فانضم الى الحزب وسرعان ما أصبح صديقاً مقرباً وتابعاً أميناً وسكرتيراً خاصاً للزعيم واليه يعزى الفضل في تعريف هتلر بأراء الجنرال كارل هاوسهوفر Karl Haushofer السياسية. وكان هذا أستاذاً لعلم السياسة الطبيعية Geopolitical في الجامعة.

جلب هيس إنتباه هتلر بأطروحة نالت جائزة الجامعة وعنوانها "مما يتكون المرء الذي سيقود ألمانيا الى مجدها السالف". وقد جاء فيها:

"عندما تزول السلطة كلّها، لا يستطيع إعادتها إلا رجل من عامة الشعب... كلما كانت جذور الدكتاتور مغروسة في تربة اوسع الجماهير كلما سهل عليه إدراك

كيفية معاملتهم سايكولوجياً. وكلما قلت ثقة العمال به وتصديقهم له كلما زاد كسبه أشياءً ومعارضين من الناس الأكثر نشاطاً وحيوية. وهو نفسه لا يربطه بالجماهير شيء لأنه شخصية قائمة بذاتها كأي رجل من العظماء... واذا حكمتها الضرورة لا يتعفف عن سفك الدماء ولا يحجم دونها. مشاكل عظيمة لا يقرّها ويفلح في تسويتها إلا الدم والحديد... وليكن مستعداً لوطء أقرب المقربين اليه عندما يمضي لبلوغ هدفه... يجب على هذا مانح القانون ومصدره ان يبدأ بعنف رهيب... وإن ادركته الحاجة فعليه أن يطاء الجماهير بحذاء المدفعي الثقيل..." (٣٣)

فلا عجب أن ضمّ هتلر هذا الشاب وقريه منه فتلك التي رسمها صورة ربما لاتتطابق صورة الزعيم يومذاك. إلا انها كانت الصورة التي تفرغ الى تحقيقها من شخصه. ولقد بقي هيس رغم جدّه ووقاره محدود الذكاء يتقبل دائماً أجوف الآراء ويتمتع بقبالية تبنّيها والتشيع لها بتعصب شديد وظلّ تقريباً الى النهاية واحداً من أخلص وأوثق أتباع هتلر وفرداً من القلة التي لم تصبهم شهوة الطموح الشخصي، وكان (ألفريد روزنبرگ Alfred Rosenberg) ذا ذكاء دون الوسط هو الآخر وإن كثيراً ما وصف بكونه "الزعيم الفكري" للحزب النازي، وهو عملاً "فيلسوفه" ويمكن إعتباره روسياً، فهو ككثير من المثقفين الروس إنحدر من أسرة ألمانية بلطيقية. أبوه صانع أحذية وقد ولد له في ١٢ كانون

الثاني ١٨٩٣ في مدينة ريثال (آلان تالين) بأستونيا التي كانت جزءاً من روسيا القيصرية منذ ١٧١٢ واختار ان يتلقى علومه في روسيا لا في ألمانيا فنال دبلوم الهندسة المعمارية من جامعة موسكو في ١٩١٧ وعاش في هذه المدينة أيام الثورة البلشفية. وربما دأبته فكرة صيرورته ثورياً بلشفيّاً على زعم بعض خصومه في الحزب النازي. وعاد الى (ريثال) في ١٩١٨ وتطوع في الجيش الألماني عندما بدت طلائعه في مشارف المدينة، لكنه رُفض لكونه روسي الجنسية. وأخيراً نزع الى مونيخ في أواخر العام ١٩١٨ ونشط هناك أولاً في حلقات المهاجرين من الروس البيض.

وهنا التقى به (دتيش إيكارت) وعن طريقه تعرّف بهتلر وانخرط في صفوف الحزب في أواخر العام ١٩١٩ ولم يكن ثم مندوحة من ان يصبح مصدر إهتمام من ذلك الذي فشل حتى في دخول مدرسة الهندسة المعمارية لانه حائز على دبلومها. كذلك أعجب هتلر (بثقافته) وأحب في الفتى البلطقي بغضه اليهود والبلشفيك. وقبيل موت (إيكارت) في آخال عام ١٩٢٣ أسند اليه رئاسة تحرير جريدة الحزب وظلّ سنيّاً عديدة يدعم ويسند هذا الرجل المشوش العقل تماماً، هذا الفيلسوف الضحل الملتاث، ويرى فيه المعلم الفكري للحركة النازية، واحداً من المراجع الرئيسية في السياسة الخارجية. وك(رودلف هيس) نزع (هرمان غورنغ) الى مونيخ بعيد الحرب بقصد دراسة الاقتصاد في جامعته كما يبدو، ووقع هو الآخر تحت سحر شخصية هتلر. كان (غورنغ) أحد أبطال الشعب الألماني الأسطوريين. فهو آخر قائد لسرب مقاتلات (ريشتوفن Richthofen) الشهير. وحامل وسام "الإستحقاق Pour le Merite وهو أرفع أوسمة الحرب في ألمانيا. وجد أكبر صعوبة في العودة الى الحياة المدنية الهادئة الخالية من الضجة وخدم طياراً في طائرات نقل بالداغرك مدة من الزمن ثم تحول الى (السويد). وفي ذات يوم طار بالكونت ايريك فون روزن Eric Von Rosen إلى مزرعته التي تبعد مسافة عن (ستوكهلم) وفي أثناء نزوله ضيفاً على الأسرة علق بحب أخت الكونتس روزن. وهي كارين فون كانتزوف Carin Von Kontzow ولقبها العائلي الاصلي البارونة (فوك Fock) كانت إحدى جميلات السويد المعدودات. وظهرت عوائق أمام هذا الحب (كارين) مصابة بداء الصرع، متزوجة وأم لصبي في الثامنة. على انها تمكنت من إلغاء عقد زواجها والإقتران بالطيار البطل الشاب. وكانت غنية فرحلت مع زوجها الجديد الى مونيخ حيث راحا يعيشان عيشة مترفة وانشغل هو بدراساته في الجامعة.

ولم يطل به الوقت حتى إلتقى بهتلر وانضم في ١٩٢١ الى الحزب وساهم بسخاء في تمويله ومد هتلر بالمال لنفقاته الخاصة ووقف نشاطه المشاير على تنظيم فرق العاصفة. وبعد سنة نصب قائداً لفصائل ال(إس.أي). عام ١٩٢٢.

هنالك رهط كبير أقل شهرة ومعظمهم أناس لا ميزة بارزة فيهم انتظموا حلقة حول دكتاتور الحزب. فهناك مثلاً (ماكس أممان Aamann) عريف هتلر المباشر في (لواء ليست) وهو شخص فظ غليظ إلا انه منظم قدير. عين مديراً لشؤون الحزب المالية ولجريدته. وسرعان ما شاع الاستقرار والثبات في ماليتهما. واختار هتلر (أولريخ گراف Ulrich Graf) حارساً شخصياً. وهو مصارع هاوي ومساعد قصاب



فردريك الرابع - ملك الدانمرك

محب للعراك. واختص بمصور واحد ظل عدة سنين يسمح له فقط بتصويره وهو هاينريخ هوفمان الأعرج Heinrich Hoffmann الذي كان إخلاصه له شبيهاً بإخلاص الكلاب وقد انتفع من هذا الامتياز فصار ميلونيراً. هنالك (صعلوك) آخر اسمه كريستيان ووبر Cristian Weber وهو تاجر خيول ومحتال سابق وقواد في إحدى موأخير مونيخ وشريب بيرة لايشق له غبار كان من مقربي هتلر في تلك الأيام. و(هرمان إيسر Hermann Esser) وهو ذو مقدرة خطابية تضاهي مقدرة زعيمه كانت مقالاته اللاسامية في جريدة الحزب من الافتتاحيات الهامة. لم يتورع عن الفخر بأنه كان يعيش على حساب بعض عشيقاته. وهو ممتز سيء الصيت اختص بتهديد ضحاياه بالكشف عن أسرارهم ولم يسلم منه أحد، حتى رفاقه الحزبيين الذين يخاصمونه. وكرهه القدامي الأقل تفسخاً وطالبوا

بطرده فاجاب هتلر علناً "انا اعرف أن (إيسر) نذل ساقط لكني سأبقي عليه ما دام مفيداً لي"^(٣٤) وهذا هو موقفه المعتاد ازاء كل الأعوان المقربين. لايهمه مبلغ سواد ماضيهم أو حاضرمهم. فالقتلة والقوادون والمنحرفون جنسياً والأوباش ومدمنو المخدرات، هم سواسية لا غبار عليهم إن خدموا غاياته وحققوا مآربه.

وعلى سبيل المثال وقف الى النهاية يدعم يوليوس شترايخر، هذا السادي الحقيير الشديد الوضاعة الذي بدأ معلم ابتدائية. وكان من أسوأ الناس الذين إلتفوا حول هتلر سمعة وبقي كذلك من العام ١٩٢٢ حتى ١٩٣٣ عندما أفل نجمه. انه لفاسق يشار اليه بالبنان. يفخر بابتزازه المال من أزواج النساء اللاتي يعاشرهن. بنى شهرته وثراءه من تعصبه اللاسامي الأعمى وجريدته الأسبوعية (دير شتورمر) السيئة النقيبة كانت حافلة بالقصص الشنعاء عن جرائم اليهود الجنسية وقتلهم الناس لأغراض دينية. كان فحشها وبذاءتها يصيبان المرء بالقيء والغثيان حتى لدى كثير من النازيين واشتهر بمزاولته تجارة الادبيات الخلاعية الفاجرة وعرف بلقب (ملك فرانكونيا) غير المتوج وكان معقله نورمبرگ حيث كلمته هي القانون والويل لمن يتعرض له أو يقف بوجهه فلن ينجو من السجن والتعذيب. ما رأيته مرة إلا والكرباج في يده أو في حزامه، يفخر ضاحكاً بما لايمكن احصاؤه من عمليات الجلد التي قام بتنفيذها شخصياً. لم أره مرة واحدة متجرداً من سلاحه هذا إلا عندما وجدته في قفص المتهمين في محكمة نورمبرگ لمجرمي الحرب.

٣٤- هايدن "تاريخ القومية الاشتراكية" ص ٥٢.

أولئك هم الرجال الذين جمعهم هتلر حوله في أولى سنيّ إندفاعه الى هدفه. يصبح دكتاتوراً على أمةٍ منحت العالم رجالاً كلوثر Luther وكانت Kant وگوته Goethe وشلر Schiller وماركس Marx وباخ Bach ويتهوفن Beethoven وبراهم Brahms.

ترك هتلر الجيش في ١ نيسان ١٩٢٠ وهو اليوم الذي جرى فيه تبديل اسم حزب العمال الألمان بالحزب القومي الاشتراكي للعمال الألمان ومنه اشتق مختصر (نازي) وكرس كل وقته للحزب وأبى أن يخصص له أي راتب.

ولا يتمالك المرء نفسه من السؤال إذن كيف كان يعيش وما هو مصدر رزقه؟ وقد سأل ذلك أعضاء الحزب من العمال. ووضع بشكل صريح في لائحة الاتهام التي نظمها أعضاء لجنة الحزب الثائرين في تموز ١٩٢١، هكذا: "إن سأله أي عضو كيف يعيش وماذا كانت صنعته في الماضي، انتابه الغضب وثارت ثائرتة دائماً. حتى في هذه اللحظة ليس هناك أي جواب عن هذه التساؤلات، ولا يمكن والحالة هذه ان يكون نقي الضمير ولاسيما اتصالاته الدائمة الملفتة للنظر بالسيدات. ووصفه لنفسه أمامهن بأنه "ملك مونيخ" هذه الصلات الخارجة عن الحد المتعارف تكلف مالا كثيراً".

اجاب هتلر على السؤال في جلسة محاكمة دعوى القذف التي رفعها على مؤلفي الكراسية "عندما سأله القاضي عن موارد عيشه بالضبط فأجاب: "عندما أخطب في إجتماع للحزب القومي الاشتراكي لا أتقاضى أجره لنفسه. إلا اني اقبل اجوراً عندما أخطب لمنظمات أخرى... اما وجبة الغداء فأنا اتناولها مع مختلف رفاق الحزب كل بدوره. وأخيراً فأنا أتلقي مساعدات قليلة من بعض رفاق الحزب (٣٥)".

وربما كان هذا أقرب الامور الى الحقيقة فأصدقاء اثريا مثل ديتريش إيكارت وگورنك وهانفشتانكل يقرضونه مالا بلاشك ليدفع منه إيجار مسكنه وثمان ملابسه وطعامه ولاشك في أن حاجاته كان متواضعة قليلة فقد ظل حتى ١٩٢٩ يسكن شقة تتألف من غرفتين في أحد أحياء الطبقة دون الوسطى بشارع ثيرش Thierschstrasse قرب نهر إيسار Isar. وكان يرتدي معطفاً مطرياً عسكرياً في الشتاء عُرِف به لكل شخص في ألمانيا من عدة صور فوتوغرافية. وكان يبدو في كثير من الأحيان بسرّوَال قصير في موسم القيظ وهو زي معظم البافاريين المعروف باسم ليدرهوسن Lederhosen. وفي عام ١٩٢٣ وقع (إيكارت) و(إيسر) على حانة بلاترهوف Platterhof قرب (برختسگادن) فكانت مصيفاً لهتلر وأعوانه. واحبّ هذه البقعة الجبلية الجميلة وفيها بنى الفيلاً الفخمة التي عرفت باسم بركهوف Berghof لتكون مسكناً له يقضي فيها جل أيامه حتى نشوب الحرب.

على كل حال فلم يكن عنده وقت يخصصه للراحة والاستجمام في تلك الأيام المشحونة بالقلق ما بين العامين ١٩٢١ و ١٩٢٣. فالحزب يجب ان يكمل بناءً وقيبطته يجب ان تبقى محكمة عليه بعيداً عن متناول خصومه الجسورين المندفعين مثله. وهو لم يكن إلا واحداً من عدة احزاب يمينية في (بافاريا) تعمل جاهدة لاثارة إهتمام الرأي العام بها وجره الى معونتها. دعك من الاحزاب الأخرى

العديدة في ألمانيا.

كانت الحوادث تتوالى بشكل مذهل والتحولت سريعة مستمرة تتطلب من السياسي ان يرقبها ويحللها ليستفيد منها ففي نيسان ١٩٢١ قدم الحلفاء لألمانيا قائمة التعويضات المتضمنة مبلغاً لا يصدق: ١٣٢ بليون مارك ذهبي أي ما يعادل ٣٣ بليون دولار وراح الألمان يصرخون محتجين بأنهم لا يستطيعون الدفع وبدأ المارك (وقيمته الاسمية ربع دولار) يهبط بإطراد. وأصبح الدولار الواحد يسوى (٧٥) ماركاً في صيف عام ١٩٢١. ثم أصبحت قيمته بعد عام واحد (٤٠٠) مارك للدولار الواحد. وجرى إغتيال (ارزبرغر) في آب ١٩٢١ وفي حزيران عام ١٩٢٢ جرت محاولة إغتيال (فيليب شايدمان) الاشتراكي الذي أعلن قيام النظام الجمهوري. وفي الرابع والعشرين من الشهر نفسه أردي وزير الخارجية (راثناو) في الشارع برصاصة غادر. وفي قضايا الإغتيال الثلاث هذه كان القتلة من أقصى اليمين وردت الحكومة الوطنية المتضعضة في برلين على هذا التحدي أخيراً بسنّ قانون خاص عُرف بـ"قانون حماية الجمهورية" يتضمن عقوبات قاسية على الارهاب السياسي العصائياتي. لقد وجدت الحكومة البافارية برئاسة المعتدل الكونت (لرخنفلد Lerchenfeld) الذي خلف اليساري المتطرف (كاهر) سنة ١٩٢١، من الصعب عليها مماشة الحكم الوطني في برلين. وعند محاولتها تطبيق القانون الجديد ضد الارهاب نظم اليمينيون البافاريون (وقد أصبح هتلر يُعدّ من زعمائهم الشباب المعترف بهم) مؤامرة للإطاحة بحكم (لرخنفلد) والزحف على برلين لاسقاط الجمهورية.

كانت جمهورية (فايمر) الديمقراطية الوليدة غارقة في المتاعب الى أذنيها. ووجودها مهدد بلا انقطاع. لا بطغيان اليمين المتطرف وحده بل باليسار المتطرف ايضاً.

الفصل الثالث

فرساي، فايمر، مؤامرة مشرب البيرة

- ١ -

إن إعلان النظام الجمهوري في التاسع من تشرين الثاني ١٩١٨ بدا لمعظم الناس في بلاد الحلفاء المنتصرين دليلاً لفجر يوم جديد طلع على الشعب الألماني وعلى بلاده. ففي الرسائل المتبادلة التي ختمت بإعلان الهدنة، شدّد ودرو ولسن Woodrow Wilson بلزوم تصفية أوتوقراطية هوهنزولرن العسكرية. والظاهر أن إستجابة الألمان له كان يشوبها تردد. فقد أجبر القيصر على التنازل وترك البلاد. وألغى نظام الملكية وختم على مصائر كلّ الأسر المالكة في ألمانيا بسرعة وأعلنت حكومة الجمهورية. على أنها أعلنت بمحض الصدفة! ففي عصر اليوم التاسع من تشرين الثاني. اجتمع في الرايخشتاغ Reichstag ما دُعي بأغلبية النواب الاشتراكيين الديمقراطيون بزعامة (فردريك إيبرت) و(فيليب شايدمان) على أثر استقالة المستشار (الأمير ماكس بادن). وقد علتهم الحيرة، لا يدرون ما يفعلون. وبعد أن أعلن الأمير ماكس نبأ تنازل القيصر فكر (إيبرت) وهو سُرّوجي المهنة، بتنصيب أحد أبناء قلمهم: أي ابناً خلاف وليّ العهد الفاسق. لأنه كان يفضل النظام الملكي الدستوري وفقاً للنمط الانكليزي. كان (إيبرت) رغم زعامته للإشتراكيين يكره الثورة الاشتراكية حتى انه صرّح مرة بقوله "اني اكرهها (اي الثورة) كراهة تحريم".

إلا أن الثورة كان يتطايّر شواظها في جوّ برلين التي شلّت حركتها بالاضراب العام وفي شارع اونتر دن ليندن Unter den Linden العريض على مسافة قصيرة من الرايخشتاغ كان السبّارطاكيون Spar-tacists بقيادة الإشتراكيين اليساريين "روزا لوكسمبرگ Rosa Luxemburg وكارل ليبنخت Liebnecht" ينتهيأون من معقلهم في قصر القيصر لإعلان جمهورية سوفياتية وبوصول هذه الأنباء الى النواب الإشتراكيين في الرايخشتاغ إنتابهم الذعر ووجدوا من الضروري القيام بعمل يكبح فيه جماح الاسبّارطاكين. وفكّر (شايدمان) بأمرٍ وحزم رأيه دون ان يستشير رفاقه واندفع الى نافذة مظلة على كوينكزيلاتس Koenigsplatz حيث تجمعت حشود كبيرة فأطلّ برأسه وأعلنها جمهورية كأنها فكرة خاطفة قفزت الى رأسه! وعصف الغضب بالسروجي (إيبرت) فقد كان يأمل بحيلةٍ ما انقاذ عرش هوهنزولرن. وهكذا ولدت الجمهورية الألمانية كأنما ولدت بالصدفة. إن كان الإشتراكيون أنفسهم غير جمهوريين ولا يعتمد عليهم في ذلك، فكيف ينتظر أن يكون اليمينيون؟ على ان هؤلاء نزّلوا عن مسؤولياتهم وادعوا السلطة السياسية بالتضامن مع قائدي الجيش لودندورف وهندنبرگ - أيدي الديمقراطيين الإشتراكيين المترددين. ونجحوا بعملهم هذا في أن يضعوا على عواتق زعماء الطبقة



إيبيرت

العاملة الديمقراطيين هؤلاء مسؤولية التوقيع على معاهدة الإستسلام ثم معاهدة الصلح. وبهذا ازاحوا عن كواهلهم عبء اللوم في هزيمة ألمانيا وكل ما نجم من يلايا وشقاء عن الحرب الفاشلة وشروط الصلح، وما ستجره من ويلات على رؤوس الشعب الألماني. كانت حيلة مفضوحة يفهمها إين يومين لكنها نجحت في ألمانيا وقرر نجاحها مصير الجمهورية منذ البداية.

ولعلها ما كانت تقوى على تقرير ذلك، فقد كان الديمقراطيون الإشتراكيون في تشرين الثاني ١٩١٨ أصحاب السلطة المطلقة، ويوسعهم الإسراع في بناء أسس جمهورية ديمقراطية راسخة دائمة لكن عملهم هذا كان يتطلب منهم تفتيت كل القوى التي تدعم إمبراطورية هوهنزلرن ولا تريد أن تتقبل بإخلاص ألمانيا ديمقراطية، كانت تستطيع ضرب هذه القوى ضربة لا تقوم لها قائمة

بعدها أو على الأقل أن تكبح جماحها وتحد من سلطانها حداً أبدياً. هذه القوى هي ملاك الأرض من اليونكرز Junkers الإقطاعيين وأفراد الطبقة العليا وكبار رجال الصناعة الذين يهيمنون على الكارتلات الصناعية الاحتكارية الجبارة وقادة المحاربين الأحرار المتجولين والموظفين الكبار في حكومة القيصر ولاسيما الطغمة العسكرية وأعضاء هيئة القيادة العليا. كان ينبغي للإشتراكيين أن يحطّموا عدداً كبيراً من الإقطاعيات غير النافعة إقتصادياً ويسحقوا الاحتكارات الصناعية والكارتلات ويظهروا جهاز الحكم من البيروقراطية، ويصلحوا أجهزة القضاء والشرطة والجامعات والجيش ويظهروا من العناصر التي تكيد للنظام الجمهوري ولا تخلص له الولاء. وهذا ما عجز عنه أولئك الديمقراطيون الإشتراكيون ولم يحملوا أنفسهم على اجرائه لأن معظمهم كانوا نقابيين في رغد من العيش تعودوا الإنحناء إحتراماً للسلطة القديمة الطاغية، التي تشربت بها نفوس الألمان من مختلف الطبقات. وبدلاً من هذا راحوا ينزلون عن سلطتهم الى القوة التي كانت هي المسيطرة دائماً في تاريخ ألمانيا الحديث وأعني بها الجيش. ومع أن هذا الجيش مني بالهزائم في سوح القتال، فقد كان يحاول لمّ شعثه في الداخل ليهزم الثورة. وللوصول الى هذين الغرضين عجلّ بالحركة دون خجل أو حياء.

في ليلة ٩ تشرين الثاني ١٩١٨ بعد إعلان الجمهورية ببضع ساعات رنّ جرس التليفون في مكتب (إيبيرت) في مستشارية الرايخ ببرلين وهو تلفون خاص جداً لأنه متصل اتصالاً مباشراً بمقر القيادة العليا في شپا Spa بخط سري واحد. وكان (إيبيرت) بمفرده فالتقط السماعة وسمع عبارة: "المتكلم غروينر Groener!" فما سمع السروجي السابق الذي ما زال مشدوهاً بحوادث يومه والذي رفع الى يديه المترددين بكل ما تبقى من السلطات السياسية في ألمانيا الكابية حتى ركبتة الخيلاء. كان الجنرال

(فلهلهم فون گروينر) قد خلف لودندورف في منصب الرئاسة الأولى لهيئة الأركان العامة. وهو الذي تجرأ في ساعة مبكرة من ذلك اليوم في (شپا) على ان يقدم على أمرٍ نكص عنه رئيسه الأعلى الفيلد مارشال فون هندنبرگ فقد ابلغ بنفسه القيصر انه لم يعد حائزاً ولاء جنوده ومن الضروري ان يتنازل. وهو لاشك عملٌ يتسم بالجرأة لم تغفره له الطغمة العسكرية أبداً. وقد نشأت بينه وبين إيبيرت علاقة إحترام متبادل منذ العام ١٩١٦ لما كان الجنرال يقوم بالاشراف على الانتاج الحربي ويعمل بالقرب من الزعيم الإشتراكي. وكانا قبيل هذه الاحداث قد اجتمعاً في أوائل تشرين في برلين وبحثا فيما بينهما الوسائل الكفيلة بإنقاذ النظام الملكي لأرض الأجداد.

وفي هذه اللحظة بالذات في أخرج ساعة قرّبها أرض الأجداد يتصلان مرة أخرى بتلفون سرّي. ولم يطل الأمر بالزعيم الإشتراكي ونائب القائد العام للجيش حتى عقدا صفقة لم يظهر مكنونها للملأ إلا بعد عدة سنوات. هذه الصفقة قدر لها أن تقرر مصير البلاد. لقد إتفقا على قمع (الفوضى) ومكافحة البولشفية والمحافظة على الجيش بكل تراثه وتقاليده. وتعهّد (گروينر) مقابل ذلك أن يقوم الجيش بعضد الحكومة الجديدة ومعاونتها على تثبيت نفسها وتحقيق أهدافها. وسأل (إيبيرت):

- هل سيعود الفيلد مارشال هندنبرگ لتسلّم القيادة؟ فأجابه (گروينر) انه سيفعل؛ فقال إيبيرت:

- اذن بلّغ الفيلد مارشال شكر الحكومة^(١)

وبهذا كتبت النجاة للجيش الألماني. إلا ان الجمهورية هوت في أول يوم من ميلادها. ولم يخدمها أحد من الجنرالات بإخلاص عدا (گروينر) وقلة تافهة. ثم انهم خانوها أخيراً بزعامه (هندنبرگ) نفسه وسلموها للنازيين لقمة سائغة.

في تلك اللحظة كان ما حصل في روسيا يشغل بال إيبيرت وغيره من الإشتراكيين. انهم لم يكونوا يريدون ان يؤولوا الى ما آل اليه (كرنسكي Kerensky). ولا يريدون أن يكتسهم البولشفيك. ففي كل بقعة من ألمانيا كانت سوفياتات الجنود والعمال تبرز الى عالم الوجود وتتسلم السلطة طبق ما حفلت في روسيا. هذه السوفياتات نفسها هي التي اختارت في العاشر من تشرين الثاني مجلساً لمفوضي الشعب وجعلت على رأسه (إيبيرت) ليحكم ألمانيا بصورة مؤقتة. وفي كانون الأول إجتمع أول (كونفراس) سوفياتي ألماني في برلين من مندوبين عن مجالس العمال والجنود من كل أرجاء ألمانيا. وطالب بتنحية (هندنبرگ) وتسريح الجيش النظامي وإستبداله بحرسٍ وطنيّ (ميلشيا) ينتخب هو ضباطه ويكون تحت سلطة مجلس مفوضي الشعب مباشرة وكان هذا ما لا قبل لـ(گروينر) وهندنبرگ به. فرفض الاعتراف بسلطة (الكونفرانس) السوفياتي ولم يحاول إيبيرت شيئاً لتنفيذ هذه المقررات. إلا ان الجيش الذي كان يناضل نضال المستميت في سبيل البقاء، طلب من الحكومة ان تقوم بعملٍ ايجابي وتعهد باسنادها. وقبل حلول عيد الميلاد بيومين قامت فرقة البحارة الشعبية التي يسيطر عليها الاسپارطاكيون الشيوعيون باحتلال (فلهلهمشتراسه) وإقتحام قصر المستشارية وقطع خطوط تلفوناتها إلا ان الخط السري الموصول بمقر قيادة الجيش العامة بقي سليماً. ومنه طلب (إيبيرت) النجدة

١- هويلر بينيت: الطبيب الحشبي هندنبرگ، الص ٢٠٧-٢٠٨

وتعهدت القيادة بتحريك حامية (بوتسدام) إلا أن البحارة المعتصمين تقهقروا قبل وصولها الى مقراتهم في اصطبلات القصر الإمبراطوري الذي كان بيد الاسبارطاكين أيضاً. وبقي هؤلاء وعلى رأسهم (كارل ليبنخت وروزا لوكسمبرگ) أشهر خطيبين جماهيريين في ألمانيا واقواهم بياناً يدفعون العمال دفعاً لإقامة جمهورية سوفياتية. وكانت قواتهم المسلحة في برلين تتعاضد وتشتد. وفي صبيحة عيد الميلاد استطاعت فرقة البحارة الشيوعية أن تصدّ بكل سهولة هجوماً قام به الجيش النظامي الزاحف من بوتسدام مستهدفاً زحزحتها عن الاصطبلات الإمبراطورية وشدّ (كروينر وهندنبرگ) النكير على (إيبرت) لتنفيذ اتفاقهما من طرفه، حول سحق البولشفيك وكان هذا أمنية الزعيم الاشتراكي الكبرى، فبادر بعد مرور يومين من العيد الى تعيين غوستاف نوسكه Gustav Noska وزيراً للدفاع الوطني. وبعد هذا التعيين راحت الحوادث تترى بمنطقٍ وتسلسلٍ يتوقعه كل من عرف هذا الوزير الجديد.

كان (نوسكه) جزّاراً ماهراً في المجزاة، شق طريقه في الحركة النقابية والحزب الديمقراطي الاشتراكي ووصل الى عضوية الرايخشتاغ في ١٩٠٦ وعرف منذ ذلك الحين بأنه خبير الحزب في الشؤون العسكرية كما عرف بقوميته المتعصبة وشدة مراسه. واختاره (الأمر ماكس بادن) لقمع حركة عصيان بحرية في (كيل) في الأيام الأولى من تشرين الثاني ١٩١٨ فنجح في مهمته. وهو رجل مربع الذقن ذو قوة جسمانية خارقة وحيوية لا ينضب معينها وذكاء محدود. وهو الطابع العام الذي يميز أرباب مهنة القصابة كما قال عنه خصومه. وأعلن عند تعيينه وزيراً للدفاع بأن "أحدهم يجب أن يكون الكلب السلاقي!"

وفي أوائل شهر كانون الثاني ١٩١٩ شرع بضرب ضربته. وبين يومي ١٠-١٧ منه (أطلق عليه البرلينيون اسم الأسبوع الدموي فترة من الزمن) انزل الجيش النظامي ونزلت وحدات المحاربين الأحرار، وهي مزودة بأوامر من (نوسكه). يقودها الجنرال فون لوتفيتز^(٢). فسحقت الاسبارطاكين الشيوعيين وقبضت على روزا لوكسمبرگ وكارل ليبنخت فرقة حرس الفرسان وقام ضباط الفرقة بإعدامهما. وبانتهاء حرب الشوارع في برلين جرت الانتخابات العامة للجمعية الوطنية. لوضع دستور جديد. وكشف التصويت الذي تمّ في ١٩ كانون الثاني ١٩١٩ أن الطبقتين المتوسطة والعليا قد استعادتا بعض شجاعتهم في فترة لا تزيد عن الشهرين إلا بقليل، تلك الشجاعة التي زالت بقيام الثورة. وكانت النتيجة أن الديمقراطيين الاشتراكيين (الأغلبية) مع الاشتراكيين المستقلين، الذين تولوا السلطة

٢- بعد ذلك بسنة واحدة. أظهر الجنرال فرايهر فالتر فون لوتفيتز Freiherr Walter Von Luetwitz الضابط الرجعي من المدرسة القديمة، كم هو مخلص للجمهورية بصورة عامة ونوسكه بصورة خاصة عندما قاد وحدات المحاربين الأحرار لإحتلال برلين مساندة لإنقلاب كاپ. واضطر إيبرت ونوسكه وغيرهما من أعضاء الحكومة في الساعة الخامسة من فجر يوم ١٣ آذار ١٩٢٠ الى الفرار منها. أما الجنرال فون سيكت رئيس أركان الجيش وأحد رؤوسى (نوسكه) بحكم الوظيفة، فقد أبى أن يسمح للجيش بالدفاع عن الجمهورية ضد (لوتفيتز وكاپ). وقد هتف نوسكه على اثر ذلك: "لقد اظهرت هذه الليلة إفلاس كل سياسي. إن ثقتي بالضباط العسكريين قد تزعزعت. لقد تركتموني جميعاً". اقتبسها هويلر بينيت في كتابه The Nemesis of Power - ص ٧٧.

لعدم رغبة فريق آخر بمشاركتهم في حمل العبء - حصلوا على ١٣,٨ مليون صوت من أصل ٣٠ مليوناً وهو المجموع الكلي للناخبين فربحوا (١٨٥) مقعداً من أصل (٤٢١) في الجمعية. وهذه النتيجة بعيدة جداً عن الأغلبية. مما دلّ على أن ألمانيا الجديدة لن تبني بطبقة العمال وحدها. ونالت الأحزاب الباقية وهي حزب الطبقة المتوسطة (الوسط) ويتمثل في الحركة السياسية للكنيسة الكاثوليكية وفي الحزب الديمقراطي (الذي ولد من اندماج الحزب التقدمي القديم والجناح اليساري للوطنيين الأحرار في كانون الأول) حصل هذان على ١١,٥ مليون صوت ففازا بـ ١٦٦ مقعداً في الجمعية وكلاهما يجاهران باسنادهما لجمهورية ديمقراطية وان وجد لديهم ميل كبير الى إعادة الملكية. اما المحافظون اليمينيون فرغم تناقص عددهم لم يتلاشوا من المسرح السياسي. كان بعض زعمائهم قد اختفى عن الاظار في تشرين الثاني وطلب بعضهم كالكونت فون فيستتارپ Von Westarp الحماية من (إيبرت). والآن عمدوا الى تغيير اسم حزبيهم فجعلوه "حزب الشعب الألماني الوطني" ودخلوا الانتخابات ليحصلوا على ٣ ملايين صوت ودفعوا الى الجمعية الوطنية بأربعة وأربعين نائباً. وحصل حلفاؤهم اليمينيون "الأحرار الوطنيين" الذين غيروا اسمهم الى "حزب الشعب الألماني" على ١,٥ مليون صوت تقريباً وأحرزوا تسعة عشر مقعداً. ومع أن هذين الحزبين اليمينيين كانا اقلية ظاهرة. إلا أن المقاعد التي احروزها كانت تكفيهم لجعل صوتهم بارزاً في الجمعية. فما أن التأمت الجمعية الوطنية في (فايمر) في ٦ شباط ١٩١٩، حتى انبرى زعماءهما للدفاع عن اسم القيصر فلهلم الثاني. وتركيزه الأسلوب الذي وجه به الحزب هو وجنرالاته. ويبدو أن "غوستاف شتريزمان Stressemann" رئيس حزب الشعب لم يعان ما لاح لكثيرين فيما بعد - إنقلاباً في العقل والقلب فبقي معروفاً حتى ١٩١٩ بالرجل المتكلم باسم القيادة العليا للجيش في الرايخشتاغ أو "فتى لودندورف" كما اطلقوا عليه والمساند العنيف لسياسة الضم والمتعصب الشديد لشن حرب غواصات حرة.

إن الدستور الذي سنّته الجمعية بعد ستة أشهر من المناقشات (صوّت عليه في ٣١ تموز ١٩١٩ وصدّقه رئيس الجمهورية في ٣١ آب) كان على الورق أعلى وثيقة من نوعها رأها ضياء القرن العشرين في الحرية والديمقراطية. فقد قارب الكمال من ناحية الاجهزة وتوزيع والسلطات وكان مملوءاً بالمبتدعات العجيبة الأملعية الضامنة جهازاً ديمقراطياً خالصاً. فأخذت فكرة حكومة الوزراء من انكلترا وفرنسا. وفكرة رئيس جمهورية ينتخبه الشعب بالاقتراع المباشر من الولايات المتحدة، وطريقة إجراء الانتخابات من سويسرا ووضع الدستور نظاماً محكماً معقداً للتمثيل النيابي النسبي على أساس التصويت بالقائمة حتى يحول دون أي تبديد لأصوات الناخبين ويعطي الاقليات الصغيرة حق التمثيل في البرلمان^(٣).

٣- كان ثم بعض الثغرات والحق يقال ظهر في النهاية أن بعضها كان قتلًا. قد يحول التمثيل النيابي النسبي والتصويت بالقائمة دون تبديد الأصوات حقاً لكنه يتمخض يتمخض بتعدد الأحزاب الصغيرة المنشقة المتطيرة التي قد تؤدي بالأخير الى ان يكون وجود أغلبية ثابتة في الرايخشتاغ أمراً مستحيلاً. ويؤدي الى تغيير متعدد في الحكومة [في انتخابات ١٩٣٠ سجل دخول زهاء ثمانية وعشرين حزباً سياسياً في الاقتراع العام]. كانت الجمهورية ستنعم بكثير من الاستقرار والثبات لو لم تنبذ بعض آراء الأستاذ هوغو بروس Hugo Preuss =

إن فقرات دستور فايمر كانت جميلة الوقع ساحرة الجرس في كل أذن ديمقراطية الإتجاه فقد اثبتت السيادة للشعب "الشعب مصدر السلطات السياسية"، ومنح الرجال والنساء حق تصويت مساو في سن العشرين، و"كل الألمان متساوون أمام القانون... الحرية الشخصية مصونة... لكل ألماني الحق في التعبير عن رأيه بحرية... لكل الألمان الحق في تأسيس منظمات وجمعيات... جميع سكان الرايخ يتمتعون بحرية المعتقد والضمير كاملة..." ليس في الدنيا من هو أكثر حرية من الألماني، وليس ثم حكومة أعلى ديمقراطية وحرية من هذه الحكومة... على الورق فقط...

- ٢ -

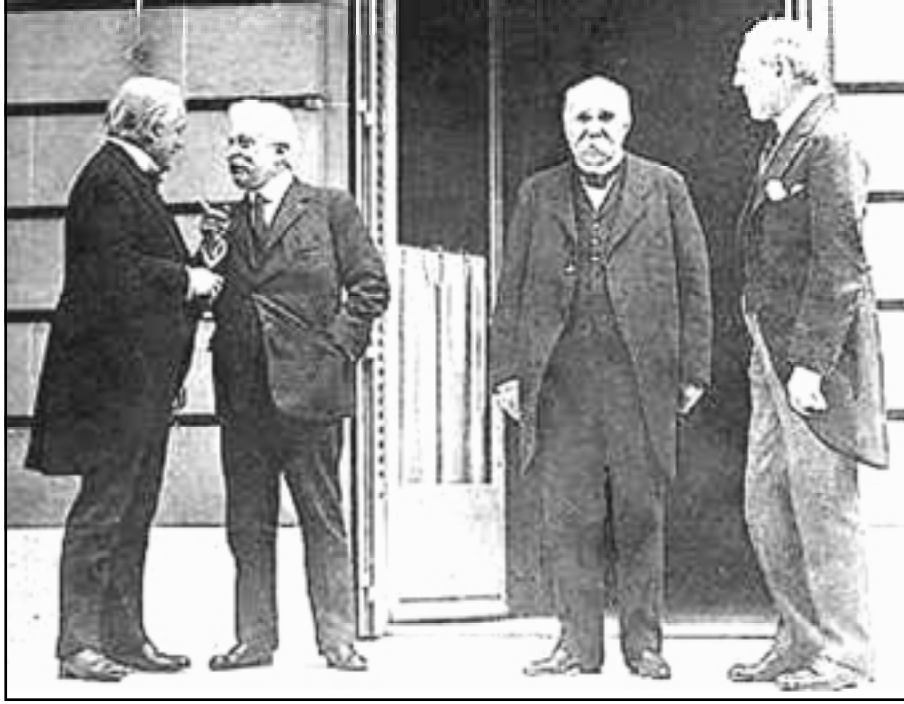
نخب قرساي

قبل الفراغ من سنّ دستور (فايمر) برز حادث ليس منه بُدّ وكان فيه القضاء بلعنة الموت على الدستور وعلى الجمهورية التي انبثقت منه. هذا الحادث هو إبرام معاهدة (قرساي). كان الشعب الألماني يبدو غير مكترث بما سيتمخض به إندحارهم في الأيام الأولى التي حفلت بالفوضى والفتن، وكذلك ظلّ بعد مناقشات الجمعية الوطنية في مدينة (فايمر). وحتى لو اهتموا بالمسألة فانهم كانوا واثقين من حقهم بصلح عادل مبنّي لا على أساس خسارتهم الحرب، بل على أساس نقاط (ولسن) الأربع عشرة المشهورة بعد ان نفذوا ما ألحّ الحلفاء بطلبه وهو التخلص من آل هوهنزلرن وسحق البولشفيك وقيامهم ببناء حكومة ديمقراطية ذات نظام جمهوري. ويظهر ان ذاكرة الألمان الضعيفة لم تمتد الى أبعد من سنة واحدة مضت، الى يوم الثالث من آذار ١٩١٨، عندما فرضت القيادة الألمانية العليا معاهدة صلح برست ليتوفسك Bresk Litovsk على روسيا المهزومة، المعاهدة التي وصفها مؤرخ بريطاني بعد عشرين عاماً من إبرامها وبعد هدوء العواطف وزوال الحقد بأنها "مذلة الى أقصى حدٍ وبشكل غير مسبوقٍ من تاريخ العصور الحديثة"^(٤).

لقد جردت روسيا من أرض تناهز مساحتها مساحة إمبراطورية النمسا والمجر وبلاد تركيا مجتمعة ويزيد عدد سكانها عن ستة وخمسين مليوناً. أعني ٣٢ بالمائة من المجموع العام لنفوسها. وحرمتها من ثلث مجموع أطوال سككها الحديدية العام. و٧٣ بالمائة مما تملكه من مناجم الحديد، و٨٩ بالمائة من مجموع الانتاج الكلي لفحمها الحجري وسلبيتها خمسة آلاف معمل ومصنع. وكان مسك الختام

= واضح لائحة الدستور الرئيس. فاقترح في (فايمر) أن تجعل ألمانيا دولة مركزية وأن يتم حلّ بروسيا وغيرها من الدول المنفردة ويغير وضعها السياسي من دولة الى اقليم. لكن الجمعية رفضت هذه المقترحات. وأخيراً هناك المادة الثامنة والأربعون من الدستور التي تمنح رئيس الجمهورية سلطات دكتاتورية في الأحوال الاستثنائية. إن استعمال هذه المادة من جانب المستشارين بروننك Bruening وثون يابن وثون شلايخر في عهد الرئيس هندنبرك ساعدهم على الحكم دون موافقة الرايخشتاغ وعليه فقد تم القضاء على الحكم الديمقراطي البرلماني في ألمانيا قبل مجيء هتلر.

٤- المرجع السالف (هويلر بينيت) ص ١٣١



الأربعة الكبار في فرساي (من اليمين): ولسن - كليمانصو - أورلاندو - لويد جورج

غرامة حربية قدرها ستمائة مليون مارك.

واقبل يوم الحساب على ألمانيا في أواخر ربيع عام ١٩١٩ ووضع الحلفاء شروط معاهدة فرساي دون مشاورة مع ألمانيا، وتم نشرها في برلين في السابع من أيار فكان لها وقع الصاعقة على شعب أصرّ على أن يُعلن نفسه بالأمال الى آخر لحظة. وعقدت إجتماعات عامة ساخطة، احتجاجاً على المعاهدة وارتفعت الأصوات تطالب برفض التوقيع عليها وصرخ (شايدمان) المستشار أثناء انعقاد الجمعية الوطنية في فايمر "ألا فلتشَلَّ تلك اليد التي توقع المعاهدة". وفي الثامن من أيار قال إبيرت رئيس الجمهورية المؤقت أن شروط المعاهدة "غير معقولة ولا تنطق" وكذلك صرحت الحكومة. وفي اليوم التالي كتب الوفد الألماني الى فرساي مذكرة الى كليمنصو Clemenceau الصلب العنيد جاء فيها "إن معاهدة كهذه لا يمكن أن تحملها أمة من الأمم". ما الذي كان فيها غير محتمل ليت شعري؟ انها قضت بإعادة مقاطعتي الألزاس واللورين الى فرنسا وقطعة أرض صغيرة الى بلجيكا. وقطعة صغيرة أخرى من مقاطعة شلزفيك Schleswig الى الدانمرك بعد إجراء إستفتاء فيها. وهي مقاطعة سلخها بسمارك من بلاد الدانمرك في القرن الماضي بعد ان هزمها في الحرب. واعادت الى البولنديين الأراضي

التي اغتصبها الألمان من جسم بولندا بعد تقسيمها. (لم يُعد جزء من تلك البقاع إلا بعد إستفتاء!) وأحد الشروط التي اثارها هياج الألمان وحقدتهم هو (ممر الدانزك) أنهم لم يسخطوا على فصل بروسيا الشرقية عن ارض الجدود بممر لبولندا الى البحر، بل لأنهم كانوا يحتقرون البولنديين ويعتبرونهم أمة منحطة. ولم يكونوا بأقل سخطاً حين اجبرتهم المعاهدة على تحمل وزر الحرب ومسؤولية اثارها بطلب تسليم القيصر فلهم للسلطات الحليفة مع ثمانمائة آخرين لمحاكمتهم كمجرمي حرب.

اما التعويضات فقد قُدر أن يتم تسويتها فيما بعد. على أن المعاهدة اوجبت دفع خمسمائة بليون دولار بالماركات الذهبية خلال ١٩١٩-١٩٢١ كدفعة أولى. وأن تقدم بعض المواد والبضائع كالفحم والسفن والاخشاب والماشية الخ... عوضاً عن النقد. إلا أن الغصة الذباجة التي خلفتها جرعة فرساي في خلق ألمانيا هي تجريدها من السلاح^(٥) وبهذا حالت بين ألمانيا وبين سيطرتها على أوروبا لفترة من الزمن على الأقل وبصرف النظر عما سبق فانها- لم تكن كالمعاهدة التي فرضتها ألمانيا على روسيا لأنها تركت الرايخ سليماً من الناحية الجغرافية والاقتصادية تقريباً وحفظت لألمانيا وحدتها السياسية وقوتها الإندفاعية كأمة عظيمة الشأن.

عارضت الحكومة المؤقتة (فايمر) في قبول شروط معاهدة فرساي المجحفة معارضة شديدة. بإستثناء (إرزبرغر) الذي ألح في توقيعها متعللاً بإمكان التخلص من شروطها فيما بعد بأسهل ما يمكن. وخلف الحكومة وقفت أغلبية الألمان الساحقة من أقصى اليمين الى أقصى اليسار.

والجيش؟ إن رفضت الحكومة التوقيع على المعاهدة هل بإمكان الجيش الوقوف ضد هجوم حليف من الغرب سيئسّن لا محالة؟ وضع (إيبرت) هذا السؤال أمام القيادة العليا التي كانت قد نقلت مقرها الى (كولبرگ Kolberg) في بوميرانيا Pomerania. فأجاب الفيلد مارشال فون هندنبرگ في ١٧ حزيران، (بإيحاء وإلحاح ناخس من الجنرال غروينر الذي وجد المقاومة العسكرية غير مجدية قال: "في حالة استئناف العمليات الحربية أرى في الامكان إعادة الاستيلاء على اقليم پوزن Posen [في بولندا] والدفاع عن حدودنا من جهة الشرق. أما في الجبهة الغربية فلا يمكننا الإعتماد على الصمود في وجه أي هجوم كبير يقوم به العدو، نظراً الى تفوق الحلفاء العددي واستطاعتهم تطويقنا من الجناحين.

لذلك كان نجاحنا في العمليات مشكوكاً فيه. لكنني كجندي لايسعني إلا أن افضل الموت بشرف على قبول صلح مشين".

إن العبارة الختامية للقائد العام الشهير جاءت منسجمة لأبدع التقاليد العسكرية الألمانية إلا أن مبلغ صدقها يمكن الحكم عليه بحقيقة أخفيت عن الشعب الألماني في حينه وهي أن هندنبرگ كان متفقاً مع (غروينر) بأن مقاومة الحلفاء لا تتمخض بهزيمة ساحقة فقط بل قد ينجم عنها القضاء على هيئة أركان الجيش ومن ثم على ألمانيا نفسها.

٥- حددت المعاهدة عدد القوات المسلحة بمائة ألف متطوع بعقود طويلة الأجل ومنعت تسليحه بالطائرات والدبابات. وحلت هيئة الأركان العامة واعتبرتها غير قانونية. وقلص الأسطول تقليصاً شديداً بحيث أصبح قوة رمزية. وحظر عليه بناء غواصات أو بوارج تزيد حمولتها على عشرة آلاف طن.

أراد الحلفاء جواباً قاطعاً من ألمانيا. وفي ١٦ حزيران أي قبل يوم واحد فقط من ادلاء هندنبرگ برأيه التحريري لـ (إيبرت) وجهوا إنذاراً نهائياً: إمّا أن تقبل المعاهدة في أجل أمده ٢٤ حزيران. أو تلغى الهدنة وتقوم قوات الحلفاء (باتخاذ الخطوات التي تراها ضرورية لفرض الشروط). وعاد (إيبرت) ثانيةً يستنجد به (گروينر) قائلاً لو وجدت القيادة أضعف احتمال بنجاح المقاومة العسكرية لهجوم الحلفاء. فأنه يتعهد برفض المعاهدة عند وضعها في التصويت أمام الجمعية، على انه يريد جواباً فورياً. واقتبل اليوم الأخير من أجل الانذار واجتمع أعضاء الوزارة في الساعة والدقيقة الثلاثين لاتخاذ القرار الحاسم. وفوتح (هندنبرگ وگروينر) فعاد الفيلد مارشال الهرم المجهّد يجيب: "تعلمون مثلما أعلم إن المقاومة المسلحة لاتجدي نفعاً" على أنه ألقي بعبء الجواب السيء النقيبة على (گروينر) كما فعل في التاسع من تشرين الأول ١٩١٨ في (شپا) حين ثقلت على نفسه مصارحة القيصر بالحقيقة الختامية. وجن اليوم عن قولها أيضاً لرئيس الجمهورية المؤقتة فقال لگروينر: "يمكنك أن تقدم جوابك للرئيس وهو جوابي أيضاً"^(٦)، فحمل الجنرال الباسل المسؤولية على عاتقه، وهي من صميم واجب الفيلد مارشال، وهو يعرف جيداً أنها ستجعله كبش فداء لهيئة الأركان العليا، وابلغ رئيس الجمهورية بوجهة نظر القيادة تلفوياً. وسرى الارتياح في نفوس أعضاء الجمعية الوطنية وتنفسوا الصعداء لأن قادة الجيش أخذوا المسؤولية على عواتقهم. وصوتوا على إبرام المعاهدة بأغلبية كبيرة وابلغ القرار الى (كليمنصو) قبل انتهاء الأجل المضروب بتسع عشرة دقيقة فقط ووقعت معاهدة الصلح في قاعة المرايا بقصر فرساي.

-٣-

بيت منقسم على نفسه

ومنذ ذلك اليوم فصاعداً آضت ألمانيا بيتاً منقسماً على نفسه. اليمينيون لايرضون لا بالمعاهدة ولا بالجمهورية التي ابرمتها. كذلك الجيش فقد أعلن إستنكاره بعد ردح من الزمن (بإستثناء الجنرال گروينر) في حين انه كان قد أقسم يمين الولاء للنظام الجمهوري، كما كان صاحب القول الفصل في قرار التوقيع على المعاهدة. وظلّ المحافظون مسكين بدفة الإقتصاد رغم ثورة تشرين الثاني، لأنهم بقوا يملكون صناعاتهم وأراضيهم الزراعية الشاسعة ومعظم رأسمال البلاد. وكان بإمكانهم إستخدام ثرواتهم وقد استخدموها فعلاً لتمويل الاحزاب والصحافة السياسية التي شرعت منذ ذلك الحين تنخر في جسم الجمهورية.

وراح الجيش يراوغ في تنفيذ القيود التي كبلته بها معاهدة الصلح ويحتال عليها قبل جفاف حبر موادها. وليشكروا غباوة وقصر نظر زعماء الإشتراكيين. لم يكن نجاح القيادة العليا قاصراً على ابقاء تقاليد الجيش وقوانين فروسيته الموروثة بل نجحت في جعله المحور الحقيقي للسيطرة السياسية

٦- هويلر بينيت "Nemesis..." ص ٥٨.

في ألمانيا الجديدة. لقد ظلّ الجيش الى آخر لحظة من عمر الجمهورية القصير غير مرتبط بأي حركة سياسية لكنه أصبح بقيادة الجنرال (هانتر فون سيكت) مبدع (جيش الرايخ) العبقري الذي يعد مائة ألف، دولة ضمن دولة رغم قلّة عدده. وراح يمارس نفوذاً متعاضداً على سياسة البلاد الداخلية والخارجية حتى وصل الأمر الى أن بقاء الجمهورية بات مرهوناً بإرادة أعضاء القيادة العليا لا غير. ولأنه "دولة داخل دولة" فقد حرص على إستقلاله عن الحكومة الوطنية. كان دستور جمهورية (فايمر) ينصّ على خضوع الجيش للحكومة والبرلمان ومثله في ذلك مثل سائر الجيوش القوات المسلحة في الديمقراطيات الغربية إلا انه لم يكن كذلك فقد تعذر على هيئة القيادة العليا التخلي عن حب الملكية وكره الجمهورية. ولقد طالبت قلة من الزعماء الإشتراكيين أمثال شايدمان وكرزسنسكي Grzesinski "بديمقراطية" القوات المسلحة ودعت الى درء الخطر الكامن في إستئمان الجيش بيد ضباط نشأوا على نظام الحكم القديم وتقاليده الإمبراطورية. لكن دعوتهم هذه هزمت وحق الفشل بأرائهم عندما جاءتهم الاعتراضات تترى ليس من قادة الجيش وحدهم بل من رفاقهم الإشتراكيين. وفي طليعتهم وزير الدفاع (نوسكه). هذا الوزير الجمهوري... البروليتاري كان يفخر علناً بأنه يريد إحياء "ذكريات الجندي الفخور عن الحرب العظمى". لقد فشلت الحكومة المنتخبة إنتخاباً شرعياً في بناء جيش جديد مخلص لمفاهيمها الديمقراطية يخضع للوزارة والرايخستاغ. وكان فشلها غلطة قتلتها كما ستثبت لها الأيام. وفشلها في تطهير جهاز القضاء كان الآخر غلطة مميّزة. فهيئة القضاة الذين كانت وظيفتهم تطبيق نصوص القانون. جعلوا محاكمهم مراكز للعمل ضدّ الثورة. فصاروا يحددون عن جادة العدل ليعلموا أغراضاً سياسية رجعية. ولقد قال المؤرخ فرانز. ي. نيومان Franz L. Neumann: "يستحيل علينا أن نخطأ في الإستنتاج بأن العدالة السياسية كانت من أسود الصفحات في حياة الجمهورية الألمانية"^(٧).

قامت الحكومة بعد مؤامرة كاب الفاشلة بتوجيه تهمة الخيانة لسبعمئة وخمسة متهمين ولم يحكم من كل هذا العدد غير شخص واحد هو مدير شرطة برلين. وحددت عقوبته بالحبس المشرف خمس سنوات. وعندما حجزت دولة بروسيا على راتبه التقاعدي قررت المحكمة العليا فكّ الحجز واعادته اليه.

وفي كانون الأول ١٩٢٦ قضت محكمة ألمانية للجنرال لوتفيتز وهو قائد إنقلاب (كاب) العسكري بتسليمه المتراكم من تقاعده طول المدة التي كان فيها ثائراً على الحكومة فضلاً عن متراكم السنين الخمس التي قضاها في المجر هارباً من وجه القضاء.

يقابل ذلك حبس مئات من أحرار الفكر الألمان أماداً طويلة بتهم الخيانة. لأنهم كشفوا على صفحات الجرائد أو بالخطب العلنية قيام الجيش بخرق متواصل لشروط معاهدة فرساي. وطبقت أحكام قوانين الخيانة العظمى بقسوة متناهية على مساندي الجمهورية أما اليمينيون الذين كانوا يعملون على إسقاطها (ولم يطل الأمر بهتلر حتى علم هذه الحقيقة) فإما يُخلّى سبيلهم أو تفرض عليهم أخف

٧- فرانز نيومان F.L.Neumann "بهموث Behmoth" ص ٢٣.

العقوبات. حتى القتل والسفاكين، إن كانوا من اليمين وضحاياهم من الديمقراطيين والجمهوريين عاملتهم المحاكم برأفة وشملتهم برعايتها أو أعانتهم على الهرب وهم في التوقيف انتظاراً للمحاكمة باستخدام ضباط الجيش ومتطرفي اليمين لتنظيم خطط التهريب، كما حصل فعلاً. وهكذا ترك للإشتراكيين الطيبين وأعوانهم من الديمقراطيين وجناح الوسط الكاثوليكي حمل أعباء الجمهورية التي كانت تترنح آيلة للسقوط منذ ولادتها واحتملوا الكره المنصب عليهم والشتائم المقذعة وأحياناً رصاص خصومهم الذين كانوا يتكاثرون ويشتدّ ساعدتهم. وهتف أسفالد شبنغلر Oswald Spengler الذي طبق صيته الأفاق بكتابه "إنحلال الغرب":

- ختم على مصير دستور فايمر بالفناء في قلوب الشعب. وفي (بافاريا) امسك الشاب المتحمس هتلر، المدّ القومي الجديد اللاديمقراطي اللاجمهوري بقبضة شديدة وبدأ يعلو ظهره. وكانت الاحداث المتعاقبة تمده بأكبر العون. وفي مقدمتها إثنان: أولهما هبوط قيمة المارك وثانيها إحتلال الفرنسيين حوض (الروهر). رأينا في ما سبق أن المارك بدأ يهبط في عام ١٩٢١ حتى وصلت قيمة الدولار الواحد ٧٥ ماركاً. وفي السنة التالية ارتفعت النسبة الى ٤٠٠ مارك للدولار الواحد وفي مطلع عام ١٩٢٣ أصبح الدولار يعدل ٧٠٠٠ مارك. طلبت الحكومة الألمانية من الحلفاء في نهاية عام ١٩٢٢ منحها تصريحاً بتأجيل الديون (موارتوريوم) الناشئة من التعويضات فرفضت حكومة (بوانكاريه Poincare) ذلك رفضاً باتاً وعندها توقفت ألمانيا عن شحن الخشب فأمر الرئيس الفرنسي العنيد الذي كان رئيس الجمهورية الفرنسية زمن الحرب أن تزحف الجيوش الفرنسية على ألمانيا وتحتلّ الروهر وهو قلب ألمانيا الصناعي الذي كان بعد سلخ سيليزيا العليا وضمها الى بولندا - يمدّ الرايح بأربعة أخماس فحمه وفولاذه، وبهذا تمّ فصله عن باقي جسم ألمانيا.

هذه الضربة القاصمة على الإقتصاد الألماني وحدت الشعب بصورة مؤقتة وكتلته بشكل لم يحدث له مثيل منذ سنة ١٩١٤ وأعلن عمال الروهر اضراباً عاماً وبذلت لهم حكومة برلين مساعدات مالية ودعت الى خوض معركة مقاومة سلبية، ونظمت حرب عصابات وتخريب بمساعدة الجيش. فقابل الفرنسيون تلك الإجراءات بأوامر الاعتقالات والابعاد وحتى بعقوبات الموت ومع كل ذلك فلم تدر عجلة واحدة في الروهر.

وعجل خنق الإقتصاد الألماني بسقوط المارك النهائي الفاجع. ففي يوم إحتلال الروهر (كانون الثاني ١٩٢٣) هبط فجأة الى ثمانية عشر ألفاً للدولار الواحد. وفي الأول من تموز وصلت قيمة الدولار الواحد الى ١٦٠ ألف مارك، والى مليون في الأول من شباط - وبحلول شهر تشرين الثاني عندما فكر هتلر بأن ساعة العمل قد دقت - كان يلزم أربعمئة مليون مارك لشراء دولار واحد. وبعدها أخذت الارقام ترتفع بآلاف الملايين. ولم تعد العملة الألمانية تسوى شيئاً. وهبطت القوة الشرائية للرواتب والاجور الى الصفر وانمحت مدخرات أفراد الطبقة الوسطى والعمالية محواً. على أن التدمير لحق شيئاً آخر يفوق العملة أهمية، ألا وهو إيمان الشعب ببناء المجتمع الإقتصادي الألماني. وفقدانه الثقة به. فاي صلاح يرجى لأخلاق وقيم مجتمع كهذا، يشجع الادخار والاستثمار ويقطع عهد شرف

بإعادة تلکم المدخرات الى المستثمرين، ثم یحث بکلمة الشرف ویعجز عن الدفع؟ أليس هذا نصباً وإحتیالاً علی مجموع الشعب؟ والجمهورية الديمقراطية، أليست هي المألومة عن الکارثة. ألم تستسلم للعدو وتقبل بتحمل عبء التعويضات؟ ويشاء سوء حظ الجمهورية أن تتحمل فعلاً مسؤولية إستمرار هذا الوضع. فالتضخم النقدي یمكن معالجته وإيقافه بمجرد موازنة الدخل وهو عمل صعب لكنه ممکن. والضرائب السديدة الحکیمة قد تحقق هذه الغاية إلا أن الحكومة الجديدة لم تتجاسر علی جباية ضرائب عادلة. ومهما یکن من امرٍ فقد كانت تكاليف الحرب البالغة ١٦٤٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ مارك یدفع بعضها من حصيلة الضرائب المباشرة. إلا أن القسم الأعظم وهو (٩٣٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠) كان بشكل قروض (٢٩٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠) یدفع من الخزينة نقداً والباقي تتم موازنته بطرح أوراق مالیه جديدة في التداول. وبدلاً من قيام الحكومة بزيادة الضرائب زيادة كبيرة علی أولئك الذين یتمکون من دفعها، خفضتها فعلاً في ١٩٢١! وأخذت الحكومة منذ ذلك الحین فصاعداً - بتحريض وإيعاز من الصناعین الکبار واصحاب الإقطاعات الذين وجهوا همهم الى الربح وإن كانت جماهير الشعب قد دمرت مالياً - تترك المارك یتدحرج الى اسفل عامداً حتی تتحرر الدولة من ديونها العامة وتتخلص من دفع التعويضات، وتشجع عمليات التخريب ضدّ الفرنسيين في الروهر Ruhr. أضف الى هذا أن سقوط العملة ساعد الصناعة الألمانية الثقيلة علی التخلص من ديونها وتسديد كل ما وجب علیها تسديده من تيعات بالمارك الساقط الذي لا یسوی شيئاً. أما هيئة الأركان العامة للجيش الألماني التي تنكرت تحت اسم "دائرة الجيش Truppenamt للتخلص من قيود معاهدة الصلح التي هددت کيانها القانوني فقد ادركت أن سقوط المارك قد محا ديون الحرب وترك ألمانيا حرة من الناحية المالية للتهيؤ لحرب جديدة.

وعلى اية حال فقد ظلّ سواد الشعب لا يدرك کم كانت فائدة اقطاب رجال الصناعة والجيش والحكومة من سقوط العملة. كل ما كانوا یعلمون هو انک لا تستطيع ان تشتري بكلّ رصیدک المحترم في المصرف باقة صغيرة من الجزر ونصف اوقية من البطاطا وبضعة اونسات من السكر ونصف كيلو من الدقيق. وادركوا انهم كأفراد قد أصبحوا مفلسين لا یملکون من حطام الدنيا شيئاً. وذاقوا مرارة الجوع عندما كان بعضهم بنابه یومياً. وفي وسط شقائهم ویأسهم جعلوا من الجمهورية كبش فداء وصبوا علی رأسها کُلّ ما وقع علیهم من مآسي. زمن كهذا كان لهتلر هبة سماوية.

-٤-

الثورة في بافاريا

صاح یقول: "تمضي الحكومة قدماً وبكلّ برودٍ وتعمّد في طبع هذه الأوراق التافهة لأن اجلها سینتهي وتزول إن هي توقفت... لأنها إن اوقفت مکائن الاصدار وهو التمهيد الذي لا مفرّ له لتثبيت

المارك، فستتكشف للملأ عملية النصب والإحتيال عارية مجردة... ألا ثقوا ان يؤسنا سيتعاضم ويزداد... وسيبقى النذل الساقط حُرّاً طليقاً... السبب هو أن الدولة نفسها أصبحت أكبر النصابين والمحتالين! دولة لصوص وقطاع طرق! لو استطاعت الجماهير المرتاعة أن تلاحظ أنها تجوع على البلايين من العملة الساقطة فلا بدّ وستصل الى النتيجة الصائبة. اننا لن نطيع بعد الآن دولة بنيت على فكرة النصب والاحتفال بحق الأغلبية. نحن نريد دكتاتورية^(٨)."

لاشكّ ان العُسر والحيرة للذين تخمض بهما التضخم النقدي المستمرّ كانا يدفعان الملايين من الألمان الى ذلك الاستنتاج، وهتلر كان مستعداً لقيادتهم وقد بدأ في الواقع يعتقد أن أحوال الفوضى التي سادت عام ١٩٢٣ خلقت فرصة لإزالة الجمهورية قد لا تخطر ببال. إلا أن عقبات معينة كانت تقف في طريقه إن كان مقدراً له أن يقود ثورة الردّة هذه. ولم يكن إهتمامه شديداً إلا لأنه هو القائد.

من أولى العقبات أن الحزب النازي لم يكن أعظم حركة سياسية في بافاريا وان راح ينمو عددياً. أما خارج بافاريا فهو غير معروف. فكيف يمكن لحزب صغير مثله إسقاط الجمهورية؟

خيل لهتلر الذي لم تكن العقبات والمثبطات تثنيه عن عزمه، أنه وجد سبيلاً. ربّما امكنه توحيد العناصر المعادية للجمهورية من القوى القومية في بافاريا، تحت زعامته. ثم تقوم الوحدات المسلحة الحزبية بالتعاون مع الجيش النظامي المرابط في بافاريا وبإسناد من الحكومة، بالزحف على برلين كما زحف موسوليني على روما قبل عام - واسقاط جمهورية فايمر. الظاهر ان نجاح موسوليني السهل قد غذى افكاره بطعام دسم.

ومع ان إحتلال الفرنسيين للروهر، جدّد كره الألمان لعدوهم التقليدي وأحيا بهذا الروح القومية، إلا أنه عقّد الأمور على هتلر من جهة أخرى. فهذا الإحتلال راح يوحد الشعب الألماني خلف حكومة الجمهورية في برلين، حين اختارت لها سياسة تحديّ فرنسا وهذا آخر ما كان يرغب فيه هتلر. لأن هدفه إزالة الجمهورية. وبعدها يمكنه تسوية الأمور مع فرنسا اثر بلوغ ألمانيا ثورتها القومية وإقامة الدكتاتورية. وبلغت الجراءة بهتلر أن يسلك خطأ لا جماهيريّاً يتعارض والرأي العام السائد. "كلاً لا تهتفوا فلتسقط فرنسا، لكن فليسقط خونة أرض الوطن ليسقط مجرمو تشرين! كذا يجب أن يكون شعارنا^(٩)".

وانصرف بكلّيته طوال الأشهر الأولى من ١٩٢٣ الى ترويج هذا الشعار وترسيخه وتم في شباط بفضل جهود (روهم) ومواهبه التنظيمية ضمّ ثلاث زمر قومية مسلحة في بافاريا الى النازيين لتشكيل ما عرف به (إتحاد العمل لوحدة الوطن المحاربة Arbeitsgemeinschaft der Vaterloendischen Kampfvebaende). تحت قيادة هتلر السياسية. وفي أيلول تمّ تشكيل مجموعة أمضى قوة باسم "عصبة الألمان المحاربين Deutscher Kampfbund" كان هتلر أحد أقطابها. انبثقت هذه المنظمة من إجتماع جماهيريّ ضخم عقد في نورمبرگ في (٢٠) أيلول بمناسبة الاحتفال بذكرى إنتصار الألمان

٨- هايدن: الفوهرر (الزعيم) الص ١٣١-١٣٣.

٩- المرجع السالف ص ١٦٤

على فرنسا في معركة (سيدان). مثل في هذه العصبية كلّ الجماعات ذات العقلية الفاشية في جنوب ألمانيا وقوبل هتلر بالتهليل والتهتاف بعد فراغه من خطبة عنيفة ضدّ الحكومة المركزية. واذيعة أهداف هذه العصبية علناً. ويمكن اجمالها باسقاط الجمهورية والغاء معاهدة فرساي.

في احتفال نورمبرغ هذا وقف هتلر على منصّة التحية الى جانب الجنرال لودندورف أثناء استعراض المجتمعين ولم يتمّ هذا بمحض الصدفة فمنذ زمن طويل والزعيم النازي الشاب يشقّف بطل الحرب الذي وضع اسمه الشهير تحت تصرف منظمي مؤامرة كاپ في برلين وبوصلته تشجيع اليمين على ثورة الردة حسب هتلر أن استمالته ضرورية لعل بالامكان اسناد جزء من العمل اليه، كان هذا قد بدأ يختمر في ذهن هتلر. ولم يكن للجنرال ذهنية سياسية مدركة، وهو الآن يعيش خارج مونيخ ولا يهتم إحتقاره للباثاريين وللمطالب بالعرش الباثاري الأمير (روبرخت) وللكنيسة الكاثوليكية في دولة اشدّ كاثوليكية من أي دولة في ألمانيا. كان هتلر يعرف كل هذا وهو يلائمه ويتفق مع غاياته إذ لم يكن يريد في شخصية (لودندورف) زعيماً سياسياً للقوميين المناهضين للثورة. وهو دور كان يطمح اليه بطل الحرب كما لا يخفى. واصرّ هتلر ان يكون الدور له. لكن اسم (لودندورف) وشهرته في هيئة الأركان ودوائر المحافظين في ألمانيا قد يكون دعماً لسياسي اقليمي غير معروف خارج باثاريا. وعلى هذا الأساس بدأ هتلر يدخل (لودندورف) في خطته.

وفي نهاية العام ١٩٢٣ بلغت العلاقات بين جمهورية ألمانيا ودولة باثاريا الى حدّ التآزم ففي ٢٩ أيلول أعلن المستشار (گوستاف شترزيمان) انتهاء المقاومة السلبية في (الروهر) وإستمرار ألمانيا في دفع التعويضات. ان هذا الناطق السابق بلسان هندنبرگ ولودندورف، واليمينيّ الأمين والملكيّ في الصميم قد توصل الى نتيجة نهائية وهي لا سبيل الى انقاذ ألمانيا وضمان وحدتها وقوتها -في الوقت الحاضر على الأقل- إلا بالإبقاء على النظام الجمهوري. لذلك توصل الى اتفاق مع الحلفاء وحصل على فترة من التأجيل والهدوء لتستعيد به قوتها الإقتصادية. وكلّ إندفاع أكثر من هذا لا يكون مصيره إلا الحرب الأهلية وربما القضاء النهائي على الأمة الألمانية.

إن التخليّ عن مقاومة الفرنسيين في (الروهر) والعودة الى تحمل عبء التعويضات فجّر بركاناً من السخط والهستيريا بين القوميين الألمان. وراح الشيوعيون الذين بدأوا يستعيدون قوتهم يهاجمون الحكومة هجوماً مريباً وجوبه (شترزيمان) بضجّة هائجة من اقصى اليمين الى اقصى اليسار واستعجل بحمل الرئيس (إيبرت) على إعلان حالة الطواريء في اليوم الذي أعلن عن تغيير سياسته في الروهر والتعويضات. ومنذ ٢٦ أيلول ١٩٣٣ حتى شباط ١٩٣٤، وضعت السلطة التنفيذية والاجرائية في ألمانيا بموجب قانون الطواريء في يد وزيرالدفاع أوتو گيسلر Otto Gessler وقائد الجيش الجنرال (فون سيكت) ولكن القانون جعل الجنرال وجيشه دكتاتوري الرايخ المطلقين.

لم تكن باثاريا بالتالي تقبل حلاً كهذا. وأعلنت حكومتها برئاسة يوجين فون نبلنگ Eugen Von Knilling حالة الطواريء ايضاً في ٢٦ أيلول. ونصبت اليمينيّ الملكيّ رئيس الوزراء الأسبق (گوستاف فون كار) حاكماً عسكرياً عاماً مزوداً بصلاحيات دكتاتورية وخيف في برلين ان تعلن باثاريا

انفصالها عن الرايخ وإعادة الملكية بشخص أسرة (فيتلسباخ) أو ربما تشكيل إتحاد ألماني جنوبي مع النمسا. فعقدت الحكومة اجتماعاً عاجلاً بحضور الرئيس (إيبرت) واستدعي الجنرال (فون سيكت) الى الاجتماع. وطلب إيبرت أن يعرف اين يقف الجيش؟ فأجابه (سيكت) بكل صفاقة "أيها السيد الرئيس، ان الجيش يقف خلفي"^(١٠)، هذه الكلمات القاسية التي نطق بها القائد العام البروسي ذو المونوكل والوجه المربع لم ترعب المستشار الألماني ولم تفزعها كما كان متوقعاً فقد سبق للجميع واعترفوا بمركز الجيش الواقعي "انه دولة داخل دولة" لا يخضع إلا لنفسه ورأينا موقفه من قبل عندما احتلت قوات (كاف) برلين قبل ثلاث سنوات وتوجهت الحكومة الى (سيكت) بضاعتها هذه. وجدنا كيف أن الجيش لم يقف خلف الجمهورية وانما وقف خلف الجنرال. والمسألة الآن (في ١٩٢٣) هي اين يقف (سيكت)؟

ولحسن حظ الجمهورية اختار الوقوف الى جانبها لا لأنه يؤمن بالمبادئ الجمهورية والديمقراطية بل لأنه وجد في تلك اللحظة بالذات ان اسناد النظام القائم هو ضروري للحفاظ على كيان الجيش المهدد هو نفسه بالثورة اليمينية في بافاريا وفي شمال ألمانيا. ولانقاذ الشعب الألماني من حرب اهلية طاحنة. ادرك (سيكت) ان عدداً من الضباط في جيش مونينغ قد انحازوا الى الانفصاليين البافاريين. وأخطر بمؤامرة يحبكها (جيش الرايخ الأسود) بقيادة الميجر بوخروكر Buchrucker وهو ضابط ركن سابق في القيادة العامة. لإحتلال برلين وطرد حكومة الجمهورية. فراح الجنرال يتحرك بهدوء بارد دقيق وعزم ثابت لدعم حق الجيش وانهاء التهديد بالحرب الأهلية.

وفي ليلة ٣٠ أيلول سنة ١٩٢٣ احتلت وحدات من جيش الرايخ الأسود بقيادة (بوخروكر) ثلاث قلاع في شرقي برلين. فأمر (سيكت) القوات النظامية بتطويقها. وبعد يومين استسلم (بوخروكر) وحوكم بتهمة الخيانة العظمى. وحكم بعشر سنوات اعتقال ثكنة. ان جيش الرايخ الأسود الذي ألفه (سيكت) نفسه بالإسم التنكري [العمال الفدائيون Arbeitskommandos] ليكون مستودعاً سرياً واحتياطياً يستمد منه الجيش الألماني ذو المائة ألف مقاتل، قام هو نفسه بحله^(١١).

ثم وجه (سيكت) إهتمامه الى الثورة الشيوعية في (ساكسونيا) و(ثورنجيا Thuringia) وهامبورگ والروهر. إن ولاء الجيش في قمع اليسار شيء مضمون. ففي ساكسونيا قبض قائد الموقع العسكري

١٠ - اللفتنت جنرال فريدريك فون رابناو F. Von Rabenau كتابه "سيرة حياة سيكت: Seeckt, aus seinem Leben ج ٢ ص ٣٤٢.

١١ - كان هذا (الجيش الأسود) الذي يبلغ تعدادة عشرين ألفاً تقريباً، يربط في الجبهة الشرقية ليساعد في حراستها أمام البولنديين في الأيام الحافلة بالاضطراب ١٩٢٠-١٩٢٣. هذه المنظمة اللاقانونية أصبحت سيئة السمعة لحياتها أعمال التعذيب والفظائع الوسيطة التي كانت ترتكبها المحاكم السرية المعروفة في القرون الوسطى باسم فيمرغريخته Femergerichte - فكانت توقع عقوبة الاعدام الفوري على الألمان الذين يكشفون عن نشاط (الجيش الأسود) لهيئة المراقبة الحليفة. ووصل عدد من هذه القتل الوحشية الى سوح المحاكم. وفي احدى المحاكمات انكر وزير الدفاع الألماني (أوتو كيسلر) الذي خلف (نوسكه) أي علم له بهذه المنظمة. وأصر على انها غير موجودة أصلاً. لكن عندما احتج أحد المستنطقين على هذه (البراءة) وعدم المعرفة صاح كيسلر: "من يتكلم عن الجيش الأسود يرتكب عملاً من أعمال الخيانة العظمى!"

التابع لجيش الرايخ على أعضاء الحكومة الشيوعية-الإشتراكية. ونصب مفوض أعلى من الرايخ لتولي الحكم. وفي هامبورگ وغيرها من الأقاليم تم خضد شوكة الشيوعيين بسرعة وقسوة متناهية. وبدأ لبرلين أن قمعاً سهلاً للشيوعيين كهذا لا بدّ سيجرد متآمرى باقاريا من حجتهم في انهم يعملون لانقاذ الجمهورية من الشيوعيين! فهم سيعترفون الآن بسلطة الحكومة المركزية. إلا أن الأمور لم تجر كما حسبوا.

فقد ظلت باقاريا تتحدى برلين وهي الآن تدار بحكم دكتاتوريّ ثلاثي يتألف من (كاهر) مفوض الدولة. والجنرال أوتو فون لوسوف Otto Von Lossow قائد جيش الرايخ في باقاريا. والكولونيل هانس فون سايسر Hans Von Seisser مدير الشرطة العام. ورفض (كاهر) تطبيق إعلان حالة الطواريء في باقاريا، وأبى اطاعة أي أمر صادر من برلين ولما طلبت الحكومة المركزية ايقاف جريدة هتلر عن الصدور بسبب هجومها العنيف على الجمهورية عموماً وعلى (سيكت) و(شتريزمان) و(كيسلر) بنوع خاص. رفض (كاهر) تنفيذ الأمر باستهانة واستخفاف. وتجاهل ايضاً أمراً ثانياً من برلين يقضي بإلقاء القبض على ثلاثة زعماء لعصابات مسلحة في باقاريا سيئي السمعة وهم الكابتن هايس Heiss والكابتن إيرهارد (بطل) إنقلاب كاپ. والملازم روسباخ Rosbach (صديق روهم). ونفذ صبر الجنرال (سيكت) فأمر الجنرال فون لوسوف بايقاف جريدة النازيين عن الصدور واعتقال الضباط الثلاثة المذكورين. وكان (لوسوف) باقارياً ضعيف الإرادة موزع الفكر أثرت فيه فصاحة هتلر ووسائل اقناع (كاهر) فتردد في تنفيذ أوامر رئيسه الذي اصدر في ٢٤ تشرين أمراً بعزله من القيادة ونصب الجنرال كريس فون كريسنشتاين Kress Von Kressenstein في محله. ولم يكن (كاهر) بمن يقبل بهذا الضابط القادم من برلين وأعلن أن (لوسوف) سيبقى على رأس جيش الرايخ في باقاريا وبهذا لم يتحد (سيكت) وحده، بل الدستور نفسه حين أجبر ضباط الجيش وجنوده على حلف يمين الولاء للحكومة الباقارية. ووجدت برلين في ذلك تمرداً عسكرياً أكثر منه عصياناً سياسياً. وعزم الجنرال فون سيكت على قمع الإثنتين بضربة واحدة^(١٢).

واصدر امراً انذارياً للثلاثي الباقاري وهتلر والعصابات المسلحة. جاء فيه: "ان كل ثورة يقومون بها ستقمع بالقوة" ولم يعد للزعيم النازي مجال للتراجع بعد إندفاعه. وكان أتباعه المسعورون يطالبون بالعمل السريع والحل عليه الملازم بروكنر Bruckner وهو من قواد جنود العاصفة أن يقوم بتوجيه ضربه حالاً وانذره بقوله: سيأتي يوم قريب لاأستطيع فيه كبح جماح رجالي. وان لم تتحرك فسوف يتركونا".

وادرك هتلر ايضاً أن (شتريزمان) لو كسب وقتاً وبدأت طلائع جهوده الناجحة في إعادة الاستقرار والهدوء فإن فرصته ستضيع منه. وراح يتوسل (بكاهر) و(لوسوف) ليزحفا على برلين قبل ان تزحف برلين على مونيخ. وبلغ به الشك في موقفهما مبلغاً عظيماً: إما أن الثلاثي قد اقعده الجبن وشاع فيه الخوف. وإما انه يخطط إنقلاباً انفصالياً لا يكون فيه شريكاً، الهدف منه فصل باقاريا عن الرايخ.

وهذه الأخيرة أكثر مما يطبق هتلر احتمالاً نظراً إلى آرائه المتعصبة بخصوص رايبخ موحدٍ قومي قويّ. شاع التردد في (كاهر) و(لوسوف) و(سايسر) بعد أن تلقوا انذار (سيكت) ولم يكونوا مهتمين بحركة ظاهرة العُقم كفيّلة بالقضاء المبرم عليهم. ولهذا قاموا في ٦ تشرين الثاني بابلغ (عصبة الألمان المحاربين) التي كان هتلر يتزعمها سياسياً بالألّا يقدموا على عمل طائش وإن الثلاثي هو الذي سيقدر بمفرده متى يعملون وكيف. وكان هذا إشارة لهتلر للمبادرة بالقبض على زمام الأمور بيده. فهو بمفرده لا يملك اسناداً للقيام بانقلاب ما يلزمه في الحقيقة مساندة الدولة البافارية وجيشها وشرطتها وهو ذلك الدرس الذي تعلمه أيام تشرده في فيينا. عليه استنباط وسيلة تمكنه من وضع (كاهر ولوسوف وسايسر) في موضع العمل معه بحيث لا يستطيعون النكوص إلى الوراء. الجرأة وحتى التهورّ هما أسلوبيه الوحيد وقد اثبت بالدليل انه لا يفتقر اليهما الآن. لذلك قرر خطف هذا (الثلاثي) واجباره على استخدام سلطاته الاجرائية لتنفيذ غايته. اقترح عليه الفكرة مبدئياً اللاجئان الروسيان (روزنبرگ وشوينر-ريختر) وهذا الأخير جعل نفسه في مصاف النبلاء عن طريق اسم زوجته فاطلق على نفسه "ماكس ايرفن فون شوينر-ريختر Max Erwin Von Scheubner-Richter وكان شخصية غامضة مثل روزنبرگ قضى معظم حياته في اقاليم روسيا بالبلطيق وبعد الحرب غادر الاتحاد السوفياتي مع غيره من اللاجئين واستقر في مونيخ وانضم إلى الحزب النازي وأصبح من أقرب مقربي هتلر.

كان يوم ذكرى ٤ تشرين Totengedenktage وهو يوم ألمانيا الوطني. سيُحيا باستعراض عسكري في قلب مونيخ وأعلن في الصحف أن الامير الملكي روبرخت سيكون على منصة التحية مع (كاهر ولوسوف وسايسر) وإن هذه المنصة ستقام في شارع ضيق يؤدي إلى فيلدهرنهاله Feldherrnhalle واقترح (شوينر-ريختر) و(روزنبرگ) على هتلر أن يؤتى ببضع مئات من جنود العاصفة في لوريّات وتحشد في الشارع الصغير قبل وصول الجنود المستعزضة واقفال الشارع بمدفع رشاش ثم يرتقي هتلر المنصة ويعلن الثورة ويطلب تحت التهديد بالمسدس - من رجال السلطة الكبار الانضمام اليه ومساعدته على قيادتها. وهفت نفسه إلى هذه الخطة ووافق عليها متحمساً. لكن روزنبرگ لخيبته وجد أن الطريق الضيق محمي من الفتحتين حماية دقيقة بوحدات كبيرة من الشرطة الشاكية السلاح عندما وصل قبل الوقت بزمانٍ للثبّت من صلاح الخطة. فكان من المحتّم أن يصرف النظر عن المؤامرة... والأصوب عن الثورة.

الواقع انها تأجلت ليس إلا. ورسمت خطة أخرى لا يعرقلها وجود وحدة من الشرطة تحتلّ موضعاً سوقياً. وتقضي أن يحشد في ليلة ١٠-١١ تشرين الثاني جنود العاصفة وغيرهم من العصابات المسلحة مثل (عصبة المحاربين الألمان) في مروج (فرويتشماننجر Froettsmaninger) في ضواحي مونيخ الشمالية. وفي صبيحة الحادي عشر الموافق ذكرى الهدنة المشؤومة المخجلة تزحف هذه القوة على المدينة وتحتل النقاط السوقية وتعلن الثورة القومية متحدية بالأمر الواقع (كاهر ولوسوف وسايسر) المترددين.

وعند هذه النقطة أوقف هتلر خطته. ألجأه الى ذلك إعلان في الصحف ظاهره غير مهم فقد جاء فيه أن (كاهر) سيقوم بتوجيه كلمة بناءً على رجاء بعض البيوت التجارية والمؤسسات الصناعية في مونيخ - في إجتماع بقاعة بيرة كبيرة في ظاهر المدينة الجنوبي الشرقي اسمها Buergerbraukeller وكان موعد الإجتماع في مساء ٨ تشرين الثاني وموضوع الخطاب كما ذكر في الإعلان "منهاج الحكومة البافارية" وجاء ايضاً أن الجنرال فون لوسوف والكولونيل فون سايسر وبعض كبار القوم سيكونون من الحاضرين.

هناك إعتباران حملاً هتلر على قراره المتهور. الأول انه كان يشك في ان (كاهر) يريد ان يستخدم الإجتماع لإعلان انفصال (بافاريا) وإعادة أسرة (فيتلسباخ) الى عرش بافاريا. وحاول هتلر طول يوم ٨ تشرين مقابلة (كاهر) عبثاً. فقد أرجأ الموعد الى التاسع منه وهذا مما زاد من شك الزعيم النازي، وحيداً له ضرورة سبقه بالعمل. اما الإعتبار الثاني فالإجتماع المضروب سيتيح له الفرصة التي ضاعت في ٤ تشرين، فرصة القبض على (الثلاثي) واجبارهم تحت التهديد بالمسدس على الانضمام الى النازيين لتحقيق ثورة الردة. ولهذا قرر العمل حالا. وألغيت خطة تعبئة العاشر من تشرين الثاني، واستعيب عنها باستنفار جنود العاصفة استنفاراً عاجلاً وتحشيدهم في قاعة البيرة الكبيرة.

-٥-

مؤامرة قاعة البيرة

في حوالي التاسعة إلا ربعاً من مساء الثامن من تشرين الثاني ١٩٢٣، وبعد أن تكلم (كاهر) قرابة نصف ساعة أمام جمهرة من رجال الصناعة العطاش يناهز عددهم ثلاثة آلاف وقد جلسوا الى مناضد خشبية خشنة الصنع يجرعون بيرتهم من اقداح حجرية على الطريقة البافارية، احاط جنود العاصفة بالقاعة واندفع هتلر الى الداخل بينما راح فريق من أعوانه يركزون مدفعاً رشاشاً أمام المدخل الرئيس وقفز هتلر وإعتلى إحدى المناضد واطلق رصاصة من مسدسه نحو السقف لجلب الانتباه اليه. فتوقف (كاهر) عن الكلام وإلتفت المجتمعون ليتشبثوا من أسباب الاضطراب. فخفّ هتلر مع مساعديه (هيس) و(اولريخ كراف) القصاب السابق والمصارع الهاوي رجل العصابات وحارس الزعيم الشخصي الى المنصة، وحاول ضابط شرطة برتبة (ميجر) التصدي لهم لكن هتلر سدّد اليه مسدسه وواصل سيره. اما (كاهر) فقد بدا -على حدّ ما وصفه شاهد عيان- شاحب الوجه مضطرباً. وانسحب من المنبر ليأخذ هتلر محله، صاح هتلر بأعلى صوته "لقد بدأت الثورة القومية. وهذه البناية يحتلها الآن ستمائة رجل مسلحون تسليحاً تاماً. وليس لأحد منكم مغادرة القاعة. وان لم تركنوا الى الهدوء حالا فسأنصب مدفعاً رشاشاً فوق المنصة. إن حكومتي بافاريا والرايخ قد نحييتا عن الحكم. وقامت حكومة قومية مؤقتة. لقد تمّ إحتلال ثكنات جيش الرايخ. وان الشرطة والجيش يزحفان على المد تحت علم الصليب المعقوف".

ان الفقرة الأخيرة كانت أكذوبة، خدعة لا غير، لكن من يستطيع التأكد في وسط هذه الفوضى؟ هناك مسدس. وهو شيء حقيقي منظور. وهنا جنود العاصفة ببندياتهم ومدافعهم الرشاشة وهو ايضاً شيء حقيقي ملموس. الآن أمر هتلر كلاً من (كاهر ولوسوف وسايسر) أن يتبعوه الى غرفة صغيرة ملحقة بالمسرح. فامثل أكبر ثلاثة موظفين في بافاريا لأمره تحت تهديد جنود العاصفة. اما الجمهور فكان يرقب ما يجري بذهول تام.

على ان غضبهم كان يزداد مقروناً بالدهشة. فكثير من رجال الصناعة مازال يجد هتلر سياسياً مستجداً. وصاح احدهم بالشرطة "لا تكونوا جبناء مثلما أثبتتم في ١٩١٨، أطلقوا النار!" لكن الشرطة لم تتحرك من مكانها وهي ترى رؤوس الحكومة تسير ذليلة طيعة وجنود العاصفة يسيطرون على القاعة. كان هتلر قد اتفق مع جاسوس نازي في الشرطة هو فلهم فريك Wilhelm Frick أن يتلفن الى شرطة القاعة مشيراً بعدم التدخل والاكتفاء بمجرد تقرير. واشتد الغضب بالمدعوين وزادت أصوات الاحتجاج والإستنكار وتعالن الضجة حتى اضطر (گورنگ) الى اعتلاء المنصة لتهدئة روعهم بقوله: "ليس ثم ما يخشى منه، فنيأتنا طيبة جداً. وعليه فلا داعي للسخط، وها هي (جعتكم) أمامكم!" ثم أعلمهم ان حكومة جديدة يتم تأليفها الآن في الغرفة المجاورة.

تلك هي الحقيقة وبفضل مسدس هتلر المصوب. اذ ما ان استاق أسراه الى الغرفة الخلفية حتى بادروهم بقوله: "لن يخرج أحد من هذه الغرفة حياً دون ارادتي." وقال انهم سيتولون مناصب رئيسة إما في حكومة بافاريا أو حكومة الرايخ التي يقوم بتشكيلها الآن مع (لودندورف). مع لودندورف؟ في أولى ساعات العصر كان هتلر قد أرسل (شوينر-ريختر) الى لودفيكشويه Ludwigshoehe للاتصال بالجنرال الشهير الذي كان أجهل الناس بمؤامرة النازي. وليطلب منه المجيء الى قاعة البيرة حالا.

رفض الأسرى الثلاثة حتى الكلام مع هتلر باديء ذي بدء واستمر يخطب فيهم، الواجب يحتم على كل منهم أن ينضم اليه في إعلان الثورة وتأليف الحكومتين الجديدتين. وعلى كل واحد منهم ان يقبل المنصب الذي اسنده اليه هتلر وإلا "فلا حق له في الحياة". وعلى (كاهر) ان يقبل الوصاية على (بافاريا) وعلى (لوسوف) ان يرضى، بمنصب وزير الجيش القومي وأن يقبل (سايسر) بمنصب وزير شرطة الرايخ- لكن لم يكتثر أحد بعروض هذه المناصب الرفيعة ولم يرد أحد بكلمة وفت سكوتهم المطبق في عضد هتلر وهذ اعصابه فصوب مسدسه اليهم وقال: "لدي هنا في مسدسي أربع اطلاقات ثلاثة منها للمتعاونين معي ان هم تركوني والرابعة لي!" ثم صوب فوهة المسدس الى جبهته وصاح: "إن لم أكن من الظافرين غداً بعد الظهر فسأقتل نفسي!"

لم يكن (كاهر) يمتاز بسرعة الخاطر أو حدة الذكاء إلا أنه شجاع جميع القلب. فانشى يقول لهتلر: "هر هتلر! يمكنك اطلاق الرصاص علي أو على نفسك فلا يهمني إن مت."

وعقبه (سايسر) وطفق يلوم هتلر لأنه حث بكلمة الشرف التي قطعها على نفسه بالأى يقوم بمحاولة إنقلابية ضد الشرطة فأجابه "نعم، اني قطعت عهداً فعفواً. إلا اني اضطررت الى ذلك بدافع وطني". ولازم الجنرال (لوسوف) الصمت المطبق استخفافاً بالوضع واحتقاراً. لكن ما ان طفق (كاهر) يهمس



مارشال الرايخ غورنك

في اذنه شيئاً حتى صرخ هتلر "قف! لا كلام إلاً باذني!" لم يصل بكلامه الى نتيجة ولم يوافق واحد من الثلاثي القابض على مقاليد الحكم في دولة بافاريا على التعاون معه حتى بتهديد المسدس، وبدأ الانقلاب لايسير وفق الخطة المرسومة ثم اندفع هتلر الى القاعة كأنه يطيع حافزاً مفاجئاً وصعد المنصة مواجهاً الحاضرين معلناً أن أعضاء الحكومة الثلاثي في الغرفة المجاورة قد انضموا اليه لتشكيل حكومة قومية جديدة. وصرخ "ان الوزارة البافارية قد نُحيت... وأعلن إسقاط حكومة مجرمي تشرين وعزل رئيس جمهورية الرايخ. وستعلن اسماء أعضاء حكومة قومية جديدة في مونخ قبل نهاية اليوم. سيشكل جيش ألماني قومي فوراً... وأنا اقترح تصفية الحساب النهائي مع مجرمي تشرين وان تكون الإدارة السياسية في الحكومة القومية بيدي وسيتولى (لودندورف) قيادة الجيش القومي الألماني... ان مهمة

الحكومة الألمانية المؤقتة ذات الطابع القومي هي أن تنظم زحفاً عسكرياً على (بابل الآثمة) برلين لانقاذ الشعب الألماني. سيشهد يوم الغد أحد أمرين: إما حكومة قومية لألمانيا. وإما نكون نحن في عداد الموتى!"

لم تكن هذه المرة الأولى والأخيرة التي يقذف فيها هتلر بكاذوبة محكمة. والحق يقال انها احدثت أثرها المرجو. اذ ما ان سمع الحاضرون أن (كاهر ولوسوف وسايسر) قد انضموا الى هتلر حتى تغيرت مشاعرهم وبدأوا يطلقون الهتافات العالية، مما أحدث أثراً في الرجال الثلاثة المعتقلين في الغرفة. وتقدم (شوينبر-ريختر) كما يتقدم (الهاوي) مخرجاً من قبعته الجنرال (لودندورف). كان بطل الحرب في اشد حالات الغيظ من هتلر بسبب هذه المفاجأة التي دبرها دون علم منه. ويدخوله الغرفة الصغيرة وعلمه أن نائب العريف السابق سيكون دكتاتور ألمانيا لا هو، زاد غيظه اضعافاً مضاعفاً ولم يوجه حرفاً واحداً الى الشاب المعجب بنفسه إلا أن هتلر لم يكتثر بعد ان قبل (لودندورف) وضع اسمه في هذا المشروع اليائس ونجح شخصياً في اقناع زعماء بافاريا الحانقين إثر فشله في ذلك رغم تهديده ونصحه... وبدأ لودندورف يتجاوب بالقضية هي الآن القضية الوطنية الكبرى كما قال وهو ينصح السادة الأجلاء بالتعاون. وبإهتمام الجنرال الأكبر بالموضوع خُيل ان الثلاثي قد لان جانبه واستسلم. وإن انكر (لوسوف) فيما بعد موافقته على وضع نفسه تحت تصرف (لودندورف). وظلّ (كاهر) يثرثر بضع دقائق حول إعادة (قتلسباخ) وهي امنيته العزيزة جداً. وأخيراً صرح بأنه سيتعاون

بوصفه (نائباً للملك).

إن مَقدم (لودندورف) المؤقت توقيتاً أنقذ هتلر. فاستبد به الفرح لإقبال الحظّ عليه واقتاد الثلاثة الى المنصّة ليلقي كل واحد منهم كلمة، وليقسم بعضهم لبعض على الإخلاص والولاء للعهد الجديد ونطّ الحاضرون فوق الكراسي والمناضد وقد اصابتهم لوثّة من الجنون وترنحت اعطاف هتلر طرباً وقال مؤرخ شهير كان حاضراً الواقعة. "ارتسم تعبير واضح من السعادة على وجهه هو اشبه بسعادة الأطفال لا أنساه قط" (١٣).

وعاد مرة أخرى الى المنبر ونطق بآخر كلماته أمام المجتمعين: "اني اريد الآن تحقيق النذر الذي قطعت على نفسي قبل خمس سنوات عندما كنت أعمى مقعداً في المستشفى العسكري: وهو أن لا اعرف راحة أو هدوء بال حتى ازاحة مجرمي تشرين لتقوم على أنقاض ألمانيا اليوم المتقوضة، ألمانيا قوية عظيمة حرّة ساطعة مرة ثانية".

وبدأ عقد الحضور ينفرط. وشرع (هيس) بمعاونة جنود العاصفة يوقف عدداً من أعضاء الوزارة الباشارية وآخرين من الاعيان الذين حاولوا التسلسل من بين الجمع الحاشد. ولم يدع هتلر (كاهر ولوسوف وسايسر) يغيبون عن أبصاره. ثم وردت اخبار عن وقوع مصادمة بين جنود العاصفة. بمساندة من عصابة المحاربين لألمان وبين الجيش النظامي في ثكنات سلاح الهندسة فقرر هتلر أن يذهب بنفسه الى الموقع ليحسم الأمر تاركاً حانة البيرة في يد (لودندورف).

فكانت الغلطة القاضية. إذ تسلسل (لوسوف) مع أول نفر الى الخارج متعللاً بقوله للودندورف: أن ذهابه الى مقرّ الجيش لا بد منه لاصدار الأوامر الضرورية. ولما اعترض (شوينر-ريختر) على ذلك قاطعه (لودندورف) بحدة: "اني أمنعك من الشك في كلام ضابط ألماني" وغاب (كاهر) و(سايسر) عن القاعة ايضاً.

عاد هتلر والدنيا لاتسعه فرحاً الى قاعة البيرة ليجد العصافير قد طارت من القفص وكانت أول ضربة ترتج لها في تلك الامسية، اذ كان واثقاً بأنه سيجد (وزراء) مكين على مهماتهم الجديدة، في حين ينهمك لودندورف ولوسوف في وضع خطط الزحف على برلين لكنه لم ير شيئاً من هذا. حتى مونيخ نفسها، فان قوات الثورة لم تكمل إحتلالها. قام (روهم) على رأس وحدة من جنود العاصفة تنتمي الى عصابة مقاتلة أخرى تعرف باسم رايششكريكفلاكه Reichskriegsflagge بإحتلال مقرّ إدارة الجيش في وزارة الحرب بشارع شونفيلد Schoenfeldstrasse على انه لم يتم إحتلال اية مراكز استراتيجية أخرى حتى ولا دائرة البرق التي خرج من أسلاكها نبأ الإنقلاب ليبلغ برلين. ووردت أوامر من الجنرال فون سيكت الى جيش بافاريا بوجوب قمع العصيان مع حصول ردود فعل بين صغار الضباط في بعض الوحدات التي كانت تعطف على هتلر وروهم، إلا أن كبار الضباط بقيادة الجنرال (فون دانر Von Danner) قائد حامية مونيخ كانوا على استعداد لتنفيذ أوامر (سيكت) وزادهم رغبة، حقدتهم المرير للمعاملة التي لقيها الجنرال فون لوسوف. ففي قانون الجيش الألماني أن المدني الذي يصوب

١٣- كارل الكساندر فون مولر. اقتباس هايدن في "الزعيم" ص ١٩٠.

مسدساً الى جنرال يستحق الصفع بيد ضابط. وخرجت الأوامر من مقر ثكنات كتيبة المشاة التاسعة عشرة الى سائر الحاميات في الضواحي لاستقدام نحدات عسكرية الى المدينة، على أثر إجتماع الجنرالين (لوسوف ودانر).

وبانيلاج الفجر كانت وحدات الجيش النظامي قد اكملت تطويق قوات (روهم) في وزارة الحرب. وكان لودندورف وهتلر قد إلتحقا بـ(روهم) قبل ذلك بفترة لاستطلاع الموقف. وصدم (روهم) عندما تبين له انه الوحيد الذي قام بعمل عسكري واحتل نقطة حيوية. وحاول هتلر جاهداً الاتصال (بالثلاثي) وأرسلت بعوث الى ثكنات كتيبة المشاة التاسعة عشرة باسم (لودندورف) إلا أنهم لم يعودوا وأرسل (پوينر Poehner) مدير شرطة مدينة مونيخ السابق واحد أشياع هتلر مع الرائد (هوهنلاين Huehenlein) وجماعة من جنود العاصفة لإحتلال مقر الشرطة العام فاعتقلوا هناك فوراً. وماذا عن گوستاف فون كاهر رئيس الحكومة البافارية؟ بعد مغادرته قاعة البيرة ثاب اليه رشده بسرعة، ولم اطراف شجاعته. ولكرّهه أن يكون تحت خطر الوقوع اسيراً بيد هتلر وصحبه الغلاظ، نقل حكومته الى ريگنزبرگ Regensburg. ولم ينسَ قبل مغادرته المدينة أن يأمر بلسق إعلانات كبيرة في كل انحاء مونيخ فيها البيان التالي:

بيان

إن خداع وغرور بعض الرفاق الطموحين. حوّل تظاهرةً اقيمت لمصلحة الانعاش القومي الى مشهد من مشاهد العنف التي تشمئز منها النفس. إن التصريح الذي انتزع مني ومن الجنرال لوسوف والعقيد سايسر بتهديد المسدس انما هو باطل لا قيمة له. اني أمر بهذا، بحلّ الحزب القومي الإشتراكي للعمال الألمان وبحلّ عصبتي اوبر لاند Oberland ورايخشكريبكزفلاكه المحاربتين.

توقيع فون كاهر مفوض الدولة السامي

إن الفوز الذي بدا لهتلر سهل المنال في أولى ساعات المساء. صار يبدو له بعيداً بقدم الليل. واخذ يرقب القواعد الأساسية التي اختطّها لإنجاح الثورة السياسية وتشدد في تطبيقها (مساندة المؤسسات القائمة كالجيش والشرطة وزمرة الحاكمين) وهي تتهاوى وتتحطم أمام عينيه كما تجلى واضحاً ان اسم (لودندورف) السحري لم يحدث أي أثر في موقف القوات المسلحة واقترح هتلر انقاذ الموقف بانسحابه هو والجنرال الى الريف قرب روزنهايم Rosenheim لتنظيم صفوف الفلاحين لتكون ظهيراً للعصابات المسلحة ثم الهجوم بها على مونيخ، إلا ان (لودندورف) رفض الفكرة في الحال. أو لعلّ هناك وسيلة أخرى لاجتناب الكارثة على الأقل؟ ما أن سمع الأمير الملكي بالمؤامرة - وكان عدواً شخصياً لدوداً لودندورف - حتى اصدر تصريحاً مقتضباً دعا فيه الى قمعها حالا. إلا ان هتلر قرر توجيه نداء الى الأمير بالتدخل واقناع (لوسوف) و(كاهر) بتسوية سلمية شريفة وحمل الرسالة

الملازم نيونزرت Neunzert وهو صديق لكل من هتلر والأمير وكلف بالذهاب فجراً الى قلعة (فيتلسباخ) قرب (برخستگادن) لقضاء المهمة الخطيرة لكنه اضطر الى انتظار القطار لأنه لم يحصل على سيارة فلم يبلغ هدفه إلا ظهراً بعد أن طراً تحول في مجرى الأمور لم يكن في حسابان هتلر. ولم يحلم به لودندورف. كان هتلر قد وضع خطة مؤامرة، لا خطة حرب اهلية ومع حالة الهياج المحموم التي ركبتة فقد كان في اعصابه بقية كافية للسيطرة على نفسه الجامحة وليدرك ان القوة تعوزه للتغلب على الشرطة والجيش. اراد احداث ثورة بالقوات المسلحة لا ضدها. ومهما أظهر في خطبه الأخيرة من شهوة الى سفك الدماء فانه أحجم، حتى في الساعات التي كان يصوب مسدسه الى الثلاثي البافاري. عن فكرة اقتتال الرجال الذين اتحدوا في كرههم الجمهورية وسفك بعضهم دماء بعض.

وكذلك كانت فكرة لودندورف. انه ليسعده وضع الحبل في عنق الرئيس (إيرت) وشركائه والاستمتاع برؤيتهم يتأرجحون في الهواء كما كتب لزوجته. لكنه ما رغب قط في قتل الشرطة والجنود الذين يؤمنون كما يؤمن -على الاقل في مونيخ- بثورة ردة قومية الطابع. واقتراح لودندورف على الزعيم النازي الشاب المتردد خطته التي قد تنيلهما النصر دون اراقة دماء. إن الجنود الألمان والشرطة -ومعظمهم جنود سابقون- لا يتجاسرون على اطلاق رصاصهم على صدر القائد الأسطوري الذي قادهم الى إنتصارات عظيمة في الجبهتين الشرقية والغربية. وهو واثق من ذلك تمام الثقة وليس عليه إلا أن يزحف هو وهتلر وأعوانهما الى مركز المدينة. ليستوليا عليها ولن تجرأ الشرطة أو الجيش على اعتراض سبيله بل سينضمون اليه ويحاربون تحت لوائه. فوافق هتلر بشيء من التردد بعد ان وجد الأبواب الاخرى موصدة في وجهه وعقب يقول أن الأمير الملكي لم يجب حتى الآن على طلب الوساطة. وفي حدود الساعة الحادية عشرة من صبيحة ٩ تشرين الموافق ذكرى إعلان الجمهورية الألمانية قاد (لودندورف وهتلر) قوة من جنود العاصفة تبلغ ثلاثة آلاف من حداث مشرب البيرة العتيذ، وبها زحفا على قلب مونيخ وكان الى جانبيهما المقدم (گورنگ) قائد ال(إس-أي) وشويبنر-ريختر وروزنبرگ. واولريخ كراف حارس هتلر الشخصي ونصف دستة من اقطاب النازيين وزعماء "عصبة الكفاح". ورفع علم الصليب المعقوف على رأس الرتل الى جانب بيرق عصبة (البوند اوبرلاند) وعلى مسافة قصيرة من الصف الأمامي كان ثم لوري يعقب المسيرة مزود بعدد من المدافع الرشاشة مع رجالها؛ أما جنود العاصفة فكانوا يحملون بندياتهم معلقة على اكتافهم وبعضهم عمد الى تركيب حرايه. وكان بيد هتلر مسدس. إن القوة لم تكن كبيرة إلا أن لودندورف الذي قاد الملايين من خيرة الجنود الألمان كان يجدها كافية لانجاح خطته. وجوبه الثوار بالعائق الأول بعد سيرهم بضع مئات من الياردات شمال مشرب البيرة متمثلاً بجسر (لودفيك) على نهر (إيسر Isar) المؤدي الى قلب المدينة. كانت تحرسه ثلة من الشرطة وقد سدت الطريق اليه فخرج (گورنگ) الى الأمام وخاطب أمرهم مهدداً باعدام عدد من الرهائن زعم أنهم قد وضعوا في مؤخرة الرتل، إن اطلق شرطته الرصاص على رجاله. في ساعات الليلة السابقة كان (هيس) وأعوانه قد اعتقلوا عدداً من الرهائن

منهم وزيران احتياطاً للطواريء ليس إلا. وسواء أقصد (گورنگ) الخداع أو قال الحقيقة فالظاهر أن ضابط الشرطة صدقه وترك الرتل يعبر الجسر دون تعرض.

وفي "مارينپلاتز Marienplatz التقى الرتل النازي الزاحف بجمع غفير من الناس ينصتون الى خطبة حماسية يلقيها (يوليوس شترايخر) عدو اليهود الذي خف من (نورمبرگ) مسرعاً الى مونيخ عند سماعه بأول انباء الإنقلاب فكره أن يبقى بعيداً عن الثورة وقطع خطبته والتحق بالركب قافزاً الى موضع يبعد عن هتلر بخطوة واحدة. وقبل الظهيرة بقليل اقترب الرتل الزاحف من هدفه المنشود وزارة الحرب حيث كان (روهم) وأعوانه من جنود العاصفة قد طوقتهم قطعات جيش الرايخ لكن لم يصدر لا من المحصورين ولا زمر من المحاصرين طلقة نارية واحدة. كان (روهم) ورجاله من المحاربين القدماء ولديهم رفاق سلاح كثيرون في الجهة المقابلة من وراء الاسلاك الشائكة. ولم يوجد لدى الطرفين أية رغبة في القتل.

وفي سبيل الوصول الى وزارة الحرب وتحرير (روهم) قاد لودندورف وهتلر رتلهم في شارع (ريزدنسز Residenzstrasse) الضيق الذي يقع خلف (فيلدهرنهاله) مباشرة. والمفضي الى ميدان اديون پلاتز Odeonsplatz الواسع وعلى رأس الشارع الشبيه بـgully كانت وحدة من الشرطة يناهز عددها المائة مسلحة بالبندقيات ترابط فيه وتسدد الطريق، في نقطة استراتيجية لاتسمح للمتقدمين بمجال. وحاول النازيون المرور بتأثير الكلام المقنع كما فعلوا عند العائق الأول فبرز الحارس الخاص الأمين (اولريخ گراف) ونادى ضابط الشرطة القائم على رأس السرية "لا تطلقوا النار! فإن صاحب العظمة لودندورف قادم" في هذه اللحظة الدقيقة المجرعة لم ينسَ ناثر ألماني ومصارعُ هاوٍ وشقيّ محترف الشقاوة أن يشير الى سيّد باللقب المناسب! وأردفه هتلر بصرخة ثانية "استسلموا! استسلموا!" لكن ضابط الشرطة المجهول لم يستسلم إذ بدا أن اسم لودندورف لم يكن فيه ذلك التأثير السحري عليه. انها الشرطة لا الجيش.

لا يعلم حتى الآن من كان الباديء باطلاق النار فكل جهة تضع المسؤولية على عاتق الأخرى. وشهد أحد المتفرجين فيما بعد ان هتلر كان أول من اطلق مسدسه. وخيل لآخر أن المطلق الأول (شترايخر). وأسر أكثر من واحد من النازيين للمؤلف بأن هذه المأثرة هي التي أدنت مكانته من هتلر أكثر من أي شيء آخر^(١٤).

على كل حال فقد ثارت. وما هي لحظة حتى إنهمر وابل من الرصاص وبهما لفظ حكم القضاء المبرم على آمال هتلر. سقط شويبنر-ريختر مصاباً بجرح مميت. وبرك (گورنگ) على الارض وقد جرح في فخذه جرحاً بليغاً. وبعد ستين ثانية توقف الجانبان عن اطلاق النار وانتشرت الاجساد الساقطة في طول الشارع. صرع ستة عشر نازياً. ومات ثلاثة من أفراد الشرطة أو كانوا في ساعة النزاع الأخير

١٤- بعد مرور سنوات قال هتلر عند مصادقته على تعيين شترايخر الحاكم النازي لمحافظة فرانكونيا رغم وقوف عدد كبير من رفاق الحزب موقف المعارضة: "ربما يوجد واحد أو اثنان لايعجبهما شكل الرفيق شترايخر. لكنه عندما التقى بنفسه على الرصيف الى جانبي في ذلك اليوم قرب (فلدهرنهاله) حلفت في نفسي أن لا اتركه أو اتخلى عنه طالما هو لا يتخلى عني"، هايدن: "هتلر: سيرة حياة" ص ١٥٧

وجرح أكثر من ذلك بكثير. أما الناجون ومنهم هتلر فقد القوا بأنفسهم على بلاط الشارع اتقاء الرصاص.

كان ثم مستثنى واحد لو سار الآخرون على نهجه لإنتهى اليوم بغير ما انتهى اليه. لم يلق لوندندورف بنفسه على الأرض بل ظلّ منتصباً كالطود متحدياً بحسب ارفع التقاليد العسكرية. ووقف الى جانبه الرائد (شتريك Streck) ثم سار بهدوء وقدم ثابتة بين فوهات بندقيات الشرطة حتى بلغ (ديون پلاتز). لاشك وأن الناظر كان يجد شخصية فريدة غريبة. إذ لم يتبعه نازي واحد، لم يتبعه حتى زعيم الحزب الأعلى أدولف هتلر.

وكان مستشار الرايخ الثالث المقبل، أول الزاحفين الى منطقة الأمان. في أول الزحف عمد الى شبك ذراعه اليسرى بذراع (شوينر-ريختر) اليمنى (إشارة غريبة لكنها ذات دلالة) ولما دنا الرتل من الشرطة وسقط الأخير جرّ معه هتلر الى بلاط الشارع. وربما حسب هتلر أنه أصيب، فقد شعر بألمٍ حادٍ تبين له فيما بعد أنه متأت من خلعٍ في ذراعه لكن الحقيقة ظلت مطابقة لشهادة الطبيب قالتر شولز Walther Schulz الذي كان واحداً من أفراد الرتل النازي، وتأيدت شهادته بشهادات عدة: يقول "إن هتلر كان أول من نهض وتقهقر منسحباً" تاركاً رفاقه القتلى والجرحى على أرض الشارع. وقد جرّ جرّاً الى سيارة كانت بالانتظار ونقل حالا الى منزل آل هانفشتانكل الريفي في أوفنك Uffing حيث أشرفت على معالجته زوجة "پوتزي" واخته. وفي المنزل نفسه تم إلقاء القبض عليه بعد يومين.

وألقي القبض على (لودندورف) في محلّ الحادث. وكان قد امتلأ قلبه بالاحتقار للشوار الذين لم يجدوا في انفسهم الشجاعة للسير الى الأمام معه وحقد أيضاً على الجيش لأنه لم ينحز الى جانبه. حتى صرخ أنه لن يحترم بعد الآن ضابطاً ألمانياً واحداً ولن يرتدي بزة عسكرية مهما كانت الظروف. وقام بأسعاف الجريح (گورنگ) يهودي صاحب بنك مجاور ثم هربته زوجه عبر الحدود الى النمسا وادخلته مستشفى انزبروك Innsbruck وفرّ (هيس) الى النمسا أيضاً. وفي وزارة الحرب استسلم (روهم) بعد ساعتين من القضاء على الحركة أمام (فلدهرنهاله). ولم تمرّ أيام قلائل حتى تمّ إلقاء القبض على كل اقطاب الحزب وادعوا التوقيف بإستثناء (گورنگ وهيس). وهكذا ختم على مصير المؤامرة النازية بالفشل التام، وحلّ الحزب وبدا وكأن القومية الاشتراكية لن تقوم لها قائمة. وبدا وكأن زعيمها الدكتاتوري النزعة الذي اطلق ساقيه للريح عند أول رشقة من الرصاص قد قضى على سمعته قضاءً مبرماً، وانتهى مستقبله السياسي الصاروخي.

-٦-

المحاكمة بتهمة الخيانة

ظهر فيما بعد أن مستقبله السياسي لم يصب إلا بكبوّة لم تدم طويلاً. كان هتلر من بعد النظر بحيث وجد ان محاكمته لن تنهي شأنه وتختتم على مصيره بل ستكون بمثابة منبر للتبديد بالسلطات

الانتهازية المساومة التي قبضت عليه، بل (وهذا في غاية من الأهمية) ليجعل اسمه للمرة الأولى شهيراً خارج حدود بافاريا ومن ثم خارج حدود ألمانيا وكان يعلم جيداً أن مراسلي الصحافة العالمية فضلاً عن مراسلي صحف ألمانيا الكبرى سيتقاطرون الى مونيخ لمتابعة وقائع محاكمته التي بدأت في ٢٦ شباط ١٩٢٤ أمام محكمة خاصة عقدت جلساتها في مدرسة تدريب المشاة القديمة في بلوتنبرگ شتراسه Blumenburgstrasse وفي ختام الأيام الأربعة والعشرين التي استغرقتها المحاكمة، حول هتلر هزيمته الى إنتصار، وجعل (كاهر) و(لوسوف) و(سايسر) شركاء له في الجريمة أمام الرأي العام. وهبأهم لتلقي الضربة القاضية. كما استطاع أن يدهش الشعب الألماني بفصاحته ولهيب شعوره القومي. ورفع اسمه الى صدور الصحائف الأولى من امهات الجرائد العالمية.

ومع ان (لودندورف) كان اهم وأبعد شهرة وصيتاً من سائر المتهمين العشرة بلا جدال إلا ان هتلر سارع باحتكار كُُلّ الأنوار لنفسه وبقي مسيطراً بشخصيته على قاعة المحاكمة من البداية حتى النهاية. كان (فرانز غورتنر Franz Geurtner) وزير العدل البافاري صديقاً حميماً وحامياً للزعيم النازي فدبر ان تكون هيئة القضاة متساهلة ليئة وترك هتلر يقاطع الشهود على هواه دون اعتراض ويستجوبهم ويدافع عن نفسه أي وقت رغب ومهما امتد به الزمن. وقد استغرق دفاعه الأول أربع ساعات. وكان لا يختلف عن خطبة من خطبة الطويلة العديدة.

لم يكن في نيته ارتكاب الخطأ الذي وقع فيه المتهمون في تدبير مؤامرة (كاپ) عند محاكمتهم فقد ادعوا على ما قيل: "انهم لا يعرفون شيئاً ولم يقصدوا امراً، ولم يعملوا لغرض" ذلك هو الموقف الذي دمر العالم البرجوازي! انهم لم يقفوا موقف المصّر على عمله... لم يقفوا بمواجهة القاضي ليقولوا: "أجل هذا هو ما اردناه... أردنا القضاء على نظام الحكم".

وأعلن هتلر أمام القاضي ومثلي الصحافة العالمية في مدينة مونيخ بكل فخر واعتزاز "أنا وحدي أتحمل المسؤولية. لكنني لست مجرمًا لهذا السبب. وان وقفت اليوم بوصفي ثائراً، فأنا ثائر ضد الثورة... ليس ثم شيء يصح نعته بالخيانة العظمى ضدّ خونة ١٩١٨". وان وجد فالمثلث الذي يرأس الحكومة والجيش والشرطة في بافاريا هو ايضاً مجرم لأنه تأمر على الحكومة المركزية ويجب ان يوضعوا معه في قفص الاتهام لا ان يقفوا موقف الشهادة ويصبحوا مدعين رئيسيين عليه. وهكذا قلب ظهر المجن ببراعة وحذق على وجه المثلث القلق المثقل بوزر الجريمة: "شيء واحد هو مؤكد ثابت... (لوسوف وكاهر وسايسر) ارادوا ما اردنا- ارادوا التخلص من حكومة الرايخ... فإن رسم عملنا بميسم الخيانة العظمى فلوسوف وكاهر وسايسر شركاؤنا في جريمة الخيانة العظمى هذه. لأننا لم نتداول ولم نبحث طوال الاسابيع الأخيرة إلا في الأهداف والغايات التي نقف اليوم متهمين بها..."

لم يكن في مقدور "المثلث" انكار ذلك لأنه حقيقي. ولم يكن كاهر وسايسر ندين قريعين لهتلر ووخراته. على ان (لوسوف) دفع تهم هتلر عن نفسه بقوة وتحد. وقال للمحكمة "أنا لم أكن ضابطاً متقاعدًا komitadji بل أشغل في الدولة منصباً كبيراً" وأهل على رأس هتلر من الزاوية والاحتقار ما يشعر به ضابط قديم عريق ازاء نائب عريف سابق فاشي عاطل حديث نعمة قاده طموحه الغلاب الى

حدّ محاولة املاء أوامره على الجيش والدولة. ثم تساءل الى أي مدى من الاستهتار قد وصل هذا الديماغوغي المتهور منذ الأيام التي كان يرغب أن يصبح مجرد "قارع طبل" في الحركة الوطنية وهي مسافة ليست بعيدة.

مجرد قارع طبل؟ عرف هتلر كيف يجيب على هذا قال: "ما أصغر افكار صغار الرجال! ثقوا اني لا أعتبر التكليف بمنصب الوزارة شيئاً يسوى المجاهدة في سبيله. وليس يليق برجل عظيم أن يدخل سفر التاريخ عن طريق صيرورته وزيراً. إن المرء ليخشى على نفسه من ان يدفن قرب الوزارة. فلقد اردت أن اكون القضاء المبرم على الماركسية وسأقوم بإنجاز هذه المهمة وإن انا اجاهد في سبيل هذا المرام فلقلب وزير سيكون شيئاً تافهاً حقيراً بالنسبة لي.

وضرب بـ(فاكنر) مثلاً: " عندما وقفت على ضريح (فاكنر) لأول مرة. أفعم قلبي فخراً بذلك الرجل الذي أبى أن ينقش على قبره مثل هذه العبارة (هنا يرقد عضو مجلس المدينة، قائد الاوركسترا، سعادة البارون ريشارد فون فاكنر) كنت فخوراً لأن هذا الرجل ككثير غيره في تاريخ ألمانيا قنعوا بمنح اسمائهم للتاريخ دون ألقاب. وليس تواضعاً مني رغبتني في ان أصبح (طبالاً) في تلك الأيام. كانت تلك أسمى أمنية، اما غيرها فليس شيئاً مذكوراً".

وانتهم بأنه اراد القفز من وظيفة (طبال) الى مقام الدكتاتور فلم ينكر ذلك. فهذا حكم القدر. "ان الذي خلق ليكون دكتاتوراً ليس مضطراً له. إنه سيكونه. ولن يدفعه الآخرون الى الأمام بل سيدفع نفسه وليس في هذا خيلاء أو عدم تواضع. ا يكون من الخيلاء أن يدفع العامل نفسه الى العمل الشاق؟ أ هو من قبيل الإدعاء الفارغ أن يقضي رجل مفكر كبير الدماغ، لياليه ليقدم اختراعاً للعالم؟ لا حق للرجل الذي يدعى لحكم شعب من الشعوب أن يقول: ان اردتموني أو استقدمتموني فسأتعاون معكم. كلاً وحاشا! إن واجبه يحتم عليه التقدم الى الأمام."

كان إيمانه بنفسه وبحتمية دعوته الى حكم الأمة لم ينقص حتى عند وقوفه في قفص الاتهام مواجهاً حكماً طويلاً بالسجن لجرمة الخيانة ضدّ بلاده. ولقد قام وهو في السجن بانتظار المحاكمة بتحليل أسباب فشله في الانقلاب وأقسم أن لا يرتكب الاخطاء نفسها في المستقبل. وتذكر ما كان يجول في رأسه من افكار آنذاك بعد ثلاثة عشر عاماً من بلوغه هدفه فقال لأعوانه القداماء المجتمعين في حانة البيرة احتفالاً بذكرى الانقلاب: "اقول بكل هدوء انه كان اعجل قرار واشده تهوراً في حياتي. وكلما عدت بذاكرتي اليه طاش عقلي... لو رايتم اليوم واحدة من فصائلنا للعام ١٩٢٣ وهي تمر أمامكم لما تمالكتم أنفسكم من السؤال: (من أيّ سجن انطلق هؤلاء؟) لكن القدر إستجاب وانحاز الينا. فلم يسمح بنجاح عمل كان سيؤدي بالنتيجة الى فاجعة حتمية بسبب عدم نضوج الحركة من الداخل في تلك الأيام ولضعف الاسس التنظيمية والفكرية... لقد ادرنا أن القضاء على النظام السياسي القديم ليس بكافٍ لكن يجب علينا أن نسبق هذا ببناء الدولة الجديدة حتى تكون مهياًة وتحت اليد... في العام ١٩٣٣ لم تعد المسألة مسألة اسقاط دولة بعمل من أعمال القوة، كنا وقتذاك قد اتمنا بناء الدولة الجديدة وكل ما وجب علينا عمله هو تحطيم آخر بقايا الدولة القديمة- ولم

يقتضينا ذلك إلا ساعات قليلة".

وكانت مشكلة بناء الدولة النازية الجديدة تحتل فكره عندما راح يناظر القضاة ووكلاء الادعاء العام أثناء المحاكمة. ينبغي له في المقام الأول- أن يكسب الجيش الألماني الى صفه، لا أن يجعله ضده في الجولة التالية. وفي دفاعه الختامي ظلّ يضرب على وتر التصافي مع القوات المسلحة. ولم يوجه كلمة لوم واحدة الى الجيش: "...وفي اعتقادي ان الساعة ستحين عندما تتحدّ كتل الجماهير التي تقف الآن في الشارع تحت علم الصليب المعقوف مع أولئك الذين اطلقوا النار عليهم... عندما علمتُ أن الشرطة (الخضراء) هي التي اطلقت الرصاص. فرحتُ لأن الجيش الألماني لم يلطخ صفحته النقية. انه الجيش يقف طاهراً من أيّ وصمة كما وقف في الماضي. وفي يوم ما ستأتي الساعة التي يقف بها الجيش الألماني الى صفنا ضباطاً وجنوداً.

كانت نبوءة صائبة. لكن قاضي المرافعة قاطعه هنا قائلاً:

- هر هتلر، انت تقول الشرطة (الخضراء) قد لطخت بالعار. وهذا ما لا اسمح به. ولكن المتهم لم يعر أيّ إهتمام بتأنيب الحاكم. وختم دفاعه بكلمات أخيرة تركت المتفرجين في قاعة المحكمة مصروعين دهشة:

"إن الجيش الذي ننساه ينمو يوماً بعد يوم... وأني لأنتعش إنتعاشاً بالامل الفخور حين ادرك ان الساعة ستأتي في يومٍ من الأيام عندما تتقلب هذه السرايا المستجدة الى افواج والافواج الى ألوية والألوية الى فرق. وأن ترفع شارة الخوذة من الوحل. وأن ترفرف الأعلام ثانيةً وان يكون التصافي في آخر يوم دينونةٍ إلهيٍ عظيم تهيأنا لمواجهة.

ثم حوّل عينيه المقتدتين شواظاً الى القضاة مباشرة:

"لستم ايها السادة، بالذين تلفظون الحكم علينا. فقد نظقت بالحكم محكمة التاريخ الأزلية. إن الحكم الذي ستفرضونه أعرفه وتلك المحكمة أن تسألنا: (هل انتم مجرمون بجريمة الخيانة العظمى أم لا؟) تلك المحكمة ستحكم علينا على رئيس هيئة الأركان العام للجيش القديم [لودندورف]، وضباطه، وجنوده، وستجدنا ألماناً لم يريدوا إلا الخير لشعبهم ولأرض وطنهم. يريدون القتال والموت، لكم ان تعتبرونا مذنبين ألف مرة. لكن آلهة محكمة التاريخ الأزلية ستضحك وتمزق لائحة الادعاء العام وقرار هذه المحكمة مزقاً وقصاصات. لأنها برأتنا^(١٥)".

كانت العقوبات، إن لم نقل الاحكام، التي اصدرها القضاة المتصدرون لاتبعد كثيراً عن حكم التاريخ كما كتب (كونراد هايدن). فقد برّيء (لودندورف) وثبت الجرم على هتلر وباقي المتهمين. ولكن هتلر حكم عليه بالسجن خمسة أعوام في قلعة لاندسبرگ Landsberg العتيقة في حين كان نصّ المادة (٨١) من قانون العقوبات الألماني يورد الحكم كالاتي: "كُلّ من يحاول بالقوة، تغيير دستور الرايخ الألماني أو دستور أيّ دولة ألمانية يعاقب بالحبس المؤبد". ومع ذلك احتجّ جمهوره المحلفين في وقتها على قسوة الحكم لكن رئيس المحكمة أكد لهم أن السجين سيكون أهلاً للعفو بعد أن يقضي

١٥ - وقائع المحكمة مثبتة في كتاب (محاكمة هتلر Der Hitler Prozess).

سنة أشهر من عقوبته. ولم تثمر جهود الشرطة في ابعاد هتلر عن البلاد بوصفه غمساوي الجنسية. وصدر الحكم في (١) نيسان ١٩٢٤ ولم تنقض تسعة أشهر عليه حتى اطلق سراحه في ٢٠ كانون الثاني ومنح الحرية لمواصلة كفاحه للقضاء على الدولة الديمقراطية. إن التبعية التي تتحملها بإرتكابك جرم الخيانة العظمى ليست عسيرة إن كنت رجلاً من أقصى اليمين رغم أنف القانون. وهذا أمر ليس بالمجهول عند عدد كبير من الجمهوريين.

وعملت المؤامرة الانقلابية من هتلر -رغم فشلها- شخصية وطنية وجعلته في أعين الكثير مجاهداً قومياً وبطلاً. وسرعان ما حولتها الدعاية النازية الى أسطورة من أعظم أساطير الحركة. وظلّ هتلر حتى بعد وصوله دست الحكم وبعد اندلاع الحرب العظمى الثانية يحيي ذكرى الواقعة كل سنة فيعود في مساء الثامن من تشرين الثاني الى قاعة البيرة في مونيخ ليخطب في رفاهه من الحرس القديم alte kaempfer (كما يطلق عليهم) الذين ساروا خلف الزعيم إلى ما بدا آنذاك، كارثة مضحكة. وفي عام ١٩٣٥ أمر المستشار هتلر بنش قبور النازيين الستة عشر الذين سقطوا في المعركة القصيرة وان تستخرج رفاتهم وتوضع في توابيت وأضرحة في (فلدهرنهاله) التي أصبحت مزاراً وطنياً. وقال عنهم هتلر عندما أراح الستار عن النصب التذكاري "أنهم الآن أصبحوا في عداد الألمان الخالدين يثوون هنا لأجل ألمانيا ويحرسون شعبها. هنا يرقدون شاهداً صادقاً على حركتنا". ولم يضاف الى هذا، ولم يتذكر أحد من الألمان إنهم أولئك الرجال الذين تخلى عنهم هتلر وتركهم يقضون أجالهم بينما تحامل على نفسه من سقطته على الرصيف وفر هارباً.

في واحد من أيام ذلك الصيف ١٩٢٤، وفي قلعة لاندسبرگ العتيقة التي تقوم متشامخة فوق مجرى نهر "ليخ" Lech حيث كان أدولف هتلر يعامل معاملة الضيف الكريم، وقد افردت له غرفة خاصة تطل على منظر طبيعي رائع. أخرج الزوار الذين تقاطروا لتقديم الولاء له وجلب الهدايا. ثم استدعي التابع الأمين (رودولف هيس) الذي عاد الى مونيخ فيما بعد ليتلقى حكمه بالسجن. وبدأ يملئ عليه فصلاً بعد فصل من كتاب^(١٦) يؤلفه.

١٦- قبل وصول (هيس) كان (اميل موريس) قد قام بتدوين بعض الفصول التمهيدية وهو مجرم من ارباب السوابق. ومصلح ساعات وأول قائد للحرس النازي المسلح.

الفصل الرابع

عقلية هتلر وجذور الرايخ الثالث

- ١ -

اراد هتلر تسمية كتابه "أربع سنوات ونصف سنة من النضال ضد الأكاذيب والغباء والجهن" لكن (ماكس أمّان) مدير مطبوعات النازي الصّلب الرّأس الذي اضطلع بمهمة طبعه ونشره ثار على ثقل عنوانه الطويل الذي يعرقل بيعه واختصره الى (كفاحي Mein Kampf) وكان (أمّان) شديد الحبيبة لمحتواه فقد توقع أولاً قصة عنصرية شخصية يروي فيها هتلر حكاية نهوضه من عامل خامل الإسم في قيينا، الى شخصيّة عالمية ذائعة الصيت. فلم يكن فيه كما رأينا- غير القليل من السيرة. ومنى مدير الأمور المالية النازي نفسه ايضاً بقصة حقيقية لإنقلاب مشرب البيرة مع الدراما والمخاتلات التي صحتها مما يجعلها تحتذب القراء وتزيد من مبيعات الكتاب كما كان واثقاً. لكن هتلر كان أمضى ذكاءً من هذا في تلك المسألة وفي وقت كانت خطوط الحزب قد هوت إلى حضيض لا يدع له مجالاً لنبيش الجمر القديم^(١). لذلك تكاد لا تجد كلمة واحدة عن الانقلاب الفاشل في (كفاحي). طبع الجزء الأول في خريف ١٩٢٥. ويضمّ زهاء أربعمئة صحيفة. وجعل ثمنه إثنا عشر ماركا (ثلاثة دولارات). وهو تقريباً ضعف ثمن أغلب الكتب التي تصدر في ألمانيا حينذاك. ولم يصبح أوسع الكتب انتشاراً حال صدوره. لقد فخر (أمّان) أن ما بيع منه في السنة الأولى ثلاثاً وعشرين ألف نسخة وأن كمية البيع استمرت في الارتفاع - وهو زعم كانت الدوائر المعادية للنازيين تشك في صحته.

وكان لضبط الحلفاء في ١٩٤٥ سجلات حسابات (إير ثرلاگ Eher Verlag) دار النشر النازية، الفضل في ظهور الحقائق عن المبيعات الفعلية لـ(كفاحي). بيع من الكتاب في ١٩٢٥ (٩٤٧٣) نسخة. وتناقص عدد المبيعات في السنوات التالية الثلاث بإطراد. فوصلت الى ٦٩١٣ نسخة في عام ١٩٢٦ وهبطت الى ٥٦٠٧ في ١٩٢٧ ولم يبع منه غير ٣٠١٥ في ١٩٢٨، على أساس مجلدين. وارتفع الرقم في ١٩٢٩ الى ٧٦٦٤ نسخة. وتساعد بصعود نجم الحزب النازي في ١٩٣٠

١-كتب في ختام المجلد الثاني يقول: "من العبث أن تفتح جراح كادت تندمل... من العبث التنديد برجال هم في اعماق قلوبهم - مخلصون لأوطانهم لا يقلون حباً بها عن الآخرين. من العبث التحدث عن جريمة رجال اساءوا الفهم أو فشلوا في إدراك السبيل المشترك" ويبدو هذا تسامحاً غير متوقع من شخص حقوق كهلر، تجاه أولئك الذين سحقوا ثورته وأرسلوه الى السجن. وبالنظر الى ما حصل فما بعد لـ(كاهر) والآخرين الذين خذلوه، كان ذلك أكثر من مظهر لقوة الإرادة وضبط النفس مؤقت لأسباب تكتيكية. وعلى أية حال، فقد أبى أن يتهاون ويتراشق التهم.

عندما ظهرت طبعة رخيصة منه بمجلد واحد ثمنه ثمانية ماركات. فبلغ ما بيع منه ٥٤٠٨٦ نسخة، وانخفض الرقم في السنة التالية إلى ٥٠٨٠٨ نسخة. ثم قفز البيع في ١٩٣٢ قفزة واسعة إلى ٩٠٣٥١ نسخة.

وباتت حقوق امتياز هتلر فيه - وهي مصدر دخله الأساسي منذ ١٩٢٥ فصاعداً - تدر عليه دخلاً كبيراً إذا ما قيسست بالسنوات السبع السالفة. على أن هذا لا يعد شيئاً مذكوراً إذا قورن بدخله منه، ابتداءً من العام ١٩٣٣ عند صيرورته مستشاراً. ففي أول سنة بيع من (كفاحي) مليون نسخة وحصل هتلر على نسبة من الأرباح بلغت أكثر من مليون مارك (بعد أن زادت من ١٠٪ إلى ١٥٪ في الأول من كانون الثاني ١٩٣٣) مما جعله أكبر المؤلفين دخلاً في ألمانيا ومليونيراً لأول مرة^(٢).

وباستثناء الكتاب المقدس، لم ينتشر كتاب خلال الحكم النازي كما انتشر (كفاحي). تشتريه ربات البيوت ليسعرن بالأمان حين يوجد بين اثاث الدار. ويهدى نسخة منه للعريسین بمناسبة زواجهما بصورة تكاد تكون إلزامية إن لم تكن سياسية أيضاً، ويكاد كل فتى يتسلم نسخة منه عند التخرج في أي مدرسة. ووصل عدد ما بيع منه في ١٩٤٠ أي بعد مرور سنة واحدة على نشوب الحرب العالمية الثانية ما يربو على ستة ملايين في ألمانيا وحدها^(٣) وقراءته ليس شرطاً أو فرضاً على كل شارٍ ألماني. فقد سمعت عدة نازيين جريئين يشكون صعوبة مطالعته ويقرّ عدد ليس بالقليل، سراً، أنهم لم يستطيعوا ارغام انفسهم على انهاء صفحاته الإثنتين والثمانين والسبعمئة الخاوية الجوفاء. لكن من المسلّم به أن كثيراً من الألمان غير النازيين كانوا قد قرأوا محتواه قبل ١٩٣٣. وإن الساسة الأجانب في سائر انحاء العالم تتبعوا ما جاء فيه بدقة عندما كان في الزمن، بقية. فربما انتبهوا وأنقذوا العالم وألمانيا من الكارثة. يمكنك أن توجه الى هتلر ما تشاء من تهم لكنك لاتستطيع أن توجه اليه تهمة واحدة، تهمة استغفالك أو مفاجأتك. إذ لا وجه لاتهامه بعدم ايضاحه (كتابة)، الشكل الذي يريده لألمانيا إن قدر له تسلم مقاليد الحكم وهيئة العالم الذي يريد أن يصورها بعد الفتح الألماني. إن خارطة تصميم الرايخ الثالث، وأكثر منها النظام البربري الذي طبقه في أوروبا المحتلة أيام النصر قد خطط في دفتي هذا الكتاب، بتفصيل واسهاب وقسوة تقشعر منها الابدان. رأينا أن آراء هتلر الأساسية تكونت في السنوات الأولى من عقده الثالث في فيينا. وهو يعترف بأنه لم يغير كثيراً منها^(٤) فيما بعد وبتكره النمسا الى ألمانيا في ١٩١٣ وهو في الثالثة والعشرين كان الشعور القومي الألماني يلهب كيانه ويملك عليه مذهبه وفي نفسه كره عميق للديمقراطية والماركسيين واليهود مع إيمان ثابت لا يتزعزع بأن العناية الالهية اختارت الآريين - ولا سيما الألمان - ليكونوا أسياد العالم.

وبسط في كفاحي وجهات نظره. واتخذها حلاً نهائية لمشكلة إعادة ألمانيا المغلوبة المضطربة الحال

٢- كان لهتلر كأى كاتب آخر متاعبه مع محصل ضريبة الدخل. على الأقل قبل صيرورته دكتاتوراً كما سنرى.

٣- الأرقام مقتبسة من دراسة عن مؤسسة اپرواخ للنشر وأحوالها المالية بقلم الأستاذ اورون هيل Oranjomes Hale نشرت في المجلة التاريخية الأمريكية في عدد تموز ١٩٥٥ بعنوان "أدولف هتلر دافع الضريبة".

٤- انظر ما سبق.

الى مكان تحت الشمس أعظم بكثير مما كانت تحتله في السابق، ليس هذا وحده بل إقامة نوع جديد من الدولة، تبني على القومية والعنصر وتحتضن كلّ الألمان الذين يعيشون خارج الرايخ وتقيم دعائم دكتاتورية الزعيم المطلقة (أي نفسه) مع زمرة من الزعماء والقادة يتلقون أوامرهم من الأعلى وينقلونها الى قادتهم. على ذلك فان الكتاب يتضمن أولاً تخطيطاً لدولة ألمانيا المقبلة. والوسائل التي تتوسل بها لتصبح يوماً ما "سيدة العالم" كما اثبتته في آخر صفحة منه ويحوي ثانياً وجهة نظر أو مفهوم للحياة، أو Neltanschauung باستخدامنا كلمة هتلر الألمانية المفضلة. هذه النظرة في الحياة تبدو لعقل إنسان القرن العشرين السوي هذياناً عجيباً اخترعه مجنون فح لم يصب من الثقافة شيئاً. وما جعلها على جانب من الأهمية اعتناق هذه الملايين من الألمان لها الى حد التعصب. وإن كانت قد أدت فعلاً إلى دمارهم التام فهي كذلك أدت الى دمار ملايين عديدة من الابرياء الأطهار من أبناء البشرية داخل ألمانيا، وخارجها على الأخص.

والآن كيف يتسنى لدولة الرايخ الجديد استعادة مركزها بين القوى الكبيرة في العالم ثم كيف تمضي في سبيلها لسيادة العالم؟ أطال هتلر الفكر في هذا السؤال. في الجزء الأول الذي كتب معظمه أثناء فترة سجنه سنة ١٩٢٤ ثم عاد اليه بكثير من الإسهاب والاطالة في الجزء الثاني الذي فرغ منه في ١٩٢٦.

بالدرجة الأولى يجب أن يصفى الحساب مع فرنسا "عدو الشعب الألماني القتال الذي لا يرحم" قال أن هدف فرنسا كان دوماً أبقاء "ألمانيا ممزقة مقطعة الاوصال... نثاراً من الدول الصغيرة" وإضاف يقول: "وهذا منطقي ولو كنت فرنسياً... فلن أعمل ولا يمكنني أن أعمل خلاف ما عمله كليمنصو" لذلك يجب أن تحصل تصفية حساب فعالة مع فرنسا... كفاح حاسم ختامي... وعندئذ فقط سنكون قادرين على إنهاء الخصام الأبدي غير المثمر ابداً، بيننا وبين فرنسا: مقترحين مسبقاً بالطبع أن ألمانيا ترى في الواقع أن سحق فرنسا هو الوسيلة الوحيدة التي ستعينها أخيراً على فسخ مجال التوسع في أماكن أخرى أمام الشعب الألماني^(٥).

التوسع في أماكن أخرى؟ أين؟ بهذا الأسلوب يصل هتلر الى نواة آرائه في سياسة الألمان الخارجية التي حاول انتهاجها بكل امانة عند أصبح حاكماً للرايخ. فقال بكل صراحة أن على ألمانيا أن تتوسع في الشرق - في الغالب حساب على روسيا.

واقاض هتلر في شرح هذه المسألة مسألة المجال الحيوي (Lebensraum) في الجزء الأول من كفاحي. وهو موضوع ظل يراود ذهنه الى آخر نسمة من حياته. قال أن إمبراطورية هوهنزولرن اخطأت في الحصول على مستعمرات في افريقيا "إن سياسة توسيع التحويم باضافة الارض لا تتم في (الكامبيرون) بل في أوروبا لا غيرها في هذا الزمن" لكن تربة أوروبا قد شغلت بالبشر منذ وقت طويل. وهذا مايسلم به هتلر "لكن تربة أوروبا هذه لم تحتجزها الطبيعة لتملكها لأي شعب معين أو أمة في المستقبل من الزمن. بالعكس، فهذه التربة هي للأمة التي تملك القوة على حيازتها" ماذا

٥- المقتبسات ما بين قوسين من كفاحي الص ٦١٩، ٦٧٢، ٦٧٤

سيكون الموقف لو اعترض واضعو اليد الحاليون على ذلك؟ "عندئذ يسري مفعول قانون حفظ النوع؛ وما لا يمكن أن يعطى بالأساليب الودية. ينزع عنوة واقتداراً بقبضة اليد^(٦) واغتنام اراض جديدة - ليس ممكناً إلا من ناحية الشرق... فان تُشدت أرض في أوروبا فمن الممكن الحصول عليها واسعة مترامية على حساب روسيا فحسب وهذا يعني أن الرايخ الجديد سوف يلجأ للمرة الثانية الى سلوك سبيل (الفرسان التوتون) القدماء للحصول بحد السيف الألماني على حقول المحراث الألماني ولخبز الأمة اليومي^(٧) وعاد هتلر الى الموضوع في الجزء الثاني كأنما كان شرحه في الجزء الأول يشويه غموض: إن مجالاً واسعاً كافياً على هذه الأرض يضمن للأمة حرية الوجود... وبدون أي إعتبار للتقاليد والأغراض يجب [على الحركة القومية الاشتراكية] أن تجد في نفسها الجرأة لتجمع شعبنا وتعبئ قوته للتقدم في الطريق الذي يؤدي بهذه الأمة الى الخروج من مجال عيشها الضيق الحالي الى أرض جديدة وتربة جديدة... إن الحركة القومية الاشتراكية يجب أن تناضل لمحو عدم التكافؤ بين كثافة نفوسنا ومساحة أراضيها. إذا ما نظر الى الأخيرة بوصفها مصدر طعام فضلاً عن كونها قاعدة أساسية للقوة السياسية... علينا أن نظل متمسكين بأهدافنا بشدة... حتى نحصل للشعب الألماني على الأرض والتربة التي يستحقونها^(٨).

كم يحتاج ويستحق الشعب الألماني من الأرض؟ يقول هتلر مزدرياً أن البرجوازية "التي لا تملك فكرة سياسية خلاقة بخصوص المستقبل القومي" كانت وما فتئت تنادي بإعادة حدود ألمانيا للعام ١٩١٤. "إن طلب إعادة حدود العام ١٩١٤ هو سخف سياسي، دعوته وآثاره يجعلانه يبدو أشبه بالجريمة، وبغض النظر عن أن حدود الرايخ في ١٩١٤ لم تكن منطقية أبداً. فهي في الواقع ليست كاملة من ناحية إستيعابها كل الشعب الألماني وليست معقولة من ناحية الوضع الجغرافي العسكري. ولم تكن نتيجة لعمل سياسي مدروس لكنها حدود مؤقتة مائعة في خضم الكفاح السياسي الذي لم ينته بعد. بهذا الحق نفسه وبأعظم الحق في مسائل كثيرة تجابهنا - علينا أن نلتقط (سنة نموذجية) أخرى للتاريخ الألماني. وان نعلن أن إعادة الحال على ماكان عليه في تلك الأزمان هو الغاية في السياسة الخارجية^(٩).

و(سنة هتلر النموذجية) قد تعود بنا الى ما قبل ستمائة سنة تقريباً عندما كان الألمان يدفعون السلاط الى الشرق. يجب أن يستأنف الإندفاع نحو الشرق "نحن اليوم نعد ثمانين مليون ألماني في أوروبا! وهذه السياسة الخارجية لا يمكن ان تعد صائبة. إلا بوجود مائتين وخمسين مليون ألماني في هذه القارة بعد قرن من الزمن"^(١٠). كلهم ضمن حدود الرايخ الجديد الموسع.

شعوب أخرى يجب أن تفسح المجال لهذا العدد الكبير من الألمان - فمن هي هذه الشعوب الأخرى؟

٦- المرجع السالف الص ١٣٨-١٣٩.

٧- المرجع السالف ص ١٤٠.

٨- المرجع السالف الص ٦٤٣، ٦٤٦، ٦٥٢.

٩- المرجع السالف ص ٦٤٩.

١٠- المرجع السالف ٦٧٥.

"ولهذا سنقوم نحن القوميين الإشتراكيين... بوصل ما انقطع قبل ستمائة عام. نوقف الحركة الألمانية الدائمة الى الجنوب والغرب ونلفت أنظارنا الى أرض الشرق."
"وإن تكلمنا عن أرض في أوروبا اليوم. فبإمكاننا أن نضع روسيا ودويلات حدودها التابعة في اذهاننا بصورة رئيسة^(١١)".

ويرى هتلر ان القدر كان يمالئ ألمانيا بهذا الخصوص. فقد سلم روسيا للشيوعيين الذين - كما يقول - يقومون في الواقع بتسليمها الى اليهود. وهو يهتف قائلاً "ان الإمبراطورية الجبارة في الشرق قد تمّ نضجها للإنتهيار ونهاية حكم اليهود لروسيا هو أيضاً نهاية روسيا كدولة". ويستطرد هتلر بأن سهوب الشرق العظمى يمكن الاستيلاء عليها بسرعة وسهولة عند إنتهيار روسيا دون الاضطرار الى تضحية دم ألماني كثير.

أوسع أحد ان يحتج بأن المخطط الهندسي المبسوط هنا بإعتباره غير دقيق أو واضح؟ سيقضى على فرنسا. لكن هذا أمر ثانوي بالنسبة الى إندفاع الألمان نحو الشرق. فبالأول يستولى على الأراضي المجاورة من ناحية الشرق، التي يسكنها الألمان منذ القديم. فما هي؟ لاشك انها النمسا وارض السوديت في چيكوسلوفاكيا والجزء الغربي من بولندا بضمنه الدانزك. وبعدها يأتي دور روسيا نفسها. فلماذا اذن اصيب العالم بدهشة عندما شرع المستشار هتلر بعد سنوات قليلة في تحقيق هذه الغايات؟

وعن طبيعة شكل الدولة النازية المقبلة. كانت آراء هتلر في (كفاحي) أقل وضوحاً. على انه أعلن بجلاء انه لن يأخذ "بالسخافات الديمقراطية" وأن الرايخ الثالث سيحكم بمبدأ الزعامة Fuehrer prinzip واعنى أنه سيكون حكماً دكتاتورياً. وليس ثم شيء عن المسائل الإقتصادية في الكتاب تقريباً لأن موضوع الإقتصاد يضجر هتلر وهو لم يهتم بمحاولة تعلم شيء منه أكثر من التلهي بأراء (گوتفريد فيدر) الجوفاء، ذلك الدجال الذي يعارض في "رق الفائض". إن ما كان يهتم به هتلر هو السلطان السياسي. أما الإقتصاد فيمكن أن يدبر أمره تديراً تلقائياً.

"الدولة لاتلتزم أبداً بمفهوم محدد إقتصادي. ولا بتطور إقتصادي... الدولة هي جهاز قومي. وليست منظمة إقتصادية... إن قوة الدولة الكامنة لاتتلائم مع الرفاه الإقتصادي المزعوم إلا في أندر الحالات. ويبدو في ما لا يحصى من الحالات أن الرفاه دليل على اقتراب الدولة من الإنتهيار... وتبرهن بروسيا بدقة عجيبة على أن ما يبنى الدولة ليست الميزات المادية وحدها بل الفضائل الروحية أيضاً وبحماية من هذين فقط تزدهر الحياة الإقتصادية. عندما يكون في ألمانيا إندفاع شديد للقوى السياسية تبدأ الأحوال الإقتصادية بالتحسن، كقاعدة ثابتة دائمة. وعندما يصيح الإقتصاد مدار حياة شعبنا وغايته، فيخنق الفضائل الرفيعة، تنهار الدولة وتجبر معها الحياة الإقتصادية الى الهاوية... لم تنشأ قط دولة بوسائل إقتصادية سلمية^(١٢)..."

١١- المرجع السالف ص ٦٥٤.

١٢- المرجع السالف الص: ١٥٠-١٥٣.

لذلك "لا يمكن تطبيق سياسة إقتصادية إلا بوجود السيف ولا يوجد تصنيع بدون القوة..." كما جاء في خطبة له في مونخ ١٩٢٣. وأكثر من هذه الفلسفة الغامضة السخيفة وملاحظة عابرة في (كفاحي) عن "الغرف الإقتصادية" و"غرف المزارع الكبيرة" و"البرلمان الإقتصادي المركزي" التي "تبقى الإقتصاد القومي في حالة العمل"، لا يدلي هتلر برأي واحد عن الاسس الإقتصادية للرايخ الثالث. ومع ان اسم الحزب النازي نفسه يعلنه حزباً "إشتراكياً" فقد كان هتلر أكثر غموضاً في نوع "الإشتراكية" التي يدخرها لألمانيا الجديدة. وليس ذلك بالمستغرب نظراً الى تعريفه "الإشتراكية" في خطبة له يوم ٢٨ تموز ١٩٢٢ قال:

"على كل من جعل القضية القومية قضيته ان يصل بها الى الحد الذي يدرك انه لا يوجد مثل أعلى أرفع وأجل من سوؤد أمته. ومن منّا تفهم نشيدنا الوطني العظيم (ألمانيا فوق الجميع: Deutsch-landaeber Alles، لن يجد في عينه شيئاً أسمى من ألمانيا - شعباً وتربة- ذلكم هو الإشتراكي الحق! (١٣)"

رغم كل الارشادات الفنية والادبية التي بذلت لهتلر في تأليفه، ومع قيام ثلاثة من المساعدين على الاقل بتشذيب وتعديل فصوله، فقد ظل هتلر يقفز قفزاً تائهاً من موضوع الى آخر ولا ينكر ان (هيس) الذي قام بتدوين معظم فصول الكتاب في (لاندسبرگ) أولاً وفي منزل (فاخنفلد) قرب برختسگادن أخيراً، بذل أقصى ما في وسعه لسبك جمل المخطوطة إلا أنه لم يرض الزعيم. وكان أكثر من بذل مجهوداً في هذا الصدد القس (برنهارد شتمפל) (Bernhard Stempfle) العضو السابق في الاخوية الرهبانية الهيرونيمية Hieronymite والصحافي اللاسامي ذو الصيت السيء في بافاريا. هذا القس الغريب الذي سنسمع عنه في الصفحات التالية من تاريخنا، تولّى تصحيح نحو هتلر وصرفه السيء وقوم من لغته وأسلوبه على قدر ما تمكن، ورمج فقرات قليلة منه، أفلح في اقناع مؤلفه بأنها خسارة من الناحية السياسية. أما مشاواره الثالث فكان (جوزيف چيرني Josef Czerny) الجيكي الأصل الذي عمل في صحيفة النازي (فولكشر بيوباختر) وقد جذبه الى هتلر شعره المعادي لليهود. كان (چيرني) المصحح المشرف للجزء الأول بطبعته الثانية، فتولى حذف كلمات وعبارات نابية منه أو أجرى فيها التعديل، كذلك قام بتنقيح وتصحيح اخطاء الطباعة في المجلد الثاني بدقة وعناية.

مع هذا كله فلم ينج (كفاحي) من المتاهات والشوارد والنقلات الفجائية. لقد أصر هتلر على حشر آرائه كيفما اتفق في أي موضوع يخطر بالبال: فمن الحضارة الى الثقافة الى المسرح الى السينما الى الفن الى الكاريكاتور والأدب والتاريخ والجنس والزواج والفجور والسفلس. وفي موضوع السفلس تجده يخصص عشر صفحات تارزة ويعلن "أن أول واجبات الامة- ولا أحد الواجبات" أن يتم القضاء على هذا المرض الويبل "وطلب ان تعباً له كل وسائل الدعاية في الوطن ويقول "كل شيء يتوقف على حل هذه المعضلة"، ويجب ان تحل آفة الدعاية بتسهيل الزواج المبكر. وقدم قاعدة لتحسين نسل الرايخ الثالث بتشديده على ان الزواج لا يكون غاية بحد ذاته لكن يجب ان يكون وسيلة للهدف الأسمى وهو

١٣- "خطب أدولف هتلر Adolf Hitlers Reden ص ٣٢ اقتباس بوللوك: المرجع السالف (٦٨ص).

تكثير النوع وزيادة النسل الآري ذلك هو معنى الزواج وغايته^(١٤). وهكذا فبهذا التنويه يحفظ النوع، ونقاوة العنصر تأتي الى وجهة النظر الرئيسية الثانية: نظرة هتلر الى الحياة (فالتنشونج). يرى بعض المؤرخين ولاسيما في انكلترا انها شكل مشوه للداروينية على انها في الحقيقة كما سنرى - تمتد بجذورها العميقة الى التاريخ الألماني الموهل واتجاهاته الفكرية. رأى هتلر (كداروين) وعدد كبير من الفلاسفة الألمان والمؤرخين والملوك والقادة والساسة، ان الحياة هي كفاح أبديّ والعالم هو مثل الغاية يعيش منها الأصلح ويحكمها الأقوى - "حياة فيها يعيش مخلوق على مخلوق وحيث يفرض موت الأضعف حياة الأقوى فرضاً لازماً".

وقد طرز (كفاحي) بمثل هذه العبارات: "في النهاية لا تغلب إلا الرغبة في حفظ النوع... لقد شيدت عظمة النوع البشري في الكفاح الأبدي، وفي السلم الأبدي يتم فناؤه... الطبيعة... تضع المخلوقات الحية على هذه الكرة الأرضية وترقب تطاحن القوى الحرة. ثم تمنح حق السيادة والتفوق لابنها المفضل، الأقوى شجاعةً ومثابرة... الأقوى يجب ان يسود ولا يستوي مع الاضعف فيضحي بعظمته. والضعيف الخائر منذ ولادته هو وحده الذي يجد ذلك قسوة" وحفظ التراث الثقافي عند هتلر "مرتبط بالقانون الثابت الجامد لقانون الضرورة وحق الغلبة للأحسن والأقوى في العالم. وأولئك الذين يريدون العيش عليهم أن يحاربوا ومن لا يريد القتال في هذه الدنيا دنيا الكفاح الأبدي، لا يستحق الحياة. حتى لو كان هذا الأمر قاسياً فهذا حكمه ولا تبديل له^(١٥)!

من هو "ابن الطبيعة المفضل، الأقوى شجاعةً ومثابرة" هذا الذي حبته العناية الإلهية "بحقّ التفوق"؟ هو الآري. ها هنا في (كفاحي) نأتي الى نواة الفكرة النازية في التفوق العنصري، الى مفهوم العنصر السيد الذي بني عليه الرايخ الثالث ونظام هتلر الجديد في أوروبا.

"كل الحضارة البشرية. كل ثمرات الفن والعلم والتكنولوجيا التي نراها أمامنا اليوم تكاد تكون المنتوج الخلاق للجنس الآري. وهذه الحقيقة بالذات تقرّر الاستنتاج الذي له ما يبرره وهو أنه (اي الجنس الآري) هو وحده مؤسس البشرية العالمية. ولذلك فهو يمثل كل المفاهيم والمذلولات التي تعكسها لنا كلمة "رجل. فالآري هو بزميشيوس Prometheus البشرية الذي انبثقت من جبهته الوضاعة شرارة العبقرية الإلهية في كل الأزمان، وستبقى متقدمة متجددة بتلك النار، نار المعرفة التي تضيء ليل الأسرار الصامت وبهذا تدفع الرجل الى ارتقاء طريق السيادة على الكائنات الأخرى في هذه الأرض... انه هو الذي وضع الأسس وأقام جدران كل بناء عظيم في الحضارة البشرية^(١٦).

وكيف يحقق الآري كل هذا ويصبح متفوقاً؟ دونك جواب هتلر: "بأن يطأ الآخرين". ان هتلر ككثير من المفكرين الألمان من القرن التاسع عشر يظهر شيئاً من السادية ومن مناقضتها الماسوشية، والمتدارسون الأجانب للروحانية الألمانية، يصعب عليهم فهم علة وجودهما.

١٤- كفاحي: الص ٢٤٧-٢٥٣.

١٥- المرجع السالف الص ١٣٤-١٣٥، ٢٨٥، ٢٨٩.

١٦- المرجع السالف ص ٢٩٠.

"وعلى هذا ولأجل إقامة حضارة أسمى كان وجود أنواع منحطة من البشر أمراً حيوياً كتمهيد سابق... ومن المؤكد أن أول حضارة بشرية اعتمدت على إستخدام المخلوقات البشرية المنحطة أكثر من اعتمادها على الحيوانات المدجنة. ولم تلق الحيوانات المصير نفسه إلا بعد استرقاق الأجناس البشرية السفلى. ففي مبدأ الأمر جرّ المحارب المغلوب المحراث - ويعدّه مباشرة جَاء الحصان. وبناء عليه فلم يكن بمحض الصدفة أن تقوم أولى الحضارات في بقاع أخضع الآريّ تلك المخلوقات لإرادته... أثناء اصطدامه مع الشعوب الأخط منه- وطالما يبقى محافظاً بقسوة على تفوقه الرفيع سيظلّ هو السيّد فضلاً عن بقائه حارساً للحضارة ومضيفاً اليها^(١٧)". ثم حدث شيء رأى فيه هتلر إنذاراً للألمان:

"ما ان يبدأ الشعب الخاضع المسود يرفع نفسه الى الأعلى ليقترّب من مستوى سيّده الغالب (ومن سماته أنه يتبدي مثلاً باستعمال لغة السيّد) حتى تتكسر السدود بين السيّد وبين الخادم."

هناك شيء آخر أدهى وأخطر من مشاطرته لغة السيّد: "ينزل الآري عن نقاوة دمه، وبذلك يفقد مسكنه في الفردوس الذي صنعه لنفسه. ويغرق في الامتزاج العنصريّ ويفقد بالتدريج حضارته الخلاقة".

يرى الزعيم النازي الشاب في هذا خطأ جوهرياً حاسماً.

"شائبة الدم واختلاطه، وما ينجم عنه من تدنٍ في المستوى العنصريّ هو السبب الوحيد لاضمحلال الحضارات القديمة لأن الرجال لا يلحق بهم الفناء كنتيجة لهزائم الحروب. لكن بضياح قوة المقاومة التي لا يضمن إستمراريتها إلا الدم النقي. وكل من ليس هو من عنصر طيب في هذا العالم، انما هو حثالة^(١٨)".

واليهود والسلافيّ حثالات. وبصيرورته دكتاتوراً وفاتحاً، عمد الى منع زواج الألمان بأي شخصٍ من هذه الاجناس مع أن تلميذاً في الصف الرابع الابتدائي كان يستطيع أن يخبره بوجود كمية كبيرة من الدم السلافي في الألمان وبخاصّة أولئك الذين يسكنون الاقاليم الشرقية. وعلينا الاقرار أن هتلر كان عند وعده في تحقيق آرائه العنصريّة. ففي نظامه الجديد الذي بدأ يفرضه على السلافي في الشرق، وعلى الجيك والبولنديين والروس. كان على هؤلاء أن يصبحوا لأسيادهم الألمان قاطعي اخشاب وماتحي مياه- وان يبقوا كذلك إن قدر البقاء للنظام الجديد الشاذ. كانت خطوة سهلة لرجل كهتلر جاهل في التاريخ والانثروپولوجيا (علم الإنسان) أن يجعل الألمان آربي العصر- وبالتالي العنصر السيّد فالألمان ينظر هتلر "أسمى عنصر بشريّ على وجه البسيطة" وسيبقى كذلك إن ظلّ "منصرفاً ليس الى مجرّد تربية أنواع من الكلاب والخيول والقطط بل أيضاً الى المحافظة بكلّ عناية على نقاوة دمه^(١٩)".

إن انشغال فكر هتلر بالعنصريّة يؤدي به الى الدفاع عن فكرة "الدولة القوميّة"، ترى ما هي الدولة

١٧- المرجع السالف الص ٢٩٥-٢٩٦

١٨- المرجع السالف ص ٢٩٦ لهذه الفقرة والفقرتين اللتين سبقتهما.

١٩- المرجع السالف ص ٤٦٤.

القومية بالضبط؟ وكيف كان يريد أن تكون؟ اقولها بكل صراحة، أني لم أفهمهما فهماً واضحاً رغم تكرار قراءتي في (كفاحي) وسماعي عشرات الخطب التي ألقاها (الزعيم) نفسه حول الموضوع مع اني سمعت أكثر من مرة أن الدكتاتور يصرح بأنها البؤرة التي يحوم حولها كل تفكيره. لا يمكن ترجمة لفظة Volk الألمانية ترجمة دقيقة. وتترجم عادة بـ(قوم) أو(شعب) لكن فيها باللغة الألمانية معنى أعمق، مختلفاً بعض الشيء يتضمن إشارة الى مجتمع بدائي قبلي يقوم على رابطة الدم والتراب. وقد عانى هتلر في (كفاحي) مشقة كبيرة في محاولته تعريف الدولة القومية Folkish State وأعلن مثلاً في الصحيفة (٣٧٩) أنه سيوضح المفهوم القومي، لكي ينكص في الحال عن أي توضيح ويمضي تائهاً في دروب من المواضيع ليعود أخيراً بعد عدة صفحات ويدخل في صلب القضية:

"وخلافاً للعالم البرجوازي، والعالم الماركسي-اليهودي] تجد الفلسفة القومية أهمية الجنس البشري في العناصر القومية الأولية. وتجد في الدولة لا أكثر من وسيلة لغاية وتتأول غايتها في حفظ الوجود العنصري للمرء. لذلك فهي لا تؤمن قط بالمساواة بين الأقوام. لكنها تعترف -لوجود هذا الاختلاف- بقيمتها العليا أو الدنيا وتشعر بواجبها في تحقيق إنتصار الأصلح والأقوى. وتتطلب خضوع الأخط والأضعف بالنظر الى الإرادة الأبدية التي تحكم هذا الكون. ولهذا فهي من حيث المبدأ تخدم الفكرة الأساسية الارستقراطية للطبيعة وتؤمن بثبات هذا القانون وتحكمه بآخر فرد، وأنها لا ترى القيمة المتفاوتة للأقوام وحدها بل ترى أيضاً القيمة المتفاوتة للأفراد انفسهم. من الكتلة الشعبية تستخلص أهمية شخصية الفرد. وبناءً عليه... تكون ذات أثر تنظيمي. انها تعتقد بضرورة المثل الأعلى للبشرية الذي ترى فيه وحده مقدمة لوجود الجنس البشري إلا انها لا تستطيع أن تمنح حق الوجود حتى لفكرة أخلاقية إن مثلت خطراً على الحياة القومية لحملة الأخلاق العليا. ففي عالم مولد نغل، يشويه العنصر النجسي ستضيع الى أبد الأبد كل مفاهيم الإنسانية في الجمال والجلال فضلاً كُـل الأفكار الخاصة بمستقبل جنسنا البشري الرفيع.

ولذلك تتصل الفلسفة القومية للحياة، باعمق إرادة الطبيعة وما دامت تحافظ على التطاحن الحرّ فلا بد أن يؤدي الى تناسل متبادل مستمر أعلى درجة فأعلى حتى نصل أخيراً إلى اصلح البشرية معدناً. وبعد الحصول على هذه الأرض سيكون المجال حرّاً للقيام بالنشاط في املاك يقع جزء منها فوقه، وجزء منها خارجه.

ونشعر جميعاً بأن البشرية ستواجه في المستقبل البعيد مشاكل لا يستوي على حلّها إلا أرفع عنصر بشري هو "الجنس السيد" مدعماً بوسائل وامكانات الكرة الأرضية بأسرها^(٢٠)."

ويعلن هتلر بعد هذه الفقرة بقليل: "لذلك كان أسمى ما تهتم به الدولة القومية من الغايات: هو حفظ العناصر الاصلية العرقية التي تهب الحضارة وتخلق الجمال. وتعزز مكانة جنس بشري رفيع^(٢١)".

٢٠- المرجع السالف الص ٣٨٣-٣٨٤.

٢١- المرجع السالف ص ٣٩٤.

ويعود به هذا الى موضوع تحسين النسل ثانية: "الدولة القومية... يجب أن تضع العرق في مركز كل الحياة... يجب أن تهتم بحفظه نقياً... يجب ألا تغفل عن انحجاب الأطفال من اناس أصحاء فقط. وأن هناك معرة واحدة: أن ينبج المرء نسلًا رغم سقمه وعيوبه الخلقية. وهناك أرفع شرف وهو ان لا يفعل ذلك ويعكس ذلك يجب ان يعتبر الضن بالاطفال على الأمة عملاً يستوجب التعنيف واللوم. وهنا يجب أن تعمل الدولة [القومية] عمل الوصي على المستقبل الألفي الأسعد. حيث لاتعتبر انانية الفرد ولا رغباته الشخصية شيئاً، ويجب أن يتم اخضاعها... وعلى الدولة القومية والحالة هذه أن تبدأ برفع الزواج عن مستوى التدنيس المستمر للعرق، وان تمنحه مستوى قدسيّة عمل يتطلّب منه إنحجاب نسخ من صورة الله، لا غرائب من المخلوقات تقف بين الإنسان والقرد^(٢٢).

إن مفاهيم هتلر العجيبة عن الدولة القوميّة تؤدي الى عدد كبير من التأويلات اللفظيّة التي لو أتبعنا (كما يقول) لجعلت الألمان سادة المعمورة - لقد أصبحت مسألة السيادة الألمانية شغله الشاغل. وفي نقطة أخرى رأى أن فشل العرق الألماني في الحفاظ على "نقاء النطفة"، "جعلنا نحرم من السيطرة على العالم. لو ملك الشعب الألماني وحدة القطيع تلك التي تمتع بها غيرهم من الامم لكان الرايخ الألماني اليوم سيد الكرة الارضية^(٢٣).

بلاشك. وما دامت الدولة القومية يجب أن تبني على العرق "فمن الضروري أن يحتضن الرايخ الألماني كلّ الألمان." وتلك هي حجر الزاوية في منطقته. وهي الفكرة التي لم ينسها ولم يتلها في العمل لها عندما جاء الى الحكم.

وما دامت الدولة القومية يجب أن تبني على "فكرة عالم الطبيعة الارستوقراطية" فهذا يقتضي استبعاد الديمقراطية من الموضوع. وإستبدالها (بمبدأ الزعامة). إن مبدأ زعامة الجيش البروسي يجب ان يتبنّاها الرايخ الثالث "سلطة كلّ قائد على المادون، والمسؤولية للأعلى^(٢٤).

"يجب ألا يكون ثم قرارات بالأغلبية... وانما اشخاص مسؤولون فحسب... مما لاشك فيه أن سيكون لكل شخص مشاورون الى جانبه، لكن القرار يتخذه شخص واحد^(٢٥)...

هو وحده فقط يملك السلطة والحق في أن يأمر وقد لا يكون بالامكان الاستغناء عن البرلمان. لكن مشاوريه سيقدمون آنذاك مشوراتهم فعلاً... لن يحصل أي تصويت في أي مجلس. إنها مؤسسات عاملة وليست مكائن للتصويت. هذا المبدأ مبدأ المسؤولية المطلقة المرتبطة دون قيد أو شرط بالسلطة المطلقة - ستخرج وتربي تدريجاً صفوة من الزعماء لا يوجد قط مثلهم في عصرنا هذا عصر البرلمانية غيرالمسؤولة^(٢٦).

تلك هي آراء أدولف هتلر. صاغها بكلّ غلاظتها المفزعة وهو جالس في سجن لاندسبرگ يرسل

٢٢- المرجع السالف ص ٣٩٤.

٢٣- المرجع السالف الص ٤٠٢-٤٠٤.

٢٤- المرجع السالف ص ٣٩٦.

٢٥- الخط تحت العبارة هو لهتلر بالأصل.

٢٦- المرجع السالف الص ٤٤٩-٤٥٠.

أنظاره الى البستان المزهرة الذي يعلو ضفة نهر ليخ^(٢٧). أو في زمنٍ تالٍ ما بين عامي ١٩٢٥- ١٩٢٦، متكئاً على قدمة شرفة حانة مريحة في برختسگادن متطلعاً الى قمم الألب الشمّ في وطنه النمسا. وهو يملّي سيلاً من الكلمات على تابعه المخلص (رودولف هيس) ويحلم بالرايخ الثالث الذي سيبنيه على الأسس الضحلة التي رأيناها وسيحكمه بقبضة من حديد. أما انه سيبنيه ويحكمه يوماً ما فهذا ما لم يكن يداخله فيه أي شك. ذلك لأن نفسه كانت في إسار شعور محرق برسالة غريبة نجدها في كثير من العباقرة الذين لا يبدو وكأنهم نبتوا من بقعة ولم يتكونوا من شيء، عبر العصور والاحقاب. كان سيوحد شعباً مختاراً غير موحد سياسياً. كان سينقي عرقهم، ويجعلهم اقوياء، وسادة الأرض، أهي دارونينية مشوهة؟ أم خيالات سادية؟ أم انانية مستهترة؟ أم مسّ من جنون العظمة؟ megalomania إنها كلها مجتمعة بل هي أكثر من هذا، لأن لعقل هتلر وهواه وكل الضلالات والخيال التي شغلت دماغه المحموم- جذوراً امتدت الى عمق سحيق في تجارب الشعب الألماني وفكره. والواقع أن النازية والرايخ الثالث إنما هما الإستمرار المنطقي للتاريخ الألماني.

-٢-

الأصول التاريخية للرايخ الثالث

كان من عاداتي القدوم في أيام إستعراضات الحزب النازي السنوية الصاخبة- الى نورمبرگ في مبدأ أيلول، وهناك اجد كثيراً من الباعة الجوالين يبيعون من الناس صورة (پوست كارت) تظهر فيها وجوه (فردريك الأكبر وبسمارك وهندنبرگ وهتلر). وقد كتب في اسفلها هذه العبارة "ما فتحه الملك، صاغه الأمير، ودافع عنه الفيلدمارشال. وأنقذه ووحدّه الجندي". وهكذا صور هتلر الجندي لا كمنقذ وموحد لألمانيا فقط، بل كخليفة لهؤلاء الاشخاص المشهورين الذين جعلوا البلاد تصل مراقي العظمة. إن اقحام مسألة إستمرار التاريخ الألماني الذي ختم بحكم هتلر، لم يفقد تأثيره عند الجماهير وتعبير "الرايخ الثالث" نفسه كان يساعد هذا المفهوم ويقويه. كان الرايخ الأول هو الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي ازدهرت في القرون الوسطى، والرايخ الثاني هو ألمانيا التي وحدها بسمارك سنة ١٨٧١ بعد أن هزمت بروسيا فرنسا. وكلاهما أضافا مجداً الى الإسم الألماني. اما جمهورية (فايمر) على رأي الدعاية النازية فقد مرغت ذلك الاسم الجميل في الوحل فانتشله الرايخ الثالث كما وعد به هتلر تماماً. ولهذا صورت ألمانيا هتلر بأنها التطور المنطقي لكل ما مضى قبلها. أو على الاقل لكل ما كان مجيداً.

٢٧- قال هتلر بعد مرور زمن طويل: "لولا سجنني لما كتبت كفاحي. فالفترة التي قضيتها سجيناً منحتني فرصة لزيادة التأمل في مختلف الخواطر التي كانت حتى ذلك الوقت مجرد مشاعر باطنية... ومنذ ذلك الحين ايضاً اعتقدت بأننا لن نستطيع الوصول الى الحكم بالقوة- وهو شيء لم يفهمه معظم أعواني فقد توفر للدولة الوقت الكافي لتثبيت نفسها وكان بيدها السلاح". (احاديث هتلر السرية ص ٢٣٥). هذه الملاحظة أدلى بها أمام عدد من أعوانه في قصر قيادة الجبهة الروسية في ليلة ٤/٣ شباط ١٩٤٢.

لكن المتشرد (القييني) السابق على خواء رأسه وجهله قد وقف على ما يكفي من وقائع التاريخ ليدرك به أن ألمانيا منيت باخفاقات في الماضي. اخفاقات يجب ان تقارن بنجاحات في فرنسا وانكلترا ولم ينسَ أن ألمانيا بقيت مجتمعاً مضطرباً مرقعاً يتكون من حوالي ثلاثمائة دويلة مستقلة في نهاية عهد القرون الوسطى تلك القرون التي رأت فرنسا وانكلترا تبرزان في التاريخ دولتين تامتني الوحدة. هذا النقص في التطور القومي قرر بصورة رئيسة سبيل التاريخ الألماني من نهاية القرون الوسطى الى منتصف الطريق في القرن التاسع عشر وجعلها تختلف تمام اختلاف عن أي شعب كبير من شعوب غربي أوروبا.

ويضاف الى نقص الوحدة السياسية ووحدة التاج كارثة النزاع الديني الذي عقب حركة الاصلاح في القرنين السادس عشر والسابع عشر. ليس في هذا الكتاب مجال لبحث تفصيلي دقيق عن التأثير العظيم الذي خلفه (مارتن لوثر) الفلاح السكسوني الذي أصبح راهباً اوغسطينياً وأضرَم نار حركة الاصلاح الديني الألماني واستحدث الطابع الذي دمج الألمان وتاريخهم. ولنا ان نذكر بصورة عابرة، ان هذا العبقري الشامخ خلف علامته في حياة الألمان. هذا الخصم اللدود الوحشي للسامية ومبغض كنيسة روما الذي اجتمع في خلقه العاتي، الكثير الكثير من اطيّب الفضائل وأخس الرذائل الألمانية. ففيه تجد الفظاظة والتعصب وعدم التسامح والهيّاج والعنف الى جانب الصدق والسذاجة وحبّ النقد الذاتي والتعلق الشديد بالعلم والموسيقى والشعر والتمسك بالعدل والاستقامة أمام عين الله. كل ذلك خلف آثاره العميقة الحسنة منها والسيئة- مما لم يخلّفه شخص واحد آخر سابق له أو لاحق. لقد خلق (لوثر) بمواعظه الدينية وترجمته الرائعة للكتاب المقدس، اللغة الألمانية الحديثة. ولم يكتف أن يخلق في نفوس الألمان وجهة نظر بروتستانتية جديدة في الدين المسيحي بل خلق أيضاً غيراً ألمانية قومية، وعلمهم- على الأقل في حدود الدين- تفوق الضمير الفردي الحرّ. لكن شاء سوء حظهم ان يتخذ لوثر جانب الأمراء في ثورة الفلاحين تلك الثورة التي كانت له اليد الطولى في بعثها وتأجيجها روحياً. وسبب تعلقه بالأوتوقراطية السياسية- تثبيت دعائم سلطانها المطلق الأقليميّ اللا أبالي الذي قذف بأغلبية الشعب الألماني الساحقة الى احضان الجوع والفاقة والخصول الفظيع والذلة. والانكى من هذا كله انه ساعد على ادامة وزيادة حدة الانقسام لا بين الطبقات وحدها بل بين الأسر الحاكمة ومختلف الندوات السياسية للشعب الألماني فأخرت من احتمال توحيد ألمانيا عدة قرون.

وخاتمة الكوارث انأخت على ألمانيا بسبب حروب السنين الثلاثين وصلح وستفاليا Westphalia الذي ختم بها العام ١٦٤٨. لقد كانت ضربة مدمرة لم تشف منها البلاد شفاءً تاماً أبداً. تلك هي آخر الحروب الدينية الكبرى التي خاضتها أوروبا لكنها تحولت بتفسيخها وقبل ان تدنو نهايتها، من صدام بروتستانتية-كاثوليكية الى نزاعات سياسية حادة معقدة بين آل هابسبرگ الكاثوليك النمساويين من جهة، وبين الكاثوليك الفرنسيين البوربون والاسوجيين البروتستانت الملكيين من جهة أخرى. وفي القتال الوحشي بينهما، أضحت ألمانيا ساحة المعركة بلقياً يباباً فقد دمرت المدن ولحق بالريف الخراب الماحق وابيد السكان بحدّ السيف. وقدر أن هذه الحرب الهمجية اهلكت ثلثي مجموع الشعب الألماني.

وكان (صلح وستفاليا) كارثة أخرى لا يقل أثرها عن كارثة الحرب بالنسبة الى مستقبل ألمانيا فالأمراء الألمان الذين انحازوا الى جانب السويد وفرنسا، ثبتوا حكاماً بسلطان مطلق على اماراتهم الصغيرة حتى ناهز عددها الثلاثمائة وخمسين اماراً وبقي الإمبراطور مجرد حاكم شكلي بمقدار ما يتعلق بارض ألمانيا. وخنقت روح الاصلاح والعلم التي كانت قد عمت ألمانيا وطغت في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر. في تلك الفترة كانت المدن الكبيرة الحرة تتمتع باستقلال حقيقي تام. ولم يعد للإقطاع وجود فيها وازدهرت التجارة والفنون. حتى في الريف، كان الفلاحون الألمان قد ضمنوا لأنفسهم حريات أوسع كثيراً مما لأمثالهم في انكلترا وفرنسا ويمكن القول بلا مبالاة أن ألمانيا في مطلع القرن السادس عشر كانت ينبوعاً من ينابيع الحضارة الأوروبية.

وبعد إبرام صلح (وستفاليا) باتت ألمانيا غارقة في حمأة بربرية قياصرة المسقوف (قياصرة موسكو). فأعيد نظام القنانة حتى انه طبق في بقاع لم يكن معروفاً فيها من قبل. وفقدت المدن استقلالها الذاتي. وبدأ الأمراء في اعتصار واستغلال الفلاحين والشغيلة، بل حتى الطبقة الوسطى البرجاسية Burghers فهؤلاء وضعوا في مرتبة العبودية. وبطل التنبع العلمي والفني. وكان الحكام الطمّاعون لا يحسون بأي شعور ألماني وطني أو قومي ولا يترددون في قمع أي مظهر لهما يذرّ قرنه بين رعاياهم. وتوقفت المدنية في ألمانيا توقفاً تاماً وكان الرايخ كما وصفه أحد المؤرخين "مستقراً استقراً غير طبيعي وعلى مستوى العصر الوسيط من الاضطراب والضعف" (٢٨).

لم تنهض ألمانيا من كبوتها قط. وأصبح الرضى بالأوتوقراطية والخضوع الأعمى للطغاة الصغار الذين حكموا بمثابة أمراء فكرة متأصلة في الذهنية الألمانية ولم تفرّخ في ألمانيا فكرة الديمقراطية والحكم بواسطة البرلمان التي تطورت تطوراً سريعاً في انكلترا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وفجرت تفجيراً في فرنسا ١٧٨٩. هذا التأخر السياسي في شعب ألمانيا المنقسم الى عدد كبير من الامارات الصغيرة والمنعزل تمام انعزال عن تيارات الفكر والتقدم الأوروبي الصاعد جعل البلاد الألمانية مفصولة عن سائر بلاد الغرب وبعيدة عنها بمسافة كبيرة. ولم يوجد نمو طبيعي للشعب. وعلى المرء أن يحفظ ذلك في فكره إن شاء أن يفهم الطريق المهلك الذي اتخذته هذه الأمة فيما بعد ذلك، والانحراف العقلي الذي استقرت عليه وبالأخير صُهر الشعب الألماني وسبك بمحض القوة. وحافظ على وحدته بالعدوان المحض.

تقع بروسيا فيما وراء ضفاف نهر الألبه الشرقية. وفيه بدأت شمس القرن التاسع عشر بالأفول، بعد ان شهد هذا القرن الفشل المؤسف الذي حاق بمحاولة أولئك الأحرار الضعفاء في فرانكفورت ١٨٤٨-١٨٤٩ لخلق ألمانيا ذات مسحة ديمقراطية. تسلمت بروسيا مصائر الشعب الألماني. ظلت هذه الدولة الجرمانية قروناً بعيدة عن المجرى الرئيس للتطور الألماني التاريخي والثقافي. وكادت تبدو وكأنها فلتنة من فلتات التاريخ. لقد بدأت بروسيا كدولة حدود قصية تعرف باسم (براندنبرگ) في الأراضي الرملية القاحلة الممتدة شرق نهر ألبه التي انتزعت في القرن الحادي عشر بالتدريج من ايدي

٢٨- "مسرى التاريخ الألماني" ص ٢٤ بقلم اي. جي. بي. تايلر.

السلاط وقام آل هوهنزلرن بيت الإمارة الحاكم في دولة براندنبرگ وهم أكثر قليلاً من مغامرين عسكريين بدفع السلاط (وأغلبهم بولنديون) الى الشرق نحو البلطيق. ومن لجأ منهم الى المقاومة إما ذبحوا بحد السيف أو جعلوا اقناناً لا يملكون أرضاً. لقد منع القانون الإمبراطوري للإمبراطورية الألمانية، الأمراء من اتخاذ ألقاب الملوكية. ولكن منح لقب إمبراطور للمنتخب فردريك الثالث. الذي تم تتويجه ملكاً على بروسيا في كوينكسبرگ Koenigsberg ١٧٠١.

ولكن بروسيا في هذه المرة رفعت نفسها الى فوق بركابها نفسها لتكون إحدى القوى العسكرية المعدودة في أوروبا دون ان يكون لديها امكانات القوى الأخرى. فأرضها جرداء قاحلة خالية من المعادن وسكانها قلة. وليس فيها مدن كبيرة ولا صناعة وليست متقدمة حضارياً. حتى نبلاؤها فقد كانوا فقراء، والفلاحون الأجراء يعيشون عيشة السائمة، إلا أن آل هوهنزلرن تمكنوا بعمل خارق اراديّ ومقدرة عبقرية في التنظيم من خلق دولة عسكرية سبارطية فاز جيشها بالإتصار تلو الإتصار. واستطاعت دبلوماسيتها الميكافيلية بطريق التحالف الوقتي مع أي بلاد تبدو أقوى من غيرها، من ضمّ مستمر لأراضي جديدة الى حدودها.

وهكذا ولدت دولة غير طبيعية بالمرّة. لم تنشأ عن قوة دفع شعبية أو فكرة خلا فكرة التوسع والفتح. تجمعها كتلة واحدة متماسكة يد الحاكم المطلقة والبوروقراطية الضيقة التفكير التي تلبّي أمره، وجيش يخضع لنظام ضبط بالغ بالقسوة، يُنفق عليه من موارد الدولة ثلثها بل خمسة أسداسها أحياناً. أصبح هذا الجيش بقيادة الملك دولة بذاته. وقال ميرابو* Mirabeau "ليست بروسيا دولة ذات جيش، لكنها جيش ذو دولة" وقد أصبحت الدولة فهي الكل في الكل تدار بكفاية المعمل وتجوّده عن كلّ عاطفة، ولا يزيد مركز الشعب فيها عن أسنان في آلة من الآلات، وقد تُقن الأفراد من قبل ملوكهم وعرفاء تدريبهم بل ومن فلاسفتهم أيضاً بأن ادوارهم في الحياة قاصرة على الطاعة والعمل والتضحية والواجب حتى (كانت** Kant) نفسه فقد بشر بأن الواجب يتطلب قمع الشعور الإنساني. ومجد الشاعر البروسي "فيلبالد الكسيس Willibald Alexis" عبودية الشعب لآل هوهنزلرن. اما (لسنك*** Lessing) الذي كان يمجّ ذلك فقد وصف بروسيا بأنها أكثر البلاد عبودية في أوروبا.

واليونكرز Juneirs الذين قدر لهم دور رئيس حيوي في ألمانيا الحديثة هو أيضاً منتوج بروسي فريد من نوعه فهم كما يعتبرون أنفسهم معدن السيادة. وهم الذين اغتصبوا بالقوة أراضي السلاط واستغلوها زراعياً بمثابة مزارع ضخمة عمل فيها السلاط الذين أصبحوا اقنان ارض أو أجراء يختلفون تمام الاختلاف عن أمثالهم في الغرب. هناك اختلاف جوهري بين النظام الزراعي في بروسيا

* هونوريه غابرييل دي ميرابو (١٧٤٩-١٧٩١) قائد ثوري فرنسي وخطيب قوى المعارضة، عمل سراً على إقامة ملكية دستورية إلا أنه لم يكن موضع ثقة لا من الثوريين ولا من الملكيين. أنتخب رئيساً للجمعية الوطنية إلا أنه توفي بعد أشهر قلائل.

** أمانويل كانت (١٧٢٤-١٨٠٤) واحد من مشاهير الفلاسفة الألمان وأعظم الفلاسفة في كل مكان. أشتهر بكتابه نقد العقل المجرد ونقد العقل التجريبي. وغيرها.

*** كوتهولد أفرام لسنك (١٧٢٩-١٧٨١) مسرحي وناقد وفيلسوف ألماني مؤسس الأدب القومي الحديث.

وبين صنوه في ألمانيا الغربية وأوروبا الغربية. ففي الأخيرتين يقوم النبلاء الذين يملكون معظم الأرض بايجار الأرض، واستحصال ضرائب اقطاعية من الفلاحين الذين كثيراً ما كانوا يرزحون تحت حالة ما من العبودية غير أنهم يتمتعون ببعض الحقوق والامتيازات وبامكانهم أن يحصلوا على أراضٍ زراعية لأنفسهم بالتدريج وينالوا الحرية المدنية. ويؤلف الفلاحون في الغرب جزءاً راسخ القاعدة من المجتمع. وعلى كل عيوب سادة الأرض فقد طوروا - في حياة الكسل والحمول التي كانوا يعيشونها - أساليب الزراعة التي أدت مما أدت، الى غط من الحياة يتسم بطابع الحضارة ويمكن توضيح معالمه في رقي الأخلاق والعادات والأفكار والفنون.

لم يكن البروسي (اليونكر) أخا كسل وخمول فقد عمل دؤوباً في إدارة مزرعته المترامية الأطراف مثلما يفعل اليوم مدير إدارة المصنع تقريباً فكان يعامل الفلاحين الأجراء الذين لا يملكون أرضاً معاملة عبيد إرقاء وكان السيد المطلق في املاكه الواسعة ولم يوجد ثمّ مدن كبيرة أو طبقة وسطى ثرية - كما يوجد في الغرب - تناصبه العداة وتضايقه بنفوذها الحضري. فهو خلافاً للسيد العظيم grand seigneur المهذب في الغرب. رجل غليظ متعطر، متعجرف، جاهل، غير مهذب، اعتدائي، قاسٍ مغرور ضيق الاقرب مغرم بجني الربح التافه كما لحظ ذلك بعض المؤرخين الألمان في الحياة الخاصة لـ (أوتو فون بسمارك) أنجح فرد من طبقة (اليونكرز) ولهذه العبقرية السياسية اصول مذهب "الدم والحديد" يعود الفضل في انهاء عهد الانقسام في ألمانيا الذي دام حوالي ألف سنة وضمها بالقوة الى بروسيا العظمى فيما بين ١٨٦٦-١٨٧١ أو ما قد يدعى "بألمانيا البروسية". إن ألمانيا التي عرفها جيلنا وهي مخلوق بسمارك الحريد الفريد، ظلت طوال مائة عام معضلة أوروبا والعالم وطفلها الجناح المعقد. انها وطن يسكنه شعب موهوب عظيم القابليات شديد القوى، نجح كل من ذلك الرجل العظيم ومن بعده القيصر فلهمل الثاني وأخيراً هتلر، بمساندة الطبقة العسكرية ودعم الكثير من أغرب المفكرين - في تلقيه الشهوة الى التسلط والتحكم، والعسكرية الجموحة، واحتقار الديمقراطية وخنق حرية الفرد وشوق الى السلطة والحكم المطلق. تحت تأثير هذا السحر ارتفع هذا الشعب الى أعلى عليين ثم هوى ثم ارتفع. حتى كانت سقطته العظمى بنهاية هتلر في ١٩٤٥ حيث خيل للناس أنه دمر - وخير لنا ألا نستعجل الكلام في هذا بثقة وجزم.

صرح بسمارك عند توليه رئاسة الوزارة البروسية في ١٨٦٢: "إن قضايا اليوم الكبرى لن تحلّ بالقرارات وأغلبية الأصوات - كانت تلك غلطة رجال العامين ١٨٤٨ و ١٨٤٩ - وإنما تحلّ بالدم والحديد" وهذا بالضبط الأسلوب الذي اتبعه في تسويتها، على أنه يجب الاقرار باضافته اليها لمسات من الحنكة الدبلوماسية والدهاء السياسيّ تتميز في كثير من الأحيان بالخديعة. كان هدف بسمارك تحطيم الليبرالية، والاستناد الى القوى المحافظة - أعني اليونكرز والجيش والتاج - وجعل بروسيا - بمواجهة النمسا القوة المسيطرة ليس على الألمان وحدهم، بل على أوروبا ايضاً إن امكن. فقد قال لنواب البرلمان البروسي "لا تنظر ألمانيا الى الليبرالية البروسية بل الى قوتها".

شرع بسمارك أولاً في بناء الجيش البروسي، وعندما رفض البرلمان رصد إعتمادات إضافية، صرفها

هو من تلقاء نفسه وأخيراً حلّ المجلس. وضرب بجيشه المتقويّ ضربات حاسمة في ثلاث حروب متتالية. أولاً ضدّ الدانرك في ١٨٦٤ فاقتطع منها دوقيتني شلزفيك وهولشتاين Holstein وضمهما الى ألمانيا وثانيتهما ضدّ النمسا في ١٨٦٦ - وكانت أعظم من الأولى نتائج بما لا يقاس، فبعد ان ظلت النمسا قروناً متعاقبة الأولى بين الدول الألمانية. طردت أخيراً من أسرة الدول الألمانية ومنعت من التدخل في شؤونها كذلك لم يسمح لها بالدخول في الإتحاد الألماني الشمالي الذي شرع بسمارك في انشائه.

مرة، كتب العالم السياسي الألماني الشهير رويكه Roepke "لم يعد لألمانيا وجودٌ بعد العام ١٨٦٦". فقد ضمت بروسيا كلّ الدول الألمانية الواقعة شمال نهر الماين Main التي حاربتها بإستثناء سكسونيا. وهي: هانوفر، وهسّ، وناساو Nassau وفرانكفورت، ودوقية (إليه) كلّها اجبرت على الدخول في الإتحاد الألماني الشمالي. وسيطرت عليه بروسيا التي أصبحت تمتدّ الآن من (الراين) الى كوينكسبرغ. وبعد خمس سنوات، على اثر هزيمة نابليون الثالث الفرنسيّ. ضمتّ الدول الألمانية الجنوبية الى ألمانيا البروسية. وفي مقدمتها مملكة بافاريا الكبيرة^(٢٩).

وكانت خاتمة إنجازات بسمارك خلق الرايخ الثاني الذي رأى النور في الثامن عشر من كانون الثاني ١٨٧١ حين توجّ الملك فلهلم الأول البروسي إمبراطوراً لألمانيا في قاعة المرايا في فرساي. وهكذا تم توحيد ألمانيا بفضل القوات المسلحة البروسية فاذا بها الآن أعظم قوة في أوروبا القارة ومنافسها الوحيد هو انكلترا.

إلا أنه كان يوجد عيبٌ لا يرجى صلاحه. فالإمبراطورية الألمانية كما قال ترايتشكه Treitschke إن هي إلا انفتاح لبروسيا. وأوضح ذلك بقوله "بروسيا هي العامل المسيطر... فإرادة الإمبراطورية هي ليست إلا إرادة الدولة البروسية"، وهو قول صائب. وكان تأثير هذا الواقع مدمراً بالنسبة الى الألمان انفسهم فمنذ ١٨٧١ حتى ١٩٣٣ وبالأحرى حتى نهاية هتلر ١٩٤٥ كان مسرى التاريخ الألماني، نتيجة لما سلف أي مواصلة السير على خط مستقيم وبمنطق تام بإستثناء فترة جمهورية فايمر.

كانت الإمبراطورية الألمانية في الحقيقة أوتوقراطية عسكرية يحكمها ملك بروسيا الذي هو إمبراطور أيضاً. رغم الواجهة الديمقراطية التي وضعت باستحداث مجلس الرايخشتاغ ويتم إنتخاب أعضائه بالاقتراع العام للذكور فقط. وسلطات الرايخشتاغ قليلة. وهو لا يزيد كثيراً عن جمعية للمداولات حيث يطلق ممثلو الشعب بخارهم الحبيس ويساومون لقاء منافع تافهة للطبقات التي يمثلونها. والعرش وحده صاحب السلطان والجبروت بموجب الحق الإلهي ولم يتحرّج فلهلم الثاني من التصريح وفي مثل هذا التاريخ القريب سنة ١٩١٠! بأن التاج الملكي اعطي له "بنعمة من الله وحده وليس بفضل البرلمان أو الجمعيات الشعبية أو القرارات العامة..." واذاف الى ذلك قوله "... ولما كنت اعتبر نفسي من إرادة الله... فلي أن اختار سبيلي".

والبرلمان لا يقوم عائقاً في سبيله. فهو يعين المستشار الذي يكون مسؤولاً أمامه لا أمام الرايخشتاغ

٢٩ - "حلّ المسألة الألمانية" ص ١٥٣ بقلم "فلهلم رويكه".

وليس بإمكان الجمعية طرد المستشار أو إبقاؤه في وظيفته فهذا من صلاحية الملك ولذلك فإن فكرة الديمقراطية ومبدأ السيادة الشعبية وسلطة البرلمان العليا لم تجد لها موطناً في ألمانيا حتى بعد فاتحة القرن العشرين. خلافاً للتطورات التي حصلت في دول الغرب الأخرى. الحق يقال إن الاشتراكيين الديمقراطيين بعد سنوات من الاضطهاد على يد بسمارك والإمبراطور أصبحوا بمجيء العام ١٩١٢ أكبر حزب سياسي في الرايخشتاغ. وطالبوا بأصوات عالية إحلال الديمقراطية البرلمانية. إلا أنهم كانوا عديمي التأثير. ومع انهم أوسع حزب فقد ظلوا أقلية. والطبقات الوسطى التي أنعشها التطور المتأخر الهائل للثورة الصناعية بهرها نجاح سياسة بسمارك في القوة والحرب نزلت لقاء الكسب المادي عن كل طموح للحرية السياسية قد تصل إليها^(٣٠) ورضيت بأوتوقراطية هونزلرن واذعنت بكل سرور لبورقراطية اليونكرز واعتنقت العسكرية البروسية بحرارة. لقد صعد نجم ألمانيا والشعب كل الشعب تقريباً متحمس للقيام بكل ما يطلبه منهم سادتهم، لابقاء البلاد في فلكها الرفيع دائرة.

وظل هتلر النمساوي واحداً من هذا الشعب حتى النهاية. فعنده ان راين بسمارك (الراين الثاني) رغم أخطائه "وقوى تفسخه الهائلة" انما هو عمل مجيد رائع فيه أصبح الألمان سادة انفسهم. "لم تكن ألمانيا خلافاً لغيرها من البلاد - مثلاً عجيبيلاً لإمبراطورية نهضت على أساس من سياسة القوة المحضنة؟ ان بروسيا وهي نطفة الإمبراطورية لم تتكون إلا بفضل أعمال البطولة الباهرة، وليس بفضل العمليات المالية والصفقات التجارية. والراين بدوره، انما هو المكافأة المجيدة للزعامة السياسية العسكرية والبسالة التي تتحدى الموت بجنودها لا غير..."

"هذا الطفل الرضيع، الراين [الثاني] بدا مطلياً بسحر حادث جليل نهض بالأمة قاطبة بعد سلسلة من انتصارات لاتباري ولد راين للأبناء والأحفاد - مكافأة للبطولة الخالدة... هذا الراين الذي لا دين بوجوده الى الأعياب الاحزاب البرلمانية، تراه يشمخ بأنفه على معايير الدول الأخرى، يحض كيفية نشوئه الطريقة الرائعة. هذه المهمة لم تنجزها فأقة الخطب البرلمانية بل ضجيج المعركة وقعقة السلاح وجيوش الميدان تلك التي طوقت (باريس). ذلكم إعلان لارادتنا يصرخ ان الألمان: أمراء وعامة قد عزموا في المستقبل على إقامة راين جديد ورفع التاج الإمبراطوري الى أعلى عليين مرة أخرى... إن دولة بسمارك لم يقمها دعاة الهزيمة أو المتخاذلون، بل اقامتها ألوية الجيش المظفرة في الجبهة... هذا الميلاذ الفريد في بابه، والعماد بالنار يحيطان الراين بهالة من المجد التاريخي لا تفخر بمثلها

٣٠- ويشبه هذا نوعاً ما الصفقة التي عقدتها الطبقة العاملة الألمانية. فلأجل مكافحة العقيدة الاشتراكية قام بسمارك ما بين ١٨٨٣-١٨٨٩ بوضع برنامج للضمان الاجتماعي لا يضاويه أي برنامج في أي بلاد أخرى، يتضمن التأمين الاجباري عن عجز العامل بسبب التقدم في السن والمرض وعوارض العمل وفقدان القابلية ومع ان الدولة كانت تدير المشروع وتشرف عليه إلا ان ماليته مصدرها ارباب العمل والعمال انفسهم. ولا يمكن القول ان هذا البرنامج شل نشاط الاشتراكيين الديمقراطيين ونقابات العمال، على ان أثره على الطبقة العاملة كان شديداً من ناحية أخرى. اذ جعلهم يضعون الضمان الاجتماعي فوق التحرر السياسي، وجعلتهم ينظرون الى الدولة مهما غرقت في اليمينية نظرتهم الى حام ومحسن اليهم. وقد إستفاد هتلر كما سترى من تلك الحالة الفكرية إستفادة تامة. فكان في هذا تلميذاً لبسمارك كما في غيره وتعلم منه الكثير "درست تشريعات بسمارك الاجتماعية وتأملت أغراضها ومدى ما حققته من نجاح في ميدان التطبيق" (كفاحي ص ١٥٥).

إلا أقدم الدول وتلك أيضاً قلة نادرة.

اي ارتفاع بدأ الآن؟

الحرية من الخارج تؤمن الخبز اليومي للداخل. أصبح الوطن غنياً في العدد وفي خيرات الأرض. وشرف الدولة ومعه شرف الشعب، حماه وصانه جيش كان بإمكانه الإشارة بوضوح الى موطن الاختلاف مع الإتحاد الألماني الغابر^(٣١) تلك هي ألمانيا التي عزم هتلر على إصلاح أمرها. لقد فصل بأسهاب عظيم في (كفاحي) الأسباب التي يعتقد انها أدت الى سقوطها وهي: تسامحها مع اليهود والماركسيين، المادية الكثرة والأنانية التي تحلّت بها الطبقة الوسطى، النفوذ المقيت الذي مارسه "المتبصبصون لاعتقوا البصاق" حول عرش هونزلرن، "سياسة التحالف الألمانية، جلاية الكوارث" تلك التي ربطت ألمانيا بنظام هايسبرگ المهتريء، وبالإيطاليين الحقراء، بدلاً من ارتباطها بانكلترا، الافتقار الى سياسة إجتماعية عنصرية أساسية؛ تلك هي الأخطار التي وعد ان تتلافها القومية الاشتراكية وتتحاشاها.

-٣-

الأصول الفكرية للرايخ الثالث

والسؤال -بعد تركنا التاريخ جانباً- من أين جاء هتلر بأرائه؟ كان خصومه خارج ألمانيا وداخلها: إمّا منشغلين بأمور أخرى، أو انهم بدرجة كبيرة من الغباء حتى انهم لم يهتموا بها إهتماماً كبيراً الى ان فرط الأمر من ايديهم... لقد هضم هتلر ككثير من الألمان خليطاً غريباً من أفكار شاذة مخبولة نبطت في رؤوس مفكري القرن التاسع عشر الألمان وتلقاها على الأغلب مشوّهة، محورة عن طريق احد ادعياء الفلسفة، كالمثلاث (الفريد روزنبرگ) أو من صديقه السكير الشاعر (ديتريش إيكارت) بكل ذلك الإيمان المطلق المتحمس الذي يبديه التلميذ الجاهل المبتدي، والبلية في الأمر أنه قرر وضعها موضع التطبيق حين سنوح الفرصة!

ولقد رأيناها وخبرنا حقيقتها، اذ هي تقعقع وتطنّ في رأس هتلر؛ تمجيد الحرب والفتح، السلطان اللامحدود للدولة المطلقة، الإيمان بتفوق العرق الآري أو الألماني على الشعوب الأخرى. بغض اليهود والسلافي، احتقار الديمقراطية والمذاهب الإنسانية؛ هذه كلها ليست من مبتدعات هتلر. وإن ثبت أن الوسائل التي اتبعها لتحقيقها كانت من بُنات افكاره. هذه الآراء بشرت بها طائفة شاذة من الفلاسفة اللوذعيين غير المتنزين ومن مؤرخين واساتذة اسروا الفكر الألماني خلال ذلك القرن -قبل مجيء هتلر- وكان من نتيجة هذه التعاليم كما تبين- نكبة عظيمة ليس للألمان وحدهم بل لجزء كبير من أبناء البشر.

٣١- (كفاحي) الص ١٥٤، ٢٢٥-٢٢٦.

لا يشك أحد في أن ألمانيا تفخر بعددٍ من أعظم جهابذة العقل البشري في عالم الغرب مثل لايبنتز Leibnitz، وكانت، وهردر Herder وهمبولت Humboldt ولسّنك، وغوته، وشلّير، وباخ وبيتهوفن وكلهم قدموا للحضارة خدمات فريدة. على أن الثقافة الألمانية التي استظهرت في القرن التاسع عشر ووافق ظهورها بروز ألمانيا البروسية منذ بسمارك حتى هتلر، كانت مبنية بالدرجة الأولى على فلاسفة معينين مثل فيختة Fichte وهيغل Hegel في المبدأ ثم جاء بعدهما (ترايشكه ونييتشه Nietzsche) وریشارد فاكنر، وجماعة كبيرة أقل شهرة وليس أثراً. ومن الغريب أن يكون بينهم فرنسي غريب الاطوار وانكليزي شاذ. ولقد نجح هؤلاء في فتح ثغرة روحية رجعية في فكر الغرب. هذه الثلمة لم تلتئم حتى يومنا هذا.

في العام ١٨٠٧، بعد الهزيمة الساحقة الذليلة التي منيت بها بروسيا على يد نابليون في (ينا Jena) بدأ يوهان كوتليب فيخته Johann Gottlieb Fichte يوجه "خطاباته الشهيرة الى الشعب الألماني" من مدرّج جامعة برلين حيث كان يحتلّ كرسيّ أستاذ الفلسفة. فاثارت ونظّمت الشعب المغلوب المنقسم. وما زال صدى تلك الخطب تراه برنّ في اجواء الرايخ الثالث. كانت تعاليم (فيخته) خمرّة مسكرة للشعب المخدول. فهو يرى أن الشعوب اللاتينية ولاسيما الفرنسيين، وشعب اليهود اقوام منحلّة تسير الى الفناء. وليس ثم شعب فيه قابلية التجدد غير الشعب الألماني. فلغته أنقى اللغات وأكثرها أصالة. وسيزدهر بهم عصر جديد من عصور التاريخ. وسينعكس فيهم نظام الكون. وستقودهم صفوة منتخبة قليلة العدو متحررة من أي رادع أخلاقي "للطبيعة" الخصوصية. تلك هي جملة من الآراء التي رأينا هتلر يقتبسها ويدوّنها في (كفاحي).

موت فيخته في ١٨١٤ خلفه (جورج فلهلم فردريك هيغل) في جامعة برلين. كان هذا الدماغ الحاذق النافذ الذي ألهمت جدليته (دايلكتيكه) كلاً من (ماركس ولينين) ولذلك يعدّ ذا فضل في قيام المذهب الشيوعي. إلا أن تمجيده الرئان بالدولة وسموها المطلق في الحياة البشرية مهد الطريق للرايخ الثاني والثالث فالدولة عند هيغل هي الكلّ في الكلّ. ومن بين ما قال عنها أنها أسمى وحي "لروح العالم" وانها "الكون الخلقى" و"فاعليّة الفكرة الأخلاقية"، وللدولة "الحق الأعلى تجاه الفرد، الذي كان واجبه الأعلى أن يصير عضواً في الدولة... لأن حق الروح العالمي هو أعلى من كل الامتيازات الخاصة..."

وماذا عن سعادة الفرد في الدنيا؟ يجيب (هيغل) أن "تاريخ العالم ليست إمبراطورية السعادة" وقال "أن فترات السعادة إنما هي صحائف خالية من أي تاريخ لأنها فترات اتفاق، ليس فيها صدام والحرب إنما هي المطهر الأعظم في نظر (هيغل) لأنها تعمل "لصحة الشعوب الأخلاقية التي افسدها السلم الطويل، كالريح الشديدة فهي تحفظ البحر من الأسن الذي هو نتيجة الهدوء الطويل". إن المفاهيم التقليدية للأدب العامة وقواعد الأخلاق يجب أن لاتعترض سبيل "الدولة العليا" ولا "أبطالها" الذين يقودونها "يحتلّ تاريخ العالم نشراً أعلى... إن القوى الأخلاقية التي لا محلّ لها هنا، يجب ألا تتصادم مع وقائع تاريخ العالم وإنجازاتها. إن أورد (ابتهالات) الفضائل الخاصة-

كالتواضع، ومحبة الخير، والوداعة، الصبر- يجب ان لا تُرفع ضدّ تلك الوقائع... [فالدولة] وهي بهذا الشكل من القوة يجب ان تدعس الكثير من الأزهار البريئة - وتستحق سحراً الكثير من الاشياء التي تعترض سبيلها".

وتنبأ (هيغل) بقيام مثل هذه الدولة في ألمانيا. عندما تستعيد البلاد عبقريتها التي هي هبة الله. وتكهن بأن "ساعة ألمانيا" ستحين وان رسالتها ستكون تجديد العالم. ومن يقرأ (هيغل) يدرك كم ألهمت آراؤه هتلر وكم استمد منها، وان جاءته مشوهة ممسوخة. ويبدو ان أعظم كل ما اوصى به هيغل لهتلر كما سنرى في نهاية هذا الفصل. هو ما جاء في نظريته عن الأبطال إنهم "فاعلون" عظماء، أرصدتهم العناية الإلهية المستدقة على الفهم للتعبير عن "إرادة روح العالم". وهذا ما لا م حاسة هتلر الخلافة برسالته القدريّة.

وجاء بعده الى جامعة برلين (هنريخ فون ترايتشكه). وظل منذ ١٨٧٤ حتى وفاته في ١٨٩٦ أستاذ التاريخ فيها. كان أستاذاً محبوباً من الجمهور. تحضر دروسه جموع غفيرة متحمسة فتجد فيها عدا التلاميذ، ضباطاً من هيئة الأركان العامة وموظفين من اليونكرز البرورقراطيين؛ وكان تأثيره على الفكر الألماني في الربع الأخير من القرن، عظيماً جداً، وظلّ هذا التأثير الى أيام فلهم الثاني وهتلر بلاشك. مع ان ترايتشكه كان سكسونياً فقد أصبح بروسيّ النزعة، بروسياً أكثر من البروسيين ومجدّ الدولة كما مجدها (هيغل) واعتبرها السلطة العليا. إلا ان موقفه كان يفوق الأول وحشية: الشعب (الرايا) يجب ألا يكونوا في الوطن أكثر من عبيد وقال: "ليس مُهماً ما تفكر به ما دمت تطيع". وفاق (هيغل) في انه اعتبر الحرب اسمى تعبير لفاعلية الرجل فالمجد العسكري عنده "هو قاعدة لكل الفضائل السياسية، في كنز أمجاد ألمانيا الغني. كان مجد بروسيا العسكري جوهرة تضاهاي قيمتها روائع شعرائنا ومفكرينا" ويرى ان "اللعب الأعمى بالسلم... أصبح عاراً على فكر الجيل وأخلاقه".

"بصرف النظر عن كون الحرب ضرورة عملية، فهي أيضاً ضرورة نظرية وضرورة منطقية. إنه مفهوم (الدولة) يتضمن مفهوم الحرب لأن جوهر الدولة هو القوة... واستبعاد الحرب من العالم، إنما هو أمل، على سخافته، لا أخلاقي بالمرّة. إنه يؤدي الى ضمور عدد كبير من القوى الجوهرية الجلييلة للروح البشرية... والشعب الذي يصبح متعلقاً بالأمل الوهمي، أمل السلم الدائم ينتهي بالتفسيخ والانحلال الذي لايرجى شفاؤه -وهو في عزلته المتعالية".

لم تكن فكرة ترايتشكه عن الشعب الألماني عالية ومثله في هذا مثل غوتيه^(٣٢) هذا العبقري الملتاث في نواح أخرى تختلف عن شوقيينية غيره من مفكري القرن التاسع عشر الألمان. فهو في الواقع يعتبر معظم فلاسفة الألمان ومنهم (فخته وهيغل) "نصابين دون أن يشعروا". واستخدم الدعاية

٣٢- قال (غوتيه) مرة: "كثيراً ما شعرت بحزن مرير عندما أتأمل في حال الشعب الألماني. فهو جليل القدر كغرد، وتعس بائس كمجموع. إن مقارنة بين الأمة الألمانية وبين الشعوب الأخرى تشير أحاسيس مؤلمة، احاول التغلب عليها باي طريق مستطاعة." (أحاديث مع ه. لودن H. Luden في ١٣ كانون الثاني عام ١٨١٣. في أحاديث غوته Goethes Gaspraechة، أوسفال بيدرمان Auswahl Biedermann، اقتبسها فلهم روبيكه في "حل المسألة الألمانية ص ١٣١.

اللاذعة في كتابه "طرطوفية الشيخ كانت" وقال في كتابه "هو ذا الرجل Ecce Homo: لا يدرك الألمان كم هم سفلة" واستخلص النتيجة التالية "أنى دخلت ألمانيا، قضت على الحضارة" ووجد النصارى كاليهود مسؤولين على "أخلاق العبيد" التي تدمغ سكان العالم، ولم يكن خصماً للسامية. وابدأ أحياناً تخوفه من مستقبل أوروبا. وراح في سنواته الأخيرة - قبل أن يقفل الجنون عقله، يتلاعب بفكرة الوحدة الأوروبية والحكومة العالمية.

وأرى أنه لا يوجد مواطن واحد في الرايخ الثالث لم يتبين بنفسه تأثير (نيتشه) العميق في بناء صرحه. وقد تكون كتبه مملوءة "بالحماقات المضحكة" و"التخريف الصياني" كما قال عنها (سانتيانا Santayana). ومع ذلك فادعاء الكتاب النازيون لا يملون من تعظيمه. وكان هتلر لا يفتأ يزور متحفه في (فايمر) ويذيع تكريمه للفيلسوف بصور يأخذها له المصورون وهو يحدق تحديقاً عميقاً بالتمثال النصفي لهذا النابغة.

هنالك وجهة لتقدير (نيتشه) بوصفه أحد مبدعي "مفهوم الحياة" النازي. ألم يندد الفيلسوف هادراً - بالديمقراطية والمجالس النيابية ألم يعط بارادة القوة، ويمدح الحرب ويبشر بمقدم الشعب المختار والإنسان الكامل (السوبرمان). بأسلوب حكمي سافر جداً. وللنازي أن يتمثل بكل اعتزاز وفخر بأقواله ومآثره في أي موضوع وهو لا يتردد في ذلك. يقول (نيتشه) في النصرية "إنها اللعنة العظمى، الضلة الكبرى نفسها... اني ادعوها وصمة عار خالدة في جبين البشرية. هذه النصرية، إن هي الا تعاليم الإشتراكيين أنفسهم". وعن الدولة، والقوة، وعالم الغاية لدنيا الإنسان يقول "لم ير المجتمع في أي فضيلة إلا وسيلة للقوة والمقدرة الى الحرب، الى الفتح والانتقام... المجتمع لا يفترض وجوده لذات نفسه بل ليكون هيكلأ داخلياً وصقالة... يرتفع بواسطتها عرق مختار من البشر الى الاضطلاع بواجبات سامية... ليس هناك ما يدعى بحق العيش، بحق العمل، بحق السعادة: فالإنسان في هذا المجال لا يختلف عن أحقر دودة^(٣٣).

ومجد السوبرمان (الإنسان الكامل) بوصفه الوحش المفترس "الوحش الأشقر العظيم. الذي يثب بشراة الى النصر والفريسة".

والحرب؟ هنا لا يختلف رأي نيتشه عن آراء معظم مفكري القرن التاسع عشر الألمان. ففي كتابه "هكذا تكلم زرادشت" الذي صاغه بلغة الانجيل وأسلوبه. يزعم هذا الفيلسوف قائلاً "فلتحبوا السلام كوسيلة لحرب جديدة. ولتحبوا السلم القصير أكثر من الطويل. اني انصحكم بأن لاتعملوا بل تقاتلوا. لكم أنصح بالنصر لا بالسلام... أتقولون أنه الغرض الصالح الذي يبارك حتى الحرب نفسها؟ أما أنا فأقول لكم: إن الحرب الصالحة هي التي تبارك كل غرض، الحرب والشجاعة صنعتا من جلائل الأعمال

٣٣- أوكل نيتشه للمرأة - التي لم يعرف صلة بها طول حياته - مكانة احط لمكانة الرجل كما فعل النازيون، وصرح ان محلهم هو المطبخ ودورهن الرئيس في الحياة هو انجاب الأولاد المحاربين الألمان ووضع نيتشه رأيه بالشكل التالي: "على الرجل أن يدرّب على الحرب وعلى النساء أن يكن وسيلة لخلق المحاربين وما عدا ذلك هباء وحماقة" وزاد يقول في (هكذا تكلم زرادشت): أنت ذاهب الى المرأة؟ لاتنسى ان تأخذ معك السوط! مما أدى به (برتراند رسل) الى الردّ الفوري "تسع من اصل عشر نساء سينتزعن السوط من يده عنوة. وهو يعلم ذلك حق العلم، ولذلك ابتعد عنهن!..."

ما يفوق كثيراً، الذي صنعه البر". وأخيراً هناك نبوءة نيتشه عن مجيء الصفوة المنتخبة التي تحكم العالم التي يخرج منها (السوبرمان). ليهتف قائلاً في "الإرادة إلى القوة": "إن عنصراً جسوراً حاكماً يبني نفسه... والهدف هو أن يهيء إمكانية تقدير القيم لنوع من الإنسان قوي جداً موهوب بدرجة لا تقاس في عقله وفي إرادته. هذا الإنسان والنخبة الممتازة الملتفة حوله سيصبحون "سادة الأرض".

هذه الثروة التي أطلقها واحد من أنبغ عقليات الألمان لا بد وأنها مسّت في رأس هتلر الأجوف وتراً حساساً. وعلى كل حال فقد إستحلاها لنفسه- ليست الأفكار وحدها بل الصيغ الشاذة الطنانة التي أودعها فيها. وكثيراً ما تجد عبارته بالذات "سادة الأرض" التعبير المألوف في (كفاحي). ولا يتطرق أي شك في النفس أن هتلر عدّ نفسه (السوبرمان) الذي بشرت به نبوءة (نيتشه). كان هتلر لا يفتأ يقول: "من يريد أن يفهم ألمانيا القومية الاشتراكية فعليه أن يعرف فاكنر^(٣٤)"، وربما استند في قوله هذا على إساءة فهم مغرض للموسيقار العظيم. إذ مع أن (ريشارد فاكنر) كان شديد التعصب كهتلر في كرهه اليهود، واقتناعه بأنهم يحاولون السيطرة على العالم بالمال. ومع أنه ازدرى المجالس النيابية والديمقراطية والمادية، وغباوة البرجوازيين فقد ظلّ يأمل من اعماق نفسه أن "يصيح الألمان بملكاتهم الخاصة وعيبريتهم، لا حكماً للعالم بل رافعي مكانته". ولم تكن كتاباته السياسية التي أوحى أساطير ومآثر ألمانيا الحديثة واعطتها "معنى الحياة" التي ادعاها النازيون لأنفسهم ليس بلا مبرر، بل بأوبراته الشامخة. التي تمثل بكل دقة دنيا الألمان الأوائل بأساطير بطولاتها، وألهتها الوثنية المقاتلة وابطالها ومردتها وأبالستها وثأراتها الدموية وعنعاتها القبلية الساذجة، وإيمانها بالقضاء والقدر وجلال الحب والحياة ونيل الموت.

أحب (هتلر) فاكنر حبّ عبادة من البداية. وفي ملجأ مقرّ القيادة العسكرية الرطب الكثيب على الجبهة الشرقية الروسية، حيث لم يعد إلا القليل من حياته، وهو يرى مبدأ تحطم أحلامه وتبددها، تجده مغرمّاً باستعادة ذكرياته عن كلّ المناسبات التي سمع بها الآثار (الفاكنرية) العظيمة، وماذا كانت تعني عنده، وما أوحى له مهرجانات (بيروث Bayreuth) الموسيقية. وزياراته التي لاتعدّ لمنزل الموسيقار (هاوس فنفرید Haus Wahnfried) حيث ما زال يعيش ابنه سيغفريد فاكنر "Siegfried" مع زوجته الانكليزية بالولادة (وينيفريد Winifred) التي كانت واحدة من أعزّ أصدقائه رداً من الزمن.

هتف هتلر في ليلة ٢٤/٢٥ كانون الثاني ١٩٤٢. بعد وقت قليل من وصول نبأ أول الهزائم الساحقة الألمانية في روسيا: "أي متعة كانت تمنحني كل قطعة من قطع فاكنر!". قالها وهو يحدث جنرالاته واقطاب حزبه ومن بينهم هملمر في اعماق الملجأ المحفور تحت الأرض المعروف بـ(فولفكانزه Wolfsschanze) وجار الذئب في راستنبرگ Rastenburg بروسيا الشرقية. وكان الثلج في الخارج يتساقط والبرد القطبي يشيع في الجو تلك الظواهر الطبيعية التي يكرهها كرهاً قتلًا ويخشها خشية

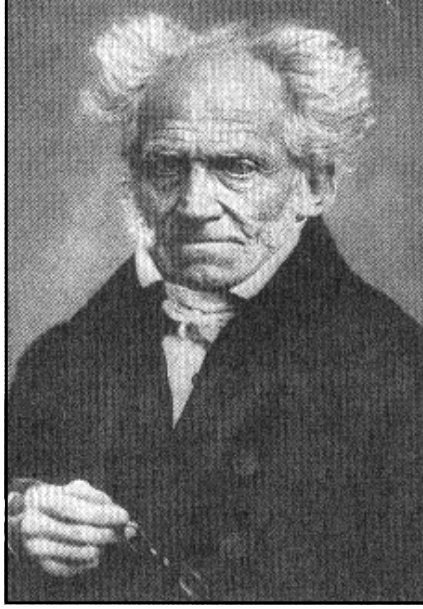
٣٤- ذكرياتي الخاصة يؤيدها أوتو توليشوس Otto Tolischus في كتابه "ارادوا الحرب" ص ١١.

الموت. تلك التي عزا اليها أولى الاندحارات العسكرية الألمانية في الحرب. لكن أفكاره في تلك الليلة كانت في دفء الملجأ منصرفة على الأقل الى استذكار واحد من أهم مصادر الهام حياته قال: "أذكر أحاسيسي التي زخرت بها نفسي عند دخولي (فانفريد) لأول مرة. أقول ان العاطفة عقلت لساني! في أسوأ لحظات حياتي لاتفتأ موسيقاه تشيع في العزم والانتعاش. حتى (سيگفريد فاگنر) نفسه. إن صداقتي لهما وصلت الى حدّ المخاطبة بالاسم المجرد ولقد احببتهم جميعاً. كذلك انا أحب (فانفريد)... ما برحت الأيام العشرة لموسم (بيروث) من أجمل مواسم وجودي. وأنه لتتملكني الغبطة عندما افكر بأنني سأكون قادراً يوماً ما على استئناف الحج!"

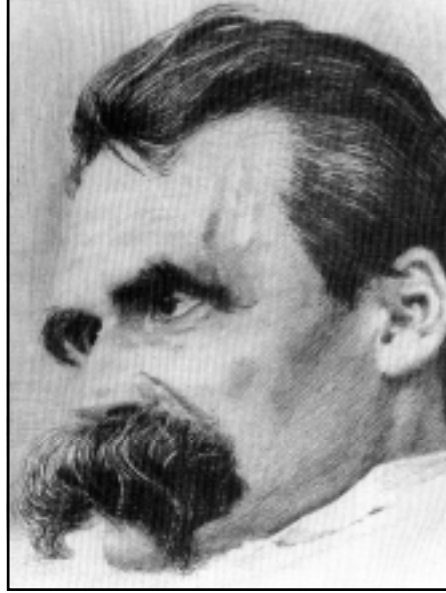
"وفي اليوم التالي لنهاية مهرجان بيروث... تستولي عليّ حالة عظيمة من الغمّ حتى لكأنما يجرد احدهم شجرة عيد الميلاد من زينتها^(٣٥)."

ومع ان هتلر ردد في حديثه ذلك الشتاء انه يعتبر أوبرا (تريستان وإيسولده Tristan und Isolde درة آثار (فاگنر) فان أوبرا خاتم (نيبلونگن) وهي سلسلة تتألف من أربعة أوبرات كاملة - استوحيت من الملحمة الأسطورية الألمانية العظيمة "نيبلونگن ليد Nibelungenlied" وسلبت المؤلف معظم خمس وعشرين سنة من حياته، هي التي قدمت لألمانيا وبخاصة للرايخ الثالث الكثير من أسطورية ألمانيا البدويّة. كثيراً ما تكون أساطير شعب من الشعوب أعلى تعبير وأصدق له روحها ومآثرها الحضارية ولا يصدق هذا على أمة قدر ما يصدق على ألمانيا. حتى لقد جادل (شيللنگ Schelling) في أن "الشعب يأتي الى الوجود بمآثره الأسطورية (ميشولوجيا)... إن وحدة تفكيره التي تعني فلسفة جماعية، تتمثل في مجموعة أساطيره، لذلك فأساطير الأمة تتضمن مصيرها ومستقبلها". وصرّح (ماكس ملّ Max Mell) وهو شاعر معاصر نظم صيغة جديدة "لنشيد النيبلونگن": "في أيّامنا هذه لم يبق من آلهة الأغريق إلا القليل، حتى ان النزعة الإنسانية ارادت أن تمدّ جذورها عميقاً في ثقافتنا... إلا أن (سيگفريد) و(كريمهيلد Kriemhild) ستظلّ أبداً في روح الشعب!"

(سيگفريد وكريمهيلد)، (برونهلد Brunhild) وهاگن Hagen) أولئك هم الأبطال والبطلات القدامى الذين يريد أن يتشبه بهم كثير من ألمان اليوم والى جانبهم عالم النيبلونگن الوثني البربري - عالم بطولي لا معقول حافل بالأسرار، يكتنفه الغدر ويسوده العنف ويغرق في النجيع، يبلغ ذروته "بغسق الآلهة Goetterdaemmerung عندما يعمد (فوطان Wotan) الى اضرام النار به (فالهاالا Valhala) بعد كل الاهوال ومصائب الدهر التي عاناها، فتلتهمه السنة اللهب وهو في سكرة من إهلاك متعمد للنفس. كل ذلك كان يفتن العقل الألماني ويخلب لبّه ويلقى صدى حنين مريع في الروح الألمانية. هؤلاء الأبطال، وهذا العالم البدائي الشيطاني كانوا دائماً "في روح الشعب" على حدّ قول (ملّ) بالحرف الواحد. إنه ليلمس في تلك الروح الألمانية لمساً؛ الكفاح بين روح المدنية وروح ال(نيبلونگن). وفي الزمن الذي يهتم به تاريخنا هذا بدأت الروح الأخيرة هي الغالبة. ولم يكن بعجيب أن راح هتلر يحذو حذو (فوطان) عندما شاء تدمير ألمانيا في ١٩٤٥. حتى تهوي معه وألسنة النيران تلتهمها.



شوبنهاور



نيتشه

وفاكتر العبقرى الشامخ الفنان الذى لم يبلغ أحد شأوه، يعنى لهم ما يزيد كثيراً عما ذكرنا آنفاً. إن الصراع فى "أوبرات الخاتم" كثيراً ما يدور حول الشهوة إلى الذهب التى جعلها الموسيقى معادلة لمأساة "الرأسمالية الحديثة" التى يراها والفرع يتملكه- كأنما تريد القضاء على كل الفضائل المنحدرة من الأيام الحالية. ورغم حشده كل هؤلاء الأبطال الوثنيين، لم ييأس تماماً من النصرانية كما يئس (نيتشه*)، ولم تأخذه رافة أو حنان بالعنصر البشرى الكثير الأخطاء المعرّم بالقتال. على أن هتلر لم يكن مخطئاً بالمرّة حين قال: على المرء أن يفهم فاكنر حتى يفهم النازية.

عرف فاكنر (شوبنهاور** Schopenhauer) ومن بعده نيتشه وتأثر بهما وإن خاصمه ثانيهما لأنه رأى أوبراته ولاسيما أوبرا "پرسيفال Parsifal" تفصح عن انكار للنصرانية فاق كل الحدود. وفى مسرى حياته الطويلة العاصفة إتصل فاكنر برجلين آخرين أحدهما فرنسى وثانيهما انكليزى، وكلاهما على جانب من الأهمية لتاريخنا هذا. لا بسبب التأثير الذى خلفاه فى الموسيقى [وإن كان عميقاً فى مناسبة واحدة] بل لأثرهما على العقل الألمانى مما ساعده على التوجه إلى ناحية البشارة بمقدم الرايخ الثالث.

* فريدريك نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠) فيلسوف ألمانى ناقد للمسيحية. أشتهر بكتابه "هكذا تكلم زرادشت" وخرج للعالم بنظرية السوبرمان (الإنسان الكامل) الذى تسيّره إرادة القوة. أسىء تقديم آرائه كثيراً ولاسيما من قبل النازيين، وأتخذت آراؤه لتبرير مفاهيمهم بخصوص تفوق الإنسان الأرى.

** آرثر شوبنهاور (١٧٨٨-١٨٦٠) فيلسوف ألمانى أشتهر بنظريته فى "مبدأ الإدارة" والتشاؤم المنظم. أثرت أفكاره فى نيتشه.

هذان الشخصان هما الكونت جوزف آرثر دي كوينو De Gobineau وهو دبلوماسي وأديب فرنسي، وهيوستن ستبورات چمبرلين Houston Steuart Chamberlain أغرب انكليزي عاش في هذه الدنيا. لم يكن أي من الرجلين دعيًا أجوف فكلاهما لودعيان واسعا الاطلاع عميقا الثقافة، بتجارب كثيرة من معاناة الأسفار والحلّ والترحال. ومع هذا فقد صنفا قوانين عنصرية فيها من الزيف والافتراء ما لم يدع أحداً في العالم حتى مواطنيهم يأخذ أقوالهما مأخذ الجد باستثناء الأمة الألمانية وحدها. لقد باتت نظريتهما الكثيرة المطاعن انجيباً للنازيين ولعلنا لا نبالغ ان قلنا - كما سمعته من أكثر من تابع لهتلر- أن چمبرلين هو المؤسس الروحي للرايخ الثالث. هذا الانكليزي العجيب الذي وجد في الألمان الشعب المختار وأمل المستقبل البشري، أحبّ (فاكنر) حبّ عبادة وتزوج إحدى بناته فيما بعد. وأكبر شخصية قلّهم الثاني أولاً ثم هتلر أخيراً وكان معلم الإثنين. وتمكن في أواخر حياته العجيبة من تحية نائب العريف النمساوي قبل وصوله الى دست الحكم، وقبل أن يتوقع له أحد تقدماً أو يتوسم فيه أملاً سياسياً بوقت طويل. حيّاه بوصفه رسول الله لقيادة الشعب الألماني واخراجه من التيه. فكان طبيعياً أن يرى هتلر في چمبرلين نبياً. كما اثبت بالدليل.

ماذا في تعاليم هذين الرجلين من آراء لقحت الألمان بلوثة من الجنون في مسألة العرق ومصير ألمانيا؟

كان أثر (كوينو) الأعظم كتاباً بأربعة مجلدات نُشر في باريس ما بين السنوات ١٨٥٣ و ١٨٥٥ بعنوان "رسالة في عدم التساوي بين الاجناس البشرية Essai sur l'Inegalite des Races Humaines" ومن سخرية القدر أن هذا الارستقراطي الفرنسي بعد ان خدم ضابطاً في الحرس الملكي، بدأ حياته العامة بوظيفة رئيس سكرتيري Chef de Cabinet لألكسيس دي توگڤيل Alexis de Tocqueville عندما قضى هذا الكاتب الأشهر مؤلف كتاب "الديمقراطية في أمريكا" فترة قصيرة في الوزارة في ١٨٤٨. وبعدها سافر الى هانوفر وفرانكفورت بوظيفة (دبلوماسية). ومن مخالطته الألمان لا من عمله مع (توگڤيل) استمد نظرياته في التفاوت العرقي، على انه اعترف مرة أن من أسباب تأليف كتابه هو البرهان على تفوق أسلافه الارستقراط.

يرى (كوينو) - كما ذكر في تقديمه الكتاب الى ملك هانوفر، ان مفتاح التاريخ والحضارة هو العرق. "مسألة العرق تسود كل مشاكل التاريخ الأخرى... إن التفاوت العرقي كاف لتفسير كل مظاهر مصائر الشعوب". وهنالك ثلاثة عروق رئيسية: الأبيض والأصفر والأسود. والأبيض هو الأعلى وزعم "أن التاريخ يبرهن على ان العرق الأبيض هو مصدر المدنية ولم تقم حضارة ولن تقوم بدون تعاون هذا العرق". ودرة العرق الأبيض هو الجنس الآري "تلك الأسرة البشرية الممتازة، الأشرف بين العرق الأبيض التي نبعت أصولها من أواسط آسيا". ثم يقول: لسوء الحظ يعاني الآري المعاصر من الاختلاط العرقي مع اجناس أخط منه كما يجد المرء في جنوب أوروبا في أيامه. على ان الآريين ما زالوا يعيشون عرقاً ممتازاً وإن كانوا بعيدين عن النقاوة - في الشمال الغربي من أوروبا فوق الخط الممتد تقريباً على طول نهر السين وشرقي سويسرا. ويشمل هذا بعض الفرنسيين، والانكليز كلهم

والايرلنديين، وسكان الأراضي المنخفضة والراين وهانوفر والاسكنديناقيين. ويبدو من هذا أن (گوبينو) أخرج الجزء الكبير من الألمان الذين يعيشون شرق هذا الخط وجنوبه الشرقي وهو ما تغاضى عنه النازيون وتجاهلوه عندما اعتنقوا تعاليمه.

ورغم ذلك يرى (گوبينو) أن الألمان - أو على الأقل الألمان الغربيين هم خير الآريين. وهذا الاكتشاف لم يَغضِ النازيون عنه الطرف. ولقد وجد ان التقدم كان يسير في ركاب الألمان أنى حلوا. وهذا يصدق حتى في الإمبراطورية الرومانية فهؤلاء الذين أطلق عليهم قبائل الجرمان البرابرة الذين تغلبوا على الرومان وقوضوا إمبراطوريتهم أَدَوْا بعملهم هذا خدمة جليلة للحضارة لأن الرومان في القرن الرابع الميلادي باتوا لا أكثر من هجناء متفسخين في حين كان الجرمان آريين خلصاً نسبياً. واستطرد يقول "إن الآريين الألمان هم مخلوقات شديدة القوة... وكل ما يفكرون ويقولون ويعملون، ذو أهمية كبيرة".

وراجت آراء گوبينو في ألمانيا بسرعة. واعتنقها (فاگنر) وتحمس لها وكان قد التقى بالفرنسي في العام ١٨٧٦ وهو في أراذل عمره (توفي في ١٨٨٢). وما لبث أن خرجت (جمعيات گوبينو) الى الوجود في كل بقعة من ألمانيا ولم تقم واحدة في فرنسا.

-٤-

حياة "چمبرلين" العجيبة وكتاباتهِ الغريبة

من بين الأعضاء المتحمسين لجمعية (گوبينو) بألمانيا، (هيوستن ستيورات چمبرلين). الذي مثلت حياته وكتاباتهِ واحدة من اروع النكات المضحكة في مجرى التاريخ القاسي الذي أدى الى قيام وسقوط الرايخ الثالث.

هذا الإبن، سليل أحد أمراء البحر الانكليزي وإبن أخ الفيلد مارشال الانكليزي السر نجيل چمبرلين Sir Neville Chamberlain، وجنرالين انكليزيين آخرين، ثم صهر (ريشارد فاگنر)، ولد في ١٨٥٥ في پورتسموث. وكان مقرراً دخوله في سلك الجيش أو البحرية البريطانية لكن سقم بدنه حال دون تحقيق تلك النية ونال تعليمه في فرنسا وجنيف حيث أصبحت الفرنسية لغته الأولى. وتعرّف صدفة فيما بين الخامسة عشرة والتاسعة عشرة من عمره على صديقين ألمانين ومنذ ذلك الحين فصاعداً راح ينجذب الى ألمانيا بدافع لا يقاوم. حتى أصبح أخيراً مواطناً ألمانياً واحداً من مشاهير مفكرها، كتب بلغتها كل كتبه العديدة وكان لطائفة كبيرة منها تأثير أعمى على قلهم الثاني وأدولف هتلر وما لا يحصى من الألمان الأقل مركزاً وشأناً.

في ١٨٧٠ وجد چمبرلين نفسه وهو في الخامسة عشرة بين يدي مربٍ شهير اسمه (أوتو كونتز Otto Kantze) وهو پروسي شديد التعصب للبروسية ظلّ هذا طوال أربع سنين يطبع في دماغ الفتى المستوفز المستوعب وفي نفسه الحساسة أمجادَ پروسيا المحاربة الفاتحة وأيضاً -دون اكتراث للتناقض- دروساً

عن الفنانين والشعراء أمثال بيتهوفن وگوته (وشيللر وفاگنر) وفي التاسعة عشرة تولّاه جمبرلين بحبّ (آنا هورست Anna Horst) وهي بروسية تكبره بعشر سنوات وتشكو مثله علة عصبية شديدة. ونزح الى (بيروث) في ١٨٨٢ من (جنيف) وله من العمر سبعة وعشرون، بعد ان غرق ثلاث سنين في دراسات الفلسفة والتاريخ الطبيعي والفيزياء والكيمياء والطب. وفي (بيروث) التقى (ففاگنر) الذي الذي أصبح شمس حياته على حدّ قوله. وكذلك عرف (كوزيما Cosima) زوج الموسيقار التي ظلت موضع إخلاصه وحبّ العظیم بقیة أيام حياته. وأصبح ألمانياً فکراً ولساناً عندما ذهب هو (وآنا هورست) زوجه ليسكن (درسدن) في ١٨٨٥. وليقضي فيها أربعة أعوام. ثم نزح الى فيينا في ١٨٨٩ وبقي فيها عشر سنوات. وأخيراً عاد الى (بيروث) في ١٩٠٩ حيث توفي في ١٩٢٧. طلق زوجته المعبودة البروسية في ١٩٠٥ عندما كان يبلغ الستين وقد زادت علتها البدنية والعقلية وطأة (كان الطلاق مؤلماً له حتى كاد يقضي عليه - كما قال) وبعد ثلاث سنوات تزوج (إيفا فاگنر) واستقر بالقرب من (فانفريد) ليكون لصيقاً بأمر زوجته. لقد كان عظیم الإحترام لـ (كوزيما) القوية الإرادة. كان جمبرلين المريض بالأعصاب والشديد الحساسية يتعرض لكثير من نوبات الإنهيار العصبي، "يرى شياطين وجناً تدفعه بلا هوادة الى البحث عن ميادين جديدة للدراسة، والمضي قدماً في كتاباته الضخمة" على حدّ قوله. وكانت الرؤى بعد الرؤى تدفعه دفعاً من التحول عن البيولوجي الى علم النبات الى الفنون الجميلة الى الموسيقى، الى الفلسفة، الى علم السيرة الى التاريخ، ومرة في ١٨٩٦ بينما كان عائداً من إيطاليا ركب شيطان فريد وظلّ يشد عليه شداً عنيماً حتى اضطره الى ترك القطار في محطة گاردوني Gardone واغلق عليه باب غرفته في الفندق ثمانية أيام بطولها تاركاً عملاً موسيقياً كان يفكر فيه، وراح يكتب كالمحموم في رسالة حول علم السيرة حتى وصل الى جرثومة الموضوع الذي قدّر له أن يسيطر على كل كتاباته التالية ألا وهو "العرق والتاريخ".

مهما كانت عيوب جمبرلين، فان دماغه المتشعب الاطراف ضرب بسهم وافر من الأدب والموسيقى والبيولوجيا وعلم النبات وعلوم الدين والتاريخ والسياسة. وكما قال "جان رايال Jean Real^(٣٦)" هناك وحدة إلهام عميقة الغور في كل كتبه المطبوعة ويتجلى فيها تناسق ومطابقة فائقة. منذ أن شعر بملاحقة الشياطين وهو يدون كتبه عن (فاگنر وگوته)، وكانت، والنصرانية والعرق في سعار من حمى عنيفة وفي غيبوبة فعلية وحالة سُكر تفقده الوعي تماماً دون أن يبين لها أثر خارجي حتى أنه لا يكون قادراً في كثير من الأحيان (كما ذكر في سيرة حياته) Lebenswege. على تذكر كتابته إياها لأنها فاقت حدود تصوره إن عقولاً أكثر إتزاناً من عقله نقضت كل نظرياته في العرق وأغلب نظرياته التاريخية فيما بعد. ووجد الباحث الفرنسي في "الألمانيات" إدmond Vermeil، أن آراء جمبرلين، في أساسها ضحلة "Shoddy"، في حين أن كاتب السيرة الهتلرية الألماني (كونراد هايدن) المعادي للنازية الذي كان شديد الأسف لتأثير تعاليمه العرقية، يرى جمبرلين "واحداً من أعجب الموهوبين في تاريخ الفكر الألماني... منجم للمعرفة، والآراء العميقة".

٣٦ - انظر دراسته عن جمبرلين في كتابه "الرايح الثالث" طبعه Bauman, Fried and Yermel.



القيصر فلهلم الثاني

إن الكتاب الذي اثر في هذا الاتجاه من العقل الألماني اعمق تأثير، وهلل له (فلهلم الثاني) وكبير، وزود النازيين بضلالاتهم العرقية هو "أسس القرن التاسع عشر - Grundlagen des Neuzehnten Jahrhunderts" ويقع في زهاء ألف ومائتي صفحة. كتبه جمبرلين في إحدى زورات واحد من "شباطينه" وركوبها بين كتفيه طوال تسعة عشر شهراً تقع بين (١) نيسان ١٨٩٧ و(٣١) تشرين الثاني ١٨٩٨ في فيينا. وقد طبعه في ١٨٩٩.

وجد (جمبرلين) مثل (كوبينو) الذي اعجب به - أن مفتاح التاريخ، أو بالأحرى أسس المدنية تكمن في العرق. ولشرح اوضاع القرن التاسع عشر، أعني الدنيا التي يعيش فيها - على المرء أن يتأمل أولاً فيما خلفته له القرون الخالية. قال جمبرلين انها ثلاثة: فلسفة الاغريق وفنونهم، والشريعة الرومانية، وشخصية المسيح. وهنالك ايضاً ثلاثة ورثة: اليهود

والألمان "وهما الجنس النقيان" والجنس المؤبد: وهم لاتين البحر الابيض المتوسط الذين هم "فوضى من الشعوب" كما اطلق عليهم. والألمان وحدهم المستحقون هذا التراث العظيم، الحق يقال أنهم دخلوا التاريخ متأخرين (ليس قبل القرن الثالث عشر) لكنهم حتى بتقويضهم الإمبراطورية الرومانية قبل ذلك، قدموا الدليل على قيمتهم، وهو يقول: "ليس صواباً القول أن البربرية التيوتونية آذنت بقدوم ما يطلق عليه (ليل العصور الوسطى)؛ فهذا الدليل كان نتيجة حتمية للإفلاس الخلقي والثقافي الذي آلت اليه الإنسانية السابحة في فوضى اللاعرقية، مما غذته الإمبراطورية الرومانية المحتضرة. ولولا التيوتون لحيم على العالم ليل بهيم أبدي". ووجد وقت كتابته هذا. أن التيوتون هم الأمل الوحيد للعالم. وأدخل جمبرلين الى أسرة (التيوتون) الكلتيين Celts والسلافي، إلا أن (التيوتون) هم اهم عنصر. على أنه كان كثير الغموض في تعاريفه. وصرح في إحدى المواقف "كل من يتصرف تصرف التيوتون، فهو تيوتوني مهما كان أصله العرقي" ولعله كان يفكر هنا بأصله الألماني. ومهما كان التيوتوني "فهو روح مدنيتنا. ان أهمية كل قومية بوصفها قوة عاملة في يومنا هذا، تعتمد على نسبة الدم التيوتوني الخالص الموجود في ابنائها... الحق يقال أن التاريخ يبدأ في اللحظة التي يضع التيوتوني قبضته الحاذقة فوق تراث العصور الغابرة."

وماذا عن اليهود؟ خصهم المؤلف بأطول فصل من كتابه "الأسس" فجمبرلين كما رأينا - يدعي أن اليهود والتيوتون هما العرقان النقيان الوحيدان الباقيان في الغرب. وهو يدين في فصله هذا "فكرة

معاداة السامية الحمقاء البغيضة. "ويقول ان اليهود ليسوا شعباً "منحطاً" بالنسبة الى التيتوتون بل هم مختلفون عنه ليس إلا. فلديهم أمجادهم الخاصة، وهم يدركون "الواجب المقدس" واجب الإنسان في المحافظة على نقاوة الدم. ومع هذا ففي أثناء قيامه على تحليل اليهود لم يشعر إلا وهو ينزلق في معاداة السامية بالفظاظة المعهودة ناسياً أنه أدانها في الآخرين. مما أدى في النهاية الى بذات (يوليوس شترايخر) الكاريكاتورية عن اليهود في جريدته "دير شتورمر" أيام هتلر. والواقع أن كثيراً من القواعد "الفلسفية" المعادية للسامية تنبع من هذا الفصل.

سرعان وضحت آراء جمبرلين التي لا يقبلها العقل ويدت للملأ عارية. لقد صرح أن شخصية المسيح هي إحدى ثلاث تركت خلفها الأقدمون للحضارة الحديثة ومن ثم راح "يبرهن" على أن المسيح ليس يهودياً. فأصله الجليلي وعجزه عن النطق السليم بالعامية الآرامية، هي أدلة (جمبرلين) "الواضحة" أن دم المسيح فيه نسبة كبيرة من الدم اللاسامي". وبعد ذلك استخلص النتيجة القاطعة النموذجية: "من يزعم أن يسوع يهودي لا يعدو أن يكون إما غيباً أو كاذباً. فيسوع ما كان يهودياً".

فماذا كان إذن؟ يجيب جمبرلين على ذلك: لعله آري! إن لم يكن كذلك بالدم الخالص، فبسبب تعاليمه الأخلاقية والدينية بلاشك ولعارضته الشديدة للمادية والصورية الذهنية "abstract formalism" للدين اليهودي. فكان من الطبيعي -لجمبرلين على الأقل- أن يقوم المسيح "إلهاً للشعوب الهندوروبية الفتية التي تتدفق بالحياة" وبخاصة إله التيتوتون "إذ لا يوجد شعب آخر مثل الشعب التيتوتوني حسن التهيئة لسماع صوته الآلهي".

ثم تلا ذلك ما زعم أنه تاريخ مفصل للقومية اليهودية منذ أيام امتزاج الساميين أو بدو الصحراء بالحشيين ذوي الرؤوس المستديرة الذين لهم "انف يهودي" وأخيراً مع العموريين الذين هم آريون. ولسوء الحظ إن الهجين (يقول أن العموريين كانوا طوال القامة شقراً ضخام البنية) جاء متأخراً جداً لتحسين العرق العبراني المتحلل تحسناً حقيقياً. ومن هنا فصاعداً يروح الانكليزي ينقض نظريته كلها عن نقاوة الأمة اليهودية فيرى أنهم أصبحوا عرقاً "سالباً" "نغلاً". لذلك كان الآريون محقين في "إنكار" إسرائيل. وهو في الواقع يدين الآريين لإكسائهم "هالة من المجد الزائف" ثم يجد اليهود "يفتقرون الى الدين الحق افتقاراً اليماً".

وطريق الخلاص في اعتقاد جمبرلين هي بالتيتوتون وبشقاقتهم ومن التيتوتون كان الألمان أسماهم وارفعهم شأناً لأنهم ورثوا خير فضائل الاغريق والهندوروبيين. وهذا ما يمنحهم حق السيادة على العالم "أن الله يبني صرح اليوم على الألمان وحدهم... هذه هي المعرفة، الاكيدة والحقيقة التي أفعمت بها روحي عدة سنين".

خلق نشر "أسس القرن التاسع عشر" شيئاً يشبه الضجة. وأصعد الانكليزي الغريب الى عالم الشهرة فجأة في ألمانيا. ومع غلبة الفصاحة عليه، وأسلوبه المحكم -لأن جمبرلين كان أديباً فناناً مطبوعاً- فقراءته ليست سهلة. لكن سرعان ما تخاطفته ايدي الطبقة العليا التي بدت وكأنها وجدت فيه ما نشدت الأيمان به وبلغت طبعاته ثمانية خلال عشر سنوات وبيع منه ستون ألف نسخة وفي أيام

نشوب الحرب العظمى الأولى ١٩١٤. كان ما بيع منه مائة ألف. وراج ثانية في عهد النازية واتذكر إعلاناً عن الطبعة الرابعة والعشرين منه في ١٩٣٨. في هذا التاريخ وصل ما بيع منه أكثر من ربع مليون نسخة.

ومن أول قرائه وأكثرهم تحمساً، القيصر فلهم الثاني. فقد دعا (جمبرلين) الى قصره في (پوتسدام) وتوثقت من أول مقابلة بينهما عرى صداقة استمرت حتى نهاية حياة المؤلف ١٩٢٧. وتواصل مراسلات طويلة فيما بعد. وكان بعض الرسائل الثلاث والأربعين التي وجهها جمبرلين للقيصر (أجاب فلهم على ثلاث وعشرين منها) مقالات أو مواضيع مسهبة استخدمها الإمبراطور في عددٍ من خطبه الرنانة وتصريحاته الطنانة. وكتب القيصر في إحدى رسائله اليه "إن الله هو الذي أرسل كتابك الى الشعب الألماني وأرسلك اليّ شخصياً". كان تذلل (جمبرلين) ومبالغته في المداينة والملق مما يصيب المرء بالقيء. كتب يقول "إنك يا صاحب الجلالة وشعبك قد ولدتما في هيكل مقدس"، وأخبر فلهم بأنه وضع صورته في مكتبه مقابل صورة المسيح للرسام (ليوناردو) حتى اذا ما قام يتمشى كما اعتاد أن يفعل أثناء العمل، فانه يروح ويغدو بين صورتَي مخلصه وملكه.

ولم تمنعه عبوديته من عرض النصائح باستمرار على الملك الصلب الرأس الشديد الغرور. وفي ١٩٠٨ بلغت المعارضة العامة لفلهم ذروتها مما ألجأ الرايخشتاغ الى منعه من التدخل السيء النتائج في الشؤون الخارجية. إلا أن جمبرلين نصح الإمبراطور بأن الرأي العام يكوّنه البُلّه والخونة وعليه ألا يكثر به، فما كان من فلهم إلا أن اجاب أن كليهما سيقفان معاً "انت تشرع قلمك، وأنا لسانِي [و] سيفي العريض".

وظلّ الانكليزيّ يذكر الإمبراطور برسالة ألمانيا ومصيرها فكتب له بعد نشوب الحرب العالمية الأولى "ما ان تجمع ألمانيا السلطان في يدها - ولنا ان نتوقع ذلك بكلّ ثقة- حتى يتحتّم عليها البدء في تطبيق السياسة العلمية للعبقريّة. لقد اضطلع (اغسطس) بمهمة تغيير العالم بقواعد تنظيمية، وعلى ألمانيا ان تفعل المثل... مجهزة بأسلحة دفاعية وهجومية، منظمة تنظيم الجيش الدقيق المتراص البنيان. متفوقة على الجميع في الفن والعلم والتكنولوجيا والصناعة والتجارة والمال، في كل حقل، وبالاختصار، معلمة وقائدة دفة، ورائدة للعالم، كلّ رجلٍ في مجال عمله، كل رجل يقدم أقصى ما يمكن بذله للقضية المقدسة- وهكذا... ستفتح ألمانيا العالم بتفوقها الذاتي".

ولتبشيره بهذه الرسالة المجيدة لوطنه المتبنّي (أصبح متجنساً بالجنسية الألمانية ١٩١٦) في منتصف فترة الحرب. قلّده القيصر وسام الصليب الحديديّ.

لكن أثر هذا الرجل الانكليزي على الرايخ الثالث كان الأكبر والأعمق مع انه لم يكتحل بمراه. فقد مات قبل قيامه بست سنوات على انه تبنّا به، واخذ عنه النازيون نظرياته العرقية واحساسه الملهب برسالة الألمان وألمانيا وعظموه كنبّي من انبيائهم. وانصبّت الكتب والكراريس والمقالات أيام حكم النازيين من المطابع تمجّد "المؤسس الروحي" لألمانيا القومية الإشتراكية. وحاول (روزنبرگ) كثيراً بوصفه أحد مثقفي هتلر، إظهار إعجابه وتحمسه للفيلسوف الانكليزي أمام (الفوهرر). ومن المحتمل

أن أول معرفة هتلر بكتابات چمبرلين كان قبل نزوحه الى فيينا ، لأنها كانت منتشرة بين الألمان الودويين Pan Germanis والجماعات المعادية للسامية التي انكب يلتهم أدبياتها بشراهة في أيامه الأولى تلك ، ومن المحتمل أيضاً أنه قرأ بعض مقالاته الشوفينية أثناء الحرب. وظهر في (كفاحي) أسفه لأن آراء چمبرلين لم تعط ما تستحق من الإهتمام أثناء قيام الرايخ الثاني. كان چمبرلين واحداً من أوائل المثقفين في ألمانيا الذين توقعوا مستقبلاً عظيماً لهتلر وفرصاً جديدة للألمان إن تبعوه. لقد إلتقى هتلر به في (بيروث) ١٩٢٣ ومع انه كان مريضاً نصف مشلول تشيع في نفسه الخيبة من جراء هزيمة ألمانيا وسقوط إمبراطورية آل هوهنزولرن وفيها إنهيار كل آماله وبطلان كل نبؤاته!- ما كان منه إلا أن استوى قائماً على رجليه بتأثير بلاغة النمساوي الشاب. وأسرع يكتب اليه في اليوم التالي: "ستقوم بأعمال خارقة... لم يهتز إيماني بالجرمانية لحظة واحدة وان كان أملي - وأنا أقر بهذا- قد تدنى الى الحضيض... بضرية واحدة أحدثت تغييراً تاماً في حالتي الروحية. ان ألمانيا برهنت على حيويتها الدفاعة بولادتها هتلراً في اشد وقت من اوقات الضيق. كما تفعل المؤثرات التي تنبثق منه، ان هاتين الشعبيتين (الشخصية والتأثير) تعودان إحدهما الى الأخرى... واني لأرجو من الله ان يردك!"

جرى هذا في وقت كان أدولف هتلر، بشارب شارلي شابلن، وطباعه العريضة وتطرفه العنيف المستهجن، يعتبر مسخرةً ودعاية عند معظم الألمان. لايلتف حوله إلا قليل من الأعوان. إلا ان مغنطيسية شخصيته الجاذبة عملت عمل السحر في الفيلسوف الشيخ وجددت إيمانه في الأمة التي اختارها واشاد بها. وأصبح چمبرلين عضواً في حزب النازي الوليد وبدأ يكتب بقدر ما سمحت له حالته الصحية- لمنشوراته الخاملة. وفي إحدى مقالاته المنشورة في ١٩٢٤ حياً هتلر الذي كان آنذاك سجيناً ووصفه بقدر الله الذي أرسله لقيادة الشعب الألماني. القدر اختار فلهم الثاني لكنه اخفق، والآن ها هنا أدولف هتلر. احتفل بالميلاد السبعين لهذا الانكليزي الشهير في ٥ أيلول ١٩٢٥ بافتتاحية تتألف من خمسة اعمدة في جريدة (فولكشر بيوباختر) النازية ووصفت كتابه "الأسس" بأنه "انجيل الحركة النازية" وبعد ستة عشر شهراً أسجي في قبره (١١ كانون الثاني ١٩٢٧) مفعماً بأعرض الأمال في أن ما بشر به وتنبا، سيكتب له التحقيق بالهدي الإلهي لهذا المسيح الألماني الجديد.

كان هتلر الشخصية الشهيرة الوحيدة التي حضرت جنازة چمبرلين الى جانب أحد الأمراء ممثلاً عن القيصر فلهم الثاني الذي لم يكن يستطيع العودة الى الارض الألمانية. وذكرت (فولكشر بيوباختر) في خبر نعي الانكليزي أن الشعب الألماني فقد "واحداً من أعظم صانعي السلاح. لم تستخدم بعد أسلحته استخداماً كاملاً حتى يومنا هذا" وما كان ليتسنى قط لا للشيخ نصف المشلول الذي يعاني سكرات الموت ولا حتى لهتلر نفسه ولا لأي شخص آخر في ألمانيا أن يتكهن في ذلك الشهر الغائم كانون الثاني ١٩٢٧ عندما كانت أحوال الحزب النازي قد تردت وسقت الى الحضيض^(٣٧)، كم سيكون

٣٧- إن البحث ابتداءً من چمبرلين حتى فخته وهيكل مبني على آثار المؤلفين وعلى بعض التفاسير والمقتبسات من =

سريعاً وسريعاً جداً إستخدام تلك الاسلحة التي زيفها هذا الانكليزي الذي نما في تربة غير تربة اجداده. وكم سيبلغ إستخدامها من اتقان وكمال، بل اية نتائج مريعة كان سيسفر عنه إستخدامها. على ان هتلر كان يحسّ احساساً دفيناً برسالته في العالم، ذلك الحين أو قبله. فكتب يقول "من ملايين الرجال... رجل واحد يجب ان يبرز الى أمام، رجل يبني بالقوة الغاشمة apodictie مبادي في صلابة الصخر الصواني من مُثُل العالم المتخاذلة لأوسع الجماهير ويضطلع بأمر الكفاح في سبيل تصحيحها ليخرج من الموج السريع للفكر العالمي الحر جرف صخري اشم للوحدة المكنية في الإرادة والإيمان^(٣٨).

ولم يترك شكاً في عقول قرائه بأنه يعتبر نفسه ذلك "الرجل الواحد". و(كفاحي) مطرّز بمقالات صغيرة عن دور العبقري الذي اناطت به العناية الإلهية قيادة شعب عظيم وانتشاله من متاعبه والوصول به الى المجد المؤثل. وان لم يفهمه ذلك الشعب في مبدأ الأمر أو يقدر قيمته. ويدرك القاريء بهذه العبارة الأخيرة أن هتلر انما يشير الى حالته الزرية آنذاك فالعالم لم يعرفه بعد على حقيقته. لا بأس، فهذا هو حظّ العباقة في مبدأ حياتهم دائماً. ومن الضروري أن يوجد مؤثر من المؤثرات لدفع العبقري الى المسرح وعندئذ تبدأ مقاومة العالم ويأبى أن يؤمن بأن النوع الذي يلائمه في الظاهر انما هو كائن مختلف جداً حتى يجد ذلك فجأة. وتلك هي الحكاية نفسها تتكرر عند كل عظيم من بني الإنسان... إن شرارة العبقريّة هي في دماغه الخلاق الحقيقي منذ ساعة ميلاده، والعبقري الأصيل هو عبقري بالفطرة ولا يكسب عبقريته بالتثقيف والعلم^(٣٩).

أما من ناحية الكيف والنوع فيرى أن الرجل العظيم صانع التاريخ هو "مزيج من السياسي الواقعي والمفكر" يتفق في فترات طويلة من تاريخ البشرية ان يحصل إندماج في شخصية السياسي والنظري. وكلما ازداد إندماجهما عمقاً كلما كثرت العوائق التي تعترض سبيل السياسي وهو لا يعود يعمل للحاجات التي يفهمها أول (بقال) جيد لكنه يعمل لأهداف لا يفهمها إلا النزر اليسير من الناس. لذلك توزعت حياته بين الحب والبغض. إن معارضة الحاضر الذي لا يفهمه انما هو كفاحه في سبيل

= جمهرة من الكتاب مثل "الفلسفة الألمانية وسياستها" بقلم جون ديوي John Dewey، و"الكارثة الألمانية" بقلم فردريك وينغ و"حلّ المسألة الألمانية" بقلم فلهم رويكه، و"تاريخ الفلسفة الغربية" بقلم برتراند رسل وكتاب "هكذا تكلم زرادشت" طبعة" و. و. كول W. W. Coole "و.م. ف. بوتنر M. F. Potter. "و. والرايخ الثالث نشره باومنت فريد وفريمي. و"القومية الألمانية: مأساة شعب" بقلم لويس شنايدر Snyder و"التاريخ الألماني: نظرات جديدة عامة" نشره هانس كohn Hans Cohn. و"قيام وانحلال النازية الألمانية" بقلم "ت. ل. يارمان T. L. Jarman. و"الفوهرر" بقلم كونراد هايدن. و"مسرى التاريخ الألماني" لتاييلور. و"ألمانيا المعاصرة" بقلم آدموند فريمي. و"تاريخ ألمانيا" بقلم هرمان بينوف. ودراسة "ي.ايك E. Eayck"، "بسمارك والإمبراطورية الألمانية"، قيمة جداً في هذا الصدد. إن ضيق المجال في كتاب مثل هذا حال دون بحث تأثير عدد من المفكرين الألمان في قيام الرايخ الثالث. وكانت كتاباتهم معروفة واسعة الانتشار مثل: شليگل Schlegel وج. كويرس J. Coerres ونوفالس Novalis وارندت Arndt ويان Jahn ولاغارد La-garde وليست ودرويسن Droyson ورانكه ومومسن Mommsen وقسطنطين فرانتر وشتيوكر Stoecker وبرنهاردت كلاوس فاكنر Bernhardt Klaus Wagner ولانكين Langbehn ولانغ Lang وشينغلر.

٣٨- كفاحي ص ٣٨١.

٣٩- المرجع السالف ص ٢٩٣.

اعتراف الجيل الآتي به وهو الهدف الذي يعمل له ذلك الرجل وهكذا كلما عظمت أعمال الرجل لأجل المستقبل كلما قل فهم الحاضر لتلك الأعمال فاشتد في قتاله صلابة وعنفاً^(٤٠).

كتبت هذه الأسطر في العام ١٩٢٤ حين كانت قلة من الناس تعلم ما يجول في رأس الرجل وهو نزول السجن يجرّ أذيال الخيبة، وخمول الصيت بعد اخفاقه في مؤامراته. تلك الأوبرا الهزلية! غير أن ثقته بنفسه لم تتزعزع وشكه في صدق رسالته لا مكان له. ونحن لاندرى أقرأ لـ(هيغل) أم لا، لكن يتضح جداً من كتاباته وخطبه أنه كان واقفاً على شيء من آراء هذا الفيلسوف. هذا إن ظلّ قانعاً بما كسبه منها خلال احاديثه مع معلميه الأوائل (روزنبرگ وإيكارت وهيس) ولم يزد عليها. غير أن دروس (هيغل) الشهيرة في جامعة برلين لابدّ استرعت إهتمامه كما وأنه اقتبس ما لا يحصى من أقوال (نيتشه) الفيلسوف الألماني.

كنا فيما سلف، قد اتينا باختصار على مصادر نظرية (هيغل) في الأبطال تلك النظرية التي سحرت العقل الألماني. كان قد شرح في أحد دروسه الجامعية ببرلين كيف ينجز "أفراد التاريخ العالمي" إرادة روح العالم قال "قد يسوغ تسميتهم (بالأبطال) ما داموا يستمدون غاياتهم ودعاوهم لا من السبيل المنتظم الهاديء للأشياء التي اقرها النظام الحالي بل من الواجهة المخفية من الروح الدفينة التي ما تزال كامنة تحت السطح تطلع impisge على العالم الخارجي قشرة وتنفجر الى شظايا. كذا كان الاسكندر وقيصر وناپوليون رجالاً سياسيين عمليين. الا انهم كانوا في الوقت نفسه أناساً مفكرين ذوي بصيرة نافذة في متطلبات العصر الناضجة للتطور. تلك هي الحقيقة نفسها لعصرهم ولدنياهم... ومن شأنهم وحدهم أن يعرفوا هذا المبدأ الأولي، الضرورة، الخطوة المباشرة التالية في النجاح. انها دنياهم التي يأخذونها أخذاً وان يجعلوا ذلك هدفهم وأن يوقفوا نشاطهم على تطويرها. رجال التاريخ العالمي، أبطال عصر من العصور. يجب والحالة هذه أن ينظر اليهم باعتبارهم رجالها الواضح التفكير، وأعمالهم وكلماتهم هي خير ما في أزمانهم^(٤١).

لاحظ المشابهة بين هذه الفقرة والمقتبس الذي سبقها من (كفاحي)، اندغام السياسي والمفكر الذي يولد بطلاً "شخصية التاريخ العالمي" الإسكندر، قيصر، ناپوليون إن وجد فيه هذا الازدواج الذي كان فيهم وهو ما أصبح هتلر على اتم الثقة منه. فلماذا لا يصبر الى أن يدخل في عدادهم؟

في أقوال هتلر توجد نغمة سائدة وهي ان الزعيم الأعلى وهو فوق أخلاق الإنسان العادي وهذا هو تفكير (هيغل) ونيتشه أيضاً وقد رأينا فكرة (هيغل) "ان الفضائل الخاصة" و"الحقوق الأخلاقية المزعومة" يجب ألا تقف في طريق الحكام العظام وان لاتغلب الصّفرء عليهم إن وطئوا الأبطال أو "سحقوا" كثيراً من الأزهار البريئة وهم في طريقهم الى مصائرهم. أما (نيتشه) فقد ذهب الى أبعد من هذا كثيراً في مبالغته الغريبة:

"يتخذ الرجل القوي السيّد، ذلك الضمير النقي للوحش المفترس، الوحوش مملوءة فرحاً اذ تعود بعد

٤٠- المرجع السالف الص ٢١٢-٢١٣.

٤١- (هيغل) دراسات في فلسفة التاريخ الص ٢١-٣٢. اقتباس بوللوك، المرجع نفسه ص ٣٥١.

متواليات مخيفة من القتل والحرق والاغتصاب والتعذيب بالفرح نفسه في قلوبها، بالرضى نفسه في أنفُسها كأنما هي منهمكة في مرح طالب مدرسة... عندما يكون المرء قادراً على إلقاء الأوامر، عندما يكون "سيداً" بطبيعته، عندما يكون عنيفاً في قوله وعمله، فما هي أهمية العهود عنده؟... إن اردنا الحكم على الأخلاق حكماً صحيحاً، فعلياً أن نستبدلها بمفهومين مستعارين من علم الحيوان: تدجين الوحش وتوليد نسل خاص^(٤٢).

هذه التعاليم التي بلغت غايتها القصوى بـ(نيتشه) ولهج بها عدد كبير من الألمان الأقل منه شهرة يبدو أنها استهوت هتلر^(٤٣):

عبقري ذو رسالة هو فوق الشرائع. لا يمكن أن تشدّه قيود الأخلاق "البرجوازية" لذلك فعندما تحين ساعة العمل يستطيع هتلر تبرير أقصى الأعمال وأشدّها وحشية ودموية، من خنق حرية الفرد الى ممارسة عمل السخرة الوحشي الى فظائع معسكرات الاعتقال الى المذبحة التي دبرها لأتباعه في حزيران ١٩٣٤ الى قتل اسرى الحرب، الى ذبح اليهود بالجملة.

عندما أطلق سراح هتلر من سجن لاندسبرگ قبيل عيد الميلاد بخمسة أيام (١٩٢٤) وجد وضعاً قد يضطر أي شخص آخر غيره الى الانسحاب من الحياة السياسية. فقد حلّ الحزب ومنعت مطبوعاته والزعماء السابقون يتناحرون فيما بينهم وابتعدون عن العمل، وحُظر عليه بالذات أن يخطب في الاجتماعات العامة والأنكى من هذا كله أنه كان يواجه مشكلة إبعاده الى وطنه النمسا. فقد اوصت الشرطة البارقارية توصية قوية بذلك في تقرير رفعته الى وزارة الداخلية. حتى العدد الكبير من رفاقه القدامى كانوا متفقين في الفكرة العامة وهي أن هتلر انتهى وسيضيع في زوايا النسيان كما ضاع الكثير من ساسة الأقاليم الذين استمتعوا بشهرة قصيرة الأمد أثناء سنوات القحط العجاف عندما بدا وكان الجمهورية ستختر على ركبتيها^(٤٤) متقوضة.

لكن الجمهورية صمدت للعواصف والأنواء، والآن بدأ يدبّ فيها الانتعاش. فأتنا ما كان هتلر في السجن استدعت الحكومة أحد السحرة الماليين وهو (الدكتور يلمار هوراس كريجلي شاخث Dr. Hjalmar Horace Greeley Schacht) لمعالجة استقرار العملة فنجح. وانتهى عهد التضخم المهلك. وخفف مشروع داوس Dawes عبء التعويضات عن البلاد، وبدأت رؤوس الأموال تتدفق من أمريكا. واخذ الإقتصاد الوطني يتماثل الى الشفاء بسرعة. وكان نجاح (شتريزمان) في سياسة التصافي مع الحلفاء مطرداً وشرع الفرنسيون يجلسون على الروهر ووضع في المداولة ميشاق ضمان قد يمهد الطريق الى تسوية

٤٢- وردت في [الرايخ الثالث] طبعة باومنت الص ٢٠٤-٢٠٥ من كتابي نيتشه "في الإرادة والقوة Der Wille Zur Macht" و"أسس الخلق Zur Genealogie der Morale".

٤٣- انظر ما سبق عن المقتبسات في كفاحي.

٤٤- في ١٩٢٩ كتب الأستاذ (م. ا. جيروثفول M. A. Gerth) ناشر يوميات اللورد دابرنون D'Abernon حاشية تعقيبية على مؤامرة مشرب البيرة. فبعد ذكره الحكم على هتلر بالسجن خمس سنوات اضاف يقول: "أخيراً أُخلي سبيله بعد ستة أشهر. مع عفو مشروط عن البقية وبهذا ضاع في زوايا النسيان" كان اللورد دابرنون السفير البريطاني في برلين من ١٩٢٠ حتى ١٩٢٦ وعمل بحذق عظيم لتقوية جمهورية فايمر.

أوروبية عامة في (لوكارنو Locarno) ودخول ألمانيا الى عصبة الأمم. ولأول مرة بعد الهزيمة، بعد ست سنوات من التوتر والفوضى والكساد بدأ الشعب الألماني يحيا حياة عادية هادئة. وقبل اخلاء سبيل هتلر بأسبوعين زادت أصوات الديمقراطيين الإشتراكيين -أو مجرمي تشرين كما يسميهم- بثلاثين بالمائة (ما يعادل ثمانية ملايين صوت تقريباً) في الإنتخابات العامة مما شد من أزر الجمهورية. أما النازيون الذين خاضوا الإنتخابات بقائمة موحدة مع جماعات قومية شمالية باسم "حركة القوميين الإشتراكيين للتحرر الألماني" فقد انخفضت أصواتهم من مليونين في ١٩٢٤ الى اقل من مليون في كانون الثاني. وبدت النازية كأنها تحتضر. كانت قد نمت نمواً طفيفاً على مصائب البلاد، والآن بدا مظهر البلاد وضاً لامعاً على حين غرة فاذا بالحركة تضمحل بسرعة أو هذا ما اعتقده أغلب الألمان والمراقبين الأجانب.

أما هتلر فلا! فهو ليس ممن يسلمون بالاخفاق بسهولة وهو يعرف كيف يصبر. عاد بمسك بخيوط حياته في شقته ذات الغرفتين في الطابق الأعلى من رقم ١٤ تيپر شتراسه بمونيخ طول أشهر شتاء ١٩٢٥ وبمجيء الصيف انتقل الى مختلف المشارب في (أوبرسالزبرگ) شمال برختسجادن. وأفادته تأملاته في الكوارث وفي الماضي القريب وكسوف شمس الحاضر لتقوية عزماته ليس غير. ووفر له سجنه وقتاً كافياً لتحليل ماضيه وإنتصاراته واخطائه، فضلاً عن ماضي شعبه الألماني المصطخب وإنتصاراته واخطائه وأصبح الآن يراها بشكل اوضح. وولد فيه مجدداً شعور محرق برسالته -لنفسه ولألمانيا- استبعدت منه كل الشكوك. وفي فورانه الروحي هذا، اكمل إملاء سيل من الالفاظ أصبحت الجزء الأول من (كفاحي) ثم اشفعها بالمجلد الثاني. مخطط لما دعاه اليه الله في هذا العالم المتلاطم ولفلسفة "الحياة" التي تحكمه وتحفظه، كل ذلك دُون في كتاب مطبوع لا يصعب على المرء أن يتأمل محتوياته. تلك الفلسفة مهما بلغت من الخيال، فلها جذورها العميقة في الحياة الألمانية كما رأينا. ربما بدا المخطط محالاً لأغلب عقليات القرن العشرين حتى في ألمانيا. إلا أنه يحوي ايضاً، منطقاً معيناً. أنه يعرض رؤيا ونبوءة. ويتقدم بإستمرارية التاريخ الألماني - وإن لم يتبين ذلك في حينه إلا للقلّة. انه يشير الى الطريق المؤدي الى المستقبل الألماني المجيد.

الكتاب الثاني

النصر واستعمار الفوز

الفصل الأول

الطريق الى السلطة ١٩٢٥-١٩٣١

- ١ -

كانت السنوات المبتدئة بالعام ١٩٢٥ حتى ظهور أزمة الكساد الإقتصادي في ١٩٢٩ سنوات عجافاً لأدولف هتلر والحركة النازية إلا أنها كانت إمتحاناً لصلابة الرجل المثابر الذي لم يفقد الأمل والثقة قط. فرغم طبيعته السريعة الإنفعال التي كثيراً ما أدت به الى انفجارات هستيرية، كان فيه الصبر الطويل على الأنتظار والبصيرة النافذة ليدرك أن مناخ الرفاه المادي والشعور بالطمأنينة الذي خيم على ألمانيا في تلك الأيام لا يلائم غاياته.

كان واثقاً أن الأيام الطيبة لن تدوم قدر ما يتعلق الأمر بألمانيا يقول انها لا تعتمد على قوتها بل على قوة الآخرين على أمريكا بالدرجة الأولى التي تنصب القروض من خزائنها المتخمة لتشجيع الرخاء في ألمانيا وتبقيه. وقد بلغ مجموع ما إستدانه الألمان بين العامين ١٩٢٤ و ١٩٣٠ سبعة بلايين دولار تقريباً ومعظمه جاء من المستثمرين الأمريكيين الذين لم يفكروا كثيراً في كيفية إيفاء الألمان تلك الديون عند الحساب الأخير. وكان الألمان أقل تفكيراً في ذلك.

إستدانت الجمهورية لتدفع تعويضاتها وتزيد من خدماتها الإجتماعية التي كانت نموذجاً يحتذى في العالم. واستدانت الدول الإتحادية والمدن والبلديات لا لتمويل مشاريع الإصلاح التي مست اليها الحاجة فقط بل لإنشاء المطارات، والمسارح وبناء الملاعب الرياضية واحواض السباحة العصرية. والصناعة التي مسحت ديونها مسحاً في فترة التضخم النقدي استدانت البلايين لتبديل آلاتها وتحسين أساليب إنتاجها. وما لبثت حصيلتها من الإنتاج الذي كان في ١٩٢٣ قد انخفض عن إنتاج ١٩١٣ بنسبة ٥٥٪، أن ارتفع الى ١٢٢٪ في ١٩٢٧ ولأول مرة من تاريخ الحرب هبطت نسبة البطالة الى ما تحت المليون. ثم إنخفضت الى ستمائة وخمسين ألفاً فقط في ١٩٢٨ وفي هذا العام إرتفع البيع بالمفرد بنسبة ٢٠٪ عما كان في ١٩٢٥ وفي السنة التالية وصلت الاجور الحقيقية رقماً يعلو بنسبة ١٠٪ عما كان قبل أربع سنوات. واما الطبقة البرجوازية الصغيرة، بكل ملايينها من أصحاب الحوانيت والموظفين ذوي الرواتب المنخفضة ممن استمد هتلر عونه الجماهيري، فقد نالوا سهمهم من الرخاء العام.

ومعرفتي الخاصة بألمانيا بدأت في تلك الأيام. كان مقري باريس وكنت اختلف الى لندن آنذاك.

ومع الفتنة التي كانت هاتان العاصمتان تخلفانها في فتى أمريكي سعد بفراره من فراغ وملالة عصر كلفن كوليدج Calvin Coolidge الذي لا يحتمل، فأثرهما كان ينكسف قليلاً عندما يأتي المرء الى برلين ومونيخ. كان ثم خميرة عجيبة تعمل عملها في ألمانيا. الحياة بدت فيها أكثر حريةً وتمدناً وإثارة من أي بلادٍ رأيتها. فليس ثم مكانٌ إزدهرت فيه الفنون والحياة الفكرية قدر ما إزدهرت هناك. وقد وجدت الكتابة المعاصرة والرسم والفن المعماري والموسيقى والدراما إتجاهات جديدة وأينع فيها نبوغ رائع وفي كل مكان كنت ترى مظهر الفتوة الناشطة. وقد يجلس المرء مع الشباب طول الليل في المقاهي الخلوية، والمشارب الهادئة ومخيمات الصيف، أو على ظهر بواخر النزهة في نهر الراين أو في استديو فنان يعبق دخان التبغ في فضائه تصغي إليه وهو يسهب في الحديث عن الحياة وطبيها. كانوا اصحاء، خاليي البال، عباد الشمس والهواء الطلق، ممتلئين بشوق دفاق الى طيب الحياة ولذة العيش، ينعمون بحرية كاملة. وبدت الروح البروسية القديمة المزهقة للانفاس ميتة مقبورة. وتصيبك الدهشة حين تجد معظم من تلقاهم، من الساسة والكتاب والمحربين، والفنانين والاساتذة والطلاب ورجال الأعمال، ورؤساء النقابات العمالية ديمقراطيين، أحراراً بل حتى دعاة سلام.

من النادر أن يسمع المرء بهتler أو النازيين إلا في مجال الدعاية والنكتة. (عادةً في معرض التعليق على إنقلاب مشرب البيرة كما عرف بهذا الاسم). في إنتخابات ١٩٢٨ (٢٠ أيار) حصل الحزب النازي على (٨١٠.٠٠٠) صوت في أصل المجموع العام البالغ (٣١) مليون صوت ولم يكن لديه في الرايخشتاغ غير بضعة عشر مقعداً من مجموع (٤٩١). وخسر القوميون المحافظون خسارة جسيمة فقد هبط عدد أصواتهم من ستة ملايين في ١٩٢٤ الى أربعة ملايين وتقلصت مقاعدتهم في البرلمان من (١٠٣) الى (٧٣) في حين كسب الديمقراطيون الإشتراكيون مليوناً وربع مليون صوت في ١٩٢٨ وضمن لهم فوزهم الكلي البالغ أكثر من تسعة ملايين صوت مائة وثلاثة وخمسين مقعداً في البرلمان ليجعلهم بكل سهولة أكبر حزب سياسي في ألمانيا. وبدأ أن الجمهورية الألمانية بعد نهاية الحرب بعشر سنوات قد أصبحت قادرة على الوقوف على قدميها.

بلغ عدد أعضاء الحزب القومي الإشتراكي في تلك السنة التذكارية ١٩٢٨، ما لا يزيد عن (١٠٨٠٠٠) وبهذا العدد الضئيل كان ينمو ببطء. فبعد أسبوعين من مغادرة هتلر السجن في نهاية ١٩٢٤ هرع الى مقابلة الدكتور هاينريخ هلد Heinrich Held رئيس وزراء بافاريا وزعيم حزب الشعب البافاري الكاثوليكي. وإعتماداً على وعده بحسن سلوكه (كان هتلر تحت طائلة العفو المشروط) رفع (هلد) الحظر عن الحزب النازي وصحيفته. وقال الرئيس لوزير عدله غورتنر Guertner "لقد كبح جماح الوحش. وبإمكاننا إرخاء السلسلة". كان رئيس الوزراء البافاري واحداً من أوائل السياسيين الألمان وليس آخرهم ممن وقع في خطأ سوء التقدير الفاحش.

ظهرت (الثولكشر بيوباختر) في ٢٦ شباط ١٩٢٥ بافتتاحية طويلة عنوانها "بداية جديدة" كتبها هتلر. وفي اليوم التالي خطب في أول إجتماع عام للحزب النازي المملوم الشعث في قاعة البيرة،

التي رآها هو وأعدائه المخلصين لآخر مرة في صبيحة يوم ٩ تشرين الثاني، قبل عام ونصف عام عندما بدأوا مسيرتهم الفاشلة. وكان كثير من المخلصين غائبين. (فايكارت وشوينر-ريختر) في عالم الأموات (وگورنگ) في المنفى و(لودندورف وروهم) قد تقطعت الأسباب بينهما وبين هتلر، و(روزنبرگ) يحترب مع (شترايخر)، و(إيسر) منكش بعيد عن الحزب. كذلك الأمر بگريکور شتراسر Gregor Strasser الذي قاد مع (لودندورف) "حركة القوميين الإشتراكيين للتححر الألماني" عندما كان هتلر خلف القضبان والحزب النازي محظور. وعندما طلب هتلر من (انطون دركسلر) تصدّر الاجتماع أجابه صانع الاقفال القديم ومؤسس الحزب "أن يذهب الى جهنم" ومع ذلك فقد حضر حوالي أربعة آلاف من الأتباع في قاعة البيرة ليسمعوا هتلر ثانية ولم يخيب ظنهم فيه فبلاغته وفصاحته كما كانتا دوماً لم تفقدا سحرهما. وبعد ساعتين من الكلام الدفاق راح هدير أصوات الاستحسان يزلزل أركان القاعة. وأوضح هتلر بصراحة- رغم فرار الكثير من صفوف الحزب ورغم المستقبل القاتم انه مازال يعتبر نفسه زعيم الحزب والدكتاتور قائلاً: "أنا وحدي أقود الحركة ولا أحد يمكن أن يفرض عليّ شروطاً ما دمت أتحمل المسؤولية شخصياً" واستطرد "للمرة الثانية أتحمل المسؤولية عن كل شيء يعنّ للحركة".

ذهب هتلر الى الاجتماع وقد صحّ عزمه على هدفين كان ينوي إتباعهما منذ تلك الساعة. أولهما تركيز كل السلطة في يديه وثانيهما إعادة تنظيم الحزب النازي على أساس حركة سياسية تعمل للوصول الى الحكم بطرق دستورية فحسب. كان قد شرح أسلوب العمل الجديد لأحد أعوانه المدعو (كارل لودكه) أثناء وجوده في السجن فقال: "عندما استأنف العمل الفعلي فمن الضروري اتخاذ سياسة جديدة. فبدلاً من العمل على الوصول الى الحكم بانقلاب مسلح ثانٍ، علينا ان نحافظ على أنوفنا وندخل الرايخشتاغ ضد الكاثوليك والماركسيين الأعضاء إن اقتضى منا الفوز عليهم في الإنتخابات وقتاً أطول من رميهم بالرصاص فعلى الأقل فان النتيجة سيضمنها لنا دستورهم. كل أسلوب عمل قانوني يتسم بالبطء... وسنحرز الأغلبية عاجلاً أم آجلاً - وبعدها سنحرز ألمانيا^(١)". ولقد أكد لرئيس الحكومة البافاري بعيد إخلاء سبيله من لاندسبرغ أن الحزب النازي سيعمل منذ الآن فصاعداً ضمن إطار الدستور.

لكنه سمح لنفسه ان ينطلق بلا ضابطٍ، بتأثير حماسة الجماهير عند عودته الى الظهور في اجتماع قاعة البيرة في ٢٧ شباط. وكانت تهديداته للدولة مكشوفة. وقال إن النظام الجمهوري، مع الماركسيين واليهود هم "العدو". وصرخ في موقف خطابي "في كفاحنا هذا هناك مخرجان محتملان لا ثالث لهما: إما أن يمر العدو على جثثنا أو أن نمر على جثثهم!" يظهر أن "الوحش المفترس" لم يكبح جماحه قط. كما انضح من أول ظهور عام له بعد سجنه. فيها

١- كارل لودكه "عرفت هتلر" الص ٢١٧-٢١٨.

هو يعدو لتهديد الدولة بالعنف رغم وعده بحسن السلوك فسارعت الحكومة البافارية بمنعه من الكلام في أي إجتماع عام -دام ذلك المنع سنتين- وحذت الدويلات الأخرى حذوها. فكانت ضربة هائلة لرجل يدين الى فصاحته الخطابية بمركزه الحالي. هتلر المقلد الفم، هو هتلر مغلوب، لا تأثير له مثل ملاكم مقيد اليدين في حلبة ملاكمة، أو هذا ما فكر معظم الناس.

لكنهم كانوا مخطئين أيضاً. لقد نسوا أن هتلر هو منظم كفء، مثلما هو ساحر اللسان. وسرعان ما كبح جماح غيظه لمنعه من الكلام في المحلات العامة. وراح يعمل بعزمٍ عنيف في إعادة بناء (الحزب القومي الاشتراكي للعمال الألمان) وليجعل منظمة لم تر ألمانيا مثلاً قبلاً. وقصد ان يجعلها كالجيش - دولة داخل دولة. وكان عمله الأول اجتذاب أعضاء يدفعون إشتراكات بلغ تعدادهم في نهاية ١٩٢٥ (٢٧٠٠٠). وكان الارتفاع بطيئاً لكن الزيادة كانت ملحوظة بين سنة وأخرى (٤٩٠٠٠) عضو في ١٩٢٦ و (٧٢٠٠٠) في ١٩٢٧ و (١٠٨٠٠٠) في ١٩٢٨ و (١٧٨٠٠٠) في ١٩٢٩.

وأهم من ذلك إقامة هيكل بناء الحزب المعقد الذي يطابق تنظيم الحكومة الألمانية الإداري والمجتمع الألماني في الواقع. كانت البلاد مقسمة الى مناطق أو "Gau" وهي تطابق تقريباً المناطق الثلاث والأربعين الانتخابية لمجلس الرايخشتاغ. ويقوم على رأس كل منطقة "Gauler" يعينه هتلر. وهناك سبع مناطق إضافية للنمسا ودانزك والساار وأرض السوديت في تشيكوسلوفاكيا. و "الكاو" ينقسم الى "Kreise" أو دائرة. ويرأسها "Kreisleiter"، وأصغر وحدة حزبية هي "Ortsgruppe" أو المجموعة المحلية. وفي المدينة تجزئة أخرى الى خلايا الشارع، والأحياء.

أما التنظيم السياسي للحزب فقد قسم الى قسمين: (ب. و. رقم واحد) كما دعي، وواجه مهاجمة الحكومة والعمل على تقويضها. و(ب. و. رقم اثنان) ويستهدف إقامة دولة داخل دولة. ولهذا تجد في القسم الثاني دوائر للزراعة والقضاء، والإقتصاد الوطني، والداخلية، والعمل ويعين المستقبل: دائرتي الثقافة والعرق. والتخطيط. وفي المنظمة الأولى (P. O. 1) دوائر الشؤون الخارجية ونقابات العمال وصحافة الرايخ. أما قسم الدعاية فله دائرة خاصة واسعة. وعندما إعترض بعض أعضاء الحزب الغلاظ وأوباش الشارع ومشاعبي مشارب البيرة على ادخال النساء والصبيان في الحزب. سارع هتلر في تأليف منظمات لهم أيضاً. فاختصت منظمة "شباب هتلر" بالفتيان الذين تتراوح اسنانهم بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة وألحق بهم دوائرهم الخاصة للثقافة والمدارس والصحافة والدعاية، "والرياضة الدفاعية" الخ... وأولئك الذين تتراوح أسنانهم بين العاشرة والخامسة عشرة ضموا الى منظمة "صبيان ألمانيا Deutscher Jungvolk". واستحدث للفتيات "عصبة فتيات ألمانيا Bund Deutscher Maedel" وللنساء "النساء القوميات الاشتراكيات N. S. Frauenschaften" وجعل لكل من الطلاب والمعلمين، والموظفين الحكوميين، والاطباء، والمحامين والقضاة، حلقاتهم المنفصلة. واستحدثت

عصبة الثقافة النازية Kulturbund، لاجتذاب المثقفين والفنانين.

وبعد مشاق كبيرة، أعيد تنظيم ال(إس. أي) إلى عصابات تتألف من بضع مئات الألوف من الرجال لحماية الاجتماعات النازية، وإيقاع الخلل في اجتماعات الآخرين، وبصورة عامة لإرهاب كل من يعارض هتلر. وكان أمل بعض قادته أن يروا ال(إس. أي) يحل محل الجيش النظامي عندما يصل هتلر إلى الحكم. ولتهيئة ذلك ألقت دائرة خاصة برئاسة الجنرال "فرانز ريترفون إپ سميث" بمكتب سياسة الحرب Wehrpolitische Amt أقسامها الخمسة أوقفت على مشاكل من أمثال سياسة الدفاع الخارجي والداخلي. وقوات الدفاع والمصادر العامة لشؤون الدفاع وما شاكلها. لكن ال(إس. أي) ذوي القمصان الرمادية لم يغد غير عصابات من الرعاع الغوغائيين الصلفين. وكان كثير من قادتها الكبار ابتداءً من رئيسهم الأعلى (روهم) فجاراً منحرفين جنسياً سيئ السمعة. ولم يكن الملازم ادموند هاينس Edmund Heines قائد فرقة ال(إس. أي) في مونيخ، منحرفاً جنسياً فقط بل قاتلاً ومحكوماً سابقاً. هذان وعشرات غيرهم كانوا يتناحرون ويحتربون فيما بينهم بدافع تحاسدهم الغريب الذي ينبع عن سلوكهم الجنسي الشاذ.

وخلق هتلر زمرة أكثر أهلاً للثقة وأقرب إليه: هي حرس S. S. اختصاراً لـ (Schutzstaffel) وألبس أعضائها ثياباً موحدة سوداء شبيهة بتلك التي اتخذها الفاشيست الإيطاليون زياً. وجعلهم يقسمون يميناً خاصة بالولاء له شخصياً وكان ال(إس. أي) في مبدأ الأمر يزيد قليلاً عن حرس خاص للزعيم. وأول قائد له هو صحفي يدعى برختولد Berchtold. وهذا كان يفضل الهدوء النسبي لغرفة التحرير في (قولكشر بيوباختر) على تمثيل دور الشرطي والجندي فاستبدل بمن يدعى إيرهارد هايدن Erhard Heiden وهو شرطي جاسوس ذو سمعة قذرة. ولم يجد هتلر رجله المثالي لقيادة ال(إس. أي) إلا في ١٩٢٩. وجده بشخص مربى دجاج ريفي في قرية (فالترودرنك Waldtrudering) قرب مونيخ. رجل هادي الطبع يتوهم الناس به (كما توهم المؤلف عندما التقى به لأول مرة) فيحسبونه مدير مدرسة بلدة صغيرة. واسمه (هاينريخ هملر Heinrich Himmler). عندما تسلم هملر قيادة ال(إس. أي) كان عدد أفراده يناهز المائتين. وفي الوقت الذي أنهى عمله فيه، كان ال(إس. أي) يهيمن على ألمانيا واسمه ينشر الرعب والهلع في كل أرجاء أوروبا المحتلة.

وفي قمة هرم التنظيم الحزبي المعقد، يستوي (هتلر) بعنوانه الفخم الطنان "Partei- und- Oberster- S." وفي قمة هرم التنظيم الحزبي المعقد، يستوي (هتلر) بعنوانه الفخم الطنان "A. -Feuhrer, Vorsitzender du N.S.D.A.V" ويمكن ترجمته بما يلي: "الزعيم الأعلى للحزب ورئيس ال(أ.س. أي) لمنظمة القوميين الإشتراكيين للعمال الألمان".

ويلحق بدائرته مباشرة "إدارة الرايخ Reichsleitung" التي تتألف من أقطاب الحزب وقادته وموظفين نافعين مثل "أمين خزانة الرايخ" و"مدير أعمال تجارة الرايخ". والزائر البناية الرمادية Brown House الفخمة في مونيخ، وهي المقر القومي للحزب في أواخر سني الجمهورية لا يتمالك من الاقرار بأنه يجد أمامه دوائر دولة ضمن دولة. وهذا بدون شك الإنطباع الذي أراد هتلر أن يخلقه إذ يساعد على نفس

الثقة في الداخل والخارج- بالدولة الألمانية القائمة التي كان يحاول إسقاطها. لكن هتلر كان عازماً على أمرٍ أهم من المظهر والإنطباع. فبعد ثلاث سنوات من وصوله الى الحكم وفي خطاب له موجه الى "المحاربين القدماء" في مساء التاسع من تشرين الثاني ١٩٣٦. قال شارحاً واحداً من أهدافه التي توخاها من بناء الحزب بهذا الشكل التنظيمي الواسع الشامل التام الاستيعاب مستذكراً الأيام التي جرى فيها إعادة بناء الحزب بعد محاولة الانقلاب "لقد أدركنا انه لا يكفي اسقاط الدولة القديمة، بل يجب أن تبني في وقت سابق لهذا، دولة جديدة لتكون مستعدة فعلاً وتحت متناول اليد... وفي ١٩٣٣ لم تعد المسألة مسألة اسقاط دولة يعمل عنيف، في تلك الأثناء كانت الدولة الجديدة قد بنيت ولم يبق ما ينبغي عمله إلا تحطيم آخر بقايا الدولة القديمة- وهذا لم يقتض منا غير ساعات معدودات^(٢)".

ومهما بلغت هذه المنظمة من الكفاءة ويسر الإدارة، فقد كانت متألفة من بشر معرض للخطأ. ففي تلك الأيام التي إنكفأ هتلر على صناعة حزبه وإعداد له ليتسلم مصائر ألمانيا، ضاقت نفسه ذرعاً بالمتاعب التي خلقتها له تصرفات أعوانه الكبار. فهو لا لم يكتفوا بالتناحر والخصام فيما بينهم، بل خاصموه وراحوا ينحتون أثلته بلا انقطاع. هذا الرجل الذي جرى تشدده مجرى الأمثال، الصلب بطبيعته، كان - وهنا موطن الغرابة متسامحاً في مسألة بشرية واحدة هي أخلاق المرء. ولم يكن في ألمانيا حزب كحزب النازي اجتذبت صفوفه مثل هذا العدد الكبير من العناصر الوضيعة خلقياً. لقد رأينا ذلك العجيج الخليط من القوادين والقتلة والمنحرفين جنسياً والسكيرين والنصابين والمبتزين، يجتمعون فيه ويتقاطرون اليه كأنما يلتجئون الى ملاذ طبيعي. ولم يهتم هتلر بذلك ما داموا ذا نفع له. ولما خرج من السجن وجدهم يطبق الواحد على حنجرة الآخر. وجابهه القادة الأرفع من هؤلاء خلقاً والأكثر محافظة أمثال روزنبرگ ولودندورف بوجوب طرد كل المجرمين من الحركة ولاسيما الفجرة والفساق، فرفض رفضاً باتاً وكتب في افتتاحية عنوانها "بداية جديدة" نشرت في ٢٦ تشرين الأول ١٩٢٥ في جريدة الحزب "لا أجد من مهمات الزعيم السياسي محاولة تحسين أو تشذيب اجزاء المادة البشرية المتوفرة بين يديه".

وفي ١٩٢٦، بلغ الاتهام المتبادل والتراشق بالعيب ما بين اقطاب الحزب حداً مخجلاً فاضحاً فلم ير هتلر بداً من تأليف محكمة حزبية تكبح جماحهم وتمنعهم من التفاضخ وغسل ثيابهم القذرة أمام الناس. عرفت هذه المحكمة بالأوشلا USCHLA: اختصاراً من "لجنة التحقيق والتسويات Untersuchung- und- Schlichtung- Ausschuss وكان أول رئيس لها جنرال سابق اسمه (هاينمان Heinemann) الا ان لم يدرك الغرض الحقيقي من المحكمة التي لم يكن واجبها إصدار حكم على أولئك الذين اتهموا بالجرائم الاعتيادية بل طمرها والعمل على عدم ايقاع الاضطراب في الضبط الحزبي أو الإخلال بسلطة الزعيم،

٢- "مجموعة خطب أدولف هتلر" طبعة باينس Baynes الص ١٥٥-١٥٦: ج١.

ولهذا استبدل بآخر أكثر تفهماً للموضوع هو الرائد (فالتر بوخ Walther Buch) يعاونه (اولريخ گراف) القصاب السابق حارس هتلر الخاص و(هانس فرانك Hans Frank) وهو محام نازي شاب سيسمع عنه الكثير فيما بعد عندما يحين الوقت للتحدث عن إيغاله في سفك الدماء لما عيّن حاكماً عاماً لپولندا المحتلة فدفّع ثمن ذلك في نورمبرگ. وانجز هذا الثلاثي البديع عملاً إرتاح له هتلر ارتياحاً كبيراً: يُتهم قائد حزبي بتهمة شنعاء فيكون جواب (بوخ): "حسنًا وأي بأس في هذا؟" فما كان يريد معرفته هو هل ان الأمر يخلّ بالضبط الحزبي، أو يضرّ بسمعة (الزعيم)؟

كان يلزم أكثر من هذه المحكمة الحزبية- التي اثبتت رغم ذلك جدواها في آلاف القضايا وسطوتها في ابقاء القادة النازيين الطموحين قاطعي الرقاب ضمن الخطّ. وكثيراً ما اضطر هتلر الى التدخل شخصياً ليس للمحافظة على نوع من التوافق والانسجام بل للمحافظة على رقبته من القُطّ.

وفيما كان يتجرّع غصص سجنه في لاندسبرغ برز فجأة شاب اسمه (گريکور شتراسر) في الحركة النازية. وكان سيدلانياً بالمهنة باقارياً بالولادة أصغر من هتلر بثلاث سنين حصل قبله على وسام الصليب الحديدي من الدرجة الأولى وارتقى أثناء الحرب من جندي بسيط الى ملازم. وانتمى الى الحزب النازي في ١٩٢٠ وما لبث ان أصبح گاولايتير (قائد منطقة) في باقاريا السفلى. وهو رجل ضخم البنية فارع الطول يهوى لذة العيش bon vivant ويتفجر حيوية. أصبح خطيباً جماهيرياً مؤثراً بفضل قوة شخصيته لا بفضل موهبة خطابية ملكها هتلر. زد على هذا إنه منظم بالفطرة. وبإستقلاله العنيد روحاً وعقلاً أبى أن يخضع لهتلر أو أن يأخذ مأخذ الجدد الشديد مزاعم النمساوي في انه الدكتاتور المطلق للحركة النازية. وقد أدى هذا في الزمن الطويل الى ظهور عقبة كؤود أمامه لأن شتراسر كان مخلصاً في حماسه للإشتراكية داخل الحركة القومية الإشتراكية.

وانضم شتراسر الى لودندورف وروزنبرگ (فوق معارضته لهتلر السجين) بتنظيم حركة شعبية Voelkiech نازية لمناهضة الحكومة في الإنتخابات العامة ربيع العام ١٩٢٤. هذه الحركة فازت في باقاريا بأصوات كافية لتجعلها الحزب الكبير الثاني، أما في ألمانيا كما رأينا فلم تحرز أكثر من مليوني صوت أمّنت لها اثنين وثلاثين مقعداً في الرايخشتاغ وكان أحدها من نصيب (شتراسر) وقد خاضت الإنتخابات تحت إسم "حركة القوميين الإشتراكيين للتحرر الألماني". وكانت نظرة هتلر لفعاليات هذا الشاب سوداء قاتمة، وزادت سواداً لنجاحه. أما بالنسبة الى شتراسر فلم يكن مستعداً لقبول هتلر سيداً له. وتعمد الغياب عن الإجتماع الكبير بمونيخ في ٢٧ شباط ١٩٢٥ وهو بداية عودة الحزب النازي الى النزال.

أدرك هتلر أنه لا سبيل الى جعل حركته قومية حقاً إلاّ بتثبيت أقدامها في الشمال وفي بروسيا وبالأخصّ في برلين حصن العدو المنيع. في إنتخابات ١٩٢٤ خاض (شتراسر) معركته الإنتخابية في الشمال ووجد جهوده مع جماعات شديدة التعصب للقومية يقودها كل من "البرخت فون غرايفه Al-brecht von Graefe" و "الكونت أرنست زور ريغنتلوف Count Ernst Zur Reventlow". ولذلك كان يمتاز

بصلات شخصية وبعض الأشباع في تلك المنطقة وهو القائد النازي الوحيد الذي يملك ذلك. فبعد مرور أسبوعين على السابع والعشرين من شباط إبتلع هتلر شعوره الشخصي بالمضاضة والإستياء واستدعى (شتراسر) واقنعه بالعودة الى احضان الحزب واقترح أن يقوم بتنظيم الحزب النازي في شمال ألمانيا فوافق. إذ كانت هناك فرصة لتجربة مواهبه الخاصة بمفرده، دون ان يكون هتلر الصلف الشديد الغيرة والحسد، في مركز الإشراف عليه.

وما مرت عليه أشهرٌ قلَّائل حتى اصدر جريدة في العاصمة وهي جريدة "برلينر أربايتير زايٲٲنگ Ber-liner Arbeiter zeitung وأناط بأخيه رأسه تحريرها. واصدر نشرة اخبارية نصف شهرية باسم "Briefe" وكانت تزود موظفي الحزب بخطوط سياسة الحزب دون انقطاع. ووضع اسس منظمة سياسية امتدت شبكاتها في روسيا وسكسونيا وهانوفر ومنطقة الراين الصناعية. كان (شتراسر) حركة دائبة لا تكل، جاب كل أقاليم الشمال وعقد إجتماعات، وألقى خطباً وعيّن قادة مناطق (كاولايتير) وبنى جهازاً إدارياً حزبياً. وكانت عضويته في مجلس الرايخشتاغ تميّزه عن هتلر بشيئين: بطاقة سفر مجانية لكل الخطوط الحديدية. فلم تكن أسفاره تكلفه أو تكلف الحزب نفقات ما، وتمتعه بالحصانة النيابية فلا سلطة تتمكن من حظر الخطابة عليه ولا محكمة تطاله بتهمة القذف أو التشهير بأي شيء أو شخص. وكتب هايدن ساخراً "بمجانبة السفر" ومجانبة القذف، سبق (شتراسر) زعيمه بمسافة بعيدة". واتخذ له سكرتيراً خاصاً كان في الوقت نفسه رئيساً لتحرير مجلة الرسالة Briefe، وهو شاب من منطقة الراين يناهز الثامنة والعشرين ويدعى (بول جوزيف غوبلز Paul Josef Goebbels)

- ٢ -

صعود نجم بول جوزيف غوبلز

هذا الشاب الأسمر القميء الأعرج، الحاضر الذهن ذو الشخصية المعقدة المريضة عصبياً لم يكن جديداً على الحركة النازية. فقد إكتشفها في ١٩٢٢ عندما سمع هتلر يخطب في مونيخ لأول مرة فانضم الى الحزب. إلا أن الحزب لم يكتشفه إكتشافاً تاماً إلا بعد ثلاث سنوات. فقد قرر (كريكور شتراسر) بعد سماعه يخطب أن يستخدم مواهبه المفيدة. لقد كان غوبلز وهو في الثامنة والعشرين خطيباً مفوهاً وقومياً متعصباً. كما علم (شتراسر) ايضاً أن له قلماً جارحاً لاذعاً نادر المثال بين قادة النازي وأنه نال دراسة جامعية كاملة. كان (هاينريخ هملر) قد إستقال من منصب سكرتير (شتراسر) الخاص قبل فترة قصيرة ليتفرغ الى تربية الدجاج خلال الوقت المتوفر له فبادر بتعيين غوبلز بديلاً له. وقد نجم عن اختياره هذا عواقب وخيمة.

ولد بول جوزيف غوبلز في ريدت Rheydt في ٢٩ تشرين الأول ١٨٩٧. وهي مركز إنتاج



للمنسوجات على الراين يضم حوالي ثلاثين ألفاً من السكان. وكان أبوه (فريتز غوبلز Fritz Goebbels) رئيس عُمال في مصنع النسيج المحليّ وأمه (ماريا كاترينا أودنهاوزن Maria Katharina Odenhausen بنت حداد. وكلا الزوجين كاثوليكي تقيّ).

وبفضل الكاثوليك نال جوزيف غوبلز معظم دراسته، فقد داوم في مدرسة الابرشية الابتدائية الكاثوليكية. ثم "الجمنازيوم Gymnasium" في (ريدت) وساعدته زمالة من جمعية (ألبرت ماكنوس Albert Magnus) الكاثوليكية على دخول الجامعة - شهادة الدكتوراه Ph. D من جامعة هايدلبرغ - delberg ١٩٢١ وهو في سن الرابعة والعشرين بعد أن أمّ جامعات بون، وفرايبورغ Freiburg وفرتربرغ Wuerz-

غوبلز

burg وكولون وفرانكفورت ومونيخ وبرلين. في هذه الجامعات الشهيرة - زهرة الثقافة الألمانية العالية- ركز غوبلز دراسته في الفلسفة والتاريخ والادب والفن وواصل جهوده في اللاتينية واليونانية.

كان يريد أن يصير كاتباً. ففي السنة التي نال درجة الدكتوراة. كتب قصة سيرة عنوانها "ميخائيل Michael" لم يقبلها ناشرٌ في حينه. وأنهى في العامين التاليين مسرحيتين شعريتين "التائه" وتدور (حول السيد المسيح) و"الضيف المستوحش" ولم يرضَ مخرج باظهارهما على المسرح^(٣). ولم يكن حظه في الصحافة خيراً من هذا. فقد رفضت الجريدة اليومية الحرة "برلينر تاغبلات Berlins Tagblatt" عشرات من مقالاته وطلباً قدمه لوظيفة مخبرٍ فيها.

وكانت حياته الخاصة مفعمة بالخيبة أيضاً في الأيام الأولى. فلم يخدم في الجيش لأنه أقل فحرم من معاناة تجرية بدت له في أول الأمر على الأقل - حافلة بالمجد بالنسبة الى شباب جيله وكانت من مستلزمات القيادة في الحزب النازي. لم يولد غوبلز مشوه الساق كما توهم معظم الناس. ففي سن السابعة أصيب بمرض الكساح osteomyelitis وهو إلتهاب في نخاع العظم فأجريت عملية غير ناجحة لفخذه الأيسر كانت نتيجتها بقاء ساقه اليسرى أقصر من ساقه اليمنى، ضامرة قليلاً. هذه العاهة

٣- طبع (ميخائيل) أخيراً سنة ١٩٢٩ بعد ان عرف غوبلز في أنحاء البلاد بوصفه زعيماً نازياً. ووصلت مسرحية "التائه" الى المسرح بعد وصوله الى منصب وزير الدعاية والمدير الأعلى للمسرح الألماني. ولم تعرض إلا وقتاً قصيراً لعدم الإقبال عليها.

اجبرته على السير بعرج واضح لازمه طول حياته وكان أحد الأسباب لنقمته الأولى. وفي وسط يأسه كثيراً ما إدعى أنه من جرحى الحرب، خلال أيام دراسته في الجامعة وفي الفترة القصيرة التي قضاها في أعمال التحريض ضدّ الفرنسيين في الروهر.

ولم يكن محظوظاً في الحبّ كذلك، وإن ظلّ طول حياته يتوهم في غرامياته التي ذاع أمرها في أيام السلطان- وقائع حبّ عظيمة. ويومياته للسنتين ١٩٢٥-١٩٢٦ عندما كان في الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين (بعد ان نزل الى معترك السياسة النازية بفضل شتراسر) مملوءة بعبارات التغزل والحنين لمحبوباته. وهن كثار وهو لا يقتصر على القليل منهنّ في وقتٍ واحدٍ^(٤). وهاك نماذج منها:

١٤ آب ١٩٢٥: كتبت لي (آلما Alma) بطاقة بريد من باد هارزبرگ Bad Harzberg. أول إشارة منها بعد تلك الليلة. هذه اللعوبة المشاكسة الساحرة آلم!

تسلمت أول رسالة من (إلسي Else) في سويسرا... لا يكتب مثل هذا إلا (إلسي) العزيزة... سأذهب الى الراين قريباً لقضاء أسبوع وسأكون خالياً لنفسي تماماً. ثم ستأتي (إلسي)... ما أسعدني في فترة الإرتقاب!

١٥ آب: يحب عليّ في هذه الأيام أن أفكر كثيراً في (آنكي Anke) و... يا ما أجمل السفر معها. هذه الكاعب الساحرة!

إنني لأحنّ الى (إلسي). متى سيحتويها ذراعاي ثانية؟

ابتها العزيزة (إلسي) متى سألقاك ثانية؟

(آلما)! ابتها العزيزة الرشيقة التي هي بخفة الريش!

(آنكي)! إنني لا استطيع نسيانك أبداً!

٢٧ آب: ثلاثة أيام في الراين... ولا كلمة من (إلسي)... أهى غاضبة مني؟ لكم اذوب اليها شوقاً! إنني اسكن في عين الغرفة التي شاطرتها في آخر فيتونتيده Whitauntide أية افكار! أية أحاسيس! لماذا لم تأتي؟

٣ أيلول: (إلسي) هنا! لقد عادت من سويسرا نهار الثلاثاء- عبلةً، سمينّة، مرحة، ممتلئة صحة. لكن السمرة قد لوحتها قليلاً. إنها جدّ سعيدة، وفي أطيب مزاج. إنها برة بي، وتمنحني كثيراً من السعادة.

١٤ تشرين الثاني: لماذا تريد (آنكي) تركي؟ ينبغي لي ألا أفكر في مثل هذه الاشياء.

٢١ تشرين الثاني: هناك لعنة عليّ وعلى النساء. الويل لأولاء اللاتي يقعن في حبّي!

٢٩ تشرين الثاني: الى كريفلد Krefeld بصحبة (هيس) حفلة عيد الميلاد. حسناء جذابة من

٤- هذه اليوميات التي اكتشفها وكلاء استخبارات الحلفاء بعد الحرب. هي مصدر هام غني بالمعلومات عن حياة غوبلز.

فرانكونيا. انها من صنفى. اخذتها الى مسكني خلال المطر والصحو. الى الملتقى!
(اوندقوار) (إلسي) وصلت!

٦ شباط ١٩٢٦: اني لأحنّ الى امرأة حلوة! آه منك إيه الألم المعبّد!

لم ينسَ غوبلز (آنكي) - آنكي هلهورن Helhorn حبّه الأول التي إلتنقى بها في الفصل الثاني لدراسة جامعة (فرايرغ). ويوميّاته مملوءة بهذيان محموم عن جمالها الأشقر الغامق، والخبية المريّة التي تخلّفت في نفسه عندما نبذته فيما بعد. وكاشف أصدقاؤه عندما أصبح وزيراً للدعاية، بغرورٍ وتهكمٍ نموذجي - بأسباب تركها له. "خانتني لأن الفتى الآخر كان أكثر مني مالا، بوسعه أن يأخذها الى العشاء والسينما. ما كان أغياها!... كان يمكن أن تصبح زوجة وزير الدعاية! لا بُدّ وانها تشعر الآن بخيبة وندم مريرين!" تزوجت (آنكي) "الفتى الآخر" ثم طلقته. وفي ١٩٣٤ جاءت الى برلين، وأوجد لها (غوبلز) عملاً في إحدى المجلّات^(٥).

كان تطرف (شتراسر) في إيمانه "بإشتراكية" القومية الإشتراكية هو الذي جذب اليه (غوبلز). فكلاهما رغبا في بناء حزبٍ مركّز على البروليتاريا. وامتلاّت يوميات (غوبلز) بتعابير العطف على الشيوعية في تلك الفترة فكتب في ٢٣ تشرين ١٩٢٣ "عند التحليل الختامي نجد من الأحسن لنا أن ننهي كياناتنا تحت ظلّ البلشفية، من أن نعاني رقّ الرأسمالية"، وفي ٣١ كانون الثاني ١٩٢٦ كتب في يومياته محدثاً نفسه "أعتقد أنه من الفطاعة قيامنا نحن [النازيين] والشيوعيين بشج أحداً رأس الآخر... ألا يمكن أن نتفق يوماً ما مع الزعماء الشيوعيين؟". وفي هذه الفترة بالذات، نشر رسالة مفتوحة الى زعيم شيوعي يؤكد له فيها أن النازية والشيوعية صنوان في الواقع! وقال "أنت وأنا يحارب أحدا الآخر لكننا لسنا في الحقيقة أعداء".

كان هذا في منزلة الهرطقة والكفر عند هتلر. وراح يرقب بقلق متزايد نجاح الأخوين (شتراسر) وگوبلز في بناء جناح يساريّ رصينٍ بروليتاري في الحزب شمال ألمانيا. إن ترك لهؤلاء الحبل على الغارب فقد يستولون على الحزب ولأهدافٍ يعارضها هتلر بشدة. وجاءت خاتمة التمثيلية المحتومة في نهاية ١٩٢٥ وفي شهر شباط من السنة التالية.

اثارها (گريکور شتراسر) (وگوبلز) بسبب مشروع ألهب كثيراً من المشاعر في ألمانيا في ذلك الحين. كان المشروع، اقتراح الديمقراطيين الإشتراكيين والشيوعيين أن تنزع ملكية الضياع والمزارع الواسعة، والثروات التي تعود للأسرة الملكية وأسر الأفراد المخلوعين، وأن تصدر للجمهورية. وكان القرار في هذا سيتم عن طريق الإستفتاء الشعبي تطبيقاً لأحكام دستور فايمر. واقترح (شتراسر) وگوبلز أن يبادر الحزب النازي للنزول الى الميدان بجانب الشيوعيين والإشتراكيين ويساند معركة نزع الملكية عن النبلاء.

٥ - كرت ريس Curt Riess. "جوزيف غوبلز" ص ٨.

فعصف الغضب بهتلر وهاج هائج. فقد كان عددٌ من هؤلاء الملوك والأمراء داخلين في قائمة المتبرعين والممولين للحزب، زد على ذلك أن عدداً من كبار رجال الصناعة بدأوا يهتمون مالياً بحركة هتلر التي بعثت مجديداً، لأنها بالضبط قد وعدت أن تكون عنيفة في منازلها الشيوعيين والإشتراكيين ونقابات العمال. فلو مضى (شتراسر وگوبلز) في خططهما فسينضب المعين الذي هو مصدر دخل هتلر في الحال.

وعلى كُُلّ وقيل ان يباشر هتلر عملاً دعا (شتراسر) الى إجتماع لقادة مناطق الحزب الشمالية في هانوفر - ٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٥ ولم يكن غرضه قاصراً على حمل فرع الحزب الشمالي على دعم مشروع (نزع الملكية) بل وضع برنامج إقتصادي جديد ينسف "النقاط الخمس والعشرين" الرجعية التي اتخذها الحزب منهاجاً في ١٩٢٠. أراد الأخوان (شتراسر) وگوبلز تأمين الصناعات الكبيرة والمزارع الواسعة والإستعاضة عن الرايخشتاغ بغرفة تعاونيات على غرار ما فعل الفاشيست في إيطاليا. فلم يحضر هتلر الإجتماع بل أرسل تابعه المخلص (كوتفريد فيدر) ممثلاً عنه، ليعمل على قمع الثورة فطلب (گوبلز) أن يقذف بفيدر الى الخارج وصاح "إننا لا نريد عيوناً وجواسيس!" وكان في الإجتماع عدد من القادة الذين قدر لهم أن يخلفوا آثاراً في الرايخ الثالث أمثال (برنهارد رست Bernhard Rust) واريخ كوخ Erich Koch وهانس كرل Hans Kerrl وروبرت لاي Robert Ley) ولم يأخذ جانب هتلر إلا (لاي) الصيدلاني المدمن على الكحول الذي كان (گاولايتراً) لمنطقة كولون. وعندما بين (دكتور لاي) و (فيدر) بأن الإجتماع غير قانوني ولا يمكن أن يتم شيء دون وجود الزعيم الأعلى هتلر، صرخ گوبلز كما ذكر أوتو شتراسر الذي كان موجوداً "أطلب أن يطرد البرجوازي الصغير أدولف هتلر من الحزب النازي!"

لقد قطع الفتى اللانزع اللسان گوبلز، شوطاً واسعاً منذ ان وقع لأول مرة تحت سحر هتلر قبل ثلاث سنين - أو هكذا كان يخيل لـ(گريکور شتراسر) فقد هتف في أثناء تدوينه إنطباعاته عن سماعه أول خطبة لهتلر في (سركس كروني Circus Krone - مونيخ في حزيران ١٩٢٢: "في تلك اللحظة وجدتني أبعث من جديد- الآن صرت اعرف اي طريق أسلك... إنه لندير وأمر!" وكان اشد حبوراً أثناء محاكمة إنقلابي مونيخ وبعد صدور الأحكام كتب للفوهرر:

"بدوت كالنجم البازغ أمام أعيننا المشدوّهة. لقد أتيت بالمعجز في تنقية عقولنا ومنحتنا الإيمان والثقة في عالم من الشك واليأس. لقد شمخت فوق الجماهير ممثلاً إيماناً بالمستقبل الأكيد تمتلك الإرادة لتحرير تلك الجماهير بحبك اللامتناهي لكل من يؤمنون بالرايخ الجديد. للمرة الأولى شاهدنا العينين البراقتين لرجل مزق القناع عن وجهه شوهها الطمع وجوه الصعاليك البرلمانيين الأغبياء..."

"في محكمة مونيخ ارتفعت أمامنا الى عظمة الزعيم. وما قلته هو أعظم كلمات نطق بها لسان في ألمانيا منذ (بسمارك). لقد عبرت عن أكثر آلامنا... سميت حاجة جيل كامل يبحث باضطراب وعلى غير هدى وبلفه عن رجال وعن عمل. ما قلت انما هو تعاليم لعقيدة سياسية جديدة ابتعثها قنوط

دنيا متقوضة لا إله لها... ونحن لك شاكرون، وستشكر ألمانيا يوماً ما".
ولكن، وبعد سنة ونصف سنة- سقط صنم (گوبلز) المعبود هذا وأصبح "برجوازيًا صغيراً" يستحق الطرد من الحزب. تبنى الاجتماع منهاج الحزب الجديد باستنكاف (فيدر ولاي) فقط. ووافق على قرار الانضمام الى الماركسيين في معركة الإستفتاء على انتزاع املاك الملوك والأمراء السابقين ومصادرتها.

وتريص هتلر بالزمن. وفي ١٤ شباط ١٩٢٦ وجه ضربه المقلبة. فدعا الى اجتماع في بامبرغ Bamberg - جنوب ألمانيا مُتخيراً للموعد يوماً من الأسبوع يصعب على القادة في الشمال ترك أعمالهم فيه. وفي الواقع لم يتمكن أحد من الحضور غير (گريكور شتراسر) و(گوبلز). وحقق قادة الجنوب الذين اختارهم هتلر بكل دقة، تفوقاً عددياً ساحقاً. وأجبروا بناءً على إصرار الفوهرر على أن يستسلموا ويتخلوا عن برنامجهما. لقد ذكر مؤرخو ألمانيا النازية: كهأيدن وأولدن وغير الألمان الذين ساروا على هديهم، أن (گوبلز) في اجتماع (بامبرغ) تخلّى عن (شتراسر) علناً وانحاز الى هتلر، لكن يوميات (گوبلز) المكتشفة بعد تأليف كتابي هايدن وأولدن. اوضحت أنه لم يتخلّ عن (شتراسر) فجأة. وتبين منها إنَّ گوبلز- مع انضمامه الى شتراسر في التسليم لهتلر- كان يعتقد أن هتلر على خطأ مبین. وانه في تلك اللحظة على الأقل - لم يكن ينوي الانحياز اليه. فقد دون في يومياته بعد انتهاء اجتماع بامبرغ بيوم واحد (١٥ شباط) ما يلي: "تكلم هتلر زهاء الساعتين. أشعر وكان أحدهم يضربني ضرباً موحجاً. من أيّ طينة خلق هتلر هذا؟ أ هو رجعي؟ أقصى ما يمكن من الارتباك والاضطراب، مخطيء تماماً في المسألة الروسية. أ إيطاليا وانكلترا هما حليفانا الطبيعيان؟ يا للفظاعة!... علينا ان نسحق روسيا! قضية الملكية الخاصة لطبقة النبلاء يجب ألا تبحث أو تمس! فظيع! لايمكنني النطق بكلمة واحدة، أشعر كأني مضروب على رأسي..."
"حقاً أنها من أعظم خيبات حياتي. لم يعد لديّ كامل ثقة في هتلر. هذا هو الأمر المريع: لقد جرّت دعائمي من تحتي".

ولإظهار اتجاه إخلاصه، رافق (شتراسر) الى المحطة وحاول تهوين الأمر عليه. وبعد أسبوع (٢٣ شباط) كتب في يومياته: "حديث طويل مع (شتراسر). النتيجة: علينا ألا نضغط ولانبطن حقداً لجماعة مونيخ، بخصوص نصرهم "البيري * Pyrrhic" وعلينا ان نبدأ ثانية كفاحنا في سبيل الاشتراكية".

لكن هتلر درس الفتى الرايني الطموح ووزنه بدقة فاقت (شتراسر) وفي ٢٩ آذار دون (گوبلز):
"رسالة من هتلر صباح هذا اليوم. سألقي خطاباً في الثامن من نيسان في مونيخ". ووصل المدينة في

* بيروس (حوالي ٣١٩-٢٧٢ ق.م) ملك ايپروس في شمال غرب اليونان. نصره على الرومان الذي كلفه كثيراً في اسكولوم (٢٧٩ ق.م) جاء منه المثل التاريخي "نصر بيروس" الذي ما كان يعدّ نصراً للخسارة العظيمة في الرجال التي لحقت به.

٧ نيسان وكتب "سيارة هتلر كانت في انتظاري، استقبال ملوكي! سأخطب في مشرب البيرة التاريخي" وفعل ذلك في اليوم التالي، ألقى خطابه من المنبر الذي اعتاد الزعيم اعتلاءه، ودون كل ذلك في يومياته الخاصة بالثامن من نيسان:

"هتلر يتصل بي تلفونيا... عطفه علينا رغم حادثة بامبرغ أشعرنا بالخجل... في الساعة الثانية اقلتنا السيارة الى مشرب البيرة. وكان هتلر قد سبقنا اليها. كان قلبي يدق دقاً عنيفاً حتى ليكاد ينفجر. إني أدخل القاعة. هتاف راعد ترحيب حار... ثم اتكلم ساعتين ونصف الساعة... الناس يهتفون ويضجون. بالأخير يعانقني هتلر. اشعر بالسعادة... هتلر الى جانبي دائماً".

وبعد أيام قاتل استسلم (گوبلز) بكليته: "١٣ نيسان: تكلم هتلر ثلاث ساعات ببلاغة. في امكانه أن يحملك على الشك في آرائك الخاصة. إيطاليا وانكلترا حليفانا. روسيا تريد أن تمزقنا اشلاءً وتبلعنا... اني احبه. لقد فكر في كل شيء من كل نواحيه: مثله: جماعية عادلة وفردية عادلة. أما عن التربة - فكل شيء يعود للشعب. والإنتاج يجب ان يكون خلاقاً وفردى الطابع. الاحتكارات، وسائل النقل الخ... يجب ان تؤمم... إني الآن مرتاح بخصوصه... انحنى إحتراماً للرجل الأعظم، لعبقري السياسة". بات گوبلز "رجل هتلر" عندما غادر مونيخ في ١٧ نيسان. وقدر له أن يبقى أخلص تابع له الى آخر نسمة من حياته. في ٢٠ نيسان كتب لهتلر رسالة تهنئة بعيد ميلاده: "العزير المبجل أدولف هتلر! لقد تعلمت منك الكثير... جعلتني أرى النور أخيراً..." وكتب تلك الليلة في يومياته: "انه في السابعة والثلاثين من عمره. أدولف هتلر، أني لأحبك لكونك عظيماً وبسيطاً وتلك هي صفات العبقري".

وقضى (گوبلز) جانباً كبيراً من الصيف مع هتلر في (برختسگادن) ويومياته ممتلئة بملاحظات عن الزعيم. وفي آب انفصل علناً عن شتراسر بمقال كتبه في (فولكشر بيواختر): "الآن فقط عرفتكم على حقيقتكم: ثوريين قولاً لا عملاً [يخاطب بهذا الأخوين شتراسر وأتباعهما]... لا تتكلموا بهذه الكثرة عن المثل العليا ولا تخذعوا أنفسهم بالاعتقاد بأنكم مخترعو تلك المثل وحمايتها... اننا لا نقدم كفارة بوقوفنا كتلة متراصة وراء الزعيم. نحن... ننحني له... بكرامة الرجال الصامدة، كرامة النوردين القدماء الذين يقفون منتصبين الهامة أمام سيدهم الإقطاعي الجرمانى. نحن نشعر إنه أعظمنا جميعاً. أعظم مني ومنكم. انه آله الإرادة الإلهية التي تغير التاريخ وتصوره بميول جديدة خلاقة".

وفي أواخر تشرين الأول ١٩٢٦ نصبه هتلر (گاولايتير) لمنطقة برلين. وأمره بالتخلص من الأوباش المحترين ذوي القمصان الرمادية الذين كانوا يعيقون نمو الحركة هناك. وأن يفتح عاصمة ألمانيا للقوميين الاشتراكيين. كانت برلين "حمراء". وأغلبية الناخبين فيها إما شيوعيون أو اشتراكيون. فما كان من (گوبلز) المقدام الذي دخل السنة التاسعة والعشرين من عمره، والذي ارتفع خلال سنة وبعض سنة من لا شيء الى مركز القيادة في الحزب النازي إلا أن انطلق لإنجاز المهمة في المدينة البابلية العظيمة.

فاصل راحةٍ وغرامٍ لأدولف هتلر

إن السنين العجاف سياسياً لهتلر كانت خير سني حياته الخصوصية كما ذكر فيما بعد. فبمنعه من الكلام حتى ١٩٢٧، وبنيته إكمال (كفاحي)، وبالتفكير الذي يملك عليه مذهبته - في مستقبل حزب النازي ومستقبل نفسه، عمد الى قضاء معظم وقته في (أوبرسالزبرگ) فوق قرية (برختسگادن) في الألب الپافارية. إنه خير منتج للراحة والاستجمام. إن احاديث هتلر في مقره بالجبهة أثناء الحرب، عندما يرتخي توتر أعصابه في ساعة متأخرة من الليل ويندمج مع رفاق الحزب القدامى وسكرتيراته المخلصات، كانت تدور حول ذكريات الماضي فيشيع فيها الحنين والشوق الى مقره الجبلي. حيث بنى البيت الوحيد الذي ملكه في حياته وماذا كانت منزلته في نفسه. وهتف في أثناء واحدة من هذه الفواصل في ليلة ١٦/١٧ كانون الثاني ١٩٤٢: "أجل. هنالك كثير من الصلات بيني وبين أوبرسالزبرگ. أشياء كثيرة ولدت هناك... لقد قضيت هناك اجمل ساعات حياتي... فهناك نمت ونضجت أشياء كثيرة. كان لدي ساعات راحة في تلك الأيام وكثير من الأصدقاء الساحرين!"

تنقل هتلر خلال السنوات الثلاث الأولى التي عقيبت اخلاء سبيله في مختلف الفنادق ومشارب البيرة في أوبرسالزبرگ. وفي احاديث الذكريات في شتاء ١٩٤٢ تكلم عن ذلك حوالي الساعة. وأخيراً استقر في "دويتش هاوس Deutsche Haus" وقضى فيه معظم السنتين اللتين أنهى خلالهما إملاء (كفاحي) وقال انه وأعوانه كانوا "مغرمين جداً بزيارة "درايمايدر هاوس Dreimaederlhuas" حيث كان يوجد حسناوات" واضاف "كان هذا أعظم علاج لي. كان يوجد واحدة فيهن بصورة خاصة هي آية في الجمال".

في تلك الليلة، في ملجأ القيادة على الجبهة الروسية أدلى هتلر بملاحظة لسامعيه، مفادها أنه يتذكر أمرين كانا يشغلانه أثناء السنوات السعيدة في (برختسگادن): في تلك الفترة [بأوبرسالزبرگ] عرفت كثيراً من النساء. تعلق بي عدد منهن. لماذا لم اتزوج اذن؟ أن اترك زوجة خلفي؟ لأقل هفوة أو عدم تبصر كنت معرضاً لخطر العودة الى السجن لست سنوات، فلم يكن ثم مجال لتفكير بالزواج. لذلك كان علي أن اتخلي عن فرص كثيرة عرضت نفسها علي^(٦). إن خوف هتلر في منتصف العشرينات من عودته الى السجن أو ابعاده خارج البلاد لم يكن بدون أساس. فهو ما زال تحت طائلة العفو المشروط فلو انه تجاهل علناً الحظر على خطبه في الإجتماعات العامة فمن المحتمل جداً أن تقوم الحكومة البافارية بايداعه السجن أو دفعه خارج الحدود الى موطنه النمسا. ومن

٦- هذه وسابقتها مأخوذة عن ذكريات هتلر لـ ١٦/١٧ كانون الثاني ١٩٤٢. اما بخصوص أوبرسالزبرگ فهي عن "أحاديث هتلر السرية".

أسباب اختياره منطقة أوبرسالزبرگ (سالزبرگ العليا) مستقراً وملجأً، هو قربه من الحدود النمساوية. فبإشارة واحدة كان بإمكانه تخطي الحدود والتخلص من أمر قبض تصدره الشرطة الألمانية. ولكن العودة الى النمسا بمحض اختياره أو بمقتضى أمر الابعاد من شأنه إتلاف مشاريعه ومطامحه ولأجل تقليل احتمالات ابعاده لجأ الى التخلي عن جنسيته النمساوية في السابع من نيسان ١٩٢٥- وهي خطوة وافقت عليها الحكومة النمساوية حالاً. وقد أدى هذا الى بقاءه بلا جنسية staatenlos تخلى عن رعايته النمساوية لكنه لم يصبح مواطناً ألمانياً. وهذا من شأنه أن يخلق مصاعب للمشتغل بالسياسة في الرايخ، ومن تلك أنه لايجوز له تسلم منصب حكومي. وأعلن للناس بأنه لن يطلب من الحكومة الجمهورية الجنسية التي يراها من حقه بسبب خدماته للإمبراطورية الألمانية في الحرب إلا أنه ظلّ طوال النصف الثاني من العام ١٩٢٠ يطالب سراً بحق المواطنة الألمانية ولم تثمر مجهوداته مع الحكومة الپافارية.

أما بالنسبة الى النساء والزواج فهناك أيضاً بعض الحقيقة في ما تحدث به في تلك الليلة من ١٩٤٢. فهو يحب صحة النساء خلافاً للفكرة السائدة عنه ولاسيما الحسنات. وقد عاد الى الموضوع مراراً في أحاديث الطعام المتبادلة في مقر القيادة أثناء الحرب. قال لأعوانه في ليلة ٢٦/٢٥ من كانون الثاني ١٩٤٢ بلهجة تعجب: "كم من النسوة الجميلات في هذه الدنيا!" وراح يضرب عدة امثلة من تجاربه الخاصة وزاد متباهياً "عرفت كثيراً من الحسنات أيام شبابي في فيينا!". وذكر هايدن بعض وقائع الغرامية في أولى أيامه: ذكر عن (جيني هاوغ Jenny Haug) التي كان أخوها سائق هتلر في ١٩٢٣. والتي عرفت بأنها عشيقته، ونوه (بأيرنا هانفشتانكل) Erna H. الرائعة الطويلة القامة، و(ونفريد فاكنر) زوج ابن (ريشارد فاكنر). لكن واقعة الغرام العميقة الوحيدة في حياته كانت مع بنت أخته على ما هو متواتر معروف.

في صيف ١٩٢٨ استأجر هتلر فيلا فاخنفلد Wachenfeld في أوبرسالزبرگ شمال برختسگادن بمبلغ مائة مارك شهرياً من ارملة احد رجال الصناعة في هامبورگ واقنع اخته من ابيه (انجيلا راوبال) أن تأتي من فيينا وتدير له شؤون بيته في أول منزل امكنه أن يختص به^(٧) فجاءت السيدة راوبال مع بنتيها (گيلي) و(فريدل) وكانت (گيلي) في العشرين ذات شعر أشقر متموج. وقسمات جميلة وصوت ساحر وشخصية أسرة جعلتها قبلة انظار الرجال^(٨) فوقع هتلر في غرامها. وصحبها أينما ذهب الى الاجتماعات الى المناقشات الى مسيرات طويلة في الجبال الى مقاهي مونيخ ومسارحها. وعندما استأجر في ١٩٢٩ شقة فخمة ذات تسع غرف في شارع برنزيجننت Prinzregentenstrasse وهو

٧- إبتاعه بعد ذلك، عندما أصبح مستشاراً. واعاد بناءه بشكل واسع فخم وبدل اسمه الى قصر بيركوف Berkhof.
٨- إن (هايدن وبوللوك) وأضربهما يشيرون الى قدوم أسرة راوبال واستقرارها في فاخنفلد في ١٩٢٥ عندما كانت (گيلي) في السابعة عشرة. لكن هتلر اوضح انه لم يسكن الفيلا الا في ١٩٢٨. وزعم انه اتصل حينذاك "بأختي في فيينا تلفونياً وابلغتها بالنبا ورجوتها أن تتكرم علي بالقيام بدور ربة البيت [أحاديث هتلر السرية ص١٧٧].

حيّ من أرقى احباء مونيخ، اعطيت (غيلي) غرفتها الخاصة منها. ولم يكن مفرّ من تطاير الاشاعات حول زعيم الحزب وبنّت أخته الشقراء الحسناء في مونيخ وفي دوائر الحزب كافة جنوب ألمانيا. واقترح بعض الاقطاب الحزبيين الأكثر حرصاً- أو حسداً أن يكفّ هتلر عن عرض حبيبته الشابة في المحلات العامة وأن يتزوجها. فثارت ثائرتة لهذا الكلام وفي إحدى المشاحنات التي دارت حول القضية عزل (گاولايتير) وورتمبرغ Wuertemberg. يحتمل أن هتلر كان ينوي الزواج ببنّت اخته. ولقد علم المؤلف من رفاق الحزب القدماء الذين كانوا لاصقين به آنذاك ان الزواج كان يعتبر أمراً شبه محتوم. ولم يساورهم أيّ شك في أن هتلر موّله بحبيها. على ان مشاعرها الخاصة كانت مجهولة. والمعلوم أن إهتمام رجل علا صيته وارتفع نجمه كان يدير رأسها ويصيبها بالتيه، وسرورها بهذه الرعاية كان واضحاً، غير انه لايعلم هل بادلت خالها حباً بحب أم صدف عنه؟ ربما لم تبادل له العاطفة. ولقد ثبت في الأخير انها ما بادلت له الحب قط فقد نشأ بينهما خلاف شديد لم يعرف أصله ولا طبيعته، والظاهر أن الغيرة المتبادلة لعبت دورها. هي حققت عليه لإهتمامه بنساء أخريات منهن (وينفريد فاگنر) وهو شك في انها على صلة جنسية (بأميل موريس) المجرم ذي السوابق حارسه الخاص. كما أنها ثارت على تحكم الخال في مقدراتها واشرافه على غدواتها وروحاتها فهو لم يوافق على خروجها بصحبة رجلٍ غيره كما منعها من العودة الى فيينا لإستئناف دروس غنائها، فقضى بذلك على طموحها في اعتلاء خشبة تمثيل الأوبرا، لأنه يريد لها لنفسه فحسب.

هنالك اشارات سوداء، تعزو صدودها عنه الى ميوله (الماشوسية) وتعلل ذلك بان تحكمه وطغيانه في الميدان السياسي أنى فيه الميل الى أن تستترقه النسوة اللاتي يحبن. ولم يكن بالميل النادر الغريب عند أمثاله من الرجال كما يرى علماء النفس والجنس. وينوه (هايدن) بخبر رسالة كتبها هتلر لبنّت اخته في ١٩٢٩، ييشها فيها لواعج حبه ودفين عاطفته. هذه الرسالة وقعت في يد ابن صاحبة العمارة فكانت نتيجة ذلك مآسي مميتة لحقت بأكثر من حياة^(٩). ومهما كانت طبيعة ذلك الحب الأسود بين الخال وبنّت اخته فان الخصام بينهما زاد عنفاً، وأعلنت (غيلي) في صيف ١٩٣١ إعتزامها العودة الى فيينا لإستئناف دروس الغناء فمنعها هتلر وثار شجار صاحب بينهما شهده الجيران لما ترك هتلر شقة مونيخ في ١٧ أيلول ١٩٣١ قاصداً هامبورگ اذ سمعت الفتاة تصيح من نافذة مفتوحة والخال يهم بركوب سيارته "اذن فأنت لاتدعني أرحل الى فيينا؟" وسُمع هو يردّ عليها: "كلاً!" وفي صبيحة اليوم التالي وجدت (غيلي) في غرفتها قتيلاً برصاصة وبعد قيام قاضي التحقيق، بتحرّ طویل مستفيض قرر أن الحادث انتحار. وورد في تقرير الطبيب العدلي أن الرصاصة نفذت الى صدرها من اسفل المنكب الأيسر واخترقت القلب وان اتجاهاها لايدع شكاً في أن الطلقة انطلقت من يد المنتحرة.

٩- هايدن (الزعيم: الص ٣٨٤-٣٨٦)

ومع هذا بقيت الشائعات والأقاويل منتشرة في أرجاء مونيخ عدة سنين. وتدور كلها على أن (غيلي راوبال) ماتت قتيلاً بيد خالها في ساعة غضب والقاتل (هملر) الذي أزال موقفاً أصبح موضع إخراج للحزب. لكن لم يظهر دليل معتمد يؤيد صحة تلك الإشاعات. أما هتلر فقد صعقه الأسى. وذكر (جريكور شتراسر) فيما بعد بأنه اضطر إلى ملازمته طوال اليومين التاليين بليتيهما ليمنعه من قتل نفسه. وبعد أسبوع من دفن (غيلي) في فيينا استحصل هتلر إذناً خاصاً من الحكومة النمساوية للسفر إليها. وقضى ليلةً يبكي على قبرها. وظل أشهراً وهو حزين لا يسلم.

بعد ثلاثة أسابيع من موت (غيلي) تمت أول مقابلة له مع هندنبرگ وكانت أول رمية في قدامه الكبير (مستشارية الرايخ) وعزا بعض الذين عرفوه الوجوم الذي ظهر عليه في تلك المناسبة النادرة إلى الصدمة التي أصابته من فقدته بنت اخته المحبوبة - فقد قال بعض أصدقائه إنه لم يكن مسيطراً على حواسه سيطرة تامة أثناء المقابلة، الأمر الذي جعل الزعيم النازي يخفق في مسعاه. وفي اعتقادي إن تركه أكل اللحم من ذلك الحين - وهو عمل تقشف وإماتة يمكن رده إلى هذه النكبة الشخصية، أو هذا ما إرتآه بعض أعوانه المقربين جداً على الأقل. فقد صرح لهم فيما بعد بلهجة جازمة أن (غيلي راوبال) هي المرأة الوحيدة التي أحبها حباً صادقاً. وظل يأتي إلى ذكرها بأعمق الإحترام - وفي كثير من الأحيان يذرف الدموع. وقال الخدم أن غرفتها الخاصة في فيلا أوبرسالزبرگ ظلت مثلما كانت عليه عندما تركتها - حتى بعد إعادة بناء الفيلا وتوسيعها. وقد علق صورا لها^(١٠) في حجراته هناك وفي دار المستشارية ببرلين وعندما كانت تحل ذكرى ميلادها وموتها كل سنة كانت تلك الصور توطر بالأزهار.

شخص قاس، جافي الطبع، لا يبدو قادراً على حب أي مخلوق بشري، مثل هتلر تقوم عاطفته تجاه الفتاة (غيلي راوبال) واحدة من الأسرار التي تحفل بها حياته الغريبة. وهي ككل الأسرار لا يمكن تفسيرها تفسيراً معقولاً بل تحكى فقط. ويات من شبه المؤكد أن أدولف هتلر لم يعد يفكر بعدها في الزواج تفكيراً جدياً حتى مجيء ذلك اليوم الذي قضى منتحراً بيده بعد أربع عشرة سنة.

أستعيدت الرسالة المريبة التي خطها هتلر لبنت أخته، من ابن صاحبة العمارة بجهود (الأب برنهارد شتمفله) القس الهيرونيمي الكاثوليكي والصحفي المعادي للسامية الذي أشرف على تهذيب وصقل (كفاحي) وإعداده للطبع. وقال هايدن إن المال الذي دفع لحائزها ثمناً جاء من (فرانز كزافيير شفارتز Franz Xavies Schwarz) أمين صندوق الحزب. ولهذا كان القس (شتمفله) أحد الأشخاص القلائل الذين وقفوا على بعض أسرار حب هتلر لـ (غيلي راوبال). ويبدو أنه لم يحفظ السر في قلبه تماماً وهذه الزلة أدت به إلى أن يدفع حياته ثمناً لها عندما أصبح مؤلف (كفاحي) دكتاتور ألمانيا. وقام في يوم ما

١٠ - رسمت صورة زيتية لها بعد وفاتها بريشة أدولف زيغلر Ziegler رسام هتلر المفضل.

بتصفية حسابه مع بعض اصدقائه القدامى.

ولم يتوصل أحد بصورة جازمة الى مصدر دخل هتلر في تلك السنوات المريحة حين كان يسكن فيللاً في أوبرسالزبرگ وشقة فخمة في مونيخ ويركب سيارة جديدة فارهة دفع عشرين ألف مارك ثمناً لها بسائق خاص. لكن ملفات ضريبة الدخل التي دقت بعد الحرب ألفت بعض النور على الموضوع^(١١). لقد كان في نزاع مستمر مع سلطات الضريبة حتى أصبح مستشاراً وأعفى نفسه من الضرائب. وتخلّف عن ذلك ملف ضخّم في دائرة المالية في مونيخ للفترة المنحصرة ما بين ١٩٢٥ و ١٩٣٣. أبلغته هذه الدائرة في أيار ١٩٢٥ بأنه تأخر عن تقديم ثبوت بدخله للسنة ١٩٢٤ والربع الأول من السنة التالية فأجاب هتلر "لم يدخلني شيء في ١٩٢٤ [عندما كان في السجن] وفي الربع الأول من سنة ١٩٢٥. وقد سددت نفقات عيشتي بالاقتراض من المصرف". فكيف إذن تفسر ملكيتك سيارة ثمنها عشرين ألف مارك؟ كان هذا سؤال مخمن الضريبة. أجاب هتلر أنه سدد ثمنها من قرض مصرفي أيضاً. كان هتلر يدوّن في الحقل الخاص بالمهنة في استمارة الاقرار بأنه "كاتب" وبهذا الزعم حاول تبرير خصم جزء كبير من دخله على أساس كونه مشمولاً بالإعفاء القانوني - كان لاشك يعلم بأعمال الكتاب في كلّ مكان. وأدرج في أول إقرار بالضريبة للربع الثالث من ١٩٢٥ دخلاً ضخماً برقم ٢٣١, ١١ ماركاً ألمانياً يطرح منه قانوناً مبلغ (٦٥٤٠) ماركاً كحدّ للإعفاء، ومبلغ (٢٢٤٥) ماركاً فوائد على القروض. مما يُبقي مبلغ (٢٤٤٦) ماركاً من اصل الدخل، خاضعاً للضريبة.

وفي ايضاح يتألف من ثلاث صفحات مطبوعة بالآلة الكاتبة نجد هتلر يدافع عن خصمه جزء كبيراً من دخله لنفقات المهنة. متعللاً بالقول أنه وإن كان قد انفق جزءاً كبيراً منها على نشاطه السياسي، فإن عملاً كهذا يمهّد بالمواد الفكرية الضرورية له بوصفه كاتباً سياسياً. وكذلك يساعده على بيع كتابه. "لن يكون اسمي معروفاً دون نشاطي السياسي". وسأبقى مفتقراً الى المواد لطبع كتاب سياسي... ولهذا وعلى اية حال فإن النفقات المتعلقة بنشاطي السياسي - بوصفي كاتباً - والتي هي الحالة الملازمة لإحترافي الكتابة فضلاً عن تشيبتها للنجاح المالي، لا يمكن أن تعتبر خاضعة للضريبة... إن دائرة المالية ستجد إنني لم انفق على شخصي من كل دخلي عن كتابي إلا النزر اليسير: لست أملك في أي مكان من الأرض أي ملك أو رصيد أو مال استطيع ادعاءه لنفسه. إنني آخذ نفسي بالإقتصاد على الضروريات وألزم الحاجات كما التزمت بحرمان نفسي من الخمر والتبغ. وتناول طعامي في أوطأ المطاعم درجة. وبصرف النظر عن إيجار شقتي القليل جداً ليس هناك مصروفات إلا وتتعلق بنفقاتي بوصفي كاتباً سياسياً... كذلك السيارة فهي لي وسيلة لغاية. فهي وحدها تمكنني من إنجاز عملي اليومي"^(١٢).

١١ - انظر التحليل المدهش لإقرارات ضريبة دخل هتلر، بقلم الأستاذ اورون جيمس هيل في المجلة التاريخية الأمريكية تموز ١٩٥٥.

١٢ - المرجع السالف.

وتركت دائرة المالية نصف خصمه المقدّر، معفواً من ضريبة الدخل فاستأنف هتلر القرار الى لجنة التدقيق فأيدت التقدير. ومن ذلك الحين فصاعداً صار يترك له نصف النفقات معفواً. وكان يحتج، لكنه يدفع.

وادرّج الزعيم النازي دخلاً كبيراً في استثمارات الإقرار تطابق بدقة تامة عوائده من (كفاحي) فاثبت (١٩٨٤٣) ماركاً للعام ١٩٢٥، و(١٥٩٠٣) للعام ١٩٢٦، و(١١٤٩٤) للعام ١٩٢٧ و(١١٨١٨) للعام ١٩٢٨ و(١٥٤٤٨) للعام ١٩٢٩. ولما كان ناشرو الكتب خاضعين لتفتيش دائرة الضريبة فليس في إمكان هتلر أن يدرّج دخلاً يقلّ عن أرباحه وهو آمن. لكن ماذا عن مصادر الدخل الأخرى؟ لم يذكر عنها شيئاً في إقراراته. كان معروفاً أنه يطلب ويتقاضى أجراً عالياً عن المقالات العديدة التي يكتبها آنذاك في الصحف النازية الفقيرة. وقد شاع تدمير شديد في أوساط الحزب حول ما يحمله هتلر من الأعباء المالية. هذه الفقرات غير موجودة في إقرارات الضريبة. وبمشاركة العشرينات على الختام بدأ المال ينصبّ في خزانة الحزب النازي من بعض كبار الصناعيين الباقاريين والرايين الذين اجتذبتهم معارضة هتلر للماركسيين ونقابات العمال. وتبرّع كل من (فريتز تيسن Fritz Thyssen) رئيس (إتحاد صناعات الفولاذ الألماني Vereinigte Stahlwerke) و(أميل كيردورف Emil Kirdorf) ملك الفحم الحجري في الروهر بمبالغ كبيرة. وفي الغالب كانت النقود تسلم الى هتلر مباشرة ولن يعلم أبداً كم كان يجتزيء منها لنفسه. لكن مستوى معيشته في السنوات الأخيرة القليلة التي سبقت وصوله الى كرسي المستشارية تشير الى ان المال الذي يتسلمه من معاضديه لا يصل كله الى خزانة الحزب.

والحق يقال أنه كان طوال الفترة ١٩٢٥-١٩٢٨ يشكو من صعوبة تسديد ضريبة دخله المستحقة. فهو دائماً متأخر في أدائها دائم الطلب بالتأجيل. وفي أيلول ١٩٢٦ كتب الى دائرة المالية "في هذا الوقت لست قادراً على دفع ضرائب؛ فقد لجأت الى الاقتراض حتى أسدّ نفقات عيشي"، وعن هذه الفترة زعم فيما بعد "بقيت سنوات أعيش على التفاح التيروليّ. لا يتصور قطّ ضروب الإقتصاد التي نحاولها لتوفير كل مارك للحزب". وراح ما بين سنوات ١٩٢٥ و١٩٢٨ يزعم لمخمن الضريبة أنه يغرق في المزيد من الديون. وفي ١٩٢٦ أبلغ بأنه انفق ٣١٢٠٩ ماركاً ألمانيا في حين لم يتجاوز دخله ١٥٩٠٣ ماركاً. ويبين أن العجز قد غُطي "بقروض مصرفية" أخرى.

ثم وبمعجزة من المعجزات إختفت في ١٩٢٩ فقرة الفوائض على الديون التي إعتاد درجها في إقراره ولم تعد الى الظهور، وإن كان ثبته لدخل تلك السنة أقل بكثير من دخله للعام ١٩٢٥؛ وكما قال (الپروفيسور هيل) الذي اعتمدنا دراساته في كتابة الموضوع: "معجزة مالية صنّعت صنعا، فصّفت كلّ ديونه" (١٣).

وإنصافاً لهتلر نقول أنه ما كان يقيم للمال وزناً- إن كان لديه ما يكفي للعيش برفاه وإن لم يكن لديه فهو لا يتردد في أن يكبح للحصول عليه بشكل أجور أو راتب. وعلى أية حال ففي مطلع ١٩٣٠ انتهت جميع متاعبه المالية الى الأبد عندما ارتفعت مداخيله من كتابه الى ثلاثة اضعاف ما كانت عليه في السنة الماضية بصورة مفاجئة فناهزت ٤٨٠٠٠ ماركاً وبدأت الأموال تنصب من مؤسسات كبيرة. وأصبح في مقدوره أن يوقف طاقاته العنيفة وكل مواهبه على مهمة تحقيق غايته. لقد حان الوقت لإندفاعه الأخير نحو السلطة، نحو دكتاتورية على شعب عظيم.

-٤-

فُرص أزمة الكساد الإقتصادي

إن الأزمة الإقتصادية التي عمت الدنيا وسرت كالحريق الهائل في مشارف نهاية العام ١٩٢٩ أتاحت لأدولف هتلر فرصة العمر فابتدعها ليحني خير ما يمكن منها. كان مثل سائر الثوريين العظام يحقق نجاحه في المحن والرياء، بالأول عندما تجتاح الجماهير غائلة البطالة والجوع واليأس وبالأخير عندما يشملون بخمرة الحرب. غير أنه ينفرد عن سائر الثوريين في التاريخ بناحية واحدة: كان ينوي تحقيق ثورته بعد إستيلائه على السلطة السياسية. يجب ألا يتوسل بالثورة للسيطرة على الدولة. فهذا الهدف ينبغي أن يحقق له بأصوات الناخبين، أو ينزل له عنه حكام البلاد، بوسائل دستورية محضة. وللحصول على الأصوات لم يكن على هتلر إلا التبرص والاستفادة من عامل الزمن والأحوال التي بدأت مرة أخرى في مطلع الثلاثينات تسوق الألمان الى وهدة من اليأس. ولأجل ان يحصل هتلر على دعم الحكام كان عليه إقناعهم بأنه الوحيد القادر على إنقاذ ألمانيا من ورطتها الشنعاء. وفي السنوات المتلاطمة من ١٩٣٠-١٩٣٣ انطلق الماكر الأريب يعمل بنشاط متجدد للوصول الى هذين الغرضين، وبرجوعنا الى الوراء قليلاً نرى أن الاحداث نفسها وضعف واضطراب حفنة الرجال الذين ارتبطوا بعهد الولاء والدفاع عن الجمهورية الديمقراطية التي يحكمونها أصبحوا أوراقاً رابحة في يد هتلر. إلا ان ذلك لم يكن مما يمكن التنبؤ به في بداية ١٩٣٠.

توفي (غوستاف شتريزمان) في ٣ تشرين الأول ١٩٢٩. وكان قد أضنى نفسه وارهقها في العمل الدؤوب الشاق. فقد إستطاع أيام كان وزيراً للخارجية في السنوات الست السابقة ان يعيد ألمانيا الى صف الدول العظمى ويقود الشعب الألماني الى الإستقرار السياسي والإقتصادي وكان نجاحه هائلاً. ادخل ألمانيا الى عصبة الأمم وابرم إتفاقي مشروع (داوس) ومشروع (يونغ Young) اللذين خفضا نسبة التعويضات الحربية بمقدار كبير مما سهل على ألمانيا دفعه. وفي ١٩٢٥ كان واحداً من رؤساء الحكومات الذين هندسوا (معاهدة لوكارنو) تلك المعاهدة التي منحت أوروبا أول هدوءٍ وراحةٍ

عرفتهما شعوب أرهقتها ويلات الحرب وأضناها التناحر جيلاً كاملاً. بعد وفاة (شتريزمان) بثلاثة أسابيع وفي ٢٤ تشرين الأول، تحطمت سوق البورصة الأمريكية في وول ستريت Wall Street وسرعان ما لمست نتيجة ذلك في ألمانيا كانت نتيجة مدمرة بلاشك. كان حجرة زاوية رخاء ألمانيا هما القروض الخارجية (ولاسيماً الأمريكية) والتجارة الخارجية. فلما توقف مجرى القروض عن الإنصباغ وحان موعد الإيفاء بالقديم منها، لم يستطع البناء المالي الألماني تحمل الضغط. وعندما هبط ميزان التجارة العالمية إلى الصفر نتيجة للكساد العام عجزت ألمانيا عن تصدير ما يكفي من البضائع لسد ميزان استيراد الضروريات من المواد الأولية والغذية التي تحتاجها. لم تكن الصناعة الألمانية تستطع الإستمرار في تشغيل مصانعها دون وجود تجارة خارجية، فهبط إنتاجها في ١٩٣٢ إلى نصف ما كان عليه تقريباً في ١٩٢٩ وقذفت الملايين إلى احضان البطالة. وحاق الإفلاس بآلاف من المشاريع التجارية الصغيرة الخاصة. وفي أيار ١٩٣١ إنهار (الكريدت انشتالت Kreditanstalt) وهو أكبر المصارف النمساوية، وفي ١٣ تموز تبعه دارمشتيتر اوند ناسيونال بانك Darmstaedter und Nationalbank وهو واحد من بنوك ألمانيا الرئيسية. مما اضطر الحكومة في برلين إلى غلق أبواب جميع البنوك بصورة مؤقتة. وضاعت عبثاً محاولات إيقاف الإنهيار، ولم تنفع حتى مبادرة الرئيس هوڤر Hoover في إعلان تأجيل كل ديون الحرب وبضمنها التعويضات الألمانية في ٦ تموز. لقد ضرب العالم الغربي كله بقوة لم يفهمها زعماءه وإنما شعروا بأنها طاغية لا تقفها أية محاولة بشرية. كيف حصل هذا الفقر العظيم؟ هذا الشقاء البشري وفي وسط هذا الكثير من الخير والبركة؟

كان هتلر قد تنبأ بالكارثة لكنه لم يفهم أكثر من أي سياسي آخر سبب وقوعها، وربما كان تفهمه لها اقل بكثير من معظمهم لجهله ولعدم إهتمامه بالمسائل الإقتصادية. إلا أنه لم يكن غير مهتم أو جاهلاً بالفرص التي أعطته الأزمة فجأة ودون سابق إنذار. لم تُثر عواطفه بشقاء الشعب الألماني وبؤسه وتلك حياته مازالت تعاني ندوب جراح التجربة المدمرة لهبوط المارك قبل ما يقل عن عشرات سنوات، بالعكس تماماً! ففي أحلك أيام تلك الفترة عندما كانت ضجة المصانع قد سكنت وعندما سجلت البطالة أكثر من ستة ملايين عاطل وامتدت صفوف الناس أمام أبواب المخازن من الأمتار في كل مدينة من مدن البلاد، رأيناه لايتورع عن الكتابة في الصحف النازية: "لم أشعر بثقة، ويسرور في داخلي مثلما أشعر به في هذه الأيام لأن الحقيقة المرة قد فتحت أعين الملايين من الألمان على أفاعيل النصب غير المسبوق، على أكاذيب وخيانات الماركسيين خادعي الشعب"^(١٤) وكان التفكير في شقاء أبناء جلدته الألمان شيئاً لا يستأهل أن يضيع فيه وقته، بل بالأحرى أنه استخدمه بقسوة ويسرعة خاطفة بل وحوّله إلى سلاح سياسي يخدم به أطماعه الخاصة. وهذا ما شرع بعمله في صيف عام ١٩٣٠.

١٤- هايدن: الفوهرر ص ٤١٩.



شلايخر

في آذار ١٩٣٠ إستقال المستشار الديمقراطي الاشتراكي هرمان مولر Hermann Mueller رئيس آخر حكومة إئتلافية من جبهة الأحزاب الديمقراطية التي حافظت على جمهورية (فايمر)، بسبب خلاف بين أحزاب الجبهة حول صندوق ضمان العاطلين. فاستُخلف بهايينريخ بروننغ Heinrich Brüning الزعيم الألماني لحزب الوسط الكاثوليكي الذي حاز وسام الصليب الحديدي في الحرب بوصفه أمر سرية رشاشات برتبة (كابتن). وقد ركن اليه الجيش وأولته آراءه المحافظة الرصينة في الرايخشتاغ إهتماماً مشوباً بالعطف. ولاسيما من جنرال يدعى (كرت فون شلايخر) لم يكن معروفاً قط من الرأي العام الألماني. كان (شلايخر) "ضابط مكتب" قديراً مغروراً طموحاً عرفته أوساط الجيش دساساً موهوباً

مقدماً. هذا الجنرال اقترح اسم بروننغ للرئيس فون هندنبيرغ. فكان المستشار الجديد مرشح الجيش دون ان يدرك ذلك تماماً. وهو رجل ذو خلق خالص من الشوائب، بعيد عن الأنانية، متواضع، محل ثقة، مخلص، في طبعه شيء من الصرامة. لقد كان يأمل تثبيت حكومة برلمانية مكيئة في ألمانيا وإنقاذ البلاد من الكساد المتفاقم والفوضى السياسية. إن المأساة التي حلت بهذا الرجل الحسن النيات ذي الفكر الديمقراطي هي أنه محاولته تحقيق أمله، حفر دون أن يدري قبر الديمقراطية الألمانية وبهذا وطأ الطريق غير عامدٍ لمجيء أدولف هتلر.

عجز (بروننغ) عن إقناع أغلبية الرايخشتاغ بالموافقة على إجراءات معينة تتعلق بمنهاجه المالي. وعندها طلب من (هندنبيرغ) إستخدام الصلاحيات المنصوص عليها في المادة (٤٨) من الدستور والمصادقة على لائحته المالية بمرسوم جمهوري لا غير، بموجب السلطة التي تمنحها له حالة الطواريء المعلنة. فأجاب المجلس بالتصويت بطلب سحب المرسوم. بدأت الحكومة البرلمانية تتحطم في الساعة التي كانت الأزمة الإقتصادية تحتتم وجود حكومة قوية. وبمحاوله من (بروننغ) إيجاد مخرج من هذا المأزق طلب من الرئيس في تموز ١٩٣٠، حلّ الرايخشتاغ فتم له ذلك وأجريت إنتخابات جديدة في ١٤ أيلول. كيف كان يتوقع الحصول على أغلبية برلمانية ثابتة في الإنتخابات الجديدة؟ انه لسؤال لم يجب عليه قط. لكن هتلر أدرك أن فرصته حانت بأسرع مما توقع.

كانت الجماهير التي أضرب بها تردّي الوضع تطالب بمخرج من ضائقها الخانقة. الملايين من العاطلين يريدون عملاً. أصحاب الحوانيت يريدون معونة. حوالي أربعة ملايين من الشباب الذين بلغوا سن

الانتخاب يريدون مشاريع للمستقبل تؤمن معيشتهم على الأقل. لهؤلاء الملايين الساخطة تقدم هتلر في معركة خاطفة، بما بدا لها في وسط شقائها بارقة من بوارق الأمل. سيجعل ألمانيا قوية كما كانت ويرفض دفع التعويضات، ويلغي معاهدة فرساي. ويقضي على الفساد ويحني هامات البارونات (وبخاصة إن كانوا يهوداً) ويؤمن الحبز والعمل لكل ألماني. ولم تكن هذه النداءات بقليلة الأثر عند أولئك الجائعين القانتين الذين ينشدون إيماناً جديداً وآلهة جديدة فوق نشدانهم الخلاص.

ومع آماله العراض، فقد فوجيء في ليلة ١٤ أيلول ١٩٣٠ عندما أعلنت نتائج الانتخابات. فقبل سنتين نال حزبه (٨١٠٠٠٠) صوتاً ودفع بإثني عشر عضواً إلى الرايخشتاغ وكان يأمل في هذه الدورة الحصول على أربعة أضعاف الأصوات تلك. فينال حوالي (٥٢) مقعداً في البرلمان لكن أصوات الحزب النازي في هذا اليوم إرتفعت إلى (٦٤٠٩٦٠٠) وأمنت له (١٠٧) مقاعد في الرايخشتاغ. فأصعدته من الدرجة التاسعة بين الأحزاب الصغرى في البرلمان إلى مقام ثاني أكبر الأحزاب.

ومن أقصى الجانب الثاني إرتفعت نسبة أصوات الشيوعيين من (٣٢٦٥٠٠٠) صوت في عام ١٩٢٨ إلى (٤٥٩٢٠٠٠) صوت فزاد عدد تمثيلهم في الرايخشتاغ من (٥٤) إلى (٧٧) مقعداً وفقدت الأحزاب المعتدلة للطبقات المتوسطة، بإستثناء حزب الوسط الكاثوليكي، أكثر من مليون صوت مثلما حاق بالديمقراطيين الإشتراكيين رغم اضافة أربعة ملايين ناخب جديد إلى قوائم الإقتراع لبلوغهم السن القانونية وهبطت أصوات (القوميين اليمينيين الهامبوركيين) من أربعة ملايين إلى مليونين فقط. وكان واضحاً أن النازيين انتزعوا ملايين الأشياء من أحزاب الطبقة المتوسطة. وكذلك كان واضحاً أنه من الآن فصاعداً أخذت الصعوبة تزداد بالنسبة لبروننك -أو لأي شخص آخر- في تزعم أغلبية ثابتة في الرايخشتاغ فكيف يتسنى للجمهورية الثبات والحياة بدون هذه الأغلبية؟ هذا السؤال بات في اليوم الذي تلا إنتخابات ١٩٣٠ ذا أهمية كبيرة لدعامتين من دعائم الوطن لم يقبل زعمائهما بالجمهورية إلا كسوء حظ عابر في التاريخ الألماني: هما الجيش وعالم الصناعيين والماليين الكبار. وأسكر الفوز هتلمر فالتفت الآن ليولي إهتمامه موضوع كسب هاتين القوتين العظيمتين. لقد تعلم في فيينا قبل زمن طويل من تاكتيك العمدة (كارل لوكر) أهمية إجتذاب "المؤسسات القوية الحاضرة" إلى صفه.

قبل سنة واحدة ألقى هتلمر في مونيخ ١٥ أيار ١٩٢٩ خطبة ناشد فيها الجيش أن يعيد النظر في موقفه إزاء القوميين الإشتراكيين، وإن يتخلى عن مساندة الجمهورية. قال:

"المستقبل لن يكون للأحزاب التي تستهدف التدمير، بل لتلك الأحزاب التي تكمن فيها قوة الشعب، المستعدة والراغبة في ضمّ نفسها إلى هذا الجيش حتى تُعين الجيش يوماً ما على الدفاع عن مصالح الشعب. ونحن بعكس ذلك مازلنا نرى ضباط جيشنا، يعذبون أنفسهم تعذيباً بطيئاً بتساؤلهم: إلى أي مدى يمكن للمرء أن يمضي في مسيرته للديمقراطية الإشتراكية. لكن هل تعتقدون حقاً يا سادتي الأعزاء أن ثم علاقة تربطكم بايدولوجية تشترط القضاء على كل ما هو أساسي لوجود

الجيش؟"

كان هذا عرضاً حاداً للحصول على مساندة ضباط الجيش الذين كان معظمهم يعتقدون -وكما ردد هتلر للمرة المائة- انهم طعنوا في الظاهر، إن الجمهورية التي يساندونها الآن، خانتهم ولا تشعر بأي ميل أو حب للطفمة العسكرية وما تمثله. ثم أسرع ينذر الضباط بكلمات النبوءة لما كان سيعمله هو يوماً ما- بما سيكون مصيرهم اذا تغلب الماركسيون على النازيين. فاذا حدث هذا... "فعليكم ان تقرأوا السلام على الجيش الألماني وتكتبوا فوق قبره: [نهاية الجيش الألماني] عندئذ ايها السادة يجب ان تصبحوا ساسة بلا جدال... قد تكونون آنذاك جلادين للنظام وقوميسارين سياسيين وإن لم تخنعوا فزوجاتكم وأولادكم سيوضعون في أماكن مقفلة الأبواب فان لم تسكنوا فسيقذف بكم الى الخارج أو ربما اوقفتم أمام جدار...^(١٥)". سمع هذا الخطاب القليل من الناس، ولتحقيق إذاعته بين أوساط الجيش نشرته جريدة (فولكشر بيوباختر) بالنص الكامل بطبعة خاصة للجيش نوقش بأسهاب في أعمدة المجلة النازية الشهرية "دويتشر فيركايسست Deutscher Wehrgeist" وهي مجلة موقوفة على معالجة الشؤون العسكرية صدرت مؤخراً.

كان الجيش في ١٩٢٧ قد منع تطوع النازيين في الجيش الألماني المحدد عدده بمائة ألف، وزاد فمنع استخدامهم بوظائف مدنية في مستودعات الذخيرة ومخازن التجهيزات. ولكن أصبح واضحاً في ١٩٣٠ أن الدعاية النازية تتغلغل فيه ولاسيما بين صغار الضباط، الذين اجتذبهم باعداد كبيرة، لا تعصب هتلر القومي وحده بل الإقتراحات التي وضعها لإعادة الجيش الى سؤدده القديم وضخامته لتزيد من فرصهم في الترقية الى رتب رفيعة ما عادوا يفكرون فيها بسبب صغر حجمه. أصبح تسرب النازيين في الجيش وقواته المسلحة أمراً بالغ الخطورة بحيث أضر الجنرال (كروينر) وزير الدفاع الآن. الى إصدار أمر يومي في ٢٢ كانون الثاني ١٩٣٠ يذكر المرء بإنذار مماثل وجهه الى الجيش (الجنرال فون سيكت) الى الجيش قبيل إنقلاب مشرب البيرة، منذ سبع سنوات مضت. قال: "ان النازيين يتلهفون للقبض على زمام الحكم ولذلك فهم يغازلون الجيش Wehrmacht ولكيما يستخدمونه لأهدافهم السياسية الحزبية، فهم يحاولون أن يبهروا عقولنا [لنصدق] بأن القوميين الاشتراكيين هم وحدهم يمثلون القوى القومية الحقيقية". وطلب من الجنود الابتعاد عن السياسة و"خدمة الدولة" بمنأى عن الميول والإتجاهات الحزبية، وتناحراها.

وقد ظهر للملأ أن بعض ضباط الجيش الصغار لم ينأوا عن السياسة أو على الأقل عن سياسة النازيين، فبعيد هذا بزمن وجيز حدث ما نجم عنه هيجان في ألمانيا وفتنة ما بين أعلى مراتب هيئة ضباط الجيش واشاع موجة من السرور في المعسكر النازي. في ربيع ١٩٣٠ اعتقل ثلاثة ملازمين

١٥- لم تظهر هذه الخطبة في مجموعة (باينز) أو مجموعة روسي دي سال Roussy de Saler لخطب هتلر (هتلر، نظامي الجديد) نشرت حرفياً في جريدة فولكشر بيوباختر (طبقة الجيش) في ٢٦ آذار ١٩٢٩. وقد اقتبس منها كثيراً في (خريطة سريان النازي) دراسات ابحاث كلية الدولة، واشنطن حزيران ١٩٤٥.

شبان هم لودين Ludin وشيرنجر Schering وفندت Wendt من حامية أولم Ulm ، بتهمة توزيع بيانات نازية في الجيش ومحاولة إقناع زملائهم الضباط أن يوافقوا في حالة قيام ثورة مسلحة نازية- على عدم إطلاق رصاصهم على الثائرين وهذه التهمة الثانية هي الخيانة العظمى إلا أن الجنرال كروينر لم يرغب في إذاعة خبر وجود خيانة في الجيش فحاول إسدال الستار على القضية بتدبير أمر محاكمة المتهمين أمام محكمة عسكرية بتهمة خرق قوانين الضبط العسكري البسيطة. إلا أن تحدي الملازم (شيرينجر) الذي فُح في تهريب ونشر مقالٍ ناريٍّ في جريدة (فولكشر بيوباختر)، جعل ذلك مستحيلاً. وبعد نجاح النازيين في إنتخابات أيلول، بأسبوعٍ واحدٍ أحيل الملازمون الثلاثة الى المحكمة الكبرى في (لايبزك) بتهمة الخيانة العظمى وكان من بين المدافعين عنهم إثنان من المحامين النازيين الصاعدين: هانس فرانك والدكتور كارك ساك Karl Sack^(١٦) لم يستأثر لا المحامون ولا المتهمون باهتمام الرأي العام أثناء المحاكمة ولم تسلط الاضواء فيها الا على (أدولف هتلر) فقد استدعاه فرانك كشاهد. وكان احضاره يتضمن خطوة خطيرة حسب حسابها. قد يكون من المخجل التخلي عن الملازمين الثلاثة الذين برهنوا بنشاطهم على نموّ المشاعر النازية في الجيش التي لا يريد أن يثبطها. وكان من المخرج أن مجهودات النازي في لغم الجيش قد أفتضح أمرها. ولم يكن ليشتمش مع تكتيكه الحالي أن يتهم الإدعاء العام الحزب النازي بأنه منظمة ثورية ترمي الى إسقاط الحكومة بالقوة. ولدحض التهمة الأخيرة اتفق هتلر وفرانك أن يطلبه شاهد دفاع. ولكن الفوهرر كان في الحقيقة يرمي الى غرض أهم من هذا بكثير. كان عليه بإعتباره قائد حركة حققت الآن نجاحاً شعبياً مذهلاً في الإنتخابات- أن يطمئن الجيش ولاسيما ضباطه القادة بأن القوميين الإشتراكيين أبعد من أن يكونوا مصدر تهديد لجيش الرايخ، كما هو الحال في الملازمين النازيين المتهمين، وأن هدفه الحقيقي هو العمل على خلاصه وخلاص ألمانيا.

فمن هذا المنبر الوطني المتمثل في منصة الشهادة أظهر هتلر براعةً في إستخدام مواهبه اللامعة ودهائه في المناورة السياسية. وإن كان عرضه المحكم مليئاً بالخداع والمخاتلة فقليل في ألمانيا، حتى بين الجنرالات من يبدو أنه أدركه. أكد هتلر للمحكمة بكل صراحةٍ [لضباط الجيش أيضاً] أنه لا الحزب ولا الـ(إس. أي) يحاربان الجيش وقال: "لقد كانت هذه وجهة نظري دائماً. وهي أن كل محاولة إستبدال الجيش عمل جنوني. لا فائدة لأيّ منا في إستبدال الجيش... وسنهتم عندما نصل الى الحكم في أن يخرج من جيش الرايخ الحالي جيش عظيم للشعب الألماني".

وعاد يكرر للمحكمة [وللجنرالات] أن الحزب النازي لا يتوسل للوصول الى الحكم بطرق غير الطرق الدستورية وأن الضباط الصغار مخطئون إن توهّموا ان الغرض هو الثورة المسلحة. "إن حركتنا لا تحتاج الى عنف. فسيأتي اليوم الذي سيفهم الوطن الألماني آراءنا وعندئذ سيقف

١٦- قدر لكليهما ان تنتهي حياتهما على المشنقة: فقد حكم بذلك على (ساك) لمساهمته في المؤامرة ضد هتلر (٢٠ تموز ١٩٤٤). أما فرانك فجزاء أعماله في بولندا خدمة لهتلر.

ورائي خمسة وثلاثون مليوناً من الألمان... وعندما سنحرز الحقوق الدستورية سنبنّي الدولة بشكل نراه صواباً".

رئيس المحكمة: "أسيكون هذا بطرق دستورية أيضاً؟"
هتلر: "أجل".

لكن، مع أن هتلر كان يخاطب الجيش وغيره من العناصر المحافظة في ألمانيا، فقد كان عليه أن يأخذ بنظر الاعتبار إندفاع إخوان الحزب الشوري. وهو لا يستطيع أن يتخلى عنهم كما تخلى عن المتهمين الثلاثة. ولذلك اهتبل فرصته عندما ذكره رئيس المحكمة بتصريح له في ١٩٢٣، قبل قيامه بمؤامره الفاشلة بشهر واحد "رؤوس ستندرج فوق الرمل" هل يشجب الزعيم النازي عبارته الآن؟

"[اجاب هتلر] يمكنني التأكيد لك. عندما سينتهي كفاح الحركة القومية الاشتراكية بالنصر، فستقام محكمة قضاء قومية إشتراكية أيضاً. ثم ينتقم من ثورة تشرين الثاني ١٩١٨، وتندرج الرؤوس^(١٧)" لا يستطيع أحد القول أن هتلر لم ينذر بما سيفعل حين يستولي على السلطة لكن النظارة في المحكمة رحبوا به على ما يبدو لأنهم هتفوا للتهديد هتافاً عالياً طويلاً. ومع ان رئيس المحكمة كان غير راضٍ بهذه المقاطعة المخلة لكنه لم يحتج لا هو ولا الادعاء العام على هذه الملاحظة. ولقد كتبت بخط عريض في واجهات الصحف وأثارت ضجة عنيفة لا في ألمانيا وحدها بل في الخارج أيضاً. أما الضباط الصغار الثلاثة الذين أنكر عليهم هتلر تمسهم للقومية الإشتراكية فقد وجدتهم المحكمة مذنبين في فعل تدبير مؤامرة لإقتراف الخيانة العظمى وحكمت عليهم بحكم بسيط أمدته ثمانية عشر شهراً بإعتقال الثكنة- في ألمانيا الجمهورية أدخلت الأحكام القاسية من هذه التهمة لأولئك الذين يساندون الجمهورية^(١٨)! إن شهر أيلول ١٩٣٠ يمثل نقطة تحول في الطريق الذي كان سيبيلج بالتعصب الألماني الى الرايخ الثالث. إن النجاح المفاجيء الذي حققه الحزب النازي في الانتخابات العامة لم يقنع ملايين الناس العاديين وحدهم بل العديد من الزعماء الكبار في ميدان التجارة والجيش فتأكد لهم بأنه يوجد زخم مندفع لا يمكن إيقافه. قد لا يحبون ديماغوغية الحزب وإنحطاطه الخلقي، لكنه من الجهة الأخرى كان يذكي المشاعر القديمة للوطنية الجرمانية والقومية التي كُبحت وخنقت خلال السنوات العشر الأولى من الحكم الجمهوري هذه الحركة تعهدت بقيادة الشعب الألماني في طريق غير طريق الشيوعية والإشتراكية والنظام النقابي والديمقراطية العقيمة! زد على ذلك كله أنها أضرمت ناراً في سائر أرجاء ألمانيا. انها النجاح بعينه!

١٧- المقتبس في جريدة فرانكفورت زايتمگ ٢٦ أيلول ١٩٣٠.

١٨- حقد الملازم شوينگر لما عده خيانة من هتلر فترك الحزب النازي أثناء ما كان معتقلاً وأصبح شيوعياً متحمساً- وكان ممن شتمهم التصفية بالقتل ككل أولئك الذين تحدوا هتلر في حركة تطهير ٣٠ حزيران ١٩٣٤. لكنه استطاع النجاة بشكل ما وعاش ليشهد نهاية هتلر. أما الملازم لودن فقد ظل نازياً متعصباً واختير للرايخشتاغ في ١٩٣٢ وأصبح ضابطاً كبيراً في ال(إس. أي) وال(إس. إس) ثم وزيراً ألمانيا في دولة سلوفاكيا المحمية. حيث ألقى القبض عليه عند التحرير وأعدمه الجيكوسلوفاك.

ولهذا السبب وللتأكيدات التي وجهها هتلر للجيش في محاكمة (لايبزك) Leibzig بدأ بعض الجنرالات الألمان يفكرون ملياً في هل ان القومية الاشتراكية هي ما يُحتاج اليه لتوحيد الشعب وإعادة ألمانيا القديمة وتقوية الجيش عدداً وعدة مرة أخرى ليساعد الوطن على التخلص من قيود معاهدة فرساي المخجلة لقد سرّتهم أجوبة هتلر التي أدلى بها أمام رئيس المحكمة الكبرى عندما سأله عما يقصد بترداده القول والكلام عن "الثورة القومية الألمانية؟". فكان جواب هتلر "هذا يعني بالضبط إنقاذ الشعب الألماني المستعبد في الوقت الحاضر. ألمانيا الآن مكبلة من رجليها ويديها بمعاهدات الصلح... إن القوميين الاشتراكيين لا يعتبرون هذه المعاهدات قانوناً، بل شيئاً فرض على ألمانيا فرضاً بالقوة الغاشمة ونحن لا نرضى أن تلقى أعباؤها على الأجيال المقبلة التي هي براء منها. فان نحن لفظناها واحتججنا عليها بكل ما فينا من قوة، فسنكون والحالة هذه في طريقنا الى الثورة".

وتلك هي وجهة نظر هيئة الضباط أيضاً. لقد انتقد أحد أعضائها الكبار (الجنرال غروينر) إنتقاداً مرأً لأنه سمح بمحاكمة الضباط الملازمين الثلاثة أمام المحكمة الكبرى أما الجنرال (هانس ثون سيكت) القائد العام الأسبق الذي أحيل الى التقاعد قبل فترة وجيزة والمعروف بأنه عبقري الجيش الألماني لما بعد الحرب، وأفضل خلف لشارنهورست Scharnhorst وغنيزناو Geinsenu، فقد احتج للجنرال (غروينر) على إضعافه الروح المعنوية والتماسك في هيئة الضباط. ونهج نهجه الكولونيل (لودفيك بيك) الذي كان سيصبح بعد زمن قليل شخصية هامة في تاريخنا هذا في حين كان عام ١٩٣٠ قائداً للواء المدفعية الخامس في (أولم) وهو اللواء الذي ينتمي اليه الضباط المتهمون الثلاثة. ولم يكتف بالإحتجاج الشديد أمام رؤسائه بسبب توقيفهم، بل شهد في صالحهم أمام المحكمة.

انتهت المحاكمة وقد تكلم هتلر. وشعر الجنرالات بميل أكثر تجاه الحركة التي توهمها فيما مضى تهديداً للجيش. لقد شرح (الجنرال الفرد يودل) Alfred Jodl. رئيس العمليات في القيادة العليا للقوات المسلحة أثناء الحرب العالمية الثانية أمام المحكمة العسكرية في نورمبرگ، المعنى الذي استخلصته هيئة الضباط من شهادة الزعيم النازي في لايبزك. قال: "حتى ذلك الوقت كان الضباط الأقدمون يعتقدون أن هتلر يحاول نفس الجيش فأصبحوا الآن واثقين من العكس". ولم يتردد الجنرال ثون سيكت نفسه عندما أُنْتُخِبَ نائباً للرايخشتاغ ١٩٣٠ أن يضم نفسه الى هتلر علناً مدة من الزمن. وفي ١٩٣٢

حث اخته على التصويت لهتلر في إنتخابات الرئاسة بدلاً من رئيسه الأسبق هندنبرگ.

إنه العمى السياسي الذي كان يمتاز به ضباط الجيش الألماني مبرهنناً على انه قتال لهم في نهاية

١٩- مؤامرة النازيين وعدوانهم [سيشار الى هذا فيما بعد بأحرف NCA الملحق ٨ ص ١١٩٤] وثائق نورمبرگ [سيرمز اليها بد. EC ٤٤٠].

٢٠- أوتو ديتريش: "مع هتلر في السلطة Mit Hitler in der Macht".

٢١- شهادة فونك [مؤامرة النازيين. ملحق A الص ١١٩٤-١٢٠٤، الوثائق EC ٤٤٠] المرجع عينه ج ٥ الص ٤٧٨-٤٩٥ وما بعدها (الوثائق ٢٣٢٨ تصريح تيسن "دفعته لهتلر" ص ٧٩-١٠٨).

٢٢- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٧ الص ٥١٢-٥١٣ [الوثائق EC ٤٥٦].

الشوط، ها أنه يبدأ ينمو ويظهر للعيان.

إن جهالة أقطاب الصناعة والمال السياسية لم تكن تقلّ عماً عن جهالة الجنرالات وقد ادت الى الاعتقاد الخاطيء: أنهم لو نفحوا هتلر بهبات مالية كبيرة لشدّوه اليهم وإن نجح في الوصول الى الحكم لكان رهن اشارتهم وراح زعماء التجارة والصناعة يزدادون ثقة بأن هذا النمساوي الناشيء- كما يسميه كثير منهم في العشرينات- لن يلبث حتى يسيطر على ألمانيا. وخاصة بعد فوز النازيين المذهل في إنتخابات أيلول ١٩٣٠.

وشهد (فالتر فونك) في نورمبرگ قال: "بمجيء ١٩٣١ كنت أنا وأصدقاوي رجال الصناعة واثقين أن الحزب النازي سيستولي على زمام الحكم في المستقبل غير البعيد كثيراً". وفي صيف ذلك العام أعطي (فونك) عملاً مربحاً هو رئاسة تحرير صحيفة ألمانية مالية واسعة الإنتشار والنفوذ تدعى برلينر بورزنزايتمگ Berliner Boersenzeitung وانضم الى الحزب النازي وأصبح همزة وصل بين الحزب وبين زعماء الأعمال الكبار. كان فونك رجلاً قصير القامة بديناً ذا عينين ماكرتين جاحظتين، وجهه يذكر كاتب هذه السطور دائماً بوجه الضفدعة. وقد اوضح في نورمبرگ أن عدداً من أصدقائه الصناعيين ولاسيما المشهورين منهم في صناعات تعدين الراين الكبيرة ألحوا عليه بأن ينضم الى الحركة النازية "لإقناع الحزب بإتخاذ جانب قطاع المشروع الخاص".

"في ذلك الحين كانت زعامة الحزب تعتنق آراء في السياسة الإقتصادية شديدة التناقض والإضطراب. فحاولت شخصياً إنجاز مهمتي بإقناع الزعيم والحزب بان يعتبر الدأب الشخصي والإعتماد الذاتي لرجل الأعمال والقوى الخلاقة للمشاريع الحرة... تحمي أسس السياسة الإقتصادية للحزب وأكد (الفوهرر) شخصياً مرة بعد أخرى في أثناء أحاديثه معي ومع زعماء رجال الصناعة الذين قدمهم له بأنه عدو لإقتصاد الدولة وما يدعى "بالإقتصاد الموجّه" وأنه يعتبر المشروع الحرّ والمنافسة الحرة ضرورية بصورة مطلقة، للحصول على أعلى إنتاج ممكن^(١٩).

وشرع هتلر بعدها- كما روى محافظ بنك الرايخ المقبل ووزير الإقتصاد- يقابل الماليين الألمان الكبار ويهمس في آذانهم بما يحبون سماعه. وكان الحزب في حاجة الى مبالغ كبيرة لتمويل المعارك الإنتخابية ودفع فواتير حساب نفقات دعايته الواسعة المتنامية وتسديد رواتب مئات الموظفين الذين يستخدمهم باوقات دوام كاملة، والصرف على جيشيه الخصوصيين «الإس. أي والإس. إس» وقد أناف عددهم على المائة ألف في ١٩٣٠- أي أكثر عدداً من أفراد جيش الرايخ.

ولم يكن رجال الصناعة والمال مصادر التمويل الوحيدة فالحزب كان يجمع مبالغ كبيرة من مشاركات العضوية والتبرعات والهبات ويبيع صحف الحزب وكتبه ونشراته الدورية. على ان عطايا رجال المال كانت أكبر المصادر طراً. وكلما زاد مقدار ما يدفعونه للحزب، كلما انقصوا مما كانوا يدفعون للأحزاب اليمينية الأخرى التي استمروا في مساعدتها الى ذلك الحين.

ويتحدث أوتو ديتريش Otto Dietrich رئيس دائرة صحافة هتلر للحزب أولاً، ثم للرايخ أخيراً قائلاً:

"قرر الفوهرر فجأة أن يركز جهوده بشكل منتظم في موضوع تثقيف أقطاب الصناعة من ذوي النفوذ الكبير^(٢٠). فمن كان هؤلاء الأقطاب؟

حفظت هوياتهم سراً عن الجميع خلا أضيق حلقة من المقربين لهتلر. كان على الحزب أن يلعب لعبتين في آن واحد. فيترك (شتراسر وگوبلز) والدعيّ (فيدر) يعللون الجماهير بصرخة: "إن القوميين الاشتراكيين" هم في الحقيقة "إشتراكيون" أعداء ملوك المال. ومن الجهة الأخرى كان من الضروري إعتصار المال من أرباب المال لتصرف شؤون الحزب. يقول (ديتريش) "ظل هتلر يجوب ألمانيا طويلاً وعرضاً في النصف الأخير من ١٩٣١ ويعقد إجتماعات خصوصية مع شخصيات (صناعية ومالية) هامة، بعض تلك الإجتماعات في غاية السرية حتى كانت تعقد أحياناً في ممر منعزل. والكتمان لا مفر منه دفعاً لفضول الصحافة وضررها وكان النجاح أكيداً".

هكذا كان التلون السياسي الحزبي المضحك. ومن مفارقاته أن (شتراسر وفيدر وفريك) قاموا في أواخر ١٩٣٠ نيابة عن الحزب النازي بتقديم مشروع قانون يقضي بجعل الحد الأعلى للفائدة المصرفية بنسبة ٤٪ على كل الديون وتأميم الأسهم التي تعود لتجار البورصة والمصرفيين وكل يهود ألمانيا الشرقية دون تعويض وتأميم المصارف الكبرى. فإنتاب هتلر فرعٌ شديد. ليست هذه شيوعية فحسب بل هي إنتحار مالي للحزب. وصدر للحزب أمراً جازماً بسحب المشروع. وعندئذ تقدم به الشيوعيون. وعليك ألا تعجب إذ تعلم أن هتلر طلب من حزبه التصويت ضده.

ولقد علمنا من إفادات (فونك) في سجن نورمبرگ بعد الحرب من كان (على الأقل) بعض أولئك "أقطاب الصناعة المتنفيين" الذين إلتقاهم هتلر. فهناك (إميل كيردورف) بارون الفحم الشديد الكره للنقابات الذي رئيس صندوق ضمان سياسي مشبوه عرف باسم "خزانة الروهر" ساهم برأسماله أصحاب المصالح في مناجم ألمانيا الغربية. إستماله هتلر في مؤتمر الحزب للعام ١٩٢٩. وهناك أيضاً (فريتز تيسن) رئيس اتحاد صناعة الفولاذ الذي عاش الى اليوم الذي شهد ندمه على غباوته وكتب عنه كتاباً أسماه "دفعْتُ لهتلر"، فقد كان أسبق في المساهمة من غيره، إلتقى بهتلر في مونيخ ١٩٢٣ وسحر بذلاقة لسانه وبادر عن طريق لودندورف بتقديم اعانة أولية بمبلغ مائة ألف مارك ذهبي للحزب النازي الذي كان يلفه الخمول إذ ذاك، ولحق به (تيسن) (البرت فويگلر) Albert Voegler وهو أسطون من أساطين اتحاد صناعات الفولاذ أيضاً. وفي الواقع كانت صناعات الفولاذ والفحم المصادر الرئيسة للإعانات الممنوحة لهتلر من قبل رجال الصناعة في آخر مرحلة وثوب له الى الحكم بين ١٩٣٠ و١٩٣٣.

على ان (فونك) ذكر صناعيين آخرين وشركات لم يشأ مديروها أن يتركوا بعيداً عن هذه الوليمة

إذا ما قدر لهتلر الفوز بها أخيراً. والقائمة طويلة، لكنها بعيدة عن الكمال لأن ذاكرة (فونك) أصابها ضعف شديد عندما جيء به إلى نورمبرغ للمحاكمة. ومن أسماء القائمة جورج فون شنتزler Georg von Schnitzler وهو أحد كبار مديري (آي. جي. فاربن I. G. Farben) الكارتل الجبار للمواد الكيماوية. و(أوغست روسترغ August Rosterg) و(أوغست ديهن August Diehn) من أرباب صناعة البوتاس (يتكلم فونك "عن موقف هذه الصناعة الثابت تجاه الفوهرر"). وكونو Cuno من خط سفن (هامبورغ-أمريكا)، وصناعة الفحم البني في أواسط ألمانيا. وشركات مطاط (كونتي Conti)، والقطب الصناعي الكولوني (أوتو فولف Otto Wolf) والبارون كرت فون شرويدر B. Kurt von Schroeder الصيرفي الكولوني الذي كان سينجز دوراً أساسياً في المناورة الأخيرة التي دفعت بالحكم إلى هتلر، وثم عدد من المصارف الكبرى من بينها (الدويتش بانك) و(البنك التجاري الخاص Drutsche Kredit Commerz und Privat B. و(بنك درسندر) ومصرف (دويتش كريدت كيزلشافت Gesellschaft) و(الالبانز Albianz) أعظم دار تأمين في ألمانيا. وجلب فلهمل كبلر Keppler وهو أحد مستشاري هتلر الإقتصاديين عدداً من صناعيي جنوب ألمانيا. وشكل أيضاً جمعية غربية من رجال الأعمال متعلقة برئيس ال(إس. إس) هملر، أطلق عليها اسم (حلقة الإقتصاديين الأصدقاء Freundeskreis der Wirtschaft) التي أصبحت تعرف فيما بعد (بحلقة أصدقاء زعيم الرايخ لل(إس. إس) وهو هملر، وقد جمعت ملايين الماركات لهذا السفاح بالذات حتى يستعين بها على "أبحاثه" في أصول الآرية.

كان هتلر من مطلع عمله السياسي يتلقى المساعدة المالية والإجتماعية من (هوكو بروكمان Hugo Bruckman) الناشر المونيخي الثري. ومن (كارل بخشتاين) صاحب معمل البيانو. وقد أنمت زوجتهما علاقة صداقة وودّ رقيق مع الزعيم النازي ذي النجم الصاعد. وفي قصر بخشتاين في برلين قابل للمرة الأولى عدداً كبيراً من زعماء المال وقادة الجيش وفيه اتخذ بعض القرارات والإجتماعات السرية الحاسمة التي أدت به أخيراً إلى المستشارية.

ولم يقفز كل رجال الأعمال الألمان إلى عربة جوق هتلر بعد حفلة إستعراض الإنتخابات النازية في ١٩٣٠. ويذكر (فونك) أن إتحاد شركات الكهرباء الكبير "زيمنس Siemens" و(أ. ي. ج. A.E.G) بقي مستنكفاً كما فعل ملك المصانع الحربية الشهيرة كروب فون بوهلن وهالباخ Krupp von Bohlen und Halbach وجاء في إعتراقات (فريتز تيسن) أن (كروب) كان "خصماً عنيفاً" لهتلر وفي الأيام الأخيرة التي سبقت تكليف هندنبيرغ له برئاسة الحكومة قام كروب بإنذار الفيلد مارشال الشيخ ونصحه بالآ التي يرتكب مثل هذه حماقة. لكن لم يلبث كروب أن رأى النور وأصبح بسرعة خاطفة (نازياً مصفى!) على حد تعبير (تيسن) النادم^(٢١).

أذن فواضح أن هتلر في آخر مرحلة إندفاع له إلى الحكم كان مدعماً بسند مالي قوي من مجموعة كبيرة من رجال الأعمال الألمان. ولم يعرف بالضبط مقدار ما ساهم به الصيارفة ورجال الأعمال فعلاً

في مالية الحزب النازي في تلك السنوات الثلاث الأخيرة السابقة لكانون الثاني ١٩٣٣. على ان (فونك) يقدرها "بما لا يزيد عن مليوني مارك". ويقدرها تيسن بمبلغ مليوني مارك سنوياً ويقول أنه دفع بالذات مليون مارك، ولكن اذا حكمنا بالمبالغ الكبيرة التي كانت تحت تصرف الحزب في تلك الأيام فان المجموع الكلي للهبات التي قدمها رجال الأعمال هي أكبر بعدة مرات من تلك التقديرات. وإن شكا غوبلز بأنها لم تكن كافية قط. إن الخير الذي فعله عالم الصناعة والمال، ذو العقلية السياسية الطفلة سيوضحه تاريخنا هذا فيما بعد. وكان أحد أعظم المتحمسين من هذا العالم في ذلك الحين (أصبح فيما بعد واحداً من أعظم الخائنين في آمالهم) الدكتور شاخت Schacht الذي إستقال من رأسته لبنك الرايخ في ١٩٣٠ لمعارضته (مشروع يونك) وقابل غورنك في تلك السنة وتعرف بهتلر في ١٩٣١ ووقف كل قابلياته العظيمة خلال العامين التاليين على توثيق علاقات الصداقة بين (الفوهرر) وبين أصدقاء من رجال الصناعة والمال، وقربه أكثر الى الهدف العظيم... المستشارية. إن هذا الساحر الإقتصادي الذي كانت مسؤوليته أعظم من أن تحدّ في قيام الرايخ الثالث وفي مطالع نجاحه. أمسك قلمه في ١٩٣٢ وكتب لهتلر ما يأتي: "لست أشك في ان التطور الحالي للاحداث لا يؤدي إلا الى وصولك الى المستشارية... إن حركتك تندفع في عملها في الداخل بقوة من الحقيقة وبضرورة ماسة، بحيث لا يمكن أن يخطئك الفوز وقتاً طويلاً... وأنتى رحل بي عملي في المستقبل القريب حتى لو رأيتني يوماً مسجوناً في قلعة، فبإمكانك دائماً أن تعتمد عليّ كأني عون مخلص." وذيل أحد الخطابين اللذين اقتبست منهما هذه الفقرة بعبارة "وتقبلوا مني هايل! قوية" (٢٢) هناك "حقيقة بارزة جداً" في الحركة النازية لم يجعل هتلر منها سراً وهي لو ان الحزب سيطر يوماً على ألمانيا فسيسحق بقدمه الحرية الشخصية. وبضمنها حرية الدكتور شاخت وأصدقائه من رجال المال. وكان سيمرّ بعض الوقت على رئيس بنك الرايخ البشوش (وهو المنصب الذي إحتله ثانية زمن هتلر) وزملائه في الصناعة والمال ليصحوا من نومهم على الحقيقة المجردة. ولما كان تاريخنا هذا مليئاً بالمفارقات العجيبة. فإن الزمن ما كان ليتمدّد به (الدكتور شاخت) ليدللّ على أنه نبيّ جيد ليس بخصوص مستشارية هتلر وحدها، بل بخصوص رؤية هتلر إيّاه سجيناً وإن لم يكن ذلك في قلعة بل في معسكر إعتقال وهو أسوأ، وليس بوصفه "عوناً مخلصاً" بل كقوة معارضة له، وهنا فقط كان مخطئاً في نبوءته.

الآن وفي مطلع العام ١٩٣١، كان هتلر قد جمع حوله في الحزب عصبة صغيرة من رجال متعصبين قساة عتاة، اعانوه في إندفاعه الأخير الى الحكم. رجال كانوا سيظلون الى جانبه يساعدونه في المحافظة على ذلك الحكم خلال فترة الرايخ الثالث وإن قدر لطائفة منهم- كانوا أقرب اليه من الجميع، وربما كانوا أقدرهم وأشدّهم وحشية- أن لا يعيشوا السنة الثانية للحكم النازي. هناك خمسة ارتفعوا

عن الباقين في تلك الأيام: وهم كريغور شتراسر، وروهم، وگورنگ وگوبلز وفريك.
عاد (گورنگ) الى ألمانيا في نهاية ١٩٢٧ على اثر صدور العفو العام السياسي الذي ساعد
الشيوعيون الأحزاب اليمينية على إمراره في الرايخشتاغ. ففي السويد التي قضى معظم أيام نفيه
حقق لنفسه الشفاء من داء الإدمان على المخدرات في مصح (لانكبرو Langbro) وعندما تماثل للشفاء
اشتغل في شركة سويدية للطيران ليقوم أوده. أصبح بطل الحرب العالمية الوسيم الرشيق، بديناً الآن،
إلا أنه لم يفقد شيئاً من حيويته أو إهتمامه بالحياة واستقر في شقة عازب فخمة صغيرة في
"باديششتراسه Badischestrasse" ببرلين (أصبحت زوجته المصروعة التي كان شديد الكلف بها، بدء
السل وبقيت في السويد وقد أقعدها مرضها الويل) وكان يحصل على مواد عيشته كمستشار
لشركات طيران ولخطوط النقل الجوية الألمانية (لوفتهانزه) وأغنى علاقاته الإجتماعية. هذه العلاقات
كانت واسعة تمتد من ولي العهد والأمير فيلبس الذي تزوج الأميرة مافالدا Mafalda ابنة ملك
إيطاليا. الى فريتز تيسن وغيره من ملوك المال في عالم الأعمال فضلاً عن عدد من كبار ضباط
الجيش.

هؤلاء هم الأصدقاء الذين كان هتلر يفتقر الى أمثالهم ويحتاجهم وسرعان ما أصبح گورنگ ناشطاً
في تقديم الزعيم النازي لأصدقائه وتبديد الرائحة الكريهة التي نشرها بعض السفلة من ذوي القمصان
الرمادية في أوساط الطبقة العليا. وفي ١٩٢٨ اختار هتلر "گورنگ" عضواً للرايخشتاغ من الإثنى
عشر نائباً الذين يمثلون الحزب. وقد أصبح رئيساً للمجلس عندما صار الحزب النازي أكبر الأحزاب
الممثلة في ١٩٣٢. وفي دائرة رئيس الرايخشتاغ الرسمية عقد كثير من الإجتماعات لحبك الدسائس
التي أدت الى نصر الحزب النهائي. وفيه أيضاً- إن استعجلنا الزمن- وضعت الخطة التي أعانت هتلر
على البقاء في الحكم بعد تعيينه مستشاراً ألا وهي خطة إحراق الرايخشتاغ.

تقطعت الأسباب بين هتلر وروهم في ١٩٢٥، وبعد ذلك بفترة نزح روهم الى بوليفيا ليعمل في
جيشها برتبة مقدم. وفي أواخر ١٩٣٠ استنجد به هتلر وناشده الرجوع لقيادة ال(إس. أي) من جديد.
بعد ان فقدت السيطرة على أعضائه وعلى قادته أيضاً. في الظاهر لإعتقاده بقيام الثورة النازية
بالقوة - وشيكاً. وتزايدت حوادث شغبهم وتعرضهم للناس في الشوارع. وكثرت حوادث قتلهم
لخصومهم السياسيين. حتى لم يعد يجري إقتراع عام أو اقليمي أو بلدي دون أن يحصل أثناءه
معارك وحشية في الشوارع والأرصفة.

وهنا علينا أن نأتي الى ذكر حادثة، لأنها أمدت القومية الإشتراكية بشهيدها الأعظم. كان
(هورست فيسل) واحداً من قادة ال(إس. أي) الصغار في برلين، وهو ابن قس بروتستانت، هجر
أسرته ودراساته وراح يعيش في حي فقير مع قحبة متقاعد مخصصاً حياته للنضال في سبيل

النازية. ويؤكد كثيرون من خصوم النازية أن الشاب كل يرتزق من مهنة القوادة، وربما كانت التهمة مبالغاً فيها. لكن الثابت أن عشراؤه وأصدقائه كانوا كلهم قوادين وعواهر. قتله بعض الشيوعيين في شباط ١٩٣٠. وكان النسيان سيطويه كما طوى مئات من ضحايا قتال الشوارع من الطرفين لو لم يتفق أنه ترك نشيداً من نظمه وتلحينه. ذلك هو (نشيد الهورست فيسسل) الذي سرعان ما أصبح النشيد الرسمي للحزب النازي ثم النشيد القومي الرسمي الذي يلي مباشرة "نشيد ألمانيا فوق الجميع" في عهد الرايخ الثالث. وأصبح (هورست فيسسل) بفضل دعاية (گوبلز) البارعة واحداً من أعظم البطولات الاسطورية في الحركة. وعدّ مثلاً أعلى خالصاً ببذله حياته في سبيل القضية.

في الوقت الذي تسلم (روهم) قيادة ال(إس. أي) كان (گريگور شتراسر) ثاني شخصية في الحزب النازي بلا منازع. خطيب بليغ ساحر ومنظر بارع ورئيس أهم دائرة من دوائر الحزب أي المنظمة السياسية، وهو منصب يمنحه نفوذاً عظيماً على القادة المحليين والمنطقيين لأنه يشرف على أعمالهم. وبطبيعته الباقارية السمحاء كان أحبّ القادة الى أفراد الحزب بعد هتلر. وكان خلافاً لهتلر- يتمتع بثقة شخصية، بل حتى بمحبة من معظم خصومه السياسيين. وكان يوجد عدد كبير من داخل الحزب وخارجه ممن آمنوا أن شتراسر قد يخلف الزعيم النمساوي الجهم المتهور. هذه النظرة كانت سائدة بصورة خاصة في أوساط الجيش وقصر الرئاسة. وقُذِف أخوه (أوتو شتراسر) الى زوايا الإهمال فقد كان من سوء حظه أنه نظر الى كلمة "إشتراكية" بجد، ونظر الى كلمة "عمال" بجد أكثر في عنوان الحزب الرسمي "الحزب القومي الإشتراكي للعمال الألمان". فساند اضرابات معينة قام بها أعضاء النقابات الإشتراكيون وطالب أن يدعم الحزب شعار تأميم المصانع. وهذا بالطبع من قبيل الكفر والإلحاد عند هتلر فاتهمه بأنه ارتكب الإثم الأعظم "الديمقراطية والليبرالية" وفي يومي ٢١ و ٢٢ من أيار ١٩٣٠ جرى خصام حاد بينه وبين تابعه الثائر وطلب منه الخضوع التام. ولما رفض ذلك طرد من الحزب فحاول أن يقيم حركة (إشتراكية وطنية) حقيقية أصبحت تعرف باسم "إتحاد القوميين الإشتراكيين الثوريين" واشتهرت باسم "الجبهة السوداء" ولكنها في إنتخابات أيلول فشلت تماماً في الحصول على عدد كبير من أصوات النازيين.

بقي (گوبلز) العضو الرابع من الخمسة الكبار حول هتلر، خصماً ومنافساً (لگريگور شتراسر) منذ إنفصالهما في ١٩٢٦. وبعد سنتين استخلف شتراسر في رئاسة المنظمة السياسية. وبقي (گاولايتراً) لمدينة برلين. وقد أرضت هتلر مجهوداته الناجحة في إعادة تنظيم الحزب وما حققته مواهبه في الدعاية له. وكان لسانه المعسول، اللاذع وحضور ذهنه السبب الذي باعد ما بينه وبين أعوان هتلر الكبار الآخرين ولم يثقوا به. لكن الزعيم النازي كان يسره وجود التنافر بين مرؤوسيه الأقطاب، لأن ذلك يحميه على الأقل من تأمرهم على زعامته مجتمعين. لم يكن يثق بشتراسر ثقة تامة إلا أنه كان على أتم الثقة بولاء گوبلز. زد على هذا إن الرجل الأقزل المتعصب القومي كان يهذي بأراء مفيدة له. وأخيراً أصبح بمواهبه في الهجاء الصحفي واثارة الخواطر (في ذلك الزمن اختص بجريدة في برلين

تدعى "در انكريف (Der Angriff)" لا يقدر بضمن للحزب.

كان قلهلم فريك الخامس والأخير من الحلقة، الشخصية الوحيدة التي لا تتميز بلون أو طابع، هو مثال للموظف الحكومي الألماني، كان ضابط شرطة صغير في مونيخ قبل ١٩٢٣. واستخدمه هتلر جاسوساً في مقر الشرطة وظلّ يشعر بالامتنان منه دائماً. وكثيراً ما كان يضطلع بأعمال لا شكر وراءها. وبإقتراح من هتلر أصبح أول نازي يتسنى منصباً بلدياً- في تورينكيا- ثم أصبح زعيم الحزب النازي البرلماني في الرايخشتاغ. كان ولاؤه أشبه بولاء الكلب، مجد مثابر، وبسبب الواجهة التي تبدو لطبيعته الانطوائية ودماثة أخلاقه كان مفيداً للإتصال بالموظفين المترددين في حكومة الجمهورية وقدر لبعض رجال الحزب الأقل شهرة من هؤلاء في أوائل الثلاثينات أن يذيع صيتهم ويشتبه أمرهم وينالوا سلطاناً مخيفاً في الرايخ الثالث. فهاينريخ هملمر مربي الدجاج الريفي الشبيه بمعلم مدرسة دمث حامل الذكر وهو لا يلبس نظارته العاطلة عن الاطار والحائز على دبلوم في الزراعة من معهد "مونيخ تكنيش هكشولي Technisch Hochschule بدأ يبنّي تدريجياً حرس هتلر الپريتوري: ال(إس. إس) ذوي الستر السوداء إلا أنه عمل في ظلّ (روهم) قائد كل من ال(إس. أي) وال(إس. إس). وكان ذكره غير نابه خارج موطنه بافاريا حتى في أوساط الحزب. وهناك (الدكتور روبرت لاي) الصيدلاني مدمن الخمر (گولايتير) مدينة (كولون) و(هانز فرانك) المحامي الشاب النابه وقائد الدائرة القضائية في الحزب و(فالتر داره Walthar Darre) المولود في الأرجنتين ١٨٩٥ وهو خبير زراعي قدير كسبه للحزب رودولف هس وأصبح كتابه "الفلاحون مصدر حياة العرق النورديكي" سبباً لإهتمام هتلر به وتقليده منصب رئاسة الدائرة الزراعية للحزب. (ورودلف هس) نفسه! المخلص إخلاص الكلب للزعيم، غير الطموح بطبيعته لم يكن يحمل إلا لقب سكرتير هتلر الخاص. ولبه في امانة السرّ مارتن بورمان Martin Bormann وهو رجل أشبه بحيوان الخلد، يفضل أن يحفر في تجاويف حياة الحزب المظلمة لتوسيع دائرة دسائسه. وكان قد قضى في السجن عاماً واحداً لإشتراكه في حادث قتل سياسي. وكان زعيم شباب الرايخ بالدور فون شيراخ Baldur Von Schirach شاباً ذا عقلية رومانية ومنظماً كثير الحيوية. أمه أمريكية وجدّه الأعلى ضابط أمريكي فقد ساقه في معركة (بُل رن Bull Run) وكان يقول لحراسه الأميركان في نورمبرگ بأنه أصبح خصماً للسامية في سن السابعة عشرة بعد قراءته كتاباً عنوانه "اليهودي الأبدي Eternal Jew" لمؤلفه (هنري فورد Henry Ford).

بقي ايضاً (ألفريد روزنبرگ) الفيلسوف الدعيّ الشديد القطوب الضحل التفكير من البلطيق. كان كما رأينا واحداً من معلمي هتلر الأوائل الذي راح منذ إنقلاب ١٩٢٣ يفرّخ كتباً لا تُحصى ولا تعد في مواضيع مشوشة ملتاثة بأسلوب ركيك فجّ، توجّها بكتاب يقع في سبعمئة صحيفة أسماه "خرافة القرن العشرين" وهو مجموعة مضحكة من الآراء سخيفة في موضوع التفوق النورديكي. أشبع عنه في الأوساط النازية بأنه "ثمرة لما اعتبر سعة إطلاع وعبقريّة". كتاب كثيراً ما قال هتلر عنه على سبيل الدعاية أنه حاول قراءته فلم ينجح. مما دفع شيراخ الذي كان يعدّ نفسه كاتباً الى القول مرة: إن روزنبرگ "رجل باع من كتاب لم يقرأه أحد عدداً من النسخ يفوق ما باع أيّ كاتب" ففي السنوات

العشر الأولى عقب نشره ١٩٣٠ بيع منه أكثر من نصف مليون نسخة. كان هتلر من البداية الى النهاية شديد العطف برّ الفؤاد بهذا الرجل الرقيق الغبيّ المتردد. فخلع عليه مناصب عديدة في الحزب كرأسه تحرير القولكشر بيوباختر والاشراف على غيرها من نشرات الحزب. وعيّنه واحداً من النواب في الرايخشتاغ فمثّل الحزب في لجنة الشؤون الخارجية.

ومضت السنة ١٩٣١ في مسراها القلق. بخمسة ملايين عاطل من العمال الأجراء والخراب محقق بالطبقات الوسطى. والفلاحون عاجزون عن الوفاء باقسط الرهن والبرلمان مشلول والحكومة تزداد غرقاً في المشاكل والرئيس البالغ أربعاً وثمانين عاماً يتقدم بخطى حثيثة الى خرف الشيخوخة. وانتفخت صدور أقطاب النازيين ثقة بان الانتظار لن يطول كما صرح شتراسر علناً "كل ما يصلح للاسهام بالكارثة... هو جيد جداً لنا ولثورتنا الجرمانية".

الفصل الثاني

آخر أيام الجمهورية

١٩٣١ - ١٩٣٣

- ١ -

من الإضطراب والفوضى اللتين عمّتا الحياة في ألمانيا. برزت الآن شخصية عجيبة تائهة قدر صاحبها أكثر من أي فردٍ واحدٍ آخر أن يحفر للجمهورية قبرها. شخصية تبوّأت منصب المستشارية فترة قصيرة، وحاولت - وتلك من سخریات القدر، في واحدة من آخر إنحرافات العجيبة والمدهشة محاولة يائسة لإنقاذ الجمهورية عندما فرط الأمر ولم يعد ثم حيلة فيه. هذه الشخصية هي "كورت فون شلايخر" واسمه يعني باللغة الألمانية "الدسّاس" أو "النشال".

كان في عام ١٩٣١ لفتنت جنرال في الجيش^(١). ولد في ١٨٨٢ ودخل الجيش في الثامنة عشرة برتبة ملازم في لواء هندنبيرك القديم (حرس لواء المشاة الثالث) وفيها أصبح من أخلص أصدقاء (أوسكار فون هندنبيرك) ابن الرئيس الفيلد مارشال. وكانت صداقته الثانية لاتقل قيمة عن الأولى وهي مع (الجنرال كروينر) الذي انتبه الى ذكائه في الاكاديمية الحربية، فجاء به ضابطاً شاباً ليكون مرافقه عندما استخلف لودندورف في القيادة العليا ١٩١٨. ووظيفته الرئيسة "ضابط مكتب" - لم ير إلا القليل من الخدمة الفعلية وكان هذا في الجبهة الشرقية - وبقي بعدها قريباً من مراكز السلطة في الجيش وفي جمهورية (فايمر) حيث سحر بسرعة خاطره ولطف أخلاقه وفطنته في الشؤون السياسية كلاً من الجنرالات والساسة. قام في زمن (الجنرال فون سيكت) بدورٍ عظيم الأهمية في المعاونة على تنظيم فرق (المحاربين الأحرار) غير القانوني ومثيله "جيش الرايخ الأسود" الذي حفظ سره في طيات من الكتيمان الشديد وكان حجر الزاوية في المفاوضات السرية مع موسكو التي أدّت الى التدريب المتخفّي لضباط سلاح الجو والدبابات الألمان في روسيا السوفيتية وتأسيس مصانع ألمانية لإنتاج الأسلحة هناك. حَلَّ مشاكل موهوب يهيم حُباً بحيك الدسائس، كان جيد العمل في الخفاء والظلام ولم يعرف الناس إسمه ولم يشتهر حتى بداية العقد الثالث من القرن. إلا أنه كان يسترعي المزيد من الإهتمام قبلذاك في بندلرشتراسه Bendlerstrasse حيث مقر وزارة الحرب. وفي قلهمشتراسه حيث تقع

١ - تعدل رتبة ميجر جنرال في الجيش الأمريكي.



هتلر مع هندنبرگ

مقدرات الوزارات
الأخرى.

في كانون الثاني
١٩٢٨ استخدم نفوذه
المتزايد عند الرئيس
هندنبرگ الذي حظي
بصداقته عن طريق ابنه
(أوسكار) لتعيين
رئيسه الأسبق (الجنرال
گروينر) وزيراً للدفاع.
وهو أول عسكري يتقلد
هذا المنصب في عهد
الجمهورية. فما تردد في
ان يجعل (شلايخر) يده

اليمنى في الوزارة. وجعله مسؤولاً عن الدائرة الجديدة (مكتب الوزارة Minister amt) حيث كان يصرف
الشؤون السياسية للجيش والأسطول واطلق (الجنرال گروينر) عليه "عمدتي في السياسة" وأودع اليه
تمشية علاقات الجيش بالوزارات الأخريات وأقطاب السياسة. ولم تكن سلطة شلايخر في مركزه هذا
قوية في هيئة الضباط فحسب بل بدأ يظهر قوة في السياسة. ففي الجيش كان قادراً على رفع ضباط
كبار وخفض ضباط كبار وراح يقوم بذلك فتخلص من الجنرال فون بلومبرگ Von Blomberg نائب
القائد العام للجيش في ١٩٣٠ بحيلة محبوكة الاطراف وأحل محله صديقاً قديماً من أيام لواء مشاة
الحرس الثالث، هو الجنرال فون هامرشتاين Von Hammerstein. وفي ربيع السنة نفسها قام بأول
محاولاته -كما رأينا- لإختيار مستشار بنفسه، وبمساعدة الجيش فكلم هندنبرگ في أمر تعيين
(هاينريخ بروننگ) للمنصب.

ويتحقق هذا النصر السياسي، راح يعمل في ما كان يرى أنه الخطوة الأولى في مشروع عظيم يبذل
به شكل الجمهورية. فكرة ظلت تساور رأسه وتتكامل بمرور الزمن. فقد رأى بوضوح تام -ومن كان
أعمى عن ذلك؟- أسباب ضعف جمهورية فايمر. هناك كثير من الأحزاب السياسية (في سنة ١٩٣٠
حصلت عشرة أحزاب، على ما يزيد عن مليون صوت لكل واحد منها). وهي كثيرة جداً لغايات
العبور منصرفه تماماً الى تعقيب مصالحها الإقتصادية والإجتماعية الخاصة التي تمثلها بحيث كانت
أعجز عن دفن خلافاتها وتأليف أغلبية ثابتة في الرايخشتاغ تستطيع أن تستند حكومة مستقرة
كفوءة لمواجهة الأزمات الكبيرة التي كانت تقصف بالبلاد في أوائل الثلاثينات. لقد أصبحت الحكومة

البرلمانية شيئاً أشبه بما يطلق عليه الألمان "تجارة البقر Kuhhandel" بالأحزاب تساوّم على منافع خاصة للجماعات التي إنتخبتها. وإلى سقر ويّس المصير بالمصالح الوطنية ولا عجب أن بروننك تقلد منصب المستشارية في ٢٨ آذار ١٩٣٠، وجد نفسه عاجزاً عن الحصول على الأغلبية البرلمانية لرسم أيّ سياسة لحكومته- لا من اليسار ولا من الوسط ولا اليمين. وإن عليه اللجوء الى المادة ٤٨ من الدستور إن أراد تمشية أمور الحكومة فحسب. وأن يعمل شيئاً حول الشلل الإقتصادي. فهي تسمح له بالحكم بمرسوم جمهوري إن وافق رئيس الجمهورية.

بهذا الشكل كان (شلايخر) يريد أن يحكم (بروننك) تماماً. فهو يبنّي حكومة قوية تحت ضبط يدٍ باطشة يد رئيس الجمهورية الذي يمثل إرادة الشعب لإنتخابه بالإقتراع العام، ويتمتع بثقة الجيش. على حدّ رأي شلايخر. إن لم يستطع الرايخشتاغ المنتخب بشكل ديمقراطي أن يقيم حكومة ثابتة. فعلى الرئيس المنتخب بشكل ديمقراطي أن يقيمها. وكان متأكداً أن ما تريده أغلبية الشعب الألماني هو حكومة ثابتة القدمين تأخذ بيدهم وتنتشلهم من محتهم اليائسة وقد اظهرت الإنتخابات التي أجراها بروننك في أيلول أن أغلبية الألمان لا تريد ذلك في الواقع، أو على أقل تقدير أنها لا تريد أن تخرج من التيه بمعونة ذلك الشكل من الحكومة التي اختارها شلايخر وأصدقائه في الجيش والقصر الجمهوري.

في الواقع ان (شلايخر) ارتكب خطأين شنيعين. فبوضعه بروننك على كرسي المستشارية وتشجيعه على الحكم بمرسوم جمهوري هدم أسس قوة الجيش في البلاد- فمركزه (فوق السياسة) الذي نبذه كان سيؤدي الى دماره ودمار ألمانيا معه. كما انه أساء الحساب بخصوص الأصوات. فبعد أن وجد أن ستة ملايين ونصف مليون منها قد صوّت للحزب النازي في ١٤ أيلول ١٩٣٠، بينما لم يصوّت له قبل سنتين غير (٨١٠٠٠٠)، أدرك السياسي الجنرال بان الواجب يقضي عليه إتخاذ خطة جديدة.

قبل ختام السنة كان قد حقق إتصاله (بروهم) الذي عاد وشيكاً من بوليشيا، وبكريغور شتراسر. وكان هذا أول إتصال جدّي بين النازيين وبين أولئك الذين يستأثرون بالقوة السياسية في الجمهورية وبتطور هذه العلاقات في غضون سنتين أوصلت أدولف هتلر الى هدفه وأدت بالجنرال فون شلايخر الى سقوطه ثم مقتله.

بعد ثلاثة أسابيع من انتحار (گيلي راوبال) بنت اخت هتلر وحبيبته، وفي العاشر من تشرين الأول ١٩٣١ تم أول مقابلة للزعيم النازي بالرئيس هندنبرگ. وكان المسؤول عن ترتيب المقابلة شلايخر المنشغل آنذاك في حيك خيوط دسياسة جديدة. فقد سبق له في أوائل الخريف أن قابله ورتب له موعداً مع كل من المستشار والرئيس. كان يحتل قاع مجتمته مثل بروننك، سؤال ملّح. ماذا يستوجب عمله عندما تنتهي فترة رئاسة هندنبرگ في نهاية ربيع ١٩٣٢ أي بعد سبع سنوات؟ سيكون الفيلد مارشال في الخامسة والثمانين. والفترات التي يصفو فيها ذهنه أصبحت الآن تتناقص. زد على هذا إن لم يرشح نفسه للمرة الثانية فان هتلر الذي لم يصبح بعد مواطناً ألمانياً شرعاً سيجاهد لترشيح نفسه كما يدرك الكل، فيفوز في الإنتخابات ويصبح رئيساً. وفي أيام الصيف أطال المستشار العالم التأمل

ساعات اثر ساعات في محنة ألمانيا العظيمة. كان يدرك جلياً ان حكومته أمست أبغض حكومة قامت في الجمهورية على الإطلاق. فلأجل معالجة الكساد أصدر قانون تخفيض الأجور والرواتب، وأنزل أسعار البضائع وفرض قيوداً قاسية على الأعمال التجارية والمالية والخدمات الإجتماعية. واطلق عليه كُلاً من الشيوعيين والنازيين لقب "مستشار الجوع" مع ذلك ظن أنه وجد مخرجاً وأنه بالآخر سيتمكن من إقامة ألمانيا مستقرة حرة يعمها الرخاء. سيحاول فتح باب المفاوضات مع الحلفاء لإلغاء التعويضات التي أرجيء تسديدها بقرار (هوفر) بتأجيل الديون. وسيحاول في مؤتمر نزع السلاح المقرر عقده في السنة القادمة إما ان يحمل الحلفاء على الإيفاء بوعدهم في معاهدة فرساي بنزع سلاح ألمانيا الى الحد المنصوص عليه، وإما أن يتركوا ألمانيا تقضي قدماً وبصورة علنية في تنفيذ برنامج للتسلح معتدل. وهو برنامج كان قد بوشر به فعلاً وبصورة سرية وبإغضاء منه. وبهذا يكسر آخر قيد من قيود معاهدة الصلح لتعود ألمانيا فتبرز قريئةً للدول العظمى القوية. وفكر أن ذلك سيهبط على ألمانيا كنعمة من النعم لا بل سيفتح صفحة جديدة من الثقة بها في العالم الغربي وسيقضي على الأزمة الاقتصادية التي حثت على رأس الشعب الألماني تراب هذا الشقاء. وهو بهذا سيجرد النازيين من حجتهم ويحوك الريح عن أشرعتهم.

وصح عزم بروننگ على أن يندفع الى معالجة شؤون الداخل بجرأة أيضاً وأن يجري تعديلاً جوهرياً في نصوص الدستور بالإتفاق مع الأحزاب الكبرى كلها ما عدا الشيوعيين ويستهدف التعديل إعادة ملكية الهوهنزلرن. حتى لو أقنع هندنبرگ بإعادة ترشيح نفسه فليس من المتوقع وهو في هذه السن المتقدمة أن يكمل فترة السبع سنوات ولو توفي بعد سنة أو إثنين فسيبقى السبيل نفسه مفتوحاً أمام هتلر لينتخب رئيساً للجمهورية. وللحيلولة دون ذلك ولضمان ثبات وتفوق سلطة رئيس الدولة إخطت الخطة التالية: تلغى إنتخابات رئاسة الجمهورية للسنة ١٩٣٢ وقدّ فترة حكم الرئيس الحالي بقرار يصوّت عليه ثلثا أعضاء مجلس الرايخشتاغ والرايخسرات Reichsrat بمقتضى نصوص الدستور، وبعد ان يتم ذلك يقترح على مجلس البرلمان إعلان الملكية على ان يكون رئيس الجمهورية وصياً على العرش. وبموته يؤتى بأحد أنجال ولي العهد الى عرش هوهنزلرن. هذا العمل سيأخذ من النازيين زمام المبادرة أيضاً. وفي واقع الحال كان (بروننگ) واثقاً أن ذلك يعني نهايتهم كقوة سياسية.

لكن الرئيس الهرم بدا غير مكترث، فهو بوصفه قائد الجيش الإمبراطوري. الذي كان من واجبه أن يخبر القيصر في يوم السقوط الأسود- تشرين الثاني ١٩١٨ في (شيبا) بأن نزوله عن العرش أمر لا مفرّ منه وان الملكية انتهت، لا يستطيع الآن أن يفكر بإعتلاء أي فردٍ من هوهنزلرن ذلك العرش، إلاّ القيصر نفسه الذي كان يعيش آنذاك في دورن Doorn بهولندا، وعندما شرح له بروننگ أن الديمقراطيين الإشتراكيين ونقابات العمال الذين لم يشجعوا خطته إلا بعد تردد كبير، وللسبب الوحيد وهو ان الخطة هي آخر فرصة يائسة لإيقاف هتلر، لن يقبلوا أبداً بإعادة قلهمم الثاني أو ابنه الأكبر، وأكثر من هذا انه لو أعيدت الملكية فيجب أن تكون دستورية ديمقراطية على غرار النظام الملكي

البريطاني. بعد ان سمع المارشال الشيخ هذه الأقوال من مستشاره، بلغ به السخط حدًا أن صرفه من لدنه حالاً وبعد أسبوع استدعاه ليبلغه أنه لن يرشح نفسه للإنتخابات ثانية.

وفي الوقت نفسه تمت مقابلتا هتلر لبروننك أولاً ولهندنبرگ ثانياً لأول مرة. وكلتاهما خلفتا أثراً سيئاً بالنسبة للزعيم النازي. إنه لم يشف بعد من ضربة انتحار (غيلي راوبال) وكان ساهم الفكر غير واثق من نفسه. فأجاب على إقتراح براوننك بمساندة النازيين لإستمرارية هندنبرگ في الرئاسة، بسيل دافق من الكلام الطويل ضدّ الجمهورية مما لم يبق شكاً في أنه لايعضد خطة المستشار. أما مع هندنبرگ فقد كان كثير القلق والعصبية وحاول أن يجلب اليه إهتمام السيّد الهرم بخطبة طويلة لكنه فشل فشلاً ذريعاً. لم يثر هذا "النائب العريف الغجري" على حدّ قوله أيّ إهتمام فيه عند أول مقابلة له. وقال لشلايخر أن رجلاً كهذا قد يصير وزيراً للبريد- لكنه لا يصلح قطّ للمستشارية- عبارة كان الفيلد مارشال سيبلعها بلعاً فيما بعد.

وبحافزٍ مفاجيء أسرع هتلر الى باد هارزبرگ Bad Harzburg حيث سيقام في اليوم التالي الموافق ١١ تشرين الأول مهرجان وتظاهرة ضخمة "للمعارضة القومية" ضدّ حكومتي ألمانيا وبروسيا. كان هذا إجتماعاً لا لليمين المتطرف الذي يمثله القوميون الإشتراكيون فحسب بل للقوى المحافظة القديمة الرجعية وهي حزب هوكنبرگ Hugenberg: الوطني الألماني. والمحاربون القدماء للجيش الخاص اليمينيون، وذوو الخوذ الفولاذية Stahlhelm وما يدعى بشباب بسمارك، وعصبة الاقطاعيين الزراعيين اليونكرز ومجموعة عجيبة من الجنرالات القدماء. لكن الزعيم النازي لم يعجبه المهرجان. فقد احتقر الستر الرسمية السوداء والقبعات العالية ومخلفات النظام القديم الكثيرة الأوسمة مما كان يرى الإتصال الوثيق به خطراً على حركة (ثورية) كحركته. واستعجل في خطبته ببرودة وقلة اكتراث وترك محلّ الإجتماع قبل إستعراض (ذوي الخوذ الفولاذية) الذي اظهر عدداً يزيد عن عدد ال(إس. أي) مما أمضه. إن جبهة (هارزبرگ) التي اقيمت في ذلك اليوم والتي مثلت محاولة المحافظين ذوي الخطّ القديم- إدخال النازيين في جبهة متحدة للشروع في هجوم ختامي على الجمهورية (كانت تطالب بإستقالة براوننك فوراً)، هذه الجبهة كانت كالطفل الذي ولد ميتاً. فهتلر لم يكن ينوي أن يقوم بدور التابع لهؤلاء السادة الذين كان يرى عقولهم قد دفنت في الماضي الذي لا فرصة له في العودة. ربما استخدمهم بصورة مؤقتة إن بذلوا عوناً في نفس (نظام فايمر) وإن وجد فيهم مصدراً مالياً جديداً (وكانوا في هذا عند حسن ظنه) إلا أنه لن يكون بدوره ألعبوة في يدهم.

ما مرّ على جبهة هارزبرگ أيام قليلة حتى كانت تواجه إنهيّاراً. فقد عادت العناصر التي كوّنتها الى التناحر فيما بينهما مرة أخرى. بإستثناء حقيقة واحدة. رفض حزب (هوكنبرگ) وهتلر أن يوافقا على إقتراح (بروننك) بتمديد فترة رئاسة هندنبرگ. وفي مطلع ١٩٣٢ جدد المستشار جهوده لزحزحتهم عن موقفهما. وكان قد أفلح بعد صعوبات جمة في حمل الرئيس على قبول البقاء في المنصب إن مدّد البرلمان فترة الرئاسة وبهذا لم يعد ضرورياً أن يحمل على منكبه عبء المعركة

الانتخابية الطاحنة. فدعا (بروننك) هتلر الى برلين لإجراء مداولات جديدة. ووصلت البرقية عندما كان (الفوهرر) يتحدث مع هس وروزنبرگ في مسائل مكاتب تحرير (الفولكشر بيواختر) في برلين. فصاح وهو يقذف بالبرقية الى وجههما - الآن وضعتهم في جيبي. لقد اعترفوا بي شريكاً في مفاوضاتهم^(٢).

وفي السابع من كانون الثاني قابل هتلر بروننك و شلايخر. وتمت مقابلة ثانية في العاشر منه. وكرر بروننك إقتراحه في ان يوافق النازيون على تمديد فترة رئاسة (هندنبرگ) فان أتم ذلك، وبعد تسويته الشبكة لمشكلة إلغاء التعويضات والمساواة في التسليح - فإنه سوف يستقبل من المستشارية. وتزعم مصادر أخرى -والأمر موضع نزاع- ان بروننك وضع طعماً ثانياً في مصيدته؛ فقد عرض على هتلر ان يقترح إسمه للرئيس ليخلفه في المستشارية^(٣).

لم يعط هتلر جواباً فاطعاً فوراً ونزل فندق (كايزرهوف) فإستطلع آراء مستشاريه. وكان كريگور شتراسر يحبذ قبول إقتراح بروننك متعللاً ان هندنبرگ سيفوز في الإنتخابات اذا أصر النازيون على إجرائها أما (گوبلز) و(روهم) فقد حبذا رفض الإقتراح حالاً. وكتب گوبلز في يوميته المؤرخة ٧ كانون الثاني ما يأتي: "ان جوهر القضية ليست رئاسة الجمهورية، (فبروننك) يريد تقوية مركزه الى زمن غير محدود لا غير... لقد بدأت لعبة الشطرنج على الحكم... الأمر الرئيسي هو ان نبقى أقوياء ولا نقوم بعمليات مساومة". وكان قد كتب قبلها بليلة واحدة "هناك رجل في الحزب لا يثق به أحد... هو كريگور شتراسر"^(٤). وهتلر نفسه لم يكن يرى داعياً لتقوية ساعد (بروننك) وبهذا يمد في عمر الجمهورية زمناً آخر. لكنه كان خلافاً لهوگنبرگ الثخين الدماغ الذي رفض الإقتراح حالاً في ١٢ كانون الثاني - أكثر مكرراً ودهاءاً. ولم يكن جوابه للمستشار بل لما فوّه أي الرئيس. قال أنه لا يرى إقتراح بروننك عملاً دستورياً لكنه سيساند إعادة إنتخاب الفيلد مارشال اذا تخلص عن خطة بروننك.

وعرض هتلر في محادثة له سرية مع أوتو فون مايسنر Otto Von Meissner بفندق كايزرهوف - مساعدة هندنبرگ في إنتخابات الرئاسة شريطة ان يتخلص أولاً من براوننك، ويؤلف حكومة قومية ويصدر مرسوماً بإجراء إنتخابات جديدة لكل من الرايخشتاغ والدايت البروسي. وفون مايسنر هذا، هو سكرتير الدولة في مستشارية الرئاسة، خدم في وظيفته هذه كلاً من (إيبرت) الإشتراكي ومن بعده (هندنبرگ) المحافظ بإخلاص، وقد بدأ الآن يفكر في فترة خدمة ثالثة مع أي رئيس جمهورية وإن كان هتلر نفسه!

ولم يوافق هندنبرگ على هذا. وأحنقه أن يرفض النازيون والقوميون وخاصة هؤلاء الأخيرون الذين

٢- حسب رواية هايدن "الفوهرر" ص ٤٣٣.

٣- هايدن: "تاريخ القومية الإشتراكية" ص ١٦٦.

٤- گوبلز: كايزرهوف، الص ١٩-٢٠.

يعدمهم أصدقاءه ومحل إعتماذه تحجيبه متاعب المعركة الإنتخابية وقرر الترشيح ثانيةً. وإلى جانب حنقه هذا على الأحزاب القومية أضاف حقداً غريباً على (بروننگ) لأنه لم يتصرف في المسألة تصرف الحاذق، ولأنه يضطره الآن إلى الدخول في كفاح مرير ضد تلك القوى القومية التي أختارته رئيساً للجمهورية في ١٩٢٥ وحقت له الفوز على المرشحين الليبراليين-الماركسيين. فنجاحه الآن موقف على مساندة الإشتراكيين ونقابات العمال الذين كان لا يحاول كتم إحتقاره لهم. ونشأت برودة واضحة في علاقاته مع مستشاره الذي كان يقول عنه قبل فترة قصيرة "أنه خير مستشار منذ بسمارك". وامتدت البرودة أيضاً تجاه بروننگ من (الجنرال) الذي جاء به الى المستشارية. فقد خاب ظن (شلايخر) بالزعيم الكاثوليكي العيوس. وصار أبغض المستشارية في العهد الجمهوري. وفشل في الحصول على الأغلبية، وأخفق في خضد شوكة النازيين أو ضمهم الى جانبه. ولم يوفق في الإبقاء على هندنبرگ دون إنتخاب. لهذا يجب أن يذهب- ويذهب معه أيضاً الجنرال (گروينر) رئيس شلايخر المحترم معه، الذي يبدو أنه لم يتفهم الآراء التي إدخرها (شلايخر) للمستقبل. ولم يكن هذا الجنرال الدسّاس مستعجلاً بالضبط. (بروننگ وگروينر) أقوى رجلين في الحكومة، يجب ان يظلّا في الحكم حتى يعاد إنتخاب هندنبرگ، فقد لا يستطيع الفيلد مارشال الشيخ أن ينجح بدونهما. وبعد الإنتخابات ستنتهي فائدتهما.

-٢-

هتلر ضد هندنبرگ

هناك بعض المناسبات في حياة (هتلر) العامة. يبدو فيها -عندما يواجه قراراً صعباً- غير قادر على إتخاذ رأي معين. وهذه واحدة منها كانت المشكلة التي يواجهها في كانون الثاني ١٩٣٢ هي: هل يرشح نفسه لمنصب الرئاسة أم لا يرشح؟ لقد بدا هندنبرگ صعب التقم. هذا البطل الأسطوريّ سستانده لا عناصر اليمين المختلفة فقط، بل الأحزاب الديمقراطية التي وقفت ضده في ١٩٢٥. وهي الآن تجد بشخصه منقذ الجمهورية. وإذا رشح ضد الفيلد مارشال وفشل -وهو أمر يكاد يكون محتوماً- أفلا يكون ذلك خطراً على سمعة "المناعة" التي راح النازيون يبنونها بإنتخاب اقليمي اثر إنتخاب اقليمي منذ تحقيقهم نصرهم العجيب في الإنتخابات العامة ١٩٣٠؟ وإن لم يرشح- أفليس ذلك إعتراضاً بالضعف. واطهاراً لإفتقارهم الى الثقة بأن القوميّين الإشتراكيّين ليسوا على عتبة الحكم؟ هناك إعتبار آخر. لم يكن هتلر حتى الآن أهلاً للترشيح. لأنه ليس مواطناً ألمانياً. ألحّ عليه (جوزيف گوبلز) بإعلان ترشيحه. وفي ١٩ كانون الثاني سافرا معاً الى مونيخ وفي تلك

الليلة كتب (گوبلز) في يومياته: "بحثت مسألة الترشيح للرئاسة مع (الفوهرر). لم يتوصل بعد الى قرار. ألححت بشدة على إعلان ترشيحه". وانعكس في دفتر يوميات گوبلز للشهر التالي إرتفاعات ذهن هتلر وإنخفاضاته. في ٣١ كانون الثاني "سيعلم الفوهرر قراره نهار الخميس. لا يمكن البقاء في شك بعد الآن". وفي ٢ شباط يبدو أن القرار أخذ فقد دون "لقد قرر أن يرشح نفسه"، لكنه يضيف الى قوله هذا ان القرار لن يعلن حتى تتضح نية الديمقراطيين الإشتراكيين. وفي اليوم التالي إجتمع قادة الحزب في مونيخ ليسمعوا قرار هتلر. قال گوبلز متأففاً "انهم انتظروا وطال انتظارهم عبثاً"، واذاف يقول "كل واحد منهم كان يظهر عليه الارهاق والتوتر العصبي". وراح رئيس الدعاية تلك الليلة ينشد التسرية فتسلسل خفية ليرى فلماً سينمياً لكريتا غاربو، وهزته وحركت عاطفته تلك "التي هي أعظم نجمة سينمائية بين الأحياء" وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة "جاءني عدد من رفاق الحزب القدماء، وهم مكتئبون لعدم التوصل الى قرار. يخشون أن الفوهرر يتلكأ وينتظر وقتاً طويلاً".

ربما انتظر وقتاً طويلاً لكن ثقته بالنجاح الختامي لم تضعف وسجلت يوميات مونيخ في إحدى الليالي أن الفوهرر قلب وجوه الرأي وقتاً طويلاً مع گوبلز بخصوص الوظيفة التي سيتقلدها الثاني منهما في الرايخ الثالث. يقول (گوبلز) إن الفوهرر قد فكر في تقليده "وزارة التربية العامة المختصة بالأفلام والإذاعة اللاسلكية والفن والثقافة والدعاية". وفي ليلة أخرى جرى بين هتلر وبين مهندس المعماري (الاستاذ تروست Troost) حديث طويل حول التغيير الفخم الذي سيجري في عمارة العاصمة القومية، ويضيف گوبلز "لقد أنهى الفوهرر كل خطته، وهو يتكلم ويعمل يشعر وكأننا نحن الآن في دست الحكم".

لكنه لم يتكلم كما لو كان مشتاقاً للترشيح ضد هندنبرگ، وفي ٩ شباط كتب گوبلز "الفوهرر يعود الى برلين. مداولات أخرى في (كايزرهوف) حول إنتخابات الرئاسة. الكل في شك وحذر". وبعدها بأيام ثلاثة راح گوبلز يعيد النظر في حساب الأصوات التي ستكون الى جانب الفوهرر ليقول "انها مخاطرة. لكن يجب الإقدام عليها" ورحل هتلر الى مونيخ ليقبل في الأمر وجوه الرأي فترة أخرى. بالأخير كان هندنبرگ الشخص الذي جعله يعزم على قرار. ففي ٥ شباط أعلن الرئيس الشيخ رسمياً ترشيحه. وطار گوبلز فرحاً "الآن أطلقت يدنا. الآن لم نعد بحاجة الى إخفاء قرارنا" لكن هتلر ظلّ يكتنم القرار حتى ٢٢ شباط وفي إجتمع هذا اليوم بكاييزهوف كتب گوبلز: "الفوهرر يسمح لي بإعلان ترشيح نفسه للرئاسة هذه الليلة في قصر الرياضة".

كانت معركة طاحنة مضطربة. في الرايخشتاغ قام (گوبلز) فوصف هندنبرگ "بمرشح حزب الهاريين من الخدمة العسكرية" فطرد من المجلس لشتمة الرئيس. وفي برلين أخذت الجريدة القومية (دويتش زايتمنگ) التي ناصرت هندنبرگ في إنتخابات ١٩٢٥- تقذح فيه بشدة وحماسة قائلة: "ان المسألة الآن هي: هل أن الخونة الأميين والخنازير أنصار السلم، بموافقة من هندنبرگ، سيقدر لهم أن يجلبوا لألمانيا الخراب النهائي".

وشاعت البلبلّة في كُلِّ الموالين التقليديين للأحزاب والطبقات في فوضى وحرارة معركة الإنتخاب. وانحاز الى جانب هندنبرگ البروتستانتى الپروسي المحافظ، الموالى للملكية، جميع الإشتراكيين ونقابات العمال وكاثوليك براوننگ وحزبه الوسط ويقايا أحزاب الديمقراطيين والأحرار والطبقات الوسطى. ووقف الى جانب هتلر الكاثوليكي النمساويّ المتشرد السابق و(القومي الإشتراكي) زعيم جماهير الطبقة المتوسطة الدنيا، كل بروتستانت الشمال من الطبقة العليا واليونكرز المحافظون الاقطاعيون، وعدد من الملكيين بضمنهم ولي العهد السابق في آخر لحظة فضلاً عن أعضاء حزبه وأشبايعهم. وزادت الفوضى والإضطراب بدخول مرشحيّين جديدين لا أمل لأى واحدٍ منهما بالنجاح لكن على أساس أن قد يحرز كل منهما ما يكفي من الأصوات ليمنع كلاً من المرشحين المتقدمين المتنافسين من الحصول على الأغلبية المطلقة اللازمة للفوز. فقدم القوميون ثيودور دويشتبرغ Theoder Duesterberg نائب القائد العام لذوي الخوذ الفولاذية (وكان هندنبرگ قائد شرفٍ أعلى لها). وهو مقدم سابق لا لون له سرعان ما اكتشف النازيون وهم في أشد حالات الفرح أن والد جده يهوديٍّ وتنادى الشيوعيون بأن الديمقراطيين الإشتراكيين، انما "يخونون العمال" بمساندتهم هندنبرگ، وأسرعوا بدفع مرشحهم الخاص للمعركة الإنتخابية وهو أرنست تيلمان Ernst Thaelmann زعيم الحزب ولم تكن هذه المرة الأولى أو الأخيرة لمخاطرة الشيوعيين في تحدي النازيين والوقوف بوجههم بتشجيع من موسكو. وقبل ان يحمى وطيس المعركة، قام هتلر بحل مشكلة الجنسية الألمانية. ففي ٢٥ شباط أعلن أن وزير داخلية دولة برونزويك Brunswick النازيّ عين (هر هتلر) ملحقاً في مفوضية برونزويك ببرلين. وبفضل هذه المناورة المضحكة أصبح الزعيم النازي مواطناً برونزويكياً بشكل تلقائي، ومن ثم مواطناً ألمانياً يسوغ له شرعاً الترشيح لرأسه جمهورية الرايخ الألماني. وبعد ان اجتاز هتلر هذه العقبة الصغيرة بسهولة. قذف نفسه الى قلب المعركة بحيوية دفاقة وراح يجوب أرجاء البلاد ويخطب في الجماهير الحاشدة ويعقد عشرات الاجتماعات العامة ويشيرها الى حدّ الجنون، واتبع خطيبا الحزب المفوهين الآخرين شتراسه وگوبلز برنامجاً مشابهاً. ولم يكن هذا كل شيء فقد نظّم حملة دعاية لم تشهد لها ألمانيا مثيلاً من قبل فلصقت على الجدران في المدن والبلدان ملايين الصور الملونة واللافتات الشبيهة بلافتات السينما ووزع ثمانية ملايين كراس وإثنا عشر مليون نسخة اضافية من جرائد الحزب. ونظم ثلاثة آلاف إجتماع في اليوم الواحد ولأول مرة في تاريخ الإنتخابات العامة الألمانية استفيد استفادة كبيرة من الافلام واسطوانات الحاكي وكانت انغام الأخيرة تبت بمكبرات صوت مثبتة على السيارات الجواله. ولم يدخر بروننگ جهداً هو الآخر فقد عمل بدون كلل لريخ الإنتخابات للرئيس الهرم. وللمرة الوحيدة في حياة هذا الرجل الذي يؤمن بالعدالة. كان قاسياً الى الحدّ الذي جعله يحتكر أوقات الراديو لكل محطات البث التي تسيطر عليها الحكومة للطرف الذي رام إنجاحه. وهو تكتيك ألهب هتلر حقداً. ولم يتكلم هندنبرگ إلا مرة واحدة، في إذاعة مسجلة بتاريخ ١٠ آذار عشية الإقتراع. خطبة مهيبه واحدة من أعظم الخطب القليلة التي أُلقيت أثناء المعركة وقعاً. وكانت ذات

تأثير عظيم ومما جاء فيها:

"انتخاب رجل حزبي، يمثل وجهة نظر متطرفة ذات جانب واحد، يستتبع أن تكون أغلبية الشعب ضده. وهذا من شأنه تعريض الوطن الى قلقا خطيرة قد ينجم عنها أشياء ليست في الحسبان... الواجب يتطلب مني الحيلولة دون ذلك... فان غلبتُ على أمري فلن أكون على الأقل هدفاً للوم والتأنيب لتركي طوعاً موضعياً في ساعة الأزمة والضيق... إني لا أطلب أصواتاً من أولئك الذين لا يرغبون في التصويت لي..."

أولئك الذين صوتوا له دحروا بنسبة ٤٪ من الأغلبية المطلقة المطلوبة. وعندما اقفلت صناديق الاقتراع في ١٣ آذار ١٩٣٢ كانت النتائج كما يلي:

هندنبرگ:	١٨,٦٥١,٤٩٧	٤٩,٦٪
هتلر:	١١,٣٣٩,٤٤٦	٣٠,١٪
تيلمان:	٤,٩٨٣,٣٤١	١٣,٢٪
دويشتريرغ:	٢,٥٥٧,٧٢٩	٦,٨٪

كانت النتائج مخيبة لآمال الطرفين. لقد تفوق الرئيس الشيخ على الديماغوغي النازي بأكثر من سبعة ملايين صوت لكنه فشل في الحصول على العدد المطلوب أي الأغلبية المطلقة. فلم يكن بد من إعادة للإنتخاب يفوز فيه المرشح الحائز على أصوات أكثر من غيره، دون شرط النسبة. استطاع هتلر أن يزيد من أصوات النازي التي ظفروا بها عام ١٩٣٠ بخمسة ملايين تقريباً أي حوالي ٨٦٪ إلا أنه كان جد بعيد عن هندنبرگ. وفي ساعة متأخرة من ليلة تمام الاقتراع إنتاب غوبلز شعور عميق باليأس وهو في بيته في برلين حيث إجتمع عدد كبير من قادة الحزب لسماع النتائج المعلنة من الراديو وكتب في يومياته تلك الليلة: "لقد هزمنا، نتائج فظيعة. أوساط الحزب تشعر بوطأة الخيبة ومرارة الفشل، ليس بإمكاننا إنقاذ أنفسنا إلا بضربة بارعة".

لكن هتلر أعلن صبيحة اليوم التالي في الفولكشر بيوباختر: "إن معركة الإنتخابات الأولى قد انتهت. واليوم ابتدأت المعركة الثانية وسأتولى قيادتها". والحق يقال أنه حارب فيها بالشدة التي حارب في الأولى. استأجر طائرة يونكرز للركاب وطار من أقصى ألمانيا الى أدناها - وكانت بدعة إنتخابية في حينه لم يسبقه اليها أحد. واستمر يخطب في ثلاثة أو أربعة مهرجانات ضخمة كل يوم في عدد كبير من المدن. وغير تكتيكة بحذق منه ليحصل على أصوات أكثر ففي المعركة الأولى ظل يضرب على وتر شقاء الشعب وعقم الجمهورية. أما الآن فقد اختار نغمة المستقبل السعيد لكل الألمان إن تم إنتخابه. العمل للعمال، أسعار أعلى للغلة الفلاحين، رواج أكثر لرجال الأعمال، جيش عرمرم للعسكريين. ومرة وعد في خطبة ألقاها في لوتسغارتن ببرلين "في الرايخ الثالث كل فتاة ألمانية ستجد لها زوجاً!"

سحب القوميون مرشحهم دويشتريرغ من السباق. وناشدوا أتباعهم بالتصويت لهتلر حتى ولي

العهد السابق الفاسق فردريك فلهلم إنضم الى الصف وصرح "سأصوت لهتلر".
كان العاشر من نيسان ١٩٣٢، يوم الإقتراع الثاني عبوساً قمطيراً ممطراً ولم يلق في صناديق الإقتراع من أصوات أكثر من مليون. وأعلنت النتائج في ساعة متأخرة من الليل:

هيندنبيرگ	١٩,٣٥٩,٩٨٣	٥٣٪
هتلر	١٣,٤١٨,٥٤٧	٣٦,٨٪
ثيلمان	٣,٧٠٦,٧٥٩	١٠,٦٪

ومع أن هتلر زاد مجموع أصواته بمليونين ولم يحصل هيندنبيرگ إلا على مليون ونيف، فان الرئيس فاز بأغلبية مطلقة واضحة. وعبر أكثر من نصف الشعب الألماني عن إيمانهم بالجمهورية الديمقراطية. ورفضوا بشكل قاطع كلاً من اليمين المتطرف واليسار المتطرف. أو هكذا فكروا.
كان على هتلر أن يطيل التأمّل. لقد ظهر ظهوراً مدهشاً وضاعف أصوات النازيين في غضون سنتين، ومع ذلك فلم يحصل على الأغلبية ومعها السلطة السياسية التي ينشدها. هل بلغ نهاية هذا الطريق بالذات؟ في الإجتماعات الحزبية التي عقيت إنتخابات العاشر من نيسان قال شتراسر بصراحة أن هذا هو وضع هتلر بالضبط. غازل شتراسر كثيراً أولئك الذين يقبضون على زمام الحكم: غازل الرئيس، وحكومة بروننك والجنرال گروينر، والجيش. ولم يكن هتلر يثق برئيس أعوانه إلا أنه لم يهمل رأيه. لم ينس واحداً من دروس أيامه في فيينا: من يريد الوصول الى الحكم فعليه أن ينال مساندة بعض "المؤسسات القوية" الحالية.

وقبل أن يقر رأيه على الخطوة التالية. أهوت على رأسه يد إحدى تلك "المؤسسات القوية" حكومة الجمهورية بضربة موجهة.

قبل أكثر من سنة كان يتجمع لدى حكومة الرايخ ومختلف الحكومات الاقليمية، وثائق تثبت أن عدداً من كبار قادة النازي وخصوصاً من ال(إس. أي) يبيّتون الإستيلاء على ألمانيا بالقوة واشاعة عهد إرهاب. في مبدأ أول إقتراع على الرئاسة، كان عدد ال(إس. أي) قد بلغ أربعمئة ألف رجل كاملي التعبئة ضربوا نطاقاً حول برلين. ومع أن الكابتن روهم قائد ال(إس. أي) أكد للجنرال (فون شلايخر) أن التدابير المتخذة إنما هي مجرد تدابير احتياطية، فان الشرطة البروسية كانت قد ضبطت وثائق في مقر قيادة الحزب النازي في برلين أظهرت بما لا يقبل الشك أن هذا الحرس كان ينوي القيام بأنقلاب مسلح Coup d'etat في مساء اليوم التالي للإقتراع في حالة فوز هتلر بالرئاسة- لكم كان روهم مستعجلاً. وأكدت ملحوظة لگوبلز في يومياته لليلة ١١ آذار أن شيئاً ما يتوقع حصوله "حديث مع قواد ال(إس. أي) وال(إس. إس) حول أوامر وتعليمات. كلمة إنقلاب تعبق في الجو".

واستبد القلق بالحكومة الوطنية وحكومات الأقاليم. وفي الخامس من نيسان طلب ممثلو عدد من الدول بقيادة بافاريا، وپروسيا كُبراهن، أن تقضي الحكومة المركزية على ال(إس. أي) وإلا قامت كل واحدة منهن بهذا العمل ضمن حدودها الاقليمية. وكان بروننك وقتئذ خارج برلين مشغولاً

بالإنتخاب. لذلك قابل (گروینر) تلك الوفود بمقتضى وظيفته كوزير للداخلية والدفاع ووعد بالعمل حال عودة المستشار (بروننگ) المقررة في العاشر من نيسان وهو يوم الإقتراع العام الثاني. كان بروننگ وگروینر یریان أن لديهما أسباباً وجيهة لسحق ال(إس. أي). وبه ينتهي ذلك التهديد بحرب أهلية. وقد يكون مقدمة لنهاية هتلر كعامل هام في حياة السياسة الألمانية. وبوثوقهما من إعادة إنتخاب هندنبرك بالأغلبية المطلقة، شعرا أن المقتنعين قد وضعوا بين أيديهما تفويضاً لحماية الجمهورية من تهديدات النازيين بالقضاء عليها عن طريق القوة. لقد حان الوقت لإستعمال القوة ضد القوة. ثم إن لم يضربا بشدة فستفقد الحكومة عطف الديمقراطيين الإشتراكيين والإتحادات النقابية الذين أمدوا هندنبرك بمعظم الأصوات وكانوا السند الرئيس لإستمرار حكومة بروننگ. اجتمعت الوزارة في العاشر من نيسان في أثناء عملية الإقتراع وقررت القضاء في الحال على جيوش هتلر الخاصة. ووجدت بعض الصعوبة في حمل هندنبرك على توقيع المرسوم- السبب هو شلايخر الذي استحسن الأمر أولاً، ثم بدأ يهمس بالمعارضة في أذن الرئيس- على أنه وافق أخيراً في ١٣ نيسان. ووقع الأمر في الرابع عشر منه.

كانت ضربة طاش لها عقل النازيين. وأصرّ (روهم) وبعض ذوي الرؤوس الحارة في الحزب على مقاومة المرسوم الجمهوري، ولكن هتلر الأبعد نظراً من أعوانه قرر أن يطيع، فليس الوقت وقت عصيان مسلح. وفضلاً عن ذلك فهناك أنباء مهمة عن شلايخر. ودون گوبلز في ذلك اليوم بالذات ١٤ نيسان في يومياته: "لقد أبلغنا أن شلايخر لم يوافق على إجراءات (گروینر)" ثم كتب في آخر ذلك اليوم "نداء تلفوني من سيدة معروفة، هي صديقة مقربة للجنرال شلايخر. تقول أن الجنرال ينوي الإستقالة"^(٥).

كان گوبلز بادي الإهتمام إلا أنه شاكٌ مراتب. فاضاف "ربما لم تكن أكثر من مناورة". ولم يكن هو أو هتلر أو أي شخص آخر، حتى بروننگ بالتأكيد، ويتأكد أكثر: حتى (گروینر) الذي يدين له شلايخر برفيقه السريع في الجيش وفي مجالس الحكومة، لا أحد كان يستطيع ان يخمن مقدرة الجنرال السياسي الكائد اللامحدودة في الغدر والوقية. لكن الزمن لم يطل بهم ليعلموا.

كان شلايخر قبل حلّ ال(إس. أي) بمرسوم جمهوري، قد أعلم قادة المناطق العسكرية السبعة للجيش، بثقة منه أن الجيش يعارض في ذلك الحل. ولقد سبق له وسيطر على قائد جيش الرايخ الضعيف العقل (الجنرال فون هامرشتاين)، وبعدها أقنع هندنبرك بأن يحرر إستفساراً Cantankerous ل(گروینر) في ١٦ نيسان. يسأله فيه عن الأسباب التي حملته على ترك "الرايشباننر Reichabanner وهو المنظمة شبه العسكرية للديمقراطيين الإشتراكيين ولم يحلها مع ال(إس. أي). وخطا شلايخر خطوة أخرى لنسف مركز رئيسه. فأوصى وشجع إشاعات خبيثة مخلة بشرف الجنرال گروینر. بنشره حكايات

عن اشتداد مرضه وتعذر بقائه في الوظيفة وبأنه إعتنق الماركسية بل أصبح نصيراً للسلام وداعية له. معلناً أن وزير الدفاع قد ألحق العار بالجيش بميلاد طفل له بعد مرور خمسة أشهر فقط من زواجه الأخير وقال لهندنبرگ أن الطفل لقب به (نورمي Nurmi) في أوساط الجيش على إسم عداء الأسطول الفنلندي ذي الشهرة الأولمبية. وفي الوقت ذاته جدد (شلايخر) إتصالاته بالـ(إس. أي) وعقد أحداث مع كل من (روهم) قائد الـ(إس. أي) العام. والكونت فون هلدورف Von Helder قائد الـ(إس. أي) في برلين. ودون غوبلز في ٢٦ نيسان أن (شلايخر) أعلم هلدورف أنه "يزمّع تغيير سبيله" وبعدها بيومين إلتقى بهتلر وذكر غوبلز "أن الحديث كان حسن النتائج".

حتى هذه المرحلة من اللعبة، لم يتضح إلا أمر واحد وهو أن (روهم) و(شلايخر) كانا يتآمران من وراء ظهر هتلر. فكلا الرجلين كان يريد دمج الـ(إس. أي) بالجيش، بصفة (ملييشا) وهي خطوة كان الفوهرر يعارض فيها بشكل جازم. كما كانت سبباً لخصام كثيراً ما نشأ بين هتلر ورئيس أركان الـ(إس. أي) الذي رأى في جنود العاصفة قوة عسكرية ضخمة كفيلة بتقوية البلاد في حين يراها هتلر قوة سياسية صرفة وزمرة تثير الرعب في الشوارع وتزلزل كيان خصومه السياسيين وتحافظ على الحماسة السياسية في صفوف النازيين لا غير على أن شلايخر كان يضم غاية أخرى في نفسه عند محادثاته مع زعماء النازي، فقد رغب في أن يربط الـ(إس. أي) بالجيش حتى تتسنى له السيطرة عليه؛ على أنه كان يريد لهتلر أن يحكم من حيث يمكن أن يسيطر عليه هو أيضاً؛ فهو القومي اليميني الوحيد الذي يملك أتباعاً من الجماهير. إلا أن محذور (Verbot) الـ(إس. أي) عرقل التقدم لتحقيق هاتين الغايتين.

في نهاية الأسبوع الأول من أيار ١٩٣٢ بلغت أحابيل (شلايخر) إحدى ذراها. وذكر غوبلز في ٤ أيار أن "ألغام هتلر بدأت تنفجر" "يجب أن يذهب (گروينر)، ثم يلحق به بروننگ" وفي ٨ أيار دون في يومياته "أن هتلر عقد جلسة حاسمة مع الجنرال شلايخر وسادة مقربين من الرئيس. كل شيء يسير على ما يرام. سيسقط بروننگ في الأيام القلائل القادمة سيسحب الرئيس ثقته منه". وبعدها عرض الخطة التي توصل اليها هتلر مع شلايخر وخاصة مع الرئيس. سيحل الرايخشتاغ وتؤلف حكومة من لدن رأسه الجمهورية. وترفع كل القيود عن الـ(إس. أي) والحزب النازي. وأضاف غوبلز... "ولاجتناب أي شك قد يساور بروننگ فيما يحصل، سيقوم هتلر بالرحيل عن برلين". وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة هرب غوبلز زعيمه الى مكلنبورغ حيث إختفى إختفاء تاماً.

واثبت غوبلز ثاني يوم في مذكراته أن الوزارة المعنية من قبل الرئاسة يعتبرها النازيون "شيئاً مؤقتاً"، يقول ان وزارة انتقالية "عديمة اللون" كهذه "ستمهد الطريق لنا. كلما كانت ضعيفة كلما سهل علينا إسقاطها" هذا بالطبع لم يكن رأي (شلايخر) الذي كان يحلم بحكومة جديدة تستغني عن البرلمان حتى يمكن تعديل الدستور، ويمكنه السيطرة عليها. لقد أصبح من الواضح أنه وهتلر كانا يعتقدان بإمكانية إستخدام أحدهما الآخر في أغراضه. لكنه كان في تلك الساعة سيلعب لعبته

الكبرى، في إمكانه التأكيد للرئيس المتعب الشيخ بأنه يستطيع أن يقدم ما عجز عنه بروننك. وهو حكومة تتمتع بمساندة هتلر. دون وجود هذا الديماغوغي المتعصب فيها.

وهكذا كان كل شيء معداً. وفي ١٠ أيار ضرب (شلايخر) ضربته بعد يومين من إجتماعه والرجال المحيطين بهندنبرك، مع هتلر. وهوت الضربة في الرايخشتاغ. نهض الجنرال (گروينر) ليدافع عن إجراء حلّ الد(إس. أي) فهاجمه (گورنك) بعنف شديد. وكان الجنرال مريضاً بدء السكر طعين القلب بغدر (شلايخر) الذي إنكشف له قبل فترة. فحاول الدفاع عن نفسه بخير ما يستطيع لكنه غرق بوابل من الإتهامات التي اخذت تنهال عليه من مقاعد النازيين. فانتابه الاجهاد وشعر بالمهانة ونهض ليخرج من المجلس. فاذا به وجهاً لوجه مع الجنرال (قون شلايخر) فأعلمه هذا بكلّ برود أنه لم يعد بعد أهلاً لثقة الجيش وعليه ان يستقيل". فاستنجد (گروينر) بالرئيس هندنبرك الذي حماه بكل إخلاص، وحمل عنه الملامة عندما جاءت اللحظات الحاسمة أولاً في ١٩١٨- حيث تولى عنه مهمة إبلاغ القيصر بوجوب تنازله؛ وثانياً في ١٩١٩ عندما قام بدلاً من المارشال بنصح الحكومة الجمهورية بأن توقع معاهدة فرساي. لكن الفيلد مارشال الهرم الذي لم يبرح حانقاً على الفضل الذي يدين به لضابطه الرؤوس، أجابه أنه "يأسف" لعدم إستطاعته عمل شيء. وفي ١٣ أيار لم يسع الجنرال (گروينر) إلاّ تقديم إستقالته وهو متألم جريح الكرامة^(٦).

وفي تلك الليلة دونّ گوبلز في يومياته "جاءتنا الأنباء من الجنرال شلايخر. كل شيء يسير وفق الخطة المرسومة وكان المخطط يطلب رأس بروننك بعد (گروينر) ولم يمر وقت طويل حتى تمكن الجنرال الدسّاس من وضعه فوق النطع. كان سقوط (گروينر) نكسة عظيمة للجمهورية المترنحة. فهو الوحيد تقريباً بين القادة العسكريين الذي خدمها بإخلاص وكفاءة ولم يكن في الجيش غيره من عياره وبدرجة إخلاصه ليخلفه في المنصب. لكن بروننك العنيد، الصلب مازال قوة يعتد بها ويخشى جانبها. لقد ضمن مساندة أغلبية الألمان في إنتخاب هندنبرك، لإستمرار الجمهورية كما اعتقد. وبدا وكأنه على شفا نجاح عظيم في السياسة الخارجية بخصوص إلغاء التعويضات والمساواة في التسليح بالنسبة للرايخ. لكن الرئيس الهرم كما شاهدنا كافاً مجهود المستشار الذي فاق طاقة البشر في الفوز له بفترة رأسية ثانية، ببرود عجيب. وزاد بروداً وجفاءً عندما اقترح بروننك أن تستولي الدولة على عدد من مزارع (اليونكرز) التي أصابها الإفلاس في بروسيا الشرقية لقاء تعويض مالي سخّي. وتوزيعها مجاناً على الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً. وعندما ذهب هندنبرك لقضاء عطلة العيد الكبير في منتصف أيار- وحلّ في (نيودك Neudeck) وهي المزرعة الواقعة في بروسيا الشرقية التي قدمها له جماعة اليونكرز هدية في عيد ميلاده الثمانين، مع مالية من رجال الصناعة فتجمع عليه جيرانه

٦- بعد أشهر قلائل كتب گروينر لشلايخر (٢٩ تشرين الثاني) "الغيظ والاحتقار يعصفان بي، لأنني إنخدعت بك. أنت الصديق القديم. والتلميذ والإبن المتبنّي لي"، انظر غوردن أ. كريك Gordon A.Graig "الجيش الألماني والنازية: سياسة فلهم گروينر" مجلة العلوم السياسية Political Science Quarterly حزيران ١٩٤٨.

الأرستوقراط وملأوا أذنيه بالحاحهم لتنحية المستشار الذي خلعوا عليه لقب "البولشفيكي المزارع". ولا شك أن النازيين، عن طريق (شلايخر) علموا قبل بروننك أنه في طريقه إلى الإقالة. وفي ١٨ أيار عاد غوبلز إلى برلين من مونيخ. وذكر "أن روح عيد الفصح مازالت عالقة في الجو، ولا يبدو أن الشتاء قد حلّ إلا لبروننك. والمضحك في الأمر أنه لا يدري. لا يستطيع أن يجد رجالاً لوزارته. الجرذان تترك السفينة الغارقة" والأدق أن يقال أن الجرذ القائد الذي لم يخطر بباله ترك سفينة الحكم الغارقة يقوم بالإستعدادات لنصب قبطان جديد. وفي اليوم التالي دون غوبلز العبارة التالية "رفض الجنرال شلايخر أن يتسلم منصب وزير الدفاع".

وكان هذا الخبر صحيحاً ألا أنه غير دقيق أيضاً. في الواقع طلب منه (بروننك) ذلك بعد أن اشتد في لومه لتحطيمه (گروينر) فأجابه (شلايخر) "سأكون وزيراً لكن ليس في حكومتك"^(٧). وجاء في يومية (گوبلز) المؤرخة ١٩ أيار "رسالة من (شلايخر). قائمة أسماء الوزراء مهيأة وهي لفترة الانتقال ليست بذات أهمية" وهكذا عرف النازيون قبل (بروننك) بأسبوع على الأقل أن أوزته قد طيخت. وفي يوم الأحد الموافق ٢٩ أيار استدعى (هندنبرگ) المستشار بروننك وطلب منه بصورة مفاجئة تقديم إستقالته وفي اليوم التالي رفعت الإستقالة.

انتصر (شلايخر) لكن السقطة لم تكن قاصرة على (بروننك)، فالجمهورية الديمقراطية هوت معه هي الأخرى، وإن كانت سكرات الموت ستمتد بها ثمانية أشهر أخرى قبل أن يُطلق عليها رصاصة الرحمة Coup de grace الأخيرة. ولم تكن مسؤولية (بروننك) في موتها بالقليلة. فمع أنه ديمقراطي قلباً وقالباً، فقد ترك نفسه يُستدرج بمنورة إلى موقف قهري ليحكم أغلب أيام مستشاريته بقوة مرسوم جمهوري دون موافقة البرلمان، كان الدافع إلى إتخاذ هذه الخطوة عظيماً في الواقع، والسياسيون في وسط عمى بصيرتهم يجعلونها خطوة لا مفرّ منها. ومع أن بروننك كان إلى الثاني عشر من أيار قادراً على نيل الثقة البرلمانية في الرايخشتاغ عن طريق لائحته المالية إلا أنه أعتد على سلطة الرئيس في الحكم عندما لم يجد موافقة من البرلمان. ولقد سُحبت منه الآن هذه السلطة. ومن الآن فصاعداً، من حزيران ١٩٣٢ حتى كانون الثاني ١٩٣٣، أعطيت لرجلين أقل منه شأنًا. لم يكونا يشعران بضرورة تثبيت الجمهورية الديمقراطية على الأقل بشكلها الدستوري الحالي، وإن لم يكونا من النازيين.

إن القوة السياسية في ألمانيا لم تعد مستقرة في الشعب كما كانت منذ ميلاد الجمهورية حتى الآن. ولا في الهيئة التي تمثل إرادة الشعب... الرايخشتاغ. إنها الآن مجتمعة في يدي الرئيس الخرف البالغ من العمر خمسة وثمانين عاماً وفي أيدي قلة محيطة به من ذوي العقول الضحلة الطموحة الذين يصوغون له ذهنه المكدود التائه. وأدرك هتلر كُلاً ذلك. ووجده يتمشى مع غاياته. فمن المستبعد جداً

٧- هوبلر بينيت "Nemesis" ص ٢٤٣.

أن يُحرز الأغلبية في البرلمان مهما حاول، وسبيل هندنبرگ الجديد يتيح له الفرصة الوحيدة التي بقيت للوصول الى الحكم. لا في هذه اللحظة طبعاً. ولكن في الأمد العاجل. خفّ مسرعاً الى برلين من (أولدنبيرغ Oldenberg) حيث فاز النازيون في ٢٩ أيار بالأغلبية المطلقة (للدائيات المحليّة). وفي اليوم التالي من وصوله مثل أمام هندنبرگ الذي أيد نقاط الإتفاق التي توصل اليها الزعيم النازي مع (شلايخر) من قبل (في ٨ أيار) وهي رفع الخطر عن الد(أس. أي) وتشكيل وزارة رئاسة ينتقي هندنبرگ أعضائها. وحلّ مجلس الرايخشتاغ. هل يساند هتلر الحكومة الجديدة؟ أجاب هتلر انه سيدعمها. وفي أمسية الثلاثين من أيار تلك أرخت يوميات غوبلز تلك المقابلة "حديث هتلر مع الرئيس كان طيباً... يشاع أن قون پاپن سيعيّن مستشاراً. لكن هذا لايهمنا كثيراً. فالأمر الأهم هو حلّ الرايخشتاغ. الإنتخابات! الإنتخابات! الى الشعب رأساً! كلّنا سعداء... جداً"^(٨).

-٣-

خيبة فرانز قون پاپن

الآن ظهر في وسط المسرح ولفترة قصيرة شخصية لامعة غير متوقعة. إن الرجل الذي فرضه الجنرال قون شلايخر على الرئيس ابن الثمانين والذي عيّن في ١٩٣٢ حزيران مستشاراً لألمانيا هو (فرانز قون پاپن) البالغ من العمر ثلاثة وخمسين عاماً، عميد أسرة عضتها الفقر من طبقة نبلاء وستفاليا. ضابط أركان سابق. وفارس لايشق له غبار، وسياسي هاوٍ غير ناجح من الحزب الوسط الكاثوليكي. ورجل صناعة إغتنى بفضل زوجته، إسمه غير معروف كثيراً عند الرأي العام خلا انه كان ملحقاً عسكرياً في واشنطن. أبعده الولايات المتحدة أثناء الحرب لعلاقته بتنظيم مخططات تستهدف نفس الجسور وخطوط السكك الحديد أيام كانت الولايات المتحدة بلاداً محايدة.

كتب السفير الفرنسي في برلين "إن إختيار الرئيس قوبل بدهشة وعدم تصديق، ولم يبق أحد الا ابتسم أو ضحك أو قهقهه لأن (پاپن) كان يتمتع بسمعة غريبة وهي أن كلامه لايؤخذ مأخذ الجد لا بين أصدقائه ولا بين خصومه... وعرف بسطحيتته، وتقلّبه، وتخبّطه، وطموحه، وخيالاته. وأثر عنه المكر والوقية. وحك الدسائس"^(٩).

ولم يكن السيد فرنسوا پونسيه مبالغاً في وصف هذا الرجل الذي أوكل اليه هندنبرگ أمر الجمهورية المحتضرة بتدخل من شلايخر.

لم يكن پاپن يتمتع بأي دعم سياسي. وهو ليس عضواً في الرايخشتاغ وأبعد ما وصلت به الحياة

٨- المقتبسات في المتن هي من غوبلز "كايزرهوف" الص ٨١-١٠٤.

٩- فرانسوا پونسيه: المرجع السالف ص ٢٣.

السياسية هو مقعد في (اللاندتاغ البروسي Landtag). وباختياره للمستشارية سخط عليه حزبه الوسط. واشمأز من غدره بقائد الحزب (بروننغ) فطرده بالإجماع من العضوية. إلا أن الرئيس طلب منه تأليف حكومة فوق الأحزاب وهذا ما إستطاعه حالاً لأن شلايخر كان قد هيباً له قائمة كاملة بالوزراء. وقد ضمت ما أطلق عليه فيما بعد "وزارة البارونات". فخمسة من أعضائها نبلاء. وإثنان من كبار مديري الإتحادات الصناعية. وواحد (وهو فرانز گورتنر) عين وزيراً للعدل، كان حامي حمى هتلر في الحكومة البافارية في الاوقات العصيبة السابقة لمؤامرة مشرب البيرة والتالية لها. ورفع هندنبرگ (الجنرال ثون شلايخر) من مركزه المفضل وراء الستار وجعله وزيراً للدفاع. وقابل معظم الشعب "وزارة البارونات" كما تقابل النكتة، وإن كان المعدن الخاص لعدد من أعضائها كالبارون ثون نيوراث Von Neurath والبارون ثون التز-روبيناخ Von Eltz-Rubenoch والكونت شفيرين ثون كروسبك Schwerin Von Krosigk والدكتور (گورتنر) قد مدّ في فترة بقائهم وقتاً طويلاً حتى أدركوا عهد الرايخ الثالث.

وكان أول عمل لپاپن، المصادقة على ميثاق (شلايخر) مع هتلر. ففي ٤ حزيران حلّ الرايشاغ وجرت إنتخابات جديدة في ٣١ من تموز. ورفع الحظر عن ال(أس. أي) في ١٥ حزيران بعد بعض إلحاح من النازيين المرتابين. فانفجر في هذا اليوم بالذات بركان من العنف السياسي واجتاحت البلاد موجة من القتل لم تر مثلاً من قبل. ملأ جنود العاصفة الشوارع وراحوا يتحرشون باحثين عن المعارك والدماء. فجاءهم التحدي من الشيوعيين بالدرجة الأولى وفي بروسيا وحدها - ما بين ١ حزيران و ٢٠ منه- أحصي (٤٦١) معركة دموية في الشوارع قتل فيها (٨٢) شخصاً وأصيب (٤٠٠) بجراح خطيرة. وفي تموز أحصي (٣٨) نازياً و(٣٠) شيوعياً بين القتلى الستة والثمانين في المعارك. وفي العاشر من تموز قتل في معارك الشوارع ثمانية عشر شخصاً. وفي نهار الأحد التالي نظم النازيون مسيرة حزبية بحراسة الشرطة داخل ضاحية من ضواحي هامبورگ تدعى ألتونا Oltona تشغلها مساكن طبقة العمال. فكان من نتيجة الإضطدام أن صُرع تسعة عشر شخصاً وجرح (٢٨٥). إن الحرب الأهلية التي نوشدت حكومة الباورنات بان توقفها، راحت تزداد عنفاً بإطراد. وطلب كل الأحزاب من الحكومة أن تتخذ التدابير لإحلال النظام بإستثناء الشيوعيين والنازيين. فأجاب (پاپن) عن ذلك بعملين: منع الإستعراضات والتظاهرات الحزبية للأربعة عشر يوماً السابقة لإنتخابات ٣١ تموز. ثم اتخذ خطوة لم يكن هدفها كبح جماح النازيين، بل تدمير واحدة من الدعائم القليلة الباقية للجمهورية الديمقراطية. ففي العشرين من تموز أقال الحكومة البروسية وعيّن نفسه مندوباً سامياً للرايخ في بروسيا. تلك كانت خطوة جريئة خطاها الى نوع الحكومة المركزية المطلقة السلطة التي يريدتها لكل ألمانيا. وكان عذره أن حوادث الشعب في (ألتونا) دلت على عجز حكومة بروسيا عن حفظ النظام وسيادة القانون، كذلك اتهمها بناءً على "وثائق" -عجل شلايخر بتزويدها له- بأنها متواطئة مع الشيوعيين وعندما رفض الوزراء الإشتراكيون ترك مناصبهم إلا بالقوة، تكرم عليهم پاپن

باستخدامها. وأعلنت الأحكام العرفية في برلين وارسل الجنرال فون روندشتدت Von Rundstedt قائد جيش الرايخ المراتب، ملازماً وبضعة عشر جندياً لإجراء الاعتقالات اللازمة. كان لهذا التطور مغزاه عند اليمين. ولم تفت هتلر ملاحظته. لم يعد ثم داع للقلق بعد الآن في أن اليسار أو حتى أحزاب الوسط الديمقراطية ستبدي مقاومة خطيرة عند تقويض صرح النظام الديمقراطي. في العام ١٩٢٠ أنقذ الجمهورية من هلاك محتمل إضراب عام عمالي. والآن يدور البحث بين قادة نقابات العمال وزعماء الاشتراكيين حول إتخاذ إجراء مماثل، ثم يرفض الاقتراح بوصفه شديدة الخطورة. وهكذا، فقيام باين باقالة الحكومة البروسية الدستورية، دق مسماراً آخر في نعش جمهورية فايمر. ولم يقتض ذلك إلا فصيلة واحدة من الجنود كما تفاخروا به.

أما هتلر وأعوانه فقد عقدوا العناصر على تقويض الجمهورية ومعها فون باين وبارونات. وشرح كوبلز الهدف في يومياته المؤرخة ٥ حزيران "علينا أن نقطع كل ما يصلنا بهذه الوزارة الانتقالية البرجوازية" وعندما قابل باين هتلر للمرة الأولى في ٩ حزيران. قال له الزعيم النازي. "إني أجد في وزارتك حلاً وقتياً لا غير. وسأواصل جهودي لجعل حزبي الأقوى بين كل الأحزاب في البلاد. وعندئذ ستنتقل المستشارية إلي" (١٠).

كانت إنتخابات الرايخشتاغ للحادي والثلاثين من تموز ثالث إنتخابات عامة جرت في ألمانيا خلال خمسة أشهر. ولكن ذلك لم يكلف النازيين جهداً وقذفوا بأنفسهم الى قلب المعركة وهم أشد تعصباً وقوة من أي وقت مضى. وخلافاً لوعده هتلر. للرئيس هيندنبرك بمساندة حكومة باين، وشنّ (كوبلز) هجمات قاسية على وزير الداخلية. وفي ٩ تموز سارع هتلر الى (شلايخر) وشكا بمرارة من سياسة الحكومة. وظهر واضحاً من الجماهير التي خرجت لرؤية هتلر أن النازيين يوالون نجاحهم. ففي يوم واحد (٢٧ تموز) خطب هتلر في ستين ألف متظاهر في (براندنبرك) وبما يقرب من هذا العدد في (پوتسدام) وخطب تلك الليلة في حشد قوامه مائة وعشرون ألفاً احتلوا الملعب الرياضي الجبار المعروف بگرونفالد ستادיום Grunewald Stadium في برلين بينما وقف مائة ألف آخرون يسمعون صوته من مكبرات الصوت.

وجاءت إنتخابات ٣١ تموز بنصر مؤزر للقوميين الإشتراكيين. نالوا (١٣ ٧٤٥ ٠٠٠) صوت فازت لهم بمائتين وواحد وثلاثين مقعداً في الرايخشتاغ. مما جعلهم حزب الأغلبية فيه بكل سهولة. وإن كانوا بعيدين عن الأغلبية في مجلس عدد أعضائه (٦٠٨) وخسر الديمقراطيون الإشتراكيون عشرة مقاعد فأصبح عدد أعضائهم (١٣٣) وهذا يعزى بلاشك الى الجبن والانكماش الذي اظهره قادتهم في بروسيا. وترامت الطبقة العاملة في احضان الحزب الشيوعي وألقت بشقلها فحصلت على إثني عشر مقعداً آخر مما جعل عدد أعضائهم (٨٩) وقفز بحزبهم الى المرتبة الثالثة من الأحزاب الكبرى. وزاد

١٠- فوانر فون باين "مذكرات" ص ١٦٢.

حزب الوسط الكاثوليكي من قوته بعض الشيء فاضاف خمسة مقاعد الى مقاعده الثمانية والستين الأولى. إلا أن الأحزاب الوسطى الأخرى هزمت، حتى حزب هوكنبيرك الوطني الألماني وهو الحزب الوحيد الذي ناصر (باين) في الإنتخابات. وإذا أخرجنا الكاثوليك، فأنا نرى بكل وضوح أن الطبقات العليا والوسطى قد انحازت الى النازيين.

في الثاني من آب إستعرض هتلر إنتصاره في تگرينسي Tegermsee قرب مونيخ بمحادثات مع قادة حزبه. لقد فاز الحزب بسبعة ملايين صوت فوق أصواته التي حازها في آخر إنتخابات عامة قبل سنتين وزاد تمثيلهم البرلماني من (١٠٧) مقعداً الى (٢٣٠). حاز النازيون خلال أربع سنين منذ ١٩٢٨ على ثلاثة عشر مليون صوت جديد تقريباً. ومع ذلك فما زالت الأغلبية التي تدفع الحزب الى الحكم بعيدة المنال عن هتلر انه احرز فحسب ٣٧٪ من مجموع أصوات الناخبين العام. وما زالت أغلبية الشعب الألماني ضده.

وطالت مداولاته مع أعوانه الى آخر هزيع من الليل. ودونَ غوبلز النتائج التي اسفرت عنها في يومئته المؤرخة ٢ أيلول. "الفوهرر يواجه قرارات صعبة. أشرعاً؟ أمع الوسط؟" بإمكان النازيين أن يؤلفوا أغلبية برلمانية. لكن هذا "ما لا يمكن التفكير فيه" على حد قول غوبلز، ثم استطرد "لم يتوصل الفوهرر الى قرار نهائي. الموقف يحتاج الى وقت قصير ليتمّ نضجه".

ولم يطل به الأمر. بدا هتلر الذي أسكره النصر - وإن كان أقل من نصر حاسم، نافذ الصبر، فأسرع في ٤ أيلول الى برلين لا لمقابلة المستشار فون باين، بل الجنرال (فون شلايخر) ولكي "يعرض مطالبه" كما دونَ غوبلز "ولن تكون كثيرة الإعتدال". وفي الخامس من أيلول قابل هتلر فون شلايخر في ثكنات فورشتنبرغ Fuerstenberg بالقرب من برلين واجمل له شروطه وهي منصب المستشارية لنفسه، ورأسه الحكومة البروسية لحزبه الى جانب وزارتي داخلية الرايخ وپروسييا. ووزارات عدل وإقتصاد وطيران الرايخ. ووزارة جديدة للإرشاد العام والدعاية تستحدث خصيصاً لـغوبلز. ووعد هتلر فون شلايخر بلطعة من الصحافة هي وزارة الدفاع. وبالإضافة الى هذا قال أنه يطالب بقانون تفويضي من الرايخشتاغ يخوله الحكم بمرسوم لفترة محددة فان رفض إصداره، فعلى أعضائه أن "يذهبوا الى منازلهم". وانصرف هتلر من الإجتماع وهو واثق أنه كسب موافقة شلايخر على برنامجيه وأسرع طيب النفس الى مقره الجبلي في أوبرسالزبرك جنوباً. أما (غوبلز) الدائم الإستخفاف بالمعارضة، الدائم الشك في الجنرال السياسي، فلم يكن بهذه الدرجة من الثقة. ولجأ الى يومياته في ٦ آب بعد سماعه تقرير الزعيم المتفائل عن إجتماعه بشلايخر. فكتب ما يلي: "من الأوفق أن يكون المرء مرتاباً في التطورات المقبلة". إلا انه كان متأكداً من شيء واحد هو "إن قبضنا على الحكم مرة. فلن نتخلى عنه قطّ وعليهم أن يقذفوا بجثثنا خارج الوزارات".

ولم تكن الأمور كما قدّر هتلر، وفي ٨ آب كتب غوبلز "نداء تلفوني من برلين. العاصمة تعجّ بالشائعات. الحزب كلّه متهيّء لتسلّم زمام السلطة. رجال ال(إس. أي) يتركون محلات أعمالهم

ليكونوا مستعدين. قادة الحزب يتهيأون للساعة العظمى ان سارت الأمور على ما يرام... بديع إن ساءت الأمور فستكون نكسة شنعاء". وفي اليوم التالي جاء الى أوبرسالزبرگ كل من شتراسر، وفريك وفونك بأنباء ليست مشجعة كثيراً. شلايخر يتلوّى ثانية كالدودة، انه الآن يُصرّ على ان يحكم هتلر بموافقة الرايخشتاغ إن نال منصب المستشارية وأفاد فونك أن أصدقاءه رجال الأعمال قلقون من نيات حكومة نازية واخبره الثلاثة أخيراً أن (قلهلمشتراسه) قلقٌ بخصوص مؤامرة نازية.

ولم يكن هذا القلق بلا أساس ففي اليوم التالي الموافق ١٠ آب علم غوبلز أن الـ(إس. أي) في برلين "بحالة إستعداد مسلّح... إن الـ(إس. أي) يُحكم تطويق برلين بحلقة قوية... قللهلمشتراسه في توتر عصبيّ شديدٍ بخصوصه. لكن هذه نقطة تعيئتنا". وفي اليوم التالي عيل صبر هتلر ولم يسعه الانتظار. فانطلق الى برلين بالسيارة ليجعل من نفسه "قارعةً" هناك كما يقول غوبلز. وليكون من الجهة الأخرى مستعداً حينما يُدعى. ولما لم تأتِ الدعوة بادر هو بطلب مقابلة الرئيس. لكن كان عليه الإلتقاء بشلايخر وپاپن أولاً.

وقت هذه المقابلة في ظهر يوم ١٣ آب. وكانت عاصفةً، إنزلق (شلايخر) عن موقفه لما قبل أسبوع ودعم پاپن بإصراره على أن أكثر ما يمكن أن يأمله هتلر هو منصب نائب المستشار فجئ جنون هتلر. إما مستشار أو لا شيء! وأنهى پاپن المقابلة بقوله انه سيرك "القرار الأخير" لهندنبرگ^(١١).

وانسحب هتلر كالبرق الى فندق كايزرهوف المجاور. وورده هناك في الساعة الثالثة بعد الظهر، نداء تلفوني من مكتب الرئيس فسأل أحدهم (من يوميات غوبلز يستفاد بأنه كان السائل) من المتكلم: "هل تم الوصول الى قرار؟ إن كان الأمر كذلك فلا وجه لقدوم هتلر" فقبل للنازي أن الرئيس "يودُ أولاً أن يُكلم هتلر".

استقبل الفيلد مارشال الهرم، الزعيم النازي واقفاً يتكبيء على عكازه في مكتبه. وبهذا طبع المقابلة بجوٍّ من البرود. من غريب الصدف أن يكون هندنبرگ في تلك الساعة في حالة من الصفاء الذهنيّ المستوفز وهو ابن الخامسة والثمانين وان كان قبل عشرة أشهر قد أصيب بفقد ذاكرة دام أسبوعاً. أصغى بصبرٍ أثناء ما كان هتلر يكرر طلبه للمستشارية والسلطة الكاملة. وكان (أوتو فون مايسنر) رئيس مستشارية الرأسة، وگورنگ الذي سحب هتلر، الشاهدين الوحيدين للحديث. ومع ان مايسنر ليس من المصادر التي يمكن الإعتماد عليها إعتياداً كلياً فان افادته في نورمبرگ هي المصدر الوحيد الباقي لما جرى وفيها مسح من الحقيقة: "اجاب هندنبرگ بالنظر الى الوضع المتوتر فانه لا يستطيع أن يخاطر بضمير مرتاح بنقل سلطة الحكومة الى حزب جديد كالحزب القومي الإشتراكي لا يتمتع بأغلبية متعصّب غير متسامح، كثير الصخب، تصعب السيطرة عليه".

واشار هندنبرگ عند هذه النقطة ويظهر من احتياجه، الى بضع حوادث أخيرة- إستخدامات بين

١١- لم يذكر پاپن في مذكراته وجود شلايخر في أثناء هذه المقابلة. لكن المصادر الأخرى لاتبقي شكاً في وجوده آنذاك. وهي نقطة مهمة بالنظر الى الحوادث اللاحقة.

النازيين والشرطة، أعمال عنف ارتكبتها أتباع هتلر بحق من يخالفهم في الرأي. تطرف في معادة اليهود، وغير ذلك من الأعمال الخارجة على القانون. كل هذه الحوادث قوّت إيمانه بوجود عناصر كثيرة من الأوباش في الحزب لا يمكن السيطرة عليها... واقترح هندنبرگ بعد حديث طويل أن يعلن هتلر إستعداده للتعاون مع الأحزاب الأخرى ولاسيما أحزاب اليمين والوسط، وعليه أيضاً أن يتخلى عن فكرته الضيقة بطلبه السلطة الكاملة، وصرّح هندنبرگ أنه سيكون قادراً عند تعاون هتلر مع الأحزاب الأخرى- على إظهار ما يمكنه إنجازه وتحسينه فان اظهر نتائج ايجابية فسوف يحصل على نفوذ متنامٍ أو حتى على نفوذٍ مهيمٍ في حكومة إئتلافية وأوضح أن هذا سيكون أحسن سبيل للقضاء على الخوف السائد من أن حكومة نازية قد تسيء إستخدام سلطاتها، وقد تضطهد كل وجهات النظر التي تخالفها حتى تستأصلها بالتدريج. وأعلن إستعداده لقبول هتلر ومثلي حزبه في وزارة إئتلافية. وأن تأليفها أصلاً يجب أن تسبقه مفاوضات، إلا أنه لا يتحمل مسؤولية إيداع السلطة الكاملة الى هتلر وحده...

كان هتلر متصلياً في رفضه وضع نفسه موضع المساوم مع زعماء الأحزاب الأخرى وأن يؤلف حكومة إئتلافية على هذا الشكل^(١٢).

وبعدها انتهى الحديث دون الوصول الى إتفاق. لم ينته قبل أن يلقي هندنبرگ محاضرة صارمة على الزعيم النازي. وهي كما جاءت بعبارات النشرة الرسمية الصادرة بعد المقابلة مباشرة: "ابدى هندنبرگ أسفه لأن الهير هتلر لم يجد نفسه في موقف مساندة حكومة وطنية حائزة ثقة رئيس الرايخ. كما وافق على ذلك قبل إنتخابات الرايخشتاغ". ويرى الرئيس الجليل أن هتلر قد رجع عن كلمته، ولكن عليه أن يكون حذراً من المستقبل. واستطردت النشرة "إن الرئيس نصح هر هتلر بشدة أن يسلك في معارضة حزبه النازي سلوكاً لائقاً يتسم بالفروسية وأن لا ينسى مسؤوليته ازاء الوطن والشعب الألماني".

لقد اظهرت النشرة جانب هندنبرگ في الإجتماع وأكدت أن هتلر طلب "الهيمنة الكاملة على الدولة"، ونشرت بكل سرعة بحيث أنها أخذت دعاية غوبلز على حين غرة وفاجأتها وهي في غفلة من أمرها. وألحقت أفدح الضرر بقضية هتلر ليس أمام الرأي العام وحده بل بين النازيين أنفسهم. وعبثاً نفى هتلر طلبه "السلطة الكاملة" وإنما اقتصر على طلب المستشارية ووزارات قليلة. لكن الرأي العام أخذ يقول هندنبرگ وصدقته.

وفي تلك الأثناء كان جنود العاصفة قد عبّئوا تعبئة تامة كالخيل المتوثبة الجامحة تكاد تقطع لجمها. وفي مساء ذلك اليوم استدعى هتلر قادتهم وتكلم معهم. وكتب غوبلز في يومياته عن ذلك: "إنها لمهمة شاقة! من يدري إن كان ممكناً ضبط تشكيلاتهم؟ لاشيء أصعب من أن تخبر الجنود النشوانين بخمرة النصر، أن النصر قد انتزع من يدهم". وفي ساعات متأخرة من تلك الليلة سرى

١٢- مؤامرة النازيين وعدوانهم ملحق A ص ٥٠٨ [الوثائق ٣٣٠٩ PS].

الدكتور القمي عن نفسه بقراءة رسائل فردريك الأكبر. وفي صبيحة اليوم التالي أسرع ليقضي عطلة على ساحل البلطيق "يأس عظيم خيم على رفاق الحزب". وكره الخروج من غرفته، وعاف حتى التحدث معهم واستطرد "لا أريد أن أسمع شيئاً حول السياسة أسبوعاً واحداً على الأقل. كل ما أريده الشمس، الضياء، الهواء، الهدوء".

وعاد هتلر إلى أوبرسالزبرگ يمتص رحيق هذه العناصر الطبيعية نفسها ويتأمل في المستقبل القريب جداً. "إن أول فرصة كبيرة ضاعت" على حد قول (گوبلز). ووجد هرمان راوشننگ Hermann Rauschnig الزعيم النازي في دانزك رئيسه كئيباً مغموماً في قمته الجبلية. وقال له "يجب أن نكون قساة غلاظاً" وانهال على پاپن سباً وتقريعاً إلا أنه لم يفقد الأمل. وكانت تمر به أوقات يتكلم فيها وكأنه أصبح مستشاراً فيقول "مهمتي أصعب من مهمة بسمارك. فعلياً أولاً أن أخلق شعباً قبل أن أبدأ بالتصدي للأعباء الوطنية التي تواجهنا". لكن، فلنفترض أن الدكتاتورية العسكرية بقيادة (پاپن وشلايخر) قامت بقمع الحركة النازية وتصفيته؟ وفاجأ هتلر (راوشننگ) بالسؤال هل توجد إتفاقية تسليم قضائية بين ألمانيا وبين الدانزك المدينة الحرة التي كانت آنذاك تحت وصاية عصبة الأمم؟ فلم يفهم راوشننگ السؤال في أول الأمر. لكن تبين بالأخير أن هتلر كان يبحث عن مكان يصلح ليكون ملجأ^(١٣).

وأثبت گوبلز في يومياته "شائعات عن احتمال اعتقال الفوهرر"، على أنه ظل حتى بعد مقابلته الفاشلة مع رئيس الرايخ وحكومة پاپن وشلايخر ورغم خوفه من تحريم حزبه، مصمماً على التمسك بأسلوبه "الشرعية" وأحمد كل كلام حول قيام ال(إس. أي) بإنقلاب. وباستثناء نوبات من اليأس تصيبه فقد بقي واثقاً من بلوغه الهدف - لا بالقوة، ولا بالحصول على الأغلبية البرلمانية البعيدة المنال بل بالوسائل التي رفعت پاپن وشلايخر إلى القمة: بدسائس السلالم الخلفية وهي لعبة يمكن أن يلعبها إنسان ولم يمر وقت طويل إلا وضرب مثلاً. في ٢٥ آب تحدث گوبلز مع هتلر في برختسگادن وذكر الأول على أثرها: "لقد اتصلنا مع حزب الوسط، يكفي ذلك ليؤتي بضغطة على خصومنا". وفي اليوم التالي عاد گوبلز إلى برلين حيث وجد (شلايخر) قد اكتشف "تفاصيل حسناً النبض مع الوسط". وفي اليوم التالي ذهب لزيارة الجنرال ليكون متأكداً فحسب. وظن أن شلايخر بدا قلقاً من محاولة تأليف جبهة من هتلر وحزب الوسط الكاثوليكي. فهما يحققان الأغلبية المنشودة في البرلمان. وكتب گوبلز عن شلايخر "لا أدري صدقه من كذبه". ومع أن الإتصالات مع حزب الوسط لم يكن يقصد منها - كما ذكر گوبلز أكثر من وسيلة للضغط على حكومة (پاپن) فقد أعطت ثمارها في حادثة هزلية حصلت الآن في الرايخشتاغ رسمت بداية نهاية الفارس الخيال مستشار الرايخ. عندما افتتحت جلساته في ٣٠ آب ضم الوسط أصواته إلى النازيين في إنتخاب (گورننگ) رئيساً للمجلس. وهكذا وجد القوميون الإشتراكيون واحداً منهم على كرسي الرئاسة لأول مرة حين بوشر في جلسات الأعمال في ١٢

١٣- هرمان راوشننگ: "صوت الخراب".

أيلول وقام غورنك بانتهاز فرصته حق قيام. كان (باين) قد استحصل مسبقاً على مرسوم من الرئيس بحل الرايخشتاغ- وتلك أول مرة يصدر على الرايخشتاغ حكم الموت قبل مزاولة أعماله. إلا أنه أثر ألا يأتي بها في أول جلسة أعمال. وكان في حقيته عوضاً عنها خطبة ترسم منهاج حكومته بعد أن أكد له أن الأعضاء القوميين بالاتفاق مع معظم الأحزاب الأخرى سيعارضون أيّ تصويت بإسقاط الحكومة يتوقع أن يتقدم به الأعضاء الشيوعيون. ففي حالة تقديم إقتراح مثل هذا يكفي لتأجيل التصويت أي اعتراض عليه من أحد أعضاء المجلس الستمئة تقريباً.

وعندما قدم (أرنست تورغلر) Ernst Torgler زعيم الكتلة الشيوعية إقتراحه كتعديل على جدول الأعمال اليومي، لم ينهض أي نائب قومي أو آخر غيره للاعتراض، أخيراً طلب (فريك) عن الأعضاء النازيين تأجيل الإجتماع مدة نصف ساعة.

يقول (باين) في مذكراته "أصبح الموقف الآن حرجاً. لقد أخذت على حين غرة" وبادر بارسال ساع على الفور الى المستشارية ليأتيه بأمر الحل. وفي تلك الأثناء كان هتلر يتباحث مع كتلة الحزب البرلمانية في قصر رئيس المجلس عبر الشارع. كان النازيون في مأزق. وهم في حيرة من امرهم. فقد شعروا أن القوميين غدروا بهم لتقاعسهم عن معارضة الإقتراح وتأجيل التصويت. وأصبح الآن لزاماً على حزب هتلر، إن شاء إسقاط حكومة باين، أن يصوت الى جانب الشيوعيين على إقتراح شيوعي أصيل! قرر هتلر ابتلاع هذه اللقمة الخبيثة. والتغاضي عن الصحبة التي تشمئز لها النفس. وأمر مندوبيه بالتصويت للشيوعيين على إقتراحهم بإسقاط حكومة (باين) قبل أن يتمكن المستشار من حل الرايخشتاغ- ولإنجاز المهمة كان على رئيس المجلس (غورنك) تأدية بعض الألعاب السحرية والحيل السريعة التي لا تخلو منها الحياة البرلمانية فكان بطل الجوّ السابق ابن بجدتها وباري قوسها وهو الجريء المقدم المتعدد القابليات كما دلّ عليه في حوادث أخرى تالية أوسع نطاقاً. وعندما عادت الجلسة الى الانعقاد. دخل (باين) متأبطاً حقيبة الأوراق الحمراء المعهودة التي جرى التقليد ان تحتوي أمر حل الرايخشتاغ وكان قد تسلمها لتوه من الساعي. وطلب الكلام لقراءتها، لكن رئيس المجلس تظاهر بعدم رؤيته وصعد الدم الى وجه باين واستوى على قدميه وأخذ يلوح بالوثيقة أمام أعين الأعضاء المجتمعين كلهم باستثناء (غورنك) الذي كان وجهه الباسم ملتفتاً الى جهة أخرى، وهو يدعو الى التصويت العاجل. في هذه اللحظة انقلب وجه (باين) -كما ذكر شاهد عيان- من الأحمر الى الأبيض وعلائم الغيظ ظاهرة عليه. وتقدم من منبر الرئيس وقذف بأمر الحل على منضدته. فلم يشأ غورنك أن ينتبه اليه وأمر بأخذ الأصوات. ونهض باين متبوعاً بوزارته وليس بينهم عضو واحد في المجلس- وخرج. وكانت نتيجة التصويت ضد الحكومة بأغلبية من (٥١٣) صوتاً مقابل (٣٢). وهنا فقط انتبه (غورنك) الى قطعة الكاغد التي وضعت فوق منضدته بغيظ شديد. فقرأها على المجلس وقرر بطلان مفعولها لأنها موقعة بتوقيع مستشار صوتت الآن على إسقاطه أغلبية برلمانية.

أي عناصر من ألمانيا ربحت وأبها خسرت بهذه الواقعة الهزلية. وكم كان الريح أو الحसार؟ لم يكن

ذلك واضحاً في الحال. أما وأن الغرائق باين قد جعل مصدر زراية ودعاية فهو مما لاشك فيه. إلا أنه كان يشخصه موضع دعابة وسخرية دائماً حتى عند أصدقائه على حد قول السفير (فرنسوا بونسيه). أما وأن الرايخشتاغ أظهر أن الأغلبية الساحقة للشعب الألماني تعارض قيام هندنبرگ بالتقاط حكومة رأسه ممن هبّ ودبّ، فهو واضح وضوح الشمس. ولكن من جهة الوسيلة؟ ألم تستنزف المزيد من الثقة بالنظام البرلماني؟ أما من ناحية النازيين، ألم يثبتوا مرة أخرى أنهم إنتهازيون لا شعور لديهم بالمسؤولية ومستعدون للانحياز حتى الى أعدائهم الألداء الشيوعيين للوصول الى غاياتهم؟ زد على هذا ألم يسأم الشعب الإنتخابات وألا يواجه النازيون خسارة في الإنتخابات القادمة المحتومة، وهي الرابعة خلال سنة واحدة؟ كان (كريگور شتراسر وفريك) يعتقدان أنهم سيخسرون وان هذه الخسارة قد تصيب الحزب بنكسة.

على أن هتلر كان "يكاد يطير فرحاً". عاد للمرة الثانية فاتخذ قراراً لا يتطرق اليه الخطأ" على ما دونّ غوبلز في يومياته.

وأسرع الرايخشتاغ فأقر أمر حلّه. وعين يوم ٦ تشرين الثاني لمباشرة الإنتخابات الجديدة. وتمثل للنازيين صعوبات معينة منها على حدّ ملاحظات غوبلز- ملل الناس من الخطب السياسية والدعاية. وأقرّ في يوميته المؤرخة ١٥ تشرين الثاني أن السأم تطرق حتى الى عمّال الحزب "الذين أصبحوا متوتري الأعصاب للغاية من جراء هذه الإنتخابات التي لا تنتهي. لقد أجهدوا..." كذلك قامت المصاعب المالية فكثير من رجال الصناعة والمال أخذوا ينحازون الى جانب باين بعد ان منحهم عدة إمتيازات، وأصبحوا مرتابين الى أقصى درجة (كما حذر فونك)- من رفض هتلر التعاون مع هندنبرگ، وكذلك لما بدا لهم من تزايد تطرفه وميله الى العمل حتى مع الشيوعيين كما أبانت حادثة الرايخشتاغ. ولم تفت ملاحظة غوبلز فدّون في يومية ١٥ تشرين الأول: "يصعب جداً الحصول على مال. كل السادة الأثرياء والمثقفين يقفون الى جانب الحكومة".

وقبل الإنتخابات بأيام قليلة إنضم النازيون الى إضراب الشيوعيين لعمّال وسائط النقل في برلين. وهو إضراب تنصّل منه الديمقراطيون الإشتراكيون وإتحادات النقابات وهذا ما زاد من العجز المالي لحزب هتلر. بنضوب مصدره من رجال الأعمال الذين ساء لهم هذا العمل في وقت كان الحزب النازي بأمس الحاجة الى المال لدفع دولاب الإنتخابات بقوة. ودونّ غوبلز في ١ تشرين الثاني بمضاضة: "قلة المال أصبح مرضنا المزمّن. نحن نفتقر الى ما يكفي لشنّ معركة كبيرة، لقد انفضّ عنا كثير من أوساط البرجوازية فزعاً من مشاركتنا في الإضراب وسرى الشك حتى في عدد كبير من رفاق الحزب". وكتب في الخامس من تشرين عشية يوم الإنتخابات "الهجوم الأخير. إندفاع يائس للحزب ضدّ الفشل. نجحنا في الحصول على عشرة آلاف مارك في آخر لحظة. وهذا المبلغ سيدفع به الى المعركة بعد ظهر نهار السبت. لقد عملنا كلّ ما في وسعنا. ولدنح للخط القرار النهائي".

الخطّ والناخبون الألمان قررا أموراً كثيرة في السادس من تشرين الثاني. ولم يكن من بينها أمر

حاسم بخصوص مستقبل الجمهورية المتقوضة. فقد النازيون مليوني صوت و(٣٤) مقعداً في الرايخشتاغ وانزل عددهم الى (١٩٦) نائباً. وحصل الحزب الشيوعي على ثلاثة أرباع المليون زيادةً وفقد الديمقراطيون الاشتراكيون هذا القدر نفسه من الأصوات فأصبح عدد نواب الشيوعيين (١٠٠) بعد ان كانوا (٨٩) ونزل عدد مقاعد الاشتراكيين من (١٣٣) الى (١٢١). وحصل الحزب الوطني الألماني وهو الوحيد الذي دعم الحكومة، على ما يقارب المليون صوت اضافي -لها من النازيين على ما يظهر- وأصبح عدد نوابه (٥٢) بعد ان كان (٣٧). ومع ان الحزب النازي بقي أكبر حزب في البلاد إلا أن خسارته مليوني صوت كانت نكسة شديدة. للمرة الأولى بدأ المد النازي ينحسر ومن نقطة بعيدة جداً عن الأغلبية. وتبددت أسطورة المناعة وأصبح هتلر في وضع أضعف مما كان في تموز للمطالبة بالحكم.

أدرك باين ذلك فاطرح جانباً ما كان يدعو "النفور الشخصي" من هتلر وكتب له رسالة في ١٣ تشرين الثاني يدعو فيه الى "بحث الموقف" لكن هتلر ضمن جوابه شروطاً عديدة حملت باين على أن يستبعد كل أمل بالوصول الى تفاهم معه. ولم يندهش المستشار التباه العاجز من صلاية هتلر، وإنما اندهش من الوسيلة الجديدة التي اقترحها عليه الآن صديقه ومعلمه شلايخر. لقد تأكد صانع الملوك المراوغ أن فائدة باين قد بلغت حدها النهائي مثل سلفه (بروننغ). والآن تتفتق خطط جديدة في ذهنه الخصب. يجب ان يذهب صديقه العزيز باين. ويجب ان يترك الرئيس حراً في التعامل مع الأحزاب السياسية ولاسيما أكبرها. فألح باستقالة باين ففعل ذلك في ١٧ تشرين هو وحكومته وبعث الرئيس بطلب هتلر حالاً.

كانت مقابلتهما في ١٩ تشرين الثاني أقل جفاء من مقابلة ١٣ آب. في هذه المقابلة تسامح الرئيس بالجلوس. وترك زائره يبقى أكثر من ساعة ووضع أمام هتلر حلين يختار بينهما: أُمستشارية له اذا استطاع تأمين أغلبية فعالة في الرايخشتاغ وفق برنامج محدد. أو نيابة المستشارية في حكومة يرأسها (باين) تحكم بموجب قانون الطوارئ. وقابل هتلر الرئيس مرة أخرى في الواحد والعشرين منه. كذلك تبادل عدداً من الرسائل مع (مايسنر) ولم يسفر الأمر عن إتفاق. لا يستطيع هتلر الحصول على أغلبية برلمانية ثابتة. حتى بموافقة حزب الوسط على دعمه بشرط أن لاينحى منحى الدكتاتورية وأبى (هوكنبرگ) أن يتعاون معه بحزبه القومي. ولهذا واصل هتلر مطالبته بمستشارية حكومة غير برلمانية يعينها الرئيس. إلا ان الرئيس أبى عليه ذلك. لأنه يفضل صديقه (باين) إن لم يكن ثم مفراً من حكومة غير برلمانية. وذكر في رسالة الى هتلر وجهها عنه (مايسنر) أنه لا يستطيع ايداع هذا المنصب اليه "لأن وزارة كهذه ستقلب حتماً الى دكتاتورية حزبية... وليس في إمكاني أن تحمل هذه المسؤولية أمام ضميري ويميني الذي أقسمته"^(١٤).

١٤- في هذه المرة لم يباغت غوبلز كما بوغت في ١٣ آب. فسارع بدفع الرسائل المتبادلة الى الصحافة ونشرت صباح ٢٥ تشرين ويمكن الإطلاع عليها في ٢١، ١٩٣٣-١٩٤٠ من Jahrbuch der Oeffentlichen Rechts.

كان الفيلد مارشال الهرم أصدق نبوءة في الأولى منه في الثانية. أما بالنسبة الى هتلر فإنه دق باب المستشارية مرة ثانية، فما ان فتح له شق منه حتى أغلق بوجهه.

وهذا ما توقعه (پاپن) بالضبط. كان واثقاً من إسناد المستشارية اليه ثانية عندما انطلق هو وشلايخر لزيارة هندنبرگ في مساء اليوم الأول من كانون الأول. لاتساوره الربة فيما يحيك الجنرال الماكر من خطط. كان شلايخر قد اتصل بشتراسر واقترح عليه أمراً: إن لم يشأ النازيون المشاركة في حكومة يرأسها (پاپن) فربما رغبوا أن يساهموا في تشكيل حكومة يقوم هو على رأسها. وطلب ان يستدعى هتلر الى برلين للمشاورة معه. وفي رواية راجت كثيراً في الصحف الألمانية وقبلها معظم المؤرخين فيما بعد، ورد ان هتلر ركب القطار الصاعد من مونيخ الى برلين فعلاً. وفي هدأة من الليل أدركه غورنگ في (بيننا) ووقف سفره وحمله الى (فايمر) حالاً لحضور إجتماع قادة النازيين الكبار ومن العجيب أن تكون رواية النازيين لهذه الحادثة ادق من غيرها. يذكر گوبلز في يوميته المؤرخة ٣٠ تشرين الثاني أن برقية وصلت هتلر يطلب فيها منه الإسراع بالسفر الى برلين إلا أنه قرر أن يدع (شلايخر) منتظراً. في أثناء ما كان يتداول مع رفاقه في (فايمر) حيث قد تقرر ان يفتتح معركة الإنتخابات في (ثورينجيا) وفي هذا الإجتماع الذي حضره القادة الخمسة الكبار (گورنگ وگوبلز وشتراسر وفريك وهتلر) نجم خلاف كبير في الرأي. فقد ألح شتراسر ومعه فريك أن يتسامح النازيون على الأقل في حكومة يشكلها (شلايخر) وان كان يفضل شخصياً المشاركة فيها. وعارض گورنگ وگوبلز هذا السبيل بشدة. وانحاز هتلر الى صفهما. وفي اليوم التالي نصح هتلر شخصاً يدعى (الميجر أوتو) أرسله اليه الجنرال، بألا يقبل صاحبه منصب المستشار، لكن النصح جاء متأخراً.

كان (پاپن) يجهل تمام الجهل الدسيسة التي يحيكها شلايخر خلف ظهره. وفي بداية المقابلة مع الرئيس (١ كانون الأول) شرع يشرح خطته للمستقبل: سيبقى مستشاراً يحكم بمرسوم ويمتّع الرايخشتاغ بفترة إستجمام حتى يتسنى له تعديل الدستور. والواقع أن پاپن كان يريد إجراء "التعديل" لإعادة البلاد الى أيام الإمبراطورية وتشبيت حكم الطبقات المحافظة وسلطانها. وأيد في مذكراته وفي محاكمته بنورمبرگ كما أيد للرئيس إن إقتراحاته تتضمن "خرق الرئيس لنصوص الدستور الحالي" إلا أنه أكد له بأنه "معذور في وضع مصلحة الوطن موضعاً أرفع من قسمه يمين الولاء للدستور" مثلما فعل بسمارك قبله مرة "لأجل مصلحة البلاد" (١٥).

وبوغت (پاپن) حين تدخل شلايخر محتجاً. منتهزاً فرصة تردد الرئيس الشيخ الواضح في حشّه بقسمه على الولاء للدستور، إن كان ذلك مما يمكن إجتنابه- وها هو الجنرال يرى أنه ممكن، فهو يعتقد بإمكان قيام حكومة تحوز ثقة أغلبية الرايخشتاغ لو رأسها بنفسه. إنه متأكد من مقدرة على شق (شتراسر) مع ستين نائباً نازياً على أقل تقدير عن كتلة الحزب. وبوسعه اضافة نواب الطبقة الوسطى الى هذا الشق مع الديمقراطيين الإشتراكيين، بل لا يستبعد إمكانية الحصول على مساندة إتحاد

النقابات. فظهرت علائم الاستنكار على هندنبرگ وإلتفت الى پاپن وطلب منه أن يمضي قدماً في تأليف حكومة جديدة. يقول پاپن "وبدا شلايخر مصعوقاً" وطال بينهما النقاش بعد إنصرافهما لكنهما لم يتوصلا الى نتيجة. وقبل ان يفترقا إلتفت شلايخر الى پاپن وردد العبارة التي قيلت (المارتن لوثر) عندما انطلق في سبيله الى مجمع (ورمز Worms) الحاسم: "أيها الراهب الصغير لقد اخترت طريقاً صعبة". كم كانت الطريق صعبة؟ هذا ما علمه پاپن في صبيحة اليوم التالي في إجتماع الساعة التاسعة لمجلس الوزراء الذي دعا الى عقده. يقول پاپن "تهض شلايخر وأعلن أنه لا يستطيع تحقيق التعليمات التي "أوصاني بها الرئيس. وكل محاولة مني قد توقع البلاد في فوضى. فالشرطة والجيش لا يستطيعان ضمان إستمرار عمل وسائل النقل والخدمات البلدية في حالة وقوع إضراب عام، ولا يستطيعان أيضاً حفظ الأمن والنظام في حالة وقوع حرب أهلية. وأن الأركان العامة قد وضعت دراسة بهذا الخصوص وإنه قد رتب للميجر أوتو [واضع الدراسة] أن يكون تحت تصرف الوزارة ويقدم تقريراً"^(١٦). ثم استدعى الجنرال الرائد أوتو. ان كانت ملاحظات شلايخر قد هزت كيان پاپن، فان تقرير الرائد أوجين أوتو Eugen Otto (الذي كان سيتسنم منصب سفير هتلر في طوكيو) الموقوت توقيتاً بالغ الدقة قوّضه تقويضاً. لم يرد الميجر شيئاً آخر على قوله "أن الدفاع عن الحدود، وحفظ النظام في الداخل ضدّ النازيين والشيوعيين أمران لا طاقة بهما للقوات التي هي الآن تحت تصرف الحكومة المركزية وحكومات الأقاليم. لذلك فهو يوصى حكومة الرايخ بالامتناع عن إعلان حالة الطوارئ"^(١٧).

ووجد پاپن بدهشة يخالطها الألم أن الجيش يصرفه كما صرف من قبله القيصر، وكما ركل قبل زمن قصير بوجي من شلايخر كلاً من الجنرال (گروينر) والمستشار بروننگ، فأسرع الى هندنبرگ بالأنباء مؤملاً أن يقوم بطرد (شلايخر) من وزارة الدفاع ويستبقه- وقد طالب بذلك فعلاً. فأجابه الرئيس الضخم البنية "أيها العزيز پاپن، إنك لن تحفظ عليّ إن غيرتُ فكري. على أنني رجل كبير السن وقد عانيت الكثير. ولم أعد في وضع استطيع تحمل مسؤولية حرب أهلية وأملنا الوحيد هو أن ندع (شلايخر) يجرب حظه". ويحلف پاپن يميناً أن "دمعتين كبيرتين" إنحدرتا على خدي هندنبرگ. وبعد ساعات قلائل وفيم كان المستشار المعزول يخلي مكتبه من أوراقه وصلته صورة فوتوغرافية للرئيس مذيّلة بالعبارة التالية "Ich hatt' einen Kameraden!": لقد كنا رفاقاً". وفي اليوم التالي كتب اليه الرئيس بخطّ يده عن "قلبه المثقل بالأسى" بسبب اضطراره الى اعفائه من منصبه. وأكد أن ثقته به باقية ابداً وكان ذلك قولاً صادقاً، وسيقام عليه الدليل بعد قليل.

في ٢ كانون الأول أصبح (كورت فون شلايخر) مستشاراً وهو أول جنرال يتولى هذا المنصب منذ تولاه (الجنرال الكونت جورج ليو فون كاپريثي دي كاپرارا دي مونتيكوكولي Leo Von Caprivi Co-

١٦- المرجع السالف ٢٢٠.

١٧- المرجع السالف ٢٢٢.

prara de Montecucoli) الذي خلف بسمارك في ١٨٩٠ وهكذا بلغت به دسائسه الملتوية أخيراً الى أرفع منصب. في وقت بقيت الأزمة الاقتصادية التي لا يفهم عنها شيئاً- في أقصى حدتها. وفي حين بدأت جمهورية فايمر تنهار بعد ان عمل هو كثيراً على تهديمها. وعندما لم يعد هناك شخصٌ واحد يثق به حتى الرئيس الذي لعب به طويلاً. وكانت أيامه وهو في الأوج محدودة معدودة كما اتضح لكل امرءٍ خلا نفسه. وكان النازيون متأكدين من ذلك ويومية غوبلز المؤرخة ٢ كانون الأول تتضمن ما يلي: "عين شلايخر مستشاراً ولن يبقى طويلاً". وكان هذا رأي (پاپن) أيضاً. لم يفارقه ألمه لكرامته الجريحة وهو الآن متعطش للانتقام من "صديقه وخلفه" كما دعاه في مذكراته. وعرض شلايخر على پاپن سفارة باريس لكي يبعده عن طريقه فأبى. ويقول پاپن أن "الرئيس أراد أن يبقى في برلين على مقربة منه"، فبرلين هي أفضل موقع ستراتيحي لحبك دسائسه ضد زعيم الدسائسين. وراح پاپن يعمل بجهد العنكبوت وخفته. واذ كانت السنة ١٩٣٢ الحافلة بالتناحر تشارف على نهايتها، امتلأت برلين بالمؤامرات. مؤامرات ضمن مؤامرات. فالى جانب مؤامرات (پاپن) و(شلايخر) كان ثم واحدة في قصر الرئيس حيث امسك أوسكار ابن الرئيس وسكرتير مجلس الدولة مايسنر بمقاليد الأمور من خلف العرش. وكان ثم مؤامرة في فندق (كايزرهوف) حيث هتلر وأعوانه من حوله يتآمرون لا للإستيلاء على السلطة فقط، بل لتتآمر فئة على فئة وسرعان ما اشتبكت خيوط التآمر وتشعثت بحيث لم يحل عيد رأس سنة ١٩٣٣ حتى لم يعد متآمرٌ واحدٌ متأكداً ممن يغدر بمن، ومن يخون من؟! لكن لم يطل الأمر بهم ليكتشفوا ذلك.

-٤-

شلايخر: آخر مستشار للجمهورية

قال شلايخر مرة. وكان على قيد سمع السفير الفرنسي المنتبه: "لم ابق في الحكم إلا سبعة وخمسين يوماً. وفي كل يوم منها أواجه بسبع وخمسين خيانة! ألا كفاكم حديثاً عن الإخلاص الألماني!"^(١٨) إن حياته العامة وأفاعيله جعلته ولاشك مرجعاً في الموضوع. بدأ مستشاريته بعرضه نيابة مستشارية الرايخ ورئاسة وزارة بروسيا على (گريگور شتراسر). فبعد فشله في حمل هتلر على المشاركة في حكومته راح يحاول شق الحزب النازي بالطعم الذي ألقاه لشتراسر وكان هناك أسبابٌ للاعتقاد بأنه قد ينجح فشتراسر كان الرجل الثاني في الحزب ومن عناصر الجناح اليساري فيه الذي يؤمن حقاً بإشتراكية قومية وهو محبوب أكثر من هتلر وكان بوصفه قائداً لمنظمة الحزب السياسي، على إتصال مباشر بكل قادة الحزب المنطقيين والأقليميين. وقد حاز ثقتهم

١٨- فرانسوا پونسيه المرجع السالف ص ٤٣. ذكر "٧٠ يوماً" وكان واهماً.

على ما يبدو. كان الآن مؤمناً أن هتلر اوصل الحركة الى نهاية مقفلة. والحزب مفلس مالياً وفي تشرين الثاني أبلغهم (فريتز تيسن) إنه لن يدفع بعد الآن إعانات للحزب. ولم يجد الحزب وفراً لدفع رواتب الألوف من موظفي الحزب أو للإلتفاق على الـ(إس. أي) الذي يكلف وحده مليونين ونصف مليون أسبوعياً. وهدد أصحاب المطابع الذين يطبعون الصحف النازية بتوقيف الطبع حتى يتسلموا ما تأخر لهم من أجور مستحقة. وتصدى غوبلز للموضوع في يومية ١١ تشرين الثاني "الوضع المالي لمنظمة برلين يائس. لا شيء غير ديون وقوائم واجبة الدفع". وفي كانون الأول أبدى أسفه لوجوب تخفيض رواتب موظفي الحزب وأخيراً أظهر يوم الإنتخابات (الثورنيجية) الموافق للثالث من كانون الثاني وهو يوم مقابلة (شتراسر لشلايخر)، خسارة ٤٠٪ من أصوات النازيين وأصبح واضحاً على الأقل (لشتراسر) أن الحزب لن يفوز بالحكم بطريق الإقتراع. ولذلك ألحّ على هتلر بالتخلي عن شعاره "كل شيء أو لا شيء" وأن يأخذ كل ما يعطى من سلطة بتأليفه حكومة إئتلاف مع شلايخر وإلا فإنه يخشى أن يتمزق الحزب. كان يلح في إتخاذ هذه الخطوة شهراً بطولها. وقد إمتلات يوميات غوبلز من منتصف الصيف حتى كانون الأول بتعليقات مرة حاقدة على "خيانة" شتراسر لهتلر.

وجاء الفصل الختامي للرواية في الخامس من كانون الأول في إجتماع قادة الحزب بفندق كايزرهوف ببرلين. طلب (شتراسر) أن "يتسامح" النازيون في حكومة شلايخر على الأقل، وعضده (فريك) زعيم كتلة نواب النازيين في الرايخشتاغ. وكثير منهم كان يخشى فقد مقعده ومخصصات النيابة المالية إن تسبب هتلر في إنتخابات أخرى. واشتد غورنك وگوبلز في معارضة (شتراسر) وفازا بهتلر. لن يتسامح هتلر في نظام شلايخر. لكن ظهر أنه لم يزل مستعداً "للتفاوض" معه. وعيّن غورنك لإنجاز المهمة- فقد سمع على قول غوبلز- بأحاديث شتراسر الخصوصية مع المستشار التي جرت قبل يومين. وفي السابع من ذلك الشهر جرت مناقشة في كايزرهوف بين هتلر و(شتراسر) وانقلبت الى خصام عنيف فاتهم هتلر رئيس أعوانه ونائبه بمحاولته طعنه من الظهر وعزله من قيادة الحزب وتمزيق صفوفه فأنكر (شتراسر) ذلك بشدة واقسم أنه مخلص لكنه اتهم هتلر بقيادة الحزب الى الدمار، ويظهر أنه تغاضى عن قول أشياء كانت تقض مضجعه وتملاً جوفه منذ ١٩٢٥. فعاد الى فندقه الاكسلسيور Ex-celsior ودونها كلها في رسالة لهتلر أنهاها بإستقالته من كل وظائفه في الحزب.

ذكر غوبلز أن الرسالة التي وصلت هتلر في الثامنة سقطت "كالقنبلة المنفجرة". وأصبح الجو الذي ساد كايزرهوف يشبه جو المقبرة "كلنا متألمون مكتئبون" لقد كانت اشد ضربة وقعت على هتلر منذ إعادة تنظيمه الحزب في ١٩٢٥. الآن هو يقف على اعتاب الحكم، يبنّده تابعه الأول ويهدد بتقويض كل ما بناه خلال سبع سنين.

"كتب غوبلز هتلر يأتي الى منزلنا ليلاً. من الصعب التظاهر بالبشاشة والانشراح. كلنا مكتئبون، وعلى الأخص لأن الخطر يتهدد كيان الحزب كله بالإنتهيار التام وذهاب كل عملنا ومجهودنا أدراج الريح... نداء تلفوني من الدكتور (لاي). الموقف في الحزب يسوء ساعة بعد ساعة. يجب ان

يعود الفوهرر الى كايزرهوف في الحال". وطلب من غوبلز أن يرافقه الى الفندق في الساعة الثانية صباحاً. ودفع شتراسر بقصته الى الصحف الصباحية التي كانت قد بدأت تظهر في الشوارع. ووصف غوبلز أثر ذلك في هتلر: "خيانة! خيانة! خيانة!"

"ظلّ الفوهرر ساعات بطولها يقطع أرضية الغرفة غدوة ورواحاً كان شديد الألم، غائر الجرح بسبب هذه الخيانة. أخيراً يقف ويقول: إن تمزق الحزب وذهبت ريحه سأنهي كل شيء في ثلاث دقائق بطلقة مسدس".

لم يتمزق الحزب. ولم يطلق هتلر الرصاص على نفسه ربما كان بإمكان شتراسر أن يحقق هاتين النتيجةين معاً فيغير بذلك وجه التاريخ تغييراً تاماً معاكساً لكنه استسلم هو نفسه في اللحظة الفاصلة. راح (فريك) بإذن من هتلر يقلب عليه برلين عاليها سافلها. فقد تم الإتفاق أن يُرأب الخصام بشكل ما حرصاً على سلامة الحزب. إلا أن (شتراسر) الذي أدركه القرف من كل هذا استقل القطار الى إيطاليا لقضاء فترة راحة في جوها المشمس. يبدو هتلر في أقوى حالاته دائماً عندما يتبين ضعفاً في خصمه ولهذا هوت ضربته سريعة قوية. فنزعت المنظمة السياسية التي بناها (شتراسر) ورأسها هتلر نفسه ونصب الدكتور (لاي) (كاولايتير) كولون رئيس أركان له. ووقت تصفية أصدقاء (شتراسر) واستدعي كل قادة الحزب الى برلين للتوقيع على تصريح جديد بالولاء لأدولف هتلر ففعلوا.

للمرة الأخرى خلّص الماكر النمساوي نفسه من مأزقٍ خطيرٍ كان سيؤدي الى كارثةٍ. وسحق بسرعة (غريگور شتراسر) ذلك الرجل الذي ظن الكثيرون انه أعظم من هتلر. وسماه غوبلز في يوميته المؤرخة ٩ كانون الأول "الرجل الميت". وقدر لهذه التسمية أن تصبح واقعية بالحرف بعد سنتين عندما قرر هتلر تصفية الحساب.

في العاشر من كانون الأول وبعد أسبوع من قيام الجنرال فون شلايخر بطرد فرانز فون باين. بدأ هذا يفتل احابيل دسائسه الخاصة. فبعد إلقائه في تلك الليلة خطاباً في نادي السادة Herren klub الذي انتقى من أعضائه الارستقراط الأثرياء رجال حكومته القصيرة العمر. انفرد في حديث خاص جداً مع البارون كرت فون شرويدر Kurt Von Schroeder الصيرفي الكولوني الذي كان يمنح الحزب النازي اعانات مالية. وايدى رغبته في أن يقوم هذا المالي الكبير بتدبير مقابلة سرية بينه وبين هتلر. وزعم باين في مذكراته أن (شرويدر) هو صاحب الإقتراح إلا أنه أقر بأنه وافق. وتشاء غرائب الصدف أن يقوم قلهم كبلر Wilhelm Keppler مشاور هتلر الإقتصادي وواحد من حلقات إتصاله بأوساط رجال الصناعة، بعرض هذا الإقتراح نفسه على الزعيم النازي.

والتقى الرجلان كانا قبل أسابيع قليلة على خلاف مستحکم، بمقابلة كانا يأملان أن تكون في غاية من السرية والتكتم - وتم ذلك في منزل (شرويدر) بكون صبيحة الرابع من كانون الثاني. ودهش باين عندما إلتقط مصور صورة له على مدخل الدار ولكنه لم يأبه بذلك كثيراً حتى اليوم التالي. وجاء هس وهملر وشرويدر برفقة هتلر. إلا أنه ترك أعوانه هؤلاء في غرفة الاستقبال وانسحب

الى غرفة مطالعة (شرويدر) حيث بقي مع باين ومضيفهما داخل الغرفة المغلقة يتحدثون زهاء الساعتين. ومع أن الحديث كان سيئاً في المبدأ بشكوى هتلر المرة من الاساليب التي اتبعها (باين) في معاملته النازيين أيام كان مستشاراً وصلت المناقشة الى النقطة المصيرية لهما ولبلادهما. هذه لحظة حاسمة للزعيم النازي. لقد حافظت قوته الخارقة على وحدة الحزب بعد نكسة (شتراسر) وانطلق يجوب البلاد طولاً وعرضاً ويخطب ثلاث مرات أو أربع يومياً في الاجتماعات حاثاً قادة الحزب على الوقوف خلفه كتلة مترابطة. إلا أن روح الحزب كانت قد تدنت كثيراً. وركبه الإفلاس المالي. وقال كثيرون أن أمره انتهى وعكس (كوبلز) في يومياته لآخر أسبوع من السنة، الشعور العام السائد بقوله "جاءتنا السنة ١٩٣٢ بسوء حظٍ أبدي... الماضي كان عسيراً والمستقبل يبدو قاتماً كئيباً، كل الآمال قد تلاشت مع المال".

ولذلك لم يكن هتلر في موقف حسن للمساومة على السلطة كما كان موقفه في الصيف والخريف الماضي، لكن لم يكن موقف باين بأحسن منه فهو معزول بعيد عن الحكم. ولهذا إلتقى فكراهما مع وجود الخصومة بينهما.

ظلت شروط الإتفاق التي توصل اليها موضع جدل وتخمين. وذكر باين في نورمبرگ وفي مذكراته أنه بدافع من إخلاصه لشلايخر اقترح على هتلر المساهمة في حكومة الجنرال لا غير. ولكن نظراً الى سجل أكاذيب باين الطويل. ولرغبته الطبيعية جداً في أن يظهر نفسه بمظهر حسن في نورمبرگ في كتاب مذكراته. وعلى ضوء الحوادث التالية، يبدو أن شهادة (شرويدر) المعطاة في نورمبرگ والمختلفة تماماً عن مزاعم باين، هي الأصح والأقرب الى الحقيقة. زعم رجل المال أن إقتراح باين كان إحلال حكومة باينية- هتيرية محل حكومة شلايخر، يكونان فيها متساويي السلطة. لكن: "هتلر... قال لو أنه نصب مستشاراً فمن الضروري أن يكون هو رئيساً فعلياً للحكومة. وعندئذ يدخل مساندو باين في الحكومة كوزراء إن رغبوا في السير معه في سياسته التي ستتضمن إجراء عدة تغييرات. هذه التغييرات هي إستبعاد الديمقراطيين الإشتراكيين والشيوعيين واليهود من المراكز الحساسة في ألمانيا وإعادة الإستقرار الى الحياة العامة... وتوصل فون باين وهتلر الى إتفاق على الأسس... واتفقا أن التفاصيل يجب أن يتم بحثها وتحديدها وأن ذلك يمكن إنجازه في برلين أو أي محل مناسب آخر^(١٩).

وبالطبع جرى ذلك بغاية التكتل. لكن ولذهول باين وهتلر- صدرت صحف برلين بعناوين مثيرة نارية في صبيحة الخامس من كانون الثاني لتفضح إجتماع (كولن) مصحوبة بمقالات حادة ضد باين لخيانته شلايخر. كان الجنرال الماكر قد بث جواسيسه بفظانته المعهودة وعلم باين فيما بعد أن أحدهم كان المصور الذي إلتقط صورته حين دخوله منزل (شرويدر).

والى جانب صفقة هتلر مع باين، فقد حصل الزعيم النازي على شيئين من وراء إجتماع (كولن)

١٩-٢٠ ج ٢ الص ٩٢٢-٩٢٤.

كانا عظيمي القيمة له. لقد علم من المستشار السابق أن هندنبرگ لم يمنح شلايخر سلطة حلّ الرايخشتاغ وهذا يعني أن النازيين يستطيعون أن يطردوا الجنرال بمساندة الشيوعيين في أيّ وقت شاؤوا. والشيء القيم الثاني هو أن الاجتماع أسفر عن قيام المصالح التجارية لغربي ألمانيا بإيفاء ديون الحزب النازي كلها. وبعد يومين من محادثات (كولن) دوّن (كوبلز) "تقدّم يسرّ المخاطر، في التطورات السياسية". وبعد عشرة أيام دوّن في ١٦ كانون الثاني أن الوضع المالي "قد تحسن بشكل أساسي في عشية وضحاها".

وفي تلك الأثناء كان المستشار شلايخر يمضي قدماً- بتفائل ينم عن قصر نظر، وهو أقل ما يقال- في محاولة إقامة حكومة رصينة البنين. وفي الخامس عشر من كانون الثاني ألقى خطبة "عائلية" موجهة إلى الشعب من دار الإذاعة، راجياً من مستمعيه أن ينسوا أنه كان عسكرياً ومؤكداً أنه لا يشايح الرأسمالية ولا الاشتراكية، وأن "مفاهيم أمثال الإقتصاد ذي القطاع الخاص، أو الإقتصاد المبرمج قد فقدت أثارها المفزعة" وقال ان مهمته الأساسية هي تأمين العمل للعاطلين. وانهاض البلاد على قدميها إقتصادياً. ولن يكون ثم زيادة في الضرائب ولا خصم من الأجور وانه في الواقع قد ألغى آخر خصم جرى على الأجور ومنح الضمان، وهو مما عمد اليه باين. وازافةً الى ذلك فانه وضع حداً للمخصصات المالية التي منحها باين لمصلحة رجال الاقطاع الكبار، إنه يقوم بتطبيق مشروع إستملاك ما مساحته (٨٠٠٠٠٠) إيكار من المزارع المفلسة العائدة لليونكرز في الشرق وتوزيعها على خمسة وعشرين ألف أسرة فلاحية. كذلك سيجري تحديد أسعار البضائع الضرورية كالفحم واللحم ويراقب بيعها مراقبة دقيقة.

كان هذا طلباً للدعم الشعبي من شخص ظلّ حتى تلك اللحظة يتجاهله ويعارض فيه وأتبعه حالاً بإجتماعات من زعماء إتحادات النقابات. مخلّفاً في أنفسهم إنطباعاً بأنه يتطلع الى مستقبل يكون فيه العمال النقابيون والجيش دعامتي الوطن التوأمين. لكن العمال لم يخدعهم رجل ليس لديهم به ذرة واحدة من الثقة ولهذا رفضوا التعاون ونهض رجال الصناعة والاقطاعيون الكبار من الجانب آخر وحملوا السلاح على مناج المستشار الجديد، زاعقين بملء أفواههم أنه "الشيوعية" بذاتها. وصعق رجال الأعمال لصداقة شلايخر المفاجئة مع نقابات العمال. وحق أصحاب المزارع الكبيرة على قطعه السلف الزراعية. واضطرموا بنار السخط لمشروعه في تجزئة المزارع الكبرى المفلسة في الشرق. وفي ١٢ كانون الثاني شرعت عصبة الأراضي Landbund وهي جمعية للمزارعين الكبار بهجوم عنيف على الحكومة وطلب زعمائهما ومنهم إثنان نازيان مقابلة الرئيس وقدموا احتجاجاً. وكان هندنبرگ من اليونكرز الأقطاعيين فاستدعى مستشاره لتوضيح الأمر. فكان جواب شلايخر أنه هددّ بنشر تقرير سري للرايخشتاغ عن قروض اوستهلفي Ostheffe (مشروع الإغاثة الشرقي). وهي فضيحة لايجهلها أحد، تشمل وصمتها مئات من أعرق أسر اليونكرز أتخمت وتنعمت في بحبوحة "قروض" حكومية لم تستردّ منهم، وتشمل بصورة غير مباشرة الرئيس هندنبرگ نفسه إذ أن المزرعة البروسية التي قدمت

هدية له سجلت بصورة غير قانونية باسم ابنه للتخلص من دفع ضريبة التركات. وبقي شلايخر واثقاً ثقة عجيبة بأن كل شيء يسير على ما يرام. رغم صياح رجال الصناعة وزئير الاقطاعيين وجفاء الاتحادات النقابية. وفي يوم رأس السنة ١٩٣٣ ذهب هو وأعضاء وزارته لزيارة الرئيس الشيخ فراح هذا يعلن عن "شكره وإمتنانه" لأنه "تم التغلب على أخطر المصاعب. وأن طريق الرفعة أصبح الآن مفتوحاً أمامنا".

في الرابع من كانون الثاني وهو اليوم الذي تم فيه إجتماع باين بهتلر في (كولن) دبر شلايخر مقابلة (لشتراسر) الذي عاد من إيطاليا مع الرئيس. وأبدى الرجل الثاني في الحزب النازي سابقاً رغبته في الإنضمام الى وزارة شلايخر أثناء الزيارة التي تمت بعد بضعة أيام. هذه المناورة اشاعت الذعر في المعسكر النازي الذي كان قد ركز جهوده ونقل أثقاله الى (دولة لبيبي Lippe) الصغيرة حيث هتلر ورؤساء الحزب يخوضون معركة عنيفة لتحقيق نجاح إنتخابي محلي من شأنه تقوية مركز هتلر في مساوماته مع باين. وقص غوبلز حادثة قدوم (گورنگ) في منتصف ليل ١٣ كانون الثاني بأنباء السوء عن شتراسر. وكيف جلس زعماء النازي يناقشونها طول الليل. وصادقوا جميعاً على ان قبوله وزارة معناه نكسة خطيرة للحزب.

كذلك كان رأي (شلايخر). وفي ١٥ كانون الثاني عندما كان يزوره كرت فون شوشنك Kurt Von Schushnigg وزير العدل النمساوي حين أكد له! "ان هر هتلر لم يعد بعد مشكلة. ولم يعد حزبه خطراً سياسياً ولقد حلت المسألة كلها وأصبحت أثراً من آثار الماضي (٢٠)".

لكن (شتراسر) لم يدخل الوزارة، كذلك لم يدخلها زعيم الحزب القومي (هوغنبرگ) الذي كان قد أكد لهندنبرگ في الرابع عشر من كانون الثاني (أي قبلها بيوم). أنه سيدخل حتماً. فكلما الرجلين إتجهوا الى هتلر. وخاب مسعى الأول منهما. وأصاب الثاني بعض نجاح. ففي الخامس عشر في اللحظة التي كان (شلايخر) يؤكد (لشوشنك) نهاية هتلر، حقق النازيون نجاحاً محلياً في إنتخابات (ليبي) الصغيرة. إلا أنه لم يكن نصراً ساحقاً. فمن المجموع الكلي للأصوات البالغ تسعين ألفاً نال النازيون ثمانية وثلاثين ألفاً أو ٣٩٪ بزيادة ١٧٪ عن أصواتهم السابقة. لكن النازيين بقيادة غوبلز راحوا يقرعون طبول "الظفر" ومن الغريب أنها استرعت إهتمام عدد من المحافظين، منهم رجال يقفون خلف هندنبرگ مباشرة. وعلى رأسهم سكرتير الدولة لشؤون الرأسة وأوسكار إبن الرئيس.

في مساء الثاني والعشرين من كانون الثاني. تسلل هذان السيدان من قصر الرئاسة واختطفوا تاكسيّاً على حدّ قول مايسنر لكيلا تتناهبهما الانظار المستطلعة واتجهوا الى منزل عضو نازي لم يكن معروفاً حينذاك، يدعى (يواكيم فون ريبنتروب Joachim Von Ribbentrop) وكان هذا صديقاً لباين وقد خدما معاً في الجبهة التركية أثناء الحرب- وبحسب رواية (مايسنر)، اجتمعوا هناك لباين وهتلر وگورنگ وفريك. في حين كان أوسكار يعارض أي إتفاق مع النازيين حتى تلك الليلة المصيرية. وربما

٢٠- كرت فون شوشنك "وداعاً يا أوستريا" الص ١٦٥-١٦٦.

علم هتلر بذلك، ومهما يكن فانه أصرَّ على أن يتبادل الحديث معه "بمراى من أربعة أعين". ودهش مايسنر حين ابدى هندنبرگ الصغير موافقته وانسحب مع هتلر الى غرفة ثانية حيث بقيا وحيدين زهاء الساعة. ماذا قال هتلر لإبن الرئيس الذي لم يكن مشهوداً له بالذكاء والرزانة والخلق الرصين؟ هذا ما لم يكشف عنه. والذي كان يسود أوساط النازيين أن هتلر توعدده وقدم له عروضاً في الوقت نفسه. وكان الوعيد يتضمن تلميحاً الى دور أوسكار في فضيحة (اوستهلقي) ونشرها للرأى العام وتنويعاً بتملصه من دفع ضريبة التركات على مزرعة هندنبرگ. والمرء لا يصعب عليه أن يتكهن بالعروض المبذولة، بعد أن أضيف ما مساحته خمسة آلاف إيكرو معفاة من الضريبة الى املاك هندنبرگ في (نيودك) بعد بضعة أشهر، ثم قفزة أوسكار في آب ١٩٣٤ من رتبة عقيد في الجيش الى رتبة (فريق).

وعلى اية حال، فلاشك أن هتلر خلف إنطباعاً قوياً في نفس نجل الرئيس. ذكر مايسنر في افادته بنورمبرگ "كان أوسكار قون هندنبرگ في طريق العودة ساكناً سكوتاً مطبقاً. والملاحظة الواحدة التي خرجت من فمه هي: لا مناص من الأمر، يجب أن يضم النازيون الى الحكومة. وكان إنطباعي هو أن هتلر نجح في ايقاع أوسكار تحت تأثيره" (٢١).

لم يعد باقياً لهتلر ممن يريد إخضاعهم لتأثيره غير الأب. وهو لا ريب أصعب. اذ أن الفيلد مارشال الهرم على ضعف عقله، لم يكن كبر السن أخلاقه الصخرية. أصعب حقاً إلا انه ليس مستحيلاً. وكان پاپن كالفندس نشطاً في استمالة الشيخ يعمل عملاً دائماً فيه. وكان من السهل أن يرى المرء أن شلايخر يقترب من سقطته بخطى حثيثة رغم مكره وحيلته. لقد فشل في كسب النازيين أو شقهم. ولم ينل دعم القوميين أو مساندة الوسط والديمقراطيين الإشتراكيين.

وبناء على ذلك ذهب (شلايخر) لرؤية هندنبرگ في ٢٣ كانون الثاني وأقرَّ أمامه بأنه لم يحز الأغلبية في الرايخشتاغ وطلب إصدار مرسوم يحله مع صلاحيات وفق أحكام الطواريء بموجب المادة (٤٨) من الدستور ويزعم مايسنر أنه طلب أيضاً "إلغاء الرايخشتاغ المؤقت" وافهمه بصراحة بأن عليه أن يحول حكومته الى "دكتاتورية عسكرية" (٢٢).

وجد شلايخر نفسه يعود الى الموضع الذي كان فيه پاپن في أوائل كانون الأول رغم أحابيله ومؤامراته. لكن دوريهما أصبحا الآن متضادين. كان پاپن حينذاك قد طلب صلاحيات استثنائية فعارضه (شلايخر) واقترح أن يشكل هو حكومة أغلبية بدعم من النازيين. وها ان الجنرال الآن يصرَّ على الحكم بالدكتاتورية العسكرية والشعلب الماكر پاپن يؤكد للفيلد مارشال أن بوسعه إقناع هتلر بدخوله حكومة تحوز أغلبية برلمانية. تلك هي تقلبات الحياة من خفض ورفع بين الأوغاد والدسائس! وذكر هندنبرگ (شلايخر) بالأسباب التي عرضها في ٢ كانون الأول لتنحية پاپن. وأبلغه انها

٢١- شهادة مايسنر [مؤامرة... الملحق الأول ص ٥١١] انظر ما بعده ايضاً.

٢٢- المرجع السالف (شهادة مايسنر).

ما زالت قائمة. وأوعز اليه بالعودة الى مهمته في الحصول على أغلبية برلمانية. لقد انتهى (شلايخر) وانه ليدرك ذلك. كما يدركه كل مطلع على السر. وگوبلز أحد هؤلاء القلائل الواقفين عليه، فبادر يعلق على ذلك غداة اليوم "سيسقط شلايخر في اية لحظة. ذلك الذي أسقط العدد الكبير". أخيراً حلت نهايته وبصورة رسمية في ٢٨ كانون الثاني حيث قصد الرئيس وقدم إستقالة حكومته. فقال هندنبرگ للجنرال الذي وضحت له الحقيقة "لقد سبقت إحدى قدمي إلى القبر، ولست متأكداً بأنني سوف لا أتأسف فيما بعد على هذا العمل في السماء"، فأجابه شلايخر "بعد نزاع الثقة مني يا سيدي، فأنا لست متأكداً من ذهابك الى السماء". ثم تلاشى بسرعة وغاب من خشية مرسح تاريخ ألمانيا^(٢٣).

وفي ظهر اليوم نفسه. كلف الرئيس پاپن باستطلاع إحتتمالات تأليف حكومة برئاسة هتلر "بحسب شروط الدستور". كان هذا الرجل المخادع الطموح طوال أسبوع يغازل فكرة الغدر بهتلر وعودته الى منصب المستشار لحكومة غير برلمانية بمساندة (هونگنبرگ). وفي ٢٧ كانون الثاني عاد گوبلز الى يومياته ليكتب "ما زال إحتتمال تكليف (پاپن) بالمستشارية قائماً". وقبلها بيوم واحد أرسل (شلايخر) (الجنرال فون هامرشتاين) قائد الجيش العام الى الرئيس ليحذره من إختيار پاپن وفي وسط هذا التيه من الدسائس التي امتلأت بها برلين كان شلايخر في آخر لحظة يوطي السبيل لهتلر حتى يخلفه. وأكد هندنبرگ لقائد الجيش أنه لا ينوي أبداً تعيين "ذلك النائب العريف النمساوي". وكان اليوم التالي وهو الأحد الموافق لـ ٢٩ كانون الثاني يوماً حاسماً والمتأمرون يلعبون آخر أوراقهم اليانسة ويملأون العاصمة بأشد الشائعات تناقضاً وفزعاً. ولم تكن بينها شائعة واحدة دون أساس. وعاد شلايخر يدفع بالمخلص الأمين (هامرشتاين) لتحريك الشورياء. قابل قائد الجيش هتلر ليحذره مرة أخرى بأن پاپن قد يتخلى عنه ويتركه صفر اليدين. وربما كان من الحكمة أن يتحالف الزعيم النازي مع المستشار الساقط ومع الجيش. فلم يبدُ على هتلر أي إهتمام. وعاد الى كاييزهوف ليتناول القهوة والكعك مع أعوانه. وفي أثناء تناوله تلك العصرية جاء (گورنگ) بأنباء استدعاء الفوهرر نهار الغد وتنصيبه مستشاراً. في تلك الليلة كان قادة النازي يحتفلون بالأنباء الخطيرة في منزل گوبلز في الرايشكانزلرپلاتز Reichskanzlerplatz عندما وصلت بعثة أخرى من (شلايخر) بأنباء مفزعة. كان الرسول (فيرنر فون الفنسليبن Werner Von Alvensleben) وهو رجل مغرم بالمكائد بحيث إن لم توجد واحدة، إلا خلقها هو. أخبر الحزب الجذلان أن شلايخر وهامرشتاين قد وضعا حامية بوتسدام بحالة الإنذار وهما يتهيئان لإرسال الرئيس الى (نودك) وإقامة دكتاتورية عسكرية. وكان هذا أضخم مبالغة. من المحتمل أن الجنرالين يقلبان هذه الفكرة في رأسيهما ولكن الأكثر تأكيداً أنهما لم يتخذا أي عمل. ومع هذا فقد أصيب النازيون بالهستيريا من فرط القلق وبأسرع مما يسمح لگورنگ جسمه

٢٣- يوميات هامرشتاين (هويلر بينيت Nemesis) ص ٢٨٠.

الضخم اندفع يعبر الميدان الكبير لينذر الرئيس وپاپن. أما ما فعله هتلر فقد وصفه هو نفسه فيما بعد: "كان أول رد فعل لي على هذه المؤامرة [العسكرية] المحبوكة أن أرسلت بطلب قائد الـ(إس. أي) في برلين الكونت فون هلدورف. وانذرت عن طريقه كل الـ(إس. أي) في برلين. وفي الوقت نفسه أشرت على الميجر فيكي Wecke من الشرطة الذي أثق به، ليتهايأ إلى إحتلال سريع لـ(فلهلمشتراسه) بستة أفواج من الشرطة... وأخيراً أبلغتُ الجنرال فون بلومبرگ Von Blomberg (الذي أختير ليكون وزير الحرب الألماني المقبل) بأن يذهب حال وصوله إلى برلين في الساعة الثامنة من صباح يوم ٣٠ كانون الثاني - إلى السيد الهرم ليقسم اليمين الدستورية حتى يكون في مركز يستطيع منه كقائد عام للجيش أن يقمع أي محاولة محتملة لإنقلاب مسلح^(٢٤)".

ومن وراء ظهري شلايخر والقائد العام (كل شيء في تلك الفترة المجنونة كان يعمل من وراء الظهر) أرسل بطلب الجنرال فون فون بلومبرگ من جنيف حيث كان يمثل ألمانيا في مؤتمر نزع السلاح. لم يرسل هتلر بطلبه لأنه لم يتسلم بعد السلطة. بل استقدمه الرئيس هندنبرگ وپاپن ليعين وزير دفاع جديد في حكومة هتلر-پاپن. وكان رجلاً يتمتع بثقة هتلر من السابق كما قال هو عنه. وكان قد وقع تحت تأثير الكولونيل فالتر فون راينخاو Walther Von Reichenau رئيس أركانه في بروسيا الشرقية وهو من أشياع النازيين المتحمسين. عندما وصل (بلومبرگ) برلين في الموعد المقرر وجد بانتظاره في المحطة ضابطين - يحملان له أمرين متناقضين. فالراند فون كونتنز Von Kuntzen مرافق هامرشتاين أبلغه بمراجعة القائد العام رأساً والعقيد (أوسكار فون هندنبرگ) مرافق والده أبلغه بالمثل أمام رئيس الجمهورية في الحال. ولم تطل الحيرة بالجنرال وقصد الرئيس. وهناك أقسم اليمين كوزير للدفاع وبهذا أعطي السلطة لقمع أي محاولة لإنقلاب بقوة الجيش فضلاً عن إتخاذ التدابير لدعم الحكومة الجديدة عسكرياً. ولم يبق لإذاعة أمرها غير ساعات قليلة. ظل هتلر ممتناً من الجيش لقبوله إياه في تلك اللحظة الحرجة. وقد أخبر أعوانه بعد ذلك بزمين وجيز "لو لم يقف الجيش إلى جانبنا في أيام ثورتنا. لما رأيتمونا اليوم واقفين هنا" كانت تبعة شديدة الوطأة ستنوء تحت ثقلها هيئة ضباط الجيش العامة في الأيام التالية. وسيصيبها جراح أكثر من الندم بكثير.

في الصباح القرمز للثلاثين من كانون الثاني ١٩٣٣. أشرفت مأساة جمهورية فايمر على الختام. تلك المحاولة الخرقاء لأربع عشرة سنة خائبة من جانب الألمان لإقامة صرح ديمقراطي. ولكن لم تنته إلا بعد هزلية صغيرة حصلت في آخر لحظة وقبيل نزول الستار - بين مختلف مجموعات المتأمرين الذين اجتمعوا لدفن النظام الجمهوري. وقد وصفها پاپن فيما بعد. قال: "في حدود العاشرة والدقيقة الثلاثين اجتمع أعضاء الحكومة المزمع تشكيلها في منزلي وساروا جميعاً مخترقين الحديقة إلى القصر الجمهوري حيث انتظرنا في مكتب مايسنر. وجدد هتلر حالاً شكواه من أنه لم ينصب مندوباً سامياً

لبروسيا وكان يشعر أن هذا يحدد كثيراً من صلاحياته... فاخبرته أن هذا التفويض البروسي يمكن معالجته فيما بعد. فأجاب هتلر على ذلك: إن حددت سلطاته بهذا الشكل فعليه أن يصّر بطلب إجراء انتخابات جديدة للرايخشتاغ.

وخلق هذا موقفاً جديداً تماماً. وحميت المناقشة وانقلبت الى جدال حاد. واعترض هونكربرگ بصورة خاصة على الفكرة وحاول هتلر تهدئته بقوله أنه لن يقوم بإجراء أي تغيير في الوزارة مهما كانت نتائج الانتخابات... في هذا الحين تعدت الساعة الحادية عشرة بكثير وهو الموعد المقرر لمقابلة الرئيس. وطلب مني مايسنر أن نختم نقاشنا لأن هونكربرگ غير مستعد للانتظار أكثر من هذا. "تصادمت آراؤنا تصادماً مفاجئاً بحيث أصبحت أخشى أن يتحطم ائتلافنا قبل أن تتم ولادته... أخيراً ادخلنا على الرئيس وقمت بالتعريف بالشكل الأصولي وألقى هونكربرگ كلمة مقتضبة حول ضرورة التعاون التام في مصالح الأمة وأقسمنا اليمين الدستورية. وهكذا تم تشكيل وزارة هتلر^(٢٥)". بهذا الشكل، وعن طريق الباب الخلفي بالمساومات السياسية الدنيئة مع رجعية المدرسة القديمة التي كان يبغضها في الماضي. أصبح المتشرد السابق من فيينا وحطام الحرب العظمى الأولى والثوري العنيف رئيس حكومة شعب عظيم.

لا مشاحة في أن القوميين الإشتراكيين كانوا أقلية واضحة في الحكومة. فلديهم ثلاثة مناصب من أصل أحد عشر منصباً وزارياً. وباستثناء المستشارية لم تكن وزاراتهم مهمة. ففريك عين وزيراً للداخلية إلا أنه لا يسيطر على الشرطة كما هو الشأن في كل وزارات الداخلية بدول بأوروبا- فالشرطة في ألمانيا في أيدي الدول ذات الحكم الذاتي. والوزير النازي الثالث هو (گورنگ) لكن لم يعثر له على وزارة معينة ولذلك سمي وزير دولة. مع وجود تفاهم مسبق بصيرورته وزيراً للطيران حالما تبني ألمانيا قوتها الجوية. ولم يعلق أهمية كبيرة على تعيين (گورنگ) وزيراً لداخلية دولة بروسيا وهو منصب يسيطر به صاحبه على شرطة بروسيا، لأن انظار الرأي العام كانت متجهة الى وزارة الرايخ ولم يظهر اسم گوبلز- لدهشة الكثير- في قائمة الوزراء فقد ترك مؤقتاً في العراء.

واودعت الوزارات المهمة للمحافظين الذين كانوا على يقين بأنهم لم يضعوا الوهق في رقبة النازي إلا لخدموا أنفسهم. واستمر قون نيوراث وزيراً للخارجية وبلومبرگ عين وزيراً للدفاع وتولى (هونكربرگ) وزارتي الإقتصاد والزراعة المندمجتين وجعل (سلتي Seldte) زعيم الخوذ الفولاذية وزيراً للعمل وتركت الوزارات الأخرى في أيدي "اختصاصيين" لا حزبيين. كان پاپن قد عينهم في وزارته قبل ثمانية أشهر. وأصبح پاپن نائب المستشار، ورئيس وزارة بروسيا وقد وعده هونكربرگ أنه لن يقابل المستشار إلا برفقة نائب المستشار. وكان واثقاً إن هذه الوضعية الفريدة في بابها ستكبح جماح الزعيم النازي المتطرف. وأكثر من هذا كله، كانت الوزارة من بنات أفكار پاپن وخلقه وهو واثق بأنه

سيبسط سلطانه عليها بمساندة الرئيس الشيخ الصلب الرأي صديقه وحاميه والمعجب به ويدعم رفاهه المحافظين الخبيرين الذين يتفوقون على النازيين المستجدين بشمانية ضد ثلاثة.

لكن هذا السياسيّ السخيف المتآمر لم يكن على معرفة بهتلر - لا أحد عرف هتلر والحق يقال - ولم يدرك جسامه القوى التي تقيأتها الى أعلى. ولم يدرك يابن أو أي شخص غيره بإستثناء هتلر - الضعف الغامض المأتى الشبيه بالشلل الذي إنتاب المؤسسات القائمة كالجيش والمعاهد الدينية ونقابات العمال والأحزاب السياسية - أو الطبقة البرجوازية الهائلة اللانازية، والبروليتاريا المنظمة تنظيمياً عالياً كلها "استسلمت دون أن تبدي أي مقاومة" كما تبين ليابن بعدها بزمان طويل - وهو حسير حزين. ولم يعد هناك طبقة أو جماعة أو حزب في ألمانيا يستطيع إنكار سهمه في مسؤولية التخلي عن الجمهورية الديمقراطية وسيطرة أدولف هتلر. إن الخطأ الأكبر الذي إرتكبه الألمان المعادون للنازية هو فشلهم في تكوين جبهة متحدة ضدها. لقد فاز القوميون الإشتراكيون في ذروة قوتهم الجماهيرية في تموز ١٩٣٢ على ما لا يزيد عن ٣٧٪ من مجموع أصوات الناخبين العام لكن الثلاثة والستين بالمائة من الشعب الألماني الذين أظهروا معاداتهم لهتلر كانوا منقسمين إنقساماً شديداً، وقصيري النظر الى الحد الذي حال دون تجمعهم في وجه الخطر المشترك. وكان ينبغي لهم أن يعرفوا أنه سيحدق بهم ويستصفىهم إلا إذا اتحدوا في جبهة وان كانت مؤقتة للقضاء عليه. لقد ظلّ الشيوعيون حتى اللحظة الأخيرة مقيمين لايتحولون عن الرأي السخيف بأن عليهم القضاء أولاً على الديمقراطيين الإشتراكيين وإتحادات نقاباتهم وكل ما هو موجود من منظمات ديمقراطيي الطبقة البرجوازية تطبيقاً لمفهوم ملتبس ونظرية جامدة وهي مع ان كفاحهم هذا قد يؤدي الى نظام نازي، فانه سيكون مؤقتاً ونتيجته المحتومة إنهيار الرأسمالية وعندئذ يستظهر الشيوعيون وقيمون دكتاتورية البروليتاريا. إن الفاشية عند الماركسيين البولشفيك هي أعلى مرحلة للرأسمالية المحتضرة ولا مفر من مجيء النظام الشيوعي بعدها.

أربع عشرة سنة من المساهمة في سياسة حكم الجمهورية وعقد كل المساومات التي كانت ضرورية لتأليف حكومات ائتلافية استنزفت قوة الديمقراطيين الإشتراكيين واطفأت جذوة حيويتهم حتى أصبحوا حزباً لايزيد كثيراً عن أي حزب انتهازيّ يستخدم للضغط السياسي. واستقر على خطة المساومة للحصول على بعض الإمتيازات لإتحادات النقابات التي تكمن فيها معظم قوتهم. قد يكون حقاً - على حد قول بعض الإشتراكيين، أن الخط لم يبتسم في وجوههم: الشيوعيون المندفعون الذين لا يؤمنون بديمقراطيتهم كانوا قد وضعوا يديهم على جزء من الطبقة العاملة، والأزمة الإقتصادية ألحقت أذى كبيراً بهم بأن اضعفت نقابات العمال وافقدت الحزب مساندة الملايين من العاطلين الذين دفعهم قنوطهم الى أن يصيروا شيوعيين أو ينضموا الى النازيين. إلا أن مأساة الديمقراطيين الإشتراكيين لا يمكن ان تفسر تفسيراً كاملاً على ضوء سوء الحظ. فقد كانت فرصتهم الكبرى للسيطرة على ألمانيا في تشرين الثاني ١٩١٨ وتأسيس دولة تقوم على المبادئ التي ظلوا يبشرون بها دوماً:

الديمقراطية الاشتراكية إلا أنهم كانوا يفتقرون الى مضاء العزيمة للأقدام على هذا. والآن وفي مستهل فجر العقد الثالث من القرن تجدهم متعبين مكدودين وترى حزبهم حزباً إندحارياً يسيطر عليه رجال كبار السن الأغبياء على الأغلب وإن كانوا حسني النية. لقد بقوا مخلصين للجمهورية الى الأخير. لكنهم كانوا عند الحاقمة شديدي الارتباك، كثيري الخوف عاجزين عن القيام بمخاطر عظيمة كانت وحدها كفيلة بالابقاء على الجمهورية. كما ظهر ذلك من فشلهم في القيام بأي عمل عندما بعث باين ببضعة عشر جندياً لتدمير حكومة بروسيا الدستورية. وبين اليسار واليمين، كانت ألمانيا تفتقر سياسياً الى طبقة وسطى قوية برهنت في بلاد أخرى - كفرنسا وانكلترا والولايات المتحدة - بأنها عمود الديمقراطية الفقري. في أول سنة من الجمهورية فازت أحزاب الطبقة الوسطى وهي الديمقراطيون وحزب الشعب وحزب الوسط بأصوات بلغ مجموعها إثني عشر مليوناً وهي تقل بمليونين فقط عن مجموع ما حصل عليه الحزبان الاشتراكيان معاً. ولكن منذ ذلك الوقت وقوتهم تضمحل بإطراد بينما يتخلى عنهم أشياعهم الى هتلر والقوميين. انتخب الديمقراطيون فس ١٩١٩ أربعة وسبعين نائباً للرايخشتاغ وبمجيء ١٩٣٢ لم يكن لديهم غير مقعدين! وهبطت قوة حزب الشعب من إثني وستين مقعداً في ١٩٢٠ الى أحد عشر، في ١٩٣٢. ولم يكن يشبث قوة أصواته إلا الوسط الكاثوليكي فقد ظلّ محافظاً عليها الى الأخير. حاز الوسط (٧١) مقعداً في أول إنتخابات جمهورية ١٩١٩ وفي ١٩٣٢ كان حائزاً (٧٠) على انه كان أكثر من الديمقراطيين الاشتراكيين انتهازيّة كان كذلك على الغالب منذ أيام بسمارك تراه يساند أية حكومة تعطي إمتيازات لمصالحه الخاصة. ومعه انه كان يدعي الإخلاص للجمهورية ويتظاهر بالمساهمة في ديمقراطيتها فان زعماءه كما رأينا - كانوا يفاوضون النازيين لمنح هتلر منصب المستشارية قبل أن يسبقهم باين والقوميون في عرضها عليه. إن كانت جمهورية ألمانيا قد تخلصت من صنف ساسة (متنصف الطريق) فهي أيضاً أفتقرت الى الثبات الذي يفرضه حزب محافظ صميم كسائر البلاد الديمقراطية الأخرى. لقد فاز القوميون الألمان في أوج قوتهم العام ١٩٢٤ بستة ملايين صوت ودفعوا الى البرلمان بمائة وأربعة نواب فكانوا ثاني أكبر الأحزاب. ولكنهم بقوا طوال عهد جمهورية (فايمر) تقريباً يرفضون أخذ مراكز المسؤولية لا في الحكومة ولا في المعارضة. والإستثناء الوحيد كان مساهمتهم في وزارتين قصيرتي العمر في العشرينات. وما كان يريده اليمين الألماني الذي ذهب معظم أصواته الى القوميين هو القضاء على الجمهورية وعودة ألمانيا الإمبراطورية حتى يرجع اليهم كل إمتيازاتهم ولاشك أن الجمهورية كانت في غاية الكرم والتسامح في تعاملها مع اليمين أفراداً وطبقة. وبوضعنا هدف اليمين موضع إعتبار، لنا أن نقول إن معاملة التسامح كانت خارقة للعادة حقاً، فقد تركت الجيش ليغدو دولة ضمن دولة كما رأينا، وتركت رجال الأعمال والبنوك يجنون ارباحاً طائلة وتركت لليونكرز مزارعهم غير الإقتصادية بل ساعدتهم بقروض حكومية لم يدفعوها قطّ ونادراً ما استعملت لاستصلاح تلك الأراضي. ومع هذا فلم يكسب هذا التسامح الكريم عطفهم ولا ولاءهم للجمهورية. وظلوا - بتحاميلهم وغبائهم وعماهم

الذي يبدو بالمقابل غير مفهومٍ لهذا المؤلف. باتوا يهودون بمعاولهم على أسس الجمهورية حتى استطاعوا تقويضها بالتحالف مع هتلر.

ظن المحافظون أنهم وجدوا في المتشرد النمساوي السابق رجلاً يساعدهم على الوصول الى غاياتهم طول بقائه سجيناً في أيديهم. وكان تحطيم الجمهورية أول خطوة. وبعدها اخذوا يطمحون الى ألمانيا مركزية مطلقة الحكم تضع في الداخل حداً "للعبث" الديمقراطي. وتقضي على نفوذ نقابات العمال المستشري. وفي الخارج، تلغي عقوبة ١٩١٨ وتمزق معاهدة فرساي وتقوم ببناء جيش عظيم يعيد البلاد الى سابق عزها ومكانتها تحت الشمس. وتلك كانت غايات هتلر ايضاً. ومع انه جاء بما كان يفتقر اليه اليمين، جاء بالجماهير من الاتباع فقد ظل اليمين واثقاً بأن هتلر باقٍ في جيبه، ألا يفوقونه في الوزارة بنسبة ثمانية الى ثلاثة؟ وضع مسيطر كهذا يتيح للمحافظين أيضاً [أو هذا ما كانوا يظنون] إنجاز مهمتهم وهم في مأمن من غائلة النازية التي لاريب فيها، فهم شخصياً وكما يرون أنفسهم أناس أطهار يخافون الله!

لقد بنيت إمبراطورية آل هوهنزولرن على إنتصارات پروسيا العسكرية. وأقيمت جمهورية ألمانيا على هزيمة ألمانيا العسكرية بيد الحلفاء بعد حرب عظيمة، لكن الرايخ الثالث لا يدين بشيء للمغامرات العسكرية أو النفوذ السياسي. فقد بويع بالحكم زمن السلم، وجاء بطريق سلمية بفضل الألمان أنفسهم، بفضل قوتهم وضعفهم، لقد فرض الألمان الطغيان النازي على أنفسهم بأنفسهم. إن الكثير منهم وربما أغلبيتهم لم يدركوا ذلك تماماً في ظهر ذلك اليوم الثلاثين من كانون الثاني ١٩٣٣ عندما أودع الرئيس هيندنبرك- المستشارية بيد هتلر مطبقاً نصوص الدستور بكل دقة. إلا أن الأمر لم يطل بهم ليدركوا مغبة ما فعلوا.

الفصل الثالث

النازية تعم ألمانيا

١٩٣٣-١٩٣٤

قام هتلر بتطبيق النظرية التي رسخت في ذهنه ونضجت ولم ينسها منذ أيام تشرده في قيسينا فنجحت عملياً كما قدر لها تماماً. وهي ان سبيل الحركة الثورية الى تولي الحكم هو تحالفها مع بعض المؤسسات المتنفذة في الدولة. فالرئيس الذي يدعمه الجيش والمحافظون هم الذين نصبوه مستشاراً. ومع ان سلطته السياسية كانت كبيرة إلا انها ليست كاملة. فهي مشتركة بين مصادر السلطة الثلاثة تلك التي وضعته على كرسي الحكم، وظلت خارجة، غير واثقة الى حد ما بالحركة القومية الاشتراكية.

فكان غرض هتلر الفوري ازاحتهم حالاً من مقعد السائق. وجعل حزبه سيد الدولة الأوحد ثم القيام بالثورة النازية بسلطة حكومة مركزية مطلقة تدعمها شرطتها. ولم ينقض على وجوده في الحكم غير أربع وعشرين ساعة حتى شرع في تنفيذ أول صفحة حاسمة من خطته. بنصب فخ "لأسريه" المحافظين الخيلاء مطلقاً سلسلة من الاحداث المفتعلة أو المسيطر عليها، قدر لها بعد ستة أشهر أن تصبغ كل ألمانيا بصبغة النازية وأن تجعل منه دكتاتوراً للرايخ الموحد، اللافيدرالي لأول مرة في تاريخ ألمانيا. بعد قسمه يمين الإخلاص للدستور بخمس ساعات أي في الخامسة بعد الظهر يوم ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ عقد أول إجتماع وزاري وكان جدول أعمال الجلسة كما ظهر في نورمبرگ بين مئات الأطنان من الوثائق السرية، يكشف عن السرعة والبراعة اللتين بدأ بهما هتلر بمعاونة گوبلز الماكر في طي زملائه المحافظين تحت عباءته^(١). كان (هندنبرگ) قد وضع هتلر لا على رأس حكومة معينة بمرسوم بل حكومة تعتمد على أغلبية الرايخشتاغ. ولم يكن لدى النازيين والقوميين وهما الحزبان الوحيدان

١- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٣ الص ٢٧٢-٢٧٥ [الوثائق ٣٥١ PY] كان إجتماع الوزارة خاصاً بالطبع، وقد تم بغاية السرية والتكتم كمعظم الإجتماعات الوزارية الأخرى التي يعقدها هتلر وغيرها من المؤتمرات مع أعوانه السياسيين والعسكريين في عهد الرايخ الثالث، لا يطلع الرأي العام على وقائعها ولا نتائجها. فظلت خفية حتى كشف النقاب عن الوثائق الألمانية المضبوطة لأول مرة أثناء محاكمات نورمبرگ. كثير جداً من هذه المناقشات السرية جداً والقرارات التي نجمت عنها- كلها كانت تعتبر من أسرار الدولة- سئبت هنا من الآن فصاعداً في هذا الكتاب. مما سيلجئنا ان نذيله بكثير من الحواشي وستذكر المصادر في مضانها. لم يرق تاريخ لشعب في فترة محددة من الزمن فيه هذا القدر من الوثائق كما وجد في تاريخ الرايخ الثالث. فترك المؤلف إثبات المراجع بضعف كثيراً من أي قيمة قد تكون لكتابه بوصفه مدونة تاريخية وثائقية.

في الوزارة غير (٢٤٧) مقعداً من اصل (٥٨٣) مقعداً ولهذا إفتقرا الى الأغلبية. وللوصول اليها كان بحاجة الى ضم كتلة (الحزب الوسط) البرلمانية البالغ عدد نوابها (٧٠) ففي أولى ساعات حياة الحكومة الجديدة أرسل هتلر (گورنگ) لمفاوضة زعماء الوسط وها هو الآن يقف ليلبلغ الحكومة أن (الوسط) يطلب "إمتيازات معينة" ثم اقترح گورنگ حل الرايخشتاغ وإجراء إنتخابات جديدة ووافق هتلر، إلا أن (هوكنبيرگ) الحشبي الدماغ رغم كل نجاحه في عالم الأعمال والتجارة عارض في دخول (الوسط) الحكومة وعاد يعارض في إجراء إنتخابات جديدة لعلمه أن النازيين بكل مصادر القوة في الدولة خلفهم قد يفوزون وحدهم بالأغلبية المطلقة وبهذا يكونون قادرين على الإستغناء عن خدماته وخدمات أصدقائه المحافظين. واقترح بدل ذلك القضاء على الحزب الشيوعي، والتخلص من نوابه المائة. وبذلك سيحقق النازيون والقوميون الأغلبية المنشودة. لكن هتلر لم يشأ ان يذهب الى هذا المدى وقتذاك، وأخيراً استقر الرأي أن يقوم المستشار نفسه بمفاوضة زعماء الوسط في صباح اليوم التالي، فإن لم تأت المفاوضة بثمرة، تقوم الحكومة بإجراء إنتخابات جديدة.

ولم يكن أسهل على هتلر من جعلها غير مثمرة. طلب من زعيم الحزب "المونسنبور كاس Kaas" أن يضع- كأسس للبحث مطالبه في قائمة أسئلة إضافة الى مطلبه تعهداً من هتلر بأن يحكم بموجب الدستور. لكن هتلر خادع كلا من (كاس) وأعضاء وزارته بان أبلغ الأخيرين أن (الوسط) قدم مطالب لا يمكن تحقيقها ولا أمل ثم للإتفاق. واقترح أن يطلب من الرئيس حل الرايخشتاغ وإجراء إنتخابات عامة جديدة. وسقط پاپن وهوكنبيرگ في الفخ لكن وبعد تأكيد شديد من زعيم النازي ببقاء الوزارة على حالها مهما كانت نتيجة الإنتخابات الجديدة وافقاً على المضي معه في الشوط. وحدد لها الخامس من آذار.

ولأول مرة- في آخر إنتخاب حر نسبياً جرى في ألمانيا- أتيح للنازيين إستخدام كل قوى الحكومة الهائلة لنيل الأصوات. واستطار گوبلز فرحاً وكتب في يومية ٣ شباط "الآن سيكون القتال سهلاً علينا اذ صار بإمكاننا إستخدام كل قوى الدولة. الراديو والصحافة رهن اشارتنا سنعرض عملاً فريداً من أعمال الدعاية غير مسبوق. وفي هذه المرة لا يوجد نضوب في معين المال طبعاً"^(٢).

وطلب من الصناعيين أن يفتحوا خزائهم وكانوا سعداء بالحكومة الجديدة التي وعدت بكبح جماح العمال النقابيين وترك الإدارة تدبر أعمالها كما ترغب دون تدخلٍ ما. فوافقوا على الدفع في إجتماع العشرين من شباط الذي تم في قصر الرئيس گورنگ. حيث قام دكتور (شاختر) بدور المضيف ويسط هتلر وگورنگ برنامجهما أمام أكثر من عشرين من أكبر أقطاب الصناعة والمال الألمان ومنهم كروپ (فون بوهلن) الذي انقلب نازياً متحمساً في عشية وضحاها و(بوش) و(شنتزلر) عن مؤسسة (أ. ج. فاربن) و(فويگلر) رئيس إتحاد صناعات الفولاذ.

إن وقائع هذا الإجتماع جاءتنا سليمة بالنص: "بدأ هتلر بخطبة طويلة ثرد فيها ثريداً طيباً للصناعيين وقال لا يمكن المحافظة على المشروع الخاص في النظام الديمقراطي، وليس بالإمكان فهمه فهماً جيداً إلا في حالة واحدة، عندما يكون الشعب رأياً صائباً في السلطة وفي الشخصية... كل ما في هذه الحياة من طيبات وأشياء فملكها انما ندين بها الى كفاح الصفوة المختارة... وعلينا ألا ننسى ان ثمرات الثقافة كلها لا تقدم الا عن طريق القبضة الفولاذية على كل حال". ثم وعد رجال الصناعة "بالقضاء" على الماركسيين، وبناء جيش الرايخ. وكانت هذه العبارة بلسماً شافياً للصناعيين أمثال (كروپ) ورئيس إتحاد صناعة الفولاذ ومؤسسة فارين لأنهم سيجنون أرباحاً طائلة من إعادة التسليح. وزاد يقول "نحن نواجه الآن آخر إنتخابات عامة!" ثم وعد مستمعيه بأنه "لن يكون ثم تراجع مهما حدث" وإن لم يفز في الإنتخابات فسيحكم بوسائل أخرى وبأسلحة أخرى، وراح غورنك يتكلم كثيراً عن النقطة الأدعى الى الإهتمام مشدداً على ضرورة بذل "التضحيات المالية التي يسهل جداً ان تتحملها الصناعة لو علمت ان إنتخابات ٥ آذار ستكون على وجه التأكيد آخر إنتخابات للسنوات العشر التالية وربما للسنوات المائة التالية".

ثم شرح كل ذلك للصناعيين. فاهتزت اعطافهم سعادة وطرباً الى وعده بوضع حد نهائي للإنتخابات الشيطانية وللديمقراطية ولنزع السلاح. ولم يجد (گروپ) نفسه (وهو ملك السلاح الذي كان قد ألح على هندنبرگ في ٢٩ كانون الثاني، بالأى يعين هتلر مستشاراً) إلا ان هبّ على قدميه ليعبر عن "امتنان رجال الأعمال من المستشار فانه أعطانا صورة في غاية الوضوح". ثم قام الدكتور شاخيت يطوف على المتبرعين بقبعته مستجدياً الاعانات: "فجمعت في تلك الجلسة ثلاثة ملايين مارك" على حد ما ذكره في محاكمات نورمبرگ^(٣).

وفي ١٩٣٣، بعد يومين من إسناد منصب المستشارية لهتلر كتب غوبلز في يومياته: "في إحدى المؤتمرات مع الزعيم وضعنا خطة حزينا لمجابهة الخطر الأحمر، سمنتمنع في الوقت الحاضر من إتخاذ تدابير قمعية. وفي المبدأ يجب أن تنفجر محاولة ثورة للشيوعيين وأن تتصاعد نارها. وفي اللحظة المناسبة سنضرب ضربتنا. لم يكن هناك أي علامة تشير الى ثورة شيوعية أو إشتراكية تتطير شواظها حين كانت معركة الإنتخابات تمضي في سبيلها، رغم تحرشات سلطات النازي المتزايدة. وما جاء شباط حتى كانت حكومة هتلر قد منعت كل إجتماعات الشيوعيين واغلقت الصحافة الشيوعية. ومنعت تظاهرات الديمقراطيين الإشتراكيين أو كُسرت أو فُرقت بقوة من أوباش ال(إس. أي). وكثرت أوامر إيقاف جرائدهم الكبرى عن الصدور. ولم يقف حزب الوسط الكاثوليكي بنجوة عن إرهاب النازي. وضُرب (شتيگر فالد Stegerwald) زعيم إتحاد نقابات العمال الكاثوليك ضرباً مبرحاً بأيدي

٣- انظر شهادة جورج فون شنتزلر [مؤامرة النازيين... ج٧ ص ٥٠١، الوثائق ٤٣٩ EC] كذلك خطبتي هتلر وغورنك [مؤامرة النازيين... ج٦ ص ١٠٨٠، الوثائق ٢٠٣ D] وشهادة شاخيت [المرجع نفسه ج٦ ص ٤٦٥] وشهادة فونك [المرجع نفسه ج٥ ص ٤٩٥]

ذوي القمصان الرمادية عندما حاول إلقاء خطاب في أحد الاجتماعات واضطر المستشار السابق (بروننغ) الى طلب حماية البوليس في اجتماع آخر بعد ان جرح جنود ال(إس. أي) واحداً من اتباعه وسُجل ما مجموعه واحد وخمسون حادثة قتل من المعسكر المعادي للنازيين وأدعى النازيون أن ثمانية عشر منهم قتلوا.

واسترعى الانتباه الآن منصب (گورنك) كوزير لداخلية بروسيا. فقد تجاهل يد (پاپن) التي تكبحه بوصفه رئيساً لوزراء بروسيا، والمفترض أن يكون فوقه. وعزل مئات من الموظفين الجمهوريين وأحل محلهم نازيين معظمهم ضباط من (الإس. أي) وال(إس. إس) وأمر الشرطة أن يجتنبوا "مهما بلغ الثمن أي اشتباك مع ال(إس. إس) وال(إس. أي) وذوي الخوذ الفولاذية. ومن الناحية الثانية ألا تداخلهم أي رحمة بأولئك الذين "يعادون الدولة" وشدد على الشرطة "باستعمال سلاحهم الناري. وانذر الذين لا يفعلون ذلك بالعقاب الصارم. وكان هذا دعوة صريحة للرمي بالرصاص كل من يعارض هتلر توجه بها (گورنك) الى شرطة دولة بروسيا التي تسيطر على ثلثي رقعة ألمانيا ولأجل ان يتأكد أن العمل ينفذ بالقسوة المتطلبية أنشأ في ٢٢ شباط قوة إحتياطية للشرطة، قوامها خمسون ألفاً. أربعون ألفاً منها أختيرت من بين أفراد ال(إس. أي) وال(إس. إس) وعشرة آلاف من ذوي الخوذ الفولاذية وهكذا كنست الشرطة البروسية كنساً بمجيء عياري النازيين وأوباشهم. إنه لألماني متهور ذلك الذي يستنجد بهذا الصنف من "الشرطة" للحماية من الإرهابيين النازيين.

ومع كل هذا الإرهاب فان "الثورة الشيوعية" التي كان گوبلز وهتلر وگورنك يتلهفون لها ويتربصون بها الدوائر لم "تنفجر الى لهيب متطاير" فإن لم يفلحوا في إستفزازها وتفجيرها أفلا يجمل بهم أن يخترعوها إختراعاً؟

في الرابع والعشرين من شباط شنت شرطة گورنك حملة على "دار كارل ليننخت" وهو مقر قيادة الحزب الشيوعي في برلين. كان المقر قد أُخلي من زعماء الحزب قبل بضعة أسابيع حيث اختفى عدد منهم أو تسللوا بهدوء عبر الحدود الى روسيا. لكن أكادساً من ادبيات الحزب ونشراته كانت قد تركت في اقبية المقر وهذا كل ما أراده (گورنك). فقد اتخذته حجة وأكذوبة وأعلن في بيان رسمي إن المستمسكات التي ضبطت اثبتت أن الشيوعيين كانوا يتهيأون لإشعال ثورة، أما رد فعل ذلك في الرأي العام وحتى في بعض أوساط المحافظين في الحكومة فهو الشك في صحة الأمر. ولذلك كان من الواجب أن يُخترع شيء أكثر إثارة للإهتمام لترهيب الشعب واخلافته قبل المباشرة بالإقتراع في ٥ آذار.

حرق الرايخشتاغ

في مساء ٢٧ شباط كان أربعة من أقوى الشخصيات في ألمانيا قد اجتمعوا على مائدتي عشاء في برلين. ففي نادي السادة (هررنكلوب) (بشارع فوس Vosstrasse) كان نائب المستشار باين قد دعا الرئيس هندنبرك. وفي منزل (گوبلز) كان المستشار هتلر قد وصل ليتناول عشاءً عائلياً. ويصف گوبلز جلستهما بأنها للراحة والاسترخاء يتخللها بعض موسيقى من الحاكي مع حكايات... وفجأة... نداء تليفوني من الدكتور هانفشتانگل: الرايخشتاغ يحترق! كنت متأكداً أنه يقصّ رواية للعبادة والنكتة، لذلك لم أنوه بها أمام الفوهرر^(٤).

لكن المتعشّين في (الهررنكلوب) كانا على مقربة من الرايخشتاغ. "[كتب باين فيما بعد] وفجأة إنتبهنا الى لهيب أحمر يضيء من النافذة وسمعنا صيحات من الشارع. وأسرع إليّ أحد الخدم وهمس: الرايخشتاغ يحترق! فرددت العبارة للرئيس. فنهض وكان بوسعنا أن نشاهد من النافذة، قبة الرايخشتاغ تبدو وكأنها منارةً بأنوار كاشفة وكان يشب بين الفينة والفينة السنة من اللهب وعاصفة من الدخان تحجب المنظر^(٥)".

وأوصل باين نائب المستشار رئيس جمهوريته الشيخ الى داره في سيارته الخاصة وبعدها أسرع الى البناية المحترقة. وفي تلك الأثناء عاد گوبلز -كما قال- يقلب "رواية" (بوتزي هانفشتانگل) في رأسه وقام بعدد من الإتصالات التليفونية فعلم أن الرايخشتاغ يحترق. وما مرت دقائق إلا وكان هو والفوهرر ينهبان بسيارتهما "شارع شارلوتنبركر شاوسي Charlottenburger Chaussee بسرعة ستين ميلاً في الساعة الى محلّ الجريمة".

وأعلن فور وصولهما الى النار أنها جريمة، وجريمة شيوعية وكان (گورنگ) قد سبقهما وهو يكاد يفقد شعوره إهتياجاً، يصيح والعرق ينضح منه وهو يلهث- انها "جريمة شيوعية ضد الحكومة الجديدة"- على حد ما روى باين- وإلتفت الى رئيس الغشتاپو Gestapo الجديد رودلف ديلس Rudolf Diels زاعقاً "تلك هي بداية الثورة الشيوعية! يجب علينا ألاّ ننتظر لحظة واحدة ولا نبدي رحمة. يجب ان يُرمى بالرصاص كل موظف شيوعي حالما يقبض عليه. كل نائب شيوعي يجب أن يشنق في هذه الليلة بالذات^(٦)".

إن الحقيقة كلها عن حرق الرايخشتاغ قد لا تتضح. فكل من يعرفها تقريباً هو الآن في عداد الموتى

٤- گوبلز (كايزرهوف) الص ٢٦٩- ٢٧٠.

٥- باين المرجع السالف ص ٢٦٨.

٦- رودلف ديلس "لوسيفر ضد بورتاس" Lucifer ante Portas ص ١٩٤.

ومعظمهم ذبحهم هتلر في الأشهر التالية. ولم يزح الستار عن جوانب الغموض في الحادثة بشكل تام حتى في محاكمات نورمبرج وإن توفرت أدلة كافية تثبت بما لا يقبل الشك أو الإيهام أن النازيين هم الذين وضعوا خطة الحريق العمد ونفذوها في سبيل أغراضهم السياسية.

يوجد في قصر (گورنگ) لرئاسة الرايخشتاغ ممر تحت الأرض بُني لنقل التدفئة المركزية الى الرايخشتاغ ويصل ما بين البنيتين. ومن هذا النفق قاد كارل أرنست (خادم أوتيل سابق أصبح قائداً في "إس. أي" برلين) ثلة من جنود العاصفة في ليلة ٢٧ شباط الى الرايخشتاغ. وألقوا بكميات من الغازولين (البنزين) ومواد كيميائية ذات قابلية للاحتراق الذاتي. ثم عادوا بسرعة عن طريق النفق الى القصر من حيث أتوا. وفي الوقت نفسه وجد (مارينوس فان در لوب (Marinus Van der Lubbe) وهو شيوعي هولندي نصف معتوه، ذو ميل الى إضرار النار، سبيله الى البناية الضخمة المظلمة غير المألوفة عنده. وأشعل ناراً صغيرة لنفسه. كان هذا المعتوه الضعيف العقل هبة السماء للنازيين. فقد ألقى عليه (إس. أي) القبض قبل بضعة أيام، بعد أن سمعوا أنه كان يتفاخر في أحد البارات بأنه حاول إشعال النار في عدد من البنيات العامة وأنه سيحاول معالجة الرايخشتاغ في المرة القادمة.

إن صدفة عشور النازيين على شيوعي مصاب بلوثة جنون الإحراق العمدي ويريد أن يُقدم على ما يريدون الإقدام عليه بالضبط. إنما تبدو صدفة يأبى أن يصدقها العقل. إلا أن الدولة اثبتت صحتها فعلاً. لقد نشأت فكرة الحريق بالتأكيد في رأسي گوبلز وگورنگ. وشهد (هانس گزيفيوس Hans Gisevius) وهو موظف في وزارة الداخلية البروسية، في محاكمات نورمبرج "أن گوبلز كان أول من فكر في إحراق الرايخشتاغ" وأضاف (رودلف ديلس) رئيس الكشتاपो في شهادة له "أن گورنگ كان يعرف بالضبط كيف سيتم إشعال النار" وقد امره "أن يهيء قبل الحريق قائمة بأسماء الأشخاص الذين سيتم إعتقالهم حالاً بعد شوبوب النار". أما الجنرال (فرانز هالدر Franz Halder) رئيس هيئة أركان الحرب الألمانية خلال الفترة الأولى من الحرب العالمية الثانية. فقد تذكر في محاكمات نورمبرج كيف أن گورنگ فخر بهذه الفعلة في إحدى المناسبات، قال: "في حفلة غداء بمناسبة عيد ميلاد الفوهرر ١٩٤٢، دار الحديث عن موضوع بناية الرايخشتاغ وقيمتها الفنية. وسمعت بأذني هاتين مقاطعة گورنگ للحديث وصيحتة: "الرجل الوحيد الذي يعرف الرايخشتاغ حق المعرفة، هو أنا. لأنني أضرمت فيه النار!" قال هذا وضرب فخذه براحته يده"^(٧).

ويبدو جلياً أن (فان در لوب) كان أداة بيد النازيين. فقد استغلوا خياله وشجعوه على إضرار نار في الرايخشتاغ. لكن الحريق الأكبر كان المهمة التي اوكلت الى جنود العاصفة، دون معرفته طبعاً. والواقع انه ثبت في المحاكمة التي تلت في لايبزك أن الهولندي المجنون لم يكن يملك الوسائل لإضرار نارٍ عظيمة في بناية ضخمة، بمثل هذه السرعة. فبعد دقيقتين ونصف دقيقة من دخوله بالضبط كانت

٧- ظل گورنگ في أثناء استجوابه ومحاكمته بنورمبرج ينكر أن يكون له أي ضلع في حرق الرايخشتاغ.

القاعة الوسطى الكبرى قد شبت بها نارٌ عظيمة أكلة ولم يكن لديه وسيلة إيقاد غير قميصه بينما شهد الخبراء في المحاكمة أن النيران الرئيسة أضمرت يعامل توفر كميات كبيرة من الغازولين والمواد الكيميائية السريعة الالتهاب، وواضح أن مقداراً من المحروقات كهذا لا يمكن أن ينقله شخصٌ واحد الى البناية، وليس في طاقته أبداً أن يشعل النار في هذا العدد الكبير من المواضع المتفرقة والمتباعدة خلال هذه الفترة القصيرة من الوقت.

أعتقل (فان در لوب) في محل الحادث، واراد غورنك أن يشنقه حالاً- كما افاد في المحاكمة- وفي اليوم التالي. قام (ارنست تورغلر) زعيم الكتلة البرلمانية الشيوعية بتسليم نفسه للشرطة عندما سمع (غورنك) يتهمه بالمشاركة في الجريمة. وبعدها ببضعة أيام ألقى رجال الشرطة القبض على جيورجي ديمتروف Georgi Dimitroff وهو الزعيم الشيوعي البلغاري الذي أصبح فيما بعد رئيساً لحكومة بلغاريا. وشيوعيين بلغاريين آخرين هما بوبوف Popov وتانيف Tanev. وانقلبت محاكمتهم التي جرت أمام المحكمة الكبرى في لايبزك الى مهزلة وفشل ذريع للنازي وبخاصة (لغورنك) فقد استطاع ديمتروف الذي إستغنى عن المحامي وكان يدافع عن نفسه أن يشير (غورنك) ويستفزه بكل سهولة ويظهره بمظهر الغبي ويجعل منه أضحوكة في سلسلة من الاستجابات القضائية الدقيقة وفي إحدى نقاط المرافعة مدونة في المحضر القضائي: صرخ غورنك بالبلغاري:

-أخرج من هنا ايها الوغد!

القاضي [الى ضابط الشرطة] خذه الى الخارج.

ديمتروف: [وهو يقاد الى الخارج بخفارة ضابط الشرطة] أنت خائف من أسئلتي يا جناب الوزير الرئيس؟

غورنك: صبراً حتى تخرج من قاعة المحكمة وسترى ايها الوغد!

وصدر الحكم ببراءة تورغلر والبلغار الثلاثة إلا أن الزعيم الشيوعي الألماني وضع حالاً تحت "الحجز التحفظي" وبقي معتقلاً حتى قضى نحبه أثناء الحرب العالمية الثانية ووجد (فان در لوب) مذنباً واجتث رأسه^(٨).

والقت وقائع المحاكمة رغم خضوع المحكمة للتأثير النازي، قدراً عظيماً من الشك على گوبلز

٨- بخصوص المصادر المتعلقة بمسؤولية حرق الرايخشتاغ انظر: افادة هالدر الموثقة باليمين [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٦ ص٦٣٥- وثائق نورمبرگ PS ٣٧٤٠] نسخة طبق الأصل من افادة گينزفيوس في ٢٥ نيسان ١٩٤٦ [محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج١٢ الص ٢٥٢-٢٥٣، شهادة (ديهل) انكار (غورنك) [محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج٩ الص ٤٣٢-٤٣٦: ومؤامرة النازيين وعدوانهم ج٦ الص ٢٩٨-٢٩٩ (وثائق نورمبرگ- PS ٣٥٩٣)] ويلي فزايشاور Willy Feisshauer: [بزوغ وأفسول شمس هرمان غورنك الص ٨٨-٩٥] و: دوغلاس ريد "حرق الرايخشتاغ"، جون غونتر "داخل أوروبا" [حضر غونتر المحاكمة في لايبزك وهناك تصريحات وشهادات عديدة لأولئك الذين ادعوا مشاركتهم في حرق الرايخشتاغ أو كان لهم علم حقيقي به. ولكن لم يشبت زعم واحد منهم على حد معلوماتي ومنها محضر لإرنست اوبرفوهرن) النائب القومي وكارل ارنست قائد العاصفة في برلين وكلا المحضرين مما يعول عليه وقد قتل هذان بعد الحرق بأشهر قاتل على أيدي النازيين.

والنازيين ولكن الفضيحة جاءت متأخرة جداً بحيث لم تخلف أثراً عملياً لأن هتلر لم يضع وقتاً في إستغلال حرق الرايخشتاغ الى أقصى حد.

في اليوم الذي تلا الحريق الموافق ٢٨ شباط تغلب هتلر على الرئيس هندنبرگ واقنعه بتوقيع مرسوم "لأجل حماية الشعب والدولة" معطلاً المواد السبع في الدستور التي تحمي الحريات الفردية والمدنية ووصف المرسوم بأنه "إجراءات دفاع وقائية ضد أعمال العنف التي يرتكبها الشيوعيون ومن شأنها تهديد الدولة بالخطر" وجاء فيه: "إن القيود على الحرية الفردية، وعلى حق التعبير عن الرأي بحرية وبضمنه حرية الصحافة وعلى حقوق الإجتماع، والانتماء الى جمعيات، والرقابة على وسائل المخابرات تليفونية وبرقية وبريدية وخرق حرمة سريتها، وأوامر التفتيش التي يزود بها متحرّو المنازل وبيوت السكن، والأوامر الخاصة بمصادرة الملكية، فضلاً عن الأوامر بتحديد التصرف بها، كل ما تقدم بيانه مسموح به ايضاً خروجاً عن حدود القانون العام حسبما يتطلبه الحال".

وزاد المرسوم على هذا بتحويله حكومة الرايخ سلطة مطلقة كاملة داخل الدول الفيدرالية عندما تقضي الضرورات بذلك. وإيقاع عقوبة الموت في عددٍ من الجرائم وبضمنها "تهديد السلامة العامة الخطير" من قبل أشخاص مسلحين^(٩).

وهكذا تمكن هتلر بضربة واحدة من خنق معارضيه وإعتقالهم كما يحلو له بطريقة قانونية. بل جعل من اكدوبة الخطر الشيوعي التي لفقها "شعاراً رسمياً" كيما يضع الملايين من أفراد الطبقة المتوسطة والفلاحين في حالة فزع دائمٍ من إستيلاء الشيوعيين على الحكم إن لم يدلوا بأصواتهم للنازيين في الإنتخابات التي لم يبق لموعدها غير أسبوع. وتم إلقاء القبض على حوالي أربعة آلاف موظفٍ شيوعي وعدد كبيرٍ من زعماء الديمقراطيين الإشتراكيين والأحرار ومن ضمنهم نواب الرايخشتاغ الذين ينص القانون على حصانتهم ومنع إعتقالهم. كانت هذه أول تجربة للإرهاب النازي المدعوم من الحكومة يعانيها الشعب الألماني. وراحت لوريات مملوءة بجنود العاصفة تزمجر في الشوارع في كل أنحاء ألمانيا فتقتحم البيوت عنوةً وتجمع الضحايا وتنقلهم زمراً زمراً الى ثكنات ال(إس. أي) حيث تجري عليهم عمليات الضرب المبرح وأفانين التعذيب. ومنعت الصحف الشيوعية من الصدور. وحرمت إجتماعاتهم السياسية بصورة باتة. وعُطلت عدة صحف حرة، وألغيت كل صحف الديمقراطيين الإشتراكيين. وحظرت إجتماعات الأحزاب الديمقراطية أو فضت بالقوة. ولم يسمح بممارسة معركة الإنتخابات إلا للنازيين ولحلفائهم القوميون فقد تركوا دوفا تعرض.

بكل موارد حكومتي الرايخ وپروسيا تحت تصرف النازيين وبكل المبالغ الطائلة التي صيها رجال الأعمال الكبار في خزانهم. شنوا حملة دعاية إنتخابية لم تشهد لها ألمانيا مثيلاً من قبل. وتجاوبت أرجاء ألمانيا لأول مرة أصوات هتلر وگورننگ وگوبلز من الراديو الحكومي ووصلت كل ركن من البلاد ورفعت في الشوارع بيارق الصليب المعقوف مجاوبة لوقع أقدام جنود العاصفة. ونظمت إستعراضات

٩- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٣ الص ٩٦٨-٩٧٠ [الوثائق ١٣٩٠ PS].

حزبية ضخمة بالمشاعل وإجتماعات جماهيرية وهدرت مكبرات الصوت في الساحات العامة. وغطيت لوحات عرض الشوارع بلافتات نازية جذابة زاهية الألوان واوقدت النيران ليلاً على قمم الجبال. واستميل النازيون بوعودٍ عن الفردوس الألماني المرتقب، وهددوا بإرهاب ذوي القمصان الرمادية في الشوارع. وأفزعو "برؤى" مخيفة عن "ثورة" الشيوعيين. وفي اليوم الذي عقب حريق الرايخشتاغ أصدرت الحكومة البروسية بياناً طويلاً معلنة فيه عثورها على "وثائق" شيوعية تثبت: "ان بنايات الحكومة، والمتاحف، والقصور والمصانع الكبرى سيتم إشعال النار فيها... وان النساء والأطفال سيوضعون في مقدمة الزمر الإرهابية... إن حرق الرايخشتاغ كان مقدمة وإشارة بدء لمذبحة دموية وحرب أهلية... ولقد أصبح مؤكداً للسلطة أن هذا اليوم كان سيشهد في كل ألمانيا أعمالاً إرهابية ضد الأفراد، ضد الملكية الخاصة، ضد (الزرع والضرع)، ضد حياة السكان الآمنين وكذلك بداية حرب أهلية عامة لاتبقي ولا تندر".

ووعدت الحكومة بنشر نصوص "المستمسكات والوثائق" المثبتة للمؤامرة الشيوعية لكنها لم تفعل قط. وعلى كل فواقع شهادة الحكومة البروسية وحدها على صحتها أدخلتها في روع عدد كبير من الألمان كحقيقة دون البحث عن أصولها وأدلتها وربما صدق المترددون أيضاً تحذيرات غورنك وتهديداته. ففي فرانكفورت (٣ آذار) قبيل الإنتخابات صاح بملء فيه: "ابناء الوطن الألماني... لن يشل إجراءاتي أي تفكير قضائي... فلست اهتم بالعدالة، ورسالتي هي أن أدمر وأستأصل لا أكثر!... وبطبيعة الحال اني ساستخدم قوة الدولة والشرطة بأقصى ما يمكن فيا أعزائي الشيوعيين لاتذهب بكم الأوهام مذاهب شتى، فهناك حرب حتى الموت فيها ستعصر قبضة يدي اعناقكم، سأكون قائداً لهؤلاء... هنا ذوي القمصان الرمادية"^(١٠).

ولم يسمع صوت المستشار الأسبق براوننك تقريباً، لقد تكلم هو أيضاً في ذلك اليوم معلناً أن حزبه الوسط سيقاوم كل انتهاك لحرمة الدستور ومطالباً بإجراء تحقيق عن حريق الرايخشتاغ الذي تحوم حوله الريب والظنون. مناشداً الرئيس هندنبرگ "حماية المضطهدين من المضطهدين". وعبثاً كان استنجاده! فقد بقي الرئيس الشيخ سادراً في صمته. لقد حان الوقت ليقول الشعب كلمته وهو في محنته:

في ٥ آذار ١٩٣٣ يوم آخر إنتخابات ديمقراطية خلال حياة هتلر تكلم الشعب بأصوات إقتراعه. بالرغم من كل الإرهاب والتخويف عزت الأغلبية على هتلر. لكن حاز النازيون أصواتاً أكثر من غيرهم فبلغت (١٨٠, ٢٧٧, ١٧) بزيادة خمسة ملايين ونصف مليون صوت تقريباً إلا انها لم تزيد عن ٤٤٪ من مجموع الأصوات. وعصيت الأغلبية الواضحة على هتلر. ولم يمنع كل الإضطهاد وأعمال القمع والإرهاب حزب الوسط من زيادة في أصواته. فقد ظفر بـ (٩٠٠, ٤٢٤, ٤) صوت بعد ان كانت أصواته (٦٠٠, ٢٣٠, ٤) وحاز هو وحليفه الحزب الكاثوليكي الباباري الشعبي على ما بلغ

١٠ - مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٤ ص ٤٩٦ [الوثائق ٢٩٦٢ PS].

خمسة ملايين ونصف مليون صوت. حتى الحزب الديمقراطي الاشتراكي فقد ظلّ محتفظاً بمركزه كثاني أكبر الأحزاب بحيازته (٦٢٩, ١٨١, ٧) صوتاً. بنقص قدره سبعون ألفاً فقط. وفقد الحزب الشيوعي مليون صوت، إلا أنه فاز بـ (٥٨, ٨٤٨, ٤) صوتاً رغم كل شيء. أما القوميون بقيادة باين وهونبرگ فقد خابوا خيبة مرة لأنهم كانوا يتوقعون أن يضيفوا أصواتاً كثيرة فحصلوا على ما مجموعه (٧٦٠, ١٣٦, ٣) المعادلة لـ ٨٪ من مجموع أصوات الإقتراع الكلي أيّ باضافة (٢٠٠) ألف صوت فقط.

مازالت مقاعد القوميين الاثنان والخمسون بالإضافة الى (٢٨٨) مقعداً نازياً تمنح الحكومة أغلبية (١٦) مقعداً في الرايخشتاغ. وربما كان هذا كافياً لتمشية الأعمال الروتينية اليومية في الحكومة إلاّ انها بعيدة جداً عن أغلبية الثلثين التي يحتاجها هتلر لتطبيق خطة جديدة جريئة، يحقق بها دكتاتوريته بموافقة البرلمان.

-٣-

"Gleichschaltung"

تنسيق الرايخ (كلايخشتالتونغ)

كانت الخطة بسيطة قدر ما هي مخادعة. وتمتاز بالإستئثار بالسلطة المطلقة بوسيلة شرعية. يطلب من الرايخشتاغ سن "قانون التمكين" وموجبه يودع الى حكومة هتلر صلاحية تشريعية كاملة لأربع سنين. ويعبارة أوضح، يطلب من البرلمان الألماني أن ينزل عن سلطاته الدستورية لهتلر ويذهب في اجازة طويلة. ولكن، لما كان ذلك يستلزم تعديلاً في الدستور فالحاجة لاجرائه تتطلب تأمين أغلبية الثلثين. كان مدار إجتماع الوزارة في ٥ آذار ١٩٣٣ هو البحث في كيفية الحصول على تلك الأغلبية وقد عُرِضت وقائع تلك الجلسة في نورمبرگ^(١١).

كان جزء من المشكلة سيتم حله "بغيباب!" واحدٍ وثمانين نائباً شيعياً من مجلس الرايخشتاغ وأكد غورنك أن الجزء الباقي منها يسهل حله "برفض إدخال عدد قليل من الديمقراطيين الإشتراكيين الى القاعة". وكان هتلر على ثقة تامة. فان مرسوم ٢٨ شباط الذي أغرى هندنبرگ بتوقيعه بعد يوم واحد من حرق الرايخشتاغ يَكْنَهُ من إلقاء القبض على أيّ عددٍ يشاء من نواب المعارضة، حتى يحقق لنفسه أغلبية الثلثين. وكان ثم سؤال حول (الوسط الكاثوليكي) الذي ما برح يطلب ضمانات، إلاّ أن المستشار كان واثقاً أن هذا الحزب سينحاز الى جانبه. وطلب هونبرگ الذي ليست لديه رغبة في

١١ - مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٥ ص ٦٦٩ الوثائق ١٨٥٦ PS.

وضع كل السلطة في يد هتلر - أن يخوّل الرئيس حق المساهمة في إعداد القوانين التي تستنها الحكومة بموجب قانون التمكين. فأجاب الدكتور مايسنر سكرتير الدولة لمستشارية الرئاسة "بأن تعاون رئيس جمهورية الرايخ ليس ضرورياً" وكان هذا قد ربط مستقبله بمستقبل النازيين. وأدرك بسرعة أن هتلر لا يرغب أن يربط بالرئيس العنيد كما كان المستشارون الجمهوريون من قبله. على أن هتلر كان يرغب في هذه المرحلة أن يبهر الفيلد مارشال الشيخ بمظهر من مظاهر الأبهة والعظمة هو والجيش والقوميون المحافظون أيضاً، ويعمله هذا يكون قد ربط نظامه الثوري العنيف باسم هندنبرگ الجليل، وبكل المجد العسكري البروسي الغابر. ولتحقيق ذلك رسم هو وگوبلز الذي تولى وزارة الدعاية في ١٣ آذار، خطة في غاية البراعة. كان هتلر سيفتح الرايخشتاغ الجديد الذي سيحطمه بعد فترة قليلة، في بيعة الحصن Garrison Church بهوتسدام، وهي مزار التراث البروسي العظيم، التي تثير في نفوس كثير من الألمان ذكريات التلاد الإمبراطوري وعظمته الغابرة ففيها تشوي عظام (فردريك الأكبر) وفيها قدّم لملوك هوهنزلرن فروض الولاء والعبادة. واليها جاء هندنبرگ حاجاً لأول مرة في ١٨٦٦ عندما عاد من الحرب النمساوية البروسية تلك الحرب التي وحّدت ألمانيا لأول مرة. وهو ضابط شاب في الحرس الإمبراطوري.

واختير يوم ٢١ آذار للإفتتاح الإحتفالي لأول مجلس رايخشتاغ في عهد الرايخ الثالث وكان إختياره مقصوداً فهو يصادف ذكرى إفتتاح بسمارك أول مجلس رايخشتاغ في عهد الرايخ الثاني ١٨٧١ وفيه كان الفيلد مارشالات والجنرالات وامراء البحر الكبار السن من أيام عهد الإمبراطورية يتقاطرون بزياتهم الحربية الباهرة الى بيعة (الكاريسون) وعلى رأسهم ولي العهد السابق والفيلد مارشال فون ماكنزن Von Mackensen في بزات تخطف الأبصار بخوذاتهم المعروفة بـ(رؤوس الموت) لكتائب خيالة (الهوسار Hussar) كانت ظلال (فردريك الأكبر) و(المستشار الحديدي) تحوم في أجواء المجلس وكانت غلبة العاطفة على (هندنبرگ) ظاهرة للعيان. ولاحظ گوبلز في مرحلة من مراحل الحفلة أن عيني الفيلد مارشال الشيخ قد إخضلتنا بالدموع كما دون ذلك في يومياته. كان گوبلز يشرف على إخراج التمثيلية بنفسه ويدير شؤون إذاعتها على الشعب الألماني. وكان هتلر بادي الضيق ببذلتة الرسمية ذات السترة الضيقة وهو جالس الى جنب الرئيس الذي إرتدى بزة قتال (ميدان) رمادية متقلداً الوشاح الأكبر للنسر الأسود ويحمل بيد خوذة رمحية، ويمسك بالأخرى عصا المارشالية. نهض وسار ببطء فوق الصحن ووقف وحيماً مجلس القيصصر فلهمل الثاني الخالي في المقصورة الإمبراطورية وقرأ أمام الهيكل خطبة قصيرة مانحاً بركته لحكومة هتلر الجديدة: "ألا فلتنفذ الروح القديمة الى هذا المعبد الشهير في نفوس جيل هذا اليوم، ألا فلتنحرننا من الأنانية ومن التنافر الحزبي. وتجمعنا سوية في شعور وطني مدرك لإعلاء شأن ألمانيا حرة فخورة موحدة بنفسها".

ورسم خطاب هتلر الجوابي بمكر، لإجتذاب مشاعر العطف واكتساب ثقة النظام القديم الذي مثل في الإحتفال بأزهي وأروع ما يمكن. "لم يكن يريد الحرب أحد، لا القيصصر ولا الحكومة ولا الشعب. ان

إنهيار الوطن هو الذي أضطر عنصراً بشرياً مستضعفاً، الى ان يحمل وزر هذه الحرب ازاء أقدم مبادئه ومعتقداته".

ثم إلتفت الى هندنبرگ الذي كان جالساً لا يتحرك في مقعد على مسافة بضعة أقدام أمامه: "بفورة فريدة من نوعها. عادت الحياة الى شرفنا القومي في الأسابيع القلائل الأخيرة. وبفضل تفهمك ايها السيد الجترال- فيلد مارشال تمكنا من الإحتفال بالوحدة بين رمزي العظمة القديمة والقوة الجديدة اننا نقدم لك فروض الولاء. إن العناية الإلهية الحارسة هي التي تضعك فوق قوى وطننا الجديدة^(١٢)".

وتقدم هتلر بمظهر تواضع عميق من الرئيس الذي كان ينوي ان يسرق منه سلطته السياسية قبل أن يمر به الأسبوع وانحنى إنحناءً عميقاً له وقبض على كفه. فسجلت عدسات التصوير باشعتها الفوسفورية وآلات السينما التي لم تكف عن الوشوشة، مما حشده منها غويلز ووزعه مع الميكروفونات في نقاط استراتيجية. مسكة اليد المهيبة ومصافحة فيلد مارشال الألماني ونائب العريف النمساوي وهما يوحدان عتيق ألمانيا بجديدها، وطارفا بتليدها. ونقلتها الى الشعب الألماني والى العالم أجمع ليشهدها بأم عينه. وكتب السفير الفرنسي الذي كان حاضراً المشهد: "بعد هذا العهد المقطوع المذهل كيف يمكن لرجال أمثال هندنبرگ وأصدقائه واليونكرز والبارونات الملكيين وهونكرگ وأتباعه القوميين الألمان وضباط جيش الرايخ- كيف يمكنهم ان لا يطرحوا جانباً مخاوفهم التي بدأت تساورهم من حربه نظراً لما قام به من أعمال الشغب وانتهاك الحرمات؟ أيكنهم الآن ان يترددوا في منحه ثقتهم كاملة، أن يحققوا كل مطالبه أو أن يمنحوه السلطة المطلقة التي يريدها؟^(١٣)".

جاء الجواب بعد يومين. في الثالث والعشرين من آذار بدار أوبرا (كرول Kroll) في برلين حيث إلتأم الرايخشتاغ. كان أمام المجلس لائحة ما يدعى بقانون التمكين Gesetz zur Behebung der Not von Volk und Reich كما أطلق عليه رسمياً. لقد نزع فقراته المقتضية الخمس صلاحية التشريع من البرلمان، وتدخل فيها الهيمنة على ميزانية الرايخ والمصادقة على المعاهدات المعقودة مع الدول الأجنبية وإجراء التعديلات في الدستور، وسلمتها الى الحكومة لفترة أمدها أربع سنوات. وبالإضافة الى هذا فقد اشترط القانون أن القوانين التي تستنها الوزارة يجب أن يقوم المستشارون بإعداد مسودتها ولا مانع من ان تكون "مخالفة لنصوص الدستور". وأقصى مزحة (نكتة) وردت فيه حقاً إشتراطه ألا يسن قانون "يؤثر على مركز الرايخشتاغ!" وان تبقى سلطات رئيس الجمهورية كما هي^(١٤).

وردد هتلر هاتين النقطتين الأخرتين في خطاب متحفظ بشكل غير متوقع. على النواب المجتمعين في دار الأوبرا البديعة الزخرف التي اختصت منذ زمن بعيد باخراج الأوبرات الخفيفة الهزلية وقد امتلأت أروقتها الآن بكراديس من جنود العاصفة ذوي القمصان الرمادية، التي كانت سيماؤهم

١٢- الوثائق السياسية الألمانية Dokumente der Deutschen Politik ج(١) ١٩٣٥ الص ٢٠-٢٤.

١٣- فرانسوا بونسيه المرجع السالف ص ٦١.

١٤- نص القانون في [مؤامرة النازيين وعدوانهم: ج ٤ الص ٦٣٨-٦٣٩، الوثائق ٢٠٠١ PS].

الوحشية المشوهة بالندوب تفصح على أن السخافات الصادرة من ممثلي الشعب لن يتسامحوا بها ابداً. "وعد هتلر أن الحكومة لن تمارس صلاحياتها هذه إلا بقدر ما هو ضروري لتحقيق الإجراءات الحيوية اللازمة جداً. ولن يتهدد شيء ما وجود وكيان الرايخشتاغ والرايخسرات. ان مركز الرئيس وصلاحياته باقية كما كانت... والكيان المنفصل لدول الإتحاد لن يقضى عليه ولن يطرأ أي نقصان أو تحديد لحقوق البيع والطوائف المذهبية ولن يجري تعديل على علاقاتها بالدولة. إن عدد القضايا التي تحتم (في الداخل) اللجوء الى هذا القانون هي بحد ذاتها محدودة جداً".

وبدا الزعيم النازي المصوح شديد الاعتدال، حتى كاد يكون قانعاً بأقل القليل. كان الوقت جد مبكر في حياة الرايخ الثالث ليدرك المرء -حتى نواب المعارضة- قيمة وعود هتلر ادراكاً حسناً. على ان واحداً منهم وهو أوتو فلز Otto Wells زعيم الديمقراطيين الإشتراكيين الذين "احتجز" رجال الشرطة أكثر من عشرة من نوابهم، نهض وسط صرخات جنود العاصفة في الخارج وهتافات الراعدة "صلاحيات كاملة أو صبراً فسترون!" نهض ليتحدى دكتاتور المستقبل. وانطلق يتكلم بهدوء وبوقارٍ عظيم وصرح بأن في وسع الحكومة تجريد الإشتراكيين من سلطتهم إلا انها لا تستطيع تجريدهم من شرفهم.

"نحن الديمقراطيين الإشتراكيين نقطع على أنفسنا عهداً مكيناً في هذه الساعة التاريخية بالتمسك بالمباديء الإنسانية والعدالة، الحرية والإشتراكية. لا (قانون تمكين) يعطيكم سلطة، تعبر أفكار ومباديء خالدة لا يمكن القضاء عليها."

وشب هتلر على قائمته هائجاً. سيدوق المجلس الآن طعم هذا الرجل الحقيقي. "لقد جئتم متأخرين، ومع ذلك فقد جئتم [ثم صاح]... لم يعد ثم حاجة اليكم... سيبزع نجم ألمانيا وسيأفل نجمكم. لقد دق ناقوس جنازتكم... اني لست في حاجة الى أصواتكم، وستكون ألمانيا حرة لكن ليس بفضلكم [هتاف عام شديد]".

هؤلاء الديمقراطيون الإشتراكيون الذين يتحملون مسؤولية ثقيلة في إضعاف الجمهورية، ظلوا على الأقل مقيمين على مبادئهم وغاصوا في الأعماق بتحدٍ - هذه المرة فقط. بخلاف حزب الوسط الذي تحدى مرةً وبنجاح المستشار الحديدي في Kultrunkampf! طلب (المونسنيور كاس) وعداً خطياً من هتلر يتعهد فيه إحترام حق رئيس الجمهورية في (الثيتو) وقد وعد بذلك قبل الإقتراع ولم يعط بعده. على كل حال فقد نهض زعيم الوسط معلناً أن حزبه سيصوّت للقانون وبقي بروننك صامتاً واخذت الأصوات حالاً وابرمت اللاتحة بأكثرية ٤٤١ صوتاً ضد (٨٤) صوتاً معارضاً (كلهم ديمقراطيون إشتراكيون). وهب النواب النازيون قائمين هاتفين ضارين الأرض بأقدامهم بهياج الفرح المحموم ثم انضم اليهم جنود العاصفة في نشيد "هورست فيسل" الذي لم يعتم أن اتخذ مكانته الى جنب "ألمانيا فوق الجميع" كأحد النشيدتين الوطنيتين في ألمانيا.

إرفعوا الأعلام عالياً! قفوا معاً صفّاً صفّاً

يا جنود العاصفة، سيروا عنقاً وشدّاً، بخطى ثابتة هادئة.

هكذا قُبرت الديمقراطية البرلمانية في ألمانيا. وفيما عدا إلقاء القبض على جميع النواب الشيوعيين وبعض نواب الديمقراطيين الاشتراكيين، تم كل شيء بشكل قانوني لا غبار عليه وإن كان في جو بالإرهاب. ونزل البرلمان إلى هتلر عن سلطته التشريعية المثبتة بأحكام الدستور وبهذا انتحر وإن ظل جسمه في حالة تحنيط إلى آخر لحظة من حياة الرايخ الثالث يستخدم في حالات قليلة كرجع صدى لبعض خطابات هتلر الهادرة وأصبح أعضاؤه منذ ذلك الحين ينتقيهم الحزب النازي انتقاءً إذ لم يعد ثم إنتخابات حقيقية. إن (قانون التمكين) كان وحده الأساس الشرعي لدكتاتورية هتلر. فمنذ ٢٣ آذار ١٩٣٣ أصبح دكتاتوراً مطلقاً على الرايخ متحرراً من أي عقبة برلمانية. أو من الرئيس الشيخ المتعبد في كل المسائل الاجرائية والعملية. ولاشك هنالك الكثير مما ينبغي عمله لإخضاع كل الشعب الألماني ومؤسساته ومعاهده تحت عقب القدم النازية بصورة تامة. وسنرى أن هذا على كثرته قد انجز بسرعة خاطفة تقطع الأنفاس وبفظاظة وخبث ووحشية. وبإستعارتنا كلمات آلان بولك Alan Bullock "لقد استولت عصابات الشارع على كل موارد دولة حديثة معظمة. لقد تسلم الزقاق السلطة". على أنه تسلمه بصورة قانونية وبأغلبية ساحقة برلمانية، وهو القول الذي ما انفك هتلر يردده متباهياً. وليس للألمان من يلومون غير أنفسهم.

وراحت أقوى مؤسسات ألمانيا تستسلم لهتلر واحدة تلو الأخرى وتزول من عالم الوجود بهدوء وبدون أن يخرج منها نائمة.

وأول من هوى رأسه تحت نطع الجلاذ، حكومات الأقاليم التي ظلت تتشبث بحكمها الذاتي طوال التاريخ الألماني بحرص وعناد غربيين. ففي التاسع من آذار قبل سن (قانون التمكين) بأسبوعين قام الجنرال (فون إيب) بإيعاز من هتلر وفريك ومساعدة عدد قليل من جنود العاصفة بطرد الحكومة البافارية وإقامة نظام نازي. وفي غضون أسبوع واحد ثم تعيين مفوضي الرايخ لتولي الحكم في الدول الفيدرالية الأخرى، بإستثناء بروسيا التي كان غورنك قد حكم قبضته عليها. وفي ٣١ آذار قام (فريك) وهتلر باستصدار أول قانون (بموجب قانون التمكين) حلت بموجبه مجالس (الدايت) وكل الدول الفيدرالية ما عدا بروسيا وأمرت بإعادة تنظيمها الدستوري على أساس مجموع الأصوات الناجية في آخر إنتخاب للرايخشتاغ. وأن تبقى مقاعد الشيوعيين فارغة. إلا أن هذا الحل لم يكتب له الدوام أكثر من أسبوع. إذ أصدر المستشار الذي كان يعمل بسرعة جنونية قانوناً جديداً في ٧ نيسان يقضي بتعيين (حكام رايخ Reichsstaathaelter) في كل الدول الإتحادية وحوكهم سلطة تعيين وعزل الحكومات المحلية وحل مجالسها (الدايت) وتعيين وفصل موظفي الدولة والقضاة وكان كل حاكم من هؤلاء نازياً وطلب منهم "تطبيق السياسة العامة التي رسمها مستشار الرايخ".

وبهذا وفي غضون أربعة عشر يوماً من حصوله على السلطات الكاملة من الرايخشتاغ، انجز ما لم يجرأ بسمارك وقلهلم الثاني والجمهورية على عمله: قضى على سيادات الدول الفيدرالية التاريخية

وجعلها خاضعة للسلطة المركزية، سلطة حكومة الرايخ التي يمسك بأعنتها. ووجد بهذا لأول مرة في تاريخ ألمانيا، بلاد الرايخ توحيداً حقيقياً بالقضاء على طابعه الفيدرالي الموغل في القدم. وفي ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٤، بعد مرور سنة واحدة على صيرورته مستشاراً أكمل رسمياً تلك المهمة باستصدار قانون إعادة بناء الرايخ. فألغيت "المجالس الشعبية" للدول. وتحولت سياداتها الإقليمية الى الرايخ وضع كل حكوماتها المحلية تحت إدارة وزير داخلية الرايخ^(١٥).

ووصف الوزير (فريك) المسألة بقوله "إن حكومات الدول هي الآن مجرد أجهزة إدارية للرايخ". إن ديباجة قانون ٣٠ كانون الثاني هذا تصرح بأنه "شرع بإجماع الآراء في الرايخشتاغ" وهذا صحيح ففي هذا الوقت كان كل الأحزاب السياسية الألمانية باستثناء الحزب النازي. قد أريد.

لا يمكن القول أن هذه الأحزاب سقطت صريعة والسيوف في يدها. في التاسع عشر من أيار ١٩٣٣ صوّت نواب الديمقراطيون الإشتراكيين (أولئك الذين لم يودعوا السجن أو يلوذوا بالمنافي) بالموافقة التامة على سياسة هتلر الخارجية دون أن يتخلف منهم نائب واحد، وقبلها بتسعة أيام كانت شرطة غورنغ قد وضعت يدها على بنائيات الحزب وصحفه وصادرت ممتلكاته. مع ذلك كله حاول الإشتراكيون التظامن لهتلر وارضاهه فتبرأوا من رفاقهم المنفيين في الخارج الذين اخذوا يهاجمون الفوهرر. وانتخبوا في ١٩ حزيران هيئة إدارية جديدة للحزب. لكن (فريك) أنهى بعد ثلاثة أيام محاولات مساومتهم بإلغاء الحزب الديمقراطي الإشتراكي لأنه "يتهدد كيان الدولة ويقف منها موقفاً عدائياً". وألقي القبض على (بول لوبه Paul Lobe) زعيمه الباقي وعدد من أعضاء حزبه في الرايخشتاغ وادعوا السجن. أما الشيوعيون فكانوا بالطبع أول من أستؤصلت شافتهم.

بقيت أحزاب الطبقة الوسطى، إلا أن عمرها لم يدم طويلاً. فالحزب الكاثوليكي البافاري الشعبي الذي طرد إنقلاب نازي حكومته من دست الحكم في ٩ آذار أعلن عن حل نفسه في ٤ تموز وحليفه حزب الوسط الذي تحدى (بسمارك) في عزه وظل يقض عليه مضجعه ثم كان سوراً حصيناً للجمهورية، اقتفى أثره في اليوم التالي تاركاً ألمانيا لأول مرة في عصرها الحديث بدون حزب كاثوليكي سياسي - عمل لم يشبط من عزم الفاتيكاني على توقيع (كونكورداتو) مع حكومة هتلر بعد ذلك بأربعة عشر يوماً. اما حزب (شتريزمان) القديم، حزب الشعب فقد انتحر على طريقة (الهاريكيري) في الرابع من تموز. بعد ان سبقهم الى الانتحار الحزب الديمقراطي Staatspartei بأسبوع واحد.

وماذا عن شريك هتلر في الحكومة، الحزب القومي الألماني الذي لم يكن نائب العريف النمساوي يستطيع تبوء كرسي الحكم لولا معونته؟ لقد دهاه المصير الذي دهي غيره وسلك مسلك الأحزاب الأخرى وبلاستسلام الدليل نفسه رغم صلاته الوثقى بهندنبرگ والجيش واليونكرز ورجال الأعمال

١٥- قوانين آذار (٣١) ونيسان (٧) ١٩٣٣ و ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٤ كلها في مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٤ الص ٦٤٠-٦٤٣.

الكبار والذين الذي يطوق به عنق هتلر ففي ٢١ حزيران احتلت قوة من الشرطة وجنود العاصفة مقراته في كل أنحاء البلاد وفي التاسع والعشرين من الشهر نفسه إستقال هونكرنر زعيم الحزب الغطريس من الوزارة. وهو نفسه الذي ساعد في دفع هتلر الى المستشارية قبل ستة أشهر فقط. ثم قام معاونوه بحلّ الحزب "إختياراً وطوعاً". وبقي الحزب النازي في الميدان وحيداً وفي ١٤ تموز صدر قانون أعلن فيه: "إن الحزب القومي الاشتراكي للعمال الألمان، هو الحزب السياسي الوحيد في ألمانيا".

"كل من يعتمد الى الإبقاء على هيكل تنظيمي لحزب سياسي آخر أو تشكيل حزب سياسي جديد يعاقب بالاشغال الشاقة لمدة لاتزيد عن ثلاث سنين وإن لم يكن العمل نفسه خاضعاً لعقوبة أشد نظراً الى القوانين والانظمة الأخرى فعندئذ يحكم بالعقوبة الكبرى" (١٦).

تم بناء الدولة الفردية ذات الحكم المطلق والحزب الواحد، دون خففة جناح أو حركة معارضة أو تحدٍ وفي غضون أربعة أشهر من تنازل الرايخشتاغ عن مسؤولياته الديمقراطية.

ونقابات العمال الحرة التي سحقت مرةً كما رأينا- مؤامرة (كاپ) الفاشية بالوسيلة البسيطة؛ إعلان الاضراب العام، تم القضاء عليها بالسهولة التي تم بها إبادة الأحزاب وتصفية الحكومات الفيدرالية، لكن لم يجر ذلك إلا بعد أن أحتيل عليهم بحيلة بارعة مبرقشة. كان الأول من أيار يوماً تقليدياً يحتفل به العمال الألمان طوال نصف قرن مثل سائر العمال الأوروبيين. فلأجل تهدئة خواطر العمال وزعمائهم قبل ان تنزل الحكومة النازية ضربتها بهم، أعلنت يوم أول أيار (في سنة ١٩٣٣) عيداً وطنياً وأطلقت عليه رسمياً أسم "يوم العمل القومي" واستعدت للإحتفال به بشكل لم يسبق له مثيل وخدم زعماء نقابات العمال بهذا المظهر المدهش من الصداقة والالتفات الى الطبقة العاملة وتعاونوا مع النازيين والحكام بحماسة لإنجاح ذلك اليوم الأغرّ ونقل زعماء العمال بالطائرات الى برلين من سائر أنحاء ألمانيا. ورفعت آلاف من اللافتات بعبارات تشيد بتضامن النظام النازي مع العامل وفي مطار تمپلهوف Tempelhof نظم غوبلز أعظم إجتماع جماهيري رآته ألمانيا. واستقبل هتلر نفسه أمام صفوف التظاهرة الكبرى وفود العمال وصرح قائلاً: "سترون كم يوجد من الكذب والبهتان والظلم في الزعم القائل أن الثورة موجهة ضد العمال الألمان. ان الأمر بالعكس". وبعدها نطق هتلر في خطابه بالمطار أمام أكثر من مائة ألف عامل بالشعار "كرموا العمل واحترموا العامل!" ووعد ان يحتفل بيوم أيار تكريماً للعمال الألمان "على مدى القرون". وفي ساعة متأخرة من ليلة ذلك اليوم. بعد ان وصف غوبلز بأسلوبه النشويّ القرمزيّ الحماسة الهائلة التي استولت على العمال بمناسبة إحتفال يوم أيار هذا الذي نظمه تنظيمًا رائعاً ختم يوميته بالعبارة الغريبة التالية: "غداً سنحتل بنايات إتحادات النقابات. سيكون ثم مقاومة طفيفة" (١٧).

١٦- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٣ ص ٩٦٢ [الوثائق ١٣٨٨ PS].

١٧- غوبلز: كايترهوف ص ٣٠٧. ان الوثائق التي رأت النور في محاكمات نورمبرگ أظهرت أن النازيين كانوا يضعون =

واليك ما حصل: في الثاني من أيار تمّ الإستيلاء على جميع مقرات النقابات في كل ألمانيا. وصودرت أموالها وصناديق اعاناتها. وحُلت واعتقل القادة. وكثير منهم أعتدي عليهم بالضرب وأودعوا معسكرات الإعتقال. وعرض ثيودور لايبارت Theodor Leipart وبيتر غراسمان Peter Grassmann رئيسا الإتحاد العام لنقابات العمال تعاونهما التام مع النظام النازي وقطعا العهد بذلك فلم ينقذهما هذا من الإعتقال. وعلق (الدكتور روبرت لاي) زعيم الحزب في (كولن) والسكير الذي عينه هتلر للإستيلاء على النقابات وإقامة جبهة العمل الألمانية، قائلاً "فليعلن لايبارت وكراسمان إخلاصهما للفوهرر نفاقاً ورياء قدر ما يشاءان- لكن من الخير أن يودعا السجن" وهكذا كان.

ومع ان (هتلر) و(لاي) حاولا بالأول أن يؤكدوا للعمال أنهما سيحميان حقوقهم وقال (لاي) في أول بيان له: "أيها العمال! إن مؤسساتكم مقدسة عندنا نحن القوميين الإشتراكيين. أنا نفسي ابن فلاح فقير وأدرك جيداً معنى الفقر... واعرف إستغلال الرأسمالية الأنونيمية أيها العمال! أقسم لكم إننا لن نكتفي بالابقاء على كل ما هو موجود عندكم، بل سنوفر المزيد من الحماية والحقوق للعمال".

وفي غضون ثلاثة أسابيع، انكشفت الوعود الجوفاء التي بذلها نازي آخر لهم عندما أصدر قانوناً أنهى به حق المفاوضات العامة بين العمال ورب العمل وجعل "لوكلاء العمل" Labor Trutees الذين يعينون بأمر منه صلاحية "تنظيم عقود العمل" وتأمين "السلام في العمل" (١٨).

ولما كان قرار الوكلاء ملزماً قانوناً. فان القانون يكون بذلك قد ألغى حق الاضراب. وقد وعد (لاي) بأن "يعيد الزعامة المطلقة لرئيس المصنع- أعني صاحب العمل... ولصاحب العمل وحده ان يقرر ويأمر. لقد ظلّ عدد كبير من أصحاب العمل سنوات كثيرة ينادون بحقوقهم حقوق (رب البيت) وها هم أولاً يعودون ليكون كل واحد منهم رب بيته."

في هذه الفترة كانت الإدارة وأرباب المصانع على اتم الرضا وفي اطيب حال. انهم الآن يجنون ثمرات الإعانات السخية التي قدمها عدد كبير منهم الى "الحزب القومي الإشتراكي للعمال الألمان". على ان رواج أعمالهم وبضائعهم يقتضي إستقراراً معيناً في المجتمع في حين مرّ الربيع كله ومعظم الصيف والنظام والأمن في ألمانيا يهتزان ويتقوضان تحت أقدام ذوي القمصان الرمادية المعريدين الذين يطوفون عصايات وزمرراً في الشوارع فيعتقلون ويضربون وأحياناً يقتلون كل من يحلو لهم إعتقاله أو ضربه أو قتله. والشرطة تنظر عن كثب دون أن تجرأ حتى على رفع دُرّة في أوجههم ولم يكن إرهاب الشارع نتيجة لإضطراب حبل الأمن وضعف سلطة الدولة كما حصل في أيام الثورة

= الخطط منذ مدة للقضاء على نقابات العمال. هناك كتاب سري مؤرخ في ٢١ نيسان بتوقيع (الدكتور لاي) يتضمن تعليمات مفصلة لعملية "تنظيف" النقابات في ٢ أيار. وقعت على (إس. أي) وال(إس. إس) مهمة احتلال املاك إتحادات النقابات" وان يؤخذ الى (الحجز التحفظي) كل زعماء النقابات. ويوضع اليد على مالية النقابات (NCA) الص ٣٨٠-٣٨٥ ج ٣). ولم يتعرض للنقابات المسيحية (الكاثوليكية) في ٢ أيار وحلت نهايتها في ٢٤ حزيران.

١٨- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٣ ص ٣٨٧ [الوثائق ٤٠٥ PS]. قوانين ١٩ آذار ١٩٣٣.

الفرنسية. بل العكس هو الصحيح فهذه الأمور تجري بتشجيع من الدولة وأحياناً بايعازٍ منها. ولم تكن الدولة في ألمانيا بأقوى واشد تركيزاً مما هي الآن. لقد دبّ الرعب في قلوب القضاة وصاروا يشعرون بخوفٍ شديدٍ على حياتهم إن اصدروا حكماً على واحدٍ من جنود العاصفة حتى لو ارتكب جريمة قتلٍ عمدية فهتلر هو القانون- كما قال (گورنگ). وفي شهر أيار ١٩٣٣ كنت تجد الفوهرر يخطب بحماسة وانفعال: "إن الثورة القومية الاشتراكية لم تبلغ بعد آخر الشوط" و"أنها لن تكمل بانتصارها إلا حين يثقف الشعب الألماني"، وبالمفهوم النازي يعني "التثقيف"- "شاعة الفزع" الى الحد الذي يقبل الجميع بكلّ خضوع دكتاتورية النازيين ويربريتهم. وعند هتلر- كما صرح علناً آلاف المرأت- أن اليهود ليسوا من الشعب الألماني. ومع أنه لم يستأصل شأفتهم في الحال (إلا عدداً ضئيلاً يناهز بضعة آلاف وأعني بهم أولئك الذين نُهبوا وضُربوا وقُتلوا في الأشهر الأولى) إلا انه اصدر قوانين باستبعادهم من الوظائف العامة ومنع دخولهم في الجامعات أو المعاهد الأخرى. وفي ١ نيسان ١٩٣٣ أعلن عن مقاطعة شعبية لحوانيت لليهود.

إن رجال الأعمال الذين كانوا مسرورين جداً من سحق نقابات العمال المزعجة لهم وجدوا الآن أن الجناح اليساري من الحزب الذي كان يؤمن حقاً بالإشتراكية حاول السيطرة على مؤسسات أرباب العمل الكبيرة وتحطيم المخازن الكبرى الى أجزاءٍ وفروع، وتأميم الصناعات. وانحدر آلاف من أعضاء الحزب النازي الفقراء بأسمالهم البالية الى المؤسسات التجارية وبيوت الأعمال التي يملكها أناس لم يساعدوا هتلر، وراحوا يهددون باعتقالهم بتهم ملفقة. وفي محلات أخرى طالبوا بوظائف ذات أجور عالية في الإدارة. وأصر الدكتور (غوتفريد فيدر) الطبل الاجوف الإقتصادي على تطبيق برنامج الحزب- اعني تأميم الصناعات والمصالح الكبيرة والمشاركة في الارباح والقضاء على الدخل الذي لا يأتي من العمل و"عبودية الفائدة". وكان ذلك لم يكن كافياً لتخويف رجال الأعمال، فقام فالثر داريه Walther Darre الذي عيّن وزيراً للزراعة مؤخراً بما أطار صواب البنوك وأسلمهم لهلع شديد، فقد وعد بإجراء خصمٍ كبير في الديون المالية على الفلاحين وإنقاص سعر الفائدة الى حد ٢٪ فقط.

ولم لا؟ أصبح هتلر في منتصف صيف ١٩٣٣ سيّد ألمانيا وبإمكانه الآن أن يطبق منهاج حزبه. لقد ترك پاپن على مكروه وسعة حيلته- مغلول اليد لا يستطيع شيئاً وهو في منصبه الرفيع. وانفجرت كفقات من الصابون في وجهه كُـل حساباته وتخطيطه في السيطرة على هتلر وإستخدامه آلة لتنفيذ سياسته المحافظة بالتعاون مع هوگنبرگ وغيرهما من المنافحين عن النظام القديم وبنسبة أعضائهم الثمانية الى وزراء النازيين الثلاثة في الحكومة. لقد طرد هو نفسه من منصب رئيس وزراء پروسيا وحلّ (گورنگ) محله. ليبقى فحسب نائب المستشار في حكومة الرايخ ولكن "هذا المنصب ظهر فيما بعد وكأنما لا ضرورة له" على حد قوله متحسراً كاظماً. وذهب ايضاً (هوگنبرگ) أسطون التجارة والمال وحلّ حزبه. وجيء بـ(گوبلز) ثالث أهم شخصية في الحزب النازي الى الحكومة في ١٣ آذار وزيراً للإرشاد القومي والدعاية. وعين (داريه) الذي يعتبر "متطرفاً" كگوبلز، وزيراً للزراعة.

وأزيح الدكتور (هانز لوثر) المحافظ رئيس بنك الرايخ من منصبه وهو عصب إنتظام الإقتصاد الألماني وسُفر الى واشنطن بمنصب سفير. وجيء بالدكتور شاخت رئيساً عوضاً عنه في ١٧ آذار ١٩٣٣. وكان يشغل المنصب نفسه في السابق وهو الآن تابع مخلص لهتلر رأى "حقيقة الضرورة" في النازية.

ليس ثم رجل فرد في كل ألمانيا أفاد هتلر في بناء القوة الإقتصادية للرايخ الثالث، وتسهيل تسليحه وتهيئته عسكرياً لخوض غمار الحرب العالمية الثانية كما افاده شاخت. وقد أصبح فيما بعد وزيراً للإقتصاد والمفوض العام المطلق الصلاحية لإقتصاد الحرب علاوة على وظيفته. الحق يقال أنه أنقلب ضد صنمه المعبود قبيل نشوب الحرب. فطرد أو أعفي من كل وظائفه، وتمادى في عدائه فانضم الى أولئك الذين كانوا يتآمرون على إغتيال هتلر، إلا أن الزمن تأخر به ليكون ذا نفع في عرقلة مسيرة الزعيم النازي الذي منحه إخلاصه وبذل له مواهبه الفذة وافاده من مكانته الكبيرة، مدة طويلة من الزمن.

-٤-

"لا ثورة ثانية!"

استولى هتلر على ألمانيا بغاية من السهولة. لكنه واجه عدداً من المشاكل بقدوم صيف ١٩٣٣ وكان عليه إيجاد الحلول لها. هناك خمس مشاكل كبيرة على الأقل وهي: الحيلولة دون قيام ثورة ثانية، وتسوية العلاقات غير المستقرة بين ال(إس أي) والجيش، وإخراج البلاد من ضائقتها الإقتصادية، وإيجاد أعمال لستة ملايين عاطل وتحقيق المساواة في التسليح لألمانيا في مؤتمر جنيف لنزع السلاح مع التعجيل بإعادة تسليح الرايخ سراً. وكان قد شرع فيه خلال السنة الأخيرة من عمر الجمهورية، وأخيراً تقرير من سيخلف هندنبرگ العليل عندما يقضي نحبه.

وكان (روهم) قائد ال(إس. أي) الذي صكّ عبارة "الثورة الثانية" والذي أصر على إستخدامها وانضم اليه (گوبلز) فكتب يقول: "كل فرد من الشعب يتكلم عن الثورة الثانية التي يجب أن تأتي. وهذا يعني أن الثورة الأولى لم تكن الختام. وعلينا الآن تصفية الحساب مع الرجعية Reaktion. يجب ألا يكون في الثورة وقفة"^(١٩).

حطم النازيون اليسار لكن اليمين باقى. عالم المال والصناعة الكبيرة، الارستقراطية، اقطاعيو اليونكرز وجنرالات پروسيا الذين يحكمون قبضتهم على الجيش. اراد (روهم) و(گوبلز) وغيرهم من المتطرفين في الحركة أن يصفوا هؤلاء أيضاً. واطلق روهم في حزيران تحذيره تدعمه فرق جنود العاصفة

١٩- گوبلز المرجع السالف ص ٣٠٠.

الذين يعدون الآن مليونين ونصف مليون أي عشرين ضعف عدد الجيش الألماني النظامي.

"نصر واحد فقط حققناه في طريق الثورة الألمانية... إن ال(إس أي) وال(إس. إس) اللذين يحملان نفس المسؤولية في دفع الثورة الألمانية وبقائها لن يسمحوا بخذلانها وهي في نصف الطريق... إن ظنّ الفلسطينيون Philstinen أن الثورة القومية قد طال أمدها كثيراً... فإن الوقت قد حان حقاً لإنهاء الثورة القومية وإنقلابها إلى ثورة قومية إشتراكية... علينا أن نستمر في حربنا بوجودهم أو عدم وجودهم. وإذا قضت الضرورة فضدهم... نحن الضامنين تحقيق الثورة الألمانية الذين لا يتطرق إلينا الفساد (٢٠)".

واضاف في آب بخطبة له: "هناك أناس في مناصب الدولة الآن مازالوا يجهلون فكرة جوهر الثورة سنتخلص منهم بلا رحمة إن تجاسروا على وضع أفكارهم الرجعية موضع التطبيق". لكن هتلر كان يفكر بشكل معاكس. فعنده أن الشعارات الإشتراكية في الحركة النازية إنما هي مجرد دعاية ووسائل لكسب الجماهير وهو في طريقه إلى الحكم. وهو الآن لا يكتثر بتلك الشعارات بعد بلوغه غايته. كان في حاجة إلى وقتٍ لتثبيت وضعه ووضع البلاد والوضع الراهن يقتضي منه على الأقل تهدئة اليمين-عالم المال والصناعة والجيش ورئيس الجمهورية- فإنه لم يكن ينوي جرّ ألمانيا إلى الإفلاس ويخاطر بكيان نظامه بالذات. يجب ألا يكون ثم ثورة ثانية. أوضح ذلك لقادة ال(إس. أي) وال(إس. إس) أنفسهم في خطاب ألقاه عليهم في الأول من تموز قائلاً أن ما تحتاجه ألمانيا الآن هو النظام والاستقرار "وسأقمع كل محاولة رامية إلى تعكير صفو الأمن الحالي بالقوة التي سأتصدى بها لما يطلق عليه الثورة الثانية، فهي لا تؤدي إلا إلى الفوضى" وكرر الإنذار لحكام الدول الفيدرالية النازيين المجتمعين في دار المستشارية في السادس من تموز (٢١).

"إن الثورة ليست حالة ثابتة في الأشياء ويجب ألا تترك لتتطور إلى هذه الحالة والسييل الذي تدفعه الثورة يجب أن يراقب ويقاد إلى قنوات سليمة من التطور المتدرج... فعلياً اذن ألا نظرد رجل الأعمال ان كان رجل أعمال جيد حتى وان لم يصبح بعد قومياً إشتراكياً وبخاصة عندما لا يعرف القومي الإشتراكي الذي سيحل محله شيئاً عن العمل. في الأعمال الحرة يجب ان تكون الكفاءة هي المقياس الوحيد..."

"إن التاريخ لن يحكم علينا بكثرة من إعتقلناه أو أبعدناه من الإقتصاديين والخبراء بل بمدى نجاحنا في توفير العمل للآخرين إن آراء التقدم والنجاح لن تلجئنا إلى أعمال الاغبياء وإيقاع الإضطراب في كل شيء، بل إلى فهم إتجاهات أفكارنا والسير بروية وحكمة في الزمن الطويل سيكون ثبات قوتنا السياسية متناسباً تناسباً طردياً مع كفاءتنا في تشبيتها إقتصادياً وعلى حكام دول (الأقاليم) أن يلزموا أنفسهم بضمان عدم قيام أي منظمة حزبية بممارسة أعمال الحكومة فتفصل الأفراد وتعينهم في الوظائف وأن لا تفعل ما هو من وظيفة حكومة الرايخ وما هو من اختصاص وزير إقتصاد الرايخ

٢٠- ن. س. موناشفتة N. S. Monatscheffe رقم ٣٩٠ (حزيران سنة ١٩٣٣).

٢١- اقتباسات ١ و ٦ تموز من (باينس) ج ١ ص ٢٨٧ والص ٨٦٥-٨٦٦.

بالنسبة الى الأعمال الحرة..."

وبخلاف هذا لم يصدر بعد تصريح رسمي بأن الثورة النازية هي ثورة سياسية لا إقتصادية. وعمد هتلر الى تسريح عدد من "المتطرفين" النازيين الذين حاولوا بسط سيطرتهم على مؤسسات أرباب العمل دعماً لكلامه السالف. واعاد كروپ فون بوهلن وفريتز تيسن الى مركزيهما القياديين في مصانعهما وحل "إتحاد النضال لنقابات الطبقة الوسطى" الذي كان يزعج المخازن التجارية الكبرى وعين الدكتور كارل شميت Karl Schmitt وزيراً للإقتصاد بدلاً من هونكر. وكان شميت المدير العام (للإليانز) أعظم شركة تأمين ألمانية، مثال رجل الأعمال واشدهم استقامة في الرأي فلم يضع وقتاً في وضع حد نهائي لخطط النازيين "الإشتراكيين" الذين كانوا بدرجة من السذاجة أن أخذوا منهاج حزبهم مأخذاً جدياً وكانت الخيبة عظيمة في سواد أعضاء الحزب وبخاصة بين جنود العاصفة وهم أوسع لُباب في كتلة هتلر الجماهيرية ومعظمهم ينتمي الى الجيش المهلهل الثياب من الفقراء الناقمين. إنهم خصوم الرأسمالية بالتجربة ويعتقدون أن الثورة التي حاربوا معارك الشغب والإعتداءات في الشوارع لأجلها، ستأتيهم بالاسلاب والغنائم والأعمال المربحة، سواء في عالم الأعمال الحرة أو في الحكومة. والآن ها هي آمالهم تخيب بعد نجاحهم السريع في الربيع. إن العصاية القديمة- أكان أفرادها أعضاءً حزبيين أم لا، يجب أن تحافظ على العمل، وتؤمن الرقابة على العمل. لكن هذا التطور لم يكن السبب الوحيد لغليان ال(إس. أي).

برز خلاف (هتلر وروهم) القديم حول مركز ال(إس. أي) والغرض المتوخى منه، وثار كوامنه مرة أخرى. كان هتلر منذ أيام الحركة الأولى يصرّ على أن يكون جنود العاصفة قوة سياسية لا عسكرية فهم مصدر العنف الجسديّ والرعب اللذين يشق بهما الحزب طريقه الساخن الى السلطة السياسية، في حين يجده (روهم) العمود الفقري للثورة النازية فضلاً عن نواة جيش الثورة المقبل لهتلر مثلما كانت جيوش فرنسا المجندة ل(نابليون) بعد الثورة الفرنسية. لقد حان الوقت لكنس جنرالات روسيا الرجعيين- وتشكيل قوة ثورية ضاربة جيش شعبي يقوم على رأسه بمساعدة أعوانه الاشداء الذين سيطروا على شوارع ألمانيا.

لم يكن روهم يستشعر بشيء من أفكار هتلر. الذي أدرك بوضوح أكثر منه أو أي نازي آخر أنه لم يكن قادراً على الوصول الى كرسي الحكم دون مساندة -أو على الأقل- دون تسامح جنرالات الجيش، وأن بقاءه في القمة الآن على الأقل يتوقف من جهة على إستمرارهم في دعمه لأنهم مازالوا يملكون القوة المادية لإزاحته إن خطر ذلك ببالهم. كذلك كان هتلر يدرك أن ولاء الجيش لشخصه سيحتاج اليه في اللحظة الحرجة التي لن تكون بعيدة حينما يحين أجل هندنبرگ القائد العام البالغ من العمر ستاً وثمانين. فضلاً عن هذا كان الزعيم النازي واثقاً أن (هيئة الضباط) بكل تقاليدها العسكرية وكفاءتها هي وحدها قادرة على تحقيق هدفه في بناء قوة عسكرية منظمة حسنة الضبط. إن ال(إس. أي) ما هو إلا جماعة من الصعاليك والغوغاء لا يصلحون إلا لصدام الشوارع ولا ينفعون شيئاً كجيش

عصري. زد على ذلك أن دورهم قد انتهى الآن ويجب أن يُخلى منهم المسرح بعملية حاذقة دقيقة. ولم يكن بالإمكان إيجاد أي تقارب بين وجهتي نظر هتلر وروهم. ومن صيف عام ١٩٣٣ حتى حزيران ١٩٣٤ نشبت حرب موت أو حياة فعلية بين هذين العضوين القديمين في الحركة النازية اللذين كانا في الوقت نفسه من أعز الأصدقاء (كان ارنست روهم الوحيد الذي يخاطبه بضمير du الذي يدل على عدم الكلفة في اللغة).

كان روهم يعبر عن شعور السخط العميق في صفوف جنود العاصفة في خطابه أمام خمسة عشر ألف ضابط من ال(إس. أي) في الشيبورتبالاشت Sportpalast ببرلين في الخامس من تشرين الثاني ١٩٣٣. "كثيراً ما يسمع المرء... أن ال(إس. أي) قد فقد كل مقومات الوجود" ثم يضيف منذراً بأن الواقع ليس كذلك. إلا أن هتلر كان عنيداً فحذر في خطبة له في باد غودسبرغ Bad Godsberg في ١٩ آب "إن العلاقة التي تربط ال(إس. أي) بالجيش، يجب أن تكون شبيهة بالقيادة السياسية". وتكلم بصراحة أكثر في نورمبرگ (٢٣ أيلول):

"في هذا اليوم يجب أن نتذكر بنوع خاص الدور الذي نهض به جيشنا. فكلنا يعلم جيداً لولا وقوف الجيش الى جانبنا في أيام ثورتنا، لم نكن اليوم واقفين هنا. وبإمكاننا أن نؤكد للجيش بأننا لن ننسى ذلك وأننا نرى في مراتبه حملة تقاليد جيشنا المجيد. وسنساند روح هذا الجيش بكل قلوبنا وطاقاتنا".

وقبل ذلك بفترة من الزمن قدّم هتلر سراً تأكيدات للقوات المسلحة ضمت الى صفه عدداً كبيراً من كبار ضباط الجيش. وفي ٢ شباط ١٩٣٣ بعد توليه الحكم بثلاثة أيام. تكلم زهاء ساعتين في جمع من القادة الكبار الجنرالات والأميرالات في منزل الجنرال (فون هافرشتاين) قائد الجيش العام. وكشف الأميرال اريخ رايدر Erich Raeder في نورمبرگ عن فحوى إجتماع المستشار النازي بهيئة الضباط^(٢٢) لأول مرة في حياته. قال ان هتلر حرر القادة العسكريين من كل قلق يساورهم في استخدام القوات المسلحة للمساهمة في الحرب الأهلية. ووعد الجيش والأسطول بأنهما يستطيعان الآن أن يوقفا كل مجهودهما على المهمة الرئيسية وهي تسليح الجيش بسرعة دون أي عائق. وافر الأميرال (رايدر) أنه كان في غاية السرور بفكرة بناء أسطول جديد وراح الجنرال فون بلومبرگ الذي قمع تعيينه السريع وزيراً للدفاع في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ أي ميل في الجيش للثورة ضد فكرة نصب هتلر مستشاراً، راح هذا يصرح فيما بعد في مذكراته غير المطبوعة، بأن الفوهرر فتح "ميداناً للنشاط والفعاليات يبشر بآمال عظيمة للمستقبل".

ولكي يزيد هتلر في حماسة قادة الجيش إستحدث في ٤ نيسان "مجلس دفاع الرايخ" ليبحث برنامج التسلح السري الجديد. وبعدها بأشهر ثلاثة (٢٠ تموز) شرّع المستشار قانوناً جديداً للجيش ألغى فيه صلاحية نظر المحاكم المدنية في الشؤون العسكرية وأبطل التمثيل الإنتخابي للجان الجنود وبهذا أعاد لهيئة الضباط صلاحيتها العسكرية الماضية. وبدأ عدد كبير من الأميرالات والجنرالات

ينظرون الى الثورة النازية بمنظارٍ مختلفٍ مستحبٍ.
وإرضاءً لروهم، عينه هتلر مع (رودلف هس) نائب زعيم الحزب، وجعله وزيراً في الأول من كانون الثاني. وبمناسبة رأس السنة ١٩٣٤ وجه رسالة حارة رقيقة الى رئيس ال(إس. أي). ففي الوقت الذي كرر أن "من واجب الجيش ضمان حماية الوطن ضد العالم خارج حدودنا" أقر بأن "مهمة ال(إس. أي) هي الحفاظ على نصر ثورة القوميين الإشتراكيين وكيان الدولة القومية الإشتراكية" وأن نجاح ال(إس. أي) كان يعود "بالدرجة الأولى" الى روهم. وختم الرسالة بما يأتي:
"في نهاية سنة الثورة القومية الإشتراكية أجد لزاماً عليّ أن اشكرك يا عزيزي ارنست روهم، على الخدمات التي لا تُنسى أبداً التي قدمتها للحركة القومية الإشتراكية وللشعب الألماني. ومن الواجب عليّ أن أؤكد لك مبلغ إمتناني للقدر الذي مكّني من الإدعاء بصداقة أمثالك من الرجال وإعتبارهم رفاق نضال."

مع تقديم وافر التحية وأسمى مظاهر الصداقة

المخلص أدولف هتلر (٢٣)

واستخدم في الخطاب ضمير (du) لعدم الكلفة. ونشر في صحيفة النازي اليومية الأولى "فولكشر بيوباختر" في ٢ كانون الثاني ١٩٣٤ وكان تأثيره عظيماً في تهدئة مشاعر السخط في ال(إس. أي) بصورة مؤقتة. وفي جوّ الشعور الطيب الذي خيم على عيدي الميلاد ورأس السنة. ران الهدوء على المنافسة بين ال(إس. أي) والجيش، وخفتت نداءات المتطرفين النازيين "بالثورة الثانية".

-٥-

فاتحة سياسة النازي الخارجية

كتب (اوسفالد شبنكلر) في تعليقه على السهولة التي تمكن بها هتلر من الإستيلاء على ألمانيا وصبغها بالنازية في ١٩٣٣ "لم يكن نصراً لأنه لم يكن يوجد أعداء". وكتب مؤلف "إنحلال الغرب" هذا في أوائل تلك السنة "اني اشاهد بارتياح، الإحتفالات التي تقام لها يومياً بكثير من الضجيج. من الأوفق أن يدخر ذلك ليوم النجاح الجديد الأكيد. أعني به الميدان الخارجي فليس هناك نجاح آخر (٢٤) غيره".

هذا الفيلسوف المؤرخ الذي كان لفترة قصيرة معبود النازي ثم باعد ما بينهما جفاء متبادل- لم

٢٢- من دراسة عنوانها "علاقاتي بأدولف هتلر والحزب" كتبها (الأميرال رايدر) في موسكو بعد أن أسره الروس. تيسرت في نورمبرگ [مؤامرة النازيين ج ٧ ص ٧٠٧].

٢٣- "باينس" ج ١، ص ٢٨٩.

٢٤- شبنكلر Jahre der Entscheidung ص ٨.



بلسودسكي

يكن محققاً في نفاذ صبره. فقد وجب على هتلر أن يفتح ألمانيا قبل أن ينطلق الى فتح العالم لكن ما أن صفى معارضيه- أو صفوا أنفسهم- لم يضع وقتاً في التفاته الى ما كان مهتماً به أكثر من أي شيء: الى الشؤون الخارجية.

لم يكن مركز ألمانيا العالمي في ١٩٣٣ إلا من أسوأ ما مر على تاريخها. فالرايخ الثالث معزول دبلوماسياً وعقيم عسكرياً. والعالم كله كان ثائراً على الأعمال الفظيعة التي ارتكبتها النازيون وبخاصة اضطهادهم الساميين. وجيران ألمانيا ولاسيما فرنسا وبولندا تقفان موقف المعادي الشاك. وفي شهر آذار ١٩٣٣، عقب المناورات العسكرية البولندية في الدانزك اقترح المارشال بلسودسكي Pilsudski على فرنسا ترحيبه

بحرب وقائية مشتركة ضد الألمان. حتى موسوليني رغم مظاهر الترحيب التي قابل بها ميلاد حكم فاشي ثانٍ لم يكن في الحقيقة متحمساً لاستيلاء هتلر على الحكم. إن زعيم بلاد أقوى من إيطاليا في كل شيء لا بد وأن يكشف شمس (الدوتشي) حالاً. وأن رايخاً مسعوراً هائجاً- يجمع كل الألمان، ستكون لديه خطته بخصوص النمسا والبلقان حيث سبق للدكتاتور الإيطالي أن جأر بإدعائه فيها. وعداء الإتحاد السوفياتي لألمانيا واضح في حين كان من أعز أصدقاء الجمهورية منذ ١٩٢١. كان الرايخ الثالث بلداً معدوم الصديق في عالم معادٍ وهو منزوع السلاح. أو هو قريب من ذلك نسبةً الى جاراته المسلحة تسليحاً حسناً.

كانت استراتيجية هتلر وتاكتيكه الفوريان في السياسة الخارجية تملّحها عليه الحقيقة العارية، حقيقة كون ألمانيا ضعيفة ومعزولة. ولكن هذا الوضع وهنا وجه الطرافة- كان أيضاً يمدّها بأهداف طبيعية تلائم أعمق رغباته الخاصة ورغبات الأغلبية الساحقة من الشعب الألماني التخلص من قيود فرساي دون أن يؤدي ذلك الى فرض العقوبات إعادة التسليح دون المخاطرة في حرب. ففي تحقيقه هذين الغرضين المؤقتين فقط. ستتوفر له الحرية والقوة العسكرية لإتباع سياسة طويلة الأمد كان قد رسم أهدافها ووسائلها بصراحة كبيرة وبإسهاب في (كفاحي).

أول ما ينبغي عمله طبعاً هو أن يوقع البلبل في خصومه في أوروبا بالدعوة الى نزع السلاح والسلم والمراقبة الدقيقة لمعرفة نقاط الضعف في تسليحهم الجماعي، وفي ١٧ أيار ١٩٣٣ ألقى هتلر أمام الرايخستاغ "خطبة السلام" وهي واحدة من ألمع الخطب في حياته السياسية. قطعة من الدعاية المضللة لا نظير لها، هزت اعمق مشاعر الألمان ووجدتهم خلفه، وخلفت إنطباعاً طيباً عميقاً في العالم

الخارجي. وقبل ذلك بيوم واحد أرسل الرئيس روزفلت رسالة بليغة مؤثرة الى رؤساء أربع وأربعين دولة رسم فيها الخطوط العامة لسياسته معبراً عن آمال الولايات المتحدة الأمريكية في نزع السلاح والسلم والدعوة الى إتلاف الأسلحة الهجومية، كقاذفات القنابر والدبابات والمدفعية الثقيلة المتحركة. وكان هتلر سريعاً في قبول تحديّ الرئيس الأمريكي والاستفادة منه أكثر الفائدة:

"ان الإقتراح الذي عرضه الرئيس روزفلت - وقد جاءني نبأوه أمس - انما يستأهل أحرّ الشكر من الحكومة الألمانية انها مستعدة للموافقة على هذه الطريقة للتغلب على الأزمة الدولية... إن إقتراح الرئيس كان قبساً من نور أملٍ مريح لكل أولئك الذين يرغبون في التعاون على حفظ السلم... ان ألمانيا مستعدة تماماً لتنفيذ كل الأسلحة الهجومية إن أتلقت الدول المسلحة من جانبها أسلحتها الهجومية... وهي مستعدة أيضاً لحلّ وتصفية كلّ مؤسساتها العسكرية وتدمير السلاح القليل المتبقي لديها إن فعلت الدول المجاورة الشيء نفسه... إن ألمانيا مستعدة للانضمام الى أيّ ميثاقٍ عدم إعتداء رصين لأنها لا تفكر في هجوم بل تنشدد السلامة لا غير".

وهناك الكثير جداً في الخطاب الذي أدهش إعتداله وحبه بالسلم عالمياً قلقاً ونزل عليه برداً وسلاماً. ألمانيا لا تريد الحرب. الحرب "جنون لا حدود له" انها قد "تسبب إنهيار النظام الإجتماعي والسياسي المعاصر". وليس لألمانيا النازية رغبة في "جرمنة" شعوب أخرى. "إن عقلية القرن الماضي التي حملت الشعب على التفكير بأنهم يستطيعون أن يصنعوا من البولنديين والفرنسيين ألماناً هو تفكير غريب عن عقولنا... الفرنسيون والبولنديون وغيرهم هم جيراننا ونحن نعلم بأنه لا يوجد حدث معقول تاريخياً يمكن تغيير هذه الحقيقة به".

كان هناك تحذير واحد. طلبت ألمانيا معاملة متساوية لها بكلّ البلاد الأخرى ولاسيماً في ميدان التسلّح وإن لم تظهر ألمانيا بهذا فهي تفضل الإنسحاب من مؤتمر نزع السلاح ومن عضوية عصبة الأمم. نُسي التحذير وسط الفرح العام في كل العالم الغربي والترحيب الكبير بحصافة هتلر وأقواله المعقولة. واتفقت جريدة التايمس اللندنية على ان طلب هتلر المساواة هو مما لا يمكن "المحاجة فيه"، أما "الديلي هيرالد" اللندنية لسان حزب العمال فقد طلبت أن يؤخذ هتلر بلسانه. واستنتجت جريدة "الاسبكتيتير" الأسبوعية المحافظة أن هتلر قبض على يد الرئيس روزفلت. وان إلتفاتته يتمثل فيها أمل جديد للعالم المعذب. وفي واشنطن نقل موظف لمكتب الأنباء الألمانية عن سكرتير الرئيس الأمريكي انه قال "كان الرئيس متحمساً لموافقة هتلر على إقتراحاته".

لم يخرج من الدكتاتور النازي الناري تهديدات عنيفة وحشية كما توقع الكثيرون، وانما ظهرت رقة وحلاوة وشعاع أمل. واهتز العالم طرباً. وفي الرايخشتاغ صوّت الجميع دون إستثناء بالموافقة على تصريحات هتلر في السياسة الخارجية حتى النواب الإشتراكيون، أولئك الذين لم يكونوا في السجن أو المنفى.

لكن تحذير هتلر لم يكن أجوف وعندما ظهر واضحاً في أوائل تشرين الأول أن الحلفاء سيصرون

على فترة ثماني سنوات لينقصوا أسلحتهم الى مستوى ألمانيا، فأعلن فجأة في ١٤ تشرين الأول بأن ألمانيا تنسحب حالاً من مؤتمر نزع السلاح ومن عصبة الأمم لرفض حقها في المساواة مع الدول الأخرى. وفي الوقت نفسه اتخذ خطوات ثلاثة أخرى: حلّ الرايخشتاغ وأعلن أنه سيضع قراره هذا بالإنسحاب من (جنيف) في الإستفتاء الشعبي العام وأمر (الجنرال فون بلومبرگ) وزير الدفاع بإصدار أوامر سرية للقوات المسلحة تقضي بمقاومة أي هجوم إن لجأت العصبة الى فرض العقوبات^(٢٥).

هذا العمل المتهور كشف عن زيف خطاب هتلر التوفيقي في الربيع المنصرم. وكان أول مغامرة لهتلر صريحة في الشؤون الخارجية. ومعناها أن ألمانيا النازية تنوي من تلك اللحظة تسليح نفسها متحدية كل معاهدة نزع سلاح ومعاهدة فرساي بالذات. كانت مخاطرة حُسب حسابها وهي الأولى من عدة مخاطرات، وأوامر (بلومبرگ) السرية الى الجيش والأسطول التي كشف النقاب عنها في محاكمات نورمبرگ توضح أن هتلر لم يغامر بإحتمال فرض العقوبات وحدها، بل بوضع ألمانيا اليأس إن فرضت عليها فعلاً^(٢٦).

ففي الغرب ازاء فرنسا وفي الشرق ازاء كل من بولندا وچيكوسلوفاكيا نجم عن تلك الأوامر إقامة خطوط دفاعية واضحة، أمرت القوات الألمانية "بالثبات فيها أطول مدة ممكنة" وكان واضحاً من أوامر (بلومبرگ) هذه أن الجنرالات الألمان على الأقل - لم يكونوا يشكون قط في أن وسائل الدفاع عن الرايخ لن تستطيع الصمود فترة من الزمن مهما قلت. كانت هذه أولى الازمات العديدة في فترة من الزمن امتدت ثلاث سنين - حتى الى ما بعد عودة الألمان الى إحتلال الضفة اليسرى للراين المنزوعة من السلاح في ١٩٣٦ - عندما كان الحلفاء قادرين على فرض العقوبات لا لترك هتلر مؤتمر نزع السلاح وعصبة الأمم، بل لخرقه شروط نزع السلاح في معاهدة فرساي وهو الخرق الذي ظلّ مستمراً في ألمانيا طوال سنتين على أقل تقدير بل حتى قبل مجيء هتلر. أما وان الحلفاء في ذلك الوقت كانوا قادرين بكل سهولة على إخضاع ألمانيا فهو شيء مؤكد قدر ما هو مؤكد أن عملاً كهذا كان سينهي حياة الرايخ الثالث في السنة التي ولد. ولكن اتفق لهذا المتشرد التمسائي السابق فكان من جوانب عبقريته أن أدرك منذ وقت طويل مدى عزم خصومه في الخارج بالخبرة والبصيرة اللتين وزن بهما خصومه في الداخل. ففي هذه الأزمة لم تتخذ الشعوب الحليفة الطافرة أي إجراء - كما كان موقفها في الأزمات الكبرى التي باتت تتعاقب بسرعة حتى ١٩٣٩ كانت أكثر إختلافاً وترهالاً وعماءً مما يمكن أن تتفهم طبيعة أو إتجاه ما يتم بناؤه عبر ضفة الراين الأخرى. وكانت تقديرات هتلر في هذا صحيحة الى آخر حدّ كما كانت في الماضي وكما ستكون في المستقبل بالنسبة الى شعبه. كان يعرف

٢٥- أوامر بلومبرگ [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج ٣٤ الص ٤٨٧-٤٩١ الوثائق ١٤٠ C].

٢٦- قبل ذلك بأشهر - في ١١ أيار - حذر اللورد هيلشام Hailsham وزير الحرب البريطاني بصورة رسمية ان أي محاولة من ألمانيا لإعادة تسليح نفسها سيعد نقضاً للمعاهدة وسيرد عليه بالعقوبات. حسب ما نصت عليه المعاهدة، وفي ألمانيا ظن ان العقوبات المقصودة بالتصريح تعني الغزو العسكري.

حق المعرفة ماذا سيقول الشعب الألماني في الإستفتاء العام الذي عين له يوم ١٢ تشرين الثاني ١٩٣٣ مع إجراء إنتخابات الرايخشتاغ الجديدة للحزب الوحيد في البلاد! وهو اليوم الذي يلي ذكرى إستسلام ألمانيا في ١٩١٨. يوم لا أبا لك أسود مازال عالقاً في أذهان الألمان!

قال مخاطباً اجتماعاً إنتخابياً في برسلاو Breslau في الرابع من تشرين الثاني "أصبروا، وسترون أن هذا اليوم سيكون فيما بعد خالداً في تاريخ أمتنا بوصفه يوم الخلاص العتيد- وسيشار اليه بالقول المأثور: في الحادي عشر من تشرين الثاني فقد الشعب الألماني شرفه رسمياً، وبعدها بخمسة عشر عاماً جاء الثاني عشر من تشرين الثاني وفيه استعاد الألمان شرفهم بأيديهم". وفي ليلة يوم الإنتخاب (١١ تشرين الثاني) أضاف هندنبرگ الجليل الشأن مساندته له بإذاعة على الشعب: "أظهروا غداً وحدتكم الوطنية المتماسكة ومعاضدتكم للحكومة ساندوا معي ومع مستشار الرايخ مبدأ الحق العادل، ومبدأ السلم الشريف. وأظهروا للعالم بأننا صحتنا وبمعونة الله ستحقق الوحدة الألمانية!"

وكان جواب الشعب الألماني بعد خمس عشرة سنة من النقمة والحق على ما انتجته الهزيمة العسكرية من آثار- جواباً جماعياً تقريباً. فقد صوتَ زهاء ٩٦٪ من مجموع أصوات الناخبين الكليّ وصادق ٩٥٪ بالمائة منهم على إنسحاب ألمانيا من (جنيف) وصوتَ لقائمة نواب الرايخشتاغ الوحيدة التي طرحها النازيون (وبضمنها هوكنبيرگ وحوالي خمسة أو ستة أسماء غير نازية) ٩٢٪ من مجموع الأصوات العام. حتى في معسكر الإعتقال في (داخاو Dachau) صوتَ الى جانب الحكومة (٢١٥٤) معتقلاً من أصل (٢٢٤٢) معتقلاً للحكومة التي اعتقلتهم!! الحق يقال أن تهديداً قد يحصل في بعض المناطق لكلّ من يستنكف عن المساهمة في الإقتراع أو لمن يصوت الى الجانب الخطأ. وفي احوال كثيرة كان ثم خوف في أن يقبض على من يصوت ضد النظام ويعاقب، مع كل هذه التحفظات والإستثناءات فان الإنتخابات التي جرى تعدادها على الأقل- بأمانة، كانت نصراً موزراً لأدولف هتلر. ولايهم أيّ شك بأنه فاز بدعم الأغلبية الساحقة للشعب الألماني في تحديه العالم الخارجي كما أسلفنا.

بعد الإستفتاء والإنتخاب بثلاثة أيام. استدعى هتلر السفير البولندي الجديد جوزيف ليسكي Josef Lipski. على أثر حديثهما صدر بيان مشترك اذهل الشعب الألماني والعالم الخارجي معاً فيه اتفقت الحكومتان البولندية والألمانية "على حلّ المشاكل التي تهم بلديهما بطريق المفاوضات المباشرة ونبد كل إستخدام للقوة في علاقاتهما بعضهما ببعض، لتثبيت دعائم السلم الأوروبي".

كانت بولندا العدو المبعوض المحتقر في أذهان الألمان أكثر من فرنسا نفسها، فهم يرون أن أبشع جريمة إرتكبتها صانعو سلم فرساي هي فصل بروسيا الشرقية عن الرايخ بالممر البولندي واقتطاع الدانزك وإعطاء البولنديين اقليم پوزن Posen وجزءاً من سيليزيا اللتين كانتا من ضمن الأراضي الألمانية منذ أيام تقسيم بولندا، وإن كانا بالأصل بولنديين بحكم أغلبية السكان. ولم يكن سياسيّ ألماني واحد في عهد الجمهورية يرغب في إعتبار هذه الهمة البولندية ذات صفة دائمة. حتى أن

(شتريزمان) رفض عقد إتفاق (لوكارنو) شرقيّ مع بولندا كملحقٍ لإتفاق (لوكارنو) في الجهة الغربية من أوروبا. كما وان (الجنرال فون سيكت) أبا جيش الرايخ والحكم من بين محكمي السياسة الخارجية في السنوات الأولى من العهد الجمهوري قد نصح الحكومة منذ ١٩٢٢ بأن "وجود بولندا أمرٌ لا يحتمل ولا يأتلف قط مع الظروف الجوهرية اللازمة لحياة ألمانيا"، وأصر بقوله "يجب أن تذهب، ولتذهبن!". وأضاف إن إزالتها من الخارطة "يجب أن يكون واحداً من إتجاهات السياسة الألمانية الأساسية". فباختفاء بولندا من عالم الوجود سيسقط واحد من أقوى أركان صلح فرساي، وهو سيطرة فرنسا^(٢٧) قبل ان يزيل هتلر بولندا وجد من الضروري أن يفصلها عن حليفها فرنسا والسبيل الذي سار عليه الآن يصيبه بعدة منافع الى جانب الهدف النهائي. فبنبذه إستعمال القوة ضد بولندا يتمكن من تقوية دعايته للسلم وتبديد الشكوك التي ظهرت في كُُلّ من شرق أوروبا وغربها على أثر إنسحابه من جنيف. وبإقناع البولنديين بإجراء مفاوضات مباشرة، يتمكن من تخطي عصبية الأمم وبذلك يضعف من سلطانها. ويستطيع أن يوجه ضربةً الى تفسير العصبية "للضمان الجماعي". كذلك ينسف التحالف الفرنسي في شرقي أوروبا وبولندا دعائمه الكبرى. ربما صعب على الألمان ببغضهم التقليدي للبولنديين أن يفهموا ذلك، ولكن من مميزات الدكتاتورية على الديمقراطية -في نظر هتلر- أن السياسات غير المألوفة التي قد تأتي بنتائج باهرة في الأخير يمكن أن تتبع بصورة مؤقتة دون إحتجاجٍ صاخبٍ من الداخل.

في ٢٦ كانون الثاني ١٩٣٤، قبل مواجهة هتلر للرايخشتاغ بأربعة أعوام، إحياءً للذكرى الأولى لتوليهِ السلطة أعلن عن توقيع معاهدة عدم اعتداء بين ألمانيا وبولندا أمدتها عشر سنوات. ومنذ ذلك اليوم فصاعداً بدأت بولندا تفصل نفسها عن فرنسا حاميتها منذ بعثها الى الحياة في ١٩١٩ وتدنو من ألمانيا النازية وتوثق علاقاتها بها، وكانت تلك البلاد نفسها، تحكم بدكتاتورية المارشال بلسودسكي التي قضت على آخر مظاهر الديمقراطية البرلمانية. انها اتخذت سبيلاً كان سيؤدي بها الى الدمار قبل ان ينتهي أجل معاهدة "الصداقة وعدم الإعتداء" وعندما خطب هتلر في الرايخشتاغ ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٤. كان يستطيع أن يفخر بسنةٍ من الأعمال الباهرة لاتضاهيها سنة في تاريخ ألمانيا. ففي غضون إثني عشر شهراً قوَّض صرح جمهورية فايمر واقام بديلاً عن ديمقراطيتها دكتاتوريته الخاصة. سحق كل الأحزاب السياسية باستثناء حزبه. حطم الحكومات الفيدرالية ذات الإستقلال الذاتي وقضى على برلماناتها ووحّد الرايخ وازال صفته الفيدرالية، ومحا نقابات العمال محواً. ووطي المؤسسات الديمقراطية من كل الانواع وطرد الساميين من الحياة المهنية والعامة، وصادر حرية القول والصحافة. وخنق إستقلال المحاكم و"نسّق" تحت الحكم النازي الحياة السياسية والإقتصادية والثقافية والإجتماعية للشعب عريق متمدّن.

٢٧- اقتباس (تلفورد تايلر) في "السيف والصليب المعقوف". إن أوراق الجنرال فون سيكت هي الآن في دار الوثائق الوطنية بواشنطن.

لكل هذه الإنجازات ولعمله المبرمج في السياسة الخارجية الذي نزع ألمانيا من مجموعة دول جنيف وأعلن اصرار الألمان على أن يعاملوا معاملة مساوية للدول الكبرى، دعمته الأغلبية الساحقة من الشعب الألماني الى كما وضع في إنتخابات الخريف واستفتاءه. مع ذلك كله فقد اجتمعت سحب في سماء النازي بدخول دكتاتوريته سنتها الثانية.

-٦-

التطهير الدموي في ٣٠ حزيران ١٩٣٤

إن إكفهار الجو كان متسبباً عن ثلاث مشاكل لم تبحر تسويتها وقد مر ذكرها: إستمرار مطالبة زعماء الحزب وقادة ال(إس. أي) المتطرفين "بالثورة الثانية" والمنافسة بين ال(إس. إس) والجيش، ومسألة استخلاف الرئيس هندنبرگ الذي بدأت أيامه في الحياة معدودة. وبمجيء الربيع كان (روهم) رئيس هيئة أركان ال(إس. أي)، على رأس جيش قوامه مليونان ونصف المليون من جنود العاصفة، ولم تغل من غرايه تلميحات هتلر في ضمه الى الحكومة، أو رسالته الرقيقة الشخصية في عيد رأس السنة. وفي شباط قدم لمجلس الوزراء مذكرة مسهية مقترحاً فيها أن يجعل ال(إس. أي) أساساً للجيش القومي الجديد وأن يوضع ال(إس. أي) وال(إس. إس) وكل الوحدات الإحتياطية المحاربة مع القوات المسلحة تحت مسؤولية وزارة دفاع واحدة يكون هو على رأسها - (كان الاستنتاج سهلاً). لم يكن ثم فكرة اشنع من هذه الفكرة قد تتصورها هيئة الضباط، ولم يكن الضباط الأقدمون يرفض الإقتراح بالاجماع وإنما ناشدوا (هندنبرگ) ليخف الى دعمهم. ستتخطم كل تقاليد الطبقة العسكرية إن سيطر (روهم) الفظ الشقي وزمرته الأوباش من ذوي القمصان الرمادية على الجيش. وما زاد ضعفاً على إبالة ارتياع الجنرالات من الحكايات التي بدأت الآن تنتشر انتشاراً واسعاً. عن فساد وتفسخ الطغمة المنحرفة جنسياً التي تحيط برئيس ال(إس. أي) كما كان سيشهد بذلك فيما بعد الجنرال (فون براوختش Von Brauchtsch): "إن إعادة التسليح عمل هو على درجة من الخطورة والصعوبة لا يمكن اشراك قوادين وسكيرين ومنحرفين جنسياً فيه".

في تلك الفترة لم يكن هتلر قادراً على إغضاب الجيش، فلم يدعم إقتراح روهم، والواقع أنه أخبر سراً السر انطوني ايدن الذي قدم برلين للتشاور في مشكلة نزع السلاح في ٢١ شباط أنه مستعد لانقاص ال(إس. أي) الى الثلثين والموافقة على نظام تفتيش للتأكد بأن الباقي منه لا يدرب تدريباً عسكرياً ولا يحمل سلاحاً وهو عرض ما لبث أن تسرب وألهب نار حنق روهم وجيشه واقترب صيف عام ١٩٣٤ وازدادت العلاقة بين رئيس ال(إس. أي) وقيادة الجيش العليا شتاً وعداءً. وكان في مجلس الوزراء مناقشات عاصفة بين (روهم) والجنرال فون بلومبرگ. وفي آذار إحتج وزير الدفاع

لدى هتلر على قيام ال(إس. أي) سراً بتسليح قوة كبيرة من الحرس الخاص بالأركان بالرشاشات الثقيلة. الأمر الذي ينطوي على تهديد للجيش فضلاً عن كونه يتم بشكل علني فاضح يهدد بإفتضاح التسليح السري الذي يشرف عليه جيش الرايخ.



روهم

من الواضح أن هتلر في هذه المرحلة وخلافاً لروهم العنيد وأعوانه كان يفكر بعيداً إلى اليوم الذي سيلفظ الرئيس العليل آخر أنفاسه. يدري أن الرئيس الطاعن في السن، والجيش وغيرهما من القوى المحافظة في ألمانيا تحبذ إعادة ملكية هوهنزولرن إلى البلاد حالما يقضي الرئيس نحب. في حين كان لديه هو خطط أخرى وعندما بلغته والجنرال (ثون بلومبرگ) أنباءً سرية محققة من (نودك) أن أيام الرئيس أصبحت معدودة، أدرك أن ضربة جريئة واحدة قد آن وأنها ولات حين مناص منها ولضمان نجاحها كان يحتاج إلى دعم هيئة الضباط، وللحصول على هذا الدعم كان مهيمناً للوصول به إلى أقصى حد.

وعرضت المناسبة في حديث صريح مع الجيش حالاً. ففي ١١ نيسان ركب المستشار بصحبة الجنرال ثون بلومبرگ وقائدي الجيش والأسطول العامين الجنرال فرايهر فون فريتش Freiherr Von Fritsch والأميرال رايدر على ظهر الطراد دويتشسلاند Deutschland من (كيل) إلى كوينكسبرغ لحضور المناورات السنوية في بروسيا الشرقية. فأبلغ قائد الجيش والأسطول بحالة هندنبرگ المتردية واقترح هتلر بجرأة وصراحة مدعماً من الجنرال الطييع بلومبرگ أن يكون هو خلفاً للرئيس. وهو يتعهد للجيش مقابل ذلك أن يقضي على طموح روهم، ويُقلص ال(إس. أي) إلى عدد لا يؤبه به ويضمن أن يكون الجيش والأسطول حملة السلاح الوحيديين في الرايخ الثالث ويعتقد أيضاً أن هتلر وعد (فريتش ورايدر) أيضاً بتوسيع الجيش والأسطول إن كانا مستعدين للسير إلى جانبه. فوافق الأميرال رايدر المتزلف على ذلك دون تردد. لكن فريتش وهو رجل صعب أجاب بأنه سيشاور جنرالاته الأقدمين أولاً. وتمت هذه المشاورة في (باد ناوهايم Bad Nauheim) في ١٦ أيار وبعد أن شرح للقادة الأعلى في الجيش الألماني "ميثاق الطراد دويتشسلاند" لهم. وقّعوا لهتلر، بوصفه خليفة الرئيس هندنبرگ (٢٨).

٢٨- المصادر عن "ميثاق دويتشسلاند" هي- (Weissbuch ueber die) (٣٠ حزيران) (Erschiessung) ١٩٣٤ (باريس ١٩٣٥) الص ٥٢-٥٣. هيرت روزنسكي Herbert Rosinski في "الجيش الألماني" الص ٢٢٢-٢٢٣ يؤيد كذلك =

وهذا القرار السياسي الذي اتخذته الجيش كان سيظهر أثره التاريخي فيما بعد. فبوضع الجيش نفسه طوعاً بين يدي الدكتاتور المهيوس بدون قيد أو شرط أو وازع أو رقيب يكون قد ختم على مصيره الأبدى. أما بالنسبة لهتلر فان الصفقة كانت ستجعل دكتاتوريته مطلقة متفوقة على كل شيء، فذهاب الفيلد مارشال والقضاء التام على فكرة عودة آل هوهنزلرن وبصيرورته رأساً للدولة فضلاً عن رأسته الحكومة لن يعود ثم عائق في طريقه. والثمن الذي دفعه للإرتفاع الى قمة السلطان والحكم كان تافهاً زهيداً، هو التضحية بال(إس. أي) الذي لم يعد بحاجة اليه بعد أن اجتمعت كل السلطات في يده. إن ال(إس. أي) غوغاء مشاكسة كثيرة الضجة تخجله وتحرجه ليس إلا. لاشك ان ازدراء هتلر بعقليات الجنرالات العتيقة قد تبدل في ذلك الربيع تبدلاً مفاجئاً. قد يكون فيهم شيء قليل من ضيق الأفق والمحافظة على القديم وهذا ما آمن به دون شك وظلّ مقيماً عليه ولم ينصرف عنه إلا في لحظة سيئة واحدة - في شهر حزيران ١٩٤٥ عند اقتراب النهاية، نهايته ونهايتهم.

ومع ذلك كله فقد اقبل الصيف ومتاعب هتلر غير منتهية. وبدأ توتر مشؤوم الطلائع يشد على أعصاب برلين وتضاعفت الصيحات بطلب "الثورة الثانية" وازدادت، ولم يعد الأمر قاصراً على (روهم) وضباط فرق العاصفة بل تعداه الى غوبلز نفسه وظهر ميله هذا في خطبه وفي الصحف التي يسيطر عليها، اذ اطلقها لتجار بصيحة الثورة. وارتفعت احتجاجات اليمين المحافظ واليونكرز والصناعيين الكبار وراحوا يلحون على (باين) وهندنبرگ مطالبين بإيقاف الثورة عند حد وانهاة الاعتقالات التعسفية وإضطهاد اليهود، ومهاجمة الكنائس والأديان، والسلوك الصلف الاعتدائي الذي يمارسه جنود العاصفة وان يوقف الإرهاب العام الذي نظمه النازيون.

وفي نطاق الحزب نفسه كان يوجد صراع عنيف جديد على السلطة فقد راح غورنك وهملر أقوى عدوين لروهم - يوحدان جهودهما ضده، ففي (١) نيسان عين غورنك زميله هملر مديراً لشرطة (الغشتاپو) البروسية. وهو بالأصل رئيس فرقة الحرس الأسود (إس. إس) التي لم تزل فرعاً لل(إس. أي) وبقيادة روهم ايضاً فبادر هملر بإنشاء إمبراطورية خاصة به من الشرطة السرية. وغورنك الذي جعله الرئيس (هندنبرگ) في آب الماضي جنرالاً من صنف المشاة General der Infanterie (مع انه وزير طيران) كان جد مغتبط بخلع لباسه الرمادي الحقيق وارتداء بزة ازهى ووقع في النفس هي بزة الرتبة التي رقي اليها. وكان التغيير الداخلي يناسب التغيير الخارجي فكجنرال وفرد من أسرة تنتمي الى الطبقة العسكرية في البلاد ما عثم أن انحاز الى الجيش في حربه ضد (روهم) وال(إس. أي) ولأجل ان يحمي نفسه في صراع الغاية الدموي الذي تدور رحاه الآن جند شرطته الخاصة المعروفة "بفرق پوليس البلاد الخاصة بالجنرال غورنك" Landespoliciegruppe وبلغ عددهم عشرة آلاف من الصناديد أتم حشدتهم في مدرسة (ليخترفلده Lichterfelde) العسكرية، وفيها كان أول دخوله الجيش. وهي ذات

= شروط الميثاق (بوللوك، وهولر بينيت) وقد ضمناها كتابيهما في هذه الفترة. مصدر إجتماع ١٦ أيار للقادة هو (جاك بينواس-ميشان Jacque Benoist Michiue في كتابه "الجيش الألماني قبل الهدنة" ج ١١ الص ٥٥٣-٥٥٤.

موقع ستراتيغي في ضواحي برلين.

وزاد من التوتر في العاصمة اشاعات إنتشرت حول مؤامرات ومؤامرات مضادة. كان الجنرال (فون شلايخر) قد استأنف تدخلاته السياسية، بعد ان ضاق ذرعاً بالبقاء في زوايا النسيان المستورة. وتذكر أنه بات فاقد الحول والطول لعدم تمتعه بثقة هندنبرگ والجنرالات وأحزاب المحافظين فبادر بالإتصال به (روهم وگريگور شتراسر). ووصلت تقارير الى هتلر تفيد انه يحاول عقد صفقات يستهدف بها الى تسنم منصب نائب المستشار بدلاً من عدوه القديم (پاپن) وان يتبوأ (روهم) منصب وزير الدفاع، ويندمج ال(إس. أي) بالجيش ووزعت قوائم بأسماء الوزارات بالعشرات في برلين. تجدد في بعضها (بروننگ) وزيراً للخارجية و(شتراسر) وزيراً للإقتصاد، ولم يكن لتلك التقارير أساس كبير من الصحة، إلا أنها كانت تخرج من مصانع گورننگ وهملر لتقدم الى هتلر بعد زخرفتها وتنميقها، ولم يكن هتلر يحتاج الى تحريض كثير او وسواس طويل لتشار شكوكه. وكان كلا الرجلين يعمل للقضاء على (روهم) وال(أ.س. أي) وتصفية حسابهما مع (شلايخر) في الوقت عينه، لأغراض خاصة يضمهما گورننگ ورئيس شرطته ليست قاصرة على تطهير ال(إس. أي) وانما لتصفية معارضين آخرين من اليسار واليمين. بينهم بعض من وقف في طريق هتلر في الماضي، ثم اعتزل العمل السياسي. وفي أواخر أيار حذر كل من شلايخر وبروننگ بأن النية معقودة على إغتيالهما فانسلّ الثاني متنكراً خارج البلاد بأسرع ما أمكن. وسافر الآخر الى بافاريا للراحة إلا أنه عاد الى برلين في أواخر حزيران. وفي بداية حزيران جرت مقابلة صاخبة عاصفة بين (روهم) وهتلر. قال عنها الأخير في حديثه للرايخشتاغ فيما بعد انها دامت خمس ساعات تقريباً و"استمرت حتى منتصف الليل"، ووصفها "بالمحاولة الأخيرة" للتفاهم مع اقرب الأصحاب في الحركة: "أبلغته ان فكرة تكونت لي من عدد لا يحصى من الشائعات وما يفوق ذلك من تصريحات أعضاء الحزب القدامى وقادة ال(إس. أي) المخلصين بأن بعض العناصر التي فقدت ضمائرها تنهياً للقيام بعمل بلشفي! على نطاق الوطن كافة، عمل لا يجلب للبلاد إلا ما لا يمكن التكهن به من نكبات ومصائب... توسلت اليه لآخر مرة ان يتخلى طوعاً عن أفكاره الجنونية وان يقوم بدل هذا، بإستخدام سلطاته للحيلولة دون تطورات في الأمور لاتنتهي إلا بكارثة مهما تكن الظروف والنتائج".

ويذكر هتلر ان (روهم) تركه بعد ان أكد له انه سيفعل كل ما بوسعه لتسوية الأمور ووضعها في نصابها". وزعم ايضاً فيما بعد أن روهم بدأ فعلاً "يستعد للقضاء علي شخصياً". يكاد هذا يكون غير صحيح بالمرة. ومع ان قصة التطهير، مثل حادثة حريق الرايخشتاغ ستبقى ببعض جوانبها غامضة، فكلّ الدلائل التي ظهرت الى الوجود أشارت الى ان رئيس ال(إس. أي) لم يتأمر على ازاحة هتلر. ولا تلقي السجلات التي ضبطت -لسوء الحظ- أي ضوء على التطهير أكثر مما أُلقت على حرق الرايخشتاغ. ويحتمل جداً أن الوثائق في كلتا القضيتين قد اتلفت بناء على أوامر من (گورننگ). ومهما تكن طبيعة المناقشة الطويلة التي جرت بين الزعيمين النازيين فقبلها بيوم أو يومين طلب

هتلر من فرق الـ(إس. أي) أن تقضي اجازة عامة طوال شهر تموز. وفي خلال ذلك منع جنود العاصفة من ارتداء بزاتهم الرسمية أو إقامة إستعراضات أو إجراء تدريب. وفي ٧ تموز أعلن روهم بأنه سيقضي اجازة مرضية. إلا أنه اصدر في الوقت ذاته تحذيراً شديداً للهجة ينطوي على تحد "إن كان أعداء الـ(إس. أي) يأملون أن لا يدعى رفاقنا الى الخدمة أو أن يدعى قسم منهم لها بعد انتهاء الاجازة فقد نسمح لهم بالاستمتاع بهذا الأمل المؤقت. انهم سيتسلمون جوابهم في الوقت المناسب وبالصيغة اللاتقة. إن الـ(إس. أي) هو مصير ألمانيا وسيبقى كذلك".

وقبل ان يغادر (روهم) برلين دعا هتلر للمداولة مع قادة الـ(إس. أي) في مصيف (فيسسي Wiessee) بالقرب من مونيخ في ٣٠ حزيران فسارع هتلر بالموافقة وحافظ على الموعد فعلاً وإن لم يكن بالشكل الذي تصوره (روهم) وعلى أغلب الظن ليس بالشكل الذي كان هتلر في تلك الساعة يتحسسه. فقد أقر فيما بعد في بيانه للرايخشتاغ أنه كان متردداً "أقلب وجوه الرأي مرة بعد أخرى قبل إتخاذ القرار النهائي. كنت متشبثاً بالأمل الخفي في أن اكون قادراً على تجنب الحركة والـ(إس. أي) من عار هذا الخلاف فانجح في ازالة التناقض من دون اصطدام عنيف".

ثم زاد قائلاً: "ولأعترف أن الأيام الأخيرة من أيار كانت تكشف باستمرار عن حقائق مقلقة أكثر فأكثر. " لكن أهذا حق؟ إدعى هتلر فيما بعد ان (روهم) والمتآمرين الآخرين أقموا إستعدادهم لإحتلال برلين وإعتقاله. فان كان الأمر كذلك فلماذا غادر كل قادة الـ(إس. أي) العاصمة في أوائل حزيران - وأهم من هذا - لماذا ترك هتلر ألمانيا في تلك الفترة فاعطى فرصة للـ(إس. أي) للقبض على زمام الدولة في غيابه؟

ففي ١٤ حزيران طار الفوهرر الى مدينة (البندقية) لحضور أول إجتماع من عدة إجتماعات ستتلو مع زميله الدكتاتور الفاشي موسوليني. ولم تكن المقابلة كما شاءت الصدفة ناجحة بالنسبة للزعيم الألماني الذي بدا بمعطفه المطري المجعد وقبعته اللينة شديدة التضايق بمحضر من الدوتشي الأكثر تجربة والأبهى منظراً ببزته الفاشية السوداء الزاهية المحلاة بالأوسمة. والذي تعمد إظهار تنازله الى زائره. وعاد هتلر الى برلين في حالة بئس من سوء المزاج والضيق. ودعا قادة الحزب الى إجتماع في بلدية (جيريه Gera) في (ثورينجيا) بتاريخ ١٧ حزيران ليقدم بياناً بمحادثاته مع موسوليني وإيضاح الحالة المتردية في الداخل. وحكم القدر ان يجري إجتماع آخر (نهار الأحد) في جامعة بلدة (ماربورگ) العتيقة، أثار في ألمانيا إهتماماً أكثر بكثير وتعداه الى العالم كله. مما ساعد على ايصال حراجه الموقف الى ذروته.

كان (پاپن) المهذب قد دُفع جانباً بكل فظاظة من قبل هتلر وگورنگ إلا انه مازال نائب المستشار ومازال يتمتع بثقة هندنبرگ، جمع ما يكفي من الشجاعة ليتكلم علناً ضد تجاوزات ذلك النظام الذي عمل الكثير لأجل فرضه على ألمانيا. وفي أيار قام بزيارة الرئيس العليل في (نودك) وكان آخر مرة يشاهد حاميه حياً. فقال له الفيلد مارشال الشيخ الذي هذه الضعف. "الأمور تسير سيراً سيئاً

يا (پاپن) فحاول ما يمكنك لتقويمها".

وبهذا التشجيع قبل دعوة لإلقاء خطاب في جامعة (ماربورگ) في ١٧ حزيران. وكان معظم الخطبة من بنات أفكار واحد من مشاوريه الخصوصيين "إدگار يونك" Edgar Jung وهو محام لامع من مونيخ وأديب پروتستانتي المذهب على أن بعض الآراء فيها كانت من وضع هربرت فون بوسه Herbert Von Bose أحد كتمة سرّ نيابة المستشارية واريخ كلاوسنر Erich Klausener زعيم منظمة العمل الكاثوليكي - وهو تعاون كلفهم حياتهما بعد قليل. لقد كانت خطبة بأسلة والفضل لـ (يونك) وأسلوبه البليغ المؤثر الوقور العبارة. لقد دعا الى انتهاء الثورة ووضع حد ختامي للإرهاب النازي وإعادة الآداب الإجتماعية المتواضع عليها وردّ جانب من الحريات ولاسيما حرية الصحافة. وقال (پاپن) مخاطباً الدكتور گوبلز وزير الدعاية:

"المناقشات المريحة الرجولية تخدم الشعب الألماني. وأكثر فائدة له مثلاً من الوضع الحالي للصحافة. [يجب أن] تكون الحكومة منتبهة الى المثل السائر "الضعفاء وحدهم لا يتحملون انتقاداً"... لا تخلق الدعاية رجالاً عظاماً... إن رغب المرء في إتحاد وإتصال وثيق بالشعب فعليه ألا يقلل من شأن عقلية الشعب وفهمه. على المرء ألا يبقى الشعب الى الأبد مربوطاً بحبال المقود... لا يمكن لمنظمة أو دعاية بالغ ما بلغت من الانتظام والسمو، أن تنال الثقة في الزمن البعيد. ولا يمكن الفوز بثقة الشعب وإخلاصه بطريق الاستفزاز... ولا بالتهديد أو إرهاب الطائفة العديمة النصير والحيلة من الشعب بل بإقناع الشعب بالكلام والبرهان. إن الشعب الذي يعامل كالساعة morons ليس عنده ثقة يقدمها... لقد أن الوقت لنلتحم معاً في صداقة أخوية وإحترام لكل أبناء وطننا وأن نجتنب اضاعة مجهودات الرجال المجادين وأن نسكت المتعصبين^(٢٩).

عندما شاع أمر الخطبة قوبلت بحفاوة وثناء واسع في ألمانيا. إلا أنها سقطت على قادة النازيين القليلين الذين كانوا مجتمعين في (گيره) مثلما تسقط القنبلة. وتحرك گوبلز بسرعة لحصر انتشارها في اضيق دائرة ممكنة. فمنع إذاعة تسجيل لها من دار الإذاعة حيث كان ذلك مقرراً مساء اليوم كما منع أي تنويه بها في الصحف وأمر الشرطة بجمع نسخ جريدة (فرانكفورتر زايونگ) التي كانت تباع في الشوارع وهو العدد الذي نشر مقتطفات للخطبة. ولكن سيطرة وزير الدعاية المطلقة لم تكن كافية لمنع الشعب الألماني والعالم الخارجي من إطلاعه على محتويات الخطبة الجريئة. كان (پاپن) الماكر قد وزع نسخاً من خطبته قبل إلقائها، على المراسلين الأجانب والدبلوماسيين في برلين. وهربت عدة آلاف نسخة من المطبعة التي تطبع جريدة پاپن الخاصة "جرمانيا" ووزعت سراً. وثار كوامن الغيظ في هتلر عندما سمع بنياً خطبة (ماربورگ) في (گيره) بعد الظهر وهاجم "القزم الذي يتصور أن بإمكانه الحيلولة دون عملية التجديد الجبارة التي تجري في حياة الشعب ببضع عبارات وهاجت هائجة پاپن

٢٩ - (Berlin, Geronania. Rede des Vizekanzlers Von Papen Vor dem Universitätsbund, Marburg am 17 Juni, 1934 Verlag)



أيضاً لمنع إذاعة خطبته وملاحقتها وأسرع الى هتلر في العشرين من حزيران لإبلاغه بأنه لا يتسامح في عملية احتجاز يقوم بها "وزير صغير الشأن مستجد" وشدد القول على انه لم يتكلم إلا "نيابة عن الرئيس" وبادر حالاً الى تقديم إستقالته مضيفاً اليها إنذاراً "أنه سيبلغ الرئيس بكل هذا في الحال" (٣٠).

كان هذا تهديداً أقلق هتلر حقاً لأنه كان على علم بتقارير تشير الى ان الرئيس مستاء جداً من الوضع وهو مزعم على إعلان الأحكام العرفية وتسليم السلطة للجيش. فلأجل أن يقدر خطورة هذا الخطر على إستمرارية النظام النازي، طار الى (نودك) في اليوم التالي (٢١ حزيران) لزيارة هندنبرگ. وزادت المقابلة في مخاوفه فقد لقي الجنرال ثون بلومبرگ وأدرك حالاً أن أسلوب التذلل والخنوع الذي يقابله به عادةً، قد اختفى حالاً. بدا فون

هملر

بلومبرگ الآن ذلك الجنرال البروسي الصارم. وابلغه بلهجة جافة أنه مخوّل من الرئيس الفيلد مارشال لبيلغه: إن لم تنته حالة التوتر الحاضرة في ألمانيا بسرعة فسوف يعلن الرئيس الأحكام العرفية ويضع في ايدي الجيش زمام السلطة وتصريف شؤون الدولة. وأيد الرئيس نفسه هذا الإنذار لهتلر عندما سمح له بمقابلته عدة دقائق بحضور من الجنرال بلومبرگ. كان هذا إنقلاباً خطيراً في الوضع يهدد بكارثة للمستشار النازي. ففضلاً عن تذبذب أمله في استخلاف الرئيس، كانت سيطرة الجيش نهايته ونهاية الحكومة النازية. فعاد بالطائرة الى برلين في ذلك اليوم ولا بد وأنه كان يفكر بأن بقاءه مرهون بأمراً لا خيار له فيه. عليه أن يقدم دليل الصدق على إتفاقه مع الجيش فيسحق ال(إس. أي) ويحول دون مدّ الثورة التي كان يلح بها قادة جنود العاصفة. فقد وضع لديه أن الجيش ومن خلفه الرئيس لا يرضيان بأقل من هذا.

مع ذلك ظلّ هتلر في الأسبوع الأخير الحرج من شهر حزيران - متردداً على الأقل في مدى العنف الذي سيرافق حملته على قادة ال(إس. أي) وهو يدين لهم بالكثير. لكن (هملر وگورنگ) تقدما الآن ليساعده على إتخاذ القرار. فقد سبق لهما أن رتبا قوائم الحساب التي يريدان تصفيتهما. وهي قوائم طويلة بأسماء الأعداء القدماء منهم والمجدد الذين ستشملهم التصفية. وكل ما كان يترتب عليهما عمله هو إقناع الفوهرر بان "المؤامرة" تستهدفه بالذات، وبضرورة القيام بعمل سريع قاسٍ وبحسب

إفادة (قلهلم فريك) وزير الداخلية [واحد من أخلص أصدقاء هتلر] في محاكمات نورمبرغ، أن هملر هو الذي أقنعه أخيراً بأن "روهم أراد القيام بانقلاب". وأضاف (فريك) "فأمر الفوهرر هملر بسحق الانقلاب" وأوضح ان هملر بلغ بأن يجمعها في بافاريا، وأن يجمعها غورنك في برلين^(٣١).

واشتد إلحاح الجيش على هتلر أيضاً، وبهذا شارك في مسؤولية الأعمال البربرية التي وقعت. في الخامس والعشرين من حزيران قام الجنرال ثون فريتش القائد العام للجيش بوضع قواته في حالة استنفارٍ وألغى كل الاجازات ومنع خروج الجنود من الشكنات. وفي ٢٨ حزيران طُرد روهم من عصابة الضباط الألمان- وكان إنذاراً واضحاً لرئيس ال(إس. أي)- أن الخطر قد احدث به. ولكي لايبقى أيّ مجال للشك - وبخاصة لروهم في موقف الجيش والى أيّ جهة ينحاز. خطأ (بلومبرغ) خطوة غير مسبوقه بنشره مقالاً بتوقيعه الصريح في القولكشر بيوباختر يوم ٢٩ حزيران جاء فيه أن "الجيش... يقف خلف أدولف هتلر... الذي بات واحداً متاً".

اذن فالجيش كان يلح في إجراء التطهير. الا أنه لم يكن يريد أن يلطخ يديه. ويجب أن يقوم به هتلر وغورنك وهملر بمساعدة الحرس الأسود (S.S) وشرطة غورنك الخاصة.

غادر هتلر برلين الى (إيسن) نهار الخميس الموافق ٢٨ حزيران لحضور حفلة قران (الگاولايتير) المحلي جوزيف تربوفن Terboven ان المرحلة ومناسبتها لاتوحيان بوجود أزمة خطيرة راهنة. وفي اليوم ذاته أمر غوبلز وهملر وحدات خاصة من (الحرس الأسود)، وشرطة غورنك بأن تكون في حالة الإستعداد. ويظهر أنهما شعرا بمزيد من حرية العمل بغياب هتلر. وفي اليوم التالي الموافق ٢٩ حزيران قام الفوهرر بجولة في مخيمات العمل في وستفاليا. وعاد بعد الظهر الى (گودسبرگ) على الراين وحلّ في فندق على الضفة يديره المدعو (دريسن Dressen) أحد رفاق الحزب القدامى وفي ذلك المساء وصل غوبلز الى (گودسبرگ) وبدت حيرته بين المعسكرين لايدري الى أيهما ينضم. ثم صحّ عزمه وقدم تقريراً وصفه هتلر "بالاستخبارات الخطيرة" ومما جاء فيه التقرير أن كارل أرنست (خادم اوتيل سابق وشقي سابق في مقهى يتردد اليه المنحرفون جنسياً جعله روهم قائد كل ال(إس. أي) في برلين، قد استنفّر جنود العاصفة. كان ارنست [وهو شاب وسيم إلا أنه تخين العقل] يعتقد خلال الأربع والعشرين ساعة أو نحوها الباقية من حياته. أنه يواجه مؤامرة من اليمين وكان سيموت وهو يهتف بفخر "هايل هتلر!" وادعى هتلر بعدئذ إنه حتى تلك الساعة من التاسع والعشرين كان عازماً على "تجريد رئيس الأركان [روهم] من وظائفه وإعتقاله لفترة مؤقتة وأن اوقف عدداً من قادة ال(إس. أي)، لم يجر استجوابهم عن جرائم ارتكبوها... وأناشد الآخرين بإخلاص وسلامة نية بأن يتفرغوا الى واجباتهم". ولا أكثر من ذلك.

"[بينّ للرايخشتاغ في ١٣ تموز] قال "وعلى كل... في الساعة الواحدة بعد نصف الليل تسلمت رسالتين مستعجلتين من برلين ومونيخ تتعلق باستدعائي لأمرٍ ذي خطورة: فأولاً في برلين صدر الأمر

٣١- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٥ الص ٦٥٤-٦٥٥ الوثائق ٢٩٥٠ (PS).

بتحشيد إنذاري في الرابعة بعد الظهر... وفي الخامسة بعد الظهر كان مقرراً أن يبدأ في تنفيذ الخطة بهجوم مباغت، وأن يتم إحتلال البنايات الحكومية... ثم يأتي دور مونيخ، لقد أعطي الأمر الاستنفاري للـ(إس. أي) بالتجمع في الساعة التاسعة مساءً... إنه عصيان وتمرداً... في هذه الظروف لم اجد مفرّاً من تقرير أمرٍ واحد... بالتدخل القاسي الدموي فقط يمكن خنق التمرد في مهده والحيلولة دون اتساعه... وفي الثانية بعد نصف الليل طرأت الى مونيخ.

لم يكشف هتلر عن مصدر "الرسالتين العاجلتين" ولكن الظن يروح الى گورنگ وهملر. وما هو مؤكد أنهما تضمنتا مبالغات ضخمة. ففي برلين كان أخطر ما قام به قائد الـ(إس. أي) (أرنست) لايزيد عن سفره بالسيارة الى (برلين) في يوم السبت هذا - بصحبة عروسه لقضاء شهر العسل على ظهر سفينة في ماديرا Madeira. وماذا في الجنوب حيث كان أكبر إحتشاد للـ(إس. أي) "المتأمرين"؟ عندما كانت الساعة تؤذن بالثانية بعد نصف الليل في ٣٠ حزيران وهتلر والى جانبه گوبلز يحلقان من مطار هانغلار Hangelar بالقرب من (بون)، في تلك اللحظة كان الكابتن روهم وضباطه الـ(إس. أي) يغطون في النوم كلّ على فراشه في فندق هانسلباور Hanslbauer في (ويسبي) على ساحل بحيرة تگرينسي Tegernsee. أما (أدموند هابنس) زعيم فرق العاصفة Oberguppenfuehrer في سيليزيا وهو قاتل ومحكوم سابقاً ومنحرف جنسياً سيء الصيت بوجه يشبه وجه صبية يعلو جسماً لئلاً مفتولاً شبيهاً بجسم عتال بيانو فقد كان في فراشه يحتضن فتى! لقد كان رؤساء الـ(إس. أي) بعيدين جداً عن تدبير ثورة حتى أن (روهم) ترك حرسه الخاص في (مونيخ). وبدأ على قادة الـ(إس. أي) علائم الانسراح وانصرفوا الى القصف واللهو ولم تبدر أي بادرة منهم تدل على التأمر.

ونزل هتلر مونيخ في الرابعة صباحاً مع صحبه القليلين (إلتحق بهم كل من أوتو ديتريتش رئيس مكتبه الصحفي (وفكتور لوتزه Viktor Lutze قائد (إس. أي) في هانوفر الذي لا لون له، والمخلص جداً) فوجد بعض الإجراءات قد سبق إتخاذها. قام (الميجر فالتر بوخ) رئيس محكمة الحزب (أوشلا)، وأدولف فاكنر وزير داخلية بافاريا يعاونهم رفاق الحزب القدامى المتعلقين بهتلر أمثال (إميل موريس) المجرم السابق، منافسه في حبّ (گيلي راوبال) و(كريستيان ويبر) تاجر الخيول وبلطجي الكباريات الأسبق يتوقيف قادة الـ(إس. أي) في مونيخ وضمنهم زعيم المنطقة شنايدهوير Schneidhuber الذي كان أيضاً مدير شرطة مونيخ. وهتلر، الذي كان الآن قد اوصل نفسه الى حالة مناسبة من الهستيريا وجد الموقفين في وزارة الداخلية فتوجه رأساً الى (شنايدهوير) وهو عقيد سابق في الجيش وإنترع منه شارة الحزب وشتمه "لخيانته".

وبعد انبلاج الفجر بقليل أسرع هتلر ورهطه قاصدين (قيسي) برتلٍ طويل من السيارات فوجدوا (روهم) وأصدقائه يغطون في نومهم العميق في فندق (هانسلباور) فايقتوهم بمنتهى الغلظة وجُرّ هابنس وضجيعه الذكر من فراشهما جرّاً الى الخارج ورميا بالرصاص حالاً بناءً على أمر هتلر. ودخل الفوهرر وحده - حسب رواية (أوتو ديترش) - غرفة (روهم) وراح يويخه تويخاً شديداً وأمر بأن يعاد

الى مونيخ ويوضع في سجن شتادلهايم Stadelheim حيث كان قد قضى مدة عقوبته لمساهمة مع هتلر في إنقلاب مشرب البيرة ١٩٢٣. بعد أربع عشرة سنة ملأى بالعواصف بلغ الصديقان مفترق الطرق. الصديقان اللذان كانا مسؤولين أكثر من غيرهما عن إقامة صرح الرايخ الثالث بكل فظائعه وفضائحه. ووقفاً جنباً الى جنب في ساعات الضيق والأزمات والهزيمة والخيبة رغم خلافاتهما الكثيرة. ها هو المقاتل العرييد المنافح عن هتلر والنازية ذو الوجه المغطى بالندوب يأتي الى نهاية حياته العنيفة.

وأمر هتلر - بأن يوتى بمسدس ويترك على المنضدة في سجن رفيقه القديم، كآخر عمل إرثاً أنه يتمشى مع الكرامة. فرفض روهم إستخدامه واشبع انه قال معقياً "إن تقرر قتلي فلينفذ هتلر ذلك بنفسه" وعندئذ وبحسب رواية شاهد عيان دخل غرفة روهم ضابطان من ال(إس. أي) وملازم في الشرطة [حكم عليه بالسجن ثلاثة وعشرين عاماً في ١٩٥٧ في محاكمات ما بعد الحرب في مونيخ] وأطلقا النار على (روهم) من مدى ذراع. قال الشاهد المذكور "أراد روهم أن يقول شيئاً، لكن ضابطي ال(إس. أي) انتهره وأمره بالسكوت. ثم وقف روهم بهيئة الإستعداد - كان عاري الجسم حتى الخصر - ووجهه مغم بالازدراء والاحتقار" (٣٢).

وهكذا لفظ أنفاسه الأخيرة، مات موتاً عنيفاً كما عاش عيشة عنيفة مزدرباً صديقاً طالما أعانه على بلوغ ما لم يبلغه ألماني من الرفعة والعظمة، مات وهو لا يدري ماذا يجري ولم يكون له فكرة واضحة عما يحدث، وتلك حقيقة ترقى الى اليقين ومثلّه مثلّ مئات آخرين دُبحوا في ذلك اليوم مثل (شنايدهوير) الذي قيل انه صرخ "ايها السادة لست أدري شيئاً عما يحصل، لكن سدّدوا بإحكام". لم يدر سبب ذلك خلا أنه عمل من أعمال الغدر لم يتوقعه من أدولف هتلر وهو الذي عاش طويلاً حياة الغدر، وارتكب كثيراً من أعماله بنفسه! وفي برلين كان (هملر وگورنك) منشغلين أيضاً. ألقى القبض على زهاء مائة وخمسين قائداً من ال(إس. أي) ووضعوا صفّاً واحداً أمام جدار في المدرسة العسكرية في (لخترفلده) لتحصدهم فصائل الاعداد بنارها وهي الفصائل التي تألفت من حرس هملر الأسود وشرطة گورنك الخاصة ومن بين القتلى (كارل ارنست) الذي قطعت رحلته لشهر العسل زمرة من الحرس الأسود المسلحين عند اقتراب سيارته من (بريمن) وجرح سائقه وعروسه. أما هو فحُرب

٣٢- كانت محاكمة مونيخ في أيار ١٩٥٧ أول فرصة يتكلم بها علناً شهود عيان فعليين مساهمون في حركة تطهير ٣٠ حزيران ١٩٣٤. الأمر الذي لم يكن ممكناً أثناء حياة الرايخ الثالث. كان (سب ديتريش Sepp Dietrich) الذي يتذكره المؤلف بشخصه كواحد من أشد الرجال وحشية في الرايخ الثالث. قد قاد حرس هتلر الخاص من ال(إس. أي) في ١٩٣٤. واشرف على تنفيذ اعدامات سجن شتادلهايم. وارتفع الى رتبة (كولونيل جنرال) في "Waffen S. S" أثناء الحرب وحكم عليه بالسجن خمسة وعشرين سنة لمساهمة في قتل أسرى الحرب الأمريكيين في اثناء معركة بولك Bulge ١٩٤٤ واطلق سراحه بعد عشر سنوات وجيء به الى مونيخ سنة ١٩٥٧. وحكم عليه في ١٤ أيار بالسجن ثمانية عشر شهراً لمساهمة في تطهير ٣٠ حزيران ١٩٣٤. وكان حكمه وحكم (ميخائيل ليبهارت) الذي ثبت انه كان واحداً من ضابطي الحرس الأسود اللذين قتلوا روهم فعلاً أول عقوبتين يحكم بهما جلادان نازيان ساهما في حركة التطهير.

حتى أفقد الوعي وحمل بالطائرة الى برلين ليلقى حتفه. ولم يكن رجال العاصفة الوحيدة الذين سقطوا صرعى في يوم الأحد الدامي. ففي صبيحة الثلاثين من حزيران قرعت زمرة من الحرس الأسود ببيزاتها الرسمية جرس باب منزل (الجنرال فون شلايخر) الريفي في ضواحي برلين وما ان فتح الجنرال الباب حتى سقط مضرباً بدمائه ومات في الحال، وعندما تقدمت زوجته الى الأمام صرعت هي الأخرى في الحال [كان قد تزوج قبل ثمانية عشر شهراً، بعد عزوبة طويلة] ولقي المصير نفسه الجنرال كرت فون بريدوف Kurt Von Bredow صديق شلايخر الحميم في تلك الأمسية. وقبض على (كريگور شتراسر) في منزله ببرلين بعد ظهر يوم السبت وقتل بعد ساعات قليلة في سجن (برنز البرخت شتراسه) Prinz Albrechtstrasse، بناءً على أوامر شخصية من غورنك.

وكان باين أسعد حظاً فقد نجا بحياته. إلا أن مكتبه اقتحمته زمرة من الحرس الأسود وعذبوا به وقلبوا عاليه سافله وقتلوا رئيس سكرتيريه (بوسه) وهو جالس وراء مكتبه. وقتل (إدغار يونك) موضع ثقته ومساعدته في السجن، وكان الكشتاپو قد اعتقله قبل أيام. وصرع مساعدته الآخر (أريخ كلاوسنير) رئيس منظمة العمل الكاثوليكي في مكتبه بوزارة المواصلات. أما موظفو مكتبه الباقون ومنهم البارونة (شتوتزنگن Stotzingen) فقد حملوا الى معسكر إعتقال وعندما ذهب باين الى غورنك محتجاً. لم يكن لهذا مجال لفارغ الكلام في ذلك الوقت، ويذكر باين أن هتلر دفعه دفعاً الى الخارج واحتجزه في بيته وأحاطه بسيج من الحرس الأسود الشاكي السلاح وقطع تلفونه ومنع من الإتصال بالعالم الخارجي بأي صورة كانت - وهو اذلال وتحقير اضافي ابتلعه نائب المستشارية الألمانية بأحسن ما يمكن. ففي غضون أقل من شهر لطخ نفسه بعار قبوله من النازيين قتلة أصدقائه وظيفته وزير مفوض في النمسا حيث كان النازيون قد قتلوا المستشار دلفوس Dolfuss قبل فترة وجيزة.

لم يعرف قط عدد الذين راحوا ضحية التطهير الدموي. لقد أعلن هتلر في خطبته المؤرخة ١٣ تموز أن واحداً وستين شخصاً قتلوا رمياً بالرصاص منهم تسعة عشر "ضابطاً كبيراً من ال(إس. أي)", ومات ثلاثة عشر "وهم يقاومون أمر القبض" وأن ثلاثة "إنتحروا" مما يجعل المجموع الكلي سبعة وسبعين. أن "الكتاب الابيض عن التطهير" الذي اصدره المهاجرون في باريس يقدر عدد القتلى بأربعمائة قتيل وقتيل واحد إلا أنه يذكر بالأسماء مائة وست عشرة ضحية فقط. وفي محاكمة مونيخ ١٩٥٧ أعطي رقم "أكثر من ألف".

قتل الكثير بدافع انتقام بحت. لأنهم وقفوا ضد هتلر في الماضي. وصرع آخرون كما يبدو لأنهم يعرفون الكثير مما لا ينبغي معرفته. وقتل واحد على أقل تقدير لوقوع إلتباس في هويته. ووجدت جثة (غوستاف فون كاهر) [الذي تحدثنا قبلاً عن كيفية قمعه لإنقلاب مشرب البيرة عام ١٩٢٣، وكان قد تقاعد واعتزل السياسة منذ وقت طويل] في مستنقع قرب (داخاو) وقد ضرب حتى الموت بفأس على ما يبدو لم ينسه هتلر ولم يغفر له. ووجدت جثة الأب (برنهارد شتمپفل) من الأخوية

الهيرونيمية- في غابة هارلاشنيك Harlaching قرب مونيخ مكسورة الرقبة وقد استقرت في القلب ثلاث رصاصات ويذكر القاريء مما سبق أنه ساعد في تأليف (كفاحي) ثم راح بالأخير يتكلم كثيراً ربما عن معلوماته ومعرفته بالأسباب التي دفعت (گيلي راوبال، حبسية هتلر) الى الانتحار. يقول هايدن إن عصابة الإغتيال التي قتلته كانت بقيادة (اميل موريس) المحكوم السابق الذي كانت له علاقة حب جنسية (بگيلي راوبال) ايضاً. ومن أولئك "الذين يعرفون الكثير" ثلاثة من رجال ال(إس. أي) يعتقد أنهم شركاء أرنست في إشعال النار بالرايخشتاغ صرعوا مع ارنست أيضاً.

حادثه إغتيال أخرى جديرة بالذكر هنا. في الساعة السابعة والدقيقة العشرين من مساء ٣٠ حزيران كان الدكتور قبلي شميد Willi Schmid وهو ناقد موسيقي شهير لصحيفة "مونشن نويسته ناخريشتن Muenchener Neueste Nachrichten" اليومية الواسعة الانتشار يعزف على آلة "الچيلو" في غرفة عمله في حين انشغلت زوجته في تهيئة العشاء واولادها الثلاثة واعمارهم تسع سنين وثمان واثنتان يلعبون في غرفة الجلوس بشقة الأسرة في شاكشتراسه Schackstrasse بمونيخ. فقرع جرس الباب ودخل أربعة من الحرس الأسود واخذوا الدكتور (شميد) بدون كلام وانصرفوا. وبعد أربعة أيام أعيدت جثته في تابوت بصحبة أوامر من الكشتايبو تمنع فتح التابوت مهما كانت الدواعي. لقد إلتبس الأمر على الحرس الأسود فظنوا الدكتور وبلي شميد الذي لا علاقة له بالسياسة أبداً، هو (وبلي شميت) القائد المحلي لل(إس. أي) الذي اوقف في الوقت نفسه من قبل فصيلة أخرى من الحرس الأسود وقتل (٣٣).

أكان يوجد مؤامرة ما على هتلر؟ لم يكن ثم دليل غير زعمه وكلمته المتمثلة في البيان الرسمي وخطبة الرايخشتاغ في الثالث عشر من تموز ولم يقدم خطأ واحداً من الأدلة الثبوتية فيه. صحيح ان روهم لم يكتف نواياه في جعل ال(إس. أي) نواة جيش جديد يقوم هو على رأسه. ولاشك في انه كان متصلاً بشلايخر لتنظيم خطة بدأ كلاهما ببحثها عندما كان الجنرال مستشاراً. ولعله أدخل (گريگور شتراسر) شريكاً- حسبما ادعى هتلر. لكن أحاديث كهذه لاترقى الى مرتبة الخيانة. فقد كان هتلر نفسه على إتصال (بشتراسر) وشقيقه (أوتو) يروي أن هتلر عرض عليه في أوائل حزيران منصب وزير الإقتصاد.

في مبدأ الأمر اتهم هتلر كلاً من روهم وشلايخر بأنهما طلبا عون "دولة أجنبية" ويقصد فرنسا بلاشك. واتهم الجنرال (فون بريدوث) بقيامه بدور الوسيط في "السياسة الخارجية" وهو أحد جوانب خيانتها المزعومة. ومع انه كرر التهم في خطبة الرايخشتاغ وعرض متهمهما "بدبلوماسي أجنبي" [ليس غير فرانسوا پونسيه سفير فرنسا] وأوضح ان إجتماعه بشلايخر وروهم لم يكن "فيه ضررٌ ما"

٣٣- روت (كاتي ايفا هويرلن Kate Eva Hoerlin) زوجة (قبلي شميد) مأساة مقتل زوجها بافاده معززة بالقسم في ٧ تموز ١٩٤٥ في (بنكهامتون- نيويورك) قد إكتسبت الجنسية الأمريكية في ١٩٤٤. ولأجل إسكات هذا العمل البربري والحيلولة دون انتشاره زار رودلف هس الأرملة واعتذر لها عن "الخطأ" وأجرى لها راتباً تقاعدياً من الحكومة الألمانية. نشرت الافادة في وثائق نورمبرگ: ل: ١٣٥ [مؤامرة النازيين... ج ٧ الص ٨٨٣-٨٩٠]

فقد عجز عن اثبات إتهاماته. وفي قوله "يرتكب أي ألماني مسؤول في الرايخ الثالث فعلاً إجرامياً بمجرد زيارته دبلوماسيين أجانب دون علم مني" يبدو كم كان ضعيف الحجة: "عندما يعقد ثلاثة من الخونة في ألمانيا... اجتماعاً سياسياً أجنبياً... ويصدرون أمراً يحول دون ان تصلني عن اجتماعهم هذا كلمة واحدة. فأني سأمّر بقتل أمثال هؤلاء الرجال وان ثبت بالدليل ان هذا الاجتماع المكتوم عني لم يجر فيه كلام أكثر من الحديث عن حالة الجوّ والمسكوكات القديمة وأمثال هذه المواضيع".

ولما احتج (فرانسوا بونسيه) احتجاجاً شديداً على فرية مساهمته المزعومة في "مؤامرة روهم" أبلغت وزارة الخارجية الألمانية الحكومة الفرنسية أن الإتهام كله لا أساس له من الصحة وان الحكومة الألمانية ترغب أن يبقى السفير في منصبه والواقع -والمؤلف شاهداً- ان فرانسوا بونسيه بقي ذا علاقة شخصية طيبة بهتلر أكثر من أيّ سفير آخر لدولة ديمقراطية.

وفي أول بيان يجمد الدم في العروق أذاعه (أوتو ديتريش) رئيس المكتب الصحفي للزعيم، بل وفي خطبة هتلر نفسها أمام الرايخشتاغ. كان الحديث مستفيضاً عن التفسخ الخلقي في روهم وغيره من قادة جنود العاصفة القتلى. فأكد (ديتريش) أنه شهد إعتقال (هاينس) الذي كُيس مع ضجيع فتى (ويسي) انه لمنظر فظيع "يجلّ عن الوصف". وقال هتلر في خطبة ألقاها على بقية قادة ال(إس. أي) في مونيخ ظهر يوم ٣٠ حزيران بعد عمليات القتل الأولى مباشرة "هؤلاء الرجال يستحقون الموت بسبب تفسخهم الخلقي وحده.

على أن هتلر كان يعلم بهذا التفسخ الخلقي من البداية، من أيام الحزب الأولى. كان يعلم أن عدداً كبيراً من أقرب أصدقائه وأهم أتباعه هم منحرفون جنسياً وقتلة محكومون. ومن شائع القول مثلاً أن (هاينس) إعتاد إرسال رجال ال(إس. أي) يجوبون ألمانيا طولاً وعرضاً ليجدوا له معشوقين من الذكور يناسبون ذوقه. أمور لم يكتف هتلر بالإغضاء والتسامح فيها بل بالدفاع عنها. لقد حذر حزبه أكثر من مرة بآلاً يكون شديد التنطع في أخلاق الشخص الخاصة إن كان مقاتلاً متعصباً للحركة، والآن في ٣٠ حزيران ١٩٣٤ نجده يعترف باستنكاره وصدمته النفسية للتفسخ الخلقي في بعض أعوانه الأقدمين.

معظم القتل تم في عصر يوم الأحد الموافق ١ تموز، وطار هتلر الى برلين من مونيخ ليلة ذلك اليوم. وقام بدور المضيف في حفلة شاي اقيمت في حدائق قصر المستشارية. وفي يوم الإثنين شكره الرئيس هيندنبرك على "تصميمه الحازم وتدخله الشخصي البطولي، مما أدى الى استئصال الخيانة في مهدها وإنقاذ الشعب الألماني من خطر ماحق" وكذلك هنأ (گورنگ) على عمله "الناجح النشيط" في قمع "الخيانة العظمى" وفي يوم الثلاثاء قدم الجنرال فون بلومبرگ له تهنئة الحكومة التي شرعت حالاً في "تبرير" المذبحة وإعتبارها ضرورة وإجراءً حتمياً "للدفاع عن الدولة" وصادر بلومبرگ أيضاً أمراً يومياً للجيش يعبر فيه عن رضا القيادة العليا بالتغيير الذي طرأ على الوضع ويعد بإقامة "علاقات إحترام مع ال(إس. أي) الجديد".

من الطبيعي ولا شك أن يرحب الجيش بالقضاء على منافسه ال(إس. أي) ولكن ماذا عن الشعور بالكرامة، دعك من الشعور بالخلق الحسن حين لا تكتفي هيئة الضباط بالموافقة، بل تمتدح بشكل علني حكومة لقيامها بمذبحةٍ غير مسبوقه في تاريخ ألمانيا قتل خلالها عمداً وببرودة دم إثنان من كبار قادتها العسكريين هما الجنرال فون "شلايخر" والجنرال فون "بريدوف" ثم وصما بالخيانة؟ لم يرتفع بالإحتجاج على قتل الجنرالين بعد وصمهما بالخيانة العظمى غير صوتي الفيلد مارشال فون ماكزنن ذي الخمس والثمانين سنة، والجنرال فون "هامرشتاين" القائد العام السابق للجيش^(٣٤) هذا السلوك الذي ابدته هيئة الضباط كان لطخة سوداء في شرف الجيش، كذلك كان دليلاً على غباء وقصر نظر لا يمكن تصديقه.

عندما اعتبر الجنرالات، أعمال هتلر اللاقانونية الإباحية قضيتهم المشتركة، وضعوا أنفسهم في موضع تعذر عليهم معه الوقوف ضد أعمال النازي الإرهابية المقبلة ليس في داخل ألمانيا وحدها وإنما بعد عبورها الحدود وممارستها في البلاد الأخرى، بل حتى عندما وجهت الى أعضاء هيئتهم بالذات. ذلك لان الجيش أصبح يسند ادعاء هتلر بأنه أصبح القانون أو كما صاغ الأمر هو نفسه في خطبته أمام الرايخشتاغ في ١٣ تموز: "إن لأمني أي شخص، أو سألني لماذا لم ألجأ الى المحاكم الاعتيادية القضائية؟ فكل ما يمكنني قوله هو هذا: في هذه الساعة أنا مسؤول عن مستقبل ألمانيا وشعبها ولهذا كنت القاضي الأعلى (Abesster Gerichtsher) للشعب الألماني" واضاف هتلر عن الإجراءات الحازمة: "على كل فرد أن يعلم لما يستقبل من الزمن أنه إن رفع يده لضرب الدولة فسيكون مصيره "الموت الزؤام" هذا التحذير كانت أذرعتة ستمتد الى الجنرالات بعد عشر سنوات بالضبط والى حد ذلك اليوم عندما حاولت فئة منهم أكثر جراءة، رفع ايديهم ليضربوا "قاضيهم الأعلى".

زد على ذلك ان هيئة الضباط كانت تخادع نفسها في ظنّها أن يوم ٣٠ حزيران خلّصها الى الأبد من تهديد الحركة النازية لسلطانها التقليدي وإمتيازاتها. إذ حلّ الحرس الأسود (S. S.) محلّ جنود العاصفة. وفي ٢٦ تموز فصل الحرس الأسود عن ال(إس. أي) وأصبح مستقلاً وجعل هملاً قائده بإسم "رايخ فوهرر"، مسؤولاً أمام هتلر فقط. وتم ذلك كهديّة لقيامه بتنفيذ الإغتيالات. ولم يطل الزمن بهذه القوة الحسنة التدريب المخلصة جداً حتى أصبحت منافسة للجيش ونجحت من حيث أخفق رجال روهم ذوو القمصان الرمادية الخلقو الشياب.

وظلّ الجنرالات ساعتئذ على أتمّ ثقةٍ من الوضع. وبخاصة عندما كرّر هتلر في خطبة الرايخشتاغ بأن الجيش "سيبقى حامل السلاح الأوحّد". لقد تخلص المستشار من ال(إس. أي) بناءً على طلب

٣٤- واصل هذان القائدان الكبيران مجهودهما لتنقية اسمي شلايخر وبريدوف. ونجحا في حمل هتلر على الإقرار في إجتماع سري لقادة الحزب وقادة الجيش في ٣ كانون الثاني ١٩٣٥ ببرلين. ان مقتل الجنرالين كان "خطأ" وان يعلن أن أسميهما سيعادان الى سجل الشرف في لوائيهما. إن "ردّ الإعتبار" هذا، لم ينشر في ألمانيا. إلا أن هيئة الضباط اعتبرت المسألة منتهية (انظر هويلر بينيت ص ٣٣٧).

القيادة العليا، بعد أن تجاسر على تحدّي سلطانه التقليدي. وحان الوقت الآن ليفي الجيش بالجزء الذي تعهد به في "ميثاق الطراد دويتشلاند".

-٧-

وفاة هندنبرگ

ظل هندنبرگ الصلب العود على ما يبدو يقترب من النهاية طوال فصل الصيف. وفي التاسعة من صباح اليوم الثاني لشهر آب حضرته الوفاة وهو في السابعة والثمانين. وبعد ثلاث ساعات أعلن: بموجب قانون شرعته الوزارة في "اليوم السابق" أن وظيفتي المستشارية والرئاسة قد دمجتا وأن أدولف هتلر قد تسلم سلطان رئاسة الدولة والقائد العام للقوات المسلحة. وألغي عنوان "رئيس الجمهورية". وان هتلر سيعرف من الآن فصاعداً باسم "الفوهرر ومستشار الرايخ". لقد أصبحت دكتاتوريته تامة. ولكي لا يدع هتلر أي ثغرة فيها انتزع قسماً من ضباط الجيش وأفراد القوات المسلحة كلها بالولاء له، لا لألمانيا ولا للدستور الذي خرق أحكامه خرقاً صريحاً بعدم الإعلان عن إجراء إنتخاب خلف لهندنبرگ، بل بتعيين نفسه واليك صيغة اليمين:

"أحلف هذا اليمين المقدس بالله. أني سأكون مديناً لأدولف هتلر بالطاعة المطلقة غير المشروطة بوصفه زعيماً للرايخ الألماني وشعبه والقائد الأعلى للقوات المسلحة. وان أكون مستعداً -كجندي باسل- لبذل حياتي في سبيل هذا القسم وفي أي وقت".

ومنذ آب ١٩٣٤ فصاعداً، ارتبط الجنرالات الذين كانوا يستطيعون حتى هذا التاريخ القضاء على النظام النازي بسهولة لو شاؤوا، ارتبطوا بشخص أدولف هتلر واعترفوا به أعلى سلطة شرعية في البلاد وشدوا أنفسهم بيمين الطاعة والإخلاص، الذي اعتبروه رباط شرف لا يمكن الخنث به في كل الظروف مهما كان عاره عليهم وعلى وطنهم كبيراً. كان قسماً أقلق ضمائر عدد قليل جداً من كبار الضباط فيما بعد، عندما انطلق زعيمهم المعترف به في سلوك سبيل لا يمكن أن يؤدي الى غير الدمار الوطني فعارضوا فيه. بل كان عهداً ساعد عدداً أكبر من الضباط على الاعتذار لأنفسهم عن أية مسؤولية شخصية في تلك الجرائم التي لا يرقى اليها الوصف، مما ارتكبه تنفيذاً لأوامر القائد الأعلى. بعد أن اتضح لهم معدنه الحقيقي في مذبحه ٣٠ حزيران. واحدة من ضلالات هيئة الضباط الألمان المذهلة بخصوص هذه المسألة، متأثيئة من التصادم بين الولاء و"الشرف" وهي كلمة (يمكن لهذا المؤلف أن يشهد من تجاربه الخاصة) أنها لم تترك شفاههم، ولديها عندهم مفهوم عجيب. فالت الى أن يلحقوا العار بأنفسهم في أكثر الأحيان بسبب محافظتهم على كلمة الشرف. ومرغوا شرفهم في الوحل كأشخاص من بني البشر ولطخوا قوانين هيئتهم الخلقية بوصمة شنعاء.

أعلن (الدكتور غوبلز) عند وفاة هندنبرگ بوصفه وزير الدعاية، أنه لم يعثر على وصية أخيرة أو عهد للفيلد مارشال وينبغي أن يفترض عدم وجود أي منهما. ولكن وصية هندنبرگ السياسية ظهرت فجأة في ١٥ آب قبل أربعة أيام من إجراء الإستفتاء العام للطلب من الشعب الألماني الموافقة على تولي هتلر وظائف رئاسة الجمهورية. وسلّمت الى هتلر و... باين هو ولا غيره سلّمها له. وكانت كلمات المديح المزجاة لهتلر عتاداً قوياً لـغوبلز في آخر أيام معركة الإستفتاء وعززت في آخر ليلة للتصويت بإذاعة خطاب للعقيد أوسكار فون هندنبرگ.

"رأى والدي بنفسه في أدولف هتلر خلفه المباشر في رئاسة الدولة الألمانية واني أعمل بحسب نوايا الوالد الخاصة عندما أطلب من كل الألمان رجالاً ونساءً التصويت بالموافقة على تسليم سلطات والدي الى الفوهرر، مستشار الرايخ^(٣٥).

يكاد يكون من الثابت أن هذا كذب في كذب. لأن هندنبرگ - بناءً على احسن ما تيسر من الأدلة- قد اوصى كـرغبة أخيرة له- بإعادة الملكية بعد وفاته. هذا الجزء من الوصية عمد هتلر الى اخفائه. لقد كشف بعد الحرب عن جانب إن لم نقل عن كل الغموض الذي كان يكتنف حقيقة وصية الرئيس الشيخ، حين استجوب باين في نورمبرگ وبعد ان نشر مذكراته. وفي الوقت الذي لم تكن أقوال باين منزهة، أو شهادته خالية من الطعون، أو لعله لم يخبر بكل ما يعرف على أن شهادته مما لا يمكن تجاهله. فهو نفسه وضع النقاط الأولى لوصية هندنبرگ الأخيرة بناءً على تكليف الفيلد مارشال كما يزعم:

"[قال في مذكراته] كانت صيغتي توصي بإقامة ملكية دستورية بعد وفاته. ونوهت بصراحة ان الجمع بين المستشارية ومنصب رئاسة الجمهورية غير مستحب. ولأجل أن لا أغيظ هتلر فقد أدرجت عبارات تنم عن الرضا ببعض الإنجازات الايجابية التي تمت في ظلّ النظام النازي".

وقدم باين مشروع وصيته الى هندنبرگ في شهر نيسان ١٩٣٤. ويستطرد قائلاً "بعد بضعة أيام سألني القدوم اليه وابلغني انه قرر ألا يوافق على الصيغة بالشكل الذي اقترحته. لقد شعر... أن الوطن بأسره هو الذي يقرّر ما يريد بخصوص الدولة التي يفضلها. ولهذا ينوي أن يعتبر وقائع خدماته بمثابة وصية، وتوصياته المتعلقة بعودة الملكية، ستدون بشكل رغبات أخيرة برسالة خاصة موجهة الى هتلر. وهذا بالطبع يعني أن وجهة النظر التي ضمنتها مشروعي للوصية قد انتهت أمرها حيث أن التوصية بإعادة الملكية لن توجه الى الشعب، وهو أمرٌ جنى منه هتلر كلّ الفائدة فيما بعد".

لم يكن ثم ألماني مثل باين على وقوف تام بكيفية انتفاع هتلر من ذلك.

"عندما عدتُ الى برلين بعد تشييع جثمان هندنبرگ في مدينة تاننبرگ Tannenberg. اتصل بي هتلر تلفونياً وسألني هل وجدت وصية سياسية لهندنبرگ وهل لدي علم بمكانها؟ فقلت سأسأل أوسكار

٣٥- مما يجلب الانتباه وما له دلالة الخاصة ان هتلر رقى (أوسكار) الى رتبة (ميجر جنرال) في ذلك الوقت (انظر ما سبق).

فون هندنبرگ. فأجاب هتلر سأكون جدّ ممتنّ إن ضمنت وصول هذه الوثيقة الى يدي بأسرع ما يمكن. وعندئذ طلبتُ من (كاجنيك Kagenek) سكرتيري الخاص أن يسافر الى (نودك) ويسأل نجّل هندنبرگ عند وجود وصية وهل بإمكانني تسلمها لا يصلها الى هتلر؟ ولما لم اكن قد رأيت هندنبرگ منذ تركه برلين في نهاية أيار فلا ادري هل أتلف أوسكار الوصية أم ظلّ محتفظاً بها.

وجد أوسكار، الوثيقة بصورة مفاجئة، في حين لم يعثر عليها بعد وفاة والده مباشرة. ولم يتطلب ذلك مقدرة خارقة منه كما شهد بذلك الكونت فون شولنبرغ Von Schulenberg مرافق الرئيس هندنبرگ؛ في شهادته أثناء محاكمة باين في محكمة التطهير النازي. فقد كشف أن الرئيس هندنبرگ وقع في ١١ أيار وثيقتين: وصيته، وآخر رغباته. الأولى معنونة الى "الشعب الألماني" والثاني موجهة الى "مستشار الرايخ". وأخذ شولنبرغ الوثيقتين معه عندما ترك هندنبرگ برلين في آخر رحلة له الى (نودك). ويقول باين أنه لم يعلم بذلك في حينه. على أن سكرتيره ما لبث أن عاد من (نودك) بالوثيقتين في ظرفين مختومين وسلمهما أوسكار فون هندنبرگ له. وفي ١٥ آب سلمهما باين لهتلر في (برختسگادن).

"قرأ هتلر الوثيقتين بكلّ دقة وتباحثنا في مضامينهما. كان واضحاً أن توصيات هندنبرگ فيهما التي تعبر عن آخر رغباته، تخالف نوايا هتلر. ولهذا فقد استفاد من وجود عنوان "الى مستشار الرايخ أدولف هتلر" على الغلاف. قال "هذه التوصيات التي كتبها الرئيس الراحل تخصني بالذات. وسأقرر فيما بعد هل سأسمح بنشرها، ومتى سيكون ذلك". ورجوته عبثاً أن ينشر الوثيقتين معاً. ولم يسلم الى مدير مكتبه الصحفي للنشر غير سرد هندنبرگ لخدماته التي تضمنت مديحاً بهتلر ماذا كان مصير الوثيقة الثانية التي توصي بان يعود آل هوهنزولن الى رأسه الدولة لا هتلر؟ لاقول باين شيئاً، ولا يعرف شيئاً؛ وبما انه لم يتم العثور عليها بين مئات من أطنان الوثائق السرية التي ضبطت بعد هزيمة النازي فعلى الأرجح أن هتلر أتلفها حالاً.

وربما لن تخلف تأثيراً لو وجد هتلر في نفسه الشجاعة والأمانة لنشرها. فقبل موت (هندنبرگ) بيوم واحد حمل هتلر الوزارة على سنّ قانون يمنحه كل صلاحيات الرئيس. واما ان هذا القانون غير شرعي فلا أهمية لذلك في ألمانيا حيث أصبح نائب العريف النمساوي الآن القانون نفسه وعدم دستوريته ومنافاته للشرعية واضح للعيان. في ١٧ كانون الثاني ١٩٣٢ على عهد حكومة شلايخر صادق الرايخشتاغ بأغلبية الثلثين اللازمة على تعديل الدستور يقضي بتنصيب رئيس محكمة النقض والإبرام بدلاً من المستشار - كرئيس مؤقت للجمهورية. حتى تجري إنتخابات جديدة للرئاسة. وفي حين يعطي (قانون التمكين) الذي هو الأساس الشرعي لدكتاتورية هتلر - الحق للمستشار في سن القوانين التي تخالف أحكام الدستور، فهو في الوقت نفسه يمنع بصراحة أيّ تصدّ لصلاحيات الرئاسة وسلطاتها.

ولكن أيّ أهمية للقانون الآن؟ باين لا يابه بالأمر، فقد قبل مسروراً ان يخدم هتلر وزيراً مفوضاً في

النمسا وأن يذلل المصاعب ويزيل الجفاء المتسبب عن مقتل المستشار دلفوس على أيدي النازيين. والجنرالات غير مهتمين أيضاً فقد راحوا يعملون بدأب وشوق لبناء جيش هتلر. ورجال الصناعة أيضاً لا يهتمهم الأمر فقد انشغلوا بحماسة في صناعتهم الرائجة المربحة بقرار إعادة التسليح. اما المحافظون من رجال المدرسة القديمة رجال "انقيا اطهار" كالبارون ثون نيوراث وزير الخارجية والدكتور شاخت محافظ بنك الرايخ المركزي فلم يستقيلوا. لم يستقل احد وفي الواقع لم يتحرج الدكتور شاخت من تولي منصب آخر هو وزارة الإقتصاد في ٢ آب وهو اليوم الذي استولى هتلر على سلطات الرئيس الراحل وسلطات الشعب الألماني في ١٩ آب خرج ٩٥٪ من أولئك المسجلين في قوائم النازيين ليقترعوا. وصوت ٩٥٪ منهم، ويبلغ عددهم ثمانية وثلاثين مليوناً بالموافقة على ايداع السلطة المطلقة لهتلر. أربعة ملايين وربع مليون ألماني وجدوا في أنفسهم الشجاعة- أو الرغبة في التصويت به(لا).

لا عجب أن كان هتلر يشعر شعور الواصل عندما إلتأم مؤتمر الحزب النازي في نورمبرك في الرابع من أيلول. ولقد راقبته في صبيحة اليوم الثاني وهو يسير كالإمبراطور الظافر في الممر الأوسط لقاعة لويتبولد Luitpold العظمى المزدانة بالأعلام في حين كانت الفرقة الموسيقية تصدح بالنشيد العسكري بادنفايلر Badenweiler وقد ارتفع ثلاثون ألف ذراع بالتحية النازية. وبعد دقائق قليلة استوى جالساً بفخر في وسط المسرح الكبير وقد كتف يديه وإلتمعت عيناه. وهو ينصت الى (الغاولايتير) أدولف فاكنر قائد الحزب في بافاريا يقرأ بيان الفوهرر.

"لقد تقرر طرز الحياة الألمانية بشكل نهائي للسنوات الألف المقبلة. إن امتحان الأعصاب للقرن التاسع عشر قد وجد نهايته بنا ولن تكون ثورة أخرى في ألمانيا للسنوات الألف المقبلة!" ولما كان بشراً من بني آدم فلن يعيش ألف سنة. إلا أنه سيحكم مادام حياً هذا الشعب العظيم حكماً أوتوقراطياً غشوماً مطلقاً لم يعرفوا مثله من قبل. ليس هنالك الرئيس الكلي التوقيع هندنبرك ليقف حائلاً دون سلطته. والجيش هو في يده مرتبط بيمين الولاء والطاعة لايسهل على جندي ألماني الحث به في الواقع. كل ألمانيا وكل الألمان كانوا ملك يديه الملطختين بالدماء لاسيما بعد أن تمّ التخلص من آخر المعارضين وإختفاء كل المناوئين الى الأبد.

وهتف يقول للمراسلين الأجانب بعد نهاية أسبوع مرهق من الخطب والإستعراضات، والطقوس الوثنية وفروض العبادة الحماسية مما لم يرها المؤلف تقام لشخصية سياسية من قبل: انه رائع! لقد قطع أدولف هتلر طريقاً طويلاً من أزقة (قبيينا) وهو الآن في الخامسة والأربعين فقط. وتلك هي البداية وان عاد المرء الى ألمانيا بعد موت الجمهورية فلن يخطيء رؤية حقيقة واضحة، وهي ان هتلر مهما كانت جرائمه ضد البشرية- قد اطلق قوة ديناميكية ذات طاقة لاتحد. كانت كامنة في الشعب الألماني مدة طويلة ووجهها الى غاية اوضحها في صحائف (كفاحي) وفي مئات الخطب، مرت دون أن يلاحظها أحد أو يعبا بها وسخر منها العديد من الناس- بل كل الناس تقريباً خارج الرايخ الثالث وداخله.

الفصل الرابع

الحياة في الرايخ الثالث

١٩٣٣-١٩٣٧

- ١ -

في حدود هذا الزمن ١٩٣٤- وكان آخر الصيف قدمت لأعيش وأعمل في الرايخ الثالث. وكان هنالك الكثير مما يدهش، ويحير ويقلق المراقب الأجنبي. كان يبدو أن الأغلبية الساحقة من الألمان غير مكترثة بمصادرة حرياتها الشخصية. بأن كثيراً من ثقافتهم قد حُطمت واستبدلت ببربرية رعناء وأن حياتهم وعملهم نظماً تنظيماً عسكرياً الى حد لم يبلغه شعب تعود أجيالاً متعاقبة على الكثير من التنظيم العسكري.

في الواقع كان الرعب الذي ينشره (الغشتاپو) والخوف من معسكرات الاعتقال يجثم في اعماق النفوس. فهي ابدأً تنتظر أولئك الذين يخرجون عن الصف، أو من كان منهم شيوعياً أو اشتراكياً أو ليبرالياً زائداً عن الحد أو نصير سلم. أو يهودياً. ما برحت عملية التطهير الدموية للثلاثين من حزيران تقوم إنذاراً على القسوة التي يمكن ان يبلغها الزعماء الجدد. ومع ذلك فان الرعب النازي في السنوات الاولى لم يكن يصيب كثيراً من الألمان نسبةً الى ما اصابهم في المستقبل. والمراقب القادم الى ألمانيا حديثاً يستغرب نوعاً ما حين يرى سكان هذه البلاد وكأنهم لا يشعرون بالضغط والعبودية اللتين تمارسهما هذه الدكتاتورية العاشمة المستهترة. بالعكس فقد كانوا يساندون بها بحماسة لا زيف فيها ولا تصنع. لقد أشاعت فيهم -بشكل ما- أملاً جديداً وثقة جديدة وإيماناً عجيباً بمستقبل بلادهم.

كان هتلر يصفّي الماضي بكلّ خيباته وآلامه. كان يحرر ألمانيا خطوةً خطوةً وبسرعة (كما سنرى تفصيلاً) من كل قيود فرساي ويحيّر الحلفاء المنتصرين ويصيبهم بالخزي ويجعل ألمانيا دولة قوية عسكرياً وهذا ما كان يريده معظم الألمان وهم مستعدون لبذل التضحيات التي يريدها الزعيم منهم لتحقيق تلك الامنيات: التضحية بالحرية الشخصية، التشف في الطعام ["المدافع قبل الزبدة"] والعمل الشاق الدائب. ما جاءت سنة ١٩٣٦ حتى حلت مشكلة البطالة حلاً كاد يكون كاملاً وعاد

كُلَّ فرد تقريباً مكباً على عمله^(١) والمرء يسمع العمال الذين حرموا من نقاباتهم وحرية التنظيم يمزحون وأمامهم صحاف العشاء مملوءة طعاماً؛ قائلين: في عهد هتلر على الأقل لم يعد هناك حرية الجوع! وكان شعار! Gemeinnutz vor Eigennutz (المصلحة العامة قبل المصلحة الخاصة!) هو شعار النازيين الشائع في تلك الأيام ومع ان عدداً كبيراً من زعماء الحزب وفي مقدمتهم غورنك؛ كانوا يكسبون المال في خزائنهم ورجال الصناعة يزدون في ارباحهم كثيراً فلم يكن ثم شك في ان الجماهير قد انطلت عليها لعبة "القومية الاشتراكية" التي وضعت في الظاهر مصلحة المجتمع فوق منافع الفرد. ان القوانين العنصرية التي طردت الساميين من المجتمع الألماني. بدت للمطلع الأجنبي ردةً الى عهد البداوة تفرز منها النفس، لكن لما كانت نظريات النازي العرقية ترفع الألمان الى المرتبة العرقية العليا، وتجعلهم ملح الأرض. لم ير الألمان في تلك القوانين ما يؤاخذ عليه ولم يمجها ذوقهم. يلقي المرء عدداً ضئيلاً من الألمان- شيوعيين أو اشتراكيين أو أحراراً سابقين أو مسيحيين اتقيا من المدرسة المحافظة القديمة فيجدهم مشمئزين أو حتى ثائرين للإضطهاد الذي يلقاه اليهود، ومع انهم كانوا يساعدون في تخفيف هذه النوائب في عدد من القضايا الفردية، إلا انهم عجزوا عن القيام بأي عمل لإيقاف هذا المد، وماذا يعملون؟ كثيراً ما ينقلون اليك عبء السؤال نفسه وهو ليس من الاسئلة التي يسهل الجواب عنها.

كان الألمان يسمعون تنويهاً غامضة عن طريق اذاعتهم وصحفهم الخاضعة للرقابة بجفاء العالم الخارجي لهم، إلا انهم لاحظوا ان ذلك لم يمنع الأجانب من التقاط زرافات الى الرايخ الثالث، أو للتمتع بحسن ضيافته كما يبدو فقد كانت ألمانيا النازية مفتوحة ومعرضة للرؤية أكثر بكثير من الإتحاد السوفياتي^(٢).

وانتعشت مصالح السياحة وجلبت الى البلاد مبالغ طائلة من العملة الأجنبية التي كانت في أمس الحاجة اليها. يظهر أن زعماء النازي ليس لديهم ما يخفونه عن اعين الغرباء والأجنبي يستطيع أن يدخل ألمانيا مهما كان خصماً للنازية. وبإمكانه أن يرى ويتدارس كل ما يريد الإطلاع عليه بإستثناء معسكرات الإعتقال والمنشآت العسكرية [وهذا الحظر سار في جميع البلاد الأخرى]. فيدخل اليها الكثير ويعود منها الكثير، إن لم يعودوا مهتدين، فعلى الأقل متسامحين بـ"ألمانيا الحديثة" معتقدين

١- هبط عدد العاطلين المسجلين للفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٣ و١٩٣٧، الى أقل من مليون واحد. بعد ان كان ستة ملايين عاطل.

٢- خلافاً للإتحاد السوفياتي. سمحت ألمانيا النازية لكل مواطنيها بالسفر الى الخارج ما عدا آلاف قليلة. سجلوا في كتاب الشرطة السرية الأسود، وإن كان هذا السماح مقيداً شديداً بسبب قلة النقد الأجنبي. مع ذلك لم تعد قيود العملة بأكثر صعوبة مما كانت عند المواطنين الانكليز في ١٩٤٥. والمسألة هي أن الحكام النازيين لم يكونوا خائفين أن يتلوث الألماني العادي بأفكار العدا للنازية إن هو زار البلاد الديمقراطية.

أنهم رأوا على حدّ قولهم: "إنجازات إيجابية". ولم يشذ عنهم حتى ذوو البصيرة والنظر البعيد، مثل (لويد جورج) الذي قاد إنكلترا الى النصر في حربها مع ألمانيا سنة ١٩١٨. والذي دخل تلك السنة معركة الإنتخابات بشعار "اشنقوا القيصر". فقد زار هتلر في أوبرسالزبرگ ١٩٣٦ وعاد مسروراً معجباً بالفوهرر ومدحه علناً ووصفه "بالرجل العظيم" الذي لايعوزه النظر الثاقب والإرادة القوية لحلّ مشاكل الشعب الإجتماعية العصرية وفي مقدمتها البطالة، وهي دملة مازالت تقذف بقيحها في إنكلترا وبخصوص عدم رؤيته ما يجتذب نظره في بلاده في هذا الأمر الخطير وهو قائد حزب الأحرار العظيم زمن الحرب وصاحب برنامج "نستطيع التغلب على البطالة".

ومنحت دورة الالعاب الأولمبية ببرلين في آب ١٩٣٦ فرصة النازيين الذهبية ليدهشوا العالم بما حققوه من أعمال في الرايخ الثالث. فبلغوا في ذلك الغاية. أزيلت لافتات "اليهود غير مرغوب فيهم" "Juden unerwünscht" بكل هدوءٍ من الدكاكين والفنادق ومشارب البيرة ومحلات التسلية العامة وتوقف إضطهاد المسيحية واليهودية بصورة مؤقتة. وظهرت البلاد في أحسن سلوكٍ لها ولم تشهد دورة أولمبية سابقة تنظيماً رائعاً ولا مظهر إسراف وبذخ ومآدب حافلة كما حظيت به هذه الدورة. وأقام كل من غورنك وريبنتروپ وگوبلز مآدب فخمة للزوار الأجانب- وكانت "الليالي الإيطالية" التي نظمها وزير الدعاية في فاوئنسلف Pfaueninsel قرب فانسف Wannsee تحتضن أكثر من ألف مدعوٍ الى العشاء في جوٍّ ومشاهد تذكر المرء "بألف ليلة وليلة" العربية. وانبهرت عقول الزوار وخصوصاً أولئك الذين جاؤوا من إنكلترا وأمريكا- بما شاهدوا؛ الظاهر إنه شعب سعيد، موفور الصحة، رقيق الشمائل موحد تحت لواء هتلر، صورة تختلف تماماً عما استخلصوه من الأنباء الصحفية المرسلة من برلين! مع ذلك، فتحت هذه المظاهر البراقة ما كان يختفي عن عين السائح عملية تحول وضيعة في الحياة الألمانية لاتخفيها عنه تلك الأيام الأولمبية الرائعة في أواخر الصيف في برلين في حين تخطئها أعين أغلب الألمان، أو يتقبلونها بإستسلامٍ عجيبٍ تحفل له النفس.

بالطبع ليس ثم شيء مستور من القوانين التي إستنها هتلر ضد اليهود، أو من الإضطهادات التي تسمح بها الحكومة ضد أولئك الأشقياء من البشر. إن ما أطلق عليه "قوانين نورمبرگ للخامس عشر من أيلول ١٩٣٥" جردت اليهود من الجنسية الألمانية وحقوق المواطنة وجعلتهم مجرد "عبيد" أو رعية. كذلك حظرت عليهم التزاوج مع الآريين فضلاً عن العلاقات الجنسية خارج نطاق الزوجية فيما بينهما. ومنعتهم من إستخدام خادم ألمانية يقل سنّها عن خمسة وثلاثين عاماً. وفي السنوات القلائل التالية صدر زهاء ثلاثة عشر نظاماً ومرسوماً ملحقاً بقوانين نورمبرگ تتضمن تجريد اليهودي من كل صفة بشرية. إلا أن اليهود كانوا في صيف العام ١٩٣٦. عندما كانت ألمانيا البلاد المضيقة للألعاب الأولمبية تبهر الزوار الغربيين، قد طردوا إما بقوة القانون أو بفضل الإرهاب [كثيراً ما يسبق آخرهما

أولهما [من الأعمال والوظائف الحكومية أو الخاصة حتى أصبح نصفهم على أقل تقدير لا يجد له مورد رزق. في أول سنة من عهد الرايخ الثالث (١٩٣٣) اخرجوا من الوظائف العامة والمدنية، والصحافة، والراديو، وأعمال الزراعة، والتعليم والمرسح والسينما. وفي ١٩٣٤ طردوا من اسواق البورصة ومع أن الحظر على مزاوتهم مهنة المحاماة والطب والأعمال التجارية لم يتم عن طريق التشريع حتى ١٩٣٨، فانهم أقصوا عملياً من هذه الميادين في نهاية فترة السنوات الأربع الأولى من حكم النازي.

وفضلاً عما تقدم، فقد حرم عليهم لا معظم مطالب الحياة وحدها بل ضرورياتها في أحيان كثيرة. ووجد اليهود في عدة مدن صعوبة إن لم نقل استحالةً في شراء الغذاء. لقد علقت لافتات فوق حوانيت الأغذية واللحوم والمخابز ومخازن بيع منتجات الحليب فيها العبارة التالية "لايسمح لليهود بالدخول". وعز على اليهود في عدد كبير من المجتمعات الحصول على الحليب حتى لتغذية أطفالهم. وامتنعت الصيدليات من بيع الدواء لهم، وأبت الفنادق أن تأويهم ليلة واحدة إذ تطالعهم دائماً وأنى ذهبوا تلك اللافتات المخجلة من أمثال "اليهود ممنوعون منعاً باتاً من دخول هذه المدينة" أو "دخول اليهود هذا المحل يكون على مسؤوليتهم الخاصة" وفي عطفة طريق حادة قرب لودفيكشافن Lud-wigshafen رفعت لافتة كتب عليها "سق بحذر! منحنى حاد! اليهود ٧٥ ميلاً في الساعة!"^(٣) تلك كانت محنة اليهود عند حلول إحتفالات دورة الألعاب الأولمبية التي جرت في ألمانيا. وكانت بداية طريق ما لبثت أن أدت الى تصفيتهم بالمذابح الكبرى.

-٢-

إضطهاد المذاهب المسيحية

بدأت الحرب على المذاهب المسيحية أكثر إعتدالاً. ومع أن هتلر هو كاثوليكي إسمياً، فقد شن حملة قدح عنيفة بالكاثوليكية السياسية في (كفاحي) وهاجم كلا المذهبين المسيحيين لعدم إعترافهما بنظرية العرق فقد حذر في كتابه كما رأينا "اي حزب سياسي عليه ان... يضع نصب عينه حقيقة أكيدة وهي: من التجارب التاريخية الماضية كافة، لم ينجح حزب سياسي محض في استحداث أي إصلاح ديني". وجاء في الفقرة (٢٤) من منهج الحزب "الحرية لكل الطوائف الدينية في الدولة مكفولة شريطة ألا تكون خطراً على... الوجدان الخلقي للعنصر الألماني. الحزب يقف في صف المسيحية

٣- هاجمت الصحافة الألمانية المؤلف هجوماً عنيفاً في الراديو وهُدد بالطرد من البلاد لأنه كتب رسالة صحفية جاء فيها ان بعض اللافتات المعادية للسامية قد رفعت خلال فترة دورة الألعاب الأولمبية.

الاجابية". وفي خطبة أمام الرايخشتاغ بتاريخ ٢٣ آذار ١٩٣٣ عندما تنازل المجلس التشريعي الألماني عن سلطة التشريع للدكتاتور، اشاد هتلر بالمذاهب المسيحية ووصفها "بالعناصر الأساسية لحماية روح الشعب الألماني" ووعده باحترام حقوقها وأعلن أن حكومته "تطمح الى علاقة سلام بين الكنيسة والدولة". واذاف يقول- طامعاً بأصوات حزب الوسط الكاثوليكي التي حصل عليها فعلاً- "اننا نأمل أن نحسن علاقاتنا الطيبة بالكرسي الرسولي".

ولم تكد تمر أربعة أشهر على ذلك حتى ابرمت الحكومة النازية في ٢٠ تموز ميثاقاً (كونكورداتو) مع الفاتيكان ضمنّت فيه حرية الدين الكاثوليكي وحق البيعة الرسولية "في تنظيم شؤونها الخاصة" ووقع باين عن الجانب الألماني، وعن الجانب الرسولي السكرتير الباباوي للشؤون الخارجية المونسنيور باتشيللي Pacelli الذي أصبح فيما بعد البابا پيوس الثاني عشر. هذا الميثاق خُرق ولم يكد يجف حبره- من جانب الحكومة النازية. ولكن إبرامه في الزمن الذي أثارت إعتداءات النظام الجديد في ألمانيا استنكاراً عالمياً واسعاً، لاشك عزز مكانة حكومة هتلر بسمعة كانت في أمس الحاجة إليها^(٤). في الخامس والعشرين من تموز- أي بعد التوقيع على الكونكوردات بخمسة أيام فقط. أصدرت الحكومة الألمانية قانون (الإخصاء) الذي اثار سخط البيعة الكاثوليكية بنوع خاص ويعدها بخمسة أيام اتخذت الخطوات لحل عصابة الشباب الكاثوليكي.

وفي غضون السنوات التالية اعتقل آلاف من الكهنة الكاثوليك والراهبات وقادتهم العلمانيين. اوقف عدد كبير منهم بتهم فاضحة مخلة بالشرف "أعمال منافية للأداب" و"تهريب عملة أجنبية" وقُتل (اريج كلاوسينر) زعيم منظمة العمل الكاثوليكي في ٣٠ حزيران ١٩٣٤ كما ذكرنا. حتى خرقت حرمة سرّ الإعتراف على يد وكلاء الغشتاپو. ولم يحل العام ١٩٣٧ حتى كانت طبقة الكهنوت الكاثوليكية في ألمانيا قد صحت على الحقيقة المرة. بعد ان حاولت - كمعظم رجال الكهنوت البروتستانت التعاون مع النظام الجديد في المبدأ، وكانت خيبتها تامة. وفي الرابع عشر من آذار ١٩٣٧ اصدر البابا پيوس الثاني عشر منشوراً رسمياً عنوانه "بأسى محرق... Mit Brennender Sorge" متهماً الحكومة النازية "بخرق" الكونكوردات والتملّص منه. وأدانها ببذر "زؤان* الشك والبغضاء، والفتن، والمثالب والعداء الأصلي، السري والعلني للسيد المسيح وبيعته" ورأى البابا في "أفق ألمانيا، غيوم العاصفة المهددة بالحروب الدينية المدمرة... التي لا هدف لها إلا... الخراب".

كان القسّ مارتن نيمويللر Martin Niemoeller قد رحب شخصياً بمجيء النازي الى الحكم في

٤- في خطبة ألقاها البابا پيوس الثاني عشر بتاريخ ٢ حزيران في الكلية المقدسة، دافع عن الكونكوردات التي كان قد وقّعها. إلا أنه وصف القومية الاشتراكية كما عرفها فيما بعد- "المروق المتعاطف من يسوع المسيح وانكار عقيدته وعمله في نيز مبدأ العنف. وعبادة العنصر والدم الذي يؤدي الى القضاء على الحرية البشرية والكرامة". * الزؤان هو حبوب سوداء في القمح، تشوب لون طحينه بالسواد إن لم تنق منه.

١٩٣٣. وفي تلك السنة اصدرت المطابع سيرته بقلمه "من الغواصة الى المنبر"، ان قصة صيرورة قائد الغواصة هذا في الحرب العظمى الأولى قساً پروتستانتيّاً ذائع الصيت قد خصتها الصحافة النازية بجزيل المدح والثناء حتى جعلتها أروج كتاب في ألمانيا. كانت السنوات الأربع عشرة التي عاشتها الجمهورية "سنوات ظلام"^(٥) لدى القس نيمويلر كما وصفها، ولدى عدد كبير من رجال الكهنوت البروتستانت. وفي ختام قصة حياته هذه أضاف ملاحظة معبرة عن إرتياحه لإنتصار الثورة النازية أخيراً، وتحقيقها "البعث القومي" الذي ناضل هو في سبيله زمناً طويلاً- ولفترةٍ منه في سلك المحاربين الأحرار الذين جاء منهم عدد لا يحصى من قادة النازي.

ولم يطل به الأمر. ليذوق مرارة الخيبة وضبعة الأمل.

المذهب البروتستانتي في ألمانيا- كشأنه في الولايات المتحدة - شيع شتى. ولا ينتمي الى المذاهب الحرة المختلفة مثل المعمدانين Baptists والميثوديين Methodists إلا عدد ضئيل جداً يقدر بمائة وخمسين ألفاً من أصل (٤٥) مليوناً من الألمان، فهؤلاء ينتمون الى ثمان وعشرين بيعة لوثرية وإصلاحية، أوسعها بيعة "الإتحاد البروسي القديم" التي تضم ثمانية عشر مليون عضوٍ. وبظهور الحركة النازية برزت فرق دينية جديدة بين البروتستانت. ونظم أكثر النازيين تعصباً فيهم "حركة الإيمان المسيحي الألماني" في ١٩٣٢ وكان أشدّ قاداتها حماسة (لودفيك مولر Ludwig Mueller) وهو قسّ عسكري في منطقة بروسيا الشرقية العسكرية وتابع شديد الإخلاص لهتلر سعى لتحقيق أول مقابلة بين الزعيم النازي وبين الجنرال فون بلومبرگ الذي كان آنذاك قائداً للمنطقة. وساند "المسيحيون الألمان" النازيين مساندةً قوية في عقيدتهم العنصرية وفي التشييع لمبدء الزعامة وطلبوا منهم إقامة "بيعة الرايخ" لجمع كل البروتستانت في كتلة واحدة مذهبية. وفي ١٩٣٣ بلغ عدد الكهنة في حركة "المسيحيين الألمان" ثلاثة آلاف من مجموع سبعة عشر ألف كاهن وإن كان أتباعهم العلمانيون يمثلون نسبة أكبر من مرتادي البيع.

ويعارض "المسيحيين الألمان" كتلة أقلية أخرى تطلق على نفسها إسم "البيعة المعرفة" وعدد كهنتها يقارب عدد الكتلة الأخرى ويقودها (نيمويلر). وهي تعارض في صبغ البيع البروتستانتية بالصبغة النازية وترفض نظريات النازي العرقية وتهاجم المبادئ المعادية للمسيحية التي وضعها (روزنبرگ) وغيره من زعماء النازي. وفيما بين هاتين الكتلتين تقف أغلبية البروتستانت. وكانت تبدو كثيرة الحذر والانكماش من انضوائها الى أحد المعسكرين المتناحرين ثم إعتلت السياج وإنكمشت حتى سقط معظمها أخيراً بين ذراعي هتلر مسلماً بسلطته في التدخل بشؤون المذاهب ومطيعاً أوامره دون إحتجاج علنيّ. من الصعب جداً ان يفهم سلوك معظم البروتستانت الألمان في أولى سنوات النازيين

٥- ليوشتاين Leo Stein "كنت في جهنم مع نيمويلر" ص ٨٠.

إلا إذا كان المرء على علمٍ بحقيقتين: تاريخهم وتأثير (مارتن لوتر)^(٦).

كان مؤسس المذهب البروتستانتي الألماني خصماً عنيداً للسامية ومؤمناً متحمساً بالطاعة المطلقة للسلطة السياسية. أراد أن تتخلص ألمانيا من اليهود وعندما كانوا يطردون راح ينصح طارديهم ان يجردهم "من كل نقودهم وجواهرهم وذهبهم وفضتهم". وتمادى الى التوصية "بوجوب إشعال النار في كنيسهم ومدارسهم، وان تهدم بيوتهم وتدمر تدميراً... وان يوضعوا تحت سقف أو في أسطبل مثل الكاولية... في شقاء وعبودية يبكون ويشكون الى الله أعمالنا بهم - دون انقطاع".

نصيحة! إتبعها بالحرف الواحد هتلر وگورنك وهملر، بعده بأربعة قرون! وفي الثورة التي كانت الثورة الشعبية الوحيدة في التاريخ الألماني، انتفاضة الفلاحين في ١٥٢٥ نصح (لوتر) الأمراء باتخاذ أقصى الإجراءات القمعية ضدّ "الكلاب المسعورة" وهذه هي العبارة التي كان يطلقها على الفلاحين الياسين المستغلين المحتقرين. وهنا استخدم لوتر في كلامه عن اليهود لغة فيها من الغلاظة والوحشية ما لا يضاهاها أي لغة في تاريخ ألمانيا حتى مجيء النازيين. وامتد تأثير هذه الشخصية الشامخة عبر الاجيال الألمانية وبخاصة لدى البروتستانت. ومن النتائج الأخرى هي السهولة التي أصبحت بها البروتستانتية الألمانية آلة لحكم الملوك والأمراء المطلق منذ القرن السادس عشر حتى طرد الملوك والأمراء في ١٩١٨. لقد أصبح الملوك والأمراء المتوارثون أساقفة أعلى للمذهب البروتستانتي كل في دولته وأرضه. وعلى هذا كان ملك آل هوهنزلرن في بروسيا رأس البيعة. ليس هناك بلد باستثناء روسيا القيصرية كان رجال كهنتها بموجب التقاليد الموروثة عبيداً طائعين لسلطان الدولة السياسي ترى أعضاء تلك الطبقة - باستثناءات قليلة - يقفون كتلة متراسة وراء الملك واليونكرز والجيش. وفي القرن التاسع عشر وقفوا صفاً واحداً ضد الحركات الديمقراطية والليبرالية. حتى جمهورية (فايمر) فقد كان الوعاظ البروتستانت يكرهونها كراهة تحريم ليس لأنها طردت الملوك والأمراء فحسب بل لأنها كانت تستمد قوتها وسنادها من الكاثوليك والإشتركيين. ولم يكن ليسع المرء أثناء الإنتخابات أن يتغاضى عن ملاحظة رجال الدين البروتستانت - وخير مثال (نيمويلر) الذي عضد القوميين بل حتى النازيين أعداء الجمهورية. ورحب معظم الكهنة البروتستانتي مثل (نيمويلر) بمجيء هتلر الى المستشارية.

ولم يلبثوا أن تعرفوا بالتاكتيك النازي الشديد القوى الذي رفع هتلر الى السلطة. في تموز ١٩٣٣ وضع ممثلو البيع البروتستانتي دستوراً (لبيعة الرايخ) الجديدة وصادق عليها الرايخشتاغ رسمياً في

٦- اجتناباً لكل سوء فهم يجمل بي أن أذكر أنني مؤلف هذا الكتاب بروتستانتي المذهب: (نيومان: بهموث ص ١٩٠: يقول ان المقتبسات المأخوذة هي من مشروع أبحاث "الاسامية" لمعهد الدراسات الاجتماعية طبع في دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية سنة ١٩٤٠.

١٤ تموز فسارعوا فوراً إلى إثارة معركة حامية في مسألة انتخاب أول رئيس اساقفة للرايخ. واصر هتلر أن يعطى صديقه (مولر) - وهو القس الذي كان قد عينه مشاوراً خاصاً في شؤون البيع البروتستانتية- أعلى منصب كهنوتي. واقترح زعماء الإتحاد الكنسي. كاهناً شهيراً يدعى (الراعي فردريك فون بودلشفنك Friedrich Von Bodelschwingh). إلا أنهم كانوا في غاية السذاجة إذ تدخلت الحكومة النازية وحلت عدداً من المنظمات الدينية الاقليمية وابتعدت عن الوظيفة عدداً من الكهنة الكبار في الكنائس البروتستانتية. وأطلقت جنود العاصفة والغشتاپو للاحقة رجال الدين المعارضين- وفي الواقع شنوا إرهاباً على كل مساند ل(بودلشفنك) وفي ليلة إلتئام المجمع الذي سيجري فيه انتخاب رئيس اساقفة الرايخ. اذاع هتلر شخصياً نداءً من الراديو يحث فيه على التصويت الى جانب المسيحيين الألمان ومرشحهم (مولر). وكان الإرهاب ناجحاً للغاية، وفي الوقت نفسه أجبر (بودلشفنك) على الإنسحاب من الترشيح وظهرت الإنتخابات الأغلبية الى جانب (المسيحيين الألمان) فقاموا بانتخاب مولر رئيس اساقفة للرايخ في أيلول بمجمع فيتنبرك Wittenberg وهو الموضع الذي تحدى (لوثر) فيه روما لأول مرة.

لكن رئيس المذهب الجديد ذا اليد الصارمة، عجز عن إنشاء بيعة موحدة، ولم يستطع طلاء الرعية البروتستانتية بالنازية طلاءً كاملاً وفي ١٣ تشرين الثاني (اليوم الذي تلا الإستفتاء الشعبي في ألمانيا لمساندة هتلر بأغلبية ساحقة) نظم (المسيحيون الألمان) اجتماعاً هائلاً في الملعب الرياضي ببرلين وقام شخص يدعى الدكتور راينهاردت كراوس Reinhardt Krause، قائد منطقة برلين للمنظمة مقترحاً نيز التوراة: "بأقاصيصه عن تجار المواشي والقوادين" ودعا الى تنقيح الإنجيل بإستبقاء تعاليم المسيح "التي تتفق تماماً مع مطالب القومية الاشتراكية". وقدمت إقتراحات منها رفع شعار "شعب واحد، رايخ واحد، دين واحد". وإقتراح آخر يحتم على كل رجل دين ان يقسم بين الولاء لهتلر. والتشديد على كل البيع بالتمسك بالتعاليم الآرية وطرده اليهود المهتدين. فكان هذا أكثر مما يتحملة البروتستانت الضعفاء الذين أبوا التدخل والمساهمة في أي تناحر كنسي. واجبر الأسقف مولر أن يفصل الدكتور (كراوس) ثم يطرده من سلك الكهنوت.

والواقع أن النزاع بين الحكومة النازية وبين البيع هو نزاع قديم جداً بخصوص إعطاء "ما هو لقيصر لقيصر، وما هو لله لله*." بقدر ما يتعلق الأمر بالبروتستانت. وكان هتلر يلح في أن النازيين "المسيحيين الألمان" إن لم يستطيعوا جمع البيع الإنجيلية تحت لواء أسقف الرايخ (مولر)؛ فستقوم الحكومة نفسها بالإشراف على إدارة تلك البيع. فقد كان يحفظ في نفسه إحتقاراً دائماً للبروتستانت

* هذه عبارة نطق بها السيد المسيح عندما طلب منه تحديد موقف الشعب من الدولة، وهل يجب دفع الضريبة لها، بقصد إخراجهم من جانب بعض اليهود المعادين.

الذين وان كانوا أقلية ضئيلة في بلاده النمسا الكاثوليكية إلا أنهم يؤلفون ثلثي مجموع سكان ألمانيا. ومرة أسر الى أعوانه "بإمكانك ان تفعل بهم ما تشاء. فسيخضعون... انهم أناس صغار الشأن لا يؤبه بهم خانعون خنوع الكلاب، ينضحون عرقاً من فرط الخجل عندما تحادثهم^(٧)"، وكان على يقين أن معارضة اصطباغ البيع البروتستانتية مصدرها أقلية من رجال الدين، وأقل منهم من المصلين. في مطلع ١٩٣٤ كان القس (نيمويلر) الخائب الأمل قد أصبح الروح التي تقود مقاومة الأقلية في كل من "البيع المعترفة" و"عصبة الكهنة للطواريء". وفي المجمع الكنسي العام المعقود في (بارمن Barmen) في شهر أيار ١٩٣٤، وفي جلسة فوق العادة جرت في "كنيسة يسوع المسيح" في داهلم (Dahlem) بضواحي برلين، في تشرين الثاني. أعلنت "البيعة المعترفة" برئاسة (نيمويلر) أنها البيعة البروتستانتية الشرعية لألمانيا. وألفت مجلس حكم كنسي أقليمي. وبهذا نشأت كتلتان كلتاهما تدعي بشرعية الإشراف على المذهب، كتلة الأسقف (مولر). وكتلة القس (نيمويلر). وكان واضحاً أن كاهن الجيش السابق رغم قربيه من هتلر، فشل في توحيد البيع البروتستانتية. وفي نهاية ١٩٣٥ بعد أن قام الغشتاپو باعتقال سبعة كاهن من "البيعة المعرّفة"، إستقال من منصب الأسقفية وغاب عن مسرح الحياة العامة. وكان هتلر قبلذاك قد نصب في تموز ١٩٣٥ محامياً نازياً صديقاً اسمه الدكتور هانز كرل (Hans Kerrl)، وزيراً للشؤون الكنسية. وزوده بتعليمات تقضي بإجراء محاولة أخرى لجمع شمل البروتستانت. وكان (كرل) نازياً معتدلاً، وشخصاً حذراً فحقق في مبدأ الأمر نجاحاً كبيراً. ولم يقتصر نجاحه على كسب رجال الدين المحافظين الذين يؤلفون الأغلبية، بل أفلح أيضاً في إنشاء لجنة كنسية رأسها القس الدكتور زويلنر (Zoellner) وهو شخصية يحترمها كل الفرق، لتقوم بإيجاد تسوية عامة. على أن كتلة (نيمويلر) التي تعاونت مع اللجنة، ظلت مقيمة على رأيها بأنها الكنيسة الشرعية الوحيدة وعندما وجهت في أيار ١٩٣٦ مذكرة رقيقة لكن شديدة- الى هتلر تحتج فيها على إتجاهات الحكم المعادية للمسيحية وتستنكر معاداة الدولة للسامية وتطالب بوضع حدّ لتدخل الدولة في الكنيسة، أجاب وزير الداخلية النازي (فريك) بعمل بربري. فاعتقل مئات من رجال الدين الذين ينتمون الى "البيعة المعرّفة" وقتل الدكتور وايسلر (Weissler) أحد الموقعين على المذكرة في معسكر إعتقال ساخنهاوزن Sachsenhausen وصودرت أموال الطائفة ومنعت من جمع التبرعات.

وفي ١٢ شباط ١٩٣٧ إستقال الدكتور (زويلنر) من اللجنة الكنسية- منعه الغشتاپو من زيارة لوبيك Luebeck حيث كان قد اوقف تسعة من الكهنة البروتستانت- محتجاً أن عمله قد خُربَ بمدخلة وزير الشؤون الدينية. فأجاب الدكتور (كرل) على ذلك في خطاب ألقاه في جمع من رجال الدين

٧- راوشننگ: صوت الخراب ص ٥٤.

الطائعين، متهماً القس (زويلنر) بعدم إحترامه لمبدأي (العرق)، و(الدم وتربة الوطن) النازيين. وكشف بوضوح تامٍ عداً الحكومة للمذهبيين البروتستانت والكاثوليك.

"(قال الدكتور كرل) الحزب يقف على قاعدة النصرانية الإيجابية. والنصرانية الإيجابية هي القومية الاشتراكية... القومية الاشتراكية هي من عمل الله وإرادته... ولقد تجلت إرادة الله في الدم الألماني... حاول الدكتور زويلنر والكونت غالين Galen [وهو أسقف مونستر Muenister الكاثوليك] أن يبرهن أن النصرانية تقوم على الإيمان بأن المسيح ابن الله. وهو ما أضحكني... كلاً وألف كلاً، النصرانية لا تعتمد على العقيدة الرسولية... النصرانية الحقيقية يمثلها الحزب. والشعب الألماني مدعو الآن من الحزب، ومن الفوهرر خاصة، إلى النصرانية الحققة... والفوهرر هو المبشر بالرسالة الجديدة^(٨).

في أول يوم من تموز ١٩٣٧ اعتقل الدكتور (نيمويلر) وأودع سجن موابيت Moabit في برلين. وكان في ٢٧ حزيران قد وعظ المصلين الذين يتزاحمون بشوق إلى سماعه في كنيسته بـ(داهلم) موعظةً قدر أن تكون آخر ما يلقيه في عهد الرايخ الثالث. قال وكأن نذيراً أنبأه بما سيجيء به المستقبل "إننا ما عدنا نفكر في استخدام قوتنا الخاصة للنجاة من ذراع السلطات كما عجز الرسل من قبلنا. كذلك لم نعد بعد على استعداد للملازمة الصمت خوفاً من البشر عندما يأمرنا الله بالقول الواجب وهو الآن وسيبقى دائماً، اطاعة الله لا طاعة المخلوق".

بعد مكوثة في السجن ثمانية أشهر جرت محاكمته في ٢ آذار ١٩٣٨ أمام "محكمة أمن الدولة Sondergericht" وهي محاكم خاصة أقامها النازيون لمحاكمة المتهمين عن أعمال ضد سلامة الدولة. ومع أنه بريء من التهمة الرئيسية "نشاط سري ضد الدولة" فقد حكم عليه بغرامة قدرها (ألفا مارك) وبالحبس سبعة أشهر "للتفوه بعبارة مثيرة ضد الدولة من فوق المنبر" وجمعه التبرعات لكنيسته. ولما كان قد قضى أكثر من مدة حبسه موقوفاً، فقد أمرت المحكمة بإخلاء سبيله. إلا أن شرطة الأمن (الغشتاپو) ألقت القبض عليه وهو يغادر القاعة ووضعت تحت الحجز التحفظي "وأودعته معسكر اعتقال (ساخسهاوزن) ثم معتقل (داخاو) حيث بقي فيه سبع سنوات إلى أن حررته قوات الحلفاء.

وأوقف عام ١٩٣٧ زهاء (٨٠٧) كهنة وعلمانيين من وجهاء "البيعة المعرفة"، كما أعتقلت مئات أخرى منهم في غضون السنتين التاليتين. إن لم تكسر مقاومة جناح (نيمويلر) من الكنيسة تماماً فقد لوته بالتأكيد. أما عن أغلبية رجال الدين البروتستانت فكانت حالهم حال كل الألمان الآخرين، خضعوا تماماً أمام الإرهاب النازي. وفي نهاية ١٩٣٧ اقنع الدكتور كرل الأسقف ماراهرنز Marahrens أسقف هانوفر الذي يتمتع بإحترام كبير جداً بنشر تصريح يبدو محقراً في أعين الأصلب عوداً من

٨- ستوروات. و. هرمان الأصغر Stewart W. Herman "ما نريده هو روحك" الص ١٥٧-١٥٨. كان هرمان راعي الكنيسة الأمريكية في برلين من ١٩٣٦ إلى ١٩٤١.

رجال الدين أمثال (نيموللر): "إن مفهوم القومية الاشتراكية للحياة، إنما هو مبدأ قومي وسياسي" يقرر ويميّز الرجولة الألمانية بمميزات خاصة. ولهذا فهو فرض واجب أيضاً على الألماني المسيحي". وفي ربيع ١٩٣٨ اتخذ الأسقف (ماراهرنز) الخطوة النهائية بإصدار أمره لكل كهنة أبرشيته بحلف يمين الإخلاص للفوهرر. وفي فترة قصيرة أدت الأغلبية الساحقة من رجال الدين البروتستانت هذه اليمين، وبذلك ربطوا أنفسهم قانونياً وأديباً بواجب الطاعة لأوامر الدكتاتور.

من الضلال أن يتخلف إنطباع في أن إضطهادات البروتستانت والكاثوليك التي أقدمت عليها الدولة النازية قسّمت الشعب الألماني الى شطرين أو حتى أثارت إستنكار الأغلبية الساحقة منهم لم يكن الأمر كذلك. إن الشعب الذي تنازل بهذه السهولة وعدم الإكتراث عن حرياته السياسية والثقافية والإقتصادية لن يخاطر بالموت أو حتى بالسجن للإحتفاظ بحرية العبادة -إلا ما ندر- فما أثار الألمان وحركهم حقاً في الثلاثينات هو نجاح هتلر اللامع في تأمين العمل. وخلق الرخاء، وإعادة قوة ألمانية العسكرية والإنتقال من نصر الى نصر في سياسته الخارجية، لم ينشغل بال الكثير من الألمان أو يقلقوا بسبب إعتقال بضعة آلاف قسٍ وراعي كنيسة أو على تنافر مختلف الطوائف البروتستانتية. وأقل من هؤلاء من تكلف عناء التفكير في أن النظام النازي بقيادة روزنبرگ وبورمان وهملر بمساندة هتلر - كان عازماً على تدمير النصرانية بالأخير ومحوها من ألمانيا إن إستطاع والإستعاضة عنها بالوثنية القديمة التي تمثلها الآلهة القبلية للألمان الأوائل والوثنية الجديدة التي يمثلها متطرفو النازية كما قال (بورمان) أحد مقربي هتلر علناً في ١٩٤١ "القومية الاشتراكية والنصرانية ضدان لايجتمعا ولا يمكن التوفيق بينهما". وما كان هتلر قد إدّخره لمستقبل ألمانيا صيغ بوضوح في منهج النقاط الثلاثين لـ "كنيسة الرايخ القومية" صاغها روزنبرگ الوثني المعروف أيام الحرب. (من بين المناصب التي تقلدها هذا الرجل وظيفة "مندوب الفوهرر لكل التشقيف العقلي والفلسفي وتعليمهما، للحزب القومي الاشتراكي" [وندرج فيما يلي شيئاً قليلاً من الفقرات الثلاثين لإيضاح جوهرها:

المادة الأولى: لكنيسة الرايخ القومية، الألمانية الحق المطلق، والسلطان المطلق في الإشراف على كل الكنائس التي تقع ضمن حدود الرايخ؛ وتعلن أنها كنائس قومية للرايخ الألماني.

المادة الخامسة: ان الكنيسة القومية مصممة على القضاء التام النهائي... على المذاهب النصرانية الغربية الأجنبية المصدرة الى ألمانيا في سنة ٨٠٠م المشؤومة.

المادة السابعة: الكنيسة القومية ليس فيها شماسة، أو كهنة أو قس أو مطارنة. وإنما خطباء الرايخ القوميين وهم وحدهم يعطون فيها.

المادة الثالثة عشرة: الكنيسة القومية تطلب فوراً إيقاف طبع وتوزيع الكتاب المقدس في ألمانيا...

المادة الرابعة عشرة: الكنيسة القومية تقرّ: لنفسها بالتالي وللأمة الألمانية:

أن كتاب (كفاحي) للفوهرر هو أعظم كل الأسانيد المدونة... فهو لا يقتصر على أعظم مبادئ الأخلاق للحاضر والمستقبل من حياة شعبنا، بل يتضمن أصدقها وأنقاها. المادة الثامنة عشرة: الكنيسة القومية ستفرغ هياكلها من كل الصليبان والكتب المقدسة وصور القديسين.

المادة التاسعة عشر: لن يكون في المذبح غير كتاب كفاحي (هو للشعب الألماني وبالتالي لله أقدس الكتب طراً) ويوضع سيف على يسار المذبح. المادة الثلاثون: في يوم تأسيس الكنيسة القومية يجب أن يرفع الصليب المسيحي من كل البيع والكاتدرائيات والكنائس... وأن يحل محله الرمز الوحيد الذي لا يغلب... الصليب المعقوف^(٩).

-٣-

صبغ الثقافة بالنازية

في ليلة اليوم العاشر من أيار ١٩٣٣. بعد قرابة أربعة أشهر ونصف شهر من إثبات هتلر مستشاراً جرى في برلين مشهد لم يره العالم الغربي منذ القرون الوسطى. ففي حوالي نصف الليل إنتهى إستعراض مشاعل قام به آلاف من الطلاب في ساحة تقع وسط (اونتر دن ليندن) مقابل جامعة برلين وقذفت المشاعل الى أكوام هائلة من الكتب كُذست هناك. وفيهم كانت ألسنة النيران تلتهمها إتهاماً. كانت مقادير أخرى من الكتب تقذف الى النار وقوداً حتى تم إحراق عشرين ألف كتاب تقريباً. وتمت مشاهد مماثلة في عدة مدن أخرى... ها قد بدأت عملية إحراق الكتب. إن الكتب العديدة التي قذفت الى النيران ببرلين تلك الليلة. رماها التلاميذ الطوبون وبموافقة ورضا الدكتور غوبلز، كانت من تأليف كتاب عالميين خالدين فمن بين الكتاب الألمان الأخوان (توماس وهاينريخ مان Thamas & Hein rich Mann) وليون فوختفانكر Lion Feuchtwanger وياكوب فاسرمان Jakob Wassermann والأخوان ارنولد وستيفان سفايگ Arnold & Stefan Sweig واريخ ماريا ريمارك Erich Maria Remarque وقالتر راثناو Walther Rathenau والبرت آينشتاين Albert Einstein وألفرد كير Alfred Kerr وهوغو بروس Hugo Preuss وهذا الأخير هو الذي صاغ دستور جمهورية (فايمر) وهناك عدد كبير آخر من المؤلفين الأجانب أمثال جاك لندن Jack London وابتون سنكلير Upton Sinclair وهيلين كيلر Helen Keller وماركرت سانكر Margaret Sanger وأج. جي. ويلز H. G. Wells وهافلوك ايليس Havelock Ellis وآرثر شنيترز

٩- النص المذكور في "هرمان: المرجع السالف الص ٢٩٧-٣٠٠. كذلك في جريدة النيويورك تايمس ٣ كانون الثاني ١٩٤٢.

Arthur Schnitzler وفرويد Freud وگيد Gide وزولا Zola وپروست Proust. ويحسب ما ورد في بيان الطلاب: كل كتاب يحكم عليه بالحرق "حين يعمل على تهديم مستقبلنا أو يضرب ضربات مخربة في جذور الفكر الألماني والبيت الألماني وقوى شعبنا الدافعة".

ان الدكتور گوبلز وزير الدعاية الجديد الذي كان سيضع الثقافة الألمانية من ذلك الحين فصاعداً في قماط المجانين، خاطب الطلاب أثناء ما كانت الكتب المحترقة تتحول الى رماد "إن روح الشعب الألماني تستطيع الآن التعبير عن نفسها مرة أخرى. هذه النيران لا تشعل النهاية الأخيرة لعصر قديم بل تضيء لنا الطريق الى عصر جديد".

هذا العصر الجديد النازي للثقافة الألمانية لم تقتصر إنارته بالمحرقات المقامة للكتب ولا بالإجراءات الأكثر فعالية من النار والأبسط مظهراً، المتخذة بوضع القيود على بيع مئات الكتب وحظر إستعارتها من المكتبات، ويطبع مئات عديدة من الكتب الجديدة، لم يقتصر الأمر على هذا، بل تعداه الى خضوع الثقافة الى ضبط عسكري وتنظيم كتابي في نطاق لم يعاناه بلد غربي عصري. ففي ٢٢ أيلول ١٩٣٣ انشئت (غرفة ثقافة الرايخ) بموجب قانون تحت إرشاد الدكتور گوبلز. وقد حدد القانون الغرض منها "من أجل إتباع سياسة ثقافية ألمانية، من الضروري أن يجمع معاً كل الفنانين الخلاقين الموهوبين من جميع فروع الفن في منظمة موحدة تحت قيادة الرايخ. ان الرايخ لن يقصر وظيفته على تحديد خطوط التقدم الروحي والعقلي وانما يقود وينظم تلك المهن والملكات".

وانشئت سبع (غرف) لقيادة كل ناحية من نواحي الحياة الثقافية والسيطرة عليها وهي: غرف الرايخ للفنون الجميلة، والموسيقى، والمسرح، والأدب، والصحافة، والراديو، والأفلام السينمائية. ووجب على كل من يعمل في أي فرع من هذه الفروع الإنضمام الى (غرفته) الخاصة بفنه. وقرارات تلك الغرف وأوامرها لها قوة القانون. ومن صلاحياتها انها تستطيع رفض الإنتماء، أو طرد أي عضو بسبب "عدم أهليته السياسية" وهذا يعني أن فاتري الهمة إزاء القومية الاشتراكية يمكن ان يطردوا، [وهم يطردون عادة] ويمنعوا من مزاوله مهنتهم أو فنهم وبهذا يحرمون من مورد رزقهم.

ما عاش في ألمانيا أحد في الثلاثينات ممن يهتمون بهذه الأمور، وإستطاع أن ينسى الانحلال العظيم الذي طرأ على المقاييس والقيم الثقافية، في شعب كان يمتاز بأرفع المقاييس منذ أمدٍ طويل. وكان ذلك أمراً محتوماً بالطبع في اللحظة التي قرر زعماء النازية أن تخدم الفنون والآداب والصحافة والراديو والأفلام أغراض الدعاية فقط للنظام الجديد وفلسفته العجيبة. ولم ينشر لأي كاتب ألماني حيّ ذي شهرة في السنوات الأولى من حكم النازي في ألمانيا بإستثناء الكاتبين أرنست أونيكير Ernst Juenger وارنست فيخيرت Ernst Wiechert. كلهم تقريباً نزحوا خارج ألمانيا وفي مقدمتهم (توماس مان). أما القليل الذي بقي فقد سكت أو أسكت. ووجب أن يعرض كل مخطوطة كتاب أو مسرحية

على وزارة الدعاية قبل الموافقة على الطبع أو الإخراج.

إلا أن حظ الموسيقى كان أفضل جداً، ذلك لأنها أقل الفنون تعبيراً عن السياسة ولأن تراث الألمان فيها عظيم لا يقاس به أي تراث منها في بلاد أخرى، منذ (باخ) إلى بيتهوفن وموتزار حتى (برامز) لكن مؤلفات مندلسون Mendelssohn منع عزفها لأنه كان يهودياً (كل الآثار التي خلفها الملحنون اليهود ممنوعة: verboten) كما منعت مؤلفات أعظم موسيقار ألماني معاصر هو بول هندميث Paul Hindemith وطرد اليهود حالاً من الأجواق السمفونية والأوبرية الكبرى. وخلافاً للكتاب، إختار مشاهير الموسيقى الألمان البقاء في ألمانيا النازية. ووضعوا أسماءهم وعبقرياتهم في خدمة النظام الجديد. فبقي فلهم فرتقنجلر Furtwaengler وهو واحد من أعظم قادة الأوركسترا في هذا العصر. وكان مغضوباً عليه طوال ١٩٣٤ لدفاعه عن (هندميث) إلا أنه أعيد إلى عمله وظل يزاوله إلى آخر عهد هتلر. وبقي ريشارد شتراوس Richard Strauss الذي قد يعتبر أعظم المؤلفين الموسيقيين الأحياء في العالم، بل أصبح لفترة من الزمن رئيساً لغرفة الرايخ الموسيقية مسخراً اسمه العظيم لفحش غوبلز الثقافي. وقضى (فالتر كيسكنك Walther Giesecking) عازف البيانو الشهير جلّ أوقاته في جولات فنية في البلاد الأجنبية نظمتها له وزارة الدعاية أو وافقت عليها لإشاعة الثقافة الألمانية في الخارج ولأن الموسيقيين لم يهجروا البلاد ولأن ألمانيا تنفرد بتراث عظيم من الموسيقى الكلاسيكية. والمرء يمكنه أن يسمع في عهد الرايخ الثالث موسيقى سيمفونية ممتازة، وإخراجاً رائعاً للأوبرات. وفي هذا تقدمت على سواها فرقة برلين الفيلهارمونية، وأوبرا الدولة في برلين. إن الحفلات الموسيقية الممتازة ساعدت كثيراً على أن ينسى الناس إنحطاطهم في فروع الفنون الأخرى وفي نسيانهم جانباً كبيراً من حياتهم تحت حكم النازيين.

ولا مفر من القول أن المسرح احتفظ بالكثير من مكانته الممتازة طالما ظل مقيماً على المسرحيات الكلاسيكية. وذهب (ماكس راينهاردت Max Reinhardt) مع من ذهب من المخرجين العظام ومشاهير المنتجين وكان كتاب التمثيليات النازيون درجة من الركة والغثاثة أن الجمهور إبتعد عن كل ما قدموه في فترة قصيرة من إخراج آثارهم وكان رئيس غرفة تمثيل الرايخ المسرحي (هانس يوشث Hans Johst) مسرحياً فاشلاً، وأثر عنه أنه فخر مرة بصورة علنية قائلاً "كلما ذكر أحد أمامي كلمة ثقافة شعرت بحافز يدفعني إلى إشهار مسدسي" ولكن مع أن يوشث وگوبلز كانا يقرران ما ينبغي إخراجهم على المسرح ومن يمثله ويخرجه، فانهما عجزا عن الحيلولة دون إخراج تمثيليات طيبة وفي أحيان كثيرة رائعة- لآثار غوته، وشلر وشكسبير.

وأعظم وجه للغربة أنه سمح بإخراج بعض تمثيليات (برناردشو) هناك. ربما لأنه كان يصب نكاته ودعاباته على رأس الانكليز ويقدح بالديمقراطية. وربما أيضاً لأن آراءه السياسية اليسارية اللماحة

الدقيقة النكتة كانت تخفى عن العقل النازي وأغرب من كل شيء قضية الكاتب المسرحي الألماني الشهير (جيرهارت هوبتمان Gerhart Hauptmann) فلكونه إشراكياً صحيحاً منعت حكومة القيصر فلهم الثاني إخراج مسرحياته في دور التمثيل الإمبراطورية. وفي عهد الجمهورية عُدَّ أشهر مسرحي في كل ألمانيا. وبقي محافظاً على مركزه هذا في الرايخ الثالث. واستمر إخراج مسرحياته. ولن أنسى ما حييت مشهداً في ختام ليلة الافتتاح لمسرحيته "إبنة الكاتدرائية" عندما خرج (هوبتمان) بقامته المهيبة وشعره الأبيض المتطاير النافر من تحت قبعته السوداء، من دار التمثيل متأبطاً ذراعي الدكتور (كوبلز ويوشت). لقد سالم هتلر كغيره من كبار الشخصيات الألمانية. واستفاد الأريب كوبلز من ذلك كثيراً في دعايته التي لم تكل ولم تقف لحظة عن تذكير الشعب الألماني والعالم الخارجي بأن أعظم كاتب مسرحي ألماني حي لم يكتف بالبقاء داخل ألمانيا الرايخ الثالث وإنما استمر في الكتابة وإخراج مسرحياته. كم كان هذا الكاتب المسرحي الشيخ، مخلصاً، أو إنتهازياً أو مجرد متقلب؟ يمكن التوصل إلى ذلك مما حصل له بعد الحرب. منعت السلطات الأمريكية تمثيلياته من الإخراج في منطقة إحتلالها غربي برلين، معتقدة أنه خدم النازيين أكثر مما يجب. فما لبث الروس أن دعوه إلى قطاعهم في برلين ورحبوا به بطلاً وسمحوا بتمثيل حلقة تامة لمسرحياته على سبيل التكريم في برلين الشرقية وفي ٦ تشرين ١٩٤٥ أرسل هوبتمان رسالة إلى "جمعية الثقافة للبعث الديمقراطي في ألمانيا" وهي جمعية يشرف عليها الشيوعيون. يتمنى لهم فيها الخير ويعبر عن أمله بنجاحها في إعادة "البعث الروحي" للشعب الألماني.

إن ألمانيا التي أتحفت العالم به (دورر Duerer) و (كراناخ Cranach) لم تكن متفوقة في الفنون الجميلة للعصر الحديث وإن كانت (الإنطباعية) الألمانية والهندسة المعمارية لـ (باوهاوس Bauhaus) في مونيخ مما يسترعي الإهتمام. وأن حركات أصيلة وفنانين أقحاح ألمان قد ساهموا في كل تطورات وإبداعات القرن العشرين ممثلين في المذاهب الإنطباعية والتكعيبية والدادية Dadaism.

كان هتلر الذي يعتبر نفسه فناناً أصيلاً رغم إخفاقه في فيينا - يرى كل الفن الحديث مجرد عبث وتفسخ. وقد دبح في (كفاحي) مقالات طويلة حول الموضوع. وأول ما قام به بعد وصوله إلى السلطة هو "تخليص" ألمانيا - من فنها "المتدهور" ومحاولة الإستعاضة عنه بفن "مُجرَمَن" وبهذا رفعت من المتاحف الألمانية ومعارض الرسوم حوالي (٦٥٠٠) صورة ولوحة حديثة. ليست من آثار الألمان وحدهم أمثال كوكوشكا Kokoschka وگروتس Grosz بل من أمثال چيزان Cezanne وغان كوخ Van Cogh وگوغان Gauguin وماتيس Matisse وپيكاسو Picasso وغيرهم كثيرون.

وكان البديل لها ما عرض في صيف ١٩٣٧ عندما افتتح هتلر رسمياً "دار الفن الألماني" بمونيخ وهي في بنائة سمجة نصف كلاسية الهندسة ساعد هو في وضع تصميمها ووصفها بأنها "لاتضاهي

ولا تقلد" في جمال هندستها وعرض في أول معرض رسمٍ للنازيين زهاء تسعمائة لوحة أختيرت من أصل خمسة عشر ألف لوحة قدمت للجنة. لم يجد هذا الكاتب حثالة فنٍ في أي بلادٍ كما شاهد في هذه المعروضات. وكان هتلر نفسه هو الذي قام بالإختيار النهائي وكما روى أحد رفاق الحزب الذي كان معه آنذاك، ثارت ثائرتة لبعض اللوحات التي قبلتها هيئة التحكيم النازية برئاسة (أدولف زيغلر) Ziegler وهو رسام في مرتبة تقل عن المتوسط، تولى منصب رئاسة غرفة الرايخ للفنون^(١٠)، ولم يكتف بأن أمر بإخراجها بل أهوى عليها ركلاً بجزمته وأحدث في عدد منها خروقاتاً. وقال في خطبة الإفتتاح الطويلة "كنت قد قررت، لو أوصلتنا المقادير الى الحكم، ألا نتناقش ونتبادل الآراء في مثل هذه الأمور [ذات الآراء الفنية] بل أن تصدر فيها القرارات". وهذا ما فعله.

في خطبته التي ألقاها في ١٨ تموز ١٩٣٧. وضع أسس "الفن الألماني" على المبادئ النازية بقوله: "أعمال الفن التي لا يمكن فهمها إلا بعد شرح طويل دقيق للبرهنة على صحتها وموافقتها وصلاحها للبقاء لتجد طريقها الى المجانين الذين يستجيبون لهذه الترهات الغيبية أو الوقحة لن تصل بعد الآن الى الشعب الألماني في وضوح النهار. ألا فليطرح كل شك يساور الأذهان! لقد عازمت القومية الإشتراكية على تطهير الرايخ الألماني وشعبنا من كل هذه المؤثرات التي تهدد كيانهما وخلقهما... إفتتاح هذا المعرض هو نهاية الجنون الفني ومعه الفجور الفني لشعبنا..."

ومع ذلك فقد كان يفضل بعض الألمان أن يكونوا فاجرين فنياً، وبخاصة في مونيخ مركز الفن الألماني. ففي موضع آخر من المدينة وفي معرض حقير البناء يصل المرء اليه بسبيل درج ضيق. نظم الدكتور غوبلز معرضاً "للفن المتفسخ" ليظهر للناس ممّ ينقذهم هتلر وكان فيه مختارات رائعة من الرسوم الحديثة أمثال كوكوشكا، وشاغال Chagall ورسوم "إنطباعية" و"تعبيرية". وفي اليوم الذي زرته بعد تمرّغي في نفايات "دار الفن الألماني" وجدته غاصاً بصف طويل من الناس متشبهين بدرجة الضيق المهشم متواصل حتى الشارع والواقع أخذ الناس يتكاثرون الى الحد الذي أهاج غوبلز وأحرجه فسارع الى غلقه.

-٤-

السيطرة على الصحافة والراديو والسينما

يتجمع يومياً صباحاً في وزارة الدعاية رؤساء تحرير كل الجرائد اليومية في برلين مع مراسلي الجرائد التي تطبع في المدن الأخرى في أنحاء الرايخ ليحدد لهم غوبلز أو أحد مساعديه، أية أنباء

١٠- يدين زيغلر بمنصبه الى الفرصة السعيدة التي اتبحت له برسم صورة (گيلي راوبال).

ينشرون وأية أنباء لا ينشرون. كيف يصوغون الأخبار وكيف يعنونونها وأي حملة صحفية يختمونها وأي حملة يبدأون بها وأي إفتتاحية مستحسنة لذلك اليوم. وتعطى تعليمات مكتوبة يومياً لهؤلاء علاوة على التعليمات الشفوية لئلا يحصل سوء فهم في تلكم التوجيهات. وبالنسبة الى الصحف المحلية الاقليمية والمجلات، ترسل اليها التوجيهات بريقاً أو بريداً.

والشروط التي يجب أن تتوفر في رئيس تحرير صحيفة في الرايخ الثالث، هي ان يكون في المحل الأول "نظيفاً" من الناحيتين السياسية والعنصرية. إن قانون مزاولة الصحافة في الرايخ الصادر في ٤ تشرين الأول ١٩٣٣ جعل الصحافة "خدمة عامة" ينظمها القانون. وألزم كل رئيس التحرير ان يكون ألماني الجنسية ومن سلالة آرية غير متزوج بيهودية. وتلزم المادة (١٤) من القانون ان يجتنب رئيس التحرير "نشر كل ما من شأنه أن يضلل الرأي العام بأي شكل كان وألا يمزج الأغراض الشخصية بالأغراض العامة أو ما من شأنه إضعاف قوة الرايخ الألماني من الداخل أو في الخارج أو يحدث الوهن في الإرادة العامة للشعب الألماني أو الإخلال بدفاع ألمانيا أو ثقافتها أو إقتصادها... أو إلحاق الإهانة بشرف ألمانيا. أو مكانتها". وهو قانون لو كان نافذاً قبل ١٩٣٣ لأدى الى القضاء على كل رئيس تحرير صحيفة نازي وكل مطبوع في البلاد. اما الآن فقد أدى الى تنحية كل أولئك الصحفيين والصحف عن عالم الصحافة- ممن ليسوا من النازيين ومن يرفضون ان يصبحوا كذلك - ومن أوائل الصحف التي اجبرت على ترك الميدان "فوسيشي زايونگ Vossische Zeitung" وهي صحيفة أنشئت في ١٧٠٤. وعُدّت من كتابها الأوائل أسماء لامعة (كفريدريك الأكبر وليسنگ وراثناو) وأعتبرت أول صحيفة في ألمانيا في منزلة (التايمس) بإنجلترا و(نيويورك تايمس) في أمريكا. إلا انها كانت جريدة حرة تملكها دار (أولشتاين Ullstein) وهي دار يهودية. سدت في ١ نيسان ١٩٣٤ بعد (٢٣٠) سنة من صدور غير منقطع. وتأخرت البرلينر تاكبلات Berliner Tageblatt وهي صحيفة ليبرالية أخرى ذات شهرة عالمية، ولم تلفظ أنفاسها حتى ١٩٣٧ وإن أرغم صاحبها اليهودي (هانس لايمان-موسي Hans Lackmann-Mosse) على التنازل عن حقوقه فيها منذ ربيع ١٩٣٣. واستمرت (الفرانكفورتير زايونگ) ثالث صحيفة حرة كبيرة، على الصدور بعد تخلّصها من صاحبها اليهودي ورؤساء تحريرها. وجيء برودلف كيرخر Kircher مراسلها في لندن وهو ليبرالي متشيع للانكليز وجعل رئيساً لتحريرها، مثل (كارل سيلكس Karl Silex) رئيس تحرير الصحيفة المحافظة (دويتش ألكماينه زايونگ Deutsche Allgemeine Zeitung) البرلينية الذي كان أيضاً مراسلاً في لندن وهو باحث رودسي Rhodes ومعجب متحمس للانكليز وحر التفكير، خدم النازي أحسن خدمة بل وأصبح على حد قول رئيس مكتب صحافة الرايخ (أوتو ديتريش)، "پاپاويماً أكثر من البابا". عندما كان يتحدث مرة عن "صحف المعارضة". وكان الفضل لبقاء هذه الصحف الثلاث يعود بعض الشيء الى تأثير وزارة الخارجية

الألمانية التي كانت تريد أن تتخذ من هذه الصحف المعروفة عالمياً نوعاً من واجهة تخدع بها العالم الخارجي، فقد أضفت طابع إحترام على ألمانيا النازية وفي عين الوقت كانت تروج لها دعائيتها.

لما باتت كل الصحف الألمانية تتلقى الإيعاز بما تنشر وكيف تكتب الأنباء والإفتتاحيات، لم يعد مندوحة من أن يختم على صحافة البلاد طابع موحد رتيب، مله وسئم منه حتى ذلك الشعب الذي اعتاد النظام الكتائبي في حياته ولم ير بأساً في خضوعه للحكم المطلق. ضاق الجمهور ذرعاً بالأنباء التي تنشرها الصحف اليومية فهبط البيع حتى في صحيفتي الحزب النازي الرئيسيتين (الفولكشر بيوباختر) الصباحية و(دير انكريف) المسائية. وكان المجموع العام لتوزيع كل الصحف يهبط بإطرادٍ وانحدار سريع كلما تعاقب دخول الصحف تباعاً تحت نفوذ الناشرين النازيين أو إمتلاكهم لها. ونزل عدد الصحف في السنين الأربع الأولى من عهد الرايخ الثالث الى (٢٦٧١) صحيفة بعد ان كان (٣٦٠٧).

إلا أن خسارة البلاد في الصحافة الحرة المتعددة الجوانب كان معناه ربح الحزب مالياً على الأقل. لقد أصبح (ماكس أمان) عريف هتلر في الحرب العالمية الأولى ورئيس (إهر فيرلاخ) دار نشر الحزب-الدكتاتور المالي للصحافة الألمانية. وبحكم منصبه (كزعيم رايخ) للصحافة ورئيس (غرفة الصحافة)، كان له الحق في منع إصدار أي مطبوع شاء ثم صلاحية شرائه بالنزr اليسير. وأصبحت دار (أهر فيرلاخ) خلال مدة وجيزة إمبراطورية ضخمة للنشر، ربما أعظم دار للنشر في العالم وأكثرها ربحاً^(١١).

وبالرغم من هبوط البيع في عدد كبير من الصحف النازية فان الصحف اليومية التي تملكها الدار، أو تسيطر عليها حزبياً، أو بواسطة أشخاص نازيين تؤلف ثلثي مجموع توزيع الصحف العام اليومي البالغ (٢٥) مليون نسخة في أوائل أيام الحرب الثانية. وقد شرح (أمان) طريقة إدارة أعماله في شهادته التي أدلى بها أمام محكمة نورمبرگ قال: "بعد أن وثب الحزب الى كرسي الحكم في ١٩٣٣... وجدت عدة دور نشر من أمثال (دار أولشتاين) التي كان يملكها ويديرها رجال أعمال يهود أو رجال ذوو مصالح سياسية أو دينية معادية للحزب النازي وجدت من الأفضل بيع صحفها وإمتيازاتها فيها من دارنا. ولم يكن هناك سوق حر لبيع هذه الملكية وكانت (إهر فيرلاخ) الشاري الوحيد بصورة عامة. وبهذا أصبحت (إهر فيرلاخ) مع الدور الأخرى التي تملكها أو تسيطر عليها إحتكاراً واسعاً لنشر الصحف في ألمانيا... إن إستثمارات الحزب المالية في هذه المشاريع النشرية أصابت غاية النجاح. ومن الصواب القول أن الغاية الأساسية للصحافة النازية هي إستئصال كل الصحف التي تعادي الحزب.^(١٢)"

١١- صعد دخل (أمان) الخاص من (١٠٨.٠٠٠) مارك في ١٩٣٤ الى المبلغ الخيالي (٣٨٠.٠٠٠) مارك في ١٩٤٢ (رسالة الى الكاتب من الأستاذ اوروون هيل الذي قام بدراسة في السجلات الباقية من دار النشر النازية.

١٢- شهادة (أمان) في ١٩ تشرين ١٩٤٥ [مؤامرة النازيين... ج ٥ الص ٧٣٥-٧٣٦، الوثائق ٣٠ ١٦ PS].

وفي إحدى الفترات (١٩٣٤) ناشد كل من أمان وگوبلز رؤساء التحرير الخاضعين لهم، أن يعملوا على جعل صحفهم أقل رتابةً وملالةً. وقال أمان انه لم يرضَ عن "الوحدة التامة التي تجمع كل الصحف في قالب متماثل ولم تكن من عمل الحكومة وإجرائاتها، ولا تتفق وإرادتها". وارتكب رئيس تحرير متهور يدعى (ايم فلكه Ehm Welke) غلطةً في أخذ كلام (أمان وگوبلز) مأخذاً جدياً. فانتقد في مجلته الأسبوعية (گرويه پوست Gruene Post) وزارة الدعاية لشريطها الأحمر ويدها الباطشة التي تمسك بها زمام الصحافة فتجعلها مملة جداً. فاقفقت مجلته عن الصدور حالاً لمدة ثلاثة أشهر وفصله گوبلز ثم ألقى عليه القبض وأودع أحد معسكرات الاعتقال.

ووضع اللجام في فم مصالح السينما والراديو لتخدم دعاية الدولة النازية. كان گوبلز يرى الراديو (لم يشع إستعمال التلفزة بعد) أداة رئيسة للدعاية في المجتمع العصري وقد بسط سيطرته التامة عن طريق مديرية الإذاعة و(غرفة راديو الرايخ) على الإذاعة اللاسلكية ووضعها في الإطار الذي يخدم أهدافه. ومما سهل عليه ذلك أن الراديو في ألمانيا (كما في غيرها من بلدان أوروبا) هو إحتكار للدولة وملك لها تديره كما تشاء. وفي ١٩٣٣ وجدت الحكومة النازية نفسها مالكة لهيئة إذاعة الرايخ بشكل تلقائي.

بقيت الأفلام في أيدي شركات خاصة إلا أن وزارة الدعاية و(غرفة سينما الرايخ) أشرفت على كل ركن في هذه الصناعة. وحددت مهمتها - بعبارة وردت عن لسان أحد الموظفين "إنتشال صناعة السينما من دائرة الأفكار الإقتصادية الليبرالية... وجعلها بهذا جديرة بالنهوض بالمهام التي وجب عليها إنجازها في الدولة القومية الاشتراكية".

وكانت نتيجة هذين الأمرين أن أبتلي الشعب الألماني بمناهج للراديو وأفلام سينمائية، سمجة فارغة تبعث السأم والملالة قدر ما تبعثه محتويات الصحف اليومية والمجلات فيه. حتى هذا الجمهور الذي يخضع عادةً دون إحتجاج لما يقال بأنه جيد له، ثار ثائره وأعلن إستنكاره، فكنت ترى الرواد يبتعدون زرافات عن الأفلام النازية ويمألون دور السينما التي تعرض تلك الأفلام الأجنبية القليلة (وأغلبها أفلام أمريكية من الدرجة الثانية) التي يسمح گوبلز بعرضها على الجمهور الألماني. وفي فترة من أواسط الثلاثينات وصل التذمر من الأفلام الألمانية حداً اضطر معه وزير الداخلية (فلهلم فريك) الى إصدار بيان صارم ضدّ السلوك الخياني الذي يبدیه مرتادو السينما". كذلك كانت تنتقد برامج الراديو على نطاق واسع حتى صرح (رئيس غرفة الراديو) هورست درسلر - اندريس Horst Dressler-Andress أن إنتقاداً كهذا "هو إهانة للثقافة الألمانية" ولن يتسامح فيه. في تلكم الأيام من الثلاثينات كان المستمع الألماني يستطيع إدارة عقرب الراديو الى عشرات من المحطات الأجنبية دون المخاطرة برأسه - كما حصل فيما بعد عند نشوب الحرب وربما كانت قلة منهم تفعل ذلك. وإن كان

الإنطباع الذي تكوّن للمؤلف بمرور السنين هو أن الدكتور غوبلز أصاب كيد الحقيقة بتكهنه أن الراديو بات أمضى وأقوى وسيلة دعائية مؤثرة هو لدعم النظام القائم. يعمل أكثر مما تعمله أية وسيلة أخرى من وسائل الإتصال الفكري لتهيئة الشعب الألماني بالشكل الذي يريده هتلر.

لقد جربت أنا نفسي السهولة التي تنطلي بها الكذبة وكيف يندفع المرء بالصحافة المراقبة والراديو الموجّه في دولة ذات حكم مطلق. كنت أنفرد عن معظم الألمان بميزة الإطلاع اليومي على الصحف الأجنبية ولاسيّما صحف لندن وباريس وزوريخ التي تصلني بعد صدورها بيوم واحد ومع أنني كنت أصغي بانتظام الى هيئة الإذاعة البريطانية BBC وغيرها من الإذاعات الأجنبية فعلي يقتضي مني صرف ساعات كثيرة من اليوم في تدقيق الصحف الألمانية والإنصات الى الراديو الألماني والتحدث الى الموظفين النازيين وغشيان الحفلات الإجتماعية، والعجيب بل المفزع أحياناً أن أجدني - رغم فرصى الكثيرة في معرفة الحقائق، ورغم عدم الثقة المتأصل فيّ ازاء ما يستمد من مصادر نازية. فان غذاء مستمرّاً على كرور السنين من التزييف والتشويه والتزوير يخلف والحق يقال إنطباعاً معيناً في عقل المرء كثيراً ما يضلله. لا أحد يستطيع أن يفهم كم هو صعب ان يتخلص المرء من الآثار المرعبة لدعاية نظام سياسي ذات طبيعة إستمرارية وحساب دقيق، إلا اذا عاش عدة سنين في بلادٍ يسيطر عليها حكم مطلق توتاليتاري. كثيراً ما وجدتني في منزل ألمانيّ أو في دائرة أو في حديث عابرٍ مع غريبٍ صادفته في مطعمٍ أو مشربٍ بيرة أو مقهى - أواجهُ بأغرب التأكيدات أو التحليلات من أناس مظهرهم يدل على الثقافة والذكاء. واضح انهم يرددون ترديداً ببغائياً قطعة من الهذر سمعوها من الراديو أو قرأوها في الصحف. ويرى المرء نفسه أحياناً أن يقول ما يجول في ذهنه مصححاً وفي هذه المناسبات يجد في إنتظاره نظرة إستغراب وعدم تصديق أو صمتاً عميقاً كأنما نطق بشتيمة أو كفر بالواحد القهار، فلا يلبث ان يدرك عبث محاولته في إيجاد صلةٍ مع ذهن أصبح ملتويّاً باتت حقائق الحياة عنده كما صورها له هتلر وغوبلز بإزدرائهما الحقيقة وعدم الاكتراث بها.

-5-

التعليم في الرايخ الثالث

في ٣٠ نيسان ١٩٣٤ عيّن برنهارد رشت Bernhard Rust وزيراً للرايخ لشؤون العلم والتربية والثقافة العامة. وهو قائد منطقي (أوبرگروينفوهرر) في ال(إس. أي) وگاولايتير هانوفر سابقاً، وعضو نازي وصديق لهتلر منذ أوائل العشرينات. في عالم القومية الإشتراكية الشاذ المنقلب عاليه سافله كان (رشت) خير من يناسب هذا المنصب وتبعاته. وجدناه منذ ١٩٣٠ مدير مدرسة اقليمي

عاطلاً، طردته في تلك السنة السلطات الجمهورية المحلية في هانوفر لظهور أعراض معينة فيه من الإضطراب العقلي والشذوذ في التصرفات وإن كان بعض هذا يُعزى الى تعصبه للنازية. راح (رشت) يبشر بالنازية بحمية غوبلز وجنون روزنبرگ. وعين في شباط ١٩٣٣ وزير العلم والفنون والتربية في حكومة بروسيا وفخر بأنه حقق في عشية وضحاها "تصفية المدارس بوصفها معهداً للبهلوانيات العقلية".

الى هذا الرجل الأجوف الملتاث العقل أودع الإشراف الدكتورائي المطلق على العلم الألماني والمدارس الحكومية ومعاهد الدراسات العليا ومنظمات الشباب. فالتعليم في الرايخ الثالث كما تخيله هتلر لن يكون داخل جدران الصفوف التعليمية المحتشدة بل يتسع ليشمل التدريب الرياضي والسياسي والعسكري في منظمات فتوة متعاقبة تبلغ ذروتها لا في الجامعات أو كليات الهندسة التي لا تمتص إلا أقلية ضئيلة منهم، بل في العمل الإجباري أولاً عند سن الثامنة عشرة ثم الإنخراط في القوات المسلحة.

كان تهكم هتلر وإحتقاره "للأساتذة" والحياة الفكرية الجامعية تغلغل صحائف (كفاحي) الذي اودع فيه بعض آرائه عن التربية فكتب يقول "كل التربية والتعليم تقوم به الحكومة القومية يجب أن يستهدف بالدرجة الأولى لا الى حشو الأذهان بمجرد المعرفة بل الى بناء الأجسام الصحيحة بدنياً والى الأعماق وأهم من هذا أنه شدد النكير على ضرورة السيطرة التامة على الشباب ثم تدريبهم لخدمة "دولة قومية جديدة" وهو موضوع عاد اليه كثيراً بعد ان أصبح دكتاتور ألمانيا "عندما يقول الخصم إنني لأنحاز الى جانبكم... أجيبه بهدوء إن طفلك قد إنحاز الينا... وانت من تكون؟ انك ستذهب. وأولادك الآن يقفون في المعسكر الجديد، ولن يمر بهم وقت طويل حتى لا يعودون يدركون إلا هذا المجتمع الجديد" ذلك ما قاله هتلر في خطبة له في ٦ تشرين الثاني ١٩٣٣، وصرح في (١) أيار ١٩٣٧ "هذا الرايخ الجديد لن يعطي شبابه وفتياناه الى أحد لكنه سيأخذهم لنفسه، ويمنحهم تربيته وتهذيبه الخاصين" ولم يكن ذلك تباهياً أجوف فهذا بالضبط ما كان قد حصل. سرعان ما إصطبغت بالنازية كل المدارس الألمانية من الصف الأول الابتدائي حتى صفوف الجامعات. واعيدت كتابة الكتب المدرسية بغاية الإستعجال وغيّرت المناهج الدراسية curricula وأصبح "كفاحي" على ما تقول صحيفة (دير دويتشه إرزيهير Der Deutsche Erzieher) لسان حال المعلمين والمربين "نجمنا الهادي الذي لا يخطأ في أصول التعليم"، ومن لا يرى من المعلمين هذا النور الجديد، يطرد. وأغلب المعلمين ذوو ميول نازية إن لم يكونوا أعضاء في الحزب. ولأجل تقوية ايدولوجيتهم كانوا يدخلون دورات تدريب ليتشربوا مبادئ القومية الاشتراكية مع الإهتمام بصورة خاصة بمبادئ هتلر العنصرية. وأجبر كل محترف التعليم، إبتداءً من حدائق الأطفال حتى الجامعات الى الإنضواء في سلك "جمعية المعلمين القومية

الإشتراكية" التي هي بحكم القانون "مسؤولة عن تحقيق التنسيق الايدولوجي والسياسي لكل المعلمين وفقاً لمبادئ القومية الإشتراكية" واشترط نظام "الخدمة المدنية" للعام ١٩٣٧ أن يكون المعلمون "منفذي إرادة الدولة التي يدعمها الحزب" وان يظلوا مستعدين "في أي وقت للدفاع عن الدولة القومية الإشتراكية دون تحفظ أو تلكؤ" وجعلهم مرسوم سابق "موظفين عموميين" وبالتالي خاضعين الى القوانين العنصرية. ومنع اليهود بطبيعة الحال من مواصلة التعليم. والزم كل المعلمين بتأدية قسم "الولاء والطاعة لأدولف هتلر" ثم رسم فيما بعد ألا يمارس التعليم إلا بعد أن يكون المرء قد خدم في ال(إس. أي) أو معسكرات العمل، أو منظمة شببية هتلر. وعلى المرشحين للتدريس في الجامعات ان يقضوا ستة أسابيع في معسكر مراقبة، حيث يتولى خبراء نازيون مدارس آرائهم وأخلاقهم ويقدم بذلك تقرير الى وزارة التربية التي تصدر إجازة مواصلة التعليم إستناداً الى "الثقة" بالمجاز سياسياً.

قبل ١٩٣٣ كانت المدارس الحكومية الألمانية تخضع إدارياً الى السلطات الاقليمية المحلية. والجامعات تخضع للدول الفيدرالية أما الآن فقد أخضعت كلها الى الحكم الفولاذي لوزير الرايخ لشؤون التربية والتعليم. فهو الذي يعين العمداء ومدراء الكليات. وكانوا قبلاً يصلون الى مراكزهم عن طريق إنتخاب مجلس أساتذة المعهد كلهم. كذلك صار يجري تعيين رؤساء إتحادات طلبة الجامعات التي ينتمي اليها كل طلاب المعاهد العليا ويعين رؤساء إتحادات المحاضرين التي تشمل كل المعلمين. واعطيت "جمعية القوميين الإشتراكيين لمحاضري الجامعات" وهي تحت القيادة الحازمة لأيدٍ نازية قديمة. دوراً حاسماً في إختيار من يلقي الدروس ومن لايلقي وأن تراقب ما يُدرسون وهل هو متفق مع نظريات النازي.

وكانت نتيجة هذه الصبغة النازية الغامقة جداً، أن حلت كارثة بالتعليم الألماني والفكر الألماني. الكتب المدرسية الجديدة ودروس المعلمين زورت التاريخ تزويراً فاضحاً حتى بات نكتة مضحكة. أما دروس "العلوم العنصرية" التي سمّت بالألمان الى مرتبة الشعب المختار وانحطت بالساميين الى جعلهم أصل كل الشرور في العالم فكانت مهزلة المهازل حقاً. وفي جامعة برلين وحدها حيث كانت منبراً ألقى منه كبار الباحثين والمفكرين دروسهم الشهيرة في الماضي عُبِنَ عميد جديد وهو من جنود العاصفة، يمتنن البيطرة. فأنشأ خمسة وعشرين موضوعاً دراسياً جديداً في العلوم العنصرية Rassenkunde، وفي الوقت الذي وصل به الأمر الى تفكيك الجامعة وتمزيقها كان قد أدخل ثمانين وستة مواضيع مرتبطة بمهنته الخاصة.

وأدرك الانحلال السريع العلوم الطبيعية التي كان تدريسها مفخرة ألمانيا لعدة أجيال. وطرد أو أحيل الى التقاعد معلمون عظام أمثال آينشتاين وفرانك Franck في الفيزياء. وهلبر Haber وفيلشتايتير Willstaetter وفاربورغ Warburg في الكيمياء. أما من بقي فمعظمهم أصيب بعدوى

ضلالات النازيين وزيفهم وحاولوا تطبيقها في العلوم المحضة فبدأوا يدرسون ما أطلقوا عليه "الفيزياء الألمانية" و"الكيمياء الألمانية" و"الرياضيات الألمانية". وأعجب منها أنه صدر في ١٩٣٧ مجلة باسم "دويتش ماتماتيك: الرياضيات الألمانية Deutsche Mathematik" وأعلن مقالها الإفتتاحي بكل جدٍ "أن كل رأي يقول أن الرياضيات لا يمكن الحكم عليها عنصرياً يحمل في ذاته جرثومة تدمير العلم الألماني".

باتت هلوسات هؤلاء العلماء النازيين لا يصدقها حتى الناس العاديون. وتسأل البروفسّر فيليب لينارد Prof. Philipp Lenard من جامعة هايدلبرك وهو واحد من العلماء الكبار المحترمين دولياً في الرايخ الثالث "أفزياء ألمانية؟ ولكن سيكون الرد على ذلك: العلم أُمّي شعوبي وهو باقٍ كذلك- هذا غير صحيح. والحقيقة ان العلم مثل أي منتوج بشري آخر هو عنصري، يكيفه الدم". وراح البروفسّر رودولف توماشيك Prof. Rudolphe Tomaschek أستاذ المعهد الفيزيائي في (درسدن) الى أبعد من زميله فكتب: "الفيزياء الحديثة هي أداة بيد اليهودية [العالمية] تستخدمها لتدمير العلوم النوردية... الفيزياء الحقيقية هي من خلق الروح الجرمانية... في الواقع كل العلوم الأوروبية هي ثمرة الآري... ويعبارة أدق ثمرة الفكر الجرمني". وكان (للأستاذ يوهانس شتارك) رئيس المعهد الألماني القومي للعلوم الفيزيائية رأي مشابه لهذا، حين قال: سيتبين حتماً أن "مؤسسي أبحاث الفيزياء وكبار المكتشفين إبتداءً من غاليليو Galilao حتى نيوتن Newton الى رواد علوم الطبيعة في عصرنا كانوا آريين تقريباً. وبالأخص من العنصر النوردي".

هنالك ايضاً (البروفسّر فلهم مولر) أستاذ الكلية التكنولوجية في آخن Aachen. فقد ذكر في كتاب له عنوانه "اليهودية والعلم". أنه يرى مؤامرة "يهودية لتدنيس العلم، ومن ثم تدمير الحضارة البشرية. ويجد آينشتاين بنظريته في "النسبية" إماماً للسفلة والأنذال. ان نظرية آينشتاين التي بني عليها الكثير جداً من العلوم الطبيعية الحديثة هي في نظر هذا البروفسّر النازي العجيب "موجهة من بدايتها حتى نهايتها الى هدف واحد ألا وهو تغيير العالم الكائن [العالم اللاسامي] الى جوهر كائن. عالم ولد من امه الأرض وارتبط برابطة الدم، يريد آينشتاين ان يمسخه الى تجريد طيفي تتجلى فيه كل الفروق الفردية للأمم والشعوب. تجريد تضيع فيه كل الحدود العميقة التي تفصل ما بين الأجناس العرقية في متاهة اللاحقيقة، حيث لا يعيش فيه غير نقيض لا جوهري ولا مادي مكون من مجرد أبعاد هندسية هي وحدها التي تستخرج كل الأحداث من جبرية [حتمية] خضوعها اللارباني الى القوانين". وعن الحفاوة العالمية الهائلة التي أستقبلت بها نظرية آينشتاين في النسبية عند طبعها، يعلن الأستاذ مولر أنها حفاوة "بإقتراب اليهود من حكم العالم الذي سيكون من نتائجه الخط من الرجولة الألمانية الأبدية المحتوم الى مستوى العبد الذي فقد روحه" أمّا الأستاذ لودفيك بيبيراك Ludvig Bieberback من

جامعة برلين فهو يرى آينشتاين "دجالاً غريباً Mountc Bonk" بل حتى للأستاذ لينارد "إن اليهودي يفتقر إفتقاراً بيناً إلى إدراك الحقيقة... وهو من هذه الناحية نقيض للعالم الآري الباحث، بإرادته إلى الحقيقة الدقيقة والجديّة... ولهذا كانت العلوم الطبيعية اليهودية طيفاً ومظهراً للتحلل الفاسد لعلوم الطبيعة الألمانية الأساسية^(١٣).

مع كل ذلك، فمن ١٩٠٥ حتى ١٩٣١ منح عشرة من الألمان اليهود جوائز نوبل لما قدموه للعلم. منح أستاذة الجامعات مساندتهم العمياء للحكومة المحافظة وأهدافها التوسعية في عهد الرايخ الثاني مثلما فعل رجال الدين البروتستانت وكانت قاعات المحاضرات حظائر تفريخ للقومية الحاقدة واللاسامية. وأصرّت جمهورية (فايمر) على الحرية الأكاديمية المطلقة، فكانت نتيجة ذلك أن الأساتذة وأغليبتهم الساحقة ضد الأفكار الحرة، وضد الديمقراطية وضد السامية. عاونوا كثيراً في نفس النظام الديمقراطي. كان معظم الأساتذة من القوميين المتعصبين الشوفينيين يرغبون عودةً لألمانيا الملكية المحافظة ومع أنهم كانوا يرون النازيين قبل ١٩٣٣ أكثر عنفاً وعريضة من أن يحالفهم إلا أن دروسهم ساعدت على تهيئة الأرض لمجيء النازية. لم تغيء السنة ١٩٣٢ حتى كانت أغلبية الطلاب متحمسة لهتلر. قد يدهش بعض الناس لكثرة عدد أساتذة الجامعات والكليات الذين إنضوا تحت لواء صيغ العلوم العليا بالنازية بعيد ١٩٣٣ ومع ان الأرقام الرسمية تبليغ عدد الاساتذة والمدرسين المفصولين خلال السنوات الخمس الأولى من الحكم النازي الى (٢٨٠٠) وهو زهاء ربع المجموع الكلي. إلا أن نسبة من فقد وظيفته بسبب تحديه القومية الاشتراكية كان "قليلًا للغاية" كما ذكر البروفسر فلهلم رويكه Prof. W. Roebka الذي فصل هو بالذات من جامعة ماربورغ في ١٩٣٣. ومع ضالة النسبة فهناك أسماء أشتهرت في العالم الأكاديمي الألماني مثل (كارل ياشپارس Karl Jaspers) و(اي. آي. غوميل E. I. Gumbel) و(ثيودور لت Theodor Litt) و(كارل بارث Karl Barth) و(يوليوس اينينگهاوس Julius Ebbinghaus) وعشرات غيرهم. ومعظمهم هاجر الى سويسرا وهولندا وإنجلترا ثم الى أمريكا.

وعقبت العصابات النازية أحدهم وهو البروفسر (ثيودور ليسنغ Theodor Lessing) الذي هرب الى چيكوسلوفاكيا فصرعه رصاصهم في ٣١ آب ١٩٣٣. وعلى كل حال ظلت أغلبية كبيرة من الأساتذة في كراسيها وفي مطلع خريف ١٩٣٣ تقدم زهاء تسعمائة وستين منهم وفي طليعتهم أسماء لامعة في سماء العلم أمثال الأستاذ الجراحى ساوربروخ Sauerbruch وهايدگر Heidegger الفيلسوف الوجودي وپندر Pinder مؤرخ الفن ليقسموا يمين الولاء علناً لهتلر وللنظام القومي الاشتراكي. علق البروفسر رويكه على ذلك فيما بعد قال: "إنه مشهد من مشاهد تعاطي الفحش وصم بالعار تاريخ الفكر

١٣- كان معظم المراسلين الأجانب في برلين يحتفظون بمجموعات من هذه النوادر ولقد فقدت مجموعتي الخاصة. والنصوص المدرجة هي من (فليب لينارد) "الطبيعيات الألمانية! المقدمة" بقلم والاس دويل Wallace Deuel. "الناس تحت حكم هتلر" وليام اينشتاين William Ebenstein "الدولة النازية"

الألماني الشريف^(١٤)، مثلما قال البروفسر يوليوس اينگهاوس وهو ينظر المجازز والدمار المتخلف في ١٩٤٥ "تقاعست الجامعات الألمانية حين كان يوجد فرصة وقبل فوات الأوان. تقاعست عن المعارضة العلنية وبكل ما لديها من قوى للحيلولة دون تدمير المعرفة وخراب الدولة الديمقراطية. تقاعست عن ابقاء مشعل الحرية والحق موقداً في غيب الطغيان الأسحم^(١٥)".

وكان ثمن هذا التقاعس باهظاً فبعد ستّ سنين من عملية الطلاء النازية هبط عدد طلاب الجامعة الى أكثر من النصف (من ١٢٧٩٢٠ الى ٥٨٣٢٥) وتناقص عدد الطلاب المسجلين في المعاهد التكنولوجية التي قد ألمانيا بعلمائها ومهندسيها الى نسبة أكبر من ٢٠٤٧٤ طالباً الى ٩٥٥٤ طالباً وهبط المستوى الأكاديمي هبوطاً يصيب المرء بالدوار. فلم يقتصر الأمر في ١٩٣٧ على قلة الشباب المطلوبين في شتى نواحي العلم والهندسة. بل تعداه الى مستوى هذه القلة المتدني علمياً. فقبل نشوب الحرب العالمية الثانية بزم طويل كانت الصناعة الكيميائية المشغولة في توسيع برنامج إعادة التسليح تتشكى في صحيفتها "الصناعة الكيميائية Die Chemische Industrie" من ان ألمانيا تفقد مركزها القيادي الطبيعي في الكيمياء. ولم يعد الخطر يكتنف الإقتصاد القومي بل تعداه الى الدفاع القومي وعزت أسباب ذلك إلى قلة العلماء الشباب وكفاءاتهم المتدنية بسبب المستوى العلمي المتردي في كليات العلوم.

وشاء أن يكون فقر ألمانيا النازية ربحاً للعالم الحرّ. وبخاصة في السباق الى أولوية السلاح النووي. إن قصة المجاهدات الناجحة التي قام بها قادة النازي بقيادة هتلر، لعرقلة برنامج الطاقة الذرية هي طويلة جداً. وهي مما سوف نقصه هنا. لقد شاعت سخرية القدر أن يعود الفضل في تقدم القنبلة في الولايات المتحدة بالدرجة الأولى الى رجلين نُفيا عن موطنهما بسبب العرق من جانب الدكتاتوريتين النازية والفاشية: آينشتاين من ألمانيا. وفيرمي Fermi من إيطاليا.

لم يكن هتلر لياؤه كثيراً بالمدارس الحكومية التي تركها هو نفسه في أوائل سني حياته. وانما كان كل إهتمامه منصباً على منظمات شبيبة هتلر التي عوّل عليها لتربية فتيان ألمانيا تحقيقاً للهدف الذي رسمه في ذهنه. لم تكن حركة شبيبة هتلر في أوائل سني كفاح الحزب النازي بتلك الحركة الواسعة. وقد بلغ عدد أعضائها في ١٩٣٣ وهي آخر سنة من حياة الجمهورية ٩٥٦, ١٠٧ عضواً مقابل عشرة ملايين فتى ينقسمون الى مختلف المنظمات الفنية المتحدة في (لجنة منظمات الرايخ للشباب الألماني) ولم يكن في العالم حركة شبان واسعة منظمة كذلك التي كانت في ألمانيا الجمهورية ولقد أدرك هتلر ذلك وعزم على وضع يده عليها وصبغها بالنازية. وكان رئيس أعوانه لتحقيق هذا

١٤- وليام رويكه: حل المشكلة الألمانية ص ٦١.

١٥- إقتباس في فردريك ليلكه "Fredric Lilge" هتك حرمة العلم: فشل الجامعة الألمانية ص ٢٦.

المطلب شابٌ وسيم خفيف العقل، لكنه ذو حيوية وإندفاع عظميين هو (بالدر فون شيراخ) وقع تحت سحر هتلر وانضم إلى الحزب في ١٩٢٥ وهو في سن السابعة عشرة. وفي ١٩٣١ سُمي قائد الشباب في الحزب النازي. وكان يبدو بين ذوي القمصان الرمادية الغلاظ المشوهي الوجوه باللندوب كأنه طالب جامعي أمريكي بريء غير ناضج. وربما كان ذلك يعود إلى اتصال نسبه بأسلاف أمريكيين كما رأينا [ومن ضمهم إثنان من الموقعين على تصريح الإستقلال الأمريكي^(١٦)]. نصب (شيراخ) "زعيم شباب الرايخ الألماني" في حزيران ١٩٣٣ وراح يقلد تاكتيك قادته الكبار فكان باكورة أعماله أن أرسل حملة قوامها خمسون شاباً غليظاً شاكلي السلاح لإحتلال المقر الوطني للجنة منظمات شباب الرايخ. فأُلجئ رئيس اللجنة (الجنرال فوغت Vogt) وهو ضابط بروسي قديم إلى الفرار. ثم لاحق واحداً من أشهر أبطال البحر الألمان الأميرال فون تروثه Von Trotha رئيس هيئة أركان أسطول ما وراء البحار في الحرب العالمية الأولى الذي كان آنذاك رئيس إتحاد الشبيبة. فهرب الأميرال الشهير أيضاً وحلّت منظمته ووضعت اليد على ممتلكات المنظمات، ومعظمهما مئات من فنادق الشباب الخاصة منتشرة في أرجاء ألمانيا.

إن (الكونكوردات) المعقودة مع الفاتيكان في ٢٠ تموز ١٩٣٣ اشترطت بنص صريح على استمرار جمعية الشبيبة الكاثوليكية في مزاولة نشاطها دون أي عائق. لكن هتلر أصدر في ١ كانون الأول ١٩٣٦ قانوناً يحلها وحل كل منظمات الشباب الأخرى غير النازية.

"كل شباب الألمان في الرايخ يتم تنظيمهم داخل "شبيبة هتلر" إلى جانب تربية الفتية الألمان داخل نطاق الأسرة وفي المدارس فيجب أن يتولى تربيتهم بديناً وعقلياً وخلقياً على روح القومية الاشتراكية... عن طريق شبيبة هتلر^(١٧)" وانتقلت تابعة شيراخ لوزارة التربية، ليعقدوا مسؤولاً أمام هتلر بصورة مباشرة.

وأصبح هذا الشاب ذو التسعة والعشرين ربيعاً الذي لم يتم نضجه والذي يكتب قصائد غنائية بمدح هتلر ("هذا العبقري الذي يرعى في حقل النجوم") ويتأثير خطى روزنبرغ في وثنيته الشاذة وشترايخ في عدائه السام للسامية أصبح دكتاتوراً للشباب في الرايخ الثالث حيث ينتظم الفتيان والفتيات من سن السادسة إلى الثامنة عشرة (وهو سن التجنيد للعمل والجيش) في مختلف كوادرات شبيبة هتلر. ويعاقب الآباء الذين يحاولون منع أولادهم من الانضمام إليها بعقوبات سجن قاسية. حتى لو اقتصر على إظهار احتجاجهم في دخول بناتهم بعض الخدمات حيث بلغ عدد قضايا الحمل غير الشرعي حداً فاضحاً.

١٦- ذكر أسلاف شيراخ الأمريكيان دوغلاس ك. كيلي وهو الطبيب النفساني المنتدب في سجن نورمبرغ أثناء محاكمة مجرمي الحرب الكبار في كتاب "نزاعات في نورمبرغ" ص ٨٦-٨٧.

١٧- Reichsgesetzblatt ١٩٣٦ القسم الأول ص ٩٣٣. (مؤامرة النازيين ج ٣ الص ٩٧٢-٩٧٣، الوثائق: ١٣٩٢ PS).

من سن السادسة حتى العاشرة يدخل الصبي منظمات تمهيدية لشبيبة هتلر كمستجد Pimlf ويعطى كل صبي دفتر وقوعات يسجل فيه تقدمه طوال فترة بقائه في (شبيبة هتلر) ومما يدون عنه نموه الفكري. وفي سن العاشرة بعد مروره في إختبارات مناسبة في الرياضة البدنية والمخيمات والتاريخ النازي الصبغة. يتخرج ويصبح "فتى Jungvolk" ويقسم اليمين التالية:

"أمام هذا العلم الدموي الذي يمثل زعيمنا أقسم بأنني سأوقف كل نشاطي وقولي لمنقذ بلادنا أدولف هتلر. إني مستعد وراض ببذل حياتي فداء له. ألا فليكن الله في عوني".

وفي الرابعة عشرة يدخل الفتى منظمة (شبيبة هتلر) الأصلية ويبقى فيها حتى يبلغ الثامنة عشرة. لينتقل بعدها الى معسكرات العمل ثم الجيش. إنها لمنظمة جبارة وضعت نظمها على قواعد شبه عسكرية مثل ال(إس. أي) فيها يتلقى الشباب الذين هم على عتبة الرجولة تدريباً منتظماً لا على أسلوب التخميم والمعسكرات والرياضة والايديولوجية النازية وانما في صناعة الحرب. وكثيراً ما اعترض سبيل المؤلف في أيام الآحاد وهو يقضي نزهته في ضواحي برلين، شبيبة هتلر وهي تزحف زحفاً في الغابات أو تتسلق الروابي تحمل البنادق وعلى ظهورها تجهيزات الجندي الكاملة.

وأحياناً تتلهى الفتيات بلعبة الجندي أيضاً. لأن حركة شبيبة هتلر لاتهمل الفتيات. فالبنات الألمانيات من العاشرة حتى الرابعة عشرة ينضمون إلى "اليونگميدل Jungmaedel" وترجمها بالحرف "السيدات الصغيرات" ولهن أيضاً بزتهن الرسمية وتتألف من بلوز أبيض، وتنورة تامة زرقاء وجورب وحذاء سير ثقيل -غير أنثوي أبداً- وتدريب لا يختلف كثيراً عن تدريب الصبيان في العمر المماثل. فيتضمن المسيرات الطويلة في أيام الآحاد بالتجهيزات الثقيلة والدروس المعتادة في الفلسفة النازية. لكن هناك تشديداً خاصاً وجد في الرايخ الثالث بخصوص دور المرأة. وهي ان تكون قبل كل شيء أمّاً موفورة الصحة لأطفال موفوري الصحة. ويشدد في هذا أكثر، عندما تصبح الصبايا وهن في الرابعة عشرة - عضوات في BDM أي "عصبة الفتيات الألمانيات Bund Deutscher Maedel".

وفي سن الثامنة عشرة يقوم آلاف منهن (يبقين في العصبة حتى سن الحادية والعشرين) بالعمل سنّة واحدة في المزارع أو ما يدعى "سنة الأرض Land Jahr" وهي موازية لسنة عمل الشباب ومهماتهم تنحصر في مساعدة الريفيين في البيت والحقل. ويعشن أحياناً في بيوت الفلاحين وأحياناً كثيرة في مخيمات تقام في المناطق الزراعية حيث يؤخذن باللوريات يومياً عند الفجر الى الحقول. وسرعان ما برزت المشكلة الخلقية. كان وجود البنات الجميلة المغرية يوقع أحياناً الإضطراب في بيت الفلاح. وسمعت احتجاجات ساخطة من الآباء حول ظهور علائم الحبلى على بناتهن في المزارع. إلا أن ذلك لم يكن المشكلة الوحيدة. فقد جرت العادة أن يكون مخيم الفتيات قريباً من مخيمات جبهة العمل للشباب. ويظهر أن لهذا الجوار دخلاً في كثير من حالات الحمل أيضاً. وشاع بيت من الشعر في

ألمانيا من أقصاها الى أدناها. وهو تشطير لعبارة "القوة من خلال الفرح" شعار حركة جبهة العمل إلا أنه يطلق بصورة أخصّ على (سنة عمل) الفتيات:

في الحـقـقـول وفي المـرـوج
أفقد القوّة من خلال الفرح!

مشاكل خلقية مشابهة أيضاً أثناء سنة الخدمة الواحدة في الأسرة بالنسبة الى الفتيات. حيث كان يقضي نصف مليون فتاة من شببية هتلر عاماً واحداً في خدمة بيوت المدن. والواقع أن الألماني النازي الصادق النية لا يجدها مشاكل خلقية أبداً. أصغيت أكثر من مرة الى مرشدات لفتيات هتلر BDM ومعظمهن لسن بالجميلات وغير متزوجات عادة- وهن يعظن الفتيات اللاتي وضعن تحت إشرافهن، حول الواجب الأدبي والقوميّ لحمل الأطفال ووضعهم في سبيل رايش هتلر- عن طريق الزواج إن كان ممكناً، أو بدون زواج عندما تقضي الضرورة.

في نهاية ١٩٣٨ بلغ عدد شببية هتلر (٢٥٩, ٧٢٨, ٧) ومع ضخامة العدد يبدو واضحاً أن حوالي أربعة ملايين قد إستطاعوا البقاء خارج المنظمة وفي ١٩٣٩ اصدرت الحكومة قانوناً يقضي بالزام جميع الشباب والشابات بالإنخراط في (شببية هتلر) على عين الأسس التي يقضي بها قانون التجنيد الإجباري وأنذر الأباء المترددون أن أطفالهم سينزعون منهم ويوضعون في ملاجئ الأيتام أو في بيوت أخرى ان لم يدخلوهم المنظمة.

وجاء الإنحراف الأخير في ثقافة الرايخ الثالث عند إنشاء ثلاثة أصناف من المدارس لتدريب الصفوة المنتخبة وهي مدارس أدولف هتلر، وتدار بإشراف (شببية هتلر) والمعاهد القومية السياسية للتربية. و(معادل النظام) والصنفان الأخيران يديرهما الحزب. وتأخذ "مدارس أدولف هتلر" أنبغ الصبيان من منظمة الأحداث (يونكفولك) في سن الثانية عشرة وتخضعهم الى تدريب صارم للقيادة في الحزب وفي الوظائف العامة ويعيش الطلاب في المدرسة تحت ضبط صارم ويتخرجهم يقبلون في الجامعات. لقد أسس عشر مدارس من هذا الصنف عقب ١٩٣٧ وكبراهن تدعى أكاديمي Akademie في برونزويك.

والغاية من إنشاء معاهد سياسية للتربية هو إحياء فط التربية التي كان في الماضي يمارس في الاكاديميات العسكرية البروسية وهي كما عبر عنه أحد المسؤولين تنمي "الروح العسكرية بشمائلها كالشجاعة والشعور بالواجب والبساطة". والى هذا أضيف تدريب خاص في المبادئ النازية. وهذه المدارس وضعت تحت إشراف (الحرس الأسود) الذي زودها بالمدرّاء ومعظم المعلمين. لقد انشئت ثلاث مدارس من هذا النوع في ١٩٣٣ وبلغ عددها الثلاثين قبل نشوب الحرب وخصص ثلاث منها للإناث. وفي قمة الهرم يقوم ما يطلق عليه (معادل النظام Ordensburgen) في هذه المدارس بجوها الشبيه

بأجواء قلاع أخوية فرسان التيوتون للقرنين الرابع عشر والخامس عشر، تدرب النخبة المختارة من صفوة النازيين. إن نظام الفرسان موضوع على أساس الطاعة العمياء للسيد Ordenmeiten وهو وقف على غاية فتح الألمان أراضي السلافيين في الشرق وإستعباد أهاليها. و"لمعاقل نظام النازيين" هذا نظام وغايات مشابهة ولا يختار لها إلا أشد شباب القوميين الإشتراكيين تعصباً وتحمساً. ويؤتى بهم عادة من أوائل خريجي (مدارس أدولف هتلر) ومعاهد التربية السياسية وهناك أربعة معاقل والطالب يؤمها جميعاً بالتعاقب. وأول ست سنوات يقضيها في واحدة منها للتخصص في (العلوم العنصرية) وغير ذلك من وجوه الفكر النازي. ويعطى الإهتمام الأول للتدريب الذهني والضيظ مع التدريب البدني ملحقاتاً به. وتنعكس الآلية في القلعة الثانية حيث تعطى الأولوية للرياضة والتدريب البدني كتسليق الجبال والقفز بالمظلة. وتقدم القلعة الثالثة وأمدتها سنة ونصف سنة دروساً سياسية وعسكرية. وتأتي أخيراً المرحلة الرابعة والأخيرة من هذه الدراسة. فيرسل الطالب سنة ونصف سنة إلى "القلعة المدرسة" الواقعة في مارينسنزبرغ Marienburg في بروسيا الشرقية القريبة من الحدود البولندية. فهناك وفي القلعة الأصلية التي كانت معقلاً حصيناً لفرسان التيوتون قبل خمسة قرون تتركز دراساته السياسية والعسكرية في المسألة الشرقية. وحاجة ألمانيا (وحقها!!) في التوسع على حساب أراضي السلافيين الأيدي عن "المجال الحيوي: لينينزراوم Lebensraum- وهو لا أبالك تهيؤ ممتاز (كما ظهر فيما بعد وكما كان مقدراً له بلاشك) لأحداث ١٩٣٩ وما تلاها.

بهذا الشكل كان الشباب يدرّبون على الحياة والعمل والموت في الرايخ الثالث. ومع أن عقولهم كانت تُسمم عمداً ودراساتهم تُقطع ويوتهم تتغير تبعاً لتقلبات تربيتهم وسرعتها. فيبدو أن الفتیان والفتيات والشابات والشبان كانوا سعداء ممتلئين رغبة في التمتع بالحياة التي تقدمها لهم شبيبة هتلر. وليس ثم شك في أن عملية جمع الأطفال من كل الطبقات والمراكز الإجتماعية وانماط الحياة. حيث يساهم الكل في واجبات واحدة ويعيشون حياة واحدة سواء أولئك الذين جاؤوا من الفقر والخصاصة أو نشأوا في بحبوحة. من بيت عامل أو فلاح أو تاجر أو أرستقراطي. لاشك ان ذلك شيء جميل صحيح نافع بحد ذاته. وفي أغلب الأحوال لا يكون هناك ضرر في ان يقضي فتى المدينة وفتاتها ستة أشهر في عمل إلزامي يعيشان في الخلاء ويتعلمان قيمة العمل البدوي، ويتفهمان كيفية إنسجامها مع غيرهما ممن يختلفون عنهما مشرباً ومركزاً ومنبتاً. ولم يفت أي شخص دائم التنقل في أرجاء ألمانيا آنذاك. تحدث مع هؤلاء الفتیان في معسكراتهم وراقبهم وهم يشتغلون ويلعبون ويغنون. أن يرى حركة فتية مندفعة لاتصدق. رغم ما تلقّنه من التعاليم الخطرة السامة.

كان فتیان الرايخ الثالث ينمون لتشتد سواعدهم وتنصح أبدانهم وليقوى إيمانهم بمستقبل بلادهم وبأنفسهم وليكون لديهم شعور بالزمالة والرفاقية تحقق كل الفروق الطبقيّة والإقتصادية وتزيل كل

الحدود الإجتماعية. فكرت في هذا فيما بعد - في أيار ١٩٤٠ عندما كنت أشاهد على طول الطريق بين (آخن) و(بروكسل) الإختلاف الشديد بين الجنود الألمان ذوي البشرة النحاسية والعصل المفتول بفضل أيام الشباب التي قضوها في الخلاء تحت الشمس يتناولون طعاماً صحياً، وبين أول قافلة من أسرى الحرب الانكليز بوجناتهم المعروقة ومناكبهم الشديدة الانحناء وسيمائهم الشاحبة وأسنانهم المتسوسة - أمثلة مؤلمة للشباب الذين أهملتهم إنكلترا بعدم شعور بالمسؤولية في فترة ما بين الحربين.

-٦-

الفلاح في الرايخ الثالث

عندما إستولى هتلر على الحكم كان الفلاح -كشأنه في أغلب الأقطار- يعاني ضائقة لا مخرج منها. يقول كاتب في صحيفة فرانكفورتر زايتمغ ان وضع الفلاح كان أسوأ من أي وضع عاناه الفلاح الألماني منذ حرب الفلاحين المدمرة ١٥٢٤-١٥٢٥ التي خربت الأراضي الألمانية. لقد سجل الدخل الزراعي للسنة ١٩٣٢-١٩٣٣ إنخفاضاً جديداً يزيد بأكثر من بليون مارك على أسوأ إنخفاض عاناه بعد الحرب وهو للسنة ١٩٢٤-١٩٢٥ وبلغ مجموع ديون الفلاحين أكثر إثني عشر مليون مارك. تراكم معظمها تقريباً في السنوات الثماني الأخيرة. وكانت الفائدة على هذه الديون تمتص حوالي ١٤٪ من مجموع الدخل الزراعي الكلي. ويضاف الى هذا عبء مشابه تمثله الضرائب والمشاركات في الخدمات الإجتماعية.

ولقد أنذر هتلر في أولى أيام مستشاريته "يا رفاق الحزب. كونوا على بينة من أمر واحد: هناك أمل أخير، فرصة واحدة أخيرة لطبقة الفلاحين الألمان". وفي تشرين الأول ١٩٣٣ صرح قائلاً "في خراب الفلاح الألماني سيكون خراب الشعب الألماني".

ظل الحزب النازي سنينا وهو يعمل على كسب الفلاحين الى صفه وقد تعهدت لهم الفقرة السابعة عشرة من برنامج الحزب الذي لايقبل أي تغيير أو تعديل "بالإصلاح الزراعي... وبقانون مصادرة الأراضي الزراعية دون تعويض للنفع العام وبإلغاء الفائدة على الديون الزراعية ومنع المضاربة بالأراضي الزراعية" وكمعظم الفقرات الأخرى من المنهاج لم يتحقق شيء من الوعود للفلاحين - باستثناء العبارة الأخيرة التي منعت المضاربة بالأراضي. ففي ١٩٣٨ كان توزيع الأراضي على حالته السابقة، أكثر تفاوتاً مما هو في أي قطر آخر في أوروبا. والأرقام المنشورة في تلك السنة بكتاب الإحصاء السنوي الرسمي يوضح أن أصغر المليونين ونصف المليون مزرعة حجماً، تبلغ مساحتها أقل

من الواحد بالألف من أكبر مزرعة في ألمانيا. وان الديكتاتورية النازية كالحكومات البرجوازية الاشتراكية في النظام الجمهوري لم تتجرأ على تخطيط الإقطاعات الواسعة من الأراضي الزراعية التي يملكها اليونكرز، وهي التي تقع على ضفة (الآلبه) الشرقية.

ومهما يكن فإن النازيين وضعوا برنامجاً زراعياً واسع النطاق صحبته دعاية عظيمة تهز المشاعر حول "الدم والتربة Blut und Boden" وان "الفلاحين هم ملح الأرض وأمل الرايخ الثالث الأعظم. ولأجل تطبيق البرنامج عين هتلر (فالتر داريه) وهو واحد من قادة الحزب القلائل الذين يعرفون أين يضعون أقدامهم حق المعرفة، رغم مشاركته في معظم أوهام النازيين وخرافاتهم. خبير زراعي قدير بارز نال قسطاً من التعليم الأكاديمي وخدم في وزارتي زراعة الرايخ وپروسيا واضطر الى ترك منصبه لاختلافه مع رؤسائه فعاد الى مدينته في حوض الراين ١٩٢٩ وألف كتاباً عنوانه "الفلاحون عماد حياة العنصر النوردي" وكان مقدراً له بعنوانه هذا أن يسترعي إهتمام النازيين فما لبث أن قام (هيس) بتقديمه الى (هتلر) فاعجب به كثيراً واسند اليه مهمة وضع برنامج زراعي مناسب للحزب.

ويخرج (هوغنبرگ) من الوزارة في حزيران ١٩٣٣ عين (داريه) وزيراً للغذاء والزراعة. وبحلول أيلول كان كل خططه جاهزة للتطبيق في الحقل الزراعي. وشرع قانونان أصليان في ذلك الشهر اعيد بهما تنظيم بناء الإنتاج والتسويق بناءً جديداً يتجه الى ضمان أسعار اعلى لغلة الفلاحين. ويضع في الوقت عينه الفلاح الألماني في مرتبة جديدة بإعادته الى منزلته القديمة حيث كانت الأراضي الزراعية وقفاً حبساً كما في عهود الاقطاع والفلاح ووارث ارضه مرتبطين إرتباط قرار بتلك الأرض الى الأبد (شريطة ان يكونوا من العنصر الآري الألماني).

كان قانون "الأرض الزراعية المتوارثة" الصادر في ٢٩ أيلول ١٩٣٣ مزيجاً يتضمن من جهة إعادة الفلاحين الى العصور الوسطى، ومن جهة ضمان حمايتهم من غائلة عصر النقود الحديث. كل المزارع التي تبلغ مساحتها (٣٠٨ ايكر) وهو ما يعادل ١٢٥ هكتاراً والكفيلة بضمان مورد عيش محترم لأسرة ستكون وفق القانون أملاكاً متوارثة خاضعة لقوانين الوقف الغابرة فلا يمكن بيعها أو تقسيمها أو رهنها أو حجزها سداداً لدين. وهي تنتقل بموت المالك إلى الإبن البكر أو الأبن الأصغر كما جرى عليه العرف المحلي أو إلى اقرب ذكرٍ من الأسرة. والوارث مجبر بحكم القانون على أن يؤمن العيش والتعليم لإخوانه وأخواته حتى يبلغوا سن الرشد. ولا يملك مزرعة كهذه إلا المواطن الألماني الآري الذي يستطيع إثبات نقاء دمه حتى سنة ١٨٠٠ ولا يمكن لأحد غيره أن يلقب "باللقب الكريم" (باور Baur أو الفلاح) الذي سيجرد منه إن خرق "شريعة الفلاح الشريفة" أو اعتزل عمله بسبب العجز وما اليه. وبهذا بسط القانون حمايته على الفلاح الألماني المثقل بالديون وأنقذه من خطر ضياع ملكه تسديداً للديون. أو من تقلص مساحتها [لم تعد تلجئه ضرورة إلى بيع جزءٍ منها تسديداً لدين] إلا أنه في

الوقت نفسه شدُّ إلى الأرض شداً وثيقاً لا فكاك منه كما كان حال الأقنان في أيام الإقطاع. وكلّ مظهر من حياته وعمله نظمت تنظيمياً محكماً بمنظمة الرايخ للأغذية الزراعية. وهي دائرة أنشأها (داريه) بموجب القانون المؤرخ ١٣ أيلول ١٩٣٣ إتسعت وزوّدت بسلطانٍ على كلّ ما يتصور من فروع المحاصيل الزراعية والتسويق والنقل. وقد رأسها هو بمنصب زعيم فلاحي الرايخ. وأغراضها الأساسية إثنان: ضمان أسعار ثابتة مربحة للفلاح وجعل ألمانيا بلداً ذا إكتفاء ذاتي من ناحية الغذاء. ترى كم كانت درجة نجاحه؟ في مبدأ الأمر كان النجاح أكيداً. فالفلاح من قبل كان يشعر لمدة طويلة بأن الحكومة قد أهملته وانشغلت عنه على ما بدا له، بمصالح التجارة والعمل وإمتثالاً خيلاء لإعتباره بطلاً قومياً ومواطناً مكرماً. وزاد سروره بإرتفاع الأسعار وهو ما ضمنه له (داريه) بمجرد تثبيتها بشكل تعسفي في مستوى مريح. وفي العامين الأولين من حكم النازي إرتفعت أسعار الجملة للمنتجات الزراعية بنسبة ٢٠٪ [الإرتفاع في المخضرات ومنتجات الحليب، والماشية كان أكثر بقليل] إلا أن هذه الفائدة أبطلها بعض الشيء إرتفاع مشابه في الحاجات التي يتعين على الفلاح شراؤها - ولاسيما في الآلات الزراعية والسّماذ.

أما عن الإكتفاء الذاتي بخصوص الطعام وهو ما يراه قادة النازي ضرورياً بعد أن سبقوا واختطوا للحرب كما سنرى، فلم يحققوه قط، ولم يكونوا قادرين على تحقيقه. نظراً إلى طبيعة التربة ومساحة الأراضي نسبة إلى عدد السكان. ولم تثمر أعظم الجهود التي بذلها النازي في الأرض رغم "معركة الإنتاج" التي طبّلت لها الدعاية وزمرت، غير أن ٨٣٪ من حدّ الإكتفاء الذاتي ولم يحصل الألمان على غذاء كافٍ للإستمرار في الحرب العالمية على قدر ما إستطاعوا، إلا بعد فتحهم بلاداً أجنبية.

-٧-

إقتصاد الرايخ الثالث

إن أسس نجاح هتلر في السنوات الأولى، لم تكن قاصرة على إنتصاراته في السياسة الخارجية التي أكسبته فتوحاتٍ لم تجر بها قطرة دم، إنما على إنتعاش ألمانيا الإقتصادي. هذا الإنتعاش الذي قوبل في أوساط الحزب وفي أوساط بعض الإقتصاديين الأجانب بما تقابل المعجزة. والحقيقة أنه قد يبدو كذلك لأناس كثيرين. فالبطالة لعنة العشرينات وأوائل الثلاثينات هبطت نسبتها كما رأينا من ستة ملايين ١٩٣٢ إلى أقل من مليون بعد أربع سنوات. وارتفع الإنتاج القومي إلى ١٠٢٪ من ١٩٣٢ حتى ١٩٣٧ وضوعف الدخل القومي. والمراقب يرى ألمانيا في أواسط الثلاثينات أشبه شيء بخليّة نحل هائلة الجرم فعجلات الصناعة تدور هادئة وكل إنسان مشغول كالنحلة.

كانت سياسة النازي الاقتصادية في السنة الأولى [بتوجيه من الدكتور شاخت على الأكثر لأن هتلر كان يضيق ذرعاً بالإقتصاد، وهو أيضاً لا يفهم منه شيئاً] مركزة على إيجاد الأعمال للعاطلين بتوسيع نطاق المشاريع العامة وتنشيط المشاريع الخاصة. ودعم الثقة بالحكومة إستئنان أنظمة خاصة لمكافحة البطالة. ومنح إعفاءات سخية عن الضرائب للمصانع والمؤسسات التي ترفع من رؤوس أموالها الموظفة في المشروع وتزيد من عمالها.

إلا أن إنتعاش ألمانيا الحقيقي قام على إعادة التسليح. وهو البرنامج الذي وجّه النظام النازي اليه كل طاقات العمل والصناعة -فضلاً عن مجهودات القادة العسكريين- من العام ١٩٣٤ فصاعداً. وعرف كُلاً الإقتصاد الألماني بالتعبير النازي "إقتصاد الحرب Wehrwirtschaft" ورُسِم له أن يطبق لا في زمن الحرب فحسب بل في وقت السلم المؤدي الى الحرب. في كتاب الجنرال لوندورف الموسوم "الحرب الجماعية Der Totale Krieg" [أسيء نقل عنوانه في الترجمة الانكليزية للكتاب، بحيث يفهم هكذا: الأمة في الحرب] الذي نشر في ألمانيا عام ١٩٣٥ بين المؤلف ضرورة تعبئة إقتصاد الأمة على أسس جماعية مثل أي تعبئة أخرى حتى يكون الإستعداد للحرب الجماعية تاماً. ولم تكن هذه فكرة جديدة تماماً عند الألمان. ففي (پروسيا) كانت خمسة أسابيع موارد الخزانة تنفق على الجيش في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كما رأينا. وكان إقتصاد البلاد ينظر اليه دائماً وبالدرجة الأولى ليس كأداة الرفاء الشعبي والرخاء، بل تنفيذاً لسياسة الحرب. ووقع على عاتق النظام النازي تطبيق نظام "إقتصاد الحرب" في العقد الثالث من القرن العشرين. وأجاد الجنرال (جورج توماس) رئيس أركان دائرة الإقتصاد العسكري في وصف نتائج ذلك إذ قال "لن يعرف التاريخ إلا أمثلة قليلة عن مناسبات وجهت فيها بلادٌ حتى في زمن السلم- كل إقتصادها بعمدٍ وتصميمٍ وتخطيط وفق متطلبات الحرب كما أرغمت ألمانيا عليه في فترة ما بين الحربين^(١٨).

بالطبع لم "ترغم" ألمانيا على الإستعداد للحرب بهذا النطاق الواسع. وإنما هو قرار مدروس اتخذته هتلر. ففي قانون الدفاع (السري) الصادر في ٢١ أيار ١٩٣٥ نُصِب شاخت رئيساً عاماً مطلق الصلاحية للإقتصاد الحربي، وأمره "ان يبدأ عمله من الآن وفي زمن السلم" ومنحه صلاحيات مطلقة في "توجيه الإستعداد الإقتصادي نحو الحرب" ولم ينتظر فريداً عصره وأوانه هذا مدة أطول من ربيع ١٩٣٥ ليبدأ في بناء الإقتصاد الألماني لأجل الحرب. وفي ٣٠ أيلول ١٩٣٤ بعد مرور أقل من شهرين على تعيينه، قدّم تقريراً للزعيم عنوانه "تقرير عن وضع العمل للتعبئة الإقتصادية الحربية كما هو في ٣٠ أيلول ١٩٣٤" وفيه أعلن متباهياً فخوراً بأن "وزارته قد عهد إليها بالإستعدادات

١٨- من كتابه "حقائق أساسية لتاريخ إقتصاد الحرب والتسلح الألماني" أقتبس في [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ١ ص ٣٥٠: الوثيقة ٢٣٥٣ (PS).

الإقتصادية لأجل الحرب" وفي ٣٠ أيار ١٩٣٥ بعد أربعة أسابيع من نصبه وزيراً عاماً مطلق الصلاحية في شؤون إقتصاد الحرب قدم مذكرة شخصية لهتلر بدأها بالقول: "إن إنجاز برنامج التسلح بالسرعة والكفاءة والكمية المطلوبة (هو) [وضع الضمير بين قوسين لإبرازه] مشكلة السياسة الألمانية وبناء على ذلك فكل شيء ماعداه يجب ان يكون تابعاً لهذه الغاية..." وشرح لهتلر "مادام يجب علينا تسمية التسلح وتغطيته حتى ١٦ آذار ١٩٣٥ [وهو التاريخ الذي أعلن فيه هتلر التجنيد الإجباري وزيادة الجيش الى حد ٣٦ فرقة] فمن الضروري ان تستخدم مطبعة أوراق النقد لتمويل المراحل الأولى. وأشار أيضاً بشيء من المرح والدعابة الى ان الأموال التي صودرت من أعداء الدولة [وأغلبهم يهود] وتلك التي سحبت من الحسابات الأجنبية الموقوفة قد ساعدت على صنع أسلحة هتلر. وختم كلامه بنكسة "وهكذا تجد ان تسليحنا إستحق جانباً من تمويله من حسابات أعدائنا السياسيين وأموالهم^(١٩)".

ومع أنه دحض أثناء محكمته في نورمبرگ - بكل براءة- التهم التي وجهت اليه حول المساهمة في المؤامرة النازية لإثارة حرب عدوانية. زاعماً أنه فعل عكس ذلك تماماً، فالحقيقة ستبقى قائمة، إذ لم تبلغ مسؤولية فرد واحد، ما بلغت مسؤولية (شاخت) في إعداد الإقتصاد الألماني للحرب التي أثارها هتلر في ١٩٣٩. ولقد أقر الجيش بفضل هذا إقراراً علنياً ففي مناسبة عيد ميلاده الستين هنأته نشرة الجيش المسماة Militaer-Wochenblatt في عدد الثاني والعشرين من كانون الثاني ١٩٣٧ ووصفته "بالرجل الذي جعل إعادة بناء الجيش (القيروماخت) ممكناً من الناحية الإقتصادية" ثم استطردت "ان القوات الدفاعية تدين بهذا إلى عبقرية شاخت وكفاءاته العظيمة، في تذليل كل صعاب التمويل مما نجم عنه الوصول الى قوتها الحالية، بعد أن كانت جيشاً لايزيد عن مائة ألف رجل".

وضع كل عبقرية شاخت وسحره المعترف به في الشؤون المالية، في مجال العمل لتهيئة الرايخ الثالث للحرب. ولم يكن تشغيل مطبعة الأوراق المالية إلا واحداً من مخترعاته. لقد عالج النقد معالجة الساحر الخفيف اليد. وقدر خبراء الإقتصاد الأجانب أن النقد الألماني كان له في فترة محددة من الزمن (٢٣٧) قيمة متفاوتة. وعقد صفقات تبادل مذهلة مريحة [لألمانيا] مع عشرات من الأقطار واثبت للإقتصاديين التقليديين المشدوهين أنه كلما كنت مديناً لقطر من الأقطار كلما زاد نطاق تعاملك التجاري معه. وان خَلَقَ الإئتمان في بلاد ليس لديها من رأس المال الدائر إلا النزر اليسير ويكاد لا يوجد لديها احتياطي نقدي، انما هو عمل من أعمال العبقرية أو كما قال عنه بعضهم "عمل أستاذ في المناورة المالية" وإختراعه لما أطلق عليه سندات الميفو Mefo هو خير مثال. هذه السندات ١٩- تقرير الوزير في ٣٠ أيلول ١٩٣٤، في [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٧ الص ٣٠٦-٣٠٩، وثيقة ١٢٨ EC] تقرير شاخت في ٣٠ أيار ١٩٣٥ [مؤامرة... ج٣ الص ٨٢٧-٨٣٠، وثيقة ١١٦٨ PS]. نص قانون مجلس دفاع الرايخ السري [مؤامرة... ج٤ الص ٩٣٤-٩٣٦، وثيقة ٢٢٦١ PS].

أصدرها بنك الرايخ وضمنتها الدولة واستخدمت لتسديد المستحق لأصحاب مصانع السلاح. وكانت تقبل في كل المصارف الألمانية وبالأخير تطفأ من قبل بنك الرايخ. ولما لم يظهر لها أثر في تقارير البنك المركزي المنشورة ولا في ميزانية الحكومة فقد ساعدت على إبقاء عملية التسليح في طي الكتمان وتعدّر أن يقدر مدى ذلك التسليح. لقد استخدمت من ١٩٣٥ حتى ١٩٣٨ لتمويل إعادة التسليح فقط وبلغت قيمتها الكلية إثني عشر مليون مارك: ومرة كان وزير المالية الكونت شفيرين ثون كروسيك Schwerin Von Krosigk يشرح لهتلر عملها فقال ببعض ضيق، أنها مجرد طريقة من طرق "النقود المطبوعة" (٢٠).

دخلت ألمانيا عهد إقتصاد إجماعي في أيلول ١٩٣٦، بالشروع في تنفيذ خطة السنوات الأربع، تحت سيطرة غورنك الحديدية الذي حل محل شاخت كدكتاتور إقتصادي وان كان جهله في الموضوع لا يقل عن جهل سيده هتلر. وكان هدف الخطة أن تجعل ألمانيا مكتفية ذاتياً في غضون أربع سنوات حتى لا يخنفها الحصار الإقتصادي وقت الحرب فقلصت الإستيرادات الى أدنى حد متصور، وحددت أسعار البضائع تحديداً صارماً وثبت للأجور مستوى معين ووضعت تحت رقابة دقيقة. وحددت حصص الأرباح بستة بالمائة. وبدأت المصانع الكبرى تنتج المطاط الصناعي والأقمشة والوقود وغير ذلك من البضائع، من مصادر المواد الخام في ألمانيا نفسها وقيمت مصانع (هرمان غورنك) الجبارة لصنع الفولاذ من تير الحديد ذي الدرجة الواطنة. ومجمل القول عبيء الإقتصاد الألماني للحرب، وأصبح رجال الأعمال رغم تعاظم أرباحهم مجرد (براغي) في ماكينة الحرب. وأحيطت أعمالهم بقيود عديدة وكثير من الاستثمارات التي يجب إملأؤها. وقد ألجأ ذلك الدكتور (فونك) الذي خلف (شاخت) في ١٩٣٧ في وزارة الإقتصاد وفي رئاسة بنك الرايخ سنة ١٩٣٩ الى أن يقر متحسراً: "ان المخاطر الرسمية تبلغ الآن أكثر من نصف المجموع العام لمراسلات صاحب المصنع الألماني. وان تجارة التصدير الألمانية تتضمن ٤٠٠٠ عملية تجارية يومياً. ولكل عملية تجارية يلزم إملاء أربعين استثماراً مختلفة الأشكال".

ودفن رجال الأعمال تحت جبال من الشرايط الحمر. وسيطرت الدولة على كل ما يمكنهم إنتاجه مهما بلغ مقداره أو ثمنه. وحملوا عبء الضرائب المتفاقمة وأحتلبوا "بالاعانات الخاصة للحزب" والإكتتابات إحتلاباً غير منقطع. فخاب ظنهم بهتلر خيبة شديدة وبخاصة أولئك الذين رحبوا بنظامه ترحيباً حماسياً لأنهم كانوا يتوقعون تحطيم التنظيم العمالي والسماح للإدارة بممارسة مشروع خاص لا يعرقله معرقل. ومن هؤلاء الخائبي الأمل (فريتز تيسن) أحد المساهمين الكبار الأوائل في مساعدة الحزب. فقد هرب من ألمانيا في مطلع الحرب بعد ان أدرك "أن النظام النازي دمر الصناعة الألمانية"

٢٠- مؤامرة النازيين وعدوانهم [ج ٧ ص ٤٧٤ وثيقة ٤١٩ EC].

وكان يقول لكل من يلقاه في الخارج "كم كنت أحمق! [Dummkopf] (٢١)".

على كل، خادع رجال الأعمال أنفسهم في البداية متوهمين أن الحكم النازي سيحقق كل آمانيهم. وبدا لهم برنامج الحزب الذي لا يقبل تغييراً نذير شؤم بوعده بتأميم الإحتكارات وتأمين توزيع الأرباح في التجارة بالجملة. "وتأميم المخازن الكبرى وتأجيرها للتجار الصغار بضمن بخس وبالاصلاح الزراعي وإلغاء الفائدة على الرهون العقارية". لكن سرعان ما علم رجال الصناعة والمال أن هتلر لم يكن لديه أقل نية في تحقيق وعد واحد من الوعود التي وردت في البرنامج - أن الوعود المتطرفة لم تدسّ إلاّ لإجتذاب النخبين وقد حاولت قلة من متطرفي الحزب في الأشهر القليلة الأولى من ١٩٣٣، السيطرة على الشركات التجارية، والاستيلاء على المخازن الكبرى وإنشاء إدارات مختلفة على نحو ما حاول موسوليني عمله. لكن سرعان ما طردهم هتلر وجاء برجال صناعة وأعمال محافظين، وأسند إلى (كوتفريد فيدر) أول معلمي هتلر في الإقتصاد والمشعوذ الدعي الذي أراد إلغاء "عبودية الفائدة" منصب وكيل وزارة الإقتصاد إلاّ أن رئيسه الدكتور كارل شميت Karl Schmitt قطب (التأمين) الذي قضى حياته يقرض المال ويجمع الفوائد لم يعهد إليه بأي عمل. وعندما جاء (شاخ) استغنى عن خدماته.

أما رجال الأعمال الصغار وهم من أهم معاوني الحزب ومعتديه فكانوا يترقبون أشياء عظيمة من المستشار هتلر. لكنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم -الكثير منهم- قد قضى عليهم واجبروا إلى العودة من حيث ارتفعوا، أجراء كما كانوا! إن القوانين التي صدرت في تشرين الأول ١٩٣٧ حلت كل التعاوانيات التجارية التي يقل رأسمالها عن أربعين ألف دولار ومنعت تأسيس تعاوانيات جديدة برأسمال يقل عن مليوني دولار. وقد عجل هذا بإخراج خمس الشركات والبيوت التجارية الصغيرة. ومن الجهة الثانية فإن الإحتكارات والكارتلات الكبرى التي نالت رعاية في حمى الجمهورية عمد النازيون إلى تقويتها. وقد جعلت في الحقيقة اجبارية بموجب القانون الصادر في ١٥ تموز ١٩٣٣ ومنحت وزارة الصناعة صلاحيات لتأسيس كارتلات جديدة أو لإرغام الشركات على الدخول في الكارتلات الموجودة.

وابقى النازي على طريقة إدارة عشرات الألوف من شركات التجارة والأعمال المنشأة أيام الجمهورية وإن أعيد تنظيمها بموجب القانون بنظام صادر في ٢٧ شباط ١٩٣٤. وفق المبدأ الرئاسي السائد ووضعت تحت سيطرة الدولة وأرغم كل عمل تجاري على أن يصبح عضواً فيها. ويقوم على هذا البناء المعقد إلى درجة لا يصدقها العقل غرفة إقتصاد الرايخ التي تعين الدولة رئيسها وتسيطر على سبع مجموعات قومية إقتصادية وثلاث وعشرين غرفة إقتصادية ومائة غرفة صناعية وتجارية وسبعين

٢١- "دفع هتلر" تيسن. الص ١٥، ١٥٧.

غرفة للأشغال اليدوية. في وسط هذا المتاه الأعظم لهذه المنظمة وما لا يحصى من الدوائر والوكالات في وزارة الإقتصاد ومشروع الأربع سنوات والشلال الهائل الذي لا ينقطع مجراه من المراسيم الخاصة والقوانين والأنظمة، يضيع فيه أبرع رجال الأعمال ولا يهتدي فيه الى أمر بالأخير لم يجدوا مناصاً من استخدام محامين خصوصيين لتتمكن الإدارة من العمل. واستخدمت الرشاوى ليجد المرء سبيله الى الموظفين الاجرائيين الكبار ذوي الحل والعقد. أو لإختصار في ما لا نهاية له من القواعد والتعليمات التي تصدرها الحكومة والجمعيات حتى بلغت رقماً فلكياً في أواخر الثلاثينات. وقد وصف أحد رجال الأعمال هذه الرشاوى للمؤلف بانها "ضرورة إقتصادية".

ومع ان حياة رجل الأعمال مرهقة، فقد كان يجني أرباحاً طيبة جداً فالصناعات الثقيلة التي تنتفع إنتفاعاً أساسياً من برنامج التسليح رفعت أرباحها من ٢٪ في سنة ١٩٢٦ الوافرة الربح الى ٦,٥٪ في ١٩٣٨ وهي آخر سنة كاملة من سني السلم. حتى القانون الذي حدد الحصص بستة بالمائة لم يكن عبئاً على الشركات نفسها بل بالعكس، فنظرياً كل كمية تزيد عن هذا المقدار من الحصص يجب أن تستثمر في سندات القرض الحكومية بمقتضى القانون - وليس هناك فكرة عن المصادر. وعملياً تقوم أغلب الشركات بإعادة استثمار الباقي من حصص الأرباح في أعمالها الخاصة ولا توزعها، وقد ارتفعت تلك الحصص من (١٧٥) مليون مارك في ١٩٣٢ الى خمسة بلايين مارك سنة ١٩٣٨ وهي السنة التي بلغ فيها مجموع الأموال المدخرة في بنوك التوفير بليون مارك أو أقل من نصف الأرباح غير الموزعة. في حين بلغت الأرباح الموزعة على شكل حصص ما لم يزد عن (١٢٠٠٠٠٠٠٠) مارك. والى جانب أرباح رجل الأعمال الكبيرة فإنه كان شديد الارتياح لسلوك العمال وكبح جماحهم. فلم يعد هناك علاوات غير معقولة في الأجور ولا مطالب عمالية باي شكل كان. وكانت أجورهم قد خفضت قليلاً رغم إرتفاع مستوى المعيشة بـ ٢٥٪ والأهم من كل هذا القضاء على الإضرابات. والواقع ان الإضراب أصبح أثراً من آثار الماضي. فتظاهرات وفوضى كهذه أصبحت محظورة Verboten في الرايخ الثالث.

-٨-

عبودية العمل

بعد ان جرد العامل الألماني من نقابته، ومن المفاوضة الجماعية وحق الإضراب. أصبح في الرايخ الثالث عبداً صناعياً فحسب مرتبطاً بسيده رب العمل، أقرب شيء يارتباط القن الزراعي بسيده الاقطاعي في القرون الوسطى. ان "جبهة العمل" التي حلت نظرياً محل نقابات العمال لم تمثل العامل

قطّ. فبموجب القانون الصادر في ٢٤ تشرين الأول ١٩٣٤ الذي خلق هذا التنظيم وصف بأنه "تنظيم الألمان المبدعين للعقل والقبضة" وهي لاتضمّ ذوي الأجور والمرتبات وحدهم بل أصحاب العمل والحرفيين. إنها في الواقع وسيلة دعائية واسعة أو كما وصفها أحد العمال "عملية إحتيال جبارة"، وهدفها كما حدده القانون ليس حماية العامل بل "خلق مجتمع حقيقي منتج متماسك لكلّ الألمان. ومهمته أن يرى كل فرد من الأفراد قادراً على... إنجاز أكبر قدر من العمل" ليست جبهة العمل منظمة ذات ادراة مستقلة. لكنها كأى منظمة في ألمانيا النازية بإستثناء الجيش، جزءٌ متمم للحزب النازي. أو كما نعتها رئيسها الدكتور (لاي) "السكير الألكن" (حسب وصف تيسن له) "أداة من أدوات الحزب". وبوجب القانون المؤرخ ٢٤ تشرين الأول أن يكون موظفوها من صفوف الحزب ونقابات النازيين القديمة وال(إس. أي) وال(إس. إس) وقد تمّ ذلك.

وقبلها صدر "قانون تنظيم العمل القومي" في ٢٠ كانون الثاني وعرف "بوثيقة العمل" بموجبه وضع العامل في "محله اللاتق!" ورفع ربّ العمل الى مركزه الأول كسيد مطلق، خاضع بالطبع الى تدخل الحكومة المهيمنة على كل شيء وأصبح ربّ العمل "زعيم المشروع" والعمال الأجراء "أتباعاً: Go-folgschaft" وتنصّ المادة الثانية من القانون ان "زعيم المشروع هو الذي يصدر القرارات للاتباع والعمال في كلّ ما يتعلق بالمشروع". وكما كان اللورد (السيد) في الأيام الغابرة مسؤولاً عن مصالح رعاياه كذلك الأمر في القانون النازي. فربّ العمل "مسؤول عن عيشة أجراءه وعماله" وبمقابل ذلك "يجب ان يكون الأجراء والعمال مدينين له بالإخلاص" أعني أن يعملوا بكلّ قواهم ولمدة طويلة دون كلام أو تأفف أو ضجر حتى حول الأجر. ويعين الأجور من يطلق عليهم "وكلاء العمل" تنصيبهم في وظائفهم "جبهة العمل". وهم يحددون الأجور عادة وفق رغبات صاحب العمل - وليس هناك قيد، يحق به للعمال أن تؤخذ آراؤهم في هذه الأمور. ومع ان شحة العمال في صناعات الحرب بعد ١٩٣٦ ألجأت بعض أرباب العمل الى رفع الأجور لإجتذابهم. إلا أن نسب الأجور ظلت كما هي بناءً على أوامر من الدولة. فهتلر صريح جداً في مسألة إنخفاض الأجور: "لقد كان ذلك المبدأ الحديدي لزعامة القومية الاشتراكية أن لاتسمح بأي رفع في الأجور على عمل الساعة، بل برفع الدخل بزيادة الإنتاج فحسب(٢٢)".

قال ذلك في أول مجيئه للحكم. وفي بلاد وضعت أغلب الأجور على العمل بالقطعة أو الساعة على الأقل الى حدّ ما. لايعني هذا إلا أن زيادة أجور العامل تتوقف فحسب على اشتغاله ساعات أطول ورفع مقدار إنتاجه.

وبالمقارنة مع الولايات المتحدة بعد تعديل الفروق في تكاليف المعيشة واخذ الخدمات الإجتماعية

٢٢- اقتبسها نيومان "Behemoth" ص ٤٣٢.

بنظر الإعتبار. كانت الأجور في ألمانيا منخفضة أبداً وانخفض مستواها قليلاً في عهد النازي. وهبطت- كما جاء في منشورات دائرة إحصاء الرايخ - من ٤, ٢٠ سنتاً في الساعة للعامل الماهر في العام ١٩٣٢ وهو ذروة الأزمة الإقتصادية الى ٥, ١٩ سنتاً في أواسط ١٩٣٦ إذ هبطت مستويات العامل الإعتيادي من ١, ١٦ الى ١٣ سنتاً للساعة الواحدة. وصرح الدكتور (لاي) في مؤتمر الحزب بنومبرگ ١٩٣٦ أن معدل الدخل الأسبوعي للعامل الذي يشتغل وقتاً كاملاً، يبلغ ٩٥, ٦ دولارات. أما دائرة إحصاء الرايخ فتضع المعدل ٢٩, ٦ دولارات أسبوعياً بالنسبة الى جميع العمال الألمان. ومع أن ملايين العاطلين حصلوا على عمل. فإن نصيب كل العمال الألمان من الدخل القومي قد يهبط من ٩, ٥٦٪ في سنة الكساد ١٩٣٢ الى ٦, ٥٣٪ في ١٩٣٨ الحافلة بالرخاء. وفي الوقت عينه ارتفع الدخل المتحصل من رأس المال والأعمال التجارية، من ٤, ١٧٪ من الدخل القومي الى ٦, ٢٦٪. والحق يقال أن الدخل العام من الأجور والرواتب قد ارتفع بسبب العمل الكثير جداً من (٢٥) بليون مارك الى (٤٢) بليوناً ونسبة الزيادة ٦٦٪ إلا أن الزيادة في الدخل المتأتي من رأس المال والمصالح التجارية ارتفع إرتفاعاً فجائياً هائلاً الى ١٤٦٪. لقد اعتاد كل الدعاة في الرايخ الثالث من هتلر فنانزلاً أن يقدحوا في خطبهم بالبرجوازيين والرأسماليين ويعلنوا عضدهم للعامل، إلا أن الدراسة الواعية للإحصاءات، وهو عمل ربما لم يتكلف القيام به إلا عدد قليل من الألمان. تكشف إن الرأسماليين المنتقدين بشدة لا العمال كانوا أكثر ربحاً من سياسات النازيين. وأخيراً انكمش شغل القطعة في البيت، وهو أسلوب شائع في العمل الألماني. والى جانب هذا الدخل الضئيل فهناك المساهمة الإيجابية في صناديق ضمان المرض والبطالة والعجز ورسوم جبهة العمل. وتأتي في الختام ملاحقة العامل الألماني بإستمرار [ككل الأفراد في ألمانيا النازية] بطلب هدايا وتبرعات كبيرة للعديد من الجمعيات الخيرية النازية، وفي مقدمتها "معونة الشتاء Wintenhilfe" وكثيراً ما فقد العامل عمله لأنه لم يتبرع بشيء لتلك المعونة، أو أن ما تبرع به قليل جداً. إن عملاً كهذا وصفته محكمة العمل التي صادقت على قرار رب العمل بفصل العامل المقصر دون إنذار "بسلوك معاد للمجتمع البشري... مما يستوجب لوماً شديداً". وفي أواسط الثلاثينات قُدر أن الضرائب والتبرعات تسلب ما بين ١٥٪ و ٣٥٪ من مجموع أجور العامل الكلي. فمثل هذا الخصم من أجر أسبوعي قدره ٩٥, ٦ دولارات لا يبقى شيئاً كثيراً لدفع الإيجار وسدّ الجوع والكسوة والترفيه. وكما هو الشأن مع أقنان العصور الوسطى وجد العمال في ألمانيا الهتلرية انهم يشدون أكثر فأكثر الى مراكز أعمالهم. وإن كان الذي يربطهم الدولة لا ربّ العمل. ولقد رأينا كيف شدّ الفلاح في الرايخ الثالث الى أرضه بقانون وراثته الأرض، كذلك ربط العامل الزراعي بحكم القانون ومنع من ترك المزرعة التي يعمل فيها ليعمل في المدينة. وبالتطبيق يمكن القول أنه القانون الوحيد النازي الذي لم

يذعن له الجميع فقد إنتقل ما بين ١٩٣٣ و ١٩٣٩ أكثر من مليون وثلاثمائة ألف عامل زراعي الى أعمال في الصناعة والتجارة. إلا أن القانون طبق بحق العمال الصناعيين وصدرت مراسيم حكومية متعددة ابتداءً من قانون ١٥ أيار ١٩٣٤ تحدّ حرية إنتقال العامل من عمل الى آخر تحديداً شديداً، وأعطيت دوائر الإستخدام الرسمية بعد حزيران ١٩٣٥ إشرافاً تاماً على الإستخدام وهي التي صارت تقرّر من يستخدم؟ وأين؟ ولأي عمل؟

وصدر "دفتر العمل" في شباط ١٩٣٥ وبعده لم يعد في الإمكان إستخدام أي عامل لا يحمل دفتر خدمة تسجل فيه مهارته ومحللات عمله هذا الدفتر لا يقتصر على تزويد الدولة وربّ العمل بآخر المعلومات عن كلّ عامل في البلاد، بل استعمل لربط العامل بمقعده. فإنّ رغب في ترك عمله الى آخر، حقّ لرب العمل أن يحبس عنه دفتره، وهذا يعني أنه لا يمكن أن يشتغل في محلّ آخر قانوناً. أخيراً صدر مرسوم خاص في ٢٢ حزيران ١٩٣٨ من مديرية برنامج السنوات الأربع نظم به العمل المجند. فألزم كل ألماني أن يشتغل في أي مكان تعينه له الدولة. والعامل الذي يغيب عن عمله دون عذرٍ وجيهٍ جداً يكون عرضة للغرامة والسجن. على أن هنالك "وجهاً آخر للعملة" فالعامل المجند لا يمكن أن يطرده ربّ العمل دون موافقة دائرة الإستخدام الحكومية. ولذلك كان عمله مضموناً وهو أمرٌ لم يكن له وجود في عهد الجمهورية.

بعد تقييد العمال الألمان بهذه السلاسل الكثيرة وبأجور تكاد لاتسدّ الرمي قامت الحكومة النازية بتنظيم وسائل لهو وترفيه لهم طبق ما فعلت الدولة الرومانية للبروليتاريا الرومانية لتحويل أنظارهم عن أوضاعهم الشقية. وفسّر الدكتور لاي ذلك بقوله "علينا أن نحول إهتمام الجماهير الشعبية عن القيم المادية الى القيم الروحية. فتغذية روح البشر أهم من ملء بطونهم".

وعلى هذا خرج بمنظمة جديدة أطلق عليها "القوة من خلال الفرح" Knofit Durch Freude. وهذه تمنح ما لا يمكن تسميته بغير "الراحة المنظمة عسكرياً". في الدكتاتورية المطلقة الجماعية للقرن العشرين. أو ربما على غرار الدكتاتوريات التي سبقتها، وجد من الضروري ألا تقتصر السيطرة على ساعات عمل الفرد، بل على ساعات راحته أيضاً وهذا ما تولته "القوة من خلال الفرح". في العهد الذي سبق النازية كانت ألمانيا تفخر بعشرات الألوف من النوادي لكلّ مجالات اللهو والتسلية نوادي الشطرنج و Soccer الى نوادي مراقبة الطيور. وفي أيام النازي لم يسمح بأي منتدى أو جمعية أدبية أو رياضية أو ترفيهية إلا اذا كانت تحت سيطرة "القوة من خلال الفرح".

بالنسبة الى الألماني العادي في الرايخ الثالث لاشك ان هذه المنظمة الترفيهية الشاملة خيرٌ من لاشيء، مادام لا يمكن أن يوثق بالمرء الى حدٍ يترك شأنه. إنها تتحف أعضاءها من جبهة العمل مثلاً بسفريات برية أو بحرية بسعر التراب. وبنى الدكتور (لاي) بواخر حملتها خمسة وعشرون ألف طن،

وأطلق إسمه على إحداها وخصص عشراً للقيام برحلات ترفيهية في البحر المحيط "للقوة من خلال الفرح" وقد شارك مؤلف الكتاب في إحدى هذه الرحلات مرة. ومع أن الحياة على ظهر تلك السفن نظمت بمعرفة القادة النازيين إلى الحد الذي تجرّع المؤلف فيها أشدّ العذاب فالذي ظهر له أن العمال الألمان يتمتعون بوقتهم فيها ويضمن بخس غير متصور! أن رحلةً إلى (ماديرا) مثلاً لا تكلف العامل غير (٢٥) دولاراً بضمنها أجرة السفر بالقطار من محله إلى الميناء وبالعكس. وهذا الرخص يشمل غيرها من وسائل الترفية. وتؤم السواحل على البحيرات والبحار الألوف المؤلفة من طلاب الراحة والاستجمام في موسم الصيف وكان واحد منها في (روغن Ruegen) على ساحل البلطيق لم يتم بناؤه عندما بدأت الحرب قد طلب أن يحجز له في الفنادق ما يكفي لعشرين ألف شخص. وفي الشتاء تنظم رحلات تزلج في ألب بأفاريا بسعر (١١) دولاراً في الأسبوع يدخل فيها أجور السيارة والغرفة والطعام وبدل إيجار ادوات التزلج ودروس المعلم.

وسيطرت "القوة من خلال الفرح" على كل فرع من فروع الرياضة ونظمتها على نطاق شامل واسع. ويستفاد من الأرقام الرسمية أنها كانت تنظم ما يزيد عن سبعة ملايين عضو سنوياً. ووفرت المنظمة بطاقات لارتياح المسرح والأوبرا والموسيقى بأسعار رخيصة جداً وبهذا فتحت أبواب التسلية الأرستقراطية في وجه الكادح. وهو ما كان يفخر الموظفون النازيون به كثيراً. وتملك "القوة من خلال الفرح" جوقها السمفوني المؤلف من تسعين عازفاً تتجول في أرجاء البلاد دون انقطاع وكثيراً ما تعزف في مجتمعات صغيرة منقطعة لاتتيسر فيها الموسيقى الجيدة دائماً. وأخيراً تولت المنظمة الإشراف على ما يقارب مائتي معهدٍ دراسي للبالغين التي نبه أمرها وازدهرت في عهد الجمهورية - حركة نظمت بالأصل في اسكندنافيا- وأدامتها بعد أن أضافت مزيجاً قوياً من التفكير النازي إلى مواد التعليم.

وختاماً يدفع العمال بطبيعة الحال لقاء تمتعهم بالسركس والترفيه فقد بلغ الدخل السنوي من الرسوم المدفوعة لجبهة العمل مائة وستين مليون دولار في ١٩٣٧ وأناف على المائتي مليون عند بدء الحرب. كما إدعى الدكتور (لاي). على أن الحساب غامض إلى حد كبير لأن الدولة لاتتولاه، وإنما تقوم به دائرة الحزب المالية التي لاتنشر حساباتها قط ومن هذه الإيرادات يخصم ١٠٪ "للقوة من خلال الفرح".

إلا أن الأجور التي يدفعها الأفراد عن الرحلات والحفلات الترفيهية مع رخصها العظيم بلغت في السنة التي سبقت الحرب (١٢٥٠٠٠٠٠٠) دولار وهناك تكليف ثقيل آخر على الكادح، لما كانت (جبهة العمل) أعظم منظمة حزبية في البلاد تضم خمسة وعشرين مليون عضواً فقد أصبحت هيئة بوروقراطية ضخمة تستخدم عشرات الألوف من الموظفين بأوقات كاملة. وقدّر ما تستنزفه من الدخل

لتكاليف الإدارة والموظفين ما تتراوح نسبته بين ٢٠ و ٢٥٪.

تلك عملية نصب واحدة ارتكبتها هتلر بحق الكادحين الألمان تستاهل ان غرّب بها مروراً عابراً تتعلق (بالفولكس فاكن: سيارة الشعب) تلك عاصفة دماغية نبعت من رأس الفوهر نفسه، فقال: كل ألمانيّ أو على الأقل كل عامل ألماني يجب أن يملك سيّارة خاصة، كما هو الحال في الولايات المتحدة... (في هذه البلاد آنذاك كانت هناك سيارة واحدة لكلّ خمسين شخصاً يقابلها سيارة واحدة لكلّ خمسة أشخاص في الولايات المتحدة) وقد تعودّ العامل ركوب الدراجة أو الإنتقال بوسائط السير العامة. والآن يرسم هتلر أن تُصنع سيارة له يمكن بيعها للمستهلك بتسعمائة وتسعين ماركاً. أي ما يوازي ٣٩٦ دولاراً. بسعر السوق العالمي (البورصة). وقيل انه ساهم شخصياً في وضع تصميم السيارة،

الذي تم بإشراف مهندس السيارات النمساوي الشهير الدكتور فرديناند بورشه Ferdinand Porsche.

ولما لم يكن بوسع المشاريع الصناعية الخاصة صنع سيارة لا يزيد ثمنها عن ٣٩٦ دولاراً. فقد أمر هتلر أن تتولى الدولة بناءها وأناط ذلك بجهة العمل. واسرعت منظمة الدكتور (لاي) ببناء "أكبر مصنع للسيارات في العالم" في فالرسليبن Fallersleben قرب براونشفايك Braunschweig ذي قدرة صنع مليون ونصف مليون سيارة سنوياً أي "أكثر من فورد" كما قالت الدعاية النازية. وقدمت (جهة العمل) مساهمة في رأس المال قدرها خمسون مليون مارك. لكن هذا المبلغ لم يكن رأس المال الأساسي. وكانت خطة الدكتور (لاي) الماكرة أن يمدّ العمال أنفسهم ذلك المشروع برأس ماله عن طريق ما عرف فيما بعد: "ادفع قبل الحصول عليها" بأقساط قدرها، خمسة ماركات أسبوعياً أو عشرة أو خمسة عشر بحسب مقدرة العامل يجد في نفسه القدرة. وعندما تبلغ الأقساط المدفوعة (٧٥٠) ماركاً يتسلم الشاري رقماً بأمرٍ يجعله مستحقاً لسيارة حال تيسرها من المصنع في عهد الرايخ الثالث. ودفع العمال الألمان عشرات الملايين من الماركات لم يستعيدوا منها فلساً واحداً فيما بعد. فقد نشبت الحرب ووجه مصنع الفولكس فاكن إنتاج مهمات أكثر فائدة للجيش.

مع كل أفانين النصب التي ارتكبت بحق العامل الألماني خلاف هذه الحيلة، ومع صيرورته كما رأينا عبداً للصناعة وبأجور لا تكفي ضرورياته وأكثر تعرضاً الى ابتزاز النازية من أي قاطع آخر في المجتمع الألماني. وأسهل وقوعاً في شرك الدعاية المتواصلة. مع كل هذا - والحق يقال - لم يبد شديد النعمة والسخط على مركزه القانوني التافه في الرايخ الثالث. إن ماكنة الحرب الألمانية الجبارة التي وجهت الى الحدود البولندية في فجر الأول من أيلول ١٩٣٩ ما كان في الإمكان بناؤها دون المساهمة الكبرى التي قدمتها الطبقة العاملة الألمانية. فقد اخضعت لحياة عسكرية صارمة وسلط عليها سيف الإرهاب إلا أن غيرها ذقت ذلك أيضاً. ان قروناً من حياة الضبط العسكرية عوّدت العامل كما عوّدت كلّ الألمان على أن يفعل ما يؤمر به. ومع هذا فربما لا يكون من الحكمة أن يعمد المرء الى التعميم في مثل

هذه الأمور. على أن إنطباعات المؤلف الخاصة عن العامل البرليني وعامل الروهر هي أنه في حين كان ناقماً على النظام، لم يكن يتوق إلى الثورة أكثر من أي شخص آخر في الرايخ الثالث. انه غير منظم، يفتقر إلى الزعامة والقيادة. فماذا تراه يفعل؟ كثيراً ما يجابهك العامل الألماني بهذا السؤال نفسه. لكن السبب الأعظم لقبوله دوره هذا في ألمانيا النازية، يعود دون شك أو شبهة إلى أنه وجد عملاً يرتزق منه وضماناً ببقائه فيه. إن المراقب الذي عرف طرفاً من محنته الكبرى خلال العهد الجمهوري يفهم لماذا لم يهتم العامل كثيراً بضياح حريته السياسية أو يأبه لفقدانه منظماته النقابية مادام يشتغل باجرة كاملة. في الماضي كانت هذه الحقوق حقوق الناس الأحرار في ألمانيا مهددة عند الكثير... الكثير الذي يبلغ ستة ملايين بـ"الحرية مع الجوع" على حد تعبيره. وعندما أزال هتلر هذه الحرية الأخيرة، أمن لنفسه مساندة الطبقة العاملة التي قد تعدّ أمهر وأشدّ صبراً وهدلاً وأحسن ضبطاً من كل عمال العالم الغربي. لقد كان دعماً لا لثرواته وسخافاته الايديولوجية أو لنواياه الشريرة فيهم بل لأمرٍ أهم من كل ذلك طراً: إنتاج مهمات للحرب.

-٩-

العدالة في الرايخ الثالث

من أولى أسابيع ١٩٣٣ عندما بدأت الاعتقالات الجماعية الكيفية. والضرب والقتل والإغتيال، على يد أولئك الذين وثبوا إلى الحكم، لم تعد ألمانيا في ظلّ القومية الاشتراكية مجتمعاً قائماً على القانون. "هتلر هو القانون!" هذا ما نادى به رسل القضاء في ألمانيا النازية باعتزاز وفخر. وشرحه (گورنگ) في كلمته التي وجهها إلى المدعين العامين في بروسيا (١٢ تموز ١٩٣٤) "إن القانون وإرادة الفوهرر هما واحد". وكان هذا صواباً. فالقانون هو إياه وما يقوله الدكتاتور في ساعة الأزمات كما حصل أثناء التطهير الدموي وأوضحه هو في خطابه أمام الرايخشتاغ بعد الواقعة الدموية مباشرة. لقد أعلن انه "القاضي الأعلى" للشعب الألماني وله مطلق السلطات في قتل من يشاء.

في أيام الجمهورية كان معظم القضاة - شأنهم شأن معظم رجال الدين البروتستانت - يكرهون نظام (فاير) كرهاً عميقاً وقد دوت أحكامهم كما يرى الكثير من المعقنين - أسود صفحة في حياة الجمهورية الألمانية وبذلك ساهموا في إسقاطها. لكنّ القضاة كانوا بموجب دستور فاير مستقلين على الأقلّ مصونين من العزل التعسفيّ وملزمين نظرياً على الأقلّ بموجب المادة (١٠٩) على تطبيق قاعدة المساواة أمام القانون. كان أغلبهم يعطف على القومية الاشتراكية إلا أنهم لم يكونوا لبيتخيلوا ما سيلاقونه من معاملةٍ تحت حكمها الفعلي. إن قانون الخدمة المدنية الصادر في ٧ نيسان ١٩٣٣ الذي

سرت أحكامه على كل القضاة سارع بتخليص السلطة القضائية من اليهود ومن كل أولئك الذين يشك في نازيتهم. أو كما نصّ عليه القانون كلّ "من يُظهر ما يدل على عدم إستعداده للعمل لمصلحة دولة القومية الاشتراكية في كل الظروف". ولتكن واثقاً أن عدد المعزولين بموجب هذه المادة لم يكن كثيراً إلا أن الباقيين اندروا بخصوص طبيعة الواجب الملقى عليهم. وللتأكد من أنهم استوعبوا ذلك وفهموه؛ وجه الدكتور (هانس فرانك) المندوب السامي للقضاء وزعيم القانون في الرايخ كلامه للقضاة في ١٩٣٦ "إن مبادئ القومية الاشتراكية هي أساس كل القوانين الوضعية الأصيلة لاسيّما كما اوضحها منهاج الحزب وخطب الفوهرر". ثم مضى الدكتور فرانك بتوضيح ما يعنيه قائلاً:

"ليس هناك إستقلال للقانون عن القومية الاشتراكية. سلوا أنفسكم قبل ان تتخذوا أي قرار في محاكمكم: "اي قرار سيتخذه الفوهرر لو كان في محلي؟" سلوا أنفسكم في كل قرار: هل يأتلف هذا الحكم مع وجدان القومية الاشتراكية للشعب الألماني؟ وعندئذ سيكون لديكم أساس ثابت فولاذي يتحالفه مع وحدة دولة الشعب القومية الاشتراكية، وبإعترافكم بالطبيعة الأبدية لإرادة أدولف هتلر، يتعرّز مجال قراراتكم الخاصة بسلطة الرايخ الثالث. وليكن ذلك لكل زمن (٢٣)".

بدا كل هذا واضحاً كما بدا من قانون الخدمة المدنية الجديد الصادر في السنة التالية (٢٦ كانون الثاني ١٩٣٧) الذي أوجب فصل كل موظف (ومن ضمنهم القضاة) بعلّة "فقدانه الثقة السياسية". وأكثر من هذا أنهم ألزموا جميعاً بالانضمام الى "عصبة القضاة الألمان القوميين الاشتراكيين" كثيراً ما ألقبت عليهم فيها دروس مشابهة لحديث فرانك. ولم يتجاوب بعض القضاة -رغم معاداتهم للنظام الجمهوري- مع خطّ الحزب تجاوباً شديداً. وفي الواقع حاولت قلة منهم أن تسند أحكامها الى نصوص القانون. وأسوأ مثل على ذلك (من وجهة النظر النازية) هو قرار محكمة جزاء الرايخ الكبرى Reichsgericht بتبرئة ثلاثة متهمين شيوعيين من أصل أربعة اتهموا بحرق الرايخشتاغ في آذار ١٩٣٤ لعدم كفاية الأدلة. (لم يثبت الجرم إلا على فان در لويه الملتاث عقلياً الذي اعترف بجريمته) لقد أحفظ هذا هتلر وگورننگ وأسخطهما فبادرا بعد شهر فقط (في ٢٤ نيسان ١٩٣٤) الى سحب حق المحاكمة بالتهم المتعلقة بأمن الدولة وكانت من إختصاص المحاكم الكبرى مطلقاً وإيداعها الى محاكم جديدة أطلق عليها أسم محاكم أمن الشعب Volksgerichtshof التي سرعان ما أصبحت شرّ المحاكم في البلاد واشدها هولاً. وتتألف من قاضيين محترفين مدنيين وخمسة أعضاء آخرين يختارون من موظفي الحزب وال (إس. إس) وضباط القوات المسلحة. وبهذا يكون للأخيرين أغلبية الأصوات. وأحكامها وعقوباتها قطعية لا تقبل إستئنافاً. هذه المحاكم عادة تعقد جلساتها سرّاً. وأحياناً قليلة يدعى الصحفيون الأجانب لحضور جلساتها لغرض الدعاية عندما تُفرض أحكامٌ خفيفةٌ نوعاً ما.

٢٣- إينشتاين المرجع السالف ص ٨٤.

بهذه الوسيلة تتبع المؤلف قضية معروضة على هذه المحكمة في ١٩٣٥ ليجدها محاكمة عرفية عسكرية غاشمة لا مرافعة محكمة مدنية. انتهى عرض الوقائع كلها في يوم واحد ولم يكن في الواقع فرصة لتقديم شهود دفاع (هذا إن جرو شاهد دفاع لمتهم "بالخيانة" على الحضور). أما النقاط التي أوردتها محامو الدفاع الذين كانوا من أخلص النازيين فهي ضعيفة الى حدّ الفجاجة. والمرء ليظن من قراءته الصحف التي لا تنشر إلا الأحكام أن معظم المتهمين المساكين يحكم عليهم بالموت (ليس في اليوم الذي حضرت المحكمة). ولا تنشر إحصاءات أو أرقام وإن صرح رولاند فرايزلر Roland Freisler - رئيس محكمة أمن الشعب الذي يلقي إسمه الرعب بين الناس (قتل أثناء الحرب عندما قصفت قاذفة قنابل أمريكية قاعة محكمة أثناء المرافعة): بأنه "لم يعدم من المتهمين الذين حوكموا غير أربعة بالمائة". محاكم الأمن المرعبة هذه المحكمة الخاصة Sonder gericht التي انتزعت من المحاكم الإعتيادية القضايا السياسية المتعلقة بأمن الدولة أو كما نصّ عليه قانون تشكيلها المؤرخ في ٢١ آذار ١٩٣٣ "القضايا التي تتعلق بالانتقاد الغادر للحكومة". وتتألف هذه المحاكم الخاصة من ثلاثة قضاة يجب أن يكونوا محلّ ثقة تامة، وجميعهم من أعضاء الحزب. ولا توجد هيئة محلفين وللمدعي العام النازي الخيار بإقامة الدعوى في هذه القضايا أمام محكمة عادية أو محكمة خاصة وهو دائماً يختار الثانية لأسباب لاتخفى، ومحامو الدفاع أمام المحكمة كما في صنوها المحكمة الأولى، يجب ان يحظوا بموافقة الموظفين النازيين وأحياناً لاتفسير أمورهم على ما يرام حتى بالموافقة عليهم. وكان مصير المحامين الذين حاولوا تمثيل أرملة الدكتور كلاوسنر زعيم منظمة العمل الكاثوليكي الذي قتل في التطهير الدموي في دعوى التعويض التي رفعتها على الدولة أن أعتقلوا وادعوا معسكر اعتقال (ساخسنهاوزن) ويقوا فيه حتى سحبوا الدعوى رسمياً.

ولهتلر الحق كما لگورنڠ أحياناً أن يوقف التعقيبات القانونية. وفي وثائق نورمبرگ^(٢٤) ازيح النقاب عن قضية أوصى وزير العدل بإلحاح إحالة موظف كبير في الغشتاپو مع زمرة من رجال ال(إس. أي) الى المحكمة لوجود دلائل كثيرة تثبت إرتكابهم أقطع جرائم التعذيب بحق نزلاء أحد معسكرات الإعتقال. فأرسل الأدلة الى هتلر، فامر الفوهرر أن توقف الإجراءات ولا ترفع دعوى. وكان لگورنڠ في مبدأ الأمر مثل هذه الصلاحية. ومرة في نيسان ١٩٣٤ اوقف التعقيبات الجنائية المتخذة ضد رجل أعمال معروف. وسرعان ما ذاع أن المتهم دفع لگورنڠ زهاء ثلاثة ملايين مارك. وعلق على ذلك المحامي البرليني المعروف "گيرهارد ف. كرامر Gerhard F. Kramer" بقوله: "من المتعذر أن نشبت هل أن گورنڠ ابتز المال من الصناعي أو أن الصناعي رشأ رئيس الوزراء الپروسي"^(٢٥). ان ما ثبت

٢٤ - مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٣ الص ٥٦٨-٥٧٢ (الوثائق ٧٨٧ و٧٨٨ PS).

٢٥ - "الرايخ الثالث" نشره بومونت ورفاقه. ص ٦٣٠.

هو أن غورنك لف القضية لفاً، وبمقابل ذلك خول (رودلف هس) نائب الفوهرر باتخاذ "خطوة لا رحمة فيها" ضد المتهمين الذين نجوا بأحكام خفيفة في رأيه. كان يقدم له سجل بكل الأحكام التي أصدرتها المحاكم قاطبة على أولئك المذنبين بجرائم "مهاجمة الحزب بالقول وانتقاد الفوهرر أو الدولة" فإذا وجد الأحكام خفيفة جداً اتخذ من جانبه إجراءً "قاسياً" وهذا يعني عادة قذف الضحايا الى معسكر اعتقال أو الأمر بإغتيالهم بالرصاص. وينبغي القول أن قضية "المحاكم الخاصة" يتمسكون بنص القانون أحياناً أو قد يظهرون روح إستقلال. في حوادث مثل هذه إما يتدخل هس أو الكشتاپو كما رأينا في قضية القس (نيمولر) الذي برأته المحكمة الخاصة من التهم الرئيسية وحكمت عليه بفترة سجن قصيرة كان قد قضاها موقوفاً، فبادرت شرطة الكشتاپو الى خطفه وهو يغادر قاعة المحكمة وقذفت به الى معسكر الإغتيال.

ذلك لأن الكشتاپو هو القانون أيضاً كالفوهرر. أنشاه غورنك بالأصل لبروسيا في ٢٦ نيسان ١٩٣٣ ليحل محل دائرة شرطة (آيا IA) وهي شرطة بروسيا السياسية. وكان ينوي في مبدأ الأمر أن يتخذة بمثابة (دائرة شرطة سرية Geheimes Polizei Amt) إلا أن الحروف الأولى من العنوان الألماني GPA، تشبه في اللفظ كلمة GPU الروسية شبيهاً شديداً. وإقترح موظف صغير في دائرة البريد كان قد عهد اليه بعمل ختم خاص للمكتب أن تسمى "شرطة الدولة السرية Geheime Staatspolizei" ومنها جاء مختصر كشتاپو Gestapo. وبهذا اخترع دون أن يدري إسماً كان مجرد ذكره يشيع الرعب والفرع أولاً في ألمانيا ثم خارجها.

في البداية كان الكشتاپو أكثر قليلاً من أداة شخصية لإشاعة الإرهاب يستخدمها غورنك لإعتقال وإغتيال معارضي الحكم ولم يأت غورنك بهملر نائب رئيس لشرطة بروسيا السرية الا في نيسان ١٩٣٤ وعندئذ بدأ الكشتاپو يتسع ليكون ذراعاً للـ (إس. إس) برعاية عبقرية رئيسه الجديد الرقيق الشمائل السادي مربى الدجاج السابق. وراينهارد هيدريخ Reinhard Heydrich الشاب وهو من طينة الشيطان نفسه^(٢٦) رئيس دائرة الوقاية في الـ (إس. إس) المسماة Sicherheitsdienst [اختصاراً S.D.] فأصبح الطامة الكبرى والداهية الدهماء ذا السلطان المطلق على موت وحياة كل فرد ألماني.

قضت المحكمة الإدارية العليا البروسية في ١٩٣٥ بضغط من النازيين أن لا تكون أعمال الكشتاپو وأوامره خاضعة للمراجعة القضائية. إن قانون تأليف الكشتاپو الذي شرعته الحكومة في ١٠ شباط ١٩٣٦ وضع الشرطة السرية فوق القانون. منع المحاكم من التدخل في أعمالها بأي شكل كان. كما فسر ذلك الدكتور قرنر بست Werner Best وهو من سواعد همملر اليمنى في الكشتاپو بقوله "مادام

٢٦- عبارة اوجين كوغون Eugen Kogon أنظر كتابه "Der SS Staat-das System der Deutschen Konzentrationalager" لقد ظهرت نسخة مختصرة بالانكليزية لهذا الكتاب بعنوان "جهنم بين النظرية والتطبيق The Theory and Practic of Hell" وهي خير دراسة لمعسكرات الإعتقال النازية كتبت، وقد عاش الكاتب تجربتها سبع سنوات.

رجال الشرطة ينفذون إرادة الزعامة فهم يعملون بحدود القانون^(٢٧). ان عباءة "القانونية" غطت الاعتقالات الاعتيادية وحبس الضحايا في معسكرات الاعتقال. ومصطلح "الحجز التحفظي" Schutz hofst وممارسته انما تستند الى قانون ٢٨ شباط ١٩٣٣ الذي عطل كما رأينا المواد التي تضمن الحريات المدنية من الدستور. لكن "الحجز التحفظي" لا يحفظ المرء من أذى محتمل كما هو شأنه في البلاد الأكثر تقدماً بل يعاقبه بوضعه وراء الاسلاك الشائكة.

نبطت أولى معسكرات الاعتقال مثل نيتة الفطر في السنة الأولى من حكم هتلر. وفي نهاية ١٩٣٣ بلغ عددها زهاء الخمسين، أنشأ أغلبها الحرس الأسود ليعتدي على ضحاياه بالضرب المبرح ثم يفتديهم بمبالغ من المال يدفعها أقرباؤهم واصدقاؤهم حسب التساهيل والمقدرة المالية وكانت على الأغلب طريقة بدائية في ابتزاز الأموال. وقد يُقتل الضحايا أحياناً وفي العادة يكون ذلك محض سادية في القتل وجنون حب التعذيب الوحشي. وكشف النقاب في محاكمات نورمبرج عن أربع قضايا حدثت في ربيع عام ١٩٣٣ بمعسكر الاعتقال (داخاو) الذي يشرف عليه الحرس الأسود. كانت الضحية في كل قضية. تُقتل قتلاً متعمداً مقصوداً. ماتت ضحية من أثر الجلد وخنقت أخرى، وإحتج على هذا حتى مدعي عام مونيخ.

بعد التطهير الدموي في حزيران ١٩٣٤، لم يعد ثم مقاومة للنظام النازي وطن كثير من الألمان أن "الحجز التحفظي" الجماعي والاعتقالات وحبس الآلاف في معسكرات الاعتقال إنتهى أمره. وفي ليلة عيد الميلاد ١٩٣٣ أعلن هتلر عفواً عاماً عن سبعة وعشرين ألفاً من نزلاء هذه المعسكرات. الا أن (گورنك وهملر) حاد عن أوامره ولم يطلق إلا بضعة أنفار. ثم حاول (فريك) البوروقراطي المصانع والآلة الذي كان وزيراً للداخلية أن يحد من إعتداءات أشقياء النازي في نيسان ١٩٣٤ بإصدار أوامر سرية يضع فيها القيود على إستخدام عملية إلقاء القبض الإجتماعي لغرض "الحجز التحفظي" وتقليص عدد معسكرات الاعتقال إلا أن (هملر) أقنعه بالعدول عما إنتواه. فقد رأى زعيم ال(إس. إس) بوضوح أكثر من الوزير أن الغرض من وجود معسكرات الاعتقال لا يقتصر على عقاب أعداء النظام، بل يتعلق بوجودها فعلاً لإشاعة الخوف والإرهاب في الناس وردعهم عن التفكير في أية مقاومة للحكم النازي.

بعد تطهير (روهم) بزمان وجيز أودع هتلر مهمة الإشراف على معسكرات الاعتقال الى الحرس الأسود. فبادر هذا بتنظيمها بروح من القسوة والنشاط اللتين تفوقت فيهما هذه الصفوة المختارة. وانيطت مهمة الحراسة كلها "بوحدات الجماجم Totenkopf boende" ويتم إختيار هؤلاء من بين أعتى وأغلظ النازيين. ومدة تطوعهم لاتقل عن إثنتي عشرة سنة وهم يضعون إشارة الجمجمة والعظام

٢٧-اقتبست في "مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ١١ ص ٢٥٨، وثيقة PS ١٨٥٢".

المألوفة على بزاتهم السوداء ووضع ثيودور آيكة Theodor Eicke قائد فوج (وحدة المجاجم) الأول، وأمر معتقل (داخا)، رئيساً مهيمناً على كل معسكرات الاعتقال. فأغلقت المعسكرات البعيدة الصغيرة غير المحصنة وبنيت معسكرات أكبر منها. وفي المقدمة معسكر داخا قرب مونيخ [بعد نشوب الحرب انشئت معتقلات أخرى في البلاد المحتلة] وبوخنوالد Buchenwald قرب (فايمر) وساخسهاوزن الذي حل محل معسكر اعتقال اورانيبرغ Oranienburg ذي الشهرة المستفيدة قرب برلين. ومعسكر رافنسبروغ Ravensbrueck للنساء في مكلنبورغ Mecklenburg ومعسكر اعتقال ماوتهاوزن Mauthausen قرب لينز- بعد إحتلال النمسا سنة ١٩٣٨. أما أسماء المعتقلات أوشفيتز Auschwitz وبيلسين Belsen وتريبلينكا Treblinka التي انشئت بعدئذ في بولندا فقد استطارت شهرتها الى أرجاء العالم. كان ملايين التاعسين في هذه المعتقلات وقبل أن ترحمهم النهاية يقتلون وتزهق أنفاسهم. ويخضع ملايين آخرون الى إذلال وتعذيب بلغت شناعتهما حداً يعجز عن تصويره إلا قلة من العقول. لكن في بداية الثلاثينات ربما لم يكن نزلاء معسكرات الاعتقال النازية في ألمانية يقل عن العشرين ألفاً أو يزيد عن الثلاثين في وقت من الأوقات وبعدها لم يعرف العدد عندما بلغ رجال هملر الغاية في التفنن باختراع صنوف التعذيب والفظائع. فمعتقلات الإبادة ومعسكرات تسخير العبيد والمعسكرات التي يتخذ نزلاؤها بمثابة خنازير عينة لإجراء "للأبحاث الطبية" النازية وإجراء التجارب عليها، كان ميلادها مرهوناً بمجيء الحرب. على ان المعتقلات الأولى لم تكن إنسانية بالضبط. وأمامي الآن نسخة من الأوامر التي نظمها ثيودور آيكة أمر معتقل (داخا) لمعسكره بالذات، ثم طبقها على جميع المعتقلات عندما أصبح مشرفاً عليها.

"الفقرة (١١) المذنبون التالون- يعتبرون مهيجين ومحرضين ويجري إعدامهم الحياة شتقاً: كل من يتحدث في السياسة أو يعقد إجتماعات مهيجة أو يلقي خطاباً مثيراً أو يؤلف حلقة أو يتسكع هنا وهناك أو يتصل بالآخرين أو من يجمع معلومات حقيقية أو زائفة حول معسكرات الاعتقال لغرض تزويد المعارضة أو الدعاية المضادة بقصص عن الفظائع. وكل من يتسلم هذه المعلومات ويدفنها ويتحدث بها مع الآخرين أو يهربها الى خارج المعتقل لوضعها في يد الزوار الأجانب الخ..."

"الفقرة (١٢) المذنبون التالون يعتبرون متمردين متعصبين ويعدمون رمياً بالرصاص حالاً أو يشنقون فيما بعد: كل من يهاجم بالقوة البدنية حارساً من ال(إس. إس) أو من يرفض اطاعة الأمر، أو يمتنع عن العمل أثناء الشغل... أو يصيح، أو يعربد، أو يتحدث أو يخطب أثناء السير أو العمل. ويعاقب بعقوبة أخف: [الحبس الإنفرادي لمدة أسبوعين، أو بخمس وعشرين جلدة] كل من أدرج عبارة تحقير أو إستخفاف في رسالة أو أي وثيقة تمس قائداً من القوميين الإشتراكيين أو رجال الدولة والحكومة [أو] يخطئ عبارة تمجيد بالقادة الماركسيين والأحرار لكل الأحزاب الديمقراطية القديمة."

ويشارك الغشتاير شرطة الأمن (S.D) Sicherheitsdienst ويؤلف طاقماً آخر من أعوان التنفيذ يشيع الهلع في أفئدة كل الألمان- ويعدها في أفئدة كل سكان البلاد المحتلة. بالأصل انشأه هملمر سنة ١٩٣٢ كفرع استخبارات لـ(إس. إس) ووضعها تحت أمرة (راينهارد هيدريخ) الذي عرفه العالم فيما بعد بلقب "الجلاد هيدريخ" وكان عملها الرئيس مراقبة أعضاء الحزب وتقديم تقرير بكل نشاط مريب، وفي ١٩٣٤ أصبحت أيضاً وحدة استخبارات للشرطة السرية. وما جاء العام ١٩٣٨ حتى صدر بها قانون جديد ليشمل مجال عملها كل أنحاء الرايخ.

(هيدريخ) كان ضابط استخبارات في الأسطول. طرده الأميرال رايدر من الخدمة سنة ١٩٣١ وهو في سن السادسة والعشرين لرفضه الزواج من بنت صاحب مصنع للسفن كان قد أغواها فضمه هملمر، وأصبحت شرطة الأمن تحت يده الخبيرة قوة هائلة تنشر شباكها فوق ألمانيا وتستخدم زهاء مائة ألف مخبر من عامة الناس وبأجور اضافية يؤمرون ان يندسوا في المجتمعات ويتسقطوا كلمات كل مواطن في البلاد ويقدموا تقريراً بأصغر ملاحظة أو نشاط يشتبه في كونه معادياً للحكم النازي. لا أحد يتفوه بكلمة أو يقوم بعمل قد يمكن تفسيره "بالعداء للنازي" قبل ان يأخذ حذره من أنه لايسجل عن طريق الميكروفونات المخبأة أو أن أحداً من وكلاء شرطة الأمن يتسمع اليه- إلا اذا كان أحقق غيباً، إبنك أو أبوك، زوجتك أو إبن عمك، صديقك المخلص أو رئيسك أو سكرتيرك. كل واحد من هؤلاء قد يكون مخبراً لمنظمة (هيدريخ)، إنك لاتدري. ولو كنت من الحكمة وبعد النظر في شيء فعليك ألا تضمن أي شيء.

وشرطة الأمن ذوو الدوام الكامل ربما لم يتجاوز عددهم الثلاثة آلاف أثناء الثلاثينات ويختار أغلبهم من صفوف الشباب المتعلم العاطل ولاسيما خريجو الجامعات الذين لايجدون لأنفسهم عملاً مناسباً أو أي مركز مضمون في المجتمع الإعتيادي. ولذلك يطالعك بين هؤلاء الجواسيس المحترفين دائماً أبدأ جو غريب تسوده الحذقة العلمية. فتراهم يهتمون إهتماماً عجيباً بمواضيع جانبية لا تمت الى مهنتهم بصلة، كدراسة الآثار التيونونية. أو فحص جماجم الأجناس البشرية المنحلة، أو وسائل تحسين نسل العنصر المختار. يجد المراقب الأجنبي بعض الصعوبة في إنشاء صلات بهذه الغرائب من البشر وان كان هيدريخ نفسه، وهو شخصية متعجرفة باردة برودة الجليد، قاسية للغاية، قد يشاهد أحياناً في أحد نوادي برلين الليلية محاطاً ببعض أعوانه الشباب الشقر الأشقياء. ولم يكن إختفاؤهم عن الانوار الساطعة بسبب طبيعة عملهم وحدها، بل لان بعضهم [على الأقل في سنتي ١٩٣٤ و ١٩٣٥] ممن كان قد جرى إغتياله على يد عصاية إغتيال سرية تطلق على نفسها اسم "المنتقمون لروهم" لم تنس أن تضع علامتها الفارقة على ثياب جثث قتلها. بسبب تجسسهم على روهم وأتباعه من الـ(إس. أي). ومن مهام شرطة الأمن الطريفة، وان كانت مهمة ثانوية. هو التأكد من هويات

أولئك الذين صوّتوا بكلمة (لا) في إستفتاءات هتلر العامة. ومن الوثائق العديدة التي عرضت في نورمبرغ تقرير سري لشرطة الأمن في كوخيم Kochem عن إستفتاء العاشر من نيسان ١٩٣٨: "النسخة المربوطة طياً. تتضمن أسماء الأشخاص الذين صوتوا بـ(لا) أو تركوا الورقة بيضاء، في منطقة كاپيل Koppel: لقد جرت مراقبة ذلك بالطريقة الآتية: وضع بعض أعضاء لجنة الإنتخاب أرقاماً على كل البطائق. وفي أثناء الاقتراع بموجب ترقيم للأسماء بذلك أصبح ممكناً فيما بعد... التوصل الى هويات الأشخاص الذين صوتوا بكلمة (كلا) أو لم يدونوا شيئاً على بطاقتهم، وقد تم الترقيم على ظهر البطاقة بحليب خالٍ من الدهن. وارفق بهذا أيضاً بطاقة الاقتراع التي ألغاهها القس البروتستانتي "ألفريد فولفرس Alfred Wolfers" (٢٨).

في ١٦ حزيران ١٩٣٦. أنشئ لأول مرة في تاريخ ألمانيا شرطة موحدة لكل الرايخ- وكان لكل دولة فيدرالية شرطتها الخاصة قبل ذلك- ونصب هملمر رئيساً عاماً للشرطة الألمانية. وهذا ما يوازي وضع الشرطة عموماً بيد الـ(إس. إس) الذي كان يزيد من سلطانه منذ قمعه "ثورة" روهم سنة ١٩٣٤. وأصبح الآن يجمع في ذاته صفات الحرس البريتوري، والوحدة المسلحة المنفردة في الحزب والصفوة المختارة التي ينتقى من صفوفها قادة المستقبل لألمانيا الحديثة. فضلاً عن سيطرته على عموم الشرطة وهكذا أصبح الرايخ الثالث دولة پوليسية بحتة، كما هو محتوم ومقدر في سلم تطور كل الدكتاتوريات المطلقة الجماعية.

- ١٠ -

الحكومة في الرايخ الثالث

لم يُلغَ دستور (فايمر) رسمياً وان قضى هتلر على جمهورية فايمر في الواقع، وهذا من سخریات القدر- أن هتلر بنى "شرعية" حكمه كلها على هذا الدستور الجمهوري الكريه. ولهذا تجد آلافاً من المراسيم بقانون (ليس ثم غير ذلك في الرايخ الثالث) مستندة بصراحة على مرسوم الطوارئ الرئاسي الذي وقّعه هندنبرگ في ٢٨ شباط ١٩٣٣ بمقتضى المادة (٤٨) من الدستور. ويذكر القاريء أن الرئيس الشيوخ كان قد أرغم على توقيععه في اليوم الذي تلا حرق الرايخشتاغ بعد أن أكد له هتلر وجود خطر كبير من قيام ثورة شيوعية. إن هذا المرسوم الذي عطل كل الحقوق المدينة بقي ساري المفعول طوال عهد الرايخ الثالث، فأعان هتلر على الحكم بنوع من الأحكام العرفية متواصل ابداً. وكان عمود حكم هتلر الثاني ايضاً "دستورياً" وهو قانون التمكين الذي صوّت عليه الرايخشتاغ

٢٨- مؤامرة النازيين... ج ٨ الص ٢٤٣-٢٤٤: الوثيقة LR.١٤٢.

في ٢٤ آذار ١٩٣٣ وسلم به سلطاته التشريعية كلها الى الحكومة النازية. وكان العمل يتجدد به كل أربع سنوات. بملء الرغبة والخضوع بجلسة من جلسات الرايخشتاغ الطائع. اذ لم يخطر ببال الفرهر أن يلغي هذه المؤسسة الديمقراطية سابقاً، وأما اكتفى يجعلها لاديمقراطية. ولم يجتمع أكثر من عشر مرات أو نحوها حتى نشوب الحرب. واصر خلال هذه الفترة أربعة قوانين فقط^(٢٩) ولم يعقد جلسات مناقشة أو يصوت. أو يسمح بأي خطبة خلا خطب هتلر.

بعد الأشهر القلائل الأولى من ١٩٣٣ لم تعد هناك مناقشات جديدة في جلسات الوزارة. وابتعدت الشقة ما بين إجتماع واجتماع بعد وفاة هندنبرگ في آب ١٩٣٤، ولم يحصل إجتماع قط بعد شباط ١٩٣٨، ومع كل ذلك كان الأفراد الوزراء يتمتعون بسلطات كبيرة حتى خولوا حق إصدار المراسيم التي تصبح قوانين بعد مصادقة هتلر عليها. وأنشيء مجلس الوزراء السري Geheimer Kabinett الذي ورافق إنشاءه تطبيقاً وتزويراً عظيمين في ١٩٣٨ ربما لاجتذاب إهتمام رئيس الوزراء (جمبرلين) مع أنه لم يوجد إلا على الورق ولم يجتمع مرة واحدة. وألف مجلس دفاع الرايخ Reich sverteidigungsrat في مبدأ الحكم النازي كهيئة تخطط للحرب برئاسة هتلر ولم تجتمع بكامل هيئتها إلا مرتين. وان كان بعض لجانها الفرعية نشط جداً. ونذبت لجان خاصة لوظائف وزارات عديدة. كدائرة نيابة الفوهرر [هس، ثم مارتن بورمان] ودائرة المفوضين السامين المطلقي الصلاحية لإقتصاد الحرب [شاخ] والإدارة [فريك] والمندوب لمشروع السنوات الأربع [كورنك] وبالإضافة الى ذلك أستحدث ما أطلق عليه "اللجان الحكومية العليا" و"اللجان الإدارية القومية". وكثير منها من مخلفات الجمهورية. وتعدّ كلها بـ (٢٤) لجنة تنفيذية للحكومة القومية تخضع مباشرة للفوهرر. وتمّ -كما رأينا- إلغاء مجالس الأقاليم والحكومات المحلية للدول ذات الحكم الذاتي في ألمانيا، من السنة الأولى للنظام النازي بتوحيد البلاد، وجعلت الدول الفدرالية مجرد أقاليم يعيّن الفوهرر حكامها. وقضي قضاءً مبرماً على الحكم الذاتي المحلي وهو الميدان الأوحده الذي بدا الألمان فيه يحرزون تقدماً حقيقياً في مضمار الديمقراطية. وصدرت سلسلة متعاقبة من القوانين بين ١٩٣٣ و ١٩٣٥ جرّدت البلديات من إستقلالها المحلي وأخضعتها مباشرة لوزير داخلية الرايخ الذي كان يعيّن رؤساءها اذا كانت البلدية تشمل دائرة يزيد سكانها عن مائة ألف، وأعاد تنظيمها على مبدأ الزعامة. وفي الدوائر والبلدان التي يقل نفوسها عن مائة ألف، يجري تعيين رؤساء البلدية من قبل حكام الأقاليم واحتفظ هتلر لنفسه بحق تعيين عمّد مدن برلين وهامبورگ، وقيينا (بعد إحتلال النمسا في ١٩٣٨). أما الدوائر التي يمارس هتلر صلاحياته الدكتاتورية عن طريقها، فتتألف من أربع مستشاريات: مستشارية الرئاسة (العنوان

٢٩- قانون الاصلاح الصادر في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٤ والقوانين اللاسامية الثلاثة- في نورمبرگ في ١٥ أيلول ١٩٣٥.

ألغى بعد ١٩٣٤) ودائرة المستشار (تُبذ اللقب في ١٩٣٩) ودائرة الحزب، وأخيراً ما عرف بدائرة الفوهرر وهي التي تشرف على شؤون الشخصية وتقوم بمهام خاصة.

والواقع إن هتلر كان قد سئم تفاصيل الحكم اليومية. فبعد أن ثبت مركزه عقب وفاة هيندنبرك ترك مسؤولياته التفصيلية لأعوانه. وأعطى رفاق الحزب القدامى أمثال (گورنگ وگوبلز وهملر ولي) وشيراخ مطلق الحرية وألقى حبلهم على غاربهم لبناء إمبراطوريتهم السلطانية الخاصة وما تأتي به من أرباح مادية في العادة. فمثلاً أعطى (شاخ) الحرية الكاملة من المبدأ بجمع المال للإنفاق على مصاريف الحكومة المتزايدة بأي لعبة سيمائية أو خفة يد يريد. وكلما تصادم هؤلاء الرجال حول توزيع السلطة أو الأسلاب تدخل هتلر للتسوية ولم يكن يكثر بهذه الخصومات لا بل كان يشجعها أحياناً لأنها تضيف الى شخصيته المزيد من المهابة والمكانة بوصفه الحكم الأعلى. وتحول دون توحيد الصف ضده. ولذلك كان يستمتع فيما يبدو- بمنظر ثلاثة رجال يحترقون فيما بينهم على الشؤون الخارجية: نوراث وزير الخارجية. وروزنبرگ رئيس دائرة الحزب للشؤون الخارجية، و(رينتروب) الذي يرأس (مكتب رينتروب) لمزاولة السياسة الخارجية. هؤلاء الثلاثة يناطح أحدهم الآخر بعناد وغباء فيتركهم هتلر يتناحرون بالابقاء على دوائرهم، ثم إختار بالأخير الغيبي الرقيق (رينتروب) ليصبح وزير خارجيته وينفذ أوامره في الشؤون الخارجية. تلك هي حكومة الرايخ الثالث. تدار من القمة الى الحضيض بما اطلق عليه مبدأ الزعامة ونظام بيروقراطي ملوث ليس فيه من الكفاءة التي اشتهر بها الألمان الا القليل. نظام سممته الرشوة وحط منه الإضطراب المستمر والمنافسات الدموية وكاد يوصله الى العقم إرهاب گشتاپو ال(إس. إس). وفي قمة هذا الكدس المصطخب المتلاطم يقف من كان يوماً أفاقاً مُساوياً. وهو الآن- بإستثناء ستالين- أقوى دكتاتور في العالم. وعلى حد ما قاله الدكتور هانز فرانك أمام مؤتمر المحامين في ربيع ١٩٣٦ "في ألمانيا اليوم لا يوجد الا سلطة واحدة... هي سلطة الفوهرر"^(٣٠). بهذه السلطة سارع هتلر الى سحق أولئك الذين عارضوه وتوحيد الدولة وصبغها بالنازية وحول البلاد الى ثكنة عسكرية بمعاهدها ومؤسساتها وثقافتها ومصادرة حريات الفرد. ومحو البطالة، وإدارة عجالات الصناعة والتجارة بأقصى سرعتها- وهي ولا غرور ليست بالأعمال البسيطة بعد ثلاث أو أربع سنوات من الحكم. إنه الآن يستدير- في الواقع أنه إستدار منذ زمن - الى أمنيته رئيسيتين في حياته: توجيه سياسة ألمانيا الخارجية الى الحرب والفتح. وخلق ماكنة عسكرية جبارة تساعد على تحقيق هدفه. لقد آن الأوان الآن للعودة الى القصة. وستصبح الآن مدعمة بالوثائق أكثر من اية قصة في التاريخ الحديث. قصة كيفية إنطلاق هذا الرجل غير العادي الحاكم لبلاد بهذه الدرجة العظيمة من القوة- الى تحقيق أغراضه.

٣٠- فولشكر بيوياختر ٢٠ أيار ١٩٣٦.

الكتاب الثالث

الطريق الى الحرب

الفصل الأول

الخطوات الأولى

١٩٣٤ - ١٩٣٧

- ١ -

التحدث عن السلم، والتهيؤ سراً للحرب والسير بحذر كافٍ في السياسة الخارجية، والتسلح في الخفاء إجتنباً لأي تدخل عسكري تقوم به دول قُرساي ضد ألمانيا. ذلكم هو تكتيك هتلر خلال السنتين الأوليين.

لقد كان عشاراً سيئاً إغتيال النازيين (دولفوس) مستشار النمسا في ٢٥ تموز ١٩٣٤ ففي ظهر ذلك اليوم إقتحم مائة وأربعة وخمسون فرداً من كتيبة الحرس الأسود S.S التاسعة والثمانين متناكرين بيزات الجيش النمساوي داراً المستشارية الفيدرالي واطلقوا الرصاص على (دولفوس) على مسافة قدمين فقط فأصابوه في حنجرتهم. وعلى مبعده شوارع قليلة، ضبط نازيون آخرون دار الإذاعة اللاسلكية وأعلنوا نبأ إستقالة (دولفوس). وبلغت الأخبار هتلر وهو يصغي الى أوبرا "داس راينغولد Das Rheingold" في مهرجان فاكنر السنوي بمدينة (بايروت). فأثارته وهزته هزة عنيفة. وكان شاهداً للمنظر (فريدلند فاكنر Frudelind Wagnr) حفيدة الموسيقار العظيم الجالسة في مقصورة الأسرة القريبة وقالت فيما بعد ان المرافقين شاوب Schaub وبروكر Bruecker ظللاً يستقبلان الأنباء من فيينا من تلفون الغرفة الخلفية القريبة من مقصورتها ثم يهملسان بها في أذن هتلر.

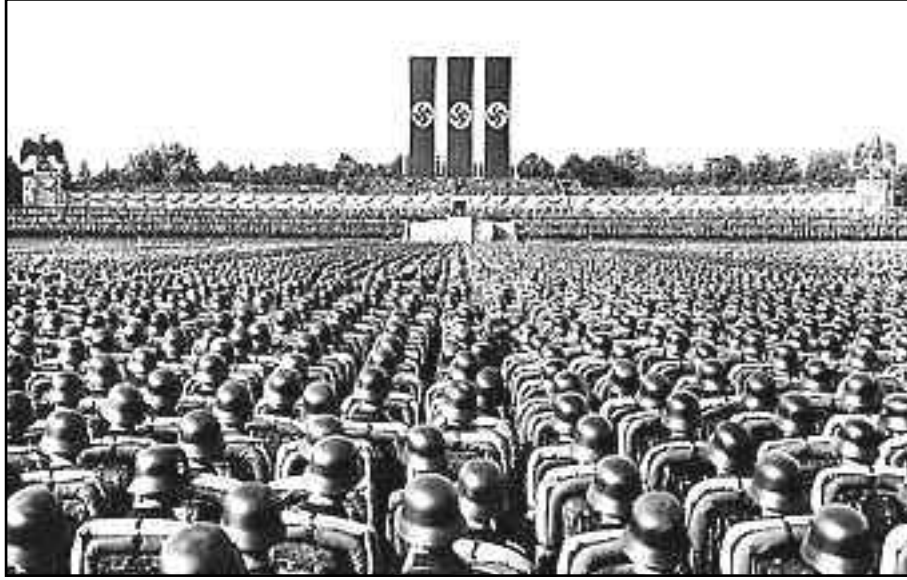
وبعد ختام الأوبرا ظهر هتلر متتهيجاً للغاية. وقد تصاعد إهتياجه كلما مضى يحدثنا بالأخبار الفظيعة... ومع أنه لم يقوَ تماماً على إزالة امارات الغبطة عن وجهه فقد أمر بالعشاء في المطعم كالعادة وبكل دقة وقال "يجب أن أخرج للناس واظهر لهم نفسي مقدار ساعة من الزمن أو سيظنون أن لي ضلعاً فيما حدث^(١)". ولو ظنوا، لما كانوا يعيدون عن الحقيقة. وليذكر أن هتلر كتب في أول فقرة من كفاحي أن جمع الشمل بين النمسا وألمانيا هو "مهمة يجب المضي فيها قدماً وتسخير كل وسيلة لها طوال حياتنا". وما أن أصبح مستشاراً حتى عيّن نائب الرايخشتاغ "ثيودور هابخت Theodor Ha-bicht" مفتشاً للحزب النازي النمساوي. وبعدها بقليل من الزمن أطلق ألفرد فراونفلد Alfred Froum-

١ - فريدلند فاكنر: "ميراث النار" ص ١٠٩.

feld زعيم الحزب القطري النمساوي الذي أثر المنفى بإختياره يحرض من إذاعة (مونيك) رفاق الحزب في فيينا على قتل (دولفوس) كل ليلة. وقبل تموز ١٩٣٤ بأشهر قاتل كان النازيون النمساويون بأسلحة ومتفجرات ترددهم من ألمانيا، قد أشاعوا جواً من الإرهاب لم تألفه البلاد فنسفوا القطارات ومحطات توليد الكهرباء وبنائات الحكومة وراحوا يغتالون اتباع (دولفوس) وأشياع نظامه الاكليريكي-الفاشي وأخيراً صادق هتلر على تشكيل فرقة نمساوية من عدة آلاف عسكرت على طول الحدود النمساوية البافارية وهي على أتم الأهبة لعبور الحدود وإحتلال البلاد عند الفرصة السانحة. قضى (دولفوس) نحيبه متأثراً بجراحه في حوالي السادسة مساءً الا أن الإنقلاب النازي فشل بسبب إرتباك المتآمرين الذين احتلوا المستشارية لعدم اتقانهم خطتهم. وسرعان ما عادت قوة الحكومة بقيادة (الدكتور كرت فون شوشنك) الى القبض على زمام السلطة. وبالرغم من وعد الحكومة بالعفو عن الثائرين وإبعادهم الى ألمانيا بناءً على تدخل الوزير المفوض الألماني إلا انهم اعتقلوا وشنق ثلاثة عشر منهم فيما بعد. وفي الوقت نفسه بادر موسوليني الذي كان هتلر قد وعده قبل شهر في إجتماعهما بالبندقية ان يترك النمسا وشأنها، الى تحشيد أربع فرق عسكرية في ممر برينر Brenner بغاية السرعة وهذا ما ولّد قلقاً في برلين.

ونكس هتلر على أعقابيه فوراً وسحبت قصة النبأ التي أعدتها وكالة الأنباء الألمانية الرسمية (د.ن.ب. DNB) حول إعلان الغبطة بسقوط دولفوس وقيام ألمانيا العظمى المحتوم نتيجة لسقوطه، سحبت في منتصف الليل واستبدلت بإظهار شعور الاسف لحادثة "القتل البربرية" وأعلنت أن الحدث هو من شؤون النمسا الداخلية الخاصة. وعزل (هابخت) واستدعي الوزير الألماني من فيينا وعزل ليخلفه پاين الذي نجا بأعجوبة من مصير مشابه لمصير دولفوس قبلها بشهر أثناء تطهير (روهم) وقذف به على جناح السرعة الى فيينا لإعادة "العلاقات الطبيعية الطيبة" كما أمره هتلر.

تلاشى أول إستبشار هتلر ليخلفه القلق والخوف. ويقول پاين انه كان يصرخ عندما إجتمع به للتشاور في كيفية التغلب على الأزمة^(٢) "نحن الآن نواجه سيراييفو Sarajevo جديدة!" إلا أن الفوهرر تعلم درساً. ان الإنقلاب النازي في (فيينا) كانقلاب مشرب البيرة في (مونيك) ١٩٢٣ كان مبتسراً. فألمانيا لم تكن قوية عسكرياً بعد لتدعم مغامرة كهذه بالقوة. وهي في عزلة سياسية شديدة. حتى إيطاليا الفاشية فقد انضمت الى بريطانيا وفرنسا في الإصرار على بقاء النمسا مستقلة. زد على ذلك أن الإتحاد السوفياتي بدأ يظهر إهتماماً لأول مرة بعقد ميثاق لوكارنو شرقي مع الغرب وهو ما قد يحبط أية محاولة لألمانيا في الشرق. وكان قد إنضم الى عصبة الأمم في الخريف ولهذا بدا إنقسام القوى الكبرى أبعد احتمالاً خلال ١٩٣٤ الحرجة من أي وقت مضى. وكل ما بات في وسع هتلر أن



أحد الاستعراضات العسكرية النازية

يعمل، هو الدعوة الى السلام والإستمرار في تسليحه السري والانتظار إرتقاباً للفرص. والى جانب الرايخشتاغ كان لهتلر وسيلة ثانية لإيصال دعاية السلام الى العالم الخارجي، ألا وهي الصحافة الأجنبية التي كان مراسلوها ومحرووها وناشروها لا يبرحون يتكالبون على مواعيد مقابلات له. كان ثم "ورد پرايس Ward Price" الانكليزي ذو المونوكل وصحيفته اللندنية "الديلي ميل" المستعد دائماً ولأقل إشارة أو تلميح لإرضاء الدكتاتور الألماني. وهكذا ففي آب ١٩٣٤ - وبمقابلة من سلسلة مقابلات قدّر لها أن تستمر حتى بداية الحرب أبلغ هتلر پرايس وقراءه ان "الحرب لن تعود ثانية" وأن ألمانيا لديها "إنطباع قوي عن الشرور المتأتية من الحرب يفوق إنطباع أي قطر آخر"^(٣). وفي أواخر العام كرر هذه المشاعر المعسولة لـ (جان گوي Jean Goy)، أحد زعماء المحاربين القدماء الفرنسيين وعضو مجلس النواب فنقلها في مقال نشرته له صحيفة لوماتان Le Matin الباريسية اليومية^(٤).

٣ - الديلي ميل ٦ آب ١٩٣٤.

٤ - لوماتان ١٨ تشرين الثاني ١٩٣٤.

نقض معاهدة فرساي

كان هتلر في الوقت عينه يمضي بهمة لاتعرف الكلل في برنامج بناء القوات المسلحة وتجهيزها بالسلاح وأمر الجيش أن يزداد ضعفين [من مائة ألف الى ثلاثمائة ألف حتى الأول من تشرين الأول ١٩٣٤] وفي نيسان من تلك السنة أفهم الجنرال (لودفيك بيك) رئيس هيئة الأركان أنه سيعلن التجنيد الإجباري في الأول من نيسان من السنة القادمة ورفض قيود معاهدة فرساي العسكرية^(٥). وأنه يجب أن يتوسل بأسباب الكتمان والسرية الشديدين حتى يحين ذلك الموعد. وحذر غوبلز بالأدع كلمات "الأركان العامة" ونحوها تظهر في الصحف لأن (فرساي) تحظر مجرد وجود لهذه الهيئة. ولم يعد يطبع الثبت الرسمي السنوي بضباط الجيش الألماني بعد ١٩٣٢ حتى لاتفصح اللعبة قوائم الضباط المتعاطمة وتضعها في يد الاستخبارات الأجنبية. وقام الجنرال فون كايتل Von Keitel رئيس لجنة الأشغال التابعة لمجلس دفاع الرايخ بتحذير مساعديه في الوقت المبكر ٢٢ أيار ١٩٣٣ "يجب أن نحرصوا على كل وثيقة من الضياع. والا فان جهاز دعاية الأعداء سيفيد منها إلا تلك التي يجري إنتقالها شفافاً فلا يمكن إقامة الدليل عليها ويمكن انكارها"^(٦).

وانذر الأسطول أيضاً بان يبق في فمه مغلقاً. وفي حزيران ١٩٣٤ جرى حديث طويل لرايدر مع هتلر وقد دون عنه: "تعليمات الفوهرر: تقضي بالأبنيوه بشيء عن بناء ٢٥٠٠٠-٢٦٠٠٠ طن بل عن تجديد ١٠٠٠٠ طن من السفن يطالب الفوهرر بالسرية التامة بخصوص بناء الغواصات"^(٧). ذلك لأن البحرية بدأت ببناء طرادين حربيين حمولتهما (٢٦٠٠٠) طن أي بزيادة ١٦٠٠٠ طن عن الحد المسموح به في المعاهدة عرفاً فيما بعد بالطرادين شارنهورست وغنايزناو. أما الغواصات التي حظرتها المعاهدة على ألمانيا فقد كانت تبنى سراً في فنلندا وهولندا وإسبانيا على عهد الجمهورية. وقد اختزن (رايدر) هياكل وأجزاء أكثر من عشر غواصات في (كيل). وعندما قابل هتلر في تشرين الثاني ١٩٣٤ طلب السماح له بتجميع أجزاء ست منها لتكون جاهزة "في أيام الوضع الحرج للربيع الأول من ١٩٣٥" [الظاهر انه كان هو الآخر يعلم بما سيقوم هتلر بعمله في ذلك الزمن] لكن الفوهرر لم يجب بأكثر من "انه سيبلفه متى تتطلب الحالة البدء في التركيب"^(٨).

٥ - فلفغانك فويرستر Wolfgang Foerster "Een General Kaempft gegen den Krieg" ص ٢٢ هذا الكتاب. موضوع على أوراق (بيك) الخاصة التي تركها.

٦ - مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٧ ص ٣٣٣ (الوثيقة ١٧٧ EC).

٧ - مؤامرة النازيين... ج ١ ص ٤٣١ (الوثيقة ١٨٩ G) (الوثيقة ١٨٩ EC).

٨ - مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٦ ص ١٠١٨ (١٩٠ C).

وفي المقابلة ذاتها أشار (رايدر) الى ان برنامج بناء السفن الجديد (ولانذكر زيادة أفراد البحرية ضعفين آخرين) سيكلف مالياً يزيد عما هو متيسر لديه. الا ان هتلر طمأنه وطلب منه ألا يهتم فـ"عندما تدعو الحاجة، سيؤمر الدكتور (لاي) بصرف ما بين ١٢٠ و ١٥٠ مليون مارك من جبهة العمل ووضعها تحت تصرف البحرية. مادام العمال سينتفعون بها أيضاً"^(٩). وهكذا رسم أن تقوم أموال العمال الألمان بتمويل برنامج البحرية. وكان غورنك منشغلاً في هاتين السنتين أيضاً بإنشاء قوة جوية. فبوصفه وزير طيران (المفروض انه طيران مدني) حمل المنتجين الصناعيين على العمل في تصميم طائرات حربية. وبدأ تدريب الطيارين الحربيين حالاً تحت الستار الوارف الظلال "جمعية رياضة الطيران".

الزائر مناطق الروهر والراين الصناعية في تلك الأيام كان سيذهل من النشاط الهائل في صناعات المهمات الحربية. وبخاصة مصانع (كروپ) منتجة المدافع الألمانية الرئيسية لثلاثة أرباع القرن. واحتكارات (فارين) للمصانع الكيميائية. ومع ان الحلفاء كانوا قد حظروا على كروپ إنتاج السلاح بعد ١٩١٩ إلا أن هذه الشركة في الحقيقة لم تبقَ عاطلة كما كان (كروپ) سيفخر في ١٩٤٢ عندما احتلت الجيوش الألمانية معظم أوروبا "أن المبادئ الأساسية لتسليح وتدريب الدبابات قد تم تصميمه وتجريبه منذ ١٩٢٦... أما عن المدافع التي استخدمت في ١٩٣٩-١٩٤١ فأهمها كان قد كمل وفرغ منه سنة ١٩٣٣". وأنقذ علماء مؤسسات فارين الكيميائية ألمانيا من كارثة محققة مسبقة في الحرب العالمية الأولى بإختراع طريقة لاستحصال النيترات الصناعية (ملح بارود شيلي) من الهواء بعد أن انقطع طريق الإمداد الإعتيادي من شيلي بفعل الحصار الإقتصادي. ف راحت الآن في عهد هتلر تتجاهد لتجعل ألمانيا مكتفية ذاتياً بمادتين أساسيتين لا يمكن أن تخاض حرب عصرية دونها. وهما النفط والمطاط فكلاهما يجب على ألمانيا أن تستوردهما. إن مشكلة استخراج النفط الصناعي من الفحم، حلها فعلاً علماء الشركة في أواسط العشرينات. وبعد ١٩٣٣ اعطت حكومة النازي مؤسسة فارين أمر المباشرة في تقطير ثلاثمائة ألف طن من نفط السيارات في السنة الواحدة حتى ١٩٣٧ وفي أثناء تلك الفترة اكتشفت الشركة طريقة صناعية لعمل المطاط من الفحم وغيره من المواد التي توجد في (سكوبوا Schkopou) لإنتاج المطاط الذي عرف باسم (بونا Buna) على أوسع نطاق. وفي مبتدأ ١٩٣٤ وافق مجلس دفاع الرايخ على الخطط التي وضعتها لجنة الاشغال الملحققة به على تعبئة (٢٤٠) ألف مصنع وتوجيهها الى متطلبات الحرب. وفي نهاية تلك السنة أصبح التسليح يشتى أوجهه، واضحاً للعيان ودرجة ماعاد بالإمكان اخفاؤه عن قوى فرساي المرتاية القلقة. هذه القوى التي كانت تتزعمها بريطانيا راحت تغازل فكرة القبول بالأمر الواقع fait accompli أعني

٩ - المرجع نفسه.

تسليح ألمانيا الذي لم يكن سرّاً خفياً تقريباً بالحد الذي توهمه هتلر. فهم سبيرزون بتسليح هتلر المتساوي الكامل مقابل إنضمام ألمانيا الى تسوية أوروبية عامة تتضمن (لوكارنو) شرقية. وبهذا تعطي الأقطار الشرقية ولاسيما الإتحاد السوفياتي وپولندا وچيكوسلوفاكيا نفس الضمانة التي تتمتع بها الأقطار الغربية بمقتضى معاهدة لوكارنو- وبطبيعة الحال تزود ألمانيا بالضمانات نفسها.

وفي أيار ١٩٣٤ اقترح السّر جون سيمون Sir John Simon وزير الخارجية البريطانية (كان خير سلف لنفيل جيمبرلين في عجزه التام عن فهم ما يجول في رأس هتلر) فعلاً، المساواة في التسليح بالنسبة الى ألمانيا. الا أن الفرنسيين نبذوا الإقتراح بشدة على أن مقترحات التسوية العامة وبضمنها المساواة في التسليح ولوكارنو شرقية تجددت في أوائل شباط ١٩٣٥ من جانب الحكومتين الفرنسية والبريطانية معاً، وقبل ذلك بشهر في ١٣ كانون الثاني صوّت أهل منطقة السار Saar بأغلبية ساحقة (٤٧٧ ألف صوت مقابل ٤٨ ألف صوت) لعودة منطقتهم الصغيرة الغنية بالفحم الى حوض الراين. واهتيل هتلر المناسبة للإعلان للعالم بأن ألمانيا لم يعد لديها أي إدعاء إقليمي تجاه فرنسا وهذا يعني التخلي عن إدعاء الألمان بالألزاس Alace واللورين Lorraine. ان جو التفاؤل والنية الطيبة اللذين خلفتهما عودة السار الهادئة وبيانات هتلر التي عقبتهما، دفعت الى تقديم المقترحات الانكلو-فرنسية رسمياً لهتلر في أوائل شباط ١٩٣٥.

كان جواب هتلر في ١٤ شباط غامضاً بعض الشيء. وهذا الغموض مفهوم من وجهة نظره الخاصة. ربح بالخطأ التي ستترك ألمانيا حرة لتتسلح بشكل علني إلا أنه كان مراوفاً في رغبة ألمانيا التوقيع على (لوكارنو) شرقية. فهذا ما كان يكبل يديه في المنطقة الرئيسة التي أعلن دائماً أنها مجال ألمانيا الحيوي. لو ان بريطانيا انفصلت عن فرنسا في هذا الشأن. (إرتبطت فرنسا بمواثيق التعاون المتبادل التي عقدتها مع پولندا وچيكوسلوفاكيا ورومانيا) ألا يكون ذلك الأمر الأدعى الى الأهتمام ميشاق ضمان شرقي؟ لاشك أن هتلر كان يفكر. بهذا إذ انه اقترح في ردّه الحذر أن تجري محادثات ثنائية تسبق المباحثات العامة ودعا البريطانيين للقدوم الى برلين لإجراء مباحثات تمهيدية. فسارع السّر جون سيمون بالموافقة وحدد موعد الزيارة بالسادس من آذار في برلين وقبل أن يحين الموعد بيومين، سبب نشر "الوثيقة البيضاء البريطانية" كثيراً من السخط المصطنع في (قلهلمشتراسه). والحق يقال إن أغلب المراقبين الأجانب في برلين وجدوا في الوثيقة البيضاء ملاحظة رصينة حول تسليح ألمانيا السري، الذي أثار إحتثائه زيادة بسببته في قوات بريطانيا المسلحة إلا أن هتلر كان حانقاً بسبب ذلك على ما قيل. وأبلغ (نيوارث) نظيره (سيمون) قبيل مغادرته لندن الى برلين أن الفوهرر يشكو "برداً" ويجب أن ترجأ المحادثات.

وسواء أشكا هتلر البرد أم لا. فقد كان بالتأكيد يشكو من عاصفة دماغية. سيكون محرراً له أن

قلب تلك العاصفة إلى عمل ظاهري بوجود (جون سيمون وإيدن Eden). ظن أنه وجد تعلقة لتوجيه ضربة مميتة الى "إرغام فرساي". فاذا بالحكومة الفرنسية تسن قانوناً بتمديد الخدمة العسكرية من ثمانية عشر شهراً الى سنتين نظراً لقلّة الشباب المتأثية من الحرب العالمية الأولى. وفي ١٠ آذار اطلق هتلر (بالوناً) تجريبياً، لإمتحان أعصاب الحلفاء، واستدعي الصحافي (ورد برايس) التابع الأمين واجريت له مقابلة مع (گورنگ) فأبلغه هذا بصورة رسمية ما كانت الدنيا قد علمت به. وهو أن ألمانيا تملك قوة جوية عسكرية. وانتظر هتلر بكل ثقة رد الفعل في لندن حول نقضه شروط فرساي من جانبه فقط. فكان كما توقع تماماً. أعلم السر جون سيمون مجلس العموم أنه ما زال يؤمل خيراً من السفر الى برلين.

-٣-

مفاجأة السبت

في السادس عشر من آذار الموافق يوم السبت [معظم مفاجآت هتلر كانت تحفظ لأيام السبت] اصدر المستشار قانون التجنيد العام. وقرر جيشاً للسلم يتألف من اثنتي عشرة قيادة وست وثلاثين فرقة- توازي نصف مليون مقاتل تقريباً. وكان في هذا نهاية القيود العسكرية لفرساي الا إذا قامت فرنسا وانكلترا بعمل. لكنهما احتجتا فقط ولم تقوما بعمل طبق ما توقع هتلر. في الواقع ان بريطانيا أسرع تسأل ألا يزال هتلر مستعداً لمقابلة وزير الخارجية؟ سؤال أجاب الدكتاتور عليه بالموافقة ممتناً. كان (الأحد) الموافق ١٧ آذار يوم فرح وعيد في ألمانيا. فقد كسرت قيود فرساي رمز هزيمة ألمانيا وإذلالها. ليس مهماً كم كان الفرد الألماني يكره هتلر وحكم عصاباته، فعليه الإقرار بأنه حقق ما لم تحجر حكومة الجمهورية على مجرد محاولته. ووجد معظم الألمان أن شرف الوطن قد أُسترد. ووافق نهار الأحد هذا يوم ذكرى الأبطال Hel- dengedenktag فتوجهت الى موقع الاحتفال ظهراً وكان في دار أوبرا الدولة وهناك شاهدت منظرًا لم تشهده



المارشال فون ماكنزن

ألمانيا منذ ١٩١٤. كان الطابق الأرضي بأسره بحراً خضماً من البزات العسكرية بذلة القتال الرمادية الفاقعة والخذو الرمحية شعار الجيش الإمبراطوري القديم تختلط بحلة الجيش الجديدة ويضمنها زي رجال القوة الجوية (لوفتوافه Luftwaffe) بلونه الأزرق السماوي الذي لم يره إلا القليلون من قبل. وإلى جانب هتلر جلس الفيلدمارشال فون ماكنزن آخر فيلدمارشال حي من جيش القيصر. بحلته العسكرية المزركشة لخيالة الهوسار (ورأس الموت) وانصبت أضواء ساطعة على المرسح حيث وقفت صفوف من الضباط الشبان كتماثيل من المرمر رافعين عالياً أعلام الحرب الوطنية. وخلفهم علق على الستار صليب حديدي جبار بلونيه الأسود والفضي. المفروض في هذا الاحتفال أن يكون تكريماً لقتلى الحرب الألمان إلا أنه انقلب إلى مناسبة سعيدة للإحتفال بدفن فرساي وإعادة إحياء الجيش الألماني المجند. وكان المرء يتبين من وجوه الجنرالات ما يعمل في نفوسهم من غبطة عظيمة. اذهلتهم المفاجأة ككل أمريء. ولم يكتثر هتلر الذي كان قد قضى الأيام القلائل الماضية في وكنة الجبلي ببرختسگاند بإعلامهم عن عزمه. وذكر الجنرال فون مانشتاين von Manstein في شهادته بنورمبرگ أنه سمع بالأمر لأول مرة من إذاعة الراديو في ١٦ آذار، هو والجنرال فون فترزليبن von Witzleben أمره الأعلى قائد المنطقة العسكرية الثالثة: Wehrkreis III وكانت هيئة الأركان العامة تفضل الإبتداء بجيش صغير.

"[من شهادة مانشتاين] لو طلب رأي الأركان العامة، لاقترح واحدة وعشرين فرقة... إن رقم (٣٦) فرقة يعود إلى قرار هتلر الشخصي التلقائي^(١٠).

وعلى أثر ذلك بدت سلسلة من مظاهر إنذارات جوفاء لهتلر من جانب القوى الأخرى. فاجتمع البريطانيون والفرنسيون والطيالان في ١١ نيسان بمدينة ستريزا Stresa وأدانوا عمل ألمانيا وأيدوا دعمهم لإستقلال النمسا وتسكهم بمعاهدة لوكارنو. وأعلن مجلس عصبة الأمم في جنيف عن إستنكاره لعمل هتلر المتهور وسارع بتعيين لجنة لتضع مقترحات بالخطى التي ستتخذ لكبح جماحه مرة أخرى. وفرنسا التي أدركت أن ألمانيا لن تنضم إلى (لوكارنو) شرقية بادرت في الحال إلى التوقيع على معاهدة الحلف المتبادل مع الإتحاد السوفياتي. وعقد الإتحاد السوفياتي حلفاً مائلاً مع چيكوسلوفاكيا. في المظهر بدا هذا الإطباق على ألمانيا نذير شؤم لها وزعزع من ثقة عدد كبير من الشخصيات في وزارة خارجيتها وأوساط الجيش إلا أنها لم تقلق هتلر كما يبدو. فهو على كل حال قد فاز بمقامرته على أنه لم يكن من المفيد أن ينام على اكاليل الغار، وقرر أن الوقت مناسب للعودة إلى أغنية ثانية، حبه للسلم، ليتحقق هل أن القوى التي تألّيت ضده لن تتمزق وتتفرق أيدي سباً؟ في مساء الحادي والعشرين من أيار^(١١) ألقى خطبة "سلم" أخرى أمام الرايخشتاغ [قد تكون أحذق

١٠- محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج ٢٢ ص ٦٠٣.

١١- في ذلك اليوم وقبل الخطبة سن هتلر قانون دفاع الرايخ السري، ونصب (شاخ) كما رأينا مشرفاً عاماً على الإقتصاد الحربي. واعاد تنظيم القوات المسلحة تنظيمياً شاملاً جديداً "وأستبدل الاسم جيش الرايخ Reichswehren لجمهورية فايمر بـ"فيرماخت" (القوات المسلحة) وأصبح هتلر بوصفه زعيماً ومستشاراً القائد الأعلى للقوات =

خطبة له. وبالتأكيد واحدة من أبرع خطبه أمام الرايخشتاغ، الذي لم تفتحه معظم خطبه هناك] كان هتلر في أطياف وأصفى حالاته المزاجية يظهر روح ثقة بل وأكثر- يظهر روح تسامح وتصاف مما كان موضع دهشة مستمعيه. لم يكن فيها سخط أو تحد لتلك الأقطار التي أدانت عمل محوه شروط فرساي العسكرية. بل كان ثم تأكيدات في أن كل ما يرمي اليه هو السلم والتفاهم المبني على العدالة للجميع. ونبذ أي فكرة للحرب. إنها جنون، عبث، فضلاً عن كونها شقاءً وفضاعة.

"إن الدم الذي سفك في القارة الأوروبية خلال السنوات الثلاثمائة الأخيرة لم يؤثر أي تأثير في المصائر القومية للحوادث التاريخية وفي النهاية ظلت فرنسا كما هي فرنسا وألمانيا بقيت ألمانيا وبولندا بولندا، وإيطاليا إيطاليا، إن ما حققته أُنانية الأسر المالكة، والعواطف السياسية، والعمى الوطني. في سبيل ما هو في الظاهر تغييرات سياسية بعيدة المدى، بسفك أنهار من الدماء لم يفعل (بالنسبة الى الشعور القومي) أكثر من مسّه بشرة الشعوب مساً خفيفاً. إنه لم يغير تغييراً جوهرياً الطابع الأساسي فيها ولو وجهت هذه الدول جزءاً ضئيلاً من تضحياتها الى أغراض أكثر حكمة وتعقلاً فلاشك أن النجاح سيكون أعظم وأكثر ثباتاً. وأعلن هتلر أن ألمانيا لاتنوي أبداً إخضاع شعوب أخرى. "إن نظريتنا العرقية ترى في أي حرب هدفها إخضاع وإمتلاك أي شعب غريب، عملاً سيؤدي عاجلاً أم آجلاً الى تغيير وإضعاف الشعب المنتصر في الداخل، وستؤول النتيجة به الى الهزيمة... ولما لم يبق أي أرض في أوروبا خالية أو غير مأهولة. فكل نصر... لا يحقق في أفضل الحالات أكثر من الزيادة الكمية في عدد سكان البلاد الفاتحة. لكن إن كانت الشعوب تعلق هذه الأهمية الكبيرة على ذلك فيامكانها الوصول الى النتيجة دون دموع، وبطريقة أبسط وأكثر طبيعة [ب] سياسة إجتماعية صائبة، بزيادة إستعداد الشعب لتكثير نسله وانجاب أطفاله."

كلا! إن ألمانيا القومية الإشتراكية تريد السلام بسبب من عقيدتها الأساسية. وهي تريد السلام أيضاً لإدراكها الحقيقية البسيطة الأولية وهي لايمكن لأي حرب أن تغير بصورة جوهرية ما تشكو أوروبا من آلام... إن الأثر الرئيس لكل حرب هو القضاء على زهرة الشعب... إن ألمانيا تحتاج الى السلم، وترغب في السلم!"

وظل يوالي طريقه على هذه النقطة. وفي الختام طرح ثلاثة عشر إقتراحاً متمائزاً لتشبيث قواعد السلم. بدت رائعة الجمال حتى انها خلقت إنطباعاً طيباً عميقاً ليس في ألمانيا وحدها بل في سائر

= المسلحة وبلومبرگ وزير الدفاع - وزيراً للحرب الى جانب لقبه الآخر القائد العام للقوات المسلحة (الجنرال الوحيد الذي شغل المنصب في ألمانيا). وجعل لكل صنف من أصناف الجيش الثلاثة قائده العام. وهيئة أركانها العامة. وأطرح أسم التسمية "دائرة الجنود Truppen amt" من قاموس الجيش وأعيدت التسمية الحقيقية (هيئة الأركان العامة) التي يقوم على رأسها الجنرال بيك رئيس هيئة الأركان إلا أن هذه الوظيفة لاتشبه مثيلتها في أيام القيصر حيث كان رئيس هيئة الأركان الألماني وهو القائد العام للجيش الألماني تحت إمرة القيصر مباشرة.

أوروبا وقد قدم لها بتمهيد "لقد إعترفت ألمانيا وضمنت ضماناً ثابتاً الحدود الفرنسية كما تقرر بعد إستفتاء (السار)... نحن ننبذ هنا وأخيراً كل إدعاءتنا بالألزاس واللورين، الأرض التي حاربنا لأجلها حريين... ومسحنا كل أثر من آثار الماضي بتوقيعنا ميثاق عدم إعتداء مع بولندا... سوف نواصل التمسك به دون قيد أو شرط... أننا لنرى في بولندا موطناً لشعب عظيم واع قومياً."

أما بخصوص النمسا: "لا تنوي ألمانيا، ولا ترغب في أن تتدخل في شؤون النمسا الداخلية أو أن تضم النمسا إليها. أو أن تعقد ميثاق وحدة معها."

وكانت نقاط هتلر الثلاث عشرة واضحة تماماً: لا يمكن أن تعود ألمانيا الى عصبة الأمم حتى تتجرد العصبة من روح معاهدة فرساي فاذا تم ذلك وتم الإعتراف بالمساواة التامة بين كل الدول، فإن ألمانيا ستعود الى العصبة. وعلى أية حال فإنها ستبقى تحترم "دون تحفظ"، "الشروط غير العسكرية" التي تتضمنها معاهدة فرساي ويدخل في ذلك "المواد الخاصة بالحدود" ولاسيما قيامها بإحترام وتأدية كل الواجبات الناشئة عن معاهدة لوكارنو" وكذلك تعهد هتلر أن تحافظ ألمانيا على بقاء منطقة الراين مجردة من السلاح. ومع رغبة ألمانيا "في أي وقت" للمساهمة في شكل المعاهدات الثنائية وهي أيضاً مستعدة للأخذ بالمقترحات الانكلو-فرنسية في وضع ملحق لمعاهدة لوكارنو خاص بالجو".

أما عن قضية نزع السلاح فقد سار هتلر الى أبعد الحدود، قال: "الحكومة الألمانية مستعدة للإتفاق على أي حد من التسليح يؤول الى إتلاف الأسلحة الثقيلة وبخاصة تلك التي تصلح للهجوم مثل المدافع من أثقل العيار، والدبابات الثقيلة جداً... ان ألمانيا تعلن إستعدادها للإتفاق على أي تحديد لعيار المدافع مهما كان مقداره، أو زنته من البوارج الحربية أو الطرادات أو قوارب الطوربيد. وعلى هذا المنوال تعلن ألمانيا إستعدادها للموافقة على تحديد زنة الغواصات بالأطنان أو حتى إتلافها التام."

وكان بهذا يقدم لبريطانيا العظمى طعماً خاصاً. إنه ليرغب في تحديد الأسطول الألماني الجديد الى ما نسبته ٣٥٪ من قوة الأسطول البريطاني. وهذا سيبقي أسطول ألمانيا (على حد قوله) أقل من الأسطول الفرنسي بـ ١٥٪، وللاعتراض الذي قد يوجه اليه من الخارج بأن مطالبه هذه ما هي الا مقدمة لإمتيازات أخرى، أجاب هتلر قائلاً "لألمانيا هذا المطلب هو كاف ونهائي" وبعد العاشرة مساءً بقليل بلغ هتلر خاتمة خطابه: "كل من يشعل الحروب في أوروبا، لا يريد الا الفوضى والخراب. ونحن على اية حال نعيش ونحن مؤمنون إيماناً تاماً بأن زماننا هذا لن يرى خراب الغرب وإحتلاله بل إحيائه وتقدمه. وأن ألمانيا تساهم مساهمة عظيمة خالدة في هذا العمل الجبار، بثقة فخورة بآمالنا وإيماننا الذي لايزعزع^(١٢)".

١٢ - نظامي الجديد: نشرة روسي دي سال Roussy De Sales الص ٣٠٩-١٣٣ وتجند نص الخطبة ايضاً في (باينس) ج ٢ الص ١٢١٨-١٢٤٧.

هذه كلمات معسولة عن السلم والصفاء والعقل. لَطَعَتْهَا الديمقراطيات الغربية في أوروبا وإزدرتها حيث كانت شعوبها وحكوماتها تتشبث تشبث اليأس باستمرار السلام على أي أسس معقولة... بل على أي أساس كان تقريباً. وبادرت الى الترحيب بها بفرح هيستيري جريده (التايمس) اللندنية أكبر الصحف نفوذاً في الجزر البريطانية، حيث قالت: "... بدت الخطبة معقولة، وصريحة، وشاملة لا يقرأها منصف حيادي فيشك أن النقاط السياسية التي وضعها هر هتلر إنما تؤلف أسس تسوية كاملة مع ألمانيا. ألمانيا حرة قوية متساوية عوضاً عن ألمانيا عاجزة فرض عليها السلم فرضاً قبل ست عشرة سنة. ومن المأمول أن تؤخذ هذه الخطبة في كل مكان كأقوال مخلصه جديرة بالإعتبار تعني تماماً ما تتضمنه^(١٣)".

هذه الصحيفة وهي إحدى مفاخر الصحافة الانكليزية الكبرى، قدر لها أن تقوم بدورٍ ملتوٍ- مثل حكومة جمبرلين، في سياسة مصانعة هتلر الانكليزية جلالة الكوارث والمحن. ويرى المؤلف أن خطأها أكبر من خطأ الحكومة وعذرها أقل، إذ كان لديها من مراسلها في برلين نورمان إيبوت Norman Ebbut منجم للمعلوات حول أفاعيل هتلر وغاياته أغنى بكثير جداً من أي مصدر آخر من المراسلين أو الدبلوماسيين الأجانب ويضمنهم الانكليز، حتى طرد من البلاد الألمانية في ١٦ آب ١٩٣٧ ومع أن معظم ما كتبه (للتايمس) من برلين في تلكم الأيام لم ينشر.^(١٤) (كثيراً ما كان يشكو من ذلك للمؤلف وتأكد منه فيما بعد)، فلاشك أن رؤساء تحرير الجريدة كانوا يقرأون كل تقاريره، فهم والحالة هذه على معرفة تامة بما يجري حقاً في ألمانيا النازية، وكم هي جوفاء وعود هتلر الضخمة. ولم تكن الحكومة البريطانية بأقل إستعداداً من (التايمس) أو مبادرة لقبول مقترحات هتلر بوصفها "مخلصه" و"جديرة بالإعتبار" وبخاصة الإقتراح الذي واقفت به على أن يكون حجم أسطولها بنسبة ٣٥٪ لحجم الأسطول البريطاني.

كان هتلر قد لمح تلميحاً مأكراً مقصودة للسر جون سيمون وزير الخارجية عندما أتم مع (ايدن) مقابلته المؤجلة، في نهاية آذار، قال لهما أنه يسهل جداً التوصل الى عقد إتفاق بين الدولتين يتضمن التفوق البحري الانكليزي. وفي ٢١ أيار ألقى هذا العرض بشكل علني في خطبة ثمقها ببعض عبارات الصداقة والتحب لانكلترا وقال فيها أن أسطولاً ألمانياً نسبة حمولته لاتزيد عن ٣٥٪ من حمولة أسطول بريطانيا هو ما تريده ألمانيا "وليس لألمانيا نية أو ضرورة أو مقدرة للدخول في أيّ تسابق بحري أو منافسة". وهو وهم يظهر أنه لم يُقَضَ عليه عند الانكليز بل مازالوا يؤمنون به منذ ما

١٣ - "نظامي الجديد" الص ٣٣٣-٣٣٤.

١٤ - كتب جيوفري داوسن Geoffrey Dawson رئيس تحرير التايمس في ٢٣ أيار الى مراسله في جنيف أج. جي. دانييل H. G. Daniel الذي خلف (إبوت) في برلين "لقد عملت أقصى ما في وسعي لأبعد عن الصحيفة كل ما يخدمهم (يقصد الألمان) ويستفزهم. واعتقد اني لم انشر شيئاً طوال هذه الأشهر العديدة الماضية مما يمكن أن يعتبره تعليقاً غير منصف [جون ايغلين رنج John Evelyn Wrench: "جيوفري داوسن وجريدتنا (التايمس)"]".

قبل ١٩١٤ عندما راح الأميرال تيربيتز Tirpitz بتشجيع حماسي من القيصر قلهلم الثاني يبني أسطولاً لما وراء البحار يضاهاى به أسطول انكلترا. واستطرد الى القول "إن الحكومة الألمانية تدرك الضرورة الماسّة الملجئة ومن ثم تدرك المبررات الناجمة عن وجوب حماية قوية للإمبراطورية البريطانية في ماوراء البحار... إن للحكومة الألمانية النية الصريحة الصميمة لإيجاد وتثبيت علاقة مع الشعب البريطاني والدولة البريطانية تمنع الى الأبد تكرار النزاع الوحيد الذي حصل بين الشعبين" وكان قد أظهر مشاعر مماثلة في كفاحي حين ذكر أن واحداً من أعظم أخطاء القيصر هو عداؤه لانكلترا ومحاولته السخيفة لمنافسة الإنكليز في المجال البحري.

وابتعلت الحكومة البريطانية طعم هتلر بسذاجة وسرعة لاتصدق. فدعي ريبنتروب [وقد أصبح الآن صبي مراسلة هتلر للمهمات الخارجية] الى لندن في حزيران لإجراء محادثات بحرية. فأبلغ البريطانيين بغروره وعدم كياسته التي عرف بها. أن عرض هتلر لم يكن موضوع مفاوضة وعليهم إما ان يقبلوا به أو يرفضوه فقبله البريطانيون، دون استشارة حلفاء جبهة (ستريزا) الفرنسيين واليطاليان. والدولتان بحريتان أيضاً شديداً الإهتمام بعودة ألمانيا الى التسليح وانتفاضها على الشروط العسكرية في معاهدة فرساي بل قبلوا دون تبليغ عصبة الأمم المفترض بها أن تكون حارسة على معاهدات السلم للعالم ١٩١٩. الا أن الطرفين سارا قدماً في ما ظناه منفعة خاصة. لشطب القيود البحرية من معاهدة فرساي. وقد بات واضحاً لأبسط عقلية في برلين أن موافقة لندن على قيام ألمانيا ببناء أسطول يبلغ حجمه ثلث حجم الأسطول البريطاني يعني إطلاق العنان لهتلر في بناء أسطول بأسرع مما تتحمله طاقة البشر. أسطول يستوعب قابلية كل أحواض سفنه ومصانع فولاذة لمدة عشر سنين على أقل تقدير. ولهذا لم يكن الإتفاق تحديداً للتسلح الألماني بل تشجيعاً لتوسعه من الناحية البحرية وبأعجل مما تستطيع ألمانيا تهيئة الوسائل للقيام به.

وفوق الصغار الذي نالته فرنسا من الحكومة البريطانية، أضافت إهانة أخرى برفضها إعلام أقرب حليف لها- بوعد قطعته لهتلر- بموافقتها على أنواع وعدد السفن الذي قررت ألمانيا بناءه. ولم تخبرها إلا بأن حمولة الغواصات الألمانية سيكون بنسبة ٦٠٪ الى حمولة غواصات انكلترا وقد يبلغ ١٠٠٪ إن دعت الى ذلك ظروف استثنائية^(١٥)

[حرمت معاهدة فرساي على ألمانيا إقتناء هذا السلاح، بصورة باتة!] والحقيقة الواقعة هي أن الإتفاق الانكلو-ألماني حول الألمان حق بناء خمس بوارج حربية [تسليحها وحمولتها قدر ان تكون أعظم من أي سفينة حربية إنكليزية مخترت المياه وان زورت الأرقام الرسمية لخداع لندن]- وواحد وعشرين طراداً وأربع وستين مدمرة ولم تبني كلها أو تكمل عند نشوب الحرب. لكن ما بُني كان كافياً مع الغواصات، لإيقاع أفدح الخسائر بالبريطانيين في أولى سني الحرب.

١٥- پرتينار Pirtinor: "حفارو قبر فرنسا" ص ٣١٨.

وأخذ موسوليني حالاً عبرته من "غدر ألبيون Albion*" واثنان يستطيعان أن يلعبا لعبة مصانعة هتلر. زد على ذلك إن موقف الإزدراء الذي وقفته إنكلترا، في عدم إكترائها بمعاهدة فرساي شجعته على الإيمان بأن لندن لن تقف موقفاً جدياً من خرق ميثاق عصبة الأمم. فقام في ٣ تشرين الأول ١٩٣٥ بسوق جيوشه نحو بلاد الحبشة القديمة الجبلية متحدياً الميثاق فسارعت العصبة بقيادة إنكلترا ومساعدة فرنسا غير الحماسية التي كانت ترى في ألمانيا الخطر الأكبر في الزمن البعيد - إلى التصويت حالاً على فرض العقوبات. على أنها كانت عقوبات جزئية طبقت بشكل محدود لم تمنع (موسوليني) من فتح الحبشة. لكنها دمرت الصداقة بين إيطاليا الفاشية وفرنسا وإنكلترا. وأنهت جبهة



إستعراض الفرق النازية (ذوو القمصان الرمادية (ستريزا) ضد ألمانيا النازية.

ومن استفاد أكثر من غيره من هذه السلسلة المتعاقبة للأحداث غير هتلر؟ قضيت الرابع من تشرين الأول وهو اليوم التالي لبدء الغزو الإيطالي، في قلهمشتراسه احادث عدداً من موظفي الحزب والحكومة. وأجملت بملاحظة دوتنها في دفتر يومياتي. الدقة والسرعة التي قدّر بهما الألمان الموقف. "قلهمشتراسه جدل. إما سيتورط موسوليني ويقع في مأزق لا فكاك منه في أفريقيا فيضعف مركزه كثيراً في أوروبا وعندئذ يسهل على هتلر إبتلاع النمسا التي يحميها الدوتشي. وإما سينتصر متحدياً فرنسا وبريطانيا وعندئذ سيكون ميالاً إلى التحالف مع هتلر ضد الديمقراطيات الغربية. والرابع من النتيجة هو هتلر^(١٦)". وهذا ما كان سيثبت صحته بعد زمن قليل.

* ألبيون: إسم آخر أثري لبريطانيا العظمى. إنكلترا.

١٦ - "يوميات برلين" (كتبها المؤلف)، ص ٣٤.

مؤامرة في أرض الراين

خطبة "السلام" التي ألقاها هتلر أمام الرايخشتاغ في ٢١ أيار ١٩٣٥ أدهشت العالم وبخاصة بريطانيا العظمى كما قدمنا. كان هتلر قد ذكر "أن عنصر تهديد شرعي" قد دخل ميثاق لوكارنو نتيجة لمعاهدة "التحالف والتعاون" المتبادل المبرمة بين الإتحاد السوفياتي وفرنسا في باريس في الثاني من آذار وفي موسكو في الرابع منه ولم يصادق عليها البرلمان الفرنسي بعد، وقد بلغت السنة ختامها. وجلبت وزارة الخارجية الألمانية انتباه باريس الى هذا "العنصر" بمذكرة رسمية الى الحكومة الفرنسية. وفي ٢١ تشرين الثاني جرى حديث بين السفير الفرنسي (فرانسوا پونسيه) وهتلر، هاجم فيه المعاهدة السوفياتية "بوابل من الشتائم" وكتب (فرانسوا پونسيه) الى باريس أنه مقتنع تماماً أن هتلر ينوي إتخاذ المعاهدة ذريعة وتعلة لإحتلال منطقة الراين المنزوعة من السلاح، وأضاف يقول: "إن تردد هتلر الوحيد من إتخاذ هذه الخطوة متأت من ترقب اللحظة المناسبة للعمل"^(١٧).

كان (فرانسوا پونسيه) أكثر السفراء وقوفاً على خفايا الأمور في برلين فهو يعلم بما يتحدث. وإن كان قد خفي عنه بالتأكيد ما أتى به الربيع الماضي وفي الثاني من آذار قبل تأكيد هتلر في الرايخشتاغ بأنه سيحترم ميثاق لوكارنو وشروط الحدود في معاهدة فرساي بتسعة عشر يوماً، كان الجنرال فون بلمبرگ قد أصدر أمره التوجيهي الأول الى قوات البحر والبر والجو الثلاثة لتهيئة الخطط الخاصة بإعادة إحتلال أرض الراين المجردة من السلاح وأطلق على العملية رمز "شولونگ Schulung" وقرر أن "تنفذ بضربة مفاجئة وبسرعة البرق" وأوصى ان يكون إعدادها بغاية من السر بحيث "لا يدري بها إلا أقل عدد ممكن من الضباط" والحق أن بلمبرگ كتب الأمر بخط يده زيادة في الكتمان^(١٨).

وفي ١٦ حزيران جرى نقاش آخر حول الحركة الى أرض الراين في الإجتماع العاشر للجنة الأشغال التابعة لمجلس دفاع الرايخ وفيها قدّم ضابط يدعى الكولونيل (ألفرد يودل) الذي ترأس وشيكاً دائرة الدفاع الداخلي - الخطط المتعلقة بها وبين ضرورة إحاطة الموضوع بأقصى الكتمان وحذر بالآ لا يكتب عنها شيء على الورق إلا عند الضرورة الماسة وأضاف يقول إن "هذه المواد يجب الاحتفاظ بها في خزائن حديدية"^(١٩) بدون إستثناء.

١٧- فرانسوا پونسيه المرجع السالف الص ١٨٨-١٨٩.

١٨- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٦ الص ٩٥١-٩٥٢ (الوثائق ١٣٥ C) وعن نص الأمر انظر ايضاً (محاكمات مجرمي الحرب الكبار) ج١٥ الص ٤٤٥-٤٤٨.

١٩- تفاصيل الإجتماع في (مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٧ الص ٤٥٤-٤٥٥ (الوثائق ٤٠٥ EC).

وظل هتلر طوال شتاء ١٩٣٥-١٩٣٦ ينتظر فرصته. كان يلاحظ أن فرنسا وإنجلترا منهماكتان في إيقاف عدوان إيطاليا على الحبشة وأن موسوليني يواصل نهجه دون مبالاة. وبدت عصبية الأمم- رغم عقوباتها التي أحاطتها بكثير من الدعاية - عاجزة على إيقاف المعتدي العنيد. وفي باريس لاح له وكأن مجلس النواب الفرنسي غير مستعجل في المصادقة على المعاهدة مع الإتحاد السوفياتي فقد كانت مشاعر اليمين كلها متألبة ضدها. ويبدو أن هتلر كان يتخيل وجود أمل كبير في أن يرفض مجلس الشيوخ الفرنسي الحلف مع موسكو. وعندئذ يترتب عليه أن يجد له ذريعة أخرى لتنفيذ خطة (شولونج). إلا أن المعاهدة طرحت أمام المجلس في ١١ شباط وصودق عليها في السابع والعشرين منه بأكثرية ٣٥٣ مقابل ١٦٤ صوتاً وبعد يومين من ذلك، أي في ١ آذار، حزم هتلر أمره دون إعتبار لتبرم الجنرالات الذين كان معظمهم مؤمناً بأن الجيش الفرنسي سيجعل من القوات الألمانية الصغيرة التي جمعت للحركة إلى أرض الراين- شيئاً أشبه باللحم المفروم. مهما يكن أصدر الجنرال بلومبرگ في ٢ آذار ١٩٣٦ إطاعة لأمر سيده وأمر رسمية لإحتلال أرض الراين. وأوصى الأمراء الأقدمين من قادة القوات بأن تكون "حركة مباغته". كان بلومبرگ يتوقع "عملية هادئة" فإن ظهر أنها ليست كذلك - أعني إن خاض الفرنسيون حرباً - فالقائد العام يحتفظ لنفسه "بحق اتخاذ قرار عسكري لمواجهة الحالة".^(٢٠)

والواقع كما علمت بعدها بستة أيام وتأكدت منه فيما بعد من شهادة الجنرال في نورمبرگ أنه كان قد توصل إلى القرارات لمواجهة الحالة قبل البدء. وهي التراجع السريع عن أرض الراين؛ ولكن الفرنسيين- وقد شلّ بلادهم التناحر الداخلي وغرق الناس في لجّة الاندحارية. لم يعرفوا هذا، عندما قامت قوة صغيرة رمزية من الجنود الألمان. بمظاهرة عبور على جسور الراين في فجر ٧ آذار ودخلت المنطقة المجردة من السلاح.^(٢١)

وفي الساعة العاشرة صباحاً استدعى (نيوراث) وزير الخارجية الرقيق الخصال سفراء فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وبلغهم بالأنباء عن أرض الراين وسلمهم مذكرات رسمية تهاجم معاهدة لوكارنو (التي أتم هتلر خرقها في تلك الساعة) وتقترح خططاً جديدة لإحلال السلم؛ وعلق فرانسوا پونسييه على الأمر بتبرم "يكييل هتلر لطمه لخصمه وفي أثناء ذلك يقول له: أني أقدم لك مقترحات للتصافي!"^(٢٢)

٢٠- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٦ الص ٩٧٤-٩٧٦ (الوثائق ١٥٩ C).

٢١- جاء في شهادة (يودل) في نورمبرگ. إن إحتلال الراين جرى بثلاثة أفواج فقط تحركت إلى (آخن) و(تريير Trier) و(ساربروكن Saarbruecken) ولم تستخدم غير فرقة واحدة لوضع اليد على كل الأقليم. والاستخبارات الحليفة تزعم أن القوات أكبر بكثير (٣٥٠٠٠ رجل أو ما يعادل ثلاث فرق). وقد علق هتلر على ذلك فيما بعد "الواقع هو اني ما كنت أملك غير أربعة أفواج" (محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج ١٥ ص ٢٥٢) إفادة (يودل) [أحاديث هتلر السرية الص ٢١١-٢١٢] حول الرقم الذي أورده هتلر.

٢٢- فرانسوا پونسييه المرجع السالف ص ١٩٣.

وبعدها بساعتين كان الفوهرر واقفاً في منبر خطابة الرايخشتاغ أمام جمع أخرجه الفرح من وعيه، وانشأ يعبر عن رغبته في السلم ويشرح آخر فكرة عنت له في سبيل تحقيقه. أما أنا فقد سلكت سبيلي الى دار أوبرا (كرول) لأشهد المنظر الذي لم يغب عن ذاكرتي قط لأنه كان منظرًا مدهشاً ويشعاً في الوقت نفسه. فبعد خطبة طويلة عن شرور فرساي وخطر الشيوعية. أعلن هتلر بهدوء تام أن معاهدة التعاون المتبادل بين فرنسا والإتحاد السوفياتي قد جيت لوكارنو التي كانت ألمانيا قد وقعتها طوعية بخلاف فرساي. وقد دوت وصفاً لما حصل بعد ذلك في مذكراتي مساء اليوم نفسه: "يقول هتلر] لاتشعر ألمانيا بعد، بأي رباط يشدها الى معاهدة لوكارنو. ولمصلحة الحقوق الأصلية لشعبها في ضمان حدوده والمحافظة على وسائل دفاعه اعادت الحكومة الألمانية من هذا اليوم السيادة المطلقة غير المقيدة للرايخ، في المنطقة المجردة عن السلاح!".

الآن أرى النواب الستمائة الذين عينهم هتلر بأشخاصهم. رجال صغار، ذوو أجسام كبيرة وأعناق غليظة نافرة وشعور مقصوفة قصاً قصيراً. ويطون منفوخة وقمصان رمادية وأحذية ثقيلة... ينطون على أقدامهم كالألات المنصوبة وترتفع أذرعهم اليمنى بالتحية النازية ثم يزعقون "هايل... هايل..." ... يرفع هتلر يده طالباً الصمت ثم يقول بصوت عميق رنان "يا رجال الرايخشتاغ الألماني!" [السكون مطلق تام]

"في هذه الساعة التاريخية حين يزحف جنود ألمانيا في هذه اللحظة، وفي أقاليم الرايخ الغربية، الى ثكنات أيام السلم المقبلة، نتحد كلنا بعهدين مقدسين."

وتعذر عليه مواصلة الكلام فقد فوجئت الغوغاء البرلمانية بهذا النبأ، نبأ قيام الجنود الألمان بالتحرك الى أرض الراين. وصعدت كل عسكرية دماهم الألمانية الى رؤوسهم. فاستووا قائمين على أقدامهم، زاعقين صائحين... وارتفعت اياديهم بتحية العبودية، وجوههم الآن منقلبة من فرط الهستيريا وافواههم منفرجة الى اقصاها. وهم يصرخون واحداقهم تشتعل تعصباً وهي شاخصة الى الإله الجديد... المسيح! المسيح يلعب دوره التمثيلي باتقان لا مزيد عليه. انه يخفض من رأسه كأنما اتضاعاً وصغاراً وينتظر صابراً ليسود الصمت. ثم ينطق صوته بالعهدين- ومازال منخفضاً لكنه مختنق بغلبة العاطفة عليه: "أولاً: اننا نقسم بالآ نعو لأى قوة ونحن نعمل لاستعادة شرف شعبنا... ثانياً اننا نتعاهد من الآن وأكثر من أي وقت مضى على النضال من أجل تفاهم بين الشعوب الأوروبية ولاسيما الى تفاهم مع جيراننا الشعوب الغربية... ليس لدينا مطالب اقليمية في أوروبا!... وألمانيا لن تخل بالسلم!" ومر زمن طويل قبل أن تتوقف الهتافات... وخرج عدد قليل من الجنرالات وخلف إبتساماتهم لا يسعك إلا أن تتبين قلقاً عصبياً... والتقيت الجنرال فون بلومبرگ... كان وجهه ابيض كالقرطاس...

٢٣- يوميات برلين الص ٥١-٥٤.



الجنرال كاملان

وخذاه يرفان رفاً^(٢٣).

إن له الحق في ذلك. فوزير الدفاع الذي كتب بخط يده قبل خمسة أيام أمر الزحف بدأ يفقد السيطرة على أعصابه. وعلمت في اليوم التالي انه اعطى جنوده الأوامر بالانسحاب من منطقة الراين إن تحرك الفرنسيون للقائهم. لكن الفرنسيين لم يقدموا على عمل ولم تبدر منهم اية بادرة ويقول فرانسوا پونسيه. أن القيادة العليا الفرنسية- بُعيد تحذيره السالف في تشرين- سألت الحكومة ما عساها ان تفعل إن كان استنتاجه [اي السفير] صحيحاً. فكان الجواب -كما يقول- ان الحكومة سترفع الأمر الى عصابة الأمم^(٢٤).

وبالفعل عندما وقعت الواقعة^(٢٥). كانت الحكومة هي

التي تريد أن تباشر عملاً، والقيادة الفرنسية هي الناكصة. فذكر فرانسوا پونسيه إن الجنرال (كاملان Gamlin) نصح "الحكومة بان أيّ عملية عسكرية مهما كانت صغيرة، قد تحمل في طياتها مخاطر لا يمكن التكهن بها وأنه لا يمكن القيام بذلك إلا بإعلان التعبئة العامة^(٢٦)".

وأقصى ما كان يريد الجنرال (كاملان) رئيس هيئة أركان الحرب الفرنسي فعله، وقد فعله هو حشد ثلاث عشرة فرقة قريباً من الحدود الألمانية تعزيزاً لخطّ ماجينو Maginot وحتى هذا كان كافياً لإشاعة الخوف في قلوب القيادة العليا الألمانية. واراد بلومبرگ سحب الأفواج الثلاثة التي عبرت الراين وسانده في ذلك (يودل) ومعظم القادة الأمرين. كما شهد (يودل) في نورمبرگ بقوله "تقديراً للموقف الذي كنا فيه، فان الجيش الفرنسي المعبأ كان يسهل عليه ان يطحننا طحناً^(٢٧)".

يكاد يكون من الثابت اليقين أن حركة الجيش الفرنسي كان معناها القضاء على هتلر. ومن ثم تبدل مسرى التاريخ واتخاذ سبيلاً مختلفاً نيراً، لأن الدكتاتور لا يمكن أن يصمد أمام خيبة كهذه. وأقر هتلر نفسه بهذا القدر من التحليل بقوله فيما بعد "إن تفهقنا يعني الانهيار التام"^(٢٨). فكانت

٢٤- فرانسوا پونسيه: المرجع السالف ص ١٩٠.

٢٥- رغم تحذير فرانسوا پونسيه في الخريف الفائت. جاء عمل ألمانيا مفاجأة تامة للحكومتين الفرنسية والبريطانية. ولهيئة أركانها.

٢٦- المرجع السالف الص ١٩٤-١٩٥.

٢٧- محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج ١٥ ص ٢٥٣.

٢٨- أحاديث هتلر السرية الص ٢١١-٢١٢، مذكرات ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٢.

قوة أعصاب هتلر وحده التي أنقذت الموقف كما فعلت في أزمات أخرى عديدة سيتمخض بها المستقبل وحقت النجاح أمام الجنرالات المترددين المرتبكين. الا انها لم تكن لحظة سهلة بالنسبة له. فقد سمعه ترجمانه پول شميدت Paul Schmidt يقول فيما بعد "الساعات الثماني والأربعون التي تلت إحتلال منطقة الراين كانت أشق ساعات حياتي على أعصابي. لو أن الفرنسيين دخلوا الراين آنذاك لأضطررنا الى الانسحاب واذاً لانا بين سيقاننا، لأن الإحتياطي العسكري المتيسر لنا كان عاجزاً بالتام حتى عن إبداء مقاومة معتدلة"^(٢٩).

ويثقته هذه من إحجام الفرنسيين عن الزحف، راح يرفض بإباء كل المقترحات التي قدمها له الجنرال (بيك) رئيس هيئة الأركان بالتقهقر وسحب القطعات. كان رئيس الأركان يريد من هتلر على الأقل أن يخفف من وقع الضربة بإعلان عدم نيته في تحصين الأجزاء الغربية من الراين وهو إقتراح قال عنه (بودل) فيما بعد: "رفضه الفوهرر بكل إباء" لسبب واضح كما سنرى^(٣٠). وعلق هتلر على إقتراح بلومبرگ، أمام الجنرال (فون روندشدت) فيما بعد بأنه لايتعدى حدود الجين^(٣١).

تساءل هتلر في جلسة ختامية مع أعوانه في مقر القيادة ليلة ٢٧ آذار ١٩٤٢ "ما الذي كان سيحصل في مفاجأة الراين" لو وجد شخص آخر غيري على رأس دولة الرايخ! أي شخص آخر يسمو اليه تفكيركم كان سيفقد أعصابه. كنت مضطراً الى الكذب والمين. وما أنقذنا هو تشبثي برأيي ومتانة أعصابي المذهلة"^(٣٢).

كان ذلك صحيحاً، ولكن ينبغي لنا أن نذكر مساعدة الفرنسيين له بترددهم. فضلاً مساعدة حلفائهم البريطانيين بغفلتهم. طار وزير الخارجية الفرنسية بيير ايتيين فلانداان Pierre Etienne Flandan الى لندن في الحادي عشر من آذار وتوسل بالحكومة البريطانية ان تدعم عملاً عسكرياً مضاداً تقوم به القوات الفرنسية في منطقة الراين ولكن توسلاته ذهبت أدراج الرياح. فبريطانيا لاتخاطر بإثارة حرب وان كان التفوق الحليف على الألمان ساحقاً وكما علق اللورد لوثيان Lothian "الألمان على كُلِّ حال، دخلوا حديقة منزلهم الخلفية فحسب". حتى قبل وصول الفرنسي الى لندن، كان (ايدن) الذي أصبح وزيراً للخارجية في كانون الثاني، قد أبلغ مجلس العموم البريطاني في التاسع من آذار ان قيام جيش الرايخ باحتلال منطقة الراين يصيب مبدأ حرمة المعاهدات بضربة شديدة" ثم استطرذ "ولحسن الحظ ليس لدينا أية أسباب تحملنا على الافتراض بأن عمل ألمانيا الحالي انما يهدد بأعمال عدوانية"^(٣٣).

٢٩- پول شميدت "ترجمان هتلر" ص ٤١.

٣٠- محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج ١٥ ص ٣٥٢.

٣١- محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج ٢١ ص ٢٢٠.

٣٢- أحاديث هتلر السرية ص ٢١١.

٣٣- إقتبسها فرانسوا پونسيه المرجع السالف ص ١٦٩.

مع ذلك فقد كان من واجب فرنسا بمقتضى شروط معاهدة لوكارنو أن تقوم بعمل عسكري ضد وجود جيش ألماني في المنطقة المجردة من السلاح، وإن بريطانيا ملزمة بالمعاهدة نفسها أن تدعم فرنسا بقواتها المسلحة. إن مباحثات لندن الفاشلة كانت تأكيداً لهتلر بأنه فاز في مغامرته الأخيرة. ولم يكتف البريطانيون بالنكوص عن المخاطرة بالحرب. لكنهم عادوا ليأخذوا القسط الأخير من مقترحات هتلر "السلمية" مأخذاً جدياً، ففي مذكرات سلمت إلى السفراء الثلاثة في ٧ آذار وفي خطابه أمام الرايخشتاغ عرض أن يوقع ميشاق عدم إعتداء لمدة خمس وعشرين سنة مع بلجيكا وفرنسا بضمانة من إيطاليا وبريطانيا وتوقيع موثيق مشابهة مع جارات المشرق. والإتفاق على تجريد الجهتين من الحدود الفرانكو-ألمانية من السلاح. الأمر الذي سيضطر فرنسا إلى تخريب خط (ماجينو) آخر درع لها في وجه هجوم ألماني مباغت. وفي الوقت الذي كانت جريدة (التايمس) الجليلية القدر تعلن عن أسفها لتهور هتلر في غزو أرض الراين. وضعت لمقالها الافتتاحي عنوان "فرصة لإعادة البناء".

وبالرجوع إلى الوراء قليلاً، يسهل على المرء أن يتبين أن مغامرة هتلر الناجحة في أرض الراين جاءتته بنصر أعظم وابتعد أثراً مما أمكن تقديره في حينه. ففي داخل ألمانيا أحكمت تحصين شهرته^(٣٤) وزادته قوة على قوة، وارتفعت بهما إلى مقام لم يصل إليه أو يتمتع به أي حاكم ألماني قبله. واخضعت له جنرالاته الذين تلكأوا وضعفوا في الساعة الحرجة بينما بقي هو كالطود الراسخ. ولقنوا درساً مؤداه أن حكمه أصبح من أحكامهم لا في السياسة الخارجية وحدها بل في الشؤون العسكرية أيضاً. أدركهم الخوف من قتال مع الفرنسيين لكنه كان أخبر منهم. وأخيراً وفوق كل شيء، فإن عملية إحتلال أرض الراين على صغرهما من الناحية العسكرية فتح له طريقاً لاجباً لاغتنام فرص جديدة كبيرة في أوروبا وهو ما كان يدركه وحده (إذا إستثنينا الشخص الوحيد الآخر الذي أدرك ذلك وهو تشرشل في بريطانيا) وإن الأمر لم يقتصر على إهتزاز هذه القارة من مجرد إستعراض ثلاثة أفواج ألمانية في

٣٤- في ٧ آذار حل هتلر الرايخشتاغ وأمر بإنتخابات جديدة وإستفتاء عام عن حركة الراين وبالنظر إلى الأرقام الرسمية للأصوات في ٢٩ آذار، إقتصر ٩٩٪ من المجموع العام للأصوات البالغ (٤٥٣,٦٩١) وأيد ٩٨,٨٪ منهم عملية هتلر. ووجد المراسلون الأجانب الذين زاروا أماكن الاقتراع. بعض التجاوزات القانونية ولاسيما الاقتراع العلني، لا السري. ولاشك أن الخوف كان يساور بعض الألمان (وهو خوف له ما يبرره) من أن النازي وشرطته الكشتايبو كانوا سيكتشفون الأصوات السلبية (كما رأينا). لقد أخبر الدكتور هوغو إيكينز Hugo Eekenez مؤلف الكتاب أن كويلز أمره بالتحليق بزبلينه Zeppelin "هذنبيرك" فوق أجواء ألمانيا ومدنها كأداة دعائية وإن الرقم (٤٢) الذي أذاعته الدعاية الذي يمثل مجموع أصوات المقتريين (بنعم) يزيد على عدد الركاب الفعليين الموجودين على ظهره بصوتين! مع ذلك فالمرقب هذا الذي تنسب "الإنتخاب" في سائر أرجاء ألمانيا وكل ركن منها لم يشك أن الأصوات التي وافقت على عملية هتلر كانت أغلبية ساحقة. ولم لا؟ إن تحطم فرساي وظهور الجنود الألمان مرة أخرى في (أرض ألمانية) على كل حال هي مما يستحسنه كل ألماني تقريباً بطبيعة الحال. ونشر رقم الأصوات التي اقترعت بالسلب فكانت (٥٤٠,٢١١).

منطقة الراين، بل انه ألجأها الى تغيير وضعها الاستراتيجي تغييراً جذرياً مفاجئاً. وإعادة النظر فيه من تحت الى فوق.

وإذا عكست الآية، فالمرء يرى بالسهولة نفسها أن تقاعس فرنسا عن صدّ أفواج الفيرماخت الألمانية وتلكؤ بريطانيا في مساندة حليفاتها في خطوة لاتزيد عن مجرد عملية شرطة. كان فاجعة إنبعثت منها كل الفواجع التالية الأعظم أثراً وخطراً. في آذار ١٩٣٦ اعطيت الديمقراطية للغريبتان فرصتهما الأخيرة لوضع حدّ لقيام ألمانيا عسكرية معتدية ديكتاتورية، والقضاء على الديكتاتور النازي ونظامه [كما أقر هتler نفسه بذلك] دون المخاطرة منهما بحرب كبيرة الا انهما تركتا الفرصة تضيع منهما.

بالنسبة الى فرنسا، كانت هذه بداية النهاية. فحلفاؤها في الشرق: الإتحاد السوفياتي وپولندا وچيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوغوسلافيا. راحوا فجأة يواجهون حقيقة واقعة وهي أن فرنسا لن تحارب عدواناً ألمانياً للمحافظة على نظام الضمان الجماعي الذي جاهدت حكومتها نفسها في بنائه وتروسه بل وأكثر من ذلك، بدأت هاته الحليفات الشرقيات يدركن أن فرنسا حتى وإن رفضت عنها غفلتها ستكون بعد زمن وجيز عاجزة عن تقديم أي مساعدة كبيرة، بسبب مسارعة ألمانيا في جهود محمومة خارقة الى بناء الجدار الغربي على الحدود الفرنسية الألمانية. فقد رأت الحليفات إن إقامة خط القلاع هذا لن يلبث أن يغير من خارطة استراتيجية أوروبا، تغييراً ليس من صالحها. لم تكن تتصور أن فرنسا بفرقها المائة لا تحسر على صد ثلاثة أفواج ألمانية، لاتريد أن تدفع بزهرات شبابها يتساقطون أمام تحكيمات ألمانية لا يمكن اقتحامها بينما يندفع (الفيرماخت) في مهاجمة الشرق، لكن حتى لو جرى فعلاً غير المتوقع فلن يغير عن اية نتيجة. إذ ان الفرنسيين لن يكونوا قادرين إلا على احتجاز جزء صغير من الجيش الألماني المتنامي وسيكون سائره حراً في عملياته العسكرية ضد جيران الألمان في الشرق.

إن قيمة تحصينات الراين الاستراتيجية بالنسبة الى هتler شُرحت لوليم بوليت William C. Bullitt السفير الأمريكي في فرنسا. عند زيارته وزير الخارجية الألماني بربلن في ١٨ أيار ١٩٣٦.

"قال فون نيوارث [من تقرير بوليت الى دائرة الخارجية الأمريكية] أن من سياسة الحكومة الألمانية أن لاتنشط بعمل ما في الشؤون الخارجية حتى يتم هضم قضية أرض الراين. ووضح أنه يعني بذلك إن الحكومة الألمانية ستعمل كل ما بوسعها على منع وعدم تشجيع أي حركة نازية في النمسا أن تنهج سياسة هادئة بخصوص چيكوسلوفاكيا حتى تتم تحصينات ألمانيا على الحدود الفرنسية والبلجيكية وقال: "ما إن تبنى تحصيناتنا وتدرک دول وسط أوروبا أن فرنسا لاتستطيع الدخول الى أراضي ألمانيا متى تشاء، ستبدأ كل هذه الأفطار تشعر شعوراً مختلفاً بخصوص سياستها الخارجية

وستبحث عن مجموعة دولية جديدة" (٣٥).

هذا التطور بدأت ملامحه تظهر للعيان. كتب الدكتور شوشنك في مذكراته: "كنت وأنا واقف أمام قبر سلفي [القتيل دولفوس] مدركاً تماماً. بأن المحافظة على إستقلال النمسا يتطلب مني السير في خطة مهادنة... يجب اجتناب كل ما من شأنه إعطاء ألمانيا حجة في التدخل. وأن يبذل كل جهد لضمان رضى هتلر بالوضع الراهن، بأيّ كيفية كانت" (٣٦).

تشجع المستشار النمساوي الشاب الجديد. بالتصريح الذي ألقاه هتلر في الرايخشتاغ في ٢١ أيار ١٩٣٥ "لاتنوي ألمانيا ولا تريد التدخل في شؤون النمسا الداخلية، ولا بإلحاق النمسا، ولا بضمها في وحدة مع ألمانيا". وزاد ثقة بتأكيدات (ستريزا) الصادرة من إيطاليا وفرنسا وانجلترا، عن عزمها على حماية إستقلال النمسا. ثم غرق (موسوليني) حامي حمى النمسا الأول في حمأة حرب الحبشة وتقطعت الأسباب بينه وبين فرنسا وبريطانيا. وعندما دخلت ألمانيا منطقة الراين وبدأت في تحصينها أدرك الدكتور شوشنك أن الوقت قد حان لبذل شيء من الترضية لهتلر. فشرع يفوض في معاهدة جديدة مع باين الماكر سفير ألمانيا في فيينا. ومع أن هذا الرجل كان على قاب قوسين من الموت على أيدي النازيين أثناء تطهير حيزران، فلم ير بأساً من الشروع حال وصوله النمسا في أواخر الصيف ١٩٣٤ بعد مقتل (دولفوس) بالعمل الدائب للقضاء على إستقلال النمسا وإستلاب موطن هتلر وتقديمه له. وقد كتب الى هتلر في ٢٧ تموز ١٩٣٥ ضمن تقريره عن السنة الأولى لوظيفته في فيينا "يجب أن تتغلب القومية الإشتراكية على الايدولوجية النمساوية الجديدة، وهي لاشك فاعلة" (٣٧).

واظهر هتلر كرماءً غير إعتيادي وتسامحاً يفوق الخيال في النص المنشور للإتفاقية الألمانية النمساوية المبرمة في ١١ تموز ١٩٣٦. اكدت ألمانيا إعترافها بسيادة النمسا وتعهدت ألا تتدخل في شؤون جارتها الداخلية وبمقابل ذلك تعهدت النمسا أنها ستعتبر نفسها "دولة ألمانية" وستتقيّد بهذا الواجب وتعمل في هذا الحقل على أساس كونها كذلك.

لكن كان يوجد في المعاهدة ملاحق سرية (٣٨) فيها تنازل شوشنك عن إمتيازات، قدر لها فيما بعد أن تقوده وتقود بلاده الصغيرة الى مصيرها المحتوم. فقد وافق سراً على منح العفو العام للسجناء السياسيين النازيين في النمسا وتعيين ممثلين لما أطلق عليه المعارضة القومية- وهي كلمة مرادفة "للنازيين" أو لـ "مشايبي النازية" إلى مناصب "المسؤولية السياسية" وهذا يساوي تماماً السماح لهتلر بإقامة "حصان طرواده" داخل النمسا. والى احشائه كان سيزحف بعد زمن وجيز "سييس إنكورات

٣٥- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٧ ص ٨٩١ [الوثائق ١٥٠ L].

٣٦- كرت فون شوشنك "صلاة جناز Roguim النمسا" ص ٥.

٣٧- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ١ ص ٤٤٦ [الوثائق ٢٢٤٨ PS].

٣٨- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية (سيزميرز إليها باحرف DGFP) سلسلة (D ص ٢٧٨ - ٢٨١ رقم ١٥٢).



الجنرال فرانكو

Seyess-Inquart "المحامي القسبي يحتل مركز صدارة في حكايته. ومع ان باين كان قد حصل على موافقة هتلر بخصوص نص المعاهدة وقام بزيارة شخصية لبرلين لهذه الغاية في أوائل تموز، فإن الفوهرر هاج هائجه على رسوله هذا عندما تلقى له في ١٦ تموز ليبلغه بإتمام التوقيع على المعاهدة:

"أدهشني رد الفعل في هتلر، فعوضاً عن إظهار إمتنانه، أمطرتني بوابل من التآنيب واللوم وقال: اني ضلّته وخدعته في منح إمتيازات كثيرة... وأن المسألة كلها كانت فحاً..." (٣٩)

وقد ظهر فيما بعد انها كانت فحاً نصب لـ(شوشنك) لا

لهتلر. إن التوقيع على المعاهدة النمساوية-الألمانية قام دليلاً على أن موسوليني فقد سلطانه على النمسا، وكان من المتوقع أنها ستسيء الى العلاقات التي تربط الدكتاتورين الفاشيين، إلا ان العكس كان الصحيح- وهذا يعود الى الأحداث التي كان مسارها في ١٩٣٦ في مصلحة هتلر.

في الثاني من أيار ١٩٣٦ دخلت القوات الإيطالية (أديس أبابا) عاصمة الحبشة وفي ٤ تموز، استسلمت عصابة الأمم رسمياً للواقع وألغت العقوبات المفروضة على إيطاليا. وبعدها بأسبوعين (١٦ تموز) دبر (فرانكو Franko) إنقلاباً عسكرياً في إسبانيا ونشبت هناك حرب أهلية. كان هتلر كعادته في هذا الوقت من السنة منصرفاً بكليته الى الأوبرا بمناسبة مهرجان (فاكنر) في (بايروت). وفي ليلة الثاني والعشرين من تموز بعد عودته من الأوبرا. وصل (بايروت) من مراكش رجل أعمال ألماني بصحبة أحد القادة النازيين، حاملاً رسالة عاجلة من (فرانكو)، يطلب فيها طائرات وما إليها من المساعدات. فسارع هتلر فوراً باستدعاء (گورنگ) والجنرال فون بلومبرگ وتشاء الصدفة أن يكونا في (بايروت) وفي تلك الليلة بالذات اتخذت القرارات لإمداد الثورة الأسبانية بالمساعدات (٤٠).

ومع ان العون الألماني لفرانكو لا يقاس بما قدمت إيطاليا التي أرسلت قوة تتراوح ما بين ستين ألفاً وسبعين من الرجال فضلاً عن كميات كبيرة من السلاح والطائرات، الا أنه كان عوناً كبيراً. وقدر الألمان فيما بعد أنهم انفقوا على هذه المغامرة ما يوازي خمسمائة مليون مارك (٤١).

فضلاً عن إمدادها بالطائرات والدبابات والخبراء، وفرقة كوندور Condor وهي سرب قاذفات بنت

٣٩- باين: المراجع السالف ص ٣٧٠.

٤٠- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٣ الص ١-٢.

٤١- المرجع السالف الص ٨٩٢-٩٨٤.

شهرتها على مسح بلدة (غويرنيكا Guernica) الأسبانية من خارطة البلاد مسحاً وأخذت معها كل سكانها المدنيين. وإذا قورنت المعونة بالتسليح الألماني الجبار فإنها لاتعد شيئاً مذكوراً. الا أنها اغتنمت لهتلر حصة طيبة جداً. وكسبت لفرنسا فوة معادية فاشية ثالثة على حدودها وزادت من حدة النزاع والتناحر داخل فرنسا بين اليمين واليسار وبها دبّ الضعف في خصم ألمانيا الرئيس في الغرب. فضلاً عن أنها جعلت من أي تقارب rapprochement بين فرنسا وبريطانيا وبين إيطاليا أمراً مستحيلاً. وكانت الدولتان تأملان ذلك بعد إنتهاء الحرب الحبشية، لكنّها دفعت موسوليني الى ذراعي هتلر.

كانت سياسة الفوهرر في إسبانيا من البداية سياسة أربية دقيقة بعيدة النظر. ويتعقب الوثائق الألمانية يتضح أن واحداً من أهداف هتلر كان تطويل أمد الحرب الأهلية الأسبانية حتى يُبقي الديمقراطيةين الغربيتين وإيطاليا على خلاف وشنّان وليجذب موسوليني اليه^(٤٢)، فمنذ كانون الثاني ١٩٣٦ نجح السفير الألماني في إيطاليا (اولريخ فون هاسل Ulrich Von Hassell) الذي لم يصل بعد الى تفهم لأهداف النازيين وأساليبهم ثم انكشفت له حقيقةهما فيما بعد لتسبب خسارته حياده أخيراً- يكتب لوزارة الخارجية، الآتي:

"ان الدور الذي يقوم به الصّدّام الإسباني بخصوص علاقات إيطاليا مع فرنسا وانجلترا. قد يمكن ان يكون مشابهاً للدور الحبشي. مظهراً بوضوح المصالح المتضادة- لتلك القوى فعلاً، وبهذا يمنع إيطاليا من ان تندفع الى شبكة القوى الغربية وإستخدامها لحبك دسائسها. ان الكفاح في سبيل المكانة الأولى من النفوذ السياسي في إسبانيا، يكشف عن التعارض بين إيطاليا وفرنسا وفي الوقت نفسه فإن وضع إيطاليا بإعتبارها قوة بحرية في غربي الأبيض المتوسط يؤل الى منافسة مع قوة بريطانيا. وتشير كل الدلائل بوضوح أن إيطاليا تدرك سداد فكرة التصدي الى القوى الغربية مع ألمانيا كتناً لكثف^(٤٣)".

هذه الظروف هي التي أدت الى ميلاد (محور روما- برلين). في ٢٤ تشرين الأول، قام الكونت غاليزو تشيانو Galeazzo Ciano ختن موسوليني ووزير خارجيته بعد مداولات مع نيوارث في برلين بأول زيارة حج من زيارات عديدة تالية لبرخستسكادن ووجد الدكتاتور الألماني في أصفى حالات الود والرقّة وأعلن قائلاً "ان موسوليني هو رجل السياسة الأول في العالم. لايمكن ان يقارن به أحد حتى عن بعد" وبإمكان إيطاليا وألمانيا معاً أن تقضيا لا على "البلشفية" وحدها بل على "الغرب" أيضاً ومعه انجلترا! وفكر أن البريطانيين قد يحاولون أخيراً الانضمام الى الركب الألماني الإيطالي الموحد. فإن لم يفعلوا فبإمكان البلدين القضاء عليهم بعمل موحدٍ. وذكر هلتّر تشيانو "أن التسليح الإيطالي

٤٢- في ٥ تشرين الثاني ١٩٣٧ وبعد مرور أكثر من سنة عن هذا، اكد هتلر سياسته تجاه إسبانيا في حديث سري جرى له مع جنرالاته ووزير خارجيته فقال: "ان ألمانيا لاترغب في نصر لفرانكو نسبته مائة بالمائة فنحن نفضل دوام الحرب وبقاء التوتر قائماً في البحر المتوسط (وثائق سياسية ألمانيا الخارجية ج ١ ص ٣٧).

٤٣- المرجع السالف ج ٣ ص ١٧٢.



هتلر وموسوليني

والألماني يتقدم بأسرع مما يتقدم التسليح في انكلترا، بكثير... وستكون ألمانيا بعد ثلاث سنوات على إستعداد...^(٤٤) والتاريخ هنا يسترعي الانتباه. ثلاث سنوات من ذلك التاريخ... توافق خريف عام ١٩٣٩!

في الحادي والعشرين من تشرين الأول وقع (شيانو) و(نيوارث) في برلين بروتوكولاً سرياً فصلت فيه السياسة المشتركة لإيطاليا وألمانيا في الحقل الخارجي. وأشار موسوليني اليه بصورة

علنية في ميلان (الأول من تشرين الثاني) دون أن يكشف عن محتواه ووصفه باتفاقية تتضمن (محوراً) قد "تعمل حوله معاً" القوى الأوروبية الأخرى. ولقد قدر لهذه الكلمة الشهيرة، ان تختتم على مصير موسوليني.

بعد أن وضع هتلر موسوليني في جيبه، أولى إهتمامه ناحية أخرى. في آب ١٩٣٦، عين (رينتروب) سفيراً في لندن محاولة منه لاستطلاع إمكانية إجراء تسوية مع انكلترا بشروطه الخاصة طبعاً. كان رينتروب شخصاً كسلاناً فاقد الأهلية متعجرفاً مختلاً كالطاووس صارماً عبوساً جافاً. فهو أسوأ إختيار ممكن لهذه الوظيفة كما أدرك غورنك ذلك. وقد صرح فيما بعد "عندما انتقدت مؤهلات رينتروب وعجزها عن الاضطلاع بالمشكلة البريطانية قال الزعيم لي، أن رينتروب يعرف فلاناً وفلاناً من اللوردات وفلاناً وفلاناً من الوزراء. فأجبتة بقولي أجل، هذا حق ولكن المشكلة هي انهم يعرفون رينتروب^(٤٥)".

والحق يقال أن رينتروب مع شخصيته المنفرة، لم يكن يفتقر الى أصدقاء ذوي نفوذ في لندن وكان الإعتقاد في برلين أن (مسز سمبسون Mrs. Simpson) صديقة الملك كانت من هؤلاء. الا ان مجهوداته الأولى في منصبه الجديد لم تكن مشجعة. وفي تشرين الثاني طار عائداً الى برلين لإتمام مهمة لاعلاقة لها ببريطانيا، كان قد غمس يديه فيها. وفي ٢٥ تشرين الثاني وقع ميشاق مكافحة الكومنترن Anti-Comintern Pact مع اليابان وقال للصحفيين بهذه المناسبة دون ان ترف له عين (وكان المؤلف أحدهم). ان ألمانيا واليابان قد انتظمتا معاً للدفاع عن المدنية الغربية. وكانت واجهة الميثاق

٤٤- أوراق تشيانو السياسية نشرها ماكولم مكرجج Malcolm Muggeridge الص ٤٣-٤٨.

٤٥- ملتن شولمان Milton Shulman "الهزيمة في الغرب" ص ٧٦. اشار الى أن مصدره من استخبارات وزارة الحرب البريطانية كانون الثاني ١٩٤٥. ويبدو أنها من استجواب لگورنك

الظاهرة لا أكثر من حيلة دعائية تمكن ألمانيا واليابان من كسب مساندة العالم باستغلال كره الدول الرأسمالية للشيوعية والشك العام العالمي في نوايا الكومنترن. لكن المعاهدة كانت تتضمن أيضاً بروتوكولاً سرياً موجهاً ضد الإتحاد السوفييتي بكل صراحة وبنوع خاص في حالة هجوم مباغت غير إستفزازي يقوم به الإتحاد السوفييتي ضد ألمانيا أو اليابان فقد اتفقت الدولتان على التشاور في التدابير التي ستتخذانها "لحماية مصالحهما الخاصة المشتركة" وايضاً "أن لاتتخذا أي تدابير من شأنها أن تؤدي الى تعزيز موقف الإتحاد السوفييتي السياسي". واتفق أيضاً أن لاتبرم أي الدولتين معاهدة سياسية ما مع روسيا تخالف روحاً هذه الإتفاقية دون الإتفاق المسبق المتبادل"^(٤٦).

ولم يمر طويل زمن لتقوم ألمانيا بنقض المعاهدة وإتهام اليابان دون حق بعدم تطبيقها. على أن الإتفاق حقق فعلاً غرضاً دعائياً معيناً في عالم يسهل خداعه، وجمعت للمرة الأولى الدول الإعتدائية الثلاث بأنضمام إيطاليا الى الميثاق في السنة التالية.

في ٣٠ كانون الثاني خاطب هتلر الرايخشتاغ معلناً "سحب توقيع ألمانيا" من معاهدة فرساي. وهذا في حقيقته إجراء أجوف إلا أنه ذو مدلول. لأن المعاهدة كانت آنذاك مهيئة تشوي تحت اطباق الثرى. وراح يستعرض بفخر أعمال السنوات الأربع التي قضاها في الحكم. وان له عذراً في فخره لأن السجل حافل في كل من الحقلين الداخلي والخارجي. فهو كما رأينا قضى على البطالة وخلق رواجاً في الأعمال التجارية وبنى جيشاً قوياً وأسطولاً وقوة جوية وجهزها بأسلحة كثيرة ووعد بأكثر على نطاق واسع وكسر بيده منفرداً، قيود معاهدة فرساي واحتال لشق طريقه الى الراين. وكان في البدء يشكو العزلة التامة، فوجد في موسوليني حليفاً مخلصاً ووجد حليفاً آخر في فرانكو وأبعد بولندا عن فرنسا. واهم من هذا كله أنه أطلق دينامية الشعب الألماني وأيقظ ثقتهم في الوطن واحساسهم برسالته كقوة عظيمة عالمية موسعة.

كان كل أمرى يرى الفرق العظيم بين هذه الزيجة الناجحة ذات الخير العميم تقود ألمانيا الجديدة بجسارة، بين الديمقراطيات المتداعية في الغرب التي بدا تخبطها وتأرجحها يتزايدان كلما مضى شهر من تقويم السنة. ومع أن فرنسا وانكلترا كانتا قلقتين إلا أنهما لم ترفعا أصبعاً واحداً لمنع هتلر من الإعتداء على معاهدة السلم بإعادة تسليح ألمانيا وإحتلال الراين ولم تتمكن من إيقاف موسوليني في الحيشة. وها هما في بدء العام ١٩٣٧. في موضع يثير الشفقة والراء بمحاولاتهما العقيمة في منع قيام الحرب الأهلية الإسبانية. كل الدنيا كانت تعلم بالمجهودات التي يبذلها الطليان والألمان لتحقيق إنتصار (فرانكو) في حين استمرت حكومتا لندن وباريس طوال سنين في مفاوضات دبلوماسية فارغة مع برلين وروما لتحقيق "عدم التدخل!" في إسبانيا. كانت لعبة من ألعاب الرياضة البدنية راقت للدكتاتور الألماني على ما يبدو وزادت بالتأكيد من إحتقاره القادة السياسيين الفرنسيين والبريطانيين

٤٦- نص البروتوكول السري: وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ١ ص ٧٣٤.

العاجزين "الدود الصغير" وهو الإسم الذي كان سيطلقه عليهم بعد قليل في مناسبة تاريخية اذل بها الديمقراطيتين الغربيتين مرة أخرى بأعظم ما يمكن من السهولة والبساطة.

لم تكن بريطانيا العظمى وفرنسا ولا حكومتاهما وشعباهما وكذلك معظم الشعب الألماني - لم يكونوا يدركون في مطلع ١٩٣٧ أن كُلاً ما فعله هتلر تقريباً، في السنوات الأربع من حكمه إنما كان الإستعداد للحرب ويمكن للمؤلف أن يشهد من ملاحظته الخاصة أن الشعب الألماني كان مقتنعاً حتى اليوم الأول من أيلول ١٩٣٩ أن هتلر سيحصل على ما يريده وما يريدونه هم دون اللجوء الى الحرب. لكن الرأي عند الصفوة المختارة التي تدير ألمانيا أو تشغل مناصب كبيرة كان واثقاً ثقة تامة من هدف هتلر. وعندما شارفت سنوات الامتحان الأربع من الحكم النازي [كما يسميها هتلر] على الإنتهاء قام غورنك خطيباً في إجتماع سري للصناعيين والموظفين الكبار في برلين موضحاً بكل جرأة ما سيأتي به الزمن وكان ذلك في أيلول ١٩٣٦ إثر تعيينه مشرفاً على مشروع السنوات الأربع. "قال غورنك] إن المعركة التي ندنو منها الآن تتطلب إنتاجاً ضخماً على أوسع نطاق تبلغه إمكانياتنا، لا حدود يمكن أن توضع للتسلح. والنهاية الوحيدة هي إما النصر أو الفناء... نحن الآن نعيش في زمن باتت المعركة على قاب قوسين منّا. نحن الآن على عتبة التعبئة العامة. بل ونحن في حرب عملاً وكل ما ينقص حربنا هذه هو القصف ولعلعة الرصاص"^(٤٧). هذا التحذير ألقاه غورنك في ١٧ كانون الثاني ١٩٣٦. وفي غضون أحد عشر شهراً من هذا التاريخ. وضع هتلر قراره المجازم الذي لا مرد له بالخروج الى الحرب.

-٥-

عام ١٩٣٧: "لا مفاجآت!"

أعلن هتلر أمام آلات الرايخشتاغ البشرية في ٣٠ كانون الثاني قائلاً "لقد مضى ما كان يطلق عليه زمن المفاجآت". والحق يقال إن ١٩٣٧ خلت من مفاجآت عطل الأسبوع^(٤٨). وكانت عند الألمان سنة تعزيز وزيادة تأهب للأهداف التي قذف هتلر بملء كف منها الى كبار قادته في تشرين الثاني. كانت سنة مخصصة لسبك السلاح وتدريب الجنود وتجربة القوة الجوية في إسبانيا^(٤٩) وتطوير صناعة

٤٧- محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج ١٢ الص ٤٦٠-٤٦٥ الوثائق NI ٨٥.

٤٨- إعتاد موظفو قلهمشتراسه القول مازحين: عدل هتلر عن مفاجآته أيام السيوت، بعد ان أفهم أن الموظفين الإنكليز يقضون عطلة الأسبوع في الريف بعيداً عن محلات عملهم.

٤٩- تكلم غورنك [في افادته بنورمبرگ المؤرخة ١٤ آذار ١٩٤٦] معتزلاً مفاجراً بالفرص التي أتاحتها الحرب الإسبانية لإختبار "قوتي الجوية الصغيرة... بعد سماح الفوهرر أرسلت جزءاً كبيراً من أسطولي للنقل وعدداً من الوحدات المقاتلة التجريبية وبعض القاذفات وبعض المدافع المضادة للجو وبهذه الطريقة أتاحت لي فرصة التأكد - في أجواء المعركة الفعلية. من كفاءة مادتي. ولكي يستفيد الأفراد تجرية أيضاً. رتبت الأمور حيث يتم الإستبدال دون إنقطاع. =

النفط غير الطبيعي والمطاط الصناعي. وتثبيت دعائم محور روما-برلين وترقب نقاط ضعف أخرى من باريس ولندن وفيينا. ودأب في الأشهر الأولى من ذلك العام على إرسال البعثات المهمة الى روما لتثقيف موسوليني. كان الألمان قلقين بعض الشيء لمغازلة إيطاليا بريطانيا (في ٢ كانون الثاني وقع تشيانو "ميثاق السيد المجد" مع الحكومة البريطانية، فيه اتفق على أن يحترم كل من الدولتين الموقعتين المصالح الحيوية للآخرى في البحر الأبيض المتوسط). وأدركوا أن موضوع النمسا مازال يثير غضب روما. وعندما زار (گورنگ) الدوتشي في ١٥ كانون الثاني وتكلم بصراحة عن حتمية ضم النمسا- ذكر پول شميدت الترجمان الألماني- أن الدكتاتور الإيطالي المهتاج هز رأسه هزات عنيفة. وكتب السفير (فون هاسل) تقريراً الى برلين ذكر فيه أن تصريح گورنگ عن النمسا "قابل ببرود وجفاء". وفي حزيران سارع (فون نيوراث) يؤكد للدوتشي بأن ألمانيا ستحافظ على معاهدة ١٩٣٧ التي عقدها مع النمسا باستثناء محاولة إعادة آل هابسبرگ الى الحكم، فإن ألمانيا ستتخذ عندئذ عملاً حدياً.

وكان من أثر تهدة موسوليني بخصوص النمسا وحقنه من تصدي فرنسا وبريطانيا لكل أطماعه تقريباً سواء في الحبشة أو إسبانيا أو البحر المتوسط، أنه سارع بقبول دعوة هتلر لزيارة ألمانيا في ٢٥ أيلول ١٩٣٧. وعبر (الألب) وهو مرتد بزة صُممت وفصلت خصيصاً لهذه المناسبة ودخل الرايخ الثالث بكبكية وحفاوة البطل الفاتح. يحف به هتلر وأعوانه. ولم يكن موسوليني يدري آنذاك كم ستجلب عليه هذه الزيارة من كوارث. أول رحلة من عدة رحلات ستتلو فتؤدي الى إضعاف مطرد لموقفه إزاء هتلر، ثم الى النهاية الفاجعة. ولم تكن غاية هتلر الدخول في مفاوضات دبلوماسية أخرى مع ضيفه بل أراد ان يبهره بمظاهر قوة ألمانيا، ليمثل دوراً ناجحاً من فكرته المستولية على ذهنه، وهي ضم حظوظه الى الفريق الغالب. وطافوا بموسوليني في ألمانيا طويلاً وعرضاً ونظموا له إستعراضات لد(إس.إس) والجيش. وأقيمت على شرفه مناورات عسكرية في (ملكنبرغ) وجالوا به في مصانع السلاح الهاردة في الروهر.

وبلغت زيارته ذروتها في ٢٨ أيلول حين أقيم له إحتفال في برلين أذهله حقاً. احتشد مليون شخص في مايلفد Maifeld ليتسمعوا الى الدكتاتورين الفاشيين ينفض كل منهما ما في جعبته. وكادت الدنيا لاتسع موسوليني فرحاً وهو يرى خطبته التي ألقاها بالألمانية تقاطع بهتافات حماسية شقت عنان السماء وانتعش كالديك بمعسول كلام هتلر وتلقه. ووصف الفوهرر الدوتشي بأنه "أحد أولئك الرجال فريدي عصرهم وأوانهم ممن لا يصنعهم التاريخ، وانما هم الذين يصنعون التاريخ". ومما أذكر أن عاصفة رعدية شديدة خيمت على الميدان قبل ان يفرغ موسوليني من كلمته وفي الإضطراب

= يذهب أناس جدد الى المعركة باستمرار ويستدعى آخرون وهكذا (محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج ٩ ص ٢٢٨١).

المتأني من تراكض الغوغاء وقع الخلل في التدابير الوقائية التي اتخذها الـ(إس. إس) وانهارت السقوف فابتلّ الدوتشي الغطريس بالماء من قمة رأسه الى أخمص قدمه وإعتوره ضيق شديد واضطر الى العودة وحيداً بأفضل ما أمكنه. إلا أن هذه التجربة التي لم تكن في الحسبان لم تقلل من حماسه في أن يصبح شريكاً لألمانيا القوية الجديدة. وفي اليوم التالي بعد مشاهدته عرضاً عسكرياً للقوات البرية والبحرية والجوية عاد الى روما مقتنعاً بأن المستقبل لهتلر.

ولم يكن أن يسافر (ريبنتروب) الى روما بعد شهر من زيارة الدوتشي ليحصل على توقيع الدكتاتور في ذيل ميثاق مكافحة الكومنترن. وفي حفل أقيم في ٦ تشرين الثاني أعلمه الدوتش عن فقدان إيطاليا إهتمامها بإستقلال النمسا. وقال موسوليني "فلتترك الأحداث [في النمسا] تأخذ سبيلها الطبيعي". وهذا معناه إشارة الانطلاق التي كان ينتظرها هتلر.

هنالك رئيس دولة آخر بهره تعاضم قوة ألمانيا النازية هو الملك ليوبولد البلجيكي. فعندما نقض هتلر معاهدة لوكارنو واحتل منطقة الراين وجعل الجيش الألماني مشرفاً على الحدود البلجيكية بادر الملك بالإنسحاب من لوكارنو ومن حلفه مع بريطانيا وفرنسا وأعلن أن بلجيكا ستلتزم من الآن فصاعداً بسياسة حياد دقيق. كان وقع ذلك شديداً على الدفاع الجماعي عن الغرب، إلا أن بريطانيا وفرنسا رضيتا به في نيسان ١٩٣٧ وكان عملاً دفعنا له مع بلجيكا ثمناً باهضاً بعد فترة وجيزة.

في آخر آذار بدأ (فلهلمستراسه) يرقب بإهتمام اعتزال (ستانلي بالدوين Stanley Baldwin) رئاسة الوزارة البريطانية وإستخلافه بـ(نقيل چمبرلين) وشاع السرور في الألمان حين سمعوا أن رئيس الحكومة البريطانية الجديد سيمارس في السياسة الخارجية دوراً أكثر من سلفه وانه عازم على التوصل إتفاق مع ألمانيا النازية إن أمكن. إن التفاهم الذي يرضى به هتلر، وضعت خطوته الرئيسية سراً في تقرير العاشر من تشرين الثاني الذي كتبه البارون (فون فايسبكر Von Weizsaecker) رئيس الدائرة السياسية في وزارة الخارجية.

"من إنكلترا، نحن نريد مستعمرات، وحرية في العمل في الشرق... إن حاجة البريطانيين للهدوء ماسة. ومن المفيد أن نجد ما الذي تستطيع إنكلترا أن تدفع ثمناً لهذا الهدوء".

وسنحت فرصة لمعرفة الثمن الذي تقبل إنكلترا دفعه للهدوء المنشود عندما قام اللورد هاليفاكس Halifax في تشرين الثاني برضى وإندفاع من (نقيل چمبرلين) بالحج الى (برختسگادن) لمقابلة هتلر. وفي ١٩ تشرين الثاني جرى بينهما حديث طويل وفي مذكرة سرية ألمانية أدرجت فيها وزارة الخارجية الألمانية وقائع تلك المقابلة^(٥٠)، برزت ثلاث نقاط وهي: أن (چمبرلين) متلهف للغاية الى إيجاد تسوية مع ألمانيا وإقتراح إجراء محادثات بين البلدين على مستوى الحكومات تريد بريطانيا تسوية عامة لمشاكل أوروبا وهي على إستعداد مقابل ذلك أن تنزل عن إمتيازات لهتلر بالنسبة الى

٥٠- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ١ ص ٤٠.

المستعمرات وشرقي أوروبا. وأخيراً إن هتلر ليس كثير الإهتمام في الوقت الحاضر بعقد إتفاق أنكلو ألماني.

ومن ناحية النتيجة السلبية التي اسفرت عنها المحادثات فقد أدهش الألمان أنهم وجدوا الإنكليز يعلقون عليها آمالاً طيبة^(٥١). ولتكون مفاجأة عظيمة جداً للحكومة الإنكليزية لو علمت عن إجتماع سري للغاية عقده هتلر في برلين مع كبار قاداته العسكريين ووزير خارجيته قبل أربعة عشر يوماً بالضبط من حديثه مع اللورد هاليفاكس.

-٦-

القرار الخامس من تشرين الثاني ١٩٣٧

أشير الى الأمور التي سيأتي بها المستقبل والإستعدادات التي ينبغي إتخاذها لمواجهةها في أمر توجيهي لقواد القوات المسلحة الثلاثة العاملين في ٢٤ حزيران أصدره الفيلد مارشال فون بلومبرگ ومُيزت بعبارة "سري للغاية" ولم يعمل منها غير أربع نسخ^(٥٢)، في هذا الأمر أبلغ وزير الحرب والقائد العام للقوات المسلحة قادة الصنف الثلاثة "بان الموقف السياسي العام يبرر القول أن ألمانيا لا تتوقع هجوماً من أي جهة كانت." واستطرد الأمر يقول أن الرغبة في الحرب منتفية عند كل من الدول الغربية وروسيا وانها لا تتأهب لحرب ما.

ومضت النشرة السرية "... ومع ذلك فإن الوضع العالمي المانع سياسياً لا يحول دون وقوع أحداث مباغتة تطلب من القوات الألمانية أن تقف على أهبة الإستعداد لإمكان إستثمار الفرص التي تعرضها السياسة إستثماراً عسكرياً حين سنوحها. إن إستعدادات القوات المسلحة لحرب محتملة في فترة تعبئة ١٩٣٧-١٩٣٨ يجب أن تتم على هذا الأساس". أي حرب هي محتملة الوقوع في وقت لم تكن ألمانيا تخشى هجوماً "من اي جهة؟" كان بلومبرگ واضحاً تماماً. فهناك إحتمالان للحرب Kriegsfalle و"يجب أن يوضع لهما خطتان":

٥١- كتب چمبرلين في يومياته "إن زيارة [اللورد هاليفاكس ألمانيا كانت من وجهة نظري نجاحاً كبيراً لأنها حققت غرضها، أعني بخلق جو يمكن ان يبحث فيه مع ألمانيا المشكلة العملية التي تكتنف تسوية أوروبية" [كيث فيلينغ Keith Feiling: حياة نفيل چمبرلين ص ٣٣٢].

ويبدو ان هاليفاكس نفسه قد وقع تحت تأثير هتلر فذكر في تقرير كتابي لوزارة الخارجية "ظهر لي ان المستشار الألماني وغيره لا يتوون القيام بمغامرة تتضمن إستخدام القوة أو الحرب على الأقل" وقال جارلس سي. تانسيل Charles C. Tansill إن هاليفاكس أبلغ چمبرلين شفوياً ان هتلر "لا ينوي القيام بمغامرة عاجلة وواحد من الأسباب هو انه منهمك في بناء ألمانيا داخلياً... ومنها انها قد لا تعود بطلان" وأن گورنگ أكد أنه لن تسفك قطرة دم جندي ألماني في أوروبا الا اذا أضطرت ألمانيا تماماً. والإنطباع الذي تخلف عن الألمان انهم يريدون تحقيق أهدافهم بطريقة إعتيادية (تانسل: باب الحرب الخلفي، الص ٣٦٥-٣٦٦).

٥٢- المرجع السالف الص ٥٥-٥٧ و[مؤامرة النازيين ج ٦ الص ١٠٠١-١٠١١ الوثائق ١٧٥ C].

- ١- حرب على جبهتين. الزخم الرئيس فيها من الجبهة الغربية (الخطة الاستراتيجية "أحمر Rot")
- ٢- حرب في جبهتين الزخم الرئيس فيها في الجبهة الجنوبية الشرقية (الخطة الاستراتيجية: "أخضر") ومفصل "الإفتراس" في القضية الأولى أن فرنسا قد تقوم بهجوم مباغت على ألمانيا. وفي هذه الحالة تستخدم القسم الأعظم من قواتها في الغرب وقد رمز لهذه العملية بإسم "أحمر" (٥٣) ولإحتمال الثاني:

الحرب في الشرق يمكن أن تبدأ بعملية ألمانية مباغتة ضدّ جيوكوسلوفاكيا تفادياً لهجوم سريع تقوم به قوات عدوّه مؤتلفة متفوقة. إن الشروط اللازمة لتبرير عمل كهذا تبريراً سياسياً أمام القانون الدولي يجب أن يستحدث قبل ذلك (الخيطان على العبارة الأخيرة من يد بلومبرگ نفسه) وشدد الأمر التوجيهي بأن جيوكوسلوفاكيا "يجب أن يتم القضاء عليها من البداية" ويكمل احتلالها فوراً.

وكان هناك أيضاً ثلاث قضايا يجب أن يتخذ لها "إستعدادات":

أولاً: التدخل المسلح ضدّ النمسا [القضية الخاصة بأوتو Otto].

ثانياً: التعقيدات شبه العسكرية مع إسبانيا الشيوعية [القضية الخاصة بريشارد Richard].

ثالثاً: إنكلترا وپولندا ولتوانيا تشاركان في حرب ضدّنا [توسيع في القضيتين: أحمر، وأخضر].

و"قضية أوتو" رمزٌ مصطلحٌ، سيكثر ترداده في الصحائف التالية. فكلّمة (أوتو) تشير الى (أوتو هابسبرگ) المطالب الشاب بالعرش النمساوي الذي كان يعيش في بلجيكا آنذاك. ولخصت (قضية أوتو) في الأمر التوجيهي الذي اصدره بلومبرگ في حزيران بما يأتي:

"إن الهدف من هذه العملية- عملية التدخل المسلح في النمسا بحالة عودتها الى النظام الملكي- هو إجبار النمسا بالقوة على التخلي عن إعادة الملكية."

"بالإفادة من الإنقسام السياسي الداخلي سيكون ثم حركة عسكرية الى هذا الغرض والهدف الرئيس سيكون فيينا وسيقضى على كل مقاومة في وجه الزحف."

وتسلل إلى هذه الوثيقة الفاضحة في الختام نبرات حذر تكاد تكون يأساً. فهي تنذر قائلة ليس هناك مجال للتخمين في أمر بريطانيا "ستستخدم إنكلترا كل مواردها الإقتصادية والعسكرية المتيسرة، ضدّنا" فإذا انضمت الى پولندا وليتوانيا؟ إن الأمر التوجيهي يعترف: "سيكون وضعنا

٥٣- تلك هي أولى نماذج من عدة رموز للخطط العسكرية الألمانية. ستأتي في السياق ويستخدم الألمان لفظة Fall ومعناها الحرفي (قضية) ولهذا تترجم عبارة Fall Rot بالقضية الحمراء و Fall Gruen بالقضية الخضراء وهما الرمزان لعمليات الغرب وعمليات جيوكوسلوفاكيا على التوالي. وزعم الجنرالات الألمان في نورمبرگ انها كانت في البدء مجرد مصطلح مما يستخدمه كل القيادات العسكرية للخطط المرسومة لمواقف الفرضيات العسكرية لكن الرمز أصبح كما سيتبين المرء مما يأتي -وكما إستخدمه الألمان بعد فترة قليلة من الزمن مصطلحاً لخطة مرسومة مبيتة لعدوان مسلح وكلّمة "عملية" قد تكون أقرب مما يقصد منه بلفظه Fall من لفظة "Case- قضية" ومهما يكن من أمر وتسهيلات للأمر فإن المؤلف يستخدم كلمة "قضية: Case" من الآن فصاعداً لما يقصد به لفظة Fall الألمانية.

العسكري سيئاً الى حد لا يطاق، بل يائساً. وسيعمل القادة السياسيون عندئذ كل ما يمكن عمله ليبقوا هذه الدول على الحياد، وبخاصة إنجلترا".

مع أن الأمر التوجيهي صادر بتوقيع بلومبرگ. فمن الواضح أنه جاء من سيده مستشار الرايخ. واقتبل الى مركز الرايخ الثالث العصبي (قلهلمشتراسه ببرلين) ستة أشخاص في مساء يوم ٥ تشرين الثاني ١٩٣٧، ليتلقوا المزيد من الإيضاحات من الزعيم وهؤلاء الستة هم: الفيلد مارشال فون بلومبرگ وزير الحرب والقائد العام للقوات المسلحة، والكولونيل جنرال بارون فون فريتش القائد العام للجيش، وأمير البحر الدكتور رايدر القائد العام للأسطول، والكولونيل جنرال (گورنك) القائد العام للقوة الجوية، والبارون فون نيوراث وزير الخارجية، والكولونيل (هوسباخ) المرافق العسكري للفوهرر. لن يتردد ذكر (هوسباخ) في هذا السفر ولم يدع له صيت. إلا أن هذا الكولونيل الشاب مثل دوراً هاماً في ساعات يوم تشرين الثاني السّود. فقد دون ملحوظات عن كل ما قاله الفوهرر وبعدها بخمسة أيام قام بكتابتها تفصيلاً في مذكرة سرية للغاية، وبهذا سجل للتاريخ نقطة التحول الحاسمة في حياة الرايخ الثالث وكانت مدوّنته واحدة من أهم الوثائق وأخطرها في نورمبرگ^(٥٤).

بدأ الإجتماع في الرابعة والدقيقة الخامسة ودام حتى الثامنة والدقيقة الثلاثين. وكان هتلر أكثر المتكلمين. وبدأ بالقول أن ما سيطرحه هو ثمرة... "تفكير مضم ومداومات وتجارب أربع سنوات ونصف سنة من الحكم" ويبيّن أنه يعتبر الملحوظات التي سيذكرها وشيكاً ذات أهمية بالغة، بحيث يجب أن تعتبر في حالة وفاته - بمثابة وصية وإفادة أخيرة له. قال: "إن هدف السياسة الألمانية هو حفظ المجتمع العنصري وضمان حياته وتوسيع ذلك المجتمع. فالقضية اذن هي قضية مجال حيوي Lebensroym، ويسط حديثه أن لألمانيا "الحق في مجال حيوي أكثر من غيرها من الشعوب... ولذلك فإن مستقبل ألمانيا يتوقف كله على حل مشكلة الحاجة الى المجال الحيوي"^(٥٥). أين يكون المجال؟ ليس في

٥٤- ان ملحوظات (هوسباخ) مؤرخة في ١٠ تشرين الثاني. أثبت النص في [مؤامرة النازيين... ج ٢٥ الص ٤٠٢-٤١٣] وادق ترجمة إنكليزية في [وثائق عن سياسة... ج ٣ الص ٢٩-٣٩] هنالك ترجمة إنكليزية سريعة عملت في نورمبرگ [مؤامرة النازيين... ج ٣ الص ٢٩٥-٣٠٥ الوثائق PS ٢٨٦] وكتب هوسباخ ايضاً عن وقائع الإجتماع في كتابه Zwischen Wehrmacht und Hitler الص ١٨٦-١٩٤. شهادات گورنك ورايدر ونيوراث المقتضبة حول الإجتماع طبعت في [محاكمات مجرمي الحرب الكبار]

٥٥- من الآن فصاعداً سيلحظ القاري أن ما يبدو حديثاً غير مباشر (بصيغة الغائب) قد وضع بين قوسين صغيرين أو بين قوسين كبيرين على شكل مقتبسات وقد اثبتت بضمير الغائب كل المدونات الألمانية وأحداث هتلر وغيرها من الأحداث الخاصة على طريقة الحديث غير المباشر. مع أنها قد تميل أحياناً لتصير الى الحديث المباشر فجأة وبالضمير المتكلم دون اللجوء الى تغيير وضع الإشارات والتنقيط، وهذا من شأنه أن يعرض مشكلة عند القاري الأمريكي الإنكليزي. ولأنني أردت الإبقاء على الوثائق كما هي دون التعرض لدقتها وللكتلمات بالنص قررت أن الأفضل عدم التصرف بهذه المدونات وقلبها من الكلام غير المباشر الى المباشر مع ضمير المتكلم وإخراجها من القوسين. في القضية الأخيرة قد يبدو للقاري أنني أتصرف في ترتيب العبارات بكل حرية في حين اني بقيت أميناً على النص. وهي في المدونات الألمانية على الأغلب مسألة قلب ضمائر الجملة الفعلية من المضارع الى الماضي. وقلب الضمير المتكلم الى الضمير الغائب. ولن يكون ثم تعقيد أو إشكال عند القاري إذا حسب لهذا الأمر حسابه.

مستعمرات أفريقية أو آسيوية قصية، بل هنا في قلب أوروبا "في التخوم التي تحد الرايخ مباشرة" والمسألة عند ألمانيا هي أين يستطيع تحقيق أعظم الكسب بأقل الكلفة؟ "إن تاريخ كل العصور- الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية البريطانية- يثبت أن التوسع لا يمكن أن يتم إلاّ بسحق كل مقاومة تعترضه وبالمخاطرة، والنكسات أمور لا مفر منها لم يوجد مجال حيويّ بدون سيد، وفي يومنا هذا لا توجد مجالات قطّ؛ والمهاجم يصطدم دائماً بمالك.

وبيّن هتلر أن قطرين "مكروهين" يقفان في طريق ألمانيا هما فرنسا وبريطانيا، فكلتا القطرين يعارض "في أي تقوية لألمانيا وتثبيت مركزها" وهو لا يظن أن الإمبراطورية البريطانية "لا تنزعزع". والواقع أنه وجد كثيراً من مظاهر الضعف فيها. وهنا بدأ يجسّمها ويشرحها: المتاعب في أيرلندا والهند، المنافسة مع اليابان في الشرق الأقصى، ومع إيطاليا في البحر الأبيض المتوسط. ويبيّن أن فرنسا "في وضع أفضل من وضع بريطانيا لكنها ستواجه مصاعب سياسية داخلية" وعلى كل حال "فعلينا أن نعتبر (بريطانيا وفرنسا والإتحاد السوفياتي) قوى فعالة في حساباتنا السياسية".

وبناءً عليه: لا يمكن أن تحلّ مشكلة ألمانيا إلاّ بوسائل القوة، وهذا ما لا يمكن إلاّ بالتعرض الى المخاطرة، وإذا قبل المرء كأساس للشرح التالي- اللجوء الى القوة بما تتضمنه من مخاطر، لا يبقى إلاّ الإجابة على سؤالين "متى؟" و"أين؟" هنا ثلاث قضايا يجب التصدي لها بالشرح:

القضية الأولى: فترة ١٩٤٣-١٩٤٥

بعد هذا التاريخ لا يتوقع بالنسبة لنا إلاّ سوء الحال وترديها. إن تسليح الجيش البري والأسطول والقوة الجوية... بلغ التمام أو كاد. التجهيزات والأسلحة كلها حديثة وفي التأخير خطر إبطال إستعمالها. ولاسيما سرية "الأسلحة الخاصة" التي لا يمكن الاحتفاظ بها الى الأبد... إن قوتنا بالنسبة للآخرين قد تتناقص فيما يتعلق بالتسلح... والى جانب ذلك فالعالم يتوقع هجومنا وهو يزيد في تدابير المضادة سنة بعد سنة. وفي الوقت الذي يزيد الآخرون قوى دفاعهم نجد أنفسنا مضطرين الى إتخاذ خطة الهجوم.

لا أحد يدري اليوم كيف سيكون الموقف في سنوات ١٩٤٣-١٩٤٥ والأمر الوحيد المؤكد اننا لانستطيع الإنتظار أكثر من الآن. إن ظل الفوهرر حياً فإن تصميمه الثابت على حلّ مشكلة مجال ألمانيا الحيويّ سيكون على أبعد تقدير في فترة ١٩٤٣-١٩٤٥ إن ضرورة البدء بالعمل قبل هذه الفترة متأتية من القضيتين الثانية والثالثة:

القضية الثانية

إذا تطور التناحر الداخلي في فرنسا الى قيام أزمة داخلية تقوض الجيش الفرنسي تماماً وتجعله عاجزاً عن مواجهة ألمانيا في حربٍ عندئذ يحين وقت العمل ضد الشيكيين.

القضية الثالثة

إن اشتبكت فرنسا في حرب ضروس مع بلاد أخرى بحيث لا يعود في وسعها "مناجزة" ألمانيا... هدفنا الأول... يجب أن يكون القضاء على چيكوسلوفاكيا والنمسا في آن واحد حتى نبعد أي تهديد لجناحنا، في أي عملية محتملة ضد الغرب... فأن قضى على الچيكيين، وتحققت حدود هنغارية-ألمانية فيمكن الإعتماد على سلوك بولندي حيادي في حالة قيام حرب بين فرنسا وألمانيا.

لكن ما الذي ستفعله كل من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا والإتحاد السوفياتي؟ أجاب هتلر على هذا السؤال بإسهاب لأمزيد عليه. يعتقد "إن بريطانيا على وجه التأكيد، وفرنسا على أقرب الاحتمال قد نفضتا أيديهما من الچيكيين. إن المصاعب التي تفرضها الإمبراطورية عليها وإحتمال توريط نفسها مرة أخرى في متاعب حرب أوروبية إنما هي إعتبارات حاسمة تمنع إنكلترا في المساهمة في حرب ضد ألمانيا. وموقف بريطانيا هذا سيكون له تأثيره بالطبع على فرنسا وإن هجوماً فرنسياً دون مساندة بريطانيا يرافقه إحتمال صد الهجوم أمام تحصيناتنا الغربية، صعب الإحتمال. ولايتوقع أيضاً زحف فرنسي من هولندا وبلجيكا دون مساندة بريطانيا... من الضروري بطبيعة الحال أن نؤمن دفاعاً قوياً لحدودنا الغربية أثناء تنفيذ عملية غزونا للچيك والنمسا".

ثم راح هتلر يعدد بعض "المنافع المتأتية من ضمّ چيكوسلوفاكيا، والنمسا": حدود استراتيجية أفضل لألمانيا، تحرر القوات العسكرية ودفعها "لأغراض أخرى"، ضمّ حوالي إثني عشر مليوناً من "الألمان" مصادر قوت إضافية لحوالي خمسة أو ستة ملايين ألماني في الرايخ ورجال لتأليف ما يناهز إثنتي عشرة فرقة عسكرية جديدة.

نسي أن يذكر ما قد تفعله إيطاليا وروسيا وهو الآن يعود اليهما. كان يشك في إحتمال تدخل الإتحاد السوفياتي. وكذلك لن تعارض إيطاليا (نظراً الى موقف اليابان) - في القضاء على چيكوسلوفاكيا ولكن الشك مازال قائماً حول موقفها من ضمّ النمسا. إن ذلك يتوقف "بصورة جوهرية على بقاء الدوتشي في قيد الحياة".

ويسند هتلر (القضية الثالثة) الى أن فرنسا ستتورط في حرب مع إيطاليا. وهو صدامٌ يبني عليه آمالاً عراضاً- وأوضح أن هذا هو الذي أملى عليه سياسته في تطويل أمد الحرب الأهلية الإسبانية فقد أبقت إيطاليا مصطرعة مع فرنسا وبريطانيا وقدر أن الحرب فيما بينهما "لاشك تدنو" وقال أنه "عزم فعلاً على الإفادة منها" متى وقعت "في ١٩٣٨" ولم يبق غير مشهدين لها وأعلن ثقته في صمود إيطاليا أمام فرنسا وبريطانيا، بمساعدة ألمانية في شيء قليل من المواد الأولية.

"لو إستفادت ألمانيا من هذه الحرب لتسوية قضيتي چيكوسلوفاكيا والنمسا فأغلب الظن أن بريطانيا [التي هي في حرب مع إيطاليا] ستقرر ألا تخاصم ألمانيا. ولايحتمل قط أن تقوم فرنسا

بعمل شبه حربي ضدّ ألمانيا دون مساعدة بريطانيا.
إن موعد هجومنا على الجيك والنمسا يجب أن يتقرر بقيام الحرب الانكلو فرنسية- الإيطالية...
هذا الموقف المواتي... لن يتاح لنا ثانية... إن الوثوب على الجيك يجب أن يتم "بسرعة البرق
الخاطف".

وهكذا انفض الاجتماع في الثامنة والدقيقة الثلاثين. وخيم الليل مسدلاً ستاره الأسود على برلين
في يوم الخريف الموافق ٥ تشرين الثاني ١٩٣٧. ألقى بزهر النرد وأبلغ هتلر قراره الذي لا يقبل النقض
بالنزول الى ميدان حرب وجب عليهم إدارة دفتها. إن الفوهرر قال هذا بنصه، وقصه في (كفاحي)،
قال يجب ان يكون لألمانيا مجال حيوي في الشرق ويجب عليها أن تستعد لإستخدام القوة لتفوز به
إلاّ انه كان وقتئذ داعية سياسياً مغموراً وأن كتابه كان كما قال عنه الفيلد مارشال فون بلومبرگ
فيما بعد "يعتبر عند الجنود" قطعة دعاية تعود سعة إنتشارها الى بيعها بالإكراه" وهذا ما كان رأي
الكثيرين فيه.

على أن قادة (الفيرماخت) ووزير الخارجية زدودوا الآن بمواعيد تفصيلية للعدوان الفعلي على قطرين
جارين- عمل كانوا واثقين أنه سيجر أوروبا الى حربٍ وعليهم ان يكونوا على تمام الأهبة في سنة
١٩٣٨ القادمة أو على أبعد تقدير في ١٩٤٣-١٩٤٥.

لقد صدمتهم الحقيقة، لا بسبب اندهالهم من لا أخلاقية مقترحات زعميهم [يقدر ما تكشف عنه
مدونة هوسباخ] بل لأسباب أكثر عملية إن ألمانيا غير مستعدة لحرب عظيمة. وإن إثارتها لها قد
تنطوي على كارثة.

وعلى هذه الأسس تجرأ بلومبرگ وفريتش وثون نيوراث على الكلام وجادلوا في آراء الزعيم. فلم
يمض على ذلك ثلاثة أشهر حتى أعفي ثلاثتهم عن مناصبهم وتخلص هتلر من معارضتهم تلك التي
لاترقى الى حدّ المعارضة الحقيقية. [ولقد كانت آخر معارضة يجابهها طوال عهد الرايخ الثالث].
انطلق في طريق الفاتح، ليكمل رسالته فيما قدر له. وكان الطريق في مراحله الأولى أسهل مما تخيله
هو أو أي شخص آخر.

الفصل الثاني

فصل غريبٌ حاسم!

سقوط بلومبرگ وفريتش ونيوراث وشاخت

- ١ -

كانت صدمة عنيفة للبارون فون نيوراث الرقيق الطبع المجامل، حين أدرك قرار هتلر بإستخدام القوة المسلحة ضدّ النمسا وچيكوسلوفاكيا، حتى وان ورطت ألمانيا في حرب مع بريطانيا العظمى وفرنسا. ومع أنه عرف بضعف الخلق فقد قاسى جرأها عدة نوبات قلبية^(١).

ذكر بعدئذ في محاكمة نورمبرگ "لقد اضطربت نفسي إضطراباً شديداً لخطبة هتلر، لأنها نسفت من الأساس كل السياسة الخارجية التي إتبعتها بدأبٍ وحرص"^(٢). وبأدر وهو في وضعه العقلي رغم نوباته القلبية بالإتصال بالجنرال (فون فريتش) والجنرال (بيك) رئيس هيئة الأركان، بعد مرور يومين على إجتماع ٥ تشرين الثاني. وتبادل معهما الرأي فيما يمكن عمله "لحمل هتلر على تبديل آرائه" ويقول (هوسباخ) الذي حمل الى (بيك) تفاصيل خطبة هتلر. أن الأثر الذي أحدثته فيه كان "مدمراً حتى كاد يخرج من وعيه". وأتفق، أن يقوم (فريتش) بمقابلة هتلر ثانية ويبيّن إعتراضاته. مشيراً الى أن الإعتبارات العسكرية تجعل خطته غير ممكنة وسيعقبه (نيوراث) موضعاً للمرة الثانية المخاطر السياسية. أما (بيك) فقد أسرع يدوّن على الكاغد نقداً لاذعاً منطقياً لخطط الزعيم لم يطلع عليها أحد على ما يبدو- وكانت أولى علامات شقٍ فاصل في عقل وخلق هذا الجنرال النبيل الذي رحب بمجيء هتلر في البدء، وبذل حياته في الحتام بمحاولة فاشلة في تدميره.

وقابل الجنرال (فون فريتش) هتلر في ٩ تشرين الثاني ولم يحفظ تسجيل لحديثهما. ولكن الدلائل تشير الى إن قائد الجيش العام كرّر حججه العسكرية الداحضة لخطط الزعيم، ولم يظفر بباطل. فالزعيم ليس مستعداً لإحتمال معارضةٍ لا من القادة ولا من وزير خارجيته. ورفض مقابلة (نيوراث) وترك برلين الى عشه الجبلي برختسگادن لقضاء فترة راحة طويلة ولم يفلح نيوراث الذهاب اللبّ في مقابلته حتى أواسط كانون الثاني:

"في تلك المقابلة حاولت أن أبين له [من شهادة نيوراث في نورمبرگ] أن سياسته قد تؤدي الى

١- شهادة البارون فون ريتير Von Ritter وهو من اقرباء نيوراث [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج١٦ ص ٦٤٠]

٢- المرجع السالف.

حرب عالمية. واني لا اريد أن يكون لي شأن فيها... وجلبت إنتباهه الى مخاطر الحرب وويلاتها. والى تحذيرات الجنرالات الجديدة... ولما وجدته مصراً على رأيه رغم كل حججي أبلغته أن في إمكانه البحث عن وزير خارجية يخلفني"^(٣).

وكان ذلك طبق ما قرره هتلر وإن خفي عن نيوراث في حينه. فبعد أسبوعين ستحل ذكرى السنة الخامسة لتبوئه دست الحكم وهو ينوي أن يقرنها بعملية تنظيف منزلية لا تقصر على وزارة الخارجية بل تتعداها الى الجيش هاتان القلعتان المنيعتان اللتان احتكرتهما "رجعية" الطبقة العليا. وهي طبقة لا يثق بها من أعماق نفسه. ويشعر أنها لم تقبل به قبولاً تاماً ولا تفهم أهدافه قط بل وتقف عقبة في سبيل طموحه كما ظهر له مساء الخامس من تشرين الثاني بوقوف (بلومبرگ وفريتش ونيوراث) موقف المعارض منه وبالأخص السيدان الأخيران، أو ربما حتى بلومبرگ الطائع الذي يدين هتلر له بالكثير. من الضروري أن يُتبعهم به (شاخت) الفحل الذي لا يبارى، فيحيلهم الى التقاعد. ذلك لأن المالي البارع، والتحمس السابق للنازية وسند هتلر القوي كان قد سقط من عين الخطوة.

رأينا (شاخت) يوقف كل طاقاته وفنونه السحرية لتمويل تسليح هتلر السريع فاستخدم بوصفه وزيراً للإقتصاد ومفوضاً عاماً مطلق الصلاحية لإقتصاد الحرب، ما لا يحصى من الخطط والمشاريع الخيالية والبدع الإقتصادية وبضمنها آلة طبع الأوراق النقدية لتوفير المال اللازم للجيش والأسطول والقوة الجوية الجديدة، ولدفع قوائم المهمات والأسلحة. لكن للأمر حدوده، وإذا تعدى شاخت الحد سقطت البلاد في وهدة الإفلاس. واعتقد في ١٩٣٦ أن ألمانيا اقتربت من هذا الحد فحذر هتلر وگورنگ وبلومبرگ عبثاً، وإن كان الأخير وقف الى جانبه حيناً من الزمن. وعين گورنگ في أيلول ١٩٣٦ مفوضاً أعلى مطلق الصلاحية لتنفيذ مشروع السنوات الأربع الذي يرمي الى الهدف المستحيل، الى جعل ألمانيا مكتفية اكتفاء ذاتياً في غضون أربع سنوات. وهو هدف كان الدكتور شاخت يدرك إستحالته. وأصبح قائد (الوفتوافه) بالفعل دكتاتور ألمانيا الإقتصادي. ولشخص معتد بنفسه، طموح^(٤) كالدكتور شاخت محتقر جهل گورنگ الفاضح في أمور الإقتصاد، كان الوضع مما لا يمكن أن يحدث. وبعد أشهر من نزاع مرير بين هذين الرجلين العنيدين، طلب شاخت من الزعيم أن يضع إدارة السياسات الإقتصادية الباقية في يد خصمه وان يسمح له بالإستقالة من الوزارة. ومما زاد في خيبة أمله السلوك الذي سلكه عدد كبير من قادة الصناعة ورجال الأعمال الذين كانوا على حدّ قوله: "يتقاطرون حتى تكتظ بهم غرفة إنتظار گورنگ آمليّن الحصول على تعهدات حكومته في وقت كنت أحاول إسماع صوت العقل.

٣- المرجع السالف ص ٦٤١.

٤- يقول السفير الفرنسي الذكي الذي يعرفه جيداً في كتابه (السنوات الحاسمة ص ٢٢١). انه مرّ (بشاخت) زمن كان يحلم أن يخلف هينريغ في رئاسة الجمهورية بل سما به الخيال الى حدّ توقعه ان يستخلف هتلر "إن ساءت الأمور بالنسبة الى الزعيم".

كانت محاولة شاخت إسماع صوت العقل في جو ألمانيا النازية الصاخب عام ١٩٣٧ أمراً مستحيلاً. وبعد تبادله عدة لكلمات أخرى مع غورنغ خلال الصيف وادانته... "سياستك في التجارة الخارجية، سياستك في الانتاج، سياستك المالية كلها أخطاء في أخطاء" ثم أسرع الى (أوبرسالزبرگ) ليضع إستقالته الرسمية في يد هتلر. ورفض الزعيم قبولها بسبب رد الفعل السيء الأكيد الذي سيخلفه خروج شاخت، سواء في داخل ألمانيا أو خارجها. إلا أن الوزير المخذول أصر على إستقالته وأخيراً وافق هتلر على اعفائه بعد شهرين. وفي ٥ أيلول ترك شاخت دائرة في اجازة وقبلت إستقالته رسمياً في الثامن من كانون الثاني.

وبالحاح من هتلر بقي شاخت في الحكومة وزيراً بلا وزارة واحتفظ بمنصب محافظ بنك الرايخ. وبذلك بقيت المظاهر وخفف من شدة الصدمة على الرأي العام الألماني والعالمي. ومهما يكن فإن تأثيره على التسليح المجنوني ككايح سيارة (Brake) لم يعد له وجود. وإن كان بقاؤه في الحكومة وفي بنك الرايخ يمنح غايات هتلر السمعة والثقة اللتين يوحى بهما إسمه وفي الواقع انه كان بعد قليل سيبارك علناً وبكل حماسة أول عملية قطع طريق عدوانية صارخة يقدم عليها الزعيم، لأنه كان ثقیل النوم بطيء اليقظة على واقع الحياة مثل غيره من قادة الجيش وأضرابهم المحافظين الذين مثلوا أدواراً أساسية في تسليم ألمانيا الى النازيين.

وتولى (گورنک) شؤون وزارة الإقتصاد مؤقتاً. لكن في ليلة يوم من أواسط كانون الثاني ١٩٣٨ إلتقى هتلر بمحض الصدفة به (والتر فونك) في دار أوبرا برلين وابلغه عرضاً بأنه سيكون خليفة شاخت، لكن لم يتم في حينه تعيين هذا الشخص النكرة والقزم البدين والعبد الطائع. ويذكر القاريء انه مثل دوراً معيناً في توجيه إهتمام كبار رجال الأعمال نحو هتلر في أوائل العشرينات. وتأخر تعيينه لأن الأنظار توجهت فجأة الى أزمة ذات رأسين تفجرت حممها من قلب الجيش، ودفعته الى الملأ أمور معينة تتعلق بالجنس (بشكليه الشاذ والإعتيادي) وموطن العجب في الأمر أن يدي هتلر لعبت بهما مباشرة وعاونته على توجيه ضربة الى الطغمة العسكرية الارستقراطية العتيقة لم تصح منها وانما خلقت آثاراً مرعبة تعدت الجيش الذي فقد بسببها آخر مظهر من مظاهر إستقلاله بعد ان ظل حريصاً عليها حرص الغيور أثناء عهدي هوهنلون والجمهورية، تعدته الى ألمانيا والعالم أجمع.

سقوط الفيلد مارشال فون بلومبرگ

دون العميد (يودل) في يومياته بتاريخ ٢٦ كانون الثاني ١٩٣٨ بصيغة من التعجب والانذهال: "أي أثر عظيم يمكن أن تخلف المرأة في تاريخ بلاد ما (وإن لم تدرك هي ذلك) وبالتالي في تاريخ العالم! إن المرء ليشعر كأنه يعيش في ساعة فاصلة في حياة الشعب الألماني"^(٥). والمرأة التي يشير إليها هذا الضابط الركن الشاب اللامع وهي الأنسة (إرنا گروهن Erna Gruhn) ربما وجدت نفسها أبعد

٥- يوميات (يودل) (محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج ٢٨ ص ٣٥٧).

وآخر إمراة في ألمانيا يمكن أن تبلغ بالشعب الألماني إلى أزمة حادة في ختام عام ١٩٣٧ وتخلّف في تاريخهم أثراً عميقاً كما ذكر (العميد ألفريد يودل) وربما لم يكن ذلك ممكناً إلا في العالم المريض (السايكوباتي) الشاذ الذي تدور فيه أضيق حلقات الرايخ الثالث في ذلك الزمن.

كانت الأنسة (گروهن) سكرتيرة بلومبرگ. وفي عام ١٩٣٧ شعر بما يكفي من الحب لها ليسبني بها. وكانت زوجته الأولى بنت ضابط متقاعد تزوجها سنة ١٩٠٤، وتوفيت في ١٩٣٢. في تلك الأثناء كان أولاده الخمسة منها قد بلغوا أشدهم (بنته الصغرى تزوجت الإبن البكر للجنرال (كايتل Keitel) مساعده في ١٩٣٧ وقد ضاق ذرعاً بحياة الترمّل والوحدة فقرر أن الوقت حان ليتزوج ثانية. وكان يدرك أن زواج أقدم الضباط في الجيش الألماني العامل، بامرأة من عامة الناس لن يقع موقِعاً حسناً في نفوس هيئة الضباط المترفعة الارستوقراطية. لذلك لجأ الى (گورنگ) طالباً النصيح. فلم يجد گورنگ أي إعتراض يمنع الزواج فهو نفسه، ألم يتزوج بعد وفاة زوجه الأولى بممثلة مطلقة؟ لامحل في الرايخ الثالث للتمايز الإجتماعي والكفاءة التطبيقية التي تتمسك بها (هيئة الضباط). ولم يكتف گورنگ بتشجيع بلومبرگ بل أعلن إستعداده لتسهيل الأمور عند هتلر إن استدعى الأمر، وتطوع في مساعدته بأي شكل من الأشكال. ثم شاءت المقادير أن يكون عوناً بشكل آخر فقد أسرّ له الفيلد مارشال بأن ثم منافساً له على حبه ولم تكن هذه مشكلة عند گورنگ، فمزعجات كهذه في قضايا أخرى تتم تسويتها بالنقل الى معسكر إعتقال، وربما أراد گورنگ مماشاة أخلاق الفيلدمارشال العتيقة، فعرض أن يرحل المنافس المزعج الى أمريكا الجنوبية وفعل ذلك.

مع ذلك ظل بلومبرگ يشعر بقلق. وفي ١٥ كانون الثاني ١٩٣٧ دوّن يودل ملحوظة غريبة في يومياته: "الجنرال فيلد مارشال (بلومبرگ) في أعلى درجة من التوتر العصبي. ذهب الى محل مجهول في إجازة أمدها ثمانية أيام"^(٦). وفي ٢٢ كانون الثاني ظهر بلومبرگ ليلقي خطبة الوداع في جنازة (الجنرال لودندورف) في (فلدهرنهاله) بمونيخ. وكان هتلر بين المشيعين لكنه لم يخطب. كان بطل الحرب الراحل قد قطع كل صلة به منذ أن هرب لايولي أمام (فلدهرنهاله) بعد وابل رصاص أثناء إنقلاب مشرب البيرة. وبعد ختام التشييع فاتح بلومبرگ هتلر بمشروع زيجته، وطابت نفسه حين باركها هتلر.

وتم القران في ١٢ كانون الثاني ١٩٣٨ وحضره هتلر وگورنگ شاهدي زواج. وما كان العريسان يطيران الى إيطاليا لقضاء شهر العسل حتى وقعت الواقعة وانقضت كالعصف المأكول لاتبقي ولا تذو. قد تتسامح هيئة الضباط الصارمة وتتحمل صدمة زواج فيلدمارشالها بكاتبة إختزاله، إلا أنها غير مستعدة للرضى بزواجه من امرأة ذات ماضٍ كما انكشف ذلك بكل تفاصيله الشنعاء.

في البدء كانت إشاعات، مجرد نداءات تلفونية من مجهولات الى الجنرالات المتغطسين ترافقها

ضحكات الغواني، الظاهر أنهم كن يتصلن من مقاهي مشبوهة ونوادٍ ليلية سيئة السمعة فيقمن بتهنئة الجيش على سماحه بانضواء زميلة لهن الى صفوفه! وفيما كان أحد ضباط الشرطة الأخلاقية في دائرة شرطة برلين يحقق في تلك الإشاعات، وقع بمحض الصدفة على اضبارة كتب فوقها اسم "إرنا گروهن". فانتابه فزعٌ شديد وحملها على الفور الى رئيسه الكونت (فون هلدورف).

كان فون هلدورف من "المحاربين الأحرار" السابقين الغلاظ وأحد زبانية ال(إس. أي) أيام عزها. ومع ذلك فقد هاله الأمر لأن الدوسيه تثبت أن عروس الفيلد مارشال والقائد العام للقوات المسلحة "قحبة رسمية مسجلة". كما أنها حكمت بعقوبة لإمتهانها حرفة الوقوف أمام عدسة المصورين بأوضاع منافية للأخلاق وخلاعية. وظهر أن السيدة الشابة "الفيلد مارشالة" كانت قد نشأت في صالون تدليك تديره أمها، وإتفق في برلين أحياناً أن كانت هذه الصالونات مواخير معروفة مختصة بتعاطي البغاء.

من الواضح أن واجب (هلدورف) كان يلزمه برفع هذا الملف الى رئيسه مدير شرطة ألمانيا العام (هملر) ولكن كونه نازياً متحمساً. فقد كان سابقاً عضواً في هيئة الضباط العسكرية وقد تشرب بعض تقاليدها. كان يدري أن هملر غارق في نزاع دام مع قيادة الجيش العامة منذ ما يزيد عن سنة، وأن هذه القيادة صارت تعتبره خطراً عظيماً يفوق خطر (روهم). فإذا وضع الملف بيده فسيقع الفيلد مارشال تحت رحمته ويستخدم الوثائق كوسيلة لابتزازه وجعله آلة له ضد قادة الجيش المحافظين. فما كان منه إلا أن حمل أوراق الشرطة بشجاعة فائقة، الى الجنرال (كايتل) بدلاً من هملر ويظهر أن دوافعه الى هذا العمل هي اقتناعه بأن (كايتل) المدين لبومبرك برقيته الأخير في الجيش وبصلات القربى سوف يتدبر الأمر بحيث تقوم هيئة الضباط نفسها بتسوية القضية وكذلك لتحذير رئيسه من الخطر الذي يتهدهده. لكن (كايتل)، الطموح المتعجرف فضلاً عن ضعف عقليته وشخصيته الأخلاقية لم يكن ينوي المخاطرة بمستقبله بدخوله في متاعب مع الحزب وال(إس. إس) فبدلاً من تسليمها الى قائد الجيش (فريتش) اعادها الى (هلدورف) مقترحاً عرضها على (گورنگ).

لا يمكن أن يكون أي أحد أكثر سعادة من گورنگ بحيازته هذه الوثيقة فقد كان واضحاً تماماً أن إزاحة الفيلد مارشال الآن باتت أكيدة وكان من المنطقي أيضاً أن يخلفه هو في قيادة (القيروماخت) العامة. وهو الهدف الذي أضمره منذ أمد طويل. وقطع بلومبرك شهر العسل في إيطاليا وعاد الى ألمانيا لحضور جنازة أمه، وفي العشرين من كانون الثاني ظهر في مكتبه بوزارة الحرب لمزاولة عمله، وليس لديه أية فكرة عما تخبئه الأقدار.

ولم يطل به الأمر. في ٢٥ كانون الثاني وضع (گورنگ) الوثائق الدامغة أمام عيني هتلر الذي كان قد عاد من برختسگادن قبل بضعة أيام، وطارت نفس الزعيم شعاعاً وهاج هائج. لقد خدعه فيلد مارشاله وألحق به عاراً وجعله مهزأة بتوقيعه كشاهد رسمي على وثيقة الزواج. وسارع (گورنگ) بالموافقة على الإستنتاج وذهب ظهر ذلك اليوم لمقابلة (بلومبرك) شخصياً ومصارحته

بالأخبار. وبدا الفيلد مارشال مقتنعاً بالدلائل حول ماضي عروسه وأعلن إستعداده لطلاقها حالاً. لكن غورنغ أوضح بأدب أن الطلاق ليس بكاف فقيادات الجيش نفسها تطالب بإستقالته. وتكشف يوميات يودل بعدها بيومين أن الجنرال (بيك) رئيس هيئة الأركان أبلغ (كايتل): "المرء لا يمكن أن يتسامح بزواج أرفع جندي في البلاد بقحبة". وفي ٢٥ كانون الثاني علم (يودل) من (كايتل) أن هتلر عزل فيلد مارشاله. وبعدها بيومين ترك الضابط المعزول ذو الستين عاماً برلين الى كاپري Capri لإستئناف شهر العسل.

ولحق به مرافقه البحري الى هذه الجزيرة النائية جزيرة الرعاة، ليكتب آخر فصل غريب لهذه الدراما الفريدة من نوعها. أرسل الأميرال (رايدر) هذا المرافق المدعو الملازم فون فانغنهايم Von Wangenheim ليطلب من بلومبرگ المسارعة بطلاق عروسه حفظاً لشرف الجيش وهيئة الضباط وكان الضابط البحري الشاب شديد التحمس والصلافة فعندما مثل في حضرة العريس الفيلد مارشال تخطى حدود التعليمات المعطاة له، وبدلاً من طلب الطلاق إقترح على رئيسه الأسبق عملاً يقتضيه الشرف العسكري، وحاول أن يدس بيد بلومبرگ مسدساً. والظاهر أن الفيلد مارشال رغم سقوطه كان متعلقاً بالحياة- والواقع أن حبّه لعروسه مازال يعتلج في نفسه بصرف النظر عن كل ما حصل. فأبى أن يأخذ السلاح المقدم له. معقباً على هذا برسالة كتبها لـ(كايتل) توأ وقال فيها انه والضابط البحري الشاب "على طرفي نقيض في وجهات النظر الى الحياة ومقاييسها"^(٧).

وعلى كل حال. راح (الزعيم) يواعده بمنصب من أرفع الدرجات حالما ترم العاصفة. وبحسب رواية (يودل) في يومياته أن هتلر قال لبلومبرگ ساعة اعفائه من منصبه "ما ان تحين ساعة ألمانيا سيكون محللك الى جانبي وكل ما حدث في الماضي سيضيع في زوايا النسيان"^(٨). والواقع أن (بلومبرگ) كتب في مذكراته غير المطبوعة ان هتلر وعده في مقابلتهما الأخيرة "بأشد التأكيد" أنه سيعطى القيادة العليا لجميع القوات المسلحة عند وقوع الحرب^(٩).

هذا الوعد لم ينجزه هتلر كغيره من وعود كثيرة جداً. وشطب إسم الفيلد مارشال فون بلومبرگ نهائياً من سجل الجيش. وعندما نشبت الحرب وعرض نفسه، لم يلتفت اليه أو يعطي له أي منصب وبعد عودته الى ألمانيا إستقر هو وزوجه في قرية "فيسلي" الباقارية وعاشا منسيين تماماً حتى نهاية الحرب. وظل ملك إنكلترا السابق المعاصر له وفيماً الى الأخير لزوجه التي سببت سقوطه من حلق. وادركته المنية في ١٣ آذار ١٩٤٦ في سجن نورمبرگ أثناء إنتظار دوره للشهادة في المحكمة... رجلاً محطماً قليلاً يشير الشفقة والأسى.

٧- المرجع السالف الص ٣٦٠-٣٦٢.

٨- المرجع السالف ص ٣٥٧.

٩- تلفورد تايلر "السيف والصليب المعقوف الص ١٤٩-١٥٠" ان مذكرات بلومبرگ غير المطبوعة محفوظة في مكتبة الكونغرس.

سقوط الجنرال فرايهر فرنر فون فريتش

كان الجنرال - كولونيل فرايهر فيرنر فون فريتش القائد العام للقوات البرية والضابط اللامع العنيد من المدرسة القديمة [وصفه أمير البحر رايدر "بضابط ركن مثالي"] المرشح الأقرب ليخلف بلومبرگ وزيراً للحرب وقائداً عاماً للقوات المسلحة لكن (گورنگ) كان يطمع شخصياً كما رأينا بهذا المنصب الرفيع. وهناك بعض من يعتقد أنه دفع (بلومبرگ) عمداً للزواج بامرأة كان على علم مسبق بماضيها الأسود حتى يمهّد الطريق لنفسه بإزاحته. وان كانت الحقيقة كذلك فلاشك أن (بلومبرگ) لم يكن يدري. إذ انه اقترح على هتلر في الزيارة الوداعية (٢٧ كانون الثاني) أن ينصب (گورنگ) خلفاً له كأول المرشحين. على ان هتلر كان أعرف بزميله النازي القديم من اي شخص آخر فقال أن گورنگ كثير الإهتمام بنفسه وشؤونه يفتقر إلى الصبر والدأب. كذلك لم يمل الى تعيين الجنرال فون فريتش الذي لم تعجبه معارضته المشوبة بروح العظمة لخطئه في ٥ تشرين الثاني، ولم ينسها له، زد على ذلك فإن عدا (فريتش) للحزب النازي ولاسيما للحرس الأسود لم يكن موضع خفاء. وهي ظاهرة لم تشر إهتمام الزعيم وحده بل تعدته الى (هاينريخ هملر) قائد الحرس الأسود ومدير الشرطة الألمانية الذي كان قد وطّد العزم على إزاحة هذا الخصم العنيد الذي يقود الجيش البري^(١٠).

حانت فرصة هملر الآن، أو بكلمة أخرى فرصة خلق الفرصة فحرك خيوط مكيدة من الدناءة والشناعة حداً يصعب الإعتقاد بأنها ممكنة على الأقل في سنة ١٩٣٨ حتى في دولة العصابات ودنيا الحرس الأسود والحزب القومي الاشتراكي. والجيش؟ حتى الجيش الألماني الذي له تقاليده على كل حال - فقد كان الأمر يفوق إحتماله وبوروده في اعقاب فضيحة بلومبرگ، فجر قنبلة ثانية أعظم أثراً واشدّ دويّاً زلزلت أركان "هيئة الضباط" وصرعت أسسها وختمت على مصيرها.

في ٢٥ كانون الثاني وهو اليوم الذي أطلع فيه گورنگ هتلر على سجل سوابق عروس بلومبرگ. وضع أمامه أيضاً وثيقة أخطر منها. هذه الوثيقة قد تفرغ الى تدبيجها (هملر) ومساعدته الأول (هيدريخ) رئيس شرطة الأمن ورئيس دائرة إستخبارات الحرس الأسود، والقصد منها أن يلصق بالجنرال فون فريتش تهمة إرتكابه جرائم الشذوذ الجنسي مما يدخل تحت طائلة المادة (١٧٥) من قانون العقوبات الألماني وإلصاق تهمة دفع مبالغ من المال لمجرم ذي سوابق منذ سنة ١٩٣٥ درءً للفضيحة

١٠- في ١ آذار ١٩٣٥ وهو يوم أخذ الألمان منطقة السار، وقفت الى جانب (فريتش) في منصة التحية في ساربروكن مدة من الزمن قبل بداية الإستعراض ومع أنه لا يدري عني الا كوني مراسلاً من عدة مراسلين أمريكيين في برلين فقد راح يصب ناراً سائلة وحمماً من النكات اللاذعة والتعليقات الساخرة على الحرس الأسود والحزب وعدد من قادة النازي من هتلر فنانزلاً. ولم يكن يكتف إحتماره لهم جميعاً. انظر "يوميات برلين" ص ٢٧.

و ضماناً لسكوته. وبدت وثائق الغشتايبو مقنعة بحيث لم يسع هتلر إلا أن يصدق بصحة التهمة لم يفعل بلومبرگ شيئاً لدرء التهمة عن فريتش ربما إطفاءً لنار حقدته عليه للموقف الصارم الذي وقفه الجيش إزاءه بسبب زواجه. وعلق على الأمر بقوله أن فريتش "لم يكن زير نساء" وأضاف يقول أن الجنرال العازب طول حياته لا يستبعد أن "يستسلم إلى ساعة من الضعف".

واستفزع الأمر العقيد (هوسباخ) مرافق الزعيم واستهوله، وكان حاضراً عندما عرضت اضبارة الغشتايبو وتحدى أوامر هتلر بكتمان الموضوع عن (فريتش)، وأسرع حالاً إلى منزل قائد الجيش ليبلغه نبأ التهمة ويحذره من الهوة التي حفرت له^(١١).

صعق النبيل البروسي التزر الكلام برهة ثم انفجر صائحاً "مجموعة أكاذيب ننتة!" وبعد أن عاد إليه هدوءه أكد لرفيقه في السلاح بكلمة شرف أن التهم لا أساس لها البتة. وفي صبيحة اليوم التالي. تقدم (هوسباخ) دون وجل أو خوف من النتائج ليبلغ هتلر بزيارته لـ (فريتش). وليعلمه بإنكار الجنرال القاطع لهذه التهم وطلب من (الزعيم) أن يسمح بمقابلة له ويفرصة لإنكار التهمة بشخصه. ولدهشة (هوسباخ) وجد هتلر موافقاً واستدعى القائد العام للجيش الألماني إلى دار المستشارية لمعانة تجربة لم يهيئه لها تدريبه الطويل كاستوقراطي وضابط وسيد مهذب. وجرى الاجتماع في غرفة مكتبة المستشارية وفي هذه المرة كان كل من هملر وگورنگ موجودين. وبعد أن لخص (الزعيم) التهم أقسم فريتش بكلمة الشرف كضباط عسكري أنها غير صحيحة، لكن تأكيداً مثل هذا لم يعد له قيمة كبيرة في الرايخ الثالث. والآن جاء دور (هملر) الذي كان ينتظر هذه اللحظة طوال ثلاث سنين فقدم مخلوقاً مراوفاً ينم مظهره على التفسخ والفساد كان قد وضعه عند أحد الأبواب الجانبية. بل الأعجب إن لم نقل أخط مخلوق سمح له بدخول مكتب مستشار ألمانيا. واسمه (هانس شميدت Hans Schmidt) له قائمة بسوابق سجن طويلة تبدأ بالحجز في إصلاحية الأحداث من زمن الصبا. وقد ظهر أن اختصاصه الاجرامي الأصلي كان التجسس على المنحرفين جنسياً وتعقيبهم ثم ابتزاز المال منهم. وها هو الآن يقر بأنه يرى الجنرال فون فريتش الضابط العسكري الذي كبسه بجرم جنسي في زقاق مظلم بالقرب من محطة قطار (پوستدام) في برلين مع أحد المتحللين من رجال العالم السفلي يعرف بإسم "جو البافاري"^(١٢).

واصر (شميدت) بشدة أمام أقوى ثلاثة رجال في ألمانيا أن هذا الضابط كان يدفع له مالاً لإسكاته عدة سنين ولم يتوقف عن الدفع. إلا عندما طالته يد القانون مرة أخرى وقذفت به داخل أسوار السجن. بلغ الغيظ والحنق بالجنرال (فرايهر فون فريتش) حداً ألجم لسانه وحبس جوابه في حلقه. إن

١١- هذا ما كلف (هوسباخ) وظيفته بعد يومين فقط لا حياته كما يخشى فقد اعيد إلى هيئة أركان الجيش وارتفع شأنه أثناء الحرب حتى بلغ رتبة جنرال في صنف المشاة وقاد الجيش الرابع في الجبهة الروسية. ثم نحي فجأة بأمر تلفوني من هتلر في ٢٨ كانون الثاني ١٩٤٥. لسحب قوات جيشه خلافاً لأوامر الزعيم.

١٢- الإسم أورده كزيفيوس في "إلى النهاية المريعة" ص ٢٢٩.

منظر رئيس الدولة الألمانية، خليفة هندبرغ وآل هوهنزلرن وهو يقدم شخصاً مشبوهاً ومجرماً حقيراً في هذا المحل ولهذا الغاية كان أكثر مما يسعه احتمالاه. وساعد سكوته على إقناع (الزعيم) بجرمه فطلب منه تقديم إستقالته. فرفض فريتش ذلك وطالب بدوره تقديمه الى محكمة شرف عسكرية. الا أن هتلر لم يكن يشعر بأي رغبة في إيداع القضية الى الطبقة العسكرية في تلك اللحظة على الأقل. فهي فرصة قل أن وجود الدهر يمثلها ولن يدعها تفلت من يده فرصة يسحق بها معارضة الجنرالات الذين لا يحنون هاماتهم الى إرادته وعبقريته. فأمر (الجنرال) في التو أن يتمتع باجازة غير محدودة وهو ما يساوي إعفاءه من وظيفته: قيادة الجيش العامة. وفي اليوم التالي تداول هتلر مع (كايتل) حول تعيين خلف لا لبلومبرگ وحده بل لفريتش أيضاً. وراح (يودل) الذي كان مصدر معلوماته الرئيس (كايتل) يطرز يومياته بالخواطر والمذكرات وكلها تشير الى قرب حصول غربة كبيرة لا في صفوف قيادات الجيش بل في كل تشكيلات القوات المسلحة. مما سيؤدي الى كسر شكيمة العسكريين.

هل سينزل الجنرالات الأقدمون عن سلطاتهم التي وان لم تكن بالمطلقة، فهي آخر سلطة بقيت خارج قبضة هتلر؟ بعد أن عاد (فريتش) من تجربته القاسية في مكتبة المستشارية الى شقته في بندلرستراسه Bendlerstrasse سارع يتصل بالجنرال (بيك) رئيس هيئة الأركان. ذكر بعض المؤرخين الإنكليز^(١٣) أن (بيك) ألح عليه أن يقوم بانقلاب عسكري ضد حكومة هتلر حالاً، فرفض (فريتش). إلا أن (فولفغانك فورستر) كاتب سيرة حياة (بيك) الذي يحتفظ بأوراق الجنرال لا يقول أكثر من أن (بيك) قابل هتلر في ذلك اليوم المشهود في مبدأ الأمر، فاطلعه هذا على التهم ثم قابل فريتش فأنكر ما نسب اليه، ثم أسرع في ساعة متأخرة من الليلة ذاتها الى هتلر ليعرض مطلباً واحداً فقط. وهو أن يمنح قائد الجيش فرصة لتبرئة نفسه أمام محكمة شرف عسكرية. وأوضح مؤرخ حياة (بيك) بشكل لا يدع مجالاً للبس أن الجنرال لم يكن قد وصل بعد الى تفهم تام لطينة حكام الرايخ الثالث، وهو ما توصل اليه بعد زمن عندما فرط الأمر ولم يعد ممكناً القيام بشيء. وبعد بضعة أيام. عندما فرط الأمر أيضاً ولما لم يبق الأمر على إخراج بلومبرگ وفريتش بل تعداه الى إحالة ستة عشر جنرالاً أقدم على التقاعد ونقل أربعة وأربعين الى قيادات أقل أهمية، اذ ذاك طفق (فريتش) وزملاؤه الأقربون ومنهم (بيك) يفكرون في عمل عسكري مضاد تفكيراً جدياً. لكنهم سرعان ما نبذوا الفكرة الخطرة. يقول فورستر "كان واضحاً لهؤلاء الرجال أن إنقلاباً عسكرياً إنما يعني حرباً أهلية، ولم يكونوا واثقين من النجاح فيها" وهناك أيضاً تبرز كما برزت دائماً طبيعة الجنرالات الألمان ويرى هذا الكاتب الألماني أنهم خافوا لا من تصدي قوة غورنغ الجوية وقوة (رايدر) البحرية وحدهما (وكلا القائدين أطوع للزعيم من النينان) بل ان يحجم الجيش نفسه بعض الشيء عن مساندة قائد العام المعزول^(١٤).

١٣- بوللوك المرجع السالف ص ٣٨١ وهويلر بينيت: Nemesis ص ٣٦٩.

١٤- فولفغانك فورستر: "المرجع السالف الص ٧٠-٧٣.

على كل، أتاحت فرصة واحدة أخيرة لقادة ضباط الجيش فكالوا ضربة مقابلة لهتلر بدورهم. إذ قام الجيش بالتعاون مع وزارة العدل بتحقيق إبتدائي، سرعان ما أثبت بالدليل القاطع أن الجنرال فون فريتش كان الضحية البريئة لمكيدة الكشتاپو التي دبرها كل من (هملر وهيدريخ). لقد وجد أن المجرم السابق (شميدت) فاجاً ضابطاً من ضباط الجيش ملتبساً بعمل جنسي شاذ في خبايا محطة قطار بوتسدام. وراح يعتصر المال منه أعواماً. لكن إسمه كان (فريش Frisch) وليس (فريتش Fritsch) وهو ضابط خيالة متقاعد طريح الفراش من مرض عضال ورد إسمه في قائمة سجل الضباط هكذا "رتمايستر فون فريش Rittmeister Von Frisch" هذا ما كان الكشتاپو واقفاً عليه، لكنه أوقف (شميدت) وهدده بالموت إلا إذا رضي بآتهام القائد العام. واعتقلت شرطة الأمن (رتمايستر) العليل ايضاً، حتى تمنعه من الكلام. لكنه انتزع هو وشميدت أخيراً من مخالب الكشتاپو ووضعهما الجيش في مكان أمين حتى يتمكنوا من الشهادة أمام محكمة الشرف العسكرية التي ستعقد ل(فريتش).

وشاع الفرع في قادة الجيش القدماء لا بسبب ثأرهم لقائدهم العام وإعادته الى قيادة الجيش. بل لأن دسائس الحرس الأسود والكشتاپو ومكائد هذين المتحللين خلقياً هملر وهيدريخ اللذين يسيطران على البلاد دون رادع سيقضى عليها وسيذهبان مع الحرس الأسود في الطريق التي سلكهما من قبلهما (روهم) وحرسه ال(إس. أي) قبل أربع سنوات. ستكون ايضاً ضربة للحزب ولهتلر نفسه. وستتصدع أسس الرايخ الثالث بقوة قد تقضي على الزعيم نفسه وتكون بها نهايته. وإذا حاول التستر على الجريمة فسيقوم الجيش نفسه بضمير مرتاح وبعد ظهور الحقيقة جلية بإعادة الأمور الى نصابها. لكن الجنرالات عادوا ليقعوا في أحبولة نائب العريف النمساوي السابق مرة أخرى كما وقعوا مراراً خلال السنوات الخمس المنصرمة فهزموا هزيمة تامة بحكم القدر الذي يعرف الزعيم كيف يستفيد منه ويستخدمه لأغراضه - وإن جهلوا.

كان توتر يسود برلين طوال الأسبوع الأخير من شهر كانون الثاني ١٩٣٨ يذكر المرء بالتوتر الذي سادها في أواخر حزيران عام ١٩٣٤. وعادت العاصمة توج بالشائعات. [عزل هتلر رؤوس الجيش الكبار لأسباب مجهولة. الجنرالات يعلنون ثورة. إنهم يدبرون إنقلاباً عسكرياً.] وما الى ذلك وسمع السفير فرانسوا-بونسيه أن (فريتش) قد أعتقل، [وكان الجنرال قد دعاه الى عشاء في الثاني من شباط ثم ألغى الدعوة]. وانطلقت أنباء مفادها أن الجيش قد اختط لتطويق الرايخشتاغ عندما يلتئم لسماع خطبة هتلر بمناسبة الذكرى الخامسة لتوليته السلطة في ٣٠ كانون الثاني، وإلقاء القبض على كل أعضاء الحكومة النازية ونوابها المعينين، وزاد الإهتمام بأمثال هذه الشائعات عندما أعلن أن إجتماع مجلس الرايخشتاغ قد أرجيء الى أجل غير مسمى. لاشك أن الدكتاتور الألماني يعاني صعاباً. لقد لقي نداءً أخيراً مثلاً بجنرالات الجيش الألماني الأقدمين غير المتصاعرين. أو هكذا ظنوا هم بأنفسهم إلا أنهم كانوا مخطئين.

في الرابع من شباط ١٩٣٨ اجتمعت الوزارة في جلسة تبيّن فيما بعد انها الأخيرة. ومهما عانى هتلر من مصاعب فهو الآن قد تغلب عليها بشكل ضمن القضاء على أولئك الذين وقفوا في سبيله لا في الجيش وحده بل في وزارة الخارجية أيضاً. أسرع بإمرار مرسوم من الحكومة في ذلك اليوم وأعلنه للبلاد والعالم على الأثير قبل نصف الليل بقليل واليك مطلعته:

"من الآن فصاعداً سأتسلم شخصياً قيادة كل القوات المسلحة"

كان هتلر بطبيعة الحال القائد الأعلى للقوات المسلحة بحكم منصبه كرئيس للدولة. لكنه الآن تولى وظيفة بلومبرگ أي القيادة العامة. وألغى وزارة الحرب التي كان العريس العاشق الولهان يشغلها ايضاً وإستحدث عوضاً عنها هيئة كتبت لها شهرة في العالم أثناء الحرب العامة الثانية وهي (القيادة العليا للقوات المسلحة Oberkommando der Wehrmacht) عُرِفَت بـOKW اختصاراً) تخضع لها القوات المحاربة الثلاثة البرية والبحرية والجوية. وهتلر قائدها الأعلى ويليهِ رئيس هيئة الأركان بالعنوان الفخم "رئيس هيئة القيادة العليا للقوات المسلحة" وهو المنصب الذي أسند إلى الإمعة (كايتل) وقد ظل حريصاً عليه حتى النهاية.

ولكي يواسي هتلر مشاعر (گورنگ) الجريحة (لأنه كان واثقاً من إستخلافه بلومبرگ) رقاها الى رتبة فيلد مارشال. وبذلك جعله أعلى ضابط في الرايخ ويظهر أن ذلك سرّه جداً ولكي يهديء من قلق الجمهور أعلن هتلر ان (بلومبرگ وفريتش) قد إستقالا "لأسباب صحية" وهكذا تخلص من (فريتش) بصورة نهائية حتى قبل إجراء محاكمته أمام محكمة الشرف العسكرية التي كان واثقاً انها ستبريء ساحته. لقد بدا هذا أشبه بالفضيحة لدى القادة الأقدمين ولكن ما باليد حيلة فقد احيل الى التقاعد بالمرسوم نفسه ستة عشر جنرالاً. من بينهم (فون روندشدت) والجنرال فون ليب Von Leeb والجنرال (فون فتنزليين) والجنرال (فون كلوگه Von Kluge) والجنرال (فون كلايست Von Kleist) وأعفوا من قيادتهم، وهناك أربعة وأربعون جنرالاً آخرون عدوا أقل من متحمسين في إخلاصهم للنازية فنقلوا الى مناصب أخرى غير قيادية.

وبعد أن تردد هتلر قليلاً إختار الجنرال (فالتر فون براوختش Von Brouchitsch) خلفاً لفريتش في قيادة الجيش. وكان ذا سمعة طيبة عند الجنرالات لكن اتضح أنه لايقبل عن بلومبرگ ضعفاً وتبصّبصاً عندما كان الأمر يتطلب الوقوف بحزم أمام مزاج هتلر الحاد وإندفاعه. وبدا خلال أيام قليلة من الأزمة العامة أن مشكلة جنسية أخرى ستثبت لزوم الإستغناء عن (براوختش) كما جرى لبلومبرگ وفريتش من قبله لأن هذا الضابط كان على وشك ان يطلق زوجته وهو عمل تنكرت له الارستوقراطية العسكرية ودون (يودل) المتسقط للأنباء جوانب التعقيد في القضية فكتب في ٣٠ كانون الثاني ما يفيد أن (كايتل) قابل ابن (براوختش) "حتى يرسله الى أمه [ليحملها على القبول بالطلاق]" وبعد بيومين نوه بإجتماع جرى بين (كايتل) و(براوختش) وبين گورنگ "لبحث موقف الأسرة" ووعد

(گورنگ) الذي يبدو أنه نصب نفسه حلاً لمشاكل الجنرالات الجنسية أن ينظر في الأمر وفي اليوم نفسه دون (يودل) في يومياته "ابن براوختش يعود برسالة كريمة جداً من أمّه" وفحواها أنها لن تقف في سبيل زوجها. ولم يكن في وسع گورنگ ولا هتلر إلا أن يوافقا على طلاق حصل قائد الجيش عليه فعلاً بعد أشهر قليلة من تسلمه مركزه الجديد ذلك لأن كليهما يعلمان أن السيدة شارلوت شميدت Frau Charlotte Schmidt التي يريد أن يتزوجها براوختش كانت كما قال عنها (أولريخ فون هاسل) "نازية مسعورة مائتين بالمائة!" وتم هذا الزواج في الخريف التالي. وبرهن على مصادفة أخرى لنفوذ المرأة في التاريخ. كما لا يستبعد أن دون (يودل) ذلك في يومياته^(١٥).

ولم يكن "التنظيف المنزلي" الذي أجراه هتلر في ٤ شباط قاصراً على الجنرالات فقد كنس أيضاً (نيوراث) من وزارة الخارجية ونصب في محله (ريبنتروب) الضحل المتبصبص^(١٦) وأعفى دبلوماسيين قديمين عن منصبيهما وهما (أولريخ فون هاسل) السفير في روما، و(هربرت فون ديركسن Herbert Von Dirksen) السفير في طوكيو، كذلك عزل (پاپن) من منصبه في فيينا. وعين الضعيف المذبذب (فونك) وزيراً للإقتصاد في محل (شاخنت).

وفي اليوم التالي (٥ شباط) ظهر عنوان ضخم يجلب الإنتباه، في صدر صحيفة (فولكشر بيوباختر) هذا هو:

"أقوى تركيز لكل السلطات في يد الزعيم!"

وهذه هي المرة الوحيدة في حياة تلك الصحيفة لم تنطق فيها عن الهوى ولم تبالغ.

كان الرابع من شباط ١٩٣٨ نقطة تحول كبيرة في تاريخ الرايخ الثالث، ومرحلة من مراحل الطريق الى الحرب. في ذلك اليوم يمكن القول ان الثورة النازية بلغت خاتمته. لقد تمّ كنس آخر وجبة من المحافظين الذين وقفوا في وجهه أثناء ما هو منطلق في سبيل كان قد عقد عزمه عليه ما ان تبلغ ألمانيا الكفاية من التسليح. كان (بلومبرگ وفريتش ونيوراث) ممن عينهم هندنبرغ ومحافظو المدرسة القديمة في مناصبهم حتى يقفوا سداً أمام إندفاعات النازي ثم ألحق بهم (شاخنت). على انهم لم يثبوا

١٥- يرى ملتن شولمان (الاندحار في الغرب) ص ١٠، ان هتلر نفسه تدخل لإقناع السيدة براوختش باعطاء موافقتها على الطلاق وساعد في تأمين تسوية مالية لها جعل قائد الجيش مديناً له بفضل ومنة. ويسند شولمان مصدر معلوماته الى تقرير لدائرة إستخبارات الجيش الكندي.

١٦- استحدث هتلر بإقتراح من گورنگ، ولأجل تحويل الإهتمام وصرف الأنظار عن الأزمة العسكرية القائمة، وحفظاً لما وجه (نيوراث) وإبقاء لمكانته في الداخل والخارج- ما دعي (بمجلس الوزراء السري) الذي مرّ الحديث عنه. وذكر مرسوم إنشائه المؤرخ ٤ شباط أن الغرض منه تقديم المشورة في السياسة الخارجية، وعين (نيوراث) رئيساً له. ومن أعضائه (كايتل) والقادة الثلاثة للقوات المسلحة. وأهم الوزراء في مجلس الوزراء الإعتيادي وعدد من كبار زعماء الحزب النازي. وقد طبعت له أجهزة دعاية غوبلز وزمرت كثيراً وأصعدته الى السماكين وجعلته يبدو وكأنه مجلس وزراء أعلى، وان نيوراث قد رقي فعلاً. وشهد گورنگ في نورمبرگ محلفاً "في الواقع لم يكن لمثل هذا المجلس وجود قط، إلا أن المصطلح جميل جذاب جداً حتى ليتوهم المرء أن شيئاً حقيقياً يكمن تحته... اني اقر وقد حلفت يميناً- لم يكن لمجلس الوزراء السري وجود قط ولو لدقيقة واحدة". (محاكمة مجرمي الحرب الكبار: ج ٩ ص ٢٩٠).

أنداداً لهتلر في الكفاح للهيمنة على السياسة الخارجية والإقتصادية والسلطة العسكرية في ألمانيا. لم يكن يملكون لقراعه لا القوى الخلقية ولا ذلك المكر السياسي لقراعه، دحك من الغلبة عليه. إستقال (شاخ) ونحي (نيوراث) جانباً وطلب بلومبرگ بضغظ من إخوانه الجنرالات إحالته الى التقاعد. وفريتش؟ مع انه وقع ضحية مكيدة دبرتها له زمرة من الأندال، فقد رضي بما قسم له دون أن يظهر منه تحدّ. وقبل ستة عشر جنراً أقدم أوامر طردهم بخنوع مع أمر طرده. كان ثم حديث في هيئة الضباط عن إنقلاب عسكري لكنه مجرد كلام فحسب. إن احتقار هتلر لطبقة العسكريين البروسيين، الذي ظلّ يلازمه الى آخر نسمة من حياته، بررته له الأيام واثبتت مسوغاته. لقد برهن على هذا الاحتقار بقتله فون شلايخر وفون بريدوف الذي تمّ علناً ورسمياً دون أن تند تلك الطبقة نامة أو مشرحة إحتجاج، وهي الآن تزدرد بقلة اكرات طرد ستة عشر جنراً أقدم من أعضائها. ألا تعج برلين بالجنرالات الصغار المتلهفين ليحلوا محلهم، المتشوقين الى خدمته؟ إين هو اذن التبجح بكتلة ضباط الجيش المتراصة؟ أولم تكن حديث خرافة؟

ظل الجيش خمس سنوات حتى يوم الشتاء هذا الرابع من شباط ١٩٣٨، يجمع في يده القوة الطبيعية لإسقاط هتلر والرايخ الثالث وكانت بيده أيضاً في ٥ تشرين الثاني لما علم الى أين يقوده ويقود الوطن معه، فلماذا لم يفعل؟ زودنا (فريتش) نفسه بالجواب بعيد سقوطه. ففي نهار الأحد الموافق ١٨ كانون الثاني ١٩٣٨ دعا السفير المعزول (فون هاسل) الى القصر الذي وضعه الجيش تحت تصرفه بعد تقاعده في (آختربرگ Achterberg) بالقرب من (سولتا Soltau). ودون (هاسل) في يومياته "خلاصة وجهات نظره. هذا الرجل (هتلر) هو مصير ألمانيا شراً كان أو خيراً. فإن إنحدر الآن الى الهاوية- وهو ما يؤمن به فريتش- فيسجرنا معه اليها جميعاً. وما باليد حيلة تنفع" (١٧) بعد تركيز السياستين الإقتصادية والعسكرية في يده ووضع الجيش والقوات المسلحة تحت قيادته المباشرة إنطلق الآن في مسيرته لايلوي. لقد تخلص من فريتش دون إتاحة فرصة استنقاذ إسمه وتبرئة نفسه وبعد تأخير وتردد منحه الفرصة المنشودة بتشكيل محكمة شرف عسكرية للنظر في القضية. وجلس الفيلد مارشال (گورنگ) في مقعد الرئاسة والى جانبه القائدان العامان للجيش والأسطول الجنرال فون (براوختش) وأمير البحر (رايدر) وقاضيان مدنيان من محكمة الحرب العليا.

وكانت المحاكمة سرية ومنع الناس ومراسلو الصحف من حضورها. وقد بدأت في ١٠ آذار ١٩٣٨ ثم أجلت على حين غرة قبل أن ينتهي دوام اليوم. ففي ساعة متأخرة من ليلة أمس وردت أنباء من النمسا اسلمت (الزعيم) الى واحدة من أعظم نوبات هياجه (١٨). واستدعي الفيلد مارشال (گورنگ) والجنرال فون براوختش على الفور للحاجة الماسة اليهما في محل آخر.

١٧- يوميات فون هاسل، ١٩٣٨-١٩٤٤ ص ٢٣

١٨- عندما وصل باين الى المستشارية في برلين. بعد ست وثلاثين ساعة من هذا الوقت وجد هتلر مازال في "حالة قريبة من الهستيريا" (باين: اليوميات ص ٤٢٨).

الفصل الثالث

الأنشلولس ANSCHLUSS (الوحدة)

إغتصاب النمسا

- ١ -

في أواخر عام ١٩٣٧ نُقل محل عملي الى برلين بسبب تغيير في وظيفتي، من مراسل صحيفة الى مراسل إذاعة. ولقد عرفت فيينا منذ كنت مراسلاً فنياً قبل عشر سنوات. ومع أنني كنت سأمضي معظم السنوات الحرجة الثلاث التالية في ألمانيا فإن وظيفتي الجديدة التي اقتضتني تغطية كل القارة الأوروبية وزودتني بمعرفة عن الرايخ الثالث ووضعتني في تلك البلاد المتاخمة التي ستقع ضحية العدوان الهتلري، قبيل بدء ذلك العدوان أو في أثنائه. وكنت في تلك الأيام أتجول ذاهباً آيماً بين ألمانيا وتلك البلاد التي باتت هدفاً لسخط هتلر وثورته وبهذا جمعت تجارب ومعلومات أولية عن الأحداث التي سأصفها الآن، تلك الأحداث التي أدت بلا رحمة الى أعظم حرب دموية عاناها بنو البشر ومع أننا كنا واقعين على أوليات تلك الأحداث، إلا أن ما يورثنا أعظم الدهشة والعجب تفاهة ما عرفناه عن كيفية وقوعها. إن الدسائس والمناورات وصنوف الغدر والقرارات الباتة ولحظات الحيرة وعدم الوصول الى قرار والمقابلات الروائية للمشاركين فيها صورت مجرى الأحداث ووقوعها في السر وراء الستار بعيداً عن عيون الدبلوماسيين والمراسلين والجواسيس الأجانب الدائمة التلصص والاستطلاع. كل ذلك بقي سنين بطولها غير معروف من أحدٍ خلا القلة التي ساهمت فيها.

كان ينبغي لنا أن ننتظر ركام الوثائق السرية وشهادات أبطال الرواية الباقين في قيد الحياة - ومعظمهم كانوا سجناء - وعدد كبير منهم كانوا نزلاء معسكرات الاعتقال النازية ليقصوا علينا قصتهم. اذن فما سيتلو من هذه الصفحات سيكون مستنداً غالباً على أكداس من الدلائل الثابتة التي تراكمت منذ العام ١٩٤٥ ولكن ربما كان الأفضل لرواية هذا التاريخ أن يكون موجوداً بشخصه وفي وسط أزماته العظمى ونقاط تحولاته، وهكذا وضعتني الصدفة في فيينا في ليلة ١٢/١١ من آذار ١٩٣٨ التي لانسى، ليلة أزيلت بلاد النمسا من الوجود.

بقيت مدينة فيينا أكثر من شهر نهبه قلق ممض - تلك العاصمة الجميلة على الدانوب بأهاليها الأكثر جاذبية ولطفاً وعبقرية في التمتع بالحياة من أي مجتمع بشري عرفته. وكان الدكتور (كرت فون شوشنك) المستشار النمساوي سيذكر فيما بعد الفترة المنحصرة ما بين ١٢ شباط و ١١ آذار مطلقاً عليها "أربعة أسابيع آلام الإحتضار" ومنذ أن أبرمت المعاهدة الألمانية - النمساوية في ١١ تموز

١٩٣٦ بإمتيازات سخية جداً للنازيين النمساويين^(١) في ملحق سري للمعاهدة وفرانز فون باين سفير هتلر فوق العادة في فيينا، يواصل مجهوداته للقضاء على إستقلال النمسا وتحقيق الوحدة مع ألمانيا. وقد شرح مقدار تقدمه في هذا المجال، بتقرير طويل للزعيم في ختام ١٩٣٦، وكرر العمل عينه في السنة التالية وشدد القول هذه المرة "بدون ممارسة ضغط على المستشار الإتحادي [شوشنك] بأقوى ما يمكن لا يمكن تحقيق تقدم آخر"^(٢). ومع أن نصيحته لم تكن ضرورية، إلا أنها أخذت مأخذاً حرفياً بشكل فاق كل تصوراته.

كانت برلين تشجع النازيين النمساويين وتزودهم بالمال طوال ١٩٣٧، وتجعلهم يتمادون في حملة إرهابهم. فكانت القنابل والمتفجرات تلقى في موضع ما من القطر كل يوم تقريباً. وفي الأقاليم الجبلية كثيراً ما كانت المظاهرات الجماهيرية العنيفة التي ينظمها النازيون تضعف موقف الحكومة وتقلل من هيبتها. وكشف عن مخططات دلت على أن النازيين يتهيأون لإغتيال (شوشنك) كما فعلوا بسلفه. أخيراً قام رجال شرطة فيينا في ٢٥ كانون الثاني ١٩٣٨ بغارة على مقر عصابة تطلق على نفسها "لجنة السبعة" تألفت لغرض تحقيق السلام بين النازيين والحكومة في الظاهر، إلا أنها كانت في الحقيقة الدائرة المركزية للحزب النازي السري غير المجاز ووجدت السلطات في كبسها هذا الوكر وثائق موقعة بتوقيع (رودولف هس) نائب الزعيم وأيدت أن النازيين النمساويين في سبيل إشعال ثورة في ربيع ١٩٣٨، وعند محاولة (شوشنك) قمعها، يبادر الجيش الألماني بدخول النمسا لمنع "سفك الألمان دم الألمان" ويذكر باين أن بعض تلك الوثائق خططت لقتله أو قتل اللفتنت جنرال (موف Muff) ملحقه العسكري على يد النازيين المحليين لإتخاذ حجة للتدخل الألماني^(٣). وإذا بات باين المتسامح أقل إرتياحاً من العادة بعد علمه أن النازيين قرروا إغتياله مرة أخرى بناءً على أوامر قادة الحزب في برلين فكذلك كان مغتماً بسبب نداء تلفوني جاءه إلى دار السفارة الألمانية في فيينا مساء يوم ٤ شباط وكان المتكلم وكيل وزارة الخارجية (هانز لامرز Hans Lammers) من دار المستشارية ليعلمه أن بعثته الخاصة في النمسا قد انتهت. وأنه مقال من منصبه مع نيوراث وفريتش والآخرين.

ذكر باين فيما بعد "عقلت الدهشة لساني"^(٤) ثم صفا ذهنه بالقدر الذي جعله يدرك أن هتلر قرر على ما يبدو- القيام بعمل أعنف وأشد في النمسا بعد أن تخلّص من (نيوراث وفريتش وبلومبرگ) في الواقع كان ذهن باين قد صفا إلى حدٍ قرر معه القيام "بشيء غير مسبوق من ديبلوماسية" كما عبر عنه بأسلوبه. عزم أن يحفظ نسخاً طبق الأصل من كل مراسلاته مع هتلر في "محل أمين" ولم يكن غير سويسرا كما ظهر فيما بعد. يقول باين "إن حملات القذف والتشهير التي يضطلع بها الرايخ

١- تقرير إلى هتلر ٢١ كانون الثاني ١٩٣٧ [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ١ ص ٨٦].

٢- انظر ما سبق.

٣- باين المرجع السالف ص ٤٠٩.

٤- باين المرجع السالف ص ٤٠٦.

الثالث، أعرفها معرفة تامة" ولقد رأينا كيف أنها كادت تكلفه حياته في ١٩٣٤.

وعزلُ باين هو تحذير لشوشنك الذي لم يكن يثق ثقة تامة بضابط الخيالة السابق المخاتل، إلا أنه كان سريع الإدراك بأن هتلر لا يد يبيّت أمراً أسوأ من ابتلائه بسفيره المخادع، الذي هو على الأقل كاثوليكي تقيّ مثله وسيد مهذب. لم يكن مجرى الدبلوماسية الأوروبية في صالح النمسا خلال الأشهر القلائل الماضية. فموسوليني اقترب كثيراً من هتلر منذ إقامة محور (روما-برلين) ولم يعد كثير الإهتمام بالمحافظة على إستقلال هذا القطر الصغير كما كان وقت مقتل دولفوس، حيث بادر الى تحشيد أربع فرق في ممر (برنر) لتخويف الزعيم. كذلك الأمر مع بريطانيا التي باشرت عند مجيء (جمبرلين) في سياسة مصانعة لهتلر. كذلك لم تظهر فرنسا مؤخراً شدة إهتمام بالدفاع عن النمسا، إن ضرب هتلر ضريته وهي مشغولة في تناحر سياسي خطير داخلي. والآن بعد ذهاب باين وزعماء الجيش ووزارة الخارجية الألمان المحافظين، من بقي في الميدان من هو قادر على كبح جماح طموح هتلر المتفاقم؟ إن (شوشنك) الذي كان ضيق التفكير ولكنه ذكي ضمن حدوده وعلى معرفة موثوقة بما يضمّر لبلاده، لم يداخله شك كثير من موقفه السيء. لقد حان الوقت كما حان من قبل بعد أن صرّح النازيون دولفوس- ليتقدم بتنازل آخر للدكتاتور الألماني.

ومع أن باين قد أعفي من الوظيفة فإنه قدم إقتراحاً فيه فرصة. ولما لم يكن من صف الرجال الذين يحققون على لظمة تأتيمهم من المافوق فقد أسرع الى هتلر في ذات اليوم الذي تم عزله "ليكون له صورة عما يحدث"، وفي ٥ شباط وجد الزعيم في برختسگادن "مرهقاً ساهماً" من فرط كفاحه مع الجنرالات. لكن مقدرة هتلر على لمّ شتات نفسه كانت عظيمة. إذ ما لبث أن وجد نفسه مهتماً بإقتراح عرضه عليه سفيره المعزول، وكان قد فاتحه به قبل أسبوعين عندما تقابلا في برلين: لم لاتبحث الأمور صراحة مع (شوشنك) بالذات؟ لم لا يدعى الى زيارة برختسگادن لمحادثة شخصية؟ وجد هتلر الفكرة جيدة. فأمر باين- ناسياً قصة إقصائه من منصبه بالعودة حالاً الى قيينا وتدبير الاجتماع.

بادر (شوشنك) الى الموافقة في الحال لكنه وضع شروطاً معينة- إدراكاً منه لضعف مركزه، وهي يجب أن يبلغ مسبقاً بالنقاط التي سيدور البحث حولها وما يريده هتلر. ويجب أن يعطى تأكيداً مسبقاً بأن إتفاقية ١١ تموز ١٩٣٦ التي وعدت بها ألمانيا بإحترام إستقلال النمسا لن يطرأ عليها إلغاء أو تعديل. واشترط أيضاً أن البيان المشترك الذي سيصدر بعد ختام الاجتماع يجب أن يؤكد أن البلدين سيظلان متمسكين بنصوص معاهدة ١٩٣٦ لقد أراد (شوشنك) ألا يغامر بشدّ لحية الأسد في عرينه. فأسرع باين الى (أوبرسالزبرگ) للتباحث مع هتلر وعاد بتأكيد من (الزعيم) على بقاء معاهدة ١٩٣٦ دون تبديل وأنه أراد أن يبحث في "مواضع سوء التفاهم ونقاط الإحتكاك، التي ظلت باقية" منذ التوقيع على المعاهدة، ولا أكثر. ولم يكن هذا ما طلبه المستشار النمساوي بالضبط إلا أنه

أعلن رضاه بالجواب. وعين للإجتماع صباح اليوم الثاني عشر من شباط^(٥). وفي مساء الحادي عشر منه إنطلق شوشنك برفقه وزير الخارجية (غويدو شميدت Guido Schmidt) بقطار خاص وبسرية تامة، الى سالزبرگ ومن هناك عبر الحدود بالسيارة الى مقر هتلر الجبلي صباح اليوم التالي. كانت رحلة ذات نتائج وخيمة.

- ٢ -

الإجتماع في برختسگادن:

١٢ شباط ١٩٣٨

كان پاپن منتظراً على الحدود لتحية زائريه النمساويين وبدا لشوشنك في هواء الشتاء الصباحي المنجمد "في أطيّب مزاج" وأكد لضيوفه أن هتلر في أصفى حالة نفسية هذا اليوم. ثم جاء النذير الأول إذ قال پاپن أن (الزعيم) يأمل ألا يضايق شوشنك حضور ثلاثة جنرالات بمحض الصدفة، وهم كايتل رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة (وراخنو Reichenau) الذي يقود الجيش على الحدود البافارية-النمساوية (وشبيرل Sperrle) قائد القوة الجوية في المنطقة.

وتذكر پاپن فيما بعد أن هذا النبأ "لم يكن يبدو متمشياً مع ذوق الضيوف"، ويقول (شوشنك) إنه لن يتضايق من ذلك مادام "لا حيلة له في الموضوع". مثقف ذو نشأة يسوعية، لأباً لك! لا بد وأنه شعر بما وراء الأكمة فبدأ يلتزم جانب اليقظة والحذر.

ومع كل حذره، لم يكن مستعداً لما يوشك ان يحصل. خرج هتلر وهو مرتد قميصاً رمادياً لفرق العاصفة وسروالاً أسود يحف به الجنرالات الثلاثة ليستقبل المستشار النمساوي ومرافقه على درجات الفيلا. وشعر (شوشنك) إنها تحية ودودة لكنها رسمية. وبعد دقائق قليلة وجد نفسه وحيداً مع الدكتاتور الألماني في حجرة واسعة في الطابق الثاني. تطل نوافذها الكبيرة على جبال الألب المشمخة المتوجة بالثلج وعلى بلاد النمسا مسقط رأس الرجلين الجالسين.

كان (كورت فون شوشنك) البالغ من العمر إحدى وأربعين سنة، مثلاً كاملاً لأخلاق دنيا النمسا

٥- وافق الذكرى الرابعة لذبح الديمقراطيين الإشتراكيين النمساويين على يد حكومة دولفوس الذي كان شوشنك عضواً في حزبه. ففي ١٢ شباط ١٩٣٤ وجهت وحدات الجيش بمساندة الحرس الأهلي الفاشي البالغين (١٧) ألفاً نار مدافعها على حيّ العمال في فيينا وقتلت منهم (ألفاً) مع النساء والأطفال وجرحت أربعة آلاف أو ثلاثة. وصودرت الحريات الديمقراطية السياسية، ومن ذلك الحين حكم البلاد دولفوس ثم شوشنك بدكتاتورية دينية فاشية. كان بلاشك نوعاً أخف من النازية. كما يمكن أن يشهد أولئك الذين عاشوا بين برلين وفيينا في ذلك الوقت من أمثالي. لقد جردت النمساويين من حقوقهم السياسية واخضعتهم الى إرهاب اشد مما عانوه أيام هابسبرگ في آخر السنوات الأخيرة من الملكية. وقد بحث المؤلف هذا بكثير من التفصيل في (رحلة في أواسط القرن).

القديمة، ويتفق على هذا الوصف كل من عرفه. ولذلك ليس من الغريب عنه أن يبدأ الحديث بكلام رقيق لطيف عن المنظر الأخاذ وعن جمال طقس اليوم وعبارات مديح وإطراء عن هذه الحجرة التي شاهدت بلا ريب كثيراً من المؤتمرات الخطيرة. فقاطعه أدولف هتلر بقوله: "نحن لم نجتمع هنا للتحدث عن المنظر الجميل أو عن المناخ". ثم انفجرت العاصفة وكما شهد المستشار النمساوي فيما بعد كانت الساعتان التاليتان من المناقشة معظمها من جانب واحد^(٦).

"[بدأ هتلر يصيح] لقد عملتم كل شيء لتفادي سياسة ودّ وصداقة... إن تاريخ النمسا عمل خياني عظيم، غير منقطع، كان الأمر كذلك في الماضي وهو اشد وأنكى اليوم ويمكنني القول لك الآن يا هر شوشنك، إنني عازم عزماً أكيداً على وضع حدٍّ نهائيٍّ لهذا. إن الرايخ الألماني هو واحد من القوى العظمى في العالم. ولن يرفع أحد صوته إن قام بتسوية مشاكل حدوده."

اذهل انفجار هتلر المستشار النمساوي الهاديء الطبع فحاول أن يبقى متلطفاً. دون ان يتزحزح عن مكانه فقال أنه يعتنق وجهة نظر تخالف وجهة نظر ضيفه في مسألة دور النمسا في التاريخ الألماني وإرتأى ان "مساهمة النمسا في هذا المجال كبيرة".

"[هتلر] لا شيء بالمرّة. وأقول لك صفرٌ. كل فكرة قومية حاربتها النمسا على مجرى التاريخ. والواقع إن هذه المقاطعة للحركة القومية كانت محور نشاط آل هابسبرگ والكنيسة الكاثوليكية^(٧)".

[شوشنك]: ومع هذا ايها السيد مستشار الرايخ، فلا يمكن أن يفصل عدد كبير من المآثر النمساوية من إطار الصورة العامة للثقافة الألمانية خذ على سبيل المثال رجلاً كبيتھوفن.

[هتلر]: آه - بيتھوفن؟ إسمح لي أن اخبرك بأن بيتھوفن انحدر من إقليم الراين الأسفل.

[شوشنك]: مع ذلك فإن النمسا كانت بلده المفضل، كما هي لكثير غيره...

[هتلر]: مهما يكن من أمر... إنني أعلمك مرة أخرى إن الأمور لا يمكن أن تستمر على هذا المنوال، إنني اضطلع برسالة تاريخية، وسوف أكمل هذه الرسالة لأن العناية الإلهية قدرت عليّ أن أقوم بها... ومن لم يكن معي سيسحق سحقاً... لقد إخترتُ أصعب مسلك اختاره ألماني. وحققتُ أعظم مأثرة في تاريخ ألمانيا أعظم من أي ألماني آخر. حققتها لا بالقوة - وانتبه الى هذا - وإنما يدفعني الى أمام الحب الذي يكنه لي شعبي...

٦- كتبت الدكتور شوشنك فيما بعد من الذاكرة، ما اطلق عليه "مسالك ذات مدلول" للمناقشة ذات الجانب الواحد. ومع هذا - رغم عدم حرفيتها - فإن المرء يتحسس فيها لهجة الصدق، وبخاصة لكل من سمع هتلر وتدارس ما لا يُعد من خطبه وكلماته. وقد اثبتت صحة محتوياتها الأحداث التي عقيبتها كما أكدها أولئك الذين كانوا موجودين في (بركهوف) يومذاك وبخاصة پاپن ويودل وكويد وشميدت. وقد تعقبت أقوال شوشنك في كتابه "صلاة جناز النمسا" وشهادته في نورمبرگ بخصوص الاجتماع "صلاة جناز... الص ١٢-١٩" ومؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٥ الص ٧٠٩-٧٢٢ [الوثائق ٢٩٩٥ PS].

٧- من الواضح أن زعم هتلر الملتوي في التاريخ النمساوي الألماني قد بقي كما هو (مثلما شرحنا ذلك في الفصول الأولى من الكتاب) منذ أيام شبابه في لينز وكما لقته وفسره لنفسه.

[شوشنك] إني يا سيدي مستشار الرايخ لعلّى أتمّ الرغبة في الإيمان بما تقول...
وبعد ساعة من هذا الحديث طلب (شوشنك) من غريمه أن يعدد شكاواه وقال: "سنعمل كل شيء لإزالة العقبات والوصول إلى تفاهم أفضل قدر الإمكان".
[هتلر]: ذلك ما تقوله يا هر (شوشنك) لكنني أقول: إني سأحل ما يدعى بالمشكلة النمساوية كيفما كان.
ثم أمطر النمسا بوابل من النقد والتأنيب لتحسينها حدودها المتاخمة لألمانيا. وهي شكوى أنكراها (شوشنك).

(هتلر): إصغ الي، أَيْخيل اليك إنك تستطيع نقل صخرة واحدة في النمسا دون أن يبلغني ذلك عنها في اليوم الثاني؟ ... حسبي أن أصدر أمراً. وفي ليلة واحدة لا غير تغدو كلّ وسائلكم الدفاعية المضحكة أثراً بعد عين. أتعقدون جدياً، أنكم قادرون على إيقاف نصف ساعة؟... إني لأود من صميم قلبي تجنب النمسا هذا المصير لأن عملاً كهذا يعني سفك الدماء. وبعد هذا سيزحف الجيش والـ(إس. أي) والفرقة النمساوية ولن يستطيع أحد أن يحول بينهم وبين إنتقامهم العادل حتى ولا أنا.

بعد هذا الوعيد ذكّر هتلر (شوشنك) بالعزلة التي تعيشها النمسا وما يعني ذلك من وضع يائس.
[وكان دائماً يوجه اليه حديثه مستخدماً إسمه المجرد لا عنوان منصبه كما تقضي به اللياقة والأدب الدبلوماسي]

[هتلر]: لاتظن للحظة واحدة إن أحداً ما على وجه البسيطة، سيصدني عن عزمي. إيطاليا؟ أنا وموسوليني نرى بعين واحدة... إنكلترا؟ إنكلترا لن ترفع اصبعاً واحداً في سبيل النمسا... وفرنسا؟

قال أن فرنسا كانت فيما سلف قادرة على وقف ألمانيا في الراين "وكان علينا عندئذ أن نتراجع، لكن الوقت فات على فرنسا الآن". وأخيراً:

[هتلر]: أعرض عليك يا هر (شوشنك) للمرة الأخرى والأخيرة فرصة التوصل الى إتفاق معي. إما أن نجد حلاً الآن أو ستأخذ الأحداث مجراها... ألا فكر ملياً يا هر (شوشنك) فكر ملياً وأنعم النظر فلايمكنني الإنتظار أكثر من بعد ظهر اليوم...

ما هي شروط المستشار ألماني بالضبط؟ كان هذا سؤال شوشنك فأجابه هتلر "يمكن بحث ذلك بعد ظهر اليوم".

وبدا هتلر لدهشة شوشنك - عند الغداء في "حالة نفسية ممتازة وقصر حوارهِ على الخيل والمنازل. قال انه سيبنّي أعظم ناطحات سحاب في العالم، وذكّر شوشنك "سيرى الأمريكان أن ألمانيا تبني

صروحاً أضخم وأفضل من بنايات الولايات المتحدة". أما عن المستشار النمساوي المحزون فقد لحظ پاپن أنه بدا "قلقاً مشغول البال". كان مدخناً لا تغادر السيكاة فمه ولم يسمح له بالتدخين في حضرة (الزعيم) لكن هتلر إستأذن بعد القهوة في الغرفة المجاورة وانسحب، فأتيح لشوشنك أول مجال لتدخين سيكاة. وتمكن أيضاً من إبلاغ وكيل خارجيته بأنباء السوء... التي لن تلبث أن تزداد سوءاً.

بعد أن إنتظار النمساويين ساعتين في غرفة استراحة صغيرة طلب منهما أن يقابلا ريبنتروب وزير خارجية ألمانيا الجديد وپاپن، وقدم لهما الأول مشروع إتفاقية بصحيفتين مطبوع بالآلة الكاتبة وأبلغهما إنها مطالب هتلر النهائية وانه لن يسمح بمناقشتها. وعليهما أن يوقعها فوراً. يقول (شوشنك) إنه شعر بالراحة أخيراً لنيله من هتلر شيئاً ملموساً. ولكن إرتياحه تبخر عندما أتى على الوثيقة قراءةً. فها هنا إنذار ألماني موجه اليه يتضمن طلب تسليم الحكم في النمسا الى النازيين خلال أسبوع واحد، يجب أن يرفع الحظر عن نشاط الحزب النازي في النمسا، يجب أن يصدر عفو عام عن كل السجناء النازيين ويطلق سراحهم، وان يعين المحامي القيسيني الموالي للنازيين الدكتور (سييس إنكوارت) وزيراً للداخلية ويمنح سلطة الإشراف على الشرطة والأمن. وان يعين صديق آخر للنازيين وهو گليزه هورشتيناو Glaise-Horstenou وزيراً للحرب، وأن توثق العلاقات بين الجيش الألماني والنمساوي بإجراءات منها تبادل منظم لمائة ضابط بشكل متواصل بين الجيشين، وكان المطلب الأخير: "تتخذ التدابير لتنسيق النظام الإقتصادي على غرار النظام الإقتصادي الألماني. وتحقيقاً لهذا الغرض يعين الدكتور فيشبويك Fischboeck [من مشايعي النازية] وزيراً للمالية"^(٨).

ادرك (شوشنك) في الحال إن قبول هذا الإنذار معناه نهاية إستقلال النمسا [هذا ما كتبه فيما بعد]

"نصحتني ريبنتروب أن أقبل المطالبات حالاً. فاحتججت وأشرت الى إتفاقي السابق مع فون پاپن الذي تم قبل مجيئي الى (برختسگادن) وأوضحت له بشكل جازم بأنني ما كنت مستعداً لمواجهة هذه المطالب غير المعقولة"^(٩)...

لكن، هل كان شوشنك مستعداً لقبولها؟ ان عدم إستعداده لمواجهةها كان واضحاً حتى لغبيّ بليد كريبنتروب. والمسألة هي هل أنه سيوقعها؟ في هذه اللحظة العصبية الحاسمة بدأ المستشار النمساوي الشاب يهن وترتخي مفاصله وسأل بذلة يائسة [كما روى هو نفسه] "عما اذا يمكننا الإعتماد على حسن نية ألمانيا. وعما اذا كانت حكومة الرايخ تنوي على الأقل أن تطبق إلزاماتها من المعاهدة"^(١٠).

٨- مسودة البرتوكول المقدمة لشوشنك [وثائق عن سياسة... ج ١ ص ٥١٣-٥١٥].

٩- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٥ ص ٧١١ [الوثائق ٢٩٩٥ - PS].

١٠- شوشنك: صلاة جناز النمسا ص ٢٣.

يقول انه تسلم جواباً "بالإيجاب".
وعندئذ شرع پاپن يعمل في نفس (شوشنك). يقرّ السفير المراوغ "لدهشته" عندما قرأ الإنذار، بأنه "تدخل غير جائز في سيادة النمسا". ويقول شوشنك أن پاپن اعتذر منه. وظهر "دهشته التامة" للشروط. لكنه مع ذلك نصحه بالتوقع عليها.
"وزاد فأعلمني بأن لي أن اكون واثقاً أن هتلر سيحرص عند التوقيع والقبول بالمطالب على أن تبقى ألمانيا مخلصه أمينة على الإتفاقية ولن تبقى ثم مصاعب أمام النمسا من الآن فصاعداً"^(١١).
ويبدو جلياً من النصوص التي أوردناها وآخرها وردت في شهادته أمام محكمة نورمبرگ أن شوشنك لم يضعف فقط بل ابدى سذاجة غلبت على عقله.
بقيت لديه فرصة أخيرة للثبات. استدعي ثانية لمقابلة هتلر فوجده يذرع غرفة مكتبه غدوة ورواحاً وهو مهتاج.
[هتلر] هر شوشنك... ها هنا مسودة من الإتفاقية. وليس ثم ما يستوجب الحوار لأنني لن أغير فقرة واحدة منها. فإما ان توقعها كما هي وتحقق شروطي خلال ثلاثة أيام، وإما أن اصدر الأوامر بالزحف على النمسا^(١٢).
استسلم (شوشنك) وقال لهتلر أنه يرغب في التوقيع. لكنه ذكره بأن الدستور النمساوي يعطي الصلاحية الشرعية للتوقيع على مثل هذا الإتفاق وتنفيذه لرئيس الجمهورية وحده. لذلك وفي الوقت الذي يرغب في السعي لدى الرئيس لقبولها، لا يمكنه ضمان إبرامها.
فصاح هتلر: "يجب عليك أن تضمنها!"
ويقول (شوشنك) أنه ردّ على ذلك بقوله "ربما لا استطيع ذلك ايها السيد مستشار الرايخ"^(١٣).
[يروي شوشنك فيما بعد] عندما وعى جوابي بدا لي وكأنه فقد سيطرته على نفسه فأسرع يعدو الى الأبواب وفتح أحدها وصرخ "يا جنرال كايتل!" ثم إلتفت إليّ وقال "سأطلب رؤيتك فيما بعد"^(١٤).
كان ذلك محض خداع وحيلة لكن المستشار النمساوي الذاهل الذي أفهم طول اليوم بوجود القادة العسكريين، ربما لم يكن يدرك اللعبة. وروى پاپن بعدها أن الجنرال كايتل قصّ عليه كيف قابله هتلر بابتسامة عريضة عندما دخل عليه وسأله عن أوامره فأجابه هتلر ضاحكاً "لا توجد ثم أوامر، أردت أن تكون معي هنا فحسب".

١١- الوثائق ٢٩٩٥- PS المرجع السالف.

١٢- هناك فرق طفيف بين ما ذكره شوشنك عن تهديد هتلر وبين ما جاء في كتابه (ص ٢٤) وما ورد في شهادته أمام نورمبرگ [مؤامرة النازيين وعدوانهم: ج ٥ ص ٧١٢- وثائق نورمبرگ] وقد استخدمت الإثنين بشكل مختصر.

١٣- صلاة جناز النمسا ص ٢٥.

١٤- المرجع السالف.

إلا أن (شوشنك) والدكتور شميدت اللذين كانا ينتظران في الخارج توجّسا أمراً. وهمس شميدت بأنه لن يعجب إن أعتقلا معاً خلال الدقائق الخمس القادمة. وبعد ثلاثين دقيقة أدخل شوشنك مرة أخرى على هتلر.

"(قال هتلر) لقد قررت العدول عن رأيي لأول مرة في حياتي. إلا اني انذكرك بأن هذه هي آخر فرصة لك. سأعطيك ثلاثة أيام أخرى مهلة لإبرام الإتفاقية^(١٥)."

كان ذلك أقصى تساهل منحه الدكتاتور الألماني. ومع أن صيغة المسودة النهائية قد خففت ولانت عباراتها بعض الشيء. فإن التغييرات- حسبما جاء في شهادة شوشنك- لم تبدل شيئاً من الجوهر. فوقعها وكانت قرار موت النمسا.

ان سلوك البشر في وقت الملمات يختلف تبعاً لأخلاقهم. وهو كثيراً ما يُسلم المرء الى الحيرة. قليل من الناس من يشك في شجاعة شوشنك. فهو مقاتل سياسي متمرس رغم صغر سنه، عجم السياسة وحلب أشطرها وذاق حلوها ومرها ورأى سلفه صريعاً تحت أقدام النازيين، على أن إستسلامه لهتلر في ١١ شباط ١٩٣٨ تحت التهديد المهول بالهجوم المسلح قد ترك في نفس أبناء وطنه والمراقبين ومؤرخي هذه الفترة الهوجاء، بقية من شكوك عالقة لم يتوصل الى جواب لها. هل كان إستسلامه ضرورة؟ ألم يكن هناك سبيل آخر؟ من الطيش والحمق أن يدفع امرء بحجة تتضمن قيام بريطانيا وفرنسا الى مساعدة النمسا حال زحف هتلر عليها، اذا وضع نصب عينيه موقفهما السالف من إعتدائه الأولى. لكن هتلر لم يتعدّ حتى تلك اللحظة حدود ألمانيا. ولم يهيء الشعب الألماني أو العالم لتقبل عمل عدواني أثيم كهذا. والجيش الألماني نفسه لم يكن إذ ذاك في وضع يؤهله خوض حرب لو تدخلت فرنسا وبريطانيا. في غضون أسابيع قليلة ستتلاشى مقاومة النمسا بأعمال النازيين المحليين ومكائد الحكومة الألمانية نتيجة "إتفاق" برختسجادن الى درجة أمكن هتلر أن يضع عليها يده دون أن يخاطر كثيراً بإحتمال تدخل أجنبي كما كان الأمر في ١١ شباط. وكان (شوشنك) نفسه مدركاً أن قبول شروط هتلر "لايعني إلا العفاء التام على إستقلال الحكومة النمساوية بالأمر كما كتب ذلك فيما بعد. وربما كان أصيب بالدوار من هذه التجربة القاسية ولم يعد يدري ماذا يصنع؟ فبعد أن وقع صك القضاء على إستقلال بلاده تحت التهديد بالسلاح، راح يتحدث مع هتلر حديثاً غريباً، سجله هو في كتابه، فقد سأله: "هل يعتقد السيد مستشار الرايخ أن مختلف الأزمات التي تجابه العالم اليوم يمكن حلها بشكل سلمي؟" فأجابه هتلر بلهجة حازمة انه يمكن ذلك "لو اتبعت نصيحتي"، وعندها قال (شوشنك) ويظهر أن سؤاله كان جدياً دون أي علامة تهكم أو استخفاف "اعتقد أن الوضع العالمي في وقتنا الحاضر يبشر بالخير. ألا تظن ذلك؟^(١٦)

١٥- المرجع السالف ص ٢٤، وشهادة شوشنك في وثائق نورمبرغ- ٢٩٩٥ PS.

١٦- المرجع السالف ص ٢٥.

كلام مثل هذا في لحظة مثل هذه يبدو مما لا يمكن تصديقه. أو يتصور وقوعه، لكن المستشار النمساوي المغلوب على أمره يزعم أنه قاله ولا حيلة لنا إلا تصديقه! كان هتلر يدخر إذلالاً آخر له، فعندما اقترح (شوشنك) أن البيان الذي سيعطى للصحف عن إجتماعهما يجب أن ينوّه فيه بأن مناقشتهم أيدت إتفاقية تموز ١٩٣٦، صاح هتلر: "آه، كلاً، يجب عليك أولاً أن تطبق الشروط التي نصت عليها إتفاقيتنا. أما ما ستكتبه الصحف فهو هذا: [اليوم تباحث كل من الزعيم ومستشار الرايخ ومستشار الإتحاد النمساوي في برغهوف] وهذا هو كل شيء". واعتذر عن قبول دعوة الزعيم للبقاء وتناول العشاء، وهبط الجبل هو وشميدت الى (سالزبرگ). وكانت ليلة مكفهرة كثيرة الضباب، وياين المحتال يرافقهما حتى الحدود مُظهراً قلقاً وانزعاجاً لما وصفه "بالصمت الثقيل على النفس" إلا انه لم يتقاعس عن محاولة ادخال السرور في نفس صديقيه النمساويين فقال "لقد رأيتما بنفسيكما كيف ينقلب هتلر أحياناً وكيف يصير! ألا أني على يقين بأنه سيكون غير ذلك في المرة القادمة. ولتعلموا أن الزعيم يمكن أن يكون جذاباً للغاية"^(١٧).

-٣-

أربعة أسابيع الآلام الأخيرة (١٢ شباط - ١١ آذار ١٩٣٨)

أمهل هتلر (شوشنك) أربعة أيام تنتهي في يوم الثلاثاء الموافق الخامس عشر من شباط - ليرسل اليه "جواباً موثقاً" بأنه سيطبق الإنذار، وثلاثة أيام أخرى من ١٥-١٨ شباط لتنفيذ شروطه الفورية. وعاد (شوشنك) الى قيينا في صبيحة يوم ١٢ شباط وذهب حالاً لمقابلة الرئيس (فلهم ميكلاس Wilhelm Miklas). كان ميكلاس رجلاً محدود العقل متعباً يقول عنه القيينيون أن مأثرته الرئيسة في الحياة هي أبوته لنسل كبير من الأطفال إلا أن فيه بعض عناد الفلاح وإصراره. وفي هذه الأزمة وبعد إثنتين وخمسين سنة من تقلبه في وظائف الدولة، كان سيظهر شجاعة أكثر من أي نمساوي آخر. قال انه يرغب أن يتنازل عن بعض إمتيازات كإصدار عفو عن النازيين النمساويين إلا أنه يرفض تعيين (سييس إنكوارت) مشرفاً على الشرطة والجيش. وبادر ياين حالاً الى إبلاغ برلين في مساء ١٤ شباط وقال ان شوشنك يأمل "التغلب على مقاومة رئيس الجمهورية غداً". وفي الساعة السابعة والدقيقة الثلاثين من مساء اليوم نفسه، صادق هتلر على الأوامر التي وضعها الجنرال كايتل. لوضع النمسا تحت ضغط عسكري "فلتنشر أخبار مزيفة، لكنها معقولة جداً، من شأنها أن تؤدي الى الإستنتاج بوجود إستعدادات عسكرية ضد النمسا"^(١٨).

وفي الواقع ما كاد (شوشنك) يترك (برختسگادن) حتى بدأ الفوهرر يهيء عملاً عسكرياً صورياً.

١٧- رواية ياين (انظر يومياته ص ٤٢٠) فيها إختلاف عن رواية شوشنك إلا أن الأخيرة تميل الى الصدق.

١٨- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٤ ص ٣٥٧ [وثائق نورمبرگ ١٧٧٥ PS].

لإحاثات المستشار الألماني على تطبيق ما أمر به. ودون (يودل) كل ذلك في يومياته:

١٣ شباط: بعد الظهر: الجنرال كا[يتل] يستدعيني ويستدعي الأدميرال كا[ناريس Canaris]^(١٩) الى جناحه. يقول لنا: إن أمر الزعيم هو ضغط عسكري عن طريق عمل حربي صوري يبقى مستمراً حتى ١٥ منه. المقترحات لهذه الإجراءات تمت بمسودة وأنهيت الى الزعيم تلفونياً للمصادقة.

١٤ شباط: التأثير سريع ورد الفعل قوي. في النمسا الاعتقاد السائد ان ألمانيا تقوم بإستعدادات عسكرية خطيرة^(٢٠).

ولم يكن (يودل) مبالغاً فقبل التهديد بالغزو المسلح إستسلم الرئيس (ميكلاس). وفي آخر يوم مبارك من المهلة (١٥ شباط) ابلغ شوشنك فون پاپن رسمياً بأن إتفاقية (برختسغادن) سيتم تطبيقها قبل الثامن عشر منه. وفي ١٦ شباط أعلنت الحكومة النمساوية عفواً عاماً عن النازيين وبضمنهم أولئك الذين حكموا في قضية مقتل (دولفوس) كما صدر التعديل الوزاري الذي عيّن فيه (سييس إنكوارت) وزيراً للأمن. وفي اليوم التالي طار الوزير النازي الجديد الى برلين لمقابلة هتلر وتلقّي الأوامر.

كان (سييس إنكوارت) أول (كوزلينغ) في العالم، محامياً فينيئياً لطيف الأخلاق ذكياً، استولت على ذهنه منذ ١٩١٨ رغبة محرقة لرؤية النمسا موحدة مع ألمانيا. وكانت هذه الرغبة هي الغلبة السائدة في السنوات الأولى التي عقيبت الحرب. والواقع أن الجمعية الوطنية المؤقتة في فيينا التي سبق لها أن ألغت ملكية آل هابسبرگ قبل قليل وأعلنت الجمهورية النمساوية، حاولت في ١٢ تشرين ١٩١٨ بعد عقد الهدنة بيوم واحد أن تعلن الوحدة بتأكيدها "أن النمسا الألمانية هي جزء لايتجزأ من الجمهورية الألمانية" ولم يسمح الحلفاء المنتصرون بهذه الوحدة. وفي الزمن الذي وصل هتلر الى الحكم ١٩٣٣ لم يبق شك بأن أغلبية النمساويين ضد اتحاد بلادهم الصغيرة بألمانيا النازية. لكن النازيين كما وجد (سييس إنكوارت) وافرّ بشهادته في محاكمات نورمبرگ- يقفون موقفاً ثابتاً لايتزعزع من قضية الوحدة ولهذا السبب ساندتهم. ولم ينضم الى الحزب ولم يشارك في أعمال الإرهاب والإعتداء التي قاموا بها. ولمثل دور الموجّه المحترم للنازيين النمساويين وبعد معاهدة تموز ١٩٣٦ عندما عيّن عضواً في مجلس الدولة ركز مجهوداته، بدعم من پاپن وغيره من الموظفين الألمان وجواسيسهم، لنقض النظام القائم من الأسفل. والعجيب في الأمر أن كلا من (ميكلاس) و(شوشنك) ظلّا على ما يبدو يثقان به الى النهاية تقريباً. بالأخير اعترف ميكلاس (وكان كاثوليكياً ورعاً مثل شوشنك، بأنه مال كثيراً الى (سييس) لأنه كان "مواظباً على بيعته" ويبدو أن أساس الثقة التي وضعها المستشار النمساوي فيه تعود الى أمرين: كاثوليكية الرجل، وخدمته مثله في لواء

١٩- كان قلهم كافاريس رئيس مكتب الإستخبارات (Abwehr) التابع للقيادة العليا.

٢٠- "مؤامرة النازيين وعدوانهم" ج ٥ ص ٣١١ [وثائق نورمبرگ ١٧٨٠ PS].

كايسريايكر التيرولي Kaiserjaeger أثناء الحرب العامة الأولى وإصابته بجرح خطير في المعارك. ولسوء حظّ (شوشنك) انه كان فاقداً القابلية للحكم على الرجال من نواحٍ جوهريّة وإيجابية أكثر. ولعله كان يفكر في أنه قادر على ضبط الوزير النازي في حدود الخط العام ببعض الرشاوى البسيطة فهو نفسه يتحدث في كتابه عن الأثر السحريّ الذي خلفه مبلغ (٥٠٠) دولار في (سييس إنكوارت) قبل ذاك بعامٍ واحد عندما هدد بالإستقالة من عضوية مجلس الدولة ثم عاد فسحب طلبه عندما تسلم هذا المبلغ الزهيد. لكن هتلر كان يحتفظ لهذا المحامي الشاب الطموح بجوائز باهرة أعظم خطراً كما أدرك شوشنك بعد قليل.

في ٢٠ شباط ألقى هتلر خطبته المنتظرة طويلاً، أمام الرايخشتاغ وكان المجلس قد أجل منذ ٣٠ تشرين الثاني بسبب أزمة (بلومبرگ-فريتش) وبسبب المكائد ضدّ النمسا. ومع أنه تكلم بحرارة عن "حسن تفهم" شوشنك، وعن "رغبته الصميمة جداً" في تحقيق أوثق التفاهم بين النمسا وألمانيا. وهي كذبة صغيرة انطلت على رئيس الوزراء البريطاني (چمبرلين) - فقد أطلق إنذاراً ضاع صده في لندن، إلا أنه لم يقع على أذن صماءٍ لا في قيينا ولا في براغ.

"يعيش أكثر من عشرة ملايين ألماني في دولتين متاخمتين لحدودنا... وليس هناك أي شك في أمرٍ واحدٍ. إن الانفصال السياسي عن الرايخ ليس من شأنه أن يؤدي إلى مصادرة الحقوق - اعني الحقوق العامة لتقرير المصير، فهو أمرٌ لا تتحمله دولة قوية في العالم حين تعلم بوجود رفاق لها من قوميتها وعلى مقربة منها يسامون سوء العذاب ويحاربون باستمرار بسبب عطفهم ورغبتهم في الوحدة مع أبناء جلدتهم كافة. وبسبب مستقبلهم وحياتهم. إن مصلحة الرايخ الألماني وواجبه يقضيان بحماية هذا الجزء من الشعب الألماني الذي يقع على حدودنا - العاجز عن ضمان حرياته السياسية والروحية بقدرته الخاصة^(٢١).

كانت ملاحظة صريحة عامة، وراح هتلر منذ هذه اللحظة يعتبر الملايين الألمان السبعة في النمسا والملايين الألمان الثلاثة في (السوديت Sudet) بچيكوسلوفاكيا من شؤون الرايخ الثالث. وفي ٢٤ شباط بعدها بأربعة أيام أجاب (شوشنك) على هتلر في خطبة أمام (البندشتاغ Bundestag) النمساوي الذي عين أعضاؤه تعييناً كما كان الحال في الرايخشتاغ بإرادة النظام الدكتاتوري ذي الحزب الواحد. ومع أنه كان لطيف اللهجة تجاه ألمانيا فقد أوضح أن النمسا وصلت أقصى حدود التنازل "حيث ينبغي لنا أن نقف ونقول: الى هذا الحد وكفى". وقال ان النمسا لن تنزل عن إستقلالها طائعة مختارة وأنهى خطابه بشعار حماسي "أحمر، أبيض، أحمر. حتى الموت! [كان هذا مجموعة ألوان العلم النمساوي، وهي أيضاً ذات جرسٍ إيقاعي باللفظ ألماني].

كتب (شوشنك) بعد الحرب "أن الرابع والعشرين من شباط كان عندي التاريخ الحاسم". وانتظر قلقاً

٢١- من ملاحظاتي الخاصة التي دونتها أثناء إذاعة الخطبة.

ردّ فعل الزعيم على خطبته المتحدية. وأبرق باين الى برلين في اليوم التالي ناصحاً ألا تأخذ وزارة الخارجية الخطية مأخذاً جدياً. وقال أن (شوشنك) عبّر عن شعوره الوطني الغلاب في الواقع ليستعيد مركزه الداخلي. فهناك مؤامرات في فيينا للتطويع به للتنازلات التي قدمها في (برختسگادن) واعلم باين برلين أن "عمل سيبس انكورات يسير وفق الخطة الموضوعة". في الوقت نفسه^(٢٢)، وفي اليوم التالي- قام باين بزيارة وداعية للمستشار النمساوي وانطلق الى كيتسبهل Kitzbuehl للتزلج على الجليد، بعد أن أوشكت جهود السنين الطوال في النمسا تؤتي أكلها!

كان من أثر خطبة هتلر في العشرين من شباط التي نقلتها شبكة الإذاعة النمساوية. أن قامت مظاهرات واسعة النطاق للنازيين في شتى أنحاء النمسا. وفي الرابع والعشرين منه، أثناء ما كان (شوشنك) يذيع رده الخطابى اندفعت غوغاء نازية تبلغ زهاء عشرين ألفاً في مدينة (گراز Graz) مغيرة على ساحة المدينة فحطمت مكبرات الصوت وأنزلت العلم النمساوي ورفع علم ألمانيا ذا الصليب المعقوف في محله. وبوجود (سيبس إنكورات) على رأس الشرطة لم يبذل أي مجهود لوقف النازيين وكبح جماحهم. كانت حكومة (شوشنك) تتهدم وتتصدع. ولم يتخللها الانحلال السياسي وحده بل دبت فيها الفوضى الإقتصادية، وهرع الناس لسحب مقادير كبيرة من الودائع في البنوك من الداخل والخارج. وانصبت على فيينا صباً الطلبات المستعجلة من الشركات الأجنبية بإلغاء الشحنات التجارية من صادرات البلاد ودبّ الذعر الشديد في نفوس السياح الأجانب [وهو مصدر رئيس من مصادر إقتصاد النمسا] وابرق (توسكانيني Toscaneni) من نيويورك بإلغاء حضوره الى مهرجان (سالزبرگ) الذي كان يجتذب عشرات الألوف من السياح في كل صيف "بسبب التطورات السياسية في النمسا" وبلغ الوضع حداً من الإضطراب واليأس بحيث ألجأ المطالب الشاب بعرش النمسا "أوتو هابسبرگ" الى أن يرسل رسالة خاصة من منفاه في بلجيكا ضارعاً الى شوشنك [كما كشف فيما بعد] أن يبقى متمسكاً بيمين الولاء القديم. بوصفه ضابطاً في الجيش الإمبراطوري. وأن يعينه مستشاراً إن وجد أن خطوة كهذه قد تنقذ النمسا.

وفي غمرة من اليأس نزل (شوشنك) الى الطبقة العاملة التي ظلت نقاباتها وأحزابها مغلقة بعد أن سحقها (دولفوس) بقسوة بالغة في ١٩٣٤، ان العمال يكونون ٤٢٪ من مجموع الناخبين العام النمساويين. ولو كان المستشار في أي وقت خلال السنوات الأربع المنصرمة- قادراً على الرؤية الى أبعد من أفق دكتاتوريته الضيق، وفاشيته الأكليريكية فكسب مساندتهم بأقامة حكومة إئتلاف معتدلة ديمقراطية معادية للنازية لكان من السهل جداً عليه أن يكبح جماح أقلية صغيرة من النازيين. لكن شوشنك كان يفتقر الى المقدرة على إتخاذ هذه الخطوة. فهو كإنسان رجل مستقيم أمين محتشم،

٢٢- تقرير الى وزارة الخارجية الألمانية في ٢٥ شباط ١٩٣٨. معلم بعبارة "سري جداً" وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ١ ص ٤٢٥

إلا أنه أصبح متعلقاً بفكرة إزدراء الديمقراطية الغربية في أوروبا كغيره، ونما في نفسه حب الحكم المطلق ذي الحزب الواحد.

وخرج العمال من المصانع، ومن السجون حيث اطلق عدد كبير منهم مؤخراً مع النازيين، وتقدموا مع الديمقراطيين الإشتراكيين كتلة متراصة واحدة في ١٤ آذار إستجابة لنداء المستشار. قالوا انهم رغم كل ما حدث مستعدون لمساعدة الحكومة للدفاع عن إستقلال الوطن وكل ما طلبوه هو أن يسمح لهم المستشار بما سبق وسمح به للنازيين أعني الحق في تنظيم أحزابهم السياسية. والدعوة الى مبادئهم. فوافق (شوشنك) على ذلك... لكن بعد فوات الأوان.

في ٣ آذار دوّن كعب الاخبار الجنرال (يودل) في يومياته "المسألة النمساوية أصبحت في غاية الخطورة. سيرسل الينا مائة ضابط. الزعيم يريد مقابلتهم شخصياً. سيعظمهم بواجب الحرص على أن لا تقوم القوات المسلحة النمساوية بشن الحرب علينا، والأحسن أن لا يحاربوا مطلقاً". في هذه اللحظة الحرجة قرر (شوشنك) أن يقف وقفة أخيرة عملية أوحى بها اليأس كانت فكرتها مستولوية على جوارحه منذ أيام شباط الأخيرة عندما بدأ النازيون يستظهرون في الأقاليم وإعتزم أن يجري إستفتاءً عاماً، سيسأل الشعب النمساوي هل يحبذون "نمسا حرة مستقلة إشتراكية مسيحية إتحادية- الجواب نعم أو لا Ja oder Nein" (٢٣).

"(كتب يقول) شعرت ان ساعة القرار الواضح قد حانت وبدا لي من الحمق والطيش الإنتظار ببيدين مغلولتين حتى تكتم أفواهنا ايضاً بعد مرور أسابيع قليلة. ان المقامرة الآن تجرى على رهان يتطلب مجهوداً خارقاً عظيماً". (٢٤). بعد عودة (شوشنك) من (برختسغادن) بقليل، إستطلع رأي موسوليني حامي النمسا من تهديدات هتلر. فأبلغ فوراً عن (الدوتشي) أن موقف إيطاليا من النمسا باقٍ لم يتغير. وفي ٧ آذار بعث بملحقه العسكري في روما الى موسوليني ليبلغه أن التطورات التي طرأت على الأحداث قد تلجئه "الى الركون الى الإستفتاء العام" فأجاب الدكتاتور الإيطالي بالفرنسية "هذا خطأ! Ce un errore" ونصح شوشنك أن يسيير على خطه الأول. كانت الأمور تتحسن، وهناك تقارب وشيك بين روما ولندن سيؤثر تأثيراً كبيراً في تخفيف حدة الضغط وكان هذا آخر ما سمع عن موسوليني.

في مساء التاسع من آذار أعلن (شوشنك) في خطاب ألقاه في اينزبروك Innsbruck، أن الإستفتاء سيجري بعد أربعة أيام في نهار الأحد الموافق ١٣ آذار. هذه الأنباء غير المنتظرة أسلمت هتلر الى

٢٣- ذكر الرئيس ميكلاس في افادته أثناء محاكمة أحد النازيين النمساويين بعد الحرب ان فرنسا هي التي اقترحت على شوشنك إجراء الإستفتاء. ويزعم باين في مذكراته أن الوزير المفوض الفرنسي في فيينا ميسيو پوو M. Puaux وهو صديق حميم للمستشار "أيد فكرة الإستفتاء" ويرى على كل حال أن شوشنك اتخذ القرار على مسؤوليته الخاصة بدون شك. وعن شهادة ميكلاس. أنظر مؤامرة... ملحق ص ٥٢٣ ورواية باين في مذكراته ص ٤٢٥.

٢٤- "صلاة جناز النمسا" الص ٣٥-٣٦.

نوبة هياج. وتصف يومية (يودل) المؤرخة ١٠ آذار رد الفعل الأولي في برلين:

"...أمر شوشنك بإجراء إستفتاء في نهار الأحد ١٣ آذار، فجأة، ومن دون إستشارة وزرائه...

وقرر الفوهرر ألا يتسامح في هذا. في الليلة نفسها ٩/ ١٠ آذار. يطلب حضور (گورنگ).
الجنرال فون (رايخناو) يستدعي من اللجنة الاولمبية بالقاهرة. والجنرال فون شوبرت Von Schobert
[قائد منطقة مونيخ العسكرية على الحدود النمساوية] أمر بالقدوم فضلاً عن الوزير (النمساوي)
كليزه هورشتيناو الذي... هو في الپالاتينات Palatinete... عوق رينتروب في لندن، نيوراث يقوم بمهام
وزير الخارجية." (٢٥)

في اليوم التالي الموافق الخميس ١٠ آذار. شاع لغط عظيم في برلين. قرر هتلر أن يحتل النمسا
إحتلالاً عسكرياً، ولم يكن ثم ريب أن جنرالات الجيش بوغتوا بالنبا. لو حال الجيش بالقوة دون
إستفتاء شوشنك نهار الأحد فعليه ان يدخل النمسا نهار السبت وليس هناك خطة ما للحركة.
استدعى هتلر (كايتل) في العاشرة صباحاً، إلا أنه تحدث الى يودل والجنرال ماكس فون فيبان Max
Von Wiebahn مدير هيئة الحركات Fuehrungsstab للقيادة العليا. وتذكر (يودل) المرجع الثقة القضية
الخاصة "أوتو" التي رسمت لإحباط محاولة نصب أوتو هابسبرگ على العرش النمساوي. ولما كانت
الخطة الكاملة الوحيدة لعمل عسكري ضد النمسا فقد قرر هتلر إستخدامها وأمر، "هبتوا قضية
أوتو".

أسرع (كايتل) عائداً الى القيادة العليا في بندلرشتراسه وعندما سأل عن تفاصيل خطة أوتو أجابه
(بيك) "لم نهيء شيئاً، لم يعد أي شيء مطلقاً". واستدعي (بيك) بدوره الى دار مستشارية الرايخ
والتقى الجنرال فون مانشتاين الذي كان على وشك مغادرة برلين لتسلم قيادة فرقة فركب معه لمقابلة
هتلر. فأخبرهما هذا بوجود إعداد الجيش للزحف على النمسا نهار السبت. ولم يدل أي من الجنرالين
باعتراض على هذا الإقتراح بالعدوان المسلح. وكان إهتمامهما قاصراً على انشغالهما مركزاً على إعداد
حركة عسكرية في وقت ضيق جداً. عاد (مانشتاين) الى (بندلرشتراسه) وانهمك حالاً بكتابة
مسودات الأوامر الضرورية. وأنهى عمله خلال خمس ساعات. وفي السادسة والدقيقة الثلاثين مساءً،
صدرت أوامر التعبئة [حسب رواية يودل في يومياته] الى ثلاثة مقرات جيوش والى القوة الجوية رقم
١- لعملية (أوتو) وبلغت به العجلة أنه نسي تذييله بتوقيعه ولم يتم الحصول على إمضائه إلا في
الساعة الواحدة بعد الظهر.

- سرّي للغاية -

أولاً: إن لم تنجح إجراءات أخرى. فأنا عازم على غزو النمسا بالقوات المسلحة لأثبت الاوضاع
الدستورية ومنع المزيد من الإعتداءات على الأهلين الموالين الألمان.

٢٥- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٤ ص ٣٦٢ [وثائق نورمبرگ ١٧٨٠٠-PS].

ثانياً: كل العملية ستدار من قبلي...

رابعاً: إن قوات الجيش والقوة الجوية المخصصة لهذه العملية يجب ان تكون مستعدة للهجوم في ١٢ آذار ١٩٣٨. في الساعة ١٢٠٠ على أكثر تقدير...

خامساً: إن سلوك أفراد الجيش يجب أن يكون موحياً بأننا لانريد أن نشن حرباً على إخواننا النمساويين... لذلك يجب إجتناّب كل إستفزاز... وإذا بدرت مقاومة ما فيجب سحقها بلا رحمة بقوة السلاح...^(٢٦)

وبعد سويغات أصدر (يودل) ملحقاً -سرياً للغاية- للأوامر الأولى صادراً من رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة.

"(١) إن وجدت قوات عسكرية نظامية أو غير نظامية (مليشيا) چيكوسلوفاكية في النمسا، فيجب إعتبارها قوات عدوة.

(٢) يعامل الإيطاليون معاملة أصدقاء حيثما وجدوا ولاسيّما وأن موسوليني أعلن بأنه غير مهتم بموضوع حل المسألة النمساوية^(٢٧)".

كان موسوليني يُقلق بال هتلر. فما أن قرر القيام بغزو عسكري، حتى وضع الأمير (فيليب فون هس) في طائرة خاصة وبعث به في العاشر من آذار الى موسوليني حاملاً رسالة شخصية منه (مؤرخة في ١١ آذار) يعلمه فيها بالعمل الذي قرر القيام به طالباً تفهم الدكتاتور الإيطالي له. كانت الأكاذيب سدى الرسالة ولحمتها فيما يتعلق بمعاملته لـ(شوشنك) والأوضاع في النمسا التي أكد له أنها "قريبة من حالة الفوضى" واستهلها بمزاعم مخالطة محتالة، بحيث لجأ هو نفسه الى حذفها من الرسالة عندما نشرت بعدئذ في ألمانيا^(٢٨)...

زعم أن النمسا وچيكوسلوفاكيا تعملان معاً خفية لإعادة هابسبرگ وتتهينان "لقذف كتلة من البشر يبلغ تعدادها عشرين مليوناً على الأقل ضد ألمانيا" ثم لخص طلباته من (شوشنك) واكد لموسوليني "أنها أكثر من معتدلة" واخبره بفشل المستشار النمساوي في تحقيقها وتكلم عن "مهزلة" ما "يدعي بالإستفتاء".

"نظراً لمسؤوليتي كزعيم ومستشار للرايخ الألماني وكذلك بوصفي إبناً لهذه التربة، لم يعد في طوقى البقاء ساكناً في وجه هذه التطورات. اني الآن عازم على إعادة الأمن وسيادة القانون في مسقط رأسي ومساعدة الشعب على تقرير مصيره بنفسه وبمقتضى ميوله بشكل واضح صريح لا لبس فيه...

٢٦- "مؤامرة..." ج ٦ الص ٩١١-٩١٢ [وثائق نورمبرگ - ١٠٣ C].

٢٧- المرجع السالف ج ٦ ص ٩١٣ [وثائق نورمبرگ - ١٠٣ C].

٢٨- الفقرات المشطوبة وجدت بعد الحرب في أرشيف وزارة الخارجية الإيطالية.

ومهما كان الأسلوب الذي سيتبع في إجراء هذا الإستفتاء، فأنا أأرغب أن أؤكد لفخامتكم من صميم قلبي بوصفكم زعيماً لإيطاليا الفاشية:

(١) ان تعتبروا هذه الخطوة مجرد عمل قومي للدفاع عن النفس، وعليه يكون من الأعمال التي لا يتردد اي رجل ذي خلق كريم في الإقدام عليها - إن وجد نفسه في مثل موقعي. وانت أيضاً يا صاحب الفخامة لا يمكنك أن تعمل خلاف هذا إن كان مصير الإيطاليان هو المهديد...

(٢) في الساعة الحرجة التي تعن لإيطاليا. سأبرهن لك صدق ودّي وإندفاعي. فلأتشك أبداً أنه سيطراً في المستقبل اي تغيير على موقعي هذا.

(٣) مهما كانت نتائج الأحداث المقبلة. فقد رسمت حدوداً معينة بين فرنسا وألمانيا. وأنا الآن أرسم خطأً محدداً مثله بيننا وبين إيطاليا... انه برينر...^(٢٩)

صديقك المخلص على الدوام
أدولف هتلر^(٣٠)

-٤-

سقوط شوشنك

آب الدكتور (شوشنك) الى فراشه، مساء العاشر من آذار- غير عالم بالإستعدادات المحمومة التي تجري على حدود الرايخ الثالث، وهو مقتنع - كما شهد في نورمبرغ- بأن الإستفتاء سيكون نجاحاً للنمسا وان النازيين لن "يقوموا عقبه خطيرة"^(٣١). في الواقع كان (سييس إنكوارت) قد أكد له قبل ساعات أنه سيساند الإستفتاء، وسيذيع خطبة بتحييده. في الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين من فجر الجمعة (١١) آذار أوقف المستشار النمساوي برنين التلفون المحاذي لفراشه وكان المتحدث الدكتور سكوبله Dr. Skuble مدير الشرطة. قال، أن الألمان أقفلوا الحدود عند سالزبرج. وتوقفت القطارات بين البلدين، هناك أنباء عن تحشدات عسكرية ألمانية على الحدود النمساوية.

٢٩- جعل الحدود في (برينر) كان طُعماً لموسوليني. فهو يعني أن هتلر لن يطالب بإعادة جنوب التيرول الذي أقتطع من النمسا وأعطى إيطاليا بمعاهدة فرساي.

٣٠- وثائق من سياسة ألمانيا الخارجية ج ١ ص ٥٧٣-٥٧٦.

٣١- يقضي الإنصاف ان نذكر ان إستفتاء شوشنك ليس أكثر ديمقراطية أو حرية من الإستفتاء الذي يجريه هتلر في ألمانيا. ولما لم يجر إنتخاب حر في النمسا منذ ١٩٣٣ فلا يوجد قوائم للناخبين كاملة الى حد تاريخه. ثم أنه لا يحق الاقتراع الا لمن بلغ الرابعة والعشرين. ولم تعط مهلة للإستفتاء غير أربعة أيام لذلك لم يكن هناك وقت للقيام بالحملة السياسية حتى لو كان المعارضة: كالنازيين واليسار والديمقراطيين الاشتراكيين أحراراً في خوض الحملة. إن الاشتراكيين على إختلاف اجنحتهم سيصوتون "بنعم" دون شك، لأن (شوشنك) أهون الشرين كما انه وعد بإطلاق الحريات السياسية. وليس هناك أي شك في ان أصواتهم كانت ستكسب شوشنك نصراً.

في السادسة والدقيقة الخامسة عشرة كان (شوشنك) في طريقه الى مكتبه في بالهاوز پلاتز Ballhausplatz، على أنه قرر أولاً أن يتوقف في كاتدرائية القديس اسطيفان. وهناك جلس مع المصلين يستمع الى قداس الفجر في أولى خيوط ضياء الصبح، وهو على مصلاه نهب للقلق، لا تبارح فكره الرسالة المشؤومة التي تلقاها من مدير الشرطة. قال بعدئذ يصف حاله "لم أكن متأكداً تماماً من معناها، كل ما أدركت أنها ستحدث تغييراً" وحدث في الشموع الملتهية أمام صورة العذراء مريم ذات المعونة الأبدية. وتطلع فيما حوله مختلساً النظر ثم رسم علامة الصليب على وجهه كما يفعل ما لا يحصى من القبيين أمام هذه الصورة في الماضي في وقت الضيق.

وفي المستشارية كان كل شيء ساكناً، لم تصل حتى رسالة مزعجة أثناء الليل من الدبلوماسيين النمساويين في الخارج. واتصل بمقر الشرطة العام وطلب أن يطوق قلب المدينة بنطاق من الشرطة كتدبير وقائي وأن تشدد الحراسة على بنايات الحكومة. ثم استدعى أعضاء الوزارة لعقد إجتماع فحضروا باستثناء (سييس إنكوارت) ولم يستطع (شوشنك) العثور عليه في مكان ما في حين كان الوزير النازي في مطار فيينا. كان پاپن قد دعي فجأة من برلين يوم أمس وغادر البلاد على متن طائرة خاصة في الساعة السادسة من صباح اليوم وقد ودّعه (سييس). الآن يقف (كوزيلينگ) رقم (١) في إنتظار (كلية هورشتيناو) الوزير رقم (٢) في حكومة شوشنك مثله، الغارق في الخيانة، الذي كان مقررًا وصوله من برلين حاملاً أوامر هتلر بما رسم لهما عمله بخصوص الإستفتاء.

كانت الأوامر: لا إستفتاء ثمة وقد نقل هذان السيدان ذلك الى (شوشنك) في العاشرة صباحاً، وأضافا لمعلوماته أن هتلر قد إستشاط غضباً. وبعد ساعات من المداولات مع الرئيس ميكلاس قرر أعضاء حكومته مع دكتور (سكوبله) و(شوشنك) إلغاء الإستفتاء. كان مدير الشرطة قد أخبره بعد تردد أن البوليس الذي تسلمت إليه العناصر النازية بكثرة، بعد إعادتهم الى مراكزهم تطبيقاً لإنذار (برختسگادن) لا يمكن أن تعتمد عليه الحكومة. ومن الجهة الأخرى كان شعور شوشنك يؤكد له أن الجيش ومليشيا الجبهة الوطنية (وهو الحزب الرسمي الحاكم والوحيد في النمسا) سيخوضان الحرب. لكنه قرر [في الواقع كان هذا مستولياً على فكره منذ زمن طويل] أن لا يتعرض لهتلر بأي مقاومة إن كان ذلك يعني سفك الدماء الألمانية. كان هتلر جدّ راغب في اصطدام إلا أن شوشنك دار على عقبه من مجرد الفكرة.

في الساعة الثانية بعد الظهر استدعى (سييس إنكوارت) واعلمه بأنه أصدر الأوامر بإلغاء الإستفتاء. فأسرع (يهودا) الرقيق الى التليفون ليخبر گورنگ في برلين. لكن قاموس خطط النازي يقول أن تنازلاً واحداً من خصم مغلوب يجب ان يعقبه تنازل آخر سريع. وأسرع گورنگ وهتلر حالاً الى رفع عقيرتيهما مطالبين بالمزيد والمزيد من المغانم. إن وسائل التهديد والوعيد والنصب والإبتزاز التي استعملت، سجلتها كلمة كلمة وببالغ الدقة، دائرة انصات گورنگ الخاصة (معهد البحوث

Forschungsamt) التي أصغت وسجلت ونقّحت سبعاً وعشرين مكاملة تلفونية من مكتب الفيلد مارشال ابتداءً من الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين بعد الظهر (١١ آذار). وقد وجدت هذه الوثائق في وزارة الطيران الألمانية بعد الحرب. وألقت ضوءاً باهراً عن كيفية إتمام القضاء على النمسا بواسطة التلفون من برلين في خلال الساعات القلائل الخطيرة التالية^(٣٢).

عندما اتصل (سييس) بـگورنگ لأول مرة في الساعة الثالثة إلا ربعاً بعد الظهر أجابه الفيلد مارشال أن إبطال الإستفتاء ليس بكافٍ وقال أنه سيطلبه مرة أخرى بعد أن يتحدث إلى هتلر. وقد اتصل به في الثالثة والدقيقة الخامسة وأبلغه بالأمر من إستقالة (شوشنك) ونصب (سييس إنكوارت) مستشاراً خلال ساعتين. وأخبره أيضاً بـ"إرسال البرقية للزعيم كما أتفق عليه" وكان هذا أول ذكر للبرقية التي برزت في المقدمة، وكان ذكرها يجعل ويدوي في الأحداث المفزعة التي حصلت خلال الساعات القلائل القادمة. كانت هذه البرقية ستستخدم لإرتكاب جريمة الاحتيال التي برر بها هتلر عدوانه أمام الشعب الألماني ووزارات خارجية العالم.

وصل (فلهم كپلر) فبيينا مبعوث هتلر الخاص إلى النمسا قادماً من برلين بعد الظهر ليتولى مهام السفارة في غياب پاپن، وأطلع (سييس إنكوارت) على نص برقية ورسم له أن يبرقها لهتلر. وفيها يرجو إرسال وحدات من الجيش الألماني إلى النمسا للقضاء على الفوضى والشغب وزعم (سييس إنكوارت) في إفادته أمام محكمة نورمبرگ أنه لم يرضَ بإرسال هذه البرقية حيث لا فوضى هناك. وألحَّ (كپلر) بقوله أن إرسالها لا بدّ منه ثم هرع إلى دار المستشارية النمساوية حيث وجد في نفسه الصفاقة لتأليف (مكتب الطواريء) مع سييس وگليزه هورشتناو. كيف سمح شوشنك لهؤلاء المتطفلين الخونة بنصب أنفسهم في محل الحكومة النمساوية وممارسة سلطاتها عنوة وإقتداراً في تلك الساعة العصيبة؟ إنه أمر يفوق التصور إلا أنه سمح به. وبعدها، تذكر أن دار المستشارية كانت تبدو "في هرج ومرج، أشبه شيء بخلية نحل دبت فيها الفوضى"، فهنا (سييس إنكوارت) و(گليزه هورشتناو) قد انتحيا زاوية "يتداولان"، و"حولهما حركة لاتنقطع من الذاهبين والأيبيين، رجال ذوو سيماء غريبة". لكن يظهر أنه لم يخطر ببال المستشار الرقيق الشمائل الذاهل أن يقذف بهم إلى الخارج.

صحَّ عزمه على الرضوخ لهتلر والإستقالة. واتصل بموسولينى وليس بينه وبين (سييس) غير خطوات. لكن الدوتشي لم يكن موجوداً، وبعد دقائق قليلة ألغى المكاملة معتقداً بأن "طلب العون من موسولينى هو مضیعة للوقت" حتى حامى النمسا المتباهى فقد تخلى عنها في ساعة الضيق. وبعد دقائق قليلة وفي أثناء ما كان يحاول إقناع الرئيس ميكلاس بقبول إستقالته، وردت رسالة من وزارة الخارجية جاء فيها "أن الحكومة الإيطالية تعلن أنها لاتستطيع أن تتقدم بأي نصيحة إذاً هذه

٣٢- "مؤامرة ... ج ٥ الص ٦٢٩-٦٥٤ [وثائق نورمبرگ ٢٩٤٩ PS].

الظروف في حالة ما لو طُلب منها إبداء المشورة"^(٣٣). لم يكن الرئيس فلهلم ميكلاس شخصية عظيمة إلا أنه صلب عنيد مستقيم الخلق. وافق على إستقالة (شوشنك) متردداً لكنه رفض أن يجعل (سييس إنكوارت) خلفاً له. وقال "هذا من رابع المستحيالات ولن نجبر على عمل شيء لا نريده" وأمر (شوشنك) بإبلاغ الألمان أن إنذارهم مرفوض"^(٣٤).

ابلق هذا (سييس إنكوارت) لگورنگ في الخامسة والدقيقة الثلاثين ظهراً. [سييس إنكوارت]: الرئيس قبل إستقالة [شوشنك]... فاقترحت أن يسند المستشارية إلي... لكنه لا يرغب في وضع الثقة برجل مثل إندر... Ender. [گورنگ] حسن؛ هذا ما يجب ألا يكون مهما كلف الأمر! يجب أن يبلغ الرئيس بالأمر مفر له من إيداع سلطات المستشار الفيدرالي اليك. وأن يرضى بأعضاء الوزارة كما هم. وعند هذه النقطة انقطع الحديث بينهما وسلم (سييس إنكوارت) التليفون الى دكتور موهلمان Muehlmann وهو نمساوي نازي مشبهه السمعة كان (شوشنك) قد لمح به يتسكع في زوايا برختسگادن وكان صديقاً لگورنگ.

[موهلمان] مازال الرئيس يرفض باستمرار اعطاء موافقته. لقد ذهبنا نحن القوميون الإشتراكيين الثلاثة للحديث معه شخصياً... فلم يسمح حتى بمقابلته. والآن يبدو وكأنه لا ينوي أن يرضخ. [گورنگ] صلني (بسييس). [الى سييس] الآن تذكر ما سأقول: الآن: اذهب حالاً برفقة اللفنتنت جنرال (مف) [الملحق العسكري الألماني] وابلق الرئيس ان لم يوافق على الشروط في الحال فإن الجيش الذي اتخذ مواقعه على الحدود سيزحف هذه الليلة على طول الخطوط وستختفي النمسا من عالم الوجود... قل له إن الوقت ليس وقت مزاح. والموقف الآن هو أن الغزو في هذه الليلة سيبدأ من كل زوايا النمسا ولن يوقف الغزو أو سيبقى الجيش ساكناً على الحدود إلا إذا أبلغنا في الساعة السابعة والدقيقة الثلاثين أن ميكلاس قد اسند اليك في منصب المستشارية الإتحادية... ثم أدع القوميون الإشتراكيين في كل أنحاء البلاد. يجب ان يكونوا الآن في الشوارع. وتذكر التقرير يجب أن يبلغنا في الساعة والدقيقة الثلاثين. إن لم يفهم ميكلاس الموضوع في أربع ساعات فسنجعله يفهمه الآن في أربع دقائق.

لكن الرئيس الصلب ظل ثابتاً لا يتزعزع.

في الساعة السادسة والدقيقة عاد گورنگ يتصل (بكيلر وسييس إنكوارت). فابلغاه أن الرئيس

٣٣- "صلاة جناز النمسا" ص ٤٧.

٣٤- شهادة ميكلاس في ٣٠ كانون الثاني ١٩٤٦ في مرافعة المتهم الدكتور رودلف نيومايير في إحدى محاكم إزالة النازية ومع انه كان غير دقيق في ضبط الاوقات ونص العبارات والوقائع في ذلك اليوم المشهود فشهادته قيمة جداً ومهمة (مؤامرة...) ص ٥٣١-٥٣٤ [وثائق نورمبرگ ٢٤٦٥-٢٤٦٦ PS].

ميكلاس رفض التعاون معهم.

[گورنگ] حسن إذن فعلى عاتق (سييس انكورات) يقع أمر تنحيته! ما عليك إلا أن تصعد إليه مرة أخرى وتصارحه أن (سييس) سيستدعي الحرس القومي الاشتراكي. وفي غضون خمس دقائق ستزحف الجنود بناء على أمري.

وبعد هذا الأمر قدم الجنرال (مُف) و(كيلر) إلى الرئيس إنذاراً عسكرياً ثانياً يهدده بدخول الجيش الألماني النمسا إن لم يدعن خلال مرة أقصاها الساعة السابعة والدقيقة الثلاثين. وشهد ميكلاس فيما بعد: "أبلغت السيدين أنني أرفض الإنذار... وأن النمسا وحدها هي التي تقرر من سيكون رئيس الحكومة".

في هذا الوقت حقق النازيون النمساويون السيطرة التامة على الشارع. فضلاً عن استيلائهم على دار المستشارية. في حوالي السادسة من مساء هذا اليوم عدتُ من المستشفى حيث كانت زوجي معلقة بين الموت والحياة بعد مخاضٍ عسيرٍ إنتهى بإجراء العملية القيصرية لها. خرجتُ من محطة قطار تحت الأرض بالقرب من كارلسبلاتز Karlsplatz لأجد نفسي غارقاً في خضم من الغوغاء النازيين وهم يهتفون هتافات هستيرية ويندفعون كالموج إلى قلب المدينة. هذه السحن المتقلبة رأيتها من قبل في اجتماع حزبي عام بنورمبرگ. كانوا يزعمون "سيگ هايل! (تحية من الاعماق! Sieg Heil) هايل هتلر! هايل هتلر! اشنقوا شوشنك! اشنقوا شوشنك!" والشرطة الذين رأيتهم قبل سويغات يفرقون عصابة صغيرة من النازيين بكل سهولة، وجدتهم الآن واقفين على مبعدة بيتسمون.

سمع شوشنك وقع الخطى وخفق النعال وصياح الغوغاء فطاش صوابه وهرع إلى الرئيس ليتقدم بالرجاء الأخير. لكنه يقول: ظل الرئيس ميكلاس مصراً. ورفض أن يعين نازياً في منصب المستشار. واجاب على إلحاحي بتعيين (سييس إنكورات) كلکم تخليتم عني الآن، کلکم! "لكني لم أجد مخرجاً آخر إلا (سييس إنكورات). تشبثت - بالأمل القليل الذي خلفته في نفسي وعوده لي. تشبثت بسمعته الشخصية ككاثوليكي مواظب ورجل مستقيم^(٣٥)".

تشبث (شوشنك) بأوهامه حتى النهاية!!

عندئذ اقترح المستشار الساقط أن يوجه كلمة وداع من الإذاعة يفسر فيها أسباب إستقالته. ويقول أن ميكلاس وافق وإن نفى ميكلاس ذلك فيما بعد. كانت أشد كلمة اذاعية هزاً للمشاعر سمعتها في حياتي. لقد وضع الميكرفون على بعد زهاء خمس خطوات من الموضع الذي سقط دولفوس مضرباً برصاص النازي.

"...[يقول شوشنك] سلمت الحكومة الألمانية الرئيس ميكلاس إنذاراً هذا اليوم، وهو محدد بوقتٍ يؤمر فيه أن يعين للمستشارية شخصاً ارادته الحكومة الألمانية بالذات... والّا قامت القوات الألمانية

٣٥- "صلاة جناز النمسا" ص ٥١.

بغزو النمسا. إني أعلن للعالم أجمع أن الأنبياء التي روجتها ألمانيا بخصوص وقوع حوادث فوضى قام بها العمال، وجريان انهيار الدماء والجثث في الشوارع وتسبب حالة أعجزت الحكومة النمساوية عن السيطرة عليها، أعلن أن هذا كله أكاذيب من الألف الى الياء. لقد طلب مني الرئيس ميكلاس أن أقول للشعب النمساوي إننا أذعننا للقوة العاشمة، لكننا نأبى حتى في هذه الساعة الرهيبة أن تسفك الدماء. لقد قررنا أن نأمر الجيش بعدم إبداء اي مقاومة^(٣٦) لذلك أودع الشعب النمساوي بكلمة وداع ألمانية، أخرجها من أعماق قلبي: حفظ الله النمسا!"

قد يستأذن المستشار بالانصراف، لكن الرئيس الصلب لم يكن بعد مستعداً لذلك. وعلم (گورنگ) بذلك عندما خابر الجنرال (مُف) بالتلفون بعد أذاعة كلمة (شوشنك) بقليل وقال له:

- خير الحلول أن يستقيل ميكلاس

فأجابه (مُف): "أجل لكنه يأبى ذلك. شيء روائي من أطرف ما يمكن. لقد كلمته زهاء خمس عشرة دقيقة. فأعلن أنه لن يذعن للقوة مهما كانت الظروف."

لم يصدق گورنگ أذنيه ولا الكلمات فهتف: "هكذا إذن؟ إنه لن يذعن للقوة؟"

فكرر الجنرال: "إنه لا يذعن للقوة".

- إذن فهو يريد ان يُركل؟

فقال (مُف): "أجل إنه قعيد الدار لا يريد ان يرحها.

فضحك گورنگ وقال: "حسن! من كان أباً لأربعة عشر ولداً فلا مناص له من البقاء قعيد الدار. قل لـ(سييس) أن يتولى أمره.

ما زالت ثم مسألة البرقية التي يحتاجها هتلر لتبرير غزوه. كان الزعيم الآن- كما وصفه يابن الذي لحق به في دار المستشارية ببرلين "على شفا الإنهيار العصبي" فالرئيس النمساوي العنيد يفسد عليه خطته مثل (سييس إنكوارت) بسبب إمتناعه عن إرسال البرقية التي تدعو هتلر الى إرسال جيش

٣٦- انكر ميكلاس في شهادته السالف ذكرها أنه طلب من (شوشنك) ان يقول شيئاً ما من هذا القبيل أو حتى موافقته على إذاعة كلمة للشعب النمساوي. ويعكس ما زعمه المستشار المستقيل فإن الرئيس لم يكن مستعداً للإذعان بعد الى القوة. ويقول أنه قال لشوشنك "إن الأمور لم تصل بعد الى الحد الذي يحملنا على الإستسلام". وكان قد رفض قبل قليل الإنذار الألماني الثاني. وبقي واقفاً وقفة صلبة إلا أن إذاعة شوشنك ساعدت فعلاً على تقويض مركزه وغلت يده. إذ أننا سنرى كيف ظل الرئيس الشيخ العنيد مصراً على موقفه ساعات عديدة بعد ذلك، ثم استسلم. وفي الثالث عشر من آذار رفض التوقيع على قانون الوحدة (انشلوس) الذي أطفأ إستقلال النمسا ومحاحاها من الوجود. وهو القانون الذي اصدره هتلر بناءً على إلحاح من (سييس إنكوارت) وقال أنه لم يستقل إستقالة رسمية ابداً. وانه كان قد سلم وظائفه الى المستشار النازي. بقدر ما حيل بينه وبين ممارسته إياها. وأوضح فيما بعد أمام محكمة فيينا إن ذلك "سيكون جنناً عظيماً" على ان ذلك لم يمنع (سييس إنكوارت) من الإعلان رسمياً في ١٣ آذار بأن "رئيس الجمهورية بناءً على طلب من المستشار قد إستقال من منصبه" وان كل "أعماله" انتقلت الى المستشار [مؤامرة النازيين وعدوانهم: الملحق A الص ٥٢٥-٥٣٤ الوثائق ٢٦٩٧ PS، المرجع نفسه ج ٥ ص ٢٠٩ الوثائق ٢٤٦٥ PS و ٢٤٦٦ PS].

الى داخل النمسا للقضاء على الفوضى. وضاقَت به الدنيا ولم يطق صبراً على الحالة فطيرَ أمر الغزو في الساعة التاسعة الأربعمائة من مساء الحادي عشر آذار (٣٧).

وبعدَها بثلاث دقائق كان غورنك يتصل تلفونياً بـ(كبلر) في فيينا.

"إصغ اليّ جيداً. البرقية التالية يجب أن يرسلها (سييس إنكوارت). أكتبها: [ان الحكومة النمساوية المؤقتة، التي تجدد من واجبها بعد إستقالة حكومة شوشنك، الاضطلاع بمهمة إعادة الأمن والنظام في النمسا تبعث الى الحكومة الألمانية برجا عاجل لمساندتها في المهمة ومعونتها في حقن الدماء. وهي تطلب من الحكومة الألمانية إرسال جيش ألماني بأسرع ما يمكن لهذا الغرض]."

واكد (كبلر) للفيلد مارشال أنه سيرعرض مسودة البرقية "في الحال" على (سييس إنكوارت).

فقال غورنك: طيب. لا حاجة تدعوه حتى الى إبراقها وكل ما يطلب منه أن يقول: "موافق"

وبعد ساعة عاد كبلر يتصل ببرلين يقول "أبلغوا الفيلد مارشال ان (سييس إنكوارت) موافق (٣٨).

وهكذا، فعندما مررتُ ببرلين في اليوم التالي وقع نظري على عنوان صارخ في جريدة (فولكشتير بيوباختر):

"انقاذ النمسا الألمانية من الفوضى!"

وكان في الصحف قصص لاتصدق أخرجتها مطابخ كوبلز تصف بها الفظائع الفوضوية الحمراء القتال، قتل الناس بالرصاص، النهب والسلب في شوارع فيينا الكبرى. وكان ثم نص البرقية الذي نشرته وكالة (د.ن.ب) الرسمية الألمانية للأخبار، زاعمة ان (سييس إنكوارت) أبرقها الى هتلر ليلة أمس. وواقع الأمر هو أن نسختين منها كما أملاها غورنك عشر عليها في أرشيف وزارة الخارجية الألمانية بنهاية الحرب. وأوضح باين كيفية وصولهما فيما بعد. قال أن وزير البرق والبريد الألماني قام بتزويرهما وحفظهما في ملفات الحكومة.

انتظر هتلر وقد مضى القلق طوال عصر اليوم ومسائه المشحونين. لا لإستسلام الرئيس ميكلاس

٣٧- كتب عليها "سري للغاية" وعلمت بـ"الأمر التوجيهي رقم (٢) لعملية أوتو" وما جاء فيها "ان مطالب الإنذار الألماني من الحكومة النمساوية لم تنجز... ولأجل إجتناّب سفك الدماء أكثر مما سفك في مدن النمسا، سيبدأ دخول القوات المسلحة الألمانية الى النمسا، بموجب الأمر التوجيهي رقم (١) في فجر يوم ١٢ آذار. أوّمل أن يتم بلوغ الهدف المعين ببذل أقصى الجهود من كل القوات بأسرع ما يمكن: "التوقيع: أدولف هتلر (مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٦ ص ١٠١٧ الوثائق ١٨٢ C).

٣٨- في الواقع: حاول (سييس إنكوارت) الى ساعة متأخرة من بعد نصف الليل تحويل هتلر عن عزمه الغزو. وهناك وثيقة في وزارة الخارجية الألمانية تكشف أن الجنرال (مُف) اتصل ببرلين في الثانية بعد نصف الليل (١٢ آذار) يرجو "أن تبقى الوحدات الألمانية المستنفرة في موضعها- بناءً على تعليمات من المستشار سييس إنكوارت- وفي حالة إستنفارها لاتعبر الحدود" وجاء كبلر ايضاً الى التلفون ليعزز الطلب ويظهر ان الجنرال (مُف) الضابط المستقيم من المدرسة القديمة كان مشمئزاً من دوره في فيينا. وعندما أبلغ أن هتلر يأبى وقف الجيش أجاب "أنه يأسف للنبأ" [وثائق عن السياسة ج ١ الص ٥٨٤-٥٨٦].

وحده بل لكلمة من موسوليني. بات صمت حامي حمى النمسا يبدو منذراً بشراً. وفي العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين صباحاً إتصل الأمير فيليب هسّ بالمستشارية من روما. فأمسك هتلر التلفون بنفسه وسجل تكتيكو غورنك المحادثة التي نثبث نصها فيما يلي:

[الأمير] عدت لتوي من بالازو فينسيا Palazzo Venezia. ان الدوتشي قبل كل شيء ومظهر من الود والصدافة الحميمة يقدم لك إحتراماته... شوشنك أبلغه بالنبأ... قال موسوليني أن أمر النمسا لايهمه في شيء.

وكاد هتلر يخرج عن وعيه من فرط السعادة والسرور.

[هتلر] إذن أرجوك قل لموسوليني إنني لن أنساه بسبب هذا.

[الأمير] سأفعل ايها الزعيم.

[هتلر] أبداً، أبداً، أبداً. مهما حصل! إنني مستعد لعقد إتفاقية أخرى معه مختلفة تماماً.

[الأمير] أجل يا سيدي سأخبره بذلك أيضاً.

[هتلر] حالما تنتهي تسوية مسألة النمسا سأكون على أتم إستعداد للسير معه في السراء والضراء في كل شيء!

[الأمير] أجل ايها الزعيم.

[هتلر] أصغ! إنني سأوقع اي إتفاق. إنني لم أعد بعد في خوف من الموقف الرهيب الذي كان سيحصل عسكرياً في حالة ما لو إشتبكنا في حرب. أبلغه عني أنني لأشكره من أعماق قلبي لن أنسى ذلك أبداً، أبداً.

[الأمير] أجل ايها الزعيم.

[هتلر] لن أنساه على مآثرته هذه مهما حدث. إن كان بحاجة الى مساعدتي يوماً، إن كان في خطر، فليكن واثقاً بأنني سألازم جانبه مهما حدث حتى وان أطبقت الدنيا كلها عليه.

[الأمير] أجل ايها الزعيم.

ما هو الموقف الذي إتخذته بريطانيا العظمى وفرنسا وعصبة الأمم في هذه اللحظة الفاصلة لإيقاف العدوان الألماني على بلاد مجاورة مسالمة؟ لا شيء، ففرنسا كانت حينذاك دون حكومة مرة أخرى. في يوم الخميس الموافق ١٠ آذار قدم رئيس الوزراء شوتامپ Chautemps إستقالته وأعضاء حكومته. ولم يكن في باريس أحد قادر على العمل طوال يوم الجمعة (١١ آذار) العصيب حين كان (غورنك) يرسل إنذاره الى قيينا تلفونياً. ولم تشكل حكومة فرنسية برئاسة (ليون بلوم Leon Blum) إلا بعد إعلان الوحدة في الثالث عشر منه.

وبريطانيا؟ في العشرين من شباط، بعد أسبوع على إستسلام (شوشنك) في برختسجادن، إستقال



اللورد هاليفاكس

وزير الخارجية (أنطوني ايدن) وكان سبب إستقالته الرئيس هو معارضته لتنازلات أكثر يقدمها رئيس الوزراء چمبرلين الى موسوليني. فخلفه (اللورد هاليفاكس). وقد رحبت أوساط برلين بهذا التغيير. كذلك كان تصريح چمبرلين لمجلس العموم بعد إنذار برختسگادن. وقدمت السفارة الألمانية في لندن تقريراً كاملاً عن ذلك الى برلين في الرابع من آذار^(٣٩) وذكرت عبارة وردت على لسان (چمبرلين): "إن ما حدث [في برختسگادن] لايزيد عن أن رجلي دولة إتفقا على تدابير معينة لتحسين العلاقات فيما بين قطريهما... يبدو من الصعب أن نحكم على دولة بأنها فقدت إستقلالها وتنازلت عنه للدولة الأخرى لأن رجلي دولة إتفقا على إجراء تغييرات داخلية معينة في تلك

الدولة- تغييرات مرغوب فيها لمصلحة العلاقات الطيبة التي تربطهما معاً. بالعكس، فإن خطبة المستشار الفيدرالي بتاريخ ٢٤ شباط لا تتضمن شيئاً ما يحمل على الظن أن المستشار الفدرالي (شوشنك) نفسه يؤمن بالنزول عن إستقلال بلاده."

نظراً لأن السفارة البريطانية في فيينا قد زودت چمبرلين (كما علمت أنا نفسي في حينه) بتفاصيل إنذار (برختسگادن) الى (شوشنك)، فإن هذه الكلمة التي ألقاها في الثاني من آذار في مجلس العموم كانت والحق يقال تدعو الى الحيرة والدهشة^(٤٠) إلا أنها سرّت هتلر. وعلم منها أنه بات يستطيع إقتحام النمسا دون أن تتعقد أموره مع بريطانيا. ووصل ريبنتروب وزير الخارجية الألمانية الجديد الى لندن في ١٩ آذار لتصفية أعماله في السفارة حيث كان سفيراً، وعقد إجتماعات طويلة مع چمبرلين وهاليفاكس والملك ورئيس أساقفة كانتربري. وكانت إنطباعاته عن رئيس الحكومة البريطانية ووزير خارجيتها كما كتب الى برلين "جيدة جداً" وكتب تقريراً الى هتلر مباشرة، بعد إجتماع طويل مع اللورد هاليفاكس في ١٠ آذار يدور عما ستفصله بريطانيا "إن تعذر حلّ المسألة النمساوية سلمياً". وكان مؤمناً أساساً نتيجة المباحثات في لندن "أن إنكلترا لن تفعل شيئاً بخصوص النمسا"^(٤١).

في الحادي عشر من آذار الموافق نهار الجمعة. كان (ريبنتروب) يتناول الغداء في (داوننگ ستريت)

٣٩- المرجع السالف الص ٥٥٣-٥٥٥.

٤٠- شهد (شميدت) محلفاً في نورمبرگ انه (كشوشنك) أبلغ بعثات الدول الكبرى الدبلوماسية بإنذار هتلر. والتفاصيل في [محاكمة مجرمي الكبار ج ١٦ ص ١٥٣]. فضلاً عن أن مراسلي صحيفتي التايمس والديلي تلغراف بعثا بمعرفتي أنا بتقارير كاملة صحيحة الى صحيفتيهما تلفونياً.

٤١- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ١ ص ٢٦٣.

مع رئيس الحكومة وزملائه عندما دخل موظف دبلوماسي فجأة يحمل تقارير عاجلة لجمبرلين تتضمن الأنباء المقلقة من فيينا. وقبل ذلك بوضع دقائق لا غير. طلب (جمبرلين) من ريبنترروب ان يبلغ (الزعيم) "رغبته الصميمة وعزمه الراسخ على تصفية جو العلاقات الأنكلو-ألمانية". والآن وبعد تسلم هذه التقارير المزعجة انسحب الساسة الثلاثة الى مكتب رئيس الحكومة الخاص وهنا قرأ جمبرلين على الوزير الألماني المنزعج برقيتين صادرتين من السفارة الإنكليزية في فيينا بخصوص الإنذار الألماني. وكتب ريبنترروب لهتلر: "إن المناقشة دارت في جو متوتر مشحون، وكان اللورد هاليفاكس الهاديء عادة، أكثر عصبية وهياجاً من جمبرلين، الذي بدا من الخارج على الأقل- هادئاً بارداً". وأعلن ريبنترروب "شكوكه" في صحة التقارير ويلوح أن ملاحظته هذه هدأت من ثورة مضيقه الإنكليزيين. لأن "وداعنا" كان "ودياً تماماً. حتى هاليفاكس كان هادئاً" على حد ما ذكر في التقرير^(٤٢).

وكان رد فعل جمبرلين على تقارير فيينا أن طلب من (هندرسن Henderson) السفير الإنكليزي في برلين بكتابة تنبيه لوكيل وزير الخارجية (نيوراث) يذكر فيه أنه لو ثبتت صحة التقرير حول الإنذار الألماني للنمسا. "فإن حكومة صاحب الجلالة تشعر من واجبها تسجيل احتجاج بأشد لهجة"^(٤٣).

لكن احتجاجاً دبلوماسياً رسمياً في مثل هذه الساعة المتأخرة كان أقل المهمات التي تشغل (هندرسن) شأناً ففي اليوم التالي (١٢ آذار) وفيما كانت الوحدات العسكرية الألمانية تتدفق الى داخل النمسا بعث نيوراث برده مهين الى حد كبير^(٤٤) مصحراً فيه أن العلاقات الألمانية النمساوية هي من شؤون الشعب الألماني الخاصة بصورة مطلقة لا من شأن الحكومة البريطانية وبدأ يردد الأكاذيب بعدم وجود أي إنذار ألماني للنمسا وأن الجيش لم يرسل إلا بناءً على طلب "مستعجل" من الحكومة النمساوية الجديدة وجلب إنتباه السفير البريطاني الى البرقية "التي سبق نشرها في الصحف الألمانية"^(٤٥).

كان القلق الوحيد الذي ساور هتلر مساء ذلك اليوم الحادي عشر من آذار هو رد فعل موسوليني

٤٢- أورد تشرشل وصفاً مضحكاً ممتعاً لهذا الغداء في كتابه "تجمع العاصفة" الص ٢٧١-٢٧٨ (كذلك انظر المرجع السالف الص ٢٧٣-٢٧٥).

٤٣- المرجع نفسه ص ٥٧٨.

٤٤- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ١ الص ٥٠١-٥٠٢ [الوثائق ٣٣٨٧ PS].

٤٥- ضمنت الأكاذيب برقية عامة عممها البارون فون فايسكر من وزارة الخارجية في ١٢ آذار على جميع البعثات الدبلوماسية في الخارج "للمعلومات ولدعم مباحثاتكم بمحتوياتها" زعم (فايسكر) ان تصريح شوشنك المتعلق بالإنذار الألماني هو "محض إختراع" ثم مضى ليقول لدبلوماسيه في الخارج "الحقيقة هي أن موضوع فكرة إرسال قوة عسكرية... قد نشأت أولاً من البرقية المعروفة جداً التي أرسلتها الحكومة النمساوية الجديدة. ونظراً للخطر المحدق بنشوب حرب أهلية قررت حكومة الرايخ أن تستجيب للنداء (نص البرقية في وثائق عن... ج ١ الص ٥٨٦-٥٨٧). وبهذا كذبت وزارة الخارجية لا على الدبلوماسيين الأجانب وحدهم بل على دبلوماسيها أيضاً. وفي كتاب كبير تافه كتبه (فايسكر) بعد الحرب نفى ككثير غيره من الألمان الذين خدموا هتلر أن يكون نازياً. بل كان خصماً على طول الخط.

على عدوانه^(٤٦). على أنه كان يوجد بعض قلق في برلين حول الموقف الذي ستتخذه چيكوسلوفاكيا وماذا ستفعل. ولم يطل الأمر فقد ازال گورنگ الجَمَّ النشاط غموض هذه النقطة. فبالرغم من إنهماكه في الإتصالات التلفونية للإشراف على تهيئة الانقلاب في فيينا، استطاع أن يختلس فترة في تلك الأمسية ويقصد (دار فليگر Haus der Flieger) حيث كان المضيف الرسمي لألف موظف كبير ودبلوماسي دُعوا الى سهرة رائعة من موسيقى الأوركسترا والغناء ورقص البالية لدار أوبرا الدولة. وعندما دخل الوزير المفوض الجيكوسلوفاكي الدكتور (ماسنتي Mastny) هرع اليه الفيلد مارشال المحلّي بالأوسمة وانتحي به جانباً. وأعلمه بكلمة شرف أن چيكوسلوفاكيا لن تخشى شيئاً من ألمانيا وأن دخول جنود الرايخ الى النمسا ليس الا "شأناً من شؤون الأسرة الداخلية" وان هتلر يرغب دوماً في تحسين العلاقات مع (پراغ). وطلب مقابل ذلك تأكيداً من چيكوسلوفاكيا ألا تقوم بتعبئة فترك الدكتور (ماسنتي) الحفل وتلفن لوزير خارجيته في پراغ ثم عاد الى القاعة ليخبر (گورنگ) أن بلاده لم تقم بتعبئة، وأن چيكوسلوفاكيا لاتنوي محاولة للتدخل في شؤون النمسا. فارتاح (گورنگ) وكرر للوزير المفوض تأكيدات مضيغاً اليها قوله أنه مخول بأن يعزها بكلمة هتلر أيضاً.

ويبدو أيضاً أنه لم يتوفر الوقت الكافي حتى للذكي الأريب رئيس الجمهورية الجيكوسلوفاكية الدكتور بينيش Eduard Benes ليدرك في تلك الأمسية أن نهاية النمسا تعني نهاية چيكوسلوفاكيا أيضاً. وجد بعض الناس في أوروبا ممن اعتبر الحكومة الجيكوية قصيرة النظر، واعتقد أن إحتلال النمسا جعل الوضع الاستراتيجي الجيكوسلوفاكي محفوفاً بأعظم الأخطار حيث الجيش الألماني يحيط بها من ثلاث جهات وافترضوا لو أنها تدخلت لإنقاذ النمسا لجرت روسيا معها ولدخلت فرنسا وبريطانيا فضلاً عن عصبة الأمم جميعاً في صدام مع الرايخ الثالث وهو الصدام الذي ما كان يقوى النازيون على الصمود أمامه. واستنتجوا أن الواجب كان يقضي بالتدخل الجيكوسلوفاكي في الحادي عشر من آذار. لكن الأحداث التالية التي ستدوّن هنا بعد قليل تدحض هذه المناظرة دحضاً تاماً. فبعد برهة وجيزة نكصت الديمقراطيات الغربية وعصبة الأمم عن إتخاذ مثل هذه الخطوة عندما أتاحت لها فرصة أفضل من هذه الفرصة لكبح جماح هتلر. ومهما يكن من أمر فإن (شوشنك) لم يرسل في ذلك اليوم المشهود نداءً واحداً رسمياً الى لندن أو باريس أو پراغ أو جنيف. ويفهم من مذكراته أنه كان يرى ذلك تبديداً للجهد ومضيعة للوقت. أما الرئيس (ميكلاس) فقد اتضح من إفادته فيما بعد، أنه كان معتقداً بأن الحكومة النمساوية، التي كانت قد أبلغت فوراً كلاً من لندن وباريس بالإنداز الألماني. مازالت مستمرة "في مداولاتها" مع الحكومتين البريطانية والفرنسية طوال العصر حتى تتأكد من "وجهات نظرهما".

٤٦- أكد الفيلد مارشال فون مانشتاين في شهادته بنورمبرگ (٩ آب ١٩٤٥) "في الوقت الذي سلمنا هتلر الأوامر المتعلقة بالنمسا كان قلقه الرئيس ليس التدخل الأجنبي من جهة الدول الغربية. لكن قلقه الوحيد كان موقف إيطاليا منه. إذ كان يظهر ان إيطاليا تنحاز دائماً الى النمسا وهابسبرگ [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج ٢ ص ٦١٥].

وعندما أصبح جلياً أن "وجهات نظرهما" لم تكن غير ترديد إحتجاجات فارغة. أذعن الرئيس ميكلاس قبل نصف الليل بفترة قصيرة. وعين "سييس إنكوارت" مستشاراً وصادق على قائمة أسماء وزرائه. وعلق على ذلك بمرارة في ما بعد "لقد تركت وحيداً، سواء في بلادي أو خارجها". وأصدر هتلر بياناً فحماً إلى الشعب الألماني، برر فيه إعتدائه، بإحتقاره المعهود للحقيقة. ووعد أن يتاح للشعب النمساوي فرصة لإختيار مستقبله "بإستفتاء حقيقي" (وقد تلاه غوبلز من الإذاعتين الألمانية والنمساوية ظهر الثاني عشر من آذار) ثم توجه إلى وطنه. وقوبل بحفاوة منقطعة النظير وكان في كل قرية- أزيّنت بعجلة على شرفه حشود من المستقبلين المحيين. ووصل عصراً هدفه الأول "لينز" حيث قضى أيام دراسته. وكان الإستقبال حماسياً يدير الرأس، حتى مسّ شغاف قلبه. وفي اليوم التالي، بعد أن طير برقية لموسوليني "لن أنساك لهذا!" وضع إكليلاً من الزهر على قبري والديه في (ليودنك) ثم عاد إلى (لينز) ليلقي خطبة: عندما خرجت من هذه المدينة قبل سنوات. حملت معي العقيدة التي تملأ اليوم جوانب قلبي. الا احكموا على عمق مشاعري. بعد ان تمكنت من تحقيق هذه العقيدة وايصالها إلى حيز الوجود، بعد هذه السنين الطوال إن دعتني العناية الإلهية يوماً ما من هذه المدينة لأكون زعيماً للرايخ فلا بد وانها حملتني رسالة بعملها هذا. وهذه الرسالة لن تكون إلا إعادة موطني العزيز إلى أحضان الرايخ الألماني. لقد آمنت بهذه الرسالة. وعشت أحارب لأجلها. واعتقد اني حققتها الآن".

وفي عصر ذلك اليوم طار (سييس إنكوارت وهملر) إلى (لينز). لإستقبال هتلر. وأعلن أولهما بفخر أن المادة (٨٨) من معاهدة (سان جرمان) التي تنص على "أن إستقلال النمسا لا يمكن النيل منه"، وجعلت عصبة الأمم ضامنة له- هذه المادة أصبحت لاغية. ولم يكن هذا بكاف لهتلر الذي دار رأسه بحماسة الجمهور النمساوي. فأمر الدكتور قلهم شتوكارت Wilhelm Stuckart الوكيل في وزارة الداخلية (وكان وزيره فريك قد أرسله إلى فيينا على جناح السرعة ليصنع مسودة قانون يجعل فيه هتلر رئيساً لجمهورية النمسا) أن يأتي حالاً إلى لينز وقد أدركت هذا الخبير القانوني الدهشة عندما أمره (الزعيم) "بوضع مسودة قانون بالوحدة التامة" كما شهد هذا الرجل في نورمبرك^(٤٧).

قدم (شتوكارت) هذه المسودة للحكومة النمساوية الجديدة في فيينا في نهار الأحد ١٣ آذار وهو اليوم الذي كان قد تقرر لإجراء إستفتاء (شوشنك) فرفض الرئيس (ميكلاس) التوقيع عليها كما رأينا. إلا (سييس إنكوارت) الذي سيطر على سلطات الرئيس أسرع بتوقيعها وطار بها في مساء ذلك اليوم إلى لينز ليقدّمها إلى هتلر وبها انتهى كيان النمسا كدولة. وابتدأت ديباجتها "النمسا هي أقليم من الرايخ الألماني" وذكر (سييس إنكوارت) أن هتلر ذرف دموع الفرح^(٤٨).

٤٧- محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج ٥ ص ٦٣٢.

٤٨- مذكرة (سييس إنكوارت) في نورمبرك: ٩ أيلول ١٩٤٥ [مؤامرة... ج ٥ الص ٩٦١-٩٦٢، الوثائق ٣٢٥٤ PS].

ووقعت الحكومة الألمانية أيضاً هذا القانون الموسوم بـ"قانون الوحدة" في اليوم ذاته في لينز وصادق عليه هتلر وگورنگ وريبنتروب وفريك وهس. وقرر القانون إجراء "إستفتاء حر سري" في العاشر من نيسان ليقرر النمساويون فيه "مسألة التوحيد مع الرايخ الألماني". وأعلن هتلر في ١٨ آذار أن ألما ن الرايخ سيجري إستفتاءؤهم أيضاً على الوحدة. الى جانب إنتخابات الرايخشتاغ الجديدة.

ولم يدخل هتلر فيينا دخول الظافر (حيث عاش مدة طويلة عيشة أفاق) إلا في عصر يوم الإثنين الموافق ١٤ آذار. فقد أخره عائقان لم يكونا في الحسبان. مع الفرح العظيم الذي أظهره النمساويون لرؤية هتلر في العاصمة طلب (هملر) يوماً إضافياً لإحكام إجراءات الأمن وتشديدها. وكان قد باشر في توقيف آلاف من "لايوثق بهم" حتى بلغ العدد خلال الأسابيع القلائل التالية (٧٩٠٠٠) موقوفاً في فيينا وحدها. كذلك تعطلت وحدات البانزر Panzer الألمانية وهي مفخرة الجيش الألماني قبل وصولها مشارف فيينا بمسافة طويلة. ويذكر (يودل) أن ٧٠٪ من المصفحات جنحت على جانب الطريق من سالزبرگ وپاساو Passau حتى فيينا. وإن زعم الجنرال غودريان Guderian قائد الوحدات الآلية. - أن ٣٠٪ من قواته فقط قد تعطلت. وعلى كل حال فإن التأخير أثار هتلر كثيراً ولم يبق في فيينا إلا ليلة واحدة، ونزل في الفندق الإمبراطوري Hotel Imperial.

رغم ذلك فإن العودة الظافرة الى العاصمة الإمبراطورية السابقة التي نبذته واوصلته الى شفا الجوع في أيام صباه وقذفت به الى حياة الزقاق الشقية. وهي الآن تهتف له بفرح طاع، لم تخفق في إشاعة الانتعاش في روحه. حتى أن پاپن المصانع الذي استقل الطائرة من برلين الى فيينا للمشاركة في المهرجانات، فوجد هتلر على منصة الإستعراض العسكري مقابل هوفبرگ Hofburg قصر آل هابسبرگ العتيق فكتب في وصفه "لايسعني وصفه إلا أنه كان في أقصى حالات الغبطة"^(٤٩).

وبقي هكذا معظم الأسابيع الأربعة التالية، وهو يجوب أنحاء ألمانيا والنمسا طوياً وعرضاً، يشير

٤٩- على أنه كان يطن تحت هذه الغبطة وهو مما أخطأه پاپن الضحل التفكير شعوراً محرقاً بالنقمة على مدينة وشعب لم يقدره أيام شبابه. وهو يحتقرهما من أعماق قلبه. يدل على هذا، اقامته القصيرة في البلاد. وان كان سيقول بعد أسابيع قليلة لعمدة مدينة فيينا "كن على يقين ان هذه المدينة في عيني، جوهرة- وسأرصعها في رصعة قمينة بها" وهذا القول هو دعاية إنتخابية أكثر منه تعبيراً عن مشاعر حقيقية. أما الأحاسيس الحقيقية فقد صرح بها (بالدر فون شيراخ) حاكم فيينا النازي، وگاولاتيرها، أثناء الحرب. في إجتماع صاحب جرى في بركهوف عام ١٩٤٣. وقد وصفه في افادته أمام محكمة نورمبرگ قال فون شيراخ:

"ثم بدأ (الفوهرر) بما يمكن نعتة حقاً لا يصدق ولا يمكن تحديده على أهالي فيينا... وفي الرابعة فجراً قال هتلر فجأة شيئاً أريد أن اسجله هنا لأسباب تاريخية قال كان يجب عدم إدخال فيينا في وحدة ألمانيا الكبرى. لم يحب هتلر فيينا وهو يكره أهلها" [محاكمة مجرمي الحرب الكبار: ج ١ ص ٤٢٩]

لقد قضت على غبطة پاپن في ١٤ آذار وافسدت طيب مزاجه حادثة في اليوم نفسه تتعلق باختفاء قلهم فون كتلر Von Ketteler صديقة الحميم ومساعدته في السفارة الألمانية تحت ظروف تشير الى مكيدة دبرها له الكشتاپو. وقبلها بثلاث سنين هرب الى إنكلترا صديقه ومعاونه في السفارة (تشيرسكي Tschirsky) لينقذ نفسه من موت محقق على يد الكشتاپو. وفي أواخر نيسان وجدت جثة (كتلر) وانتشلت من مياه الدانوب حيث قذفها شقة الكشتاپو بعد قتله.

حماسة الجماهير ويدفعهم دفعاً الى "نعم! Ja" ضخمة، بجانب الوحدة. على أن خطبه الوافرة لم تضيّع فرصة واحدة في شتم (شوشنك) ومضغ الأكاذيب (التي أصبحت الآن غثة) عن كيفية تحقيق الوحدة. وأكد في خطابه للرايخشتاغ (١٨ آذار) أن (شوشنك) قد حنث بالوعد الذي قطعه بحيلته "الانتخابية" و اضاف يقول "لايفعل ذلك إلا المجنون الأعمى" وفي ٢٥ آذار أصبحت "الحيلة الانتخابية"، "هذه المهزلة السخيفة" كما وصفها في كوينكسبرگ وأدعى العثور على رسائل تثبت ان (شوشنك) كان يتواطأ ضده ويخادعه بتباطئه في تنفيذ شروط برختسگادن حتى "تعلن له الساعة المناسبة لإثارة القوى الأجنبية ضد ألمانيا".

وفي (كوينكسبرگ) ردّ هتلر أيضاً على هجمات الصحافة الأجنبية لإستخدامه القوة الغاشمة والحيلة في إعلان الوحدة دون إنتظار نتيجة الإستفتاء. "قالت صحف أجنبية معينة أننا وضعنا يدنا على النمسا بأساليب همجية، وليس لي إلا أن أقول: إنهم لا يكفون عن الكذب حتى ساعة الموت. في مراحل كفاحي السياسي فزت بحب شعبي. ولكن عندما تخطّيت الحدود ((الى النمسا)) قولت بسيل عزم من الحب لم أصادفه في حياتي. أننا لم نأت كما يأتي الطغاة بل أتينا محررين... ويتأثير هذا الإنطباع القوي قررت ألا أنتظر العاشر من نيسان بل القيام بإنجاز الوحدة حالاً..."

ليس في هذا منطق ولا إستقامة خلق في أذن الأجنبي. ولكن لاشك أنه كان طيب الأثر في نفوس الألمان. وعندما توجه هتلر بندائه العاطفي وبصوت مختنق بالتأثر في خطبة بالرايخشتاغ "أيها الألمان أعطوني أربع سنوات أخرى حتى أتمكن من إستغلال عملية الوحدة لمنفعة الجميع!" قابلته عاصفة كاسحة من التهليل والهتاف جعلت كل إنتصاراته السابقة في هذا المجلس شيئاً تافهاً صغيراً.

وافتح (الزعيم) حملة الإقتراع في فيينا في التاسع من نيسان. بخطبة في مساء اليوم السابق له. إن الرجل الذي كان يوماً يتسكع على أرصفة المدينة متشرداً قدراً خاوي البطن، الرجل الذي ظفر قبل أربع سنوات في ألمانيا بسلطات ملوك هوهنزلرن وهو الآن يتولى سلطات أباطرة هابسبرگ، بات الآن على يقين تام برسالته الإلهية:

"إنني موقن بأن إرادة الله هي التي قضت بإرسال شاب من هنا الى الرايخ وجعلته يشبّ وينمو ليصبح زعيم الشعب، حتى يكون قادراً على أن يعيد سقط رأسه الى حظيرة الرايخ.

هناك رسالات عليا ونحن لسنا إلا أمناء عليها. عندما حنث (هر شوشنك) بإتفاقيته في ٩ آذار. في تلك اللحظة بالذات ما شعرت إلا ووحى العناية الإلهية قد نزل عليّ. وأن هذا الذي حصل في الأيام الثلاثة الماضية لا يمكن تفسيره إلا بتحقيق رغبة وإرادة هذه العناية الإلهية.

في ثلاثة أيام محققهم الله القدير محققاً؛ وحلت في بركته وآلاؤه في يوم الحيانة والغدر لأكون قادراً على توحيد موطني بالرايخ!

اني الآن ارفع الشكر له، ذلك الذي اعادني الى موطني حتى اقوده إلى رايخي الألماني! غداً

سيدرك كل ألماني الساعة والأهمية التي تستبطنها الساعة، وسينحني باتضاع أمام الرب
القدير الذي حقق لنا معجزة في غضون أسابيع قليلة!"

والإستنتاج المفروغ منه أن الأغلبية النمساوية التي كانت بلا ريب ستصوّت لشوشنك (بنعم) في
١٣ آذار، قالت الكلمة نفسها لهتلر في (١٠) نيسان. كان كثير منهم مخلصين في إعتقادهم بأنه
لا بد من وحدة مع ألمانيا مهما كان شكلها. حتى مع ألمانيا نازية فهي محتومة كما هي مرغوب فيها.
فبعد أن بترت النمسا عن أراضيها الواسعة السلافية والهنغارية ١٩١٨ باتت لا تستطيع في الزمن
الطويل البقاء والعيش عيشه راضية بنفسها إلا بصيرورتها جزءاً من الرايخ الألماني يضاف الى هؤلاء
النمساويين النازيون المتعصبون الذين كانوا يزدادون عدداً بسرعة الى جانب العاطلين والشغيلين الذين
اجتذبهم النجاح. وكانوا متلهفين لتحسين اوضاعهم. ولاشك أن كثيراً من الكاثوليك في هذه البلاد
الكاثوليكية تقريباً قد إستمالهم تصريح الكردينال "إيننزر Innitzer" مرجحاً بدخول النازي الى النمسا
وحاثاً على التصويت بنعم^(٥٠) في إنتخاب حر عادل يجد الديمقراطيون والإشتراكيون وجماعة
(شوشنك) الإشتراكيون المسيحيون حريتهم في المشاركة بحملة الإستفتاء علناً. قد يكون الإستفتاء
في إعتقادي مغلقاً أما في هذا الوضع فالنمساوي الذي يصوت (بلا) هو لاشك في غاية الشجاعة
كما هو الحال في ألمانيا. والسبب لا يخلو من وجهة فالمقترعون يخشون أن تكتشف حقيقة الصوت
الذي اعطوه بالنفي. ففي منطقة إنتخابية زرتها في فيينا نهار الأحد عصراً وجدت فرجة واسعة في
زاوية غرف الصناديق مما يتيح للجنة الإنتخاب النازية المجالسة على خطوات قليلة، مجالاً حسناً لرؤية
ما يقترح الناخب عليه. أما في المناطق الريفية فقليل من يكثر أو يجرأ على إلقاء أصواته بشكل
سرّي في غرفة الصناديق فهم يقترعون علناً وأمام انظار الجميع. لقد إتفقت إذاعتي أن تبدأ في
الساعة السابعة والدقيقة الثلاثين ذلك المساء. أي بعد نصف ساعة من قفل باب الإقتراع وعندما
كانت تعد الأصوات القليلة الباقية. فأكد لي موظف نازي قبل الإذاعة أن النمساويين قد صوتوا
(بنعم) بنسبة ٩٩٪ وكان الرقم الرسمي الذي أعطي فيما بعد: ٩٩,٨٪ في ألمانيا الكبرى
و ٩٩,٧٥٪ في النمسا.

وهكذا اختفت النمسا -كنمسا- من مسرح التاريخ لفترة معينة وشطب اسمها نفسه النمساويون
الحاقدون الذين ألحقوها بألمانيا. ورمج اسم النمسا الألماني القديم (أويسترايخ Oesterreich) وأصبحت
النمسا (اوستمارك Ostmark) ثم ما لبث هذا الأسم أن اسقط واهمل وراحت برلين تدير البلاد على
شكل مناطق Gaue التي تقارب نوعاً ما الأقاليم (ليياندر Laender) التاريخية، كالتيرول وسالزبرگ
وشتيريا Styria وكارنيتيا Carintia. وأصبحت فيينا مجرد مدينة من مدن الرايخ، مركز منطقة اقليمية

٥٠- بعد أشهر قليلة (٨ تشرين الأول) نهب قصر الكردينال الذي يقع مقابل كاتدرائية القديس اسطفان رجال
العصابات النازية. أدرك (إيننزر) بعد وقت متأخر جداً ما هي حقيقة القومية الإشتراكية. وراح يتكلم في موعظة له
عن اضطهاد النازيين لكنيستته.

إدارية، وبدأت تذوى. إن المتشرد السابق والدكتاتور الحالي مسح موطنه من وجه خارطة العالم ووجد عاصمته الزاهرة من آخر خيط من خيوط المجد والشهرة. فكانت خيبة النمساويين أمراً لا مفر منه.

كان سلوك النازيين القبيين في الأسابيع القلائل الأولى أسوأ من كل ما عرفته ورأته في ألمانيا. كان ثم موجة كاسحة من السادية. يمر اليوم أثر اليوم لترى أعداداً كبيرة من اليهود رجالاً ونساءً وهم يسحون لافتات (شوشنك) من أركان الطرق والشوارع، ويقومون على تنظيف الأرصفة وتصريف مياهها القذرة. وفي أثناء عملهم وهم جاثون على ركبهم وأيديهم كان جنود العاصفة الواقفون يسخرون بهم ويهزأون ويتجمع المارة عليهم يقذفونهم بالنكات اللاذعة والشتائم. وقبض على مئات من الرجال والنساء اليهود وهم سائرون في الشوارع واجبروا على العمل في تنظيف المراحيض العامة ودورات مياه الشكاك التي يسكنها حرس الد(إس. أي) والد(إس. إس). واودع التوقيف عشرات الألوف منهم. وصودرت ممتلكاتهم ومقتنياتهم أو سرقت. لقد راقبت أنا نفسي من شقتي في بيلوسلغاس Plossigasse زمر الحرس الأسود وهي تنقل السجاجيد وأواني الفضة والصور الزيتية وغيرها من المنهوبات من قصر روتشيلد Rothchild المجاور. واستطاع البارون لويس دي روتشيلد نفسه أن يتناع فيما بعد. خروجه من قيسنا بتسليم مصانع فولاذ إلى مصانع هرمان غورنك. ويغلب على الظن أن نصف سكان المدينة اليهود البالغ عددهم (١٨٠.٠٠٠) أفلحوا في شراء حرياتهم قبل بداية الحرب والهجرة إلى الخارج بالنزول عن مقتناتهم للنازيين.

هذه التجارة الراحبة في حرية الإنسان، اشرف عليها مكتب للحرس الأسود أقامه (هيدريخ) وعرف باسم "مكتب الهجرة اليهودية" وقد أصبح الدائرة النازية الوحيدة المخولة حق إصدار جوازات سفر لليهود إلى خارج البلاد. وقد رأسه من البداية إلى النهاية نازي نمساوي ابن "لينز" مدينة هتلر واسمه (كارل أدولف آيخمان Karl Adolf Eichmann) وقدر للمكتب أن يصبح مكتباً للقضاء على البشر، وتنظيم قتل أكثر من أربعة ملايين من الأنفس معظمهم من اليهود.

وأفاد همملر وهيدريخ من فترة بقائهما في النمسا خلال الأسابيع القلائل التي عقيبت، لاقامة معسكر اعتقال ضخم في ماوتهاوزن Mauthausen على الضفة الشمالية من الدانوب قرب (اينس Enns). لقد كان يصعب جداً نقل آلاف النمساويين إلى معسكرات الاعتقال الألمانية. وارتأى همملر أن النمسا في حاجة إلى معسكر اعتقال خاص بها. وقبيل التطويق بالرايخ الثالث وجد أن المعتقلين غير النمساويين فيه يزدون عن نزلائه المحليين. وقدر ل(ماوتهاوزن) أن يحطم الرقم القياسي بين معسكرات الاعتقال الألمانية [ذلك لأن معسكرات الإغناء الشرقية كانت شيئاً آخر] فقد فخر بأعظم رقم رسمي لعدد من تم إعدامهم فيه وهو (٣٥٣١٨) في ظرف ست سنوات ونصف سنة من انشائه.

وبالرغم من إرهاب الغشتاپو الذي نظمه همملر وهيدريخ بعد ضم النمسا، تقاطر الألمان بمئات الألوف إلى النمسا حيث كان يمكنهم أن يدفعوا بمراكاتهم ثمن أكالات فخمة لاتتيسر لهم في ألمانيا

بين سنين وسنين. وحيث يقضون عطلاً بتكاليف زهيدة جداً في بحيرات النمسا وجبالها التي لاتضاهي. وتدفق رجال الصناعة والمال لشراء الشركات والبيوت التجارية المصادرة من اليهود وأعداء النازية بجزء تافه من أثمانها الحقيقية. وكان من بين الزائرين الباسمين الدكتور شاخنت النادر المثال. فمع خصامه مع هتلر كان وزيراً (بلا وزارة). وقد جاء للإستيلاء على البنك الوطني النمساوي لمصلحة بنك الرايخ قبل الإستفتاء بوصفه رئيساً له وتكلم في موظفي البنك في (٢١) آذار متهمكماً على الصحافة الأجنبية لانتقادها أساليب هتلر في تحقيق الوحدة. ودافع بشدة عن تلك الأساليب متحجاً بأن الإتحاد تم "على أثر ما لا يحصى من أعمال الغدر والوحشية والعنف التي مارستها الدول الأجنبية ضدنا ونحن نشكر الله... لأن أدولف هتلر خلق وحدة في إرادة الألمان وفي افكارهم. وسيجها بالجيش الألماني المتقوي ثم أعطى أخيراً الشكل الخارجي للوحدة الداخلية بين ألمانيا والنمسا..."

"لن يجد شخص واحد مستقبلاً له معنا إن لم يعمل لأدولف هتلر قلباً وقالباً وبإخلاص تام..."

لن يكون بنك الرايخ الاً قومياً إشتراكياً. ولست أنا رئيسه إن لم يكن كذلك."

وبعدها سمع شاخنت يمين الولاة من الموظفين النمساويين ليكونوا "مخلصين ومطيعين للزعيم" ثم هتف "من يحنث به نذل ساقط! ثم تقدم سامعيه بهتاف التحية لهتلر "تحية من الاعماق!"^(٥١) زيگ هایل."

وفي الوقت نفسه ألقي القبض على (شوشنك) وتعرض لمعاملة مهينة الى حد يصعب أن يعتقد أنها لم تكن بإيعاز من هتلر نفسه. وضع تحت الحجز المنزلي من ١٢ آذار حتى ٢٨ أيار. وفي أثناء هذه الفترة تعمد الكشتاپو أن يحرمه من النوم مطلقاً، بأساليب وحيل شيطانية ثم أخذ الى مقر الكشتاپو في فندق متروبول بفيينا وهناك حبس في غرفة صغيرة من غرف الطابق الخامس مدة سبعة عشر شهراً وأجبر على تنظيف الغرف والمغاسل واواني القاذورات والمراحيض الخاصة بحرس ال(إس. إس) بالمنافس المخصصة لإستعماله الخاص. الى جانب اي أشغال يدوية مختلفة أخرى قد لاتخطر إلاً ببال الكشتاپو. وبحلول ١١ آذار وهو الذكرى السنوية الأولى لسقوطه، كان قد فقد ثمانية وخمسين پاونداً من وزنه (حوالي ٢٩ كيلو) إلاً أن طبيب ال(إس. إس) كتب بتقريره أن حالته الصحية ممتازة. وعن سنوات الحبس الإنفرادي ثم عن الحياة "مع الموتى الاحياء" في بعض اشنع معسكرات الإعتقال الألمانية (كداخاو) و(ساخسنهاوزن) بعدها، فقد وصفها في كتابه^(٥٢).

بعد توقيفه بقليل سمح له بالزواج عن طريق التوكيل. بالكونتيس فيرا كزرنين Vera Czernin التي كانت محكمة كنسية قد ألغت زواجها الأول^(٥٣). وسمح لها في آخر سنوات الحرب أن تسكن زوجها وتعاشره في معسكرات الإعتقال مع طفلهما الذي ولد لهما في ١٩٤١. كانت معجزة حقاً أن يبقوا

٥١ - نص خطية شاخنت [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٧ الص ٣٩٤-٤٠٢ الوثائق A-EC297].

٥٢ - "صلاة جناز النمسا".

٥٣ - في هذا الزمن كان شوشنك أرمل.

في قيد الحياة ويخرجوا من هذا الكابوس أحياء. وقبيل النهاية أنضم اليهم مشاهير الشخصيات من ضحايا سخط هتلر أمثال الدكتور (شاخت وليون بلوم) رئيس الحكومة الفرنسية وزوجته (السيدة بلوم). والقسّ الشهير (نيمويلر) وعدد كبير من الجنرالات والقادة العسكريين الكبار، والأمير (فيليب) أمير هسّ وزوجه الأميرة (مافالدا) بنت ملك إيطاليا التي قتلها حرس ال(إس. إس) في معسكر بوخنفالدي ١٩٤٤، وكان قتلها جزءاً من انتقام هتلر، لتخلي أبيها الملك فكتور امانويل عنه وإنضمامه الى الحلفاء.

في (١) أيار ١٩٤٥ وصل هؤلاء السجناء العظام- الذين نقلوا على وجه السرعة من (داخاو) وسيقوا جنوباً لإبقائهم بعيدين عن القوات الأمريكية المتقدمة من الغرب خشية تحريرهم- وصلوا قرية تقع في ذروة من جبال التيرول الجنوبية. وأطلع ضباطُ الغشتاपो شوشنك على قائمة بأسماء الذين ينبغي قتلهم بناءً على أوامر هملر - قبل وقوعهم في يد الحلفاء. ولاحظ (شوشنك) اسمه واسم زوجته فيها "مطبوعة طبعاً أنيقاً" فوهى عزمه، بعد أن عاش هذه المشاق وخرج من الأحوال... متحملاً صابراً... يقتل في آخر لحظة!

ومهما يكن فقد استطاع شوشنك في ٤ أيار أن يكتب في يومياته:

"في الساعة الثانية بعد ظهر اليوم. إنذار! الأمريكان!

فصيلة من الأمريكان تحتل الفندق.

نحن أحرار!"

تمكن هتلر دون أن يطلق طلقة واحدة ودونما تدخل من بريطانيا العظمى وفرنسا والإتحاد السوفياتي، وكانت جيوشها كفيلة بالقضاء عليه، من إضافة سبعة ملايين من الرعايا الى الرايخ والحصول على مركز استراتيجي ذي قيمة عظيمة جداً لخطته المقبلة. لقد أحاطت جيوشه بچيكوسلوفاكيا من ثلاث جهات فضلاً عن سيطرته على منطلق الى جنوب شرقي أوروبا، بامتلاكه مدينة فيينا فقد ظلت - بوصفها عاصمة للإمبراطورية النمساوية-المجرية زمناً طويلاً مركزاً للمواصلات والخطوط التجارية لأوساط أوروبا وجنوبها الشرقي. هذا المركز العصبي هو الآن في قبضة الألمان.

ولعل أهم ما ناله هتلر هو تأكده للمرة الثانية أن فرنسا وبريطانيا لن ترفعا اصبعاً لوقفه. في ١٤ آذار تكلم چمبرلين في مجلس العموم البريطاني عن "الأمر الواقع" fait accompli في النمسا وراحت السفارة الألمانية في لندن تمطر برلين ببرقيات عاجلة متواصلة معقبة مجرى المناقشة. ولم يكن فيها ما يخشاه هتلر. صرح چمبرلين قائلاً "الحقيقة الراسخة هي لا يمكن إيقاف ما سبق وحدث فعلاً [في النمسا] إلا إذا كانت هذه البلاد وغيرها قد استعدت لإستخدام القوة".

بات واضحاً لهتلر أن رئيس الحكومة البريطاني لم تقصر رغبته على الإمتناع عن إستخدام القوة

بل تعدها الى نبذ فكرة التشاور مع القوى الكبرى الأخرى حول وقف اي حركة ألمانية في المستقبل. وفي ١٧ آذار اقترح الإتحاد السوفياتي مؤتمراً للقوى داخل نطاق عصبة الأمم أو خارجه لإيجاد الوسائل الرادعة الكفيلة بوقف عدوان ألماني آخر. فكان موقف چمبرلين بارداً من اي إجتماع كهذا. ثم مالبت أن رفضه علناً في جلسة مجلس العموم بتاريخ ٢٤ آذار بقوله: "إن النتيجة المحتومة لأي عمل كهذا هي إثارة الإتجاه الى إقامة مجموعات من الدول ستكون بلاشك... معادية لأي من مطامح إحلال السلم الأوروبي". والظاهر أنه غفل أو لم يأخذ مأخذاً جدياً! وجود محور برلين روما، والمعاهدة الثلاثية لمكافحة الكومنترن بين ألمانيا وإيطاليا واليابان.

وفي الخطاب نفسه أعلن چمبرلين قراراً لحكومته لايد وأنه زاد من سرور هتلر. فقد رفض رفضاً جازماً اقتراح قيام بريطانيا بضممان مساعدة چيكوسلوفاكيا في حالة وقوع هجوم عليها، كذلك رفض فكرة مساندة فرنسا إن طلب من الفرنسيين تنفيذ عهودهم وواجباتهم بموجب المعاهدة الفرنسية الچيكوسلوفاكية. هذا التصريح المباشر خفف من مشاكل هتلر تخفيفاً جماً. فقد أيقن الآن أن بريطانيا ستبقى على مبعدة عندما يثب على ضحيته الثانية. إن وقفت بريطانيا في نجوة أفلا تقف فرنسا أيضاً؟ كان متأكداً من ذلك كما تفصح أوراقه السرية للأشهر القلائل التي تلتها. كان يعرف أن نص المعاهدات الفرنسية الروسية الچيكوسلوفاكية، لايُلزم الإتحاد السوفياتي... بمعونة چيكوسلوفاكيا حتى تتحرك فرنسا أولاً. وهذه المعرفة هي كل ما يحتاجه للإستمرار في تدبير خطته حالاً.

وبإمكان هتلر أن يثق أيضاً أن الجنرالات المترددين لن يعودوا عقبة في طريقه بعد ضم النمسا. وإن كان قد تبقى له ذرة من الشك في ذلك فقد زالت بفضيحة (فريتش).

رأينا في الفصل السابق أن محاكمة الجنرال فون فريتش أمام محكمة شرف عسكرية عن تهمة الشذوذ الجنسي قد قطعت فجأة يوم مباشرتها الموافق ١٠ آذار، عندما استدعي الفيلد مارشال (گورنگ) وقائدا الجيش والأسطول لمعالجة أمور عاجلة بخصوص النمسا. استؤنفت المحكمة في ١٧ آذار ولكن نظراً الى ما حصل خلال فترة التأجيل أصبحت ذات أهمية ثانوية. فقبل أسابيع قليلة كان الجنرالات الأقدمون واثقين أنه عندما ستكشف المحكمة عن المكائد المذهلة الشنعاء التي كادها (هملر وهيدريخ) لفريتش لن يقتصر الأمر على عودة قائدهم العام المعزول الى منصبه بل سيهتز كيان الحرس الأسود من أسسه وربما الرايخ الثالث أو حتى هتلر فيهبون معاً. يا للأمل العقيم الخلاب! في الرابع من شباط (كما يذكر القاري) هشم هتلر أحلام أعضاء هيئة الضباط القدامى بتسليم قيادة القوات المسلحة وعزل فريتش والإستغناء عن خدمات أغلب الجنرالات الكبار الملتفين حوله. وهو الآن قد احتل النمسا دون ان يطلق رصاصة واحدة. وبعد هذا النصر المدهش لم يعد أحد في ألمانيا حتى الجنرالات الأقدمون يفكرون كثيراً في قضية الجنرال فون فريتش، الحق يقال انه برّيء من التهمة بسرعة بعد

صياح وانتهاز من (كورنك) الذي أثبت وتباهى بكونه أنزه القضاة. وانهار (شميدت) المجرم ذو السوابق المبتز في أثناء المرافعة وإعترف ان الكشتاپو هدده بالقتل إن لم يتهم الجنرال فون فريتش (وهو تهديد نفذوه فيه على كل حال بعد أيام قلائل من المحاكمة) وأن التقارب بين اسمي (فريتش) و(رتمايستر فون فريش) الذي كان يبتز المال منه فعلاً بتهديده بفضح شذوذه الجنسي هو الذي أدى الى حبك الدسياسة. ولم يحاول فريتش أو الجيش فضح دور الكشتاپو الفعلي، ولم يقوموا بالكشف عن إجرام (هملر وهيدريخ) في تزوير التهم الكاذبة. وفي اليوم التالي الموافق ١٨ آذار ختمت المحكمة جلستها بالقرار المتوقع "ثبت عدم إرتكابه الجريمة التي حوكم بها وبرئت ساحتة".

كانت براءة لشخص الجنرال فون فريتش غير انها لم تُعده الى قيادته، كما لم تعد الى الجيش مركزه السابق ولا بعض إستقلاله في الرايخ الثالث. وكانت جلسات المحاكمة سرية فلم يعرف الرأي العام شيئاً عنها ولم يدر بالنتائج التي تمخضت بها. وبعث هتلر في ٢٥ آذار ببرقية الى فريتش يهنئه فيها على "عودة صحته اليه". وكان هذا كل شيء.

في حين أبى الجنرال المعزول أن يد أصبح اتهام الى هملر في أثناء المحاكمة. نراه يأتي بعمل ختامي عقيم. فقد دعا رئيس الشرطة هملر الى المبارزة وكتب التحدي الجنرال (بيك) وفق أدق قواعد شرعة الشرف العسكري القديم وسلم الجنرال فون روندشدت ليدفع به الى رئيس الإس إس بوصفه الجنرال الأقدم في الجيش. لكن (رونشدت) جن وارتخت مفاصله وبقي التحدي في جيبه لايفارقه أسابيع وأخيراً نسيه.

وسرعان ما غاب الجنرال فون فريتش وكل ما يمثله عن أفق الحياة الألمانية. لكن ما الذي كان يمثله في النهاية؟ في كانون الثاني كتب الى صديقه البارونة مارغوت فون شوتزبار Margot Von Schutzbar رسالة تدل على مدى اللبلة والإضطراب الذي هوى اليه تفكيره ككثير من الجنرالات الآخرين: "من الغريب حقاً أن يرقب عدد كبير جداً من الناس المستقبل بخوف متزايد. رغم النجاح المؤكد الذي حققه الزعيم خلال السنوات الماضية... لقد توصلت بعد الحرب بزمن وجيز بأن علينا تحقيق الإنتصار في ثلاث معارك إن أردنا ان نعيد لألمانيا عظمتها:

فأولاً: المعركة ضد الطبقة العاملة- هذه المعركة ربحها هتلر. وثانياً: المعركة ضد الكنيسة الكاثوليكية. وربما كان الأوفق أن نعبر عنها بالمعركة ضد Ultramontanism. وثالثاً: المعركة ضد اليهود.

ونحن في وسط هذه المعارك الثلاث. واصعبها طراً هي المعركة ضد اليهود وآمل أن يدرك كل شخص مدى التعقيدات فيها^(٥٤).

٥٤ - مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٤ ص ٥٨٥ (الوثائق ١٩٤٧ PS).

وفي ٧ آب ١٩٣٩ عندما بدأت غيوم الحرب تكفهر، كتب للبارونة "ليس عندي أي دور لا في السلم ولا في الحرب، في ألمانيا هر هتلر. وسأرافق لوائي كهدف ليس إلا، لأنني لأستطيع البقاء في منزلي".

وهذا ما فعله تماماً. كان في ١١ آب ١٩٣٨ قد أختير (كولونياً أعلى) للوائه التاريخي لواء المدفعية الثاني عشر، وهو لقب فخريّ صرف وفي ٢٢ أيلول ١٩٣٩ كان هدفاً لأحد هدافي المدافع الرشاشة البولنديين أمام وارشو المحاصرة وبعدها بأربعة أيام دفن بمظاهر الشرف العسكري الكاملة في برلين في صبيحة يوم قر مطير مظلم أقطع يوم عشته في تلك العاصمة، ودوّنت في مفكرتي.

"بإزاحة فريتش من القيادة العامة للقوات المسلحة البرية. قبل عشرين شهراً. حقق هتلر انتصاراً كاملاً على آخر قلعة في ألمانيا قد تقف في وجهه. تلك هي طبقة الضباط العسكريين القديمة ذات التقاليد. وزاد من تحكيم قبضته على الجيش الآن في ربيع عام ١٩٣٨ بضربته البارعة في النمسا وأبرز زعامته بتحدٍ موضحاً بأنه هو وحده الذي يصدر القرارات في السياسة الخارجية وان دور الجيش قاصر على إمداده بالقوة الضاربة أو بالتهديد بإستعمال القوة. زد على ذلك أنه منح الجيش دون ان يضحى رجلاً واحداً، موقفاً استراتيجياً وجعل چيكوسلوفاكيا عاجزة عن الدفاع عسكرياً. ليس هناك وقت يصح إضاعته، في سبيل الإستفادة من هذا الموقف.

في ٢١ نيسان، بعد أحد عشر يوماً من الإستفتاء النازي في النمسا استدعى هتلر الجنرال كايثل رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة لبحث معه القضية الخضراء."

الفصل الرابع

الطريق الى مونيخ

- ١ -

"القضية الخضراء" هو المصطلح الرمزي للخطة الخاصة بهجوم مباغت على چيكوسلوفاكيا. وكما رأينا كان الفيلد مارشال فون بلومبرگ أول واضع لها في ٢٤ حزيران ١٩٣٧ ولقد أشاد بها هتلر وأفاض أثناء خطبته أمام الجنرالات في ٥ تشرين الثاني مؤكداً "بأن الإنحدار على الجيك" يجب أن يتم "بسرعة البرق الخاطف"، وقد حصل ذلك في "مطلع ١٩٣٨"^(١).

من الواضح ان الإنتصار السهل على النمسا، جعل "القضية الخضراء" أمراً عاجلاً بعض الشيء. فيجب والحالة هذه ان تنقح الخطة لتلائم الظروف الحاضرة. وبدأت الإستعدادات. ولهذا السبب إستدعى هتلر (كايتل) في ٢١ نيسان ١٩٣٨ وفي اليوم التالي قام الرائد (رودولف شموندت) مرافق هتلر الجديد بتهيئة خلاصة للحديث قسمت الى ثلاثة فصول "المظاهر السياسية، والإستنتاجات العسكرية والدعاية"^(٢).

نبذ هتلر "فكرة هجوم ستراتيجي دون سابق إنذار أو سبب أو مبرر محتمل للرأي العام العالمي المعادي الذي قد يؤدي الى وضع خطير". وفكر أن البديل الثاني وهو "العمل بعد فترة مباحثات دبلوماسية تؤدي بالتدرج الى أزمة ثم الى حرب، غير ملائم لأن الجيك (الأخضر) سيبادرون الى إتخاذ إجراءات وقائية". وفضل الأخذ ببديل ثالث على الأقل في الوقت الحاضر وهو "عمل مباغت يستند الى حادث" مثلاً: (قتل الوزير المفوض الألماني في مظاهرة معادية للألمان)^(٣).

"حادثه" مثل هذه- كانت كما يذكر القاريء قد أقرت في وقت ما لتبرير غزو ألماني للنمسا عندما كان باين هناك وقد أختير بالذات ليكون الضحية المقصودة! حقاً ان البعثات الدبلوماسية الألمانية في عالم عصابات هتلر وشقاوته، هي أشياء لا قيمة لها في الخارج.

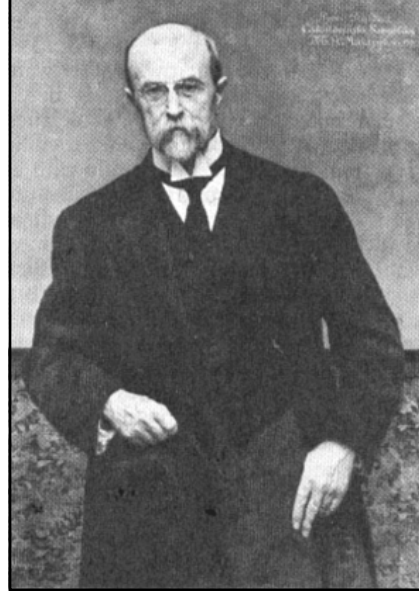
١- انظر ما سبق.

٢- حفظت القضية الخضراء في مقر هتلر وعثر الأمريكان عليها في قبو بأوبرسالزبرگ سالمة وكانت خلاصة حديث هتلر- كاييتل، في الورقة الثانية من المجموعة. وقدم الملف كله دليلاً في نورمبرگ (الوثيقة ٣٨٨ PS). ولها ترجمة إنكليزية في (مؤامرة... ج ٣ ص ٧٠٦-٧٠٩) وهناك ترجمة أفضل في (وثائق عن السياسة الخارجية الألمانية ج ٢ ص ٢٣٩-٢٤٠).

٣- القوسان الكبيران وردا في الأصل.



بينيتش



مازاريك

وبيّن سيد الحرب النازي للجنرال كايتمل (وهذا ما يصح إطلاقه عليه بعد توليه قيادة القوات المسلحة) ضرورة عامل السرعة فقال: "من الناحية السياسية ستكون الأيام الأربعة الأولى فترة حاسمة. وفي حالة عدم تحقيق نصر عسكري باهر، لا مفرّ من مواجهة أزمة أوروبية و(الأمر الواقع) وحده هو الذي سيقنع الدول الأجنبية بعبث التدخل العسكري.

أما الجانب الدعائي للحرب فليس الوقت مناسباً لاستدعاء الدكتور غوبلز ولم يتحدث هتلر إلا عن مناشير "لتوجيه الألمان في چيكوسلوفاكيا" وأخرى تتضمن "تهديدات من شأنها إلقاء الفزع بالچيك". إن جمهورية چيكوسلوفاكيا التي قرر هتلر تحطيمها الآن كانت من خلق معاهدات الصلح التي مقتتها الألمان عقيب الحرب العامة الأولى وهي أيضاً ثمرة مجهودات مفكرين چيكين شهيرين هما (توماش كاريگ مازاريك Tomáš Garrigue Masaryk) وهو ابن حوذي ثقّف نفسه وأصبح فيلسوفاً معروفاً وأول رئيس جمهورية للبلاد. والثاني هو (ادوارد بينيش) ابن فلاح شق بنفسه طريقه من جامعة براغ وثلاثة معاهد علمية فرنسية أعلى منها علمياً. وبعد أن ظل بمنصب وزير خارجية بدون إنقطاع تقريباً تقلّد رئاسة الجمهورية عند إعتزال مازاريك في ١٩٣٥ ونحتت چيكوسلوفاكيا من إمبراطورية آل هابسبرگ (كانت في القرن السادس عشر ما عرف بمملكة بوهيميا) وتطورت خلال السنوات التي تلت تكوينها في ١٩١٨ الى أفضل دولة ديمقراطية تقدمية وأعلىها ثقافة وأكثرها رخاء في أواسط أوروبا.

على ان تكوينها بالأصل من قوميات مختلفة. أوقعها من البداية في مشاكل داخلية لم تستطيع حلها حلاً نهائياً بعد عشرين سنة، تلك هي مشكلة أقليتها. ففي البلاد يعيش مليون هنغاري ونصف مليون روثيني وثلاثة ملايين وربع مليون ألماني سوديتي، هذه القوميات كان تحن حنيناً الى بلادها "الأم" هنغاريا، وروسيا وألمانيا على التوالي. مع أن الألمان السوديت لم يكونوا قط جزءاً من الرايخ الألماني بل من النمسا (خلا تأليفهم جزءاً من الإمبراطورية الرومانية المقدسة المفككة الأوصال). وجملة القول كانت هذه القوميات ترغب في إستقلال ذاتي أكثر مما منح لها.

حتى (السلوفاك) أنفسهم، وهم يؤلفون ربع الملايين العشرة من سكان البلاد. فقد طمحو الى مدى معين من الحكم الذاتي فمع انهم متقاربون من الجيك عنصرياً ولغوياً، إلا أن تطورهم التاريخي والثقافي والإقتصادي كان مختلفاً، والسبب الأكبر لهذا يعزى الى خضوعهم عدة قرون للهنغار. وكانت قد عقدت إتفاقية بين الجيك والسلوفاك في المهجر بأمریکا. تم التوقيع عليها في (پيتسبرغ Pittsburgh) في ٣٠ أيار، ١٩١٨ أقرت للسلوفاك حكومة خاصة وبرلماناً ومحاكم خاصة. إلا أن حكومة (پراغ) لم تجد نفسها ملزمة بهذه الإتفاقية فلم تضعها موضع التطبيق.

والحق الذي لا يمكن نكرانه إن الأقليات الجيكوسلوفاكية كانت في أفضل وضع إذا ما قورنت بأقليات الدول في الغرب، أو حتى في أمريكا. فهي تتمتع الى جانب الحقوق المدنية الديمقراطية الكاملة بما فيها حق التصويت - بحقوق وإمتيازات أخرى بخصوص معاهدها الثقافية الخاصة، وتنظيم الأحزاب السياسية وكثيراً ما نصب زعماء هذه الأحزاب وزراء في الحكومة المركزية. وعلى كل حال فإن جيكوسلوفاكيا التي لم تشف تماماً من آثار قرون الاضطهاد الذي صبه النمساويون عليها مازال أمامها طريق طويل لحل مشكلة الأقليات كما تصبو اليه وتطمح. بل كان الجيك أحياناً شوقيين، وكثير ما أظهروا فظاظة وقلة فطنة. أذكر من أولى زياراتي لتلك البلاد الحقد العميق الذي كان يعتمل في نفوس السلوفاك لسجن الدكتور فوجيك توكا Dr. Vojteck Tuka في ذلك الحين. وهو استاذ محترم حكم عليه بالحبس خمسة عشر عاماً بتهمة "الخيانة" وان كان من المشكوك فيه أنه لم يقدّم بأكثر من الدعوة الى حكم ذاتي سلوفاكي. وفوق كل ذلك كانت الأقليات تشعر ان الحكومة الجيكوسلوفاكية لم تبرّ بالوعود التي قطعها (مازاريك وپينش) لمؤتمر الصلح في باريس ١٩١٩ في اقامة نظام إتحادي لامركزي شبيه بالنظام السويسري.

ومن الغرابة بمكان - ونظراً الى ما سيذكر هنا بعد قليل - أن الألمان السوديت كان وضعهم طيباً جداً في إطار الدولة الجيكوسلوفاكية - وبالتأكيد خير من وضع أي أقلية أخرى في البلاد، كالأقلية الألمانية في بولندا أو إيطاليا الفاشية. على أنهم كانوا ساخطين على تحكم الموظفين المحليين الجيكيين الصغار وعلى التمييز العنصري الذي قد يحدث أحياناً في پراغ وصعب عليهم أن يتحملوا ضياع سلطانهم على بوهيميا وموراڤيا، أيام كانوا سادة عليها في عهد هابسبرگ. على أنهم كانوا يعيشون مجموعات متكتلة على طوار الأجزاء الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية من البلاد حيث

تركز أغلب الصناعات. فأصابوا حظاً كبيراً من الرخاء ومرت السنون وهم يقتربون تدريجياً من حالة الانسجام مع الجيـك، لا ينقطعون ابداً عن طلب المزيد من الإستقلال الذاتي والمزيد من الإحترام للغتهم وتراثهم الثقافي. ولم تبرز حركة سياسية مطالبة بالأكثر من هذا حتى ظهور هتلر، وكان الديمقراطيون الإشتراكيون وغيرهم من الأحزاب الديمقراطية الأخرى تحوز معظم أصوات السوديت.

ثم وفي ١٩٣٣ عندما أصبح هتلر مستشاراً إنتشرت جرثومة مرض القومية الإشتراكية في السوديت الألمان. ففي تلك السنة تألف حزب السوديت الألمان (S.D.P) بزعامه معلم رياضة لطيف الطبع يدعى (كونراد هنلاين Konrad Henlein) وفي ١٩٣٥ بدأ هذا الحزب يتلقى إعانة سرية من وزارة الخارجية الألمانية قد تبلغ خمسة عشر ألف مارك شهرياً^(٤). وفي ظرف سنتين حاز الحزب المرتبة الأولى وإجتذب الأغلبية في أرض السوديت ولم يبق خارج نطاقه غير الشيوعيين والديمقراطيين الإشتراكيين. وفي الوقت الذي أنجز هتلر ضم النمسا كان حزب (هنلاين) مستعداً ليصدع بأمر أودلف هتلر - بعد أن ظلّ ثلاث سنين يتلقى توجيهاته من برلين.

وأُسرع هنلاين الى برلين لتلقي الأوامر بعد مرور أسبوعين من الوحدة وفي ٢٨ آذار انفرد به هتلر ثلاث ساعات. يحضر من ريبنتروب وهس. ومما كشفه تقرير في وزارة الخارجية أن تعليمات هتلر هي: "يجب علينا دائماً أن نطلب الكثير بحيث يتعذر إرضائنا"^(٥).

ولهذا لم تكن محنة الأقلية الألمانية في چيكوسلوفاكيا إلا هبة لهتلر. كما ستكون (دانزك) لپولندا بعدها بسنة واحدة. مجرد حلة لطبخ عصيدة في البلاد التي يطعم فيها فيصدع أركانها ويوقع الإضطراب والبلبله في نفوس أصدقائها مخفياً تحتها أغراضه الحقيقية. وأوضح تلك الأغراض في خطبة الخامس من تشرين الثاني أمام قادة الجيش وفي الأوامر التوجيهية الأولية (للقضية الخضراء): إزالة الدولة الجيكوسلوفاكية من الوجود وإزداد أراضيها وسكانها لمنفعة الرايخ الثالث. ومع ما حدث للنمسا فإن قادة فرنسا وبريطانيا لم يستوعبوا المسألة والظاهر أن كلاً من چمبرلين والرئيس دالاديه Daladier ظلّ طوال الربيع والصيف، بل حتى النهاية، يعتقدان - كما يعتقد معظم الناس تقريباً - أن كل ما يريده هتلر هو إنصاف أبناء جلدته في چيكوسلوفاكيا.

وواقع الأمر إن الحكومتين البريطانية والفرنسية وأيام الصيف تدنو خرجتا عن طورهما في الضغط على الحكومة الجيكوسلوفاكية كي تمنح إمتيازات كبيرة للسوديت الألمان. وفي الثالث من أيار كتب السفير الألماني في لندن (هربرت فون ديركسن) الى برلين يقول أن اللورد هاليفاكس أبلغه عن مسعى دبلوماسي demarche ستقدمه الحكومة البريطانية الى براغ بعد قليل "يرمي الى إقناع بينيش لإظهار أكثر ما يمكن من المجاملة والمداواة للسوديت الألمان"^(٦). وبعدها بأربعة أيام في ٧ أيار قدم السفيران

٤- المذكرات السرية لوزارة الخارجية الألمانية ١٩ آب ١٩٣٨ "مؤامرة... ج ٦ ص ٨٥٥" [وثائق نورمبرگ ٣٠ ٥٩ PS].

٥- وثائق من سياسة ألمانيا الخارجية ج ١١ ص ١٩٧-١٩٨.

٦- المرجع السالف ص ٢٥٥.

الفرنسي والبريطاني في براغ Prague (ديمارشهما) فيه يلحان على الحكومة الجيكية "أن تتنازل أقصى ما يمكن" كما عبّر عنه الوزير الألماني في لندن بتقريره إلى برلين. وذلك لتحقيق الطلبات التي قدمها السوديت. وبدا هتلر وريبنتروب جدّ مسرورين لأن الحكومتين البريطانية والفرنسية مهتمتان بمساعدتهما كثيراً.

ولم يعد مهماً بعد وصول الأمور إلى هذه المرحلة أن تبقى النوايا مكتومة. وفي ١٢ أيار قام (هنلاين) بزيارة سرية إلى قلهم شتراسه في برلين وتزوّد بتعليمات من ريبنتروب عن كيفية خطب ودّ الإنجليز عند وصوله لندن مساء ذلك اليوم لمقابلة السر روبرت فانسيتارت Sir Robert Vansittart رئيس المستشارين الدبلوماسيين في وزارة الخارجية وغيرهم من الشخصيات البريطانية. وقد دَبَّج (فايسيك) مذكرة تتضمن الخط الأساسي الذي سيتبعه "سينكر هنلاين" في لندن. أنه يعمل بوحى من برلين... أخيراً يتكلم (هنلاين) عن التصدع المستمر في بناء الجيك السياسي حتى يثبط من عزيمة تلك الأوساط التي تعتبر أن تدخلها لمصلحة هذا البناء قد يكون ذا نفع^(٧).

وفي اليوم نفسه ابرق الوزير الألماني من براغ إلى (ريبنتروب) حول ضرورة إتخاذ الحيلة لستر السفارة في عملية تسليم المال والأوامر لحزب السوديت الألمان.

وقابل السفير الأمريكي هيو ويلسن Hugh R. Wilson في برلين (فون فايسيك) في ١٤ أيار لبحث أزمة السوديت فصارحه هذا بمخاوف الألمان من تعمد السلطات الجيكية إثارة أزمة دولية بمحاولة منها لمنع تحلل چيكوسلوفاكيا وبعدها بيومين (١٦ أيار) أرسل المرافق (شموندت) برقية مستعجلة "سرية للغاية" إلى مقر القيادة العليا يسأل عن سيده الذي كان يرتاح في أوبرسالزبرگ كم عدد الفرق العسكرية على الحدود الجيكية والمستعدة للزحف في غضون إثنتي عشرة ساعة بعد صدور الأوامر بالحركة". فأجاب المقدم الركن (زايتزلر Zeitzler) فوراً "إثنتا عشرة فرقة". فلم يرض ذلك هتلر. وطلب ثانية "أرجو أن ترسلوا أرقام الفرق" وجاء الجواب يتضمن عشر فرق مشاة مع أرقامها، إضافة إلى فرقة مدرعة واحدة وفرقة جبلية واحدة^(٨).

كان هتلر يتوثب للعمل كالحصان الجامح. في اليوم التالي (١٧) سأل من القيادة العليا عن معلومات دقيقة للتحصينات التي أقامها الجيك في جبال السوديت على حدودهم. وقد عرفت بخط ماجينو الجيكي. فأجاب (زايتزلر) من برلين في اليوم نفسه ببرقية مطوكة (سرية جداً) يعلم بها الزعيم في إسهاب بوسائل الجيك الدفاعية ويوضح أنها منيعة لا يستهان بها^(٩).

٧- مذكرة فايسيك ١٢ أيار ١٩٣٨ [وثائق من سياسة ألمانيا الخارجية ج ٢ الص ٢٧٣-٢٧٤].

٨- نص البرقيات الأربع المتبادلة [مؤامرة... ج ٣ الص ٣٠٨-٣٠٩ الوثيقة ٣٨٨ PS].

٩- المرجع نفسه الص ٣٠٩-٣١٠.

الأزمة الأولى: أيار ١٩٣٨

ان عطلة الأسبوع التي بدأت بنهار الجمعة ٢٠ أيار آلت الى "أزمة خطيرة" عرفت فيما بعد "بأزمة أيار". وفي الثماني والأربعين ساعة التي تلت، كانت حكومات لندن وباريس وبراغ وموسكو تتوجس خيفة من أن أوروبا قد اقتربت من شفا الحرب بالحد الذي لم تبلغه منذ صيف ١٩١٤، ولعل مرد ذلك بالدرجة الأولى تسرب أخبار الى الخارج عن خطط جديدة لهجوم ألماني على چيكوسلوفاكيا أعدتها لهتلر القيادة العليا ورفعتها اليه في يوم الجمعة. ومهما يكن من أمر فإن الإعتقاد السائد في براغ ولندن هو أن هتلر يوشك أن يقوم بهجوم عدواني على چيكوسلوفاكيا. فحمل الجيك على إعلان التعبئة وأظهرت بريطانيا وفرنسا والإتحاد السوفياتي وحدة وثباتاً في وجه ما خشيت حكوماتها أن يكون تهديداً ألمانياً وشيكاً. ذلك الثبات الذي لم تظهره مرة أخرى حتى كادت حرب عالمية جديدة تقضي عليها جميعاً.

في يوم الجمعة ٢٠ أيار أرسل الجنرال كايتل الى هتلر في (أويرسالزبرگ) مسودة جديدة (للقضية الخضر) إنشغل في وضعها هو وأركانها منذ أن أوضح له خطوطها العامة في إجتماعهما في ٢١ نيسان. وشرح كايتل في رسالة حافلة بالتذلل والملق للزعيم مع الخطة أنها قد وضعت في الحسبان "الموقف الذي نجم عن ضم النمسا الى الرايخ الثالث" وانها لن تناقش مع القادة العاملين للقوات المسلحة الثلاثة حتى تصادق عليها "أنت يا زعيم" وتذيلها بتوقيعك.

إن الأمر التوجيهي الجديد (للأخضر) المؤرخ في ٢٠ أيار ١٩٣٨ هو وثيقة مهمة لها مدلولاتها. فهي نموذج للتخطيط النازي للعدوان وكان العالم سيعرف عنه الكثير فيما بعد. "[بدأت هكذا] ليس في نيتي أن أسحق چيكوسلوفاكيا بعمل عسكري في المستقبل القريب جداً، دون إستفزاز، إلا إذا اضطررنا تطورات فجائية لا يمكن تفاديها... من داخل [الإهتمام بالعبارة الأخيرة ورد بالأصل] چيكوسلوفاكيا الى إتخاذ هذا المسلك. أو أن تخلق الأحداث السياسية في أوروبا فرصة مناسبة جداً، قد يمكن أن لاتحدث ابداً"^(١٠).

"هنالك إحتمالات سياسية ثلاثة لبدء العملية، يجب أن توضع قيد الدرس. الأول "هجوم مباغت دون ان يرافقه عذر ظاهري معقول"، هذا الإحتمال مرفوض. يفضل أن يشرع بالعمليات بأحدى الفرضيتين التاليتين: (أ) بعد فترة من نزاع سياسي وتوتر متزايد يرافقهما إستعدادات عسكرية تستغل حتى يُلقى وزر إثارة الحرب على العدو.

١٠- نص كتاب كايتل والامر التوجيهي [وثائق من سياسة... ج ٢ الص ٢٩٩].

(ب) بعملية مباغتة نتيجة حادثة خطيرة تؤدي الى وضع ألمانيا موضع إستفزاز لا يمكن إحتماله في أعين جزءٍ من الرأي العام العالمي على الأقل، هذا يزودنا بالمبررات الأدبية لإتخاذ التدابير العسكرية.

إن الفقرة (ب) هي المستحسنة من وجهتي النظر العسكرية والسياسية. "أما عن العملية العسكرية نفسها فيجب أن تحقق نصراً ساحقاً خلال أربعة أيام لتكشف للدولة العدوّة الراغبة في التدخل وضع الجيش العسكري اليائس وليكون باعثاً لتلك الدول التي تدعي بمطالب إقليمية في جيوكوسلوفاكيا، على القيام ضدها حالاً" هذه الدول هي هنغاريا وبولندا والخطة تعتمد على تدخلهما، وأما عن ابقاء فرنسا بتعهداتها للجيش فقد اعتبر ذلك أمراً مشكوكاً فيه. ولكن "يحتمل أن تقوم روسيا بمحاولة تقديم المساعدة العسكرية".

وكانت القيادة العليا، أو على الأقل هتلر وكايتل، واثقين تماماً أن الفرنسيين لن يقاتلوا بحيث يكفي وضع "قوة صغيرة جداً" لحماية المؤخرة في الجهة الغربية. "واوضح أن "كل ثقل القوات يجب أن يتم إستخدامه ضدّ جيوكوسلوفاكيا" وان "مهمة القوات البرية كافة" بمساندة القوة الجوية (الوفتافاه) هي "سحق الجيش الجيوكوسلوفاكيا وإحتلال بوهيميا ومورافيا بأسرع ما يمكن". كانت حرباً جماعية. وللمرة الأولى تجد في التخطيط العسكري الألماني تقديراً لقيمة ما نعتة الأمر التوجيهي "حرب الدعاية" و"الحرب الإقتصادية" وقد حيك طرز إستخدامهما في كل ثنايا خطة الهجوم العسكرية حياكة متينة.

"حرب الدعاية" [وضعت العبارة بالاصل بين قوسين لجلب النظر] يجب من جهة أن تستهدف تحطيم معنوية الجيش بوسائل التهديد حتى تضحمل قوى المقاومة فيهم. ومن الجهة الثانية يجب أن تزود الأقليات القومية بتلميحات عن كيفية معاونة عملياتنا الحربية والتأثير على المحايدين منهم لضمهم الى صفوفنا.

"ولحرب الدعاية، مهمة إستخدام الموارد الإقتصادية الميسورة للتعجيل بإنهيار الجيش... ففي أثناء سير العمليات العسكرية من المهم دفع مجهود الإقتصاد الحربي العام دفعات الى أمام بجمع المعلومات بسرعة عن المصانع المهمة وتشغيلها بأسرع وقت ممكن ولهذا السبب فإن تحاشي تدمير المؤسسات الصناعية والآلية الجيكية -قدر ما تسمح العمليات العسكرية- قد يكون ذا أهمية عظيمة لنا.

هذا النموذج للعدوان النازي، سيبقى ثابتاً بالجوهر ليستخدم بنجاح هائل، حتى صحت عليه دنيا وسنائة هبت من رقدتها.

بعد ظهر اليوم العشرين من أيار بقليل أرسل الوزير المفوض الألماني الى برلين برقية "طارئة سرية للغاية" ذكر فيها أن وزير الخارجية الجيكي قد أبلغه قبل قليل بالتلفون أن حكومته "قلقة من الأنباء التي تشير الى وجود وحدات عسكرية [ألمانية] في سكونيا" وذكر أنه أجاب الوزير "لا داعي للقلق

مطلقاً" إلا أنه طلب من برلين إعلامه حالاً إن كان يوجد شيء ما.

كان هذا أول مراسلة من سلسلة مراسلات دبلوماسية محمومة في عطلة الأسبوع هزت كيان أوروبا وداومتها بعاصفة خوفٍ من قرب قيام هتلر بحركة جديدة تؤدي هذه المرة إلى حرب عامة. وأساس المعلومات التي تسلمتها الإستخبارات البريطانية والچيكية وهي أن الجيش الألماني يتحشد على الحدود الچيكية لم يكشف عنها حتى الآن قدر ما أعلم. فبالنسبة إلى أوروبا التي مازالت تترنح تحت صدمة الإحتلال العسكري الألماني للنمسا، مازال يوجد في الجو ما ينذر بالشر المستطير. ففي ١٩ أيار نشرت صحيفة في (لايبيك) نبأً عن تحركات عسكرية ألمانية. وفي ٩ أيار أعلن زعيم السودان هنلاين عن إنقطاع المفاوضات بين حزبه والحكومة الچيكية. وعُلم أنه توقف في برختسگادن لمقابلة هتلر في طريق عودته من لندن وأنه مازال هناك. وجرت حوادث إطلاق نار في أنحاء من أرض السودان. وإستمرت حرب (گوبلز) الدعائية طوال شهر أيار تختلق حكايات مفزعة عن "الإرهاب الچيكي" ضد السودان الألمان. وبدا وكأن التوتر قد بلغ ذروته.

ومع وجود بعض التحركات في الجنود الألمان بسبب مناورات الربيع ولاسيما في المناطق الشرقية، فإنه لم يتم دليل قطّ مما ضبط من الوثائق الألمانية مايشير إلى أي تحشيد جديد فجائي من القوات المسلحة على الحدود الچيكية في هذا الوقت بالذات. بالعكس، فهناك وثيقتان من أوراق وزارة الخارجية الألمانية مؤرختان في ٢١ أيار تتضمنان تأكيدات سرية إلى قلهلمشتراسه من الكولونيل (يودل) التابع للقيادة العليا بعدم وجود أي تحشيدات لا في (سيليزيا) ولا في النمسا السفلى. أكد يودل في رسائل لن تستخدم لإقناع الجهات الأجنبية. أنه لا يوجد شيء من هذا القبيل "خلا المناورات السنوية المعتادة وقت السلم"^(١١). وليس معنى ذلك أن الحدود الچيكية خالية من الجنود الألمانية. فقد رأينا أن القيادة العليا أعلنت هتلر في ١٦ أيار رداً على سؤاله المستعجل، بوجود إثنتي عشرة فرقة ألمانية على الحدود الچيكية "مستعدة للزحف خلال إثنتي عشرة ساعة".

أيمكن أن يكون الچيكيون أو البريطانيون قد توصلوا عن طريق إستخباراتهم إلى البرقيات التي تبودلت فيها هذه المعلومات؟ وانهم علموا بالأمر التوجيهي للقضية (الخضراء) التي أرسلها (كايتل) لمصادقة هتلر في ٢٠ أيار؟ ففي اليوم التالي أخبر الجنرال كريتشني Krejci رئيس هيئة أركان الجيش الچيكي، الملحق العسكري الألماني العقيد تاوسان Toussaint في براغ بأن لديه "معلومات لا يتطرق إليها الشك حول حصول تحشيد لعدد من الفرق يتراوح ما بين الثماني والعشر في مقاطعة سكسونيا"^(١٢).

وعدد الفرق لا يعدو الحقيقة كثيراً حتى وإن كانت المعلومات عن مواقع تحشيداتها وتوزيعها غير دقيقة نوعاً ما. ومهما يكن من أمر ففي ٢٠ أيار عقدت الحكومة الچيكية إجتماعاً طارئاً في قصر (هرادشين Hradschin) في براغ برئاسة رئيس الجمهورية (بينيش) وقررت التعبئة الجزئية الفورية.

١١- المرجع السالف: الص ٣٠٧-٣٠٨.

١٢- تقرير الوزير المفوض الألماني وملحقه العسكري في براغ ٢١ أيار ١٩٣٨، المرجع السالف الص ٣٠٩-٣١٠.

ودعيت وجبة واحدة للخدمة وجرت تعبئة وحدات إحتياطية من صنف معينة. لم تكن الحكومة الچيكية تنوي الإستسلام دون حرب على الضد من الحكومة النمساوية قبل شهرين. أسلمت التعبئة الچيكية -وان كانت جزئية- هتلر الى نوية غضب جامع لم تخفف من غلوائه التقارير التي وردته في أوبرسالزبرگ من وزارة الخارجية الألمانية وكلها تنبئه بالمقابلات المتواصلة التي يقوم بها سفيرا فرنسا وبريطانيا فيها ينذران ألمانيا بأن الإعتداء على چيكوسلوفاكيا يعني حرباً أوروبية.

لم يقع الألمان تحت ضغط دبلوماسي عنيف متواصل كما استخدمه البريطانيون خلال عطلة نهاية الأسبوع هذه. كان رئيس الحكومة البريطانية چمبرلين قد أرسل الى برلين السير نقييل هندرسن Nevile Hinderson سفيراً لكي يستخدم حذقه بوصفه دبلوماسياً محترفاً، لتهدئة هتلر، فأستخدمه والحق يقال الى أقصى حد. راح هذا السفير يختلف الى وزارة الخارجية الألمانية باستمرار للإستفسار عن تحركات الجنود الألمان وينصح بالحذر، وليس ثم شك من انه كان مدفوعاً من اللورد هاليفاكس ووزارة الخارجية البريطانية لأن هذا السفير الدمث المجامل لم يكن عطفاً لچيكوسلوفاكيا كما يعرف ذلك عنه كل من اتصل به. قابل ريبنتروب مرتين في ٢١ أيار. وفي اليوم التالي مع أنه يوم أحد- قابل وكيل الوزارة (فايسيك)- لأن ريبنتروب أستدعي للمثول بين يدي هتلر على جناح السرعة في أوبرسالزبرگ ليسلمه رسالة شخصية من هاليفاكس يؤكد فيها خطورة الوضع. وفي لندن إستدعى وزير الخارجية السفير الألماني مساء السبت وشرح له مدى خطورة الساعة.

كل هذه الإتصالات البريطانية لم تفت ملاحظة الألمان. كما ذكر السفير فون ديركسن في رسالته بعد رؤيته هاليفاكس قال إن الحكومة البريطانية الواثقة بأن فرنسا ستخف الى معونة چيكوسلوفاكيا، قد لاتفعل هي فعل حليفاتها كما يستطيع ان يؤكد. وأقصى مرحلة يبلغها البريطانيون في هذا المضمار هو أن ينذروا ويتوعدوا كما فعل هاليفاكس. يقول ديركسن "في حالة صدام أوروبي يتعذر التكهّن بانحجار ببريطانيا اليه؟^(١٣)

وهذا هو الواقع الذي بلغته حكومة چمبرلين. هذا هو المدى الذي عاجلت به أطماع هتلر الى أن فات الأوان لوقفها. وكان إعتقاد المؤلف وهو في برلين ابتداءً من تلك اللحظة حتى النهاية، لو أن چمبرلين أعلم هتلر بصراحة أن بريطانيا ستقدم الى ما اقدمت عليه بالأخير. ووقفت في وجه العدوان النازي لما سدر الزعيم في مغامراته التي أدت الى الحرب العالمية الثانية. وقد قوي إعتقادي هذا بعد مدارستي الوثائق السرية الألمانية. تلکم هي غلطة رئيس الوزراء البريطاني العظمى القتالة. كان هتلر فريسة الكآبة في مقره الجبلي في أعالي برختسگادن. وقد أحس إحساساً عميقاً بالمذلة والتحقيق الذي أصابه من الچيك وبالمساندة التي ظفروا بها من لندن وپاریس، حتى موسكو وتلك

١٣- تقرير السفير فون ديركسن المؤرخ ٢٢ أيار ١٩٣٨ المرجع السالف الص ٣٢٢-٣٢٣.

ثالثة الأثافي. تلك القارعة التي لا يقدر غيرها على إيصاله الى هذه الحالة من السويدة وسوء المزاج. وكان معظم ثورته متأثراً من اتهامه مسبقاً بعدوان لم يرتكبه بعد في حين كان يعد له العدة بعد ان صحّ عزمه عليه. في نهار الأحد هذا قام بدراسة الخطة الجديدة (للقضية الخضراء) التي بعث بها (كايتل)، إلا أنها لم تكن قابلة للتنفيذ حالاً وابتلع عنجهيته وأمر وزارة الخارجية في برلين أن تبلغ المبعوث الدبلوماسي الشيكي في ٢٣ أيار (اللاتين) أن ألمانيا ليست لديها نيّات عدوانية تجاه چيكوسلوفاكيا وأن الأنباء عن تحشدات عسكرية ألمانية على حدودها لا أساس لها من الصحة. وتنفس قادة الدول الصعداء في كل من براغ ولندن وباريس وموسكو. لقد تم التغلب على الأزمة. ولقّن هتلر درساً. وعليه الآن أن يعلم أنه لن يخرج من العدوان سالماً بالسهولة التي خرج منه بالنمسا. فيما ما أقل ما عرف هؤلاء الساسة عن الدكتاتور النازي!

بعد فترة كآبته في أوبرسالزبرگ التي دامت بضعة أيام نما خلالهما في نفسه غيظ محرق للثأر من چيكوسلوفاكيا وبوجه خاص من الرئيس بينيش الذي كان يعتقد أنه تعمّد إذلاله شخصياً. فظهر فجأة في برلين في ٢٨ أيار واستدعى الى المستشارية القادة الأقدمين للقوات المسلحة ليسمعهم قراراً خطيراً. أعلنه هو نفسه في خطبة له أمام الرايخشتاغ بعد ثمانية أشهر على الشكل التالي "لقد عزمتم عزماً نهائياً لا مرد له على حل مسألة السوديت بالقوة:

في الثامن والعشرين من أيار أمرت بما يلي.

اولاً: ان الإستعداد لعمل عسكري ضد هذه الدولة يجب ان يتم في الثاني من تشرين الأول.

ثانياً: أن يتوسع في بناء إستحكاماتنا الغربية توسعاً كبيراً ويستعجل فيها جداً...

ان تعبئة (٩٦) فرقة قد تم التخطيط لها وشرع فيه...^(١٤)

وجلجل صوته أمام أعوانه گورنگ وكايتل وبراوختش وبيك وأمير البحر رايدر ورينتروب ونيوراث

"ان عزمي لا يتزعزع قط في مسح چيكوسلوفاكيا من الخارطة!"^(١٥)

وهكذا جيء بالقضية الخضراء واعيد تنقيعها وتتابع يوميات (يودل) ما كان يجول برأس هتلر

المحموم الحقود "إن نية الزعيم في التخلي عن تنشيط المسألة الشيكية قد تبدلت، بسبب التحشيد

العسكري الشيكي في ٢١ أيار الذي حدث دون وجود أي تهديد ألماني ودون ان يستدعيه سبب مهمما

ضؤل شأنه ويسبب ضبط النفس الذي تحلت به ألمانيا آل الأمر الى أن يفقد الزعيم منزلته وهو ما

لا يقبل ان يذوق مرارته ثانية ولذلك نشر الأمر التوجيهي (للخضراء) في ٣٠ أيار^(١٦).

إن تفاصيل الأمر التوجيهي للقضية الخضراء الذي وقعه هتلر في ٣٠ أيار لا يختلف في الجوهر عن

١٤- خطبة الرايخشتاغ في ٣٠ كانون الثاني، ١٩٣٩ في (نظامي الجديد) نشره: "روسي دي سال: ص ٥٦٣

١٥- روى فريتز ويدمان: Fritz Wiedmann أحد مرافقي هتلر وكان موجوداً قال مقسماً ان هتلر كان "مضعف الحواس لدن

سمع بتصريح بينيش [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٥ الص ٧٤٣-٧٤٤: الوثيقة ٣٧ PS].

١٦- يومية (يودل) غفل عن التاريخ [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج ٢٨ ص ٣٧٢: الوثيقة ١٧٨٠ PS].



المارشال كايتل

المسودة التي قدمت لهتلر قبل تسعة أيام إلا أنه يتضمن تغييرين هامين. فقد شطبت عبارة واحدة من النسخة الأولى المؤرخة (٢١ أيار) وهي "لست انوي سحق چيكوسلوفاكيا في المستقبل القريب" ووضع في ديباجة الأمر الجديد الافتتاحية التالية "إن قراري الجازم الذي لاسبيل للرجوع عنه هو سحق چيكوسلوفاكيا بعمل عسكري في المستقبل القريب".

ومعنى "المستقبل القريب" يفسره (كايتل) في رسالة ختامية. فقد أمر "إن تنفيذ (الخضراء) يجب ان يتأكد في ١ تشرين الأول على أكثر تقدير^(١٧). وكان تاريخاً سيلازم هتلر في أيام بؤسه ونعيمه. في أزمة بعد أخرى، وفي شفا الحرب دوغنا نكوص الى الخلف.

-٣-

تردد القادة

دوّن يودل في يومياته المؤرخة ٣٠ آذار ان هتلر وقّع الأمر التوجيهي الجديد "للخضراء" وبما أنه يتطلب "توغلاً فورياً في داخلية چيكوسلوفاكيا في يوم (س)... فمن الضروري أن تغير أهداف الجيش السابقة تغييراً كبيراً" بعد أن دوّن هذا، أضاف الفقرة التالية:

"إنّ إختلاف وجهات النظر كله يغدو حاداً مرة أخرى بين إلحاح الزعيم على قيامنا بها هذه السنة، وبين رأي الجيش في اننا لانستطيع في الوقت الحاضر. لأن الإحتمال الغالب هو أن تتدخل الدول الغربية، ونحن لم نصل بعد الى نقطة التساوي^(١٨)".

لقد وضع ضابط الأركان الدقيق الملاحظة أصبعه على شيء جديد بين هتلر وبين عدد من أرفع الجنرالات مناصب في الجيش. كانت معارضة خطط الزعيم المصابة بعدوى داء العظمة الهادفة الى

١٧- المبرز رقم (١١) من القضية الخضراء [مؤامرة... ج ٣ ص ٣١٥-٣٢٠، الوثيقة ٣٨٨ PS] كذلك [وثائق من سياسة ألمانيا الخارجية ج ٢ الص ٣٥٧-٣٦٢].

١٨- محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج ٢٨ ص ٣٧٣، يوجد ثم النص الألماني وهناك ترجمة إنكليزية لليومية نفسها عملها الخيرا في [مؤامرة... ج ٤ الص ٣٦٠-٣٧٠].

الإعتداء، يتأسسها الجنرال (لودفيك بيك) رئيس هيئة الأركان العامة للجيش، الذي سيتزعم من الآن ما اطلق عليه حركة مقاومة هتلر في الرايخ الثالث. وبعدها بزمان قدر لهذا الجنرال الذكي الحسّاس المستقيم الخلق لكن المتردد، أن يبني كفاحه على أسس واسعة. لقد كان حتى أواخر ربيع عام ١٩٣٨، بعد أكثر من أربع سنوات من الحكم القومي الاشتراكي، يعارض هتلر في النطاق المهني الضيق لا غير. ويبني معارضته على أن ألمانيا لم تبلغ بعد من القوة ما يمكنها أن تقف في وجه الدول الغربية وروسيا.

رأينا أن بيك يرحب بقدوم هتلر. ويشيد علناً بالزعيم لإعادة نظام التجنيد في الجيش الألماني متحدياً فرساي. وليذكر القاري أيضاً أنه عندما كان أمر لواء مغمور سنة ١٩٣٠، تخطى حدود عمله مندفعاً في الدفاع عن ثلاثة من ضباطه اتهموا بالخيانة بوصفهم دعاة متحمسين للنازية في القوات المسلحة وشهد بالفعل لمصلحتهم أمام محكمة الجنايات بعد أن سبقه هتلر شاهداً منذراً بأن "رؤوساً ستتدحرج" عندما يصل الى الحكم. لم يكن عدوان هتلر على النمسا (وقد ساند بيك) وانما سقوط رأس الجنرال فون فريتش بعد مكيدة الكشتايبو الذي جعله يصحو على الواقع وانطلق فكره من قوقعته وبدأ يرى لأول مرة أن سياسة هتلر في المخاطرة عمداً بالحرب مع بريطانيا وفرنسا وروسيا، خلافاً لنصائح الجنرالات القادة ستؤول إن طبقت الى دمار ألمانيا.

علم بيك بإجتماع كايتل وهتلر في ٢١ نيسان. حيث أمرت القوات المسلحة بالتعجيل في وضع الخطط للهجوم على چيكوسلوفاكيا. وكتب في ٥ أيار أول مذكرة من سلسلة متتابعة تالية، للجنرال ثون (براوختش) القائد العام الجديد. معارضاً بشدة أي عمل من هذا القبيل^(١٩).

وكانت مذكرات رائعة صريحة بما تضمنته من الوقائع السيئة وملأى بالمنطق الفعلي الرصين والعلل التي لاتدحض ومع أن (بيك) بالغ في تخمين قوة بريطانيا وفرنسا وعزمهما وفي ذكاء زعمائهما السياسيين وقوة الجيش الفرنسي. وبدا بالأخير أنه كان مخطئاً في حسابه بعد النتائج التي تمخضت بها المسألة الجيكية لكن تكهناته البعيدة جداً كانت -قدر ما يتعلق الأمر بألمانيا- دقيقة دقة الموت! كتب في ٥ أيار في مذكراته أنه على يقين من قيام حرب أوروبية إذا هاجمت ألمانيا چيكوسلوفاكيا. وفي هذه الحرب ستواجه ألمانيا كلاً من بريطانيا وفرنسا وروسيا. كما ستكون الولايات المتحدة مستودع سلاح للديمقراطيات الغربية. ان ألمانيا لايمكن أن تريح مثل هذه الحرب بالطبع. وافتقارها الى المواد الأولية وحده كفيل بان يجعل النصر مستحيلاً. ويبن أن وضع ألمانيا العسكري-الاقتصادي "هو الآن أسوأ مما كان في ١٩١٧-١٩١٨" عندما دبّ الإنهيار في جيوش القيصر.

وكان (بيك) في ٢٨ أيار أحد الجنرالات الذين استدعوا الى دار المستشارية بعد "أزمة أيار"

١٩- نصوص المذكرات اوردها فلفكانك فورستر في كتابه Ein Genasl Kasmpt gegen den Kreig الص ٨١-١١٩.

للإصغاء الى عاصفة هتلر ونيتته في مسح چيكوسلوفاكيا من الخارطة في الخريف القادم. ودون ملاحظات دقيقة من خطبة هتلر. وبعدها بيومين كتب مذكرة أقوى وأحد لهجة من سابقتها في إنتقاد برنامج هتلر مادة مادة. وسلمها الى براوختش في اليوم الذي وقّع الأمر التوجيهي الجديد (للقضية الخضراء) الذي تعين فيه يوم ١ تشرين الأول للهجوم. واراد أن يتأكد من أن قائده العام الشديد الحذر سيتفهمها بدقة فلم يكتف بتقديمها بل تلاها عليه شخصياً كلمة كلمة. وبالأخير اوضح (لبراوختش) الحائر، الذي يشكو بعض الضحولة في التفكير، ان ثم أزمة في داخل "القادة العسكريين الكبار" نجم عنها فوضى. وان لم تتم السيطرة عليها الآن سيكون مصير الجيش وبالتالي مصير ألمانيا "أسود" وبعدها ببضعة أيام في ٣ حزيران دفع (بيك) بمذكرة أخرى الى براوختش صارحه فيها أن الأمر التوجيهي (للقضية الخضراء) هو "غير صحيح عسكرياً" وأن هيئة الأركان قد رفضته.

لكن هتلر كان مندفعاً في الأمر. ويكشف ملف "الخضراء" الذي وقع في قبضة الحلفاء كم بلغ به الهياج بتقدم الصيف. تراه يأمر بأن المناورات العسكرية الخريفية المعتادة يجب أن يستعجل بها حتى يكون الجيش أهلاً لدخول المعركة. وأن تجرى تمرينات خاصة "في إقتحام الإستحكامات بهجوم مباغت". وابلغ الجنرال كايتل "أن الزعيم يلح باستمرار على ضرورة التعجيل بأقصى ما يمكن في انجاز أعمال الإستحكامات من جهة الغرب".

ويعود هتلر ليسأل في ٩ حزيران عن المزيد من المعلومات بخصوص التسليح الجيكي ويتسلم حالاً تقريراً مفصلاً عن كل سلاح متصور صغير وكبير، يستخدمه ذلك الجيش الجيكي. وفي اليوم نفسه تراه يسأل: "هل أن الإستحكامات الجيكية بما فيها من الجنود الآن قليلة المناعة؟" كانت معنوياته - وهو في قصره الخلوي الجبلي يقضي الصيف محاطاً بحاشيته المخلصة - ترتفع وتنخفض وهو يلهو بفكرة الحرب. وفي ١٨ حزيران تراه يصدر "أمرأً توجيهياً عاماً" يتعلق "بالخضراء":

"ليس ثم خطر حرب وقائية على ألمانيا... سأقرر القيام بعمل ضدّ چيكوسلوفاكيا عندما يتأكد لي بما لا يقبل الشك... أن فرنسا لن تزحف وأن بريطانيا لن تتدخل".

على أنه في ٧ حزيران كان يقلب هذه "الإعتبارات" فيما يجب عمله إن تدخلت فرنسا وبريطانيا. يقول: "الإعتبار الأول، هو الثبات في الإستحكامات الغربية" حتى تسحق چيكوسلوفاكيا، ويعود ممكناً نقل الجنود الى الجبهة الغربية. أما واقع عدم وجود جيش متيسر للصمود في الإستحكامات الغربية فلا يفرض نفسه أبداً على تفكيره المحموم، ويرتأي أن "روسيا ستدخل على أقرب الاحتمالات" كما تجده الآن غير واثق تماماً من وقوف پولندا موقف المتفرج. هذه الاحتمالات يجب معالجتها. الا انه لا يبين الوسيلة.

ويظهر أن هتلر المنعزل بعض الشيء في أوبرسالزبرگ لم يسمع بعد بالتدمير اللاغط الذي كان يشيع في أوساط أقطاب هيئة الأركان العامة. لقد ادرك رئيس الأركان في أوساط الصيف أن القائد العام المذبذب الأهواء لم يوصل رأيه الى (الزعيم) رغم ملاحقته بمذكراته. وبهذا قرر في أوساط تموز أن

يقوم بآخر محاولة يائسة لوضع حدٍّ للمسألة بأي صورة كانت. فكتب في ١٦ تموز آخر مذكرة (لبراوختش). وطلب فيها أن يصارح الجيش هتلر بوجوب وقف الإستعداد للحرب.

"بإدراك تام بخطورة مثل هذه الخطوة ونظراً لما تتطلبه مسؤولية إيتالي أيضاً، اشعر أن واجبي يحتم عليّ الطلب بإلحاح أن يبادر القائد الأعلى للقوات المسلحة [هتلر] بإيقاف الإستعداد للحرب، ونبذ فكرة حلّ المسألة الجيكية بالقوة، حتى يتغير الموقف العسكري تغييراً جذرياً. وأنا في هذه الساعة اعتبرها محاولة يائسة فاشلة حتماً. ويشاركني في هذه النظرة كل القادة الأقدمين في هيئة الأركان".

حمل (بيك) مذكرته الى (براوختش) شخصياً وفسرها له شفويّاً واشفعها بإقتراحات أخرى بعمل موحد يقوم به جنرالات الجيش إن ظلّ هتلر مصراً. اقترح بصورة صريحة أن يقوم الجنرالات القادة في هذه الحالة بتقديم إستقالة إجتماعية على الفور. وبرز للمرة الأولى في تاريخ الرايخ الثالث سؤالاً خيماً بكلّ كلفة على كل محاكمات نورمبرغ وهو: هل يدين الضابط بولاً أعلى من الولاء الذين يدين به للزعيم؟ في نورمبرغ اعتذر عشرات من الجنرالات عن جرائم الحرب التي اقترفوها ونفوا انهم مذنبون لأن واجبهم هو تنفيذ الأوامر. إلا أن (بيك) في ١٦ تموز خالفهم في وجهة نظر كان سيقى متمسكاً بها وعاملاً في سبيلها حتى النهاية دون أن يحالفه النجاح في أكثر الأحيان. قال: هناك "حدود" لولاء المرء للقائد الأعلى عندما يقوم الضمير والإدراك والمسؤولية حائلاً دون تنفيذ الأوامر وهو يشعر أن الجنرالات قد وصلوا هذا الحدّ فإن أصرّ هتلر على الحرب فعليهم أن يستقيلوا كافة وفي هذه الحالة يتعذر على هتلر شنّ الحرب. لعدم وجود من يقود الجيش.

كان رئيس هيئة أركان حرب الجيش ثائراً الآن بشكل لم يعهد فيه من قبل والمقاييس تنهوى أمام عينيه. لقد تبين له في الأخير أن الخطر المحدق بالشعب الألماني، هو أكثر من مجرد معارضة رئيس دولة هستيري دفعه عامل استياء مفاجيء الى مهاجمة شعب صغير مجاور والمخاطرة بإثارة حرب عظيمة.

كل حماقات الرايخ الثالث وطغيانه وإرهابه وفساده واحتقاره للفضائل المسيحية العتيقة كلها اشرقت في وجه هذا الجنرال الذي كان بالأمس من الموالين للنازية. وبعدها بثلاثة أيام (١٩ تموز) ذهب مرة أخرى الى (براوختش) لينفث ما في صدره من الحقيقة التي المتجلية له.

اضاف الى إقتراحه الملحّ بوجوب إعلان الجنرالات الإضراب لمنع هتلر من إثارة حرب، إقتراحاً آخر وهو أن واجبهم يتطلب منهم تنظيف الرايخ الثالث. يجب أن يتحرر الشعب الألماني والزعيم نفسه من إرهاب الحرس الأسود وقادة الحزب النازي، ويجب أن يقام مجتمع ودولة يحكمهما القانون. ولخصّ برنامجه الإصلاحية بالآتي:

"بالنسبة الى الزعيم: ضدّ الحرب ضدّ الحكم الدكتاتوري، السلام مع الكنيسة، حرية الرأي. نهاية لإرهاب الشرطة السرية. إقامة العدل تخفيض مخصصات الحزب الى النصف، إيقاف بناء القصور، إنشاء بيوت سكنى للفقراء والناس العاديين. والمزيد من النزاهة والبساطة البروسية".

كان (بيك) على درجة من السذاجة السياسية بحيث خفي عنه أن هتلر هو المسؤول شخصياً أكثر من أي فرد آخر عن حالة ألمانيا التي ثار لها ضميره الآن على أن مهمة (بيك) العاجلة هي الإستمرار في حث (براوختش) المتردد، على تقديم تحذير من الجيش الى هتلر بطلب وقف إستعداداته للحرب. ولدعم إقتراحه هذا رتبَ إجتماعاً سرياً لجميع الجنرالات القادة في ٤ آب. وأعد خطبة رنانة يلقيها عليهم القائد العام، لضمهم كتلة واحدة في الإلحاح بإيقاف أي مغامرة نازية أخرى قد تؤدي الى صدام مسلح. أسفاً على بيك! كانت الشجاعة تعوز براوختش، فلم يتلها. وكان على بيك أن يكتفي بتلاوة مذكرة السادس عشر من تموز لتخلف إنطباعاً عميقاً في أغلبية الجنرالات. لكن لم يتخذ قرار حاسم وانفض إجتماع القادة الأعلى للجيش الألماني من دون ان يستجمعوا الشجاعة لمصارحة هتلر، كما فعل أسلافهم من قبل ازاء أباطرة هوهنزولرن ومستشاري الرايخ.

على أن براوختش لم بعض اطراف شجاعته ليعرض على هتلر مذكرة بيك المؤرخة في ١٦ تموز. وكان جواب هتلر عليها، أنه لم يستدع قادة الجيش الكبار الذين يتفقون على ما جاء فيها. وانما دعا الضباط الذين يلونهم مرتبة وهم رؤساء أركان القيادات المختلفة للجيش والقوة الجوية ويؤلفون الصف الأصغر سناً وكان يعتقد أن بإمكانه الإعتماد عليهم بعد أن يسمعهم طرفاً من فنه الخطابي المقنع. وقد استقدموا فعلاً الى برغهوف في ١٠ آب (لازمَ هتلر قصره الجبلي طوال الصيف تقريباً) وأسمعهم بعد العشاء خطبة دامت قرابة ثلاث ساعات كما روى (يودل) الذي كان من جملة الحاضرين ووصفها في يومياته الأمانة. لكن بلاغة هتلر في هذه المناسبة لم تكن مؤثرة كما أمل. وتحدث كل من (يودل) و(مانشتاين) الذي كان حاضراً ايضاً عن "اصطدام جدي سيء من اشد ما يمكن" بين الجنرال ثون (فيتترزهايم Von Wietersheim) وهملر وكان (فيتترزهايم) أقدم جنرال بين المجتمعين. وقد تجرأ - بوصفه المرشح لرئاسة أركان جيش الغرب تحت أمرة الجنرال (فلهلم أدام Wilhelm Adam) على الكلام حول المشكلة الأساسية التي تشغل بال هتلر والقيادة العليا للقوات المسلحة: وهي انه يدفع كل القوات العسكرية تقريباً لتوجيه ضربة چيكوسلوفاكيا ستبقى ألمانيا مكشوفة دون دفاع في الجبهة الغربية. وسيحتاجها الفرنسيون ويبن أن الجدار الغربي لا يمكن أن يصمد أكثر من ثلاثة أسابيع.

"[كتب يودل في يومياته] الزعيم يشور ثائره. وينفجر قائلاً: في هذه الحالة لا يكون الجيش صالحاً لأي شيء دعني اقل لك ايها السيد الجنرال [كان يصيح] إن المواضع ستبقى صامدة، ليس ثلاثة أسابيع بل ثلاثة أعوام (٢٠)!"

بماذا ستصمد؟ لم يقل. وفي ٤ آب كتب الجنرال أدام لإجتماع القادة الأقدمين أنه لن يحصل في الغرب على أكثر من خمس فرق عاملة. وهذه لاتصمد ابداً أمام الفرنسيين. ومن المحتمل أن (فيتترزهايم) أعطى الرقم عينه في الإجتماع. إلا ان (الزعيم) لم يصغ اليه. أما يودل مع كونه ضابط

٢٠- يوميات يودل [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج ٢٨ ص ٣٧٤] الترجمة الإنكليزية في [مؤامرة... ج ٤ ص ٣٦٤: وثيقة ١٧٨٠ PS].

ركن حاذق فكان واقعاً تحت سحر هتلر، وقد ترك الإجتماع مستاءً جداً لأن الجنرالات لم يفهموا عبقرية (الزعيم) على ما يبدو.

"إن السبب في هذا الرأي الواهن [رأي فيترزهايم] المنتشر لسوء الحظ في هيئات أركان الجيش إنتشاراً واسعاً، إنما يرد الى عوامل مختلفة.

فأولاً إنها [أي هيئة الأركان] مازالت مقيدة بالذكريات القديمة وتشعر أنها مسؤولة أيضاً عن المقررات السياسية بدلاً من الطاعة وتنفيذ واجباتها العسكرية. ومما لا ينكر أنها تنهض بالواجب الثاني بإخلاصها التقليدي إلا أنها مفتقرة الى قوة الروح لأنها لا تؤمن في النهاية بعبقرية الزعيم. والمرء قد يندفع الى مقارنته بشارل الثاني عشر*.

وكحقيقة كون الماء ينحدر من فوق الى تحت، كذلك يخرج من هذه الروح الاندحارية بلحٌ بحري فيه ضرر سياسي فادح (فكل أمرء يتكلم عن التناقض بين رأي الزعيم ورأي الجنرالات)، فضلاً عن خطر ذلك على معنويات الجنود. لكنني لأشك في مقدرة الزعيم على رفع معنويات الشعب عندما تحين الساعة المناسبة^(٢١)".

وكان حرياً (بيودل) أن يضيف الى ذلك مقدرة هتلر أيضاً على قمع الثورة التي تقوم بين الجنرالات. لقد أوضح (مانشتاين) أمام محكمة نورمبرگ سنة ١٩٤٦ أن هذا الإجتماع كان آخر إجتماع سمح فيه هتلر بمناقشة أو اسئلة من العسكريين^(٢٢).

وفي عرض عسكري في (يوتربوغ Jueterbog) في ١٥ آب، ردد هتلر للجنرالات عزمه على "حل" المسألة الهيكلية بالقوة" ولم يجرأ ضابط (أو يؤذن له) بقول كلمة واحدة في معارضته.

تبين (لييك) أنه هُزم، ويعود ذلك بصورة رئيسة الى جن اخوانه الضباط، وفي ١٨ آب إستقال من منصب رئيس هيئة أركان الجيش وحاول استمالة (براوختش) ليحذو حذوه إلا أن قائد الجيش بات الآن واقعاً تحت سحر هتلر المغناطيسي، مدفوعاً لاشك بتأثير حماسة المرأة النازية التي ستغدو زوجه الثانية^(٢٣). كما قال عنه هاسل Hassel: "براوختش يشبك يافته بزرراً أعلى ويقول: أنا جندي والطاعة من واجبي"^(٢٤).

من المؤلف أن إستقالة رئيس هيئة أركان الجيش في عنفوان أزمة ولاسيما شخصية محترمة جداً كالجنرال (بيك)، كانت ستثير عاصفة في الاوساط العسكرية ويتردد صداها في الخارج لتخلف رد فعل. لكن هتلر أظهر مكره هنا أيضاً. فقد قبل إستقالة (بيك) حالاً وإبرتياح كبير إلا أنه منع ذكر

* شارل الثاني عشر (١٦٨٢-١٧١٨) ملك السويد صاحب الفتوحات الكبيرة في أوروبا، تغلب عليه بطرس الأكبر في موقعة بولتافا. وبقي لاجئاً عند العثمانيين حتى أفتدي. وقتل في معركة مع النرويجيين.

٢١- المرجع نفسه.

٢٢- محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج ٢٠ ص ٦٠٦.

٢٣- حصل الجنرال براوختش على طلاقه في الصيف وتزوج السيدة شارلوت شموندت في ٢٤ أيلول.

٢٤- يوميات فون هاسل ص ٦.

شيء عنها في الصحف أو حتى في جريدة الوقائع الرسمية الألمانية أو النشرة العسكرية. وأمر الجنرال المتقاعد وزملاءه الضباط أن يبقوها سراً. إذ ليس من المستحسن أن يتسرب النبأ إلى الحكومتين الفرنسية والإنكليزية عن وجود إختلاف في وجهات النظر في أعلى مراتب الجيش الألماني وفي هذه اللحظة الخطيرة. ومن المحتمل أن باريس ولندن لم تسمعا بالأمر حتى نهاية تشرين الأول عندما أعلنت الإستقالة رسمياً في برلين والمراء لايسعه إلا الإفتراض أنهم لو سمعوا في حينه فزبما سلك التاريخ منعطفاً مختلفاً وربما لم يستمر بسيااسة مهادنة هتلر الى هذا الحد.

ودفعت وطنية (بيك) وإخلاصه للجيش الى ألا يبذل مجهوداً يجذب إهتمام الرأي العام الى إستقالته. على كل حال كان يشعر بالخيبة المرة إذ لم يسند له أي جنرال من أولئك الذين وافقوه على رأيه واسندوه في معارضته الحرب، وكان يتوقع أن يحذوا حذوه ويستقبلوا. لم يحاول إقناعهم وكان- كما قال عنه (هاسل) فيما بعد. "(كلاوسفيتز * Clausewitz) خالص، ليس فيه ألمعية (بلوخر Bluecher أو (يورك Yorck)" (٢٥)- رجل مباديء وفكر لا رجل عمل. شعر أن (براوختش) قد خذله في اللحظة الحاسمة في التاريخ الألماني، بوصفه قائداً عاماً للجيش. وهذا ما حز في نفسه. وقد نوّه كاتب سيرة حياته وصديقه بعدها بعدة سنين بـ"المرارة الشديدة" التي كانت تلوح في كلامه كلما تحدث عن قائده القديم. في هذه المناسبات كان يهز رأسه هزات أسي ويتمتم "براوختش خذلني!" (٢٦).

كان الجنرال (فرانز هالدور) خليفة (بيك) في رئاسة هيئة أركان الجيش العامة (لم يعلن عن تعيينه وبقي سراً عدة أسابيع حتى إنتهاء الأزمة) في الرابعة والخمسين من العمر. انحدر من أسرة عسكرية باقارية عريقة وأبوه جنرال. وقد نشأ في صنف المدفعية وخدم كضابط شاب في هيئة أركان ولي العهد الأمير (روبرخت) في الحرب العالمية الأولى. ومع صداقة لروهم ترجع الى أيام مونيخ الأولى لما بعد الحرب مما يجعله عرضة للشك في برلين، فقد ارتقى رقباً سريعاً في الجيش. حتى بلغ منصب نائب (بيك) في السنة الأخيرة. والواقع أن (بيك) هو الذي اقترحه على براوختش ليكون خلفاً له لأنه كان واثقاً من أنه يشاركه في وجهات النظر.

و(هالدور) يكون أول باقاري وأول كاثوليكي يولى منصب رئاسة هيئة أركان حرب الجيش الألماني في سائر تاريخه. وهذا خرق شديد لتقاليد هيئة الضباط العامة البروتستانتية البروسية. كان رجلاً ذا تتبعات فكرية واسعة يميل خاص الى الرياضيات وعلم النبات (كان أول أنطباعي عنه أنه بدا كأستاذ رياضيات أو علوم من أساتذة الجامعة). كما كان مسيحياً تقياً، وبهذه الصفات لاشك أنه كان يملك الذهن والروح اللذين يؤهلانه لإستخلاف (بيك) بجدارة واستحقاق. والمسألة هي هل يفتقر الى البراعة

* كارل فون كلاوسفيتز (١٧٨٠-١٨٣١) جنرال بروسى وستراتيجي ومؤرخ عسكري. مؤلف كتاب (في الحرب) الذي أحدث ثورة في الفكر العسكري بعد موته. كان يرى الحرب إمتداداً للدبلوماسية. وعدت نظرياته بنوات للحروب الحديثة.

٢٥- المرجع السالف ص ٣٤٧.

٢٦- فورستر المرجع السالف ص ١٢٢.

في إتخاذ قرار حاسم في الساعة المناسبة؟ وهل يتوفر فيه عنصر الإقدام (في حالة عدم افتقاره الى تلك الصفة) على الحنث بيمين ولأته للزعيم فيتحرك ضده في تلك الساعة؟ ذلك لأن (هالدر) وان لم يكن في مبدأ الأمر عضواً في المؤامرة المتنامية ضد هتلر (كان عالماً بها كما يبدو مثل بيك) وقد رغب في اسنادها، وأصبح بحكم منصبه اللولب الرئيس لأول مؤامرة استهدفت الاطاحة بدكتاتور الرايخ الثالث.

-٤-

ميلاد مؤامرة ضد هتلر

بعد خمس سنوات ونصف سنة من طغيان القومية الاشتراكية كان واضحاً لقلّة من الألمان الذين عارضوا هتلر، أن الجيش وحده هو الذي يملك القوة المجردة للإطاحة به. فالعمال والطبقة المتوسطة، والعليا، لا يملكون الوسائل، إن شاؤوا. لم يعد للعمال منظمة خارج الحزب النازي وتكتلاته وهم بالطبع لا يملكون سلاحاً. ومع أنه كتب الكثير فيما بعد عن حركة "المقاومة" الألمانية فقد ظلت من البداية الى النهاية شيئاً صغيراً ضعيفاً يقوده والحق يقال حفنة من الشجعان المخلصين الذين لا يملكون أتباعاً. إن مجرد بقائها وإستمرارها ككيان، أمرٌ من الصعوبة بمكان في دولة بوليسية يحكمها الإرهاب والجاسوسية. زد على ذلك كيف تتمكن زمرة صغيرة (او حتى كبيرة إن وجدت) من إعلان ثورة بمواجهة رشاشات الحرس الأسود ودباباتهم وباصقات نارهم؟

في المبدأ انبثقت المعارضة بين المدنيين. فقد رأينا أن القادة العسكريين كانوا مسرورين جداً بهذا النظام الذي مزق بنود معاهدة فرساي ومنحهم فرصة الإستمرار في مهمتهم التقليدية وبناء جيش عظيم مرة أخرى. ومن مفارقات الدهر أن كبار المدنيين الذين برزوا لقيادة المعارضة كانوا قد خدموا (الزعيم) في مناصب مهمة ومعظمهم كان في المبدأ متحمساً للنازية لم يفقدوا حماسهم الا بعد أن اخذت الحقيقة تتكشف لهم في ١٩٣٧، وهي أن هتلر كان يقود ألمانيا الى حرب لا تتمحض بغير الهزيمة.

ومن أوائل هؤلاء الذين رأوا النور (كارل غويردلر Karl Goerdeler) عمدة مدينة (لايبزك). كان المستشار (برونك) قد عينه مراقباً عاماً للأسعار وإستمر في عمله هذا ثلاث سنوات أثناء حكم هتلر. كان محافظاً ملكياً من حيث المبدأ. وپروتستانتى المذهب، قديراً جم النشاط ذكياً الا أنه عنيد الرأي غير كتوم. انفصل عن النازيين في ١٩٣٦ بسبب معاداتهم للسامية وإنتهاج سبيل التسليح. وبعد أن إستقال من منصبه إندفع بعمل بكل قواه في معارضة هتلر ومن أولى أعماله: تجواله في فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة في ١٩٣٧ منذراً بألمانيا النازية بشكل رزين وقور.

ورأى النور بعده بقليل متآمران آخران هما يوهانس پوپيتس Johannes Popitz وزير المال البروسي. والدكتور شاخت. كلاهما قلد أرفع وسام في الحزب النازي "شعار الشرف الذهبي" للخدمات التي قدماها في توجيه الإقتصاد الألماني للأغراض الحربية. وكلاهما بدءا يصحوان من غفلتهما على أهداف هتلر الحقيقية في ١٩٣٨ ولم يكونا موضع ثقة من الحلقة المتزعمة للمعارضة بسبب ماضيهما وأخلاقيهما. فشاخت انتهز إلى أقصى حد، وقد دون (هاسل) في يومياته أن شاخت قادر على "الكلام بشكل، والعمل بشكل آخر". ويقول أن فكرته هذه يشاركه بها الجنرالان (بيك) و(فون فريتش). أما (پوپيتش) فقد كان شخصية لامعة إلا أنه متقلب وهو إقتصادي شهير ومتبحر في المآثر اليونانية. وكان هو و(بيك) و(هاسل) أعضاء في "ندوة الأربعاء" وتتألف من ستة عشر مثقفاً يجتمعون مرة واحدة كل أسبوع يناقشون في الفلسفة والتاريخ والفن والعلوم والأدب، حتى أصبحوا بمرور الزمن -أو بنفاده- مركزاً من مراكز المعارضة.

وصار (اولريخ فون هاسل) بمثابة مستشار الشؤون الخارجية لقادة المقاومة. كانت تقاريره حين أرسل سفيراً إلى روما أثناء الحرب الحبشية والحرب الأهلية الإسبانية -كما رأينا- مفعمة بالنصائح عن كيفية إبقاء إيطاليا في خصام مع فرنسا وبريطانيا وبالتالي إلى جانب ألمانيا، وبعدها أدركه الخوف من أن حرباً مع فرنسا وبريطانيا قد تطوح بألمانيا شر مطوح. حتى التحالف مع إيطاليا فإنه لن يغير من النتيجة. لم تسمح ثقافته الواسعة ونشأته الخلقية الرفيعة لنفسه أن تحتفظ للقومية الاشتراكية المريضة بغير الزرابة والاحتقار. على أنه لم يتخل عن خدمة النظام بمحض إختياره بل طرد من السلك الدبلوماسي طرداً في التنصيف الواسعة العسكرية- السياسية- الدبلوماسية التي أمر بها هتلر في ٤ شباط ١٩٣٨، كان (هاسل) سليل أسرة نُبل هانوفرية عريقة وزوجاً لبنت الأميرال الأعظم (فون تربيتز Von Tirpitz) مؤسس الأسطول الألماني. وسيداً من سادة المدرسة القديمة من قمة رأسه حتى أخمص قدميه. كان لطبيعة تكوينه هذا يحتاج إلى صدمة نبذ النازيين له -ككثير من أبناء طبقته، لبيدو متلهفاً إلى الإقدام على أي عمل للتطويع بهم. فلما فعلوا به ما فعلوا أوقف الرجل الحساس النبيلة القليل كل نشاطه على هذه الغاية حتى النهاية وضحي بنفسه في سبيلها كما سنرى ولقي ميتة بربرية شنعاء.

هناك آخرون أقل شهرة وأصغر سناً وقفوا في وجه النازيين من البداية وتقاربوا تدريجاً حتى اجتمعوا ليشكلوا حلقات مقاومة متعددة. ومن زعماء مثقفي إحدى الكتل المزارع (إيثالد فون كلايست Ewald von Kleist) وهو سيد مهذب ولسيل الشاعر العظيم (كلايست). وقد وحد عمله مع (ارنست نيكيش Ernst Niekisch) وهو ديمقراطي اشتراكي سابق ورئيس تحرير (المقاومة Widerstand). والإشتراكي (فابيان فون شلابرندورف Fabian von Schlabrendorff) وهو محام شاب وحفيد طبيب الملكة فكتوريا الخاص ومستشارها الشخصي الموثوق البارون (فون شتوكمار von Stokmar). كما كان ثم زعماء نقابيون سابقون أمثال يوليوس ليبر Juluis Leber وياكوب كايزر Jakob Kaiser و(فلهم

ليوشنر (Wilhelm Leuschner) الموظفان في شرطة الغشتاير (ارتور نيبه Artur Nebe) رئيس دائرة الشرطة الجنائية (ويبرند كيزفيوس Bernd Gisevius) وهو ضابط شرطة شاب لامع، أصبحا مساعدين ثمينين عندما قطعت المؤامرات شوطاً. كان ثانيهما موضع إعجاب وإكبار الإدعاء العام الأمريكي في محاكمات نورمبرغ. وقد كتب كتاباً ألقى ضوءاً باهراً على المؤامرات التي حيكت ضد هتلر، وإن لم يمنحه أو يمنح كتابه معظم المؤرخين أي منزلة من التقدير أو الاهتمام.

هناك عدد من أبناء أسر عريقة في ألمانيا ومنهم الكونت هلموث فون مولتكه Helmuth von Moltke، وهو ابن حفيد لأخ الفيلد مارشال الشهير. وقد أُلّف هذا فيما بعد كتلة من الشبان المثاليين عرفت باسم حلقة (كرايساو Kreisau)، والكونت ألبريخت برنشتورف Albrecht Bernstorff ابن أخ السفير الألماني في واشنطن أثناء الحرب العامة الأولى، وفرايهر كارل لودفيك فون غوتنبرغ Freiherr Karl Ludwig von Guttenberg رئيس تحرير مجلة شهرية كاثوليكية جريئة، وراعي الكنيسة (ديتريش بنهوفير Dietrich Benhoeffer) وهو سليل أسرة رجال دين پروتستانتية مشهورة من جهة أمه وأبيه كان يعتبر هتلر منكراً للمسيح ويؤمن بأن من واجب المسيحي "القضاء عليه".

ظل كل هؤلاء الرجال الشجعان تقريباً، يواصلون الكفاح حتى أُلقي القبض عليهم وعذبوا تعذيباً همجياً ثم اعدموا الحياة شتقاً أو على النطع بالفاس، أو قتلوا برصاص الحرس الأسود.

ظلت هذه النواة الصغيرة من المدنيين رداً طويلاً لا تحقق نجاحاً يذكر في اجتذاب الجيش الى عملها. وكما شهد الفيلد مارشال فون بلومبرغ في نورمبرغ قال "قبل عام ١٩٣٨-١٩٣٩ لم يعارض الجنرالات الألمان هتلر. إذ لم يكن ثم سبب معقول لمقاومته، مادام حقق النتائج التي أرادوها". لقد وجد اتصال ما بين (گويردler) والجنرال (فون هامرشتاين) إلا أن القائد العام الأسبق للجيش الألماني كان متقاعداً منذ ١٩٣٤ ونفوذه قليل على الجنرالات العاملين. كذلك كان شلابرندورف قد أتصل في أوائل حكم هتلر بالكولونيل (هانس اوشتر Hans Oster) رئيس مساعدي الأميرال (كاناريس) في مكتب الإستخبارات التابع للقيادة العليا للقوات المسلحة ووجده عدواً لدوداً للنازية راغباً في محاولة ربط البرزخ بين المدنيين والعسكريين بجسر. على أن الأمر لم يتبلور حتى في شتاء ١٩٣٧-١٩٣٨ عندما تعرض الجنرالات الى صدمات متعاقبة أحدثها فيهم قرار هتلر بالخروج الى الحرب، وهزه القيادة العسكرية التي استولى عليها، ومعاملته المهينة للجنرال فون فريتش. بحيث باتوا يدركون خطر الدكتاتور النازي على ألمانيا. وزادت في صحتهم إستقالة الجنرال (بيك) في أواخر آب ١٩٣٨ عندما تعاظم خطر الأزمة الجيكوسلوفاكية وإن لم يحد حذوه واحداً من زملائه الضباط فيستيقظوا كما أمل فقد اتضح حالاً أن رئيس هيئة الأركان المعتزل هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يلتف حوله الجنرالات الناقمون ورجال المقاومة المدنيون. فكلما التكتلتين تثقن به وتحترمانه.

هناك إعتبار آخر كان واضحاً للفريقين. العمل على كبح جماح هتلر يستلزم القوة الآن، ولا يملك القوة إلا الجيش. ولكن من في الجيش من يستطيع حشده؟ ليس (هامرشتاين) ولا (بيك) لأنهما متقاعدان،

وادرکوا أن ما يحتاجونه هو ضم جنرالات يقودون في الوقت الحاضر قطعات عاملة تكون مقراتهم داخل برلين أو ضواحيها وبهذا يمكنهم القيام بعمل مؤثر حال صدور الإشارة. والجنرال (هالدر) رئيس الأركان الجديد لا يملك قطعات تحت قيادته مباشرة والجنرال براوختش في يده الجيش كله إلا أنه غير موثوق به تماماً. وقد تكون سلطته مفيدة لكن لا يمكن أن يدخلوه إلى صفهم إلا في آخر لحظة. وشاءت الصدفة أن يكتشف بسرعة جنرالات ذوو قيادات هامة راغبون في المساعدة فضموا إلى صفوف المتآمرين. كان ثلاثة منهم على رأس قيادات حيوية لنجاح المغامرة: وهم الجنرال (فون فيتزلين) قائد المنطقة العسكرية الثالثة Wehrkreis III المهمة جداً التي تشمل برلين والمناطق المجاورة والمحيط بها. والجنرال الكونت إريخ فون بركدورف-آهلفلد Erich von Brockdorff Ahlefeld قائد حامية بوتسدام التي تتكون من فرقة المشاة الثالثة والعشرين. والجنرال إريخ هويپنر Erick Hoepner الذي يقود فرقة آلية مصفحة في (ثورنجا) بإمكانها عند الضرورة أن تصد أي تحشيد من الحرس الأسود يحاول الزحف من مونيخ على برلين لإستخلاصها.

وكانت خطة المؤتمرين كما آلت إليه في نهاية آب، إلقاء القبض على هتلر ساعة إصداره الأمر الأخير للهجوم على چيكوسلوفاكيا. وجره إلى واحدة من محاكم أمنه الشعبية بتهمة محاولته جر ألمانيا نزقاً وطيشاً إلى حرب أوروبية ولهذا لا يعود أهلاً للحكم. وفي الوقت نفسه يقام لفترة قصيرة حكم دكتاتوري عسكري، ثم تؤلف حكومة مؤقتة يرأسها شخصية مدنية معروفة، وبعدها تؤلف حكومة ديمقراطية محافظة.

هناك إعتباران يتوقف عليهما نجاح الانقلاب، ويعتمدان على الجنرالين (هالدر) و(بيك) الأول منهما كان مؤقتاً للحركة فقد تفاهم مع القيادة العليا للقوات المسلحة أن يعطى له شخصياً إشارة قبل ثمان وأربعين ساعة من تعميم هتلر أمره الأخير بالهجوم على چيكوسلوفاكيا. وهو ما كان سيتيح له الوقت الكافي لتنفيذ المؤامرة قبل أن تحتاز القطعات خط الحدود الچيكية. وبهذا يتم إلقاء القبض على هتلر وفي الوقت نفسه يحول دون خطوة قاضية قد تؤدي إلى الحرب. والعامل الثاني أن يتمكن (بيك) من إقناع الجنرالات في زمن أسبق والشعب الألماني في زمن تالٍ (أثناء محاكمة هتلر المنتواة) بأن هجوماً على چيكوسلوفاكيا قد يُفحم بريطانيا وفرنسا وبهذا تنشب حرب أوروبية ليست ألمانيا مستعدة لها وستخسرهما حتماً. كان هذا عبء مذكراته طوال الصيف وهو الآن قاعدة كل ما تأهب الآن لعلمه: إبعاد ألمانيا عن حرب أوروبية ستؤدي بها حتماً إلى الدمار بطريق التطويح بهتلر.

أسفاً على بيك! وأسفاً عن مستقبل معظم بلاد العالم كان هتلر، لا رئيس الأركان المستقيل، الأدق نظرة في احتمالات نشوب حرب كبيرة. كان (بيك) المثقف الأوروبي الواقف على التاريخ يعجز عن تصور قيام بريطانيا وفرنسا بملء رغبتهما - بتضحية مصالحهما الذاتية عن طريق عدم التدخل في حالة هجوم ألمانيا على چيكوسلوفاكيا. كان ملماً بالتاريخ واقفاً على أحداثه. إلا أنه لا يعرف شيئاً عن السياسة المعاصرة. أمّا هتلر فكان بها بصيراً. وقد تعزز إعتقاده منذ زمن طويل بصحة إستنتاجه

وهو أن رئيس الوزراء جمبرلين لن يتردد في تقريب چيكوسلوفاكيا ذبيحة في سبيل يفادي الحرب، وأن فرنسا لن تقوم في هذه الحالة بإيفاء بتعهداتها لبراغ بموجب المعاهدة. كان قلهلمشتراسه مطلعاً على تقارير نشرت في صحف نيويورك منذ ١٤ أيار، نقل فيها مراسلوها "أحاديث خاصة" جرت على مائدة غداء مع جمبرلين في منزل الليدي آستور Astor. كتب المراسلون أن الرئيس البريطاني قال لن تقوم بريطانيا ولا فرنسا ولا روسيا على أغلب الاحتمال بمعونة چيكوسلوفاكيا في حالة هجوم ألماني. وأن بريطانيا تحبذ لمصلحة السلم أن تُقتطع أرض السودان وتُضم إلى ألمانيا. ورغم الأسئلة الساخطة في مجلس العموم لاحظ الألمان أن جمبرلين لم ينكر صحة التقارير الأمريكية.

وفي ١ حزيران تكلم رئيس الوزراء مع مراسلين بريطانيين كان حديثاً خاصاً في أجزاء منه. وبعدها بيومين نشرت (التايمس) أول إفتاحياتها التي ساعدت في تصدع الموقف الجيكي. حين دعت الحكومة الجيكية الى منح "حق تقرير المصير" لأقليات البلاد "وإن أدى الى انفصالها عن چيكوسلوفاكيا"، واقترحت لأول مرة اللجوء الى الإستفتاءات كوسيلة لمعرفة رغبة السودان وغيرهم. وبعدها بأيام قليلة أعلنت السفارة الألمانية في لندن، برلين بأن افتتاحية (التايمس) مستوحاة من تعليقات جمبرلين الخاصة. فهي تعكس وجهات نظره. وفي ٨ حزيران أبلغ السفير (فون ديركسن) وزارة خارجيته أن حكومة جمبرلين راغبة في أن ترى مناطق السودان مقتطعة من چيكوسلوفاكيا شريطة ان يكون ذلك بعد إستفتاء "لاتعيقه إجراءات عنيفة قسرية من الطرف الألماني" (٢٧).

كل هذا كان مما يشتهيته هتلر ويرضيه ولم تكن الأنباء من روسيا سيئة أبداً. ففي أواخر حزيران كان السفير الألماني في موسكو فردريك فيرنر كونت فون در شولنبرگ Friedrich Werner Count von der Schulenberg) ينبيء برلين ليس هناك احتمال لقيام الإتحاد السوفييتي "بالدفاع عن دولة برجوازية" (٢٨) ويقصد چيكوسلوفاكيا. وفي ٣ آب أبلغ ريننتروب البعثات الدبلوماسية المهمة في الخارج "يكاد لا يوجد خطر تدخل بريطانيا وفرنسا والإتحاد السوفييتي في مسألة چيكوسلوفاكيا" (٢٩).

وفي هذا اليوم بالذات (٣ آب) بعث جمبرلين باللورد رنسيمن Runciman الى چيكوسلوفاكيا بمهمة غريبة: ليعمل "كوسيط" في أزمة السودان. وإتفق أني كنت في براغ يوم وصوله وبعد حضوري مؤتمره الصحفي وحديثي مع أعضاء حاشيته دوّنت في يومياتي ما يلي:

"تفوح من مهمة (رنسيمن) كلها رائحة خبيثة". وأشفع جمبرلين إعلانه عنها في مجلس العموم يوم ٢٦ تموز، بتعليق حافل بالمرأعة لعلّه الحديث الفريد الذي لم يسبقه مثيل في هذا المجلس. قال رئيس الحكومة أنه أرسل (رنسيمن) "تلبية لطلب تقدمت به الحكومة الجيكية" والحقيقة

٢٧- تقارير ٨ و٩ حزيران ١٩٣٨ [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٢ الص ٣٩٥ و٣٩٩-٤٠١].

٢٨- تقرير ٢٢ حزيران ١٩٣٨ المرجع السالف ص٤٢٦.

٢٩- المرجع نفسه الص٥٢٩-٥٣١.

الواقعة أن (رنسيما) دفع دفعاً الى بلعوم چيكوسلوفاكيا بيد چمبرلين. لكن هناك خديعة أكبر منها تختفي تحت هذا فالكل يعلم -وچمبرلين أيضاً- أن بعثة (رنسيما) "للتوسط" بين الحكومة الشيكية



الأميرال هورتي

وزعماء السودان شيء سخييف مستحيل. فهم مدركون أن الزعيم السوداني (هنلاين) ليس حراً ولا يستطيع ان يفاوض، وان النزاع الآن محصور بين برلين وبراغ. وتسجل يومياتي لأول مرة ولما تلا من أيام ما يتضح منه أن الجيك كانوا يدرون تماماً أن (رنسيما) ما أرسل إلا ليمهد سبيل إعطاء أرض السودان (لهتلر). انها الحيلة دبلوماسية دنيئة!

والآن بدأت آخر أيام صيف ١٩٣٨ تنصرم و(رنسيما) يتجول في أرجاء اقليم السودان ويتنقل في ربوع (براغ) ملقياً بالتلميحات

الودودة للسودان الألمان ومكثراً الطلب على الحكومة الشيكية بأن تمنحهم ما يريدون. أمّا هتلر وجنرالاته فقد كانوا منهمكين في أعمالهم ووزارة خارجيته تطن مثل خلية النحل. وفي ٢٣ آب دعا الزعيم الوصي الهنغاري الأميرال هورتي Horthy وأعضاء الحكومة الهنغارية الى الإقامة على ظهر الباخرة (پاتريا Patria) الراسية في خليج (كيل) أثناء مناورات الأسطول. وأسرّ هتلر لضيوفه: إن كانوا يريدون أن يحضروا وليمة الجيك فعليهم أن يستعجلوا. وأجمل رأيه هكذا "من يريد الجلوس الى السمات، فعليه على الأقل أن يساعد في أعمال المطبخ" وكان السفير الإيطالي (برناردو أتوليكو Bernardo Attolico) ضيفاً في الباخرة أيضاً فألح على ريننتروب ليخبره بموعد "الحركة الألمانية على چيكوسلوفاكيا" حتى يكون موسوليني مستعداً. ردّ عليه الوزير الألماني بجواب غامض. كان واضحاً ان الألمان لا يتقون تماماً بنوايا حليفهم الفاشي. أما من بولندا فهم الآن واثقون. فقد دأب ثون مولتكه السفير الألماني في وارشو على الكتابة الى برلين إن بولندا لن تخف الى معونة چيكوسلوفاكيا، ولن تسمح لروسيا بإرسال جيوشها عبر أراضيها ولا طائراتها ان تحلق في مجالها الجوي، بل أن وزير الخارجية (الكولونيل يوزف بيك Jozef Beck) يشخص بعين نهمه الى قطعة من الأراضي الشيكية وهي اقليم (تيسين Teschen). كان الوزير (بيك) يظهر من الآن قصر النظر القتال الذي غم على الأذهان في أوروبا في ذلك الصيف. هذه الرقاعة التي ستكشف له في النهاية عن كارثة تفوق حدود خياله.

كان النشاط المتواصل يسود جو القيادة العليا للقوات المسلحة والقيادة العليا للجيش. ونظمت الخطط الأخيرة لجعل القوات المسلحة على تمام الإستعداد للإنذفاع الى چيكوسلوفاكيا في ١ تشرين

الأول. وفي ٢٤ آب كتب الكولونيل (يودل) من القيادة العليا للقوات المسلحة (ق.ع.ق.م) مذكرة مستعجلة لهتلر يشدد على "ضرورة تعيين موعد دقيق" "للحادثة" التي ستبرر لألمانيا عامل الإستفزاز المؤدي الى التدخل العسكري لإن توقيت يوم (س) يعتمد عليها.

"[ومضى يقول] لا يمكن إتخاذ إجراءات مسبقة قبل (س) ناقصاً (١) يوماً واحداً] حيث لا يمكن أن نتقدم بإيضاحات بريئة، وبخلافه سنبدو وكأننا إفتعلنا (الحادثة) إفتعلاً... ولأسباب فنية إذا اعتبرت ساعات العصر مناسبة (للحادثة) فلا يمكن أن يكون اليوم التالي هو يوم (س) بل يجب أن يكون بعده... إن الغاية من هذه الملاحظات هو الإشارة الى الأهمية العظيمة التي توليها القوات المسلحة (للحادثة) ويجب أن تبلغ بنية الزعيم خلال وقت كافٍ -ذلك لأن دائرة إستخبارات القوات المسلحة لم تكلف هي الأخرى بتدبير الحادثة^(٣٠).

كانت إستعدادات الخبراء للهجوم على چيكوسلوفاكيا فيما يظهر قد قطعت أشواطاً بعيدة بنهاية الصيف. ولكن ماذا عن الإستحكامات في الغرب إذا ما وقى الفرنسيون بتعهداتهم للچيك وقاموا بهجوم؟ في ٢٦ آب باشر هتلر بجولة في الاستحكامات الغربية يصحبه (يودل) والدكتور (تودت) المهندس المشرف على بناء الجدار الغربي، و(هملر) وعدد من رجال الحزب. وفي ٢٧ آب إلتحق بالركب الجنرال قلهملر آدم قائد جبهة الغرب (وهو عسكري باقاري صريح وقدير) وفي اليومين التاليين شاهد هذا الضابط كيف صار هتلر يترنح ثماً بالإستقبال الظافر الذي نظم له في أرض الراين. في حين لم تحدث أثراً في الجنرال بل كان في الواقع شديد القلق، وفي اليوم التاسع والعشرين أحدث مفاجأة غريبة عند الحاضرين بطلبه التحدث مع (الزعيم) على إنفراد. فصره هتلر كلاً من هملر وأعوانه الحزبيين ولم يضيع (آدم) وقته بالكلام الفارغ وصرح أنه لا يمكن من الصمود في الجدار الغربي -رغم كل الدعاية عنه- بالقطعات التي هي الآن تحت إمرته. فهاج هائج (هتلر) وصب في أذنيه محاضرة طويلة حول كيفية بلوغه بألمانيا الى القوة التي تزيد على قوة بريطانيا وفرنسا مجتمعتين. وصاح به: "إن الرجل الذي لا يصمد في هذه الاستحكامات هو جبان وغد!"^(٣١)

مهما يكن من أمر، فقد زادت الشكوك حول هذه النقطة في عقول جنرالات آخرين خلاف (آدم). وفي ٣ أيلول استدعى هتلر رئيس (ق.ع.ق.م) والقيادة العليا للجيش (ق.ع.ج) (كايتل وبراوختش). واتفق على أن تحرك وحدات الميدان الى نقاطها على طول الحدود الچيكية في ٢٨ أيلول. ولكن يجب أن يعرف (ق.ع.ق.م) متى سيكون يوم (س)، وفي وقت لا يتجاوز ظهر ٢٧ أيلول. ولم يكن هتلر راضياً عن مخطط العمليات (للقضية الخضر) وأمر أن تجرى فيه تنقيحات من جوانب متعددة. ويتضح من الملاحظات التي دونها الرائد (شموندت) أن براوختش على الأقل. أثار

٣٠- المبرز رقم ١٧ من ملف (القضية الخضر) [مؤامرة... ج ٣ الص ٣٣٢-٣٣٣ الوثيقة ٣٨٨ PS].

٣١- على ما جاء في يوميات يودل. ان هتلر استخدم كلمة Humdsfott وهي أقذع [محاكمات مجرمي الحرب الكبار: ج ٢٨ ص ٣٧٥] ويذكر تلفورد تايلر في كتابه "السيف والصليب المعقوف" تفاصيل أكثر مبنية على مذكرات الجنرال آدم غير المطبوعة.

مسألة كيفية الصمود في الغرب (ذلك لأن مصانعة كايتل أفقدته الجرأة على الكلام) فصرفه هتلر مؤكداً له أنه اصدر الأوامر بالتعجيل في بناء الإستحكامات الغربية^(٣٢).

في ٨ أيلول قابِل الجنرال (هاينريخ فون شتولبناغل Heinrich von Stuelpnagel) يودل ودون هذا في يومياته عن تشاؤم الجنرال من الموقف العسكري في الغرب. كان واضحاً لكليهما أن هتلر الذي إرتفعت معنوياته بحماسة مهرجان الحزب السنوي في نورمبرگ المفتتح وشيكاً، يسير بعزم ثابت في طريق الهجوم على چيكوسلوفاكيا سواء أتدخلت فرنسا أم لم تتدخل. وكتب يودل المتفائل عادة "أعترف بأنني قلق كذلك".

في اليوم التالي (٩ أيلول) استدعى هتلر (كايتل وبراوختش وهالدر) الى نورمبرگ لمؤتمر بدأ في العاشرة مساءً ولم ينته إلا في الرابعة صباحاً وكان مؤقراً عاصفاً كما أسرَّ كايتل ليودل، فأسرَّها هذا بدوره الى يومياته. ووجد (هالدر) نفسه في وضع دقيق لإضطرابه بحكم منصبه الى شرح خطة هيئة الأركان في معركة چيكوسلوفاكيا بكل تفاصيلها (في حين كان هو مركز ثقل المؤامرة على التطويق بهتلر في الوقت الذي ينطق بأمر الهجوم)، ووجد نفسه في مركز غير مريح قط عندما رأى هتلر يمزق الخطة شر ممزق ويشرع في تأنيبه وتأنيب (براوختش) لجبنها وعدم كفاءتهما من الناحية العسكرية^(٣٣).

ونوه (يودل) تلميحاً في الثالث عشر من الشهر بأن (كايتل) مازال "شديد الإضطراب" لفرط ما لقيه من عناءٍ في إجتماع نورمبرگ ولإنتشار روح "الإنهزامية" الواضحة بين قادة الجيش الألماني الكبار.

"رفعت (للزعيم) تهمُ بروح الإنهزامية التي تسود (ق.ع.ج)... كايتل يقول انه لن يتسامح مع أي ضابط في (ق.ع.م) ينتقد أو يتبنى أفكاراً غير صحيحة أو يظهر إنهزامية... (الزعيم) يعرف أن قائد الجيش (براوختش) كان قد طلب من جنرالاته قادة القطعات مساندته في فتح عين هتلر على المخاطر التي تكتنف مغامرته المنتواة. وهو نفسه [براوختش] لم يبق له أي تأثير على الزعيم. ولهذا خيم على نورمبرگ جو صقيعي بارد ومن سوء الحظ الشديد أن (الزعيم) يتمتع بثقة جميع أبناء الأمة بإستثناء قادة الجيش الكبار."

كل هذا أحن الشاب المستوفز (يودل) الذي ربط مصيره بهتلر. "بالأعمال فحسب يمكن [لهؤلاء الجنرالات] أن يصلحوا الأضرار التي أحدثوها بسبب إفتقارهم الى القوى العقلية والطاعة. إنها مشكلة العام ١٩١٤ بعينها. هناك مثل واحد يضرب للعصيان داخل الجيش ألا وهو قرد الجنرالات، وهو ينبع في النهاية من كبريائهم. انهم لا يستطيعون بعد ان يؤمنوا أو

٣٢- وقائع إجتماع ٣ أيلول ١٩٣٨ [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٣ ص ٣٣٤-٣٣٥ الوثيقة ٣٨٨ PS].
٣٣- ملحوظات شمودت عن إجتماع ٩ أيلول، المرجع السالف الص ٣٣٥-٣٣٨ وهو المبرز رقم ١٩ في ملف (القضية الخضراء).

أن يطيعوا لأنهم لا يدركون عبقرية هتلر. كثير منهم ما يزال يرى فيه نائب عريف الحرب العامة ولا يرى فيه أعظم سياسي منذ بسمارك^(٣٤)."

في الحديث الذي جرى بين (يودل) وبين الجنرال فون شتوليناغل الذي كان يشغل منصب "مدير التسليح والميرة الأول Oberquartiermeister 1" في قيادة الجيش العليا، أحد المشاركين في مؤامرة (هالدر) طلب تأكيدات خطية من (ق.ع.ق.م) بأن تحاط قيادة الجيش العليا علماً بأمر هتلر بالهجوم قبل وقوعه بخمسة أيام. فأجاب يودل أن تقلبات الطقس لاتدع مجالاً لأكثر من يومين وعلى كل كانت المهلة كافية للمؤقرين. إلا أنهم كانوا بحاجة الى تأكيدات من نوع آخر- هل هم مصيبون في إفتراضهم بأن بريطانيا وفرنسا ستدخلان الحرب ضد ألمانيا إن نفذ هتلر عزمه في غزو چيكوسلوفاكيا. ولهذا السبب قرروا إرسال وكلاء يوثق بهم الى لندن ليكشفوا عما إنتوته بريطانيا،



ونستون چرچل أيام الحرب

وليحاولوا أن يقووا من عزمها بإعلام الحكومة البريطانية أن هتلر قد قرر غزو چيكوسلوفاكيا في يوم معين من الخريف القادم وان هيئة الأركان التي تعرف الموعد تعارض في الهجوم وهي على إستعداد لإتخاذ عمل حاسم جداً لوقفه إن إتخذت بريطانيا موقفاً حازماً من هتلر الى الأخير.

واختار الكولونيل (اوشتر) من دائرة الإستخبارات (إفالد فون كلايست) مبعوثاً للمؤقرين. فوصل لندن في ١٨ آب. كان السفير (هندرسن) في برلين الذي بات يلح في إعطاء هتلر كل ما يريد في چيكوسلوفاكيا، ونصح وزارة الخارجية "ليس من الحكمة في شيء إستقباله [يعني كلايست] في الدوائر الرسمية" غير ان السر (روبرت فانسيترت) رئيس المستشارين الدبلوماسيين في وزارة الخارجية^(٣٥) وأحد

٣٤- يومية يودل- حاشية ١٣ أيلول: [محاكمات مجرمي الحرب... ج٢٨ الص٣٧٨-٣٧٩ الوثيقة: PS ١٧٨٠].
٣٥- جاء في مذكرة لوزارة الخارجية الألمانية مؤرخة ٦ آب. ان هندرسن قال في حفلة خاصة للمدعوين الألمان الحاضرين "ان بريطانيا العظمى لن تفكر في المخاطرة ولو ببخار واحد أو طيار واحد في سبيل چيكوسلوفاكيا وان كل حل معقول سيكتب له النجاح مادام لايفرض بالقوة" [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٢ ص٥٣٦].

قادة المعارضين لسياسة تهدة هتلر في لندن، قابل كلايست بعد ظهر يوم وصوله، كذلك إستقبله في اليوم الثاني "ونستون تشرشل" الذي كان آنذاك غارقاً في خضم سياسة بريطانيا. وكرر (كلايست) للرجلين الذين إهتموا إهتماماً شديداً بأقوال زائرهما وأعجبا برزائنه وإخلاصه وإبلاغهما كل ما أمر بقوله. وشدد على أن هتلر حدد موعداً للعدوان على چيكوسلوفاكيا وأن الجنرالات ومعظمهم يعارضونه سيتحركون، إلا أن تنازلاً أكثر من بريطانيا لهتلر سيقطع عليهم الطريق ويجردهم من الحجة. ولو أن بريطانيا وفرنسا صرحتا للعالم بأنهما لن تقفا مكتوفتي اليدين بينما يدفع هتلر جيوشه الى چيكوسلوفاكيا ولو أصدرت شخصية سياسية إنكليزية مسؤولية تحذيراً قوياً لألمانيا بعواقب العدوان النازي، فإن الجنرالات الألمان من جهةهم سيعملون على كبح جماح هتلر^(٣٦).

وسلم (چرچل) (كلايست) خطاباً رائعاً ليأخذه معه الى ألمانيا لتقوية معنويات إخوانه: "إني واثق بأن عبور الجيوش الألمانية حدود چيكوسلوفاكيا، أو تحليق مجموعات من الطائرات في جوها، سيؤدي الى حرب عالمية جديدة، إني واثق كما كنت في نهاية ١٩١٤ بأن إنكلترا ستتقدم مع فرنسا... أرجو ألا يداخلكم أي شك في هذه النقطة..."^(٣٧) وأخذ (فانستارت) إنذار (كلايست) مأخذاً جدياً الى الحد الذي دفعه لكتابة تقرير فوري الى كل من رئيس الحكومة البريطانية ووزير خارجيتها.

ومع ان چمبرلين كتب للورد هاليفاكس بأنه يميل الى "إسقاط الكثير مما يقوله [كلايست]" فإنه أضاف قائلاً: "لست أشعر يقيناً بأن علينا ألا نفعل شيئاً ما"^(٣٨).

على أن ما فعله هو قيامه بإستدعاء السفير (هندرسن) الى لندن في آب "لأجل المشاورة" مع بعض الإعلان عن هذا الإستدعاء. وأشار على سفيره في برلين بأمرين: تقديم إنذار شديد اللهجة الى هتلر ثم التمهيد سراً "لإتصال شخصي" له مع هتلر. وبحسب رواية (هندرسن) نفسه أقنع رئيس الوزراء بنيد الأمر الأول^(٣٩). أمّا عن الثاني فقد كان جد متحمس ومسرور للقيام بالمسعى^(٤٠). كانت هذه أول

٣٦- التقارير عن زيارة كلايست هي في الوثائق الخاصة بسياسة بريطانيا الخارجية [سيرمز اليها من الآن فصاعداً: و.س.ب.خ] السلسلة الثانية: ٢.

٣٧- عاد كلايست الى برلين في ٦ آب وأطلع بيك وهالدر وهامرشتاين وكاناريس وأوشتر على كتاب چرچل. ووقف عليه المؤتمرون الآخرون. يقول هويلر بينيت في كتابه (Nemesis) ص٤١٣ انه إستناداً الى معلومات خاصة إستقفاها من (فابيان فون شلابندورف) ان كاناريس عمل نسختين من الرسالة. واحدة له والأخرى لبيك. وأخفى كلايست الأصل في داره الريفية في شمينزين في يوميرانيا (Schmenzin). وإكتشفها الكشتايو بعد مؤامرة، تموز ١٩٤٤ للقضاء على هتلر وكانت سبباً للحكم على كلايست بالموت من محكمة أمن الشعب وتنفيذه فيه في ١٥ نيسان ١٩٤٥. والواقع ان السلطات الألمانية علمت بمحتويات الخطاب قبل هذا التاريخ بزمان طويل. الأمر الذي ما كان يتصوره المؤتمرون. ولقد وجدت صورته بنفسه في وثائق وزارة الخارجية الألمانية مع مذكرة وان كانت غير مؤرخة والمعروف أنها عرضت في ٦ أيلول ١٩٣٨. وقد عنونت: مقتبسات من رسالة لونستن چرچل الى عميل ألماني (أغلب فقرات رسالة چرچل تجدها في [وثائق عن سياسة ألمانيا... ج ٢ ص ٧٠٦].

٣٨- [و.س.ب.خ] السلسلة الثالثة: ٢، ص ٦٨٦-٦٨٧.

٣٩- نثيل هندرسن "إخفاق سفارة Failure of a Mission" الص ١٤٧ و ١٥٠.

٤٠- في ١٨ تموز كتب الى اللورد هاليفاكس من برلين "إني لوائح جداً بان الساعة قد حانت لپراغ لإدارة اللولب دورة حقيقية... إن لم يتمكن بينيش من إرضاء (هنلاين) فهو ليس بقادر على إرضاء أي زعيم سوديتي آخر. يجب =

خطرة نحو "مونيخ" ونحو أعظم نصر لهتلر لم تسفك فيه قطرة دم. حاول المؤتمرون - وهم جاهلون بإنحراف سبيل چمبرلين ان يقوموا بالمزيد من المجهودات لإنذار الحكومة البريطانية. وفي ٢١ آب أرسل الكولونيل (أويشتر) مبعوثاً لإنذار الملحق العسكري البريطاني في برلين بأن هتلر ينوي القيام بغزو چيكوسلوفاكيا في نهاية أيلول. وقال للبريطانيين "إن أجبر هتلر بعمل قوي من الخارج - على العدول عن نواياه الحالية، في الساعة الحادية عشرة، فسيعجز عن تحمل الضربة ويسقط من حالق سقطة شعنا. كما أن التدخل البريطاني الفرنسي الفوري في حالة الحرب سيؤدي الى تقويض النظام". ويادر السر (نثيل هندرسن) إلى إرسال هذا التحذير الى لندن إلا انه وصفه "بوجود تحيز واضح فيه، ودعاية واسعة" كانت رفقات عيني السفير البريطاني الكيس تبدو أسرع وأكبر، وخوفه يتصاعد كلما زادت الأزمة شدة وتعقيداً.

وشعر الجنرال (هالدر) أنهم لم ينجحوا في إبلاغ رسالتهم للبريطانيين بالشكل الفعال المؤثر فأرسل في ١٢ أيلول مبعوثه الخاص الضابط العسكري المتقاعد المقدم هانس بويم-تتلباخ Hans Boehem Tettelbach الى لندن للإتصال بوزارة الحرب البريطانية والإستخبارات العسكرية. ومع أن مبعوثه كما روى - قابل عدداً من الشخصيات المهمة، فالظاهر أنه لم يخلف فيهم إنطباعات كبيرة. أخيراً لجأ المؤتمرون الى إستخدام وزارة الخارجية الألمانية وسفارتها في لندن كآخر محاولة يائسة لإستمالة البريطانيين وحثهم على الثبات. كان مستشار السفارة والقائم بأعمالها (ثيودور كوردت Theodor kordt) وأخوه الأصغر (اربخ) رئيس سكرتيري (ريبنتروب) في وزارة الخارجية وكلا الأخوين منسوبان إلى (البارون فون فايسيك) وكيل وزارة الخارجية الألمانية الأول ودماغها المفكر بلا مماناة. وهو الرجل الذي أثار بعد الحرب العالمية الثانية ضجة عظيمة عن عدائه المزعوم للنازية في حين لم يمنعه ذلك من خدمة (هتلر وريبنتروب) خدمة جيدة حتى النهاية تقريباً. والواضح من الوثائق المضبوطة في وزارة الخارجية أنه على كل حال كان يعارض في العدوان على چيكوسلوفاكيا، مستنداً الى تلك العلل التي إستند اليها القادة بالذات: أي أنه سيؤدي الى الحرب. واتفق بالتواطؤ معه وبعد إستشارة (بيك وهالدر وكويردلر) أن يدق (ثيودور كوردت) جرس الإنذار الأخير في (داوننگ ستريت) ولم تكن زيارته للسلطات البريطانية محل شبهة بحكم منصبه مستشاراً للسفارة.

إن المعلومات التي حملها (كوردت) في مساء ٥ أيلول للسر هوراس ولسن Sir Horace Wilson المستشار الخاص لچمبرلين، بدت بدرجة من الخطورة والأهمية لهذا الموظف بحيث لم يسعه إلا أن يأتي به من الباب الخلفي الى داوننگ ستريت ثم الى مكتب وزير الخارجية إستراقاً. وهناك أبلغ اللورد هاليفاكس بصراحة أن هتلر ينوي إصدار أمره بالتعبئة العامة في ١٦ أيلول وأن الهجوم على

= علينا أن نكون مكروهين من الجيك بضغطنا عليهم" (و.س.ب.خ السلسلة الثالثة: ١) ويبدو أمراً لا يصدق أن يجهل حتى هندرسن أن هنلاين كان مجرد آلة بيد هتلر وقد تلقى منه أمراً بأن يستمر في زيادة طلباته الى حد يعجز معه بينيش عن إرضائه (انظر ما سبق) أعلاه.

چيكوسلوفاكيا قد قُـرر له يوم (١١) تشرين الأول كأقصى موعد. وأن الجيش الألماني متأهب لبوقع ضربته بهتلر في اللحظة التي يصدر أمره النهائي بالهجوم وأن الضربة ستكون ناجحة اذا وقفت فرنسا وبريطانيا وقفة حازمة. وأنذر هاليفاكس أيضاً بأن خطبة هتلر الختامية لمؤتمر الحزب في نورمبرغ ١٢ أيلول ستنفجر كالقنبلة وقد يكون شأنها تصديق المعنويات في چيكوسلوفاكيا وستحين عندئذ ساعة بريطانيا لتحدي الدكتاتور^(٤١).

وكان (كوردت) أيضاً - رغم صلته الشخصية المستمرة بـ(داوننگ ستريت) وصراحته في هذه المناسبة مع وزير الخارجية - انه لا يدري شيئاً عما في ريع لندن. لكنه أخذ فكرة حسنة كما أخذ غيره بعد يومين من المقابلة، عندما ظهرت جريدة التايمس بإفتتاحية مشهورة: قد يكون من الأفضل للحكومة الچيكوسلوفاكية أن لاترفض جملة الإقتراح الذي وجد قبولاً في بعض المحافل بجعل چيكوسلوفاكيا دولة أكثر تجانساً، بالتخلص من هذا السلخ الأجنبي ومن سكانه الذين ينتمون الى وطن تشدهم اليه رابطة القومية الواحدة... إن الفوائد التي تجنيها چيكوسلوفاكيا من صيرورتها دولة متجانسة القوام لاشك ستزيد كثيراً عن الخسارة الواضحة التي ستصيبها من جراء إقتطاع منطقة السودان الألمان الواقعة على الحدود".

وليس في المقال أي ذكر للحقيقة الواضحة وهي ان چيكوسلوفاكيا بسلخ أرض السودان وضمها ألمانيا ستفقد حصونها الجبلية الطبيعية في بوهيميا، وخط إستحكاماتها "خط ماجينو" هذا فتبقى بدون دفاع وتحت رحمة ألمانيا النازية.

ومع ان وزارة الخارجية البريطانية بادرت الى نفي كون إفتتاحية التايمس تمثل وجهة نظر الحكومة فأن (كوردت) أبرق الى برلين في اليوم التالي عنها مخمناً أنها "مستمدة من إقتراح وصل رأسه تحرير التايمس من الحاشية المحيطة برئيس الوزراء. من المحتمل جداً!"

في هذه السنين المثقلة بالآزمات التي عقيت الحرب العالمية الثانية يصعب على المرء ان لايتذكر ذلك التوتر الصعب الإحتمال الذي ساد العواصم الأوروبية عندما بلغ مؤتمر الحزب النازي المنعقد في نورمبرغ ذروته في ١٢ أيلول بحيث رُسم أن يُلقى هتلر خطاب الختام ويعلن الى العالم قراره النهائي بالسلم أو الحرب مع چيكوسلوفاكيا.

يومذاك كنت في براغ بؤرة الأزمة. وقد إستغرقت إذ وجدت العاصمة الچيكية (رغم حوادث العنف التي أطلقها الألمان في أرض السودان والتهديدات المنثالة من برلين وضغط الفرنسيين والبريطانيين عليها لكي تستسلم والخوف من تركهم چيكوسلوفاكيا الى مصيرها، وجدتها أهدأ من الجميع، على الأقل ظاهرياً؟

أدرك الدكتور بينيش أن قراراً حاسماً لإنقاذ السلم ضروري وأنه ملزم بإتخاذة. وبادر في ٥ أيلول الى إستدعاء الزعيمين السوديتيين كوندت Kandt وسيبيكوفسكي Sebekovsky الى قصر(هرادشين)

٤١- يورد اريخ كوردت التفاصيل التي ذكرها أخوه عن المقابلة في كتابه Nicht aus den Akten الص ٢٧٩-٢٨١.



وطلب منهما أن يكتبوا له كل ما يريدانه وسيحققه
لهما بالتمام والكمال!

وهتف زعيم نواب السوديت (كارل هرمان
فرانك) عندما أبلغ بذلك في اليوم التالي "رحمك
اللهم! لقد أعطونا كل شيء!" إلا أن هذا كان آخر
ما يريده ساسة السوديت ورؤساهم في برلين. وفي
٧ أيلول قام (هنلاين) بناءً على توجيهات من
ألمانيا يقطع المفاوضات بشكل تام مع الحكومة
الچيكية متعللاً بحجة واهية تتعلق بإجراءات
الشرطة الچيكية القاسية في (مورافسكا-أوسترافا
Moravska-Ostrava). وفي العاشر من أيلول ألقى
گورنگ في مؤتمر الحزب بنورمبرگ خطبة إستفزازية
فيها كثير من التهجم "فلذة صغيرة في أوروبا تقلق
البشرية جمعاء... هذا الشعب البائس القزم
[الچيك] يضطهد شعباً متمديناً، وتقف موسكو

دالاديه

من ورائه ذلك القناع اليهودي الشيطاني الأبدي". على أن (بينيش) لم يتطرق في خطبته الإذاعية
في اليوم نفسه الى شيء مما تقيأه (گورنگ) فقد كانت بمثابة مناشدة ودعوة الى الهدوء والتمسك
بحس النية والثقة المتعاطفة، تشجيع من جوانبها الوقار وتزينها الرزانة.

مع ذلك كان الچيكيون مستوتري النفوس. وقد إلتقيت الدكتور (بينيش) في بهو دار الإذاعة
الچيكية بعد فراغه من خطابه ولاحظت وجهاً متعباً منهوكةً. كان مدركاً تماماً الوضع الخطير الذي
يحمل همّه على عاتقه. وكانت محطة قطار (ويلسن)، والمطار مكتظين باليهود يتدافعون لهفة ورهبة
ليجدوا وسائل نقل تقلّهم الى مناطق أكثر أماناً. وفي عطلة ذلك الأسبوع وزعت أقنعة الغاز السام
على السكان والكلمة التي وردت من باريس تفيد أن الحكومة الفرنسية بدأت تفزع من شبح الحرب.
وأشارت التقارير من لندن أن چمبرلين يقلّب الرأي في تدابير يائسة لإجابة مطالب هتلر - على حساب
الچيك بطبيعة الحال.

وهكذا إنتظرت أوروبا كلها كلمة هتلر في ١٢ أيلول من نورمبرگ. وكانت خطبة وحشية طنانة
تقطر سمّاً زعافاً على الدولة الچيكية ورئيسها بنوع خاص. ألقاها في تلك الكتل النشوانة من
النازيين المتعصبين المجتمعين في الملعب الضخم في آخر يوم من أيام المؤتمر العام - ولكنها خلت من
إعلان الحرب. لقد إحتفظ بقراره سراً عن الجمهور على الأقل كما علمنا من الوثائق الألمانية
المضبوطة. حيث انه عيّن الأول من تشرين الأول موعداً للهجوم وإختراق الحدود الچيكية. ولم ينوّه في

خطابه إلا بالطلب من الحكومة الشيكية أن "تنصف" السوديت الألمان. وأن لم تفعل فإن ألمانيا ستضطر إلى حملها على ذلك، كان رد فعل انفجار هتلر شديداً. فقد أحدث في أرض السوديت ثورة قمعتها الحكومة الشيكية بعد يومين من القتال المريع بإرسال قطعات من الجيش وإعلان الأحكام العرفية. وتسلسل (هنلاين) عبر الحدود إلى ألمانيا وأعلن أن الحل الوحيد بات الآن ينحصر في ضم السوديت إلى ألمانيا.

ذلك هو الحل الذي أخذ يلقي تحبيذاً في لندن. لكن يجب أن تؤخذ موافقة فرنسا قبل إتخاذها أساساً. عقدت الحكومة الفرنسية اجتماعاً في ١٣ أيلول بعد خطاب هتلر بيوم دام نهراً كاملاً وظلت منقسمة على نفسها إنقساماً شديداً بين الإيفاء بتعهداتها للجييك في حالة هجوم ألماني تعتقد أنه واقع لا محالة، وبين عدم الوفاء بالتعهد. في تلك الليلة أخذ السفير البريطاني السر (أريك فيبس Sir Eric Phipps) من دار (الأوپراكوميك) إلى مقابلة عاجلة لرئيس الوزراء (دالادييه) وناشد الرئيس الفرنسي، چمبرلين أن يحاول فوراً عقد أفضل صفقة ممكنة مع الدكتاتور الألماني.

ولا يصعب على المرء أن يخمن بأن چمبرلين لم يكن بحاجة إلى كثير من الإلحاح. ففي الساعة الحادية عشرة من تلك الأمسية طير برقية مستعجلة إلى هتلر.

"نظراً إلى الوضع الخطير المتفاقم، أقترح أن أجيء حالاً لمقابلتك في محاولة مني لإيجاد حل سلمي. أقترح أن يكون سفري بالطائرة وأنا مستعد لذلك غداً. أرجو أن تخطرنني بالموعد الذي يتسنى لك مقابلتي بأسرع ما يمكنك وإن تقترح محلاً للإجتماع. سأكون ممتناً لجواب عاجل جداً^(٤٢)".

قبل ذلك بساعتين أ برق القائم بالأعمال الألماني في لندن (ثيودور كوردت) إلى برلين أن سكرتير چمبرلين الصحفي أعلمه أن رئيس الوزراء "قد تهيأ لمناقشة مقترحات ألمانية بعيدة الأثر وبضمنها الإستفتاء، وإجراؤه لتحقيق تلك المقترحات، ولتبريرها أمام الرأي العام^(٤٣) لها إن الإستسلام الذي كان بلغ ذروته في مونيخ بيد الآن.

-٥-

چمبرلين في برختسگادن (١٥ أيلول ١٩٣٨)

"يا للسماء!" [Ich bin vom Himmel gefallen!] هتف هتلر بهذه العبارة عندما قرأ برقية چمبرلين^(٤٤). لقد صعق، إلا أنه كاد يطير فرحاً لأن رجلاً يتحكم في مصائر الإمبراطورية البريطانية

٤٢- وثائق من سياسة ألمانيا الخارجية ٢ ص ٧٥٢.

٤٣- المرجع نفسه ص ٧٥٤.

٤٤- ل. ب. ناميه L. B. Namier تمهيد دبلوماسي ص ٣٥.

الجسارة سيأتي راجياً متضرعاً، وأصابه الغرور والتهيه لأن رجلاً في التاسعة والستين من العمر لم يركب متن الطائرة من قبل، يضطر الى أن يقوم بسفرة أمدها سبع ساعات الى برختسگادن الواقعة في أقصى طرف من ألمانيا. لم يكن هتلر يجد في نفسه الكياسة ليقترح محل إجتماع في الراين، وفي ذلك إختصار الرحلة الى النصف.

مهما بلغ تحمس الإنكليز^(٤٥) الذين إعتقدوا على ما يبدو أن رئيس الوزراء يقوم بهذه الرحلة الطويلة لينجز ماخاب فيه المستر أسكويث Asquith والسر ادورد گري Sir Eduard Grey في ١٩١٤- بإنذار ألمانيا أن كل عدوان على دولة صغيرة سيصطدم لا بفرنسا وحدها وإنما بإنجلترا- فان هتلر أدرك كما تكشف عنه أوراق الألمان السرية والأحداث التالية أن خطوة جمبرلين سقطت عليه هبة من السماء. كان هتلر يشعر بثقة كبيرة بأن زيارة جمبرلين هي تأكيد آخر لما حسبه وأمله من قبل وهو ان بريطانيا وفرنسا لن تتدخل لنصرة چيكوسلوفاكيا. كما كان قد نبه من قبل السفارة الألمانية في لندن بأن الزعيم البريطاني على إستعداد لضمان مقترحات ألمانية بعيدة المدى" ولم يقض مع رئيس الوزراء أكثر من ساعة واحدة أو نحوها، حتى تبين له أن تقديراته للموقف هي الصائبة فعلاً.

في مبدأ الأمر كان ثم تصادم دبلوماسي وإن كان هتلر كعادته أكثر المتكلمين^(٤٦). هبط جمبرلين في مطار ميونيخ ظهر الخامس عشر من أيلول وركب سيارة مكشوفة الى محطة القطار، ومن هناك ركب قطاراً خاصاً لرحلة الى برختسگادن أمدها ثلاث ساعات ولم تفته ملاحظة القطار بعد القطار من الجنود الألمان والمدفعية وهي تمر على السكة المضادة. ولم يستقبل هتلر قطاره في برختسگادن وإنما انتظر زائرته الكبير عليه رأس درج برگهوف وبدأ المطر يهطل. وتذكر الدكتور شميدت المترجم أن السماء إكفهرت وأخفت الغيوم الطخياء الجبال. وبلغت الساعة الرابعة بعد الظهر عندما إنتهت رحلة جمبرلين التي إبتدأت منذ الفجر.

بعد الشاي إرتقى هتلر وجمبرلين الدرج الى مكتب هتلر في الطابق الثاني. تلك هي الغرفة التي تمّت فيها مقابلة هتلر و(شوشنك) قبل سبعة أشهر. وبناءً على إصرار السفير هندرس لم يحضر ريبنتروب المقابلة وهذا ما أزعج وزير الخارجية المتعجرف وأحنقه حتى انه رفض في اليوم التالي أن يعطي رئيس الوزراء ملاحظات شميدت التي دونّها عن وقائع الجلسة- وهو عمل غريب لا يتفق

٤٥- حتى أشد منتقدي سياسة جمبرلين الخارجية في الصحافة البريطانية والبرلمان فقد رحّبوا بحرارة بذهاب جمبرلين الى برختسگادن. ونظم الشاعر لوريات Laureatt (جون فاسفلد) قصيدة مدح عنوانها (نفيل جمبرلين) نشرت في عدد التاميس المؤرخ ١٦ أيلول.

٤٦- هناك مقدار كبير من المواد حول المؤتمر. ان نص التقرير الرسمي الذي دونّه پول شميدت المترجم وهو الوحيد الحاضر، مثبت في [وثائق عن سياسة ألمانيا... ج ٢ الص ٧٨٦-٧٩٨] وأورد في كتابه "ترجمان هتلر الص ٩٠-٩٥" وصف شاهد عيان للإجتماع. إن ملاحظات جمبرلين هي في (و.س.ب.خ) السلسلة الثالثة الص ٣٣٨-٣٤١، رسالته الى شقيقه حول الإجتماع مثبتة في كتاب (كيث فايلينگ Keith Feiling) "حياة نفيل جمبرلين الص ٣٦٦-٣٦٨، أنظر ايضاً نفيل هندرس (فشل بعثة الص ١٥٢-١٥٤).

والعرف الدبلوماسي مطلقاً. ولهذا كان جمبرلين مضطراً فيما بعد أن يعتمد على ذاكرته بخصوص ما الحديث الذي جرى بينه وبين هتلر.

إفنتح هتلر المناقشة، كالمألوف في خطبه، بمقدمة طويلة حول كل ما قدمه للشعب الألماني وما عمله لأجل السلم. والتقارب الأنكلو-ألماني. والآن هناك مشكلة واحدة ينوي حلها "بشكل ما" إن الملايين الثلاثة من الألمان في چيكوسلوفاكيا يجب ان "يعودوا الى الرايخ"^(٤٧).

"[جاء في نسخة شמידت الرسمية] أنه يريد أن يبدد أي شك في صحة عزمه المطلق بالأمر يسمح بعد الآن بهذه المعاملة التي يلغاها الرايخ الألماني العظيم الذي بلغ عمره ألف سنة على يد بلاد صغيرة ثانوية المركز، وكأنه شيء حقير... انه الآن في التاسعة والأربعين وإذا إشتبك الألمان في حرب عالمية بسبب المسألة الجيكية، فهو يرغب أن يقود بلاده في مشار الأزمة وهو في عنفوان الرجولة... بالطبع سيكون آسفاً إن نجحت حرب عالمية عن هذه المشكلة. على ان هذا الخطر لا يثنيه عن عزمه... وإنه سيجابه أي حرب في سبيلها. ولتعمل الدنيا ما تشاء. أنه لن يتزحزح قيد شعرة."

لم يستطع جمبرلين أن ينطق بكلمة واحدة. ولم يجد له مجالاً وكان رجلاً واسع الصدر، عظيم الصبر ولكن لكل شيء حدّاً فعند هذه العبارة قاطعه قائلاً "إن صحَّ عزم (الزعيم) على تسوية هذه المشكلة بالقوة دون ان ينتظر حتى مناقشة بيننا، فلماذا وافق على مجيئي؟ لقد ضيعت وقتي."

لم يكن الدكتاتور الألماني معتاداً مثل هذه المقاطعة ولم يجراً حتى هذا التاريخ أن فعل ذلك ألماني واحد- وبدا ان ردّ جمبرلين أحدث أثره. فهدأت نفس هتلر وقال انه يرى ان في وسعهما الدخول في مداولة "لعلهما يتمكنان من إيجاد تسوية سلمية للمشكلة على كل حال". ثم دفع بإقتراحه:

هل توافق بريطانيا على ضم اقليم السودان أم لا؟ ضم يستند الى حق تقرير المصير؟
لم يفاجأ جمبرلين بالإقتراح. وفي الواقع راح يعبر عن إرتياحه لأنهما الآن "وصلا الى لب المسألة". وبحسب رواية جمبرلين نفسه أجاب عن الإقتراح بقوله "أنه لا يستطيع الإجابة إلا بعد إستشارة وزارته. والإتصال بالفرنسيين." أما رواية شמידت المنتزعة من ملاحظاته التي كان يدونها بطريقة الإختزال أثناء ما هو يترجم فتؤكد قوله هذا ولكنها تزيد عليه ما يأتي: "... بإمكانه أن يصرح شخصياً أنه يقر مبدأ اقتطاع المنطقة السوديتية... وانه يرغب في العودة الى بريطانيا لأبلاغ الحكومة واستحصال موافقتها على موقفه الشخصي".

من هذا الإستسلام في برختسگادن حصل كل ما حصل فيما بعد. واضح انه لم يكن مفاجأة للألمان ففي الدقيقة التي بدأ بها إجتماع برختسگادن كان (هنلاين) يكتب رسالة سرية لهتلر من (إيگر Eger) قبل عبوره الحدود الى ألمانيا مؤرخة في ١٥ أيلول:

٤٧- تبين من كلام جمبرلين في إجتماعه بهتلر. ومن حديثه في مجلس العموم أنه قبل تعبير (يعودون) كأمر حقيقي. مما يدل على ان معلوماته بالتاريخ الألماني كانت قليلة. لأن الألمان السوديت كانوا يعودون الى النمسا ولم يرتبطوا قط بألمانيا.

"يازعيمي!"

لقد أبلغت الوفد البريطاني [رنسيمن] يوم أمس أن أسس أي مفاوضات مقبلة... لا يمكن أن تبني إلاً على قاعدة الوحدة مع الرايخ. ومن المحتمل أن جمبرلين سيقترح الوحدة^(٤٨).
في اليوم التالي (١٦ أيلول) طيرت وزارة الخارجية الألمانية برقيات سرية الى سفاراتها في واشنطن وغيرها من العواصم.

"أبلغ (الزعيم) (جمبرلين) يوم أمس أنه قرر نهائياً وضع حد بأي شكل كان للحالة التي لاتطاق في أرض السوديت بوقت جد قصير. الحكم الذاتي للسوديت الألماني لم يعد مجال بحث الآن وليس ثم الآن غير ضم الاقليم الى ألمانيا. جمبرلين أعلن موافقته شخصياً وهو الآن يتشاور مع الحكومة البريطانية وعلى إتصال بباريس. لقد رتب إجتماع آخر بين الزعيم وجمبرلين في المستقبل القريب جداً^(٤٩)."

قبل نهاية الإجتماع انتزع جمبرلين وعداً من هتلر بألا يلجأ الى أي عمل عسكري حتى يجتمعا مرة أخرى. كان رئيس الوزراء البريطاني في هذه الفترة من الزمن يثق بكلمة هتلر ثقة كبيرة وقال لخاصته بعد الإجتماع بيوم أو اثنين "بالرغم من خشونة وقسوة صارمة رأيتها في وجهه. فقد وجدت فيه الرجل الذي يمكن الإعتماد عليه اذا ما قطع وعداً^(٥٠)."

وفيم كان الزعيم البريطاني يحتضن تلك الأوهام المريحة، كان هتلر يمضي قدماً في إستعداداته العسكرية وخططه السياسية لإجتياح چيكوسلوفاكيا. وراح الكولونيل (يودل) يعمل مع وزارة الدعاية منتدباً عن (ق.ع.ق.م) فيما وصفه بالإستعداد المشترك لتفنيذ إدعاءات خرقنا قواعد القانون الدولي". انها ستكون حرباً محرجةً على الأقل من ناحية الألمان، ومهمة الدكتور غوبلز هي تبرير الإعتداء النازي وقد تم وضع خطة أكاذيبه بتفصيل كبير^(٥١).

في ١٧ أيلول عين هتلر ضابطاً ركن من (ق.ع.ق.م) مساعداً لـ (هنلاين) الذي بات الآن يعمل من مقر قيادة جديد في قلعة بالقرب من (دوندروف Dondorf) خارج (بايروت) لتنظيم الجيش السوداني الحر. وقد رسم أن يسلم بالسلح النمساوي. وكانت الأوامر من هتلر أن يثير "القلاقل والإضطدامات" مع الشيكيين.

كان اليوم الثامن عشر من أيلول يوماً حافلاً لجمبرلين قضاه بإقناع أعضاء وزارته والفرنسيين بسياسة الإستسلام التي تبناها. كذلك كان يوماً حافلاً لهتلر وجنرالاته. اصدر أمراً تعبويّاً لخمسة جيوش: الثاني والثامن والعاشر والثاني عشر والرابع عشر وتضم ستاً وثلاثين فرقة بينها ثلاث فرق

٤٨- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٢ ص ٨٠١.

٤٩- المرجع نفسه ص ٨١٠.

٥٠- (فايلنك) المرجع السالف ص ٣٦٧.

٥١- وثائق سياسة ألمانيا الخارجية ج ٦ ص ٧٩٩ [وثيقة ٢-C].

مصفحة. وصادق هتلر أيضاً على إختيار قادة الجيوش العشرة وترك الجنرال آدام رغم وقفة التحدي التي وقفها - في قيادة الجبهة الغربية العامة. ومن الغرابة بمكان أن إثنين من المؤقرين دُعيا الى الخدمة من الاستيداع لقيادة جيشين. فسلم الجنرال (بيك) قيادة الجيش الأول وأنيط بالجنرال (فون هامرشتاين) قيادة الجيش الرابع.

واستمرت الإستعدادات السياسية للضربة النهائية ضد چيكوسلوفاكيا أيضاً. وقد حفلت وثنائق وزارة الخارجية الألمانية المضبوطة بتقارير عن ضغط ألماني متزايد على هنغاريا وبولندا بدعوتها الى الغنيمة. حتى السلوفاك فقد طولبو (بتحريك الشوربا) أيضاً. ففي ٢٠ أيلول ألح هنلاين عليهم بأن يقدموا مطالبهم و"يلحوا بشدة" على الحكم الذاتي. وفي اليوم نفسه إستقبل هتلر رئيس الوزراء الهنغاري إمردى Imredy ووزير خارجيته (كانيا Kanya) وكال لهما ملء صاع من اللوم والتأنيب للتردد الذي تبديه (بوداپست). وتكشف مذكرة خارجية عن وقائع مفصلة لما جرى في هذا الإجتماع: "في البدء لام (الزعيم) السيدين الهنغاريين (المجريين) على الموقف المتردد الذي تقفه (المجر). إنه [الزعيم] قد عزم على تسوية القضية الجيكية حتى بالمخاطرة بحرب عالمية... وهو [على كل] مقتنع بان بريطانيا وفرنسا لن تتدخل. وتلك هي آخر فرصة للمجر للمساهمة. فإن لم تنضم فلن يكون قادراً على أن يتكلم بما فيه مصلحة المجر. وفي رأيه أن خير الأمور هو تدمير چيكوسلوفاكيا... وقدم مطلبين للمجر: (١) أن يتقدم الهنغاريون بطلب إجراء إستفتاء في المناطق التي تدعي حكومتهم بها و(٢) ان لاتضمن أي حدود جديدة مقترحة مع چيكوسلوفاكيا^(٥٢).

وأوضح هتلر للمجريين أنه عازم عزمًا أكيداً ألا يُبقي فلذة لحم من چيكوسلوفاكيا سالمة مهما كانت نتائج مداولاته مع چمبرلين. أما عن هذا الأخير: "فإن هتلر صرح لهما بأنه سيقدم المطالب الألمانية لچمبرلين بصراحة خشنة جداً. وفي رأيه أن عملاً عسكرياً سيؤمّن الحل المرضي الوحيد. على أنه يوجد خطر في قبول الجييك كل المطالب". كان خطراً سيطارد خيال الدكتاتور في كل الإجتماعات التالية مع الرئيس البريطاني الواطن السليم النية.

ويتحريض من برلين طلبت الحكومة البولندية في ٢١ أيلول من الجييك إجراء إستفتاء في اقليم (تيشين) حيث توجد أغلبية من البولنديين. ثم حركت قطعات عسكرية الى حدود الأقليم. وفي اليوم التالي حذت الحكومة المجرية حذوها. وفي اليوم نفسه (٢٢ أيلول) قام الجيش السوداني الحر تسانده وحدات من الحرس الأسود باحتلال بلدتي الحدود الجيكييتين (آش Asch وإيگر) وأدخلتا الى جسم ألمانيا. في الواقع كان الثاني والعشرون من أيلول يوماً عصيباً على أوروبا كلها. ففي صباحه الباكر انطلق چمبرلين الى ألمانيا ثانية لمقابلة هتلر. ومن الضروري الآن أن نمر مروراً خاطفاً بما كان چمبرلين يعمل في لندن أثناء الفترة الواقعة بين زيارته للزعيم الألماني.

٥٢- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٢ الص ٨٦٣-٨٦٤.

دعا چمبرلين الى إجتماع وزاري بعد عودته الى لندن في مساء ١٦ أيلول لإحاطة وزارته علماً بمطالب هتلر وأستدعي (اللورد رنسيمن) من براغ لتقديم توصياته، فأدهشهم أمره! كان في إندفاعه لمصانعة هتلر قد سار مسافة أكثر من هتلر نفسه! فإرتأى ان تضم مناطق السوديت الى ألمانيا دون الإهتمام بإجراء إستفتاء وأوصى بإلحاح ان يخنق كل أصوات انتقادٍ ضد ألمانيا في چيكوسلوفاكيا سواء أصدرت من "أشخاص أو احزاب" بالوسائل القانونية. وطلب أن "تعيد چيكوسلوفاكيا تنظيم علاقاتها الخارجية بحيث تعطي تأكيدات لجيرانها بانها لن تهاجمهم أو تدخل في عمل عدواني ضدهم نابع من تعهد أو إتفاق مع دولة أخرى" - كل هذا بعد تجريدها من موانعها الجبلية واستحكاماتها وتركها عاجزة عادمة الحيلة! شيء عجيب حتى من (رنسيمن) ان يكون شديد القلق في هذه الساعة من خطر عدوان تقوم به چيكوسلوفاكيا المنهارة على ألمانيا النازية أمر لا يصدق! والأغرب منه أن هذه التوصيات العجيبة وقعت موقعاً حسناً على مايدو- في الوزارة البريطانية ودعمت نية چمبرلين في قبول مطالب هتلر^(٥٣).

وصل رئيس الوزارة الفرنسية لندن مع وزير خارجيته (جورج بونيه Georges Bonnet) في ١٨ أيلول للتشاور مع الحكومة البريطانية. ولم يهتم أحد بإشراك الچيك في المشاورات. ولم يضيع البريطانيون والفرنسيون وقتاً وهم في لهفتهم الى إجتناوب الحرب بأي ثمن كان، في موافقتهم على مقترحات مشتركة يلزم الچيكيون بقبولها. كل المناطق التي يسكنها أكثر من ٥٠٪ من السوديت الألمان تضم الى ألمانيا لضمان "بقاء السلم وحماية مصالح چيكوسلوفاكيا الحيوية". وبمقابل ذلك إتفقت الحكومتان الفرنسية والبريطانية على أن تقوما معاً "بضمانة دولية للحدود الجديدة... ضد أي عدوان لم يسبقه إستفزاز" وستكون هذه الضمانة ملحقاً لمعاهدات التعاون المتبادل التي كانت چيكوسلوفاكيا قد أبرمتها مع فرنسا والإتحاد السوفياتي. كان هذا مخرجاً سهلاً لضائقة الفرنسيين استقر الرأي عليه بتحبيذ من (بونيه) الذي كانت الأحداث التالية ستثبت أنه عزم أن يبذّ چمبرلين في مضمار التنازل لهتلر. ثم إليك هذا النفاق والرياء:

"[من مذكرة رسمية قدمتها الحكومتان الى الچيك] إن الحكومتين الفرنسية والإنكليزية تدركان معاً كم هي عظيمة تلك التضحية المتطلبة من الحكومة الچيكوسلوفاكية في سبيل السلم. ولكن لما كان هذا السبيل مطمحاً لأوروبا عموماً ولچيكوسلوفاكيا بنوع خاص، فإنهما يشعران بواجبهما في وضع الشروط الضرورية لضمانه".

٥٣- إن النقاط الاساسية لتوصيات (رونسيمن) قدمت للحكومة في مساء ١٦ أيلول. اما التقرير نفسه فقد قدم في ٢١ منه ولم ينشر إلا في ٢٨. عندما جعلته الأحداث ذا أهمية تاريخية فحسب. ويشير (هويلر بينيت) ان أجزاء معينة من التقرير تعطي إنطباعاتاً بأنها كتبت بعيد الواحد والعشرين. عندما ترك (رونسيمن) براغ في صباح يوم (١٦) أيلول لم يكن قد إقترح أحد: لا هتلر ولا قادة السوديت أن تضم أرض السوديت الى ألمانيا دون ما إستفتاء [هويلر بينيت، مونيخ الص ١١١-١١٢. نص تقرير رونسيمن هو في الوثيقة البريطانية البيضاء (٥٨٤٧-cmd رقم ١)].

وكانتا أيضاً في عجلةٍ من أمرهما. فالدكتاتور النازي لايسعه الإنتظار. تستطرد المذكرة قائلة "من الواجب أن يستأنف رئيس الوزراء إتصالاته بهتلر بحيث لايتأخر ذلك عن نهار الأربعاء [٢٢ أيلول] أو قبله إن أمكن. ولذلك نشعر أن الواجب يحتم علينا حثكم على الإجابة بأسرع وقت ممكن"^(٥٤).

وهكذا كان. في ظهر اليوم التاسع عشر من أيلول قدّم الوزيران المفوضان الفرنسي والبريطاني معاً المقترحات الأنكلو-فرنسية الى الحكومة الچيكية في (براغ). لتُرفض في اليوم التالي بمذكرة بليغة حكيمة أفصحت - حتى لكأنها تنظر في الغيب بأن قبول هذه المقترحات سيضع چيكوسلوفاكيا "عاجلاً أم آجلاً تحت سلطان ألمانيا التام" ويعد تذكير فرنسا بواجباتها بمقتضى المعاهدة، وبالأثار التي سيخلفها ذلك على مركز فرنسا في أوروبا إن إستسلم الچيكيون، عرضت المذكرة أن تحال كل القضية السوديتية الى التحكيم بموجب شروط المعاهدة الچيكية-الألمانية المؤرخة ١٦ تشرين ١٩٢٥^(٥٥).

إلا أن البريطانيين والفرنسيين لم يكونوا في حالةٍ يدعون أموراً مثل حرمة المعاهدات، تعرقل الطريق الذى إخطوه. فلم تمر سويغات على وصول مذكرة الرفض هذه الى المبعوثين الدبلوماسيين الإنكليزي والفرنسي (في ٢٠ أيلول الساعة الخامسة بعد الظهر) حتى أنذر السفير البريطاني السر بازل نيوتن Basil Newton (الدكتور كاميل كروفتا Kamil Krofta) وزير خارجية چيكوسلوفاكيا بأن الحكومة البريطانية سوف لا تعود تهتم بمصلحة بلاده أو بمصيرها إن لم توافق على المقترحات وأعلن مسيو دى لاكروا de Lacroix السفير الفرنسي تضامنه نيابة عن فرنسا.

في الوقت عينه كان وقع المذكرة الچيكية سيئاً في لندن وباريس ودعا چمبرلين الى إجتماع وزاري لأعضاء الوزارة المهمين. وفتح خط إتصال تلفوني دائم مع باريس للتشاور مع (دالادييه) و(بونيه) طوال الليل. وتم الإتفاق أن تقوم الحكومتان بممارسة ضغط آخر على براغ. يجب أن يبلغ الچيك بأنهم لن يتوقعوا مساعدة ما من بريطانيا أو فرنسا، إن أصروا على موقفهم.

في هذا الوقت أدرك الدكتور بينيش أن أولئك الذين اعتبرهم أصدقاءً قد تركوه وحيداً، وقام بمحاولة أخيرة ليضمن فرنسا الى صفّه على الأقل فأشار على الدكتور (كروفتا) بعد الثامنة مساءً بقليل أن يوجه السؤال المهم التالي الى السفير (لاكروا): هل ستفي فرنسا بعهدتها المقطوع لچيكوسلوفاكيا في حالة وقوع عدوان ألماني عليها. أم أنها ستستنكف؟ وفي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة عشر من صباح اليوم التالي (٢١ أيلول) أيقظ السفيران نيوتن ولاكروا، الدكتور بينيش من نومه وطلباً منه سحب مذكرة الرفض. وصارحاه إن لم يفعل ذلك ويقبل بالمقترحات الأنكلو-فرنسية فعلى چيكوسلوفاكيا ان تحارب ألمانيا وحدها. وهنا طلب رئيس الجمهورية من السفير الفرنسي أن يسجل

٥٤- الوثيقة البريطانية البيضاء ٥٨٤٧٠ cmd رقم-١- النص موجود في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٢ الص ٨٣١-٨٣٢].

٥٥- من الجدير بالملاحظة هنا أن الحكومتين البريطانية، واختها الفرنسية لم تنشرا نص هذه المذكرة الچيكية عندما نشرتتا فيما بعد الوثائق التي أرادتاً بها تبرير سياساتهما التي أدّت الى مونيخ.

ذلك كتابةً. ربما لأن اليأس أدركه فاستسلم، إلا إنه كان ينظر الى التاريخ^(٥٦).
 ومرة اليوم التالي (٢١ أيلول) على بينيش وهو متعب من فرط الإرهاق وقلة النوم والتأمل في أفانين الغدر، والكارثة- وتشاور مع أعضاء حكومته وزعماء حزبه وقيادة الجيش العليا. وقد بدت عليهم جميعاً علامات الإنهيار بسبب خذلان أصدقائهم وحلفائهم لهم في حين أظهروا تحدياً وبسالة في وجه تهديدات العدو. ماذا عن الإتحاد السوفييتي؟ اتفق أن مفوض الشعب للخارجية (ليتفينوف Lit-vinov) كان يلقي خطاباً في اليوم نفسه في جنيف مؤكداً أن الإتحاد السوفييتي سيفي بتعهداته المتضمنة ومعاهدته مع جيوكوسلوفاكيا، فاتصل بينيش بالوزير الروسي في براغ فأكد له هذا ما قاله وزير خارجيته. أسفاً على الجيك لقد أدركوا ان المعاهدة مع روسيا تلزمهم بمعونتهم شريطة أن تفعل فرنسا المثل وهذه فرنسا تنكص على أعقابها.
 في ساعات عصر يوم ٢١ أيلول الأخيرة، إستسلمت الحكومة الجيكية وقبلت بالإقتراح الأنكلو-فرنسي. وكانت اللهجة المريّة تقطر من بيان الحكومة "لم يكن عندنا بديل. فقد تركنا وحيدين". أما بينيش فقد صاغ القضية بأوحز عبارة وأبلغها "كنا ضحية غدر سافل". وفي اليوم التالي إستقالت الوزارة وتولى الجنرال (يان سيروفي Jan Sirovy) مفتش الجيش العام رئاسة حكومة "التجمع الوطني" الجديدة.

-٦-

جمبرلين في غودسبرگ

أيلول: ٢٢-٢٣

مع أن جمبرلين جاء الى إجتماع برختسگادن يحمل لهتلر كل ما طلبه فكلاهما كان متضايقاً قلقاً عند إجتماعهما في بلدة الراين الصغيرة غودسبرگ Godsberg في عصر ٢٢ أيلول. بعد أن قام القائم بالأعمال الألماني بواجب وداع الرئيس البريطاني في مطار لندن أسرع بالإبراق الى برلين: "سافر جمبرلين ورهطه وهم مثقلون بعبء من القلق... لاشك إن المعارضة لسياسة جمبرلين تتعاظم".
 وكان هتلر في قمة هياجه العصبي. كنتُ في صباح الثاني والعشرين أتناول فطوري في شرفة فندق دريسن Dreesen وهو المحل الذي اتخذ للإجتماع عندما مرّ بي هتلر الى الخارج متوجهاً نحو ضفة النهر لتفتيش يخته. وبدا وكأنه يشكو إرهاباً عصبياً غريباً. فكانت ساقه اليسرى ترتفع الى أعلى

٥٦- إن غدر (بونيه) في هذه المرحلة هو أكثر تعقيداً وإتساعاً مما يمكن إثباته في كتاب مقصور على تاريخ ألمانيا. فمن مواقف غدره أنه، دبر أن يقنع الوزراء الفرنسيين والبريطانيين بكذبة وهي أن الحكومة الجيكية ارادت من الفرنسيين أن يصرحوا بأنهم لن يقاتلوا في سبيل جيوكوسلوفاكيا لتتخذ من ذلك حجة قوية للإستسلام. لهذه القصة انظر (هويلر بينيت) (مونينخ) وهربرت ريبكه: "مونينخ من قبل ومن بعد" وبرتيناكس "حفارو قبور فرنسا".



السرّ نفييل چمبرلين

كلما خطا بضع خطوات مع إنفراج ذراعاه الأيمن بتشنجات لاإرادية. ورأيت تحت عينيه بقعتين سوداوين قائمتين بشعنتين. لقد بدا لي كما دوّنت في يومياتي ذلك المساء -في ذروة الإنهيار العصبي. وهمس زميلي الألماني وهو رئيس تحرير جريدة ويحتقر النازيين سراً:

"آكل الحصير! Teppichfresser" وأوضح لي أن هتلر كان فريسة لنوبة جنون شديدة بسبب الجحش في الأيام القلائل الماضية وفي أكثر من مناسبة فقد السيطرة على نفسه تماماً، ومرة قذف بنفسه الى الأرض وأطبق باسنانه على حافة البساط وراح يلوكه. ومن هنا جاء إصطلاح "آكل الحصير". وقبلها بيوم كنت اتحدث مع بعض أقطاب الحزب في فندق (دريسن) مساءً حين سمعت هذا الإصطلاح يتردد همساً منسوباً الى الفوهرر^(٥٧).

ومع هواجس چمبرلين بسبب المعارضة المتزايدة التي تلقاها سياسته في بلاده فقد ظهر في أطيّب مزاج عندما وصل (گودسبرگ) وسارت به سيارته في شوارع مزدانة بالصليب المعقوف والعلم البريطاني حتى بلغت به مقره في بيتزشوف Petershof وهو فندق أشبه بالحصن يقع على قمة (بيتزيرغ) المشمخة في الضفة المقابلة لنهر الراين. أقبل لإنجاز كل ما اراده منه هتلر في برختسگادن بل وأكثر. ولم يبق غير التفاصيل ولهذا الغرض صحب معه -فضلاً عن السر هوراس ولسن ووليم سترانغ William Strang (الخبير في شؤون شرقي أوروبا- من وزارة الخارجية) ورئيس اعداد الوثائق والمدير القانوني لوزارة الخارجية السر وليم مالكن Sir William Malkin.

في ساعة متأخرة من بعد الظهر عبر رئيس الوزراء نهر الراين بقارب الى فندق دريسن^(٥٨) حيث كان هتلر في إنتظاره وفي هذه المرة كان چمبرلين مستأثراً بمعظم الحديث -في المبدأ على الأقل- وإذا حكمنا بالملاحظات التي دوّنها الدكتور شميدت عن الإجتماع^(٥٩).

٥٧- انظر "يوميات برلين" ص ١٣٧.

٥٨- من هذا الفندق الذي يديره (هر دريسن) احد رفاق هتلر النازيين القدماء إنطلق الزعيم في ليلة ٢٩ / ٣٠ حزيران ١٩٣٤ لقتل روهم وإجراء التطهير الدموي. كثيراً ما إرتاد هتلر هذا الفندق للراحة والإستجمام واستجماع الأفكار والتغلب على تردده.

٥٩- المصادر الرئيسة لمؤتمر گودسبرگ هي الآتية: ملحوظات شميدت في إجتماعي گودسبرگ [وثائق عن سياسة... ج ٢ الص ٨٧٠-٨٧٩ والص ٨٩٨-٩٠٨]. وصف شميدت للأحداث "ترجمان هتلر الص ٩٥-١٠٢"، نصوص =

وقد تكلم أكثر من ساعة. بعد أن شرح كيفية تغلبه على كل معارضة في الوزارتين البريطانية والفرنسية فضلاً عن كسبه ثقة الحكومة الچيكية بعد "مفاوضات شاقة". وتم قبول مطالب هتلر، بدأ يعرض بكل تفصيل الوسائل التي سيتوسّل بها الى تطبيقها. وهو الآن يوافق بناءً على نصيحة (رُنسيما) على ضم أرض السودان الى ألمانيا دون إجراء إستفتاء. أما عن المناطق المختلطة فيمكن تقرير مصيرها بلجنة مؤلفة من ثلاثة أعضاء: ألماني وچيكي وعضو محايد. وأكثر من هذا، أن يستعاض عن معاهدات التعاون المتبادل بين چيكوسلوفاكيا من جهة وفرنسا وروسيا من الجهة الأخرى، وهي المعاهدات التي يكرهها الزعيم، بضمانة دولية لچيكوسلوفاكيا "التي ستكون دولة محايدة تماماً" ضد أي هجوم عدواني عليها.

بدا هذا كله بسيطاً معقولاً منطقياً، لرجل الأعمال المسالم البريطاني الذي أصبح رئيساً للوزراء. وصمت صمت الراضي عن نفسه ليرى وقع كلامه في هتلر - كما ذكر شاهد عيان. سأل هتلر^(٦٠):

"هل أفهم من هذا أن الحكومات البريطانية والفرنسية والچيكية قد اتفقت على تحويل اقليم السودان من چيكوسلوفاكيا الى ألمانيا؟"

كان مذهولاً - كما صرح چمبرلين فيما بعد- بأن التنازل له قد وصل الى هذا الحد وتم بمثل هذه السرعة. فأجاب چمبرلين باسمًا: "نعم!" فقال هتلر: "إني آسف جداً، فبعد الحوادث التي جرت خلال الأيام القلائل الماضية، لم يعد لهذا التدبير أي فائدة."

وذكر الدكتور شميدت فيما بعد أن چمبرلين أجفل وهو في معقده وتوتر جسمه وشاعت الدهشة والغضب في وجهه الشبيه بوجه اليوم. لكن لم يشعر -على ما بدا- بغضب لأن هتلر خدعه. لأن هتلر كأني نصاب مبتز عادي رفع في مقدار ماطلبه في اللحظة التي تم قبول عرضه. ووصف الرئيس البريطاني ما أحسّ به تلك اللحظة في كلمة له بمجلس العموم بعد أيام قليلة:

"لاأريد من المجلس أن يظن أن هتلر كان يخدعني عامداً، لم افكر بذلك لحظة واحدة- لكنني كنت

= المراسلات بين هتلر وچمبرلين في ٢٣ أيلول [وثائق عن سياسة...ج٢ الص ٨٨٧-٨٩٢] ملاحظات (كيركياتريك) حول الإجتماع (و.س.ب.خ) السلسلة الثالثة ج٢ الص ٤٦٣-٤٧٣ والص ٤٩٩-٥٠٨ ووصف هندرسن في "إخفاق بعثة الص ١٥٦-١٦٢".

٦٠- كان هتلر عالماً بأن الجيك قبلوا المقترحات الأنكلو-فرنسية. ودون (يودل) في يومياته انه في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين من صباح اليوم السابق لوصول چمبرلين الى گودسبرگ. اتصل به مرافق الزعيم تلفونياً وقال له: "ان أنباء وصلت الزعيم قبل خمس دقائق تشير إلى أن براغ قد إستسلمت بدون قيد أو شرط." ودون يودل في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين مايلي "أبلغ رؤساء الأقسام بالإستمرار في الإستعداد (للخضراء) وعلى كل حال ان يكونوا مستعدين لكل ما هو ضروري للزحف بصورة سلمية." (مؤامرة النازيين-ج٤ ص ٣٧٨ الوثيقة - ١٧٨٠ PS) ومن المحتمل ان هتلر لم يكن يدري بالشروط الأنكلو-فرنسية حتى شرحها له رئيس الوزراء البريطاني.

اتوقع شخصياً بأن ما يترتب عليّ عند وصولي غودسبرك لن يزيد عن التباحث معه بهدوء حول المقترحات التي جئت بها، فكانت صدمة عميقة لي عندما أبلغت أن هذه المقترحات غير مقبولة". رأى جمبرلين بيت السلام الذي بناه بهذا القدر من "المشقة" على حساب الجيكيين ينقض ويتهافت مثل بيت مبني من كاغد اللعب. وقال لهتلر : إنه يشعر بالخيبة والحيرة معاً وأن له الحق في أن يقول أن هتلر حصل منه على كل ما طلبه".

"ولبلوغ هذه الغاية، قامر [اي جمبرلين] بكل مستقبلة السياسي... انه الآن يتهم من قبل أوساط معينة في بريطانيا العظمى ببيع جيکوسلوفاكيا، وبالغدر بها والإستسلام الى الدكتاتورين. وفي أثناء تركه إنكلترا ذلك الصباح قيل من الناس بصرخات الإستهجان: بو... بو..." إلا أن (الزعيم) لم يتزحزح ولم تؤثر فيه الورطة الخاصة التي وقع فيها رئيس الوزراء البريطاني. وقال أن أراضي السودان يجب أن تحتل عسكرياً حالاً. وأن المسألة "يجب أن تحل حالاً تاماً نهائياً في الأول من تشرين الأول كأقصى موعد" وكان بمتناول يده خريطة أشر عليها الأراضي التي يجب إقتطاعها حالاً.

وهكذا انسحب جمبرلين الى الضفة الأخرى من الراين "وذهني منشغل بما أكره، لأفكر فيما ينبغي لي عمله" كما تحدث الى مجلس العموم بعدئذ. لم يكن يبدو بارقة أمل في تلك الأمسية. فبعد أن تشاور تلفونياً مع زملائه في الوزارة ومع أعضاء الحكومة الفرنسية اتفق أن تقوم لندن وباريس بإبلاغ الحكومة الجيكية في اليوم التالي انهما لا يستطيعان "أن يتحملا بعد الآن مسؤولية الطلب منها بالتوقف عن إعلان التعبئة العامة"^(٦١).

في الساعة السابعة والدقيقة العشرين من ذلك المساء اتصل الجنرال كايتل تلفونياً من (غودسبرك) بمقر القيادة العامة. وأبلغ: "تاريخ يوم (س) لم يتعين بعد. أكملوا الإستعداد وفق الخطة. إن ظهرت (القضية الخضر) فلن يكون ذلك قبل الثلاثين من أيلول. وإن ظهرت قبل ذلك فمن المحتمل أن يرتجل الموعد"^(٦٢) ارتجالاً.

ذلك لأن هتلر نفسه كان واقعاً في مأزق، وإن كان جمبرلين يجهل الأمر، إن هدف (الزعيم) الحقيقي كما أثبتته في أمر (ق.ع.ق.م) التوجيهي بعد أزمة أيار، هو "سحق جيکوسلوفاكيا بعمل عسكري"، وقبوله الإقتراح الأنكلو-فرنسي الذي وافق عليه الجيك بعد تردد، لن يقصر أثره مع فوز هتلر بألمانه السوديت بل سيؤدي حتماً الى تدمير الدولة الجيكية لأنها ستبقى مجردة من وسائل دفاعها، لكن ذلك لا يتم بعمل عسكري في حين صَحَّ عزمه على إذلال الرئيس بينيش والحكومة الجيكية التي أهانتته اهانة بالغة في أيار، فضلاً عن تعرية جن الدول الغربية وفضحها، ولهذا يقتضي على الأقل (إحتلال عسكري) عساه يكون هادئاً خالياً من سفك الدم كما حدث في النمسا،

٦١- بدأ الجيكيون بالنفير العام في الساعة العاشرة والدقيقة الثلاثين مساءً يوم ٢٨ أيلول.

٦٢- يوميات (يودل) المؤرخة ٢٦ أيلول ١٩٣٨. المرجع السالف.

ولكن من الضروري أن يتمّ كما رسم له. من الضروري أن يصيب هذا القدر من الانتقام على الأقل من
الجيكيين المغرورين.

لم يجتمع الرجال مرة أخرى في مساء ٢٢ أيلول. إلا ان چمبرلين بعد ان قضى ليلته يقلب وجوه
الرأي في المشكلة وصرف ساعات من الصباح الباكر بالمشي في شرفة غرفته المظلة على الراين، جلس
الى مكتبه بعد الفطور وخط رسالة الى هتلر قال فيها انه سيعرض المطالب الألمانية الجديدة على
الچيك إلا أنه لا يرجّح قبولهم بها. في الواقع إنه لا يشك في اقدم الجيكيين على مقاومة إحتلال
عسكري ألماني فوري بقوة السلاح. إلا انه يرغب في أن يقترح على براغ ان يقوم الألمان السوديت
بالإشراف على حفظ الأمن والنظام في منطقتهم حتى يتم نقلها الى الرايخ مادام كل الفرقاء المعنيين
قد اتفقوا على فصلها وضمّها الى ألمانيا.

ولم يُعرِ هتلر أذنًا صاغية الى هذه التسوية. وبعد أن ترك رئيس الوزراء ينتظر معظم النهار أجاب
رسالته أخيراً بسيل دافق مردداً كل الشرور التي إقترفها الجيك بحق الألمان ورفض تعديل موقفه
وختم جوابه بقوله أن الحرب تبدو الآن الحل الوحيد. فكان رد چمبرلين مختصراً. طلب من هتلر أن
يدوّن مطالبه على الورق "ويربط بها الخريطة" وتعهّد "كوسيط" بإرسالها الى براغ: "فأنا لأجد نفسي
قادراً على تأدية أية خدمة أخرى هنا واقترح أن أعود الى إنكلترا".

وقبل أن يعود، ذهب الى (دريسن) ليجتمع بهتلر آخر مرة وبدأ إجتماعهما في العاشرة والدقيقة
الثلاثين من مساء ٢٣ أيلول وقدم هتلر مطالبه بشكل مذكرة مع الخريطة ووجد چمبرلين نفسه أمام
فترة محددة جديدة: أن يبدأوا بإخلاء الأراضي المقتطعة في الساعة الثامنة من صباح يوم ٢٦ أيلول -
أي بعد يومين من تاريخ المذكرة- وأن يكملوا إنسحابهم في ٢٨ أيلول.

فهتف چمبرلين مشدوهاً "لكن هذا إنذار ليس إلا!" فرد عليه هتلر "كلاً انه ليس كذلك" وعندما
احتج چمبرلين بأن كلمة "Dictat" الألمانية تنطبق عليه، اجابه هتلر: "كلاً انه ليس (دكتاتاً) أبداً. أنظر
إن كلمة (مذكرة) تحلّي صدر الوثيقة.

في تلك اللحظة دخل المرافق برسالة مستعجلة (للزعيم). فألقى نظرة عليها ثم سلمها الى شميدت
الذي كان يترجم، وقال له: إقرأ هذه للمستتر چمبرلين".

ففعل شميدت ما أمر: "لقد أعلن بينيش الآن التعبئة العامة من الإذاعة الجيكوسلوفاكية".
وروى شميدت أن سكونا خيم على الغرفة أشبه بسكون الموت ثم تكلم هتلر: "لقد تقرر الأمر الآن
بطبيعة الحال. ان الجيكيين لن يفكروا بالتنازل عن شبر واحدٍ من الأرض لألمانيا". فلم يوافقهم
چمبرلين- حسب ما دوّن شميدت- وتبع ذلك مناقشة عنيفة.

"[قال هتلر] كان الجيك أول من بادر الى التعبئة. فعارضه چمبرلين بقوله ان ألمانيا هي التي
بادأتها... انكر الزعيم أن ألمانيا قد عبأت..."

وهكذا إستمر الكلام الى ساعات الفجر الأولى. وأخيراً بعد أن تساءل چمبرلين هل أن المذكرة

الألمانية "هي كلمته الأخيرة" واجاب هتلر أنها كذلك، قال چمبرلين إذن لم يعد ثم ما يستوجب مواصلة الحديث، وأنه عمل كل ما بوسعه وقد أخفقت مساعيه وسيعود حزين القلب لأن الآمال التي حفت بقدومه إلى ألمانيا قضي عليها.

لم يشأ الدكتاتور الألماني أن يخرج من المصيدة سالماً. فبذل له "تنازلاً" واحداً قال بركة "إنك من الأفراد القلائل الذين قمت لهم بعمل كهذا. إنني مستعد لتعيين تاريخ واحد لإنسحاب الجيش، هو الأول من تشرين الأول إن كان ذلك يسهل عليك مهمتك" قال هذا وامسك بقلم وغير التاريخ في المذكرة بيده. ولم يكن ذلك تنازلاً منه بطبيعة الحال ابداً. فالاول من تشرين الأول ذلك هو اليوم (س) الذي ظل ثابتاً من الأول.

لكن يظهر أن ذلك احدث تأثيراً في رئيس الوزراء وروى شמידت انه قال: "أنا أقدر حق تقدير تفهم الفوهرر للمسألة". وعلى كل فهو ليس في حال يستطيع معها أن يقبل أو يرفض المقترحات: وكل ما يستطيعه هو نقلها^(٦٣).

وهكذا زال الجفاء وعندما انفض الاجتماع في الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين صباحاً بدا الرجلان رغم كل ما حدث أقرب شخصياً مما كانا في أي وقت مضى منذ مقابلتهما الأولى وقد راقبتهما أنا نفسي من كوة vantage تبعد عنهما خمسة وعشرين قدماً. في غرفة البواب حيث اقمتم مركز إذاعة لاسلكية مؤقت راقبتُهُما وهما يتبادلان تحايا الوداع قرب باب الفندق فراعني الاحترام والاكبار المتبادل ودون شמידت الكلمات التي لم استطع سماعها:

"ودع چمبرلين الزعيم وداعاً حاراً وقال ان إحساساً يمتلكه بأن علاقة من الثقة قد نشأت بينه وبين الزعيم نتيجة لأحاديثهما التي تبادلها في الأيام القلائل الماضية... إنه لن ينفك يأمل في التغلب على الأزمة العصبية الحالية، وعندها سيكون مسروراً لبحث مشاكل أخرى، مازالت قائمة - بالروح نفسها مع الزعيم.

شكر (الزعيم) چمبرلين على كلماته الطيبة وبلغه بأنه يأمل كذلك. وكما صرح مراراً من قبل أن المسألة الجيكية هي آخر المطالب الاقليمية له في أوروبا.

ويبدو أن نكران طموحه إلى الإستيلاء على أراضٍ أخرى قد أحدث أثره في الرئيس الراحل ايضاً لأنه شدّ القول في تصريحه التالي لمجلس العموم بأن هتلر نطق به "بكل اخلاص".

عندما وصل چمبرلين الى فندقه في حوالى الساعة الثانية صباحاً سأله صحفي: "هل الموقف

٦٣- طلبت المذكرة سحب جميع القوات المسلحة الجيكية وبضمنها الشرطة الخ... في مدة اقصاها (١) تشرين الأول من جميع المناطق الواسعة التي أشر عليها في خارطة، بظل أحمر، وان يقرر إستفتاء تال مصير مناطق أخرى اشير اليها بظل أخضر وان تترك جميع المنشآت العسكرية في المناطق المجلو عنها سالمة. وان تسلم بحالة سالمة للألمان كل المواد التجارية ومنشآت النقل وخاصةً "ما يسير على عجلات في نظام السكك الحديدية" وأخيراً يحظر رفع أو نقل الاوراق والاطعمة والبضائع والماشية المواد الاولية الخ... نص المذكرة في [وثائق عن سياسة ألمانيا... ج ٢ الص ٩٠٨ - ٩١٠] وينع مئات الألوف من الجيش الساكنين في مناطق السودان ان يصحبوا معهم اثاث بيوتهم أو بقرة الأسرة.

ميؤوس منه ياسيدي؟" فأجابه رئيس الوزراء "لأرغب في ان أقول ذلك، الموضوع الآن رهن بمشيئة
چيكوسلوفاكيا"^(٦٤).

من الجلي لم يخطر بباله ان الموضوع رهن أيضاً بمشيئة الألمان وبمطالبهم الظالمة. في الواقع ما أن
عاد رئيس الوزراء إلى لندن في ٢٤ أيلول حتى حاول أن يفعل الشيء الذي أعلم هتلر بأنه لن يفعله:
وهو إقناع الحكومة البريطانية بقبول المطالب النازية الجديدة. على انه الآن اصطدم بمعارضة غير
منتظرة فقد وقف ضده وزير البحرية (د ف كوبر Duff Cooper) وقفة صارمة كذلك فعل اللورد
هاليفاكس -وهنا موطن العجب- بكثير من التردد. لم يفلح چمبرلين مع حكومته ولم يستطع إقناع
الحكومة الفرنسية التي رفضت مذكرة (گودسبرگ) في ٢٤ أيلول وأعلنت التعبئة الجزئية في اليوم
نفسه.

وعندما وصل أعضاء الحكومة الفرنسية الى لندن وعلى رأسهم (دالاديه) في ٢٥ أيلول، بلغت
الحكومتان هناك، برفض الحكومة الچيكوسلوفاكية الرسمي لمقترحات گودسبرگ^(٦٥).

فلم يعد للحكومة الفرنسية من سبيل الا التأكيد بأن فرنسا ستفي بتعهداتها وستخف الى معونة
چيكوسلوفاكيا اذا هوجمت. الا أنهم ارادوا ان يعرفوا موقف بريطانيا في هذه الحالة. أخيراً، ولما
أخرج چمبرلين -أو هذا ما بدا- وافق على إبلاغ هتلر أن بريطانيا ستكون مضطرة الى مساندة فرنسا
ان إشتبكت في حرب مع ألمانيا تنفيذاً لالتزاماتها ازاء چيكوسلوفاكيا. على انه إرتأى القيام بآخر
مسعى لدى الدكتاتور الألماني، وكان مقررراً أن يلقي خطبة في (سبورت بالاس) في ٢٦ أيلول،
فلأجل ان يقنعه چمبرلين بالأى "يحرق جسوره" ويقطع الأسباب بينهما أرسل اليه رسالة شخصية في
٢٦ أيلول مع مبعوثه الأمين (سر هوراس ويلسن) فطار بها بعد ظهر اليوم نفسه الى برلين بطائرة
خاصة.

عندما غادر چمبرلين (دريسن) في ساعة مبكرة في يوم ٢٤ أيلول خيّم الكآبة على الألمان. انهم
الآن يواجهون حرباً لا تُعجب فريقاً منهم على الأقل. بقيت في بهو الفندق برهة من الزمن أتناول
عشائي متباطئاً، وكان گورنگ وريبنتروب والجنرال كايتل ورجال أقل منهم شأنًا مجتمعين يتحدثون
بكل إهتمام وجدّ. الظاهر أن احتمال نشوب الحرب أورثهم صدمة.

أما في برلين فقد وجدت الآمال منتعشة في ذلك اليوم وكان الشعور السائد في قلهلمشتراسه انه
مادام چمبرلين ذو السلطان الكبير قد وافق على تقديم مطالب هتلر الى پراغ، فمعناه أنه يساند
المقترحات. ولقد تبين لنا كم كان هذا الإستنتاج صحيحاً قدر ما اثبتت لنا المظاهر والاستقراءات.

كان يوم ٢٥ أيلول يوماً جميلاً من أيام الصيف المنعشة في برلين يوم مشمس دافىء وهو بلا ريب

٦٤- (النايمس) - لندن ٢٤ أيلول ١٩٣٨.

٦٥- كان جواب الجيك مؤثراً. بل وثيقة حافلة بالنبوءات وجاء فيها ان مقترحات (گودسبرگ) "تجردنا من كل حماية
لكياننا الطبيعي" نص الجواب الجيكى في الكتاب البريطاني الأبيض: ٥٨٤٧ رقم ٧.

آخر عطلة يوم أحد من هذا النمط في ذلك الحريف، وانتَهز سكان برلين الفرصة فخرج نصفهم وإلتأموا عقوداً وجماعات على سواحل البحيرات وفي الغابات المحيطة ببرلين ومع سماعهم بالأنباء التي تحدثت عن سخط هتلر لسماعه برفض إنذار غودسبرگ في باريس ولندن وبراغ، لم يسد شعور ما بوجود أزمة كبيرة، وليس ثم حمى تشيعها احتمالات حرب على وجه التأكيد. وقد دوت في مفكرتي "يصعب الاعتقاد بوقوع حرب" (٦٦).

في الإثنين التالي طرأ تدهور مفاجيء على الوضع. فقد ذهب السر هوراس ويلسن، مصحوباً بالسفير هندرسن وايفون كيركباترك Ivone Kirkpatrick السكرتير الأول للسفارة البريطانية الى دار المستشارية في الساعة الخامسة بعد الظهر، يحملون رسالة جمبرلين (٦٧).

فوجدوا هتلر في حالة نفسية سيئة جداً- ربما لأنه كان يريد أن يهيء نفسه ليلبلغ بها المستوى المناسب لخطبة (سبورت بالاست) بعيد ثلاث ساعات.

وفيم كان الدكتور شميدت يبدأ في ترجمة الرسالة التي ذكر فيها أن الحكومة الهولندية أبلغت رئيس الوزراء أن إنذار غودسبرگ "غير مقبول جملة وتفصيلاً" قفز هتلر فجأة (كما روى شميدت) وصرخ ليس هناك فائدة ما في مزيد من المفاوضات! وسار يقصد باب الغرفة (٦٨).

كان مشهداً مؤلماً (حسيماً وصفه المترجمان الألماني) "للمرة الأولى والوحيدة أرى هتلر بمحض مني يفقد السيطرة على نفسه" واما بحسب رواية البريطانيين الحاضرين، فإن هتلر رجع حالاً وتهافت على كرسيه وظل يقطع القراءة بصراخه "إن ألمانيا تعامل معاملة الزوج... في الأول من تشرين الأول سأضع چيكوسلوفاكيا في المحل الذي اريده لها وان قررت بريطانيا وفرنسا أن تضربا فمرحباً إنني لاهتم قلامة ظفر".

اقترح جمبرلين- التقاء بين ممثلين چيكيين وألمان- مادام الچيك موافقين على إعطاء هتلر ما يريد في أرض السوديت. والطلب منهم إيجاد تسوية فورية "بالإتفاق على الوسيلة التي يتم بها تسليم المنطقة" واضاف أنه يرغب في أن يجلس ممثلون بريطانيون معهم في الإجتماع. فأجاب هتلر أنه سيناقش التفصيل مع الچيك إن قبلوا مسبقاً إنذار غودسبرگ (الذي رفضوه كما مر) ووافق على الإحتلال الألماني لأرض السوديت في (١) تشرين الأول. ويجب أن يتسلم جواباً بالموافقة على ذلك خلال ثمانين وأربعين ساعة- في الساعة الثانية بعد الظهر من ٢٨ أيلول كآخر موعد.

في مساء ذلك اليوم احرق هتلر جسوره، او هذا ما بدا لنا نحن الذين أصغينا إلى إنفجاراته

٦٦- في ختام مباحثات (غودسبرگ) هرع مراسلو الصحف البريطانيون والفرنسيون، ورئيس مراسلي صحيفة نيويورك تايمس (وكان مواطناً بريطانياً) الى الحدود الفرنسية والبلجيكية والهولندية، خشية إعتقالهم في حالة نشوب الحرب.

٦٧- نص رسالة جمبرلين لهتلر بتاريخ ٢٦ أيلول في [وثائق عن سياسة... ج ٢ الص ٩٩٤-٩٩٥].

٦٨- مع ضياع ملاحظات شميدت حول هذه المقابلة من وزارة الخارجية الألمانية فوصفه لها موجود في كتابه السالف: ص ٣٠٢-٣٠٣. اما ملاحظات كيركباتريك فهي في (و.س.ب.خ) السلسلة الثالثة رقم ١ ص ١١٨ ورواية هندرسن في كتابه السالف ذكره ص ١٦٣.

الجنونية ذاهلين في (سبورت بالاست) المكتظة، كان يزق ويصرخ بنوبات هستيرية مريضة لم ألاحظها فيه من قبل. وراح يصب الشتائم البذيئة الشخصية على (هر بينيش) وأعلن ان تبعة الحرب أو السلم تقع الآن على عاتق الرئيس الجيكي. وأنه سيسطوي على أرض السودان مهما كانت الظروف في (١) تشرين الأول. وواصل بحماسة كلماته الدفاقة الغاضبة وهتافات الجماهير الصاخبة، دون أن ينسى إلقاء طعم للرئيس البريطاني بأسلوبه الماكر المأثور بشكره لمجهوداته التي بذلها في سبيل السلم وكرّر أن السودان هي آخر مطلب أقليمي له في أوروبا: وهمس ساخراً "نحن لانريد جيكيين". كنت جالساً في الشرفة فوق هتلر تماماً طوال الوقت، محاولاً إذاعة ترجمة سريعة مرتجلة لكلماته دون نجاح يذكر. وفي تلك الليلة دونت في مفكرتي مايلي:

"... للمرة الأولى في كل السنين التي راقبته، بدا في هذه الليلة وقد فقد سلطانه على نفسه. وعندما عاد الى مجلسه، نهض غوبلز وصرخ في الميكرفون: "شيء واحد أكيد: عام ١٩١٨ لن يتكرر ثانية! ونظر اليه هتلر نظرة زائغة متلهفة، كأنما هي الكلمات التي كان يبحث عنها طوال تلك الأمسية، ولم يعثر عليها. فهب قائماً، وعينه تلتظيان بشواظ من نار التعصب لن أنساها وأهوى بقبضته اليمنى على المائدة أمامه بعد تلويحة كبيرة بذراعه - وصرخ بملء رئتيه الواسعتين "Ja أجل!" ثم إرتقى على معقده متعباً مكدوداً.

كان قد عاد إلى هدوئه تماماً عندما استقبل السر هوراس ولسن مرة ثانية ظهر اليوم التالي (٢٧ أيلول) كان المبعوث الخاص رجلاً لا تجربة دبلوماسية له، إلا أنه متلف كرتيس وزرائه بل لعله أكثر منه في إعطاء أرض السودان للدكتاتور إن قبل ذلك بصورة سلمية، فاسترعى إنتباه هتلر إلى تصريح خاص صدر من رئيس الوزراء في لندن بعد نصف الليل بقليل جواباً على خطبة هتلر. قال چمبرلين: نظراً الى قلة ثقة المستشار الألماني بوعود الجيك فإن الحكومة البريطانية ستعتبر نفسها "مسؤولة أديباً" في متابعة الموضوع عند الحكومة الجيكية حتى يتم انجازه "بعدل وكمال وبكل سرعة معقولة" وأمل أن لايرفض المستشار إقتراحه.

إلا أن هتلر لم يبد إهتماماً. وقال ليس هناك رسالة أخرى يريد إرسالها الى چمبرلين. والمسألة الآن بيد الجيك وبإمكانهم قبول طلباته أو رفضها. وأن رفضوها ف"سأدمر چيكوسلوفاكيا" وظل يكرر هذا التهديد متلمضاً ملتدأً.

ويظهر أن هذا كان أكثر مما يسع (ويلسن) المجامل تحمله فنهض من مجلسه وقال "في هذه الحالة اني موسى من قبل الرئيس أن أقدم التصريح الآتي: إن قامت فرنسا بإيفاء تعهداتها فوجدت نفسها فعلاً في حالة أعمال عدوانية ضد ألمانيا فإن المملكة المتحدة تشعر ان الواجب يحتم عليها مساندة فرنسا.

فاجاب هتلر بشيء من الحرارة: "لقد فهمت الموقف تماماً. يعني إن اختارت فرنسا مهاجمة ألمانيا، فإن بريطانيا ستجد نفسها مضطرة إلى مهاجمتها أيضاً."

وعندما أجاب سر هوراس إنه لم يقل هذا ، وأن المسألة تعود الى هتلر على كل حال هو الذي سيقدر الحرب أو السلم. راح (الزعيم) يصرخ - بعد أن عمل على إخراج زيد إلى شقيقه "إن ضربت بريطانيا وفرنسا ضربتهما فلتفعلا ما يحلو لهما! فهو أمر لاكثر به البتة اليوم هو الثلاثة. وسنكون في حرب نهار الإثنين المقبل."

جاء في ملحوظات شמידت الرسمية عن المقابلة أن (ويلسن) كان يريد الإستمرار في الحديث كما يبدو إلا أن السفير هندرسن نصحه بالأستمرار. على أن ذلك لم يمنع المبعوث الخاص غير المجرب أن يختلس كلمات من هتلر على انفراد قبل إنفراط عقد الإجتماع، مؤكداً له "إنني سحاول أن أجعل هؤلاء الچيك معقولين"^(٦٩).

فأجابه هتلر أنه سيرحب بذلك. ولعله كان يفكر بأن من الممكن إستمالة چمبرلين ودفعه إلى أن يقوم بدور المرشد للچيك ليجعلهم يصغون الى صوت العقل. وفي تلك الليلة بالذات جلس وأملى رسالة دقيقة التعابير الى رئيس الوزراء وكان ثم أسباب تدعو لكتابة الرسالة. فقد حدثت أمور كثيرة في برلين وغير برلين خلال ذلك اليوم ٢٧ أيلول.

في الساعة الواحدة بعد الظهر، بعد إنصراف (ويلسن) اصدر هتلر أمراً سرياً "للغاية" يقضي بنقل الوحدات المخصصة للهجوم وتبلغ زهاء الواحد والعشرين لواءً مجحفلاً أو سبع فرق، والتقدم الى الأمام من معسكرات تدريبها الى نقاط الوثوب على الحدود الچيكية وذكر في الأمر "يجب أن تكون مستعدة للشروع في العمليات ضد (الحضراء) في ٣٠ أيلول. وان القرار تم قبل يوم واحد في الساعة الثانية عشرة ظهراً". وبعد ساعات قليلة صدر الأمر من الزعيم بتعبية سرية لخمس فرق جديدة للجهة الغربية^(٧٠).

ولكن مع مضي هتلر في تحركاته العسكرية، كان ثم تطورات أثناء اليوم حملته على التردد. وأمر باقامة عرض عسكري لفرقة آلية في العاصمة أثناء ساعات الغسق لإثارة بعض الحماسة العسكرية بين السكان. واختيرت ساعة العرض في الوقت الذي يخرج مئات الألوف من البرلينيون كالسيل العرم من دوائرهم الى الشوارع. إلا أنه اخفق في ذلك إخفاقاً ذريعاً (على الأقل للقيادة العليا) لم يكن أهل برلين الوادعون يريدون أن يشاهدوا ما يذكرهم بالحرب. وفي تلك الليلة دونت في يومياتي تفاصيل المشهد العجيب:

"خرجت إلى منعطف شارع (ليندن) حيث [الرتل العسكري] يستدير الى قلهمشتراسه، متوقفاً أن اشاهد تجمهراً هائلاً. كنت قد صورت لنفسي مشهداً مماثلاً لما قرأت عنه للعام ١٩١٤ عندما كان المتفرجون الهاتفون في هذا الشارع نفسه يقذفون الجنود المستعرضين بالزهر والفتيات يخرجن من الصفوف ليقبلنهم أما اليوم فترى الناس يتوارون في دهاليز قطارات تحت الأرض ويرفضون أن

٦٩- تأكيدات ويلسن مثبتة بالعبارة الإنكليزية في أصل ملاحظات شמידت الألمانية.
٧٠- المبرزات ٣١-٣٣ من ملف (الحضراء) [مؤامرة النازيين... ج ٣ الص ٣٥٠-٣٥٢، الوثيقة ٣٨٨ PS].

ينظروا، ولم يكن ثم غير حفنةٍ من الناس واقفة على الرصيف وهم صامتون صمتاً عميقاً... كان أغرب تظاهرة ضد الحرب شهدتها في حياتي".

وبالحاح من رجل شرطة عبرت من قللمشتراسه إلى (قصر مستشارية الرايخ) حيث كان هتلر واقفاً في شرفة المستشارية يستعرض الجنود.

"... لم يكن يوجد مائتا شخص هناك. وبدأ هتلر عبوساً متجهماً غاضباً ثم مال بث ان ترك الشرفة ودلف تاركاً جنوده يستعرضون أنفسهم. مارأيته تلك الليلة، أحبى في بعض الإيمان بالشعب الألماني. انهم ضد الحرب بصورة مطلقة.

كانت الأنباء التي وردت من الخارج الى المستشارية خطرة وسيئة فهناك تقرير من بودابست يقول أن يوغوسلافيا ورومانيا أبلغتا الحكومة المجرية انهما ستتحركان عسكرياً ضدها إن هاجمت چيكوسلوفاكيا وهذا ما سيوسع رقعة الحرب الى البلقان. وهو ما لايرغب فيه هتلر.

وكانت الأنباء من باريس أخطر. فقد وردت برقية من الملحق العسكري الألماني بعنوان "مستعجل جداً" معممة على وزارة الخارجية الألمانية والقيادة العليا، وهيئة الأركان العامة. تحذر من كون النفير الجزئي الفرنسي هو أشبه بالنفير العام "بحيث أقدر أن أول خمس وستين فرقة سيتم إكمالها ونقلها الى الجبهة خلال اليوم السادس من إعلان النفير". وكان للألمان مقابل هذا كما يعرف هتلر إثنتي عشرة فرقة لا غير، نصفها وحدات إحتياطية لايعتمد كثيراً على قيمتها. وأضاف الملحق العسكري "يبدو محتملاً في حالة مباشرة ألمانيا بأعمالها الحربية... سيحصل هجوم فجائي يأتي على أغلب الإحتمالات من منطقة الالزاس واللورين السفلى بإتجاه (Mainz)."

وأخيراً أبلغ هذا الضابط الألماني برلين إن الإيطاليين لايفعلون شيئاً قط لتعويق القطعات الفرنسية على الحدود الإيطالية الفرنسية^(٧١). يبدو أن موسوليني الحليف الباسل ينوي أن يخذل هتلر في أخرج الساعات.

ثم دخل الميدان رئيس جمهورية الولايات المتحدة وملك السويد. ففي اليوم الذي سلف (٢٦ أيلول) وجه روزفلت نداءً ناشد فيه هتلر التعاون لإحلال السلام. ورد هتلر عليه خلال أربع وعشرين ساعة قائلاً ان السلم يتوقف على الجيك وحدهم. ثم وردت رسالة أخرى من الرئيس الأمريكي أثناء ساعات نهار الخميس (٢٧) أيلول يقترح عقد مؤتمر عاجل لجميع الشعوب المعنية بالأمر مباشرة ومشدداً بأن هتلر سيكون مسؤولاً عن إثارة الحرب لو انها اندلعت^(٧٢).

كان ملك السويد الصديق الصدوق لألمانيا كما برهن في ١٩١٤-١٩١٨، أكثر صراحة من الرئيس الأمريكي. فبعد ظهر اليوم نفسه ورد تقرير الى برلين من الوزير الألماني في (ستوكهولم) جاء فيه أن الملك ارسل يستدعيه فوراً وأخبره: إن لم يمدد هتلر الوقت المحدد بالاول من تشرين الأول عشرة أيام

٧١- تقرير من باريس وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٢ ص ٩٧٦.

٧٢- نص رسالتي روزفلت ورد هتلر على الأولى منهما في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج١١].

فأن حرباً عالمية ستندب لا محالة وستكون ألمانيا هي الملوحة وحدها وستخسر حتماً "نظراً إلى وضع التكتل الدولي الحاضر" وتمكن الملك الذكي في جو ستوكهولم المحايد أن يتعرض على الأقل للموقف العسكري بصراحة أكثر من الحكومة في برلين ولندن وباريس.

واضطر الرئيس روزفلت نزولاً إلى المشاعر الأمريكية، إلى إن يضعف من نذائيه لأجل السلم بالتشديد في القول أن الولايات المتحدة لن تتدخل في الحرب ولا تتحمل أي واجب "في إجراء أو توجيه المفاوضات الجارية حالياً". لذلك فكر هانس ديكهوف Hans Dieckhoff السفير الألماني في واشنطن، أن الضرورة تدفعه إلى إرسال برقية "مستعجلة جداً" إلى برلين في ذلك اليوم. منذراً بأن لجوء هتلر إلى الحرب ووقوف بريطانيا موقفاً عدائياً منه لديه من الأسباب فإنه يعتقد أن كل ثقل الولايات المتحدة سيتحول إلى جانب بريطانيا". وأضاف السفير وهو في العادة خائر العزم عندما يتطلب الأمر وقوفه بوجه هتلر "أرى من واجبي أن أشدد على هذه النقطة بكل قوة". لم يكن يريد أن تقع الحكومة في الحساب الخاطيء الذي وقفت فيه بخصوص أمريكا في ١٩١٤.

وماذا عن براغ؟ هل هناك أي دليل على الضعف هنا؟ في مساء ذلك اليوم وردت برقية من الكولونيل (توسان) الملحق العسكري الألماني إلى (ق.ع.ق.م) "الهدوء يسود براغ آخر عمليات النفير تمّ المجموع الكلي للوجبات مليون مقاتل. جيش الميدان (٨٠.٠٠٠) مقاتل... (٧٣). وهذا يساوي ما لدى ألمانيا من الجنود المدربين في الجبهتين. وبإضافة مجموع المقاتلين الفرنسيين تكون النسبة واحداً لإثنين.

كان هتلر يواجه هذه الحقائق والتطورات كما ظلت ترن في أذنيه كلمات (ويلسن) الأخيرة. راح يفكر في شخصية جمبرلين، وخوف جمبرلين المميت من الحرب. فما لبث في أولى ساعات المساء (٢٧ أيلول) أن جلس ليملي خطاباً لرئيس الوزراء. وخيل للدكتور شميدت الذي استدعي لترجمته إلى الإنكليزية أن (الزعيم) بدأ يتراجع عن "الخطوة المتطرفة". ولا يدري أحد حتى الآن هل كان هتلر على علم بأن الأمر بالتعبئة قد صدر إلى الأسطول البريطاني أم لا؟ كان من المقرر أن يقابله الأميرال (رايدر) في العاشرة مساءً، ومن المحتمل أن الأسطول الألماني قد علم بحركة بريطانيا التي تمت في الثامنة مساءً وأعلنت للعالم في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثامنة والثلاثين. وأبلغ (رايدر) هتلر بذلك تلفونياً، ومهما يكن من أمر فإن الأميرال وصل وناشد (الزعيم) ألا يعلن حرباً.

على أن ما كان هتلر يعلمه حق العلم أن (براغ) تتحدها. وباريس تعبىء للحرب بسرعة، ولندن تتشدد وشعبه غير متحمس. وجنرالاته القادة ضده على طول الخط. وأن إنذاره في مقترحات (گودسبرگ) سينتهي في الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم التالي.

كانت رسالته معدة أعداداً أنيقاً لمسيرة ذوق جمبرلين فهي معتدلة اللهجة. انكر فيها أن مقترحاته تؤدي إلى "سلب چيكوسلوفاكيا كل ضمان لكيانها" أو أن جنوده لن يقفوا عند الخط المرسوم وقال أنه ٧٣- تقرير من باريس، وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٢ ص٩٧٦.

مستعدّ للمفاوضة في التفاصيل مع الچيك، مستعد لإعطاء "ضمانة رسميه لچيكوسلوفاكيا الباقية". إن الچيك يعاندون لأنهم يأملون - بمساعدة فرنسا وإنجلترا - إثارة حرب أوروبية. على كل حال فانه لم يغلق الباب في وجه آخر الآمال بالسلم. وختم رسالته هكذا "فلأترك المسألة لرأيك. وأمام هذه الحقائق، هل تجد من الضروري الإستمرار في جهودك... لإحباط هذه المناورات وردّ حكومة براغ الى صوابها في آخر ساعة"^(٧٤)؟

-٧-

الساعة الحادية عشرة!

أرسل خطاب هتلر برقيةاً بصورة مستعجلة وتسلمه چمبرلين في الساعة العاشرة والدقيقة الثلاثين مساءً ٢٧ أيلول. وصله في نهاية يوم حافل بالعمل. إنّ الأخبار المقلقة التي حملها (سر هوراس ويلسن) الى لندن عن مؤتمره الثاني مع هتلر في الساعات الأولى من بعد الظهر، دفعت چمبرلين وأعضاء وزرائه الأصلاء إلى الحركة. فقرر تعبئة الأسطول، وإستدعاء أفراد القوة الجوية الإحتياط وإعلان حالة الطوارئ. وكان قد بوشر في حفر خنادق في الحدائق العامة والساحات للاحتماء من الغارات الجوية. ويديء باخلاء طلاب مدارس لندن الأحداث.

وكذلك بادر رئيس الوزراء في الحال بإرسال رسالة الى الدكتور بينيش يحذره "بأن المعلومات المستقاة من برلين توضح دون شك أن الجيش الألماني سيبليغ بأوامر عبور الحدود الى چيكوسلوفاكيا فوراً إن لم تقبل الحكومة الچيكوسلوفاكية في موعد ينتهي في الساعة الثانية بعد منتصف ليل ٢٨ أيلول- بالشروط الألمانية" ولكن إنذاره الشهم للچيك لم يمنع من تأنيبهم في الجزء الأخير من رسالته "أن بوهيميا سيحتاجها الألمان ولن يفلح ما تبذله دولة أو دول أخرى لإنقاذ بلادكم وشعبكم من هذا المصير. سيبقي هذا أمراً حقيقياً مهما كانت النتيجة التي ستسفر عنها حربٌ عالمية".

وبهذا وضع چمبرلين مسؤولية السلم أو الحرب على (بينيش) لا على (هتلر). وأعطى رأياً عسكرياً لم يجرأ حتى الجنرالات الألمان على التفكير في إمكان تحقيقه. على كل حال فقد ختم رسالته بتنصله من مسؤولية توجيه الچيكيين الى ما يترتب عليهم عمله الآن. فعليهم أن يتولوا جميع أمرهم.

ولكن أحقّ هذا؟ ما هم بينيش بالجواب إلا وهبطت عليه برقية أخرى فيها جهد چمبرلين أن يخبره ما يجب عليه عمله! إقترح أن يقبل الچيك بإحتلال عسكري ألماني محدود في (١) تشرين الأول لكل من (إيكر) و(آش) خارج الإستحكامات الچيكية. ثم تقوم لجنة حدود ألمانية چيكية إنكليزية

٧٤- نص رسالة هتلر المؤرخة ٢٧ أيلول ١٩٣٨ [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٢ الص ٩٦٦-٩٦٨].

مؤلفة على جناح السرعة بتسليم باقي المنطقة الى الألمان^(٧٥).
وزاد رئيس الوزراء تحذيراً آخر: "إن البديل الوحيد لهذه الخطة هو الغزو وتقطيع اوصال البلاد بالقوة. ولن تستطيع چيكوسلوفاكيا - رغم احتمال نشوء صدام قد يؤدي الى هلاك أنفـس لا تحصى، أن تعيد تخطيط حدودها مهما أسفرت عنه الحرب من نتائج^(٧٦).
وهكذا أنذر چيكوسلوفاكيا أصدقائها (ضمت فرنسا صوتها الى هذه المقترحات الأخيرة) بأن أرض السوديت ستخرج من نطاق الدولة الچيكوسلوفاكية وإن قهرت ألمانيا هي وحلفاؤها في الحرب. والمنطق بسيط: لماذا تورط أوروبا في حرب مادامت السوديت ستخرج من أيديكم كيفما كان؟ وبعد فراغه من هذا، أذاع چمبرلين خطاباً على الشعب البريطاني في الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين:

"شيء فظيع، مذهل، لا يُصدق، أن نلجأ مضطرين الى حفر الخنادق هنا بسبب خصام في بلاد بعيدة لانعرف عن شعبها شيئاً!..."

حصل هتلر (على جوهر ما أراده) عرضت بريطانيا أن تضمن قبول چيكوسلوفاكيا مطلبه وتنفيذه. "لن أتردد في القيام حتى بزيارة الثالثة لألمانيا لو وجدت فيها أي خير...
مهما كنا نشعر بعطف على شعب صغير يواجه دولة قوية ضخمة مجاورة، فنحن لانستطيع مهما كانت الظروف والأحوال أن نزج كل الإمبراطورية البريطانية في أتون الحرب بسببها لا غير. وإن وجب علينا القتال فليكن ذلك في أمر أكبر وأخطر من هذا".
"أنا شخصياً رجل سلم من صميم قلبي وروحي. إن الصدام المسلح بين الشعوب هو كابوس مخيف لي، لكن إن لو أُنعتُ بأن شعباً ما قد حزم أمره على حياة العالم بالتهديد بالقوة، فأعتقد أن الواجب يقضي بمقاومته تحت سطوة كهذه لاتعود حياة الناس الذين يؤمنون بالحرية تسوى قلامه ظفر. لكن الحرب شيء مخيف وعلينا أن نتوثق قبل الدخول في خضمها بأن هناك سبباً مصيرياً عظيماً يدفعنا اليها."

ذكر (هويلر بينيت) أن معظم سكان بريطانيا ذهبوا الى فراشهم بعد سماعهم الخطبة وهم واثقون أن بريطانيا وألمانيا ستكونان في حالة حرب خلال أربع وعشرين ساعة^(٧٧). لكن هؤلاء الأفاضل لم يعرفوا ماكان يجري في (داوننگ ستريت) في ساعة متأخرة من تلك الليلة.
في العاشرة والدقيقة الثلاثين وصلت رسالة هتلر. وكانت القشة التي تعلق بها رئيس الوزراء متلهفاً. فأجاب الزعيم بمايلي:

٧٥- قدمت المقترحات الى وزارة الخارجية الألمانية ايضاً. قدمها السفير هندرسـن في الساعة الحادية عشرة ليلاً راجياً ان تقدم حالاً الى هتلر.

٧٦- مشروع چمبرلين [وثائق عن... ج ٢ الص ٩٨٧-٩٨٨. وأورد (هويلر بينيت) الرسائل المتبادلة في كتابه (مونينخ) الص ١٥١-١٥٢ و ١٥٥ من الملفات الجيكية.

٧٧- المرجع نفسه ص ١٥٨.

"بعد قراءة رسالتك اشعر شعور الواصل بانك تستطيع الحصول على كل المطالب الجوهرية دون حرب أو تأخير. وانا مستعد للمجيء الى برلين بنفسى حالاً للمداولة في إجراءات الضمّ معك وبحضور ممثلين عن الحكومة الجيكية والفرنسية والإيطالية إن رغبت في ذلك. واني لأشعر شعور الواصل بإمكان وصولنا الى إتفاق في بحر أسبوع. لأصدق انك ستأخذ على عاتقك مسؤولية إثارة حرب عالمية قد تقضي على الحضارة بسبب بضعة أيام من التأخير في تسوية مشكلة طال بها الأمد^(٧٨). وأرسل برقية أخرى الى موسوليني طلب فيها منه أن يستخدم نفوذه لإقناع (الرعيم) بقبول هذا الاقتراح والموافقة على أن تمثل بلاده في الإجتماع المقترح.

كانت فكرة المؤتمر تراود ذهن رئيس الوزراء قبل زمن. فمنذ تموز كان (السّرّ نفيل هندرسن) قد اقترح ذلك في تقرير أرسله الى لندن. اقترح أن تقوم الدول الأربعة ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا بتسوية مشكلة السودان لكن وزارة الخارجية البريطانية ذكرت كلاً من رئيس الوزراء والسفراء بأنه يصعب إستثناء دول أخرى من المساهمة في مثل هذا المؤتمر^(٧٩).

والدول الأخرى هي الإتحاد السوفييتي التي ترتبط بمعاهدة التعاون المتبادل مع فرنسا وچيكوسلوفاكيا. وكان چمبرلين قد عاد من (گودسبرگ) وهو مقتنع - وكان مصيباً أن هتلر لن يرضى قطّ بحضور أي إجتماع تكون روسيا طرفاً فيه. كما أنه هو نفسه لا يرغب في حضور الروس. وإن كان واضحاً لأبسط الناس واصغره عقلاً في بريطانيا أن مساهمة السوفييت الى جانب الغرب في حالة نشوب حرب ستكون ذات قيمة هائلة لاتقدّر بثمن كما حاول چرچل مراراً وتكراراً تنبيهه رئيس الحكومة البريطانية الى هذا. تلك فكرة يبدو أنها غابت عن دماغ رئيس الوزراء. وقد رأينا كيف رفض إقتراحاً روسياً لعقد مؤتمر بعد ضمّ النمسا لبحث الوسائل في مقاومة عدوان ألمانيّ آخر. وبالرغم من ضمان موسكو لچيكوسلوفاكيا وإعلان (ليتفينوف) حتى الساعة بأن روسيا ستفي بتعهداتها، لم يكن چمبرلين ينوي السماح للسوفييت بالتدخل وعرقلة قراره بحفظ السلم عن طريق إعطاء هتلر أراضي السودان.

ولكنه لم يبلغ به تفكيره حتى نهار الأربعاء (٢٨ أيلول) الى الحد الذي يعتمد فيه إلى استبعاد الجيكيين من المؤتمر. في الواقع انه طلب في الخامس والعشرين وبعد رفض پراغ مقترحات گودسبرگ مقابلة (يان مازاريك) السفير الجيكي في لندن. واقترح أن توافق چيكوسلوفاكيا على المفاوضات "في مؤتمر دوليّ تساهم فيه ألمانيا وچيكوسلوفاكيا وغيرهما من الدول" وفي اليوم التالي قبلت الحكومة الجيكية الفكرة. ولهذا أوضح چمبرلين في رسالته الأخيرة الى هتلر التي بعثها في ساعة متأخرة من مساء السابح والعشرين. "أن يكون ممثلون جيكيون" في المؤتمر المقترح عقده من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا العظمى.

٧٨- النص في الوثيقة البيضاء البريطانية. (COMD ٥٨٤٨) رقم (١). قدم هندرسن الرسالة لهتلر ظهر اليوم التالي.

٧٩- هندرسن المرجع السالف ص ١٤٤ (و.س.ب.خ) السلسلة الثالثة ج ٢ ص ٦١٤.

نهار (الأربعاء الأسود) ومؤامرة (هالدر) على هتلر

خيمت الكآبة على برلين وبراغ ولندن وباريس عندما إنبلج صبح "الأربعاء الأسود" الموافق ٢٨ أيلول. وبدت الحرب أمراً محتوماً. نقل (يودل) في يومياته عن غورنك قوله في صباح ذلك اليوم: "يصعب إجتناّب حرب عظيمة أكثر من هذا، أنها قد تمتدّ سبع سنين لكننا سنريحها"^(٨٠).

وفي لندن كان حفر الخنادق وإخلاء الأطفال وصبيان المدارس وإفراغ المستشفيات قائماً على قدمٍ وساق. وفي باريس كان ثم تدافع بالمناكب في القطر المكتظة التي تترك المدينة. وحصل تزاحم في وسائل النقل في جميع الطرق الخارجة من المدينة. وكان ثم مشاهد مماثلة في غربي ألمانيا. ودون (يودل) في مفكرته صباح هذا اليوم أنباءً عن لاجئين ألمان فروا من مناطق الحدود إلى الداخل. وفي الساعة الثانية بعد الظهر سينتهي موعد إنذار هتلر لـجيكوسلوفاكيا بخصوص مقترحات (گودسبرگ). ولم تبد إشارة قبول بها من براغ، في حين كان يوجد علائم أخرى: نشاط كبير في (فلهمشتراسه) وسفراء بريطانيا وفرنسا وإيطاليا يروحون ويغدون فزعين ولكن مجموع الشعب وجنرالات ألمانيا بقوا في جهل بما يحدث.

وبالنسبة لبعض القادة وبخاصة الجنرال (هالدر) رئيس هيئة الأركان العامة، كان الوقت قد ازف لتنفيذ خطة إزاحة هتلر وإنقاذ الوطن من عواقب حرب أوروبية اعتقدوا أنهم سيخسرونها لا محالة. كان المؤتمرون منهمكين في إحكام خططهم طوال شهر أيلول، كما روى فيما بعد أولئك الذين كتبت لهم الحياة منهم^(٨١).

كان الجنرال هالدر على صلة مستمرة بالكولونيل (أوشتر) برئيسه في دائرة الإستخبارات الأميرال (كاناريس) الذي حاول أن يحيطه علماً بنقلات هتلر السياسية حال وقوعها وبالإستخبارات الأجنبية. ذكرنا أن المؤتمرين حذروا لندن من تصميم هتلر على غزو جيكوسلوفاكيا في نهاية أيلول، ورجّوا من

٨٠- يومية يودل المؤرخة ٢٨ أيلول ١٩٣٨ [مؤامرة ج ٤ ص ٣٦٨ - الوثيقة PS١٧٨٠].

٨١- ويضمن هذا، الافادات الأولى لهالدر وگزيثيوس وشاخت. وواحدما يناقض الآخر في مواضع كثيرة، فضلاً عن الغموض. كما تتداحض أحياناً. من الضروري القول ان هؤلاء الثلاثة الذين بدأوا بخدمة النظام النازي، كانوا مندفعين بعد الحرب لإثبات معارضتهم لهتلر وجهم السلم. كان (أريخ كوردت) من أقطاب المؤتمرين أيضاً وقد عاش حتى ما بعد الحرب. وكتب في نورمبرگ مذكرة مسهبة حول حوادث أيلول ١٩٣٨. وقف عليها المؤلف (المصادر: إستجواب هالدر من قبل سام هاريس في نورمبرگ [مؤامرة... ملحق (ب) الص ١٥٤٧-١٥٧١. كذلك مذكرات هالدر اعطيت لمراسلي الصحف في نورمبرگ لكنها لم تدخل في [مؤامرة النازيين ومحاکمات مجرمي الحرب] گزيثيوس: إلى النهاية المريعة الص ٢٨٣-٣٢٨ شهادته في [محاکمات مجرمي الحرب] ج ١٢ الص ٢١٠-٢١٩ شاخت "تصفية الحساب" الص ١١٤-١٢٥.

الحكومة البريطانية أن توضح مع فرنسا بأنها ستتصدى للعدوان الألماني بالقوة المسلحة. ظل الجنرال (فيتزليين) قائد منطقة برلين العسكرية الذي كان سيمد المؤتمرين بالقوة الضاربة للإنتقال - متردداً لأنه كان يشك في أن لندن وباريس كانت قد أطلقت يد هتلر - بموجب إتفاق سرّي - في شرقي أوروبا ولذلك فلن تخوض حرباً بسبب چيكوسلوفاكيا. وشاركه في رأيه عدد من الجنرالات، وهو الرأي الذي كان هتلر وريبنتروب يروجان له ويشجعان. فإن كانت الحقيقة هذه، فالمؤامرة في رأي (هالدر وفيتزليين) عمل أخرق. لقد كانوا في هذه المرحلة من عهد الرايخ الثالث منشغلين بأمر واحد وهو التخلص من هتلر لإجتناح حرب أوروبية لا أمل قطّ لألمانيا في كسبها إن لم يكن هناك خطر حرب كبيرة وإن نوى چمبرلين إعطاء كل ما طلبه هتلر في چيكوسلوفاكيا دون حرب. فليس ثم وجهة أو مبرر لقيامهم بإشعال الثورة.

ولكيما يثبت الكولونيل (أوشر) و(كيزيفيوس) للجنرالين هالدر وفيتزليين أن بريطانيا وفرنسا مصممتان على مقارعة العدوان رتباً لهما مقابلة مع (شاخ) وكان يعتبر عند قادة الجيش خبيراً في الشؤون البريطانية فضلاً عن مكانته لديهم بوصفه الرجل الذي موّل تسليح ألمانيا وهو ما يزال عضواً في الوزارة فأكد لهما شاخ أن البريطانيين سيحاربون إن لجأ هتلر إلى إستخدام القوة مع الچيك. ووصلت (أريخ كوردت) أحد المؤتمرين في وزارة الخارجية أنباء في مساء ١٣ أيلول تفيد أن چمبرلين يقترح بإلحاح "القدوم جواً مرة ثانية" للبحث في حل سلمي لأزمة الچيك فأحدثت ذعراً في معسكر المؤتمرين وكانوا يعتمدون على عودة هتلر إلى برلين بعد مؤتمر الحزب في نورمبرگ مباشرة في الرابع عشر من أيلول. ويذكر كوردت أن الخطة قضت بتنفيذ الإنتقال في ذلك اليوم أو اليوم التالي إلا أن الزعيم لم يعد إلى العاصمة^(٨٢). بل سافر إلى (مونيخ) ثم رحل إلى (برختسگادن) إنتظاراً لقدم رئيس الوزراء البريطاني في (١٥) أيلول.

كان هناك سببان للشعور بالخيبة التامة الذي إنتاب المؤتمرين. فخطتهم لا يمكن تنفيذها إلا إذا كان هتلر في برلين. وكانوا على ثقة من عودته حالاً بعد أن زاد مؤتمّر الحزب في نورمبرگ من حدة الأزمة الچيكية.

أما السبب الثاني، فمع أن بعض المؤتمرين ظنوا كما ظن أهالي برلين أن چمبرلين سيطير إلى برختسگادن ليحذر هتلر من إرتكابه الخطأ الذي وقع فيه، فلهم الثاني ١٩١٤ بخصوص موقف

٨٢- يختلف المؤرخون كثيراً، كذلك يختلف المؤتمرون أنفسهم حول مكان هتلر يوم ١٣ أيلول وبعده، ويذكر چرچل الذي يسند روايته إلى مذكرات الجنرال هالدر أن هتلر وصل برلين من برختسگادن صباح ١٤ أيلول. وأن هالدر وفيتزليين "قرراً إنزال الضربة في الساعة ٨ من المساء نفسه عند سماعهما بذلك". لكنها أوقفا العملية عندما علما أن چمبرلين سيهبط في مونيخ الساعة ٤ ب.ظ (چرچل: تجمع العاصفة) ص٣١٤- لكن ذاكرة هالدر وبالتالي حكاية چرچل خاطئتان. إن دفتر مواعيد هتلر المحفوظ الآن في مكتبة الكونغرس وفيه عدة مواعيد يظهر منها أنه قضى يوم ١٣ أيلول والذي يليه في مونيخ ومن جملة ما فعله أنه تداول مع ريبنتروب في منزل (بورمان) وزار كاباريه سوننفنكل Sonnenwinkel ثم انتقل إلى أوبرسالزبرگ في نهاية اليوم الرابع عشر.

بريطانيا في حالة قيام عدوان ألماني، إلا أن (كوردت) كان أخبر منهم بغرض الزيارة. لقد رأى نص رسالة جمبرلين المستعجلة وفيها يقول لهتلر أنه يريد مقابلته "محاولة منه لإيجاد حل سلمي" زد على هذا أنه إطلع على البرقية التي أرسلها اخوه (ثيودور كوردت) مستشار السفارة الألمانية في لندن ذلك اليوم نفسه وفيها أن رئيس الوزراء مستعد للقيام بتنازلات كبيرة لتحقيق مطالب هتلر في أرض السودان^(٨٣).

يقول (كوردت): "إن أثر ذلك على مشرونا سيكون مدمراً بلاريب. فمن السخف القيام بإنقلاب لإزاحة هتلر في اللحظة التي يأتي جمبرلين الى ألمانيا لبحث مع هتلر في (السلم العالمي). على كل حال يذكر (اريخ كوردت) أن الدكتور پول شميدت أحد المؤقرين وترجمان مداولات هتلر-جمبرلين الوحيد كما رأينا - وشاهد العيان الوحيد الذي حضر المداولات، أبلغه في مساء يوم ١٥ أيلول "بجفرة خاصة" سبق تفاهمهما عليها. ان (الزعيم) مازال مصراً على إحتلال كل چيكوسلوفاكيا وأنه قدم لجمبرلين مطالب مستحيلة "متوقفاً أن تُرفض". هذه المعلومات أحييت الأمل في نفوس المؤقرين. وأبلغ كوردت، الكولونيل أوشر بهذه الأنباء في مساء اليوم نفسه وتقرر الإستمرار في الخطة حالما يعود هتلر الى برلين. لكن أوشر قال: "يجب علينا أولاً أن نعيد الطير الى قفصه في برلين".

طار الطير الى "قفصه" من (گودسبرگ) بعد المحادثات في عصر يوم ٢٤ أيلول. وفي صبيحة يوم "الأربعاء الأسود" يكون قد مكث في برلين أربعة أيام. في السادس والعشرين بدا وكأنه "أحرق جسوره" بانفجاره في خطبة (سبورت بالاست). وفي السابع والعشرين بعث (بالسر هوراس ويلسن) الى لندن صفر اليدين، وكان رد الفعل في الحكومة البريطانية إعلان تعبئة الأسطول وتحذير پراغ بأن تستعد لهجوم ألماني مباغت. وأمر هتلر في هذا اليوم كما ذكرنا أن تأخذ "وحدات الهجوم" مواضعها المتقدمة على الحدود الچيكوسلوفاكية وتكون متأهبة "للعمل" في ٣٠ أيلول - أي بعد ثلاثة أيام.

ما الذي ينتظره المؤقرون؟ كل الظروف التي أرادوها قد تحققت الآن. فهتلر في برلين. وهو عازم على إشعال نار الحرب وقد عيّن يوماً للهجوم على چيكوسلوفاكيا هو (٣٠ أيلول) أي بعد يومين. فإمّا أن يشروعوا في الإنقلاب أو ستضيع فرصتهم في إزاحة الدكتاتور وإيقاف الحرب.

يصرح (كوردت) ان المؤقرين عينوا لهم ٢٩ أيلول للقيام بالمؤامرة في إجتماعهم يوم ٢٧ أيلول. ويدعي (گزيقيوس) في شهادته المؤداة أمام محكمة نورمبرگ وكذلك في كتابه أن الجنرالين (هالدر) و(فيتزليبن) - قررا أن يعملوا حالاً في ٢٨ أيلول بعد أن حصلوا على نسخة من رسالة هتلر المتحدية مع "المطالب المهينة" الموجهة الى جمبرلين في الليلة الماضية.

"[يقول گزيقيوس] حصل أوشر على نسخة من رسالة التحدي في تلك الليلة [٢٧ أيلول] وفي صباح الثامن والعشرين اخذتُ النسخة إلى الجنرال (فيتزليبن). فحملها بدوره الى (هالدر).

الآن وأخيراً وضع رئيس هيئة الأركان يده على البرهان المنشود الذي لا يتطرق اليه الشك في أن هتلر لا يخادع وأنه يريد الحرب. "وانحدرت دموع السخط والغضب من عيني (هالدر) وبللت خدي... أصراً فيتزلين بأن الوقت قد أزف للقيام بعمل. وأقنع هالدر أن يذهب الى (براوختش) ففعل وبعد فترة رجع ليقول أن لديه أنباء سارة: لقد ثار (براوختش) غضباً وربما ساهم هو الآخر في المؤامرة^(٨٤). لكن، إما حصل تخوير ما في نص الرسالة أثناء إستنساخها أو ان الجنرالات أساءوا فهمها. إذ انها كما رأينا كانت معتدلة اللهجة ممثلة بالوعود في "المدولة بالتفاصيل مع الجيك" و"إعطاء ضمانات رسمية للجزء المبتقى من چيكوسلوفاكيا". وبلغت منتهى الدماثة في الاقتراح على چمبرلين أن يواصل مجهوداته بحيث لم يتمالك نفسه من الإبراق حالاً لهتلر بإقتراح عقد مؤتمر للدول الكبيرة لتسوية التفاصيل وفي الوقت نفسه الإبراق الى موسوليني طالباً مساندته في هذا الاقتراح.

يظهر أن الجنرالات لم يعرفوا شيئاً عن هذه الساعات الأحدى عشرة التي انقضت بمجهودات للترضية. لكن ربما كان الجنرال فون براوختش القائد العام على شيء من العلم. ويروي (گزيغوس) أن (فيتزليين) أتصل ببراوختش تلفونياً من مكتب (هالدر) وأخبره أن كل شيء مهيباً وتوسل اليه أن يقود الثورة بنفسه. إلا أن قائد الجيش ظل مؤرجحاً بين الإقدام والإحجام وأخير (فيتزليين وهالدر) أنه سيذهب أولاً الى دار المستشارية ليتحقق بنفسه هل أن الجنرالات قدروا الوضع تقديراً صحيحاً؟ يقول (گزيغوس): "وعندئذ أسرع فيتزليين الى مقر قيادته العسكرية. لقد دنت الساعة!"

في الحادية عشرة من صبيحة يوم ٢٨ أيلول هذا، رن جرس التلفون في (مكتب) (كوردت) بوزارة الخارجية، وكان المتكلم (تشيانو) من روما، طالباً الإتصال بوزير الخارجية الألماني فوراً. لكن ريبنتراب كان في مستشارية الرايخ، فطلب الوزير الإيطالي وصله بسفيره (برناردو) وأصغى الألماني الى المكالمات وسجلها. فظهر له ان المتكلم هو موسوليني وليس ختته.

موسوليني: الدوتشي يتكلم. أسمعني؟

اتوليكو: أجل إني أسمعك.

موسوليني: أطلب مقابلة المستشار حالاً. وقُل له ان الحكومة البريطانية طلبت مني عن طريق اللورد پيرث Perth أن أتوسط في المسألة السوديتية، ان نقطة الخلاف صغيرة جداً. بلغ المستشار اني شخصياً وإيطاليا الفاشية تدعمه. عليه ان يتخذ قراراً لكن بلغه أني أحبذ قبول الاقتراح

البريطاني. أسمعني؟

اتوليكو: أجل إني أسمعك.

موسوليني: اذن عجل!^(٨٥)

٨٤- (گزيغوس): حتى النهاية المريعة، ص ٣٢٥، كذلك شهادته في نورمبرگ ج ١٢ ص ٢١٩.
٨٥- مذكرة اريخ كوردت التي اطلع عليها المؤلف. آلان دالاس "الحركة السرية في ألمانيا" ص ٤٦. يذكر تفاصيل هذه المكالمات.



موسولينى

وصل السفير (اتوليكو) دار المستشارية لاهثاً ووجهه محمرٌ من فرط الهياج (لاحظ ذلك الترجمان الدكتور شميدت) ليجد السفير الفرنسي مختلياً بهتلر. كان (مسيو بونسيه) قد تكبّد عناءً كبيراً في الوصول الى هتلر. ففي ساعةٍ جدّ متأخرة من ليلة أمس اتصل به (بونيه) وزير الخارجية الفرنسي الذي كان يريد الآن أن يسبق جمبرلين في إرضاء هتلر، وأمره بمقابلة المستشار بأسرع ما يمكن وتقديم إقتراح فرنسيّ لتسليم السودان مع تسهيلات لم يبلغها الإقتراح البريطاني. فبينما كان إقتراح جمبرلين المقدم في الحادية عشرة ليلاً يعرض إحتلال هتلر للمنطقة (رقم واحد) من السودان في (١) تشرين الأول (مجرد إحتلال رمزيّ لبقعة صغيرة) إقتراح الفرنسيون الآن تسليم المناطق الثلاث الواسعة التي تؤلف معظم الاقليم المنازع عليه، في (١) تشرين الأول.

لقد كان عرضاً مغريباً. لكن السفير الفرنسي عانى مشاقاً ليقدّمه فقد خابر في الثامنة صباحاً (٢٨ أيلول) لتعيين موعد لزيارة المستشار، وعندما لم يصله جواب في العاشرة، هرع الى هيئة الأركان العامة لإبلاغ الجنرالات الألمان بالعرض الذي لم يستطع تقديمه بعد. وطلب مساعدة السفير البريطاني هندرسن المستعد دائماً ومن صميم القلب لخدمة كلّ من يساعد على منع الحرب بأيّ ثمن كان!، فبادر في الحال الى الإتصال بگورنگ فقال الفيلد مارشال انه سيحاول تعيين موعدٍ والحقيقة هي ان (هندرسن) كان يحاول ايضاً أن يظفر لنفسه بموعدٍ لأنه أبلغ بتقديم "رسالة شخصية أخيرة من رئيس الوزراء". وهي التي خطّها جمبرلين في ساعة متأخرة من ليلة أمس (أنظر ماسيق) مؤكداً فيها لهتلر أنه قادر على الفوز بكلّ ما يريده "دون حرب، ودون تأخير". مقترحاً عقد مؤتمر للدول لبحث التفاصيل^(٨٦).

استقبل هتلر (فرانسوا بونسيه) في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة عشرة صباحاً، وكان السفير عصبياً متوتراً إذ ابرز خريطة رسم عليها بصورة مستعجلة المساحات الكبيرة من الأرض

٨٦- وقائع الإجتماع في المستشارية ظهر يوم ٢٨ أيلول. فصلها بعض المساهمين: شميدت المرجع السالف ص ١٠٥-١٠٨، فرانسوا بونسيه المرجع السالف الص ٢٦٥-٢٦٨. هندرسن المرجع السالف الص ١٦٦-١٧١.

الجيكية التي تزمع حليفة جيکوسلوفاکيا الأولى تقديمها الآن الى هتلر في طبق. وراح السفير يغري هتلر بقبول المقترحات الفرنسية ويجنب أوروبا غائلة الحرب. وبدا هتلر مقتنعاً رغم تعليقات ريبنتروب السلبية، التي وصفها فرنسوا بونسيه (بالمراوغة) وخاصةً عندما قدم السفير الخريطة بإشاراتها السخية. كما لحظ الدكتور شميدت.

وقطعت المحادثة فجأة في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الأربعين بإعلان الحاجب وصول (اتوليکو) حاملاً رسالة عاجلة (للزعيم) من موسوليني. فترك هتلر الغرفة برفقة شميدت لتحية السفير الإيطالي المبهور الأنفاس.

وهتف السفير الإيطالي وهو على مبعده من هتلر، بصوته الغليظ المعهود^(٨٧) "لديّ رسالة عاجلة لك من الدوتشي!"، وبعد أن قدمها زاد قائلاً أن موسوليني يرجو من (الزعيم) العدول عن إعلان النفي.

يقول (شميدت) وهو الحي الوحيد الباقي الذي شهد هذه المحادثة أن قرار الجنوح الى السلم قد إتخذ هنا. كان الوقت ظهراً قبل نهاية موعد الإنذار بساعتين. قال هتلر بإرتياح واضح "قل للدوتشي إني أقبل إقتراحه"^(٨٨).

كانت بقية اليوم ساعات مابعد الذروة. لحق هندرسن بالسفيرين فرانسوا بونسيه واتوليکو لمقابلة (الزعيم): فقال له هذا "بناءً على رجاء من صديقي وحليفي العظيم موسوليني. أرجأت إعلان النفي في جيشي لمدة أربع وعشرين ساعة"^(٨٩). وزاد يقول انه سيعلن عن قراراته في الأمور الأخرى كالمؤتمر المقترح من الدول، بعد المداولة مع موسوليني^(٩٠).

وجرى في أعقاب هذا ما لا يحصى من الإتصالات التليفونية بين برلين وروما وذكر شميدت أن الدكتاتورين الفاشيين تكلما مباشرة مرة واحدة. وقبل نهاية الإنذار بدقائق قليلة (الساعة الثانية ظهراً في ٢٨ أيلول) اتخذ هتلر قراره وصدرت دعوات مستعجلة لرؤساء حكومات بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا لمقابلة الزعيم في مونيخ ظهر اليوم التالي لتسوية المسألة الجيكية. ولم ترسل دعوة الى براغ ولا الى موسكو. لم يسمح لروسيا الضامنة الثانية لإستقلال جيکوسلوفاکيا وكيانها في حالة هجوم ألماني عليها بالتدخل في الأمر. ولم يسمح للجيك بالحضور حتى لتلقي حكم الموت بحقهم!

يعزو (السر نفيل هندرسن) في مذكراته معظم الفضل في إنقاذ السلم في تلك اللحظة الى موسوليني، ويعضده في هذا معظم المؤرخين الذين كتبوا في هذا الفصل من التاريخ الأوروبي^(٩١).

٨٧- شميدت المرجع السالف ص ١٠٧.

٨٨- المرجع السالف ص ١٠٧.

٨٩- كان هتلر قد عبأ كل ما تيسر له من القطعات كما رأينا.

٩٠- هندرسن المرجع السالف الص ١٦٨-١٦٩ شميدت المرجع السالف الص ١٠٨.

٩١- آلان بولوك "هتلر- دراسة في الطغيان" ص ٤٢٨.

لكن هذا ليس إلا مبالغة في المديح. فإيطاليا هي أضعف الدول الكبرى في أوروبا وقوتها العسكرية تافهة الى الحد الذي كان الجنرالات الألمان كما كشفت عنه مذكراتهم - يرون في الحديث عنها دعاية ومزاحاً. كانت بريطانيا العظمى وفرنسا القوتين الوحيدتين اللتين يحسب لهما الألمان حساباً. كما وان رئيس الوزراء البريطاني نفسه كان من البداية يحاول إقناع هتلر أن بإمكانه الحصول على أراضي السوديت دونما حرب. إن چمبرلين وليس موسوليني، هو الذي جعل مؤتمر مونيخ ناجحاً وبهذا أنقذ السلم أحد عشر شهراً بالضبط والثمن الذي دفعته بلاده وحلفاؤها وأصدقائها لهذه (المأثرة) سيجري تقديره فيما بعد. إلا أنه كان بأي مقياس يتخذ - ثمناً باهضاً ناءً بحمله أصلب عود.

في الثالثة إلا خمس دقائق من بعد ظهر يوم (الأربعاء الأسود) الذي بدا الآن أقل سواداً مما كان في ساعات الصبح المكفهرة، شرع رئيس الوزراء البريطاني يتكلم في مجلس العموم البريطاني مقدماً تفاصيل المراحل التي مرت بها الأزمة الجيكية، ودوره ودور حكومته في محاولة حلها، قال أن الموقف مازال غير مستقر إلا أنه تحسّن. وذكر أن موسوليني نجح في إقناع هتلر بتأجيل النفي أربعاً وعشرين ساعة. والزمن الآن يشير الى الرابعة والدقيقة الخامسة عشرة وقد مرّ على چمبرلين وهو يتكلم زهاء ساعة واحدة وعشرين دقيقة وهو الآن يدنو من الخاتمة. في هذه الدقيقة قوطع. إذ دفع اليه السر جون سيمون وزير الخزانة بوريقة سلمها له اللورد هاليفاكس من مقعده الأمامي الخاص. وكان هاليفاكس جالساً في مقصورة اللوردات.

"[كان چمبرلين يقول] مهما كانت وجهات نظر الأعضاء المحترمين في السنيور موسوليني، فاعتقد أن كل واحد سيكبر فيه ميله... إلى السلم".

توقف رئيس الوزراء وتطلع الى الوريقة ثم ابتسم:

"ليس هذا كل شيء فلدي شيء آخر اقله للمجلس. لقد أبلغت الآن بدعوة من هر هتلر لمقابلته في مونيخ غداً صباحاً وهو كذلك قد دعا السنيور (موسوليني) ومسيو (دالادييه). لقد قبل السنيور (موسوليني) الدعوة ولست اشك في ان مسيو دالادييه سيقبل أيضاً. ولست بحاجة إلى ان أقول ماذا سيكون جوابي عليها..."

لم يكن ثم حاجة. كان ردّ الفعل في هذا البيت الضيق أبي البرلمان، هستيريا عامة غير مسبوقة في تاريخه المديد. كان ثم هتافات صاخبة وقذف أوراق الملاحظات في الهواء واخضلت عيون الكثيرين بالدموع. وطفى صوت جهوري واحد على الضجة العامة ليعبر عن مشاعر الجميع: "نشكر الله، لأجل رئيس الوزراء!"

نظر (يان مازاريك) الوزير المفوض الجيكي، نجل الأب المؤسس للجمهورية الجيكوسلوفاكية، من مقصورة الدبلوماسيين، غير مصدق عينيه. وبعدها قابل رئيس الوزراء ووزير الخارجية في (داوننگ ستريت). يتثبت من مسألة: هل ان حكومة التي قامت بكل هذه التضحيات ستدعى الى المؤتمر في

مونيخ؟ فأجاب السياسيان بالنفي، لأن هتلر لن يوافق على هذا قطعاً فشحخص (مازاريك) بأنظاره الى هذين الإنكليزيين التقيين الصادقين في مخافة الله. وتوسل بكلّ جهد لضبط نفسه. وأخيراً قال لهما: - إن كنتما قد ضحيتما بوطني لحفظ السلم العالمي. سأكون أوّل من يهتف لكما ويشيد بكما. وإن لم يكن الأمر كذلك فليس لي إلا أن اطلب لروحكما الرحمة من الله^(٩٢).

وماذا عن المتآمرين؟ جنرالاتهم ومدنييهم؟ الجنرال (هالدر)، الجنرال فون فيتزليين، شاخت، كزيثيوس، كوردت، والآخرين الذين اعتقدوا أن ساعتهم حانت على حدّ قول (فيتزليين)، قبل ظهر اليوم العصبي؟ الجواب نثبته مختصراً عن لسانهم وبكلماتهم التي نطقوها بعد مرور زمن طويل حين إنتهى كلّ شيء، وكانوا متلهفين ليقيموا الدليل للعالم كم كانوا يعارضون هتلر وحماقته المفجعة التي أدت بألمانيا إلى الدمار التام بعد حرب طويلة قتالة.

إدعى كلهم أن نفيل جمبرلين هو الغدار! الذي أحبط محاولتهم بموافقته على إجتماع مونيخ وإجبارهم في آخر لحظة على توقيف خططهم للتطويع بهتلر والنظام النازي!

في الخامس والعشرين من شباط ١٩٤٦، في حين كانت محاكمة نورمبرگ الطويلة تشارف الخاتمة. قام الكاتبين سام هاريس وهو محام نيويوركي شاب من هيئة الإدعاء العام الأمريكية بإستجواب الجنرال هالدر في خلوة.

"[قال هالدر] تقرر أن تكون الخطة قيام قوة عسكرية بإحتلال مستشارية الرايخ وكل الدوائر الحكومية ولاسيما الوزارات. التي يشغلها أعضاء من حزب النازي ومقربون من هتلر، بنية مشددة في تجنب إراقة الدماء. ثم محاكمة الجميع أمام الشعب الألماني بأسره... في ذلك اليوم (٢٨ أيلول) جاءني فيتزليين في مكنتي ظهراً. فبحثنا القضية وطلب مني أن أعطيه أمر التنفيذ. وبحسنا تفاصيل أخرى - كم من الوقت يلزمنا الخ... وخلال حديثنا وردتنا أنباء عن موافقة رئيس الوزراء البريطاني والفرنسي على مقابلة هتلر لإجراء مباحثات أخرى. حصل ذلك أثناء وجود (فيتزليين) ولذلك استعدت منه الأمر بالتنفيذ، لأن السبب الذي بنينا عليه عملنا قضي عليه...

كان كلنا واثقاً بالنجاح لكن جمبرلين جاء وبضربة واحدة حفر الحرب عن مسراها... وتمّ إجتناّب الساعة العصبية لإستخدام القوة... ولم يسعنا إلا الإنتظار والتريص بفرصة جديدة..."

فسأله الكاتبين هاريس Sam Haris: "هل افهم من قولك أن خطتكم كانت ستنفذ عملياً وتتم إزاحة هتلر لو لم يأت جمبرلين الى مونيخ؟"

أجاب الجنرال هالدر: "كل ما يمكنني قوله أن الخطة كانت ستنفذ حرفياً ولست أدري هل كان سيكتب لها النجاح أو الفشل^(٩٣)."

٩٢- وصف مازاريك المشهد للمؤلف فيما بعد. كما وصفه لأصدقاء عديدين. إلا أن ما دوّنته عنه ضاع. ولهذا استخدمت وصف (هولر بينيت) المؤثر في كتابه (مونيخ الص ١٧٠-١٧١).

٩٣- من إستجواب هالدر ٢٥ شباط ١٩٤٦ [مؤامرة النازيين وعدوانهم: ملحق الص ١٥٥٣-١٥٥٨].

وكانت مبالغة الدكتور شاخت في تصوير أهمية دوره في مختلف المؤامرات ضد هتلر، واضحة في نورمبرغ وفي كتبه وهو أيضاً يضع تبعة العدول عن تنفيذ مؤامرة ٢٨ أيلول على عاتق جمبرلين قال: "يتضح تماماً من المجرى الذي سلكه التاريخ فيما بعد أن المحاولة الأولى للإنقلابية التي دبرتها أنا وفيتزليين كانت الوحيدة التي ستؤثر تأثيراً حاسماً على مستقبل ألمانيا وتاريخها. كانت المحاولة الوحيدة التي خططناها وهيأتها في الوقت المناسب... في خريف عام ١٩٣٨ كان بالإمكان الاعتماد على إحالة هتلر الى المحاكمة أمام المحكمة الكبرى. إلا أن كل المحاولات التالية للخلاص منه كانت تقضي بالضرورة إغتياله... لقد قمت بإستعدادات لإنقلاب في ظروف ملائمة، وبلغت بها قيد شعرة من النجاح. إلا أن التاريخ قرر أن يعاكسني. ان التدخل الذي جرى من الساسة الأجانب لم يكن بالإمكان إدخاله في حسابي" (٩٤).

واضاف (گزيقيوس) أعظم أبطال شاخت في شهادته أمام محكمة نورمبرغ: "لقد وقع المستحيل. جمبرلين ودالادييه يطيران الى مونيخ. لقد قضي على ثورتنا. بقيت ساعات قليلة أفكر واتخيل أننا قادرون على الثورة كيفما كان، لكن فيتزليين سارع ليثبت لي أن الجنود لن يشوروا ضد دكتاتور منتصر... جمبرلين هو الذي انقذ هتلر" (٩٥). هل كان ذلك صواباً؟ أم مجرد حجة تلمسها المدنيين والعسكريون الألمان لتبرير عجزهم عن التطبيق؟

بيّن (هالدر) للرئيس هاريس أثناء التحقيق معه - أن هناك ثلاثة شروط يجب تحقيقها "لعمل ثوري" ناجح.

"الأول: قيادة ظاهرة عاقدة العزم. الثاني: إستعداد الجماهير الشعبية للسير وراء فكرة الثورة. الثالث: إختيار الوقت المناسب. وقد رأينا نحن أن الشرط الأول بخصوص القيادة الحازمة متوفر. واعتقدنا أن الشرط الثاني متحقق أيضاً لأن... الشعب الألماني لا يريد الحرب. لذلك فالشعب مستعد الى عمل ثوري تحت وطأة الخوف من الحرب. والشرط الثالث وهو التوقيت وكان ممتازاً لأننا كنا نتوقع أن الأمر بالسوق والعمل الحربي سيصدر خلال ثمان وأربعين ساعة. لذلك كنا على أتم الثقة من النجاح. لكن مستر جمبرلين دخل المشهد وبضربة واحدة ازاح خطر الحرب."

قد يشك المرء في ان الشرط الأول الذي وضعه الجنرال هالدر محقق كما زعم. إذ لو كان ثم "قيادة واضحة عاقدة العزم" لما ظل الجنرالات مترددين أربعة أيام كوامل. كان ييدهم القوة العسكرية القمينة بالتطويح بهتلر ونظامه بكل سهولة. فيتزليين يقود جيشاً كاملاً (الجيش الثالث) داخل برلين وحواليها. وبركدورف-أهلفيلدت يقود فرقة مشاة بارعة في بوتسدام القريبة. (وهوبنر) يقود فرقة مصفحة في الجنوب. وهناك ضابطا بوليس كبيران في العاصمة: الكونت ثون هلدورف، والكونت ثون

٩٤- شاخت المرجع السالف ص ١٢٥.

٩٥- گزيقيوس المرجع ص ٣٢٦.

در شولنبرج. بإمرتهما قطعات كبيرة من الشرطة مسلحة تسليحاً جيداً. كل هؤلاء القادة كانوا كما أجمع عليه المؤتمرون، ينتظرون كلمة واحدة من هالدن ليذهبوا الى العمل هبة رجل واحد بقوي عسكرية لاتضارع. وجماهير برلين الفزعة من الحرب فزعاً قتالاً -على مدى ما توصل اليه المؤلف في مبدأ الأمر- ستخفّ بدون تردد الى دعم الثورة.

أكان (هالدن وفيتزليين) سيعملان لو لم يوافق جمبرلين على المجيء الى مونيخ؟ انه لسؤال لايمكن الاجابة عليه اجابة نهائية باتة لو وضعنا نصب أعيننا تصرف هؤلاء الجنرالات العجيب في ذلك الوقت ذلك التصرف الذي جعلهم يهتمون بإزاحة هتلر لا في سبيل إنها عهده الإرهاب والطغيان لنظامه الدكتاتوري، بل لإجتناح حرب خاسرة. فمن الممكن القول أنهم كانوا سينفذون خطتهم لو لم يعترضهم مؤتمر مونيخ. إن المعلومات لاتزال مفقودة عن مدى قوة المؤامرة وكيفية حبكها وكم كانت القوات المسلحة على إستعداد للزحف وكم كان هالدن وفيتزليين قريبين من إصدار الأوامر، وليس لدينا غير شهادات حفنة من المساهمين الذين كانوا بعد الحرب متلهفين للإدلال على معارضتهم للقومية الإشتراكية. وما قالوه وكتبوه دفاعاً عن أنفسهم كثيراً ما تناقض وأسلم المرء إلى حيرة وإضطراب^(٩٦).

لو أن خطط المؤتمرين كانت على قيد خطوة من التنفيذ كما زعموا، فإن إعلان جمبرلين عن رحلته الى مونيخ لاشكّ ردّتهم على أعقابهم. إن الجنرالات لا يستطيعون القاء القبض على هتلر ومحاكمته كمجرم حرب حين اتضح أنه يكاد يحقق نصراً عظيماً دون حرب.

وما هو مؤكّد بين كل هذه التخمينات (وهنا كان شاخت مصيباً للغاية في وجهة نظره) أن فرصة ذهبيّة مثل هذه لم تعنّ للمؤتمرين الألمان على اسقاط هتلر والاطاحة السريعة بالرايخ الثالث وإنقاذ ألمانيا والعالم من الحرب. وإن غامر المرء بالتعميم دون التخصيص - امكنه القول أن في الألمان نقطة ضعف وهي القاء اللوم على الاجانب عند إخفاقهم. إن مسؤولية جمبرلين وهاليفاكس ودالادييه ويونيه عن (مونيخ) وعن كلّ النتائج الفاجعة المدمرة التي تلتها - هي مسؤولية ضخمة لا عذر فيها. لكنهم قد يعذرون الى حدّ ما لعدم أخذهم بتحذيرات عن "ثورة" مأخذاً جدياً جاءتهم من جماعة من الألمان المدنيين والعسكريين الذين خدم معظمهم هتلر بإخلاص وكفاءة عظيمة حتى تلك اللحظة. ربّما تذكروا أو تذكر بعض مشاوريهم في لندن وباريس الحقائق المحزنة من التاريخ الألماني القريب: كيف ساعد الجيش على وضع الحكم في يد نائب العريف النمساوي السابق وكيف طار فرحاً للفرص التي اتاحها له بإعادة التسلّح ولم يعترض كما يبدو على القضاء على الحريات الفردية في ظل القومية

٩٦- واليك مثلاً الايضاح الذي قدمه الجنرال جورج توماس الرئيس اللامع لفرع الميرة والتموين والسلاح في القيادة العليا وأحد المتأمرين - عن فشل الثورة قال "ان تنفيذ هذا المشروع نيز جانباً مع الأسف الشديد لانه وجد ان صغار الضباط (كما بين القائد الاقدم الذي عهد اليه بالعمل) ويقصد فيتزليين- لا يمكن الإعتماد عليهم في عمل سياسي من هذا النوع". انظر أوراقه المطبوعة سنة ١٩٤٥ (كانون الثاني في Schwiezerisch Monatshefte بعنوان "Gedanken und Freignisse".

الإشترابية. ولم يفعل شيئاً عند مقتل جنراله فون شلايخر ولم يحرك ساكناً لوقف المكيدة الشنعاء التي دبرت لعزل قائده العام الجنرال فون فريتش، وأخيراً انضمامه إلى الجوق في عملية اغتصاب النمسا وكان في الواقع القوة المسلحة التي اعتمدتها العملية. مهما أهيل على رؤوس هؤلاء زعماء الترضية من لوم وتأنيب سواء في لندن وباريس وهو مقدار كبير بلاشك، فالحقيقة ستظل وهي ان الجنرالات الألمان وزملاءهم المدنيين المؤتمرين أحجموا في الإقدام على العملية التي اختطوها في اللحظة التي لايجود بمثلها الزمن دائماً.

-٩-

الإستسلام في مونيخ

٢٩-٣٠ أيلول: سنة ١٩٣٨

في هذه المدينة البافارية الجميلة. حيث بدأ السياسي الخامل كفاحه في غرف المقاهي الخلفية القائمة، الحقيبة، وحيث ذاق في شوارعها مرارة خيبته في إنقلاب مشرب البيرة، أستقبل إستقبال الفاتح رؤساء حكومات بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا، في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثلاثين من ظهر يوم ٢٩ أيلول.

في الساعات المبكرة من الصباح خرج للقاء موسوليني الى كوفشتاين Kufstein على الحدود النمساوية الألمانية السابقة. ورتب أسس العمل المشترك في المؤتمر. وفي القطار الذي أقلهما الى مونيخ راح هتلر يشرح للدوتشي بحالة من الهياج "خططه لتصفية" چيكوسلوفاكيا ومسحها من عالم الوجود مستعيناً بالخرائط. وقال إما أن تنجح المحادثات التي ستبدأ اليوم حالاً أو انه سيلجأ الى الحرب. وذكر تشيانو الذي كان حاضراً تعقيباً لهتلر: "فضلاً عن ذلك، فسيأتي اليوم الذي سنقف معاً جنباً الى جنب ضد فرنسا وإنجلترا". ووافق موسوليني على ذلك^(٩٧).

لم يقم چمبرلين بمجهود مماثل لرؤية دالادييه قبل الإجتماع والإتفاق على خطة عمل واحدة للديمقراطيتين الغربيتين بمواجهة الدكتاتورين الفاشيين. في الواقع ظهر جلياً لعدد كبير منّا باتصالنا مع مبعوثي الوفدين الدبلوماسيين الفرنسيين والإنكليز في مونيخ، في ساعات متقدمة من النهار أن چمبرلين جاء الى مونيخ وقد عقد عزمه على ألا يقف أحد في طريقه لا اچيك بالطبع، ولا فرنسا، في سبيل الوصول إلى إتفاق سريع مع هتلر^(٩٨).

٩٧- تشيانو: "اليوميات المخفية" ١٩٣٧-١٩٣٨ ص ١٦٦. في برقية تاريخها ٢٦ حزيران ١٩٤٠. ذكر موسوليني زميله هتلر بأنه وعد في مونيخ أن يشارك في هجوم على بريطانيا.

٩٨- بعث چمبرلين في مساء اليوم السابق في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والأربعين برقية الى الدكتور بينيش =

ولم يكن ثم ضرورة للإحتياطات بالنسبة الى دالادييه الذي كان يتجول طول اليوم وكأنه مسلوب اللب، إلا أن رئيس الوزراء البريطاني كان محتاطاً لكل شيء.

المباحثات التي بدأت في الساعة الواحدة الأرباعاً من بعد ظهر اليوم في ما أطلق عليه (دار الزعيم) في (كوينكسبلاتز) لم تكن مثيرة، وكانت مجرد شيء يزيد قليلاً عن الرسميات المتعلقة بإعطاء هتلر كل ما أراد. ودعي الدكتور شميدت الذي لا يُشَقُّ له غبار ليقوم بالترجمة باللغات الألمانية والإنكليزية والفرنسية. فلاحظ من البداية "جواً من النوايا الطيبة". وتذكر السفير هندرس فيما بعد "لم ترتفع حرارة النقاش في أي مرحلة من مراحل المناقشات" ولم يترأس المؤتمر أحد. وجرى الوقائع بشكل خلا من الرسميات، وإذا حكمنا عليها من سجلات وقائع الاجتماع^(٩٩) التي اميط عنها اللثام بعد الحرب. فإن رئيسي الحكومتين البريطانية والفرنسية كانا يتسابقان مثل فرسي رهان على اجابة مطالب هتلر حتى عندما ألقى كلمة الإفتتاح التالية: لقد صرّح في خطابه في سبورت بالاست بأنه سيزحف مهما كانت الظروف في (١) تشرين الأول، فتسلم جواباً بأن عمله سيكون فيه صفة العنف. لذلك برزت مهمة تجريد العمل من تلك الصفة، وعلى كل حال يجب إتخاذ قرار فوري". وشرع المؤتمر في عمله عندما قال موسوليني (ثالث المتكلمين، وأعطى دالادييه الكلمة الأخيرة): "ضماناً للوصول إلي حل عملي للمشكلة" فقد حمل معه إقتراحات مكتوبة محددة. إن اصل تلك الإقتراحات طريف حقاً، وقد بقي جمبرلين يجهل ذلك الأصل حتى موته كما ارجح. كذلك كان يجهله كل من فرانسوا بونسيه وهندرسن، كما بدا من مذكراتهما. والحقيقة إن القصة لم تعرف إلا بعد مقتل الدكتاتورين بزمان طويل.

إن ما فخر به الدوتشي وأبرزه بوصفه مشروعاً من بنات أفكاره كان قد تفرغ الى وضعه بعجلة كل من نيوراث وگورنگ وفون فايسيكير قبل يوم في وزارة الخارجية الألمانية دون علم من وزير الخارجية ريبنتروب الذي لم يكن هؤلاء الثلاثة يقيمون وزناً لقابلياته العقلية ثم حملها گورنگ الى هتلر فأعلن رضاه عنها ثم دفعت الى (شميدت) فعجل بترجمتها الى الفرنسية واعطيت الى السفير الإيطالي. فتلفن هذا نصّها الى الدكتاتور الإيطالي في روما قبل أن يسافر الى مونيخ. تلك هي حقيقة المقترحات الإيطالية التي كانت أساساً للمؤتمر غير الرسمي لا بجدول أعماله بل بالشروط الجوهرية التي أصبحت بالأخير مجمل إتفاقية مونيخ وهي في الحقيقة مقترحات ألمانية تمّ طيخها في برلين^(١٠٠).

= يعلمه رسمياً بإجتماع مونيخ "سيظل يلزم فكري مصلحة جيکوسلوفاكيا... إنني اسافر الى هناك (مونيخ) عازماً على محاولة إيجاد تقارب بين موقفى الحكومتين الألمانية والجيكية" فاجاب بينيش حالاً "ارجو أن لايرم شيء في مونيخ قبل ان يسمع صوت جيکوسلوفاكيا" (نص رسالتى جمبرلين وبينيش في (و.س.ب.خ) السلسلة الثالثة ج ٢ الص ٥٠٩ و ٦٠٤.

٩٩- وقائع جلستي مؤتمر مونيخ في وثائق عن... ج ١١ ص ١٠٠٣-١٠٠٨ و ١٠١١-١٠١٤.
١٠٠- تحدث اريخ كوردت عن الأصول الألمانية لمقترحات موسوليني في شهادته أمام المحكمة العسكرية الأمريكية الرابعة في نورمبرگ في ٤ حزيران ١٩٤٨ في القضية التي رفعتها الولايات المتحدة الأمريكية ضد ارنست =

ولا تخفي العين ملاحظة النص الذي يشابه الى درجة كبيرة مطالب هتلر المرفوضة في غودسبرگ إلا أنها لم تتضح لجمبرلين أو لدالاديه أو لسفيريهما في برلين اللذين كانا حاضرين. تقول التقارير الألمانية أن رئيس الوزارة البريطاني "رحب بالإقتراح الإيطالي وصرح أنه هو نفسه قد نظم إقتراحاً بالتسوية بني على خطوط هذا الإقتراح" ورحب رئيس الوزراء الفرنسي أيضاً "بالإقتراح الذي نظم بروح واقعية ايجابية" أما عن السفير هندرس فقد كتب فيما بعد أن موسوليني "صاغ بمهارة وبراعة مزيجاً من المقترحات الألمانية، والمقترحات الأنكلو-فرنسية وظهرها كأنها من بنات أفكاره بينما كان إنطباع (فرانسوا بونسيه) أن المجتمعين كانوا يتبادلون الرأي في مذكرة بريطانية "نظمها هوارس ويلسن" (١٠١).

الى هذه الدرجة من التساهل بلغ ساسة بريطانيا وفرنسا في تنازلهم بأي ثمن كان. لقد خدعوا!!

بعد أن رحب الجميع بالمقترحات (الإيطالية) ترحيباً حاراً، لم يبق إلا تفاصيل بسيطة للتنظيف والكي! وكما هو متوقع من رجل أعمال سابق ووزير خزانة أسبق رغب جمبرلين أن يعلم، من سيعوض الحكومة الجيكية عن الممتلكات العامة التي ستنقل الى ألمانيا في أرض السودان فأجاب هتلر الذي كان كما روى فرانسوا بونسيه - يبدو مصفراً الوجه مشغول البال ومتضيقاً لأنه خلافاً لموسوليني - كان عاجزاً عن متابعة الحديث باللغتين الفرنسية والإنكليزية - أجاب بحدة: لن يكون ثم تعويض. وعندما احتج رئيس الوزراء على الشرط الذي يقضي أن لا يأخذ الجيك الذين سيخولون المناطق المنسلخة، شيئاً حتى يقراتهم (كانت واحدة من شروط إنذار غودسبرگ). وقال مندهشاً: "أيعني هذا أن الفلاحين سيطردون وأن ماشيتهم ستضبط؟" فانفجر هتلر صارخاً بجمبرلين:

"إن وقتنا أثمن من أن نضيعه بهذه التوافه" (١٠٢) فترك رئيس الوزراء الموضوع.

في الواقع، أصر أولاً على وجوب حضور ممثل جيكي، أو على الأقل، أن يكون "تحت اليد" كما عبر عنه. لأن بلاده "لا تستطيع بطبيعة الحال أن تضمن الجلاء عن أرض السودان حتى ١٠ تشرين الأول [حسب إقتراح موسوليني] إن لم يصدر تأكيد بذلك من الحكومة الجيكوسلوفاكية". وكانت موافقة (دالاديه) على قوله بادية الفتور. قال أن الحكومة الفرنسية "لن تسمح قط بمماطلة أو تسويق في هذا الموضوع من جانب الحكومة الجيكوسلوفاكية". إلا أنه يرتأي "إستدعاء ممثل جيكي، قد يكون من إستشارته - عند الضرورة بعض نفع". إلا أن هتلر ظل مصراً على ألا يسمح بحضور

= فايسبكر. وتعطي "وثائق وزارة الخارجية الألمانية ج ٢ ص ١٠٠٥" ملخصاً عن وقائع جلسات المرافعة. يتحدث (كوردت) أيضاً عن المناسبة في كتابه Wahn und Wirklichkeit الص ١٢٩-١٣١. ويؤيد الدكتور شميدت (ترجمان هتلر ص ١١١) رواية (كوردت). ويقول أن ترجمة مقترحات الدوتشي كان عملاً سهلاً، إذ سبق له أن ترجمها نهار أمس في برلين. واثبت تشيانو وزير الخارجية الإيطالية في يومية له مورخة ٢٩ / ٣٠ أيلول في مونيخ عن تقديم = موسوليني وثيقته "التي كانت قد بلغت لنا في الواقع من سفارتنا ببرلين مساء أمس. معبرة عن رغبات الحكومة الألمانية" مذكرات تشيانو المخفية ١٩٣٧-١٩٣٨ ص ١٦٧.

١٠١- هندرس المرجع السالف ص ١٧١. فرانسوا بونسيه المرجع السالف ص ٢٧١.

١٠٢- شميدت المرجع السالف ص ١١٠.

چيكيّ أمامه. فصرف دالادييه النظر عن رأيه خانعاً. إلا أن چمبرلين حصل بالأخير على امتياز صغير فاتفق أن يكون "تحت اليد" ممثل چيكي "في الغرفة المجاورة" كما اقترح رئيس الوزراء. وبالفعل حضر محل الاجتماع أثناء جلسة العصر ممثلان چيكيان هما الدكتور (فوتشيك ماستني) الوزير المفوض الچيكي في برلين. والدكتور هيوبرت ماساريك Hubert Masarik من وزارة الخارجية في براغ. واقتيدا بكلّ جفاء الى غرفة مجاورة. وبعد أن ظلّ وحيدين هناك من الساعة الثانية بعد الظهر حتى السابعة، هوى عليهما سقف الغرفة فجأة، ففي الساعة الأخيرة دخل عليهما فرانك آشتن-كواتكن Frank Ashton-Guatkin (وكان أحد أعضاء بعثة رونسيماان وهو الآن في معيّة چمبرلين) وأنهى اليهما بأخبار السوء. لقد تم التوصل الى إتفاق عام لايمكنه إعطاء تفاصيله لهما بعد، إلا أنه أقسى كثيراً من المقترحات الأنكلو-فرنسيّة وعندما سأل (ماساريك) أليس بالأمكان أن تُسمع أقوالهما اجاب الإنكليزيّ (على حدّ ما كتبنا لحكومتيهما): "يبدو انكما تجهلان كم كان الموقف صعباً بالنسبة للدول الكبرى، واننا لانفهم كم هو شاق التفاوض مع هتلر".

وفي الساعة العاشرة ليلاً أخذ الرجلان التاعسان الى (السّرّ هوارس ويلسن) مستشار رئيس الوزراء المخلص. فأبلغهما نيابة عن چمبرلين بالنقاط الرئيسيّة التي اتفقت عليها الدول الأربع وسلمهما خريطة لأراضي السوډيت التي يجب أن يتم اجلاء الچيك عنها حالاً وعندما حاول المبعوثان الإحتجاج. قاطعهما الموظف الإنكليزي وافهمهما أن ليس لديه أكثر مما قاله وترك الغرفة حالاً واستمر الچيكيان يحتجان دون طائل لـ(فرانك آشتون-كواكتن) الذي بقي معهما في الغرفة. وحذرهما وهو يهيمّ بالانصراف قائلاً: "إن لم تقبلوا، فعليكم أن تتكفلوا بتسوية اموركم مع الألمان بمفردكم ربّما يصارحكم الفرنسيون بهذه الحقيقة بلهجة أرق لكن ثقوا أنهم يشاطرونا الرأي وهم لايعبأون بالمسألة". تلك هي الحقيقة، وان كانت تبدو للمبعوثين الچيكيين بشعة. وبعد الساعة الواحدة صباحاً ليوم ٣٠ أيلول^(١٠٣) وقع هتلر ثم چمبرلين، ثم موسوليني ثم دالادييه على إتفاقية مونيخ مُحدّدة اليوم الأول

١٠٣- أرخت الإتفاقية في ٢٩ أيلول وإن تم التوقيع عليها فعلاً في ساعات الصباح الأولى من ٣٠ أيلول. نصّت على ان الإحتلال الألماني "للأراضي الألمانية القديمة" يجب ان يكون في ٧ تشرين الأول أما الأراضي الباقية، فبعد تمام تحديدها من قبل اللجنة الدولية يتم إحتلالها في (١٠ تشرين الأول) واللجنة تتألف من اعضاء يمثلون الدول الكبرى الأربعة وچيكوسلوفاكيا. وواقفت إنكلترا وفرنسا وإيطاليا: على ان "الجلء عن الأرض يتم في ١٠ تشرين دون تدمير شيء من المنشآت. وأن الحكومة الچيكية ستكون مسؤولة عن أي تخريب يحصل أثناء عملية الجلء المذكورة". ثم أن "اللجنة الدولية" تقوم بتدبير إجراءات الإستفتاء "بحيث لاتتأخر عن نهاية تشرين الثاني" في المناطق التي يحوم الشك حول طبيعتها الاثنوغرافية. والتي سيكون فيها التحديد النهائي للحدود الجديدة. وفي ملحق للبنود الأصلية صرّحت بريطانيا وفرنسا "انهما ستظلان باقيتين على وعدهما... بخصوص ضمانة دولية للحدود الدولة الچيكية الجديدة ضد أي عدوان لم يعقب إستغرازاً وعندما تتم تسوية مشكلة الأقليات البولندية والمجرية، ستقوم إيطاليا وألمانيا بدورهما بإعطاء ضمانة لچيكوسلوفاكيا، النص في (وثنائق عن سياسة ألمانيا... ج١١ ص ١٠١٤-١٠١٦)، لم يتم إجراء الاستفتاء كما قرر. ولم تعط ألمانيا أو إيطاليا الضمان لچيكوسلوفاكيا ضد العدوان حتى بعد تسوية مشكلة الأقليات البولندية والمجرية. كما أن بريطانيا وفرنسا تنصلتا عن الايفاء بعهدهما بالضمانة الدولية.

من تشرين الأول لبدء زحف الجيش الألماني الى داخل چيكوسلوفاكيا كما قال (الزعيم) أنه سيفعل وأن يتم الاحتلال السويدي في (١٠) تشرين الأول. وهكذا نال هتلر، ما حيس عنه في غودسبرگ. ولم يبق إلا الشيء المؤلم - المؤلم للضحية على الأقل. وهو إبلاغ الجيك عمّاداً سيتخلّون ومتى. ولم يحفل هتلر وموسوليني بهذا الجزء من الحفلة وانسحباً تاركين المهمة لممثلي حلفاء چيكوسلوفاكيا، أعني فرنسا وبريطانيا العظمى. وصف (ماساريك) المشهد وصفاً متقناً في تقريره الرسمي الى وزارة الخارجية الجيكية.

"في الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين صباحاً أخذنا الى القاعة التي جرت فيها وقائع المؤتمر وكان الحاضرون مستر چمبرلين ومسيو دالادييه وسر هوراس ويلسن ومسيو ليجيه L'ger [السكرتير العام لوزارة الخارجية الفرنسية] ومستر فرانك آشتن-كواتكين والدكتور ماستني وأنا، كان الجو ثقيلاً على النفس، فالحكم سيصدر الآن والفرنسيون ظهروا قلقين شديداً والعصبية يتشبثون جاهدين ليتخذوا هيئة الوقار الفرنسي أمام المحكمة. ونوه مستر چمبرلين في خطبة طويلة تمهيدية بالإتفاق وسلم النص الى الدكتور (ماستني).

بدأ الجيكيان يطرحان عدداً من الاسئلة لكن...

"مستر چمبرلين كان يتشاءب باستمرار، دون أن يحاول إخفاء ثوبائه. سألت مسيو (دالادييه وليجيه) هل يتوقعان من حكومتنا تصريحاً أو جواباً حول الإتفاقية. كان مسيو دالادييه في غاية العصبية. واجاب (مسيو ليجيه) أن السادة الأربعة متعبون ولا وقت لديهم، وازداد بسرعة متظاهراً بعدم الإكتراث أن لا حاجة تدعو الى جواب منا وانهم يعتبرون المشروع متفقاً عليه وأن على حكومتنا أن ترسل في هذا اليوم بالذات مثلاً للحضور في اللجنة في برلين على أن لا يتأخر حضوره عن الثالثة بعد الظهر، وأخيراً يجب ان يكون الضابط الجيكي في برلين نهار السبت لترتيب تفاصيل الجلاء عن المنطقة الأولى. وقال أن الجو بدأ يصبح خطراً على العالم أجمع.

كان يكلمنا بخشونة واضحة، ذلكم الفرنسي... ولم يخف مستر چمبرلين ضيقه. وسلمونا خريطة ثانية منقحة. لقد أنهوا مهمتهم معنا وعلينا الآن أن ننصرف^(١٠٤).

أذكر من تلك الليلة الليلية نور النصر يومض في عيني هتلر وهو يهبط درج (دار الزعيم) العريضة بعد الإجتماع. وغطسة موسوليني وزهوه في حلته الخاصة المقصبة بزي الميليشا. واذكر ثوباء چمبرلين وعلامات الوسن والنعاس اللطيفة التي شاعت في وجهه عند عودته الى فندق (ريجنا بالاس). "كتبت في مفكرتي تلك الليلة] وبدا دالادييه خلافاً لهم رجلاً مكدوداً محطماً تماماً ومقهوراً.

١٠٤- من تقرير رسمي ارسله الدكتور ماساريك الى وزارة الخارجية الجيكية. إن مصادر هذا الجزء من مؤتمر مونيخ في [وثائق عن...ج ٢ ص ١٠٠٣-١٠٠٨ و ١٠١١-١٠١٤. نص إتفاقية مونيخ المرجع السالف ١٠١٤-١٠١٦، (و.س.ب.خ) السلسلة الثالثة رقم (١) ص ٢٢٧. تشيانو شميدت هندرسن. فرانسوا بونسيه: مراجعهم السالفة].

أقبل الى فندق (ريجن) لتوديع جمبرلين فسأله أحدهم، أو هم بالسؤال: "ايها السيد الرئيس هل انت مرتاح للإتفاقية؟" فالتفت إلتفاتة من يريد قول شيء. إلا أنه كان اشدّ ارهاقاً وقهراً، ولم تخرج الكلمات من حلقه وبارح المكان مترنحاً دون أن ينبس بكلمة واحدة^(١٠٥).

لم يفرغ جمبرلين من المداولة مع هتلر حول السلم العالمي. ففي صبيحة اليوم الثاني الباكر (٣٠ أيلول) نهض منتعشاً بفضل ساعات نوم قليلة مسروراً بالمجهودات التي بذلها يوم أمس، وقصد هتلر في شقته الخاصة في مونيخ لبحث معه الوضع الأوروبي والحصول على تنازل صغير توهم كما يبدو أنه سيعزز موقفه السياسي في بلاده.

يذكر الدكتور شميدت شاهد العيان الوحيد والترجمان الذي حضر بحكم مهنته هذه الزيارة غير المتوقعة، أن هتلر كان شاحب الوجه سيء المزاج ساهماً، وكان يصغي غائب الذهن الى رئيس الحكومة البريطانية الغزير الكلام وهو يعبر عن ثقته بأن ألمانيا "ستتبني موقفاً كريماً في تطبيق بنود إتفاقية مونيخ" وجدد أمله في أن لا يكون الچيكيون "غير معقولين بحيث يثيرون صعوبات وعراقيل" وان فعلوا فهو يرجو من هتلر أن لا يقصف براغ بالقنابل "للخسارة الفظيعة التي ستلحقها بالسكان المدنيين". كان هذا بداية فقط لحديث طويل شتيت، لا يصدق خروجه من فم رئيس وزراء بريطاني حتى من رجل إستسلم ذلك الإستسلام الذليل للدكتاتور الألماني ليلة أمس لو لم يسجله الدكتور شميدت في مذكرة رسمية لوزارة الخارجية. حتى في هذا اليوم عندما يقرأ المرء تلك الوثيقة التي ضبطت بعد الحرب. يصعب عليه أن يصدق ما يقرأ. لكن ملحوظات الزعيم البريطاني الإفتتاحية لم تكن إلا مقدمة لما سيتلوها. فبعد أن نفذ جمبرلين للدكتاتور الألماني ما بدا ثروة لاتنتهي عن إقتراح بتعاون آخر لإنهاء الحرب الأهلية الاسبانية (التي يربحها الألمان والإيطاليون "المتطوعون") لفرانكو وفي نزاع السلاح وشؤون الرخاء الإقتصادي الدولي والسلم السياسي في أوروبا بل حتى التعاون في حل المشكلة الروسية! أخرج من جيبه قصاصة من الكاغد كان قد كتب فيها شيئاً يمكن ان يذيله بتوقيعها ويدفعها الى النشر حالاً:

"اننا (الزعيم) الألماني والمستشار، ورئيس الوزراء البريطاني عقدنا إجتماعاً آخر في هذا اليوم واتفقنا على أن مسألة حسن العلاقات الإنكليزية-الألمانية هي أولى الضرورات للبلدين ولأوروبا. ونحن نعتبر الإتفاقية الى وقعت ليلة أمس والمعاهدة البحرية الأنكلو-ألمانية، رمزاً لرغبة شعبينا في عدم خوض حرب أهدنا ضد الآخر.

وقد اتفقنا أن طريق المشاورة، ستكون الطريقة المتبعة لمعالجة أي مشاكل أخرى تهم بلدينا. كما صحّ عزمنا على الإستمرار في بذل الجهود لإزاحة كل مصدر من مصادر الخلافات جانباً. وبهذا نعمل على تثبيت أركان السلم في أوروبا".

قرأ هتلر التصريح وأسرع بالتوقيع عليه فوراً حتى كاد جمبرلين يطير فرحاً كما ذكر شميدت في تقريره الرسمي. كان إنطباع الترجمان أن الزعيم وافق عليه "بشيء من التردد لا شيء إلا لبسراً جمبرلين" الذي "شكر الزعيم بكل حرارة" ووصف الأثر السيكولوجي العظيم "الذي يتوقعه من هذه الوثيقة".

لم يدر رئيس الوزراء المخدوع طبعاً وكما كشفت عنه الوثائق السرية الألمانية والإيطالية بعد ذلك بوقت طويل أن هتلر وموسوليني كانا قد إتفقا في ذلك المؤتمر نفسه في مونيخ أنهما سيحاربان "جنباً لجنب" بريطانيا العظمى عندما يأتي الوقت. ولم يستطيع أن يتكهن -كما سنى بعد قليل- بأشياء كثيرة أخرى كانت تغلي غلياناً في ذهن هتلر Lugubious^(١٠٦).

عاد جمبرلين الى لندن، كما عاد دالادييه الى باريس، ظافراً يلوح بالتصريح الذي وقّعه مع هتلر وواجه رئيس الوزراء المسرور جمهوراً غفيراً اكتظّ به (داوننگ ستريت) وبعد أن أصغى الى هتافات "عاش جمبرلين العجوز الطيب!" والى النشيد الرائع: "فلأنه زميل طيب جداً For He's a Jolly Good Fellow" تكلم وهو يبتسم بعبارة قليلة من نافذة الطابق الثاني - رقم ١٠ قال: "أصدقائي الكرماء هذه هي المرة الثانية في تاريخنا يحدث أن يعود السلم بشرف من ألمانيا إلى داوننگ ستريت"^(١٠٧). واعتقد أن السلم سيسود عصرنا".

وقالت صحيفة التايمس: "لم يأت فاتح من معركة منتصراً ومتوجاً باكاليل الغار كما جاء" وبدت حركة تلقائية يدفعها الشعور "للقيام باكتتاب عام يعملون به شيئاً" فيه تعبير عن شكرهم لجمبرلين، إلا أنه رفض الأمر متلطفاً. إلا أن (دف كوبر) وزير البحر إستقال من الوزارة بمفرده وفي مناقشة مجلس العموم التالية عندما بدأ جرچل الذي مازال بعد "صوتاً صارخاً في البرية" ينطق كلماته الخالدة "لقد حققنا فشلاً ذريعاً كاملاً لا يمكن التلطيف منه" اضطر الى التوقف حتى تلاشت عاصفة الإحتجاج على هذه الملاحظة كما روي فيما بعد.

لاشك أن الحالة في براغ كانت تختلف اختلافاً تاماً. في الساعة السادسة والدقيقة العشرين صباح الثلاثين من أيلول ايقظ القائم بالأعمال الألماني وزير الخارجية الدكتور (كروفتا) من نومه وسلّمه نصّ إتفاقية (مونيخ) مع الطلب من جيکوسلوفاكيا أن ترسل ممثلين إثنين الى أول إجتماع (للجنة الدولية) التي ستشرف على تنفيذ منطوق الشروط وذلك في برلين في الساعة الخامسة بعد الظهر.

وأماً بالنسبة الى الرئيس (بينيش) الذي كان قد تباحث مع كل القادة العسكريين والزعماء السياسيين في قصر (هراشين)، فلم يجد مندوحة إلا أن يسلم بالواقع ويخضع، لم تخذل بريطانيا

١٠٦ - مصادر إجتماع هتلر-تشميرلين هذا [وثائق عن... ج ٢ ص ١٠١٧. راجع عن نص التصريح المرجع نفسه ج ٢ ص ٢٨٧-٢٩٣. عن مذكرة شميدت الرسمية حول الإجتماع كتاب شميدت السالف الص ١١٢-١١٣. (و.س.ب.خ) السلسلة الثالثة ج ٢ رقم ١٢٢٨. فيها رواية تختلف بعض الشيء لما جرى من حديث.

١٠٧ - يشير بذلك إلى عودة دزرائيلي من مؤتمر برلين في ١٨٧٨.

* إقتباس من آيات الإنجيل.



ريبنتروب

وفرنسا بلاده وحدها وإنما ستساند الآن هتلر باستخدامه القوة إن رفضت چيكوسلوفاكيا بنود إتفاقية (مونيخ). وفي الساعة الواحدة إلا عشر دقائق استسلمت چيكوسلوفاكيا وصدر بيان رسمي مصدراً بعبارة "اننا نحتج الى العالم". وفي إذاعة لرئيس الحكومة الجديدة على الشعب الجيكوسلوفاكي قال الجنرال سيروفي في الساعة (٥ ب.ظ) لقد خذلنا وتركنا وحدنا.

ظلت فرنسا وبريطانيا الى النفس الأخير تمارسان ضغطهما على البلاد التي خانتها وخدعتها. وفي أثناء اليوم ذهب الوزراء المفوضون البريطاني والفرنسي والإيطالي لمقابلة الدكتور (كروفتا) ليتأكدوا من عدم وجود ثورة اللحظة الأخيرة ضد الإستسلام ووصف الوزير الألماني الدكتور (هنكه) المشهد

في تقرير الى برلين قال: "حاول السفير الفرنسي توجيه كلمات مؤساة الى (كروفتا) فقاطعه وزير الخارجية الجيكي بقوله: "لقد أرغمنا على هذا الموقف إرغاماً. والآن إنتهى كل شيء. اليوم دورنا وغداً سيكون دور الآخرين". نجح الوزير البريطاني بصعوبة في القول أن چمبرلين قد بذل أقصى ما في وسعه، فرد عليه بما رد على الوزير الفرنسي. كان وزير الخارجية الجيكي منهزماً تماماً وأبدى رغبة واحدة وهي ان يترك الوزراء الثلاثة الغرفة حالاً^(١٠٨).

إستقال الرئيس (بينيش) في ٥ تشرين الأول بإلحاح من برلين. وعندما إتضح أن حياته في خطر طار الى إنكلترا وبقي فيها منفياً. فحل محله الجنرال (سيروفي) بصورة مؤقتة. وفي ٣٠ تشرين الثاني اختارت الجمعية الوطنية (مجلس النواب) الدكتور أميل هاشا Dr. Emil Hasha وهو رئيس محكمة النقض والإبرام الجيكوسلوفاكية، رجل طيب النوايا لكنه ضعيف، وشيخ في السادسة والستين من عمره، رئيس جمهورية لما بقي من چيكوسلوفاكيا (هكذا أصبحت تكتب رسمياً بخط صغير يفصل بين الكلمتين المدغمتين قبلاً).

إن ما نسي چمبرلين ودالاديه إعطاه ألمانيا من چيكوسلوفاكيا في مونيخ: قامت اللجنة الدولية بتسليمه: هذه اللجنة التي عجل في تشكيلها بعضوية سفراء بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والوزير المفوض الجيكي في برلين والبارون (فون فايسيك) وكيل وزارة الخارجية الألمانية سوّت كل منازعة على أراضٍ إضافية للألمان، لمصلحتهم. تحت التهديد بإستخدام القوة من جانب هتلر والقيادة العليا وأخيراً وفي ١٣ تشرين الأول صوتت اللجنة على نبذ اللجوء الى الإستفتاء الذي نصت إتفاقية (مونيخ) على إجرائه في المناطق المنازع عليها إذ لم يكن حاجة تدعو اليه.

١٠٨- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٤ الص ٤-٥.



هتلر وجمبرلين
في مونيخ

وبعد أن هددَ البولنديون والمجريون بالأعمال العسكرية ضدَّ الشعبَ الفاقدَ الحول، انقضوا الآن كالبواشق ليحصلوا على قطع من جسر چيكوسلوفاكيا وحصلت بولندا بإصرارٍ من وزير خارجيتها (يوزف بيك) الذي سيبرز اسمه في الظليعة خلال الإثني عشر شهراً القادمة في هذا التاريخ - على أكثر من (٦٥٠) ميلاً مربعاً من الأراضي حول (تيشن) يسكنها أكثر من (٢٢٨٠٠٠) نسمة، منهم (١٣٣٠٠٠) چيكي. ونالت المجر قطعة أكبر، هدية من (تشيانو وريبنتروب) في ٢ تشرين الثاني: أرضاً تبلغ مساحتها ٧٥٠٠ ميل مربع يقطنها نصف مليون مجري و ٢٧٢٠٠٠ سلوفاكي. والأُنكى من هذا كله، ارغمت هذه البلاد المقطعة الأوصال بضغطٍ من برلين على إقامة حكومة موالية للألمان، ذات صفة فاشية واضحة المعالم ولم يعد أحد يشك في أن وجود الشعب الچيكوسلوفاكي أصبح مرتهنناً برحمة زعيم الرايخ الثالث.

- ١٠ -

آثار إتفاقية مونيخ

بإتفاقية مونيخ حصل هتلر على كلِّ ما طلبه في (گودسبرگ)، ثم منحتة (اللجنة الدولية) التي خضعت لتهديداته أكثر مما طلب بكثير. وكانت نتيجة التسوية النهائية التي تمت في ٢٠ تشرين الثاني، أن أجبرت چيكوسلوفاكيا على النزول لألمانيا عن (١١٠٠٠) ميل مربع من الأراضي يقطنه

(٢٨٠٠٠٠٠) ألماني و(٨٠٠٠٠٠) جيكي. وفي هذه المنطقة بالذات يقع كل الحصون والإستحكامات العسكرية الجيكية الواسعة التي كانت حتى ذلك التاريخ أمنع الخطوط الدفاعية في أوروبا وربما أمكن مضاهاتها بخط (ماجنيو) الفرنسي.

الأ أن ذلك لم يكن كل الغنائم. فقد صودر من جيكوسلوفاكيا كل ما تملكه في المنطقة من خطوط السكك الحديدية ومنشآتها وكل طرقها المعبدة وخطوط التلفون والبرق. وبينت الأرقام الألمانية أن البلاد المجرأة خسرت ٦٦٪ من فحمها الحجري و ٨٠٪ من لگنائيتها* Lignite و ٨٠٪ من معامل نسيجها و ٧٠٪ من حديدها وفولاذها وقواها الكهربائية و ٤٠٪ من أخشابها. وهكذا تمزق قطر صناعي غني مرفقه شر ممزق وأصبح مفلساً في عشية وضحاها.

فلعجب ان رأينا (يودل) يكتب فرحاً ليلة مونيخ في يومياته: "لقد تم التوقيع على إتفاقية مونيخ ولم يعد لجيكوسلوفاكيا كيان دولي... إن عبقرية الزعيم وتصميمه حتى بوجود خطر حرب عالمية، ربحت الجولة أيضاً دون اللجوء الى القوة، والأمل كبير أن يكون المترددون والمرتابون قد اهتدوا الى الحقيقة، وانهم سيبقون مؤمنين بها"^(١٠٩).

ولقد آمن كثير من المرتابين وذوي الشك، والقلّة التي بقيت غير مؤمنة غرقت في لجة من اليأس. وبرهنت الأحداث ثانية على خطأ الجنرالات (بيك وهالدر وفيتزليين) وصحبهم المدينيين. لقد فاز هتلر بما أراد، وحقق ظفراً عظيماً آخر دون ان يخسر طلقة واحدة وارتفعت مكانته الى مراقي أخرى من العظمة. وليس في إمكان أحد في ألمانيا عقب مونيخ أن ينسى الغبطة التي شاعت في نفوس الألمان كما لاحظت. لقد انفجرت كريتهم لخلاصهم من الحرب. وشمخوا بأنوفهم اعتزازاً وكبرياء لنصر هتلر الخالي من الدماء، لا على جيكوسلوفاكيا وحدها بل على بريطانيا العظمى وفرنسا. وهم يقولون لك: ان هتلر تمكن في فترة لا تزيد عن ستة أشهر، من الإستيلاء على النمسا وارض السودان فاضاف عشرة ملايين نسمة الى الرايخ الثالث وحصل على مواقع استراتيجية عظيمة فتحت الطريق أمامه للسيطرة على جنوب شرق أوروبا وتم ذلك دون خسارة ألماني واحد! لقد تنبأ بغريزة من غرائز العبقرية النادرة المشال في تاريخ ألمانيا بضعف الدول الصغرى في أواسط أوروبا، بل تنبأ أيضاً بضعف الديمقراطيتين الغربيتين الجبارتين بريطانيا العظمى وفرنسا فأرغمهما على الخضوع لإرادته. وإخترع ومارس بنجاح منقطع النظير، استراتيجية وتكتيكاً جديداً (للحرب السياسية) جعلت حرب الجيوش غير ضرورية.

في غضون أربع سنين ونصف سنة لا غير استطاع هذا الرجل الوضع الأصل، أن يرفع ألمانيا مجردة من السلاح، مفلسة، تمزقها الفوضى، أضعف دولة كبيرة في أوروبا، الى منزلة أقوى دولة في العالم القديم. ترتجف أمامها كلّ الدول وبضمنها بريطانيا وفرنسا.

* اللگنائيت هو الفحم الحجري الأسمر.

١٠٩- من يوميات (يودل) في [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٢ ص ٣٦٨- الوثائق- ١٧٨٠ PS].

لم تجرأ دول فرساي المظفرة على إيقافها في أي خطوةٍ من خطوات هذا الإرتقاء المذهل حتى عندما كانت تملك القوة على ذلك. في الواقع وجدنا بريطانيا وفرنسا في مونيخ التي سجلت أعظم انتصار لها، تخرجان عن طريقهما لتمدا الى ألمانيا يد المساعدة كمن أصابتهما لوثة. وكان ما أصاب هتلر باشد الدهشة (وهو لاشك أصاب أيضاً الجنرال بيك وهاسل وغيرهم من أعضاء حلقة المعارضة الصغيرة) أن أولئك الذين كانت بيدهم مقاليد الحكم في بريطانيا وفرنسا (يسميهم هتلر في مجالسه الخاصة "بالدود الحقيقير" احتقاراً وإزدراء) لم يدركوا قطّ ما سينجم من عجزهم عن القيام بعمل مضادّ قويّ في وجه حركات الزعيم النازي العدوانية التي أخذت تتوالى الواحدة إثر الأخرى. ويبدو أن (ونستون چرچل) هو الوحيد الذي أدرك ذلك في إنكلترا.

لم يشرح أحد آثار تنازل مونيخ شرحاً دقيقاً مثلما جاء في خطبته المؤرخة في ٥ تشرين الأول أمام مجلس العموم.

"لقد مُنينا بهزيمة شنعاء تامة لا يمكن التقليل من شأنها... نحن الآن وسط كارثة من الطراز الأول. الطريق الى الدانوب... الطريق الى البحر الأسود... فُتحت... كل الاقطار في وسط Mittel (لفظها بالألمانية) أوروبا وفي حوضي الدانوب الواحدة بعد الأخرى... ستجرّجراً الى النظام النازي السياسي... الذي يشع من برلين... ولا تتوهموا إنها النهاية... انها البداية..."

لكن چرچل لم يكن في الحكم، ولم يقدّر وزن لكلماته.

هل كان الإستسلام الأنكلو-فرنسي في مونيخ لابد منه؟

هل كل هتلر جاداً؟

الجواب المزدوج على هذين السؤاليين كما نعلم اليوم هو (كلاً). لقد اتفقت كلمة كل الجنرالات المقربين الى هتلر الذين ظلوا احياء بعد الحرب. أن هتلر كان سيهاجم چيكوسلوفاكيا في (١) تشرين الأول ١٩٣٨ لولا (مونيخ). وافترضوا انه مهما بلغ من تردد لندن وپاریس وموسكو، فإن هذه الدول كانت في النهاية ستدخل الحرب.

وما كان مهماً للغاية لهذا التاريخ وفي هذه المرحلة بالذات هو أن هؤلاء القادة متفقون بالإجماع بأن ألمانيا ستخسر حرباً كهذه وفي مدة وجيزة. أما تعليل مشايحي چمبرلين ودالاييه - وكانوا كثيرين - فهو أن (مونيخ) انقذت الغرب من حرب ومن هزيمة حرب معاً. وبهذا حفظت لندن وپاریس من الفناء بقصف مهلك يقوم به سلاح الطيران الألماني. هذه الحجج يدحضها جملة وتفصيلاً أولئك الذين كانوا على إطلاع تام وفي مركز يتوصلون به الى الحقائق كالجنرالات الألمان ولاسيما من كان مقرباً من هتلر وساعده من البداية الى النهاية وبكثير من الحماسة والتعصب.

كان النور الكاشف الطلائعي بين هؤلاء القادة الجنرال كايتل رئيس (ق.ع.ق.م) المتبصبص الذي يكاد لايفارق هتلر. عندما سئل في محاكمة نورمبرگ ماذا كان ردّ فعل (مونيخ) في الجنرالات الألمان اجاب قائلاً:

"كنا مغتبطين جداً لأن المسألة لم تؤدّ الى أعمال عسكرية... إذ كان رأينا دائماً أن وسائل هجونا على الاستحكامات الجيكية في الحدود لم تكن كافية. فمن الناحية العسكرية الصرفة كان يعوزنا وسائل هجوم تستخدم لإخترق الإستحكامات على الحدود" (١١٠).

لقد توهم الخبراء العسكريون في الدول الحليفة دائماً، أن الجيش الألماني كان سيجتاح چيكوسلوفاكيا. إلا أن شهادة كاييتل بأن القضية لم تكن كذلك يجب أن تضاف الى شهادة الفيلد مارشال (فون مانشتاين) الذي أصبح واحداً من ألمع قادة الميدان الألمان أثناء الحرب. شهد في نورمبرك (ولم يكن متهماً مثل يودل وكاييتل) عندما سئل عن الوضع العسكري الألماني زمن مونيخ فوضح يقول:

"لنوشبت حرب، لما أمكن قطع الصمود في حبيبتينا البولندية أو الغربية، ولعجزنا عن الدفاع عنهما. ولم يكن هناك شك في أن الإستحكامات الجيكية ستوقفنا وتسمرنّا لاننا كنا نفتقر الى الأسلحة اللازمة لحرق الجبهة" (١١١).

يودل (دماغ) القيادة العليا المفكر صورّ الأمر عندما وقف في نورمبرك للدفاع عن نفسه، بمايلي: "لا مراء في أن وقوف خمس فرق وسبع أخرى احتياطية في إستحكامات الغرب التي هي ليست في الحقيقة أكثر من موقع واسع مبني، بمواجهة مائة فرقة فرنسية هو أمر لا جدوى منه. ان هذا مستحيل عسكرياً" (١١٢).

واذا كان جيش هتلر - كما أقرّ الجنرالات - يفتقر الى أسلحة خرق لإستحكامات الجيك، واذا كان وضع ألمانيا (مستحلاً عسكرياً) في الغرب أمام قوات عسكرية متفوقة، وأكثر من كل هذا، اذا كان يوجد كما رأينا انشقاق خطير في الرأي بين القادة، بحيث تهيأ رئيس الأركان العامة لإزاحة هتلر في سبيل إجتناّب حرب خاسرة. إذن لماذا كانت هيئت أركان القوات البريطانية والفرنسية تجهلان تلك الحقائق؟ وان جهلناها فكيف أقدم رئيسا حكومتي بريطانيا وفرنسا على تضحية هذا الكثير من مصالح بلديهما الحيوية في مونيخ؟ في محاولتنا الجواب على أمثال هذه الاسئلة، نواجه سرّاً مغلقاً من اسرار أيام (مونيخ) لم يمت اللثام عنه بعد. حتى چرچل نفسه الكثير الإهتمام بطبيعته بالمسائل العسكرية لم يتصدّ لهذه النقطة في مذكراته الضخمة.

مما يمكن إدراكه أن هيئتي الأركان البريطانية والفرنسية وحكومتيهما لم تكن على علم بمعارضة

١١٠ - شهادة كاييتل في ٤ نيسان ١٩٤٦ [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج ١٠ ص ٥٠٩].

١١١ - حتى هتلر نفسه، اقتنع بعض الشيء على الأقل بهذه الحقيقة بعد أن فتش خطّ حصون الجيك. واخبر بعدئذ الدكتور كارل برکهاردت Carl Burchardt المندوب فوق العادة لعصبة الأمم في الدانزك. "عندما تمكنا بعد مونيخ من فحص القوة العسكرية الجيكية في الداخل اقلقنا ما رايناه. كنا سنقع في خطر جدي. إن الخطّة التي رسمها الجنرالات الجيك كانت عظيمة وقد أدركت الآن لماذا كان جنرالاتي يلحون في التريث [برتيكاس: حفارو قبو فرنسا ص: ٥].

١١٢ - شهادة يودل ٤ حزيران ١٩٤٦ [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج ٢٠ ص ٥٠٩].

هيئة الأركان الألمانية القيام بحرب أوروبية. ذلك لأن المؤتمرين في برلين اندرؤوا البريطانيين بذلك عن طريق أربعة مصادر على الأقل في شهري آب وأيلول كما رأينا. حتى وصلت الأنباء الى چمبرلين نفسه. لاشك أن باريس ولندن علمتا في أوائل أيلول بإستقالة الجنرال (بيك) وبالأثار التي خلفتها في الجيش معارضة ألمع قائد وأشهر جنرال فيه.

كان الإعتقاد العام في برلين تلك الأيام أن الإستخبارات الفرنسية والبريطانية جيدة الى حد ما. ومن الصعب جداً الإعتقاد أن القادة العسكريين في لندن وباريس لا يعرفون شيئاً عن جوانب ضعف الجيش الألماني وسلاحه الجوي، وعجزهما عن مواصلة الحزب على جبهتين. أي شك ساور الجنرال (گاملان) رئيس هيئة أركان حرب الجيش الفرنسي رغم حذره الغريزي الذي أصبح مضرب المثل في أنه لايمكن بمائة فرقة تقريباً من اكتساح الفرق العاملة الخمسة والفرق الإحتياطية السبعة الألمانية في الغرب والتوغل بيسر وسرعة في قلب ألمانيا؟

يذكر گاملان فيما بعد^(١١٣) أنه شخصياً وعلى وجه العموم لم يكن يشك كثيراً في هذه النتيجة. ففي اليوم الثاني عشر من أيلول، اليوم الذي كان هتلر يبرق ويرعد مراسلاً تهديده ضد چيكوسلوفاكيا في ختام إجتماع الحزب بنورمبرگ اكد الجنرال الأكبر للرئيس دالاديه أن "الشعوب الديمقراطية ستلمي شروط الصلح إملاءً" في حالة نشوب حرب ويقول أيضاً انه دعم تأكيده هذا بتقرير يوضح فيه أسباب تفاؤله وفي ٢٦ أيلول عند بلوغ الأزمة الچيكية ذروتها على أثر إجتماع (گودسبرگ). كرر (گاملان) الذي كان برفقة زعماء الحكومة الفرنسية الى لندن - تأكيدات الأولى لچمبرلين وحاول ترسيخها بتحليل للموقف العسكري وكان يرمي بها تقوية معنوية رئيس الوزارة البريطاني ورئيس حكومته المتردد أيضاً، ولكنه فشل في محاولته كما هو ظاهر. أخيراً، وقبل أن يطير دالاديه الى مونيخ رسم له (گاملان) أقصى حد يمكن التنازل فيه من أرض السودان، بحيث لايعرض أمن فرنسا الى الخطر. وشدد عليه بأن لايعطي ألمانيا إستحكامات الچيكيين الرئيسة. فضلاً عن السكك الحديدية الرئيسة وخطوط فرعية ستراتيكية معينة، ومناطق مصانع الأسلحة الكبرى وزاد يقول: ان أخطر شيء هو أن يعطى الألمان فرصة قطع (الفتحة المورافية). انها لنصيحة ثمينة إن بقيت چيكوسلوفاكيا مفيدة لفرنسا في حرب مع ألمانيا لكن (دالاديه) لم يكن بالرجل الذي يقدم على ذلك كما تبين.

قيل الكثير - زمن مونيخ - عن أسباب إستسلام چمبرلين وهو خوفه من ان تمحي لندن من وجه الأرض بقصف جوي ألماني. وليس ثم شك في أن الفرع كان يقبض نفوس الفرنسيين بإحتمال تدمير مدينتهم الجميلة باريس من الجو، ولكن ما علم الآن عن حالة سلاح الجو الألماني ومدى قوته، لم يكن يستدعي من اللندنيين والپاريسيين هذا القلق، ولا من رئيس الوزارتين هذا الخوف. كانت القوة الجوية الألمانية، كالجيش الألماني قد حشدت كلها ضد چيكوسلوفاكيا. ولذلك كانت كالجيش، أعجز عن

١١٣ - گاملان: "Servir" الص ٣٤٤-٣٤٦ وهو كتاب غث خائب. پرتياكس "حفارو قبو فرنسا" ص ٣. يؤيد الجنرال في هذا. وهذه هي ايضاً مصادر نصيحة گاملان في ٢٦ أيلول و٢٨ أيلول.

القيام بعمل فعّال في الغرب. حتى لو أمكن الإستغناء عن عدد قليل من القاذفات الألمانية وتوجيهها لقصف لندن وباريس، فمما يشك فيه كثيراً إمكان وصولها الى أهدافها. فالألمان لم يكونوا قادرين على حماية قاذفاتهم بالطائرات المقاتلة لأنهم يشكون عين الضعف الذي يشكوه البريطانيون والفرنسيون. ولو ملكوا الطائرات المقاتلة فإن قواعدها بعيدة لا تؤمن الحماية المنشودة.

وقيل أيضاً - وهذا ما ظل ينادي به السفيران فرانسوا بونسييه وهندرسن - أن (مونينخ). منحت الديمقراطيات الغربية فترة سنة كاملة تقريباً للحاق بالألمان في ميدان التسليح. إن الحقائق تدحض هذه الافتراضات دحضاً شنيعاً. كتب چرچل ورأيه مدعم بأرزن آراء المؤرخين العسكريين من الحلفاء "إن السنة التي قيل أنها كانت مجال تنفس، وغُنمت بمؤتمر مونينخ، خلّقت بريطانيا وفرنسا في حالة أسوء مما كانتا عليه أيام أزمة مونينخ"^(١١٤).

وسنرى أن كلّ الحسابات العسكرية الألمانية بعد سنة واحدة من هذا التاريخ كانت تدور حول تأكيد هذه النقطة. والحوادث التي تلت محت أيّ شك في هذه الحقيقة مهما كان.

وبالرجوع الى الورا، مستخدمين ما زودتنا الوثائق الألمانية السرية به من معلومات، وشهادات الألمان أنفسهم في محاكمات ما بعد الحرب. يمكننا التوصل الى الأمور التالية التي كان يتعذر الوصول اليها في أيام مونينخ: لم تكن ألمانيا في وضع يسمح لها بإثارة حرب في (١) تشرين الأول ١٩٣٨ ضدّ چيكوسلوفاكيا وفرنسا وبريطانيا دعك من روسيا. ولو أقدمت على ذلك لسُحقت وهُزمت بسرعة ولكن في ذلك نهاية هتلر والرايخ الثالث. لو تمّ إجتناوب حرب في آخر لحظة، بتدخل الجيش الألماني، فعلى أغلب الإحتمال كان سيُفضى على هتلر، بمجهود هالدر وفيتزليين وشركائهما، بتنفيذ خطتهم في توقيفه حال إعطائه الأمر النهائي بالهجوم على چيكوسلوفاكيا.

وضع هتلر نفسه في مركز حرج للغاية عندما فخر علناً بأنه سيتوغل في أرض السودان يوم (١) تشرين الأول (مهما كانت النتائج) وبهذا وجد نفسه في موقف يتعذر التراجع منه كما تكهن به الجنرال (بيك). فلو حاول بعد كل تهديداته وتصريحاته المطردة الشدة، إن ينكص على رجليه ويديه زحفاً الى الورا، أو أن ينسحب من الزنقة التي وضع نفسه فيها، فلن يبقى في الحكم طويلاً نظراً لطبيعة الدكتاتورية وبخاصة دكتاتوريته. وسيكون من الصعب جداً عليه أن يتراجع إن لم نقل مستحيل. ولو حاول فعلاً فخسارته في هيئته ومقامه في أوروبا وفي ألمانيا عند شعبه وبالأخص عند الجنرالات ستختم على مصيره على أرجح الإحتمالات.

إن إصرار چمبرلين العنيد المتعصب على إعطاء هتلر كل ما أراد ورحلاته إلى برختسگادن وگودسبرگ وأخيراً رحلته المشؤومة الى (مونينخ) أنقذت هتلر من مأزق وقوّت مركزه في أوروبا وألمانيا والجيش بشكل فاق كل ما يسمو اليه الخيال قبلها بأسابيع قلائل. كذلك زادت من هيبة الرايخ الثالث بما لا يحدّ بإزاء الديمقراطيات الغربية والإتحاد السوفييتي.

١١٤ - چرچل "تجمع العاصفة" ص ٣٣٩.

كانت (مونينخ) كارثة لفرنسا. ولا يفهم قَط كيف ظَلَّت هذه الحقيقة غامضة على المسؤولين في باريس. لقد قضي قضاءً مبرماً على مركز فرنسا العسكري في أوروبا. لأن جيشها في حالة تعبئة عامة ألمانية لن يزيد كثيراً عن نصف الجيش الألماني وسكان الرايخ يبلغون ضعف سكان فرنسا تقريباً كذلك مقدرتها على إنتاج الأسلحة فإنه يقل عن ألمانيا. لقد عانت فرنسا جهداً كبيراً في بناء أحلافها مع الدول الصغرى في الشرق. على الجهة الأخرى من ألمانيا وإيطاليا. كـچيكوسلوفاكيا وبولندا ويوغوسلافيا ورومانيا، فإذا جمعت قواها كانت وحدة عسكرية يخشى جانبها. إن خمساً وثلاثين فرقة على الأقل من الجيش الجيكي المدرب خير تدريب والمسلح خير تسليح التي كانت صامدة خلف إستحكاماتها الجبلية المنيعه شاغلة قوة ألمانية. تزيد عليها عدداً، أصبحت قوة لا تنفع ولا يعتد بها بالنسبة الى الجيش الفرنسي. لكن ليس هذا كل شيء، فبعد كارثة (مونينخ) كم سيبقى لحلفاء فرنسا الباقين في شرق أوروبا من ثقة في وعود فرنسا المكتوبة على الورق؟ الجواب تجده في وارشو وبخارست وبلغراد: لم يبق كثير من الثقة. وظهر إندفاع في هذه العواصم لعقد خير صفقات ممكنة مع الفاتح النازي - قبل فوات الوقت.

وان لم يكن في الإتحاد السوفياتي إندفاعُ فهناك حركة وبقطة، فمع أنه كان حليفاً عسكرياً لكل من فرنسا وچيكوسلوفاكيا. فإن الحكومة الفرنسية وافقت ألمانيا وبريطانيا دون احتجاج - على استبعادها من مؤتمر مونينخ. لقد كان تجاهلاً وترفعاً لم ينسه (ستالين) قط، قدر له أن يكلف الديمقراطيةين الغربيتين ثمناً غالياً في الأشهر التالية. ففي الثالث من تشرين الأول أي بعد مونينخ بأربعة أيام كتب فيرنر فون تيلسكيرك Verner Von Tipplskirck مستشار السفارة الألمانية بموسكو الى برلين عن (آثار) مونينخ في السياسة السوفيتية. مرجحاً أن ستالين "سيتعظ بذلك" وكان متأكداً أن الإتحاد السوفياتي سوف يعيد النظر في سياسته الخارجية ويصبح أقل ميلاً الى حليفته فرنسا وأكثر ايجابية تجاه ألمانيا. والواقع ان الدبلوماسي الألماني كان يرى "أن الظروف الحالية ذات فرص مواتية لعقد إتفاق إقتصادي جديد أوسع مع الإتحاد السوفياتي" (١١٥).

كان هذا أوّل تنويه وجدته في الوثائق السرية الألمانية عن تبدل مسرى الريح التي بدأت الآن تتحرك على بطئها، فوق كل من برلين وموسكو حتى قُدر لها خلال سنة واحدة أن تخلق آثاراً بعيدة المدى. كان هتلر - رغم نصره المذهل والإذلال الذي ألحقه لا بچيكوسلوفاكيا وحدها بل بالديمقراطيات الغربية - يرى (مونينخ) خيبة له. فلقد سمعه شاخت يقول للملتفين حوله من الحرس الأسود عند عودته الى برلين "هذا الرجل [يعني جمبرلين] أفسد عليّ دخولي الى براغ!" (١١٦) كان هذا ما أراده فعلاً وطول الوقت كما دأب على قوله لجنرالاته منذ المحاضرة التي ألقاها عليهم في الخامس من تشرين الثاني قبل عام واحد فقد أوضح حينذاك أن الإستيلاء على النمسا

١١٥- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٤ الص ٦٠٢-٦٠٤.

١١٦- شاخت "في شهادته بنورمبرگ [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج ١٢ ص ٥٦١].

وچيكوسلوفاكيا سيكون الخطوة الأولى الى الإندفاع نحو (المجال الحيوي) في الشرق وتصفية الحساب مع فرنسا في الغرب عسكرياً. وكما أسرّ لرئيس الوزراء المجري في ٢٠ أيلول أن خير الأمور هو "القضاء على چيكوسلوفاكيا" فهذا من شأنه "ان يكون الحل المرضي الوحيد". ولم يكن خائفاً إلا من أمر واحد: ان يستجيب الچيك لكل ما يطلب (انظر ما سبق).
أقبل چمبرلين الى (مونبخ) قابضاً على شمسيتته المشهورة جداً، وأرغم الچيك على الإستجابة لكل ما طلب وبهذا حرمه من الفتح العسكري. وهذا ما كان يعذب هتلر ويمضه كما دلت المدونات. وقد صرح قاداته بعد زمن "كان واضحاً لدي من الدقيقة الأولى أنني لن اكتفي بارض السوديت الألمان. كان ذلك حلاً جزئياً ليس غير"^(١١٧). وبعد بضعة أيام من (مونبخ) باشر الدكتاتور الألماني في أعمال خططه لتحقيق الحل التام.

١١٧- خطبة في القواد العامين ٢٣ تشرين الثاني ١٩٣٩ [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٣ ص ٥٧٣- الوثيقة PS٦٨٩].

الفصل الخامس

چيكوسلوفاكيا تقضي نحبها

- ١ -

لم تمرّ عشرة أيام من وضع أدولف هتلر توقيععه على إتفاقية (مونيخ)، وقبل تمام الإحتلال العسكري السلمي لأرض السوديت، خطّ رسالة مستعجلة سرّية جداً للجنرال كايتل رئيس (ق.ع.ق.م):

١- ماذا يحتاج من التعزيزات العسكرية في الموقف الراهن لسحق كل مقاومة چيكية في بوهيميا ومورافيا؟

٢- كم يتطلب من الزمن لإعادة تجميع ثم سوق قوات جديدة؟

٣- كم يتطلب من الزمن - للغرض نفسه إذا ما تمّ تنفيذه بعد التسريح المعنوي، والإجراءات المضادة؟

٤- كم يتطلب من الزمن لانجاز حالة الإستعداد التي كنّا عليها في يوم (١١) تشرين الأول؟^(١)
فأجاب (كايتل) على إستخبارات (الزعيم) ببرقية مؤرخة في ١١ تشرين الأول تتضمن أجوبة تفصيلية: لن يتطلب كثير من الزمن أو مقدار كبير من التعزيزات. فالموجود حالياً (٢٤) فرقة بضمنها ثلاث فرق مصفحة وأربع فرق آلية في أرض السوديت. واضاف كايتل "إن (ق.ع.ق.م) تعتقد أن بإمكانها القيام بالعمليات دون اللجوء الى تعزيزات نظراً الى علائم الضعف الحالية في المقاومة الجيكية"^(٢). وبعد ان تأكد هتلر من ذلك، أبلغ أفكاره هذه إلى قواده العامين بعد عشرة أيام.

برلين ٢١ تشرين الأول ١٩٣٨

(سرّي للغاية)

إن المهام المستقبلية للقوات المسلّحة، والإستعدادات للدخول في حرب تنجم عن هذه المهام سوف ابسطها انا بالذات في أمر توجيهي آخر:
والى أن تنفذ مطالب هذا الأمر يجب على القوات المسلحة أن تكون متأهبة في كلّ وقت للإحتمالات الفجائية التالية:

١- ملف "الخضراء" المبرز رقم ٤٨ [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٣ الص ٣٧٢-٣٧٤ - الوثائق ٣٨٨ PS].

٢- المرجع نفسه.

أولاً: حماية حدود ألمانيا.

ثانياً: تصفية ما تبقى من بلاد چيكوسلوفاكيا.

ثالثاً: إحتلال منطقة (مِمل Memel)

(مِمل) هي مرفأ على البلطيق يقطنه أربعون ألفاً من الأنفس فقدته ألمانيا وضم الى (ليتوانيا) بعد فرساي. وما دامت ليتوانيا أصغر وأضعف من النمسا وچيكوسلوفاكيا فإن الإستيلاء على البلدة لن يقوم صحوة في وجه (القيروماخت). وقد ذكر هتلر في أمره أنها ستضمّ ليس إلا، كما هو الأمر مع چيكوسلوفاكيا: يجب ان يكون بالإستطاعة إخضاع ماتبقى من چيكوسلوفاكيا في أي وقت إن باتت سياستها معادية لألمانيا".

إن الإستعدادات التي تتخذها القوات المسلحة لهذا الإحتمال ستكون أضيق نطاقاً بكثير مما أتخذ (للخضراء)، على انها يجب أن تضمن تأهباً أعلى وأدق على كل حال، بعد أن تم التخلي عن التعبئة المخططة. إن التنظيم وأمر المعركة، وحالة التأهب الخاصة بالوحدات المعدة لتلك الغاية يجب أن توضع في حالة السلم على قدم الإستعداد للقيام بهجوم مباغت بحيث تشلّ چيكوسلوفاكيا وتجردها من قابلية المقاومة المنظمة تماماً. الهدف هو إحتلال سريع (لبوهيميا ومورافيا) وقطع سلوفاكيا^(٣) عنها. يمكن قطع سلوفاكيا طبعاً بالوسائل السياسية. بحيث لا تعود حاجة الى إستخدام القطعات العسكرية الألمانية ولأجل هذه الغاية صدر الأمر الى وزارة الخارجية بالعمل لهذه الغاية. فراح رينتروب ومساعدوه طوال الأيام الأولى من تشرين الأول يضغطون على المجرين للإلحاح بطلب حصتهم من الأسلاب في سلوفاكيا لكن عندما اخذت الحكومة المجرية تتكلم عن الإستيلاء على سلوفاكيا كلها (لم تكن بحاجة الى إلحاح الألمان عليها فقد تحلبّ فمها وسال لعاب طمعها الشديد) وقف فلهمشتراسه حائلاً بينها وبين هذا. لأن لديه رأياً آخر في مستقبل هذا الأقليم. سبقت حكومة براغ بعد (مونرخ) بقليل فمنحت السلوفاكيين حكماً ذاتياً واسع النطاق. ونصحت وزارة الخارجية الألمانية أن "يتسامح" في هذا الحل مؤقتاً. اما للمستقبل فقد كانت فكرة الألمان هي تلك التي أجملها الدكتور (ارنست فويرمان Ernst Woermann) مدير الدائرة السياسية في وزارة الخارجية الألمانية إذ كتب يقول: في ٧ تشرين الأول: "ان سلوفاكيا المستقلة، قد تكون دولة ضعيفة من الناحية الدستورية ولذلك كان من الأفضل أن تكفى منها حاجة ألمانيا للتوسع والإستقرار في الشرق"^(٤).

هاهنا نقطة تحول جديدة للرايخ الثالث. فللمرة الأولى نرى هتلر يهيمّ بالإنتلاق الى إحتلال أراضٍ غير ألمانية. لقد ظل أكثر من ستة أسابيع يؤكد لچمبرلين سراً وعلناً أن أرض السودان هي آخر مطلب أقليمي له في أوروبا ومع أن رئيس الوزراء البريطاني كان قد خُذع بسذاجةٍ يحار المرء في فهمها ووثق بكلمة هتلر حالاً. إلا أن هناك بعض الأسباب قد تحمله على الإعتقاد أن الدكتاتور

٣- أمر هتلر التوجيهي المؤرخ ٢١ تشرين ١٩٣٨ [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٤ الص ٩٤٧-٩٤٨ - الوثائق ١٩٣٦].

٤- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٤ الص ٤٦.

النازي سيقف بعد هضمه الألمان الذين كانوا خارج حدود الرايخ في الماضي وأصبحوا الآن داخله. ألم بيد هتلر ويعيد بأنه لا يريد جيكيماً واحداً في الرايخ الثالث؟ ألم يشرح في (كفاحي) ويردد شرحه في عدد كبير من خطبه تلك النظرية النازية: أن النقاء العنصري هو عامل القوة الأوحده ولذلك يجب ألا يضم شعب اجنبي الى الألمان ولاسيما الشعوب السلافية؟ أجل لقد أكد ذلك. لكنه بشر ايضاً في عدد كبير من صحائف كفاحي -ولعل أهل لندن نسوا ذلك- بأن مستقبل ألمانيا يتوقف على إحتلال "المجال الحيوي = ليتبرزاوم" في الشرق وهي الرقعة من الأرض التي عاش فيها السلاف أكثر من ألف سنة.

-٢-

أسبوع الزجاج المحطم

في خريف ١٩٣٨ بلغت ألمانيا النازية نقطة تحول أخرى وحدث ذلك في غضون الفترة التي أطلق عليها في أوساط الصحافة أسبوع الزجاج المحطم.

في السابع من تشرين الثاني أطلق شاب ألماني يهودي لاجيء يبلغ السابعة عشرة ويدعى هرشل غراينشيان Herchel Grynszpan النار على السكرتير الثالث للسفارة الألمانية بباريس في دائرته فأرداه قتيلاً. كان والد القاتل أحد الآلاف العشرة من اليهود الذي طُردوا الى بولندا منذ فترة وجيزة، ونقلوا بلوريات حمل كتلاً كتلاً. فانتقاماً من هذا وللإضطهاد العام الذي شُنَّ في ألمانيا النازية ضد أبناء جلدته، قصد السفارة الألمانية عازماً على قتل السفير الكونت يوهانس فون فلچيك Johannes von Welczeck، لكن السكرتير الثالث الفتى (ارنست فون راث Ernest von Rath) إستقبله للاستفسار عما يريد، فأرداه قتيلاً. ولعب القدر لعبته في مقتل (راث) لأن هذا الفتى كان ممن يشته بهم الكشتاوي وقد وضعه تحت المراقبة بسبب معاداته للنازية. كما وثم حقيقة لايرقى اليها أي شك، وهو انه لم يسهم مطلقاً في أعمال الاضطهاد السامي الذي مارسه حكاهم بلاده.

في ليلة ٩/١٠ من تشرين الثاني، وبُعيد ان ختم زعماء النازي برئاسة هتلر وگورنگ الاحتفال بالذكرى السنوية لإنقلاب مشرب البيرة في مونيخ. مثلت على مسرح الرايخ الثالث افطع مذبحه شهدتها البلاد حتى ذلك التاريخ. وزعم الدكتور گوبلز ومعه الصحافة الألمانية الخاضعة لرقابته أنها كانت (تظاهرة تلقائية عبرت عن رد فعل الشعب الألماني المستاء لأنباء الإغتيال في باريس) إلا ان الوثائق التي انكشفت لنا بعد الحرب اوضحت لنا كم كانت تلك (التظاهرة) تلقائية! وكم كانت المذبحة التي تلتها عفوية^(٥) تلكم الوثائق كانت من أدعى الأوراق السرية للعهد النازي قبل الحرب

٥- أوامر (هيدريخ) الى الشرطة لتنظيم المذبحة [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٥ الص ٧٩٨-٨٠١، وثيقة ٣٠٥١ PS] تقرير هيدريخ المرفوع الى گورنگ عن الأضرار وعدد القتلى والجرحى [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٥ ص ٨٥٤ =

خزياً يتضح من التقرير السري الذي دوّنه قاضي الحزب (الرائد فالتر بوخ) أن الدكتور غوبلز أصدر في مساء اليوم التاسع من تشرين الثاني تعليمات عن وجوب "تنظيم وخروج"، "مظاهرات عفوية" في ساعات الليل. إلا أن المنظم الحقيقي هو (راينهاردت هيدريخ) المكروه البالغ (٣٤) سنة من العمر، والذي يلي (هملر) مباشرة في قيادة الحرس الأسود، ويتزعم شرطة الأمن والكشتايبو. وإن أوامره الحرفية بالهاتفون البرقي في أثناء ساعات الليل كانت من بين الوثائق الألمانية المستولى عليها. في الساعة الواحدة والدقيقة العشرين بعد نصف الليل وهو العاشر من تشرين الثاني طيّر هيدريخ رسالة برقية عاجلة إلى كل مقرات ومخافر شرطة الدولة في سائر أنحاء ألمانيا مدناً وقرى وإلى شرطة الأمن يأمرهم فيها أن يتعاونوا تعاوناً وثيقاً مع زعماء الحزب وقادة الحرس الأسود. "للمداولة في تنظيم المظاهرات".

(أ) يجب أن تتخذ الإحتياطات الخاصة بحماية حياة الألمان وممتلكاتهم فقط وإن تكون خارج نطاق الخطر (فمثلاً تحرق كنائس اليهود عندما لا يكون ثم خطر من انتشار النار إلى المحلات المجاورة)^(٦).

(ب) يسمح بتدمير مساكن اليهود ودوائر أعمالهم، لكن يمنع السلب والنهب...

(ج) ... ٢- إن التظاهرات التي ستقام يجب أن تتركها الشرطة ولا تتعرض لها...

٥- لما كان سيجري إعتقال عدد كبير من اليهود وبخاصة أغنيائهم بحيث لا تتسع السجون الحالية لهم... فيجب الإتصال حالاً بمعسكرات الإعتقال الميسورة فور إعتقالهم، لإرسالهم إليها حال ماتسمح الظروف وبأسرع ما يمكن.

كان ليلاً مربعاً لكل ألمانيا. أحرقت فيه معابد اليهود ومنازلهم وحوانيتهم والتهمتها النار وقتل رمياً بالرصاص عدد كبير منهم رجالاً ونساءً وأطفالاً، أو ذبحوا ذبحاً أثناء محاولتهم الخلاص من النار وهم أحياء. وقدم (هيدريخ) تقريراً أولياً سرياً إلى غورنك في اليوم التالي ١١ تشرين الثاني. "إن مقدار التدمير الذي حصل لمنازل اليهود وحوانيتهم لا يمكن الآن حصره بالأرقام... (١٧١) منزلاً للسكنى تم إحراقه أو تدميره، و(٨١٥) دكاناً لقيت دماراً كاملاً، وهو جزء فقط يعطي فكرة عن الدمار الحاصل، وهذا بالنسبة إلى إحراق المساكن فقط... (١١٩) معبداً أشعلت فيها النار... و(٧٦) معبداً آخر دمرت تدميراً كاملاً... ألقى القبض على (٢٠٠٠) يهودي، وهناك إخبار عن ستة وثلاثين قتيلاً. والذين اصيبوا بجراح خطيرة بلغ عددهم ستة وثلاثين أيضاً. والقتلى والجرحى، هم يهود..."

= وثيقة PS ٣٠٥٨ تقرير (فالتر بوخ) عن المجزرة [مؤامرة النازيين... ج ٥ الص ٨٦٨-٨٧٦] يورد الرائد بوخ تفاصيل بشعة عن القتل الكثيرة ويولم غوبلز لمواصلة ارتكاب الجرائم: سجل إختزالي عن إجتماع غورنك (١٢) تشرين الثاني) بأعضاء الحكومة وموظفيها الكبار وممثلي شركات التأمين [مؤامرة النازيين... ج ٤ الص ٤٢٥-٤٥٧] إن التقرير غير كامل على أن البقية تتألف من عشرة آلاف كلمة.
٦- القوسان وردا في الأصل.

ويعتقد أن عدد قتلى اليهود في تلك الليلة يزيد أضعافاً مضاعفة عن الأرقام الأولية. (فهيديرخ) نفسه أعلن بعد تقريره السالف بيوم واحد أن عدد الحوانيت اليهودية المنهوبة بلغ سبعة آلاف وخمسمائة. وكان ثمة عدد من حالات هتك العرض. إعتبرها تقرير قاضي الحزب (فالتر بوخ) أشد من القتل وأنكى، لأنها خرق لقوانين نورمبرگ العنصرية التي تمنع الإتصال الجنسي بين السادة واليهود. هؤلاء المجرمون طردوا من الحزب وأحيلوا الى المحاكم المدنية. وذكر (الرائد بوخ) أن أعضاء الحزب الذي قاموا بأعمال القتل (لا يمكن محاسبتهم) لأنهم نفذوا الأوامر ليس إلا. وكان في هذه النقطة صريحاً للغاية: إذ كتب يقول "تدرك جماهير الشعب الى آخر رجل، ان الإنذاعات السياسية التي حصلت في التاسع من تشرين الثاني. انما نظمها الحزب ووجهها بنفسه سواء أنكرنا أم إعتبرنا^(٧).

لم يكن القتل والحرق والسلب، الكوارث الوحيدة التي حلت باليهود الأبرياء الألمان، بسبب مقتل (فون راث) في باريس، فقد وجب عليهم أن يدفعوا أيضاً ثمن تدمير ممتلكاتهم نفسها، وبناءً على ذلك صادرت الدولة مبالغ التأمين المستحقة لهم على الممتلكات المدمرة. كما أنهم أجبروا على دفع غرامة قدرها (بليون مارك!) "عقوبة لهم على جرائمهم الشنعاء الخ..." كما قال غورنك. وتم فرض هذه العقوبات التعبئية في أغرب إجتماع عقده بضعة عشر وزيراً في الحكومة وموظفاً كبيراً، برئاسة الفيلد مارشال البدين في ١٢ تشرين الثاني. وقد وصلنا جزء من محضر هذا الإجتماع مدوناً بطريقة الإختزال.

وواجه عدد من شركات التأمين الألمانية الإفلاس. في حالة قيامهم بدفع مبالغ بوليصات التأمين المستحقة على البنائات المتقوصة والمحترقة (وأغلبها ملك لحلال للسادة الألمان وإن كان يشغلها اليهود) والبضائع التي دمرت أو تلفت. لقد بلغ مجموع التعويضات الكلية عن زجاج النوافذ وحده، خمسة ملايين مارك (مليون وربع مليون دولار)، كما قال هر هيلگارد Hilgard ممثل شركات التأمين لگورنك عندما أنتدب لمراجعة السلطات، وزاد على ذلك بقوله أن معظم قطع الزجاج التي يجب التعويض بمثلا، هي بضاعة أجنبية ينبغي إستيرادها من الخارج بالعملة الصعبة التي لا تملك ألمانيا منها إلا النزر اليسير.

فصرخ غورنك غاضباً: (لا يغيب عن الذهن أنه كان قيصر الإقتصاد الألماني الى جانب أمور أخرى):

- لا يمكن أن يستمر في هذا! لن تبقى لنا ربح إن ظلت الأمور سائرة بهذا الشكل! مستحيل!

٧- يقدم تقرير (الرائد بوخ) صورة صادقة للعدالة في الرايخ الثالث فقد جاء فيه: "في القضايا التالية الخاصة بقتل اليهود. اوقفت التعقيبات القانونية بحق المتهمين أو فرض عليهم عقاب خفيف"، ثم يثبت عدداً كبيراً من أمثال هذه "القضايا" يذكر فيها أسماء القتلى والقتلة "عضوا الحزب فرولينك Fruelling وأوگست August بسبب قتلها "گولدربرگ Goldberg الزوجين. ويسبب قتلها اليهودي سيناسون Sinashn... أعضاء الحزب بيرنك Behring وويلي Willi وهايكة Heike ويوزف Josef لقتلها اليهودي روزنهايم Rosenheim واليهودية زفنيسكي Zwnicki أعضاء الحزب شميدت وهيندريخ وارنست ومكلر Meckler لإغراقهم اليهودي إلسوفر Ilsoffer الخ..."

ثم التفت الى (هيدريخ) وصرخ:

- وددتُ لو قتلْتُ مائتي يهودي بدلاً من إتلاف هذه الأشياء الثمينة^(٨).

أجاب هيدريخ مدافعاً عن نفسه "القتلى خمسة وثلاثون".

لم يكن كل الحديث الذي إحتواه التقرير الإختزالي الناقص (ذو العشرة آلاف كلمة) جدّي اللهجة. فقد إستمتع غورنك وگوبلز بمزاحٍ كثيرٍ حين كانا يتبادلان الرأي في إخضاع اليهود الى إضطهاداتٍ أخرى. قال وزير الدعاية بضرورة إستخدام اليهود لتسوية معابدهم بالأرض ورفع الأنقاض عن المواقع، لجعلها ساحات لوقوف السيارات وأمر ان يطرد اليهود من كل مؤسسة: من المدارس، والمسارح والسينمات، والمصايف العامة والحدايق العامة، حتى من الغابات الألمانية.

واقترح أن تُبنى عربات قطار خاصة لليهود بممراتٍ خاصة على أن لا يشغلوها إلا بعد أن يجد كلّ المسافرين الآريين مقاعد لهم.

فضحك غورنك وقال:

- طيب، وإذا كان القطار مكتظاً، فسنركل اليهودي الى الخارج وندعه يجلس وحيداً في ممر دورة المياه.

وعندما اقترح گوبلز بكلّ جد أن يحظر على اليهود غشيان الغابات أجاب (گورنك):

- سنخصص لليهود أجزاء معينة من الغابات وعلينا أن نهتم بإدخال أنواع معينة من الحيوانات التي تشبههم - وللوعل أنف مقوّسٍ شبيه بأنوفهم - ليصبحوا متأخين.

بأمثال هذه الأحاديث وأنكى منها بكثير كان قادة الرايخ الثالث يمضون أوقاتهم في ١٩٣٨ العvisية.

إلا أن مسألة من سيدفع تعويضاً عن الممتلكات المخربة البالغة (٢٥) مليون مارك والتي تسببت عن مجزرة أمرت بها ونظمتها الدولة كانت مسألة خطيرة، وبخاصة لگورنك المسؤول عن سلامة إقتصاد ألمانيا النازية. أشار (هيلگارد) ممثلاً عن شركات التأمين- بأن عدم إيفاء الشركات ببوليصات التأمين لليهود ستهوي بالثقة العامة في التأمين الألماني الى الحضيض في الداخل وفي الخارج. ومن الجهة الثانية، فهو لا يدري كيف ستمكن شركات التأمين الصغيرة من الدفع دون أن تفلس.

قام (گورنك) بحلّ المشكلة حلاً سريعاً. ستقوم الشركات بدفع بوليصاتها لليهود بالتمام والكمال لكن الدولة ستصادر المبالغ المدفوعة ثم تعوّض الشركات عن خسائرها. إلا أن ذلك لم يقنع السيّد (هيلگارد) الذي ظهر من وقائع الحديث أنه كان يشعر شعور الذي وقع على عصبة من المجانين.

گورنك: سيتسلّم اليهود مبالغ التأمين من الشركات، إلا انها ستصادر. وسيبقى شيء من الفائدة

٨- عندما سأل القاضي جاكسن في نورمبرگ، گورنك أثناء إستجوابه هل قال هذا حقاً؟ أجاب "اجل قلت هذا في حالة هياج عصبي وثورة سخط ولم أكن أعنيها جدياً" [محاکمات مجرمي الحرب الکبار] ج ٩ ص ٥٣٨.

لتلك الشركات لأنها لن تعوّض عن كل الأضرار. هر هيلگارد!، يجب أن تعد نفسك سعيد الخطّ جداً.

هيلكارد: ليس من سبب يجعلني سعيد الخطّ. فالواقع إنك تعتبر عدم دفعنا تعويضاً عن كل الأضرار! فائدة لنا

لم يعتد الفيلد مارشال مثل هذا القول، فبادر بإخماد أنفاس رجل الأعمال الحائر. غورنك: لحظة واحدة! إن كنت ملزماً قانوناً بدفع خمسة ملايين، وعلى حين غرة يظهر لك ملاكٌ شبيه نوعاً ما بشكلي هذا البدين ويقول لك احتفظ لنفسك بمليون في سبيل الله، أفلا تعتبر ذلك فائدة؟ كنت أودّ لو تناصفنا خمسين بالمائة لي وخمسين بالمائة لك! أو ما يحلو لك أن تسميه. حسبي أن انظر اليك لأرى كيائك كله يهتزّ فرحاً وإرتياحاً. إنك فزت بغنيمة طيبة! كان مدير التأمين بطيئاً في فهم الحلّ.

هيلكارد: سيكون كل شركات التأمين الطرف الخاسر. تلك هي الحقيقة. وستظلّ كذلك. وليس ثم من يقنعني بخلاف ذلك.

غورنك: إذن لماذا لم تحتاطوا لذلك حتى يقلّ عدد النوافذ المهشمة! ضاق الفيلد مارشال ذرعاً بهذا الرجل ذي العقلية التجارية فصرفه، واختفى السيد هيلكارد في زوايا التاريخ ولم يعد له أثر.

وإجترأ ممثل لوزارة الخارجية أن يقترح لزوم مراعاة شعور الرأي العام الأمريكي عند اتخاذ إجراءات لاسامية أخرى ماثلة^(٩). فأتار هذا عاصفة هياج لدى غورنك فصاح: "قبحها الله! بلاد الأنذال... دولة رجال العصابات!".

وبعد نقاش طويل آخر اتفق أن يتمّ حلّ المشكلة اليهودية بالشكل التالي: نقل مكليات اليهود كلها ومصالحهم التجارية برمته، وبضمنها الجواهر والحلي والتحف الفنية - إلى أيدي آرية، وتعويضهم عنها جزئياً بسندات حكومية إسمية غير قابلة للتداول أو البيع، يمكنهم التصرف بفائدتها دون قيمتها الكلية. وترك للجنة خاصة تشكّل فيما بعد، دراسة مسألة عزل اليهود ومنعهم من دخول المدارس والمصايف والحدائق العامة والغابات الخ... والبحث في إتخاذ أحد حلين: إما طردهم خارج البلاد بعد تجريدهم التام من ممتلكاتهم أو حصرهم في أحياء حقيرة خاصة (كيتو Ghettos) حيث

٩- بعد مقابلة السفير في برلين هيو ويلسن Hugh Wilson ، لغورنك بيومين، إستدعاه الرئيس روزفلت في ١٤ تشرين الثاني "لإجراء مشاورات" ولم يعد بعدها إلى منصبه. وكتب السفير الألماني في واشنطن (هانس ديكهوف) إلى برلين في ذلك اليوم نفسه "إن أعصاراً شديداً قد ثار هنا" نتيجة للمذبحة في ألمانيا، وقد استدعي أيضاً في اليوم نفسه ولم يعد بعدها أيضاً، وفي تشرين الثاني. نصح القائم بالأعمال الألماني في واشنطن حكومته برسالة جفرية "أنه بالنظر إلى العلاقات المتوترة وعجزنا عن ضمان حفظ المواد السرية في السفارة، فهو يرى أن تنقل الأضابير السرية إلى برلين" وقال "إن الأضابير ضخمة ومقدارها كبير وليس في الإمكان إتلافها بسرعة كافية إذا اقتضت الحاجة". [وثائق من سياسة ألمانيا الخارجية ج ٤ الص ٦٣٩-٦٤٩].

يصبحون مصدرًا لعمل السخرة.

وصور (هيدريخ) المسألة قبيل ارفضاض الاجتماع: "رغم إقصاء اليهود عن الحياة الاقتصادية فقد بقيت المشكلة كما هي وحلها الوحيد هو إخراج اليهود من ألمانيا"، فما كان من الكونت (شفيرين فون كروسسيك) وزير المال والباحث الرودسي Rhodis السابق الذي يفخر بأنه يمثل "ألمانيا الطاهرة التقليدية". في الحكومة النازية، ان وافقه بقوله "علينا ان نفعل كل شيء لدفع اليهود الى البلاد الأخرى" وأما عن الحي الخاص فقد قال هذا النبيل الألماني بخنوع (لاأتصور مشروع الحي الخاص شيئاً لطيفاً جداً. إن فكرة الحي الخاص ليست مقبولة ذوقاً".

وفي الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين عصراً ختم غورنك الاجتماع بعد إنعقاد دام زهاء أربع ساعات: سأختم الاجتماع بهذه الكلمات: إن اليهود الألمان سيكتتبون بمبلغ بليون مارك عقاباً لهم على جرائمهم الشنعاء وغير ذلك. وهو أنجع دواء. ولن يرتكب (الخنزير) بعد هذا أي جريمة قتل. وأنتهز الفرصة للقول بأني لأرغب أن أكون يهودياً في ألمانيا".

وكان ما سيبص هذا الرجل ودولته وزعيمها في المستقبل القريب على رؤوس اليهود أدهى وأمر. في ليلة التاسع من تشرين الثاني ١٩٣٨، الملتهبة بالنيران أدار الرايخ الثالث وجهه عمداً وإنعطف الى درب بربري مظلم لا رجوع عنه قط. قتل كثير من اليهود وعدبوا وسرقوا من قبل، إلا ان تلك الحوادث -عدا ما أرتكب منها في معسكرات الإعتقال- كانت فردية معظمها من عمل أوباش ذوي القمصان الرمادية دفعتهم اليها ساديتهم وإيغالهم في الإجرام المتأصل في حين بقيت سلطات الدولة تتفرج أو تغض الطرف عنها. أما الآن فالحكومة الألمانية هي التي نظمت المجزرة الواسعة واشرفت على تنفيذها. ان القتل والنهب وحرق المعابد والدور والخوانيت في تلك الليلة كان من عملها. كذلك جاءت البيانات الرسمية الثلاثة المنشورة في الجريدة الرسمية Reichsgesetzblatt -نتيجة اجتماع غورنك- يفرض (بليون مارك) غرامة على المجتمع اليهودي. بإقصائهم عن عالم الإقتصاد. سلبهم ما تبقى من مقتناتهم ودفعهم الى الأحياء الفقيرة الخاصة- بل الى ما هو أسوأ. ثار ضمير العالم وإشماز من هذه البربرية في بلاد فخرت قروناً ما أطولها بالثقافة المسيحية والإنسانية واثارت ثائرة هتلر للموقف العالمي واقنع نفسه إن ذلك لا يبرهن إلا على مدى قوة "المؤامرة اليهودية العالمية".

وبالرجوع الى الوراء يسهل علينا أن نرى أن الفظائع التي أرتكبت بحق يهود ألمانيا في ٩ تشرين الثاني والإجراءات الوحشية البربرية التي اتخذت ضدهم مباشرة بعد المجزرة. انما كانت نذير شؤم وعلامة ضعف قتالة أدت بالدكتاتور ونظامه وشعبه الى الدمار التام بالأخير. إن الإدلة على جنون هتلر تبرز بين مئات من صفحات هذا التاريخ إلا أنه كان حتى هذا اليوم قادراً على كبح نوباته عادةً في المواقف الحرجة من فترة صعود نجمه وإرتفاع حظ بلاده. في مثل هذه المواقف، كانت عبقريته في الإقدام على العمل الجريء بعد حساب دقيق للنتائج عادةً، قد أنالته نجاحاً هائلاً إثر نجاح هائل لكنه

الآن كما تبين من التاسع من تشرين الثاني وما تلاه من أحداث بدأ يفقد ضبط النفس وتغلبت عليه لوثته. في التقرير الإختزالي عن إجتماع (گورنگ) في ١٢ تشرين الثاني يكشف أن هتلر كان المرجع الأخير المسؤول عن محرقة ليلة تشرين. فهو الذي صادق على تنفيذها، وما كانت ستجري لولا موافقته، وهو الذي ألح على (گورنگ) بالمضي قدماً في تطهير الحياة الألمانية من اليهود. من هذا التاريخ فصاعداً لن يعود يبدو على سيد الرايخ الثالث إلا القليل من ضبط النفس الذي طالما أنقذه من مآزق في الماضي. ومع أن عبقريته... وعبقرية بلاده كانت ستؤدي به الى فتوحات أخرى مذهلة فإن البذور السامة لتدمير النفس الأخير بذرت الآن لتقضي فيما بعد على الدكتاتور وعلى بلاده.

كان مرض هتلر معدياً. وقد راحت عدواه تسري في الوطن كأنها جرثومة داء. والمؤلف يشهد شخصياً من تجاربه الخاصة أن عدداً كبيراً من الألمان لم يقل سخطهم وإستنكارهم لفاجعة ٩ تشرين عن إخوانهم الأمريكيين والإنكليز والأجانب الآخرين. ولم يفتح أحد فمه محتجاً بصورة علنية لا رؤساء الكنائس المسيحية المختلفة، ولا الجنرالات ولا أي (معبر) عن وجهة نظر الألمان الطيبين. لقد انحنوا لما نعته الجنرال فون فريتش "بالقدر المحتوم" أو "مصير ألمانيا".

وسرعان ما تكهّر جو "مونيخ" وتشقق. إذ راح هتلر ينثر خطباً حادة لاذعة في (سار بروكن وثاير ومونيخ) في ذلك الحريف ينذر بها العالم الخارجي وبخاصة الإنكليز، بالأل يتدخلوا في شؤون غيرهم ويقصروا إهتمامهم في أمورهم الخاصة. ويتركوا التدخل في "مصائر الألمان، داخل حدود الرايخ". وزعق بأعلى صوته إن هذا المصير هو من شأن ألمانيا وحدها. ولم يمر بجمبرلين زمن طويل ليصحو على حقيقة الطينة التي جبلت بها الحكومة الألمانية بعد أن حاول ما حاول في ترصيتها وبذل في ذلك ما بذل. وفيما كانت السنة ١٩٣٨ الخاملة تخلي السبيل للسنة ١٩٣٩ المشؤومة بدأ رئيس الوزراء يتفهم ماذا يدبر هتلر وراء الستار^(١٠)، بعد أن حاول جاهداً وبصورة شخصية إرضاءه لمصلحة السلم الأوروبي.

لم يمر زمن طويل على (مونيخ) إلا وكان ريبنترروب في (روما). وقد ذكر (تشيانو) في يومياته المؤرخة في ٢٨ تشرين الأول^(١١)، أن فكره قد "استقر" على الحرب: [أبلغ وزير الخارجية موسوليني وتشيانو]، إن الزعيم مقتنع بالأل مفر لنا من الإعتماد على الحرب ضد الديمقراطية الغربية في غضون ثلاث سنوات أو أربع على أغلب الإحتمال... إن الأزمة الجيكية أظهرت مدى قوتنا! إننا نمتاز عليها بالمبادأة ونحن سادة الموقف. ولا يمكن أن نتعرض لهجوم قط. والموقف العسكري ممتاز: حيث أننا نتمكن ابتداءً بأيلول [١٩٣٩] من مواجهة أي حرب مع الديمقراطية الكبرى^(١٢).

١٠- حذر اللورد هاليفاكس الرئيس زوزفلت سراً في ٢٨ كانون الثاني ١٩٣٩ بقوله: "منذ تشرين الثاني ١٩٣٨ والدلائل تشير الى أن هتلر يخطط لعدوان آخر في ربيع ١٩٣٩، وإن هذه الدلائل تتضح تدريجياً". وأضاف يقول "إن التقارير تشير أيضاً إلى أن هتلر بتشجيع من ريبنترروب وهملر وآخرين يفكر في هجوم على دول الغرب، كعمل ميدني، يتلوه عمل آخر في الشرق. (و.س.ب.خ) السلسلة الثالثة ج ٤ رقم ٥).

١١- يوميات تشيانو المخفية: الجزء المؤرخ ٢٨ تشرين الأول ص ١٨٥. أوراق تشيانو الدبلوماسية الص ٢٤٢-٢٤٦.

١٢- هناك نص ألماني لمباحثات ريبنترروب-تشيانو في روما دونها شميدت، تؤيد إتجاه ريبنترروب الى الحرب. وتورد =

كان ريبنتروب "متعجرفاً، سخيلاً، ثرثاراً" بنظر وزير الخارجية الإيطالي الشاب. وبعد وصفه في يومياته بهذا، أضاف يقول: "يقول الدوتشي ما عليك إلا أن تلقي نظرة على رأسه لترى أنه صغير الدماغ". جاء وزير الخارجية الألماني إلى روما ليقنع موسوليني بتوقيع حلف عسكري ثلاثي بين ألمانيا وإيطاليا واليابان. وكان الطليان قد زودوا بمسودة له في مونيخ. إلا أن موسوليني إستمهل، لأنه لم يكن مستعداً بعد لإغلاق الباب على فرنسا وبريطانيا - كما ذكر (تشيانو).

وكان هتلر طوال ذلك الحريف يقلب الفكر في أمل محاولة فصل فرنسا عن حليفها عبر القتال. وعندما إستقبل في ١٨ تشرين الأول السفير فرانسوا بونسييه بزيارة وداعية في مقره الخلوي "عش النسر" على خائق الجبل فوق برختسگادن^(١٣). طفق يهاجم بريطانيا العظمى هجوماً عنيفاً. ووجده السفير شاحب الوجه تعلوه الغضون من فرط الإرهاق، إلا أنه لم يكن مكدوداً إلى الحد الذي يمنعه من شتم (ألبين). ان بريطانيا تتجاوب بأصداً "التهديد والدعوة إلى السلاح" إنها أنانية "تتخذ مظهر المتعالي". إن بريطانيا هي التي تقضي على روح (مونيخ)، وما إلى ذلك... أما فرنسا فتختلف عنها، وهو يرغب في تقوية عرى الصداقة والعلاقات الودية معها. وإثباتاً لنيّته هذه يعرب الآن عن إستعداده لتوقيع معاهدة صداقة تضمن لها حدودها الحالية. (وبهذا يؤكد ثانية تخلي ألمانيا عن كل مطلب في الألزاس واللورين) واللجوء إلى تسوية أي خلافات مقبلة بالتشاور.

ولم يطل الأمر و أبرمت المعاهدة في باريس في ٦ كانون الأول ١٩٣٨. من قبل وزيري خارجية ألمانيا وفرنسا. في تلك الفترة كانت قد صحت بعض الشيء من الخوف الإندحاري الذي سادها أيام (مونيخ). وإتفق أن كان المؤلف في باريس عندما وقّعت الوثيقة ولاحظ الجو الصقيعي الذي خيم على مختلف الأوساط. وعندما إجتاز ريبنتروب بسيارته، كانت الشوارع خالية تماماً. ورفض حضور المراسيم الرسمية وحفلات الإستقبال التي اقيمت للزائر النازي، عدد من أعضاء الوزارة وآخرون من أبرز الشخصيات في عالمي السياسية والأدب الفرنسيين ومنهم رئيساً مجلسي النواب والشيوخ الشخصيتان الشهيرتان: مسيو جانيني Jeanneney ومسيو هريو Herriot.

من هذا الإجتماع بين (بونيه وريبنتروب) نجم سوء تفاهم قدر له دورٌ خاص في الأحداث المقبلة. إدعى الوزير الألماني أن (بونيه) أكد له ان فرنسا ما عادت تهتم - بعد مونيخ - بشرق أوروبا. فترجم

= عبارة قالها "ان على ألمانيا وإيطاليا ان تنهيا للحرب مع الديمقراطيات الغربية... بين ساعة وساعة" وقال لتشيانو ايضاً ان مونيخ كشفت عن قوة أنصار العزلة في الولايات المتحدة لذلك ليس ثم ما يخشى من أمريكا (وثائق سياسة ألمانيا الخارجية ج ٤ الص ٥١٥ - ٥٢٠).

١٣- هذا المقر الخلوي العجيب كلف مبالغ ضخمة وبني في ثلاث سنين وهو صعب المرتقى. لقد شق له طريق في صخور الجبال طوله عشرة أميال، طرق شديدة الإنحدار مخيفة، تنتهي بنفق تحت الأرض نقر في الصخر نقراً. وبعد إجتيازه يؤخذ القادم إلى مصعد كهربائي بارتفاع (٣٧٠ قدماً) حتى يصل إلى مسكن بني في قمة الجبل. والمرء يشاهد منه منظرًا بأسر الألبان حقاً. فجبل الألب وسالزبرگ تبدو منه على مبعده. وصفه فرانسوا بونسييه فيما بعد وتساءل "هل كان هذا المنسك من عمل بشر سوي العقل أو لشخص يعذبه الجنون وتطارده رؤى السلطة، والوحدة؟

هذا بما معناه أن فرنسا ستطلق يد ألمانيا حرة في تلك الأصقاع ولاسيما فيما فضل من چيكوسلوفاكيا وفي بولندا. وأنكر (بونييه) ذلك. وبالرجوع الى ما سجله شميدت في الاجتماع: صرح (بونييه) جواباً على طلب ريبنتروب في أن يعترف بمجال نفوذ ألماني في الشرق. بأن "الأحوال قد تغيرت تغيراً أساسياً منذ (مونيخ)"^(١٤).

هذه الملاحظة الغامضة مطّھا الوزير المرواغ مطّاً فجعلها بياناً ذا مدلول واضح أبلغه لهتلر بالشكل التالي: "في باريس صرح (بونييه) انه ما عاد مهتماً في المسائل المتعلقة بالشرق". إن إستسلام فرنسا السريع في (مونيخ) أقنع هتلر بهذا بينما لم يكن الأمر كذلك.

-٣-

سلوفاكيا "تنال" "إستقلالها"!

ماذا تمّ من الضمانة التي تعهد هتلر في (مونيخ) بإعطائها للبقية الباقية من چيكوسلوفاكيا؟ عندما إستفسر (روبرت كولوندر Robert Coulondre) السفير الفرنسي الجديد في برلين من (فايسيك) في ٢١ كانون الثاني، أجابه أن مصير چيكوسلوفاكيا أصبح بيدى ألمانيا. وانه يرفض فكرة ضمانة أنكلو-فرنسيّة. وقبلها في ١٤ تشرين الثاني جاء وزير الخارجية الجيكي الجديد (فرانتيسيك شفالكوفسكي Frantisek Chvalkovsky) يستجدي بذلة بعض الفتات من يد هتلر في مونيخ، واستفسر عما اذا كانت ألمانيا ستنضم الى فرنسا وإنكلترا في الضمانة التي ستعطى لحدود بلاده المنكمشة، فأجابه هتلر متهمكاً أن "الضمان الأنكلو-فرنسي لايسوي شروى نقيير... وأن الضمان الفعال الوحيد هو الضمان الألماني"^(١٥).

ومع هذا، أقبل عام ١٩٣٩ ولم تعط ألمانيا الضمان. والسبب بسيط، إن (الزعيم) لاينوي إعطاءه لأن ضماناً كهذا يعرقل خططه التي بدأ برسمها حال إنتهائه (من مونيخ). فعماً قريب لن يكون لچيكوسلوفاكيا وجود أصلاً ليتم ضمانها، وكبداية لهذا يجب حمل سلوفاكيا على الإنفصال.

بعد مونيخ ببضعة أيام استقبل گورنگ في ١٧ تشرين الأول الزعيمين السلوفاكيين فرديناند دوركانسكي Ferdinand Durckansky و(ماش Mach) وزعيم الأقلية الألمانية في سلوفاكيا (فرانز كارماشين Franz Karmasin) الذي كان نائب رئيس وزارة سلوفاكيا ذات الحكم الذاتي الجديدة. وأكدوا للفيلد مارشال بأن مايطمح اليه السلوفاك في الحقيقة هو "الإستقلال التام مع روابط متينة جداً، إقتصادية وسياسية وعسكرية مع ألمانيا". وفي مذكرة سرية بالتاريخ نفسه في وزارة الخارجية الألمانية

١٤- شميدت المرجع السالف ص١١٨. رؤوس أقلامه عن الاجتماع في وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ ص٤٧١.

١٥- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ الص ٦٩-٧٢.

ما يشير الى ان (گورنگ) قرر أن من الضروري دعم طلب إستقلال سلوفاكيا "ان دولة چيكية ناقصة سلوفاكيا ستكون تحت رحمتنا أكثر من قبل وبصورة تامة. وقاعدة جوية في سلوفاكيا للعمليات في الشرق، هو شيء جد مهم". تلك كانت آراء گورنگ في القضية في منتصف تشرين الأول^(١٦). علينا هنا أن نتبع خطين مزدوجين في الخطة الألمانية: فصل سلوفاكيا عن براغ، والتهيؤ لإبتلاع ما تبقى من الدولة بالإحتلال العسكري للأراضي الجيكية: بوهيميا ومورافيا. رأينا أن هتلر أمر (الغيرماخت) في ٢١ تشرين الأول ١٩٣٨ أن يكون مستعداً للقيام بتلك التصفية^(١٧). وفي ١٧ كانون الاول أصدر الجنرال كايتل ما أطلق عليه (ملحق بالأمر التوجيهي المؤرخ في ٢١ تشرين الأول): -سري جداً-

إلحاقاً بـ"تصفية ما تبقى من الدولة الجيكية" أصدر الزعيم الأوامر التالية:
- تهيئ العملية على إفتراض عدم قيام مقاومة تذكر.
- للعالم الخارجي يجب أن تبدو وبشكل واضح، عملاً سلمياً محضاً ليس فيه أي صفة حربية.
لذلك يجب أن تقوم بالعملية القوات المسلحة الموجودة زمن السلم (فقط). دون تعزيز يجري لها عن طريق النفير^(١٨).

راحت الحكومة الجديدة الجيكوسلوفاكية الموالية الألمان التي تحاول جاهدة إرضاء هتلر تدرك في بداية ١٩٣٩ أن اوزة البلاد قد طبخت. وقبل عيد الميلاد قامت الحكومة الجيكية زيادةً في خطب ودّه بحلّ الحزب الشيوعي وفصل جميع المعلمين اليهود من المدارس الألمانية. وفي ١٢ كانون الثاني بعث وزير الخارجية (شفالكوفسكي) برسالة الى وزارة الخارجية الألمانية يؤكد فيها ان "حكومته ستعمل جاهدةً على إثبات ولائها وحسن نيتها. بتحقيق أبعد رغبات ألمانيا" وفي اليوم ذاته نوه للقائم بالأعمال الألماني في براغ بالإشاعات المتزايدة "حول قرب دمج جيكوسلوفاكيا بالرايخ"^(١٩).

ولكي يتأكد (شفالكوفسكي) من إمكان إنقاذ هذه الأجزاء أقنع هتلر بان يقابله في برلين في ٢١ كانون الثاني. فكان مشهداً أليماً يرثى له، لكنه لا شيء اذا قورن بالذي حلّ بالشعب الجيكي بعده بقليل. راح وزير الخارجية الجيكي يتذلل متمسحاً بأذيال الدكتاتور الألماني الطاغية الذي كان يعاني نوبة من نوبات هياجه العاصف. وقال هتلر إن جيكوسلوفاكيا "سلمت من الكارثة بإعتدال ألمانيا" ومع هذا فإن لم يظهر الجيك روحاً جديدة فسوف "يحقهم محقاً". عليهم أن ينسوا "تاريخهم" الذي كان "عبث اطفال المدرسة". وأن يفعلوا ما يريده الألمان. ففي هذا وحده نجاتهم. وبعبارة صريحة على

١٦- المرجع السالف الص ٨٢-٨٣.

١٧- في ٢٤ تشرين الثاني أصدر هتلر أمراً توجيهياً سرياً آخر، يطلب فيه من (الغيرماخت) أن يكون على تمام الأبهة ليحتل الدانزك إحتلالاً عسكرياً وأن ذلك سيتم فيما بعد. لقد كان الزعيم يفكر بهذا الموضوع قبل الإستيلاء النهائي على جيكوسلوفاكيا.

١٨- المرجع السالف الص ١٨٥-١٨٦، كذلك [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٤ الص ٩٥٠-٩٥١، الوثائق ١٣٨C].

١٩- تقرير القائم بالأعمال، وثنائ عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٤ الص ١٨٨-١٨٩.

چيكوسلوفاكيا أن تخرج من عصبة الأمم وأن تخفض حجم جيشها الى أدنى حدٍ "لأنه ليس ذا قيمة باي حال" وان تنضم الى ميثاق مكافحة الكومنترن. وتقبل ان تدير ألمانيا سياستها الخارجية وان تكون الأفضلية التجارية لألمانيا عند عقد معاهدات إقتصادية ومن شروطها ان لا تقوم اية صناعة چيكية الا بموافقة ألمانيا^(٢٠). وان تستغني عن خدمات كل الموظفين والصحفيين المعادين للرايخ وأخيراً ان تجرد اليهود من الشخصية القانونية كما فعلت ألمانيا بموجب قوانين نورمبرگ (قال هتلر لزمته: "عندنا سيقضى على اليهود قضاءً تاماً") وفي اليوم نفسه أثقل كاهلُ (شفالكوفسكي) بأعباء أخرى، هذه المرة جاءت من ريبنتروب الذي "هدد بسوء العقبى" إن لم يصلح الجيك أساليبهم ويفعلوا ما يؤمرون به وطلب وزير الخارجية الألماني منه ألا يذكر الطلبات الألمانية الجديدة، وحسبه ان يعود الى بلاده ويقوم بتنفيذها^(٢١)، ولم يكن ذلك من ريبنتروب بمستغرب فبقدر ما هو ذليل خانع أمام هتلر تجده صلفاً فظاً غطريساً إزاء أي شخص أقل منه نفوذاً ومنزلة.

جرى ذلك كله دوفاً إكثرات بمسألة أي ضمانات ألمانية للحدود الجيكوسلوفاكية! ويظهر أن لندن وپاریس لم تقلقا كثيراً حول هذه المسألة. ها قد مرت أربعة أشهر (مونيه) ولم يبره هتلر بعهده في اضافة اسم ألمانيا الى اسمي الضامنتين بريطانيا وفرنسا. وأخيراً في ٨ شباط قدمت مذكرة شفوية Note Verbale أنكلو فرنسية الى حكومة برلين جاء فيها أن الحكومتين "سيسرهما ان تعلموا وجهة نظر الحكومة الألمانية حول الوسيلة المثلى للإيفاء بالتعهد الذي تم الإتفاق عليه في مونيه بخصوص ضمانات چيكوسلوفاكيا"^(٢٢).

قام هتلر بنفسه بكتابه مسودة الرد - كما اثبتت الوثائق الألمانية المستولى عليها من وزارة الخارجية الألمانية، ولم يقدم إلا في ٢٨ شباط. وقد ورد فيه ان الوقت لم يحن بعد لاعطاء الضمانة الألمانية إذ يجب على ألمانيا ان "تنتظر أولاً انجلاء معالم التطورات الداخلية في چيكوسلوفاكيا"^(٢٣). وأسرع هتلر لصياغة تلك "التطورات الداخلية" وتوجيهها الى غاية واضحة. فاستقبل في ١٢ شباط الدكتور (فويك توکا) احد زعماء السلوفاك المملوء حقداً على الجيك لسنوات الحبس الطوال (انظر ص ٤٨٧) ورجا من الدكتاتور الألماني (وكان يناديه بيا زعيمى كما كشفته مذكرة سرية ألمانية

٢٠- كذلك طلب هتلر أن يسلم البنك الوطني الجيكوسلوفاكي جزءاً من احتياطي الذهب الى بنك الرايخ. وكان المبلغ المطلوب ٣٩١,٢ مليون كروان چيكى ذهباً. وفي ١٨ شباط كتب گورنگ لوزارة الخارجية: "نظراً لتفاقم الصعوبات في تأمين نقد يتحتّم عليّ ان اطلب بكل إلحاح أن يوضع تحت تصرفنا حالياً مبلغ يتراوح بين ٣٠-٤٠ مليون مارك ألماني ذهباً" من البنك الوطني الجيكى فنحن في أمس الحاجة اليها لتنفيذ مطالب هامة جداً صادرة من الزعيم مباشرة [وثائق من سياسة بريطانيا الخارجية ج ٤ ص ٢١٥].

٢١- وقائع إجتماعي شفالكوفسكي مع كل من هتلر وريبنتروب بتاريخ ٢١ كانون الثاني ١٩٣٩ [وثائق عن سياسة بريطانيا الخارجية ج ٤ الص ١٩٠-٢٠٢] تقرير شفالكوفسكي الى حكومته في ٢٣ كانون الثاني، سجلات الحكومة الجيكية أوردها (هوبلر بينيت) في [مونيه] الص ٣١٦-٣١٧. انظر الكتاب الفرنسي الأصفر الص ٥٥-٥٦.

٢٢- النص في وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٤ الص ٢٠٧-٢٠٨.

٢٣- النص في المرجع السالف، الص ٢١٨-٢٢٠.

سجل فيها محضر الاجتماع) أن يحرر سلوفاكيا ويمحنها الإستقلال وقال "إني أضع مصير شعبي بين يديك يازعيمى وان وطني ينتظر منك التحرير الناجز الكامل".

فكان جواب هتلر مشوباً ببعض الغموض. قال أنه لم يتفهم لسوء الحظ مشكلة السلوفاك. ولو علم انهم يتوقون الى الإستقلال لكان رتب ذلك في مونيخ "وسيكون مدعاة لإرتياحه ان يرى سلوفاكيا مستقلة... وبإمكانه أن يضمن دولة سلوفاكية ذات سيادة في أي وقت... من هذا اليوم..." كانت هذه عبارات مريحة للاستاذ (توكا)^(٢٤) ووصفها بأنها "أعظم أقوال سمعتها في حياتي".

في وسعنا الآن أن نزيح الستار عن الفصل الثاني من مأساة الچيكو-سلوفاك. ومن سخریات القدر ولأعيبه الغربية التي يحفل بها تاريخنا هذا وقوع الإختيار على الچيك لرفع الستار قبل أوانه بقليل. فقد وجدوا أنفسهم في بداية آذار ١٩٣٩ في ورطة أليمة إذ أن الحركتين الانفصالييتين في سلوفاكيا وروثينيا وصلتا مرحلة الانفجار. وقد رأينا انهما كانتا من تحريض الحكومة الألمانية. على ان المجر ساهمت بقسط في تحريض روثينيا لانها كانت تطمح بهما. فإن لم تعمل الحكومة الچيكية على وأد الفتنتين في المهدي تمزقت چيكوسلوفاكيا وزالت، وسيحتل هتلر براغ على وجه التأكيد. ولن يختلف الأمر أيضاً إن تم لها سحق الحركتين لأن هتلر سينتهز الفرصة الناجمة عن الفوضى والبليلة ويزحف على العاصمة!

بعد كثير من التردد والإحجام اختارت الحكومة الچيكية الحل الثاني وبعد أن تعذر احتمال الإستفزاز. قام الدكتور هاشا رئيس الجمهورية باقصاء مجلس وزراء روثينيا ذات الحكم الذاتي في ٦ آذار. وأشفعه في ليلة ٩ / ١٠ بعزل مجلس وزراء سلوفاكيا ذات الحكم الذاتي، وفي اليوم التالي اصدر أمراً بالقبض على المونسنيور تيسو Tiso رئيس الوزراء السلوفاكي. وعلى الدكتور (توكا) و(دوركانسكي) وأعلن الاحكام العرفية في سلوفاكيا. وكان العمل الجريء الوحيد للحكومة التي صارت خادمة طائفة لبرلين سرعان ما انقلب سبباً للقضاء عليها.

هذا العمل السريع الذي اقدمت عليه حكومة براغ المتصدعة أخذ برلين على حين غرة. كان (گورنگ) قد رحل الى (سان ريمو) المشمسة لقضاء عطلته. وهتلر يستعد للسفر الى فيينا بمناسبة الذكرى السنوية الأولى للوحدة. لكن سيد المفاجآت راح يعمل بسرعة وقرر في ١١ آذار الاستيلاء على بوهيميا ومورافيا بإبذار. وفي اليوم نفسه قام الجنرال كايتل بإيعاز من هتلر بتنظيم النص وارسل الى وزارة الخارجية الألمانية. وقد طلب فيه من الچيك أن يخضعوا للإحتلال العسكري دون مقاومة^(٢٥). وكان في وقتها "من أشد الأوامر العسكرية سرية".

حان الآن وقت تحرير هتلر (لسلوفاكيا). وعينت حكومة براغ (كارول سيدور Karol Sidor) الذي كان يمثل سلوفاكيا ذات الحكم الذاتي في العاصمة، رئيساً جديداً للوزارة بدل (القس تيسو)، فسافر

٢٤- محاضر الاجتماع: المرجع السالف ٢٠٩-٢١٣.

٢٥- النص. المرجع السالف ٢٣٤-٢٣٥.

الى براتيسلافا Bratislava حاضرة سلوفاكيا في ١١ آذار الموافق نهار السبت وعقد إجتماعاً للوزارة الجديدة. وفي الساعة العاشرة مساءً قطعت جلسة لها بزيارة غربية غير متوقعة. دخل عليهم (سييس إنكوارت) حاكم النمسا النازي الكويزلنكي* يصحبه (يوزف بوركل Jozef Buerckel) غولايتير النازي في النمسا، وخمسة جنرالات. اندفعوا داخل غرفة الاجتماع وطلبوا من أعضاء الوزارة إعلان إستقلال سلوفاكيا حالاً، وان لم يفعلوا فان هتلر الذي قرر تسوية مسألة سلوفاكيا بشكل نهائي فوري سوف لايهتم بمصير سلوفاكيا^(٢٦).

فطلب (سيدور) مهلة، وكان من معارضي قطع كل الصلات بالجيك لكن (القس تيسو) وكان قد هرب من الدير الذي اعتقل فيه، طلب في اليوم التالي عقد إجتماع وزاري وإن كان الآن خارج الحكومة. ولأجل أن يعيق (سيدور) تدخلاً آخر يحتمل أن يقوم به الموظفون الألمان الكبار والجنرالات عقد إجتماعه الوزاري في بيته. وعندما أصبح المحل غير مأمون (لأن جنود العاصفة الألمان كانوا يحتلون المدينة) انتقل بالإجتماع الى مكتب جريدة محلية. وهناك أبلغه (تيسو) أنه تسلم برقية من (بركل) يدعوه الى مقابلة (الزعيم) فوراً في برلين وقد هدد (بركل) في حالة رفضه ذلك - بزحف فرقتين ألمانيتين على طول الدانوب تدخل سلوفاكيا من (براتيسلافا) وتقسم البلاد بين ألمانيا والمجر. ووصل القس القصير السمين^(٢٧) الى فيينا صباح اليوم التالي (الاثنين ١٣ آذار) قاصداً مواصلة السفر الى برلين بالقطار، إلا أنه حشر في طائرة ألمانية وجيء به الى هتلر، إذ لم يكن (للزعيم) وقت يضيعه.

عندما وصل (تيسو ودوركانسكي) الى دار المستشارية في برلين، في الساعة السابعة والدقيقة الأربعين من مساء ١٣ آذار، وجدا هتلر يحفّ به ريبنتروب وكبيراً جنرالاته (براوختش) قائد الجيش العام وكايتل رئيس (ق.ع.ق.م) كذلك وجدا (الزعيم) في حالته النفسانية المألوفة (وربما لم يلاحظا ذلك). والفضل يعود حقاً للوقائع السرية المضبوطة التي مكنتنا من النفوذ الى اعماق عقل هذا الدكتاتور الألماني الشاذّ وهو يفسح المجال لثورة جنونية خاطفة، ومراقبة لسانه ينسج أكاذيبه الغربية وينطق بتهديداته المريعة التي كان يعلم جيداً أنها لن تصل الى الخارج ويعلم بها الناس^(٢٨). قال: "جيكوسلوفاكيا مدينة لألمانيا وحدها ببقائها وعدم تجزئتها". وان الرايخ أبدى "أعظم ضبط

* فيدكون كوزلينغ ١٨٨٧-١٩٤٥ الفاشيستيّ النرويجيّ الذي عاون الألمان على غزو بلاده في ١٩٤٠ وكما سيأتي بيانه قام هتلر بتعيينه رئيس وزراء فيها وأعدم فيما بعد. وأصبح اسمه عنواناً للخيانة.
٢٦- اعتمدت من رواية السفير البريطاني في براغ. [مؤامرة النازيين وعدوانهم- الوثائق D571].
٢٧- كان القس (تيسو) كما يذكره المؤلف - يبلغ طوله بقدر عرضه. وكان أكلواً نهماً. قال يوماً للدكتور شميدت "عندما يرهقني العمل. أكل نصف پاوند من لحم الخنزير فيزول عني الإنهاك وارتاح". وكان مصيره الموت شقياً. ألقى الجيش الأمريكي القبض عليه في ٨ حزيران ١٩٤٥ وسلم الى حكومة جيكوسلوفاكيا الجديدة وحكم عليه بالموت في ١٥ نيسان ١٩٤٧ بعد محاكمة دامت أربعة أشهر. وأعدم الحياة، في ١٨ نيسان.
٢٨- محضر إجتماع هتلر-تيسو السري وثنائ عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٤ الص ٢٤٣-٢٤٥.

لأعصابه" ومع ذلك لم يقدر الجيك ذلك. وزاد يقول وهو يرفع من هياجه درجة "إن الحالة لا تطاق الآن. إنها روح (بينيش) القديمة تدبّ فيها الحياة ثانية".

والسلوفاك خيبوا أمله أيضاً. فبعد مونيخ حلّ الجفاء بينه وبين أصدقائه المجريين لأنه منعهم من الاستحواذ على سلوفاكيا، لأنه ظن أن سلوفاكيا تطمح إلى الإستقلال.

"انه الآن إستدعى (تيسو) لحلّ هذه القضية في (وقت قصير جداً)... والقضية هي هل تريد سلوفاكيا أن يكون لها كيان مستقلّ أم لا؟... إن المسألة ليست مسألة أيام بل مسألة ساعات. بل إنّه يقدم ضماناً باستقلالها... وإذا ترددت أو رفضت الانفصال عن براغ فسيترك مصيرها إلى الاحداث التي لن يكون مسؤولاً عنها بعد.

وتكشف الوقائع المدوّنة أن ريبنتروب عند هذه النقطة "سلمّ الزعيم تقريراً وصل فوراً يعلن عن تحركات عسكرية مجرية على الحدود السلوفاكية فتلاه الزعيم واعلم (تيسو) بفحواه واعرب عن أمله في أن تتوصل سلوفاكيا إلى قرار سريع."

لم يعلن (تيسو) عن قراره حالاً وطلب من الزعيم "أن يقبل اعتذاره إن عجز عن إتخاذ قرار فوري صريح بسبب كلمات هتلر المفاجئة له". ثم اضاف يقول بسرعة "إلا أن السلوفاك سيبرهنون على جدارتهم بالنعم التي يحبوهم بها الزعيم".

ولقد فعلوا ذلك في مؤتمر استمر ساعات متأخرة من الليل في وزارة الخارجية. ويستفاد من إفادة (كبلر) في نورمبرگ وكان هذا جاسوس هتلر في (براتيسلافا) كما كان في (قبيينا) قبل سنة قبيل الوحدة أن الألمان عاونوا (تيسو) في تدبيج برقية إلى هتلر، سيرسلها حال وصوله (براتيسلافا) وإعلان الإستقلال يطلب فيها من (الزعيم) أن يضع الدولة الجديدة تحت حمايته^(٢٩).

هذه البرقية شبيهة بأختها التي أملاها (گورنگ) قبل سنة واحدة وفيها يطلب (سييس إنكوارت) من هتلر ارسال الجنود الألمان إلى النمسا. في هذا الزمن وصل "تنظيم البرقية" النازية إلى حدّ الكمال. فكان في غاية الاختصار، وأرسلها (تيسو) في ١٦ آذار، فأجاب هتلر حالاً معرباً عن سروره "إذ يأخذ على عاتقه حماية الدولة السلوفاكية".

وفي وزارة الخارجية كتب ريبنتروب في تلك الليلة أيضاً مسودة إعلان "إستقلال السلوفاك" وترجمت إلى السلوفاكية حالاً ليحملها (تيسو) إلى براتيسلافا، وهناك قرأها رئيس الوزراء (بعد تحوير طفيف فيها كما ذكر عميل ألماني هناك في تقرير له) أمام البرلمان في اليوم التالي (١٤ آذار الموافق الثلاثاء). وحاول بعض النواب السلوفاك المناقشة على الأقل، إلا أن (كارماسين) زعيم الاقلية الألمانية قطع دابر ذلك بانذراهم أن الجيش الألماني سيحتل البلاد إن تأخر إعلان الإستقلال فاضطر النواب إزاء ذلك إلى السكون والإستسلام.

وهكذا ولدت سلوفاكيا "المستقلة" في ١٤ آذار سنة ١٩٣٩. ومع أن البعثة الدبلوماسية

٢٩- انظر وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ ص ٢٥٠.

البريطانية لم تتأخر في إبلاغ لندن بالظروف التي احاطت (بولادتها)، فان جمبرلين كما سنرى - كان أسرع منها بإستخدام "إنفصال" سلوفاكيا بمثابة عذر لبريطانيا لتقاعسها عن الإيفاء بضماناتها لچيكوسلوفاكيا، بعد قيام هتلر في مساء ذلك اليوم نفسه بانها ما لم يتم إنهاؤه في مونيخ. إن حياة الجمهورية الچيكوسلوفاكية التي خلقها (مازاريك وبينيش) لفظت الآن انفاسها الأخيرة. وعاد زعماء براغ الحائرين مرة أخرى ليكونوا ألعوبة في يد هتلر عادوا لكتابة المشهد الختامي من مأساة بلادهم. طلب الشيخ الهرم الرئيس هاشا، أن يسمح له بمقابلة مع هتلر^(٣٠) فرضي (الزعيم) بطيبة خاطر. فهي تتيح له الفرصة لإعداد المسرح لأوقع دور مثله في حياته السياسية.

ألا تخيل الإلتقان الذي أعد به الدكتاتور مسرحه وهو ينتظر مقدم رئيس جمهورية چيكوسلوفاكيا بعد ظهر يوم ١٤ آذار. إن إعلان إستقلال كل من سلوفاكيا وروثينيا الذي أبدع في خلقه لم يترك لبراغ غير النواة الچيكية بوهيميا ومورافيا. أولم تكن چيكوسلوفاكيا قد قضى عليها فعلاً - بعد أن ضمنت لها فرنسا وبريطانيا حدودها ضدّ العدوان الغاشم؟ إن شريكه جمبرلين ودالاديه في طبخة (مونيخ) حلاً نفسيهما من الضمانة التي أصرّ على اعطائها. ولاشك في أنهما سينكلان عن إيفائهما بالعهد - ولقد كان في هذا مصيباً. ولذلك فهو بمنجى عن كل خطر تدخل دولي. لكنه رغب زيادة في التحفظ في أن تبدو حركته التالية شرعية لا غبار عليها أمام مقاييس قواعد القانون الدولي الغامضة شرعية على الورق على أقل تقدير. لذلك فهو سيرغم الشيخ الضعيف (هاشا) الذي طلب مقابلته متوسطاً، سيرغمه على قبول ذلك الحل الذي أراد فرضه بإستخدام القوة العسكرية. ولما كان دون إراقة دماء، كما دلّ عليه في النمسا ومونيخ، فانه سيجعل عمله هذا يبدو وكأنه إقتراح رسمي طلبه رئيس جمهورية چيكوسلوفاكيا فعلاً. إن الحيل "الشرعية" التي بلغ بها أعلى حد من الإبداع في تسلمه الحكم في ألمانيا، ستعود الآن لتكون وفقاً على عمليات فتح أراض غير ألمانية.

كذلك أعد المسرح ليخدع الألمان وغيرهم من السذج في أوروبا. كانت المحاولات منذ عدة أيام تبذل من جانب مثيري القلاقل الألمان وإستفزازيهم لخلق الفتن في مختلف المدن الچيكية، كبراغ وبرون Bruenn وإيگلاو Iglaw إلا أن النجاح أخطأهم كما جاء في تقرير السفارة الألمانية في براغ. فقد "تلقي البوليس الچيكي أوامر قاطعة بعدم التعرض الى الألمان حتى في حالات الإستفزاز"^(٣١).

الأ أن إخفاقهم هذا لم يمنع الدكتور كوبلز من دفع الصحافة الألمانية الى شن حملة حول أعمال الإرهاب (الكاذبة) التي يقوم بها الچيك ضدّ الألمان المساكين. وأعلم السفير الفرنسي (مسيو

٣٠- في هذه النقطة خلاف. فبعض المؤرخين يرون ان الألمان اجبروا هاشا على السفر الى برلين. وربما بنوا روايتهم هذه على تقرير السفير الفرنسي في برلين الذي ذكر "انه علم بذلك من مصدر موثوق" إلا ان ما كشف مؤخراً من الوثائق السرية لوزارة الخارجية الألمانية يثبت بما لا يقبل الشك بأن طلب المقابلة بدر من (هاشا). وقد حاول ان يقابل هتلر أولاً في ١٣ آذار عن طريق السفارة الألمانية في براغ وكرر الرجاء في صبيحة الرابع عشر ووافق هتلر عصر اليوم نفسه (المرجع نفسه الص ٢٤٩ و ٢٥٥). عن تقرير السفير (كولوندر) انظر الكتاب الفرنسي الأصفر ص ٩٦ رقم (٧٧).

٣١- تقرير من براغ ١٣ آذار ١٩٣٩، [وثائق عن سياسة ألمانيا... ج ٤ ص ٢٤٦].

كولوندر) مرجعه في باريس بأنها عين القصص وبالعناوين ذاتها التي اخترعها غوبلز أثناء أزمة السوديت من أولها الى قصة المرأة الألمانية الحبلى التي قتلها وحوش الجيك، الى "حمامات الدم" Blutbad التي ذاقها الألمان العزل على يد البرابرة الجيكيين. لقد أكد هتلر للشعب الألماني الفخور أن أبناء جلدتهم لن يبقوا دون حماية وقتاً طويلاً.

هذ هو الموقف، وتلك هي خطط هتلر، (ولقد عرفناها من السجلات الرسمية الألمانية الآن) في حين كان القطار الذي يقل الرئيس هاشا ووزير خارجيته (شفالكوفسكي) يدخل محطة (انهالت Anhalt) في برلين في الساعة ٤٠ . ١٠ ليلاً (١٤ آذار) لأن الرئيس لا يستطيع السفر في الطائرة بسبب مرض قلبه.

-٤-

محنة الدكتور هاشا

بلغت قواعد البروتكول الألمانية حد الكمال. فقد جرى للرئيس الجيكي كل تفاصيل الإستقبال الرسمي المفروض لكل رئيس دولة، فاستقبله حرس شرف في محطة القطار وتقدم وزير الخارجية الألمانية بنفسه لتحية الزائر الكبير وقدم لابنته باقة زهر أنيقة جداً وأفرد للوفد جناح كامل في فندق (آدلون) الفخم ووجدت الأنسة هاشا هدية شخصية من هتلر تنتظرها، مقدار من الشوكولاته التي كان يعتقد ان كل الناس يشاطرونه ولعه بها. واستقبل الدكتور هاشا بثلة من حرس شرف ال(إس. إس) عند وصوله دار المستشارية برفقة وزير خارجيته.

ولم يتم إدخالهما على هتلر إلا في الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة عشرة بعد نصف الليل. لا بدّ وان (هاشا) كان يعرف مقدّماً ما أدخل له. فقبل ان يترك قطاره الحدود البلجيكية اعلمته براغ ان الجنود الألمان إحتلوا (موارثسكا-أوسترافا) البلدة الجيكية الصناعية الهامة وهم يتوغلون في بوهيميا ومورافيا لتوجيه الضربة الأخيرة. ورأى وهو يدخل مكتب الزعيم في هذه الساعة المتأخرة من الليل، كلاً من ريبنتروب وفايسيك والفيلد مارشال غورنك الذي استدعي على جناح السرعة من اجازته في (سان ريمو) ورأى الجنرال كايتل يقف الى جانب هتلر. وأغلب الإحتمال انه لم يلحظ حين دخوله عرين الأسد، وجود طبيب هتلر الخاص الدكتور الدجال تيودور موريل Dr. Theodor Morell جالساً على مائدة. على ان وجوده كان ضرورياً.

إن الوثائق السريّة المستولى عليها تكشف عن مشهد أليم بدأ حال دخول الرئيس هاشا. هذا الشيخ المسكين بماضيه المحترم كقاضٍ جليل في أعلى محكمة من محاكم بلاده يخلع وقاره البشري ويروح يتدلل أمام الزعيم الألماني المنتفش الريش كالديك. ولعل الرئيس الجيكي ظن أن الطريق الوحيد الذي

بقي له هو مناشدة هتلر وإثارة عاطفته إنقاذاً لما يمكن إنقاذه لشعبه. ومهما كان الدافع الى التذلل نبيلاً فإن العبارات التي استخدمها والحق يقال تصيب سامعها بالقيء، وتشتمز لها النفس بالصيغة التي دونت في محضر الاجتماع الرسمي المحفوظ. اكد هاشا لهتلر انه شخصياً لا يتدخل في السياسة، وهو نادراً ما اجتمع بمؤسسي الجمهورية الشيكوسلوفاكية (مازاريك وبينيش) ومن هذا القليل النادر، لم تكن الفكرة التي اخذها عنهما طيبة. وقال ان نظامهما السياسي غريب عن ذوقه الى الحد الذي راح يسأل نفسه [بعد مونيخ] هل كان من الخير لشيكوسلوفاكيا ان تنال إستقلالاً ما؟

"... وهو واثق الآن ان مصير شيكوسلوفاكيا بات الآن بين ايدي الزعيم ويعتقد أن يده يد أمانة وحرص... ثم انتقل الى الأمر الذي يهمه في المنزل الأولى، الى مستقبل شعبه وهو يشعر شعوراً أكيداً ان الزعيم مدرك بالضبط هدف وجهة نظره في ان لشيكوسلوفاكيا الحق أن تعيش عيشة قومية... تلام شيكوسلوفاكيا لوجود عدد كبير من اشياح بينيش ونظامه... ان الحكومة تحاول بكل وسيلة اسكاتهم وهذا كل ما يريد قوله".

وعندئذ بدأ أدولف هتلر يقول كل ما يريد قوله. فبعد أن ردد كل الأخطاء المزعومة التي اقترفتها شيكوسلوفاكيا مازاريك وبينيش بحق الألمان وألمانيا، وكرر عبارته الأثيرة وهي ان الجيك لم يتغيروا منذ (مونيخ) لسوء الحظ. دخل الموضوع الأساسي:

"أنه استنتج من تجشم الرئيس عناء سفرته هذه رغم تقدمه في السن أن الزيارة قد تكون ذات فائدة عظيمة لبلاده، ذلك لانه لم يعد باقيا لتدخل ألمانيا إلا ساعات معدودة... إن بقاء دولة شيكوسلوفاكيا الممزقة الاوصال يتوقف على ولائه فحسب وإنه لا يكتف عداً لأي شعب... في الخريف الماضي لم يرغب في استخلاص رأي نهائي لأنه كان يظن بإمكان التعايش، إلا انه لن يترك أي شك لأحد في نيته القضاء على الدولة الشيكوسلوفاكية ان لم تختف الميول (البينيشية) تماماً".

إنها لم تختف وها هو يقدم "الأمثلة": ولهذا فقد قذف بزهر النرد في يوم الاحد الماضي الموافق ١٢ آذار "لقد اصدر الأمر بأن تغزو الجيوش الألمانية البلاد الشيكوسلوفاكية وضمها الى الرايخ الألماني". قال (شميدت): "جلس هاشا وشفالكوفسكي كأنهما إستحالا تمثالين من الحجر. ولم يكن فيهما ما يميزهما عن الموتى إلا أعينهما" إلا ان هتلر لم يفرغ منهما بعد. عليه ان يذل ضيفيه اذلالاً بالرهبة التيتونونية. [واصل هتلر] لقد توغل الجيش الألماني في داخل البلاد الآن. وفي الثكنات حيث لاحت مقاومة، تم سحقها بقسوة.

غداً صباحاً في الساعة السادسة، تقرر أن يدخل الجيش الألماني في بلاد الجيك من جميع الجهات وأن تحتل القوة الجوية الألمانية مطارات الجيك. وهناك إحتمالان الأول منهما أن يتطور الزحف الألماني الى قتال وفي هذه الحالة ستسحق المقاومة بقسوة بالغة. وثاني الإحتمالين ان توغل الجيش الألماني سيتم بهدوء وفي هذه الحالة سيكون من السهل على (الزعيم) أن يهب شيكوسلوفاكيا نوعاً من الحياة الكريمة الخاصة بها: حكماً ذاتياً ومقداراً معيناً من الحرية الوطنية.

لم يدفعه الحق الى هذا وانما هو واجب حماية ألمانيا الذي يحدوه. لو لم تسلّم چيكوسلوفاكيا في الخريف الماضي لأباد الشعب الجيكي برمته ولن تستطيع قوة ان تمنعه عن ذلك إذا جدّ الجد وثار النقع... كان الجيش الجيكي سيصبح أثراً بعد عين في يومين فقط. سيموت عدد من الألمان بطبيعة الحال. وهذا ما كان سيولد حقداً يمنعه حتى من إعطاء الحكم الذاتي حفظاً للنفس فحسب. ولن يهتم العالم بهذا قلامة ظفر. إنه عطف على الشعب الجيكي عندما قرأ الصحف الأجنبية فقد خلّفت فيه إنطباعاً ينطبق على المثل الألماني المشهور "المغربي أدّى واجبه، للمغربي أن ينصرف"... ولهذا طلب من (هاشا) الحضور وتلك هي الحسنة الأخيرة التي يمكن أن يمنحها للجيك... ربّما حالت زيارة هاشا دون ما هو انكي وأدهى... ان الساعات تمرّ. وفي السادسة سيدخل الجنود. إنه ليكاد يخجل حين يقول: هناك فرقة ألمانية واحدة مقابل كل فوج جيكي، وهو يرغب الآن ان يسدي اليه نصحاً [الى هاشا]، ان ينسحب مع شفالكوفسكي في خلوة ويتداول معه فيما يجب عمله.

ما العمل؟ لم يكن الرئيس الشيخ المحطم بحاجة الى خلوة ليقرّر ما يجب عمله فقد قال لهتلر للتوّ: "الموقف واضح جداً والمقاومة عبث وحمق" ثم تساءل كيف يمكنه في ظرف أربع ساعات (والساعة الآن قد تعدّت الثانية صباحاً). أن يدبر أمر إيقاف الجيك عن ابداء مقاومة؟ فأجاب (الزعيم) بأن من الأفضل له ان يشاور رفاقه. ان ماكنة الحرب الألمانية، قد بدت فيها الحركة ولا يمكن وقفها ومن واجب (هاشا) أن يتصل حالاً ببراغ". ويضيف المحضر الألماني ان هتلر قال "انه لقرار خطير، إلا انه يجد انبلاج فجر احتمال حلول فترة طويلة من السلم بين الشعبين. اما اذا كان القرار بخلاف ذلك فهو يرى فناء چيكوسلوفاكيا". بعد هذه العبارة صرف ضيفيه مؤقتاً وكانت الساعة تشير الى الثانية والدقيقة الخامسة عشرة صباحاً. وفي الغرفة المجاورة راح غورنك وريبنتروب يشدان الضغط على الضحيتين. وبحسب رواية السفير الفرنسي الذي صورّ المشهد في تقرير له الى باريس قال انه اعتمد من مصدر لا يرقى اليه الشك. ان هاشا وشفالكوفسكي باتا يحتجان على هتك حرمة شعبيهما وقال انهما لا يوقعان وثيقة الإستسلام ولو فعلاً ذلك فستلعنهما أمتهم الى أبد الأبد.

"[كتب ميسو كولوندر في تقريره] كان الوزيران الألمانيان [غورنك وريبنتروب] لا يعرفان للرحمة معنى. واستمرّا يطاردان الدكتور هاشا والسيد شفالكوفسكي كما يطارد الصياد فريسته بالضبط ويلاحقانهما على مدار المنضدة حيث وضعت الوثيقة، وهما يدفعانهما بإستمرار أمامهما ويحشران الأفلام في ايديهما، ويرددان بدون انقطاع: إن ظلاً مصريين على الرفض، فستصبح نصف براغ انقاضاً من جراء القصف في غضون ساعتين وهي البداية فحسب. وإن مئات من القاصفات تنتظر الأمر بالتحليق. وانها ستبلغ بالأمر في الساعة السادسة صباحاً إن لم يبادرا بالتوقيع^(٣٢)".

٣٢- اعترف غورنك في محكمة نورمبرگ انه قال (لهاشا): "يؤسفني ان اضطر لقصف براغ الجميلة" وهو في الواقع لم يكن يقصد التهديد بهذا "إذ لم يكن ذلك ضرورياً"، وقال مفسراً "إلا أنني ظننت ذلك وسيلة ناجعة للتعجيل بالأمر". [محاكمات مجرمي الحرب الكبار : ج ٩ الص ٣٠٣-٣٠٤].

في تلك اللحظة سمع الدكتور شميديت صوت غورنك ينادي الدكتور (موريل) (يبدو أن الرجل حاضرٌ كلما تصل دراما ذروتها في حياة الرايخ الثالث، واين ما كانت تمثل).
صاح غورنك: "لقد غاب هاشا عن وعيه".

ودبّ الخوف في قلوب العيارين النازيين لحظتين فالحال لو أن الرئيس الشيكي المغمى عليه قد يموت بين يديهم "سيقول العالم أجمع غداً أنه قتل في دار المستشارية" كما عبر عنه شميديت. كان اختصاص الدكتور موريل زرق الحقن. (كاد بعد زمنٍ أن يقتل هتلر بها) وهو الآن يدخل الأبرة جسم الدكتور هاشا فيعيد اليه رشده. وعادت الى الرئيس ضباية امكنه بها من مسك التلفون الذي وضعه الألمان في يده والإتصال بحكومته في براغ بوساطة خط خاص وصل رأساً بناءً على أوامر ريبنتروب. واعلم زملاءه بكل ما جرى واقترح الإستسلام ثم حقن بحقنة أخرى من ابر الدكتور موريل وأقتيد هو وجمهوريته المحتضرة متعشرين الى مجلس أدولف هتلر ليوقع وثيقة موت بلاده. وكانت الساعة الرابعة إلا خمس دقائق من صباح الخامس عشر من آذار ١٩٣٩.

كان النصّ معداً من قبل. وذكر الدكتور ان "هتلر هو الذي كتبه". وكان المترجم الألماني منهمكاً في استنساخ البيان الرسمي الذي أعدّ أيضاً من قبل أثناء اغماء هاشا. وقد أرغم هاشا وشفالكوفاكي على توقيعهم أيضاً. واليك هو: "برلين: ١٥ آذار ١٩٣٩" بناءً على القبول الواقع. استقبال (الزعيم) اليوم الرئيس الشيكوسلوفاكي الدكتور هاشا ووزير الخارجية الشيكوسلوفاكية الدكتور شفالكوفاكي في برلين بحضور وزير الخارجية فون ريبنتروب وقد بحث في الإجتماع الوضع الخطير الذي نجم عن أحداث الأسابيع الأخيرة على الحدود الشيكوسلوفاكية الحالية، وتمت مناقشتها بكل صراحة.
وكان الإعتقاد الذي توصل اليه الجانبان بالإجماع ان الغاية من كل الجهود المبذولة هي المحافظة على الهدوء والأمن والسلام في هذا الجزء من أواسط أوروبا. ويصرح الرئيس الشيكوسلوفاكي أنه في سبيل تحقيق هذا الغرض والوصول الى إستقرار نهائي، يضع بكل ثقة مصير الشعب الشيكي والبلاد بين يدي (زعيم) الرايخ الألماني. وقد قبل (الزعيم) هذا التصريح وأعرب عن نيّته بوضع الشعب الشيكي تحت حماية الرايخ الألماني، وضمان تطور ذاتي مستقل لحياة الشعب وعنعناته مما يتفق وطبيعته.

ولعل خفة روح هتلر في تلك اللحظة بلغت غايتها القصوى، فقد روت إحدى السكرتيرات انه اندفع بعد التوقيع، الى مكتبه وراح يعانق كل امرأة موجودة فيه ويهتف من أعماق قلبه: أولادي! هذا اسعد يوم من أيام حياتي! سأدخل التاريخ من اوسع أبوابه، فأنا أعظم شخصية في ألمانيا! ولم يفتن، ولم يعنّ له (كيف يتسنّى له ذلك؟) أن نهاية شيكوسلوفاكيا ستكون بداية النهاية لألمانيا. من فجر الخامس عشر من شهر آذار ١٩٣٩ وجد الطريق أمامه واسعاً ممتداً الى الحرب ثم الى الهزيمة ثم الى الدمار - طريق قصير مستقيم جداً مثل الصراط وجد هتلر نفسه يغذ فيه السير قدما

لايلوي على شيء مثلما فعل الاسكندر ونابوليون قبله. ما أن بدأ السير حتى عز عليه الوقوف^(٣٣). في السادسة من صبح يوم ١٥ آذار تدفقت الجحافل الألمانية الى (بوهيميا ومورافيا) ولم تلق اية مقاومة ويحلول العصر كان هتلر يدخل براغ دخول الظافر. تلك المدينة التي شعر أن چمبرلين غشه فيها وانتزعها منه بالحيلة في مونيخ. وقبل ان يغادر برلين لم ينس إذاعة بيان طنان رثان موجه الى الشعب الألماني ردّد فيه تلك الأكاذيب المملّة عن "المدّ الفوضوي" والفظائع التي ارتكبتها الجييك بحيث أرغم على التدخل لوضع حدّ لها، وأعلن متباهيا: "ان چيكوسلوفاكيا قضت نحبا!" وفي تلك الليلة نزل قلعة (هرادشين) وهي بلاط ملوك بوهيميا العتيق القائمة في أعالي نهر المولداف Moldaw وحيث سكنها منذ فترة وجيزة كل من مازاريك وبينيش اللذين يبعضهما. يكدان ويدأبان في سبيل أول ديمقراطية عرفتها أوروبا الوسطى. ها هو هتلر ينال ثأره كاملاً، يسيل حلاوة من جوانب سلسلة البيانات والمراسيم التي اصدرها. لقد شفى في نفسه كل الغلّ المحرق الذي حفظه للجيك واستولى على فكره منذ أيام تشرده في قيينا قبل ثلاثين عاماً. ثم تأججت ناره عندما اجترأ (بينيش) على تحديه في العام الماضي وهو ذلك الدكتاتور الألماني المطلق السلطان. وأعلن من قلعة (هرادشين) في اليوم التالي انشاء محمّية (بوهيميا ومورافيا). ومع أن البيان كان يعترف للجيك "بالحكم الذاتي والإدارة المستقلة" إلا أن حكم البيان الصريح جعلهما تحت موطيء نعال الألمان إذ اودعت كل السلطة الى ثالث (حامي الرايخ وسكرتير الدولة ورئيس الإدارة المدنية) وهؤلاء يعينهم (الزعيم) رأساً. ولكي يهديء من سورة هياج الرأي العام العالمي والاستياء الشديد في فرنسا وإنجلترا أخرج (فون نيوراث) المعتدل من الثلاثية ونصبه حامياً^(٣٤).

وعين الزعيمين النازيين السوديتيين (كونراد هنلاين) والعصباتي (كارل هرمان فرانك) أولهما رئيساً للإدارة المدنية وثانيهما سكرتيراً للدولة ليتيح لهما فرصة نيل ثأرهما من الجيك. ولم يطل الأمر بهملر حتى فاز بموطنيء قدم له في المحمّية، إذ اناط به (فرانك) المذكور رأسه شرطة المحمّية وقيادة حرسها الأسود^(٣٥).

٣٣- مصادرنا عن "محنة هاشا": محضر الاجتماع السري لهتلر وهاشا، وثائق عن سياسة بريطانيا الخارجية ج٤ الص ٢٦٣-٢٦٩، وهي ايضاً في وثائق نورمبرگ [مؤامرة النازيين وعداوانهم ج٥ الص ٤٣٣-٤٤٠، الوثائق PS ٢٧٩٨] نص البيان المشترك الجيكي-الألماني في ١٥ آذار ١٩٣٩ في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ الص ٢٧٠-٢٧١. القسم الاول الذي كتب فعلاً في وزارة الخارجية (١٤ آذار). بيان هتلر الى الشعب الألماني في ١٥ آذار [مؤامرة النازيين وعداوانهم ج٨ الص ٤٠٢ وما بعدها، الوثائق TC٥٠] تقرير (كولوندر) في الكتاب الفرنسي الأصفر ص٩٦ رقم ٧٧. وصف شميديت الاجتماع: كتابه الفصل التاسع عن المشهد مع السكرتيرات [أ. زولر A. Zoller خصوصيات هتلر: ص ٨٤].

٣٤- قال نيوراث لقضاة نورمبرگ انه فوجيء تماماً بتعيين هتلر وانه "كره" المنصب وتردد في قبوله. ثم رضي عندما قال له هتلر انه يرمي بتعيينه الى التأكيد لبريطانيا وفرنسا بعدم رغبته في ممارسة سياسة معادية لچيكوسلوفاكيا [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج١٦ الص ٦٥٤-٦٥٥].

٣٥- قد يكون واجباً أن نعيد هنا عن موضوعنا قليلاً لتعقيب مصائر ممثلي ادوار هذه الرواية: حكمت محكمة چيكوسلوفاكية بالموت شنقاً على (فرانك) بعد الحرب ونفذ به علناً في ٢٢ أيار ١٩٤٦ قرب براغ، اما (هنلاين) =

[جاء في بيان إعلان هتلر عن قيام المحمية] ظلت مقاطعتا بوهيميا زهاء ألف سنة وهي جزء من (المجال الحيوي) للشعب الألماني... وقد أظهرت چيكوسلوفاكيا الدولة عجزاً موروثاً في قدرتها على البقاء ولهذا هوت الآن فريسة للتمزق الفعلي والانحلال الواقع. إن الرايخ الألماني لا يمكنه الوقوف مكتوف اليدين إزاء الفوضى المستمرة في المنطقة... ولذلك وتطبيقاً لقانون حفظ النوع عزم الرايخ الألماني على التدخل الحاسم لإعادة بناء اسس نظام مناسب في أواسط أوروبا. لقد برهن الشعب الألماني خلال السنوات الألف من تاريخه بفضل مزاياه وصفاته الخاصة بأنه الوحيد القادر على هذا العمل". وبهذا خيم ليل طويل من البربرية الألمانية على براغ وبلاد التشيك.

في ١٦ آذار عاد هتلر ليضع (سلوفاكيا) أيضاً تحت حمايته الكريمة باستجابته الى "برقية" ارسلها رئيس وزرائها (تيسو) والواقع ان مسودتها كتبت في برلين. فسارعت القطعات العسكرية الألمانية بدخول سلوفاكيا لتولي "الحماية". وفي ١٨ آذار وصل هتلر الى فيينا ليضع توقيععه على "معاهدة الحماية" ووقعها في برلين بتاريخ ٢٣ آذار كل من ريبنتروب والدكتور (توكا) وتتضمن بروتوكولا سريا يمنح ألمانيا حق استغلال إقتصاد سلوفاكيا^(٣٦).

اما بالنسبة الى (روثينيا) وهي الرأس الشرقي من چيكوسلوفاكيا فقد أعلن إستقلالها في ١٤ آذار. وسميت بجمهورية (الكاريات-الاوكرينية Carpatho-Ukraine). ولم يدم إستقلالها غير أربع وعشرين ساعة، ناشدت هتلر ببدء طلب "الحماية" وعيئاً طلبت لأن هتلر كان قد منحها للمجر. فقد عثر بين أوراق وزارة الخارجية المستولى عليها على رسالة بخط يد (مكلوس هورتي Miklos Horthy) الوصي على العرش المجري موجهة الى أدولف هتلر بتاريخ ١٣ آذار. وهذا نصّها

يا صاحب الفخامة: أقدم شكراً من صميم الفؤاد! لأستطيع التعبير عن سعادتي، فهذا الأقليم رأس الماء (روثينيا) مسألة حيوية -وانا اكره إستخدام الكلمات الضخمة- بالنسبة لهنگاريا [المجر]. إننا نتهياً للأمر بحماسة، وقد انجزنا وضع الخطط لتطبيقها يوم السبت باندفاع عسكري كبير^(٣٧). وتبين فيما بعد ألا حاجة تدعو الى تدبير "حادثة". فقد تحرك الجيش المجري ودخل روثينيا بكلّ بساطة في الساعة السادسة صباحاً (١٥ آذار) مؤقتاً دخوله، بدخول الألمان اقاليم الغرب. وأعلن في اليوم التالي ضمّ الاقليم الى المجر رسمياً. وهكذا قضت چيكوسلوفاكيا نحبها في نهاية اليوم الخامس عشر من آذار، الذي بدأ في برلين في الساعة ١٥، ١ بعد نصف الليل عند وصول الدكتور هاشا الى دار المستشارية. لم تقدم فرنسا أو بريطانيا على حركة واحدة لإنقاذها وان قطعنا عهداً على ضمانها ضدّ الإعتداء الغاشم.

= فقد قتل نفسه على اثر القاء قوات المقاومة الشيكية القبض عليه سنة ١٩٤٥. اما شفالكوفسكي الذي أصبح ممثل المجبة في برلين فقد قتل نتيجة القصف الجوي الحليف في ٩٤٤. والقي الجيك القبض على هاشا في ١٥ أيار الا انه توفي قبل إجراء محاكمته.

٣٦- النص في وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٦ الص ٢٤-٤٥.

٣٧- النص في وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٤ ص ٢٤١.

منذ ذلك الاجتماع توصل هتلر وموسوليني إلى حقيقة معينة وهي أن بريطانيا باتت جدياً ضعيفة ولهذا كان رئيس وزرائها متنازلاً متغاضياً، لذلك لم تعد بهما حاجة إلى الإهتمام الكثير بلندن. وفي ١١ كانون الثاني ١٩٣٩ قام جمبرلين بإرافقه لورد هاليفاكس بزيارة روما ليحاول تحسين العلاقات الأنكلو-إيطالية. واتفق أن كان المؤلف في محطة القطار في روما عندما وصل الإنكليزيان ودون في مفكرته "سيماء الاستخفاف" التي لاحت على وجه موسوليني عندما حياً ضيفيه "عندما مرّ بي موسوليني" وجدته أثناء مغادرة المحطة "يتضحك مع خنته تشيانو ويلقي الدعايات اللاذعة" (٢٨)، لم اتمكن بطبيعة الحال من سماع اقواله ولكن (تشيانو) كشف فيما بعد عن بواعث تلك الأضاحيك في يومياته: "[اليومية المؤرخة ١٢ كانون الثاني] وصول جمبرلين... ما أبعد الشقة بيننا وبين هؤلاء القوم! إنه عالم آخر. كنا نتكلم عنها بعد العشاء، مع الدوتشي فقال هؤلاء الرجال ليسوا من طينة (فرنسيس دريك*) Francis Drake وغيره من المغامرين العظماء الذين خلقوا الإمبراطورية، أنهم في الواقع الاولاد المنهكون لسلالة طويلة من الاغنياء وسوف يفقدون إمبرطوريتهم".

لا يريد البريطانيون الحرب. وهم يحاولون التقهقر الى الوراء بأبطأ ما يمكن، لكنهم لا يحاربون... لقد انتهت محادثاتنا مع البريطانيين، ولم تسفر عن نتيجة. اتصلت بريبنتروب تلفونياً واعلمته ان الزيارة كانت ليمونة كبيرة... [يقصد مهزلة كبيرة]...

رافقت الدوتشي الى المحطة عند مغادرة جمبرلين (يومية ١٤ كانون الثاني)... اخضلت عينا جمبرلين بالدموع عندما بدأ القطار يتحرك. وراح أبناء جلدته ينشدون له اغنية (فلأنه رجل طيب جداً، فسأل الدوتشي ما هذه الاغنية الصغيرة؟". (٢٩)

مع أن هتلر كان كثير الإهتمام بوجهات نظر جمبرلين أثناء أزمة السوديت، فإنه لم يعثر بين الأوراق الألمانية المضبوطة على ما يشير الى أقل إكتراث بأراء رئيس الوزراء منذ ذلك الحين، بخصوص القضاء على البقية الباقية من چيكوسلوفاكيا رغم ضمانات بريطانيا ورغم إتفاقية مونيخ. في ١٤ آذار كان هتلر في برلين ينتظر (هاشا) لإذلاله، بينما كانت الاسئلة الغاضبة توجه في مجلس العموم في لندن حول قيام ألمانيا بهندسة عملية انفصال سلوفاكيا وعن آثار ذلك في ضمانة بريطانيا لبراغ من العدوان الغاشم. أجاب جمبرلين بشدة: "لم يحصل عدوان كهذا".

لكن عندما حصل هذا العدوان في اليوم التالي. استخدم رئيس الوزراء بيان "إستقلال سلوفاكيا" حجة وعذراً لتقاعس بلاده عن الوفاء بعهددها وقال مفسراً "إن آثار هذا البيان هو نهاية للدولة التي تعهدنا بضمان حدودها، يعامل التمزق الداخلي. ان حكومة صاحب الجلالة لا يسعها والحالة هذه أن

٣٨- يوميات برلين ص ١٥٦.

* سر فرانسيس دريك (١٥٤٣-١٥٩٦) أميرال إنكليزي ومكتشف. أول إنكليزي طاف العالم بحراً. كان أحد القائدين اللذين أدارا موقعة الأرمادا وحطماً الغزو الإسباني في ١٥٨٨.

٣٩- يوميات تشيانو ١٩٣٩-١٩٤٣ الص ٩-١٢.

تعتبر نفسها مرتبطة بهذا العهد بعد الآن". وبهذا اعطت استراتيجية هتلر ثمارها كاملة فقد أوجد لجمبرلين مخرجاً، فسارع إليه رئيس الوزراء.

والجدير بالذكر هنا ان جمبرلين ما كان يرغب حتى في اتهام هتلر بحنثه بكلمته، قال: "كثيراً ما سمعت تهماً عن النكث بالعهد تتناثر هنا وهناك لأراها تستند الى أي أساس من الواقع حتى اني لا اراني راغباً اليوم في التصدي لأي تهمة من هذا القبيل" لم يجد في نفسه كلمة لوم واحدة (للزعيم)، حتى للأسلوب المهين الذي عومل به هاشا. والحيلة القذرة التي حيكت كما دلت الظواهر آنذاك -حتى وان كانت التفاصيل مجهولة في حينه- في مستشارية الرايخ في ساعات الفجر الأولى لهذا اليوم الخامس عشر من آذار.

ولا عجب أن كان الإحتجاج البريطاني في ذلك اليوم ان امكن تسميته بالإحتجاج^(٤٠) - فاتراً ماسخاً وأن الألمان عاملوه بكثير من الاحتقار والصلافة، كما وقفوا من الشكاوى الأنكلو-فرنسية التالية: (لا ترغب حكومة صاحب الجلالة في التدخل تدخلاً لا موجب له في مسائل تهمة الحكومات الأخرى بصورة مباشرة أكثر... إلا أنها على كل حال مهتمة إهتماماً عميقاً -والحكومة الألمانية تقدر منها ذلك دون شك- بنجاح كل المجهودات الرامية الى احلال الثقة، وتخفيف حدة التوتر في أوروبا. وانها لتكره أي عمل في أواسط أوروبا من شأنه ان يؤدي الى نكسة في نمو الثقة العامة...^(٤١)).

لم يكن في هذه المذكرة التي قدمها السفير هندرس الى ريبنتروب كرسالة رسمية من لورد هاليفاكس - كلمة واحدة صريحة عن الحوادث التي وقعت يوم تقديمها.

كان الفرنسيون أكثر صراحة من البريطانيين على الأقل. فالسفير الفرنسي الجديد (كولوندر) لايشترك زميله البريطاني وهمه في النازية ولا احتقاره للجيك. في صبيحة الخامس عشر من آذار طلب مواجهة ريبنتروب، لكن الوزير الألماني الغطريس الحقود كان آنذاك في طريقه الى براغ يريد مشاركة هتلر في إذلاله الشعب المغلوب. فاستقبل وكيل الوزارة (فايسيك) ظهراً. ولم يضع السفير وقته وقال ما لم يكن مستعداً لقوله بعد كل من جمبرلين وهندرسن: ان ألمانيا بتدخلها العسكري في بوهيميا ومورافيا، خرقت بنود إتفاقية مونيخ والبيان الفرنسي-الألماني المشترك للسادس من كانون الأول، إلا ان (فايسيك) الذي أصرّ فيما بعد على انه كان خصماً لدوداً للنازي طول الوقت، أبدى صلافة وغطرسة فاق بهما (ريبنتروب) نفسه، كما يكشف عنه تقريره للمقابلة:

"تكلمت مع السفير بشيء من الحدة، وطلبت منه ألا ينوه بذكر إتفاقية مونيخ التي زعم انها خرقت، وان لايلقي علينا أي محاضرات... وقلت له بالنظر الى الإتفاق الذي أبرم ليلة امس مع الحكومة الشيكية لأجد أي سبب يدعو الى (ديمارش: إحتجاج) من جانب السفير الفرنسي... وانا واثق بأنه سيجد بانتظاره تعليمات جديدة عند عودته الى السفارة وان هذه التعليمات ستجعل ذهنه

٤٠- أبلغ جمبرلين مجلس العموم في ١٦ آذار ب"إلى الآن" لم يقدم إحتجاج الى الحكومة الألمانية.

٤١- النص في وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٤ الص ٢٧٤-٢٧٥.

مرتاحاً^(٤٢). ويعدها بثلاثة أيام عندما تحاملت الحكومتان البريطانية والفرنسية على نفسيهما تحت ضغط الرأي العام المستنكر في الداخل. وتقدمتا بإحتجاج رسمي للرايخ^(٤٣). تفوق فايسيكير على سيده ريبنتروب في الخشونة والصلافة بشهادته نفسه أيضاً. فهو يتحدث بإرتياح ظاهر في إحدى المذكرات التي عشر عليها بين الوثائق كيف انه رفض حتى ان يقبل مذكرة الإحتجاج الفرنسية الرسمية: "أسرعت في الحال فأعدتُ المذكرة الى غلافها ودفعت بها الى السفير قائلاً له إنني أرفض مبدئياً قبول أي إحتجاج منه يتعلق بقضية الجيكو-سلوفاك. ولن أشعر بالإتصال الواقع رسمياً. واطلب من مسيو (كولوندر) أن يلح على حكومته بإعادة النظر في فحوى المذكرة"^(٤٤).

لم يكن (كولوندر) -كهندرسن في هذه الفترة- بالمبعوث الذي يسكته ألماني. فأجاب ان حكومته كتبت المذكرة بعد طول تأمل وهو لا ينوي الطلب من حكومته إجراء أي تنقيح فيها. وعندما راح وكيل الوزارة يكرر رفضه قبول المذكرة، جلب السفير انتباهه الى العرف الدبلوماسي المألوف وأصر أن لفرنسا الحق الكامل في ان تبدي وجهة نظرها للحكومة الألمانية. أخيراً ترك فايسيكير المذكرة ملقاة على مكتبه (كما روى) وأوضح بانه "سيتعبرها واصله عن طريق البريد البنا". الا أنه قبل قيامه بهذه الملاحظة الوقحة، قذف من رأسه العبارات التالية: "من الناحية القانونية يوجد بيان مشترك تم الإتفاق على صيغته بين (الزعيم) وبين رئيس جمهورية جيكو-سلوفاكيا. لقد جاء الرئيس الجيكي بمحض رغبته الى برلين وأعلن حالاً أنه يرغب في وضع مصير بلاده بين يدي (الزعيم). لااستطيع ان اتصور كيف يمكن ان تكون فرنسا كاثوليكية أكثر من البابا. فتعتمد الى التدخل في امور تمت تسويتها تماماً بين برلين وبراغ"^(٤٥).

وكان سلوك (فايسيكير) مختلفاً تمام الإختلاف مع السفير البريطاني المتعاون الذي أبلغ الوزارة بمذكرة حكومته الإحتجاجية بعد ظهر الثامن عشر من آذار. إن بريطانيا العظمى الآن لاتجد مندوحة من ان ترى في الأحداث التي حفلت بها الأيام القلائل الماضية، نقضاً لإتفاقية "مونينخ" وان "العمليات العسكرية الألمانية" قد "خلت من أي مبرر شرعي" وقد لاحظ (فايسيكير) أثناء تسجيلها انها لم تبلغ ما بلغته المذكرة الفرنسية شدة في هذا الصدد، إذ جاء في الأولى: ان فرنسا "لن تعد الإحتلال الألماني عملاً شرعياً".

كان هندرسن قد ذهب لزيارة (فايسيكير) في ١٧ آذار ليعلمه بإستدعائه الى لندن "للمشاوره"

٤٢- المرجع السالف ٢٧٣-٢٧٤.

٤٣- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٦ الص ٢٠-٢١.

٤٤- المرجع السالف الص ١٦-١٧.

٤٥- رواية (كولوندر) عن المقابلة وردت في الكتاب الفرنسي الأصفر (رقم ٧٨) الص ١٠٢-١٠٣- في الطبعة الفرنسية. وهو رواية (فايسيكير). وقد برر هذا الأخير تقريره عندما سئل عنه في محكمة نورمبرغ، بانه تعمد المبالغة في إظهار حماسه النازية حتى تكون بمثابة تغطية لنشاطه المعادي للنازية إلا أن رواية كولوندر عن المقابلة هي دليل واحد من أدلة أخرى، على ان فايسيكير لم يبالغ في الأمر قط.

ويقول (فايسبيكر) انه استوضح منه عن (بعض التعاليل التي يمكن ان يقدمها لجمبرلين لإستخدامها ضد معارضييه السياسيين... ووضح هندرسن انه لا يوجد ثم إهتمام بريطاني مباشر بالاقليم الجيكوسلوفاكي، وان قلقه الأكبر هو على المستقبل" (٤٦).

حتى تدمير هتلر جيكوسلوفاكيا لم يوقظ السفير البريطاني من غفوته على ما يبدو أو ينبهه الى طبيعة الحكومة التي يتعامل معها. بل وكأنه ظل غافلاً عما كان يحدث ذلك اليوم للحكومة التي يمثلها.

فجأة صحا (نفيل جمبرلين) صحوه عظيمه غير منتظرة في ١٧ آذار، أي بعد يومين من موت جيكوسلوفاكيا. إلا انها لم تأت دون بعض الخصاص والهزات. فقد وجد مشدوهاً أن معظم الصحف البريطانية (حتى صحيفة التايمس، لكن ليس الديلي ميل) ومجلس العموم، لم يسعهم السكوت عن آخر عدوان لهتلر وكان رد الفعل فيهم عنيفاً. وما زاد في الطين بلّة ان عدداً كبيراً من اشياعه في البرلمان ونصف أعضاء وزارته ثاروا ضد أي تنازل أو لترضية هتلر. ولاسيما لورد هاليفاكس فقد اصر: (وهذا ما أبلغ السفير الألماني برلين) على ان يتفهم رئيس الوزراء ما حصل في الماضي وان يقوم بتغيير نهجه تغييراً معاكساً (٤٧). وإنكشف لـ(جمبرلين) ان الأخطار يحفّ بوضعه بوصفه رئيساً للحكومة ورئيس حزب المحافظين. وجاء إنقلابه الفكري المضاد مفاجئاً. ففي الساعات الأخيرة من مساء ١٦ آذار، ألقي سر جون سيمون عن الحكومة خطبة في مجلس العموم البريطاني كانت فظة جداً بالنسبة الى محنة الجيك، و متمشية تماماً مع (روح مونيخ). وصفتها الصحف بأنها اقامت قيامة المجلس وبلغت به حداً من السخط ندر ان اظهره أعضاؤه. وفي اليوم التالي وافق عيد ميلاد جمبرلين السبعين وكان في النية ان يلقي خطاباً بالمناسبة في مسقط رأسه (برمنغهام Birmingham) فكتب كلمة تدور حول الأمور الداخلية مع تخصيص جانب لموضوع الخدمات الإجتماعية. روت لي مصادر دبلوماسية فرنسية ان جمبرلين توصل الى قراره الأخير وهو في عربة القطار الذي كان يقله عصر اليوم الى مدينة برمنغهام فمزق خطابه المهيباً وراح يدون رؤوس اقلام لخطبة أخرى مغايرة للأولى مبنى ومعنى. وأذيعت الخطبة على موجات الأثير ووصلت الى اجزاء كبيرة من ارجاء العالم. فيها إعتذر جمبرلين "عن تصريحه الكثير التحفظ، الشديد الحذر... البارد بعض الشيء، والايجابي" (الذي شعر أن واجبه يحتم عليه القاءه في مجلس العموم قبل يومين وقال "اني لأمل تصحيح ذلك التصريح في هذه الليلة".

أخيراً، اكتشف رئيس الوزراء ان أدولف هتلر قد غرّر به. ولخصّ تأكيدات (الزعيم) المختلفة في ان أرض السودان هي آخر مطلب اقليمي له في أوروبا وانه "لا يريد الجيك"، وها هو الآن يطبق عليهم وينشب فيهم برائته "لقد تسلّم القانون بيده وصار الأمر الناهي".

٤٦- المرجع السالف ١٦-١٧ و ٤٠.

٤٧- تقرير (ديركسن) المؤرخ ١٨ آذار ١٩٣٩ المرجع السالف ٢٤-٢٥ و ٣٦-٣٩.

"والآن قيل لنا ان الاستيلاء على الاقليم كان قد حتمته ضرورات معالجة الفوضى والقلق في
چيكوسلوفاكيا... إن كان هناك اضطرابات أفلم تستشرها جهات خارجية؟..."

"وفي هذا، لايسع المرء إلا أن يتساءل أهو نهاية مغامرة قديمة أو بداية لأخرى جديدة؟ أهو آخر
إعتداء على دولة صغيرة أم ستعقبها إعتداءات أخرى؟ أهو خطوة ولا مندوحة لنا من القول الى
محاولة السيطرة على العالم بالقوة؟..."

"في الوقت الذي لأجد في نفسي إستعداداً لزج هذه البلاد في ورطات لايمكن تحديد إطارها، تعمل
تحت اوضاع لايمكن التكهن بها الآن، فليس ثم خطأ أعظم من الافتراض ان هذا الشعب فقد صفاته
الكفاحية، لأنه يرى في الحرب جنوناً ووحشية بحيث يتقاعس عن المساهمة بكل طاقاته في مقاومة
تحد كهذا إن وجد."

كان هذا نقطة تحول فجائية حاسمة لجمبرلين وبريطانيا. وانذر هتلر في اليوم التالي بذلك. إذ بعث
السفير الألماني الذكي (هربرت فون ديركسن) بتقرير طويل الى وزارة الخارجية بتاريخ ١٨ آذار: "من
الخطل ان نتشبت بأي وهم في ان تغييراً جوهرياً لم يطرأ على موقف بريطانيا من ألمانيا^(٤٨).

كل من قرأ (كفاحي) وألقى نظره على خريطة أوروبا وتأمل الموقع الجديد الذي احتله الجيش
الألماني في سلوفاكيا، كل من كان ملماً بحركات دبلوماسية ألمانية معينة منذ (مونيخ) أو من اطال
التفكير في دينامية فتوح هتلر السلمية في النمسا وچيكوسلوفاكيا خلال الأشهر الإثني عشر
الماضية، سيعين له أي دولة "من تلك الدول الصغيرة" ستكون التالية في قائمة (الزعيم). وجمبرلين
كأي شخص آخر تقريباً يعرف تماماً من ستكون تلك الدولة التالية.

في ٣١ آذار - وبعد ستة عشر يوماً من دخول هتلر براغ، أبلغ رئيس الوزراء مجلس العموم
بقوله.

(في حالة وقوع أي عمل من شأنه ان يهدد إستقلال بولندا تهديداً واضحاً لما تجده بولندا حربياً
بالتصدي له ومقاومته بقواتها المسلحة فان حكومة صاحب الجلالة تشعر بواجبها في اسداء كل ما في
طاقاتها من معونة للحكومة البولندية في الحال. ولقد قدمت الحكومة تأكيدات لها للحكومة البولندية
بهذا المأل. ويمكنني ان أضيف الى هذا ان الحكومة الفرنسية خولتني بأن أوضح عنها أن موقفها في
هذه الحالة سيكون مثل موقفنا."

ها قد جاء دور بولندا!

الفصل السادس

الدائرة تدور على بولندا

- ١ -

قبل ان ينصرم شهر واحد على (مونيخ)، دعا (ريينتروب) السفير البولندي (يوزف لپسكي) في ٢٤ تشرين الأول ١٩٣٨ الى غداء في الفندق الكبير Hotel Grand في برختسگادن دام ثلاث ساعات. كانت بولندا مثل ألمانيا وبالتفاهم معها طبعاً، قد ابتلعت قطعة من أراضي الچيك. واستمر حديث الغداء "في جو ودّي للغاية" كما وصفها تقرير دائرة الخارجية الألمانية^(١).

ومهما يكن، لم يضيع وزير الخارجية النازي وقتاً في الدخول الى صلب الموضوع قال: ان الزمن قد حان لإجراء تسوية عامة بين بولندا وألمانيا وزاد يقول من الضروري في مبدأ الأمر "الكلام مع بولندا حول الدانزگ" فمن اللازم ان "تعاد" الى ألمانيا. كذلك يريد الرايخ ان يبنّي طريق سيارات واسع (أوتوبان) وسكة حديد مزدوجة عبر الممر البولندي لربط ألمانيا بالدانزگ وپروسيا الشرقية. وان يستمتع الطريقان بحقوق الاقليم الخارج عن الحدود extraterritorial وأخيراً يرغب هتلر ان تنضمّ بولندا الى ميثاق مكافحة الكومنترن ضدّ روسيا وبمقابل ذلك تمدد المعاهدة الألمانية البولندية من عشر سنوات الى عشرين وتقوم ألمانيا بتقديم ضمانات لحدود بولندا.

وشدّد ريينتروب بأنه يصارحه بهذه المسائل "بغاية السريّة" واقترح ان يكون تقريره عنها لوزير الخارجية (بيك)، "شفوياً، وإلاّ يكون هناك خطر عظيم من تسرب أنبائها الى الخارج ولاسيما الى الصحف". ووعد (لپسكي) بالإتصال (بوارشو) إلاّ انه حذرّه بانه لا يرى شخصياً أي "إحتمال" لإعادة الدانزگ الى ألمانيا، ثم ذكره بمناسبتين وقعتا وشيكاً (في ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٧ و ١٤ كانون الثاني ١٩٣٨) حين اكد هتلر شخصياً لبولندا أنه لن يساند أي تغيير في وضع (الدانزگ) الدولي^(٢). فأجاب ريينتروب انه لا يرغب في الاجابة على هذا الآن. إلاّ انه ينصح البولنديين ان يفكروا في الأمر ملياً.

لم تكن الحكومة البولندية في حاجة الى زمن طويل لاستجماع أفكارها فبعد الحديث بأسبوع بعث

١- الوقائع الألمانية للجلسة: وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٤ الص ١٠٤-١٠٧ من لپسكي الى بيك (الكتاب البولندي الأبيض) رقم ٤٤. ورد في [مؤامرة...ج ٧ ص ٤٨٣ (وثائق TC٧٧).

٢- تأكيد هتلر للپسكي في ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٧ وثائق عن...ج ٥ الص ٢٦-٢٧ تأكيد لبیک ١٤ كانون الثاني ١٩٣٨، المرجع السالف ص ٣٩.

وزير الخارجية (بيك) في ٣١ تشرين الأول بتعليمات مفصلة لسفيره في برلين عن كيفية اجابته الألمان. إلا أن السفير لم يتمكن من ضرب موعد لمقابلته إلا في ١٩ تشرين الثاني - الظاهر أن النازيين كانوا يريدون أن يزن البولنديون جوابهم جيداً وكان سلبياً: إن بولندا، راغبة كدليل على حسن النوايا أن تستبدل ضمانات عصبة الأمم للدانزك باتفاقية ألمانية بولندية حول الشكل القانوني للمدينة الحرة.

وكتب (بيك) في المذكرة التي قرأها (لپسكي) على مسامع ريبنتروب "... وكل حل آخر، وبخاصة أي محاولة لضم المدينة الحرة إلى الرايخ ستؤدي إلى صدام مسلح لا محالة". وأضاف يقول إن المارشال بلسودسكي Pilsudski دكتاتور بولندا الراحل انذر الألمان في ١٩٣٤ أثناء المفاوضات على ميشاق عدم الإعتداء بأن "مسألة الدانزك هي المرآة cirterion الأكيدة لمقياس نوايا الألمان تجاه بولندا". لم يكن هذا الرد يتفق مع ذوق ريبنتروب "فأسف على الموقف الذي اتخذته (بيك)" ونصح البولنديين بأن المقترحات الألمانية "تستأهل منهم المزيد من التأمل وإنعام النظر"^(٣). وكان جواب هتلر على الرفض البولندي أشد وأنكى. ففي ٢٤ تشرين الثاني. بعد حديث (ريبنتروب-لپسكي) أصدر أمراً إنذارياً إلى القادة العاملين للقوات المسلحة.

سري للغاية

هذا هو أمر (الزعيم): بغض النظر عن الإحتمالات الثلاثة المتوهم بها في الأوامر ٣٨/٢١/١٠^(٤) يجب أن تتخذ الإستعدادات أيضاً لمعاونة (الدولة الحرة) الدانزك على إحتلال القوات الألمانية لها بعملية مباغتة.

يجب أن تتم الإستعدادات على الأسس التالية: الهدف هو إحتلال للدانزك شبه ثوري. Quosi rev-olutionary باستغلال وضع سياسي موآت، ولا حرب مع بولندا^(٥).

القوات التي ستستخدم لهذا الغرض يجب ألا تخصص في الوقت عينه لإحتلال منطقة (ممل). حتى يمكن أن تتم العمليتان عند الضرورة في آن واحد. سيقوم الاسطول بمساندة العمليات البرية بالهجوم من البحر. إن خطط صنوف القوات المسلحة يجب أن يتم إرسالها في موعد آخره ١٠ كانون الثاني ١٩٣٩.

مع أن (بيك) انذر حصراً بأن كل محاولة ألمانية لأخذ الدانزك ستؤدي إلى صدام مسلح "لا محالة"، فإن هتلر كان قد أقنع نفسه أن بإمكانه الظفر بغايته دون وقوع حرب. فالنازيون المحليون يسيطرون على (الدانزك) وهم يتلقون تعليماتهم من برلين كما كان السوديت من قبلهم وليس من ٣- تعليمات بيك للسفير بتاريخ ٣١ تشرين الأول ١٩٣٨ (الكتاب البولندي الأبيض) رقم (٤٥) مؤامرة... ج ٧ الص ٤٨٤-٤٨٦]. محضر ريبنتروب عن الاجتماع مع لپسكي ١٩ تشرين الثاني. "وثائق سياسة ألمانيا الخارجية ج ٥ الص ١٢٧-١٢٩.

٤- أنظر كذلك (ص ٥٧٨) "العوارض" الثلاثة هي تصفية بقية چيكوسلوفاكيا. وأخذ ممل وحماية حدود الرايخ.

٥- الخط ورد بالأصل.

العسير إثارة "شبه ثورة" هناك.

ولهذا كان هتلر مشغولاً في ختام ١٩٣٨ (وهو العام الذي شهد إحتلال النمسا والسوديت دون قتال) بفتوح جديدة، هي بقية چيكوسلوفاكيا. ومِمِل والدانزك. كان سهلاً عليه إذلال (شوشنك وبينيش) والآن جاء دور (يوزف بيك).

غير ان هتلر لم يكن في موقف يستطيع فيه ان يعامل الوزير البولندي معاملة شوشنك ومن بعده بقليل الرئيس هاشا عندما استقبله في برختسگادن بعد عيد رأس السنة ببضعة أيام (٥ كانون الثاني ١٩٣٩) إذ ينبغي أولاً ابتلاع البقية الباقية من چيكوسلوفاكيا. ولذلك كان في حالة نفسية راضية كما اتفقت عليه المحاضر الألمانية والبولندية للإجتماع. وبدأ بالقول انه "على أتم إستعداد ليكون في خدمة بيك" وسأله "أهناك شيء خاص يجول في مخيلة وزير الخارجية؟" فأجاب (بيك) ان الدانزك تشغل فكره. وقد اتضح انها كانت تشغل بال هتلر أيضاً.

ذكر هتلر ضيفه بقوله "الدانزك هي ألمانية، وستبقى الى الأبد ألمانية، وستصبح جزءاً من ألمانيا عاجلاً أم آجلاً، على أنه يستطيع ان يتعهد "بالأ يخلق حالة الأمر الواقع Fait accompli في الدانزك". اراد الدانزك ورغب في ان يشق أوتويان وسكة حديد يمران عبر الممر البولندي، فان تخلى هو (وبيك) عن "الاصول القديم وشرعا في محاولة إيجاد حلّ على اسس جديدة تماماً" فهو متأكد من وصولهما الى إتفاق يكون فيه نفع وعدل للبلدين.

لكن (بيك) لم يكن واثقاً من هذا. على انه لم يشأ التصلب في موقفه مع الزعيم (كما قال لريبنتروب في اليوم التالي)، ولذلك أجابه "إن مشكلة الدانزك صعبة جداً". واضاف يقول "انه لايجد في إقتراح هتلر أي معاوضة من جهة بولندا" فراح هتلر يلوح "بالمنفعة الكبرى" التي تجنيها بولندا، حين تصبح حدودها الألمانية وبضمنها الممر - مضمونة "بمعاهدة". والظاهر ان هذا القول لم يحدث تأثيره المنشود في (بيك) إلا أنه وافق أخيراً على ان يديم التفكير في المسألة^(٦).

بعد ان قلب وزير الخارجية البولندية وجوه الرأي في المسألة طوال الليل، اجتمع بالوزير ريبنتروب (مونيخ) صبيحة اليوم التالي ورجا منه إبلاغ (الزعيم) انه وبعد ان ملأته كل أحاديثهما السالفة تفاؤلاً وآمالاً طيبة، وجد نفسه يوم أمس بعد مقابلة هتلر "متشائماً لأول مرة، وبخاصة في مسألة الدانزك. فهي كما عرضها له المستشار "مجردة عن أي إحتمال للإتفاق"^(٧).

اقتضى وقت طويل للعقيد (بيك) ليستفيق من غفلته ويتبنى نظرة التشاؤم تلك، ككثير ممن ورد ذكرهم في الصحائف السالفة. لقد كان خصماً عنيداً لروسيا مثل معظم رجال الحكم في بولندا ومما

٦- المحضر الألماني للإجتماع. كتبه الدكتور شميدت [وثائق عن سياسة... ج٥ ص١٥٢-١٥٨. الملاحظات البولندية (الكتاب البولندي الأبيض) رقم ٤٨ [مؤامرة... ج٨ الص ٤٨٦-٤٨٨ [الوثائق، ٧٣٠ TC].

٧- محضر ريبنتروب للإجتماع [وثائق... ج٥ الص ١٥٩-١٦١. الملاحظات البولندية (الكتاب الأبيض) رقم ٤٩ [مؤامرة... ج٨ ص٤٨٨ [الوثائق ٧٣ TC].

زاد في الطين بلة انه كان يكره الفرنسيين أيضاً ويحمل في قلبه لهم ضغنا وحقداً منذ ١٩٢٣. أيام كان ملحقا عسكرياً في باريس، وطرد من البلاد بسبب قيامه ببيع وثائق تتعلق بالجيش الفرنسي على ما قيل. أو لربما كان الميل الى ألمانيا طبعاً في هذا الرجل الذي أصبح وزير خارجية بلاده منذ ١٩٣٢. لقد شعر بعطف شديد على الدكتاتورية النازية منذ البداية وكافح طوال السنوات الست الماضية لتوثيق علاقات بلاده مع الرايخ الثالث وإضعاف روابطها التقليدية مع فرنسا.

كانت بولندا الدولة الأولى بين جميع الدول التي تتاخم الحدود الألمانية، التي يحق لها أكثر من غيرها التوجس خيفة من جارتها في الزمن البعيد. فإذا بها أشدّ عما من سائر الدول عن الخطر الألماني وليس في معاهدة فرساي شرط يشير الحفيظة الألمانية كالشرط الذي أوجد (الممر البولندي) ومنح البلاد منفذاً الى البحر وفصل بروسيا الشرقية عن بقية الرايخ. ولم يكن سخط الرأي العام الألماني بأقل ثورة لفصل مرفأ الدانزك الهانسياتي Hanseatic العتيق، عن جسم ألمانيا وجعله (مدينة حرة) تدار بإشراف عصبة الأمم وسيطر عليها الإقتصاد البولندي. حتى جمهورية فايمر الضعيفة المسالمة - لم ترض بما اعتبرته تشويهاً بولندياً للرايخ الألماني. وقد مرّ بنا كيف حدد الجنرال (فون سيكت) مهمة الجيش الألماني منذ ١٩٢٢ (انظر ما سبق):

"إن الكيان البولندي لا يمكن إحتمال وجوده، وهو يناقض شروط الوجود الألماني الأساسية. يجب القضاء على بولندا، وسيقتضى عليها نتيجة الضعف الداخلي الذي ينخر فيها، ويعمل بياشده الروس، باسناد من... إن القضاء بولندا يجب ان يكون أحد أهداف السياسة الألمانية والوصول اليه [يجب]... ان يكون بمبادأة روسيا، ومساندتها. انها لبنوءة وايم الله!

نسي الألمان أو لعلهم تناسوا ان كل الأرض الألمانية التي ضمتها فرساي الى بولندا ومنها اقليم بوزن واقليم پوميرانيا البولندية Pomorze، وهي الأراضي التي تؤلف (الممر)، كانت بروسيا قد نهبتها عنوة زمن التقسيم عندما قضى الحلف البروسي-النمساوي-الروسي على إستقلال البلاد. هذه البقاع كانت موطن البولنديين منذ أكثر ألف عام وقد ظلت حتى الآن على مدى واسع.

لم يمر بلد اعيد خلقه في فرساي مثلما مرت به بولندا من مصاعب وأهوال، ففي السنوات الأولى المضطربة من ميلادها شنت حربا عدوانية على روسيا وليتوانيا وألمانيا حتى چيكوسلوفاكيا (اقتتلت معها حول منطقة تيشن الغنيّة بالفحم). وبسبب حرمان البولنديين من حريتهم السياسية زهاء قرن ونصف قرن، وافتقارهم التام الى التجربة في الحكم الذاتي، تعذر عليهم ان ينشئوا حكومة مستقرة أو ان يباشروا حلّ مشاكلهم الزراعية والإقتصادية. وفي ١٩٢٦ زحف المريشال (پلسودسكي) بطل ثورة ١٩١٨ وقبض على زمام السلطة في وارشو ومع انه كان من الإشتراكيين السابقين الا انه استبدل النظام الديمقراطي المضطرب بدكتاتوريته. ومن آخر أعماله قبل وفاته في ١٩٣٥ توقيع معاهدة عدم إعتداء مع هتلر. في ٢٦ كانون الثاني ١٩٣٤. وهي كما مرّ بنا أول خطوة لنسف سلسلة الأحلاف الفرنسية مع جيران ألمانيا الشرقيين وإضعاف عصبة الأمم وميثاقها في الضمان الجماعي. وبعد وفاة

(پلسودسكي) حكمت بولندا معظم الوقت عصبة صغيرة من "العقدا"، وهم أمراء الوحدات الذين حاربوا الإتحاد السوفيياتي تحت أمرة پلسودسكي. وكان يقوم على رأسهم الآن المريشال سمگلي-ريدز Smigly-Rydz جندي كفؤ إلا أنه جاهل في أمور السياسة، ووضعت السياسة الخارجية في يد العقيد (بيك) فأصبحت منذ ١٩٣٤ فصاعداً موالية للألمان.

كانت سياسة انتحارية لاشك فيها. ولايسع المرء المتأمل في وضع بولندا في عالم أوروبا عقب فرساي إلا الاستنتاج بأن البولنديين في العقد الثالث من القرن التاسع عشر كانوا يندفعون إلى إلحاق الدمار بانفسهم كما فعلوا أحيانا خلال القرون الماضية، حتى لكان نقصاً في طباعهم القومية يحتشهم غريزياً إلى الكارثة أو أنهم في هذه الفترة من الزمن بدوا كما كانوا أحيانا في الماضي أعدى أعداء أنفسهم! فبدوام وجود الدانزك والممر البولندي لن يكون ثم سلم دائم بين ألمانيا النازية وبين بولندا، ولم تكن بولندا قوية إلى درجة تسمح لها بمعادة جارتها الجارتين روسيا وألمانيا في وقت واحد. لقد ظلت علاقاتها مع الإتحاد السوفيياتي منذ عام ١٩٢٠ سيئة لم يطرأ عليها أي تغيير إلى الأحسن عندما هاجمتها مستغلة ضعفها بسبب الحرب العالمية الأولى والحروب الأهلية فنتج عن هذا صدام وحشي عنيف^(٨).

انتهاز هتلر فرصة الفوز بصدقة دولة شديدة العداء للإتحاد السوفيياتي وفي عين الوقت أخرج تلك الدولة من نطاق (جنيف) وأحلاف باريس فنسف نظام فرساي بالنتيجة. فكان السباق إلى إقتراح عقدالمعاهدة الألمانية البولندية في ١٩٣٤ ولم تتمش مع ذوق الرأي العام الألماني وحقد عليها الجيش الذي كان يميل إلى روسيا ويعادي بولندا منذ أيام (فون سيكت) إلا أنها خدمت هتلر خدمة ممتازة في حينه. إذ ساعدته صداقة بولندا الحميمة على إنجاز ما يجب إنجازه أولاً، فاحتل الراين، وقضى على إستقلال النمسا وچيكوسلوفاكيا. وفي كل هذه الخطوات التي قوت ألمانيا وأضعفت الغرب وهددت الشرق كان (بيك) وزملاؤه العقدا في وارشو ينظرون نظرة السماح الاريحي وهم في عماهم المطلق الذي لايمكن تفسيره، سادرون.

إن كانت نزعة التشاؤم غلبت على وزير الخارجية البولندي في مستهل السنة الجديدة بسبب مطالب هتلر فإن معنوياته أصابها تدهور كبير بقدوم الربيع. ومع ان هتلر في الخطاب الذي ألقاه يوم ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٩ على الرايخشتاغ أشاد "بالصداقة بين ألمانيا وبولندا" وصرح أنها "واحدة من عوامل الثبات والاستقرار في حياة أوروبا السياسية" فان ريبنتروب زاد في صراحته عندما قام بزيارة رسمية لوارشو قبل ذلك بأربعة أيام. مشيراً مع (بيك) مرة أخرى مسألة مطالب هتلر بخصوص

٨- كانت نتيجة الحرب ان دفعت حدودها الشرقية بمقدار (١٥٠) ميلاً وراء خط (كرزن) الاثنوغرافي على حساب الإتحاد السوفيياتي وبذلك ضمت اليها (٤٠٥) مليون أوكراني. و(١٠٥) مليون روسي أبيض لذلك لم تكن حدود بولندا الشرقية والغربية مقبولة لا من ألمانيا ولا من الإتحاد السوفيياتي. تلك حقيقة يظهر ان الديمقراطيات الغربية غفلت عنها عندما بدأت موسكو وبرلين تتقاربان في صيف ١٩٣٩.

(الدانزك) وانشاء خطوط مواصلات عبر (الممر) مؤكدا انها مطالب "معتدلة للغاية". الا انه لم يحصل من وزير الخارجية البولندية على جواب مرض لا فيما يتعلق بهذه المسائل، ولا فيما يخص الانضمام الى ميثاق مكافحة الكومنترن^(٩).

وبدا الحذر يداخل (بيك) من أصدقائه هؤلاء، في الواقع ركبه القلق وتناهبته الشكوك. وفي ٢٦ شباط أنبأ السفير الألماني في وارشو مرجعه في برلين ان (بيك) فاتح لندن لدعوته الى زيارة رسمية في نهاية آذار، وانه قد يمر بباريس فيما بعد وكما عبر عنه السفير مولتكه "ان بولندا ترغب في الاتصال بالديمقراطيات الغربية... [خوفاً] من احتمال نشوب نزاع مسلح بينها وبين ألمانيا على الدانزك"^(١٠) وان جاء الأمر متأخراً...

وإنتبه (بيك) كغيره من حاول إرضاء هتلر وإشباع شهوته العظيمة، من غفلته وشعر بعقم مجهوداته الاولى كما شعر الكثيرون قبله. وهبطت مقاييسه تماماً والى الابد. في ١٥ آذار عندما احتل هتلر (بوهيميا ومورافيا) وارسل جنده لحماية سلوفاكيا "المستقلة". صحت بولندا في صبيحة ذلك اليوم لتجد نفسها والجيش الألماني محدد بها من الجنوب على طول حدود سلوفاكيا. كما كان الحال في الشمال على حدود بوميرانيا وپروسيا الشرقية. في عشية وضحاها أصبح موقعها الاستراتيجي مما لا يمكن الدفاع عنه عسكرياً.

٢١ آذار ١٩٣٩، هو يوم سيذكر في قصة انحدار أوروبا الى هاوية الحرب.

كان ثم نشاط دبلوماسي محموم في برلين ووارشو ولندن، يومئذ وصل رئيس جمهورية فرنسا يرافقه وزير الخارجية (بونيه) بزيارة رسمية للعاصمة البريطانية واقترح چمبرلين على الفرنسيين ان تنضم بلادهما الى بولندا والاتحاد السوفياتي في تصريح رسمي يؤكد عزم الدول الأربعة على التشاور فيما بينها حالاً حول الخطوات المقتضية لوقف أي عدوان آخر في أوروبا. وقبلها بثلاثة أيام كان (ليتفينوف) قد اقترح - كما اقترح قبل سنة واحدة بعد ضم النمسا - عقد مؤتمر أوروبي يكون مؤلفاً هذه المرة من فرنسا وبريطانيا وبولندا وروسيا ورومانيا وتركيا، تتحد معاً لكبح جماح هتلر، إلا ان رئيس الوزراء البريطاني وجد الفكرة في حينها "سابقة لأوانها" وكان كثير التوجس والشك من موسكو، ورجح ان "تصريحاً" لأربع دول يكون الاتحاد السوفياتي طرفاً فيه، هو أكثر مما يطيقه^(١١).

٩- محضر رينتروب للإجتماع مع بيك في وارشو ٢٦ كانون الثاني ١٩٣٩ [وثائق عن... ج ٥ الص ١٦٧-١٦٨. رواية بيك مثبتة في (الكتاب الابيض) رقم ٥٢.

١٠- تقرير مولتكه ٢٦ شباط ١٩٣٩، وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٦ ص ١٧٢.

١١- كتب چمبرلين في رسالة خاصة مؤرخة ٢٦ آذار "عليّ ان أقر بشكي العميق في روسيا. اني لا أثق مثقال ذرة بمقدرتها على القيام بهجوم فعال حتى إن كان لديها الرغبة في ذلك. وأنا لا أثق بنواياها ايضاً... زد على ذلك أن عدداً كبيراً من الدول الصغيرة يكرهها ولا يثق بها واخص بالذكر بولندا ورومانيا وفنلندا!" (فيلينك - حياة نيغيل چمبرلين ص ٦٠٣).

وقدم السفير البريطاني في وارشو إقتراحه للوزير (بيك) في اليوم نفسه (٢١ آذار) فلقبي قبولاً بارداً نوعاً ما لوجود روسيا فيه. كان وزير الخارجية البولندي أكثر شكاً وتوجساً من چمبرلين فيما يتعلق بالإتحاد السوفيياتي، زد على ذلك انه كان يتفق في الرأي مع چمبرلين حول تفاهة قيمة المساعدة العسكرية السوفيتية وقد ظلّ مصراً على وجهة نظره هذه إصراراً عنيداً حتى وقعت الواقعة. وحلّت بيلاده الكارثة.

الأ أن الحدث الأبلغ اثراً على مصير پولندا، في هذا اليوم (٢١ آذار) وقع في برلين. دعا ريبنتروب السفير البولندي لمقابلته عند الظهر وذكر (لپسكي) في تقرير تال ان وزير الخارجية لم يكتف باظهار الجفاء بل كان خشناً فظاً. وأنذره ان (الزعيم) "يزداد دهشة لموقف پولندا" وان ألمانيا تريد جواباً مرضياً على طلباتها للدانزك وللطريق والسكة الحديد عبر الممر. وتلك هي شروط دوام علاقات الصداقة البولندية الألمانية. وقال ريبنتروب بصراحة "على پولندا ان تدرك انها لاتستطيع ان تسلك سبيلاً وسطاً بين روسيا وألمانيا". وخلصها الوحيد هو "الابقاء على علاقات معقولة مع ألمانيا (الزعيم)" وهذا يشمل سياسة مشتركة "معادية للسوفيت" فضلاً عن ان (الزعيم) يرغب في ان يقوم (بيك) "بزيارة مستعجلة لبرلين" ونصح السفير البولندي بشدة ان يقوم في الوقت نفسه بالاسراع الى وارشو وشرح حقيقة الموقف شخصياً لوزير الخارجية البولندي وان يبلغه "ان الحديث [مع هتلر] يجب ألا يتأخر لئلا يستنتج المستشار ان پولندا ترفض كل عروضه"^(١٢).

- ٢ -

عدوان صغير بينَ بَيْنَ

سأل لپسكي ريبنتروب، قبل تركه فلهلمشتراسه، هل يستطيع ان يعلمه بشيء عما دار بينه وبين وزير ليتوانيا من حديث؟ فأجاب ريبنتروب إنهما بحثا مسألة (مِمل) التي "تستدعي الحل" حضراً. والحقيقة هي ان ريبنتروب استقبل وزير الخارجية الليتواني (يوساز اوربايس Juozas Urbys) الذي كان ماراً ببرلين من رحلته الى روما، قبلها بيوم وطلب ان تسلم ليتوانيا منطقة (مِمل) الى ألمانيا في الحال، وإلا "فإن الزعيم سيعمل بسرعة البرق". وأنذره بان على الليتوانيين ألا يخدعوا أنفسهم حين يتوقعون "نوعاً من المعونة الخارجية"^(١٣). والواقع ان السفير الفرنسي قبلها ببضعة أشهر قام هو والقائم بالأعمال البريطاني في ١٢ كانون الأول ١٩٣٨ بجلب انتباه الحكومة الألمانية الى التقارير التي تشير الى أن السكان الألمان في (مِمل) يدبرون ثورة وطلبوا منها استخدام نفوذها لإحترام الحالة

١٢- تقرير لپسكي الى وارشو عن الاجتماع. (الكتاب الابيض) رقم ٦١، [المؤامرة... ج ٨ الص ٤٨٩-٤٩٢] (الوثائق ٧٣ TC) رقم ٦١. محضر ريبنتروب للإجتماع: وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٦ الص ٧٠-٧٢.

١٣- تقرير وزارة الخارجية عن الاجتماع، وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٥ الص ٥٢٤-٥٢٦.

القانونية في (مِمل) التي ضمنتها كل من بريطانيا وفرنسا. فأعربت وزارة الخارجية في ردها عن "دهشتها واستغرابها" للتدخل الدبلوماسي الفرنسي-البريطاني. وامر ريبنتروب، في حالة إتخاذ السفارتين خطوات أخرى مثل هذه، ان تبْلغا "باننا في الحقيقة كنّا نتوقع ان التعب قد أصاب البريطانيين والفرنسيين من جراء كثرة تدخلهم في شؤون ألمانيا^(١٤).

مضت برهة من الوقت على الحكومة الألمانية وبخاصة الحزب وقادة الحرس الأسود وهم ينظمون ألمان (مِمل) على الخط الذي أصبح الآن مألوفاً لدينا من حادثتي النمسا والسوديت. فقد طلبت القوات المسلحة الألمانية للتعاون. ومررنا (انظر ما سبق) كيف أمر هتلر - بعد ثلاثة أسابيع من مونيخ، قادة القوات المسلحة باعداد خطة إحتلال (مِمل) جنبا إلى جنب مع خطة تصفية چيكوسلوفاكيا. ولما لم تتح الفرصة للأسطول لينال مجداً في السوديت والنمسا التي تحيط بها اليابسة لذلك قرر هتلر ان تؤخذ (مِمل) من البحر. وفي شهر تشرين الأول وضعت الخطط البحرية تحت الإسم الجفري "تمرين نقل شتيتن Statin" وكان هتلر والاميرال (رايدر) شديديّ الإهتمام باظهار جبروت الأسطول حتى انهما استقلا البحر من سفينمونيدي Swinemünde على ظهر بارجة الجيب (دويچلاند) الى (مِمل) في ٢٢ آذار بعد أسبوع واحد بالضبط من دخول الزعيم دخول الظافر الى (براغ)، قبل ان يتاح الوقت لليتوانيا المدومة الدفاع للإستسلام الى الإنذار الألماني.

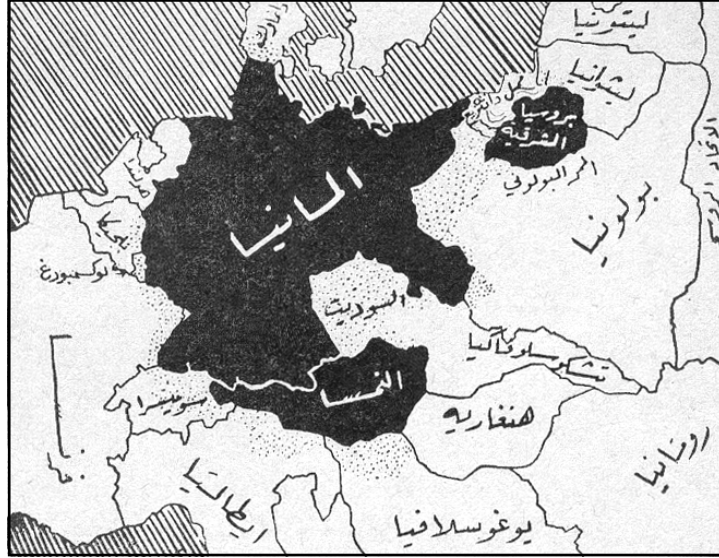
في ٢١ آذار أبلغ فايسيك (أعلن بعد زمن طويل اشمئزاه من وحشية الاساليب النازية) الحكومة الليتوانية انه "لا يوجد وقت يمكن اضاعته" وان مندوبيها فوق العادة المطلقي الصلاحية يجب ان يصلوا الى برلين "بطائرة خاصة غداً" لتوقيع وثيقة تسليم (مِمل) الى ألمانيا.

ووصل الليتوانيون بكل طاعة وخضوع عصر الثاني والعشرين من آذار، لكن رغم الضغط الألماني الذي مارسه ريبنتروب شخصياً يدفع من هتلر المصاب بداء البحر وهو على ظهر البارجة في عرض البحر فقد طال أمد تسليمهم. وكشفت الوثائق السرية المستولى عليها ان هتلر اتصل مرتين بالراديو من (دويچلاند) وسأل ريبنتروب. هل استسلم الليتوانيون كما أمروا؟ كان على الدكتاتور واميراله ان يعلموا هل سيشقان طريقهما الى (مِمل) بالقوة؟ وأخيراً إستطاع ريبنتروب في الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين من صباح ٢٣ آذار ان يرسل برقية راديو الى مولاه تحمل نبأ توقيع الليتوانيين على وثيقة التنازل^(١٥).

في الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين من عصر ٢٣ آذار، حقق هتلر دخلاً ظافراً آخر الى المدينة المحتلة. وفي دار أوبرا الدولة في (مِمل) ألقى خطاباً في حشد (متحمس من الألمان "المحررين"). وبهذا شطب على بند آخر من شروط معاهدة فرساي وحقق نصراً آخر دون إراقة قطرة دم إن كان آخر نصر من نوعه، فهو ما جهله هتلر.

١٤- المرجع السالف الص ٥٠٢-٥٠٤.

١٥- مصدر هذه العبارة: وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٥ الص ٥٢٨-٥٣٠.



خريطة الحرب - بولندا وتمر الدانزك

-٣-

الشّد على بولندا

إلحاق منطقة (مِمل) الفجائي بالرايخ الألماني "كان وقعه أليماً" على الحكومة البولندية كما وصفه السفير الألماني هانس أدولف فون مولتكه في تقرير له إلى برلين من وارشو في اليوم التالي. وأضاف قائلاً "والسبب الأساسي لهذا هو الخوف السائد من أن الدائرة ستدور الآن على الدانزك والممر^(١٦)".

كذلك اعلم وزارة الخارجية أن دعوة الإحتياط قد صدرت. وفي اليوم الثاني (٢٥ آذار) استخبر الاميرال (كاناريس) رئيس المخابرات في القوات المسلحة أن بولندا إستدعت للخدمة ثلاث طبقات من المكلفين. وانها تحشد جيوشاً حول الدانزك. ولم ير الجنرال كايتمل في هذا أي مظهر "لنية عدوانية بولندية" إلا أن هيئة الأركان العامة "أخذت الأمر مآخذاً جدياً نوعاً ما" كما لاحظ هو^(١٧).

عاد هتلر إلى برلين من (مِمل) في ٢٤ آذار. وفي اليوم التالي جرى حديث طويل بينه وبين الجنرال براوختش القائد العام. ومن مفكرة هذا الأخير السرية علمنا أن (الزعيم) لم يستقر رأيه بعد على الطريقة التي سيستخدمها مع البولنديين^(١٨). واقع الحال دماغه المصطخب الفائز كان يبدو مفعماً

١٦- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٦ ص ٩٧.

١٧- المرجع نفسه، الص ١١٠-١١١.

١٨- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٧ الص ٨٣-٨٦ الوثائق ١٠٠ R.

مصطخباً بأمواج من الأفكار المتناقضة. وكان موعد عودة السفير (لپسكي) الى برلين في اليوم التالي ٢٦ آذار. إلا أن (الزعيم) لم يشأ رؤيته.

"[كتب براوختش] سيعود لپسكي من وارشو نهار الأحد ٢٦ آذار. والسؤال الذي سيلقى عليه هو هل ان پولندا ستكون على إستعداد للوصول الى بعض التفاهم حول الدانزك؟ رحل (الفوهرر) مساء ٢٥ آذار انه لا يريد ان يكون هنا عند عودة لپسكي. سيفاوض ريبنتروب أولاً. وعلى كل فان الزعيم لا يريد حل مشكلة الدانزك بالقوة. لأنه لا يريد ان يدفع پولندا الى احضان بريطانيا العظمى بعمله هذا. لن يوضع إحتلال الدانزك عسكرياً موضع بحث الا اذا نوه لپسكي بأن الحكومة البولندية لا يمكن ان تأخذ على عاتقها مسؤولية اقتطاع الدانزك طوعاً أمام الشعب البولندي، وان الحل سيكون أسهل عليهم فيما لو تم ذلك بالقوة والرضوخ للأمر الواقع."

هذا استقراء جدير بالإهتمام لذهنية هتلر وسلوكه الشخصي في ذلك الحين. فقبل ثلاثة أشهر اكد (لبيك) شخصياً أنه لن تستخدم القوة وسياسة الأمر الواقع في الدانزك. على أنه لم ينس ان وزيرالخارجية البولندي شدد القول على ان الشعب البولندي لن يقف مكتوف اليدين ازاء عملية الإستيلاء على (الدانزك). فإن احتلها الألمان أفلا يسهل هذا "الأمر الواقع" على الحكومة البولندية قبول الأمر؟ الى هذا الوقت كان هتلر عبقرياً في تقدير درجة ضعف خصومه الأجانب، وعبقرياً في الاستفادة من هذا النقص فيهم استفادة كاملة. لكن احكامه هنا بدأ يظهر عليها التذبذب للمرة الأولى تقريباً. "العقدا" الذين يحكمون پولندا، زمرة من الرقعا المشوش العقل. إلا ان آخر شيء يفكرون فيه أو يعملونه أو يقبلون به انما هو "الأمر الواقع" في الدانزك.

كانت "المدينة الحرة" تحتل قمة تفكير هتلر، إلا انه كان ايضا يفكر في مايتلوها، مثلما فعل بخصوص چيكوسلوفاكيا بعد ان منحته (مونيخ) أرض السوديت.

[كتب براوختش] "في الوقت الحاضر، لاينوي (الزعيم) حل المسألة البولندية. على انه يجب العمل فيها. إن حلاً في المستقبل القريب يجب ان يكون مستنداً الى ظروف سياسية مواتية جداً. وفي هذه الحالة ستصحى پولندا بضربة قاضية فلایعود يحسب لها أي حساب كعامل سياسي للسنوات العشرين التالية. و(الزعيم) يحبذ حلاً كهذا، خط حدود متقدم من الحدود الشرقية لپروسيا الشرقية الى النهاية القصوى لسیلیزيا العليا."

وبراوختش يعلم حق العلم ما هو القصد بتلك الحدود. انها حدود ألمانيا ما قبل الحرب العالمية، أزالنها فرساي. والوصول اليها لا يتم إلا بالقضاء على پولندا.

لو كان في نفس هتلر أي شك عما سيكون الرد البولندي فقد تبدد عند عودة السفير (لپسكي) الى برلين في ٢١ آذار وقدم جواب بلاده بشكل مذكرة مكتوبة^(١٩) قرأها ريبنتروب حالاً ورفضها

١٩- النص [وثائق عن... ج ٦ الص ١٢٢-١٢٤] تقرير ريبنتروب عن إجتماع ٢٦ آذار مع لپسكي، المرجع السالف الص ١٢١-١٢٢. النسخة البولندية (الكتاب الابيض) رقم ٦٣.

وراح يندد بإجراءات النفي التي اتخذتها بولندا وانذر المبعوث "بالآثار المحتملة". وصرح قائلاً أيضاً، أن أي خرق لحدود (الدانزك) تقوم به القوات البولندية سيُعتبر عدواناً على الرايخ. تضمن الرد البولندي ذو اللهجة الهادئة المؤدية رفضاً حازماً لمطالب الألمان. واعرب عن الرغبة في إجراء مباحثات حول وسائل تسهيل الانتقال الألماني بطرق وسكك حديد عبر الممر، ورفض قبول تدويل هذه المواصلات. أما بخصوص الدانزك فإن الحكومة البولندية يسرها الاستعاضة عن إشراف عصابة الأمم بشخصيتها القانونية. بضمانة بولندية-ألمانية، إلا أنها لا تقبل بضم المدينة الحرة إلى ألمانيا لتكون جزءاً منها.

نصت معاهدة فرساي على إعطاء بولندا ممراً في منطقة بروسيا الغربية يضم ضفتي نهر الفيسستولا الأسفل. وجُعِلت مدينة الدانزك (نفوسها ٣٠٠ ألف معظمهم ألمان) مدينة حرة تحت حماية عصابة الأمم. على أن تقوم بولندا بإدارة علاقاتها الخارجية وأن تعين عصابة الأمم مندوباً سامياً للإشراف على إدارة المدينة. وفي بروسيا الشرقية جرى إستفتاء تم بموجبه تقسيم سيليزيا العليا بين بولندا وألمانيا.

في تلك الفترة لم تكن ألمانيا النازية متعودة على قيام بلاد صغيرة برفض مطالبها ووضح ريبنتروب (للپسكي). أن ذلك "يذكره بخطوات محفوفة بالأخطار اقدمت عليها دولة أخرى" وتلك إشارة بيّنة إلى مصير چيكوسلوفاكيا التي قامت بولندا بمعاونة هتلر على تقطيع أوصالها. وأصبح واضحاً كذلك للپسكي عندما استدعي ثانية إلى وزارة الخارجية ثاني يوم، أن الرايخ الثالث سيلجأ الآن مع بولندا إلى تاكتيك يماثل تماماً التاكتيك الذي حقق أعظم النجاح في النمسا وچيكوسلوفاكيا وراح وزير الخارجية النازي يرغي ويزيد حول إضطهاد مزعوم للأقلية الألمانية في بولندا الذي خلق "إنطباعاً جدّ سيء في ألمانيا" على حدّ تعبيره.

"وختاماً، بين وزير الخارجية [الألماني] أنه ما عاد يفهم بعد الآن الحكومة البولندية... فالمقترحات التي قدمها السفير البولندي يوم أمس لا يمكن أن تتخذ أساساً للتسوية. إن العلاقات بين البلدين والحالة هذه تتدهور وتزداد سوءاً بسرعة" (٢٠).

لم يدبّ الخوف في وارشو بسرعة كما دبّ في فيينا وبراغ. وفي اليوم التالي (٢٨ آذار) استدعى (بيك) السفير الألماني وأبلغه جوابه على تصريح ريبنتروب بأن عملاً عسكرياً بولندياً ضد الدانزك يتطلب ذريعة للتدخل Casus belli، فهو بدوره مضطر إلى أن يصرح بأن أي محاولة من ألمانيا أو مجلس شيوخ المدينة النازي لتغيير الكيان السياسي في المدينة الحرة ستعتبره بولندا (ذريعة للتدخل Casus belli) أيضاً. فهتف السفير: "أتريدون المفاوضة على سنان الحراب؟" فأجاب الوزير: "تلك هي طريقتكم الخاصة" (٢١).

٢٠- ملاحظات الدكتور شميدت عن الاجتماع وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية، ج ١٣٥-١٣٦.
٢١- تقرير مولتكه، المرجع السالف الص ١٤٧-١٤٨. الرواية البولندية له. (الكتاب الأبيض) رقم ٦٤.

كان وزير الخارجية البولندي الصاحي من النوم قادراً على تحدي برلين بأشدّ مما امكن بينيش. ذلك لأنه علم جيداً أن بريطانيا التي كانت قبل سنة تنهالك على معونة هتلر في الحصول على مايرغب من جيوكوسلوفاكيا، راحت الآن تسلك طريقاً مختلفاً تماماً بالنسبة إلى بولندا. وببك هو نفسه الذي نسف إقتراحاً بريطانياً بإعلان تصريح الدول الأربع لأن بولندا رفضت المساهمة مع الإتحاد السوفياتي في أيّ شيء وبأي شكل. وبدلاً من هذا اقترح في ٢٢ آذار على السر هوارد كينارد Sir Haward Kennard السفير البريطاني في وارشو. ابرام إتفاق سريّ أنكلو-بولندي فوراً لإجراء المشاورات بينهما في حالة وقوع تهديد بالهجوم من دولة ثالثة. إلا أن جمبرلين وهاليفاكس أرادا أن يذهبا إلى أبعد من مجرد "المشاوره" بعد أن اقلقتهما تحركات القوات الألمانية بالقرب من الدانزك والممر. تقارير الإستخبارات البريطانية بخصوص المطالب الألمانية من بولندا (وهي الأمور التي انكر بيك المحتال فضلاً عن وقوعها أمام البريطانيين).

في مساء الثلاثين من آذار قدم (كينارد) (لبيك) إقتراحاً بريطانياً فرنسياً لإبرام ميثاقاً تعاون متبادل في حالة الإعتداء الألماني^(٢٢)، لكن هذه الخطوة سبقتها أحداث. فقد وردت تقارير جديدة عن احتمال هجوم قريب على بولندا. مما حمل الحكومة البريطانية في مساء ذلك اليوم أن تسأل (بيك) هل يوجد لديه اعتراض على ضمانه بريطانياً مؤقتة من جانب واحد لإستقلال بولندا؟ وألحّ جمبرلين ألاّ يتأخر الجواب عن يوم الغد لأنه يريد الاجابة على سؤال برلماني حول الموضوع. فرد (بيك) بالألّا اعتراض لديه على ذلك (ويمكن للمرء أن يتصور مدى إرتياحه). في الواقع قال للسفير كينارد انه يوافق على ذلك بلا تردد".^(٢٣)

وفي اليوم التالي (٣١ آذار) أدلى جمبرلين كما مرّ بنا - بتصريحه التاريخي في مجلس العموم. قائلاً أن بريطانيا وفرنسا "ستبذلان للحكومة البولندية كل عون ممكن إلى أقصى طاقتيهما" إن هوجمت بلادها وإستعدت لمقاومة الهجوم (انظر ما سبق).

بدا الضمان البريطاني المنفرد في نهاية آذار ١٩٣٩، لكلّ شخص في برلين، بما فيهم المؤلف الذي كان فيها، أمراً مفاجئاً يصعب تصديقه بكلّ وقعه الحسن في بلاد الغرب، وفي شرقي ألمانيا. كان بوسع بريطانيا وفرنسا، بدعم الإتحاد السوفياتي أن تقوما بعمل حازم لايقاف هتلر بأقل التكاليف وأزهدا مرة بعد أخرى كما رأينا منذ ١٩٣٦ عندما زحف الألمان إلى منطقة الراين المنزوعة السلاح ثم

٢٢- في برقية التعليمات المرسلة إلى كينارد (و.س.ب.خ: ج ٤ رقم ٥٣٨) كان واضحاً أن روسيا ستكون في نجوة عن الموضوع: جاء فيها "لقد بات واضحاً أن محاولتنا في تشبيث الموقف قد تخفق إن أحيط الإتحاد السوفياتي علماً بصورة رسمية بمبادئ المشروع. ان البرقيات الأخيرة الواردة من عدة بعثات دبلوماسية لحكومة صاحب الجلالة حذرتنا بأن إدخال روسيا ليس قاصراً على تهديد مجهوداتنا البناءة بالإخفاق، بل ستؤدي إلى تقوية العلاقات الدولية مع ميثاق مكافحة الكومنترن. فضلاً عن الشعور بالقلق الذي يستحوذ على عدد من الحكومات الصديقة.

٢٣- انظر (و.س.ب.خ) ج ٤ رقم ٤٨٥ و ٥١٨ و ٥٣٨ (نص الإقتراح الأنكلو-فرنسي) ٥٦١ و ٥٦٣ و ٥٦٦ و ٥٧١ و ٥٧٣.

في ١٩٣٨ عندما استولوا على النمسا وعندما لوّحوا بشيخ الحرب الأوروبية فأخذوا السوديت، حتى قبل أسبوعين لما ابتلعوا چيكوسلوفاكيا. إلا أن چمبرلين الجائع الى السلم إستنكف، ولم يكتف بهذا بل خرج عن سبيله، وخاطر كما قال - بمستقبله السياسيّ وسمعته، ليعاون هتلر على الفوز بما يريد من الأراضي المجاورة لم يفعل شيئاً لإنقاذ إستقلال النمسا. ونسق جهوده مع الدكتاتور الألماني لتدمير إستقلال چيكوسلوفاكيا وهي البلاد ذات النظام الديمقراطي الحقيقي الوحيد بين جيران ألمانيا الشرقيين. والصديقة الوحيدة للغرب التي ساندت عصبة الأمم وفكرة الضمان الجماعي. لم يفكر حتى في القيمة العسكرية التي يجنيها الغرب من وجود خمس وثلاثين فرقة چيكوسلوفاكية حسنة التدريب جيدة السلاح محصنة وراء جبالها المنيعه بإستحكاماتها التي لاتتحم. في الوقت الذي تعجز بريطانيا عن إنزال أكثر من فرقتين الى فرنسا وعندما كان الجيش الألماني غير قادر على الحرب في جبهتين. أو حتى غير قادر على إختراق خطوط الدفاع الشيكية كما إعترف القادة الألمان أنفسهم. والآن، في عشية وضحاها، يقف چمبرلين في ذروة ردّ فعله المفهوم جيداً على اثر إحتلال هتلر چيكوسلوفاكيا، وبعد ان ضيّع عمداً بسفاهة وسوء تقدير ما ضيع من فرص كثيرة يقف الآن ليضمن ضمناً منفرداً بلاداً شرقية تسوسها حفنة بل عصابة من "العقداة" العابثين في السياسة كانوا الى ما قبل ساعة من الزمن يتعاونون مع هتلر تعاوناً وثيقاً، لحقوا كالضبياع بألمانيا لإقتطاع فلذة من چيكوسلوفاكيا. أولئك الذين باتت بلادهم مكشوفة عسكرياً، يتعذر الدفاع عنها بتلك المقترحات التي ساعدت الرايخ فيها كل من بريطانيا وپولندا^(٢٤). ولقد حمل وحده مخاطر "الساعة الحادية عشرة" هذه، دون ان يهتم بطلب العون من روسيا، بعد ان رفض مرتين خلال سنة واحدة مقترحاتها في القيام بعمل موحد إجماعيّ إزاء أي إعتداء نازي آخر. أخيراً عمل بالضبط الشيء الذي ظل أكثر من سنة يؤكد لبريطانيا بقوة انه لن يقدم عليه: ترك لدولة أخرى القرار في دخول بلاده الحرب من عدمه. ومهما يكن من أمر فإن خطوة رئيس الوزراء المفاجئة، وإن جاءت متأخرة. خلقت لهتلر ضعفاً جديداً

٢٤- لا يمكن ان يكون چمبرلين جاهلاً بضعف پولندا العسكري. فقد ارسل العقيد (سوورد Sword) الملحق العسكري البريطاني في وارشو بتاريخ ٢٢ آذار (قبل التاريخ أعلاه بأسبوع) بتقرير مطول الى لندن حول الوضع الاستراتيجي السيء جداً جاء فيه إنها "محاطة بألمانيا من ثلاث جهات" وأوضح قلة كفاءة القوات المسلحة البولندية وبخاصة العجز الذي تشكو منه في الأسلحة والتجهيزات الحديثة (المرجع السالف: رقم ٤٩٨). في ٦ نيسان، أثناء ما كان العقيد بيك في لندن يبحث في ميثاق المعونة المتبادلة، قام العقيد (سوورد) والملحق الجوي البريطاني قائد السرب فاچيل vachell بإرسال تقارير جديدة أبعث من الأولى على الخيبة واليأس وبين (فاچيل) أن سلاح الجو البولندي سيبلغ عدد طائراته خلال الإثني عشر شهراً القادمة (٦٠٠) طائرة كثير منها لا يمكن مقارنته بطائرات الألمان" وبين (سوورد) أن السلاح الجوي البولندي والجيش البولندي يعانيان نقصاً عظيماً في الأسلحة الحديثة، حتى أنهما لا يتمكنان إلا من إبداء مقاومة ضعيفة أمام هجوم عام ألماني على جميع الجبهات ولخص السفير كينارد تقرير ملحقه العسكري بإبلاغ لندن ان البولنديين عاجزون عن الدفاع عن الممر والحدود الغربية أمام الألمان وان عليهم التقهقر الى ماوراء (الفتسولا) في قلب پولندا وأضاف يقول "ان روسيا صديقة ذات أهمية عظيمة" لپولندا. (و.س.ب.خ) ج ٥ رقم ١٢.

تماماً. يظهر ان بريطانيا ستقف من الآن فصاعداً حائلاً بينه وبين قيامه بعدوانٍ جديد. لم يعد باستطاعته استخدام أسلوبه في الإستيلاء على بلاد واحدة في وقت واحد، في حين تقف الديمقراطيات الغربية على مبعدة تتباحث فيما ينبغي عمله. زد على هذا إن خطوة چمبرلين الجديدة تبدو أولى الخطوات الجدية نحو تأليف حلف دوليٍّ ضدَّ ألمانيا ان لم تنجح في تفاديه، فسيؤدي بها الى حالة التطويق نفسها التي كانت كابوس الرايخ الجاثم منذ عهد بسمارك.

-٤-

القضية البيضاء

أسلمت أنباء ضمان چمبرلين لهولندا، الدكتاتور الألماني الى واحدة من نوبات جنونه المألوفة وإتفق ان كان معه الأميرال (كاناريس) رئيس الإستخبارات في القوات المسلحة. وروى هذا، انه راح يتوثب في أرجاء الغرفة ويضرب بقبضته سطح المنضدة المرمرية، وقد قلب الغضب سحنته وهو يصيح متوعداً البريطانيين "سأطيح لهم عصيده تخنقهم خنقاً!"^(٢٥)

في اليوم التالي (١) نيسان. ألقى خطاباً في فلهمسهافن Wilhelmshaven بمناسبة إنزال البارجة (تريتنز). وكان حانقاً الى الحد الذي فقد ثقته بما يجري على لسانه، فأمر في آخر لحظة أن يلغى نقل خطبته الى الإذاعة اللاسلكية أثناء الخطاب. وان يعاد بثها فيما بعد من تسجيل صوتي يمكن إجراء تنقيح فيه^(٢٦). حتى النسخة المذاعة بعد التنقيح كانت ملأى بالتهديد لبريطانيا وهولندا.

"إن كانوا يتوقعون [حلفاء الغرب] ان تجلس ألمانيا اليوم صابرة الى آخر يوم بينما يقومون هم بخلق الدول التابعة وإطلاقها على ألمانيا، فهم يتوهمون ويخطئون في إعتبار ألمانيا اليوم هي ألمانيا ما قبل الحرب. وعلى من يعلن إستعداده لإلتقاط الكستناء من النار لتأكلها تلك الدول التابعة، عليه ان يدرك بأنه سيحرق أصابعه... وعندما يقولون في البلاد الأخرى انهم سيتسلحون ويتسلحون بالمزيد، فبوسعي ان اقول لهؤلاء الساسة ماييلي: "إنكم لن يتصيبوني بالإرهاق والعجز!" إني مصمم على السير قدماً في هذا الدرب."

٢٥- اقتبسها كيزيفيوس المرجع السالف ص ٣٦٣.

٢٦- في الواقع قطع الإتصال الإذاعي بشبكات إذاعات الراديو الأمريكية بعد بدء هتلر بخطابه فراحت التكنهات في نيويورك تقول انه اغتيل. وكنت في الغرفة المركزية لقسم الموجة القصيرة في دار الإذاعة اللاسلكية ببرلين أشرف على الإتصال بشركة شبكات إذاعة (كولومبيا) في نيويورك عندما قطع البث على حين غرة. ورد الموظفون الألمان على احتجاجاتي بأن أمر القطع صدر من هتلر نفسه. وبعد مرور ١٥ دقيقة إتصلت بي شركة (CBS) تلفونيا من نيويورك للتأكد من إشاعة الإغتيال وكان يمكنني نفيها بسهولة لأنني كنت أسمع أثناء المكالمات صوت هتلر يلعلع من خلال إتصال تلفوني مفتوح الى فلهمسهافن. في ذلك اليوم كان يصعب جداً إطلاق النار على هتلر لأنه كان يقف وراء صندوق زجاجي لا يخترقه الرصاص.

كان هتلر حريصاً - كما دلّ عليه إلغاء إذاعة خطابه بصورة مباشرة على ألا يستفز الرأي العام الخارجي بدرجة كبيرة. وكان قد تردد في برلين ذلك اليوم انه سيلغي المعاهدة البحرية الأنكلو-ألمانية، كأول ردّ على جمبرلين إلا انه لم يزد في خطابه عن التصريح بأنه ان لم تشأ بريطانيا الإستمرار في المعاهدة فإن ألمانيا "ستقبل الأمر بكل هدوء".

وإنتهى هتلر كما إنتهى من أكثر خطبه بترديد نعمة السلم القديمة المألوفة، ليس لألمانيا نية مهاجمة الآخرين... "وإنطلاقاً من هذا الإيمان قررت قبل ثلاثة أسابيع تسمية مؤتمر الحزب السنوي القادم "بمؤتمر الحزب للسلم" وهو شعار أصبح يقدم صيف ١٩٣٩، مدعاة للسخرية والدعاية أكثر فأكثر. كان ذلك للإستهلاك المحلي. أمّا جواب هتلر الحقيقي فقد أعطاه بأتمّ ما يمكن من السريّة لكلّ من (جمبرلين وبيك) بعد يومين (في ٣ نيسان). وكان على شكل أمر سري للغاية موجّه الى القوات المسلّحة. لم يعمل منه غير خمس نسخ وأختير له عنوان "القضية البيضاء" وهو اسم جفري، رنّ صده الواسع في تاريخ العالم الآتي.

سريّ للغاية القضية البيضاء

الموقف البولندي الجديد يتطلب... الشروع بالإستعدادات العسكرية لإزالة أيّ تهديد من هذه الجهة والى الأبد عند الضرورة. أولاً: المتطلبات السياسية والأهداف: ...الهدف تحطيم القوة العسكرية البولندية وخلق حالة في الشرق، ترفض متطلبات الدفاع الوطني. إن مدينة دانزك الحرة، ستعلن جزءاً لايتجزأ من أرض الرايخ حال بدء الأعمال الحربية، كأخر موعد.

يرى القادة السياسيون أنّ من واجبهم في هذه الحالة، عزل بولندا إن أمكن ذلك، أعني قصر رقعة الحرب على بولندا فقط.

إن تطور الازمات المتزايدة الداخلية في فرنسا والحذر الذي سببته في بريطانيا قد ينجّم عنها الموقف المنشود الذي نريد في المستقبل غير البعيد جداً.

تدخلّ الإتحاد السوفياتي... لاينتظر أن يكون له أية فائدة لبولندا... موقف إيطاليا قرره محور برلين روما.

ثانياً: النتائج العسكرية:

إن الاهداف العظمى لتحشيد القوات المسلحة الألمانية ستظلّ مرتبهة بالموقف العدائي الذي تقفه الديمقراطيات الغربية. و"القضية البيضاء" هي بمثابة تنمة لهذه الإستعدادات يليها الحذر.

ان عزل بولندا سيتحقق بأسهل وأسرع ما يمكن، حتى بعد بدء الأعمال العسكرية. إن نجحنا في افتتاح الحرب بضربات قاصمة مباغتة والحصول على نصر سريع...

ثالثاً: مهام القوات المسلحة:

إن المهام الملقاة على عاتق (الفيروماخت) هي تحطيم القوات المسلحة البولندية. ولتحقيق هذا المطلب يجب ان يهيأ هجوم مباغت، وينفذ.
اما عن الدانزك:

"إحتلال مباغت للدانزك يمكن ان يتحقق بمعزل عن "القضية البيضاء" بإستثمار موقف سياسي مناسب... الإحتلال يقوم به الجيش منطلقاً من بروسيا الشرقية. سيقوم الأسطول بمساندة عملية الجيش بالتعرض من جهة البحر."

"القضية البيضاء" وثيقة طويلة فيها عدة "تعقيبات" و"ملاحق واستطرادات". و"أوامر خاصة"، ومعظمها أعيدت كتابته منقحاً في ١١ نيسان. واضيف اليه أيضاً مواد فيما بعد بدو موعده العمليات الحربية. إلا ان (هتلر) ألحق بها في ٣ نيسان الأوامر التالية:
(أ) يجب ان تتم الإستعدادات بشكل يمكن البدء بالعملية في أي وقت إبتداءً من أيلول ١٩٣٩ وما بعده. أما بخصوص التاريخ فهو كالموعد الذي عينه هتلر لغزو السوويت (١ تشرين الأول ١٩٣٨) ثبتته قبل زمن طويل من بدء العملية وكان أميناً على هذا التاريخ المهم جداً (١ أيلول ١٩٣٩) وبريه.

(ب) إن القيادة العليا للقوات المسلحة (ق.ع.ق.م) مكلفة بوضع جدول توقيت مضبوط "للقضية البيضاء" وان تنظم تنسيق التوقيت بين الفروع الثلاثة (للفيروماخت).
(ج) إن خطط صنوف الفيروماخت وجدول الأوقات المفصلة، يجب ان تكون في حوزة (ق.ع.ق.م) في موعد آخره ١ أيار ١٩٣٩.^(٢٧)

والقضية الآن هي: هل يتمكن هتلر من تحطيم معنوية البولنديين الى الحد الذي يقبلون بمطالبه كما فعل في النمساويين وبالحيك (بمعونة چمبرلين) أو أن تصمد بولندا وتقاوم العدوان النازي إن جاءها يسعى. وإذا اختارت السبيل الثاني فبأي شيء؟ قضى المؤلف الأسبوع الأول من نيسان في بولندا بحثاً عن الأجوبة. فتوصل الى أن البولنديين لن يرضخوا لتهديد هتلر وسيقاتلون إن تعرضت بلادهم للغزو. ألا أن وضعهم السياسي والعسكري كان يرثى له. فقوتهم الجوية عتيقة غير صالحة للإستعمال، وجيشهم مختل النظام ووضعهم السوقي (كان الألمان يطوقونهم من جهات ثلاث) ميئوس منه تقريباً. زد على ذلك ان تقوية الألمان جدارهم الغربي يجعل من الصعب جداً القيام بهجوم أنكلو-فرنسي على ألمانيا في حالة الهجوم على بولندا، وأخيراً فإن (العقدا) البولنديين العنيدون لا يقبلون بأي عون روسي، حتى ولو وصل الألمان أبواب وارشو!

٢٧- نص القضية البيضاء في [مؤامرة النازيين... ج ٦ الص ٩١٦-٩٢٨] ترجمة جزئية لها في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٦ الص ١٨٦-١٨٧ و ٢٢٣-٢٢٨] (الوثائق C١٢٠) نص الأصل الألماني في [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج ٤ الص ٣٨٠-٤٢٢]

وتلاحقت الأحداث بسرعة. في ٦ نيسان وقع (العقيد بيك) إتفاقية مع بريطانيا العظمى في لندن، محولاً الضمانة من جانب واحد الى معاهدة تعاون متبادل مع بريطانيا. وأعلن ان معاهدة دائمية ستوقع حالما تتم التفاصيل.

في اليوم التالي (٧ نيسان) أرسل موسوليني جيشه الى ألبانيا. وأضاف هذه الدويلة الجبلية الى فتوحه الحبشي. وبهذا حصل على نقطة وثوب الى اليونان ويوغوسلافيا. وزاد هذا من رعب الدول الصغيرة التي قد تجرؤ على تحدي المحور في جو أوروبا المتوتر هذا. وقد كشفت أوراق وزارة الخارجية الألمانية بأنها كانت على علم مسبق بهذه الخطوة. وفي ١٣ نيسان أجابت فرنسا وبريطانيا بضمان لليونان ورومانيا. وبات الطرفان يجمعان الصفوف وفي أواسط نيسان وصل غورنك الى روما، وجرت له مقابلتان طويلتان مع موسوليني (مما أسخط روينتروب) في السادس عشر والخامس عشر. وتم الإتفاق بأنهما "يحتاجان الى سنتين أو ثلاث"^(٢٨). حتى يتم إستعدادهما لـ "الحرب عامة" إلا أن غورنك قال "لو سبقت الحرب هذا الموعد فالمحور في مركز قوي جداً". و"بإمكانه إلحاق الهزيمة بأي خصم".

ذكر ان نداء وجهه الرئيس روزفلت بلغ روما وبرلين في ١٥ نيسان وزعم تشيانو ان (الدوتشي) رفض قراءته في مبدأ الأمر، وصرح غورنك أنه لا يستأهل الرد. ووجده موسوليني أنه "من اعراض كساح الأطفال*" إلا أن غورنك قدّر ان "روزفلت يعاني مبادئ مرض عقلي". وضمن روزفلت برقيته لموسوليني وهتلر سؤالاً صريحاً: أأنتما على إستعداد لإعطاء تأكيد بأن قواتكما المسلحة لن تهاجم أو تغزو أراضي البلاد المستقلة التالية؟

وعقب هذا قائمة بأسماء واحد وثلاثين قطراً من بينها بولندا ودول البلطيق والإتحاد السوفياتي والداغفرك وبلجيكا، وهولندا، وفرنسا وبريطانيا. وأعرب روزفلت عن أمله بإعطائها ضمان عدم إعتداء "لمدة عشر سنين على الأقل" أو "ربع قرن إن جرونا على النظر البعيد والأمل الكبير" إن اجيب طلبه فهو يعد بمساهمة أمريكا في "مباحثات" على النطاق الدولي. لإراحة العالم من "عبء التسليح الثقيل" وفتح طرق واسعة للتجارة العالمية. وذكر هتلر: "إنك أكدت مراراً وتكراراً. عدم رغبتك ورغبة الشعب الألماني في الحرب فان كان الأمر كذلك فلا حرب ثم".

ويبدو هذا على ضوء ما هو معلوم أشبه بندا ساذج إلا أن هتلر وجده محرراً له بحيث لم يخف نيته في الرد عليه - لا بشكل مباشر وإنما بخطبة يلقيها في إجتماع فوق العادة للرايخستاغ في ٢٨ نيسان. وفي الوقت نفسه كشفت أوراق وزارة الخارجية الألمانية المستولى عليها ان قلهمشتراسه في برقية دورية معممة على جميع الدول التي وردت أسماؤها في قائمة روزفلت. ماعدا بولندا وروسيا

٢٨- محاضر الألمان السرية عن محادثات غورنك-موسوليني في [وثائق عن سياسة... ج ٤ الص ٢٤٨-٢٥٧ انظر كذلك يوميات تشيانو الص ٦٦-٦٧.

* معرضاً بالمرض الذي أبتلي به روزفلت الذي منعه من السير.

وبريطانيا وفرنسا، وضعت السؤالين التاليين قيد الإجابة:

هل تشعر تلك الدول بتهديد ألماني لها بأي شكل من الأشكال؟ وهل انها خولت روزفلت طرح هذا الاقتراح؟ وعلق ريبنتروب على هذه البرقية (المرسلة الى مبعوثيه الدبلوماسيين بتاريخ ١٧ نيسان) بمايلي "نحن لانشك في أن الدول المعنية ستجيب على السؤالين معاً بالنفي، لكن مع هذا ولأسباب خاصة نرغب في الحصول على دليل حقيقي فوراً" وقد انكشفت (الأسباب الخاصة) عندما تكلم هتلر في ٢٨ نيسان.

وفي ٢٢ نيسان كانت وزارة الخارجية الألمانية قادرة على رفع تقرير (للزعيم) جاء فيه أن معظم الدول أجابت (بالنفي على السؤالين) ومن بينها يوغوسلافيا وبلجيكا والدانرك، والنرويج، وهولندا ولكسمبورگ، وهو جواب سيوضح كم كان نظر تلك الدول قصيراً ساذجاً في نوايا الرايخ الثالث. على أن الجواب من (رومانيا) كان لاذعاً حريفاً. "إن الحكومة الألمانية هي أعرف من غيرها بقيام التهديد من عدمه". أما دولة (لاتفيا) الصغيرة على البلطيق فلم تدر في أول الأمر ماذا ينتظر منها ان تجيب لكن سرعان ما وجهتها وزارة الخارجية الألمانية الى الوجهة المطلوبة. ففي ١٨ نيسان اتصل (فايسيكير) بوزيره المفوض في (ريگا Riga):

... "ليخبره، بأننا لم نفهم جواب وزير الخارجية اللاتيفي عن سؤالنا حول برقية (روزفلت)، ففي حين أجابت كل الدول، بالنفي طبعاً، نجد السيد (مونترز Munters) يعالج هذه الدعاية الأمريكية السخيفة بشكل كأنما يتطلب القضية مشاورة مع أعضاء حكومته. فإن لم يجب السيد (مونترز) بالنفي على جوابنا فوراً، فلايسعنا إلا أن نضيف (لاتفيا) الى مجموعة البلاد التي تريد أن تجعل نفسها من بين شركاء (روزفلت) المتبرعين وقلت أنني أعتقد أن كلمة واحدة بهذا المآل من فم هر (فون كوتزه Von Kotze) [الوزير المفوض الألماني] كافية للحصول على الجواب البديهي منه^(٢٩)". وهكذا كان.

-٥-

ردّ (هتلر) على (روزفلت)

كانت إجابات الدول بمثابة عتادٍ فعّالٍ لهتلر، وقد استخدمه إستخداماً بارعاً وهو ماضٍ في خطبة أمام الرايخشتاغ في اليوم الثامن والعشرين من نيسان الجميل الربيعي. وفي إعتقادي إنها كانت أطول خطبة هامة جماهيرية ألّقاها، فقد استنفذت منه أكثر من ساعتين، وربما كانت من عدة نواح وبخاصة في ندائها الألمان وأصدقاء ألمانيا النازية في الخارج، أروع خطبة جرى بها لسانه، ومن المؤكد انها أعظم ماسمعه المؤلف منه. ولو اقتصر الأمر على بلاغتها وبراعتها وسخريتها وتهكمها وربائها

٢٩- برقية ١٧ نيسان ١٩٣٩ [وثائق عن سياسة ألمانيا... ج ٦ الص ٢٦٤. ملف وزارة الخارجية عن الأجوبة المرجع السالف الص ٣٠٩-٣١٠. نداء فايسيكير التلفوني الى الوزير الألماني في (ريگا) ١٨ نيسان المرجع السالف ٢٨٣-٢٨٤.

فقط فهي والحق يقال قد بلغت حداً لم يبلغه هو مرة ثانية. ومع أنها كانت قد اعدت للأذن الألمانية إلا ان إذاعتها لم تكن وقفاً على كل محطات الراديو الألمانية وحدها بل تعدتها الى مئات من المحطات العالمية الأخرى، ففي الولايات المتحدة نقلتها الشبكات الإذاعية الكبرى. ولم يحظ أحد بهذا العدد من المستمعين في شتّى أرجاء العالم كما حظي به الخطيب من قبل ومن بعد^(٣٠).

استهلت الخطبة بمقدمة من المشهيات المعتادة عن مظالم معاهدة فرساي وشتّى صنوف الإجحاف والشقاء الطويل الذي صبّ على رؤوس الشعب الألماني بسببها ثم انتقل الى الردّ أولاً على بريطانيا العظمى وپولندا رداً هزّ أوروبا القلقة.

وبعد أن أعرب عن مشاعر الإعجاب والصدقة لإنجلترا، راح يهاجمها لعدم ثقتها به ولسياستها الجديدة "سياسة تطويق" ألمانيا، معلناً إلغاء المعاهدة الأنكلو-ألمانية البحرية المعقودة في ١٩٣٥ قائلاً "إن الأسس التي بنيت عليها قد تقوضت".



فرانكلين د. روزفلت

كذلك مع پولندا، فقد كشف عن إقتراحه لها بخصوص الدانزك والممر (وكان هذا سراً حفوظ عليه حتى الآن) ووصفه "بأنه أعظم إمتياز يمكن تصوّره، لمصلحة السلم

الأوروبي" وأبلغ الرايخشتاغ ان الحكومة البولندية رفضت هذا "العرض الوحيد الذي لا ثاني له". "أسفْتُ لهذا المسلك غير المفهوم والموقف المحير الذي وقفته حكومة پولندا... والأُنكى من هذا أن پولندا إرتأت كما إرتأت چيكوسلوفاكيا قبل عام وبضغظ من حملة دوليّة كاذبة - ان الموقف يحتم عليها دعوة مكلفيها من الإحتياط، رغم أن ألمانيا لم تدع للخدمة رجلاً واحداً ولم تفكر في اتخاذ أي إجراء مهما كان نوعه إزاء پولندا. وهذا بحد ذاته أمر مؤسف جداً وسوف تقرر الأجيال القادمة يوماً ما هل كان من الصواب حقاً رفض هذا الإقتراح الذي تقدمت به. مرة واحدة... تسوية فريدة مخلصه..." ومضى هتلر يقول عن الأخبار التي تشير الى نية ألمانيا في مهاجمة پولندا: "انها مجرد أكاذيب اختلقتها الصحافة العالمية" (لم يكن ثم فرد واحد من عشرات الملايين الذي استمعوا اليه، يدري انه أصدر قبل ثلاثة أسابيع فقط أوامر كتابية الى قواته المسلحة يطلب فيها التآهب لسحق پولندا في

٣٠- في يوم إلقاء الخطاب ابرق فايسبكر الى هانس تومسن Hans Thomson القائم بالأعمال الألماني في واشنطن يأمره بأن يؤمن خطاب الزعيم - أوسع إعلان ممكن في الولايات المتحدة، ويؤكد له أن اعتمادات مالية ستصرف له لهذا الغرض. وفي ١ أيار أرسل تومسن جوابه "الاهتمام بالخطاب، يفوق أي شيء عرف من هذا القبيل. لذلك أمرت أن يرسل النص الإنكليزي الذي طبع هنا... الى عشرات الالوف من العناوين من كل الطوائف والطبقات وبناء على الطلب طبق الخطة المتفق عليها. وسنرسل اليكم قوائم التكاليف فيما بعد" المرجع السالف الص ٣٥٥ و٣٩٩.

أيلول على "أبعد تقدير". واستمر يقول "ان مختلقات الصحافة حملت بولندا على ابرام إتفاقها مع بريطانيا العظمى الذي سيرغمها "تحت ظروف معينة" على الإقدام على عمل عسكري ضد ألمانيا". لذلك فإن بولندا خرقت ميثاق عدم الإعتداء الألماني البولندي؛ وهذا مايجعلني أرى ان الإتفاق قد خرق من جانب واحد هو الجانب البولندي، فلم يعد له الآن وجود .

وهكذا بعد ان مزق هتلر من جانبه معاهدين رسميتين قال للرايخشتاغ، انه راغب في التفاوض على بديلين لهما! وهتف: "اني لأرحب من صميم قلبي بمثل هذه الفكرة. لن يكون ثم أسعد مني لو حققت هذا المطمح". وهذه حيلة قديمة من حيله لطالما أخرجها من جعبته في الماضي كلما مزق معاهدة كما مرّ بنا، إلا انها لم تعد تنطلي ولعلّه لم يدرك.

بعد ذلك انتقل الى الرئيس روزفلت. وهنا بلغ الدكتاتور الألماني ذروة سحره الخطابي وبلاغته وهو للأذن السويّة ينضح رياءً ونفاقاً وختلاً. لأذان أعضاء الرايخشتاغ المعينين تعييناً وللملايين الألمان من بعدهم، فسخريته البارعة وتهكمه اللاذع، فقد كان اللذة والمتعة التي ما بعدها متعة. واهتزّ النواب ذوو الكروش بالقهقهات الراعدة وهو يحثو ما كان يبدو لا نهاية له من التهكم والسخر على رأس الرئيس الأمريكي ويتأثير متصاعداً متناولاً نقاطه واحدة بعد الأخرى. توقف عن الكلام، وارتسم على شفوية ظلّ ابتسامة ثم نطق بصوت منخفض مثل معلم المدرسة بكلمة واحدة: "الجواب" ثم أدلى به. (مازالت صورة هتلر ماثلة لخيال المؤلف وهو يتوقف بين فترة وأخرى لينطق بهدوء كلمة جواب: Ant- wort بينما كان غورنك الجالس في اعلى المنصة على كرسي الرئاسة يحاول عبثاً كنم ضحكة فيغصّ، بها وأعضاء الرايخشتاغ متهيئون لتفجير قهقهاتهم وزئيرهم حال نطقه بلفظة: جواب Antwort).

بصرح مستر روزفلت أن كلّ المشاكل الدولية يمكن ان تحلّ على مائدة المؤتمر.

الجواب: ... سأكون جدّ سعيد لو وجدت هذه المشاكل حقاً طريق حلّ على مائدة مؤتمر. إن شكي على كل حال - متأت من حقيقة وهي أن أمريكا نفسها هي التي اعربت اعراباً واضحاً لا لبس فيه عن قلّة ثقتها في جدوى المؤتمرات. ذلك لأن أعظم مؤتمر عرفه تاريخ العالم كان عصبة الأمم... وهو مجلس يمثل كل شعوب الأرض خلق تمشياً مع إرادة رئيس جمهورية أمريكي. ومع ذلك فإن الولايات المتحدة كانت أول دولة إنسحبت منه ونفضت يديها من اعماله... ولم أقرر أنا إحتذاء حذو أمريكا إلا بعد سنوات من مساهمة غير مثمرة فيه... لم تتحقق في مؤتمر حرية شمالي أمريكا، كما لم تتحقق عليه تسوية الصدام بين الشمال والجنوب. ولن أذكر شيئاً عن ما لا يحصى من الحروب والنزاعات التي أدت بالأخير الى اخضاع القارة الأمريكية الشمالية ككلّ.

اني أذكر هذا كلّ، لأبرهن لك يا مستر روزفلت بأن وجهة نظرك هذه التي تستأهل بلاشك كل تكريم، لا تجد لها سنداً يدعمها في تاريخ بلادك، أو تاريخ بقية العالم". وراح هتلر يذكرّ الرئيس ان ألمانيا قد دخلت مرة، مؤمراً هو فرساي لا لإجراء مباحثة، بل ليملى عليها ما

يجب أن تفعله: واخضع ممثلوها (الى اذلال أعظم من أيّ إذلال لقيه زعماء قبائل السيوكس
.Sioux

أخيراً، وصل هتلر الى لبّ جوابه على إقتراح الرئيس الأمريكي باعطائه تأكيدات بعدم مهاجمة أي
دولة من الدول الإحدى والثلاثين.

الجواب: من اين عرف مستر روزفلت، الدول التي تجدد نفسها مهددة بالسياسة الألمانية، والدول التي
لا تجدد نفسها كذلك؟ أو هل ان مستر روزفلت في مركز يسمح له ومن تلقاء ذاته ان يتحسس
بالانطباعات الروحية والعقلية للشعوب الأخرى وحكوماتها رغم الأعمال الكبيرة والتبعات
الضخمة التي يحملها في بلاده؟

وأخيراً يطلب مستر روزفلت ان يُعطى تأكيداً بأن القوات المسلحة الألمانية لن تهاجم، ولن تغزو
وبنوع خاص أراضي وممتلكات الدول المستقلة التالية...
ثم قرأ ببطء اسم كل بلد وفيم هو يرخم الأسماء، كان الضحك في الرايخشتاغ يتعالى ويزداد، ولم
يشعر أحد من الأعضاء ولا أحد من سكان برلين ومنهم المؤلف نفسه انه اسقط عمداً وبحيله اسم
بولندا.

وسحب هتلر الآن (ورقة الآس) من كاغد اللعب، أو هذا ما كان قد توهم.
الجواب: لقد تكبدت عناء التثبّت من الدول التي اوردت أسماءها فسألْتُها أولاً هل تشعر انها
مهددة؟ وثانياً وبالاخص هل ان الاستفسار الذي وجهه الرئيس الأمريكي كان بطلب منها أو
على الأقل بعد أخذ موافقتها؟

كان الجواب بالنفي في كل حالة... حقاً انه تعذر عليّ ان استفسر من بعض الدول والشعوب
التي نوه بها. لانها هي نفسها -كما هو الأمر في سورية- لا تملك حريتها، مسلوبة الحقوق
تحتلها الدول الديمقراطية إحتلالاً عسكرياً.
وبالإغضاء عن هذه الحقيقة فكلّ الدول المتاخمة لألمانيا قد اعطيت تأكيدات اشدّ وأقوى
بكثير...

عليّ ان اجلب انتباه مستر روزفلت الى غلطة أو اثنتين من امثال هذه الغلطات التاريخية.
لقد ذكر ايرلندا مثلاً وهو يطلب تصريحاً من ألمانيا بأنها لانتوي مهاجمة ايرلندا لقد قرأت
قبل أيام خطبة (لدي فاليرا De Valera)، الطاويسيج Taoiseach الايرلندي^(٣١). أنه لم يتهم
فيها ألمانيا وهنا وجه الغرابة خلافاً لرأي مستر روزفلت بمهاجمة ايرلندا، وانما كان يندد
بانجلترا ويلومها على تعرضها لايرلندا بالعدوان المستمر...

وبعين الطريقة، أخطأ مستر روزفلت الحقيقة كما يبدو وهي ان فلسطين الآن خاضعة للإحتلال
العسكري الإنكليزي لا الألماني وهكذا قيدت حرية تلك البلاد بالقوة الوحشية الغاشمة...

٣١- كان هتلر دقيقاً في استخدام اللفظة الغالية Gaelic الدالة على رئيس الوزراء.

قال هتلر... ومع ذلك كله فهو على إستعداد "لإعطاء كل دولة من الدول المثبتة بالأسماء التأكيد الذي يرغب فيه مستر روزفلت بل وأكثر من هذا! [وهنا أخذت عيناه تلمعان].

"لاأريد أن تمرّ هذه الفرصة دون ان اقدم لرئيس الولايات المتحدة فوق كل شيء تأكيداً بخصوص تلك الأصقاع التي يشغل أمرها باله أكثر من أي شيء آخر واعني بها الولايات المتحدة نفسها وغيرها من دول القارة الأمريكية قاطبةً.

أنا أصرح هنا بكل صدق. إن كل ما تواتر وانتشر من شائعات حول نية ألمانيا في القيام بهجوم أو غزو هنا أو في القارة الأمريكية إنما هو محض اكذوبة ضخمة مختلقة بصرف النظر عن كون المتواترات لا تجد لها منبئاً إلا في عقول السذج بقدر ما يتعلق الأمر بالإمكانات العسكرية المطلوبة لتحقيق كل هذا.

فاهتزّ الرايخشتاغ بالقهقهة، ولم تنفجر شفتا هتلر عن بسمة وتوسل بمجهود منه كبير الى ابقاء التأثير الكبير باتخاذة سيماء الوقار.

"يا مستر روزفلت! إنني لأفهم حق الفهم أن بلادك والثروة الهائلة التي توجد فيها هما اللذان يدفعانك الى الشعور بالمسؤولية إزاء العالم أجمع وإزاء تاريخ الشعوب قاطبة. أمّا أنا يا سيدي فقد وضعت في مجال أصغر وأكثر خصاصة بكثير...

إنني تسلمت الحكم مرةً في دولة كان يواجهها الخراب التام والفضل في حالتها هذه يعود الى ثقتها بمواعيد الآخرين والى نظام الحكومات الديمقراطية المهترىء السيء... فتغلّبت على الفوضى في ألمانيا. واعدت الأمن والاستقرار الى نصابهما وزدت في الإنتاج زيادة جبّارة... واصلحت وسائل المواصلات وشققت طرقاً عظيمة وترعاً وقنوات واقمت مصانع جديدة هائلة الجرم وفي الوقت نفسه بذلت جهوداً في التطوير العلمي والثقافي لشعبنا.

نجحت في ايجاد عمل مفيد مرة أخرى لسبعة ملايين عاطل... ولم اكنف بتوحيد الشعب الألماني سياسياً بل سلحته. كذلك جاهدت في تمزيق معاهدة فرساي صحيفةً صحيفاً. تلك المعاهدة ببندوها الأربعمئة والثمانية والأربعين التي تحوي أشنع وأقذر ما أخضع له شعب أو طائفة من أبناء البشر من الظلم والاضطهاد.

أعدت الى الرايخ الأقاليم التي سرقت منا في ١٩١٩. أعدت ملايين من الألمان الى بلادهم الأم وكانوا قد قطعوا عنا، وعاشوا في بؤس وشقاء أعدتهم بدون اراقة قطر دم يا مستر روزفلت وبدون ابصال شعبي والشعوب الأخرى الى شقاء الحرب واهوالها...

وعملك يا مستر روزفلت سهل جداً أن قورن بعملتي. أصبحت رئيساً للولايات المتحدة في ١٩٣٣ عندما أصبحت مستشاراً للرايخ ومن المبدأ وجدت نفسك على رأس واحدة من أكبر وأغنى دول العالم... الظروف الملائمة في بلادك مؤاتية الى حد كبير، بحيث يمكنك أن تجد لك وقتاً و فراغاً لصرف جانب من اهتمامك الى المشاكل الدولية... إن اهتمامك وإقتراحاتك تشمل منطقة أوسع وارجب من

منطقتي، لأن عالمي الذي شئت الإرادة الالهية ان تضعني فيه يا مستر روزفلت وحتمت عليّ ان أعمل له وفي سبيله هو مع الأسف أصغر من عالمك بكثير. وإن كان عندي أغلى واثمن من أي شيء آخر لأنه مقصور على شعبي!

وفي إعتقادي إن هذا هو السبيل الأمثل لأكون ذا نفع كبير لما نهتمّ به جميعاً وأعني بذلك العدالة، والرفاء والتقدم والسلم لكل شعوب العالم.

كانت هذه الخطبة للشعب الألماني المعصوب العيون أعظم مآثرة خطابية لهتلر. ولكن المتنقل في أرجاء أوروبا خلال الأيام التي تلتها كان يسهل عليه أن يجد أنها لم تخدم الشعوب ولا الحكومات في الخارج خلافاً لعدد من خطب هتلر السابقة. فقد وضع لديهم خلافاً للألمان، أفانين الخداع التي استبطنتها. وادركوا، رغم تغلب الدكتاتور الألماني على روزفلت بفصاحته الخطابية، انه لم يجب على أسئلة الرئيس الأمريكي الأصيلة: هل شبع من العدوان؟ هل سيهاجم بولندا؟

واثبتت الأيام انها آخر خطبة عظيمة في حياة هتلر ألقاها في عهد السلم. وقد بلغ المنشرد النمساوي السابق بعقريته الخطابية مبلغاً من السؤدد في الحياة ما ليس بعده مزيد. وبات واجباً عليه من الآن ان يحاول بناء محرابه في التاريخ، كمقاتل.

وانزوى في مقبرة الخلوي الجبلي برختسغادن لقضاء موسم الصيف ولم يجب على الردّ البولندي الذي جاء في سياق خطاب العقيد بيك في ٥ أيار أمام البرلمان. وورد في مذكرة رسمية قدمت الى ألمانيا في اليوم نفسه. وتضمن الردّ البولندي مع خطاب (بيك) جواباً رزيناً رقيقاً، إلا انه صلب. " [جاء فيه] واضح ان المفاوضات التي تجري على أساس قيام دولة بوضع مطالب وان تجبر الدولة الأخرى على قبولها دون تغيير لا يمكن أن تسمى مفاوضات."

-٦-

التدخل الروسي: المرحلة الأولى

أغفل هتلر في خطابه أمام الرايخشتاغ (٢٨ نيسان) هجومه المعتاد على الإتحاد السوفياتي ولم يتطرق اليه بحرف ونوّه (العقيد بيك) في رده، بـ"تلميحات أخرى مختلفة" قامت بها ألمانيا "تعدّت حدود موضوعات المناقشة بكثير" وانه يحتفظ بحق "العودة الى هذه القضية عند الضرورة". وهو تنويه مقنّع لكن واضح - بمجهودات ألمانيا السابقة لإقناع بولندا بالانضمام الى ميثاق مكافحة الكومنترن الموجه ضد روسيا. هذه المجهودات نبذت الآن وبدأت افكار جديدة تنمو وتترعرع في تربتي برلين وموسكو وإن كان (بيك) و(چمبرلين) يجهلان الأمر.

من الصعب التحقق عن الزمن الذي نجمت فيه أولى بوادر التفاهم بين ألمانيا النازية والإتحاد

السوفيياتي وفي أي العاصمتين؟ ذلك التفاهم الذي كان سيخلف آثاراً عظيمة على العالم. ومن أولى بوادر تغيير الريح الطفيف كما مرّ ما حصل في ٣ تشرين الأول ١٩٣٨ بعد مونيخ باربعة أيام، عندما ابلغ مستشار السفارة الألمانية في موسكو، أن ستالين قد يستنتج اموراً معينة من مسألة تسوية موضوع السودان التي استثنى من المشاركة فيها، ومن المحتمل جداً أن يكون "أكثر ايجابية" تجاه ألمانيا. وحيد الدبلوماسي بقوة، تعاوناً اقتصادياً "أوسع" بين البلدين وجدد إقتراحه هذا في تقرير آخر بعثه الى برلين بعد أسبوع^(٣٢).

وفي أواخر شهر تشرين الأول أعلم الكونت فون در شولنبرگ السفير الألماني في موسكو، وزارة الخارجية "انه ينوي في المستقبل القريب جداً مفاضة مولوتوف رئيس مجلس مفوضي الشعب في محاولة للوصول الى تسوية المشاكل التي تعكر صفو العلاقات السوفيتية-الألمانية"^(٣٣). من الصعب جداً أن يتكون عند السفير هذه النية من تلقاء نفسه وبالنظر الى الموقف العدائي الشديد الماضي الذي وقفه هتلر من موسكو لا بد وان الإشارة كان مصدرها برلين.

وقد اتضح هذا من دراسة وثائق وزارة الخارجية المستولى عليها وكانت أول خطوة في رأي ألمانيا هي تحسين التجارة بين البلدين وتكشف مذكرة لوزارة الخارجية مؤرخة ٤ تشرين الثاني ١٩٣٨ "عن طلب واضح من دائرة الفيلد مارشال غورنك، ان تبذل محاولات على الأقل لاعادة النشاط الى تجارتنا مع روسيا وبخاصة في المواد الأولية"^(٣٤).

كانت الإتفاقات الروسية الألمانية الاقتصادية قد إنتهى مفعولها في نهاية الحول. وامتلات ملفات لفلهمشتراسه بمعلومات توضح الارتفاعات والانخفاضات التي عانتها المفاوضات لتجديد تكلم الإتفاقات.

والطرفان يشكان شكاً عميقاً احدهما في نوايا الآخر إلا انهما رغم هذا حققا تقدماً يكاد لا يلمس. وجرت في ٢٢ تشرين الأول محادثات طويلة في موسكو بين الموظفين التجاريين السوفيت وبين (يوليوس شنوره Julius Schnurre) بطل الاقتصاد الألماني وحلال مشاكله البار.

بعد عطلة رأس السنة بأيام قام السفير السوفيتي (إلكساي ميركالوف Alexei Merekalov) بوحدة من زيارته النادرة جداً لوزارة الخارجية الألمانية لإبلاغها برغبة الإتحاد السوفيياتي في فتح عهد جديد للعلاقات الاقتصادية الروسية الألمانية وظلت المحادثات تسير سيراً مرضياً بضعة أسابيع ولكنها كادت تنقطع في ١٢ شباط وسبب الخلاف كما أشيع هو هل يتم إجراء المحادثات الرئيسية في موسكو أم في برلين؟ إلا ان العلة الحقيقية كشفتها مذكرة مدير دائرة السياسة الاقتصادية في وزارة الخارجية الألمانية المؤرخة ١١ آذار ١٩٣٩.

٣٢- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٤ ص ٦٠٢-٦٠٧.
٣٣- المرجع السالف الص ٦٠٧-٦٠٨ (تقرير ٢٦ تشرين اول ١٩٣٨).
٣٤- المرجع السالف الص ٦٠٨-٦٠٩.

فمع ان ألمانيا كانت بحاجة ماسة الى المواد الأولية الروسية وگورنگ يطلبها باستمرار، إلا ان الرايخ كان عاجزاً عن مقايضة الإتحاد السوفياتي ببضائع مقابل ما يستورد. ووجد مدير الدائرة (أن انقطاع المفاوضات أمر مؤسف للغاية بسبب حاجة ألمانيا الى المواد الأولية^(٣٥)).

لكن، إن كان الاخفاق نصيب المحاولة الأولى للتقارب في علاقة القطرين الاقتصادية في ذلك الحين، فهناك تعلّات أخرى عنت فيما بعد. في ١٠ آذار ١٩٣٩، ألقى (ستالين) خطبة طويلة في جلسة افتتاح مؤتمر الحزب الشيوعي الثامن عشر في موسكو وبعدها بأيام ثلاثة كتب (شولنبرگ) الشديد الإنتباه تقريراً مسهباً عن الخطاب الى برلين. ورأى "ان ما هو جدير بالاهتمام فيه هو ان تهكم ستالين ونقده كانا موجّهين ضدّ بريطانيا، يفوق حدّة وعنفاً على وجهه الى ما أطلق عليه [دول العدوان] ولاسيما ألمانيا". وجلب السفير أكثر الاهتمام الى ملاحظات ستالين: "إن ضعف العالم الديمقراطي... يتضح من واقع تخليه عن مبدأ الضمان الجماعي واتباع دوله سياسة عدم التدخل والحياة. هذه السياسة تستبطن الرغبة في تحويل اهتمام دول العدوان الى فرائس أخرى" وإقتبس أيضاً اتهامات الدكتاتور السوفيتي للحلفاء الغربيين:

"انهم يدفعون الألمان الى الشرق أبعد فأبعد، ويعدونهم بالفريسة السهلة المنقادة ويقولون لهم: ما عليكم إلا ان تشيروا على البولشفيك حرباً، وكل شيء آخر سيكون على هواكم. هذا هو الحثّ والتشجيع بعينه... يبدو وكأن الغرض منه... إثارة الغلّ والغضب في نفس الإتحاد السوفياتي ضدّ ألمانيا... وشن حرب على ألمانيا دون أسباب واضحة... وفي الختام لخص ستالين المبادئ المرشدة:

- ١ - الاستمرار في اتباع سياسة سلم وبناء وتدعيم العلاقات الاقتصادية مع كل الدول.
- ٢ - ... ألا ندع بلادنا تدخل حرباً أو صداماً مسلحاً يسعى اليه تجار الحروب، أولئك الذين كان من عادتهم ان يدفعوا الآخرين الى إلتقاط الكسثناء من النار لهم^(٣٦).

هذا انذار صريح من الرجل الذي يرجع اليه القرار النهائي في كل الأمور في روسيا. وهو يقصد ان الإتحاد السوفياتي لا ينوي ان يندفع الى حرب مع النازية نتيجة لمناورات تستهدف تخليص بريطانيا وفرنسا منها ان لم يفهم هذا التحذير في لندن أو أعير اذناً صماء فقد تنبّهت اليه برلين على أقل تقدير^(٣٧).

٣٥- المرجع نفسه ص٦٣٦.

٣٦- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٦ الص ١-٣.

٣٧- مع أن رسالة لوكالة أنباء الاسوشيتد پريس من موسكو (نشرت في جريدة نيويورك تايمس في ١٢ آذار تشير الى ان تنديد (ستالين) بالمجهودات التي تبذل لتوريث روسيا في حرب مع ألمانيا أدت الى انتشار الاحاديث في الاوساط الدبلوماسية في موسكو عن احتمال حصول تقارب بين الإتحاد السوفياتي وألمانيا، فالظاهر أن السر وليم سيدز - Wil- Seeds السفير البريطاني في موسكو لم يسهم في أي حديث كهذا. ففي التقرير الذي ارسله عن خطاب ستالين، لم ينوه باي احتمال مثل هذا، هناك دبلوماسي غربي واحد هو جوزيف ديفيز Joseph Davies السفير الأمريكي السابق في موسكو (كان سفيراً في بلجيكا في ذلك الحين) توصل الى الإستنتاج الصائب فعلاً من خطاب ستالين فدوّن الخاطرة التالية في يوميته المؤرخة ١١ آذار: "إنه تصريح ذو مدلول واضح. إنه يحمل بوادر إنذار صريح =

كذلك كان واضحاً من خطاب ستالين. ومن مختلف الاستقراءات الدبلوماسية التي تم تبادلها بعدها بقليل ان السياسة الخارجية السوفيتية مازالت واضحة جداً وان إسمت بالحذر. بعد الاحتلال النازي لچيكوسلوفاكيا بثلاثة أيام اقترحت الحكومة الروسية كما مرّ بنا مؤتمر الدول الست لبحث الوسائل التي تحول دون إعتداءات جديدة. ورفضه چمبرلين محتجاً بأنه "سابق لأوانه"^(٣٨).

كان ذلك في ١٨ آذار. وبعده بثلاثة أيام صدر بيان رسميّ أسرع السفير الألماني بباراقه الى برلين. أنكرت الحكومة فيه ان الإتحاد السوفياتي قد عرض على كل من رومانيا وبولندا مساعدته "في حالة وقوعهما ضحية عدوان". والسبب هو "أنه لم يقع طلب على الحكومة السوفيتية بالمعونة لا من بولندا ولا من رومانيا، ولم تبلغها باي خطر بات يتهددهما"^(٣٩).

وربما كان ضمان بريطانيا من جانب واحد، لبولندا (٣١ آذار) عاملاً على إقناع (ستالين) بأن بريطانيا العظمى تفضل حلفاً مع بولندا على حلف مع روسيا. وان چمبرلين عازم -كما كان أيام مونينخ- على إبعاد الإتحاد السوفياتي من الدخول في جمعية الدول الأوروبية^(٤٠).

من هذا الوضع، بدأ الألمان والطيالان يتحينون بعض الفرص. فأسرع (گورنگ) الذي كان له تأثير كبير على هتلر في الشؤون الخارجية، الى مقابلة (موسوليني) في روما في ١٦ نيسان وجلب انتباه الدوتشي الى خطاب ستالين الأخير في مؤتمر الحزب الشيوعي. وصارحه بمدى التأثير الذي خلفه فيه قوله "ان السوفيت لن يسمحوا لأنفسهم ان يكونوا حراً وطعاماً لدافع الدول الرأسمالية". وقال أنه سيسأل الزعيم (هل بالامكان ان يجسّ نبض روسيا بحذر... لغرض التقارب rapprochement وذكر موسوليني "ان الزعيم في خطبه الأخيرة لم يورد ذكر روسيا مطلقاً" وتشير الوثائق السرية الألمانية عن الاجتماع ان موسوليني رحب بفكرة التقارب بين دول المحور وبين الإتحاد السوفياتي ترحيباً حاراً، وقال انه أحسن أيضاً بتغيير في موسكو ورأى ان التقارب قد يمكن "تحقيقه بسهولة".

"[قال موسوليني] الهدف سيكون إستمالة روسيا لمقابلة مجهودات بريطانيا في عملية التطويق

= للحكومتين البريطانية والفرنسيين بأن السوفيت بدأوا يملّون من وقوفهما من المعتدين موقفاً متخاذلاً "غير واقعي"... انه على كل حال بادرة شوم للمفاوضات... بين بريطانيا والإتحاد السوفياتي هي الحق يقال اول اشارة خطر واضحة رأيتها" وفي ٢١ آذار كتب للشيوخ كي پيتمان Key Pittman "...هتلر يبذل محاولات يائسة لفصل ستالين عن فرنسا وإنجلترا. فان لم يستفق الفرنسيون والبريطانيون من غفوتهم فأخشى انه سينجح" (ديفيز: بعثة الى موسكو Mission to Moscow) الص ٤٣٧-٤٣٩. تقرير السفير سيدز (و.س.ب.خ) ج ٤ رقم ٤١٩.

٣٨- سأل السفير الروسي إيفان مايسكي Ivan Maisky لورد هاليفاكس في ١٩ آذار، لماذا لم يقبل الإقتراح الروسي لعقد مؤتمر (يفضل عقده في بوخارست). فأجابه "لا يمكن لوزير من وزراء التاج أن يضع وقتاً الآن للسفر الى بوخارست". والواضح أن هذا الإهمال قد أحنق الروس وألهم في المفاوضات التالية مع الإنكليز والفرنسيين. قال مايسكي فيما بعد للنائب المحافظ (روبرت بوثي) إن رفض الإقتراح السوفيتي كان ضربة صاعقة أخرى على سياسة الضمان الجماعي الفعالة" وإنها ختمت على مصير ليتفينوف. (بوثي: أقاتل لأعيش، ص ١٨٩) تصريح هاليفاكس لمايسكي (و.س.ب.خ) ج ٤ ص ٤٣٣.

٣٩- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٤ الص ٨٨-٨٩.

٤٠- المرجع نفسه ص ١٣٩.

ببرود وجفاء بشكل يتمشى والخطوط التي رسمتها خطبة (ستالين)... زد على ذلك ان دولتي المحور بكفاحهما المشترك للبلوتوقراطية والرأسمالية، ترميان الى حد ما، الى الغايات التي يعمل لها النظام السوفيتي" (٤١).

كان تحولاً عنيفاً في سياسة المحور لاشك سيصيب چمبرلين بالدهشة لو وقف عليه. وربما ادهش (ليتفينوف) ايضاً. في اليوم الذي جرى هذا البحث بين (گورنگ) و(موسوليني) وهو السادس عشر من نيسان إستقبل مفوض الشعب للشؤون الخارجية السوفيتية السفير البريطاني في موسكو وعرض عليه إقتراحاً رسمياً لحلف ثلاثي بالتعاون المتبادل بين فرنسا وبريطانيا العظمى والإتحاد السوفياتي. يعزز بميثاق عسكري بينهما لتقوية الحلف بضمانة الموقعين عليه، وفتح باب دخول لپولندا إن شاءت، كدولة رابعة في الحلف. ولكل الشعوب في شرق أوروبا التي تشعر انها مهددة بعدوان ألمانيا النازية. كان هذا آخر عرض يقدمه (ليتفينوف) لإنشاء حلف ضد الرايخ الثالث وان هذا الوزير الروسي الذي ربط سمعته السياسية بسياسة ايقاف هتلر عند حده عن طريق عمل إجماعي كان يفكر على الأقل بنجاحه في توحيد الديمقراطيات الغربية والإتحاد السوفياتي لهذا الهدف. ولقد قال چرچل شاكيا في خطبة له (٤ أيار) من عدم قبول لندن بالعرض السوفيتي حتى ذلك الحين "ليس ثم وسيلة لتحقيق جبهة شرقية تقف في وجه العدوان النازي دون مساعدة روسيا الفعالة". ليس ثم دولة أخرى غيرها في شرق أوروبا حتى پولندا نفسها - لها ما لروسيا من القوة العسكرية ما يؤهلها الى اقامة جبهة في ذلك الصقع، ومع هذا فقد احدث الإقتراح الروسي فرعاً في كل من لندن وپاریس.

وقبل رفضه قام ستالين باول بادرة جدية للتحول الى الرصيف الآخر من الطريق. في اليوم الذي تلا قيام (ليتفينوف) ببسط إقتراحه الكريم البعيد الأثر للسفير البريطاني في موسكو (١٧ نيسان) قام السفير السوفيتي في برلين بزيارة (لغاييسكر) في وزارة الخارجية. وكانت أول زورة يقوم بها السفير له كما ذكر في تقريره منذ ان تولى منصبه قبل عام تقريباً. وبعد عبارات تمهيدية حول العلاقات الاقتصادية الروسية الألمانية تحول السفير الى امور السياسة

و...

"[كتب فايسيكرا] سألني دون مقدمات ما هو رأيي في العلاقات الألمانية الروسية... وقد تكلم السفير بما يأتي على وجه التقريب: "ان السياسة الروسية تكاد دائماً تتبع خطأ مستقيماً. والخلافات العقائدية يكاد لا يكون لها أي تأثير معاكس على العلاقات بين روسيا وإيطاليا. ولا يمكنها ان تخل بعلاقتها مع ألمانيا كذلك. إن روسيا لم تستغل الاحتكاك الحالي بين ألمانيا وديمقراطيات الغرب ضدنا وهي ايضاً لاترغب فيه ويقدر ما يتعلق الأمر بروسيا فانها لاتجد سبباً يمنعها من العيش معنا بوضع اعتيادي ولا تجد مبرراً يحول دون انبثاق علاقات حسنة متزايدة، من ذلك التعايش الاعتيادي".

٤١- المحضر الألماني لإجتماع گورنگ-موسوليني ١٦ نيسان ١٩٣٩، المرجع نفسه ٢٥٩-٢٦٠.

"وانهى السيد (ميريكالوف) حديثه بهذه العبارة الأخيرة: انه ينوي العودة الى موسكو خلال يوم أو اثنين^(٤٢)".

وفي موسكو التي آب اليها السفير السوفيتي حصل جديد في الثالث من أيار. في هذا اليوم ظهر في الصحف السوفيتية على واجهاتها الأخيرة وتحت عمود منزو بعنوان "أنباء صغيرة"، الخبر التالي: "أعفي الرفيق ليتفينوف من منصب مفوض الشعب (قوميسار) الشؤون الخارجية بناء على طلبه". وحلّ محله (فياجيسلاف مولوتوف Vyacheslav Molotov) رئيس مجلس مفوضي الشعب.

وأبلغ القائم بالأعمال الألماني برلين بهذا التغيير في اليوم التالي: "ان التغيير المفاجيء أحدث اعظم الدهشة هنا. كان ليتفينوف في وسط المفاوضات مع المندوبين البريطانيين. كما ظهر قريباً جداً من ستالين على المنصة في استعراض أول أيار..."

"ولما كان ليتفينوف قد استقبل السفير البريطاني في موعد قريب وهو الثاني من أيار، بل حتى ذكر في الصحف امس بأنه كان ضيف الشرف في الاستعراض العمالي فيبدو ان عزله كان بقرار فجائي اتخذه ستالين... وفي مؤتمر الحزب الشيوعي الأخير حضّ ستالين على الأخذ بأسباب الحذر لئلا يجرّ الإتحاد السوفياتي جرّاً الى صدام. أمّا مولوتوف الذي لم يكن يهودياً، ومعروف بأنه اصدق أصدقاء ستالين، واقرب اعوانه اليه. فيكون تعيينه إشارة ضمان واضحة بأن السياسة الخارجية ستكون مرسومة من قبل ستالين وموجهة توجيهها مباشراً دقيقاً منه^(٤٣)."

ان مغزى عزل (لتفينوف) المفاجيء كان واضحاً للجميع. فهو يعني تحولاً حاداً عنيفاً في السياسة الخارجية السوفيتية. فقد كان (لتفينوف) رأس المرسلين وأمام المبشرين بالضممان الجماعي وتقوية سلطان عصبية الأمم. وتحقيق الأمن الروسي ضد عدوان ألمانيا النازية بحلف عسكري مع بريطانيا العظمى وفرنسا. فقضى تردد چمبرلين في عقد مثل هذا الحلف على مستقبل وزير الخارجية السوفيتي وحكم ستالين وحكمه الوحيد النافذ في موسكو - بأن سياسة (ليتفينوف) قد اخفقت. والأنكى من ذلك انها كانت تتهدد الإتحاد السوفياتي بزجّه في حرب مع ألمانيا، تحاول الديمقراطية الغربية بجذع الأنف ان تظلّ بعيدة عنها وإستنّج (ستالين) ان الوقت قد ازف لمحاولة سلوك سبيل جديدة^(٤٤)، ان

٤٢- المرجع نفسه الص ٢٦٦-٢٦٧.

٤٣- المرجع نفسه الص ٤١٩-٤٢٠.

٤٤- لو أمكننا أن نثق بعض الثقة الحذرة بيوميّات ليتفينوف: Notes for A Journal فإن ستالين كان يفكر بتبديل كهذا منذ (مونينغ) حيث أنكر على الإتحاد السوفياتي حق حضوره. وتقول إحدى يوميات هذا الكتاب ان ستالين اعلم ليتفينوف في نهاية ١٩٣٨ "إننا على إستعداد للتوصل الى إتفاق مع ألمانيا... ونجعل بولندا غير مؤذية أيضاً" وكتب ليتفينوف في كانون الثاني ١٩٣٩ "الدلائل تشير الى انهم قرروا تنحيّتي" وفي الحاطرة نفسها بين أن كل المراسلات من السفارة السوفيتية في برلين أصبحت تُمرّ الآن على ستالين أولاً وان السفير (ميريكالوف) بناء على أوامر ستالين يهم الآن بمفاوضة فايسبكر كيما يعلم هتلر أن في امكاننا الآن عقد إتفاق: بينما لم يكن ذلك ممكناً قبل الآن". هذه المذكرات يغلب عليها الغموض. والشك فيها كثير. ولقد قام الأستاذ هاليت كارّ وهو مرجع بريطاني في الشؤون السوفيتية بتدقيقها ومع أنه وجد بعضها قد عدلّ ونقح الى الحد الذي بدا خيلاً محضاً. على ان جانباً كبيراً منها يمثل نظرات ليتفينوف الى حد ما.

كان بوسع چمبرلين ان يهديء هتلر وينزل الى رغباته أفلا يستطيع الدكتاتور الروسي ذلك؟ ان عزل ليتفينوف (اليهودي) واحلال (مولوتوف) الذي لم يكن يهودياً. كما ابرزت مذكرة السفارة الألمانية. كان ينتظر له ان يحدث في اوساط النازيين العليا رجّة معينة لها مدلولها.

ولكي يتمّ التأكد من أن مدلول التغيير لم يفت ملاحظة الألمان. تعرض القائم بالأعمال السوفيتي (جيورجي أستاخوف Georgi Astakhov) للموضوع في ٥ أيار عند محادثته مع الدكتور (يوليوس شنوره) الخبير الاقتصادي لشؤون شرق أوروبا في وزارة الخارجية الألمانية. [قال شنوره] "طرق استاخوف باب موضوع تنحية ليتفينوف، وحاول... ان يعرف هل سيؤدي هذا الى تغيير موقفنا من الإتحاد السوفياتي؟ وكان يعلق أهمية كبيرة على شخصية مولوتوف، الذي لم يكن اختصاصياً في السياسة الخارجية واقفاً على دقائقها، إلا انه سيكون له شأن كبير في توجيه السياسة الخارجية السوفيتية المقبلة"^(٤٥).

كذلك دعا القائم بالأعمال الألمان الى استئناف المفاوضات التجارية التي قطعت في شباط. لم تردّ الحكومة البريطانية على مقترحات الإتحاد السوفياتي المقدمة في ١٦ نيسان، إلا في ٨ أيار. وكان الرفض البات الجواب على إقتراح الحلف العسكري. وزادت من الشك في موسكو بأن چمبرلين لا يريد اقامة حلف عسكري مع روسيا لمنع هتلر من الإستيلاء على بولندا.

ولذلك لم يكن بمستغرب ان يشتدّ الروس في التقرب الى الألمان. وفي ١٧ أيار زار (استاخوف) (شنوره) في وزارة الخارجية مرة ثانية وبعد الحديث في مشاكل التجارة، إنجرّ الى شؤون أوسع: (جاء في تقرير شنوره) بين استاخوف انه لا يوجد تعارض في السياسة الخارجية بين ألمانيا والإتحاد السوفياتي. ولذلك فلا مبرر ثم لقيام أيّ عداء أو خصومة بين البلدين. صحيح انه يوجد في الإتحاد السوفياتي شعور سائد حول الخطر الألماني المهدق ومما لاشك فيه ان القضاء على هذا الشعور ممكن، وان تصير عوامل عدم الثقة الى زوال، وقال رداً على سؤالي المشابه (انّ المفاوضات الأنكلو سوفيتية لن تصل الى نتائج ما كما يرغب فيها البريطانيون وحسبما يبدو في الوقت الحاضر)^(٤٦).

بعد هذا بثلاثة أيام. تبادل السفير (فون در شولنبرگ) حديثاً طويلاً مع مولوتوف في موسكو، ووجد وزير الخارجية الجديد (كثير الودّ) وابلغ المبعوث الألماني ان المفاوضات الاقتصادية بين البلدين يمكن استئنافها ان تم خلق "الأسس السياسية الضرورية لها". وكان هذا تقريباً جديداً للكرملين. إلا انه عرّض بحذر من قبل (مولوتوف) الأريب وعندما سأله (شولنبرگ) ماذا يقصد بالأسس السياسية اجاب الروسي انه شيء ينبغي على كلتا الحكومتين ان تفكرا فيه. وضاعت محاولات السفير كلّها في حمل القوميسار الماكر على التصريح. وذكر شولنبرگ برلين "بأن مولوتوف معروف بصفة العناد". وفي طريقه الى الخارج بعد ختام الزيارة عرج على وكيل الوزارة (فلاديمير بوتكين Vladimir Potemkin)

٤٥- المرجع السالف ص ٤٢٩.

٤٦- المرجع السالف الص ٤٣٥-٣٤٦.

وصارحه بأنه لم يفهم ماذا اراد (مولوتوف) بالأسس السياسية. وذكر في تقريره "لقد طلبت من السيد بونكين، ان يحدّد لي المعنى" (٤٧).

لم تفت عيني السفير الفرنسي اليقظتين تجدد الإتصالات بين برلين وموسكو في العاصمة الألمانية. ونحن نجد (موسيو كولوندر) يبلغ وزارة الخارجية الفرنسية في ٧ أيار بعد عزل ليتفينوف باربعة أيام بأن المعلومات التي ابلغه بها أحد المقربين جداً من (الزعيم) تشير الى ان ألمانيا تنشد تفاهماً مع روسيا ستكون نتيجته (بين نتائج أخرى) تقسيماً رابعاً لپولندا. وبعدها بيومين ابرق السفير الفرنسي الى باريس، متحدثاً عن اشاعات جديدة ترددت في برلين مفادها ان ألمانيا قد تقدمت الى روسيا او انها ستتقدم بمقترحات، تستهدف تقسيم پولندا (٤٨).

-٧-

الميثاق الفولاذي

مع ان كبار قادة (الفيرماخت) كانوا يستخفون بقوة إيطاليا العسكرية فنحن نجد هتلر الآن يلحّ في ابرام حلف عسكري مع إيطاليا لم يكن موسوليني مستعجلاً في عقده. وبدأت محادثات بين أركان القيادتين العامتين في نيسان وقدم الجنرال كايمل تقريراً لـ (ق.ع.ق.م) معرباً فيه عن إعتقاده ان كلا من القوات المسلحة الإيطالية، والتسليح الإيطالي لايمتازان بالجودة، وأوضح يقول: من الضروري اتخاذ قرار بالحرب فوراً والألّ لن يكون من الطليان بذوي نفع فيها (٤٩). وكشفت يوميات تشيانو. في أواسط نيسان (٥٠): انه كان شديد القلق لازدياد الدلائل في احتمال هجوم ألمانيا على پولندا في لحظة واندلاع حرب أوروبية لم تستعدّ لها إيطاليا. وعندما ابرق السفير (أتوليكو) من برلين الى روما بأن غزو الألمان پولندا "وشيك" شدّ عليه تشيانو بالتعجيل في تدبير إجتماعه المقرر بريبنتروب لثلاثي تأخذ إيطاليا على حين غرة.

وتقابل وزيرا الخارجية في (ميلان) في ٦ أيار. وصل تشيانو وفي جعبته تعليمات مكتوبة من الدوتشي توضح للألمان رغبة إيطاليا في اجتناب حرب لمدة ثلاثة اعوام على الاقل. ودهش الجانب الإيطالي عندما وافقهم ريبنتروب وابلغهم ان ألمانيا تريد ان تحافظ على السلام طوال هذه المدة ايضاً. والواقع ان تشيانو وجد وزير الخارجية الألماني "لأول مرة" في "وضع فكري هاديء مريح" واستعرضا

٤٧-العلاقات النازية السوفيتية [١٩٣٩-١٩٤١] سيرمز اليها من الآن فصاعداً بـ(ع.ن.س) الص ٥-٧ و٨-٩.
٤٨-الكتاب الفرنسي الأصفر. التقارير المرقمة ١٢٣ و١٢٥. استخدمت طبعة اللغة الفرنسية. واعتقد ان الترجمة الإنكليزية لا تختلف بارقام التقارير.

٤٩- [وثائق عن... ج ٤ الص ١ و ١١١ الملحق الأول من هذا المجلد يحوي عدداً من رؤوس اقلام الأركان عن المحادثات. اخذت من ملفات البحرية الألمانية.

٥٠- يوميات تشيانو، الص ٦٧-٦٨.

الوضع في أوروبا واتفقا على تحسين علاقات المحور بالإتحاد السوفياتي وأجلا جلستهما لحضور عشاء إستقبال.

وعندما أتصل موسوليني تلفونيا بعد العشاء ليطلع على مجرى المحادثات وأجابه تشيانو انها تسير سيراً حسناً أصيب الدوتشي بإعصار دماغي مفاجيء وأمر خنته باصدار بيان للنشر يتضمن عزم ألمانيا وإيطاليا على ابرام حلف عسكري. وتردد ريبنتروب في مبدأ الأمر ثم وافق أخيراً على ترك المسألة (للزعيم)، ولما إتصل به تلفونيا وافق حالاً على إقتراح موسوليني^(٥١).

وهكذا وبحافز فجائي بعد تردد دام أكثر من سنة، ربط موسوليني مصيره بمصير هتلر رباطاً لا انفصام له. وكان هذا من أولى العلامات التي اظهرت الدكتاتور الإيطالي كصنوه الألماني بمظهر من بدأ يفقد ضبط نفسه الحديدي الذي أعانها حتى هذه السنة التاسعة والثلاثين بعد المائة التاسعة عشرة، على تحقيق مصالحهما القومية بوضوح الجليد البارد. وكانت النتائج المدمرة اسرع ظهوراً عند موسوليني.

ووقع "الميثاق الفولاذي" (كما اشتهر فيما بعد) حالاً وبمظاهر من الابهة والفخفة في دار المستشارية ببرلين في ٢٢ أيار. وخلع تشيانو على ريبنتروب قلادة الأنونزياتا Annunziata مما اثار ثائرة غورنك و"ارسل الدمع في عينيه قهراً" كما لاحظ السفير الإيطالي. الحق يقال ان الفيلد مارشال البدين خلق مشكلة وراح يشكو ان القلادة يجب ان تخلع عليه لأن الحلف إنما تم بمسعا وحده. وكتب تشيانو في تقريره "وعدت ماكنزن [السفير الألماني في روما] ان ابذل قصارى جهدي لأفوز بقلادة أخرى لغورنك".

ووجد هتلر "في احسن حال وأتم هدوء وأقل عصبية" وان ظهر اكبر سناً، وقد ازدادت التجاعيد حول عينيه عمقاً ربما بسبب قلة النوم^(٥٢). وكان في اطيح حالاته النفسية عندما راقب وزيري الخارجية أثناء توقيعهما على الوثيقة.

كان حلفاً عسكرياً واضح العبارات جريئها. وطبيعته العدوانية تجلوها عبارة الافتتاح التي أصر هتلر على ادراجها في صدر التصريح بأن الدولتين "المتحدثتين بالمشابهة الجوهرية لعقائدهما... اتفقتا على ان تعملان جنباً لجنب ويقوى موحدة لضمان مجاليهما الحيويين". و صلب المعاهدة وعمودها الفقري

٥١- المحضر الألماني عن إجتماعات ميلان (وثائق عن... ج٦ الص ٤٥٠-٤٥٢ وملحوظات تشيانو، أوراق تشيانو الدبلوماسية الص ٢٨٢-٢٨٧.

٥٢- إمتلأت يومية تشيانو المؤرخة ٢٢ أيار بالخصوصيات حول هتلر وحول حاشيته الغربية. واشتكت السيدة غوبلز ان (الفوهرر) يبقى أصدقاءه جالسين معه طوال الليل وقالت "وهو لا يدع احداً غيره يتكلم فيبيدي ويعيد اقواله مراراً وتكراراً حتى يستم ضيوفه" وسمع تشيانو ايضاً تلميحات عن "مشاعر هتلر الرقيقة تجاه فتاة جميلة" في العشرين من عمرها ذات عينين جميلتين هادئتين وقسمات متناسقة وجسم فاتن اسمها سيغريد فون لا پوس Sigrid von Lappus وهما يتقابلان كثيراً في إجتماعات خاصة. (يوميات تشيانو ص ٨٥). لاشك أن تشيانو قد خدع بها - وهو فارس نساء نفسه. والظاهر انه لم يسمع بعد (بايقاً براون) عشيقه هتلر التي نادراً ما كان يسمح لها بالدخول الى برلين في ذلك الحين.

هو بندها الثالث: "إن حدث، خلافا لرغبات وأمانى الفريقين الساميين المتعاقدين، ان اشتبك احدهما في خلاف ذي طابع حربيّ مع دولة ثالثة أو دول أخرى، فعلى الفريق السامي المتعاقد الآخر ان يبادر فوراً الى مساعدته بوصفه حليفاً وان يسانده بكلّ قواته العسكرية في البرّ والبحر والجو". ويشترط البند الخامس في حالة وقوع حرب، ألاّ يبرم أي طرف صلحاً منفرداً أو هدنة^(٥٣). في مبدأ الأمر -كما سنرى- لم يف موسوليني بالبند الأول وفي الأخير، لم تف إيطاليا بالبند الثاني.

-٨-

هتلر يحرق سفنه

٢٣ أيار ١٩٣٩

في ٢٣ أيار، بعد توقيع الميثاق الفولاذي بيوم واحد. جمع هتلر قادته العسكريين في مكتب المستشارية ببرلين وأبلغهم بصراحة ان أيّ نجاح آخر لا يمكن الوصول اليه بعد الآن إلاّ بارقة الدماء، ولذلك كانت الحرب أمراً محتوماً.

كان هذا الاجتماع على نطاق أوسع من مثيله الذي وقع في ٥ تشرين الثاني ١٩٣٧، عندما أعلن هتلر قراره بالخروج الى الحرب أمام القواد العامين لأصناف القوات المسلحة الثلاثة. بلغ عدد الحاضرين منهم اربعة عشر ومن بينهم الفيلد مارشال غورنك واميير البحر الأكبر رايدر (بعد ترقيته). والجنرال فون براوختش والجنرال هالدر والجنرال كايتل، والجنرال ايرهارد ميلش Erhard Milch المفتش العام لسلح الجوّ ونائب الأميرال رئيس هيئة أركان الأسطول اوتو شنفيند Otto Schenwind وكان المرافق الخاص لهتلر المقدم (رودولف شموندت) بين الحاضرين يدوّن الملاحظات لحسن حظ التاريخ. وقد وجدت ملحوظاته هذه بين الوثائق المستولى عليها. ويظهر ان اقوال هتلر في هذه المناسبة كانت تعدّ سريةً للغاية بحيث لم يعمل نسخة أخرى لتلك الملحوظات وبقيت حتى وصلتنا بخط يد (شموندت)^(٥٤).

انها وثيقة من أهم وأوضح الوثائق السرية التي ترسم طريق هتلر الى الحرب. فهنا وأمام حفنة من الرجال قادوا فيما بعد القوات العسكرية في ذلك النزال المسلح وجّهت الى دعايته وخداعه السياسي طعنة نجلاء بنطقه بالحقيقة عن الأسباب التي تحمله على غزو بولندا وعند الضرورة مهاجمة بريطانيا العظمى وفرنسا أيضاً.

٥٣- نص معاهدة التحالف [وثائق عن... ج٦ الص ٥٦١-٥٦٤. هناك بروتكول سرى لا يحوي شيئاً مهماً.
٥٤- ملحوظات شموندت ٢٣ أيار ١٩٣٩ [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٧ الص ٨٤٧-٨٥٤ الوثائق L:٧٩ هناك ايضاً
ترجمة إنكليزية في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٦ الص ٥٧٤-٥٨٠] النص الألماني في [محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج٣٧ الص ٥٤٦-٥٥٦].

انه يتكهن بدقة لا مزيد عليها بالسبيل الذي ستسلكه الحرب على الاقل في السنة الاولى ومع كل تلك الصراحة فان حديثه (وكان هو المتكلم الوحيد) يفصح عن اضطراب عقلي وتذبذب أكثر مما أظهر قبلاً حول هذه النقطة. وبخاصة لأن بريطانيا والبريطانيين ظلوا كما كانوا مصدر حيرة له، كما ظلوا الى آخر لحظة من حياته.

لكنه كان واضحاً دقيقاً في خروجه الى الحرب وفي الغايات التي يتوخاها منها. ولم يترك جنرال أو اميرال دار المستشارية في ذلك اليوم إلا وهو مدرك تماماً ماذا ستأتي به نهاية ذلك الصيف. بدأ يقول ان مشاكل ألمانيا الاقتصادية لا يمكن حلها إلا بالحصول على المزيد من "المجال الحيوي في أوروبا وهو أمر متعذر إلا بغزو بلاد أخرى، ومهاجمة ممتلكات شعوب أخرى". "نجاح آخر لا يمكن الوصول اليه دون اراقة الدماء".

والدانزك لسيت موضوع النزاع أبداً. إن المسألة هي توسيع رقعة عيشنا في الشرق وضمان موارد رزقنا، وكذلك حل مشكلة دول البلطيق... ليس هناك أي احتمال آخر في أوروبا... وإن اضطرتنا الاقدار الى نزال مع الغرب فليس ثم قيمة تضاهي حياة منطقة أرض واسعة في الشرق. وفي أيام الحرب سنكون اقل قدرة على الاعتماد على حصاد غلتنا المقدّر مما كنّا وقت السلم.

ويستدرك ليقول: وفضلاً عن ذلك فان السكان من غير الألمان في الأراضي غير الألمانية سيفيدوننا كمصدر من مصادر العمل (اول تلميح لعمل السخرة وهو البرنامج الذي طبق فيما بعد رسمياً). اختيار الفريسة الأولى كان مقررأً وواضحاً.

"ليس هناك بدّ من مهاجمة بولندا، وعلينا تنفيذ قرارنا:

"الهجوم على بولندا عند اول فرصة سانحة".

"لا يمكن ان نتوقع تكراراً لعملية الجيك وستكون حرباً ومهمتنا عزل بولندا والنجاح في عزلها هو العامل الحاسم".

واذن فسيكون ثمّ حرب تشنّ على بولندا "المعزولة" وحدها؟ هنا لم يكن (الزعيم) واضح الفكر تماماً في الحقيقة أنه كان مشوشاً متناقضاً. وقال انه سحيتفظ بالأمر النهائي بالحرب لنفسه.

"يجب أن لا يؤدي الى نزال مزدوج وفي آن واحد مع الغرب، فرنسا وإنجلترا".

إن لم يكن مؤكداً أن لا يؤدي الصدام الألماني البولندي الى حرب في الغرب.

فالقتال اذن يجب أن يكون ضد إنجلترا وفرنسا.

إذن، وفي الجوهر، لاينجح صدام مع بولندا ومبدأه هجوم عليها إلا اذا كان الغرب بعيداً عن الحرب.

وإن لم يكن ذلك ميسوراً فالأحسن ان نلقي بأنفسنا مع الغرب، وأن نقضي على بولندا في آن واحد.

أمام هذا التناقض السريع المتلاحق كطلقات النار، لابدّ وان الجنرالات جفلوا جفولاً ووضعوا

مونوكولاتهم على أعينهم يتفرسون في قائلها مبهوتين إلا أنه لم يكن ثم دليل على ذلك في ملحوظات (شموندت) ولم يذكر ان أحداً من المجتمعين المختارين تجرباً على القاء سؤال واحد لوضع الأمور في نصابها.

ثم التفت هتلر الى روسيا. وقال "لايستبعد ان تبدي روسيا عدم اهتمام بالقضاء على بولندا" ومن الناحية الثانية لو ان الإتحاد السوفياتي تحالف مع فرنسا وبريطانيا فإن ذلك "سيؤدي بي الى مهاجمة إنكلترا وفرنسا بضربات قليلة قاصمة" وهذا يعني ارتكاب الخطأ الذي اقدم عليه فلهم الثاني في ١٩١٤، ولكن مع ان هتلر استخلص عدداً من العبر والدروس من الحرب العالمية في محاضراته هذه، فإنه لم يستخلص هذا الدرس. إن افكاره الآن تتجه نحو بريطانيا العظمى "إن الزعيم يشك في احتمال إجراء تسوية سلمية مع إنكلترا والضرورة تدعو الى نزال. وإنكلترا ترى في تطويرنا السيادة المطلقة Hegemony يضعفها. لذلك كانت عدوتنا، وكفاحنا معها مسألة حياة أو موت ولكن كيف سيكون هذا الكفاح؟

لاستطيع إنكلترا القضاء على ألمانيا بضربات معدودات وتخضعنا بالقوة. واعظم ضرورة لإنكلترا هي ان تنقل الحرب الى نقطة اقرب ما يمكن من الروهر وستسيل دماء الفرنسيين. (الجدار الغربي!). إن بقاء كيانتا مرهون بمحافظتنا على الروهر.

وبعد ان قرر هتلر اتباع غلطة القيصر (مهاجمة فرنسا وإنكلترا إن تحالفت مع روسيا) اعلن الآن انه سيتبع خطى القيصر في مسألة أخرى كانت فيما بعد سبباً لخراب ألمانيا.

"يجب إحتلال القواعد الجوية الهولندية والبلجيكية إحتلالاً عسكرياً ان إعلان الحياد يمكن تجاهله واذا شئت إنكلترا التدخل في حرب بولندا فعلينا ان نقوم بهجوم مباغت على هولندا. علينا ان نبني خط دفاع جديد في الأراضي الهولندية يمتد حتى (زويدر زي Zuyder Zee) إن الحرب مع إنكلترا وفرنسا ستكون حرب حياة أو موت.

(ن فكرة نجاحنا بثمن رخيص هي فكرة خطرة. ليس هناك أي إحتمال لهذا. اذن فعلينا ان نحرق سفننا ولن يعود الأمر بعد مسألة خطأ أو صواب بل موضوع وجود أو عدم وجود ثمانين مليوناً من البشر".

ومع أنه اعلن قبل لحظة ان ألمانيا ستهاجم بولندا (في اول فرصة سانحة) ومع ان مستمعيه كانوا يعرفون ان كل قوة ألمانيا الحربية تقريباً قد حشدت لهذا الهدف، إلا ان هتلر وهو ماضٍ في سياحته الفكرية، لم يكن قادراً عن تحويل أفكاره عن بريطانيا العظمى.

قال موضحاً: "إنكلترا هي القوة الاندفاعية الكبرى ضد ألمانيا". ثم راح يبحث في مواطن قوتها وضعفها.

ان البريطاني بشخصيته، منظم عبقرى فخور، باسل، صلب العود، دؤوب، يعرف كيف يستغل كل حدث جديد، وهو محبٌ للمغامرات وفيه شجاعة العنصر النوردي...

إنجلترا دولة معظمة بنفسها. ظلّت كذلك ثلاثمائة عام وكبرت واتسعت عن طريق التحالف. هذه الدولة ليست شيئاً مكيّناً فقط بل يجب إعتبارها قوة بيولوجية (حية) تشمل العالم كله. اضم الى هذا، ثروتها التي لا تقدّر ومقدرتها على الايفاء بتعهداتها وديونها تبعاً لذلك. والحماية الجغرافية والامن اللذين تضمنهما لها قوة بحرية عظيمة وسلاح جويّ مقدام. " لكن هتلر ذكر مستمعيه ايضاً بمواطن ضعفها. وراح يعددها:

"لو كان لدينا في الحرب الماضية بوارج حربية أكثر وطرادان ازيد، وبدأنا معركة جوتلاند Jutland صباحاً. لهزم الأسطول البريطاني وخرت إنجلترا على ركبتيها^(٥٥) ومعنى ذلك نهاية الحرب العالمية. كان قهر إنجلترا في الأيام الماضية يتطلب غزوها في عقر دارها اذ كان بإمكانها اذ ذاك أن تقبض نفسها أما اليوم فلا تقدر.

في اللحظة التي تنقطع إنجلترا عن امداداتها يمكن ارغامها على الاستسلام واستيراد الطعام والنفط يعتمد على الحماية البحرية لن ترغمها هجمات السلاح الجويّ الألماني على الاستسلام. لكن إن قضي على الأسطول فالاستسلام سيكون آنياً. لاشك أن هجوماً مباغتاً قد يؤدي الى قرار سريع. هجوم مباغت؟ بأي شيء؟ لاشك أن الاميرال رايدر كان يظن أن هتلر يتكلم كالحواة من بطنه. فبموجب المشروع المسمى (Z) الذي رسم في ١٩٣٨ لن تبدأ قوة ألمانيا البحرية بالاقترب من مستوى قوة بريطانيا الا في ١٩٤٥ أمّا في الوقت الحاضر وفي ربيع ١٩٣٩ فلم يكن لدى ألمانيا البوارج الثقيلة القادرة على اغراق الأسطول البريطاني حتى بهجوم مباغت.

ربما امكن إخضاع بريطانيا بوسائل أخرى. نزل هتلر الى الارض مرة ثانية ليوضح خطة استراتيجية قدر لها بعد سنة واحدة ان تطبق بنجاح مدهش. الهدف هو أن نكيل للعدو ضربة قاصمة أو ضربة نهائية حاسمة في المطلق. إعتبارات الخطأ والصواب أو احترام المعاهدات لا يدخل في الحساب. لا يمكن أن يكون هذا ممكناً إلا اذا تفادينا "الانزلاق" في حرب مع بريطانيا بسبب بولندا.

يجب ان تتخذ "الاهبة" لحرب طويلة الامد، فضلاً عن الإستعداد لحرب خاطفة وكلّ تدخل محتمل من بريطانيا في القارة الأوروبية يجب القضاء عليه.

يجب أن يحتل الجيش البري المواضع المهمة للأسطول وللسلاح الجوّ ولو أفدحنا في إحتلال هولندا وبلجيكا والبقاء فيها فضلاً عن دحر فرنسا نكون قد أوجدنا قاعدة لحرب ناجحة ضد إنجلترا. في امكان (الوفتوافه) القاء حصار حول إنجلترا من جهة فرنسا الغربية ويقوم الأسطول بمهمة الحصار الاوسع بسلاح غواصاته.

هذا ما كان سيقوم به بالضبط بعد سنة ونيف كما قدر لخطة استراتيجية حاسمة أخرى شرحها في إجتماع ٢٣ أيار أن تطبق ايضاً. قال: لو أن الجيش الألماني في بداية الحرب العالمية الماضية نفذ خطة ٥٥- إن معلومات هتلر عن معركة جوتلاند خاطئة على ما يظهر.

حركة الاستدارة بمرافيء القنال عوضاً عن الاتجاه الى باريس، لكانت النهاية مختلفة. وربما كان الأمر كذلك، وعلى كل حال فقد طبقها هو نفسه عام ١٩٤٠.

وانتهى من كلمته بقوله: "الهدف سيكون دائماً اخضاع إنكلترا" ولعلّه نسي في تلك اللحظة كل شيء عن بولندا.

هناك إعتبار واحد أخير.

"السريّة والكتمان هما عاملان حاسمان من عوامل النجاح. يجب ان تبقى اهدافنا سرّاً مطوّياً عن إيطاليا واليابان".

حتى هيئة أركان حرب هتلر نفسها، التي تمثلت برئيسها الجنرال هالدر في الإجتماع يجب أن لا يوثق بها كل الثقة. قال هتلر بصراحة "يجب ألا تترك دراساتنا لهيئة الأركان والألا لا يعود ثم ثقة بالسر". وأمر ان يختار عدد صغير من ضباط الخطط في الأركان التابعة ل(ق.ع.ق.م) ليقوموا برسم الخطط العسكرية.

إذن فيوم ٢٣ أيار ١٩٣٩ هو اليوم الذي اتمّ هتلر احراق سفنه كما قال، وستنشأ الحرب. فألمانيا بحاجة الى مجال عيش في الشرق وللغوز به يتحتّم مهاجمة بولندا في اول فرصة ممكنة. ولا علاقة للدانزك بالموضوع. وانما هي مجرد حجة. وبريطانيا تقف عقبة في الطريق وهي حقا أعظم قوة تجابهها ألمانيا. حسن جداً، إذن ستغزى هي ايضاً ومعها فرنسا. ستكون معركة حياة أو موت.

عندما أوضح هتلر معالم خطته العدوانية للقادة العسكريين في ٥ تشرين الثاني ١٩٣٧، اعترض عليه كل من الفيلد مارشال فون بلومبرگ والجنرال فون فريتش - على الأقل متحجّين بأن ألمانيا أضعف من ان تقدر على خوض حرب أوروبية واستقال الجنرال بيك رئيس هيئة الأركان في الصيف التالي للسبب عينه. لكن في ٢٣ أيار ١٩٣٩ لم يرتفع صوت جنرال أو اميرال واحد من المجتمعين لمناقشة سلامة سبيل هتلر أو هذا ما اظهرته وقائع الإجتماع الملخصة على الأقل.

وجدوا ان واجبهم الطاعة العمياء لا المناقشة. ولقد سبق لهم ان وضعوا الميعتّم وخبراتهم الكبيرة لرسم خطط عديدة للعدوان. ففي ٧ أيار إنتهى العقيد (كونتر بلومنتريت Guenther Blumentritt) من هيئة أركان الجيش، بالتعاون الوثيق مع الجنرال فون رونددشت والجنرال فون مانشتاين الذين الفوا (هيئة ركن عاملة) صغيرة، من وضع ملخص للموقف (للقضية البيضاء) وهو في الواقع خطة كاملة لفتح بولندا. وكانت خطة جسورة خيالية طرأت عليها تعديلات قليلة جداً فما بعد^(٥٦). وقدم امير البحر (رايدر) الخطط البحرية الخاصة (بالقضية البيضاء) بأمر توجيهي سري للغاية وقع في ١٦ أيار^(٥٧).

٥٦- تجد تفاصيل الخطة في وثائق نورمبرگ [وثائق نورمبرگ الخاصة بالقيادة العليا الألمانية. وهي مما تم عرضه من وثائق أمام محكمة نورمبرگ العسكرية لمجرمي الحرب.

٥٧- [مؤامرة... ج ٦ الص ٩٢٦-٩٢٧ (الوثائق ١٢٠-C).

لما كانت بولندا لا تملك إلا أميالاً قليلة من السواحل البحرية على البلطيق غربي الدانزك. وأسطولها صغير جداً فلا يتوقع ان تقوم صعوبة تذكر في وجه الأسطول الألماني. على ان فرنسا وبريطانيا كانتا أهم ما يشغل بال امير البحر بصورة رئيسة. يجب ان يسد مدخل البلطيق بالغواصات. وان تنهياً بارجتا الجيب والبارجتان الأخريان مع الغواصات الباقية الى خوض "حرب في الاطلسي". وبناء على تعليمات (الزعيم) وجب على الأسطول ان يستعد ليقيم بقسطه من الواجب في (القضية البيضاء) في ١ أيلول. إلا ان (الاميرال رايدر) احتث قواده على التعجيل في الخطط لانه "نظراً لآخر التطورات السياسية" قد يباشر بالعملية في وقت أقرب^(٥٨).

في ختام شهر أيار ١٩٣٩ كانت إستعدادات ألمانيا للحرب القادمة في نهاية الصيف قد قطعت شوطاً بعيداً. وكانت المصانع الحربية المجبارة تعمل ليل نهار، وتقذف من جوفها بالمدافع والدبابات والطائرات والبوارج والسفن الحربية. لقد وصلت هيئات أركان الجيش والأسطول والطيران القديرة آخر مرحلة من خططها. وتضخمت الفرق والوحدات بالمكلفين الجدد الذين دعوا "للتدريب الصيفي". وكان من الطبيعي ان يسر هتلر بما انجز.

في اليوم الذي تلا محاضرة الزعيم لقادة العسكر. لخص الجنرال جورج توماس رئيس قسم الاقتصاد والتسليح في (ق.ع.ق.م) تلك المنجزات في خطبة سرية القاها على موظفي وزارة الخارجية الكبار. وذكر مستمعيه بانه في الوقت الذي اقتضى للجيش الامبراطوري ستة عشر عاماً (١٨٩٨-١٩١٤) لزيادة قوته من (٤٢) فرقة الى (٥٠) فرقة، قفز جيش الرايخ الثالث من سبع فرق الى (٥١) فرقة في اربع سنوات لا غير ومن بين هذا العدد خمس فرق مصفحة ثقيلة واربع فرق خفيفة. "وخيلة ميدان عصرية" لا يملك مثلها أي جيش من جيوش العالم. لقد بنى الأسطول من اللاشيء قوة بحرية تتألف من بارجتين كل منهما ذات حمولة (٢٦٠٠٠ طن)^(٥٩) و طرادين ثقيلين وسبع عشرة مدمرة وسبع واربعين غواصة وقد انزلت قبل قليل بارجتين بحمولة ٢٥٠٠٠ طن لكل منهما وحاملة طائرات واحدة. ورسم إنزال عدد كبير جداً من مختلف السفن الحربية الأخرى. ومن العدم انشأ سلاح الجو (اللوفتوافه) قوة طيران تتألف من واحد وعشرين سرباً، وبلغ عدد افرادها ٢٦٠ ألف رجل. أما عن الانتاج الحربي للسلاح والذخيرة فزعم الجنرال توماس ان ألمانيا تنتج أكثر بكثير مما كانت تنتجه في ذروة العمل أثناء الحرب الماضية. وان الكمية المنتجة في معظم القطاعات تفوق بكثير انتاج أي دولة. في الواقع

٥٨- محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج ٢٤ الص ٤٢٨-٢٤٢ [الوثائق C١٢٦] الترجمة الإنكليزية لهذه الوثيقة مختصرة جداً ليست بذات فائدة في [مؤامرة النازيين وعدوانهم الص ٩٣٧-٩٣٨.

٥٩- كان الجنرال توماس باعطائه هذه الارقام عن حمولة السفن يخدع حتى وزارة الخارجية. هناك وثيقة بحرية ألمانية هامة (مؤامرة... ج ٦ ص ٨٢٧- الوثائق C٢٣) يرجع تاريخها الى أكثر من سنة (شباط ١٩٣٨) تشير الى ان ارقاماً مخالفة للحقيقة عن السفن الحربية اعطيت للحكومة البريطانية بمقتضى الإتفاقية البحرية الأنكلو-ألمانية. وتوضح أن الحمولة للحقيقة للبوارج ذات ٢٦٠٠٠ طن هي في الواقع ٣١ ألف طن. وأن حمولة البارجة ذات ٣٥ ألف طن (وهو أثقل حمولة في أي سفينة حربية في الأسطولين الإنكليزي والأمريكي) انما هو ٤١,٧٠٠ طن مثال عجيب للخداع النازي!

ان انتاج السلاح العام في ألمانيا ربّما كان "فريد عصره في العالم". أصبحت قوة ألمانيا العسكرية قوة جبارة في بداية صيف عام ١٩٣٩، وبات احتمال النجاح في الحرب التي اختطها هتلر في اول الخريف يعتمد على الشكل الذي ستتخذه. مازالت ألمانيا غير قوية بالدرجة التي اريد لها وربما لن تصل الى تلك الدرجة التي تؤهلها للوثوب على فرنسا وبريطانيا وروسيا إضافة الى بولندا. وبمجيء الصيف كان كل شيء يعتمد على مقدرة (الزعيم) في تضيق نطاق الحرب - واهم من كل شيء الحيلولة بين روسيا وبين تأليف حلف عسكري مع الغرب، ذلك الحلف الذي اقترحه ليتفينوف قبل سقوطه، وبدا چمبرلين في اول الأمر كأنما يريد ان يرفضه فاذا به في نهاية شهر أيار يعود فيطغى بخياله، على الموقف السياسي.

-٩-

التدخل الروسي: المرحلة الثانية

في مناقشة جرت يوم ١٩ أيار في مجلس العموم، عاد رئيس الوزراء البريطاني أيضاً ينظر الى المقترحات الروسية نظرة برود وازدراء كما لاحظ (چرچل)، وأوضح ببعض سأم لمجلس العموم "ان هناك نوعاً من الحجاب، نوعاً من الجدار بين الحكومتين من الصعب جداً إختراقه" وقال چرچل يدعمه (لويد جورج) من الجهة الأخرى ان موسكو قدمت "عرضاً عادلاً معقولاً... أكثر بساطة، واستقامة، وفعالية" من مقترحات چمبرلين ورجا "حكومة صاحب الجلالة، ان تضع في أدمغتها بعض الحقائق الخشنة البربرية. فبدون وجود جبهة شرقية فعالة، لا يمكن ان يوجد دفاع مجد في الغرب. وبدون روسيا لا يمكن ان يوجد جبهة شرقية فعالة".

ولم يكن من چمبرلين الا ان ينحني الى عاصفة الانتقاد التي هبت عليه من جميع الجهات. فأوعز في ٢٧ أيار الى السفير البريطاني في موسكو ان يوافق على فتح باب المفاوضات لعقد ميثاق المعونة المتبادل. ومع وفاق عسكري وضمانة للدول التي يتهددها عدوان هتلر^(٦٠).

واشار السفير فون ديركسن في لندن في تقريره الى وزارة الخارجية بان الحكومة البريطانية اقدمت على الخطوة "بأعظم ما يمكن من التردد". وراح ديركسن يزيع الستر عما قد يمكن ان يكون السبب الأولي لمبادرة چمبرلين. قال ان وزارة الخارجية البريطانية تحسست "بمجسات الألمان في موسكو" وهي "تخشى ان تنجح ألمانيا في ابقاء روسيا على الحياد أو ربّما حملها على اتخاذ موقف حياد ودود. وان هذا يعني الانهيار التام لعملية التطويق"^(٦١).

٦٠- في ٢٧ أيار قدم السفير البريطاني والقائم بالاعمال الفرنسي في موسكو، مسودة المعاهدة المقترحة منهما لمولوتوف. ولدهشة المبعوثين الدبلوماسيين وجدا أن مولوتوف قد تلقاها بكل برود ولم ينظر اليها باهتمام: (نص المسودة

في: و.س.ب.خ. ج ٥ رقم ٦٢٤ رواية السفير البريطاني عن رد فعل مولوتوف في المجلد نفسه رقم ٦٤٨ و ٦٥٧.

٦١- الرسالة المستعجلة المؤرخة ٣١ أيار. وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٦ الص ٦١٦-٩١٧.

في آخر يوم من شهر أيار ألقى مولوتوف أوّل خطاب عام له بوصفه مفوض الشؤون الخارجية أمام المجلس الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. فيه أشيع الديمقراطية الغربية لوماً وتأنبياً لتردها وقال ان كانت هذه الدول جادة في إيقاف العدوان فعليها ان تنزل من عليائها وتشمر عن ساعدها وتبرم إتفاقيات على ثلاث أسس.

أولاً: عقد ميثاق ثلاثي بالتعاون المتبادل ذي صفة دفاعية بحثة.

ثانياً: إعطاء ضمانة لدول أواسط أوروبا وشرقها وبضمنها كل الدول المتاخمة للاتحاد السوفياتي.

ثالثاً: عقد إتفاقية ذات مآل صريح، على المدى والشكل اللذين من شأنهما تقديم العون الفوري الفعّال واحدها للآخرى وللدول الصغرى التي يتهددها العدوان.

وصرح مولوتوف ايضاً ان المحادثات مع الغرب لاتعني ان روسيا سوف تهمل "علاقاتها التجارية على الصعيد العملي" مع ألمانيا وإيطاليا، بل في الواقع "ان المفاوضات التجارية مع ألمانيا يمكن ان تستأنف على أي مدى"، وأشار السفير فون در شولنبرگ في تقديمه الخطاب الى برلين الى ان مولوتوف لمح بأن روسيا مازالت مستعدة لابرام معاهدة مع بريطانيا وفرنسا "شريطة ان يُقبل كل طلباتها" ولكن بات واضحاً الآن من الخطبة انه سيمر وقت طويل قبل ان يتم التوصل الى إتفاق حقيقي وأشار الى ان مولوتوف "تجنّب مهاجمة ألمانيا، واطهر إستعداداً لاستئناف المحادثات التي بدأت في برلين وموسكو" (٦٢).

هذا الإستعداد لقي الآن وعلى حين غرة ترحيباً من هتلر في برلين.

كان هتلر ومستشاروه خلال الأيام الأخيرة العشرة من أيار يعصرون اذهانهم ويكدونها كدّاً في ايجاد وسيلة لاجباط المفاوضات الأنكلو روسية، بالتقرب من موسكو، وشعرت الاوساط المسؤولة في برلين ان حديث مولوتوف مع السفير فون در شولنبرگ في ٢٠ أيار قد ألقى ماءً بارداً على التقرب الألماني، وفي اليوم التالي (٢١ أيار) وجّه (فايسيك) الى السفير برقية قال فيها: بالنظر الى ما اعلنه وزير الخارجية السوفيتي "علينا الآن ان نجلس في موضعنا هادئين وننتظر لنرى هل سيتكلم الروس بصراحة أكثر من هذا؟" (٦٣)

الأ ان هتلر الذي حدد يوم (١) أيلول لهجومه على بولندا لم يكن يسعه الجلوس هادئاً. ففي ٢٥ أيار أو نحوه استدعى (فايسيك) و(فريدريخ غاوس Friedrich Gaus) مدير الدائرة القانونية في وزارة الخارجية الألمانية. الى بيت ريبنترروب الريفي في سوننبرگ Sonnenberg وكما جاء في محضر الاستجواب المؤيد باليمين الذي دون لگاوس في نورمبرگ (٦٤)، أن ريبنترروب أنهى اليهما برغبة

٦٢- رسالة (١) حزيران المرجع السالف الص ٦٢٤-٦٢٦.

٦٣- المرجع نفسه ص ٥٤٧.

٦٤- رفضت المحكمة الأخذ بافادته كدليل. ولم تنشر في أجزاء (مؤامرة النازيين وعدوانهم أو محاكمة مجرمي الكبار) الذي جمعت فيه كل ادلة نورمبرگ إلا ان ذلك لا يقلل من قوتها كحقيقة. فكل المواد الخاصة بالتعاون النازي-السوفيتي خلال تلك الفترة لفت لفاً في محكمة تألفت من اربعة قضاة احدهم روسي.

(الزعيم) في "انشاء علاقات أكثر تسامحاً بين ألمانيا والإتحاد السوفياتي". وعمل ريبنتروب مسودة بالتعليمات لـ(شولنبرگ) رسمت فيها بتفاصيل مسهية الأصول الجديدة التي يجب ان يتبعها للتقرب من مولوتوف الذي طلب مقابلته "باقرب وقت ممكن" وهذه المسودة هي من بين وثائق وزارة الخارجية الألمانية المستولى عليها^(٦٥).

وتدل ملحوظة دوّنت عليها انها عرضت على هتلر في ٢٦ أيار وكانت وثيقة كاشفة هامة أوضحت ان وزارة الخارجية الألمانية في هذا الوقت كانت مقتنعة بأن المفاوضات الأنكلو روسية ستختم بالنجاح إلا اذا تدخلت ألمانيا تدخلاً جدياً. لذلك اقترح ريبنتروب على شولنبرگ ان يقول لمولوتوف مايلي: "ليس هناك تعارض حقيقي في المصالح بين ألمانيا والإتحاد السوفياتي في الشؤون الخارجية... لقد حان الوقت لإنشاء روابط طيبة سلمية للعلاقات الخارجية الألمانية السوفيتية... وان الملف الألماني الطلياني ليس موجهاً ضدّ الإتحاد السوفياتي، انما هو موجه بصورة مطلقة الى الثنائي الأنكلو فرنسي...

إن آل الأمر الى نزاع مسلح بيننا وبين بولندا ضدّ رغبتنا. فنحن واثقون ثقة تامة ان ذلك لن يؤدي الى تصادم المصالح بيننا وبين الإتحاد السوفياتي. في امكاننا المسير ابعد من هذا وعندما تتم تسوية النزاع الألماني البولندي بأي وسيلة كانت التسوية فسنضع المصالح السوفيتية نصب أعيننا بقدر الإمكان".

وكان ينبغي الإشارة الى المخاطر التي تتأتى من حلف أنكلو روسي من الجهة الثانية: "نحن لاندري ما الذي يغري الإتحاد السوفياتي في ان يسهم بدور فعال في لعبة التطويق التي تستهدفها السياسة البريطانية... وهذا يعني ان روسيا ستنهض بتبعية من جانب واحد دون تعويض بريطاني قيم لقاء ذلك... ليست بريطانيا في وضع تتمكن من تقديم معاوضة quid pro quo قيمة حقاً لروسيا، بأي شكل سترد صيغة المعاهدة. (فالجدار الغربي) سيجعل كل مساعدة غربية أمراً مستحيلاً... لذلك نحن مقتنعون ان بريطانيا ستبقى مرة أخرى أمينة على سياستها التقليدية بترك الدول الأخرى تلتقط لها كستناءها من النار.

ووجب على (شولنبرگ) ايضاً ان يوضح ان ألمانيا "لاتضمّر نوايا عدوانية لروسيا" وأخيراً أمر بإبلاغ مولوتوف ان ألمانيا مستعدة للمباحثات مع روسيا "للعودة الى العلاقات الطبيعية السياسية علاوة على الشؤون الاقتصادية".

رأى هتلر ان هذه المسودة قد راحت مسافة بعيدة فأمر بوقفها. وبحسب ما روى (كاوس) ان هتلر صدم صدمة عنيفة بتفاؤل چمبرلين قبل يومين (٢٤ أيار) عندما ابلغ مجلس العموم انه نتيجة للمقترحات البريطانية الجديدة يأمل التوصل الى إتفاق تام مع روسيا "في وقت قريب جداً" وكان خوف هتلر هو الرفض وخيبة المسعى. لم ينبذ فكرة التقارب مع موسكو إلا انه قرر ان الجسّ الحذر جداً

٦٥- المرجع السالف الص ٥٨٩-٥٩٣.

للبيض هو خير الأمور في الوقت الحاضر.

ان الطي والنشر اللذين عملا عملهما في رأس هتلر خلال الأسبوع الأخير من شهر أيار مدونان في الوثائق المستولى عليها من وزارة الخارجية الألمانية. في ٢٥ أو نحوه -التاريخ غير معلوم بالضبط- خرج فجأة بفكرة دفع المحادثات مع الإتحاد السوفياتي الى الأمام لإحباط المفاوضات الأنكلو-روسية. وامر (شولنبرگ) بمقابلة مولوتوف حالاً لهذا الغرض. إلا ان تعليمات ريبنتراب له التي عرضت على هتلر، لم ترسل قط، فقد الغاها هتلر في السادس والعشرين من أيار. وفي ذلك المساء ابرق فايسيكير الى شولنبرگ طالبا منه ان يتخذ (موقف تحفظ تام) "ولن تقوم انت شخصياً بأي بادرة حتى إشعار آخر" (٦٦).

وأشفعت هذه البرقية برسالة من دائرة الخارجية للسفير بتاريخ ٢٧ أيار. إلا انها لم ترسل اليه حتى الثلاثين من أيار، بعد إضافة حاشية مهمة اليها، بلغت حداً انها راحت تفسر سر التردد في برلين (٦٧).

كتب (فايسيكير) يعلم شولنبرگ (٢٧ أيار) ان رأي برلين يرجح صعوبة الحيلولة دون إتفاق إنكليزي روسي وان ألمانيا ترددت في التدخل تدخلاً حاسماً ضدّه خوفاً من اثارة "قهقهات تترية" في موسكو وأوضح وكيل الوزارة ايضاً ان اليابان وإيطاليا تنظران ببرود الى العروض الألمانية في موسكو وان تحفظ حلفائها دفع اوساط برلين الى تفضيل الجلوس بعيداً. وانهى الرسالة بقوله "ولذلك نحن الآن نميل الى الانتظار ومراقبة المدى الذي تبلغ الصلات بين لندن باريس وروسيا".

ولسبب ما لم يرسل (فايسيكير) رسالة حالاً: لعله أحس بأن هتلر لم يستقر رأيه بعد على شيء واستقراراً نهائياً. وعندما ارسله يوم ٣٠ أيار أضاف اليه الحاشية التالية: ملاحظة هامة: ازيد على سطوري السالفة ان تقريباً سيتم على كل من روسيا بموافقة (الزعيم) وان كان تقريباً معدلاً الى حد كبير سيتم ذلك بحديث سيجري بيني وبين القائم بالأعمال الروسي في هذا اليوم".

لم يقطع هذا الحديث مع (جيورجي استاخوف) مرحلة بعيدة الا انه مثل للألمان بداية "جديدة". وكان الزعيم الذي تعلل به (فايسيكير) للقاء القائم بالأعمال هو البحث في مستقبل الوفد التجاري السوفيتي في براغ. الذي كان الروس يحرصون على بقاءه. ويتحويهما حول موضوع اللقاء كان الدبلوماسيان يحاولان جاهدين ان يكتشفا كل واحد منهما ما في ذهن الآخر. قال (فايسيكير) انه يتفق مع مولوتوف ان المشاكل السياسية والاقتصادية يمكن الفصل بينهما فصلاً تاماً واعرب عن اهتمامه بـ"اعادة العلاقات الطبيعية بين الإتحاد السوفياتي وألمانيا" وأكد (استاخوف) ان مولوتوف "لا ينوي سد الباب بوجه أي محادثات روسية ألمانية".

٦٦- المرجع السالف ص ٥٩٣.

٦٧- رسالة فايسيكير الى شولنبرگ ٢٧ أيار مع حاشية بتاريخ ٣٠ أيار - المرجع السالف الص ٥٩٧-٥٩٨.

ومع الحذر الذي ابداه كلا الرجلين نرى الألمان قد تشجعوا. وفي الساعة العاشرة والدقيقة الأربعين من مساء الثلاثين من أيار بعث فايسيك "برقية مستعجلة جداً"^(٦٨) لشولنبرگ في موسكو: "خلافًا للتناكتيك الذي رسم حتى الآن، قررنا الآن على كل أن نحقق درجة معينة من الإتصال بالإتحاد السوفياتي"^(٦٩).

وربما كان السبب في تقوية عزم (هتلر) على التحول الى الإتحاد السوفياتي مهما كان التقرب مشوباً بالحذر، المذكرة الطويلة السرية التي كتبها موسوليني لهتلر في ٣٠ أيار... ففي مبدأ الصيف أخذت مخاوف الدوتشي تزداد من صدام مسلح سابق للأوان وتعاضمت شكوكه في حسن ختامه فكتب يقول انه مقتنع "انه لا مفر من وقوع حرب بين المحور وبين الدول البلوتوقراطية المصلحية الانانية المحافظة"، لكن "إيطاليا تحتاج الى فترة تاهب ربما قد تمتد حتى ١٩٤٢... ولن يأتي مجهود حربيّ ما، اعظم ثمار نجاحه الا بحلول ذلك العام... وما بعده" وبعد ان عدد الدوتشي أسباباً "لحاجة إيطاليا الى فترة سلم" ختم كلامه بقوله "لهذه الأسباب كلها لا ترغب إيطاليا في استحداث حرب أوروبية. وان كانت مقتنعة بحتمية وقوع مثل هذه الحرب"^(٧٠).

فأجاب هتلر الذي لم يفض لحليفه وصديقه بسر الموعد المضروب لغزو بولندا في (١١ أيلول)، انه قرأ المذكرة السرية "باهتمام عظيم جداً" وهو يقترح ان يلتقي الزعيمان للمشاوراة في المستقبل. في الوقت نفسه قرر الزعيم ان يتبين هل يمكن احداث شق في حائط الكرملين. وتواصلت طوال حزيران مباحثات تمهيدية في موسكو تتعلق بعقد إتفاقية تجارية جديدة بين السفارة الألمانية وانستاس ميگويان Anastas Mikoyan مفوض الشعب للتجارة الخارجية.

مازالت الحكومة السوفيتية شديدة الشك في برلين. وذكر السفير شولنبرگ في تقرير له في أواخر حزيران (٢٧ منه) ان الكرملين يعتقد ان الألمان باهتمامهم بعقد إتفاق تجاري، يريدون ان ينسفوا المفاوضات الروسية مع الفرنسيين والبريطانيين. ابرق يقول "هم خائفون (يقصد الروس) من قيامنا بسحب انفسنا من المفاوضات حالما نحني هذه الفائدة"^(٧١).

في ٢٨ حزيران جرى حديث طويل بين (شولنبرگ) و(مولوتوف) قال السفير عنه لبرلين انه بدأ

٦٨- المرجع السالف الص ٦٠٨-٦٠٩.

٦٩- في "العلاقات النازية-السوفيتية" وهو مجلد يتضمن وثائق الخارجية الألمانية الخاصة بهذا الموضوع طبعتها وزارة الخارجية الأمريكية في ١٩٤٩. كانت الترجمة الإنكليزية للبرقية أقوى من الأصل. ان العبارة الرئيسة الواردة فيه ترجمت كالآتي:

"قررنا الآن القيام بمفاوضات صريحة مع الإتحاد السوفياتي" وهذا ما ادى بكثير من المؤرخين ومنهم چرچل الى الاستنتاج بأن هذه البرقية ترسم حدّ انعطاف فاصل في مجهودات هتلر لعقد صفقة مع موسكو. نقطة التحول هذه جاءت فيما بعد كما بين فايسيك في حاشيته المؤرخة (٣٠ أيار) على رسالته الى شولنبرگ: "ان التقرب الألماني الذي وافق عليه هتلر يجب ان يكون "تقريباً معدلاً جداً".

٧٠- المرجع السالف الص ٦١٨-٦٢٠.

٧١- المرجع السالف: الص ٧٩٠-٧٩١.

"بشكل ودي" ولكن عندما نوّه السفير الألماني مؤكداً حسن نيّة ألمانيا في معاهدات عدم الاعتداء التي أبرمتها مع دول البلطيق^(٧٢) ردّ وزير الخارجية السوفيتي بحدّة: "انه ليشكّ حقاً في ثبات امثال هذه المعاهدات وجدواها بعد التجربة القاسية التي عانتها بولندا" واستنتج شولنبرگ مايلي:

"انطباعي هو ان الإتحاد السوفياتي يهتمّ اهتماماً شديداً بمعرفة وجهات نظرنا السياسية وان يبقى على إتصال بنا. وان لم يكن ثم أي شكّ في عدم الثقة الشديد الذي يفصح عنه حديث (مولوتوف) الاّ انه وصف اعادة صفو العلاقات مع ألمانيا، بأنه مستحبّ وممكن^(٧٣)".

لقد ارسل تقريره السريّ المستعجل هذا الى برلين راجياً إرسال تعليمات برقية حول خطوته التالية. كان شولنبرگ آخر حاملي فكرة (سيكت ومالتزان Maltzan وبروكدورف - رانتزاو Brockdorff-Rantzau) وهي المدرسة التي كانت تصوّر على التقارب من الإتحاد السوفياتي منذ ١٩١٩، وحققت ذلك في راپاللو * Rapallo.



ميگويان

ففي كلّ تقاريره التي بعث بها خلال ١٩٣٩ كان مخلص النيّة في اعادة العلاقات الوثقى التي كانت موجودة أيام جمهورية فايمر. الاّ انه كان قليل الفهم (بهتلر) ككثير من الدبلوماسيين الألمان المحترفين من المدرسة القديمة.

وعلى حين غرة أصدر هتلر في (٢٩) حزيران من مقره الجبلي في برختسگادن أمراً بوقف المحادثات مع السوفيت:

برختسگادن ٢٩ حزيران ١٩٣٩

... قررّ (الزعيم) مايلي:

يبلغ الروس اننا وجدنا من موقفهم انهم يجعلون الاستمرار في المحادثات رهناً بقبولنا ما رسم في كانون الثاني الماضي كقاعدة لمباحثاتنا الاقتصادية ولما لم يكن هذا الأساس مقبولاً منّا فاننا لن نهتمّ

٧٢- حاولت ألمانيا عرقلة ضمانة أنكلو فرنسية روسية لدولتي (لاتفيا واستونيا) اللتين تتاخمان الحدود السوفيتية، فسارعت بعقد معاهدة عدم اعتداء مع كل من هاتين الدولتين البلطيقيتين في ٧ حزيران. حتى قبل هذا (في ٣١ أيار) فرضت ألمانيا معاهدة مشابهة على الدانمرك. ويظهر أن هذه المعاهدة كما برهنت الاحداث التالية أشاعت في الدانمركيين شعوراً بالأمن يستغرب له المرء.

٧٣- المرجع السالف الص ٨٠٥-٨٠٧.

* معاهدة راپاللو هي في الواقع معاهدتان منفصلتان واحدة بين إيطاليا ويوغوسلافيا في ١٩٢٠ التي جعلت فيومي دولة حرة مؤقتة. والأخرى بين ألمانيا والإتحاد السوفياتي في نيسان ١٩٢٢ فيها أنشئت علاقات دبلوماسية، وسحبت ديون الحرب والإدعاءات المتقابلة ووافقا على التعاون الإقتصادي.

باستئناف المباحثات الاقتصادية مع روسيا في الوقت الحاضر.
قرر (الزعيم) أيضاً أن يتأخر إرسال هذا الجواب بضعة أيام^(٧٤).
على أن محتوى القرار ابرق الى السفارة الألمانية في موسكو في اليوم التالي. ابرقه (فايسيكير) كمايلي: "يرى وزير الخارجية... انه قد قيل ما فيه الكفاية في الحقل السياسي. فلا يستمر في الوقت الحاضر بالمحادثات من جانبنا حتى وصول تعليمات أخرى".
"وفيما يتعلق بإمكان إجراء مفاوضات اقتصادية مع الحكومة الروسية فأن المداولات هنا لم تنته بعد. وفي هذا الحقل أيضاً يرجى ألا تتخذوا خطوة أخرى في الوقت الحاضر، وانتظروا التعليمات^(٧٥).
ليس ثم دليل في الوثائق السرية الألمانية يفسر لنا تبدل رأي هتلر الفجائي. فقد بدأ الروس قبل ذلك يتزحزون عن موقفهم ويتنازلون في مقترحات كانون الثاني وشباط. وحذر (شنوره) في ١٥ حزيران أن قطع المفاوضات الاقتصادية سيؤثر تأثيراً سيئاً على ألمانيا من الناحيتين الاقتصادية والسياسية.

ولايمن أيضاً أن يكون الطريق الصخري الوعر الذي تسير فيه المفاوضات الأنكلو-فرنسية-السوفيتية قد ثبطت من عزيمة هتلر بحيث ادت به الى هذا القرار. فقد علم من التقارير التي تبعت بها السفارة الألمانية في موسكو أن محادثات الإتحاد السوفياتي ودول الغرب بلغت مأزقاً لا يمكن اجتيازه وهو ضمانه بولندا ورومانيا ودول البلطيق. فبولندا ورومانيا يسعدهما ان تكونا بضمان بريطانيا وفرنسا وهو الضمان الذي لاينفعهما في حالة عدوان ألماني عليهما - إلا بصورة غير مباشرة وهي فتح جبهة غربية، على انهما ترفضان قبول ضمانه روسية أو حتى ان تسمحا للجيش السوفيتية بالمرور من أراضيها لصد الهجوم الألماني! كذلك رفض كل من (لاتفيا واستونيا وفنلندا) رفضاً حازماً قبول أي ضمانه روسية. وقد كشفت الوثائق الخارجية الألمانية المستولى عليها ان ألمانيا كانت تشجع هذه المواقف من الدول الصغيرة بإرسالها التهديدات المرعبة لها في حالة استجابتها.
بوصول المفاوضات الى هذا المأزق. اقترح مولوتوف في اوائل حزيران ان ترسل بريطانيا العظمى وزير خارجيتها الى موسكو للمساهمة في المباحثات. ويظهر ان روسيا كان ترى في هذا العمل ما يساعد على التغلب على العقبات، ويجعل بريطانيا تبدو مهمة ومخلصة في مساعدتها للوصول الى إتفاق مع روسيا فرفض (لورد هاليفاكس) السفر^(٧٦)، وعرض (انتوني ايدن) الذي كان وزير الخارجية

٧٤- المرجع السالف ص ٨١.

٧٥- المرجع السالف ص ٨١٣.

٧٦- يستفاد من وثائق وزارة الخارجية البريطانية ان هاليفاكس أخبر السفير (مايسكي) في ٨ حزيران أنه كان قد فكر في ان يقترح على رئيس الوزراء بوجوب ذهابه الى موسكو "لكن لم يكن ممكناً الذهاب وترك الأمور هنا حقاً". وإقتراح مايسكي على هاليفاكس في ١٢ حزيران. بعد سفر (سترانك) ان فكرة ذهاب وزير الخارجية الى موسكو فكرة طيبة "عندما تصبح الأمور أهدأ". فعاد هاليفاكس يبين استحالة تركه لندن "في الوقت الحاضر" (و.س.خ.ج ٥ رقم و ٣٨).



مولوتوف



ستالين

السابق، ان يسافر بدلاً عنه على الأقل. إلا ان چمبرلين لم يسمح له. وقرر ان يرسل بدل ذلك (وليم سترانگ) وهو موظف محترف قدير في وزارة الخارجية، كان قد خدم رداً من الوقت في السفارة البريطانية بموسكو ويتكلم اللغة الروسية. إلا انه لم يكن معروفاً بصورة واسعة لا في بلاده ولا في الخارج. كان تعيين هذا الموظف التابع الصغير الشأن ليرأس بعثة مهمة جداً كهذه ويفاوض ستالين ومولوتوف مباشرة بمثابة اشارة للروس حتى قالوا فيما بعد: ان چمبرلين ما يزال غير جاد في مسألة اقامة حلف لا يقاف هتلر.

وصل (سترانگ) الى موسكو في ١٤ حزيران. ومع انه ساهم في احد عشر اجتماعاً أنكلو-فرنسي مع (مولوتوف) إلا ان وجوده لم يكن له تأثير كبير على مجرى المفاوضات الأنكلو-سوفيتية. وبعد أسبوعين (٢٩ حزيران) ظهر شك الروس وانزعاجهم بشكل علني في مقال بقلم (اندراي زدانوف An-drei Zhdanov) في جريدة پرافدا Pravda بالعنوان التالي: "البريطانيون والفرنسيون لا يريدون معاهدة تقوم على أسس من المساواة مع الإتحاد السوفياتي" ومع انه أوضح بأنه يكتب "كشخص عادي، ولا يعبر عن رأي الحكومة السوفيتية" فالمعروف انه عضو في الكتب السياسي للحزب ورئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس السوفيت الأعلى (البرلمان). بل وأكثر من هذا كما أكد شولنبرگ لبرلين في تقريره عن المقال "انه احد المقربين من ستالين وموضع ثقته والمفروض انه كتب مقاله بناء على أوامر عليا صدرت له".

"[كتب زدانوف] يبدو لي ان الحكومتين البريطانية والفرنسية لا تريدان إتفاقاً حقيقياً مقبولاً من الإتحاد السوفياتي بل ترميان فقط الى محادثات لإتفاقية. لتثبتا أمام الرأي العام في بلديهما

الموقف المتصدع المزعوم للاتحاد السوفياتي وبهذا تسهلان الطريق لهنفسهما للتوصل الى إتفاق مع المعتدين. وستثبت الأيام القلائل القادمة صحة هذا القول أو بطلانه"^(٧٧). وهكذا عرف العالم اجمع شكّ (ستالين) في بريطانيا وفرنسا وعدم ثقته وبأنّ الحلفاء الغربيين قد يعقدون في النهاية صفقة مع هتلر كما فعلوا قبل سنة في (مونيخ). وبعد طول تفكير شولنبرگ، اقترح على برلين ان من غايات المقال الأخرى "إلقاء اللوم على بريطانيا وفرنسا عند انقطاع المفاوضات المحتمل"^(٧٨).

- ١٠ -

خطط لحرب جامعة

بقي هتلر يأبى التقاط الطّعم الروسي. وربما عاد سبب ذلك الى انشغاله طوال حزيران في برختسگادن بالإشراف على اكمال الخطط العسكرية لغزو بولندا في نهاية الصيف. في الخامس عشر من حزيران وجد بين يديه خطة الجنرال فون براوختش السرية للغاية، الخاصة بالعمليات البرية ضدّ بولندا"^(٧٩).

قال القائد العام للجيش مردداً صدى صوت سيده "ان هدف العملية هو سحق القوات المسلحة البولندية. ان الزعامة السياسية تتطلب ان تبدأ الحرب بإنزال ضربات ماحقة خاطفة تؤدي الى نصر سريع. ان النية التي اتجهت اليها القيادة العامة للجيش هي الحيلولة دون تعبئة منتظمة أو تحشيد للجيش البولندي بغارة مباغتة على الأراضي البولندية وتخطيط الجيش البولندي دفعة واحدة في موضع يتوقع ان يكون غربي خط فيستولا-نارو Vistula-Narew. بفضل هجوم مركز من سيليزيا من جهة ومن بوميرانيا وشرق بروسيا من الجانب الآخر".

ولاجل تنفيذ الجنرال براوختش خطته هذه الف مجموعتي جيوش - مجموعة الجيوش الجنوبية وتتضمن الجيش الثامن والعاشر والرابع عشر. ومجموعة الجيوش الشمالية وتتضمن الجيشين الثالث والرابع. ورسم للمجموعة الجنوبية بقيادة الجنرال فون (روندشدت) ان تهاجم من (سيليزيا) "بالاتجاه العام نحو وارشو، وتشتتت وهي في زحفها - القوات البولندية المتصدية لها حتى تحتل ضفاف القستولا من جهتي وارشو باسرع وقت ممكن وبقوات من أقوى ما يتيسر. والهدف هو القضاء على القوات البولندية التي مازالت صامدة في غرب بولندا بالتعاون مع مجموعة جيوش الشمال". ان

٧٧- پرافدا عدد ٢٩ حزيران ١٩٣٩.

٧٨- تقرير ٢٩ حزيران [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٦ الص ٨٠٨ - ٨٠٩].

٧٩- وثائق محاكمات مجرمي الحرب الكبار: TMWC: ج٢٤ الص ٤٩٣ - ٥٠٠.

الهدف الأول لمجموعة الجيوش الأخيرة كان "تحقيق الإتصال بين الرايخ وپروسيا الشرقية" بالتوغل في الممر البولندي. أما الأهداف التفصيلية لكل من المجموعتين باختلاف جيوشهما فقد رسمت كلها فضلاً عن أهداف السلاح الجوي والأسطول. وقال (براوختش) ان الدانزك ستعلن جزءاً من أرض الرايخ في اليوم الذي تبدأ العمليات العسكرية وسيسيطر عليها بقوات محلية تحت القيادة الألمانية. وصدر في الوقت نفسه ملحق بالأمر التوجيهي، يشير الى أن أمر النشر (للقضية البيضاء) سيوضع موضع التنفيذ في ٢٠ آب، مؤكداً التنبيه على "وجوب اكمال جميع الإستعدادات في موعد لا يتعدى هذا التاريخ".^(٨٠)

بعد هذا بأسبوع (٢٢ حزيران) قدم الجنرال كايتل لهتلر "جدول مواعيد مبدئية للقضية البيضاء"^(٨١). وبعد ان درسها وافق عليها (بصورة عامة) الا أنه أمر: "توخياً لعدم اثاره ضجة أو تساؤل بين السكان بسبب دعوة الاحتياط بنطاق اوسع من المعتاد يجب على السلطات ان تخبر المدنيين من اصحاب المؤسسات الخاصة وارباب العمل، وغيرهم من الاشخاص المتسائلين بأن الغرض من دعوة الاحتياط هو مناورات الخريف". وأمر أيضاً "ان اخلاء المستشفيات القريبة من منطقة الحدود وهو العمل الذي اقترحته القيادة العليا يجب ألا يشرع فيه من أواسط تموز كما رسم مبالغة (في الكتمان) - ستكون الحرب التي اختط لها هتلر حرباً جامعة ولن تكون قاصرة على التبعثات العسكرية، بل التعبئة العامة لكل موارد البلاد. ولأجل ضمان التنسيق بين كل المجهودات، عقد (مجلس دفاع الرايخ) اول جلسة له في ٢٣ حزيران برئاسة غورنك. وحضره حوالي خمسة وثلاثين قائداً كبيراً وموظفاً مدنياً عالياً ومن بينهم وزراء الداخلية والاقتصاد والمال والمواصلات فضلاً عن هملر. لقد كان الإجتماع الثاني للمجلس منذ تأليفه. لكن غورنك قال انه لم يجتمع الآن إلا لاتخاذ اخطر القرارات واهمهما ويدد كل شك يساور عقول السامعين - كما افصحت وقائع الإجتماع السرية المستولى عليها - بأن الحرب قريبة وان ثم الكثير مما يجب عمله بخصوص القوى البشرية لادارة المصانع والزراعة وبخصوص امور عديدة أخرى تتعلق بالتعبئة العامة"^(٨٢).

ابلق (غورنك) المجلس ان هتلر قرر دعوة سبعة ملايين رجل للخدمة العسكرية. ووضع على عاتق الدكتور فونك وزير الاقتصاد مهمة سدّ النقص في الايدي العاملة بتنظيم "انواع الأعمال التي ستعطى لأسرى الحرب والمسجونين والمعتقلين في معسكرات الاعتقال" وعقب هملر القول "ستكون معسكرات الاعتقال ذات فائدة كبيرة أثناء الحرب". وأضاف غورنك "ان مئات الألوف من العمال الجيك سيتم إستخدامهم باشراف دقيق في ألمانيا ولاسيما في الأعمال الزراعية وسيسكنون في

٨٠- (مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٦ الص ١٠٣٥ - ١٠٣٦) الوثائق PS٢٣٢٧.

٨١- المرجع نفسه الص ٩٣٤: [الوثائق C١٢٦].

٨٢- المحضر السري لإجتماع مجلس دفاع الرايخ في ٢٣ حزيران ١٩٣٩ (مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٦ الص ٧١٨- الوثائق: PS ٣٧٨٧).

اكواخ". كاد برنامج النازي في عمل السخرة يتخذ شكله الواقعي بعد ان اختتم في الرؤوس زمنياً. ووعد الدكتور فريك وزير الداخلية "بتوفير العمل في المؤسسات العامة" وانعش جو الاجتماع باقراره ان عدد البوروقراط في الحكم النازي قد ازداد من عشرين ضعفاً الى اربعين وهي ظاهرة لا تحتل ولا تطاق. وقرر تشكيل لجنة لتصحيح هذا الوضع المزري. وتقدم العقيد رودولف كيركه Rudolf Gercke رئيس قسم النقل في هيئة أركان الجيش بتقرير تشاؤمي. اذ ذكر بصراحة "في ميدان المواصلات والنقل، ارى ان ألمانيا غير مستعدة للحرب في الوقت الحاضر".

لاشك ان كفاية وسائل النقل الألمانية للقيام بمهمتها تتوقف على اقتصار الحرب على بولندا. فإن انتقلت الى الغرب ايضاً ضد بريطانيا وفرنسا فيخشى ان لا تقوم المواصلات بما يتطلب منها. وعقد في تموز إجتماعان طارئان "لبحث مسألة ايصال الجدار الغربي في ٢٥ آب الى احسن حالة من الإستعداد ممكنة بتجهيزه بالمواد التي يمكن الحصول عليها بعد بذل اشق مجهود". وطلب من مديري مصانع كروب الأعلىين وكارتيل الفولاذ ان يبذلوا أقصى مجهود لتأمين المعدن الضروري لإنجاز تصفيح الإستحكامات الغربية فعلى صنعها يتوقف سلوك الجيوش الأنكلو فرنسية، في قيامها بحملة صادقة على ألمانيا الغربية بينما يكون (الثيرماخت) مشغولاً في بولندا وهذا ماكان يعرفه الألمان حق المعرفة.

مع ان هتلر صرح جنالاته في ٢٣ أيار، بصدق غير معهود منه ان الدانزك ليست سبب النزاع مع بولندا ابداً. فقد ظلت المدينة الحرة تبدو خلال الاسابيع القلائل التالية من أواسط الصيف كأنها برميل بارود قد ينفجر عن حرب طاحنة في أي يوم ومنذ برهة من الزمن راح الألمان يهربون الى الدانزك ضباط جيش نظاميين لتدريب حرس الدفاع المحلي^(٨٣) لإستخدامه الى جانب الاعتدة والسلاح. وكان الرجال والذخيرة يعبران من بروسيا الشرقية وللحيلولة دون التهريب وزيادة الرقابة ضاعف البولنديون موظفي گماركهم وحرس حدودهم وباتت سلطات الدانزك المحلية الآن تعمل بايعاز تام من برلين لذلك قابلت الإجراءات البولندية محاولات لمنع الموظفين البولنديين من تأدية واجباتهم.

وبلغ النزاع حد التآزم في ٤ آب، عندما ابلى الممثل الدبلوماسي البولندي في الدانزك، السلطات المحلية ان مفتشي الكمارك البولنديين قد اعطوا الأوامر لتنفيذ واجباتهم (بقوة السلاح) وان كل محاولة من أهالي الدانزاغ لعرقلة اعمالهم ستعتبر "عمالاً من اعمال العنف" ضد الموظفين البولنديين.

٨٣- في ١٩ حزيران ابلى قيادة الجيش العليا وزارة الخارجية ان ١٦٨ ضابطاً ألمانيا قد "منحوا اجازة بالسفر والتنقل في المدينة الحرة (الدانزك) بشباب مدنية في جولة لاغراض الدراسة" وفي اوائل حزيران استفسر (كايتل) من وزارة الخارجية "هل هناك مانع سياسي من عرض اثني عشر مدفعاً خفيفاً واربعة مدافع ثقيلة موجودة في الدانزك وان يسمح بإجراء التمرينات بها هناك. أم الأفضل اخفاؤها وعدم اذاعتها (وثائق عن سياسة...ج.٦ الص ٧٥٠ و ٩٢٠-٩٢١). كيف تمكن الألمان من تهريب مدفعية ثقيلة عن اعين البولنديين المفتشين؟ هذا ما لا تفصح عنه الوثائق الألمانية.

وفي هذه الحالة ستقوم الحكومة البولندية "بمقابلة المدينة الحرة بالمثل دون أي تأخير". كان هذا دليلاً آخر لهتلر بأن البولنديين لن يحنوا هوماتهم وقد عزز هذا الدليل برأي السفير الألماني في (وارشو) الذي ابرق في ٦ تموز الى برلين بأنه (لم يبق أي شك) في ان بولندا ستقتاتل (إن حصل خرق واضح) لحقوقها في الدانزك. واننا لنعرف من حاشية كتبها ريبنتروب بخط يده على البرقية انها عرضت على هتلر^(٨٤).

ثار الغضب (بالزعيم). وفي اليوم التالي (٧ آب) استدعي (البرت فورستر Albert Forster) الكاؤلايتر النازي في الدانزك الى برختسغادن واعلمه ان صبره الى آخر حدوده مع البولنديين. وتبذلت مذكرات غاضبة بين وارشو وبرلين - عنيفة اللهجة بحيث لم يجرأ احدهما على إعلانها وفي التاسع منه اندزت حكومة الرايخ بولندا ان تكرارها الانذار للدانزك "سيؤدي الى تحرّج العلاقات بين ألمانيا وبولندا... ولن تكون الحكومة الألمانية مسؤولة عن شيء". وفي اليوم التالي ردت الحكومة البولندية رداً حاداً.

"انهم سيستمرون في مقابلة العمل بمثله والتصدي لأي محاولة تقوم بها السلطات في المدينة الحرة لغمط الحقوق والمصالح التي يتمتع بها البولنديون في الدانزك وسينفذون ذلك بالوسائل والحدود التي يرونها مناسبة وانهم سيعتبرون أي تدخل من حكومة الرايخ عملاً عدوانياً"^(٨٥).

لم تستخدم دولة صغيرة اعترضت سبيل هتلر مثل هذه اللغة. وعندما دخل كارل بوركهارت Carl Burckhardt السويسري الجنسية ومندوب عصبة الأمم السامي في الدانزك على هتلر في ١١ آب، وكان قد تنازل كثيراً في تحقيق مطالب الألمان، وجد (الزعيم) في أسوأ مزاج وابتدر زائره قاتلاً "إن بدرت من البولنديين أقل بادرة فسينقض عليهم كالبرق الخاطف بكل الأسلحة الجبارة التي يملكها مما لا يخطر ببال البولنديين".

[وذكر المندوب السامي أنه أجاب هتلر]: سيؤدي ذلك الى حرب عامة. فأجاب هتلر: لو وجبت الحرب، فالأفضل له أن يشنّها اليوم لا غداً. وأنه لن يدير رحاها كما ادارها فلهم الثاني الذي ظلّ دائماً لا يدري كيف يستخدم كل سلاح بين يديه إستخداماً كاملاً. وأنه سيحارب بلا رحمة ولا هوادة الى النهاية القصوى"^(٨٦).

ضدّ من؟ ضد بولندا بلا ريب. ضد فرنسا وإنجلترا عند الحاجة. أضدّ روسيا أيضاً؟ بالنسبة الى الإتحاد السوفياتي، لم يعتم هتلر إلا وأن وصل الى رأي.

٨٤- المرجع نفسه الص ٨٦٤-٨٦٥.

٨٥- نص الملاحظات [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٧ الص ٤-٥ و ٩-١٠].

٨٦- تقرير بركهارت الى عصبة الأمم ١٣ آذار ١٩٤٠. النص في (وثائق الشؤون الدولية) ١٩٣٩-١٩٤٦ ج ١ الص ٣٤٦-٣٤٧.

التدخل الروسي: المرحلة الثالثة

مبادرة جديدة، بدرت من الروس.

في ١٨ تموز. قام (بابارين Babarin) الممثل التجاري السوفييتي ببرلين يرافقه إثنان من مساعديه بزيارة (يوليوس شنوره) في وزارة الخارجية الألمانية ليلبغه أن روسيا ترغب في توسيع نطاق العلاقات الألمانية الروسية وتقوية أواصرها. وحمل معه اليه لائحة مفصلة لإتفاقية تجارية تدعو الى زيادة عظمة في التبادل التجاري بين البلدين وأضاف يقول لو امكن التغلب على خلافات قليلة بين الطرفين فانه مخوّل بالتوقيع على معاهدة تجارية في برلين. وغلب السرور على الألمان، كما ذكر (الدكتور شنوره) في تقريره السري عن الاجتماع وذكر شنوره:

"إن معاهدة كهذه ستحدث بالتأكيد أثرها في بولندا وبريطانيا على الأقل" (٨٧) ويعد اربعة أيام من ذلك (٢٢ تموز) اعلن في صحف موسكو أن المفاوضات التجارية الروسية الألمانية قد استؤنفت في برلين.

وفي اليوم نفسه راح (فايسيك) يبرق باسهاب للسفير الألماني (شولنبرگ)، ببعض تعليمات هامة جديدة. فبالنسبة الى المفاوضات التجارية أبلغ السفير "سنعمل هنا على أساس ما سستتمخض به الأيام. حيث إن ابرامهما مرغوب فيه هنا لأسباب أعم. أما بخصوص الجانب السياسي الصرف من مباحثاتنا مع الروس فنحن نعتبر فترة الانتظار التي حددت لك في برقيتنا (المؤرخة ٣٠ حزيران)، قد انتهت وانت الآن مخوّل باستئناف المداولة لكن دون إلحاح" (٨٨).

واستؤنفت فعلاً بعد بضعة أيام. وفي ٢٦ تموز أشار رينتروب على الدكتور شنوره أن يدعو كلاً من (استاخوف) القائم بالاعمال السوفييتي و(بابارين) الى عشاء في مطعم (برلين) الفخم ويقوم بجس النبض. على أن الروسيين لم يكونا بحاجة الى جس كثير. فقد ذكر (شنوره) في تقريره السري عن العشاء أن الضيفين بقيا حتى الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثلاثين بعد نصف الليل. وانطلقا على رسلهما يتحدثان حديثاً رائعاً طلباً حول المشاكل السياسية والاقتصادية التي تهمنا".

وأعلن (أستاخوف) بموافقة (بابارين) المتحمسة أن تقارباً سياسياً ألمانيا-سوفيتياً هو مما يماشي مصالح البلدين الحيوية. لايفهم الناس في موسكو ابداً لماذا كانت ألمانيا النازية تشنؤ الإتحاد السوفياتي بالعداوة. فرد الدبلوماسي الألماني موضحاً "أن السياسة الألمانية في الشرق اخذت الآن تسلك سبيلاً مختلفاً تمام الاختلاف".

٨٧- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٦ الص ٩٣٦-٩٣٨.

٨٨- المرجع نفسه الص ٩٥٥-٩٥٦.

"لا يوجد من جانبنا أي احتمال لتهديد الإتحاد السوفييتي واهدافنا متجهة الى ناحية معاكسة تماماً... سياسة ألمانيا تستهدف بريطانيا... وبأمكنني أن أتصور تدبيراً مقبلاً للتعاون المتبادل مع الأخذ بنظر الاعتبار المشاكل الروسية الحيوية".

ومهما يكن من أمر فهذا الاحتمال سيقضى عليه ساعة ترتبط روسيا السوفيتية مع بريطانيا بحلف ضد ألمانيا. إن الزمن موات الآن للوصول الى تفاهم بين ألمانيا والإتحاد السوفييتي. ولن يكون الأمر كذلك بعد ابرام ميثاق مع لندن.

ماذا بوسع بريطانيا ان تقدم لروسيا؟ في احسن الاحوال المساهمة في حرب أوروبية وعداوة ألمانيا. ماذا بوسعنا تقديمه مقابل هذا؟ الحياد والإبتعاد عن حرب أوروبية محتملة الوقوع - وان رغبت موسكو فتفاهم روسي-ألماني على المصالح المتبادلة، قد يعود بالنفع على البلدين، كما كان الأمر في الماضي... ليس هناك أي مشكلة جدلية (بين روسيا وألمانيا) مهما كانت وفي أي مكان إبتداء من البلطيق حتى البحر الأسود حتى الشرق الأقصى. زد على هذا فبالرغم من كل الخلافات في وجهات نظرها في الحياة فهناك شيء واحد عقائدي يربط بين ألمانيا وإيطاليا والإتحاد السوفييتي: الا وهو عداؤهم للديمقراطيات الرأسمالية في الغرب^(٨٩).

وهكذا في ساعة متأخرة من ليلة ٢٦ تموز وفي مطعم صغير برليني أمام مائدة حفلت بأطيب الاكال وانفس الخمر ساهم فيها دبلوماسيون من الدرجة الثانية. جرى اول عرض ألماني جدي لصفقة سياسية مع روسيا السوفيتية. ان الخط الجديد الذي سلكه (شنوره) كان بايعاز من ريبنتروب نفسه. وقد سرّ (استاخوف) بما سمع ووعده (شنوره) بانه سوف يقدمه بتقرير الى موسكو فوراً.

في قلهمشتراسه كان الألمان ينتظرون بفارغ الصبر ليروا ماذا سيكون ردّ الفعل في العاصمة السوفيتية وبعد ثلاثة أيام (٢٩ تموز) أرسل (فايسيك) رسالة سرية مع ساع دبلوماسي الى (شولنبرگ) في موسكو:

من المهم ان تعرف هل ان التلميحات التي جرت على لسان (استاخوف وبابارين) قد لاقت أي انعكاس لها في موسكو؟ وان سنحت لك فرصة في تدبير مقابلة مع مولوتوف، فنرجو ان تجسّ نبضه من هذه الجهة. فإن ادى ذلك بمولوتوف الى طرح جانب التحفظ الذي إلتمزمه حتى الآن فبإمكانك ان تتقدم الى الأمام خطوة... وهذا ينطبق بصورة خاصة على مشكلة بولندا. إننا على إستعداد مهما كانت التطورات التي ستؤول اليها المسألة البولندية... للحرص على سلامة المصالح السوفيتية والوصول الى تفاهم مع الحكومة في موسكو وايضا في مسألة البلطيق ان اتخذ الحديث مجرى ايجابياً، فيمكنك بسط الفكرة في تعديل موقفنا إزاء دول البلطيق بحيث تحترم المصالح السوفيتية في بحر البلطيق^(٩٠).

٨٩- تقرير (شنوره) المرجع السالف الص ١١٠٦ - ١١٠٩.

٩٠- المرجع السالف الص ١٠١٥ - ١٠١٦.

بعد ذلك بيومين (٢١ تموز) ابرق وكيل الوزارة الى شولنبرگ برقية "طارئة سرية": اشارة الى رسالتنا المؤرخة ٢٩ تموز الواصلة مع ساع دبلوماسي في هذا اليوم: نرجو الجواب برقية عن موعد وتاريخ مقابلتك التالية لمولوتوف حالما يتحدد. اننا مهتمون جداً بمقابلة عاجلة^(٩١). وللمرة الأولى تزحف نغمة الاستعجال الى مراسلات برلين-موسكو.

هناك سبب وجيه لميل برلين الى الاستعجال. ففي ٢٣ تموز وافقت فرنسا وإنجلترا أخيراً على ان تبدأ محادثات عسكرية للقيادات العامة الثلاثة حالاً لتوقيع ميثاق عسكري يرسم فيه كيفية مقابلة جيوش هتلر من قبل الدول الثلاث. ومع ان جيمرلين لم يعلن هذا الإتفاق الا في ٣١ تموز حينما أفضى به الى مجلس العموم فقد وصل الى علم الألمان. في ٢٨ تموز ابرق السفير الألماني في باريس فون فلجييك Von Weljeck الى برلين بانه علم من مصدر موثوق به غير اعتيادي ان فرنسا وبريطانيا سترسلان وفدين عسكريين الى موسكو وان الوفد الفرنسي سيكون برئاسة الجنرال دومان Doumane الذي وصفه "بضابط ذي كفاءة ممتازة". ونائب رئيس هيئة الأركان السابق الجنرال ويگان Weygand Maxime^(٩٢).

وكان من رأي السفير الألماني (ضمنه رسالة ألحقها ببرقيته بعد يومين) ان باريس ولندن لم توافقا على إجراء محادثات عسكرية الا كآخر وسيلة للحيلولة دون تأجيل مفاوضات موسكو^(٩٣).

ولم يكن رأيه بعيداً عن الاصابة. فوثائق وزارة الخارجية البريطانية توضح ان المحادثات السياسية في موسكو بلغت مرحلة حرجية في آخر أسبوع من تموز لتعذر الوصول الى تعريف محدد "للعُدوان غير المباشر" فالبريطانيون والفرنسيون يرون ان التعريف الروسي للاصطلاح واسع الى الحد الذي يبرر تدخلاً سوفيتياً في فنلندا ودول البلطيق، وان لم يكن هناك تهديد نازي جدي. وكان التشدد من لندن بصورة خاصة أمّا الفرنسيون فكانوا أكثر تساهلاً. وكذلك اصرّ الروس في ٢ حزيران على ان تبرم الى جانب ميثاق التعاون المتبادل، معاهدة عسكرية تفصل شروطها "وسائل وطرق ومدى" المساعدة العسكرية التي ينبغي لأي دولة من الدول الثلاث تقديمها للآخرى. فحاولت الدولتان الغربيتان اللتان ما كانتا تقيمان وزناً كبيراً لفعالية القوى العسكرية الروسية^(٩٤) حاولنا حمل مولوتوف على نبذ رأيه ولم

٩١- المرجع السالف الص ١٠٢٢-١٠٢٣.

٩٢- المرجع السالف ١٠١٠-١٠١١.

٩٣- المرجع السالف ١٠٢١.

٩٤- قللت القيادة البريطانية العليا من شأن القوة والكفاءة التي يتمتع بها الجيش الأحمر (هذا ما توهمه الألمان بعدهم) وربما كان يعود أغلبه الى التقارير التي تصلها من ملحقها العسكريين في موسكو. فمثلاً أرسل العقيد فايربريس Firebrace الملحق العسكري والملحق الجوي قائد الجناح هولويل Hallawell في ٦ اذار تقريرين مطولين الى لندن جاء فيهما أن المقدرة الدفاعية للجيش الأحمر وطيرانه كبيرة جداً، الا أن امكانياته قليلة في تعبئة هجوم كبير ويرى هولويل "إن القوة الجوية الروسية كالجيش الأحمر من المحتمل أن تشل حركتها بانهباء الصنوف التلقائي، بقدر احتمال انهيارها باعمال العدو" ورأى (فايربريس) أن عملية تطهير قادة الجيش الأحمر قد اضعف الجيش كثيراً. إلا أنه ذكر للندن "ان الجيش الأحمر يرى الحرب لا مفر منها ولا تشك انه قد اتخذ لها الأهبة بافضل ما يمكن (و.س.ب.خ: رقم ١٨٣ ج ٤).

توافقاً إلا على الشروع في محادثات الأركان بعد التوقيع على المعاهدة السياسية. لكن الروس لم يتزحزحوا ورفض مولوتوف رفضاً صريحاً محاولة البريطانيين إجراء مساومة توفيق في ١٧ تموز بالشروع في مباحثات أركان حالاً إذا نزل الإتحاد السوفيياتي عن إصراره على توقيع معاهدين سياسية وعسكرية في آن واحد، وإذا قبل أيضاً إلى مدى كبير التعريف البريطاني "للعُدوان غيرالمباشر". وقال مولوتوف إن لم يوافق الأنكلو فرنسيون على إبرام معاهدين سياسية وعسكرية صفقة واحدة فليس هناك أي موجب لاستمرار المفاوضات. وأحدث تهديد الروس بقطع المفاوضات خيبة كبيرة في باريس التي كان يبدو أنها أشد إحساساً ومعرفة من لندن بمغازلة النازيين للإتحاد السوفيياتي. وكان الفضل الأكبر للفرنسيين بالضغط على الحكومة البريطانية وحملها على الموافقة. وفي ٢٣ آب رضيت مترددة - بالمفاوضات العسكرية بينما ظلت ترفض قبول المقترحات الروسية في تفسير "العُدوان غيرالمباشر"^(٩٥). كان جمبرلين بارداً إلى أقصى حدّ بخصوص المباحثات العسكرية^(٩٦).

وفي ١ آب اعلم السفير الألماني (فون ديركسن) برلين، أن المباحثات العسكرية مع الروس "ينظر إليها نظرة شك" في اوساط الحكومة البريطانية، وكتب يقول: "لقد قوي الشك عند تأليف الوفد العسكري البريطاني"^(٩٧) فالأميرال محال إلى التقاعد فعلاً. والجنرال هو ضابط ميدان صرف ومارشال الجو بارز كطيار ومعلم، لا كاستراتيجي وقد يشير هذا إلى أن مهمة البعثة العسكرية هي بالدرجة الأولى التأكد من قيمة القوات السوفيتية الحربية أكثر منه لعقد إتفاقيات عملية... واتفق الملحقون العسكريون للفيرماخت في تقاريرهم على أن الاوساط العسكرية البريطانية تشك شكاً (استغربوا هم منه) حول نتائج المباحثات المقبلة مع القوات المسلحة السوفيتية^(٩٨). والحق يقال أن الحكومة البريطانية كانت على درجة من الشك حتى أنها أهملت تزويد الأميرال (دراكس) بتحويل وأوراق اعتماد للتفاوض - سهو (إن كان كذلك حقاً) شكاً منه المارشال فورشيلوف Voroshilov عندما التقى القادة المتفاوضون. ولم تصل أوراق اعتماده حتى ٢١ آب عندما لم يبق منها فائدة.

لكن ان كان الاميرال دراكس لا يملك أوراق اعتماد فقد زود على وجه التأكيد بتعليمات خطية سرية

٩٥- انظر (و.س.ب.خ) ج ٤ رقم ٣٢٩ و ٣٣٨ و ٣٤٦ و ٣٥٧ و ٣٧٦ و ٣٩٩.

٩٦- كان (سترانج) الذي يتفاوض مع مولوتوف أكثر بروداً. فقد كتب إلى وزارة الخارجية في ٢٠ تموز "من الغريب جداً أن ينتظر منا افشاء الاسرار العسكرية للإتحاد السوفيياتي قبل التأكد من أنهم يسكون حلفاء لنا". أما وجهة النظر الروسية فكانت مختلفة تماماً وقد أوضحها مولوتوف في المفاوضات الأنكلو فرنسية" قال: النقطة المهمة هي كم عدد الفرق سيساهم بها كل فريق للقضية المشتركة وابن سيكون موقعها". (المرجع السالف رقم ٣٧٦ و ٤٧٣). كان الروس يريدون أن يعرفوا مقدار المعونة العسكرية التي يتوقعونها من الغرب.

٩٧- تالفت البعثة العسكرية من الأميرال سر رجنالد بلنكيت-إنلي دراكس Raginald Plinkett- Enle Drax الذي كان قائداً عاماً لبليموث ١٩٣٥-١٩٣٨. ومارشال الجو سر جارس يورنيت Charles Burnett الميجر جنرال هيود Heywood.

٩٨- تقريران بتاريخ ١ آب: [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ١ ص ١٠٣٣ - ١٠٣٤].

تحدد له معالم الطريق التي سيسلكها في المحادثات العسكرية بموسكو. فقد كشفت أوراق وزارة الخارجية البريطانية بعد مرور زمن طويل ان الأميرال نيه "بالسير سيراً جدياً بطيء في المباحثات (العسكرية) ومراقبة سير المباحثات السياسية في الوقت نفسه" حتى تنتهي بالإتفاق السياسي ويتم التوقيع عليها^(٩٩). وأوضح له ألا يسبح للروس بأي معلومات عسكرية سرية حتى توقع المعاهدة السياسية.

لكن لما كانت المباحثات السياسية قد انقطعت في ٢ آب. وجزم مولوتوف انه لن يرضى باستئنافها إلا اذا حصل تقدم في المباحثات العسكرية. فمن السهل ان يستنتج المرء ان حكومة چمبرلين كانت متأهبة لاضاعة وقت طويل في تدقيق الواجبات التي وضعتها مسودة معاهدة التعاون المتبادل على كل دولة من الدول المتفاوضة^(١٠٠).

والحق يقال ان وثائق وزارة الخارجية البريطانية السرية لاتدع كثير شك في ان چمبرلين وهاليفاكس كادا في ٢ آب، يفقدان كل امل في الوصول الى إتفاق مع الإتحاد السوفياتي لوقف هتلر. إلا انهما ارادا تمديد اجل المفاوضات العسكرية في موسكو كسب الوقت لردع هتلر عن اتخاذ خطوته المجازمة نحو الحرب. أو على الأقل تأخيرها بضعة أسابيع^(١٠١).

وبخلاف البريطانيين والفرنسيين ألف السوفيت وفدهم العسكري من ارفع شخصيات قيادات القوات المسلحة. فالجنرال شابوشنيكوف Shaposhnikov هو رئيس هيئة الأركان العامة في الجيش الأحمر. والمارشال فورشيوف وزير الدفاع. وهناك أيضاً قائد الأسطول العام وقائد القوة الجوية العام. ولم يتغاض الروس قط عن واقع ترفع البريطانيين عن إرسال الجنرال السر ادmond آيرونسايد Ironside رئيس هيئة أركان حرب الامبراطورية الى موسكو في حين ارسلوه الى وارشو!

ولايمكننا القول ان البعثة العسكرية الانكلو- فرنسية ارسلت على بساط من الريح الى موسكو. ان الطائرة تبلغ بهم العاصمة في يوم واحد، لكنهم ارسلوا ببخرة شحن بطيئة يقتضي لها لبلوغ روسيا قدر ما يقتضي للبخرة (كوين ميري) لا يصلهم الى أمريكا. وهكذا ابحروا قاصدين لينينغراد في ٥

٩٩- (و.س.ب.خ) الملحق الخامس ص ٧٦٣.

١٠٠- توصل (ارنولد توينبي) وزملاؤه في كتابهم "حافة الحرب: ١٩٣٩" الى هذه النتيجة وهي في الغالب مستندة الى وثائق وزارة الخارجية البريطانية.

١٠١- كتب مارشال الجو بورنيت الى لندن في ١٦ آب: "ادركت ان سياسة الحكومة ترمي الى تطويل امد المفاوضات الى اقصى فترة ممكنة، إن لم يكن التوصل الى ابرام معاهدة ممكنة وابق السفير البريطاني (سيدز) الى لندن (في ٢٤ تموز) بعد موافقة حكومته على المفاوضات العسكرية بيوم واحد" اني غير متفائل بنجاح اية مفاوضات عسكرية. ولااراهما ستنهي باتفاق قريب، لكن الشروع فيها سيصدم المحور صدمة عنيفة وينعش معنوية أصدقائنا. كما يمكن المد فيها الى الحد الذي نستفيد فيه الاشهر التالية الخطيرة جداً. (رسالة بورنيت في: و.س.ب.خ ملحق ٢ ص ٦٠٠، برقية (سيدز) المرجع نفسه ج ٦ رقم ٤١٦). أمّا عن معلومات الإستخبارات البريطانية والفرنسية عن إجتماعات مولوتوف بالسفير الألماني وهي التي حذر (كولوندر) باريس منها في ٧ أيار. وأمّا عن المجهودات التي بذلتها ألمانيا لاغراء روسيا بتقسيم بولندا، وعن تحشيدات الجيوش الألمانية على الحدود البولندية ونوايا هتلر، فإن جهل شبكة الإستخبارات البريطانية بها في موسكو كان أمراً يُذهب اللب ويحير العقل!

آب. إلا أنهم لم يصلوا موسكو حتى الحادي عشر منه. ووصلوا متأخرين. واحرز هتلر قصب السبق. ففيم كانوا ينتظرون اقلاع السفينة بهم الى لينينغراد راح الألمان يعملون بسرعة وكان الثالث من آب يوماً حاسماً لكل من برلين وموسكو. في الساعة ١٢/٥٨ ظهراً، خط ريبنتروب بيده برقية الى سفيره في موسكو شولنبرگ (سريةً ومستعجلة جداً). وكان قد دأب على ان يترك مهمة إرسال البرقيات الى وكيل وزارته فون فايسيكير. "كان لي امس حديث طويل متشعب مع أستاخوف وسيصلك ببرقية تالية".

"اعربت عن رغبة ألمانيا، بإجراء تغيير تام في العلاقات الروسية الألمانية وذكرت انه لا يوجد مشكلة من البلطيق حتى البحر الأسود الا ويمكن حلها برضى من الطرفين. وجواباً على رغبة استاخوف في مباحثات أكثر رسوخاً في مسائل الساعة... اعلنت عن إستعدادي لإجراء مباحثات على هذا المستوى اذا علمتني الحكومة السوفيتية عن طريقه انها ترغب هي ايضاً في وضع العلاقات الروسية الألمانية على أسس جديدة واضحة" (١٠٢).

وكانت وزارة الخارجية تعلم ان شولنبرگ سيقابل مولوتوف في ساعة متأخرة من ذلك اليوم واسرع (فايسيكير) بإرسال برقية سرية ومستعجلة جداً الى (فون شولنبرگ) بعد ساعة من البرقية الأولى "نظرا الى الموقف السياسي". وتوخياً للسرعة نحن على رغبة شديدة في ان نستمر هنا في برلين بالمباحثات لتنسيق المطالب الألمانية السوفيتية على مستوى ارسخ، دون تدخل ما بمباحثاتك مع مولوتوف التي ستجري اليوم. ولهذه الغاية سيستقبل (شنوره) (استاخوف) اليوم وسيعلمه عن إستعدادنا لاستئناف المفاوضات على اسس أكثر ثباتاً وجديّة" (١٠٣).

ومع ان رغبة ريبنتروب المفاجئة في مباحثات (معينة) في كل شيء من البلطيق حتى البحر الأسود قد ادهشت الروس من ناحية. كما ابلغ شولنبرگ في برقيته التالية التي أبرقها في ٣، ٤٧ عصرًا بتلميحه "تلميحة خفيفة [لأستاخوف] حول التوصل الى تفاهم مع روسيا حول مصير بولندا" ومع كل هذا فان وزير الخارجية أوضح لسفيره انه قال للقائم بالأعمال الروسي "نحن لسنا مستعجلين" (١٠٤).

كانت هذه خدعة. ولم تفت القائم بالأعمال السوفيتي الحادّ الذكاء، فعندما قابل (شنوره) في وزارة الخارجية في الساعة ١٢، ٤٥ ظهراً تساءل قائلاً: في الوقت الذي بدا (شنوره) مستعجلاً يجد وزير الخارجية الألماني يوم أمس "لا يبدي مثل هذه العجلة فانتهاز شنوره الفرصة: [وكتب في تقرير سري] (١٠٥): قلت للسيد أستاخوف، مع أن وزير الخارجية لم يظهر مساء أمس استعجالاً تجاه الحكومة السوفيتية، فنحن نرى من المناسب الاستفادة من الأيام التالية القليلة، لاستئناف الحديث كما يتم بناء الأسس بأسرع ما يمكن".

١٠٢- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٦ ص ٤٧، ١٠.

١٠٣- المرجع نفسه الص ٤٨-١٠٤٩.

١٠٤- المرجع نفسه الص ٤٩-١٠٥٠.

١٠٥- المرجع نفسه الص ٥٠-١٠٥١.

اذن فالمسألة عند الألمان أصبحت مسألة "الأيام التالية القليلة". قال استاخوف لشنوره انه تسلم "جواباً مبدئياً" من مولوتوف حول المقترحات الألمانية ويغلب عليه السلب. وقال له ان مولوتوف خبره "في الوقت الذي ترغب موسكو ايضاً من تحسين العلاقات، فإلى حد الآن لم يظهر شيء ثابت من موقف ألمانيا". وصارح وزير الخارجية السوفيتي السفير شولنبرگ بمجمل آرائه مباشرة في تلك الليلة. وكتب تقريراً مطولاً ارسله بعد نصف الليل بقليل^(١٠٦). قال فيه ان مولوتوف في الحديث الذي دام ساعة وربع ساعة انطلق على سجيته "وترك تحفظه المعتاد وبدا منفتح النفس على غير المألوف" ولم يخالج السفير شك في ذلك. فبعد ان بسط شولنبرگ وجهة نظر ألمانيا في عدم وجود أي خلاف بين البلدين "من البلطيق حتى البحر الأسود" وأكد ان الألمان يرغبون في "الوصول الى تفاهم" راح الوزير السوفيتي الصلب يعدد بعض الأعمال ذات الصيغة العدائية التي ارتكبتها الرايخ بحق الإتحاد السوفياتي: ميثاق مكافحة الكومنترن، مساندة اليابان ضد الإتحاد السوفياتي، استبعاد السوفيت من (مونيخ).

وتساءل مولوتوف: "كيف يمكن التوفيق بين قول الألمان وبين هذه النقاط الثلاث؟ ان الدليل على تغيير موقف الحكومة مازال في الوقت الحاضر غير موجود".

ويبدو ان شولنبرگ شعر ببعض الخيبة. [وابرق الى برلين بمايلي] انطباعي العام هو ان الحكومة السوفيتية قد قررت في الوقت الحاضر ابرام إتفاقية مع بريطانيا وفرنسا ان حققنا رغبتنا... واعتقد ان اقوالي خلفت انطباعاً في مولوتوف، لاشك اننا بحاجة الى بذل جهد كبير لإحداث تبديل في مجرى سياسة الحكومة السوفيتية. وعلى سعة معرفة الدبلوماسي الألماني القديم بالشؤون الروسية، فقد بالغ من تقدير التقدم الذي حققته المفاوضات الأنكلو-فرنسية- السوفيتية. ولم يدرك الأبعاد التي استعدت برلين الآن للسير فيها "لبذل مجهود كبير" رآته ضرورياً لتبديل مجرى سياسة الإتحاد السوفياتي. وازدادت في قلهمشتراسه الثقة بامكان بلوغ هذه الغاية.

فببقاء روسيا على الحياد، إما تعاف بريطانيا وفرنسا القتال في سبيل بولندا أو إن قاتلتا فسيكون الصمود أمامها سهلاً بفضل الاستحكامات حتى يُقضى على بولندا بسرعة فيتحوّل الجيش الألماني برمته الى الغرب.

ولاحظ جاك تاربيه دي سان هاردوان Jacques Tarbede st-Hardouin القائم بالأعمال الفرنسي الأريب في برلين تديلاً في جو العاصمة الألمانية، ففي ذلك اليوم نفسه (٣ آب) حيث كان نشاط غير عادي (ألماني-سوفيتي) دبلوماسي في كل من برلين وموسكو كتب الى باريس يقول: "في غضون الأسبوع الماضي لوحظ تغيير واضح جداً في الجو السياسي في برلين... ان فترة التحرج، والتردد، والميل مع الظروف أو حتى التهذبة، قد مرت بزعماء النازي وخلفها مظهر جديد^(١٠٧)".

١٠٦- المرجع نفسه الص ١٠٥٩-١٠٦٢.

١٠٧- الكتاب الأصفر الفرنسي الص ٢٥٠-٢٥٤.

تردد حلفاء ألمانيا

كان الأمر مختلفاً لدى حليفتي ألمانيا، إيطاليا والمجر. فقد راح الخوف يتعاظم بحكومتَي بودابست وروما كلما تقدم الصيف بهما، خشية تورطهما في حرب هتلرية الى جانب ألمانيا.

في ٢٤ تموز وجّه الكونت تيليكي Count Teleki رئيس وزراء المجر رسالتين متشابهتين الى هتلر وموسوليني، يعلمها فيهما انه "عند نشوب صدام عام فستجعل المجر سياستها متضامنة مع سياسة المحور" ويعد ان ابتعد هذا الشوط الكبير، عاد فنكص على مؤخرتيه. فكتب في اليوم نفسه الى الدكتاتورين رسالتين اخريين قال فيهما لئلا يساء تفسير رسالتي المؤرخة ٢٤ تموز اكرر... ان المجر لاتستطيع لأسباب أدبية ان تقوم بعمل حربيّ ضدّ بولندا^(١٠٨).

ثارت ثائرة هتلر لرسالة بودابست الثانية، وانتابته واحدة هياج من نوبات هياجه المألوفة. وعندما إستقبل الكونت كزافي Csaky وزير الخارجية المجري في اوبرسالزبرگ في ٨ آب بحضور (ريبنتروب) افتتح الحديث بإعلان ألمه من رسالة رئيس الوزراء المجري. ويوضح محضر سرّي للحديث ضبط لوزراء الخارجية انه اعرب عن استغرابه لأنه لم يتوقع قط أي معونة من المجرّ أو من أي دولة أخرى "في حالة نشوب نزاع مسلح بولنديّ ألماني" وزاد يقول "ان رسالة الكونت (تيليكي) "لاتحتمل" وذكر ضيفه المجري ان كرم ألمانيا وسماحها هو الذي أضاف الى بلاده أراضٍ جديدة على حساب چيكوسلوفاكيا. وان هزمت ألمانيا في الحرب "فسيقضى على المجر تلقائياً أيضاً".

يكشف المحضر الألماني لهذا الحديث الذي كان من جملة وثائق الوزارة الخارجية المستولى عليها، عن الحالة الفكرية التي لازمت رأس هتلر في ذلك الشهر الحاسم، شهر آب. قال ان بولندا ليست مشكلة عسكرية عند كلّ الألمان. وعلى كلّ حال فهو قد حسب حسابه منذ وقت طويل لحرب على جبهتين. وفخر قائلاً "ليس هناك قوة في العالم تستطيع انه تخرق إستحكامات ألمانيا في الغرب. وليس هناك كائن إستطاع انه يلقي الرعب في نفسي طوال حياتي وهذا ينطبق على إنكلترا ايضاً. ولن اقع ضحية انهيار عصبي طالما منّوا أنفسهم به" أمّا عن روسيا:

(ان الحكومة السوفيتية لن تحاربنا... لن يكرر السوفيت غلطة القيصر وينزفوا حتى الموت بسبب بريطانيا وربما حاولوا الاستفادة على حساب دول البلطيق أو بولندا دون ان يشاركوا في أي عمل حربي).

وكانت خطبته شديدة الوقع والتأثير بحيث لم ينته من حديثه الثاني في اليوم نفسه حتى رجا منه الكونت (كزافي) "ان يعتبر الرسالتين اللتين كتبتهما الكونت تيليكي كأنا لم تكتبنا" وقال انه سيتقدم

١٠٨- النّصّان في [وثائق عن سياسة ألمانيا... ج ٦ الص ٩٧٣-٩٧٤].

بالرجاء نفسه الى موسوليني.

قضى الدوتشي عدة أسابيع قلقاً تنتابه الهواجس حول خطر جرّ هتلر إيطاليا الى الحرب. وكان (أتوليكو) سفيره في برلين يرسل اليه التقرير تلو التقرير وفي كلها ما ينذر بسوء العاقبة ويشير القلق حول عزم هتلر على مهاجمة بولندا^(١٠٩).

ومنذ أوائل حزيران راح يلح على إجتمع بهتلر وفي تموز تعيّن للإجتمع الرابع من آب في (برينر) وفي ٢٤ تموز قدم اليه عن طريق (أتوليكو) "مباديء أساسية معينة" لمباحثاتهما ان وجد (الزعيم) الحرب "لا مفرّ منها" فإن إيطاليا ستقف الى جانبه لكنه ذكره ان حرباً مع بولندا لا يمكن ان تبقى حرباً موضعية بل ستصبح صداماً أوروبياً. وموسوليني لا يرى الوقت مناسباً لشنّ المحور مثل هذه الحرب. واقترح بدل ذلك "سياسة سلمية بناءة بضع سنوات" تقوم ألمانيا خلالها بتسوية خلافاتها مع بولندا، وتنتهي إيطاليا مشاكلها مع فرنسا بالمفاوضات الدبلوماسية. ثم ذهب الى أكثر من هذا فاقترح مؤثراً دولياً آخر للدول الكبرى^(١١٠).

كان ردّ فعل (الزعيم) سيئاً كما ذكر تشيانو في يومياته المؤرخة ٢٦ تموز ورجّح موسوليني ان الأفضل هو تأجيل الإجماع^(١١١)، واقترح في السابع من آب عوضاً عنه إجتماعاً فورياً يعقده وزيراً خارجية الدولتين. وتشير ملاحظات تشيانو المدونة في يومياته الى القلق المتزايد في تلك الأيام. فكتب في ٦ آب: "علينا ان نجد مخرجاً بشكل ما. ان تبعدنا الألمان فعلينا الدخول في الحرب ظروف الدخول فيها غير ملائمة لنا بالمرّة ولاسيما إيطاليا، رصيدنا الذهبي اصبح صفراً وإحتياطينا من المعادن ناضب ايضاً. يجب علينا ان نجتنب الحرب. لقد اقترحت على الدوتشي فكرة إجتماعي برينتروب... وسأحاول خلال الإجماع مناقشة مشروع موسوليني لعقد مؤتمر دولي.

١٠٩- وما يطابق ذلك. تقرير دقيق محكم للمحادثات التي اجراها أتوليكو مع ريبنتراب في ٦ تموز وارسله الى روما. قال له الوزير النازي. لو جرّوت بولندا على مهاجمة الدانزك فان ألمانيا ستسوّي قضية الدانزك في (٤٨) ساعة وفي وارشو! وان تدخلت فرنسا في المسألة وسببت بذلك حرباً عامة، فهي وشأنها. فليس أحبّ لألمانيا من هذا "وستباد" فرنسا إبادة تامة. وبريطانيا؟ ان بدرت منها بادرة فستسبب الدمار للإمبراطورية البريطانية. وروسيا؟ ستعقد معاهدة ألمانية روسية ولن تشترك بحرب. وأمريكا؟ خطية واحدة ألغها الزعيم، كانت كافية لهزيمة روزفلت من الحلية. لن يبرز الأمريكان الى الميدان قط. فالخوف من اليابان سيجعلهم هادئين.

"[كتب أتوليكو يقول] أصغيت الى كلامه بصمت المذهول، هو يرسم هذه الصورة للحرب التي (تسفيد ألمانيا فقط ad usum Germaniae) وقد ركزتها أوهامه في رأسه الآن بصورة راسخة لا يمكن قلعها. لا يمكن أن يرى إلا بصورته التي رسمها (وهي صورة تسلم المرء الى الدهشة) عن إنتصار ألمانيا في كل ميدان ورغم كل شيء... وبالأخير توصلت على قدر فهمي بان هناك إتفاقاً كاملاً بين الزعيم والدوتشي عن تهيمؤ إيطاليا وألمانيا لحرب ليست قريبة (تقرير أتوليكو عن إجتماعه طبع في الوثائق الدبلوماسية الإيطالية: السلسلة ٧ ج ١٢ رقم ٥٠٣ لقد استخدمت المقترحات من (كتاب حافة الحرب). نشره ارنولد توينبي وفيرونيكا م. توينبي. إلا أن أتوليكو الذكي لم يؤمن بهذا قط وكل تقاريره لشهر تموز كانت تنذر بقرب الهجوم الألماني على بولندا.

١١٠- محضر فايسبكر [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٦ الص ٩٧١-٩٧٢].

١١١- يوميات تشيانو الص ١١٣-١١٤.

٩ آب: وافق ريبنتروب على فكرة إجتماعنا. قررت السفر غداً ليلاً، لمواجهة في سالزبرگ. الدوتشي مهتم في ان ابرهن للألمان بالوثائق، ان نشوب الحرب في هذا الوقت هو تهوّر وطيش.

١٠ آب: الدوتشي مقتنع أكثر من أي وقت مضى بضرورة تأجيل الحرب. فهو نفسه نظم الخطوط الرئيسية للتقرير المتعلق بإجتماع (سالزبرگ) الذي ختم بإشارة الى إجراء مفاوضات دولية لتسوية المشكلات التي تقلق الحياة الأوروبية اقلاقاً خطيراً.

قبل ان أرحل اوصاني ان أصارح الألمان بضرورة اجتنابنا حرباً مع بولندا مادام يتعذر حصرها في نطاق ضيق ومادامت أي حرب عامة ستكون كارثة للجميع^(١١٢).

انطلق وزير الخارجية الإيطالي الشاب مسلحاً بهذه التوصيات، التي جعلتها الظروف الراهنة أفكاراً ساذجة، ووصل ألمانيا حيث صكّه هتلر وريبنتروب في الأيام الثلاثة ١١، ١٢، ١٣ آب، صكاً وصدماه صدمة لم ير مثلها في حياته.

- ١٣ -

تشيانو في سالزبرگ وأوبرسالزبرگ

١١، ١٢، ١٣ آب

قضى تشيانو زهاء عشر ساعات من يومه الأول يباحث ريبنتروب في مزرعة بـ(فوشل Fuschl) خارج سالزبرگ، وكان قد انتزعها وزير الخارجية عنوة من احد الملكيين النمساويين الذي اودع معسكر إعتقال ليخلي له الجو. ووجد الإيطالي الحارّ الدم الجوّ بارداً كثيباً كما ذكر، ولم يتبادل مع زميله كلمة واحدة أثناء عشائهما في حانة (المواد الأبيض) القريبة من سانت ولفگانگ St Wallgang ولم يكن ثم ضرورة لهذا لقد ابلغ ريبنتروب زميله في الساعات الأولى من اليوم ان قرار الإغارة على بولندا، لا محيص عنه. وروى تشيانو انه سأل زميله: "حسناً يا ريبنتروب، ماذا تريد؟ المرء أو الدانزگ؟" فأجاب ريبنتروب وهو يحده بعينيّه الباردتين برودة الحديد: "نحن نريد حرباً!"

ونبذت تعاليل تشيانو جانباً، ولم يلتفت الى قوله ان الحرب البولندية لا يمكن حصرها وان الديمقراطية الغربية لن تقف مكتوفة اليدين ان هوجمت بولندا في اليوم الذي سبق عيد الميلاد، وبعد أربع سنوات من هذا الإجتماع أي ١٩٤٣ وجد تشيانو نفسه مستلقياً في الزنزانة رقم (٢٧) في سجن فيرونا Virona ينتظر إعدامه الحياة على يد الألمان، فتذكر اليوم القرير الحادي عشر من آب في (فوشل) وسالزبرگ. وكتب في آخر يومية له (٢٣ كانون الأول ١٩٤٣) انه تراهن مع ريبنتروب "أثناء وجبة طعام من تلك الوجبات الكثيبة في اويسترايشر Oesterreichischer في سالزبرگ" على ١١٢- المرجع نفسه الص ١١٦-١١٨.

شكة سلاح ودروع ألمانية قديمة، مقابل لوحة زيتية إيطالية يعطيها له ان بقي البريطانيون والفرنسيون على الحياذ -وهو رهان لم يوف به ريبنتروب- كما ذكر ذلك بمرارة وحسرة^(١١٣).

فانتقل تشيانو الى أويرسالزبرگ. حيث ردّد هتلر خلال إجتماعي ١٢ و ١٣ آب مؤكداً ان فرنسا وبريطانيا لن تحاربا. وكان (الزعيم) خلافاً لوزير الخارجية لطيفاً مجاملاً الا انه كان مثله مصراً على الحرب وهذا واضح لا من تقرير تشيانو وحده، بل من محاضر الإجتماع السريّة الألمانية التي كانت بين الوثائق المستولى عليها^(١١٤). وجد وزير الخارجية الإيطالي هتلر واقفاً أمام منضدة واسعة تغطيها خرائط أركان عسكرية. وبدأ يشرح قوة جدار ألمانيا الغربي. قائلاً انه منيع جداً يستحيل اختراقه وزاد يقول متهمكاً ان بريطانيا لا تستطيع المساهمة بأكثر من ثلاث فرق في فرنسا. ستنزل فرنسا فرقاً أكثر بكثير لكن لما كانت هزيمة بولندا ستتم في "وقت جدّ قصير". فبإمكان ألمانيا ان تحشد مائة فرقة في الغرب "لكفاح موت أو حياة سيبدأ حالاً". أيكون له هذا؟ بعد مضي دقائق قليلة، وبعد ان ازعجه ردّ الفعل الأولي في تشيانو بدأ يناقض نفسه. وراح الوزير الإيطالي يفصح عما في ذهنه كما عاهد نفسه. ويقول محضر الإجتماع الألماني انه أعرب "عن دهشة إيطاليا العظيمة لخطورة الموقف غير المنتظرة". وزاد يقول "... وبالعكس ذلك أوضح له وزير الخارجية [في ميلان وبرلين أثناء شهر أيار] ان مسألة الدانزك ستحلّ بالطرق الاعتيادية).

وعندما أوضح تشيانو ان أي حرب مع بولندا قد تمتد وتشمل أوروبا. قاطعه مضيفه بقوله انه يختلف معه في هذه النقطة وأجابه: "انا شخصياً مقتنع قناعة مطلقة ان الديمقراطية الغربية ستتكسر في آخر لحظة عن إطلاق حرب جامعة". فردّ تشيانو على ذلك (من المحضر الألماني) "انه يأمل ان يكون هتلر مصيباً الا انه لا يرى هذا الرأي". وانثنى يفصل بإسهاب مواطن ضعف إيطاليا. ومن شكواه هذه تبين لهتلر أخيراً ان إيطاليا لن تكون عوناً كبيراً له في الحرب القادمة^(١١٥). قال (تشيانو) من الأسباب التي تحمل الدوتشي على إرجاء الحرب انه "يعلق أهمية كبيرة، على إقامة

١١٣- يوميات تشيانو الص ١١٨-١١٩ و ٥٨٢-٥٨٣. ملحوظات تشيانو عن إجتماعه بريبنتروب هي في "أوراق تشيانو الدبلوماسية" الص ٢٩٧-٢٩٨ وكذلك في (الوثائق الدبلوماسية الإيطالية السلسلة الثامنة ج ١٣ رقم (١).

على انه لم يوجد محضر ألماني لهذا الاجتماع.
١١٤- إن المحاضر الألمانية للإجتماعين ١٢ و ١٣ آب، المستولى عليها. قدمت الى محكمة نورمبرگ كأحد الادلة (١٨٧١-٧٧-٧٧-٧٧). والمحضر الأخير منهما اكمل. وقد طبعت ترجمته الإنكليزية في (مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٧ الص ٥١٦-٥٢٩) لقد اعتمدت النسخة التي تحمل توقيع الدكتور شميدت في (وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٧ الص ٣٩-٤٩ و ٥٣-٥٦) وتسجيل إجتماعي تشيانو بهتلر هما في (أوراق تشيانو الدبلوماسية: الص ٣٠٣-٣٠٤) وفي (الوثائق الدبلوماسية الإيطالية ج ٨ رقم ٤ و ٢١. وكذلك في يوميات ١٢ و ١٣ آب ١٩٣٩ و ٢٣ كانون الاول ١٩٤٣ من يومياته الص ١١٩-١٢٠ و ٥٨٢-٥٨٣.

١١٥- قال ريبنتروب لتشيانو في لحظة نفاذ صبر "نحن لسنا بحاجة اليكم" فأجابه تشيانو "المستقبل كشاف" (من يوميات (هالدر) غير المطبوعة بتاريخ ١٤ آب (مقتنيات من يوميات هالدر طبعت في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٧ ص ٥٥٦] يقول هالدر انه حصل على المعلومات من فايسبيكر.

(المعرض الدولي) العام ١٩٤٣ في إيطاليا كما تقرر، وهذا ما استغرب له هتلر تماماً وهو المنهمك في دراسة الخرائط العسكرية وفي حساباته الحربية. ولعله لم يقلّ إستغرابه عندما عرض عليه تشيانو بكلّ سذاجة مشروع بيان مشترك راجياً نشره: أنّ وزير المحور "يعودان ليؤكدوا نوايا حكومتيهما السلميّة" وإيمانها بإمكانية تثبيت السلم عن طريق المفاوضات الدبلوماسية الاعتيادية" وأوضح تشيانو، ان الدوتشي يحيد عقد مؤتمر سلم تساهم فيه كل الدول الأوروبية الكبرى. إلا انه "اكراًماً للفوهرر وغبة في ألاّ يسيء اليه" يرضى بحدود المفاوضات الدبلوماسية المعتادة. لم يرفض هتلر الفكرة بتمامها في اليوم الأول إلاّ انه ذكّر (تشيانو) ان روسيا لا يمكن بعد الآن إستيعادها من إجتماعات الدول المقبلة". وكان هذا أول تنويه بالإتحاد السوفياتي ولم يكن الأخير.

أخيراً عندما حاول تشيانو اعتصار التاريخ المقرر للإغارة على بولندا من فم هتلر أجابه ان "تسوية الأمر مع بولندا ستتم كيفما كان في نهاية آب" بسبب امطار الخريف التي قد تشلّ حركة الفرق الآلية والمصفحة في بلاد ليس فيها كثير من الطرق المعبّدة. وهكذا فاز تشيانو بمعرفة الموعد في نهاية الأمر. أو على الأقل بآخر موعد محتمل، حيث ان صوت هتلر إرتفع بعد لحظة ملعلعاً لو ان البولنديين قاموا بحركة إستفزاز جديدة فهو عازم على "غزو بولندا خلال ثمانين وأربعين ساعة". ولذلك "فالحركة على بولندا يجب ان تكون متوقعة في أي لحظة". بهذا الإنفجار انتهى إجتماع اليوم الأول خلا وعد هتلر انه سيفكر بالمقترحات الإيطالية وبعد ان تأمل فيها أربعاً وعشرين ساعة. أخبر تشيانو في اليوم التالي بالأّ حاجة تدعو الى (بيان مشترك) مهما كانت صيغته حول مباحثاتهما^(١١٦). وبسبب الطقس السيء في الخريف... "فمن الضروري للغاية أولاً: ان تظهر بولندا نواياها واضحة في اقصر فترة ممكنة. وثانياً: لن تتسامح ألمانيا بعد الآن باي عمل من اعمال الإستفزاز مهما كان نوعه."

وعندما استفسر تشيانو عما يقصد بـ"بأقصر فترة ممكنة" أجاب هتلر "الى آخر يوم من آب على ابعد تقدير". وأوضح يقول: "في حين لا يقتضي أكثر من أسبوعين للتغلّب على بولندا، فإن (التصفية النهائية) ستتطلّب أسبوعين أو أربعة أسابيع أخرى - وكان كمن ينطق بنبوء فقد تحقق ذلك بالحرف.

١١٦- مع أن المحاضر الألمانية تظهر بجلاء ان تشيانو قد وافق هتلر على ان لا يصدر بيان مشترك بالمحادثات بعد انتهائها "فان الألمان اسرعوا حالاً الى التحايل على حليفهم الإيطالي. فنشرت وكالة (د.ن.ب) الألمانية الرسمية بعد ساعتين من مغادرة تشيانو، وبدون أي استشارة ما للإيطاليين، بياناً ذكرت فيه ان المحادثات تناولت جميع مشاكل الساعة- وعلى الخصوص مشكلة الدانزك- واسفرت عن إتفاق تام في وجهات النظر (مائة بالمائة) وزاد البيان يقول انه لم تترك مشكلة واحدة معلقة ولذلك لم يبق هناك داع لإجتماع آخر حيث لم يعد حاجة اليه. فشارت ثائرة (أتوليكو) واحتجّ للألمان واتهمهم بعدم الأمانة. ولجّ (لهندرسن) بأن الحرب وشيكة ووصف في تقرير غاضب الى روما البيان الألماني "بالميكافيلية". وأشار ان هذه الخطوة اتخذت عمداً لشدّ وثاق إيطاليا الى ألمانيا بعد هجوم الأخيرة على بولندا ورجا ان يكون موسوليني صلباً في معاملة هتلر بطلب تطبيق نصوص (الميثاق الفولاذي) حول وجوب "المشاورة" وان يصير بمقتضى ذلك على مهلة شهر لتسوية النزاع على الدانزك بالطرق الدبلوماسية (انظر الوثائق الدبلوماسية الإيطالية) السلسلة ٧ ج ١٣ رقم ٢٨ (و.و.س.ب.خ: ج ٦ رقم ٦٦٢).



الإجتياح الألماني لپولندا

أخيراً راح هتلر في الختام يثني على موسوليني كالعادة، وهو ما كان يستطيع تشيانو ان يؤكد له انه لن يؤثر بعد تأثيره المنشود قال هتلر انه يشعر بانه سعيد شخصياً "ليعيش في زمن وجد فيه خلافه رجل دولة سيبرز في التاريخ شخصية عظيمة فريدة. وان من دواعي غبطته ان يكون صديقاً لهذا الرجل وعندما تدق الساعة للقتال المشترك فسيكون دائماً الى جانب الدوتشي باي حال من الأحوال." مهما بلغ الزهو بموسوليني الفخور لهذه الأقوال، فإنها لم تؤثر قط على (ختنه) وكتب في يومياته بتاريخ ١٣ آب بعد الإجتماع الثاني بهتلر: "عدت الى روما وانا مفعم بالاشمئزاز من الألمان وزعيمهم، ومن أساليبهم في معالجة الامور. لقد خانونا وكذبوا علينا. وهم الآن يدفعونا الى مغامرة لانرغب فيها وربما قضت على النظام والبلاد ككل".

الا ان إيطاليا كانت آخر ما يهتم به هتلر. فأفكاره قد انحصرت في روسيا. وفي نهاية إجتماع تشيانو يوم ١٢ آب. كشفت المحاضر الألمانية ان "برقية من موسكو" سلمت للزعيم. فقطعت المناقشة بضع دقائق أثناء ماكان هتلر وريبنتروب يطالعانها، ثم ابلغا تشيانو بمحتوياتها. وقال هتلر "لقد وافق الروس على إرسال مفاوض دبلوماسي من لدنا الى موسكو".

الفصل السابع

الميثاق النازي السوفيتي

- ١ -

ان (برقية موسكو) التي كشف هتلر محتوياتها لتشيانو في أوبرسالزبرگ في عصر يوم ١٢ آب لم تكن على ما يبدو إلا مثل (برقيات) سالفة أخرى ورد ذكرها في هذا التاريخ: مشكوك المصدر. اذ لم يعثر في الوثائق الألمانية على برقية بهذا المآل وردت من العاصمة الروسية. و(شولنبرگ) لم يرسل شيئاً من موسكو الى برلين في ١٢ آب خلا تقريراً عن وصول البعثتين العسكريتين الإنكليزية والفرنسية. وعن الأنخاب الودية التي تبودلت بين الروس وضيوفهم.

على ان هناك أساساً ما للبرقية التي اراد هتلر وريبنتروب ان يخلبا بها لبّ تشيانو كما هو ظاهر. في ١٢ آب ارسل من قلهمشتراسه الى (أوبرسالزبرگ) شريط برقي، ورد فيه ذكر النتائج التي تمخضت بها زيارة القائم بالأعمال الروسي (إستاخوف) (لشنوره) في برلين، في ذلك اليوم نفسه. ابلغ إستاخوف الموظف الألماني ان مولوتوف على إستعداد الآن لبحث المسائل التي يثيرها الألمان ومنها بولندا وغيرها من الأمور السياسية. واقترحت الحكومة السوفيتية ان تكون موسكو محلّ المفاوضات. لكن إستاخوف أوضح بكلّ جلاء انها يجب ان تكون متباطئة غير متسمة بطابع العجلة. وشدد القول (كما ذكر شنورة في التقرير الذي ارسل الى أوبرسالزبرگ على الأرجح) ان تعليمات مولوتوف تقضي ان يكون التفاوض (على مراحل) وإلا فلا^(١). إلا ان أدولف هتلر لا يستطيع الإنتظار للمفاوضات (المتدرجة) كما كشف لتشيانو الذاهل بانه حدد آخر موعد ممكن للاغارة على بولندا باليوم الأول من أيلول. وهذا شهر آب قد بلغ وسطه فإذا افلح في تهديم المفاوضات الأنكلو-فرنسية مع الروس وإبرام صفقته الخاصة مع ستالين فيجب ان يتم الامر بسرعة - لا بمراحل بل بقفزة واسعة واحدة.

كان نهار الإثنين الموافق ١٤ آب يوماً حرجاً آخر ففي الوقت الذي كان السفير شولنبرگ الذي لا يتمتع في الظاهر بثقة هتلر التامة ولا بثقة ريبنتروب، يكتب لقائسيكر من موسكو ان مولوتوف "رجل غريب وشخصية صعبة الفهم..." و"اني مازلت أرى ان كل إجراءات سريعة في علاقاتنا مع الإتحاد السوفياتي لاتفيد ويجب اجتنابها" تراه يتسلم "برقية في غاية الأهمية والسرية"^(٢) من

١- تقرير شنورة عن الإجتماع. من رسالة الى السفارة في موسكو ١٤ آب ١٩٣٩ [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ الص ٥٨-٥٩].

٢- نص رسالة شولنبرگ المرجع السالف الص ٦٧-٦٨.

ريبنتروب صادرة عن قلمهلمشتراسه (مازال وزير الخارجية في فوشل) في الساعة ٥٣ ، ١٠ ب.ظ. يوم ١٤ آب. تشير على السفير الألماني بأن يلتقي بمولوتوف ويقرأ عليه مذكرة "بالحرف". [يقول في برقيته] "هذا هو عرض هتلر الكبير أخيراً. ان العلاقات الألمانية-الروسية قد تأثرت بالسياسة الإنكليزية... وليس ثم تصادم حقيقي في مصالح كل من روسيا وألمانيا... لقد كانت الأمور طيبة بين البلدين في الماضي عندما كانا صديقين. وساءت عندما باتا عدوين". "ان الأزمة التي حصلت بين البولنديين والألمان بفعل السياسة البريطانية والمحاولات التي تبذل لقيام حلف يدعم هذه السياسة ويشد أزرها يجعلان من موضوع تنقية العلاقات الروسية الألمانية ضرورة آنية، وإلا فإن... الأمور ستسلك سبيلاً لا يدع مجالاً لكلتا الحكومتين في إعادة الصداقة الروسية الألمانية الى وضعها السابق أو... إتخاذ الوسائل المناسبة لتسوية مسائل الحدود في أوروبا الشرقية بالاتفاق. ان زعامة البلدين يجب اذن ألا تترك الموقف يتدهور بل ان تبادرا الى العمل في الوقت المناسب. وستكون العقابة وخيمة ان انفصل الشعبان بعضها عن بعض أخيراً بسبب الجهل المتبادل بوجهات النظر والنيات".

ووزير الخارجية الألمانية (باسم الزعيم) يعلن والحالة هذه عن إستعداده للمبادرة في الوقت المناسب. "فكما علمنا، ان الحكومة السوفيتية تشعر ايضاً برغبتها في تنقية جو العلاقات الروسية الألمانية. ولما كانت هذه التنقية لا يمكن إنجازها إلا ببطء وبالطرق الدبلوماسية المعتادة كما دلت التجارب السابقة. فانا مستعد للقيام بزيارة قصيرة الى موسكو باسم الزعيم، لأوضح وجهات نظره، للسيد ستالين. وفي رأيي ان محادثة مثل هذه هي وحدها قادرة على إحداث التغيير المنشود ولن يكون متعذراً والحالة هذه، وضع الأسس لتسوية نهائية في العلاقات الألمانية-الروسية).

لم يكن وزير الخارجية البريطاني راغباً في السفر الى موسكو، وها هو وزير الخارجية الألماني الآن لا يرغب في السفر بل يتلهف اليه - وتلك مناظرة حسب النازيون حسابها بدقة، فأصابوا، بكسب ثقة ستالين الكثير الشك. لقد وجد الألمان من الأهمية بمكان كبير ان يوصلوا رسالتهم الى الدكتاتور الروسي بشخصه ولذلك اضاف ريبنتروب "حاشية" الى برقيته المستعجلة، "[اشار ريبنتروب على شولنبرغ] ارجو ان لاتقدم لمولوتوف هذه التوصيات كتابة، بل اعمل على ان تصل الى السيد ستالين بالشكل الدقيق على قدر ما يمكن وانا أخوئك ان استدعى الأمر ان ترجو من السيد مولوتوف عن لساني تهئية مقابلة لك مع ستالين لتكون قادراً على إنجاز هذا الاتصال المهم معه مباشرة ايضاً فضلاً عن مباحثات مع مولوتوف. ان حديثاً تفصيلياً مع ستالين سيكون تمهيداً لقيامي بالرحلة"^(٣).

لم يكن هناك طعم مقنّع أو ملتبس في إقتراح وزارة الخارجية الألمانية. وبهذا كان لديها أسبابها في ان تظن ان الكرملين سيستجيب لها. ويتأكد ريبنتروب على "انه لا يوجد مشكلة بين بحر البلطيق والبحر الأسود مستعصية على الحل، أو غير قابلة للتسوية لمصلحة الطرفين" فهو يقصد "دول البلطيق وپولندا ومشاكل الجنوب الشرقي الخ..." وهو ايضاً لم ينس قضية "تسوية مشاكل الحدود الأوروبية

٣- نص برقية ريبنتروب المرجع السالف الص ٦٢-٦٤.

الشرقية".

كانت ألمانيا على إستعداد لتقتسم شرق أوروبا ومن ضمنه بولندا مع الإتحاد السوفياتي. وهو عرض لاتستطيع فرنسا وبريطانيا الإقدام عليه وان استطاعتا فهما لاتريدانه طبعاً وكان هتلر الذي اقترحه - متأكداً كما يبدو بأنه لن يرفض، ولهذا إستدعى في اليوم نفسه (١٤ آب) القادة العاملين لقواته المسلحة ليستمعوا اليه وهو يحاضرهم في خطط الحرب وأهدافها.

- ٢ -

المؤتمر العسكري في أوبرسالزبرگ

١٤ آب^(٤)

قال هتلر لمستمعيه وهم صفوة القادة "ان الدراما العظيمة تدنو الآن من الذروة". ففي الوقت الذي لايمكن احراز الإنتصارات السياسية والعسكرية إلا بركوب الصعاب والمخاطرة فإنه واثق من ان بريطانيا وفرنسا لن تحاربا. ومن الأسباب ان "بريطانيا لاتملك قادة من العيار الحقيقي. نالرجال الذين عرفتهم في مونبخ ليسوا من الصنف الذي يشيرون حرباً عالمية جديدة". وكشأنه في الإجتماعات السابقة بقاءه عسكريه، لم يقدر على تحويل أفكاره عن إنكلترا فراح يتكلم بتفاصيل شتى على قوتها وضعفها، وبالأخص الناحية الثانية. (دوّن هالدن هذه العبارات:

"لن تعمل إنكلترا ما عملته في ١٩١٤، ولن تتورط في حرب تدوم سنوات... تلك هي حالة البلاد الغنية... حتى إنكلترا لاتملك المال الكافي اليوم، لتخوض به حرباً عالمية. لأي شيء تحارب إنكلترا؟ انك لاتضحى بحياتك في سبيل حليف. ثم تسأل: ماهي الإجراءات العسكرية التي يمكن لبريطانيا وفرنسا الاضطلاع بها؟

"[أجاب عن السؤال] الإندفاع نحو الجدار الغربي غير محتمل. توغل شمالي في بلجيكا وهولندا لن يسفر عن نصر سريع وكلا الأمرين لن يعينا بولندا."

"كل هذه العوامل تقف ضد دخول بريطانيا وفرنسا الحرب... ليس هناك شيء يرغمهما على الدخول

٤- المصدر الوحيد الميسور لما جرى في هذا الإجتماع هو يوميات (هالدن) غير المطبوعة. وهي أولى خواطر اليوميات المؤرخة ١٤ آب ١٩٣٩. دوّن الجنرال يومياته على طريقة غابلزبرگر Gabelsberger الإختزالية. وهي سجل قيم للغاية لأهم ما كان يجري من الفعاليات السرية العسكرية والسياسية في ألمانيا النازية ابتداءً من الرابع عشر من آب ١٩٣٩ حتى الرابع والعشرين من أيلول ١٩٤٢ وهو تاريخ عزله من منصبه. وتشتمل سجلات أوبرسالزبرگ ملاحظات هالدن بالإختزال. كان يدونها أثناء كلام هتلر. ثم خلاصة أضافها هو بالأخير ومن الغريب ان لايقوم أي ناشر إنكليزي أو أمريكي بنشر هذه اليوميات. لقد وفق المؤلف الى نسخة مكتوبة باللغة العادية قام (هالدن) نفسه بعلمها أثناء كتابة هذا الكتاب. ويؤكد دفتر مواعيد هتلر هذا التاريخ. ويضيف الى ان الدكتور تودت Todt المهندس الذي بنى الجدار الغربي كان بين الحاضرين أمثال غورنك ورايدر وبراوختش.

فيها. ولن يخاطر رجال مونيخ بهذا... ان هيتلي الأركان الفرنسية والإنجليزية تنظران نظرة رصينة جداً إزاء احتمالات حصول صدام مسلح وتنصح بخلافه وكل هذا يدعم الاعتقاد ان إنكلترا ستشير النقع في حدود الكلام فحسب، وقد يبلغ بها الأمر الى سحب سفيرها أو ربما ألقت حصاراً إقتصادياً وتجارياً. إلا أنها مصممة على ألا تلجأ الى التدخل المسلح في هذا النزاع."

وهكذا ربما امكن الهجوم على بولندا وحدها ولكن يجب [على حد تعبير هتلر] ان تهزم خلال أسبوع أو اثنين" حتى يمكن إقناع العام بإنهيارها وعدم محاولة إنقاذها".
لم يكن هتلر مستعداً ليخبر جنرالاته بالساعة التي سيسعى قدماً في ذلك اليوم لعقد صفقة مع روسيا وان كانت ستشيع في انفسهم اعظم السرور لوثوقهم ان ألمانيا لاتستطيع خوض حرب عظيمة على جبهتين الا انه اخبرهم بما يكفي لاثارة شهوتهم الى المزيد.

قال: "ليست روسيا مستعدة قط لاستخراج الكستناء من النار للغير"، ثم نوّه بـ"الاتصالات المتقطعة" مع موسكو التي بدأت بمفاوضات تجارية. وهو الآن يقلب وجوه الرأي في هل "ان يذهب مفاوض الى موسكو وهل يكون هذا المفاوض شخصية كبيرة" وصرّح يقول "الإتحاد السوفياتي لا يشعر بأي تبعية أو واجب للغرب. والروس يتفهمون القضاء على بولندا وهم مهتمون بـ"بتحديد مجال المصالح" والزعيم يميل "الى مقابلتهم في نصف الطريق".

في كل كتابة (هالدر) الإختزالية الكثيرة حول وقائع الإجتماع لاتجده وهو رئيس هيئة أركان الجيش لا هو ولا الجنرال فون براوختش قائده العام ولا غورنك، يناقشون مسألة إقحام هتلر بلادهم في نزاع مسلح أوروبي. اذ رغم ثقة هتلر، فليس ثم ما يؤكد ان فرنسا وإنكلترا لن تحاربا، أو ان الإتحاد السوفياتي سيبقى خارج قوس. في الواقع تسلّم غورنك قبل أسبوع بالضبط تحذيراً يتضمن إصرار البريطانيين على الدخول في الحرب ان هاجمت ألمانيا بولندا.

في أوائل تموز حاول احد اصدقائه السويديين (برغر دالروس Berger Dalrus) إقناعه بأن الرأي العام البريطاني لن يسكت بعد هذا عن عدوان نازي آخر. فأبدى قائد السلاح الجوي شكّه فما كان من صديقه الا ان هباً له مقابلة خاصّة مع سبعة من رجال الأعمال البريطانيين في ٧ آب على ارض شلزفيك-هولشتاين قرب الحدود الدانمركية حيث كان يملك منزلاً. وبذل رجال الأعمال ما في وسعهم، كتابةً وشفاهاً لإقناع غورنك ان بريطانيا العظمى ستحترم الواجبات التي ألقتها عليها معاهدتها مع بولندا في حالة وقوع هجوم ألماني عليها.

ومن المشكوك فيه أن غورنك اقنع بذلك الا ان (دالروس) نفسه ظن انهم نجحوا^(٥) في مسعاهم.

٥- قال (دالروس) لقضاة نورمبرگ في ١٩ آذار ١٩٤٦ عندما وقف شاهداً لغورنك. إن الفيلد مارشال أكّد لرجال الأعمال البريطانيين "بكلمة شرف" أنه سيفعل كل ما بوسعه لإجتناّب الحرب. إلا أن حالة غورنك الفكرية في تلك الفترة يمكن أن يعرب عنها بدقة أكثر تصريح أدلى به بعد يومين من مقابلته رجال الأعمال. قال متباهياً بالوفوفاته ودفاعها الجوي "لن يتعرض الروهر لقنبلة واحدة. وإن وصلت قاصفة عدوة الى الروهر فلن يكون إسمي هرمان غورنك، ويمكنكم تسميتي (ماير)!" وهو الفخر الذي مالّث أن أسفّ عليه.

هذا السويدي العجيب الذي قدر له دور معين كوسيط للسلم بين ألمانيا وبريطانيا خلال الأسابيع المحمومة التالية، كان ذا علاقة بشخصيات عالية في برلين ولندن وكان قادراً على دخول داوونج ستريت، ففي ٢٠ تموز استقبله (لورد هاليفاكس) وبحث معه المقابلة المقبلة بين غورنك ورجال الأعمال البريطانيين. ومالبث هتلر ان استدعاه وكذلك فعل تشمبرلين. ومع انه كان صادق النية في مطلبه وهو إنقاذ السلم، لكنه ساذج. اما كسياسي فهو مبتديء وهاوٍ فاشل الى درجة مريضة. وبعد سنوات من ذلك، إضطره السر ديفيد ماكسويل-فايف Sir David Maxwell-Fyfe أثناء إستجوابه على مقعد الشهادة في محاكمة نورمبرك الى ان يقرّ أسفاً محزوناً بان غورنك وهتلر ضللاه واستغلاً حسن نيته استغلالاً سيئاً^(٦).

والجنرال هالدنر رأس مؤامرة ما قبل احد عشر شهراً التي استهدفت الاطاحة بهتلر، لماذا لم يفتح فمه في الرابع عشر من آب ليعارض في قرار هتلر بالحرب؟ وان لم يجد فائدة من ذلك فلماذا لم يبعث الحياة في خطته للتخلص من الدكتاتور لعين العلل التي بعثت فكرة المؤامرة قبيل (مونيك): وهي ان الحرب ستكون كارثة على ألمانيا. بعد زمن طويل كان (هالدنر) سيوضح أثناء إستجوابه في نورمبرك انه لم يكن يعتقد حتى في أواسط آب ١٩٣٩ ان هتلر سيخاطر في الأخير بحرب بصرف النظر عما قال^(٧)، كذلك لم يكن يعتقد ان فرنسا وبريطانيا ستخاطران ايضاً بحرب كما ظهر ذلك في يوميته المؤرخة في ١٥ آب أي بعد الاجتماع بيوم واحد عندما كان في (بركهوف).

اما عن (براوختش) فلم يكن بالرجل الذي يناقش ما رسمه هتلر. وهاسل الذي علم في ١٥ آب بالمؤتمر العسكري في أوبرسالزبرك من فم (كزيغوس). أفهم قائد الجيش العام بانه "واثق تمام الثقة" من تدخل بريطانيا وفرنسا ان غزت ألمانيا بلاد بولندا ورجع الى يوميته ليدون لواعج آلامه "لا يمكن ان نفلح معه، اما انه خائف أو انه لا يفهم شيئاً عن حقيقة الوضع... لا امل يرجى من الجنرالات... قليل منهم يدرك الحقيقة ويتمتع بصفاء ذهن: مثل هالدنر وكاناريس وتوماس...^(٨)".

لم يجراً على تحدي (الزعيم) بشكل صريح غير الجنرال توماس الرئيس الأملعي لدائرة التسليح والإقتصاد في القيادة العليا للقوات المسلحة. فبعد الرابع من آب بأيام قلائل وعلى اثر مناقشة له مع المتأمرين العاطلين في ذلك الزمن وهم (گويردلر وبيك وشاخت) نظم مذكرة وقدمها شخصياً للجنرال كايتل رئيس (ق.ع.ق.م) وتلاها عليه بنفسه قال فيها ان حرباً خاطفة وسلماً سريعاً وهم في وهم. ان

٦- وجد محضر الاجتماع في مكتب غورنك ونشر في [وثائق عن سياسة ألمانيا... ج ٦ الص ١٠٨٨-١٠٩٣] هناك شطب كثير في الوثيقة بخط يد غورنك. وكتب لفظة التعجب "أوهو!" عدة مرات أمام تصريحات لم يصدقها كما يبدو. ان قصة (دالبروس) العجيبة والمضحكة بعض الشيء التي وصلت به الى وسط مرسع الأحداث الكبرى فترة وجيزة من الزمن، قد دونها في كتابه (المحاولة الأخيرة)، كما افاد عنها في نورمبرك [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج ٩ الص ٤٥٧-٤٥٩] وورد عنها في كتاب (السر لويس نامبيير) الموسوم [فاصل دبلوماسي تمهيدي: الص ٤١٧-٤٣٣] وعنوان الفصل "متطفل على الدبلوماسية".

٧- محضر إستجواب هالدنر في ٢٦ شباط ١٩٤٦ [مؤامرة النازيين وعدوانهم: الملحقات P و B ص ١٥٦٢].

٨- هاسل المرجع السالف الص ٥٣ و ٦٣-٦٤.

الهجوم على بولندا سيطلق حرباً عالمية من عقابها. وألمانيا تفتقر الى المواد الأولية والطعام لتضمن مواصلة خوضها. إلا أن كايتهل الذي لم يكن في رأسه من آراء غير تلك التي يستمدّها من هتلر - استخف بفكرة الحرب الكبرى. وقال ان بريطانيا ضعيفة جداً وفرنسا متفسخة جداً وأمريكا لانهتم بالأمم فقط، فلايسعها جميعاً الدخول في حرب من أجل بولندا^(٩).

وهكذا وجدنا قادة العسكر الألمان بعد أواسط آب يندفعون في إكمال خططهم للقضاء على بولندا وحماية ألمانيا الغربية ان تدخلت الديمقراطيات - رغم كل الدلائل التي تشير الى عكس هذا. وفي ١٥ آب صدر أمر سري بالغاء مؤتمر الحزب السنوي في نورمبرك (كان هتلر قد سماه في ١ نيسان "مؤتمر الحزب للسلام") المزمع عقده في اول أسبوع من أيلول ودعي ربع مليون للخدمة في جيوش الغرب ونشرت أوامر تعبوية مسبقة للسكك الحديدية واتخذت التدابير لنقل مقر قيادة الجيش الى (زوسن) وفي اليوم نفسه (١٥ آب) ابلغ الأسطول ان بارجستي الجيب (گراف شبيي Graf Spee ودويچلاند وواحدة وعشرين غواصة متهيئة للإقلاع الى مواضعها في المحيط الأطلسي.

في ١٧ آب دونّ الجنرال هالدنر خاطرة غريبة في يومياته: "اتصل كاناريس بالقسم الأول [دائرة العمليات] هملر، هيدريخ، أوبرسالزبرگ، ١٥٠ بذلة عسكرية بولندية مع كامل تجهيزاتها لسيليزيا العليا."

ما معنى ذلك؟ لم تنكشف القضية الا بعد إنتهاء الحرب. وتتعلق بأغرب الحوادث التي دبرها النازيون. والقاريء لاشك يذكر ان هتلر وقادته العسكريين كانوا يفكرون بطبخ "حادثة" لتبرير إغارتهم على النمسا وچيكوسلوفاكيا كإغتيال وزير مفوض ألماني. وها هم الآن والوقت مدرّكهم يعمدون الى حيك حادثة سياسية قد تبرر لهم أمام العالم (على الأقل في رأيهم) عدوانهم المخطط على بولندا. والاسم الجفري كان (العملية - هملر). والفكرة بسيطة للغاية غيبّة - يقوم حرس الكشتاپو الأسود بتدبير هجوم مزيف على محطة راديو غلايفيتز Gleiwitz الألمانية القريبة من الحدود البولندية، مستخدمين لذلك الهجوم نزلاء معسكرات الإعتقال المحكومين بعد إلباسهم الزي العسكري البولندي. وبذلك يمكن إتهام بولندا بإغارتها على ألمانيا. في أوائل آب تسلم الأميرال كاناريس رئيس الإستخبارات في (ق.ع.ق.م) امراً من هتلر نفسه بلزوم تزويد هملر وهيدريخ بمائة وخمسين بزة عسكرية بولندية وبعض قطع من السلاح الخفيف البولندي. فاستغرب الأمر كثيراً وسأل الجنرال كايتهل في ١٧ آب حول القضية. فأجابه رئيس (ق.ع.ق.م) الضعيف انه لايشغل نفسه كثيراً بمثل هذه "الاعمال" التافهة من هذا النوع، إلا انه زاد على قوله "لايمكن ان نعمل شيئاً الا ان ننفذ مادام الأمر صادراً من (الزعيم)"^(١٠). فقام (كاناريس) بتنفيذ تعليماته وسلّم التجهيزات لهيدريخ، دون أن

٩- الجنرال توماس: من مقال عنوانه Gldanken und Ereignisse نشره في مجلة Schweizerische Monatshefte.

١٠- مذكرة كاناريس عن حديثه مع كايتهل ١٧ آب ١٩٣٩. (مؤامرة النازيين وعدوانهم) ج ٣ ص ٥٨٠ (الوثيقة: ٧٩٥-PS).

يدري من الموضوع شيئاً.

واختار مدير شرطة الأمن منفذاً للعملية. فكان أحد وكلاء الأمن من الحرس الأسود يُدعى (ألفرد هلموت ناويوكس Alfred Helmut Naujocks) ولم تكن تلك المهمة بالأولى التي كلف بها الشاب العجيب ولا بالأخيرة. ففي أوائل آذار ١٩٣٩ بعد إستيلاء الألمان على چيكوسلوفاكيا بقليل انهمك (ناويوكس) بأمر من (هيدريخ) في تهريب المتفجرات الى (سلوفاكيا) لتستخدم كما اعترف فيما بعد في "إختلاق الحوادث".

(ألفرد ناويوكس) مثال نتاج حرس الكشتايبو الأسود، رجل عصابات مثقف. درس الهندسة في جامعة (كيل) حيث ذاق طعم العراك مع خصوم النازية. وفي إحدى المناسبات كسر الشيوعيون قصبته أنفه. وإلتحق بالحرس الأسود في ١٩٣١ وعين في القسم السري منذ تأسيسه ١٩٣٤ واشتهر في أوساط الحرس مثل كثير من الشباب الآخرين الذين يحيطون بهيدريخ بـ"تتبعاته الفكرية" الخاصة في التاريخ والفلسفة. وراح يصعد نجمه صعوداً سريعاً وعرف بصلاية العود وقوة الشكيمة مثل زميله (سكورزيني Skorzeny)، وبانه أهل للإعتماد في مشاريع سرية هامة مشبوهة مما ينسجه هملر وهيدريخ^(١١).

في ١٩ كانون الأول ١٩٤٤ التجأ (ناويوكس) الى القوات الأمريكية. وبعد إستسلامه بسنة واحدة أدلى في نورمبرج بعدد من الاعترافات وكانت واحدة منها تتعلق "بالحادثة" التي إستخدمها هتلر لتبرير هجومه على بولندا. وقد دخلت افادته بطون التاريخ وسجلاته حقاً. قال: "في العاشر من آب أو نحوه ١٩٣٩ أمرني رئيس الـ(إس. إس) هيدريخ بالذات ان اقوم بتنظيم هجوم مزيف على محطة راديو في (غلايفيتز) القريبة من الحدود البولندية بحيث أجعله يبدو كأنه إعتداء قامت به قوات بولندية. وقال لي هيدريخ: نحتاج الى ترك أدلة محسوسة فعلية لهذا الهجوم البولندي لتزويد الصحافة الاجنبية فضلاً من حاجتنا إليها لغرض الدعاية في داخل ألمانيا..."

"[يواصل ناويوكس هذه الافادة المؤرخة ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٥]... كانت التعليمات التي تلقيتها تقضي عليّ بإحتلال محطة الإذاعة وإبقائها تحت سيطرتي فترة تكفي ليقوم احد الألمان الذين وضعوا تحت تصرفي بإذاعة خطبة باللغة البولندية واعلمي هيدريخ ان مضمون الخطبة سيكون

١١- كان (لناويوكس) ضلع في حادثة فينلو Venlo التي سنأتي الى ذكرها فيما بعد. كما كلف في المساهمة بعملية تنكر الجنود الألمان ببنزات حرس الحدود الهولندي والبلجيكي في أيام غزو الغرب (أيار ١٩٤٠). وكان في أوائل الحرب مديراً لقسم من اقسام الشرطة السرية تخصصت في تزوير جوازات السفر وفي غرضون إدارته القسم اقترح "عملية برنهارد" وهي خطة غريبة تقضي بإلقاء أوراق مالية مزيفة على إنكلترا. وأخيراً زحق منه هيدريخ واجبره على العمل في ١٩٤٤ كموظف إقتصادي إلا ان مهمته الحقيقية كما ظهر كانت تنفيذ عمليات قتل وإغتيال رجال المقاومة السرية في الدانمرك وربما أراد إنقاذ رقبته بالالتجاء الى الجيش الأمريكي في بلجيكا. والواقع ان حياته كانت حياة روائية. فقد اعتقل في ألمانيا ١٩٤٦ الا انه نجح من تدبير فرار خيالي من معسكر إعتقال خاص ولم يعثر عليه أو يسمع عنه حتى كتابة هذه السطور. انظر قصة هروبه في (Zwischen Krone und Kerker) بقلم [شاومبيرغ ليه Scheumberg Lippe].

تخريضاً وإستفزازاً وتحدياً للألمان بان وقت القتال قد حان بين البولنديين والألمان كما أبلغني بأنه يتوقع هجوماً ألمانياً على بولندا خلال الأيام القلائل القادمة".

"وانتقلت الى (كلايقيتز) ومكثت فيها أربعة عشر يوماً... وعدت وبقيت غائبا عنها مابين ٢٥ و٣١ آب، للقاء رئيس الكشتاپو هاينريخ موللر Heinrich Mueller الذي كان في اوپلن Oppeln القريبة. وبحضوري بدأ يبحث مع شخص اسمه ملهورن Mehlhorn خطة أخرى "لحادث" حدود ثان يصور فيه قيام الجنود البولنديين بمهاجمة الوحدات الألمانية. وأوضح موللر ان لديه اثني أو ثلاثة عشر مجرماً عادياً محكوماً سيلبسهم بزات الجيش البولندي ويتركهم قتلى في ميدان "الحادث" كأنما قتلوا عند الاشتباك ولهذا السبب سيقوم طبيب تابع لدائرة هيدريخ بحقنهم بسم قاتل ثم يطلق عليهم الرصاص لتظهر ثقب الإطلاقات فيهم وبعد إتمام اخراج "الحادث" يحضر محل الحادث عدد من الصحفيين وأشخاص آخرون. واعلمني (موللر) ان (هيدريخ) زوده بأمر يقضي باعطائي واحداً من هؤلاء المحكومين لإستخدامه في عملية (كلايقيتز) وان الأسم الرمزي الذي سيستخدم للإشارة الى هؤلاء المحكومين سيكون "المعلبات" (١٣)".

وفيم كان هملر وهيدريخ وموللر يقومون بتنظيم إستخدام هذه "المعلبات" بأمر من هتلر لتزييف حجة تساعد في تبرير العدوان النازي في بولندا، قام هتلر بأول حركة واسعة لإستخدام قواته المسلحة في حرب قد تتعدى بولندا باصداره في ١٩ آب التعليمات لاقلاع الأسطول الألماني من قواعده، فتوجهت (٢١) غواصة الى نقاطها المعينة في شمال الجزر البريطانية وشمالها الغربي واقلعت بارجة الجيب (گراف شبي) الى المياه المجاورة للبرازيل واتخذت زميلتها (دويچلاند) موضعاً خارجاً عن خط سير سفن بريطانيا في شمال الأطلسي (١٤). ان تاريخ أمر الاقلاع الفوري توقعاً لعمل حربي ضد بريطانيا يستوقف النظر، ففي ١٩ آب وبعد أسبوع مصطخب بالرجاءات والطلبات العاجلة: أعطى السوثيت هتلر الجواب المنشود.

-٣-

المباحثات النازية السوفيتية (١٥-٢١ آب ١٩٣٩)

قابل السفير (فون دير شولنبرگ) مولوتوف في الساعة الثامنة من مساء ١٥ آب. وتطبيقاً للتعليمات التي زود بها تلا عليه برقية ريبنتروب المستعجلة وقال له ان وزير خارجية الرايخ مستعد للقدوم الى موسكو لتسوية العلاقات الروسية الألمانية وكما جاء في برقية "سرية مستعجلة جداً". بعثها شولنبرگ الى برلين في ساعة متأخرة من اليوم ان مولوتوف تلقى هذه المعلومات بأعظم "مايمكن

١٣- شهادة ناويوكس "مؤامرة النازيين وعدوانهم" ج٦ الص ٣٩٠-٣٩٢، وثائق نورمبرگ PS٢٧٥١.

١٤- اقلعت الغواصات في مابين ١٩-٢٣ آب واقلعت (گراف شبي) في ٢١ ودويچلاند في ٢٤ منه.

من الإهتمام" و"ورحب بحرارة بالنبات الألمانية لتحسين العلاقات مع الإتحاد السوفياتي". ومع ذلك فإن مولوتوف الخبير الدبلوماسي الذي يلعب بها بمهارة لاعب البوكر الحازق، لم يظهر أي علامة تدل على اللهفة والعجلة. وعلق على رحلة ريبنتروب المقترحة بقوله انها "تتطلب إستعدادات متقابلة متكافئة حتى يؤدي تبادل الآراء إلى نتائج".

أي نتائج؟ أسقط الروسي الأريب بعض تلميحات. وتساءل: هل أن الحكومة الألمانية مهتمة بعقد ميثاق عدم إعتداء بين البلدين؟ هل هي مستعدة لإستخدام نفوذها في اليابان لتحسين العلاقات اليابانية-الروسية وانهاء نزاعات الحدود؟ (كان هذا تنويهاً بالحرب غير المعلنة التي استعر اوارها طول الصيف على الحدود المنشورية-المنغولية) وأخيراً سأله مولوتوف ما رأي ألمانيا بضمانة مشتركة لدول البلطيق؟

ثم انتهى الى القول: إن كل هذه الأمور "يجب ان تبحث على أسس رصينة ثابتة، حتى اذا جاء وزير الخارجية الألماني الى موسكو فلن يكون قدمه لغرض تبادل وجهات النظر، بل للبت في أمور معينة وحسمها" وكرر ثانية "أن تهيئة دقيقة للمشاكل بين الطرفين سابقة للمباحثات، هو مما لا يمكن الاستغناء عنه" (١٥).

إذن فأول إقتراح لميثاق عدم إعتداء نازي-سوفيتي جاء من الروس في اللحظة التي كانوا يفاوضون الفرنسيين والبريطانيين على دخول الحرب الى جانبهم اذا دعت الحاجة لاييقاف المزيد من العدوان الألماني (١٦). كان هتلر أكثر من راغب للمداولة في إبرام ميثاق كهذا مقام "على دعائم مكينة". مادام إبرامه سيؤدي الى اخراج روسيا من دائرة المعركة والى اعانته على مهاجمة بولندا دون ما خوف من تدخل سوفيتي وهو واثق أن بريطانيا وفرنسا ستتكفئان على عقبيهما وتوليان الأدبار بغياب روسيا عن الميدان.

إن مقترحات (مولوتوف) كانت وفق ما أمله تماماً. وهي واضحة كثيراً وقد راحت أبعد مما كان يجراً على إقتراحه هو نفسه. هناك عقبة واحدة فقط فهو -وآب يكاد ينصرم- لايسعه الإنتظار أو الرقص على الإيقاع السوفيتي الذي اشار اليه مولوتوف بعبارة "إستعدادات كافية" لزيارة وزير الخارجية موسكو. بعث شولنبرگ بنتيجة مقابلته مع مولوتوف فأنهايت الى ريبنتروب تلفونياً في

١٥- تقرير شولنبرگ: الساعة ٤٨، ٢ صباحاً ١٦ آب [وثائق عن سياسة ألمانيا... ج٧ الص ٧٦-٧٧] كتب السفير التفاصيل كاملة بمحضر ارسله مع ساع دبلوماسي. واذاف تفاصيل في رسالة لفاسيكر - المرجع السالف الص ٨٧- ٩٠ و٩٩- ١٠٠.

١٦- ماثيت الحكومة البريطانية أن علمت بهذا. في ١٧ آب أعلم (صمنر ويلز) Sumner Welles وكيل وزارة الخارجية الأمريكي، السفير البريطاني في واشنطن بإقتراح مولوتوف شولنبرگ. وكان السفير الأمريكي في موسكو قد ابرق بالأنباء الى واشنطن قبل أن يتحقق من دقتها بيوم واحد (د.س.ب.خ السلسلة الثالثة ج٧ الص ٤١-٤٢). عن تقرير السفير شتاينهاردت Steinhardt انظر (أوراق الولايات المتحدة الدبلوماسية) ١٩٣٩ ج١ الص ٢٩٦-٢٩٩ و٣٣٤. قابل شتاينهاردت مولوتوف في ١٦ آب.

الساعة ٦,٤٠ صباحاً في (فوشل). وفي ١٦ آب توغل الجبل ليتلقى المزيد من التعليمات من هتلر في أوبرسالزبرگ وفي ساعات العصر الأولى توصلًا الى ردّ مولوتوف وأرسل حالاً بالشريط البرقي الى (فايسيك) ببرلين مع تأكيد بإبراقه على وجه الاستعجال الى موسكو فوراً^(١٧).

وافق الدكتاتور النازي على المقترحات السوفيتية دون قيد أو شرط وطلب ريبنتروب من شولنبرگ أن يقابل مولوتوف مرة أخرى ويبلغه ذلك.

"أن ألمانيا مستعدة لإبرام ميثاق عدم إعتداء مع الإتحاد السوفياتي، وإذا رغب السوفيت فلا مانع أن تكون مدته خمسة وعشرين عاماً. وأن ألمانيا مستعدة لاعطاء ضمانات لدول البلطيق بالمشاركة مع الإتحاد السوفياتي وأخيراً تبدي ألمانيا كامل إستعدادها لإستخدام نفوذها لتحسين العلاقات الروسية اليابانية وتمكينها.

الآن رفع القناع عن الادعاء والتظاهر الكاذب بأن حكومة الرايخ ليست مستعجلة لعقد اتفاق مع موسكو.

"[واستمرت البرقية...] ونظراً للموقف الراهن وإحتمال حدوث أمر خطير في أي يومٍ يمر (نرجو عند هذه النقطة أن تشرحو للسيد مولوتوف أن ألمانيا عازمة على ألا تتحمل الإستفزاز البولندي بلانهاية) فمن رأي (الزعيم) انه يستحسن تسوية سريعة أساسية للعلاقات الألمانية الروسية وتوضيح موقف كل حكومة من مشاكل الساعة.

لهذه الأسباب أعلن إستعدادي للمجيء الى موسكو بالطائرة وفي أي وقتٍ بعد يوم الجمعة الموافق ١٨ آب للتفاوض بتحويل مطلق الصلاحية من (الزعيم)، في كل المشاكل ذات المساس بالعلاقات الألمانية الروسية ولتوقيع المعاهدات المناسبة إن سنحت الفرصة".

وعاد ريبنتروب يضيف حاشية إلى التعليمات الشخصية لسفيره. "أرجو أن تتلو أيضاً هذه التوصيات كلمة كلمة على مولوتوف وتسأل عن رأي الحكومة الروسية والسيد ستالين حالاً. وأصارك شخصياً وبكل سرية تنويراً لك أنه من ألزم الضرورات عندنا أن تتم رحلتي الى موسكو في نهاية هذا الأسبوع أو بداية الأسبوع الثاني.

في اليوم التالي كان هتلر وريبنتروب في قمة الجبل ينتظران بلهفة إجابة من برلين. ولم تكن الاتصالات البرقية بين برلين وموسكو فورية وهي حالة لم يُنتبه اليها فيما يبدو في جو الألب البافاري النادر المثال وعند ظهر السابع عشر كان ريبنتروب يبرق برقية مستعجلة جداً (لشولنبرگ) يطلب منه إعلامه برقيةاً عن الوقت الذي طلب فيه تحديد موعد مقابلة له مع مولوتوف وعن التاريخ الذي حدد للمداولة^(١٨).

وفي موعد العشاء رد السفير المحتث ببرقية "مستعجلة جداً" أيضاً بأنه لم يتسلم برقية وزير

١٧- رسالة ريبنتروب الى شولنبرگ ١٦ آب.

١٨- المرجع السالف ص ١٠٠.

الخارجية إلا في الساعة الحادية عشرة (أمس) فكان الوقت متأخراً للقيام بأي عمل دبلوماسي، واول ما فعل هذا اليوم ١٧ آب أنه حدد مقابلة مع مولوتوف في الساعة الثامنة مساءً^(١٩).

وكانت لقادة النازيين المستعجلين مقابلة مخيية. فمولوتوف كان واقفاً على لهفة هتلر وهو لاشك يدرك سببها، ولهذا أخذ يداعب الألمان ويناورهم بل راح يؤنبهم. فبعد أن تلا (شولنبرگ) عليه برقية ريبنتروب وأخذ مولوتوف ملاحظاتٍ منها، قدم للسفير جواب الحكومة السوفيتية مكتوباً، وهو الرد على أول اتصال لوزير الخارجية الألمانية بتاريخ ١٥ آب.

كانت فاتحة الجواب جافيةً، تذكر الحكومة النازية بعدائها الماضي للإتحاد السوفياتي وتوضح: "إن الحكومة السوفيتية لجأت في سياستها حتى ما قبل زمن قصير جداً الى اتخاذ مواقف افترضت فيها أن الحكومة الألمانية تتحيز المناسبات للاصطدام بالإتحاد السوفياتي... دعك من ذكر الجهود التي تبذلها عن طريق ما اطلق عليه ميثاق مكافحة الكومنترن لخلق جبهة متحدة مكونة من عدد من الدول ضد الإتحاد السوفياتي وقد خلقتها. فعلاً ولهذا السبب أوضحت المذكرة ان روسيا "اضطرت إلى المساهمة في تنظيم جبهة ضد العدوان [الألماني]".

"واستمرت المذكرة] فإذا كانت الحكومة الألمانية تنوي الآن التحول عن السياسة الماضية الى جهة تحسين جدي للعلاقات السياسية مع الإتحاد السوفياتي. فليس بوسع الحكومة السوفيتية إلا أن ترحب بهذا التحول وهي مستعدة من جهتها لتعديل سياستها الى حد تحسين العلاقات جدياً مع ألمانيا". إلا ان المذكرة أصرت على ان يكون ذلك "بخطوات عملية جديدة" لا بقفزة واسعة واحدة كما اقترح ريبنتروب. فاي خطوات تلك؟

الخطوة الأولى: إبرام اتفاقية التجارة والإئتمان.

الخطوة الثانية: (وهذه تتخذ بعد زمن قصير من الأولى) إبرام معاهدة عدم إعتداء.

وطلب السوفيت أن يبرم مع الخطوة الأولى وفي اللحظة نفسها بروتوكول يحدد مصالح الطرفين المتعاقدين في هذه المشكلة أو تلك - في مجال السياسة الخارجية". وهذا هو أكثر من تلميح حول تقسيم شرقي أوروبا على الأقل وموسكو ترى رأي ألمانيا في أن إتفاقاً على هذه المسألة ممكن.

أما عن زيارة ريبنتروب المقترحة. فقد قال مولوتوف أن الحكومة السوفيتية "ممتنة للغاية" ومسرورة للفكرة "لان إرسال سياسي كبير ورجل دولة كبير يُشعر بجديّة نوايا الحكومة الألمانية". ثم عقب يقول "إن هذه البادرة تفهم تماماً بمقارنتها بموقف إنكلترا التي ارسلت بشخص (سترانگ) موظفاً من الدرجة الثانية الى موسكو وعلى كل فإن رحلة وزير الخارجية الألماني تتطلب إستعداداً كاملاً... إن الحكومة السوفيتية لاتستحب الاعلان الذي يقترن بمثل هذه الرحلة وهي تفضل الامور العملية على الضوضاء الكبيرة^(٢٠)".

١٩- المرجع السالف ص ١٠٢.

٢٠- تقرير شولنبرگ ٥، ٥٨ صباحاً.

ولم ينوّه مولوتوف بكلمة حول مقترحات ريبنتروب المستعجلة المحددة التي وصلت موسكو نهار الأحد. ولم يلح في الإستفسار ربما لكونه أخذ على حين غرة بالسبيل الذي سلكته المقابلة.

في اليوم التالي، وصلت برقية السفير الجوابية الى ريبنتروب، وبات هتلر الآن على شفا اليأس واطلق من مقره الصيفي بأوبرسالزبرگ برقية أخرى "مستعجلة جداً" في مساء ١٨ آب. الى (شولنبرگ) وقّعها ريبنتروب. ووصلت السفارة الألمانية في موسكو الساعة السادسة إلا ربعاً صباحاً. وامرت السفير أن "يطلب فوراً مقابلة أخرى مع مولوتوف وأن يفعل المستحيل لاجرائها دون تأخير فليس هناك وقت يصح إضاعته. قال ريبنتروب "اطلب منك أن تكلم السيد مولوتوف بما يأتي:

... نحن أيضاً -تحت الظروف الاعتيادية- نرغب طبعاً في أن نسعى الى تطوير العلاقات الروسية الألمانية بالطرق الدبلوماسية والقيام بها بالسبل المألوفة. إلا أن الموقف الراهن غير الاعتيادي يحتم كما يرى الزعيم استخدام وسيلة وسيلة أخرى تؤدي الى نتائج سريعة.

إن العلاقات الألمانية البولندية تتأزم وتشتد توتراً بين يوم وآخر وعلينا أن نضع في حسابنا وقوع أحداث طارئة في أي يوم تجعل من نشوب صدام علني أمراً لا يمكن تحاشيه. إن الزعيم يجد من الضرورة بمكان أن لا تؤخذ على حين غرة بالصدام العنيف الألماني البولندي المتوقع في الوقت الذي نحاول تنقية جو العلاقات الروسية الألمانية ولذلك يرى التنقية المسبقة ضرورية. إن لم يكن ذلك إلا لمجرد أن يضع في حسابه المصالح الروسية عند حصول الصدام المنوّه به آنفاً. وسيكون ذلك صعباً إن لم تتم مثل هذه التنقية الآن."

وعلى السفير أن يقول له أن "المرحلة الأولى في المشاورات التي نوه بها مولوتوف، أعني إبرام الإتفاقية التجارية، قد تم بالتوقيع عليها في هذا اليوم الثامن عشر من آب في برلين. الآن حان الوقت "للإيغال" في المرحلة الثانية. ولتنفيذ ذلك يقترح وزير الخارجية الألماني "السفر حالاً الى موسكو" وسوف يأتي "مزوداً بكل الصلاحيات المطلقة من (الزعيم) مخولاً لتسوية أعقد المشاكل تسويةً تامةً نهائيةً" وأضاف ريبنتروب يقول أنه في موسكو "سيكون في وضع... يستطيع أن يضع رغبات الإتحاد السوفياتي نصب عينيه".

ما هي تلكم الرغبات؟ إن الألمان لا يحومون الآن حول الموضوع ولا يلمّحون؛ [واصل ريبنتروب القول]:

"وسأكون أيضاً في وضع، أوقع به بروتوكولاً خاصاً لتنظيم مصالح الطرفين في مسألة السياسة الخارجية، هذه أو تلك، فمثلاً:

تسوية منطقة المصالح في البلطيق. إن تسوية مثل هذه ليست ممكنة إلا بالتفاهم الشفاهي.

على السفير هذه المرة ألا يأتي من الروس بلفظة "لا".

"أرجو أن توضح ان سياسة ألمانيا الخارجية، قد وصلت اليوم نقطة تحول تاريخي... أرجو أن تؤكد على وجوب ادراك أهمية زيارتي وعارض بلباقة أي اعتراض روسي جديد. في مقابلتك هذه يجب أن

تضع نصب عينك الحقيقة الحاسمة وهي إن اندلاع حرب ألمانية بولندية وشيكة، انما هو أمر محتمل. لذلك فنحن مهتمون جداً بأن تتم زيارتي لموسكو حالاً^(٢١).

التاسع عشر من آب كان يوماً فاصلاً. أوقفت الأوامر الصادرة للغواصات وبارجتي الجيب الإبحار الى المياه البريطانية حتى يصل نبأ من موسكو. كان قد رُسم للبارجتين أن تبحرا حالاً أن أريد أن تصلا الى مركزيهما المخصصين لهما في يوم الصفر الذي عينه هتلر لبدء الحرب (الاول من أيلول) ولم يبق الا ثلاثة عشر يوماً للموعد وإن مجموعتي الجيوش التي خصصت للهجوم على بولندا يجب أن تتخذ نقاط وثوبها حالاً.

كاد التوترب يكون غير محتمل في برلين وبخاصة في أوبرسالزبرگ حيث هتلر وريبنتروب ينتظران بقلق قرار موسكو. وأوضحت وسائل وزارة الخارجية ومحاضرها في ذلك اليوم شعور القلق الذي كان يسيطر على فلهلمشتراسه. ارسل الدكتور (شنوره) تقريره عن ختام المباحثات مع الروس حول الإتفاقية التجارية مساء أمس "باتفاق تام" إلا أنهم يتلکأون في توقيعها وقال: أن التوقيع كان سيتمّ ظهر هذا اليوم التاسع عشر من آب. إلا أن الروس تلفنوا له ظهراً بأنهم ينتظرون تعليمات من موسكو. واستطرد يقول "من الواضح انهم بلّغوا بتعليمات من موسكو تقضي بتأخير إبرام الإتفاقية لأسباب سياسية^(٢٢)".

ومن سالزبرگ أبرق (ريبنتروب) الى (شولنبرگ) "برقية مستعجلة جداً" يذكره بوجوب إرسال تقرير برقي بأي شيء يقوله مولوتوف أو اي اشارة تبدر "عن نوايا الروس". الا أن البرقية الوحيدة التي تسلمها من السفير خلال اليوم. هو نص نبأ وكالة (تاس Tass) السوفيتية للأبناء حول انكار أي تعقد في المفاوضات الأنكلو فرنسية السوفيتية العسكرية بخصوص الشرق الأقصى. على أن تكذيب تاس أيد وجود خلافات أخرى بين المتفاوضين حول "امور أخرى مختلفة تماماً" وكان هذا اشارة لهتلر بأنه مايزال ثم وقت - وأمل، ثم وفي الساعة ١٠، ٧ مساءً من ١٩ آب وردت البرقية التي طال إنتظارها:

سرية مستعجلة للغاية

"وافقت الحكومة السوفيتية على قدوم وزير خارجية الرايخ الى موسكو بعد مرور أسبوع كامل على اعلان التوقيع على المعاهدة الإقتصادية".

وصرح مولوتوف: إن أعلن إبرام الإتفاقية الإقتصادية غداً، فيمكن لوزير خارجية الرايخ أن يحلّ بموسكو في ٢٦ أو ٢٧ آب.

سلمني مولوتوف مشروع ميثاق عدم إعتداء.

سأبرق اليكم حالاً بوقائع مفصلة عن محادثتي الإثنين مع مولوتوف اليوم، فضلاً عن نص مشروع

٢١- رسالة ريبنتروب المؤرخة ١٨ آب الساعة ٤٨، ١٠ مساءً المرجع السالف الص ١٢١-١٢٣.

٢٢- تقرير شنوره المؤرخ ١٩ آب المرجع السالف الص ١٣٢-١٣٣.

المعاهدة السوفيتية.

شولنبرگ (٢٣)

إن المحادثة الأولى في الكرملين التي بدأت في الساعة الثانية ب.ظ (١٩ آب) واستمرت ساعة لم تسر سيراً حسناً، فوفق ما جاء في تقرير السفير يظهر أن الروس لم يُغرمهم استقبال وزير خارجية هتلر. ويقول شولنبرگ في التقرير "أن مولوتوف ظلّ مصراً على رأيه بعدم إمكان تحديد وقت للرحلة في الوقت الحاضر، حتى ولو بصورة تقريبية مادام الإستعداد الدقيق لم يتم لها بعد... فرددت على حجته مكرراً بالحاح دواعي الضرورة إلى الاستعجال، فرد مولوتوف يقول: إلى الآن لم تتحقق بعد الخطوة الأولى ويعني الإتفاقية التجارية. يجب أولاً أن توقع الإتفاقية التجارية وتنشر وتُحدث تأثيرها في الخارج. وبعدها يأتي دور ميثاق عدم الإعتداء مع البروتوكول.

"بقي مولوتوف غير متأثر أبداً باحتجاجي، وهكذا انتهت المقابلة الأولى بتصريح مولوتوف أنه أبلغني وجهات نظر الحكومة السوفيتية وليس لديه ما يضيف إليها".

إلا أنه أضاف شيئاً ما بعد فترة وجيزة. "[استطرد شولنبرگ في تقريره] ما كادت تنقضي ثلاثون دقيقة على ختام مقابلتنا الأولى. إلا وبعث مولوتوف يطلب مني الحضور إلى الكرملين ثانية في الساعة ٤, ٣٠ عصرًا، واعتذر لي عن ازعاجه لي وأوضح أنه إتصل بالحكومة السوفيتية".

ثم قام وزير الخارجية السوفيتي بتسليم السفير المشدود السعيد مشروع ميثاق عدم إعتداء واعلمه أن ريبنتروب يمكن أن يأتي إلى موسكو في ٢٦ أو ٢٧ آب إذا ما وقعت الإتفاقية التجارية ونشرت غداً. واستطرد السفير: "لم يقدم الوزير مولوتوف أسباباً لتبديل رأيه المفاجيء ويغلب على ظني أن ستالين قد تدخل في الامر^(٢٤). وهذا التخمين بلا شك صائب. فحسب رواية چرچل أن نية السوفيت في عقد ميثاق عدم إعتداء مع ألمانيا قد اعلنها ستالين للمكتب السياسي في مساء يوم ١٩ آب^(٢٥). وكان قد أنهى بقراره الذي لا مردّ له إلى مولوتوف ما بين الثالثة عصرًا والرابعة والدقيقة الثلاثين عصرًا كما يتضح من تقرير شولنبرگ. وبعد ثلاث سنين بالضبط (آب ١٩٤٢) "في أولى ساعات الفجر" كما وصفها چرچل، أدلى الدكتاتور السوفيتي لرئيس الوزراء البريطاني الذي كان موفداً إلى موسكو. ببعض الأسباب لهذه الحركة الجريئة^(٢٦).

[قال ستالين] "كوّنّا انطباعاً في اذهاننا أن الحكومتين الفرنسية والبريطانية لاتعتزمان دخول الحرب إن أغبر على بولندا. بل انهما كانت تأملان أن يكون التحالف الدبلوماسي البريطاني الفرنسي الروسي كافياً لردع هتلر. وكُنّا على ثقة أن هذا ليس بكافٍ. وسأل ستالين "كم عدد الفرق التي

٢٣- تقرير شولنبرگ الساعة ٦, ٢٢ مساءً ١٩ آب المرجع السالف ص ١٣٤.

٢٤- تقرير شولنبرگ ٨, ١٢ بعد نصف الليل (٢٠ آب) المرجع السالف الص ١٤٩-١٥٠.

٢٥- چرچل "تجمع العاصفة" ص ٣٩٢: لم يثبت المصدر الذي استقى ذلك منه.

٢٦- المرجع نفسه ص ٣٩١.

ستجردها فرنسا بوجه ألمانيا في حالة التعبئة؟" فكان الجواب "حوالي مائة فرقة" ثم سأل: "كم فرقة سترسل إنكلترا؟" فكان الجواب "فرقتان، وبعدها فرقتان أخريان" فردد ستالين الجواب "آه! فرقتان، وبعدها فرقتان أخريان؟ أتعرفون كم كان يجب علينا أن نجرّد من الفرق ونضعها في الجبهة الروسية؟" وهنا سادت فترة صمت قطعها ستالين بقوله "أكثر من ثلاثمائة فرقة!".

ذكر شولنبرگ في تقريره عن نتائج حديثه مع مولوتوف في ١٩ آب أن محاولته في إقناع الوزير السوفيتي بتحديد موعد أقرب لسفر ريبنتروب إلى موسكو "قد باءت بالاختفاق مع الأسف". لكن الألمان يجب أن يجعلوها ناجحة لأنهم وضعوا جدول توقيت غزو بولندا. في الواقع إن مسألة قيام الهجوم من عدم قيامه ابداً في الفترة القصيرة التي بقيت قبل هطول امطار الخريف إنما تعتمد على ذلك ومن الواجب أن يسافر ريبنتروب إلى موسكو قبل ٢٦ أو ٢٧ آب، فإذا تلكأ الروس قليلاً وهو ما كان يخشاه الألمان- فليس بالإمكان البر بموعد يوم الهجوم (١ أيلول). في هذه المرحلة الحرجة تدخل أدولف هتلر بنفسه وإتصل رأساً بستالين ضاغطاً على كبريائه وكتب له رسالة شخصية يطلب فيها من الدكتاتور السوفيتي الذي طالما حقد عليه وكرهه في الماضي وحتى اللحظة، راجياً استقبال وزير خارجيته في موسكو حالاً وابرقت رسالته إلى موسكو في السابعة إلا ربعاً من مساء يوم الاحد ٢٠ آب بعد اثنتي عشرة ساعة من وصول تقرير شولنبرگ. وطلب (الزعيم) أن تسلم لمولوتوف "حالا".

السيد ستالين- موسكو

اني ارحب من صميم القلب بالتوقيع على إتفاقية تجارية سوفيتية جديدة كأول خطوة لإعادة وضع العلاقات السوفيتية الألمانية في إطار جديد إن إبرام ميثاق عدم إعتداء مع الإتحاد السوفياتي يعني لي إقامة صرح سياسة ألمانية لمدة طويلة ستكون ألمانيا قادرة بها على مواصلة السير في نهج سياسي ينطوي على كثير من الفائدة للدولتين على مرور القرون... إنني راضٍ بمشروع ميثاق عدم الإعتداء الذي سلّمه لنا وزير خارجيتك السيد مولوتوف إلا أني أرى من الضرورة القصوى تسوية المسائل المتعلقة به بأسرع ما يمكن.

إن مواد البروتوكول الملحق بالميثاق التي يرغب فيها الإتحاد السوفياتي يمكن تسويتها -وإنا واثق من ذلك- بأقصر وقت ممكن إن تمكن رجل الدولة الألماني المسؤول من القدوم إلى موسكو بنفسه للتفاوض وإلا فإن الحكومة الألمانية لا ترى بوضوح كيف يمكن تسوية أمر البروتوكول الملحق بالبحث في مواده خلال فترة وجيزة. إن التوتر بين ألمانيا وبولندا بلغ حدّاً لا يطاق... وقد تنشب أزمة بين يوم وآخر. وألمانيا عازمة عزمًا أكيداً من الآن فصاعداً على أن تسهر لحفظ مصالح الرايخ بكل الوسائل التي تملكها.

بالنظر إلى نوايا الدولتين في انشاء علاقة جديدة بينهما، فإنا أرى من الأوفق عدم اضاءة الوقت. ولذلك اعود لاقتراح مرة ثانية ان تتفضلوا باستقبال وزير خارجيتي نهار الثلاثاء ٢٢ آب. أو كآخ

تاريخ ممكن- ٢٣ آب الموافق الأربعاء. إن وزير خارجية الرايخ مزود بالصلاحيات التامة لإبرام ميثاق عدم إعتداء والتوقيع عليه فضلاً عن البروتوكول. إنه ليتعذر علينا ابقاء وزير الخارجية في موسكو أكثر من يومٍ أو يومين نظراً للحالة الدولية. سأكون سعيداً بتسلم ردك.

أدولف هتلر^(٢٧)

كان (الزعيم) على حافة إنهيار عصبيّ طوال الساعات الأربع العشرين من مساء الأحد (٢٠ آب) حتى مساء اليوم التالي (عندما حمل الأثير الى موسكو رجاءه). وأرق وعزّ عليه النوم واتصل في نصف الليل بگورنك وأنهى اليه بمخاوفه وقلقه من ردّ الفعل الذي أحدثته رسالته في ستالين. وانحى باللوم وصبّ جام غضبه على تلكؤ موسكو. وفي الساعة الثالثة من فجر يوم فيها ٢١ آب تسلم وزير الخارجية برقية مستعجلة جداً من شولنبرگ يقول فيها أن برقية هتلر التي نوّه بوصولها (فايسيك) لم تبلغه حتى الآن. وذكر وزارة الخارجية "أن البرقيات الرسمية من برلين الى موسكو" تتأخر بين أربع ساعات وخمس، اضافة الى فرق التوقيت المحلي وقدره ساعتان. ويجب أن يضاف الى ذلك، الزمن الذي يصرف في حل الرموز الجفرية^(٢٨).

وفي الساعة ١٥ , ١٠ صباحاً (الإثنين ٢١ آب) طير ريبنتروب الشديد القلق برقية مستعجلة (لشولنبرگ). "ارجو ان تبذل جهدك الأقصى، لتضمن تحقق السفرة. التاريخ كما بيناه في البرقية"^(٢٩). وبعد الظهر بقليل ابلغ السفير برلين: "ساقابل مولوتوف في الساعة ٣ عصر اليوم"^(٣٠). أخيراً وفي الساعة ٣٥ , ٩ من مساء اليوم الحادي والعشرين من آب وصل جواب (ستالين) على متن الأثير الى برلين.

الى مستشار الرايخ الألماني

أدولف هتلر

أنهي اليك شكرى على رسالتك. وأؤمل أن يكون ميثاق عدم الإعتداء السوفيتي الألماني فاتحة تحول جديد حاسم إلى الأفضل في العلاقات السياسية بين بلدينا.

إن شعوب بلدينا في حاجة إلى علاقات سلم بعضها مع بعض. ان قبول الحكومة الألمانية بإبرام ميثاق عدم إعتداء يضع الأسس لإزالة التوتر السياسي ويثبت دعائم السلم والتعاون بين بلدينا.

إن الحكومة السوفيتية قد طلبت مني ابلاغكم بأنها موافقة على قدوم هر فون ريبنتروب الى موسكو في ٢٣ آب.

ج. ستالين^(٣١)

٢٧- برقية هتلر الى ستالين في ٢٠ آب.

٢٨- تقرير شولنبرگ في الساعة ١٩ , ١ صباحاً (٢١ آب) المرجع السالف الص ١٦١-١٦٢.

٢٩- رسالة ريبنتروب ٢١ آب المرجع السالف ص ١٦٢.

٣٠- رسالة شولنبرگ الساعة ٤٣ , ١ ب.ظ ٢١ آب المرجع السالف ص ١٦٤.

٣١- رسالة ستالين لهتلر ٢١ آب المرجع نفسه ص ١٦٨.

من مفارقات الأقدار المحضة، أن الدكتاتور النازي لقي بالأخير نذَه في المارد السوفييتي الجبار. والطريق أصبح الآن مفتوحاً للسير معاً لوضع النقاط على الحروف وتنفيذ أقصى صفقة في هذا العصر البائس.

ارسل ردّ ستالين الى الزعيم في برغهوف ووصله في الساعة ٣٠، ١٠ ليلاً. وبعدها بدقائق، (كما يتذكر المؤلف) قُطع البرنامج الموسيقي فجأة في الساعة الحادية عشرة أو بعدها بدقائق وتقدم المذيع ليعلن: "ان الحكومة السوفيتية وحكومة الرايخ اتفقتا على إبرام ميثاق عدم إعتداء فيما بينهما. إن وزير الرايخ للشؤون الخارجية سيصل الى موسكو نهار الأربعاء الموافق ٢٣ آب للتوقيع على الميثاق بعد انتهاء المفاوضات". بعد أن أيقن هتلر -بتأكيدات من ستالين- أن روسيا ستكون صديقةً محايدةً أمر هتلر- في اليوم التالي (٢٢ آب ١٩٣٩) بإجتماع ثانٍ لكبار قادة القوات المسلحة في أوبرسالزبرگ وألقى عليهم محاضرة حول عظمتة وحول وجوب ادارتهم الحرب بدون رحمة وبكل قسوة، وأعلمهم بأنه قد يأمر بالهجوم على بولندا بعد أربعة أيام من هذا التاريخ (السبت ٢٦ آب) أي قبل ستة أيام من الموعد المقرر. فستالين عدو هتلر الألد هو الذي جعل ذلك ممكناً.

-٤-

المؤتمر العسكري في ٢٢ آب ١٩٣٩

وجد الجنرالات هتلر في إحدى لوثاته الجنونية الجائحة الكبرى^(٣٢) قال لهم "لقد دعوتكم جميعاً، لأعطيك صورةً للموقف السياسي حتى تتكون لديكم فكرة ما في معالجة العوامل المنفردة التي بنيت

٣٢- تم العثور على نص خطبة هتلر الرسمية إلا أن هناك تسجيلات غير رسمية منها قد ازيح عنها الستار اثنتان منها كتبها قادة كبار عن الملاحظات التي دونوها أثناء الإجتماع. واحدة منها بقلم الأميرال (هرمان بوم Hermann Boehm) أميرال أسطول ماوراء البحار. وقد عرضت في نورمبرگ أثناء دفاع الأميرال (رايدر) وطبعت بنصها الألماني في (TMWC ج٤١ الص ١٦-٢٥) وقام الجنرال هالدنر بتدوين ملحوظات مستفيضة بطريقة إختزاله الفريدة وطبعت ترجمة لليومية المؤرخة ٢٢ آب بالإنكليزية في DGFP ج٧ الص ٥٥٧-٥٥٩. ان الوثيقة الرئيسية من هذا الإجتماع التي استخدمها الادعاء العام في محكمة نورمبرگ. هي تقرير غير موقع بقسمين، صادر عن (ق.ع.ق.م.) وجد في ملفاتها واستولت عليه القوات الأمريكية في شتالفلدن Staufelden في التيرول النمساوي. طبعت ترجمتها الإنكليزية في (مؤامرة النازيين وعدوانهم) ج٣ الص ٥٨١-٥٨٦ (وثائق نورمبرگ PS ٧٩٨ ND) و٦٦٥-٦٦٦ (وثائق نورمبرگ) PS ١٠١٤ [وثائق عن سياسة... ج٧ الص ٢٠٠-٢٠٦. والنص الألماني بقسميه هو بالطبع في مجلدات (محاكمات مجرمي الحرب الكبار). ولغتها أدق من لغتي الأميرال (بوم) و(هالدنر) واقوى. إلا أن محتويات كل هذه النسخ متشابهة ولا يتطرق الى صحتها الشك. حام في نورمبرگ شك حول القسم الرابع من خطبة هتلر (رقمت في مؤامرة النازيين ج٧ الص ٧٥٢-٧٥٤) وثائق نورمبرگ (٣ C). ومع أنها ذكرت أثناء المرافعة الا ان الادعاء لم يبرزها كدليل. ومع أنها حقيقية فمن المحتمل ان تحويراً اجري عليها من لم يحضر الإجتماع في برغهوف. استخدمت نسختي (بوم وهالد) والمذكورة غير الموقعة المبرزة في محاكمات نورمبرگ. لتنسيق أقوال هتلر في هذا الفصل.

عليها قرارى الجازم فى العمل. ولكى أقوى ثقتكم وبعد ذلك سنبحث فى التفاصيل العسكرية". واستطرد يقول فى المبدأ هناك اعتباران شخصيان: "شخصيتى أنا، وشخصية موسوليني. بالأصل كل شىء يعتمد على وعلى وجودى، بسبب عبقريتى السياسية. يضاف الى ذلك أنه لن يوجد ولن يأتى رجل حاز ثقة الشعب الألمانى بأجمعه كما حزتها أنا. وربما لن يأتى المستقبل برجل أكثر سلطاناً منى. فوجودى اذن عامل عظيم القيمة. لكن من الممكن أن ازال من الوجود على يد مجرم أو مجنون. العامل الشخصى الثانى هو (الدوتشى) فوجوده أيضاً عامل حاسم. إن حدث له أمر فإخلاص إيطاليا للحلف لا يعود أمراً ثابتاً. إن البلاط الإيطالى خصم للدوتشى بالجوهري. وفرانكو، هو الآخر عون. فسيضمن "حياد اسبانيا الايجابى" أما عن (الجانب الآخر) فقد اكد لمستمعيه "أنه لا يوجد فى فرنسا أو إنكلترا شخصية بارزة".

وظلّ الدكتاتور الثلاث فترة امتدت عدة ساعات -قطعتها وجبة طعام الغداء- يهرف ويثرثر ولم تُشر المحاضر المدونة للإجتماع ان جنراً واحداً أو أميرالاً أو قائداً جوباً اجتراً على مقاطعته والاستيضاح منه عن صحة آرائه، أو حتى تحدى اكاذبيته. لقد صاغ قراراته فى الربيع وفحواها كما قال لهم، أن الصدام مع بولندا أمر مفروغ منه، إلا أنه إرتأى أولاً أن يتحول الى الغرب. وفى هذه الحالة ستقوم بولندا بمهاجمة ألمانيا، كان ذلك واضحاً له. ولذلك يجب ان تتم تصفيتيها الآن. ومهما يكن من أمر فقد حان وقت القتال، وخوض حرب. "أنه ليسهل علينا القرار. فليس لدينا ما نفقده وإنما هناك ما نربحه. لقد وصل وضعنا الإقتصادى الى حد لا يسعنا بعد أن نصمد أكثر من سنوات قليلة. ويمكن لگورنگ ان يؤكد لكم ذلك، ليس لدينا مجال للاختيار وعلينا أن نعمل... الى جانب العامل الشخصى، يوجد الموقف السياسى المواتى لنا فى البحر المتوسط هناك صراع بين إيطاليا وفرنسا وإنكلترا وفى الشرق توتر... وإنكلترا تحيق بها الأخطار العظيمة، وفرنسا تعاني نقصاً مطرداً فى نسبة المواليد... ويوگوسلافيا تحمل جرثومة الإنهيار فى جسمها... ورومانيا أضعف من السابق، ومنذ موت مصطفى كمال وتركيا تحكمها عقول صغيرة، رجال ضعفاء مترددون. كل هذه الظروف المواتية لن تسنح فى سنتين أو ثلاث. ولا أحد يدري كم سأعيش ولذلك يجب أن نباشر دورنا الآن، ذلك الدور الذى قد لا يكون من المأمون أن نؤجله أربع سنين أو خمساً.

كان هذا منطق الزعيم النازى الأفليج. كان يرى "من المحتمل جداً" أن لا يدخل الغرب الحرب. إلا أن الخطر ما زال على كل حال كامناً ويجب التسليم به. ألم يخاطر فى الماضى - باحتلال الراين عندما اراد الجنرالات النكوص على الأعقاب، ثم بالإستيلاء على النمسا والسوديت وچيكوسلوفاكيا؟ وقال معقباً "إن هانيبال* Hannibal جرب حظّه فى كان Cannae. وكذلك فردريك الأكبر فى ليوتن Leuthen

* هانيبال (٢٧٤-١٨٣ ق.م) قائد قرطاجنى لامع كاد يهزم روما فى الحرب البونية الثانية. كان قائداً للجيش القرطاجنى فى إسبانيا عندما أعلنت روما الحرب فى ٢١٨ ق.م فأنطلق بجيش قوامه أربعون ألفاً عابراً جبال البرينيه مع فيلة ثم إخرق بهم جبال الألب وإنحدر على إيطاليا وراح يهزم جيشاً رومانياً إثر الآخر إلا أنه أصيب بهزيمة حاسمة.

ولودندورف في (تانبيرك)، وعلينا نحن أن نخاطر ونجرب حظنا وهذا لا يأتي إمتلاك ناصيته إلا بالارادة الحديدية" لا محل للضعف هنا.

"لقد ألحق بنا ضرراً بليغاً قيام عدد كبير من الألمان المترددين من ذوي المراكز الرفيعة بالحديث والكتابة لرجال إنكليز بعد حل المشكلة الجيكية. إلا أن الزعيم مضى في تحقيق وجهة نظره عندما خانتكم اعصابكم واستسلمتم بسرعة."

لابد وأن هالدن وفيتزليبين وتوماس وربما عدد آخر من الجنرالات الذين ساهموا في مؤامرة مونيخ أفزعته هذه الإيماءة يبدو أن هتلر يعرف أكثر مما يتوهمون.

وعلى أية حال فإن الوقت حان ليظهروا جميعاً كفاءاتهم الحربية. إن هتلر خلق ألمانيا الكبرى "بالخداع السياسي" ولقد أصبح الآن ضرورياً "لاختبار ماكنة الحرب، يجب أن يتمرس الجيش في المعارك الفعلية قبل النزال الحتامي العظيم في الغرب" وفي بولندا فرص لهذا. ثم عاد الى فرنسا وإنجلترا:

أمام الغرب احتمالان لا ثالث لهما للحرب ضدنا: الأول: الحصار، ولكن لن يكون ذا تأثير علينا. لأننا مكتفون اكتفاءً ذاتياً ولوجود مصادر المعونة في الشرق.

الثاني: الهجوم غرباً من خط ماجينو. وأنا أرى ذلك محالاً. هناك احتمال ضعيف في خرق حياد هولندا وبلجيكا وسويسرا. إن إنجلترا وفرنسا لن تخرقا حياد هذه الدول. انهما لا يستطيعان مساعدة بولندا فعلاً. هل ستكون حرباً طويلة الأمد؟

لا أحد يتمكن من الإعتماد على حرب طويلة. لو أخبرني هر فون براوختش بأنه يلزمني أربع سنوات للتغلب على بولندا لأجبت لا يمكن أن نخوض الحرب. من السخف القول أن إنجلترا تريد إثارة حرب طويلة الأمد.

بعد أن فرغ بكل سهولة -حسبما تصور على الأقل- من بولندا وإنجلترا وفرنسا، سحب ورقة آسه باستدارته الى روسيا: "يتعلل العدو بأمل آخر، وهو أن تكون روسيا عدوةً لنا بعد الإستيلاء على بولندا. لم يحسب العدو حساباً لقوة عزماتي العظيمة. اعداؤنا ديدان صغيرة ولقد رأيتهم في (مونيخ).

كنت مؤقناً أن ستالين لن يقبل العرض الإنكليزي. والمتفائل الأعمى وحده يعتقد أن ستالين سيبلغ من الجنون حداً بحيث لا يتبين نوايا الإنكليز. ليس لروسيا مصلحة في الإبقاء على بولندا... وتنحية (لتفينوف) كانت العامل الحاسم، لقد انقضت عليّ كقذيفة مدفع، ولمحت فيها إشارة تحول موسكو عن دول الغرب.

أحدثت التغيير نحو روسيا بالتدرج. فعن طريق علاقاتنا بخصوص المعاهدة التجارية دخلنا في

مباحثات سياسية وأخيراً ورد إقتراح من الروس لإبرام معاهدة عدم إعتداء. وبعد أربعة أيام اتخذت خطوة خاصّة كانت نتيجتها أن اعلن الروس يوم أمس عن إستعدادهم للتوقيع عليها. لقد انشأت صلة شخصية بستانلين وبعد غدٍ سيسافر ريبنتروب لإبرام إتفاقية، واصبحت بولندا الآن في الموضع الذي شئته لها... حققت البداية لتحطيم السيطرة الإنكليزية والآن بات الطريق مفتوحاً أمام العسكري، بعد أن تم كّل التدابير السياسية. سيكون الطريق مفتوحاً أمام العسكري، أعني إن لم يلعب جمبرلين (مونيخاً) ثانيةً وقال لمحاربيه "إني لا أخشى إلا أن يقدم كلب قذر Schueinehund إقتراحاً بالوساطة". عند هذه النقطة توقف الإجتماع لتناول طعام الغداء، لكن لم يتم ذلك إلا بعد أن أعرب (كورنك) عن الشكر العميم (للزعيم) لإرشاده الى الطريق واكّد له أن القوات المسلحة ستؤدي واجبها^(٣٣). وخصص هتلر محاضرة بعد الظهر بالدرجة الأولى لاستنهاض همم قادته العسكريين ومحاولة توجيههم الى المهمة التي تنتظرهم. إن الملاحظات غير المعقولة الثلاث التي سجلت للكلمة تشير الى طبيعتها.

"من جانبنا العزم الحديدي الذي لا يقل، عدم النكوص عن أي شيء. يجب على كل واحد أن يتبنّى فكرة إحتمال قتال دول الغرب من البداية... في معركة حياة أو موت... إن فترة سلم طويلة لن تفيدنا شيئاً... مظهر للرجولة... لدينا رجال أفضل، في المعسكر المقابل رجال ضعفاء... في ١٩١٨ انهارت مقاومة البلاد لأن المقومات الروحية كانت مفقودة او ضعيفة. ولم يثبت (فردريك الأكبر) إلا بقوة روحه وثبات جنانه.

إن لتحطيم (بولندا) الأسبقية. والهدف هو القضاء على القوات العاملة لا الوصول الى خطّ معين سيبقى تحطيم بولندا الهدف الأولي وإن نشبت الحرب في الغرب، قرار سريع نظراً للموسم. سأقدم حجة دعائية لتبرير إعلان الحرب - وليس مهماً أن تكون معقولة أو غير معقولة. المنتصر لن يسأل فيما بعد هل صدق أم كذب. عندما تفجر حرباً وتشنها فالمهم ليس الخطأ والصواب وإنما النصر هو الأصل. أوصدوا أبواب قلوبكم بوجه الرحمة! إعملوا بوحشية! ثمانون مليوناً يجب ان يحصلوا على ما هو حقّ لهم... كلما كان الرجل قوياً، كان مصيباً... كونوا قساة عتاة ولا تشعروا بتأنيب الضمير! كونوا كالفلواذ أمام العاطفة! كل متأمل في نظام هذا العالم يدرك أن معناه كامن في نجاح الصفة الممتازة، بإستخدام القوة...

٣٣- ورد في وثائق نورمبرگ (٣-٢-٢-٢) انظر الحاشية السالفة ص ٥-٧) أن غورنك اعتلى ظهر المائدة وتقدم "بشكر متعطش للدم، وبوعود دموية. ورقص في القاعة مثل الهمج. وبقي المتشككون القلائل صامتين". هذا الوصف اغضب غورنك كثيراً أثناء الإستجواب في ٢٨ و ٢٩ آب ١٩٤٥ في نورمبرگ. وقال: "إني انكر وقوفي على المائدة. وارغب ان تعلموا أن الخطبة القيت في قاعة بيت هتلر الكبرى. ولست معتاداً القفز فوق المؤائد في البيوت الخاصة إن ذلك سلوك لا يتفق أبداً مع شخصية الضابط الألماني. فأجاب العقيد جون. ه. أمين المستنطق الأمريكي على هذه النقطة: "على اية حال فقد كنت في مقدمة الهاتفين بعد الخطبة اليس كذلك؟" فأجاب غورنك "أجل ولكن ليس من فوق المائدة". (مؤامرة النازيين وعدوانهم ملحق ب. الص ١١٠٣-١١٠٥).

بعد أن أرعد وأزبد بهذه التحريضات ذات الطابع (النييتشي*)، ووصل بنفسه الى قمة الهياج (التيوتوني)، هدأ وسكن وأبدى توجيهات قليلة حول المعركة القادمة. قال أن السرعة ضرورية. وأن إيمانه "لايتزعزع" بالجندي الألماني، وإن نجحت اية أزمة، فسببها يعود إلى فقدان الضباط والقادة سيطرتهم على أنفسهم ولا شيء غير ذلك. الهدف الأول هو دق إسفين من الجنوب الشرقي حتى القستولا ومن الشمال حتى ناريف Narew والقستولا.

وشدد القول بأن العمليات العسكرية يجب ألا تتأثر بما سيفعله بولندا بعد هزيمتها. لأنه لم يقرر شيئاً. وقال أن الحدود الألمانية الجديدة ستثبت "على مباديء رصينة" وربما أقام دولة بولندية عازلة بين ألمانيا وروسيا. وختم كلامه قائلاً أن الأمر بيد العمليات الحربية سيعطى فيما بعد، وربما سيكون صباح السبت ٢٦ آب.

في اليوم التالي لإجتماع قادة (ق.ع.ق.م) كتب الجنرال (هالدر) في يومياته: "يوم الهجوم تعين نهائياً بالسادس والعشرين من آب (السبت)".

-٥-

إهمال الحلفاء في موسكو

المفاوضات العسكرية في موسكو بين الديمقراطيات الغربية والإتحاد السوفياتي وصلت مرحلة توقف تام في منتصف شهر آب وسببه عناد البولنديين بالدرجة الأولى. ويذكر أن البعثتين العسكريتين الإنكليزية والفرنسية استقلتا باخرة شحن بطيئة حتى ليننجراد ووصلت موسكو في ١١ آب بعد أسبوع واحد من مغادرة مستر(سترانگ) الساخط العاصمة الروسية مرتاحاً كما يبدو لتسليمه مهمة مفاوضته الروس الصعبة المزعجة للجنرالات والاميرالات^(٣٤).

وكانت المهمة التي يجب الإسراع في إنجازها، إبرام ميثاق عسكري يرسم فيه بالتفصيل، كيف وأين وبماذا يمكن ان توجه القوات المسلحة النازية... على أن محاضر وقائع جلسات الاجتماعات اليومية للجانب الأنكلو-فرنسي والتقارير المرسلة إلى لندن عن سيرها تكشف^(٣٥) أن الوفد الأنكلو

* نسبة الى نيتشه.

٣٤- وصفها (سترانگ) في تقرير ارسله الى وزارة الخارجية بقوله "انها لتجربة مؤلة للنفس" تقريره المؤرخ ٢٠ تموز [و.س.ب.خ: ج ٦ رقم ٣٧٦]

٣٥- انظر (و.س.ب.خ) السلسلة ٣ ج ٧ ملحق ٢ الص ٥٥٨-٦١٤. الملحق يتضمن تفاصيل يومية للمباحثات العسكرية. وهي أوفى مصدر رأيته عند الحلفاء لها. ويتضمن تقارير الى لندن أثناء المفاوضات. بقلم العسكريين الثلاثة. والتقرير الأخير للأميرال (دراكس). كذلك الوقائع الحرفية للجلسة الختامية الروائية والحديث المتبادل بين (فورشيلوف) و(دومان) عندما حاول رئيس البعثة الفرنسية إنقاذ الموقف رغم اعلان قدوم ريبنتروب. تقرير عن مقابلة (فورشيلوف) الأخيرة المؤلة لاعضاء البعثة في ٢٦ آب. ويتضمن الجزء السابع عدداً من التقارير المتبادلة بين وزارة الخارجية البريطانية وبين سفارتها في موسكو وهي تلقي ضوءاً جديداً على الموضوع وقد اعتمدناها لكتابة =

فرنسي لم يرسل الى موسكو للبحث في التفاصيل بل في "المبادئ العامة". إلا أن الروس أصروا على الدخول حالاً في الوقائع والتفاصيل المحددة "المزعجة" كما وصفها الحلفاء ووصف فورشيلوف التصريحات الحليفة حول المبادئ التي تولاه (الجنرال دومان) في أول اجتماع، بأنها "عمومية، موهومة" الى درجة كبيرة، ولا تحمل أي طرف على الاتيان بعملٍ ما. وقال ببرود "نحن لم نجتمع هنا لاعلان تصريحات تجريدية، بل لإبرام ميثاق عسكري".

وطرح المارشال السوفيتي بعض الاسئلة المنطقية جداً: هل يوجد ثم معاهدة تحدد العمل الذي ستتخذه بولندا؟ كم فرقة بريطانية سترسل لتعزيز الجيش الفرنسي عند نشوب الحرب؟ ماذا سيكون موقف بلجيكا؟ ولم تكن الاجوبة التي تلقاها مشجعة. وقال (دومان) ليس لديه أي فكرة عن خطط البولنديين وأجاب الجنرال (هيوود) "إن البريطانيين قد خصصوا ست عشرة فرقة مهيأة للخدمة في اولى مراحل الحرب يتبعها فيما بعد مجموعة أخرى تتألف من ست عشرة فرقة" وألح (فورشيلوف) لمعرفة عدد الفرق الموجود لدى بريطانيا حال اعلان الحرب فأجاب (هيوود) "في الوقت الحالي يوجد خمس فرق معبأة من المشاة وفرقة آلية واحدة في الجزر البريطانية". هذا الرقم التافه كان مفاجأة غير سارة للروس الذين كانوا مستعدين كما قالوا لانزال مائة وعشرين فرقة مشاة الى ساحة القتال ضد المعتدي في الغرب. وعن السؤال الروسي حول بلجيكا أجاب الجنرال (دومان) "إن الجيش الفرنسي لا يتمكن من خرق حياضها الا اذا طلب منه ذلك. الا ان فرنسا مستعدة لتلبية أي طلب من هذا القبيل. وأدى هذا الجواب الى سؤال آخر اشد حرجاً للمفاوضات العسكرية في موسكو وهو السؤال الذي ودّ الأنكلو-فرنسيون اجتنابه بأي ثمن. ففي اول الاجتماعات وفي الجلسة الحرجة للرابع عشر من آب، ألح الفليدمارشال (فورشيلوف) بأن المسألة الجوهرية هي، هل ترغب بولندا في السماح للجيش السوفيتي بدخول أراضيها ومنازل الألمان وان لم تسمح بذلك فكيف يتسنى للحلفاء ايقاف التوغل الألماني في بولندا بسرعة؟ ثم طرح سؤالاً صريحاً في الرابع عشر من آب: "هل تضمن هيئتنا أركان الجيش الفرنسي والإنكليزي ان الجيش الأحمر يستطيع المرور عبر أراضي بولندا ولاسيما من خانق (فيلنا Vilna) والدخول الى غاليسيا Galicia للالتحام بالعدو؟

ذلكم هو جوهر القضية. وكما ابرق السفير (سيدز) الى لندن... ان الروس... ".... آثاروا النقطة الأساسية التي يتوقف عليها نجاح المفاوضات العسكرية او فشلها، وهذه في الواقع خالقة كل المشاكل والعقبات منذ بدء المفاوضات السياسية حتى الآن، وأعني بها كيف يمكن التوصل الى إتفاق مفيد مع الإتحاد السوفياتي في الوقت الذي يقف جيرانه موقف مقاطعة وإباء منه لا يمكن التغلب عليه إلا... عندما يفدح الخطب ولات حين مندم".

قامت الحكومة البريطانية بتنبيه امير البحر (دراكس) الى كيفية معالجة الأمر إن اثير هذا السؤال. والى الوسائل المؤدية الى عدم إثارتة. وظهرت التعليمات المعطاة له بهذا الشأن كما كشفت عنها

= الفصل. ولسوء الحظ لم ينشر الإتحاد السوفياتي وثائقه حول الاجتماع إلا ان رواية سوفيتية لها مثبته في كتاب نيكينوف Nikinov الموسوم (اصول الحرب العظمى الثانية). وقد استخدم المؤلف الوثائق البريطانية بكثرة وهناك رواية سوفيتية أخرى في كتاب "تاريخ الدبلوماسية" نشره (بوتكين).

الوثائق السرية البريطانية أنها كانت بمنتهى السذاجة حتى يكاد المرء لا يصدق صدورها من الحكومة البريطانية حين تُقرأ اليوم. قالت ان خطأ الأجابة "الذي يجب اتباعه في حالة رفض كل من بولندا او رومانيا حتى الرضا بإمكان قيام تعاون محتمل" هو كمايلي: ان غارة على بولندا أو رومانيا ستغير من نظرتها الى المسألة تغييراً كبيراً، زد على هذا سيكون من غير صالح روسيا ان تقوم ألمانيا باحتلال مواقع متاخمة للحدود السوفيتية مباشرة... لذلك كان من مصلحة روسيا الخاصة وحدها أن تهنيء الخطط لمساعدة كل من بولندا ورومانيا إن هوجمتا. وإن اقترح الروس أن يتصل الإنكليز والفرنسيون بالبولنديين والرومانيين ودول البلطيق ليقترحوا على هذه الدول التعاون مع الحكومة السوفيتية أو قيادتها العليا. فعلى الوفدين ألا يجيبا بشيء بل يتصلا بالحكومتين"، وهذا ما فعلاه. في جلسة ١٤ آب طلب (فورشيلوف) "أجوبة صريحة" على أسئلته وقال: "من دون أن تعطى أجابات دقيقة خالية من الابهام، يكون من العبث الإستمرار في المباحثات العسكرية" واستطرد يقول: "إن الوفد العسكري السوفيتي لا يمكنه ان يوصي بمساعدة حكومته في خطة كتب لها الإخفاق الواضح من البداية".

أشار الجنرال (غاملان) من باريس على الجنرال (دومان) ان يحاول حرف الروس عن الموضوع. إلا أنهم لم يكونوا ممن يسهل حرفهم^(٣٦). وكانت جلسة ١٤ آب جلسة روائية على ما وصفها الجنرال (دومان). فقد أخرج أعضاء الوفدين الفرنسي والإنكليزي أحراجاً، وحُصر في زاوية لا منفذ لها وكانوا يشعرون بذلك. فحاولوا التملص من السؤال بخير ما امكنهم. بأن أكد (دراكس) و(دومان) انهما واثقان من مبادرة بولندا ورومانيا بطلب العون من روسيا ساعة الهجوم عليهما. وكان (دومان) واثقاً انهما "سيتوسلان بالمرشال ليساعدهما" ورأى دراكس إنه "مما لا يمكن تصديقه" عدم طلبهما مساندة السوفيت. واذاف يقول (بشكل غير دبلوماسي على ما يظهر): "إن لم يطلب العون عند الضرورة، واستسلما للقوة، فالمتوقع أن يكونا أقاليم ألمانية" وهذا آخر ما يرغب فيه الروس لأنه يعني وجود الجيوش النازية على الحدود الروسية: فامتدت يد فورشيلوف الى هذه الملاحظة التاعسة فجعل منها إحدى النقاط الجوهرية. أخيراً تعللت هيئة الوفد الأنكلو-فرنسي بالبائسة بأن (فورشيلوف) أثار مسائل دبلوماسية هم غير مخولين بالبحث فيها. وصرح دراكس انه مادامت بولندا دولة ذات سيادة فعلى حكومتها أن توافق أولاً على دخول القوات الروسية. ولكن لما كان ذلك مسألة دبلوماسية فيجب تسويتها عن طريق الحكومات. واقترح أن تلقي الحكومة السوفيتية بسؤالها هذا على الحكومة البولندية. وافق الوفد السوفيتي على أن هذا الموضوع هو دبلوماسي الصفة. على أنه بقي مصراً على وجوب قيام الحكومتين الإنكليزية والفرنسية بالقاء هذا السؤال على البولنديين والضغط عليهم ليشبوا الى رشدهم.

٣٦- پول رينو: (في زخم القتال) ص ٢١٢. يقدم رينو (الصفحة ٢١٠-٢٣٣) الرواية الفرنسية للمفاوضات في موسكو (آب ١٩٣٩) ويثبت مصدره (ص ٢١١). ويقدم (بونيه) روايته في كتابه (نهاية لأوروبا EuropeFin Dine).



فورشيلوف

هل كان الروس، نظراً الى صلاتهم بالألمان في تلك الفترة- يفاوضون باخلاص وسلامة نيّة مع الممثلين العسكريين الأنكلو-فرنسيين؟ أو انهم تمسكوا بحق ادخال جيوشهم الى بولندا، لا لشيء إلا لعرقلة المحادثات وتطويلها حتى يتأكدوا من إمكان عقد إتفاق مع هتلر كما استنتج مكتبها وزارة خارجيتي فرنسا وبريطانيا فيما بعد، ولا تذكر الأميرال (دراكس) بالذات.^(٣٧)

في البداية كان الحلفاء الغربيون يعتقدون أن الوفد العسكري السوفيتي يفاوض باخلاص - كما اوضحت المصادر البريطانية والفرنسية الوثيقة. والواقع ان الأمر كان كذلك وقد طفق يفاوض بشكلٍ جديٍّ للغاية. وفي ١٣

آب بعد اجتماعين أبرق السفير (سيدز) الى لندن يقول: يظهر أن السوفيت العسكريين "مخلصون في نيّتهم" وبنتيجه ذلك تغيرت تعليمات الأميرال دراكس من "سر ببطء شديد" ففي ١٥ آب اعلمته الحكومة البريطانية بأن يدعم الجنرال (دومان) للوصول بالمحادثات الى نتيجة ايجابية "بأسرع وقت ممكن" ورفعت عنه قيود الامتناع عن البوح بالأمر العسكري الدقيقة للروس الى حدّ ما.

كانت التعليمات التي اعطاها الرئيس دالاديه للجنرال دومان، تخالف تعليمات الأميرال (دراكس) الأولى فقد اوصاه شخصياً بأن يحاول جهده إبرام ميثاق عسكري مع روسيا بأقصر وقت ممكن. وعلى الرغم من خوف البريطانيين من تسرب الأسرار الى ألمانيا استودع (دومان) في الجلسة الثانية "ارقاماً سريةً للغاية" للروس عن قوة الجيش الفرنسي ووعدته اعضاء الوفد السوفيتي "أن ينسوها" بعد ختام الإجتماع مباشرة. وفي ١٧ آب، ويعد أن انتظر الجنرال دومان والأميرال دراكس التعليمات من حكومتيهما ثلاثة أيام دون جدوى حول صيغة الجواب الذي سيقدم للروس عن مشكلة بولندا، أبرق الأول منهما الى باريس "الإتحاد السوفياتي يريد ميثاقاً عسكرياً... انه لا يريد منّا أن نعطيهِ قصاصة ورقٍ لا تحوي تعهدات ومهمات كبيرة. أكد المارشال فورشيلوف أن كلّ المشاكل... ستتم معالجتها دون صعوبة تذكر حال ما يسوى (المشكل العصيب) كما دعاه" وألح الجنرال (دومان)

٣٧- التوقيت مهم: لم يتسلم مولوتوف إقتراح النازي بسفر ريبنتروب الى موسكو إلا في مساء ١٥ آب ومع انه لم يقبل بشكل صريح إلا أنه لمح بأن روسيا مهتمة بعقد ميثاق عدم إعتداء مع ألمانيا. الأمر الذي يجعل المفاوضات العسكرية لعقد حلف عسكري مع فرنسا وبريطانيا، شيئاً لا قيمة له. وخير نتيجة يمكن للمؤلف أن يتوصل اليها هي أنه في ١٤ آب عندما طلب فورشيلوف "جواباً دقيقاً" لقضية السماح للقوات السوفيتية بالالتحام مع القوات الألمانية في بولندا، مازال الكرملين واضح الفكر عن الجانب الذي سينحاز اليه. ولسوء الحظ لم تنشر الوثائق الروسية التي يمكن أن تبده الغموض في هذا المشكل العسير. وعلى اية حال، فلا يبدو ان ستالين حزم أمره النهائي حتى ١٩ آب كما ذكرنا آنفاً.

على باريس الحاحاً شديداً أن تحمل (وارشو) على قبول المعونة الروسية. وخلافاً للاعتقاد الواسع الانتشار حينذاك لا في موسكو وحدها بل في عواصم الغرب، إن البريطانيين في الحقيقة لم يفعلوا شيئاً لإقناع البولنديين بالموافقة على مواجهة الجيوش السوفيتية للقوات الألمانية على الأرض البولندية، شأنهم في ذلك شأن الفرنسيين. فمن الوثائق التي نشرت مؤخراً اتضح إن لندن وباريس ذهبتا مسافة أبعد - ولكن ليس بالمسافة الكافية في هذا الدرب. وكان واضحاً أيضاً أن البولنديين تصرفوا تصرفاً أخرق فيه من الغباوة ما لا يسع المرء تصديقه^(٣٨). في ١٨ آب بعد أن قام الأنكلو-فرنسيون بمحاولتهم الأولى في وارشو ليفتحوا عيون البولنديين قال وزير الخارجية (بيك) للسفير الفرنسي (ليون نويل Leon Noel) أن "الروس لا قيمة لهم عسكرياً". وأيد وجهة نظره هذه (الجنرال شتاسيقيچ Stachiewicz) رئيس هيئة أركان حرب الجيش البولندي إذ قال انه لا يرى "فائدة ترجى من فعاليات الجيش الأحمر في بولندا". في اليوم التالي قام السفيران البريطاني والفرنسي معاً بزيارة (بيك) وطلبا منه ثانية أن يوافق على الاقتراح السوفيتي. فتلكاً (بيك) إلا أنه وعدهما برّد رسمي في اليوم التالي. وكان الطلب الدبلوماسي الأنكلو فرنسي المتشدد نتيجة لمحادثة سابقة في باريس جرت بتاريخ ١٩ آب بين وزير الخارجية الفرنسي بونيه والقائم بالأعمال البريطاني الذي كان مندهشاً بعض الشيء لرؤية رئيس مهادني هتلر، ثائراً لإحتمال خسران روسيا كحليف بسبب عناد بولندا.

"[قال له بونيه] ستكون كارثة فاجعة لو اخفقت المفاوضات الروسية بسبب الرفض البولندي... وأنه لموقف أخرق من البولنديين لا يمكن الدفاع عنه يقفونه برفضهم المساعدة المباشرة الوحيدة التي يمكن ايصالها اليهم في حالة هجوم ألماني على أراضيهم. إن ذلك سيضع الحكومتين الفرنسية والإنكليزية في مركز حرج تقريباً لو طلبنا من حكومتينا الدخول في الحرب دفاعاً عن بولندا التي تأبى قبول هذه المعونة". إن كان الأمر كذلك وهو مما لا شك فيه - فلم لم تباشر الحكومتان الفرنسية والإنكليزية في هذه اللحظة العصبية بالضغط تحت التهديد على (وارشو) ما لم توافق الحكومة البولندية على قبول المساعدة الروسية فإن بريطانيا وفرنسا لاتجدان فائدة من دخول الحرب لمعاونة بولندا. لم توقع معاهدة الضمانة المتبادلة بين بريطانيا وبولندا بصورة رسمية بعد أفلا يمكن ان تجعل قبول بولندا بالمعونة العسكرية الروسية - شرطاً لإبرام المعاهدة؟^(٣٩) اقترح (بونيه) هذه الفكرة على القائم بالأعمال

٣٨- ان وثائق (و.س.ب.خ) ج٧. مبهمة من ناحية عدم نشرها سطوراً واحداً عن المجهودات الأنكلو-فرنسية الدبلوماسية التي بذلت في وارشو لحمل البولنديين على قبول المعونة الروسية أو مجرى المباحثات العسكرية في موسكو. ولم تنشر حتى في كتاب بريطانيا الازرق وكتاب فرنسا الاصفر.

٣٩- في ٣ نيسان بعد اعلان جمبرلين ضمانه الجانب الواحد لبولندا بأربعة أيام خطب (لويد جورج) في مجلس العموم ملحاً على الحكومة البريطانية ان تضع مثل هذا الشرط "إن دخلناها دون مساعدة روسيا فكأننا ندخل في فخ". فروسيا هي الدولة الوحيدة التي يمكن ان تصل جيوشها اليها [الى بولندا] ، ولست ادري لماذا لا نضمن تحالفاً مع روسيا قبل أن نورط انفسنا في هذه التبعة الهائلة... إن لم تجذب روسيا الى الموضوع بسبب مشاعر معينة عند البولنديين ككرههم بالروس ولأنها لاتريدهم هناك فمن حقنا نحن ان نضع الشروط. وإن لم يكن البولنديون مستعدين لقبول الشروط الوحيدة التي تمكننا من معاونتهم فالمسؤولية تقع عليهم".

البريطاني خلال حديثهما في ١٩ آب. إلا أن الحكومة البريطانية تنكرت لمثل هذه "المنافرة" كما دعاها (دواننگ ستريت)، فجمبرلين وهاليفاكس لا يصلان إلى مثل هذا التطرف.

وفي صبيحة العشرين من آب. أبلغ رئيس هيئة الأركان البولندي الملحق العسكري البريطاني في (وارشو) بأنه "لا يسمح بدخول القوات السوفيتية إلى بولندا مهما كانت الظروف" وفي مساء ذلك اليوم رفض بيك رسمياً الطلب الأنكلو-فرنسي. وفي الليلة نفسها ألح هاليفاكس عن طريق سفيره في (وارشو) على وزير الخارجية البولندي أن يعيد النظر في قراره مؤكداً بلهجة قوية إن موقف بولندا "يحطم" المحادثات العسكرية "لا أقرّ أبداً بإمكان فتح باب أي حديث حول السماح لقوات أجنبية باستخدام أي جزء من أراضيها. ليس بيننا وبين الإتحاد السوفياتي معاهدة عسكرية، ونحن لانريد أي معاهدة معها". وانتاب اليأس الرئيس (دالاديه) من هذا العناد الأعشى الذي أبدته الحكومة البولندية، وكما أوضح للجمعية الوطنية التأسيسية في ١٨ تموز ١٩٤٦، اضطّر إلى تولي الأمر بنفسه. فبعد أن ناشد البولنديين أن يكونوا واقعيين أبرق للجنرال (دومان) في صبيحة الحادي والعشرين من آب وخوّل التوقيع على ميثاق عسكري مع روسيا بخير ما يمكن نيّله من الشروط مقيداً مصادقة الحكومة الفرنسية عليه طبعاً. وفي الوقت نفسه أعلم (بونيه) (بول إميل ناغيار Paul-Emil Naggiar) سفيره في موسكو بأن يعلن لمولوتوف عن موافقة فرنسا "من حيث المبدأ" على مرور القوات السوفيتية في أراضي بولندا إن هاجمها الألمان. إلا إن ذلك كان مبادرة لافائدة منها مادام البولنديون لا يوافقون- وكانت كما يتنا نعرف الآن، مبادرة حاسمة نظراً إلى حالة المداولات الروسية الألمانية. ولم تصل الجنرال (دومان) برقية دالاديه إلا في ساعة متأخرة من مساء ٢١ آب. وعندما عرضها مساء اليوم التالي على فورشيلوف (وقتما كان ريبنتروب يتهيأ للسفر إلى موسكو) وجد المارشال السوفيتي شديد الريبة. وطلب من الجنرال الفرنسي اطلاعه على التفويض الذي يخوله -كما قال- التوقيع على معاهدة يسمح منها بمرور القوات الروسية عبر بولندا. فعجز (دومان) بالطبع ثم أراد (فورشيلوف) أن يعرف الجواب البريطاني وهل تم الحصول على موافقة بولندا. وكانت أسئلة محرّجة لم يجب عنها (دومان) بأكثر من أنه لا يملك أية معلومات حولها.

لكن لم يعد بعد قيمة لا لأسئلة ولا لأجوبة في هذه الفترة من الزمن. فقد بات طرحها متأخراً جداً لأن ريبنتروب في طريقه إلى موسكو والرحلة أعلن عنها أمس كما أصبح غرضها معلوماً: إبرام ميثاق عدم اعتداء بين ألمانيا النازية والإتحاد السوفياتي وحاول فورشيلوف الذي مال كما يبدو إلى الجنرال دومان وخصه بودة، أن يفهمه بأن صلتهم بلغت نهايتها: [قال فورشيلوف] إني أخشى أمراً واحداً وهو أن الطرفين الفرنسي والإنكليزي قد مدّا في المباحثات العسكرية والسياسية وقتاً طويلاً، ولهذا فلا تستبعد احتمال وقوع أحداث سياسية معينة خلال هذه الفترة التي امتدت إليها مباحثاتنا^(٤٠).

٤٠- في جلسة للوفد العسكري بتاريخ ٢١ آب صباحاً. طلب فورشيلوف تأجيل الاجتماع إلى زمن غير محدد بسبب إنشغاله وإنشغال زملائه بمناورات الخريف. وعندما اثّرت الاحتجاجات من جانب الوفدين الإنكليزي والفرنسي على هذا التأخير قال المارشال: "ان نوايا الوفد السوفيتي، كانت وما زالت الإتفاق على نظام تعاون عسكري للقوات المسلحة التابعة للدول الثلاث... ولما لم يكن للإتحاد السوفياتي حدود مباشرة مع ألمانيا، فالطريقة الوحيدة التي =

ريبنتروب في موسكو (٢٣ آب ١٩٣٩)

تلك "الأحداث السياسية المعينة" وقعت آنذاك.

انطلق ريبنتروب في ٢٢ آب على متن طائرة الى موسكو مسلحاً بتفويض كتابي مطلق من هتلر يخوله حق إبرام ميثاق عدم إعتداء "وغير ذلك من الإتفاقات" مع الإتحاد السوفياتي، تصبح نافذة المفعول حال التوقيع عليها. وقضى الوفد الألماني الكبير العدد الليلة في (كوينكسبرگ) من اعمال بروسيا الشرقية. حيث ظلّ وزير الخارجية النازي -على ماروي الدكتور شميدت- منشغلاً طول الليل بالمكالمات التلفونية مع برلين وبرخستسگادن. مدوّناً ملحوظات غزيرة لمحادثاته مع ستالين ومولوتوف. ووصلت طائرتا النقل الكبيرتان من نوع كوندور condor تحملان الوفد الألماني، الى موسكو ظهر الثالث والعشرين وبعد وجبة طعام مستعجلة في السفارة خفّ ريبنتروب الى الكرملين مسرعاً لمقابلة الدكتاتور الروسي ومفوض خارجيته. وامتد هذا الإجتماع ثلاث ساعات بنتائج جيدة، كما وصفها ريبنتروب لهتلر ببرقية "مستعجلة للغاية"^(٤١).

وإن أسندنا حكمنا على تقرير وزير الخارجية، فلم يكن ثمّ أي عقبة تحول دون التوصل الى إتفاق حول شروط ميثاق عدم الإعتداء الذي سيخرج الإتحاد السوفياتي من دائرة حروب هتلر. والواقع إن الصعوبة الوحيدة التي واجهت الطرفين -كما جاء في التقرير- هي عقبة صغيرة جداً حول توزيع الأسلاب. قال ان الروس طلبوا إعتراف ألمانيا بأن المينائين الصغيرين ليباو Libau وثينداو windau في لاتفيا "من ضمن مجال نفوذهم" ولما كانت لاتفيا، ستجعل في الجانب الروسي للخط الذي يفصل بين مصالح الدولتين، فلم يكن هذا الطلب مشكلة واسرع هتلر بالموافقة. كذلك أبلغه بعد الإجتماع الأول أن "التوقيع على بروتوكول لإعادة تحديد مجالي النفوذ والمصالح لكلّ الأصقاع الشرقية قد جرى البحث بشأنه".

وقّع كل الإتفاقيات (معاهدة عدم الإعتداء والبروتوكول الخاص) في جلسة ثانية بالكرملين في ساعة متأخرة من المساء وتوصل الألمان والروس الى الإتفاق بغاية من اليسر والسهولة حتى أن هذه

= يمكنها بها مساعدة فرنسا وبريطانيا وبولندا ورومانيا هي أن يسمح لقواته بحق المرور عبر الأراضي البولندية والرومانية... ولا يمكن للوفد العسكري السوفياتي أن يصرّ لنفسه كيف أرسلت الحكومتان البريطانية والفرنسية مع هيتلي أركانهما وقديهما العسكريين الى الإتحاد السوفياتي... دون ان تزودهما ببعض التوجيهات في هذا الأمر الواضح الأولي... وهذا ما يبرّر لنا الشكّ في أن انهما ليستا راغبين في التوصل الى تعاون جديّ مثمر مع الإتحاد السوفياتي. ان منطق المارشال العسكري صائب. وان فشل الفرنسيين ولاسيما البريطانيين في اعطاء جواب كان سبب الكارثة. إلا أن (فورشيلوف) لم يكن آنذاك جاهلاً بقرار ستالين في ١٩ آب، على اغلب الظن، ولذلك فإن كلامه -وبعد اخذنا بنظر الاعتبار التصريحات الأخرى- في يومنا هذا لا يمكن اعتباره خالص النية.

٤١- رسالة ريبنتروب الساعة ٩.٠٥ مساءً (٢٣ آب) من موسكو [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية: ج ٧ ص ٢٢].

الجلسة البهيجة التي دامت إلى ساعات الصباح الأولى انقضى معظمها لا في المساومة الشاقة المتعبة بل في الحديث الودّي اللطيف في الاوضاع العالمية بلداً بلداً. وبالأنخاب الدهاق المألوفة التي لا مفرّ منها في حفلات الكرملين وإجتماعاته. وقد سجلت المشهد العجيب يد أحد الموفدين الألمان في تقرير سرّي^(٤٢).

سأل ستالين عدة اسئلة عما تطمح إليه إيطاليا واليابان شريكنا ألمانيا. فأجابه ريبنتروب اجوبة لطيفة مطمئنة. اما عن إنكلترا فقد وجد الدكتاتور السوفيتي ووزير الخارجية النازي الذي كان الآن في أطف حالاته النفسية- آراءهما متفقة وأسّر ستالين لضيفه أن الوفد العسكري الإنكليزي في موسكو "لم يخبر الحكومة السوفيتية منذ مجيئه ماذا يريد فعلاً. وردّ ريبنتروب مؤكداً أن بريطانيا كانت تحاول دائماً إفساد علاقات الودّ بين ألمانيا والإتحاد السوفياتي. وفخر بقوله... إنكلترا ضعيفة وهي تريد من الآخرين أن يحاربوا في سبيل دعواها الفارغة للسيطرة على العالم". ويقول المحضر الألماني السريّ ان "ستالين وافقه بكلّ حماسة على قوله، وأردف: "إن سيطرت بريطانيا على العالم، فسيكون سببه غباوة البلاد الأخرى التي تسمح لنفسها أن تخدع ويغرّر بها دائماً". في هذه المرحلة بلغ الزعيم السوفيتي ووزير خارجية هتلر درجة من الإنسجام والودّ، بحيث ما عاد ذكر "ميثاق مكافحة الكومنترن" يخرج أحداً منها أو يخجله. وعاد ريبنتروب يشرح ثانية أن الميثاق في الحقيقة كان موجهاً ضد الديمقراطية الغربية لا ضد الإتحاد السوفياتي وقاطعه (ستالين) ليقول "ان ميثاق مكافحة الكومنترن، أفضع في الواقع مدينة لندن بالدرجة الأولى [رجال المال البريطانيين] واصحاب الحوانيت الإنكليز".

في هذه المرحلة يكشف المحضر السريّ الألماني أنّ ريبنتروب شعر بالخفة والمرح للمجاملات التي أغدقها عليه (ستالين) حتى أنه حاول إلقاء نكتة أو إثنين- وهي ماثرة عظيمة لرجل ثقیل الروح جافي الطبع.

"[واصل المحضر القول] قال وزير الخارجية الألماني على سبيل الدعابة: من المؤكد ان السيّد ستالين كان أقلّ خوفاً من مدينة لندن واصحاب الحوانيت الإنكليز بسبب (مكافحة الكومنترن). وما كان يفكر فيه الألمان عن هذا الأمر واضح من نكتة أصلها من مبتدعات البرلينيّين المعروفين بخفة الروح وسرعة الخاطر وهي أن ستالين نفسه سينضم الى ميثاق مكافحة الكومنترن".

أخيراً راح وزير الخارجية النازية يصف الحرارة التي رجب بها الألمان بالتفاهم مع روسيا "فأجاب السيّد ستالين: إنه مقتنع بهذا حقاً. وان الألمان يرغبون في السلم" وتحدّثت الأمور عندما وصلت عند الأنخاب واقترح ستالين من تلقاء نفسه شرب نخب في صحّة (الزعيم) قائلاً "إنني اعرف معرفة جيدة كم يحب الشعب الألماني زعيمه. ولذلك أرغب في أن اشرب نخب صحته".

٤٢- المحضر السري الألماني ٢٤ آب. المرجع السالف الص ٢٢٥-٢٢٩.

وشرب مولوتوف نخب صحة وزير خارجية الرايخ... وشرب مولوتوف وستالين معاً نخب ميثاق عدم الإعتداء مرات عديدة ونخب العهد الجديد الذي دخلته العلاقات الروسية الألمانية، ونخب الشعب الألماني. واقترح وزير خارجية الرايخ بدوره نخباً في صحة السيد ستالين، وأنخاباً للحكومة السوفيتية وللتطور الطيب في العلاقات بين ألمانيا والإتحاد السوفيتي.

مع كل تبادل العواطف الحار بين هؤلاء الذين كانوا قبل ساعات من ألد الأعداء واشد الخصوم بعضاً لبعض. ظل ستالين متوجساً يساور ذهنه شك عميق في صدق الألمان ومحافظتهم على نصوص الميثاق. ولذلك فقبيل إنصراف ريبنتروب إنتحى به جانباً وقال له: "إن الحكومة السوفيتية تنظر الى الميثاق نظرة جدية للغاية وأنه ضامن بكلمة شرف منه أن الإتحاد السوفياتي لن يخون شريكه".

إن المعاهدة المعلنة. تتضمن تعهداً متقابلاً بالألا تهاجم أي من الدولتين الأخرى. وإذا باتت واحدة منهما "هدف عمل عدواني" صادر من دولة ثالثة فإن الجانب الآخر لا يقدم لهذه الدولة الثالثة أي عونٍ باي صورة كانت. "وليس لألمانيا أو الإتحاد السوفياتي أن ينضما الى تكتلات دولية مهما كانت صفتها، إن كانت موجهة بصورة مباشرة أو غير مباشرة الى الطرف المتعاقد الثاني^(٤٣)".

وهكذا نال هتلر كان مايريد بالذات: إتفاق فوري مع الإتحاد السوفياتي على أن لاينضم الى فرنسا وبريطانيا إن أوفيتا بشروط معاهدتهما وقامتا بمد يد العون الى بولندا في حالة الهجوم عليها^(٤٤).

أما الثمن الذي دفعه فهو مسطر في "البروتوكول السري الملحق" بالمعاهدة:

"عندما تم التوقيع على معاهدة عدم الإعتداء بين الإتحاد السوفياتي وألمانيا. بحث المندوبان المفوضان المطلقا للصلاحيات الموقعان أدناه، بكل السرية والكتمان المتطلبين، مسألة تحديد مجالي نفوذهما ومصالحهما في شرق أوروبا:

(١) في حالة حصول أي تغيير إقليمي وسياسي في الأراضي التي تخص دول البلطيق (فنلندا واستونيا ولااتفيا وليتوانيا) فإن حدود ليتوانيا الشمالية ستمثل الحد الفاصل بين مجالي المصالح لكل من ألمانيا والإتحاد السوفياتي.

(٢) في حالة حصول أي تغيير إقليمي وسياسي في الأراضي الداخلة الآن ضمن حدود دولة بولندا

٤٣- إن الصيغة التي وقع بها الميثاق تكاد تكون متطابقة مع المسودة التي كتبها السوفيت وسلمها مولوتوف الى شولونبرك لاسيما في المواد الرئيسية. أوضحت المسودة السوفيتية ان ميثاق عدم الإعتداء لن يكون ساري المفعول إلا إذا وقع معه "البروتوكول الخاص" وجعل جزء لا يتجزأ من المعاهدة (نص المسودة السوفيتية في الوثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ الص ١٥٠-١٥١) وبحسب رواية (فردريك غاوس) الذي ساهم في إجتماعات الليل. كان ريبنتروب يريد أن يضع تمهيداً طنائاً للمعاهدة وديباجة يؤكد فيها اواصر الصداقة الألمانية-السوفيتية، إلا أنها حذفت باصرار من ستالين وكان ستالين يتعلل بأن الحكومة السوفيتية لايسعها أن تقدم للجمهور فجأة تأكيدات على الصداقة بعد أن اغرقوا بيسبول من تهجمات الحكومة النازية خلال ست سنوات (إفادة غاوس في نورمبرك - محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج ١٠ ص ٣١٢).

٤٤- البند السابع من المعاهدة يقرر نفاذها ساعة التوقيع عليها. إن المصادقة الرسمية في دولتين لا تتبعان الخطوات الديمقراطية المألوفة في الغرب انما هو امر شكلي. الا انها تتطلب أياماً قلائل. وقد أصر هتلر على هذه الصيغة.

فإن مجال المصالح لكل من ألمانيا والإتحاد السوفيياتي سيكون محدداً تقريباً بخطّ الأنهار ناريفش وفستولا وسان san.

أماً بخصوص مصلحة الطرفين في الإبقاء على دولة بولندية مستقلة وكيف سيتمّ تحديد تخوم هذه الدولة، فلا يمكن تقرير ذلك بصورة واضحة إلا على ضوء التطورات السياسية المقبلة. ومهما يكن من أمر فإن الحكومتين ستقومان بحلّ هذه المشكلة بطرق التفاهم الودي. للمرة الثانية اتفقت ألمانيا وروسيا، كما اتفقتا أيام ملوك الألمان وأباطرة الروس على اقتسام بولندا. واعطى هتلر ستالين يداً حرة في شرقي البلطيق.

أخيراً أوضح الروس (بخصوص جنوب شرق أوروبا) اهتمامهم بمقاطعة بسارابيا Bessarabia التي خسرتها روسيا وتنازلت عنها لرومانيا في ١٩١٩ فأعلن الألمان عدم إهتمامهم بهذه المقاطعة - وكان تنازلاً ندم عليه ريبنتروب فيما بعد.

وختمت الوثيقة بعبارة "يعتبر هذا البروتوكول من قبل الطرفين سرّاً للغاية. وتكتّم محتوياته" (٤٥). والحق يقال. لم تعرف محتوياته إلا بعد نهاية الحرب عند الإستيلاء على وثائق الألمان السرية. في اليوم التالي (٢٤ آب) وبينما كان ريبنتروب طائراً في طريق العودة الى برلين والدنيا تكاد لاتسعه غبطة. طلبت البعثة العسكرية الحليفة في موسكو مقابلة (فورشيلوف). وبالفعل أرسل الأميرال (دراكس) رسالة مستعجلة للمريشال يرجو تبين رأيه في استمرار المباحثات، وبين فورشيلوف رأيّه للعسكريين الأنكلو-فرنسين في الساعة ١ ب. ظ ٢٥ آب. قال "نظراً الى التغيير الذي طرأ على الوضع السياسي، لم يعد استمرار المباحثات يخدم أي غرض مفيد".

بعد أن مرّ عامان وفي أثناء ما كانت الجيوش الألمانية تتوغل في روسيا ضاربة بالميثاق عرض الحائط وجدنا ستالين يبرز إتفاقه الكريه مع هتلر الذي عقد من وراء ظهر الوفد العسكري الإنكليزي-الفرنسي المفاوض في موسكو، في إذاعة له على الشعب السوفييتي بتاريخ ٣ تموز ١٩٤١. قال مفاخراً "لقد ضمنا السلم لبلادنا سنة ونصف سنة فضلاً عن الفرصة التي اتاحتها لنا هذه المدة لتهيئة قواتنا للدفاع إن غامرت ألمانيا الفاشية بالهجوم على بلادنا خارقة الميثاق. إن هذا كسب مادّي واضح لبلادنا وخسارة لألمانيا الفاشية".

أكان ذلك كسباً؟ إن المسألة ظلت ميداناً للنقاش منذ ذلك الحين. الحق يقال إن هذه الصفقة السرية المقيتة، منحت ستالين مجال التنفّس peredjshka الذي ضمنه القيصر الاسكندر الأول من نابوليون في معاهدة (تلسيت Tilsit) ١٨٠٧، والذي غنمه (لينين) من الألمان في (برست ليتوفسك) في ١٩١٧. بمنحها الإتحاد السوفيياتي بعد فترة قصيرة من الزمن مواضع دفاعية متقدمة في وجه ألمانيا ماوراء

٤٥- إن نص ميثاق عدم الاعتداء الروسي الألماني والبروتوكول الملحق السري الموقعين في موسكو بتاريخ ٢٣ آب ١٩٣٩ موجودان في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ الص ٢٤٥-٢٤٧].

الحدود الروسية الدولية ومعها قواعد عسكرية في دول البلطيق وفنلندا -على حساب البولنديين واللاتفيين والستونيين والفنلنديين وأهم من هذا كله- ضمن الكرملين لنفسه في حالة هجوم الألمان على روسيا أنه لن يكون وحده في الميدان، وأن تخوض الدول الغربية الحرب قبلها. ولن يبقى الإتحاد السوفياتي وحده أمام قوات الرايخ الثالث كما كان ستالين يخشى طوال صيف ١٩٣٩. وهذا ما أوضحه الكتاب الرسمي السوفيتي "تاريخ الدبلوماسية".

كل هذا لاشك صحيح منطقياً، ولكن ثم جانباً آخر من المسألة. ففي الوقت الذي اطلق هتلر آلة حربه على روسيا كانت جيوش بولندا وفرنسا والحملة البريطانية الى القارة قد تحطمت تماماً وباتت ألمانيا تضع يدها على كل موارد أوروبا وتستمد منها كل حاجاتها، ولم يعد هناك جبهة غربية تعرقل امورها وتشغلها. وكان على ستالين أن يشكو ويتظلم بمرارة من عدم وجود جبهة غربية في أوروبا ضد ألمانيا طوال الأعوام ١٩٤١ و١٩٤٢ و١٩٤٣، ومن تحمل روسيا ثقل الحرب التي يفرضها زخم كل الجيش الألماني تقريباً. في فترة ١٩٣٩-١٩٤٠ كان ثم جبهة غربية تشغل القوات الألمانية، ولم يكن بالإمكان القضاء على بولندا في أسبوعين لو ساندتها السوفيت بدلاً من طعنها في الظهر. وفضلاً عن ذلك فرما لم تنشب أي حرب، عندما يعلم هتلر أن عليه مهاجمة روسيا مع بولندا وفرنسا وإنجلترا مجتمعة. ولو أمكن المرء أن يحكم من افادات الجنرالات المترددتين- التي ادلوا بها في نورمبرك فيما بعد فحتى هؤلاء كانوا سيصرّون على الاحجام عن شنّ حرب ضد هذا الحلف الضخم. وروى السفير الفرنسي في برلين أن كلاً من كايتل وبراوختش حذرا هتلر في أواخر أيار ١٩٣٩ من حظ ألمانيا القليل في ربح حرب تساهم فيها روسيا الى جانب العدو.

لا يستطيع أي سياسي حتى الدكتاتور، أن يتكهّن بمجرى الحوادث في الزمن البعيد. وفي رأي چرچل إن العملية القاسية الباردة الدّم التي أقدم عليها ستالين بعقد صفقة مع هتلر، وإن كانت تتحمل وجوه رأي مختلفة، إلا انها في وقتها وظروفها "خطوة واقعية، بل على أعلى درجة من الواقعية"^(٤٦). كان اعتبار ستالين الأول والرئيس، هو المحافظة على بلاده، وهو هدف كل رئيس دولة حريص. وفي صيف ١٩٣٩ كان ستالين موقناً -كما روى لچرچل فيما بعد- أن هتلر ينوي الخروج الى الحرب، فعزم ألا تورط بلاده روسيا في الموقف السيء، موقف مواجهة الجيش الألماني وحيداً. فإن تعذر عليه عقد حلف مخلص النية مع الغرب فلماذا لا يميل الى هتلر الذي راح فجأة يطرق بابه؟

في نهاية تموز ١٩٣٩ أصبح (ستالين) موقناً أن فرنسا وبريطانيا لا تريدان حلفاً محكماً حقيقياً، كما وثق بأن هدف حكومة چمبرلين في لندن هو إقناع هتلر بإدارة ماكينة حربه الى شرق أوروبا... وكان يبدو شديد الريبة في أن تقوم بريطانيا بايفاء تعهداتها لبولندا كفرنسا حليفاتها هي الأخرى في قضية چيكوسلوفاكيا. وان كل ما حدث في الغرب خلال العامين الماضيين عزّز وجهة نظره وزاد من شكه: رفض چمبرلين مقترحات السوفيت بعد ضمّ النمسا وبعد احتلال النازي چيكوسلوفاكيا بعقد مؤتمر

٤٦- چرچل "تجمع العاصفة" ص ٣٩٤.



التوقيع على الميثاق

النازي السوفيتي

٢٣ آب ١٩٣٩

(مولوتوف جالساً. ووراءه

ستالين عن اليمين

وريبنتروب عن اليسار)

يضع خطأً لوقف عدوان نازي آخر. وتلاها مسكنات چمبرلين لهتلر في (مونيخ) الذي أستبعدت منه روسيا. وأخيراً التردد والتطويل والتلكؤ الذي اتسمت به مفاوضات چمبرلين لإقامة حلفٍ دفاعيٍّ ضدَّ ألمانيا في أيام صيف ١٩٣٩ المتصرمة عبثاً.

هناك أمر واحد مؤكد - مؤكد لدى كل شخصٍ بإستثناء چمبرلين ألا وهو ان إفلاس السياسة الإنكليزية-الفرنسية، التي كانت تتعثر ويدب فيها الاضطراب والتناقض كلما قام هتلر بعملية، أصبح الآن تاماً. راحت ديمقراطيات الغرب تتراجع خطوة خطوة. تحداها هتلر باعلان التجنيد الاجباري في ١٩٣٥، ثم تحداها عندما احتل الراين في ١٩٣٦، ثم تحداها حين استولى على النمسا في ١٩٣٨. وفي العام نفسه طالب بأراضي السوديت وغنمها. وجلست الدولتان ترتعشان ضعفاً عندما إحتل البقية الباقية من چيكوسلوفاكيا في ١٩٣٩^(٤٧) وكانتا قادرتين على كبح جماح هتلر وردّه عن مغامرته الحربية عندما كانت روسيا الى جانبهما، فإن اخفقتا فمجرد وجودها معهما كفيل بتحقيق النصر عليه في ميدان المعركة بسرعة. إلاّ انهما تركتا هذه الفرصة الأخيرة تفلت من ايديهما^(٤٨).

٤٧- كذلك ينطبق الامر على الدبلوماسية البولندية. وصف السفير (نوئيل) ردّ فعل ميثاق عدم الإعتداء الروسي الألماني في (بيك)، بتقرير له الى باريس "لم يبد على بيك أي قلق، ولم يكثر بالامر إطلاقاً وهو يعتقد أن الأمور لم تتغير كثيراً في الجوهر!".

٤٨- رغم كثير من التحذيرات من قيام هتلر بمغازلة الكرملين كما رأينا. كتب في (١) حزيران سفير فرنسا (كولوندر) الى وزير خارجيته (بونيه) أن روسيا تحتل مخيلة هتلر أكثر فأكثر وقال "إن هتلر سيغامر بحرب إن لم يضطر الى حرب روسيا. كما انه إذا أدرك أن لا مفر من منازلتها فسسينكفيء على اعقابه مفضلاً ألا يعرض بلاده وحزبه وشخصه للدمار" وألح السفير بوجوب انهاء المفاوضات الأنكلو-فرنسية حالاً بالإتفاق وأشار الى ان السفير البريطاني في برلين نصح حكومته في لندن بإتخاذ هذه الخطوة (الكتاب الفرنسي الأصفر: الطبعة الفرنسية الص ١٨٠-١٨١). وفي ١٥ آب قابل فايسبيكر كل من (هندرسن وكولوندر) وأبلغ السفير مرجعه ان فايسبيكر واثق ان الإتحاد السوفياتي "سينضم في الأخير الى المساهمين في الأسلاب البولندية" (الكتاب الازرق البريطاني ص ٩١) وابق كولوندر بعد الزيارة: "من الضروري الوصول الى حلّ ما في المحادثات الروسية باي ثمن كان وبأسرع ما يمكن =

والآن تجدان نفسيهما في أسوأ زمنٍ ممكنٍ لأسوأ ظروفٍ ممكنة. اذ وجب عليهما أن تسديا العون الى بولندا عند مهاجمتها.

كان الهجوم في لندن وباريس على سياسة الوجهين الستالينية قد وصل الى اقصى ما يمكن من التهاتر والحدة. من ذلك: ظلّ الزعيم السوفييتي سنواتٍ وهو يندد "بالبرابرة الفاشيست" ويناشد كل الدول المحبة للسلام ان تتحد معاً في سبيل ايقاف العدوان النازي وها هو الآن يجعل من نفسه شريكاً لهم. وكان يسهل على الكرملين دحض هذه الإدعاءات- بأن الإتحاد السوفياتي لم يفعل أكثر مما فعلت فرنسا وإنجلترا قبل سنة واحدة في (مونيخ): حيث أنها إشتريت سلباً ووقتاً للتسلح ضدّ ألمانيا على حساب دولة صغيرة. إن كانت حكومة چمبرلين مصيبة وشريفة في ترضية هتلر في أيلول ١٩٣٨ بتضحيتها چيكوسلوفاكيا.



لتفانوف

فهل كانت حكومة ستالين مخطئة وغير شريفة في ترضية (الزعيم) بعد مونيخ بسنةٍ على حساب بولندا؟ تلك الدولة التي رفضت قبول مساعدة السوفيت رفضاً قاطعاً على كل حال؟

لم يعرف شيء خارج موسكو وبرلين عن صفقة هتلر السريّة المرة المذاق لاقتسام بولندا وإطلاق يد روسيا حرة في الإستيلاء على لاتفيا واستونيا وفنلندا وبسارابيا. إلا أنها مالبت أن انكشفت من الإجراءات السوفيتية التالية كانت ستصدم معظم العالم حتى في هذا التاريخ البعيد عن أيامها. قد يتعلل الروس ولطالما تعلّلوا، بأنهم لا يقومون إلا بإعادة ضمّ الأقاليم التي انتزعت منهم عنوةً في نهاية الحرب العامة الأولى. إلا أن شعوب هذه البلاد ليست روسيّة ولم تظهر رغبة في العودة الى

= (الكتاب الاصفر الفرنسي ص ٢٨٢). وأرسل لورنس شتاينهاردت السفير الأمريكي في موسكو خلال شهري حزيران وتموز تحذيرات مماثلة عن قرب إتفاق نازي-سوفييتي، فأحالها روزفلت الى السفارات الفرنسية والبريطانية والبولندية. في الخامس من تموز غادر السفير السوفييتي (قسطنطين أومانسكي) أمريكا في اجازة حاملاً معه رسالة شخصية من روزفلت الى ستالين يقول فيها لو أن حكومته إلتحقت بركب هتلر، فهو متأكد مثلما يعرف أن الليل يحوه النهار- ان الدائرة ستدور على روسيا حالما يفرغ من فتح فرنسا "جوزف ديفيز: بعثة الى موسكو ص ٤٥٠). أبرق تحذير روزفلت الى السفير شتاينهاردت مع تعليمات تقضي بمقابلة مولوتوف. ففعل ذلك في ١٦ آب (أوراق الولايات المتحدة الدبلوماسية ج ١٩٣٩ الص ٢٩٦-٢٩٩).

روسيا. إن القوة وحدها التي حاذر السوفييت من إستخدامها أيامَ عزِّ ليتفينوف، هي التي تجعلهم يعودون إليها.

منذ أن انضم الإتحاد السوفييتي الى عصبة الأمم، وهو يبني قوة أدبية وإخلاقيّة جعلته بطل السّلام والخصم الطليعي للعدوان الغاشي. والآن نجد هذا الرأسمال الأدبي قد زال تماماً. وفوق هذا كلّهُ ففي الإتفاق المشبوه الذي عمله ستالين مع ألمانيا النازية أعطى إشارة الانطلاق لحرب كانت ستتطور الى صراع عالميٍّ محتوم. وهذا ما كان يعرفه جيداً^(٤٩) وكما برهنت الأحداث كانت هذه أعظم كبوة في حياته.

٤٩- كتب هتلر قبل سنين متكهناً في (كفاحي): "إن عقد تحالف مع روسيا يتضمن بحدّ ذاته خطة لحرب ثانية. واندلاعها يعني نهاية ألمانيا" (انظر ص ٦٦٠ من طبعة هاوتن مغلين سنة ١٩٤٣).

الفصل الثامن

آخر أيام السلام

- ١ -

لم تبق الحكومة البريطانية مكتوفة اليدين منتظرة الإبرام الرسمي للميثاق الروسي-الألماني في موسكو. إن إعلان إذاعة برلين في مساء ٢١ آب عن طيران ريبنتروب الى موسكو لإبرام إتفاقٍ روسي ألماني أشاع النشاط في الحكومة البريطانية. فاجتمعت في الساعة ٣ عصر يوم ٢١ آب وأصدرت بياناً أعلنت فيه بلهجة جازمة أن ميثاق عدم الاعتداء النازي-السوفيتي "لن يؤثر بأي حال من الأحوال على تعهداتها لبولندا التي ردّتها دائماً على الصعيد العام، وهي عازمة على الايفاء بها" وفي الوقت نفسه دعي مجلس البرلمان الى الاجتماع في ٢٤ آب لقرار قانون السلطات الاستثنائية (قانون الدفاع) واتخذ بعض الإجراءات التعبوية الاحتياطية.

ومع أن بيان الوزارة كان أوضح ما يمكن أن تتضمنه العبارة، فقد رغب چمبرلين أن يبدد أي شك عند هتلر في الأمر فعمد حال إنتهاء الاجتماع الوزاري الى كتابة رسالة لهتلر:

"... يظهر أن إعلان الميثاق الألماني السوفيتي قد أتخذ في بعض أوساط برلين دليلاً على أن تدخل بريطانيا العظمى الى جانب بولندا لم يعد من الإحتمالات التي يمكن أن تتحقق. ليس ثم خطأ أكبر من هذا. ومهما سيكون من تأثير الميثاق السوفيتي الألماني أو طابعه، فلن يغير من موقف بريطانيا العظمى إزاء بولندا، أو من واجبها نحوها... ولقد زعموا... لو كانت حكومة جلالته قد جعلت موقفها أكثر وضوحاً في ١٩١٤، لأمكن تفادي الكارثة العظمى. سواء في الأمر أكان هذا الزعم صائباً أو باطلاً فإن حكومة جلالته قد صمّمت في هذه المناسبة ألا يكون سوء فهم أليم كهذا.

إن استدعت الحاجة، فالحكومة مصممة ومستعدة دون أي تأخير لإستخدام كلّ القوى التي تملكها، ومن المستحيل التكهّن بنهاية للحرب ما أن تبدأ^(١)..."

عاد رئيس الوزراء يناشد هتلر باللجوء الى الحلّ السلمي لكلّ خلافاته مع بولندا وعرض مرة أخرى تعاون الحكومة البريطاني للوصول اليه "يعد أن أوضحنا موقفنا إيضاحاً تاماً" وكما ورد في رسالته.

وطار السفير هندرسن بالرسالة من برلين، وسلمها الى هتلر في ٢٣ آب بعد الساعة ١ ب.ظ بقليل في برختسگادن (٢٣ آب). فاثارت عاصفة شديدة من الغضب في الدكتاتور الألماني. وابرق هندرسن

١- الكتاب الازرق البريطاني الص ٩٦-٩٨.

للورد هاليفاكس: "هاج هائج هتلر ولم يعد التفاهم معه ممكناً وكانت لغته عنيفة جداً بالنسبة الى بريطانيا وپولندا"^(٢). ويتفق على حالة هتلر وهجائه المقذع كل من تقرير هندرسن عن الاجتماع، ومحضر وزارة الخارجية الألمانية به (وهو من الأوراق النازية المستولى عليها). وراح يصرخ أن إنكلترا مسؤولة عن عناد پولندا كما كانت مسؤولة عن مسلك چيكوسلوفاكيا اللامعقول (المتهور) قبل عام. عشرات الالوف من ابناء الشعب الألماني Volksdeutsche في پولندا يضطهدون. وأدعى أنه جرى ستّ عمليات إخصاء على الألمان وهو أمر أشغل منه البال. انه لن يحتمل أكثر من هذا، وسيؤدي أي اضطهاد پولندي آخر للألمان إلى حركة فورية. "[أبرق هندرسن لهاليفاكس] طعنت بصحة كل نقطة أوردها وظللت اردد أن بياناته غير صحيحة الا أن الأثر الوحيد كان انطلاقه في هذيان آخر جديد".

أخيراً وافق هتلر على كتابة ردٍ لرسالة رئيس الوزراء خلال ساعتين من الزمن. وآب هندرسن الى سالزبرگ ليصيب بعض راحة^(٣) وفي ساعة متأخرة من العصر أرسل هتلر بطلبه وسلّمه جوابه. ولاحظ هندرسن في تقريره الى لندن أن (الزعيم) خلافاً للمقابلة الأولى "كان هادئاً ولم يرفع صوته". "[كتب هندرسن] قال هتلر أنه يبلغ من العمر خمسين عاماً وهو يفضل أن تقع الحرب الآن، لا عندما يكون في الخامسة والخمسين أو الستين".

برزت لوثة جنون الدكتاتور الألماني وهو يلقي عظته المؤثرة على قمة جبله، أكثر وضوحاً وعنفاً في المحضر الألماني لوقائع المقابلة، فبعد أن دوت اقواله عن تفضيله الخروج الى الحرب في سنّ الخمسين لا بعدها، أضاف:

"[قال هتلر] تفعل إنكلترا حسناً لو ادركت أنه بوصفه أحد جنود الجبهة الأمامية- يعرف ماذا تعني الحرب وستنتفع من كل وسيلة متيسرة. من الواضح الأكيد لكل شخص أن الحرب العالمية [اي حرب ١٩١٤-١٩١٨] كانت ستنتهي بالنصر لألمانيا لو كان هو مستشاراً في ذلك الحين.

كان جواب هتلر لچمبرلين خليطاً من كل الأكاذيب المبتذلة والمفتريات المبالغ فيها التي صبّت في اذهان الأجانب وشعبه منذ أن جرؤ البولنديون على الوقوف بوجهه وقال ان ألمانيا لا تريد حرباً مع بريطانيا العظمى. ولقد كان مستعداً دائماً الى بحث مشكلتي الدانزگ والممر مع البولنديين "على أسس إقتراح لا نظير له من الكرم والشهامة". الا أن الضمان غير المشروط الذي أعطته بريطانيا لپولندا، شجع هؤلاء على "إطلاق موجة من الإرهاب شنيعة ضد المليون ونصف المليون من السكان

٢- رسالة هندرسن المؤرخة ٢٣ آب ١٩٣٩. المرجع السالف الص ٩٨-١٠٠. محضر وزارة الخارجية الألمانية [وثائق عن سياسة ألمانيا... ج٧ الص ٢١٠-٢١٥] رسالة هندرسن عن المقابلة الثانية في ٢٤ آب (الكتاب الأزرق الإنكليزي الص ١٠٠-١٠٢).

٣- روى فايسبكر الذي كان حاضراً: "ماكاد ينصفق الباب خلف السفير حتى ضرب هتلر كفة على فخذه وضحك وقال: "لن يبقى چمبرلين في الحكم بعد هذه المحادثة. إن وزارته ستسقط حتما في مساء هذا اليوم". (من مذكرات فايسبكر ص ٢٠٣).

الألمان الذين يعيشون في بولندا" وقال: "هذه الأعمال الوحشية، هي فظيعة بالنسبة للضحايا إلا أنها لا تحتل بالنسبة إلى دولة عظيمة كالرايخ الألماني". إن ألمانيا لن تتسامح فيها بعد الآن.

أخيراً إنه فهم جيداً نقطة رئيس الوزراء بتأكيد أن بريطانيا العظمى ستفي بتعهداتها لبولندا. وأكد له "أن هذا لن يغير شيئاً في اعتزام حكومة الرايخ... حماية مصلحة الرايخ... إن هاجمت إنكلترا ألمانيا فستجدها مستعدة مصممة"^(٤).

ما الذي حققه تبادل الرسائل هذا؟ أصبح لدى هتلر الآن تأكيد لا شبهة فيه من جمبرلين بأن بريطانيا ستدخل الحرب إن هاجمت ألمانيا بولندا. ولدى رئيس الوزراء الآن كلمة هتلر بأن ما إعتزمه جمبرلين لن يغير من الأمر شيئاً. لكن أحداث الأيام الثمانية المضطربة التالية ستري بأن لأحد منهما صدق بأنه بالكلمة النهائية من الآخر.

ويصدق هذا على هتلر بصورة خاصة. أنعشته الأخبار الطيبة من موسكو ونفشت ريشه ويات موقناً (رغم رسالة جمبرلين التي تسلمها) أن بريطانيا ووراها فرنسا لن تفكراً قط في الوفاء بعهودهما لبولندا بعد النكسة التي أصيب بها في روسيا، فما كان منه إلا أن عين في مساء ٢٣ آب (حين كان هندرسن يعود الى برلين بالطائرة) موعد الهجوم على بولندا وهو السبت الموافق ٢٦ آب الساعة ٣٠، ٤ فجراً. ودون الجنرال هالدر في يومياته: "لن يكون ثم أوامر بعد بخصوص يوم الهجوم وساعة الصفر" كل شيء سيسير سيراً أوتوماتياً". على أن رئيس هيئة أركان الجيش كان واحماً. ففي ٢٥ آب حدث أمران جعلتا هتلر يتراجع عن الهاوية قبل أقل من أربع وعشرين لموعد دخول جيوشه الحدود البولندية. الحدث الأول نجم في لندن والثاني في روما.

في صبيحة الخامس والعشرين كان هتلر في برلين للترحيب بمقدم ريبنتروب من موسكو وليستمع إلى أول تقرير عن الروس. وهنا كتب رسالة الى موسوليني. تتضمن إيضاحاً متأخراً، يعتذر فيها عن عدم إبلاغه بمفاوضاته مع الإتحاد السوفياتي (قال إنه "ماكان يتصور" بأنهما سيقطعان هذا الشوط بهذه السرعة). وأوضح أن الميثاق الروسي الألماني "يجب أن يعتبر أعظم كسب ممكن للمحور".

إلا أن غرض الرسالة الحقيقي -ونصّها بين الوثائق المستولى عليها- إنما كان لتحذير الدوتشي بأن الهجوم الألماني على بولندا متوقع حصوله في أي لحظة، إلا أنه لم يذكر لصديقه وحليفه الموعد المضبوط الذي عينه بل قال "في حالة وقوع أحداث لا يمكن السكوت عنها في بولندا سأتحرك حالاً... في تلك الظروف لا أحد سيستطيع ان يتكهن بما ستأتي به الساعة التالية". ولم يطلب هتلر معونة إيطاليا بصراحة. وهي نظراً لنصوص معاهدة التحالف الألمانية-الإيطالية تلقائية. بل اقنع نفسه بالإغراب عن أمله بفهم إيطاليا وجهة نظره^(٥). على أنه كان مشوقاً الى جواب فوري. وقد ارسل

٤- نص رسالة هتلر المؤرخة ٢٣ آب - الى جمبرلين: (المرجع السالف الص ١٠٢-١٠٤ كذلك مثبت في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٧ الص ٢١٦-٢١٩].

٥- نص رسالة هتلر الى موسوليني بتاريخ ٢٥، [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٧ الص ٢٨١-٢٨٣].

ريبنتروب نصّ الرسالة بالتليفون الى السفير الألماني في روما وتسلمها الدوتشي في الساعة ٣, ٢٠ عصرًا. وفي الوقت نفسه استقبل (الزعيم) السفير هندرسن في الساعة ١, ٣٠ ب.ظ في دار المستشارية. ولم يضعف عزمه على تحطيم بولندا، بل كان أكثر لهفةً مما وجد نفسه قبل يومين عندما قابل (هندرسن) في برختسگادن، حيث قام بآخر محاولة لإبقاء بريطانيا خارج دائرة الحرب^(٦). وجد السفير هتلر "هادئاً هدوءاً تاماً وعادياً في تصرفاته وكان يتكلم باخلاص وصدقٍ ظاهرين" ظلّ السفير هندرسن، رغم كلّ تجاربه خلال السنة الماضية عاجزاً عن إستكناه ما يختفي تحت هذا "الإخلاص والصدق" الذي يديه الدكتاتور الألماني، ظلّ عاجزاً حتى هذا التأريخ المتأخر وكلّ ما أدلى به هتلر كان مما لا يقبله عقل سويّ. قال للسفير أنه "يرضى" بقيام الإمبراطورية البريطانية وهو مستعدّ للتعهد شخصياً باستمرار كيائها وان يضع قوة الرايخ الألماني في هذا السبيل".

"[وأوضح هتلر] انه يرغب أن يقترب نحو إنكلترا بخطى حاسمة تشبه تلك التي خطاها نحو روسيا... (الزعيم) مستعدّ لإبرام إتفاقات مع إنكلترا تضمن كيان الإمبراطورية البريطانية في كل الظروف ويقدر ما يتعلق الأمر بألمانيا فضلاً عن إتفاقات تضمن عند الحاجة المساعدة الألمانية للإمبراطورية البريطانية بصرف النظر عن المكان الذي تدعو اليه هذه المساعدة". واستطرد: وهو ايضاً مستعد "لقبول تحديد التسليح على اسس معقولة" واعتبار حدود الرايخ الغربية حدوداً نهائية. ويذكر هندرسن أن هتلر استرسل في نقطة من النقاط في نجوى عاطفية وبانطلاقة نفسية، لم يصفها هندرسن هكذا عندما نوّه بها في تقريره المرسل الى لندن.

قال الزعيم: "إنه بطبيعته فنان وليس سياسياً وسينتهي حياته بعد تسوية المشكلة البولندية في مجالات الفن فنانياً لا تاجر حرب" إلا أنه ختم حديثه بنبرة أخرى: [جاء هذا في التصريح الحرفي الذي دوّنه الألمان لهندرسن] كرر (الزعيم) أنه رجل القرارات الكبرى... وان هذا هو عرضه الأخير. فإن رفضت [يقصد الحكومة البريطانية] هذه المقترحات فستقع الحرب. ولم ينفك هتلر -طوال الحديث- يشير الى أن "عروضه الواسعة الكريمة" لبريطانيا - كما وصفها، مرهونة بشرط واحد، إنها لن تكون سارية المفعول إلا "بعد حلّ هذا النزاع الألماني البولندي". وعندما أصر (هندرسن) ان هذا العرض غير مقبول إلا إذا كان يعني في الوقت نفسه التسوية السلمية مع بولندا أجاب هتلر "إن لم تجحد في عروضي نفعاً فلا ترسلها أبداً".

ومهما يكن، فما كاد السفير يصل الى السفارة التي لا تبعد إلا خطوات عن المستشارية في قلهمشتراسه، إلا وكان الدكتور شميدت يطرق بابَه حاملاً نسخة مكتوبة من ملاحظات هتلر -بعد

٦- روى اريخ كوردت في "كتابه Wahn und Wirklichkeit" ص ١٩٢: بلغ الطرب والنشوة بهتلر لإنتصاره في موسكو جداً انه سأل مكتبته الصحفي في صبيحة يوم ٢٥ آب، عن أنباء تشير الى أزمات وزارية في باريس ولندن. وكان يظن أن الحكومتين ستسقطان لا محالة. إلا أنه هبط الى الواقع من خياله، عندما ابلغ عن خطبتي چمبرلين وهاليفاكس القويتين في مجلس العموم، قبل يوم واحد.

تنقيح كثيرٍ - ومعها رسالة من (الزعيم) الى (هندرسن) يرجوه فيها أن يبين للحكومة البريطانية "أن تأخذ هذا العرض مأخذاً جدياً للغاية".^(٧)

مما يصعب جداً أن يتفهم المرء إرهابات دماغ هتلر المحموم العجيبة المذهلة - وقد أصبح القراء الذين وصلوا الى هذا المدى في الكتاب يدركون ذلك. ولاشك أن عرضه المضحك السخيف في ٢٥ آب ضمان الإمبراطورية البريطانية ناجم عن إعصار دماغي آني لأنه لم يذكره قط قبل يومين عندما ناقش رسالة چمبرلين مع هندرسن ونظم جواباً عليها. حتى لو تسامحنا بشذوذ الدكتاتور فغاية ما يمكن الاعتذار له أنه يصعب على المتأمل أن يعتقد بأنه هو نفسه لا يأخذها مأخذ الجد كما شرطها للسفير البريطاني. ثم كيف يمكن ان يطلب من الحكومة البريطانية - كما رجاء أن يأخذها مأخذها جدياً للغاية" عندما لم يجد چمبرلين الوقت الكافي لقراءتها قبل أن تحتاح جيوش النازي بولندا في فجر الغد - يوم الصفر الذي مازال هو المعول عليه؟

لكن لاشك ان "العرض" يستبطن غاية خطيرة. الظاهر أن هتلر كان يعتقد أن چمبرلين - كستالين يبحث له عن مخرج يستطيع به ان يجنب بلاده آفات الحرب^(٨) لقد إبتاع حياد ستالين الكريم قبل يومين حين عرض إطلاق يد روسيا في شرق أوروبا "من بحر البلطيق حتى البحر الأسود". أو ليس بإمكان شراء عدم التدخل البريطاني، بالتأكيد لرئيس الوزراء أن الرايخ الثالث لن يكون كألمانيا آل هونزلرن، مصدر تهديد للإمبراطورية البريطانية؟ إن ما لم يدركه لا هتلر ولا ستالين (الذي دفع الثمن غالياً فيما بعد) هو أن الأمر مختلف جداً عند چمبرلين بعد أن صحا من غفلته وفتح عينه متأخراً جداً. فعنده أن سيطرة ألمانيا على القارة الأوروبية هو بحد ذاته أعظم تهديد يتعرض له كيان الإمبراطورية البريطانية - وكذلك هو الأمر بالنسبة الى الإتحاد السوفياتي. وها هو هتلر يذكره في كفاحي: "لقد ظلت السياسة الخارجية البريطانية تحصر همها قروناً عديدة في منع شعب واحد من السيطرة على القارة الأوروبية".

في الساعة ٣٠، ٥ عصرًا استقبل هتلر السفير الفرنسي، إلا أن ماقاله له لا ينطوي على أهمية كبيرة. فقد كرره "أن الإستفزاز البولندي للرايخ" لا يمكن إحتماله بعد الآن قط وانه لن يهاجم فرنسا إلا أنه سيقا تلها إن تدخلت في النزال وسيقاتلها الى النهاية. وبعدها حاول صرف السفير الفرنسي بنهوضه من مجلسه إلا أن (كولوندر) كان لديه ما يقوله لزعيم الرايخ الثالث وهو مصمم على قوله. قال له كلمة الشرف كجندي بأن الشك لا يساوره في أن فرنسا ستكون الى جانب بولندا بكل قواتها

٧- نص التصريح الحرفي من هتلر الى هندرسن في ٢٥ آب. كتيبه ريبنتروب ودكتور شميدت (وثائق عن سياسة... ج٧ الص ٢٧٩-٢٨٤) كذلك في الكتاب الأزرق الإنكليزي الص ١٢٠-١٢٢، تقرير هندرسن في ٢٥ آب يصف الاجتماع. الكتاب الأزرق الإنكليزي الص ١٢٢-١٢٣. انظر ايضاً كتاب هندرسن "إخفاق بعثة" ص ٢٧٠.

٨- أو إن لم يكن خارج نطاق الحرب. فبعيداً عن مساهمة فعالة فيه هذا ما عناه الجنرال هالدر في مجمل "لتوالي الأحداث" مؤرخ ٢٥ آب. في يومية كتبها فيما بعد (٢٨ آب) ذاكراً ان هتلر قابل هندرسن في ١٠، ٣٠ ب.ظ وقال "ان الزعيم لن يستبعد قيام إنكلترا بحرب تمويه ذراً للرماد على العيون".

إذا ما هوجمت". فأجاب هتلر "مما يؤلني أن افكر بأني مضطر الى مقاتلة بلادكم إلا أن ذلك لا يتوقف علي. أرجو أن تبلغ مسيو دالادييه بذلك^(٩). الآن بلغت الساعة في برلين السادسة مساءً والقلق في العاصمة يزداد طوال اليوم (٢٥ آب). منذ ساعات بعد الظهر الأولى قطع كل الإتصالات الاذاعية والبرقية والتلفونية عن العالم الخارجي بأوامر صادرة من قلملمشتراسه. وفي الليلة التي سبقت، وصل الى أقرب الحدود آخر المراسلين الفرنسيين والإنكليز والمدنيين غير الموظفين بأسرع ما امكنهم. وفي ساعات يوم ٢٥ الموافق الجمعة أصبح معلوماً أن وزارة الخارجية الألمانية قد ابرقت لكل السفارات والقنصليات الألمانية في بولندا وفرنسا وإنكلترا تطلب منها إبلاغ الرعايا الألمان بترك البلاد بأقرب طريق. وتونه ملاحظاتي ليومي ٢٤ و ٢٥ في مذكراتي بالجو المكفهر المتوتر في برلين: كان الجو دافئاً خائفاً وبدا كل أمر في أقصى حالات الضيق، وكانت المدفعية المضادة للطائرات تنصب في أرجاء المدينة، والقاصفات تحلق باستمرار في أجوائها باتجاه بولندا. فدونت مساء الرابع والعشرين "انه لما يشبه الحرب" وفي اليوم التالي كتبت "الحرب قادمة" وعن كلتا الأمسيتين أذكر أن الألمان في قلملمشتراسه كانوا يتهايمسون فيما بينهم أن هتلر اصدر الأمر للجنود بالزحف على بولندا فجراً.

نعرف الآن أن أوامره كانت تقضي بالقيام بالهجوم في فجر السبت الساعة ٣٠، ٤ من صباح ٢٦ آب^(١٠) ولم يحدث شيء في (٢٥) حتى الساعة السادسة مساءً. لاشك أن تأكيدات السفيرين كولوندر وهندرسن على إعتزام حكومتها الإيفاء بتعهداتها لبولندا، لم تشن هتلر عن قراره في تنفيذ عمله العدواني في الموعد المحدد. لكن في حدود الساعة السادسة مساءً أو بعدها بقليل وصلت أنباء من لندن وروما جعلت إرادة هذا الرجل الصامدة، تتردد قليلاً على ما يبدو.

إن السجلات السرية الألمانية وشهادات موظفي قلملمشتراسه بعد الحرب لم توضح تماماً الزمن الذي علم به هتلر نبأ التوقيع الرسمي على المعاهدة الأنكلو-بولندية التي حولت الضمان البريطاني من جانب واحد الى ميثاق تعاون متبادل^(١١).

هنالك بعض الدلائل في يوميات (هالدر) وفي سجل وقوعات الأسطول الألماني تشير الى الأمر نفسه. ويذكر رئيس هيئة الأركان أنه تلقى في الساعة ١٢ ظهراً نداءً تلفونياً من (ق.ع.ق.م) يسأل

٩- تقرير كولوندر المؤرخ ٢٥ آب. الكتاب الأصفر الفرنسي (الطبعة الفرنسية) الص ٣١٢-٣١٤.

١٠- مع أن أوامر هتلر السابقة الثابتة التي لم تبلغ تعين يوم الهجوم في هذا اليوم وتلك الساعة، وهي اتوماتية كما وصفها هالدر. فإن عدداً من الكتاب الألمان كتبوا أن الزعيم أعطى أوامر صريحة بعد الثالثة ظهراً ببضع دقائق للهجوم فجر اليوم الثاني بمقتضى القضية البيضاء. انظر فايسيك: المذكرات. كوردت: مرجعه السالف. ووالتر هوفر Walther Hover: الحرب التي رسمت عمداً ١٩٣٩. يقول هوفر أن الأمر صدر في الثالثة والدقيقة الثلاثين عصراً. وذكر في مصدره أن الجنرال فون فورمان Von Vormann كان موجوداً في المستشارية عند صدور الأمر. ولم يوجد دليل رسمي على ذلك في الوثائق الألمانية.

١١- يوجد برتوكول سري لهذه المعاهدة جاء فيه "ان الدولة الأوروبية" المنوه بها في البند الأول التي سينجم عن عدوانها المساعدة العسكرية - انما هي ألمانيا. هذه انقذت الحكومة البريطانية من خطوة فاجعة، وهي إعلان الحرب على الإتحاد السوفياتي عندما قام الجيش الأحمر باتفاق مع الألمان بالتوغل في شرق بولندا.

عن آخر أمر بتأجيل قرار الهجوم فأجاب، الثالثة بعد الظهر. ويذكر سجلّ الوقائع البحري أنباء عن وصول معلومات من الدوتشي^(١٣) والميثاق الأنكلو-بولندي. في ساعة الظهر إلا أن ذلك غير ممكن إذ لم يصل شيء من موسوليني للألمان كما دلت حاشيتهم المدونة على الوثيقة - إلا في "حدود السادسة بعد الظهر" كما لا يمكن أن يعلم هتلر بتوقيع الميثاق في لندن إلا في حدود ذلك الزمن لأن التوقيع جرى في الساعة ٣٥ , ٥ عصرًا. أي بعد خمس عشرة دقيقة من وصول التحويل التلغوني من وزارة الخارجية في وارشو بتوقيع السفير البولندي في لندن الكونت ادوارد راجنسكي Count Edward Raczynski على المعاهدة^(١٣).

ومهما كان من أمر الوقت الذي تبلغ بالنبأ (والسادسة مساءً هو الاحتمال المضبوط). فإنه تأثر لأنباء لندن. وربما يكون هذا جواباً صريحاً على "عرضه" الشروط التي وصلت لندن آنذاك ومعناه أنه اخفق في مسعاه لشراء بريطانيا كما فعل مع روسيا. ويذكر الدكتور شميدت الذي كان في مكتب هتلر عند وصول الأنباء^(١٤) أن (الزعيم) قرأها وجلس إلى مكتبه مهموماً تتنازعه الهواجس.

-٢-

موسوليني ينكص على عقبيه

وقطعت عليه هواجسه بعد قليل بأنباء لا تقل سوءاً من روما. كان الدكتاتور الألماني ينتظر طوال ساعات العصر "بنفاذ صبر واضح" (كما وصفه شميدت) جواب موسوليني على رسالته. وإستدعى السفير الإيطالي (أتوليكو) إلى المستشارية في الساعة ٣ ظهراً، بعد إنصراف هندرسن بقليل. إلا أنه لم ينبئه بوصول جواب بعد وفي هذا الوقت بلغت أعصاب هتلر حداً من التوتر بحيث أرسل ريبنتروب ليتصل تلفونياً بـ(تشيانو) فلم يتمكن من الإتصال به. ويقول شميدت ان (أتوكيلو) صُرف من حضرة هتلر بقليل من المجاملة واللفظ^(١٥).

ظل هتلر أياماً يتسلم تحذيرات من روما، تدور حول احتمال إنصراف شريك المحور عنه في اللحظة الحرجة لحظة غزو بولندا. ولم تكن هذه الأنباء خالية من أساس إذ ما أن عاد تشييانو من إجتماعيه في ١١ و١٣ آب اللذين أزالا أوهامه في هتلر وريبنتروب حتى بدأ يعمل في حرف موسوليني وتشجيعه على الوقوف ضد الألمان وسجلت يوميات وزير الخارجية الفاشي مراحل نجاحه وفشله في

١٢- مؤامرة النازيين وعدوانهم، ج ٦ الص ٩٧٧-٩٩٨. من ملف حول العلاقات الروسية الألمانية وجد في إحدى أضيابير قيادة الأسطول العليا.

١٣- لم تتبع ألمانيا التوقيت الصيفي كما تفعل بريطانيا. لذلك يمكن صرف النظر عن فرق الساعة الواحدة بين توقيتتي برلين ولندن.

١٤- شميدت المرجع السالف الص ١٤٤.

١٥- المرجع السالف الص ١٤٣-١٤٤.

جهوده المبدولة لفتح عيني الدكتاتور الإيطالي ووجوب انفصاله عن هتلر في الوقت المناسب وعدم التورط معه في حرب^(١٦) وفي مساء يوم عودته من برختسجادن (١٣ آب)، سارع لمقابلة الدوتشي وبعد أن وصف له أحاديثه مع هتلر وريبنتروب، حاول إقناعه أن الألمان "قد خدعونا وكذبوا علينا" وهم "يريدون توريطنا في مغامرة".

"[كتب تشيانو في يومياته] اختلفت ردود فعل الدوتشي. في مبدأ الأمر كان يعارضني. ثم رجع ليقول لي أن الشرف يحتم عليه السير مع ألمانيا. وأخيراً وجدته يقول أنه يريد نصيبه من الغنيمة في كرواتيا Croatia ودماتيا Dalmatia.

١٤ آب: أجد موسوليني مهموماً. لم اتردد في إثارة كل رد فعلٍ معادٍ للألمان بكل وسيلةٍ أتفنها. حدثته عن تصاغر مقامه وعن تمثيله دور التابع لا المتبوع. وأخيراً عرضت عليه وثائق تثبت مآين الألمان وختلهم في مشكلة بولندا. إن التحالف كان مبنياً على علل هي الآن غير موجودة. إنهم خونة وعلينا ألا نتردد قط في تركهم. إلا أن موسوليني مازال كثير الشك. في اليوم التالي تحدث تشيانو الى موسوليني ست ساعات.

١٥ آب: الدوتشي... مقتنع بأن علينا ألا نسير مع الألمان معصوبي الأعين... وهو على كل يحتاج الى وقت ليكون متهيئاً للإنتفاض على ألمانيا... انه يزداد اقتناعاً بأن الديمقراطيات ستدخل الحرب... هذه المرة معناها الحرب... وليس في مقدورنا أن ندخلها لأن وضعنا الصعب لايسمح لنا بذلك.

١٨ آب: حديث مع الدوتشي في هذا الصباح. احساسه المتقلبة المعتادة. مازال يتوهم أن الديمقراطيات لن تخوض الحرب وأن ألمانيا ستحصل على مغام لقاء ثمن رخيص أيضاً، وهو لا يريد أن يخرج صفر اليدين. ثم يعود ليقول أنه يخشى سخط هتلر. يعتقد أن إلغاء الميثاق أو ما يجري مجراه قد يحمل هتلر على صرف النظر عن بولندا مؤقتاً ليصفي الحساب مع إيطاليا. وكل هذا يجعله عصبياً مضطرب البال.

٢٠ آب: الدوتشي يريد أن يعزز مكانته. يريد مساعدة ألمانيا باي ثمن كان في صراعها الوشيك... مؤتم بين موسوليني وأنا وأتوليكو [عاد أتوليكو من برلين الى روما للتشاور].

هذا هو جوهر المسألة: لقد تأخر الوقت جداً للإنسحاب من خندق الألمان... كل صحافة العالم ستصم إيطاليا بالجين... أحاول المناقشة في الأمر عبثاً. موسوليني مصر على فكرته اصراراً عنيداً.

٢١ آب: اليوم تكلمت بكل صراحة... عندما دخلت الغرفة، أيد موسوليني قراره بالسير مع الألمان قلت: "ايها الدوتشي، إنك لن تفعل ذلك ولا تتمكن من فعله... ذهبت الى سالزبرگ لتثبيت خط سير مشترك في اعمالنا، فوجدت نفسي وجهاً لوجه أمام أوامر لا مرد لها. الألمان هم الذين نقضوا التحالف لا نحن... ألا مزق الميثاق... واقدفه في وجه هتلر!..."

١٦- يوميات تشيانو الص ١٢٠-١٢٩.

كانت حصيلة المؤتمر أن يدبر تشيانو إجتماعاً برينتروب في اليوم التالي في برينر لإبلاغه أن إيطاليا ستبقى خارج دائرة العمليات العسكرية الألمانية في بولندا. إلا أنه لم يتمكن من الإتصال برينتروب لعدة ساعات عندما طلبه تلفونياً وقت الظهر. وفي الساعة ٣٠, ٥ عصراً أفصح في الإتصال به. ولم يستطع الوزير الألماني أنه يعطيه جواباً قاطعاً فوراً حول الإجتماع في (برينر) في فترة الإخطار القصيرة هذه إلا أنه "ينتظر رسالة هامة من موسكو"، ووعد أنه سيتصل فيما بعد. وقد فعل ذلك في الساعة ٣٠, ١٠ ليلاً. [وكتب تشيانو في يومياته]

٢٢ آب: مساء أمس في الساعة ٣٠, ١٠, بدأ فصل تمثيلي جديد. تلفن رييتروب قائلاً أنه يفضل مقابلي في إنزبروك على الحدود. لأنه معتزم السفر حالاً الى موسكو للتوقيع على ميثاق سياسي مع الإتحاد السوفياتي.

كان ذلك اعجب نبأ توقعه تشيانو وموسوليني. وقررا أن إجتماع وزيري الخارجية "لم يعد له محل". لقد خدعهما الألمان مرة أخرى وظهروا لشركائهم إزدراءهم بكتهم أنباء صفقتهم مع موسكو. إن كثرة تردد موسوليني، وشعور تشيانو بالعداء للألمان وإحتمال تسلل إيطاليا وتقصصها من واجها بمقتضى البند الثالث من الميثاق الفولاذي الذي يحتم عليها المساهمة التلقائية في حرب أحد الطرفين إن دخل هذا الطرف في اي عمل عسكري مع اية دولة أخرى، كل هذا اصبح معلوماً في برلين قبل أن يرحل رييتروب الى موسكو في ٢٢ آب.

في ٢٠ آب قام الكونت ماسيمو ماجستراتي Massimo Magistrati القائم بالأعمال الإيطالي بزيارة (فايسيك) في مكتبه بوزارة الخارجية وأطلعه على "الوضع الذهني الإيطالي" الذي لم يدهشني إلا أنه يجب أن يحسب حسابه لا محالة في رأيي [هذا قول فايسيك في تقرير سري له الى رييتروب]^(١٧) وما ذكر القائم بالأعمال فايسيك هو أن ألمانيا لم تتمسك بنصوص ميثاق الحلف التي تقضي بوجوب الإتصال الوثيق والتشاور في القضايا الهامة، وانها تعالج مشكلتها مع بولندا كأنها مشكلة ألمانية بحتة "وان ألمانيا بعملها هذا تستغني عن المساعدة العسكرية الإيطالية" واذا أدى النزاع البولندي - خلافاً لوجهة نظر الألمان - الى حرب كبيرة فإن إيطاليا لا تعتبر "قيام المبررات" للحلف موجودة. وبالإختصار فإن إيطاليا تريد أن تجد لها مخرجاً.

وبعد يومين (٢٣ آب) وصل برلين تحذير جديد من "هانس جورج فون ماكنزن" سفيرها في روما كتب لفايسيك عما يجري "خلف الستار" فعرضت الرسالة على (الفوهرر) كما دلت الحاشية التي كتبها فايسيك "تقدم الى الزعيم" بخط يده ولعلها فتحت عينيه. قال (ماكنزن) بعد سلسلة من الإجتماعات بين موسوليني وتشيانو وأتوليكو بدا الموقف الإيطالي كما يأتي: إن غزت ألمانيا بولندا، فهي تخرق بذلك نصوص (الميثاق الفولاذي) الذي وضع بالأساس على إفتراض عدم اللجوء الى الحرب حتى عام ١٩٤٢. وكان موسوليني متأكداً (خلافاً لرأي هتلر) من تدخل فرنسا وإنجلترا إن

١٧- مذكرة فايسيك (٢٠ آب) [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ ص ١٦٠].

هاجمت ألمانيا الأراضي البولندية. وستتبعهما "الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً بعد أشهر قليلة". وفيما تكون ألمانيا متخذة خطة الدفاع في الغرب يرى الدوتشي أن فرنسا وإنجلترا: "ستزحفان على إيطاليا بكل القوات التي تملكها. وهذا ما سيجعل إيطاليا تنوء بكل ثقل الحرب حتى تفسح للرايح فرصة تصفية العمل في الشرق..."^(١٨).

كانت هذه التحذيرات تدور ببال هتلر حين خط رسالة لموسوليني في صبيحة الخامس والعشرين وجلس ينتظر طول اليوم بقلق متزايد.

رد الدوتشي عقب منتصف ليل أمس بقليل. فبعد أن فرغ ريبنتراب من نفذ كل ما في جعبته من أحاديث حول موسكو (للزعيم) راح يطلب من هتلر يتصل تلفونياً بتشيانو لينذره "بخطورة الموقف الشديدة بسبب الإستفزاز البولندي"^(١٩). وتكشف ملاحظة لفائسيكر أن المكالمات كانت لأجل "الحيلولة دون إمكان الطليان المناقشة في تطورات غير متوقعة".

في الوقت الذي سلم السفير ماكنزن موسوليني، رسالة هتلر في (قصر فينيزيا) بروما في الساعة ٣, ٢٠ عصر يوم (٢٥ آب)، كان الدوتشي على علم بأن الهجوم الألماني على بولندا وشيك جداً، وكان خلافاً لهتلر- مؤمناً بدخول فرنسا وإنجلترا الحرب رأساً، والنتيجة هي الكارثة العظمى لإيطاليا التي لم يكن أسطولها قادراً على الصمود أمام أسطول البحر المتوسط البريطاني. ولا جيشها قادراً على وقف الزحف الفرنسي المتفوق^(٢٠). ووصف ماكنزن تفاصيل المقابلة بتقرير أرسله إلى برلين في ٢٥, ١٠ ليلاً. قال أن موسوليني قرأ الرسالة مرتين بحضوره وقال إنه "يوافق تماماً على" الميثاق الروسي-الألماني وهو الآن يدرك أنه "لم يعد بالإمكان إجتناّب صدام مسلح مع بولندا بعد الآن" وأخيراً (وهذا ما جلب الإنتباه إليه بنوع خاص) صرح أنه "يقف إلى جانبنا دون قيد أو شرط، وبكل ما يملك من موارد"^(٢١). لكن هذا لم يكن بالشيء الذي كتبه الدوتشي (للزعيم) دون علم من السفير الألماني، فقد عجل تشيانو باملاء النص تلفونياً على اتوليكو الذي كان قد عاد إلى برلين. فوصل في

١٨- رسالة ماكنزن إلى فائسيكر (٢٣ آب) المرجع السالف الص ٢٤٠-٢٤٣.

١٩- لايعزب على البال أن (الإستفزاز البولندي) الذي دأب هتلر وريبنتراب الضرب على وتره في إجتماعاتهما ومراسلاتهما الدبلوماسية مع الفرنسيين والإنكليز والروس والطيان في تلك الأيام، والأنباء التي كانت تنشر عنه بعنوان نارية في الصحف النازية الخاضعة للرقابة. إنما هو محض أكاذيب اختلقها الألمان من ألفها إلى يائها. وكل الإستفزازات التي حصلت في بولندا إنما كانت بايعاز من برلين والقائمون بها ألمان. والوثائق الألمانية المستولى عليها مفعمة بالأدلة على ذلك.

٢٠- قام تشيانو قبل هذا التاريخ بيوم واحد (٢٤ آب) بزيارة الملك في (بيدمونت) مصيفه. فراح الملك الشيخ الذي وضعه الدوتشي في الزاوية وجرده من كل سلطة يتحدث بإزدراء عن قوات البلاد المسلحة. وروى تشيانو عنه قوله "إن الجيش في حال يرثى لها. حتى الدفاع عن حدود بلادنا فهو غير كاف. لقد قام بائنتين وثلاثين جولة تفتيشية اقتنع بعدها أن الفرنسيين يستطيعون التوغل في داخل البلاد بكل سهولة. وأن الضباط في الجيش الإيطالي تنقصهم الكفاءة والقدرة على معالجة الأعمال التي أنيطت بهم. وتجهيزاتنا واسلحتنا قديمة بطل إستعمالها (يومييات تشيانو ص ١٢٧).

٢١- تقرير ماكنزن ٢٥ آب المرجع السالف الص ٢٩١-٢٩٣.

الساعة ٦ مساءً الى المستشارية ليسلم الرد شخصياً لأدولف هتلر. فسقط كالقنبلة على هتلر، كما ذكر شמידت الحاضر. فبعد أن اعرب موسوليني "عن موافقتة التامة" على الميثاق السوفيتي النازي و"إدراكه قضية بولندا" جاء الى النقطة الأصلية.

"[كتب موسوليني] أما عن موقف إيطاليا الفعلي، ازاء الأعمال الحربية فوجهة نظري هي: إن هاجمت ألمانيا بولندا وبقيت الحرب موضعية، فإن إيطاليا ستقدم لألمانيا كل ما في طاقتها من العون السياسي والاقتصادي الذي يطلب منها. وإذا هاجمت ألمانيا بولندا^(٢٢). فقامت حليفنا الأخيرة بشن هجوم معاكس على ألمانيا فأنا أبلغك مقدماً بأنه ليس من المستحسن لي أن أبادر في عمليات عسكرية نظراً الى وضع الإستعدادات الحربية الإيطالية الحالي الذي دأبنا على إعلامكما به باخلاص وحسن نية انت ايها الزعيم والهر فون ريبنتروب. إن تدخلنا قد يكون ممكناً -على اية حال- وبشكل فوري إن قدمت لنا ألمانيا حالاً المهمات الحربية والمواد الأولية لصدد هجوم قد يبادئنا به الفرنسيون والإنجليز، بصورة مفاجئة. في أثناء إجتماعنا كنا نتكلم عن وقوع الحرب في ١٩٤٢، وفي ذلك الوقت سأكون مستعداً في البر والبحر والجو. حسب الخطط التي رسمت. وأضيف الى هذا رأيي في أن إجراءات عسكرية صرفة كنتم قد اتخذتموها قبلاً مع تدابير أخرى غيرها ستخوذونها فيما بعد، سيقابلها تعبئة واسعة للقوات الفرنسية والإنجليزية، في أوروبا وأفريقيا. وأرى أن واجبي العظيم كصديق مخلص يدفعني إلى مصارحتك بالحقيقة كلها. أن اعلمك مسبقاً عن الوضع الحقيقي وإن تقاعست فالاتار ستكون سيئة لكلينا وهذا هو رأيي والواجب يحتم علي أن أدعو في فترة قصيرة أعلى الهيئات الحكومية لأخذ رأيها. وآمل أن تعلمني بوجهة نظرك. (التوقيع) موسوليني^(٢٣)

٢٢- في الترجمة الألمانية لرسالة موسوليني التي عثر عليها بعد الحرب في اضاير وزارة الخارجية، وهي التي اعتمدتها هنا. وجدت ان كلمة (ألمانيا) قد شطبت هنا وطبعت لفظة (بولندا) فوقها بالآلة الكاتبة. فصارت تقرأ كالآتي "إن هاجمت بولندا..."، أما النص الإيطالي الذي طبع بعد الحرب من قبل الحكومة الإيطالية فالفقرة تقرأ هكذا "إذا هاجمت ألمانيا بولندا Se la Germania Attaco la Polonia" من الغريب أن يعمد النازي حتى الى التزوير في الوثائق السرية المحفوظة في سجلاتهم الحكومية. (أنظر وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية، حاشية ص ٢٨٥).

٢٣- وكأنما لم يكف هتلر رسالة موسوليني دواءً مراً. فقد قام عدد من كتاب الألمان ومعظمهم مراقبون هواة للاحداث الروائية التي تنابعت في آخر أيام السلام بطبع نص خيالي لهذه الرسالة التي بعثها الدوتشي للزعيم وكان أول من فعل ذلك (أريخ كوردت) أحد المتأمرين على النازيين الذي يشغل منصب رئيس سكرتيرية وزارة الخارجية. فقد ضمن هذه الرسالة المصنعة كتابه Wahn und Wirklichkeit المطبوع في شتوتكارت عام ١٩٤٧. إلا أنه أغفلها في الطبعة الثانية. غير أن كتاباً آخرين استمروا في اقتباسها من الطبعة الأولى. ظهرت في كتاب (بيتر كلايست) الموسوم Zwischen Hitler und Stalin المطبوع عام ١٩٥٠ بل ظهرت حتى في الترجمة الإنكليزية لمذكرات الدكتور شמידت المطبوعة في نيويورك ولندن في ١٩٥١. ومع ذلك فإن النص الاصيل لم ينشر الا في ١٩٤٦ في إيطاليا وفي ترجمة إنكليزية لكتاب وزارة الخارجية البريطانية (العلاقات النازية السوفيتية في ١٩٤٨). كان الدكتور شמידت عند هتلر عندما تسلم الرسالة من أتوليكو. وهو يروي أن الرسالة تقول: "في اشد لحظات حياتي إبلاماً. أرى من واجبي مصارحتك بأن إيطاليا غير مستعدة لحرب. فحسبما اعلمتني قيادات القوات المسلحة المختلفة ان البنزين الاحتياطي للطائرات لا يكفي غير (٣) أسابيع لدوام السلاح الجوي. والوضع مماثل بالنسبة الى تجهيزات الجيش والمواد الأولية... ارجو ان تدرك موقعي". هذا وفي كتاب نامبير (مصر النازية) ص ٥: حاشية طريفة عن تزوير هذه الرسالة. (رسالة موسوليني الى هتلر ٢٥ آب المرجع السالف الص ٢٨٥-٢٨٦).

وهكذا فبعد ضمان روسيا دولةً صديقةً محايدة وإخراجها من قائمة الأعداء نجد حليفة ألمانيا في الميثاق الفولاذي، تبحث الآن عن طريق للنجاة. حدث هذا في اليوم الذي بدا وكأن بريطانيا قد نذرت نفسها لخوض المعركة نذراً لا رجعة فيه بتوقيعها ميثاق التعاون المتبادل مع بولندا ضد العدوان الألماني. قرأ هتلر رسالة الدوتشي وقال لـ(أتوليكو) انه سيجيب عليها حالاً ثم صرف السفير الإيطالي بجفاء.

وسمع دكتور شميدت هتلر يقول بمرارة بعد إنصراف أتوليكو: "إن الطليان يتصرفون كما تصرفوا في ١٩١٤". ورددت المستشارية في ذلك المساء صدى كلمات قاسية عنيفة حول "الشريك المحوري الغادر". إلا أن الكلمات ليست كافية. والجيش الألماني منتهيء للوثوب على بولندا في ظرف تسع ساعات. فالوقت الآن هو الساعة ٦,٣٠ عصر اليوم (٢٥ آب) والموعد المحدد للغزو هو ٤,٣٠ صباحاً (٢٦ آب) وعلى الدكتاتور النازي أن يقرر في الحال هل يمضي في الخطة أم يؤجلها أم يلغيتها بناء على الأخبار التي وصلتته من لندن وروما.

واصطدم شميدت وهو في طريقه لوداع أتوليكو من مكتب هتلر، بالجنرال كابتل وهو يصيح بمرافقه قائلاً "الأمر بالزحف يجب أن يؤجل ثانية!"

لقد حُصر هتلر حصراً ببادرتي چمبرلين وموسوليني، واتخذ قراره بسرعة. ودون (هالدر) في يومياته "الزعيم مضطرب كثيراً" ثم استمر يكتب:

"الساعة ٧,٣٠ مساءً: وقَّعت المعاهدة بين بولندا وإنجلترا. لا بدء ثم في الأعمال العدوانية. توقف كل تحركات القطعات العسكرية. حتى تلك القريبة من الحدود. إن امكن ذلك.

الساعة ٨,٣٥ مساءً: كابتل يؤكد ذلك. كاناريس: نداء تلفوني، القيود رفعت عن إنجلترا وفرنسا. مما يؤكد تسارع الأحداث. "

أما سجل وقوعات البحرية الألمانية فمعلوماته عن التأجيل أوضح، وهي معللة أيضاً بالأسباب: ٢٥ آب: القضية البيضاء التي شرع بها، ستوقف في الثامنة والدقيقة الثلاثين مساءً لحدوث تغيرات في الوضع السياسي، التعاون المتبادل، بين إنجلترا وبولندا في ٢٥ آب ظهراً، ومعلومات من الدوتشي. سيفي بوعده إلا أنه مضطر الى طلب الكثير من المواد الأولية^(٢٤).

أدلى ثلاثة من رؤوس المتهمين في نورمبرج أثناء الإستجواب بأقوالهم عن موضوع تأجيل الهجوم^(٢٥).

زعم ريبنتروب: أنه عندما أبلغ بالميثاق الأنكلو-بولندي و"سمع بأن" إجراءات عسكرية قد اتخذت

٢٤- مؤامرة النازيين وعدوانهم، ج٦، الص ٩٧٧ (وثائق نورمبرج - ١٩٧٠).

٢٥- إستجواب ريبنتروب في ٢٩ آب ١٩٤٥. (مؤامرة النازيين...) ج٧ الص ٥٣٥-٥٣٦، إستجواب غورنغ في ٢٩ آب ١٩٤٥ المرجع السالف، الص ٥٣٤-٥٣٥: إفادة كابتل أمام محكمة نورمبرج ٤ نيسان ١٩٤٦ (محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج١٠ الص ٥١٤-٥١٧).

ضد بولندا (كأنما لا يدري شيئاً عن الهجوم المدبر) ذهب "حالا" الى الزعيم وناشده أن يوقف غزو بولندا "فوافق الزعيم في الحال". وهذا القول غير صحيح بالمرة.

لكن كان في إفادة كايتهل وگورنگ، على الأقل مسحة من الصدق. أفاد كايتهل وهو بمعد الشهاده بنورمبرگ: "استدعيت فجأة لمقابله هتلر في المستشارية فابتدرني قائلاً: أوقفوا كل شيء حالا. اتصل ببراوختش فوراً. أريد وقتاً للتفاوض".

واكدت إفادة گورنگ أن هتلر كان يعتقد بمقدرته حتى في تلك الساعة المتأخرة على ان يجد له مخرجاً بطريق التفاوض. فقد أفاد في محضر تحقيق قبل محاكمته: "في اليوم الذي اعلنت إنكلترا ضمانتها رسمياً لبولندا استدعاني (الزعيم) تلفونياً وأبلغني أنه اوقف الغزو المعد لبولندا. فسألته هل إن الإيقاف مؤقت أو نهائي فقال: كلا سأرى هل اتمكن من ابعاد بريطانيا عن التدخل".

ومع أن خذلة موسوليني في آخر لحظة كانت ضربة شديدة على هتلر فمن الواضح من الشهاده السالفة أن عمل بريطانيا في ابرام ميثاق التعاون المتبادل كان أقوى تأثيراً عليه في نكوصه عن قراره وتأجيل الهجوم. والغريب في الأمر انه ظل يتوهم في نفسه القدرة (كما ابلغ گورنگ) في حمل بريطانيا على عدم التدخل بعد أن انذره السفير هندرس في هذا اليوم بالذات ان بريطانيا ستقاتل إن هوجمت بولندا بعد أن اعطت حكومتها كلمة الشرف في هذا بمعاهدة رسمية. ومن المحتمل أن تجربته في مونيخ مع جمبرلين أوهمته أن رئيس الوزراء سيسسلم له ثانية لو أوجد له مخرجاً يحفظ ماء الوجه. لكن الأغرب من هذا أن يجهل شخص، أظهر في السابق حنكة عظيمة في السياسة الخارجية، التغييرات التي طرأت على جمبرلين وعلى الموقف البريطاني. وعلى كل فهو الذي كان سبب هذا التغيير.

كان ينبغي بذل بعض الجهد لإيقاف الجيش الألماني في مساء (٢٥ آب) لأن عدة وحدات بدأت في الحركة. في شرق بروسيا وصل أمر تأجيل الهجوم الى الجنرال پتزل Petzel قائد الجيش الأول في ٩, ٣٧ ليلاً ولم يفلح في وقف الطلائع المتقدمة الزاحفة إلا بإسراع عدد من الضباط اليها بسرعة جنونية. وكانت الأرتال الآلية التابعة لجيش الجنرال فون كلايست في الجنوب قد شرعت في الحركة وقت الغسق الى نقطة الوثوب في الحدود البولندية فأوقفهم على خط الحدود، ضابط ركن استقل طائرة استكشاف صغيرة وهبط بها عند الحدود هبوطاً سريعاً. ولم يصل الأمر إلى قطاعات قليلة، حتى بدأ الرمي، لكن لما كان الألمان يريدون افتعال حوادث، وقد ظلوا يتحرشون على طول الحدود بضعة أيام، فيظهر أن هيئة الأركان البولندية لم يداخلها شك فيما يحدث وابلغت في ٢٦ آب أن ما لا يحصى "من العصابات الألمانية قد تعدت خط الحدود وهاجمت مجموعات بيوت سكنى، ونقاط كمارك بالمدافع الرشاشة والرمانات وأن احدى العصابات كانت "وحدة من الجيش النظامي".

سرور واضطراب في نفوس "المؤتمرين"

أحدثت أنباء إيقاف هتلر الهجوم على بولندا سروراً عظيماً في نفوس المؤتمرين من أعضاء قسم الإستخبارات. وأبلغ العقيد (أوشر) الخبر كلا من كزيفيوس وشاخت، هاتفاً "لقد إنتهى أمر الزعيم" وفي اليوم التالي كان (كاناريس) أبعد خيالاً وتفائلاً حين صرح "إن هتلر لن يظل بعد هذه الضربة. لقد تم إنقاذ السلم للسنوات العشرين التالية" وتوهم كلا الرجلين الا ضرورة تدعو بعد الى الإهتمام باسقاط الدكتاتور النازي فقد إنتهى أمره.

كان المؤتمرون مشغولين في آخر أسابيع الصيف. وعادوا نشاطهم أو هكذا اعتبروا أنفسهم، وإن صعب على المرء أن يفهم الهدف من نشاطهم. كان كويردلر، وآدم فون تروت، وهلموث فون مولتكه، وفابيان فون شلابرندورف، ورودلف بيشيل، يقومون بفريضة الحج كل بدوره الى لندن ولم يقصروا صلتهم على جمبرلين وهاليفاكس، بل اتصلوا أيضاً بجرچل وغيره من الزعماء وابلغوهم أن هتلر بنوي غزو بولندا في نهاية آب. تبين لهؤلاء الألمان أعداء هتلر، أن البريطانيين كلهم حتى حامل المظلة جمبرلين قد تغيروا تغيراً تاماً منذ أيام مونيخ. وأن الشرط الوحيد الذي اشترطوه أنفسهم قبل سنة لتنفيذ عزمهم على التخلص من هتلر قد تحقق الآن واعني به إعلان فرنسا وإنجلترا انهما ستقفان ضد اي عدوان نازي آخر وتستخدمان القوة. فماذا كانوا يريدون بعد هذا ؟ لم يتضح ذلك من الوثائق التي خلفوها، والمرء ليخمن أنهم ماكانوا يعرفون هم أنفسهم. فمع اخلاصهم وسمو غايتهم كان الإضطراب والشلل بسبب الشعور بالعجز يقبض على نفوسهم ويملك عليهم مذاهبهم. هتلر يسيطر سيطرة تامة على ألمانيا. على الجيش، على الشرطة، على الحكومة، على الشعب، سيطرة يتعذر إرхаؤها أو نسفها بأي وسيلة يسمو اليها تفكيرهم.

في ١٥ آب قام هاسل بزيارة الدكتور شاخت في منزل عزوبته الجديد في برلين. كان وزير الاقتصاد المعزول قد عاد لتوه من رحلة الى الهند وبورما دامت ستة أشهر. وكتب (هاسل) في يومياته "يرى شاخت اننا لانستطيع أن نفعل شيئاً إلا الانتظار والترقب بأعين مفتوحة لتأخذ الأمور سبيلها المحتوم" وابلغ هاسل (كزيفيوس) شخصياً بأنه "يفضل هو ايضاً تأجيل القيام بحركة مباشرة في الوقت الحاضر" كما دون في يومياته:

"لكن اي حركة مباشرة تلك التي ستؤجل؟ لم يكن الجنرال هالدر مهتماً في الوقت الحاضر بالتخلص من الدكتاتور فهو الآن متلهف كهتلر لسحق بولندا. والجنرال فون (فيتزليين) الذي وقع عليه الإختيار قبل سنة لقيادة العسكر في عملية إزاحة الزعيم، يقود الآن مجموعة جيوش الغرب، ولذلك لم يعد بحالة يستطيع العمل في برلين لو رغب في العمل حقاً. لكن هل كان راغباً؟ زاره (كزيفيوس) في

مقر قيادته فوجده ينصت الى أنباء الإذاعة البريطانية من لندن وادرك حالاً أن الجنرال لم يكن مهتماً إلا بمجريات حوادث الساعة.

أما الجنرال (هالدر) فكان منهمكاً في رسم آخر الخطط للهجوم على بولندا الى حد طرد آخر فكرة خيانية ترمي الى التخلص من هتلر. وعندما استجوب بعد الحرب (في نورمبرغ: ٢٦ شباط ١٩٤٦) كان مشوشاً للغاية في تعليل عدم قيامه وشركائه خصوم هتلر ونظامه النازي، بعمل ما في أواخر أيام آب لإزاحة هتلر وإنقاذ ألمانيا من التورط في الحرب. قال "لم يكن هناك أمل" لماذا؟ لأن الجنرال فون فيتزلين نقل الى الغرب والجيش لا يستطيع أن يتحرك دون فيتزلين.

وماذا عن الشعب الألماني؟ عندما ذكّر المحقق الأمريكي الأول سام هاريس، الجنرال هالدر بأنه قال: الشعب الألماني ضد الحرب. وسأله "إن كان هتلر قد صمم نهائياً على الحرب، فلماذا لم تعتمدوا على مساندة الشعب لكم قبل غزوه بولندا؟" فأجاب هالدر "أرجو أن تعذرني إن ابتسمت إن أسمع لفظة "تصميم" مرتبطة بهتلر فعلي ان اقول لم يكن ثم شيء لا يمكن أن ينقض". واستطرد رئيس هيئة الأركان ليشرح انه منذ ٢٢ آب بعد أن كشف هتلر لجنرالاته عن عزمه الذي "لا يُنقض" على غزو بولندا وقتال الغرب عند الحاجة^(٢٦) في إجتماع أوبرسالزبرگ، لم يكن هو نفسه يؤمن بأن هتلر سينفذ قوله. وفي ضوء يوميات (هالدر) نفسها لهذه الفترة، يبدو هذا تصريحاً غريباً حقاً. إلا انه الرأي الذي يشارك (هالدر) فيه معظم المؤقرين الآخرين.

واين كان الجنرال (بيك) سلف هالدر في رئاسة هيئة الأركان والزعيم المعترف به للمؤقرين؟ يروي (غزيفيوس) ان (بيك) كتب رسالة الى الجنرال فون برواختش. الا أن قائد الجيش العام لم يكلف نفسه بالرد. وبعدها (والراوية لـغزيفيوس) تحدث طويلاً مع خلفه (هالدر) الذي وافقه على أن حرباً كبرى قد يكون فيها دمار ألمانيا لكنه يرى: "إن هتلر لن يسمح بحرب عالمية" ولذلك فلا حاجة تدعو في الوقت الحاضر الى ازاحته^(٢٧).

في ١٤ آب تناول (هاسل) عشاء مع (بيك) وحدهما. ودون شعورهما بالخيبة في يومياته: "إن (بيك) رجل في غاية من الثقافة، والذكاء والمجاذبية لسوء الحظ أمله ضعيف جداً بقيادة الجيش الكبار. ولهذا السبب لا يستطيع أن يرى لنا موطيء هناك. وهو على أتم الثقة من الطابع الوحشي العنيف الذي يدفع سياسات الرايخ الثالث^(٢٨).

إن عقيدة (بيك)، والآخرين الذين يحفون به، هي عقيدة نبيلة سامية. إلا أنه لم يتقدم واحد من هؤلاء الألمان الأجلاء ليعمل شيئاً في سبيل إيقاف هتلر وهو يتهيأ لقذف ألمانيا في أتون الحرب. الحق يقال أن المهمة صعبة ولعلها كانت في هذه الساعة المتأخرة مستحيلة الإنجاز. لكنهم لم يحاولوا.

٢٦- "مؤامرة النازيين وعدوانهم" الملحق (ب) الص ١٥٦١-١٥٦٣.

٢٧- غزيفيوس: المرجع السالف الص ٣٥٨-٣٥٩.

٢٨- هاسل: المرجع السالف ص ٥٩.

وربما جاز اعتبار الجنرال (توماس) ممن حاول فيبعد مذكرته لكايثل التي تلاها شخصياً عليه في أواسط آب (انظر ما سبق) قابله ثانيةً نهار الأحد الموافق ٢٧ آب، وروى فيما بعد أنه "سلمه جداول احصائية مصورة وخطوطاً بيانية... دلائل توضح التفوق العسكري الاقتصادي الهائل الذي تتمتع به الدول الغربية. والدرب العسير الذي نواجهه" فبادر كايثل بشجاعة منه غير مألوفة الى عرض المواد على هتلر فأجاب أنه لا يشارك الجنرال توماس "هواجسه عن مخاطر حرب عالمية وبخاصة بعدما إنحاز الإتحاد السوفياتي الآن الى صفه^(٢٩)".

في هذا كان ختام محاولات "المؤقرين" لمنع هتلر من إثارة حرب عالمية ثانية باستثناء محاولة ضعيفة في آخر لحظة قام بها دكتور شاخ وبنى عليها هذا الصيرفي الماكر دفاعه في نورمبرغ. فعند عودته من الهند في آب، كتب ثلاث رسائل لهتلر واحدة ولگورنك واحدة ولربنتروب واحدة (في هذه اللحظة العصبية يبدو أن لا أحد من المؤقرين راح في معارضته الى ابعد من كتابة الرسائل) ولكن "لدهشته الكبيرة" لم يتسلم رداً من احدٍ كما كتب بعدئذ. ثم قرر السفر الى (زوسن) وهي على بعد اميال قليلة جنوب شرق برلين حيث كان مقر قيادة الجيش قد انتقل اليها لإدارة العمليات الحربية في بولندا، وحاول مقابلة الجنرال فون براوختش شخصياً. لأجل أن يقول له ماذا؟ اوضح شاخ في شهادته أمام محكمة نورمبرغ أنه كان يريد أن يُعلم قائد الجيش أن إعلان ألمانيا الحرب ليس دستورياً ولا يمكن إلا بمصادقة الرايخشتاغ! لذلك كان من واجب قائد الجيش العام أن يحترم يمين الولاء للدستور!

لم ينجح دكتور شاخ في مقابلة براوختش مع الأسف. فقد انذره (كاناريس) أنه لوجاء الى (زوسن) فمن المحتمل "أن يأمر القائد العام باعتقالنا حالاً" وهو مصير ليس يبدو جذاباً لهذا المشايخ السابق لهتلر^(٣٠). ولم يكن أسهل على هتلر من قيادة الرايخشتاغ الطائع الذليل الى المصادقة على الحرب لو أهتم بمثل هذه الرسمية. إلا أن السبب الحقيقي الذي جعل (شاخ) يحجم عن السفر الى (زوسن) في مهمته المضحكة هذه، ذكرها (گزيقيوس) عندما وقف في محكمة نورمبرغ شاهد دفاع لشاخ. يبدو أن شاخ قرر الذهاب الى (زوسن) في ٢٥ آب ثم عدل عندما ألغى هتلر موعد الهجوم. وبحسب شهادة (گزيقيوس) إن (شاخ) قرر أن يواصل السعي برسالته هذه في ٢٨ آب اي بعد ثلاثة أيام. إلا أن (كاناريس) نصحه بالعدول وأبلغه بأن الأمر قد فرط ولا جدوى من محاولته^(٣١). وكل هذا لا يعني أن القطار فات المؤقرين بل يعني ان المؤقرين لم يبلغوا المحطة لمحاولة ركوبه. وكمثل هذه الحفنة من اعداء النازي في ألمانيا، اخفق عدد كبير من زعماء العالم المحايد في وقف مسيرة هتلر الرعناء. فقد راحوا الآن يناشدون (الزعيم) العدول عن الحرب وأرسل الرئيس روزفلت في

٢٩- توماس: Gedanken und Ereignisse المرجع السالف.

٣٠- إفادة شاخ في ٢ أيار ١٩٤٦ في نورمبرغ "محاكمة مجرمي الحرب الكبار" ج ١٢ الص ٥٤٥ - ٥٤٦.

٣١- شهادة گزيقيوس: ٢٥ نيسان ١٩٤٦ في نورمبرغ المرجع السالف الص ٢٢٤ - ٢٢٥.

٢٤ آب رسالة مستعجلة له ولرئيس جمهورية بولندا يحثهما فيها على تسوية الخلافات بصورة سلمية دون اللجوء الى السلاح. وكان رد الرئيس البولندي (موزيكي) في اليوم التالي رداً رزيناً هادئاً مذكراً الرئيس الأمريكي ان الذي يملئ المطالب ويفرض التنازلات فرضاً "ليس بولندا وان بولندا مع هذا راغبة في حسم النزاع مع ألمانيا بالمفاوضات المباشرة أو بالتوفيق بين وجهات النظر كما اقترح الرئيس الأمريكي". إلا ان هتلر لم يرسل رداً (كان الرئيس روزفلت قد ذكره بإهماله الرد على ندائه الذي ارسله اليه في الأول من نيسان المنصرم) فاشفع رسالته الأولى باخرى في ٢٥ آب يعلم فيها هتلر بالرد الذي تلقاه من الرئيس البولندي وقبوله مبدأ التوفيق ويناشده "قبول هذه الوسائل السلمية التي رضيت بها حكومة بولندا".

وفي ٢٤ آب اذاع البابا خطاباً من راديو الفاتيكان يناشد فيه المحافظة على السلم ومتوسلاً "بالأقوياء... بحق دم المسيح... بأن يصغوا الينا حتى لا يكونوا ضعفاء بما يقدمون عليه من مظالم، ولئلا تكون قوة هؤلاء الاقوياء سبباً في الخراب والدمار". وارسل بعد ظهر اليوم نفسه رسالتين مماثلتين لكل من حكومتي ألمانيا وبولندا جاء فيها "انه يستحلفهما بالله أن يجتنبا اي حادث..."، ويحث بثلاث رسائل مشابهة لكل من حكومات فرنسا وبريطانيا وإيطاليا راجياً أن تدعم نداه واضاف يقول: "إن البابا لا يريد ان يقطع الأمل وهو مازال يرجو أن تؤدي المفاوضات المعلقة الى حل سلمي عادل. كان (قداسته) كاي شخص في العالم تقريباً يجهل ان "المفاوضات المعلقة" انما هي حيلة من حيل الدعاية التي اتخذها هتلر لتبرير اعتدائه والواقع كما سيبدو بعد قليل - انه لم تكن هناك مفاوضات طيبة النوايا Bona fide معلقة أو خلافها في آخر عصر يوم سلم".

هذا وقبيل ذلك ببضعة أيام، اذاع ملك البلجيكي باسم ملوك ورؤساء دول رابطة (أوسلو) (بلجيكا وهولندا ولكسمبرگ وفنلندا والدول الاسكندنافية الثلاث: الدانمرك والسويد والنرويج) خطاباً مؤثراً مناشداً المحافظة على السلم، راجياً "أولئك الرجال المسؤولين عن مجرى أحداث العالم أن يسووا خلافاتهم ومطالبهم عن طريق المفاوضات العلنية". وفي ٢٨ آب عرض ملك البلجيكي وملكة هولندا معاً "مساعيها الطيبة" على أمل اجتناب الحرب^(٣٢).

هذه النداءات المحايدة النبيلة في الشكل والقصد، يجد فيها قاريء اليوم شيئاً عاطفياً صرفاً ونبرة غير صميمية بعيدة عن الواقع. حتى لكأن الرئيس روزفلت والبابا وملوك ورؤساء دول شمال أوروبا الديمقراطية يعيشون في كوكب آخر غير الكوكب الذي يقع فيه الرايخ الثالث. وليس لديهم اي علم عما يحدث في برلين قدر جهلهم بما يحدث في المريخ. هذا الجهل الفاضح بعقلية أدولف هتلر واخلاقه وغاياته، والجهل ايضاً بالطبع الألماني الذي جعل الألمان مستعدين (باستثناء القلة) للسير خلفه باعين معصوبة غير مهتمين بالغاية أو الوسيلة وبصرف النظر عن القيم الخلقية والأدبية والشرف، ودون اكتراث لمفاهيم الانسانية في الدين المسيحي الذي يعبدون، هذا الجهل كان سيكلف ثمناً غالياً تلك

٣٢- نصوص الخطب والنداءات تجدها في الكتاب البريطاني الأزرق الص ١٢٢-١٤٢.

الشعوب التي يتزعمها روزفلت وملوك بلجيكا وهولندا ولكسمبرگ والنرويج والدانمرك في الاشهر القادمة.

ومن كان منا في برلين خلال الايام القلائل العصبية الباقية من حياة السلم يحاولون إرسال الأخبار الى العالم الخارجي، فلا يعرفون إلا القليل عما يجري في قلهمشتراسه حيث تقوم المستشارية ووزارة الخارجية أو في (بندلشتراسه) حيث اجتمعت المكاتب العسكرية الألمانية ودوائرها.

كنا نتعقب بأفضل ما نتمكن حركة الذهاب والإياب المفزعة في قلهمشتراسه وكنا نغريبل اكداً من الإشاعات والأنباء الخصوصية و"الطبقات" يومياً. ونستطلع أمزجة الناس في الشوارع والموظفين في الدوائر وقادة الحزب والدبلوماسيين والعسكريين، ممن تربطنا بهم صلات صداقة أو معرفة. ولكننا لم نعرف شيئاً عما جرى من أحداث خلال زيارات السفير هندرسن الكثيرة المحمومة لهتلر ولريبنتروب ولا ماتبودل من رسائل بين چمبرلين وهتلر، وبين موسوليني وهتلر، وبين هتلر وستالين. ماذا كانت طبيعة الحديث بين مولوتوف وريبنتروب وبين ريبنتروب وتشيانو؟ ماذا كانت محتويات تلك التقارير السرية الجفرية التي تنثر بها أسلاك البرق أزيزاً بين الدبلوماسيين المضطربين المستعجلين وبين موظفي وزارات الخارجية؟ كل الحركات والتنقلات التي اختطها القادة العسكريون واجروها؟ كل هذا بقينا نجهل أمره في ذلك الحين نحن والجمهور كافة.

بالطبع كنا والجمهور نعلم أموراً قليلة. منها أن الألمان طفقوا يطبلون ويزمرون للميثاق النازي السوفيتي وسائر أوروبا الشرقية حتى انكشف امره بعد الحرب. وعرفنا أن هندرسن -قبل تمام التوقيع على الميثاق- قد طار الى برختسگادن ليوضح لهتلر ان الميثاق لن يمنع بريطانيا من الایفاء بضماناتها لپولندا. وشعرنا في برلين في بدء الأسبوع الأخير من آب أن الحرب واقعة لامحالة إلا اذا حدثت (مونيخ) ثانية. وانها ستندلع خلال الايام القلائل القادمة. لكن ماجاء ٢٥ آب حتى كان آخر المدنيين الفرنسيين والبريطانيين قد نزحوا عن ألمانيا وفي اليوم التالي ٢٧ آب ألغى مهرجان الحزب الكبير المقرر عقده في تاننبرگ والذي كان سيخطب فيه هتلر، مثلما ألغى مؤتمر الحزب السنوي في نورمبرگ (مؤتمر الحزب لأجل السلام) إلغاءً رسمياً وكان مقرراً عقده في أول يوم من أيلول. وفي ٢٧ آب أعلنت الحكومة نظام التقنين في الطعام والصابون والأحذية والثياب والفحم على ان يبدأ العمل به في اليوم التالي، وأذكر أن هذا الإعلان كان أعظم منبه للشعب الألماني عن دنو شيخ الحرب. وكان تذرهم وسخطهم مسموعاً جداً. وراح سكان برلين في ٢٨ آب يشخصون بآبصارهم إلى الوحدات العسكرية وهي تتدفق الى المدينة متجهة الى الشرق. لقد عبئوا في ناقلات ولوريات حمل وكل ما يخطر بالبال من وسائل النقل التي تم وضع اليد عليها.

وهذا أيضاً من الظواهر التي نبهت رجل الشارع عما يجري. أذكر أن عطلة الأسبوع (الأحد) كانت حارة قانضة مزهقة للأنفاس وخرج معظم سكان برلين غير مكترئين بدنو الحرب منهم - الى شواطئ البحيرات والغابات المحيطة بالعاصمة. وعند عودتهم مساء الأحد الى منازلهم علموا من الراديو

بوجود جلسة سرية غير رسمية للرايخشتاغ معقودة في دار المستشارية. واصدرت وكالة الأنباء الرسمية (د.ن.ب) نشرة اخبار جاء فيها "أن الزعيم شرح خطورة الموقف". وكان هذا أول نبأ يدلي به هتلر الى الشعب عن خطورة الساعة. ولم تدع اية تفاصيل عن الاجتماع ولم يعرف أحد من غير أعضاء الرايخشتاغ وحاشية هتلر عن حالته النفسية في ذلك اليوم. وتقدم لنا يومية هالدر المؤرخة ٢٨ آب نبأً وحيداً أعلمه به العقيد (اوشتر) من موظفي الإستخبارات العسكرية: "مؤتمر في مستشارية الرايخ الساعة ٣٠, ٥ عصرًا. الرايخشاغ وعدد من اقطاب الحزب... الوضع متأزم للغاية. عَزَمُ على حل المسألة الشرقية كيفما كان: أصغر المطالبين: إعادة الدانزك، تسوية مشكلة الممر. أعظم المطالبين: "تعتمد على الموقف العسكري". إن لم تتحقق أصغر المطالبين، فالحرب واقعة! يا للبربرية! سيكون هو نفسه في الخطوط الأمامية، موقف الدوتشي يخدم اهدافنا أفضل خدمة".

"الحرب صعبة جداً، وربما كانت صفقة بائنة "مادمتُ في قيد الحياة، فلا حديث عن الاستسلام هناك". أسيء فهم الميثاق السوفيتي في اوساط الحزب بشكل عام ووصف بأنه ميثاق مع الشيطان لطرذ أبليس... "هتاف واستحسان في المواقف المناسبة... ولكنها ضعيفة".

"انطباعات شخصية عن الزعيم: منهوك القوى، شاحب الوجه. بصوت ابح كنعيق الغراب. مشغول البال". "أبقى نفسه محاطاً بمشاورين من الحرس الأسود ولا أحد غيرهم".

والمراتب الاجنبى في برلين يستطيع متابعة الطريقة التي تتبعها الصحافة باشراف الخبير كوبلز لخداع الشعب الألماني الساذج. فهذه ست سنوات منذ عملية "تنسيق" النازيين الجرائد اليومية الذي يعني القضاء على الصحافة الحرة والمواطنون الألمان بعيدون عن حقيقة ما يحدث في العالم. وكان يمكن الى حين أن تبتاع الجرائد السويسرية الألمانية اللغة من (زوريخ ويازل) من دكاكين بيع الجرائد الرئيسة في ألمانيا. وهذه تقدم انباءً موضوعية. لكن بيعها في السنوات الأخيرة إما مُنِع في أنحاء الرايخ أو حدد بنسخ قليلة. أما الألمان الذين يقرأون اللغة الفرنسية أو الإنكليزية فقد تقع بأيديهم جرائد لندنية أو باريسية بين آن وآخر إلا انها لم تكن كافية للوصول الى اكثر من حفنة من الاشخاص.

دونت في مفكرتي بتاريخ ١٠ آب ١٩٣٩ "ما أتم العزلة التي يعيش فيها الألمان. نظرة واحدة الى صحف أمس واليوم تذكر بالوحدة التامة للعالم الذي يعيشون فيه" كنت قد عدت الى ألمانيا بعد اجازة قضيتها في واشنطن ونيويورك وباريس، وجئت من منزلي بسويسرا بالقطار وابتعت قبلها بيومين رزمة من الجرائد الصادرة في برلين والراين. فاذا بها تنقلني بسرعة خاطفة الى عالم النازية ذي النظرة الواحدة (الديكية cockeyed)، الذي لا يشبه العالم الذي تركته حتى لكأنه في كوكب آخر غير كوكب الأرض وعدت لأدون في يومية العاشر من آب حال وصولي برلين: "في الوقت الذي يرى سائر العالم أن ألمانيا ستنتفض السلم وشيكاً وانها هي التي تهدد بولندا بالهجوم الكاسح تجد الأمر في ألمانيا في دنيا الصحف المحلية التي خلقتها على العكس تماماً... إن ماتعلنه الصحف النازية هو هذا: بولندا هي التي تخل بسلام أوروبا، بولندا هي التي تهدد ألمانيا بالغزو المسلح. هاهي جريدة

(برلينر زايتنگ) تنذر بعنوان كبير "بولندا تتريص!" ثم تضيف: "الجواب الى بولندا : Amoklauffer The Runner- Amok ضد السلم والحق في أوروبا".

وفي صدر الصحيفة اليومية (ديرفوهور) التي تصدر في كارلسروه Karlsruhe وهي مما ابتعته في القطار قرأت العنوان البارز التالي «وارشو تهدد بقصف الدانزك، ثورة لاتصدق في جنون بولندا المطبق [Polnischen Grossenwahren!] .

وقد تتساءل: ليس من المعقول أن يؤمن الشعب الألماني بهذه الأكاذيب. ثم تتكلم معهم فتجد الكثير منهم مصدقين.

في نهار السبت ٢٦ آب وهو اليوم الذي حدده هتلر بالأصل لغزو بولندا، وصلت حملة غوبلز الصحفية ذروتها الغوغائية. وقد دونت في مفكرتي عدداً من العناوين البارزة التي خرجت بها الصحف:

"البرلينر زايتنگ: فوضى شاملة في بولندا - الأسر الألمانية تفرّ هاربة - الجنود البولنديون يتقدمون الى خط الحدود الألمانية!" "جريدة الساعة ١٢ 12-Uhr Blatt" اللعب بالنار يصل حداً بعيداً - أطلق البولنديون قذائفهم على ثلاث طائرات ركاب ألمانية. في الممر عدد كبير من بيوت المزارعين الألمان تلتهمها النار!" وابتعت وأنا في طريقي الى دار الإذاعة في منتصف ليلة (٢٧ آب) طبعة نهار الأحد من صحيفة (فولكشر بيواختر) فوجدت على طول الجبهة العليا من الصحيفة الأولى عنواناً باحرف ضخمة ارتفاعها إنج واحد: "بولندا كلها! تشيع فيها حمى الحرب! تعبئة مليون ونصف مليون جندي! نقل متواصل للجنود الى الحدود! الفوضى تعم سليزيا العليا! بالطبع ليس ثم ذكر لأي تعبئة ألمانية. وإن كانت ألمانيا كما مر قد باشرت في النفير قبل أسبوعين.

- ٤ -

أيام السلم الستة الأخيرة

بعد افاقة هتلر من رعشة الماء البارد التي اصابه بها خطاب موسوليني (وصله في ساعات مساء يوم ٢٥ الأولى) وألجأه مع نبأ الميثاق الأنكلو-بولندي الى تأجيل الهجوم على بولندا المقرر يوم الغد، بعث برسالة مقتضبة لموسوليني يسأله فيها: "اية تجهيزات حربية ومهمات ومواد اولية انت بحاجة اليها وفي اي وقت تريدها؟" كيما تتمكن إيطاليا "من دخول حرب أوروبية كبيرة". وتلفن ريبنتراب الرسالة شخصياً للسفير الألماني في روما في الساعة ٧, ٤٠ مساءً وسلمت للدكتاتور الإيطالي في الساعة ٩, ٣٠ مساءً. (٣٣)

٣٣- من هتلر الى موسوليني (٢٥ آب) الساعة ٧, ٤٠ صباحاً [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٧ ص ٢٨٩].

"وفي صباح اليوم التالي عقد موسوليني إجتماعاً في روما حضره كل قادة القوات المسلحة لتنظيم قائمة بالحد الأدنى من حاجاته لحرب تمتد اثني عشر شهراً. وإذا استخدمنا عبارة تشيانو في وصف تلك القائمة التي ساعد هو في تنظيمها "فقد كانت كافية لقتل ثو لو استطاع قراءتها"^(٣٤).

ومما احتوته سبعة ملايين طن من البترول وستة ملايين طن من الفحم ومليون طن من الفولاذ ومليون طن من الخشب وقائمة طويلة بمواد أخرى بلغت الى حد طلب ٦٠٠ طن من عنصر الموليبدنوم Molybdenum و ٤٠٠ طن من عنصر التيتانيوم و ٢٠ طناً من عنصر الزركونيوم Zirconium. كما طلب موسوليني فضلاً عن ذلك (١٥٠) بطرية مدفعية ضد الجو لحماية مناطق إيطاليا الصناعية في الشمال التي تبعد بضع دقائق فقط عن القواعد الجوية الفرنسية بالجو. وقد ذكر تلك الحقيقة لهتلر في الرسالة التي كتبها له الآن وتلفن تشيانو المذكرة لأتوليكو بعد ظهر يوم ٢٦ آب بقليل فقدمت لهتلر حالة^(٣٥).

وكانت اكثر من من قائمة ضخمة للمواد الضرورية. والواضح منها أن الزعيم الفاشي الناكص قد صمم على التملص من إلتزاماته ازاء الرايخ الثالث والزعيم لم يعد لديه أي شك في ذلك بعد قراءته هذه الرسالة الثانية:

"[كتب موسوليني لصاحبه] أيها الزعيم. ما كنت سأرسل اليك هذه القائمة أو ربما كانت ستتضمن مواد أقل وارقاماً أقل بكثير، بقي الموعد الذي تمت الموافقة عليه في الماضي كما كان، لتخزين الاحتياطي منها وللإسراع في الانتاج الحرب على النطاق الواسع. ومن واجبي مصارحتك بأني ان لم اكن على ثقة من وصول هذه المواد إلي، فإن التضحيات التي سأطلبها من الشعب الإيطالي... ستذهب هدرًا وستطوح بقضيتكم كما ستطوح بقضيتي."

ماكان من (أتوليكو) المعارض لفكرة الحرب، وبخاصة مساهمة إيطاليا في حرب ألمانية، إلا أن أوضح من تلقاء نفسه أثناء تسليمه الرسالة لهتلر: "بأن المواد يجب ان تكون في إيطاليا قبل بدء العمليات العسكرية"، وان هذا المطلب نهائي لا يمكن تعديله^(٣٦).

كان موسوليني يأمل (مونينخ) أخرى. فأضاف عبارة الى رسالته عبارة مؤداها ان الزعيم لو فكر بوجود اي "إحتمال ما لتسوية بالطرق السياسية" فهو مستعد كالسابق لمنح زملائه الألمان مساندته التامة. ولايسع المرء إلا ان لا يلاحظ رغم علاقاتهما الشخصية الوثيقة وميثاقهما الفولاذي وكل

٣٤- يوميات تشيانو، ص ١٢٩.

٣٥- من موسوليني الى هتلر (٢٦ آب) الساعة ١٠، ١٢ ظهرًا [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٧ الص ٣٠٩ - ٣١٠].

٣٦- سبب هذا سخطاً اكثر في برلين وبعض اضطراب في روما. وكان على تشيانو ان يعمل لإزالته. أخبر أتوليكو فيما بعد بأنه تعمد الإصرار على التسليم الكامل للمواد قبل العمليات العسكرية "كي اثبط عديداً الألمان من تحقيق طلباتنا" إن نقل ١٣ مليون طن من المواد في بضعة أيام أمر مستحيل بالطبع. وقد اعتذر موسوليني للسفير ماكنزن "لسوء الفهم" وعقب قائلاً "حتى الله تعالى نفسه لا يتمكن من نقل هذه الكميات الينا في بضعة أيام. ولم يخطر ببالي أن اطلب هذا الطلب السخيف". يوميات تشيانو ص ١٢٩. تقرير ماكنزن.

الضجيج والتظاهر الذي احيط به تحالفهما خلال السنوات الماضية، أن هتلر لم يصارح موسوليني بغرضه الحقيقي وهو تحييط بولندا حتى في هذه الساعة السابقة لساعة الصفر وأن الشريك الإيطالي ظل يجهلها جهلاً تاماً. هذا البرزخ القائم بينهما لم يلتحم بجسر إلا في نهاية هذا اليوم السادس والعشرين من آب.

لم يمر على الرسالة اكثر من ثلاث ساعات حتى كان رد هتلر المسهب في طريقه الى الدوتشي. ففي الساعة ٣, ٠٨ عصرًا تلقى ريبنتروب لسفيره ماكنزن بروما بالرد فأسرع به الى موسوليني بعيد الخامسة مساءً بقليل.

قال هتلر ان بعض متطلبات إيطاليا يمكن سدها برمتها كالفحم والفولاذ إلا أن كثيراً غيرها لا يمكن توفيره. وعلى اية حال فإن اصرار (أتوليكو) على أن تكون المواد في إيطاليا قبل بدء العمليات العدوانية إنما هو من رابع المستحيالات والآن فقط نجد هتلر يشارك حليفه وصديقه سره بخصوص هدفه الحقيقي الآن: "بما أن فرنسا وبريطانيا تعجزان عن تحقيق أي نصر حاسم في الغرب وبما أن ألمانيا- ستكون حرة في استخدام كل قواتها بعد هزيمة بولندا في الشرق نتيجةً للاتفاق مع روسيا... فلن انكص عن تسوية المشكلة الشرقية وإن خاطرت بأسوأ الاحتمالات في الغرب.

ايها الدوتشي، إنني افهم موقفك ولن اطلب منك إلا ان تحاول تشييت قوات بريطانية وفرنسية عن طريق دعاية فعالة، وتحركات عسكرية مناسبة كما اقترحت في السابق علي^(٣٧). كان هذا اول دليل وثائقي ألماني كشف لنا أن هتلر استعاد ثقته بنفسه بعد مرور أربع وعشرين ساعة على اصدار أوامره بإيقاف الهجوم على بولندا، وانه راح يمضي في خطته قدماً "حتى وان خاطر" بالحرب في المغرب.

في مساء اليوم عينه (٢٦ آب) أقدم موسوليني على محاولة أخرى لإقناعه فكتب له رسالة نقلها تشيانو تلفونياً الى أتوليكو ووصلت دار المستشارية قبيل الساعة مساءً بدقائق: أيها الزعيم:

اعتقد أن سوء التفاهم الذي وقع فيه أتوليكو دون قصدٍ منه قد ازيل حالاً... إن ما طلبته منك مواد، باستثناء بطريات المدفعية المضادة للطائرات - يمكن إرسالها تدريجاً خلال إثني عشر شهراً. لكن مع إزالة سوء التفاهم هذا. فالواضح أن من المستحيل عليك مساعدتي مادياً باملاء الفجوات التي أحدثتها الحربان الحبشية والإسبانية في السلاح الإيطالي.

لذلك فسأخذ الموقف الذي اشرت به على الأقل خلال المراحل الأولى من الصراع. سأقوم بتعطيل أقصى ما يمكن من القوات الأنكلو-فرنسية كما هو واقع الآن، وفي الوقت نفسه سأعجل بالإستعدادات العسكرية بأنشط ما يمكن.

٣٧- من هتلر الى موسوليني الساعة الثالثة والدقيقة الثامنة عصرًا [وثائق عن سياسة... ج ٧، الص ٣١٣-٣١٤].

لكن الدوتشي المحزون- المحزون لاضطراره الى الوقوف هذا الموقف الذليل في الساعة العصبية، ظلت تراوده احتمالات ايجاد مونيخ ثانية.

...[استطرد يقول] واسمحوا لي أن اعرب مرة أخرى ليس بدافع إندحاري وهو خلق بعيد عن طبعي، بل بسبب مصلحة شعبينا ولفائدة نظامينا عن أملي في فرصة حل سياسي مازلت أراه ممكناً. حل يرضي ألمانيا ارضاءً تاماً من الناحيتين الأدبية والمادية^(٣٨).

كان الدكتاتور الإيطالي كما تبين المدونات متلهفاً الى السلم لأنه لم يكن مستعداً لحرب. إلا أن دوره أمضه كثيراً واورثه الأسى. قال لهتلر في آخر رسالاته هذه (٢٦ آب) "اترك لك المجال لتتصور حالتني الفكرية وأنا أجد نفسي مضطراً بعوامل وقوى لايمكنني التحكم فيها الى عجزني عن منحك الدعم الحقيقي في ساعة الشدة". وكتب تشيانو في يومياته بعد نهاية يومه المرهق "الدوتشي بكاد يخرج عن وعيه حقاً. غريزته العسكرية، وشعوره بالشرف يقودانه الى الحرب. والعقل وحده يوقفه الآن. إلا أن هذا اورثه ألماً شديداً... الآن عليه مواجهة الحقيقة القاسية... وتلك ضربة موجعة للدوتشي".

بعد تبادل الكثير من الرسائل آمن هتلر بحكم القدر وسلم بترك موسوليني جانبه. وفي ساعة متأخرة من الليل (٢٦ آب) بعث برسالة أخيرة لشريك المحور ابرقت من برلين في الساعة ١٢, ١٠ من صباح يوم ٢٧ آب، ووصلت موسوليني في التاسعة مساءً:

ايها الدوتشي:

تسلمت رسالتك بخصوص موقفك النهائي. وأنا احترم الأسباب والدواعي التي أدت بك الى اتخاذ هذا القرار إلا أنه على كل حال يمكن الاستفادة من تلك الأسباب في ظروف معينة. في رأيي أن مايتطلبه الأمر. على الأقل حتى نشوب الحرب - هو الا يكون للعالم اي فكرة حول الموقف الذي انتوت إيطاليا أن تتخذه. ولذلك أطلب منك بكل احترام أن تدعم كفاحي سيكولوجياً بصحافتك أو بأي وسيلة أخرى. وكذلك ارجو منك ايها الدوتشي -إن استطعت- أن تقوم بتظاهرات عسكرية وتحشيدات على الأقل لتضطر فرنسا وبريطانيا على ابقاء جانب من قواتهما أو على أية حال لوضعهما في حيرة من الأمر.

ولكن الأمر الأهم من هذا ايها الدوتشي: هو إذا تطورت الأمور إلى حرب كبرى كما قلت. فإن النتيجة في الشرق ستحسم قبل أن تستطيع دول الغرب أن تسجل اي نجاح. ثم سأقوم في هذا الشتاء أو في الربيع على الأكثر بالهجوم في الغرب بقوات تعادل على أقل تقدير قوات فرنسا وبريطانيا...

وعلي الآن أن أطلب منك ايها الدوتشي منه كبيرة. في هذا الكفاح العسير بامكانك انت وشعبك أن تساعدني أجل مساعدة إرسال عمال إيطاليين لاغراض صناعية وزراعية... اني اتقدم برجائي هذا لك بصورة خاصة إعتماداً مني على كرمك. اشكرك على كل الجهود التي بذلتها في سبيل قضيتنا

٣٨- من موسوليني الى هتلر (٢٦ آب) الساعة ٢٤, ٦ ب.ظ المرجع السالف ص ٣٢٣.

المشتركة.

أدولف هتلر^(٣٩)

واجاب الدوتشي في آخر ساعات المساء، متذلاً متزلفاً "إن العالم لن يعرف قبل بدء العمليات الحربية ما هو الموقف الذي ستتخذه إيطاليا". إنه سيحفظ السر جيداً. وسيقوم باعاقبة أكثر ما يمكنه من القوات البرية والبحرية الأنكلو-فرنسية، وسيرسل لهتلر العمال الإيطاليين الذين طلبهم^(٤٠) وكان قد ردد في ساعة متقدمة من ذلك اليوم على مسامع السفير فون ماكنزن "بلهجة صادقة" كما وصفها الأخير في تقرير الى برلين: قائلاً "انه مازال يعتقد بإمكان الوصول الى كل اهدافنا دون اللجوء الى الحرب" واذاف انه سيذكر هذا الاحتمال في رسالته للزعيم^(٤١)، إلا انه لم يفعل. فقد بدا الآن أوهي عزماً من التنويه بها ثانية.

بدا هتلر وشهر آب يلفظ آخر أنفاسه، غير مكترث بما سيفعله الفرنسيون رغم أن هذه البلاد ستقدم كل جيوش الحلفاء تقريباً في حدود ألمانيا الغربية إن اندلعت الحرب فجأة ورغم أنها ستكون متفوقة تفوقاً ساحقاً على القوات الألمانية هناك، في اولى أسابيع الحرب وفي (٢٦ آب) أرسل اليه الرئيس دالاديه خطاباً بليغاً مؤثراً مذكراً إياه بما ستفعله فرنسا إنها ستقاتل إن هوجمت بولندا. " [كتب دالاديه] كن على ثقة تامة بأن فرنسا ستظل مقيمة على التزاماتها للشعوب الأخرى كبولندا... إلا إذا كنتم تعرفون للشعب لفرنسي مفهوماً للشرف الوطني أقل سمواً مما أجده أنا في الشعب الألماني..."

واضاف دالاديه بعد أن ناشد هتلر اللجوء الى الحل السلمي في نزاعه مع بولندا: "ان أريق الدم الفرنسي والألماني ثانية" كما أريق قبل خمسة وعشرين عاماً وفي حرب أطول واشد وحشية، فكلما الشعبين سيحاول وهو واثق من نصره، إلا أن أشد المنتصرين ثقة إنما هي قوى التدمير والبربرية^(٤٢).

وعقب السفير (كولوندر) عند تسليمه الرسالة، بمناشدة عاطفية شخصية مؤثرة من تلقاء نفسه مستحلفاً هتلر "باسم الانسانية، وإراحة لضميره ألا يدع هذه الفرصة تمر، الفرصة الأخيرة لحل سلمي". إلا أن السفير كان متأسفاً لأن رسالة دالاديه لم تحرك عاطفة في هتلر. وذكر في تقريره الى باريس بل "كان يقف موقف غير العائلي".

وكان جواب هتلر للرئيس الفرنسي في اليوم التالي دقيق الصيغة ليلعب في أعصاب الفرنسيين المترددين ويضرب على نغمة "موتهم في سبيل الدانزك". ومع انه لم يستخدم العبارة، فقد تركها

٣٩- من هتلر الى موسوليني الساعة ١٠، ١٢ صباحاً (٢٧ آب) المرجع السالف ٣٤٦-٣٤٧.

٤٠- من موسوليني الى هتلر الساعة ٣٠، ٤ ب.ظ (٢٧ آب) المرجع السالف ٣٥٣-٣٥٤.

٤١- تقرير فون ماكنزن (٢٧ آب) المرجع السالف الص ٣٥١-٣٥٣.

٤٢- من دالاديه الى هتلر ٢٦ آب المرجع السالف الص ٣٣٠-٣٣١ كذلك في الكتاب الأصفر الفرنسي الطبعة الفرنسية الص ٣٢١-٣٢٢.

لدعاة المهادنة الفرنسيين. قال هتلر إن ألمانيا قد تخلت عن كل مطالب الحدود من الفرنسيين بعد عودة السار، ولذلك ليس هنالك من سبب لاحتراجهما. وإن اشتبكنا في حرب فليس الذنب ذنبه، وسيكون ذلك "مؤملاً جداً" له.

كان هذا أقصى ما وصل اليه التراسل بين فرنسا وألمانيا خلال الأسبوع الأخير من السلم. ولم ير (كولوندر) هتلر بعد مقابلة السادس والعشرين من آب حتى إنتهى كل شيء. إن البلاد التي كانت محور إهتمام الدكتاتور الألماني في هذه الساعة هي بريطانيا العظمى. كان يريد أن يتأكد هل يستطيع "أن يبعد بريطانيا عن التدخل" كما قال هتلر لگورنگ في مساء ٢٥ آب.

ألمانيا وبريطانيا العظمى في الساعة الحادية عشرة

كتب (هالدر) في يومياته بتاريخ ٢٥ آب "الزعيم مضعض القوى الى حد كبير" بعد أن ارغمته أنباء روما ولندن على الابتعاد عن شفا الحرب. إلا أن رئيس الأركان لاحظ عليه تغييراً مفاجئاً في عصر اليوم التالي. فدون في يومياته (الساعة ٢٢، ٣ عصرًا) الزعيم هاديء تماماً وصافي المزاج "وكان ثم سبب لذلك وقد ذكرته.

يوميات الجنرال "كل شيء مهياً في اليوم السابع من التعبئة. الهجوم يبدأ في الأول من أيلول" وقد اصدر هتلر الأمر الى قيادة الجيش العليا تلفونيا.

إذن فسيشتبك هتلر مع بولندا في حرب. لقد اصبح الأمر مفروغاً منه وفي الوقت نفسه سيبدل كل مافي وسعه لإبعاد بريطانيا. وتسجل يوميات (هالدر) الاتجاهات الفكرية للزعيم وحاشيته خلال يوم ٢٦ آب الخامس.

"الأقاويل تدور أن إنكلترا تقوم على دراسة مقترحات هامة^(٤٣). التفاصيل عند عودة هندرسن. اشاعة أخرى تقول أن إنكلترا هي التي تقرر فيما اذا كانت مصالح بولندا الحيوية مهددة. في فرنسا مظاهر من الحكومة متزايدة ضد فكرة الحرب".

الخطوة: نطالب بالدانزك، وبمر ضمن ممر. وإستفتاء مثلما جرى في السار. ربما رضيت إنكلترا. ربما رفضت بولندا. إسفين بينهما^(٤٤).

ويلاحظ أنه كتب العبارة الأخيرة (إسفين بينهما) بالحرف المائل دليل الإهتمام. وليس ثم شك في أن الفكرة تعكس بالضبط مايجول في ذهن هتلر. أنه سيجاهد في دق إسفين بين بولندا وبريطانيا واعطاء جمبرلين تبريراً للتخلص من إلتزاماته لوارشو. فبعد أن أمر الجيش بالاستعداد للزحف في (١) أيلول، راح ينتظر من لندن آثار (عرضه) الفخم لضمانة الإمبراطورية البريطانية.

٤٣- يعني بذلك إقتراح هتلر في ٢٥ آب لضمان الإمبراطورية البريطانية.

٤٤- يومية هالدر بتاريخ ٢٨ بعنوان "ملخص الأحداث" للأيام الخمسة السالفة هذا الجزء هو في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ الص ٥٦٤-٥٦٦].

لديه الآن صلتان بالحكومة البريطانية خارج نطاق السفارة الألمانية في لندن التي كان سفيرها (ديركسن) يقضي اجازته فلم يسهم في مفاوضات الساعة الحادية عشرة الجنوبية. واحدة من هاتين الصلتين كانت رسمية إضطلع بها السفير هندرسن الذي طار الى لندن بطائرة ألمانية خاصة في صباح السبت (٢٦ آب) حاملاً مقترحات (الزعيم)، أما الصلة الثانية فغير رسمية مخادعة، قام بها هاو لايفقه من الدبلوماسية شيئاً كما ظهر في ما بعد، وهو (برغير داليروس) صديق غورنك السويدي الجنسية الذي طار من برلين الى لندن حاملاً رسالة الى الحكومة البريطانية من رئيس سلاح الجو الألماني في اليوم السابق.

ذكر غورنك أثناء إستجوابه في نورمبرك "كنت في ذلك الحين على إتصال بلورد هاليفاكس عن طريق رسول خاص خارج الدائرة الدبلوماسية المعتادة"^(٤٥). في يوم الجمعة الموافق ٢٥ آب إنطلق هذا "الرسول" السويدي في الساعة ١٠، ٦ مساءً قاصداً وزير الخارجية في لندن، وكان قد استدعاه غورنك من ستكهولم الى برلين قبلها بيوم واحد وأعلمه أن ألمانيا راغبة في "التفاهم" مع بريطانيا رغم توقيعها الميثاق النازي-السوفيتي. ووضع تحت تصرف السويدي طائرة تقله الى لندن على جناح السرعة ليبلغ لورد هاليفاكس بهذه الحقيقة الهامة. فشكر الوزير (كان قد وقع قبل ساعة ميثاق التعاون المتبادل مع بولندا)، الرسول (داليروس) على جهوده وأعلمه أن هندرسن قابل هتلر قبل زمن قصير في برلين وهو الآن في طريقه الى لندن حاملاً آخر مقترحاته. ولما كانت طرق الإتصالات الرسمية بين برلين ولندن قد اعيد فتحها الآن فهو لايجد حاجة تدعو بعد الى خدمات الوسيط السويدي. لكن سرعان ما إتضح أن خدماته مطلوبة.

فعندما اتصل تلفونياً بغورنك في ساعة متأخرة من الليل ليبلغه بحديثه مع هاليفاكس قال له هذا أن الوضع يتدهور باطراد نتيجة لتوقيع المعاهدة الأنكلو-بولندية وربما لايعود ممكناً إنقاذ السلم إلا بمؤتمر بين ممثلين ألمان وإنكليز. وكان غورنك كما افاد فيما بعد في نورمبرك يأمل بمونيخ ثانية كموسوليني. وفي ساعة متأخرة من الليلة نفسها أبلغ السويدي الجلد الكدود وزارة الخارجية البريطانية بمكالمته التلفونية مع غورنك. وفي اليوم التالي دعي للمداولة مع هاليفاكس. وفي هذه المرة اقنع الوزير بكتابة رسالة الى غورنك الذي وصفه بالألماني الذي قد يستطيع منع الحرب. كانت الرسالة عامة اللهجة مقتضبة لا ممسك فيها، كررت رغبة بريطانيا في التوصل الى تسوية سلمية وأكدت الحاجة "الى بضعة أيام" لتحقيق ذلك^(٤٦).

٤٥- من إستجواب غورنك ٢٩ آب ١٩٤٥ بنورمبرك (مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٨، ص ٥٣٤) - وثائق نورمبرك، ٩٠ TC). "لم يعلم ريبنتروب شيئاً عن بعثة (داليروس) ولم ابحث قضيته مع ريبنتروب الذي بقي جاهلاً بروحاته وغدواته بيني وبين الحكومة البريطانية" - قول غورنك في منصة الشهادة بنورمبرك (محاكمة مجرمي الحرب الكبار: ج ٩ ص ٤٩٨). إلا أنه أبقى هتلر على معرفة بالأمر.

٤٦- طبع النص في "وثائق عن سياسة بريطانيا الخارجية Documents on British foreign policy: الحلقة الثالثة المجلد ٧ ص ٢٨٣. كان قد اغفل طبعه في كل المنشورات البريطانية المطبوعة حتى ظهر المجلد المنوه به في عام ١٩٥٤ وهو =

ومهما يكن من أمر فقد خيل للفيلدمارشال البيدين أن ما جاء به (داليروس) في ذلك اليوم (٢٦ آب) ينطوي على "أعظم ما يمكن من الأهمية"، وكان مستقلاً قطاره الخاص الى مقر (اللوفتوافه) العام في أورانيبرگ Oranienburg خارج برلين. اوقف القطار في المحطة التالية وجيء اليه بسيارة واسرع الرجلان الى دار المستشارية وكان الوقت يوذن بنصف الليل والظلام يلف القصر وهتلر قد آوى الى فراشه. الا ان غورنك أصر على ايقاظه. كان (داليروس) الى تلك الساعة مثل كثيرين غيره يعتقد أن هتلر شخص معقول، وأنه يرضى بتسوية سلمية كما فعل في (مونينخ) قبل عام. وهو الآن يواجه للمرة الأولى في حياته نزوات الدكتاتور الشاذة ومزاجه المخيف^(٤٧). كانت تجربة محطمة لكل افكاره. لم يهتم هتلر بالرسالة التي حملها داليروس من هاليفاكس، وكان غورنك يراها ذات اهمية خاصة إلى الحد الذي تستأهل إيقاظ (الفوهور) من نومه في هدأة الليل. بل راح الزعيم يلقي على السويدي خطبة دامت حوالي عشرين دقيقة حول كفاحه الأول وانجازاته العظيمة وكل المحاولات التي بذلها للتفاهم مع بريطانيا. ثم بعد أن استطاع (داليروس) أن يذكر عن حياته في إنكلترا واشتغاله عاملاً، راح (الزعيم) يسأله عن الجزيرة الغربية وشعبها الغريب الذي حاول أن يفهمه عبثاً. ثم اشفع ذلك بمحاضرة طويلة ذات طابع تكنولوجي عن قوة ألمانيا العسكرية الجبارة. قال (داليروس) أنه اعتقد بعقم مسعاه وزيارته في تلك الفترة، إلا انه تمكن بالأخير من فرصة عنت ليخبر مضيفه بشيء عن البريطانيين كما عرفهم شخصياً.

"أصغى هتلر دون أن يقاطعني... ثم نهض فجأة، وركبه الهياج واشتدت عصبيته وطفق يسير غدوة ورواحاً ويتمتم كأنما يتحدث لنفسه: "إن الألمان لا يقف أمامهم شيء". ثم وقف فجأة في وسط الغرفة وشخص ببصره وهو واقف دون حراك واحتبس صوته. وكان سلوكه سلوك رجل فقد عقله تماماً. واخذ

= إغفال علق عليه المؤرخون البريطانيون كثيراً. ولم يذكر (داليروس) في الكتاب البريطاني الأزرق حول الوثائق المتعلقة باندلاع الحرب، ولا في كتاب هندرسن (التقرير الأخير) Final Report ولا في كتابه الأخير (إخفاق بعثة) وإن نوه بالوسيط السويدي بوصفه "مصدراً متصلاً بـغورنك" وفي تقارير هندرسن وغيرها من الخطابات الصادرة من أعضاء السفارة البريطانية والتي طبعت الآن كنت تجد اسم (داليروس) ظاهراً وفعالياته تحتل جانباً بارزاً فيها، كما احتلت في مختلف المحاضر المحفوظة في وزارة الخارجية البريطانية، كان دور هذا السويدي الفريد رجل الأعمال - في محاولته إنقاذ السلم، سرّاً مكتوماً للغاية وقد بذل كل من قللمشتراسه وداوننك سترتت جهداً خاصاً لابقاء حركاته مخفية عن المراسلين ودبلوماسيي الدول المحايدة الذين بقوا - على قدر معلوماتي - في جهل تام ولم يعرفوا مطلقاً أي شيء عنها حتى ادلى (داليروس) بشهادته في نورمبرگ في ١٩ آذار ١٩٤٦. وطبع كتابه (المحاولة الأخيرة) في السويد عام ١٩٤٥ في نهاية الحرب إلا أن الطبعة الإنكليزية لم تظهر الا في ١٩٤٨. ثم مرت فترة ست سنوات أخرى قبل أن يثبت دوره رسمياً ان جاز لنا التعبير - في المجلد السابع من (وثائق وزارة الخارجية البريطانية) المسلسلة. ان وثائق وزارة الخارجية الألمانية لشهر آب ١٩٣٩ لاتنوه بداليروس إلا تنويهاً روتينياً في مفكرة تنبيه بتسليم رسالة من شركة خطوط لوفتهانزا الجوية "أن داليروس وهو شخص بارز من وزارة الخارجية" سيصل الى برلين في ٢٦ آب باحدى الطائرات العائدة لها. وعلى كل فقد ظهر اسمه في تلك الوثائق فيما بعد.

٤٧- ان مراحل المساعي التي بذلها داليروس. مبنية على كتابه (المرجع السالف) وعلى شهادته في نورمبرگ. وهناك فقط ادرك كم كان ساذجاً في صداقته للألمان. انظر (الفصل ١٥ - حاشية ٤) وقد عززناها بمواد كثيرة من وثائق وزارة الخارجية البريطانية المطبوعة (و.س.ب.خ) السلسلة الثالثة ج٧.

يردد جملاً متقطعة غير كاملة: "إن لم يكن من الحرب مناص، فسأبني غواصات، أبني غواصات، غواصات، غواصات، غواصات" ولم يعد كلامه مفهوماً تماماً، وأخيراً لم اتبين منه حرفاً. ثم جمع اطراف نفسه ورفع من صوته كأنما يخطب في الجَم الغفير وصاح بصوت جهير "لأبني طائرات، لأبني طائرات، طائرات، طائرات وسأبني أعدائي إبادة" كان يبدو شبحاً من اشباح القصص الخرافية اكثر منه انساناً سوياً. بحلقت فيه مذهباً ذاهب اللب ثم التفت الى غورنك لأتبين الأثر فيه، فما وجدت منه شعرة تتحرك".

بعد ذلك تقدم المستشار الهائج من ضيفه وقال "هر داليروس، أنت الذي تعرف إنكلترا معرفة جيدة. أستطيع أن تقدم لي سبباً واحداً لإخفاقي المتواصل في الوصول الى إتفاق معها؟" وافر داليروس انه تردد في باديء الامر "وأثر ألا يجيب، إلا أنه رد يقول إنه "عدم ثقة البريطانيين به وبحكومته" كما يرى شخصياً.

فصاح هتلر (كما روى داليروس) "مجازيب!" ورفع ذراعه الأيمن، وأهوى بضربة من يده اليسرى على صدره وصرخ "هل كذبتُ كذبةً واحدة في حياتي؟"

بعد هذا هُذ الدكتاتور النازي وجرت مناقشة حول مقترحات هتلر التي حملها هندرسن وقرّ الرأي النهائي أن يطير (داليروس) عائداً الى لندن يعرض آخر للحكومة البريطانية. واعترض غورنك على ما دونه وطلب من السويدي المجامل أن يحفظه في ذاكرته. وهو يتألف من ست نقاط:

أولاً: ألمانيا ترغب في عقد ميثاق أو تحالف مع بريطانيا.

ثانياً: على بريطانيا ان تساعد ألمانيا في الحصول على الدانزك والممر، الا أن بولندا ستحصل على مرفأ حر في الدانزك وعلى ميناء (گدينيا Gdynia) في البلطيق وممر اليه.

ثالثاً: ستضمن ألمانيا الحدود البولندية الجديدة.

رابعاً: تستعيد ألمانيا مستعمراتها أو ما يوازيها.

خامساً: تعطى ضمانة للأقلية الألمانية في بولندا.

سادساً: تتعهد ألمانيا بالدفاع عن الإمبراطورية البريطانية.

وطار(داليروس) الى لندن بالمقترحات مطبوعة في ذاكرته ووصلها صباح الأحد (٢٧ آب) وبعد الظهر بقليل هُرب عن طريق متعرج اجتناباً لعيون مراسلي ويلسن وسر الكساندر كادوگان Sir Alexander Cadogan من الواضح أن الحكومة البريطانية أخذت تنظر الى الرسول السويدي نظرة جد.

جلب معه بعض الملاحظات التي دونها على وجه الاستعجال في الطائرة يشرح فيها مقابلته هتلر وغورنك ليلة أمس. في هذه الملاحظات أكد لعضوي الحكومة البريطانية الكبيرين اللذين كانا يدققان ما كتبه، أن هتلر كان أثناء المقابلة "هادئاً رصيناً". ومع أنه لم يسجل محضر بهذا الاجتماع غير الاعتيادي الأحدي لوزارة الخارجية البريطانية الا أن هاليفاكس اعاد تدوينه من الذاكرة بمعاونة السر كادوگان. والملاحظات التي قدمها المبعوث لتطبع في (المجلد السابع - السلسلة الثالثة - من أوراق

وزارة الخارجية) تختلف نسختها الإنكليزية بعض الشيء عن الرواية التي أثبتتها داليروس في كتابه وعن افادته في نورمبرغ ولكن بأخذنا الروايات المختلفة معاً فإن ما سبق تدوينه يبدو تقريراً دقيقاً أفضل منه.

وجدچمبرلين وهاليفاكس حالاً انهما يواجهان مجموعتين مختلفتين من المقترحات صدرتا عن هتلر، واحدة سلمت الى هندرسن والأخرى جاء بها الآن (داليروس). فبينما اقترح في الأولى اعطاء ضمان للإمبراطورية البريطانية بعد أن يسوي هتلر حسابه مع بولندا يبدو أن المجموعة الثانية تظهر إستعداد هتلر للتفاوض عن طريق بريطانيا لإعادة الدانزك والممر وبعد ذلك يقوم (بضمان) الحدود البولندية الجديدة. كانت هذه نغمة قديمة مُرجعة لچمبرلين بعد تجاربه القاسية مع هتلر في چيكوسلوفاكيا التي ازالته كل اوهامه وإنتابه الشك في عرض هتلر، كما ذكر (داليروس) وقال للسويدي انه لا يرى "أي احتمال للتسوية في هذه الشروط، ربما تنازل البولنديون عن الدانزك إلا انهم يفضلون القتال على تسليم الممر".

أخيراً اتفق أن يعود داليروس الى برلين حالاً بجواب مبدئي غير رسمي لهتلر وأن يأتي الى لندن عند قبول هتلر له قبل أن يكتب رد رسمي ويرسل الى برلين صحة هندرسن مساء اليوم التالي. وعلل هاليفاكس الأمر (كما جاء في النسخة البريطانية) "قد تكون النتائج متباينة بعض الشيء، بسبب هذه الإتصالات السرية غير الرسمية عن طريق مستر داليروس. [ولذلك] أستحسن أن يوضح الأمر بأن (داليروس) إذ يعود الى برلين تلك الليلة، فهو لا يعود حاملاً معه رد حكومة جلالته، بل لكي يهد السبيل للإتصالات الرئيسة" التي سيضطلع بها هندرسن^(٤٨).

أصبح هذا السويدي، رجل الأعمال المجهول، مهماً بوصفه وسيطاً في المفاوضات بين حكومتي أقوى دولتين في أوروبا حتى أنه (كما روى هو نفسه) أوصى رئيس الوزراء ووزير الخارجية في هذه الفترة الحرجة "بجواب إعاقه هندرسن في لندن حتى نهار الإثنين [اليوم التالي] حتى يمكن اعطاء الجواب بعد إبلاغهما بوجهة نظر هتلر في الموقف الإنكليزي"^(٤٩).

ماذا كان الموقف الإنكليزي الذي سيعرضه داليروس على هتلر؟ هناك بعض غموض. فمن المسودة التي كتبها هاليفاكس للتعليمات الشفوية. نجد الموقف الإنكليزي كان على الوجه التالي:

(١) "التأكيد الشديد على الرغبة في التفاهم الطيب بين بريطانيا العظمى وألمانيا وليس ثم عضو واحد في الحكومة لا يحيد هذا الرأي"

(٢) "الحكومة البريطانية مضطرة الى الوفاء بالتزاماتها نحو بولندا"

(٣) "الخلافات الألمانية البولندية يجب حسمها سلمياً"^(٥٠).

٤٨- (و.س.ب.خ) ج ٧، ص ٢٨٧.

٤٩- شهادة داليروس في نورمبرغ (محاکمات مجرمي الحرب الكبار) ج ٩، ص ٤٦٥.

٥٠- (و.س.ب.خ) ج ٧، ص ٣١٩.

أما داليروس فروايتته تزعم أن الرد البريطاني غير الرسمي الذي أوكل إليه كان أوسع من هذا: "بطبيعة الحال رفضت النقطة السادسة الخاصة بعرض هتلر الدفاع عن الإمبراطورية البريطانية. وكذلك هم لا يريدون بحث أي موضوع عن المستعمرات مادامت ألمانيا في حالة النفير العام. أما عن الحدود البولندية فهم يريدونها مضمونة من قبل الدول الخمس الكبرى. وبخصوص الممر فهم يقترحون أن يشرع بالمفاوضات حالاً مع بولندا. أما عن النقطة الأولى [من مقترحات هتلر] فإنجلترا راغبة مبدئياً للوصول إلى إتفاق مع ألمانيا^(٥١).

وطار (داليروس) إلى برلين مساء الأحد وواجه غورنك قبل نصف الليل بقليل. ولم يعتبر الفليد مارشال الرد البريطاني "جد مناسب" إلا أنه بعد أن قابل هتلر في نصف الليل، اتصل بداليروس تلفونيا في فندقه في الساعة الواحدة صباحاً وقال له أن المستشار "يقبل الموقف الإنكليزي" شريطة أن تصله المقترحات عن طريق هندرسن مساء الإثنين وتكون متفقة مع رسالته.

وسر غورنك وفاقه داليروس سروراً. وايقظ في الساعة الثانية صباحاً مستشار السفارة البريطانية (سر جورج أوغليفي فوربس Sir George Ogilvie Forbes) ليزف إليه الأنباء السارة. ليس لهذا وحده بل لينصح الحكومة البريطانية ويشير عليها بما ستقول في الرد الرسمي (أصبح مقامه بهذه الدرجة من الرفعة، على الأقل في عين نفسه) وأوضح يقول للمستشار فوربس أن المذكرة التي سيجملها هندرسن نهار الإثنين (٢٨ آب) يجب أن تتضمن تعهداً من بريطانيا باقناع بولندا على المفاوضة مع ألمانيا حالاً ومباشرةً.

[جاء في رسالة متأخرة من فوربس في ٢٨ آب] تلفن داليروس قبل قليل من مكتب غورنك. وفيما يلي مقترحات يعتبرها في غاية الأهمية:

أولاً: يجب ألا يحوي الجواب أي تنويه بمشروع روزفلت^(٥٢).

ثانياً: يشك هتلر في أن البولنديين سيحاولون التملص من المفاوضات لذلك يجب أن يتضمن الجواب تصريحاً واضحاً بأن البولنديين قد نصحوا بشدة الإتصال حالاً بألمانيا للتفاوض^(٥٣).

واستمر السويدي الواصل طوال اليوم التالي يغرق (فوربس) بالنصائح فيقوم هذا بطبيعة خاطر بإبراقها إلى لندن، بل راح يتصل هو نفسه بوزارة الخارجية مبلغاً رسالة إلى هاليفاكس تتضمن إقتراحات جديدة.

٥١ - (محاكمة مجرمي الحرب الكبار) ج ٩، ص ٤٦٦.

٥٢ - أساسه رسالة الرئيس روزفلت إلى هتلر في ٢٤ و ٢٥ آب. يقترح فيهما مفاوضات مباشرة بين ألمانيا وبولندا.

٥٣ - (و.س.ب.خ) الجزء ٧ الص ٣٢١ - ٣٢٢. يجب أن نذكر انصافاً لداليروس أنه لم يكن من الموالين للألمان، كما كانت بعض رسائله توهم القاري. في ليلة هذا اليوم نفسه (الإثنين) وبعد مكوته ساعتين مع غورنك في مقر قيادته للسلاح الجوي الألماني في أوراننبرك إتصل تلفونيا (بفوربس) ليقول له: "إن الجيش الألماني سيكون في مواضع وثويه الأخيرة على بولندا خلال ليلة الأربعاء - الخميس ٣٠ / ٣١ آب". فأرسل (فوربس) الخبر إلى لندن بأسرع ما أمكنه.

في الواقع أصبح هذا السويدي الدبلوماسي الهادي في تلك اللحظة الحرجة من تاريخ العالم محور الإتصال بين برلين ولندن. فبعد أن أخطر (هاليفاكس) من سفارته ببرلين ومن نداء (داليروس التلغوني لوزارة الخارجية بنصائح هذا السويدي العاجلة، بادر في الساعة الثانية صباحاً بالابرق الى سفيره في وارشو (سير هوارد كيننارد) طالباً منه مقابلة الوزير بيك "في الحال" وحمله على تخويل الحكومة البريطانية، إبلاغ هتلر "بأن بولندا مستعدة للدخول حالاً في مفاوضات مباشرة مع ألمانيا". كان وزير الخارجية مستعجلاً وهو يرغب أن يضمن التحويل رده الرسمي لهتلر الذي كان هندرسن ينتظره ليحمله الى برلين في ذلك اليوم. وطلب من سفيره أن يبلغه بجواب (بيك) تليفونياً. وفي ساعة متأخرة من العصر^(٥٤).

أعطى (بيك) التحويل المطلوب واستعجل بحشره في الرد الإنكليزي وعاد هندرسن الى برلين به، في مساء ٢٨ آب. وبعد أن حيته في المستشارية ثلة من الحرس الاسود تحية رسمية بتقديم العلم وقرع الطبوع (ظلت المظاهر الرسمية الدبلوماسية سارية الى الأخير) أدخل على هتلر فسلم له ترجمة ألمانية للمذكرة في ٣٠، ١٠ ليلاً. فقرأها المستشار حالاً. جاء في المذكرة ان الحكومة البريطانية "تتفق معه تماماً" بأنه يجب أن تتم أولاً تسوية الخلافات بين ألمانيا وبولندا "إلا أن كل شيء يتوقف على طبيعة التسوية والوسيلة التي ستتخذ للوصول اليها". ونوه هندرسن في تقريره عن المقابلة أن المستشار كان في هذا الأمر "صامتاً" واعتذرت السفارة بلطف عن قبول عرض هتلر بضمان الإمبراطورية البريطانية: لأن الحكومة البريطانية "لا تتمكن لقاء اي منفعة تعرض على بريطانيا العظمى أن تدعن لتسوية قد تضع إستقلال دولة في موضع الخطر، بعد ان سبق وقدمت لها ضماناً". هذه الضمانة يجب أن توفي بها. لكن ينبغي ألا يفهم هتلر من "حرص" الحكومة البريطانية على الوفاء بالتزاماتها تجاه بولندا، أنها غير متلهفة الى تسوية عادلة.

ويستتبع ذلك أن تكون الخطوة الثانية البدء في المباحثات المباشرة بين البولنديين والألمان على أسس: ... المحافظة على مصالح بولندا الحيوية وضمان التسوية بتصريح دولي... وأنها [أي الحكومة البريطانية] قد سبق وتسلمت تأكيداً صريحاً من حكومة بولندا بأنها مستعدة للدخول في مفاوضات على هذا الأساس. ولذلك تأمل حكومة جلالتهم أن تكون الحكومة الألمانية راغبة أيضاً في السير على هذا النهج.

... تسوية عادلة... بين ألمانيا وبولندا قد تفتح الطريق الى سلم عالمي، إن الفشل في بلوغ هذه الغاية يحطم الأمل في التفاهم بين ألمانيا وبريطانيا العظمى. ويؤدي بالدولتين الى صراع دام ومن المحتمل جداً أن يقذف العالم كله في أتون الحرب. إن هذه النتيجة هي الكارثة، التي لاتوازيها كارثة في التاريخ^(٥٥).

٥٤ - الكتاب البريطاني الأزرق، ص ١٢٥. و(و.س.ب.خ) ج ٧، ص ٣١٨.

٥٥ - نص المذكرة البريطانية الى ألمانيا (٢٨ آب): الكتاب الأزرق البريطاني الص ١٢٦ - ١٢٨.

بعد أن فرغ هتلر من قراءة الرد بدأ هندرسن بشرحه لها من ملحوظات كان قد دوّنها في أثناء مباحثاته مع چمبرلين وهاليفاكس. وروى السفير هندرسن فيما بعد ان هذه المقابلة كانت الوحيدة بين مقابلاته مع هتلر التي وجد فيها نفسه اكثر المتكلمين. وجوهر ملحوظاته ان بريطانيا ترغب في صداقة ألمانيا وهي ايضاً تريد السلام. إلا انها ستقاتل إن هاجم هتلر بولندا. فأجاب هتلر ولم يكن صامتاً قبلها مبالغاً في وصف جرائم بولندا ومسهباً في وصف "كرم" عروضه في سبيل تسوية سلمية معها وهو ما لن يكرره بعد الآن. في الواقع لن يرضيه اليوم تسوية أقل من إعادة الدانزك وكل الممر، مع إجراء إستفتاء في سيليزيا حيث صوت تسعون بالمائة من أهلها في إستفتاء مابعد الحرب الى جانب ألمانيا". لم يكن هذا صحيحاً ولم يكن زعم هتلر قبلها بقليل أن مليون ألماني طردوا من الممر بعد ١٩١٨. وليس ثم أكثر من ٣٨٥٠٠٠ ألماني حسب الاحصاءات الألمانية للسنة ١٩١٠، لكن في ذلك الوقت كان الدكتاتور النازي يتوقع من كل شخص أن يزدرد أكاذيبه دون اعتراض. وللمرة الأخيرة في بعثة السفير المؤرجحة في برلين إبتلع مقداراً كبيراً من هذه المفتريات. فقد صرح في (التقرير الأخير): "أن هر هتلر في تلك المقابلة كان ودوداً ومعقولاً وظهر أنه لم يكن غير راضٍ بالجواب الذي جثته به".

ابرق (هندرسن) الى لندن في ٢٠، ٣٥ صباحاً تقريراً مطولاً يصف فيه المقابلة^(٥٦): في الأخير سألته سؤالين صريحين: هل هو راغب في التفاوض رأساً مع البولنديين وهل هو مستعد لبحث مسألة تبادل السكان؟ فأجاب بالإيجاب عن السؤال الثاني (وإن كنت لأشكك قط في أنه يفكر في الوقت نفسه بتعديل الحدود).

فأما بالنسبة الى النقطة الأولى. فهو يريد مبدئياً أن يتأمل ملياً في المذكرة البريطانية برمتها. وفي هذه النقطة توقف هتلر والتفت الى ريبنتروب وقال "يجب استدعاء غورنك لبحثها معه" ووعد هتلر بجواب خطي على المذكرة البريطانية في اليوم التالي الثلاثاء ٢٩ آب.

ذكر هندرسن لهاليفاكس "جرت المحادثة في جو ودي رغم الاصرار المطلق الذي ابداه الجانبان". وربما لم يقدر هندرسن السبب الذي حدا بهتلر الى جعل جو المحادثات ودياً للغاية رغم كل تجاربه الشخصية مع مضيفه. مازال (الزعيم) مصمماً على غزو بولندا في ذلك اليوم نفسه إلا أنه مازال يأمل في اخراج بريطانيا عن دائرة الصراع رغم ما قال هندرسن وصرحت به حكومته. من الواضح أن هتلر ويتشجيع من الجاهل الإمعة ريبنتروب، لم يكن يعتقد أن البريطانيين يعنون مايقولون في حين كان هو مصمماً. وفي اليوم التالي اضاف هندرسن حاشية لتقريره المطول: "يؤكد هتلر أنه صادق النية لا يخادع، وإن الناس سيرتكبون خطأ شنيعاً لو توهموا أنه يخادع. فأجبت إنني على بينة تامة من كوننا مخلصين صادقي النية ايضاً. فقال هر هتلر أنه يدرك ذلك إدراكاً تاماً^(٥٧)".

٥٦- تقرير هندرسن الى هاليفاكس: الساعة ٢٠، ٢٩ آب المرجع السالف الص ١٢٨-٩٣١.

٥٧- تقرير هندرسن الى هاليفاكس ٢٩ آب المرجع السالف ص ١٣١.

قال هذا ولكن هل أدركه حقاً؟ في رده المؤرخ ٢٩ آب حاول عامداً أن يخدع الحكومة البريطانية بشكل ظن أنه سيساعده على أكل كعكته والاحتفاظ بها سالمةً في الوقت نفسه.

إن الرد البريطاني، ورد فعل هتلر المبدئي، خلق موجةً من التفاؤل العام في برلين وبخاصة في معسكر (گورنگ) حيث كان (داليروس) الذي لا يبارى يقضي جل أوقاته. وفي الساعة ١٠, ٣٠ بعد نصف الليل (٢٩ آب) وصل السويدي نداءً تلفوني من گورنگ في دار المستشارية حيث كان الفليدمارشال وهتلر وريبنتروب يطيلون الفكر في المذكرة البريطانية بعد انصراف (هندرس) وكانت كلمة (داليروس) من صديقه الألماني أن الرد الإنكليزي "مقبول للغاية، وهناك أكبر أمل في أن يكون خطر الحرب قد مر".

فأبلغ داليروس الأنباء السارة إلى وزارة الخارجية البريطانية بندا تلفوني صباح يوم ٢٩ آب وقال لهاليفاكس "إن هتلر وگورنگ يريان الآن وجود احتمال أكيد لتسوية سلمية" وفي ١٠, ٥٠ صباحاً واجه (داليروس) گورنگ فحياء هذا بحرارة وضغط يده بشدة وصاح "سيكون هناك سلم! لقد ضمنا السلم"، فهرع الرسول السويدي مسلحاً بهذه الأنباء السارة إلى السفارة البريطانية لينهيها إلى (هندرس) الذي لم يقابله من قبل.

ووصف السفير هذه المقابلة في تقريره إلى لندن. أبلغه داليروس أن الألمان متفائلون جداً. وهم "موافقون" على "النقطة الأساسية" في الرد الإنكليزي. وقال داليروس إن هتلر لا يريد "إلا" الدانزك والممر - وليس الممر بأسره بل ممر صغير على طول خط السكة الحديد المنتهية بالدانزك. والواقع أن هتلر مستعد ليكون "متساهلاً إلى أبعد حد" وسيقطع شوطاً بعيداً للوصول إلى تسوية مع البولنديين^(٥٨).

لم يكن السير نفيل هندرس متأكداً إلى هذا الحد. فقد أشرقت عليه شمس الحقيقة أخيراً، وأصابه شيء من نورها، وقال لزمائره (كما روى داليروس) إن المرء لا يمكن أن يثق بكلمة واحدة ينطقها هتلر، وقوله هذا ينطبق على صديق داليروس هرمان گورنگ الذي كذب على السفير "بما لا يعد أو يحصى". وفي رأي هندرس أن هتلر يلعب لعبة غادرةً قبيحةً.

إلا أن السويدي مركز القضية ومحورها الآن لم يقنع بهذا القول، وقدر لصحته أن تأتي بعد صحوّة هندرس. فخوفاً منه على مساعيه المبدولة من أن يعرقلها تشاؤم السفير الذي لامحل له في نظره. عاد يتصل تلفونياً بوزارة الخارجية في الساعة ١٠, ٧ مساءً وترك رسالة لهاليفاكس قال فيها "لا يتضمن الرد الألماني أي عقبة" إلا أنه نصح الحكومة البريطانية أن تبلغ البولنديين "بأن يسلكوا سلوكاً حسناً"^(٥٩).

بعد خمس دقائق (١٥, ٧ مساءً) وصل هندرس دار المستشارية ليتسلم من (الزعيم) الرد الفعلي.

٥٨ - تقرير هندرس (٢٩ آب) المرجع (و.س.ب.خ) ج٧، ص ٣٦٠.

٥٩ - المرجع السالف ص ٣٦١.

وسرعان ما إتضح له كم كان تفاؤل غورنك وصديقه السويدي أجوف لا أساس له. ووصف السفير الإجتماع لهاليفاكس بعد انتهائه مباشرة "بانه ذو طابع عاصف، وان هر هتلر كان أقل تساهلاً بكثير من يوم أمس".

ردد الجواب الألماني الرسمي: رغبة الرايخ بصداقة بريطانيا العظمى لكنه أوضح "انها لن تشرى بضمن التضحية بمصالح ألمانيا الحيوية". وبعد تعداد طويل لجرائم البولنديين وإستفزازهم و"اعمالهم البربرية وإضطهاداتهم التي بلغت عنان السماء" ادرجت مطالب هتلر رسمياً وكتابةً للمرة الأولى، وهي إعادة الدانزك والممر وحماية الألمان في بولندا. وإضاف الرد "ولإزالة الوضع الراهن، لم يعد من الوقت لا أيام ولا أسابيع بل ساعات". واستطردت المذكرة الألمانية ان ألمانيا لا تتفق ووجهة النظر البريطانية في امكان التوصل الى حل بالمفاوضات المباشرة مع بولندا. وعلى كل وارضاً لبريطانيا "ليس الا" وفي سبيل الصداقة الأنكلو-ألمانية، تعلن ألمانيا إستعدادها "لقبول الإقتراح البريطاني في الدخول بمفاوضات مباشرة" مع بولندا "وفي حالة إعادة تنظيم الحدود في بولندا" لا تتمكن ألمانيا من إعطاء ضمانات دون موافقة الإتحاد السوفياتي (الحكومة البريطانية لا تدري بالطبع بوجود بروتوكول سري يقضي بتقسيم بولندا ضمن الميثاق السوفيتي النازي) أما بالنسبة الى الباقي فالحكومة الألمانية بعرضها هذه المقترحات لا نوايا لديها في مس أي شيء من مصالح بولندا الحيوية، ولا إعتراض لها على وجود دولة بولندية كاملة السيادة".

ثم وفي الختام يأتي الفخ المنصوب: "وبناء على ذلك فإن الحكومة الألمانية توافق على قبول عرض الحكومة البريطانية على مسعاها الطيب بضمان إرسال مبعوث بولندي الى برلين ذي صلاحية مطلقة وانها ترقب وصول هذا المبعوث في يوم الأربعاء ٣٠ آب ١٩٣٩".

"ستقوم الحكومة الألمانية حالاً بوضع المقترحات للحل الذي سترتضيه. وستضع هذه المقترحات حسب الإمكان تحت تصرف الحكومة البريطانية قبل وصول المفاوض البولندي^(٦٠)".

راح هندرسن يقرأ المذكرة وهتلر وريبنتروب يتابعانه بانظارهما ولم يقل شيئاً حتى بلغ الفقرة التي تتكلم عن توقع الألمان وصول المبعوث البولندي المطلق الصلاحيات في اليوم التالي. فعلق على ذلك قائلاً "إن هذا اشبه بإنذار" فأسرع هتلر وريبنتروب ينفيان ذلك بشدة. وقالا "إنهما يرغبان في بيان خطورة الموقف ليس إلا، حيث يقف جيشان كاملا التحشيد أحدهما مقابل الآخر".

ولاشك أن السفير كان على علم بالإستقبال الذي أعده هتلر ل(شوشنك) و(هاشا) فقد قال أنه سألهما هل أن المفاوض البولندي المطلق الصلاحية الذي سيأتي "سيحسن إستقباله" وهل أن المباحثات "ستجري على قدم المساواة التامة" فاجاب هتلر "طبيعي".

وتبع ذلك مناقشة لاذعة فظة، أثارها هتلر بملاحظة "لا مسوغ لها" (كما وصفها هندرسن) حيث قال أن السفير "لن يهتم قلامة ظفر" بعدد الألمان يذبحون الآن ذبحاً في بولندا".

٦٠- نص الرد الألماني ٢٩ آب الكتاب البريطاني الأزرق. الص ١٣٥-١٣٧.

ذكر هندرسن إنه اجاب على الملاحظة "جواباً قاسياً".^(٦١)

ودون في مذكراته غداة إنصرافه، "تركت مستشارية الرايخ ونفسي مترعة بأقتم نذر الشر" إلا أنه لم يذكر شيئاً عن حالته النفسية هذه في تلكم الليلة في اي من تقاريره الى لندن على ما يبدو. قال له هتلر "يسألني جنودي: نعم؟ أو لا؟"، لقد اضاعوا أسبوعاً، وليس بوسعكم اضاعة أسبوع آخر "ثلاثا يضاف موسم الأمطار في پولندا إلى قائمة اعدائهم".

وعلى أية حال فما يستفاد من تقارير السفير الرسمية ومن كتابه أنه لم يدرك تماماً طبيعة الفخ الذي نصبه هتلر إلا في اليوم التالي عندما نُصب فخ آخر وظهر خداع (الزعيم) جلياً. بدت لعبة الدكتاتور جلية من نص مذكرته الرسمية فقد طلب في مساء ٢٩ آب أن يصل مبعوث پولندي مطلق الصلاحية الى برلين يوم الغد. ولاشك انه كان معتمزاً معاملته بالشكل المهين الذي ادخره للمستشار النمساوي ورئيس الجمهورية الجيكوسلوفاكي. لما أعتقد بأنه ظرف مشابه. وكان متأكداً تماماً من حسابه: إن لم يرسل البولنديون المبعوث الى برلين، أو حتى إن أرسلوه ورفض المفاوض قبول شروط هتلر فعندئذ ستلام پولندا على رفضها "التسوية السلمية" ومن المحتمل جداً أن لاتهب^(٦٢) فرنسا وبريطانيا لمعاونتها اذا هوجمت. مسألة واضحة قدرما هي بسيطة. إلا (هندرسن) لم يرها بهذا الجلاء في مساء يوم ٢٩ آب. وفيه هو منشغل في إرسال تقاريره الى لندن لم يفته أن يدعو السفير البولندي للحضور الى السفارة البريطانية. ليحيطه علماً بفحوى المذكرة الألمانية ويحدثه مع هتلر. "وبينت له الحاجة إلى عمل سريع" (على حد تعبيره) وتوسلت به، لمصلحة پولندا، أن يلح على حكومته بتعيين شخص ما دون تأخير لتمثيلها في المفاوضات المقترحة^(٦٣).

وفي لندن كانت رؤوس وزارة الخارجية أكثر برودة. فبعد أن أطل هاليفاكس التأمّل في الرد الألماني وتقرير هندرسن عن الاجتماع بهتلر. ابرق في الساعة ٢ صباحاً (٢٩ آب) الى السفير قائلاً، في الوقت الذي ستعطى المذكرة الألمانية ماتستحق من عناية واعتبار فليس بالطبع "معقولاً أن يتوقع منا إرسال ممثل پولندي الى برلين في هذا اليوم ولاشك ان الحكومة الألمانية لاتتوقع منا ذلك^(٦٤)".

بات الدبلوماسيون وموظفو وزارة الخارجية الآن وقد ركبتهم حمى العجلة القتالة يسابقون الزمن سباقاً عنيداً، وبعث هندرسن هذه الرسالة الى قلهمشتراسه في الساعة ٣٠، ٤ فجراً.

٦١- ابرق هندرسن لهاليفاكس في اليوم التالي "بدأ صوتي يعلو صوت هتلر... واضفت كلاماً كثيراً آخر وانا أصرخ بأعلى صوتي" (و.س.ب.خ) السلسلة الثالثة ج٧ ص٣٩٣. لم ينوه من قبل بهذه الحالة من الهياج العصبي في الوثائق البريطانية السابقة على هذا.

٦٢- صور الجنرال هالدر مجملًا للعبة هتلر في يومياته المؤرخة ٢٩ آب: "الزعيم يأمل ان يدق اسفيناً بين الفرنسيين والإنكليز والبولنديين.

الخطّة: اقامة سد من المطالبين الديموقراطية والأثنوغرافية... البولنديون سيأتون الى برلين في ٣٠ آب وفي ٣١ آب ستفشل المفاوضات. في ١ أيلول البدء باستخدام القوة.

٦٣- هندرسن "إخفاق بعثة" ص ٢٨١.

٦٤- الكتاب الأزرق البريطاني ص١٣٩.

واشفعها بأربع رسائل أخرى وردت من لندن خلال النهار (٣٠ آب). احداها مذكرة شخصية من جمبرلين الى هتلر يخطر فيها ان الرد الألماني يحظى "بأشد الإهتمام" وستتم الإجابة عنه بعد الظهر. في الوقت نفسه رجا رئيس الوزراء من الحكومة الألمانية - كما سبق ان رجا من الحكومة البولندية، اجتناب حوادث الحدود. أما عن باقيها فقد "رحب بالدليل على تبادل وجهات النظر الذي يجري الآن بباعث الرغبة للتفاهم الأنكلو-ألماني"^(٦٥). والرسالة الثانية من هاليفاكس على الوتيرة نفسها. والثالثة من الوزير نفسه تتحدث عن أنباء تخريبات ألمانية في بولندا وتطلب من الألمان الامتناع عن مزاوله امثال هذا النشاط. والرابعة من هاليفاكس أيضاً بعث بها في الساعة ٦, ٥٠ مساءً، تعكس تصلب كل من وزير الخارجية البريطانية وسفيره في برلين.

بعد تأمل آخر، ابرق (هندرسن) في اولى ساعات النهار بالتالي، الى لندن: "في الوقت الذي مازلت أوصي أن تقوم الحكومة البولندية بانهاء هذا المجهود المرهق بالإتصال المباشر مع هتلر حتى وان كان الهدف اقناع العالم بإستعداد بولندا للتضحية من جانبها في المحافظة على السلم، فالمرء لايسعه إلا ان يستنتج من الرد الألماني أن هتلر عازم على تحقيق اغراضه بما يطلق عليه "الوسائل السلمية العادلة" إن استطاع اليها سبيلاً، وإن لم يستطع فبالقوة"^(٦٦).

في هذا الوقت لم يعد أحد حتى (هندرسن) قادراً على هضم (مونيخ) ثانية. ولم يكن البولنديون مستعدين لواحدة أيضاً. في الساعة العاشرة من صباح الثلاثين ابرق السفير البريطاني الى هاليفاكس بأن شعوره يؤكد له "استحالة اقناع الحكومة البولندية بإرسال العقيد (بيك) أو اي ممثل آخر الى برلين حالاً لإجراء مباحثات حول تسوية مبنية على مقترحات هتلر. وانهم ليفضلون القتال والموت على الإستسلام والخضوع لهذا الإذلال لاسيما بعد الأمثلة المضروبة من چيكوسلوفاكيا وليتوانيا والنمسا" واقترح في حالة كون المفاوضات ستجري "بين اكفاء" فيجب عقدها في بلاد محايدة"^(٦٧).

وازدادت صلاية هاليفاكس بموقف سفيره في برلين ووارشو فأبرق الى هندرسن أن الحكومة البريطانية لاتستطيع أن (تنصح) البولنديين بالموافقة على مطلب هتلر في إرسال مبعوث مطلق الصلاحية الى برلين لأن ذلك "غير معقول بالمرّة" على حد تعبير وزير الخارجية!

"أضاف هاليفاكس يقول لسفيره] ألا يمكنك أن تقترح على الحكومة الألمانية، بتبني الاسلوب الاعتيادي عندما تكون مقترحاتهم مهيأة، فتدعو السفير البولندي وتسلمه المقترحات لإرسالها الى وارشو مشفوعة بإقتراحات في الشروع بالمفاوضات؟"^(٦٨)

قام هندرسن بتسليم الرد البريطاني الموعد على آخر مذكرات هتلر- الى ريبنتروب في منتصف

٦٥- نص مذكرة جمبرلين الى هتلر ٣٠ آب: [وثائق سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ ص٤٤١].

٦٦- الكتاب البريطاني الأزرق الص ١٣٩-١٤٠.

٦٧- المرجع السالف ص ١٤٠.

٦٨- المرجع السالف ص ١٤٢.

ليلة ٣٠/٣١ آب. وهنا جرى مشهد روائي بلغ القمة في الطرافة وصفه فيما بعد الدكتور شميدت وهو الشخص الوحيد الذي حضره قال "انه اعنف مشهد رآته عيناى خلال سنتائى الثلاث والعشرين فى مهنتى بالترجمة^(٦٩).

ابرق السفير لوزير الخارجية بعد المقابلة مباشرة: "ينبغي لى إعلامك بأن سلوك ريبنتروب أثناء المقابلة المزعجة كان كله تقليداً لتصرفات هتلر فى أسوأ حالاته النفسية". وفى "تقريره الأخير" بعد ذلك بثلاثة أسابيع ذكر "عداء" وزير الخارجية الألماني "الحاقد" الذى ازداد عنفاً كلما تابعت أقوالى. وظل يقفز من فوق مقعده بحالة من الهياج الشديد ويسأل هل لى ما أقول بعد؟ فأطل أجيبه: أجل لى ما أقوله. "وبروى شميدت أن هندرسن كان أيضاً يقفز من مقعده. ويقول أن الرجلين نطاً معاً من كرسيهما فى مناسبة واحدة وكشر احدهما فى وجه الآخر واخذاً يتراشقان بالجميل الحادة، حتى ظن المترجم أنهما سيتضاربان بالأيدى. لكن ما يهم التاريخ ليس هذه المقابلة العجيبة بين وزير الخارجية الألماني وسفير حكومة صاحب الجلالة فى برلين ليلة ٣٠/٣١ آب بل تطور حصل خلال هذه المقابلة لأقبح آخر عملية خداع هتلرية وبها تم تثقيف السير نثيل هندرسن -بعد فوات الأوان- بحقيقة حال الرايخ الثالث. ماكاد ريبنتروب يختلس نظرة الى الرد البريطانى أو يصغى الى محاولة ايضاحه من هندرسن^(٧٠). حتى خطر ببال السفير أن يسأل عن مقترحات ألمانيا لتسوية بولندية كانت مذكورة هتلر الأخيرة قد وعدت بها الحكومة البريطانية. فرد ريبنتروب متكهماً، لقد فات الأوان لذلك، لأن المبعوث البولندى لم يصل فى نصف الليل. ومهما يكن فإن الألمان كانوا قد اعدوا تلك المقترحات وشرع ريبنتروب الآن يتلوها.

قال (هندرسن): كان ريبنتروب يتلوها باللغة الألمانية "وبسرعة خاطفة أو بالأحرى كان يتمتم لى بها بأسرع مايطبق، وبيرة مزعجة حقاً. تمكنت من الإمام بجوهر ست أو سبع فقرات من أصل ست عشرة ولكن من الصعب على جداً أن أضمن الدقة التامة حتى لهذه الفقرات إلا بعد دراسة مليّة للنص ذاته. وبعد فراغه منها طلبتُ منه إلقاء نظرة عليها. فرفض رفضاً قاطعاً ورمى الوثيقة بحركة إزدراء فوق المنضدة وقال انها ليست بذات قيمة مادام المبعوث البولندى لم يصل فى نصف الليل^(٧١)".

٦٩- شميدت المرجع السالف الص ١٥٠-١٥٥، شهادة كذلك شهادة شميدت فى محاكمات مجرمى الحرب الكبار ج ١٠ الص ١٩٦-٢٢٢).

٧٠- كانت المذكرة البريطانية قوية اللهجة رغم صيغتها التوفيقية. قالت "إن حكومة جلالته تبادل الحكومة الألمانية الرغبة فى تحسين العلاقات لكنها" لايسعها التضحية بمصالح الاصدقاء الآخرين للحصول على هذا التحسين فى العلاقة "وهى تفهم تماماً أن الحكومة البولندية فى موقف مماثل. لامناص للحكومة البريطانية من ان "تعلن تحفظاً" بخصوص شروط هتلر. وهى فى الوقت الذى تحبذ إجراء مفاوضات مباشرة بين برلين ووارشو، تحبذ ان "احداث الإتصال فى هذا الوقت القريب: أى اليوم، هو غير عملى" (النص فى الكتاب البريطانى الأزرق الص ١٤٣-١٤٣).

٧١- وجد المؤلف ريبنتروب أثناء محاكمات نورمبرگ فى موقف أدعى الى الرثاء من سائر الآخرين المتهمين الرئيسيين، حتى دفاعه فقد كان أضعفهم. إدعى أثناء إستجوابه ان هتلر أملى "النقاط الست عشرة" شخصياً وهو الذى "حذرنى بصورة خاصة ألا ادع هذه المقترحات تخرج من يدى". ولم يسأل أثناء الإستجواب عن السبب. ولم يقل هو، وانما استطرده يقول "ان هتلر سمح لى ان أنور السفير البريطانى بمحتوياتها فقط اذا وجدت ذلك مفيداً ففعلت اكثر من =

ربما كانت لا قيمة لها، مادام أثر الألمان أن يسقطوا قيمتها لكن المهم في الأمر أن هذه المقترحات الألمانية لم يكن يقصد بها غرض جدي بل ولم تؤخذ مأخذاً جدياً قط. والواقع أنها كانت "دعاية". كانت حيلة يقصد بها خداع الشعب الألماني وإن امكن خداع الرأي العام العالمي لإظهار هتلر بمظهر من حاول في آخر دقيقة الوصول إلى تسوية معقولة لمطالبه من بولندا وقد اعترف (الزعيم) بالذات إذ روى الدكتور شميدت أنه سمعه يقول مرة: "كنت في حاجة زعم وتبرير، وبخاصة أمام الشعب الألماني. لأظهر لهم أنني حاولت كل شيء للمحافظة على السلم. وهذا ما يفسر عرضي الكريم حول تسوية مشكلتي الدانزك والممر^(٧٢)".

إن قورنت هذه المطالب، بمطالبه السابقة فهي والحق يقال كريمة، وكريمة إلى حد مدهش، لم يرد هتلر إلا عودة الدانزك إلى ألمانيا وإن يقرر مستقبل الممر استفتاء لا يتم إلا بعد فترة اثني عشر شهراً عندما تطيب النفوس وتنام الأحقاد. وتحتفظ بولندا بميناء (كدينيا). ومن يكون الممر نصيبه نتيجة الإستفتاء يمنح الطرف الآخر طريقاً دولياً وسكة حديد خلاله - وهذا تعديل لعرضه السابق في الربيع الماضي. وأخيراً يتم تبادل السكان وتفتح حقوق كاملة للقوميتين في البلدين.

وقد يخال للمرء أن هذه المقترحات تصلح أن تكون قاعدة للمفاوضات بين ألمانيا وبولندا، وربما أمكن للعالم بها من تفادي حرب عالمية ثانية إلى جيل آخر، لو كان عارضها جادا لا هازلاً. لقد أذيعت بالراديو على الشعب الألماني في الساعة ٩ من مساء ٣١ آب. أي بعد ثماني ساعات وثلثين دقيقة من اصدار هتلر أوامره النهائية للهجوم على بولندا. ويقدر ما وصل إليه حكمي من إصابة، فقد نجحت هذه المناورة في غرضها وخدعت الشعب الألماني. وخدعت المؤلف في الواقع إذ أدهشه إعتدالها عندما سمعها من الراديو وردد رأيه هذا في اذاعته لأمریکا في آخر ليلة من ليالي السلم.

عاد هندرسن إلى سفارة جلالته ليلة ٣٠/٣١ آب موقناً - كما قال بعدئذ - "بأن آخر أمل للسلم قد تلاشى" إلا أنه ظل يحاول جهده. أيقظ السفير البولندي من فراشه في الساعة الثانية صباحاً وطلب منه القدوم إلى السفارة، وهناك أدلى إليه "بوقائع محادثته مع ريبنتروب بشكل موضوعي معتدل للغاية" وذكر فيها. إعادة الدانزك والإستفتاء في الممر بوصفهما أهم نقطتين في المقترحات الألمانية وقال أنهما كما يراهما "ليستا بخارجيتين عن حدود المعقول" وإقترح على ليبسكي، أن يوصي

= ذلك وقرأتها عليه من البداية إلى النهاية" (محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج ١٠ ص ٢٧٥). وانكر الدكتور شميدت شكل قراءة المقترحات على السفير البريطاني بنصها الألماني وبسرعة خاطفة بحيث لم يفهمها. مبيناً أن هندرسن "لم يكن ضليعاً باللغة الألمانية" وأن وزير الخارجية "لم يكن مستعجلاً جداً في قراءتها" وربما كان من الأفضل في هذه المحادثات الدقيقة لو استخدم لغة بلاده. كانت لغة ريبنتروب الإنجليزية جد ممتازة. لكنه لم يتكلمها خلال تلك الأحاديث (شميدت المرجع السالف ص ١٥٢).

٧٢- أ برق نص المقترحات الستة عشر إلى القائم بالأعمال الألماني في لندن في الساعة ٩، ١٥ مساء ٣٠ آب، قبل أربع ساعات من تلاوتها على هندرسن في برلين. إلا أن القائم بالأعمال أوصى بالاحتفاظ بها (سراً مغلقاً) وألا يطلع عليها حتى وصول تعليمات أخرى (وثائق عن سياسة ج ٧ ص ٤٤٧ - ٤٥٠). وكما يذكر القارئ مما سبق، أن هتلر وعد أن يضع تلك المقترحات تحت تصرف الحكومة البريطانية. قبل وصول المفاوضات البولندي إلى برلين.

حكومته بأن تقترح اجتماعاً فورياً بين المارشال (سميگلي ريدز وگورنگ). واستأنف قوله "أراني مضطراً إلى القول بأنني لأجد أي أمل في نجاح مفاوضات إذا كان هر فون ريبنتروب طرفاً فيها" (٧٣). وفي الوقت نفسه لم يكن (داليروس) المنشيط، عاطلاً. ففي الساعة العاشرة ليلاً (٢٩ آب) استدعاه گورنگ في منزله وابلغه "بالسير غير المرضي" للإجتماع الذي جرى قبل قليل بين هتلر وريبنتروب وهندرسن، وكان الفليدرماشال البدين يعاني نوبة من نوباته العصبية فصار يصرخ بمحضر من صديقه السويدي شاقماً لاعتناً البولنديين والبريطانيين. ثم هدأ روعه وأخذ يؤكد للزائر أن (الزعيم) منهمك الآن في رسم عروض هائلة Grosszuegig لپولندا، ليس فيها من فصل غير إعادة الدانزك، وسيترك مستقبل الممر ليتقرر باستفتاء "تحت إشراف دولي" فاستوضح (داليروس) عن مساحة منطقة الإستفتاء لا غير، فمزق گورنگ صحيفة من أطلس قديم وطفق يظلل بقلم ملون الأقسام "الپولندية" و"الألمانية" وأدخل في القسم الأخير پروسيا البولندية لما قبل الحرب والمدينة الصناعية (لودز Lodz) التي تبعد ستين ميلاً عن حدود ١٩١٤ الشرقية. ولم يسع السويدي الفضولي التغاضي عن "السرعة والاستهتار" التي يتم بها اتخاذ القرارات الخطيرة في الرايخ الثالث. على أنه حقق رجاء گورنگ في العودة إلى لندن بالطائرة فوراً وبيان رغبة هتلر في السلام إلى الحكومة البريطانية مع التلميح إلى أن الزعيم يقوم بإعداد أكرم مشروع لپولندا واكثره تساهلاً برهاناً على تمسكه بالسلام.

فطار (داليروس) الذي لايعرف الكلل إلى لندن في الساعة ٤ عصراً (٣٠ آب) وبذل السيارات التي أقلته عدة مرات وهو في طريقه إلى المدينة من هستن Heston حتى يضلل ملاحقيه الصحفيين (الظاهر لم يكن ثم صحفي واحد يشعر بوجوده) حتى وصل دواننگ ستريت في ٣٠، ١٠ ليلاً. فقابل چمبرلين حالاً وكان ثم (هاليفاكس وويلسن وكادوگان) هؤلاء مهندسو (مونينخ) البريطانيون (باستثناء كادوگان الموظف الدائم في وزارة الخارجية الذي كان دائماً محصناً من سحر النازي وشعوذتهم) معادوا الآن ينخدعون بهتلر وگورنگ. ولا تؤثر فيهم مجهودات (داليروس). هذا السويدي المخلص وجدهم "كثيري الشك" في الزعيمين النازيين. ويميلون إلى الاعتقاد بألا شيء يحول بعد الآن دون إعلان هتلر الحرب على پولندا. زد على ذلك أن الحكومة البريطانية أفهمت الوسيط السويدي أنها ادركت حيلة هتلر بطلب حضور ممثل پولندي مطلق الصلاحية إلى برلين خلال أربع وعشرين ساعة.

إلا أن (داليروس) واصل محاولاته كما ظل هندرسن يواصلها في برلين. فاتصل بگورنگ تلفونياً واقترح أن يجتمع الوفدان الألماني والپولندي "خارج ألمانيا". فجاءه الجواب الحازم: "إن هتلر في برلين"

٧٣- ذكر هندرسن في تقرير لهاليفاكس (٣١ آب الساعة ١٥، ٥ صباحاً) انه نصح لپيسكي أيضاً بكل شدة" ان يتصل تلفونياً بريبنتروب ويطلب منه المقترحات الألمانية لإرسالها إلى الحكومة البولندية. ففضل لپيسكي ان يتصل أولاً بوارشو وأضاف هندرسن "ووعده السفير البولندي ان يتصل حالاً. لكنه إما كان خاملاً وإما مقيداً بتعليمات حكومته، بحيث لايمكنني الإعتماد على جدوى اعماله". هندرسن: التقرير النهائي. سجل ٦١١٥ ص ١٧. كذلك كتابه المرجع السالف (٢٨٧) - (و.س.ب.خ) ج ٧ رقم ٥٧٥.

والإجتماع يجب أن يتم هناك.

وهكذا لم يحقق الوسيط السويدي شيئاً من رحلاته الجوية. ووصل برلين في نصف الليل حيث اتاحت له آخر فرصة ليكون سبيل عونٍ على الأقل. بلغ مقر قيادة غورنك في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثلاثين ليلاً ليجد رئيس (الوفتوافه) في ثورة عصبية أخرى. قال غورنك ان (الزعيم) سلم عن طريق ريبنتروب مقترحات ديمقراطية عادلة معقولة لپولندا. فماكان من (داليروس) الذي صحا من غفوته على ما يبدو اثر إجتماعه في داوونك ستريت - إلا أن هرع الى (فوربس) في السفارة البريطانية ليتأكد من النبأ فعلم أن (ريبنتروب) "قرأ" الشروط بسرعة لم تدع مجالاً لهندرسن ليفهم شيئاً منها وأنهم رفضوا تزويده بنسخة من النص. ويقول (داليروس) انه أبلغ غورنك باستنكاره هذا السلوك "في معاملة سفير إمبراطورية بريطانيا العظمى" واقترح أن يدفع اليه غورنك بنسخة المقترحات التي هي في حيازته وان يسمح له بإبلاغها تلفونياً للسفارة البريطانية فقبل غورنك بعد شيء من التردد^(٧٤).

وبهذه الوسيلة أبلغت الحكومة البريطانية بالمقترحات الألمانية لپولندا! بتوسط رجل اعمال سويدي غير معروف له علاقة صداقة بقائد سلاح الجو من حيث امتنع هتلر وريبنتروب عن ذلك. ربما وجد الفليدمارشال في ذلك الوقت فائدة معينة قد يمكن نيلها من كشف السر للبريطانيين أخيراً ولم يكن غورنك غيباً أو قليل التجربة في معالجة الشؤون الخارجية.

ولزيادة التأكد من وصول المقترحات الى هندرسن بصورة مضبوطة بعث (داليروس) الى السفارة البريطانية في الساعة ١٠ مساءً (الخميس: ٣١ آب) بنسخة مطبوعة على الآلة الكاتبة من المقترحات الستة عشر. وكان السفير اذ ذلك يعمل على اقناع السفير البولندي القيام "بالإتصال المنشود" مع الألمان. وفي الساعة الثامنة صباحاً كرر له تحذيره تلفونياً بأن الحرب واقعة لامحالة إن لم تتحرك پولندا في موعد اقصاه ظهر اليوم^(٧٥). وبعد وصول (داليروس) السفارة بقليل أرسله صحبة (فوربس) الى السفارة البولندية وشاع بعض الإضطراب في لپيسسكي عند مقابلة السويدي الذي لم يسمح به من قبل. وكان اذ ذاك مرهقاً منهوك القوى كمنظم اقطاب الدبلوماسيين في برلين، واشتد انزعاجه عندما أشار عليه (داليروس) بالإسراع حالاً الى غورنك وقبول عرض هتلر.

ورجا (السويدي) ان يسمح له بالغياب ليملي المقترحات على سكرتير في الغرفة المجاورة وبذلك تم

٧٤- ادعى غورنك أثناء محاكمته في نورمبرگ انه خاطر مخاطرة عظيمة بإرسال نسخة من المقترحات الستة عشر الى السفارة البريطانية "لان الزعيم لم يسمح باذاعتها مهما كانت الظروف. واستطرد يقول للمحكمة "كنت الوحيد الذي يستطيع ان يخاطر بهذا" (محاكمة مجرمي الحرب الكبار) ج ٩ ص ٤٩٣.

٧٥- وشاركه في هذا المجهود زميله السفير الفرنسي الراحق العقل. وكان هندرسن قد خابره في الساعة التاسعة صباحاً وقال له: إن لم يقبل البولنديون عند حلول الظهر بإرسال مندوب مطلق الصلاحية الى برلين فسيبدأ الجيش الألماني هجومه. فأسرع كولوندر حالاً الى السفارة البولندية وناشد (لپيسسكي) ان يخبر حكومته طالبا تخويلاً للقيام بالإتصال الفوري مع الألمان "كمندوب مطلق الصلاحية" (الكتاب الفرنسي الاصفر الطبعة الفرنسية الص ٤٦٦-٤٦٧).

له الانفراد (بفورييس) فراح يفضي اليه بتضايقه من اقتحام "غريب" في مثل هذا التاريخ المتأخر بقضية بالغة الخطورة. لاشك ان السفير البولندي المنزعج كان متألماً ايضاً من الضغط الذي يمارسه هندرسن عليه وعلى حكومته لإجراء التفاوض الفوري على أسس المقترحات التي تسلمها الآن بشكل غير رسمي وبالحيلة. وهي كما قال له عنها المبعوث البريطاني "ليست بالمطالب الخارجية عن حدود المعقول"^(٧٦). ولم يكن يعلم أن رأي هندرسن لم يحظ بمصادقة دواننك ستريت وكل ما كان يدركه، هو أنه لا يريد أن يأخذ بنصيحة (سويدي) نكرة وإن ارسله اليه السفير البريطاني، وأنه لا يرغب في الذهاب الى غورنك ليعلن قبوله بعرض هتلر حتى لو كان مخولاً بذلك. ولم يكن مخولاً في الواقع^(٧٧).

٧٦- في ذلك الحين - أعني قبل يوم ٣١ آب - كان هندرسن (مدفوعاً لإنقاذ السلم باي ثمن كان) قد استطاع اقناع نفسه بأن العروض الألمانية معقولة جداً بل معتدلة. ومع ان ريبنتروب صارحه ليلة أمس ان المقترحات الألمانية "قد فات وقتها لعدم وصول مبعوث بولندي" ومع ان الحكومة البولندية لم تكتحل عينها بما رأى تلك المقترحات بعد، ومع انها كانت في مجموعها لاتخرج عن (مهزلة)، مع ذلك كله ظل هندرسن يلح طول اليوم على هاليفاكس ليزداد ضغطاً على البولنديين حتى يقبلوا بإرسال مندوب مطلق الصلاحية لتلبية لمطلب هتلر وظل يؤكد له إعتدال ومعقولة نقاط الدكتاتور الست عشرة.

في الساعة ١٢, ٣٠ ليلاً (٣١ آب) ابرق هندرسن الى هاليفاكس يطلب منه أن "يلح على بولندا أن توعد الى سفيرها ليبسكي" يطلب المقترحات الألمانية من حكومة ألمانيا". والاتصال العاجل بحكومته "يطلب إرسال مندوب مطلق الصلاحية" فالشروط تبدو معتدلة في رأيي" واستطرد هندرسن يقول "هذه ليست مونيخ... لن تحصل بولندا على مثل هذه الشروط الحسنة مرة أخرى". وفي الوقت نفسه كتب هندرسن رسالة مطولة الى هاليفاكس "ان المقترحات الألمانية لاتهدد الإستقلال البولندي... ومن المحتمل جداً أن تلقى حظاً أسوأ فيما بعد" وظل يضرب على هذه الوتيرة دون كلل. فأبرق الى هاليفاكس في الساعة ١٢, ٣٠ ب.ظ (١٠ أيلول قبل الموعد المقرر لبدء الهجوم الألماني باربع ساعات (ولم يكن يعرف ذلك) "المقترحات الألمانية... معقولة... وفي اعتقادي ان الحرب ان وقعت رغم وجود هذا العرض الألماني فلا يمكن ابدأ تبريرها" وألح ثانية ان تمارس الحكومة البريطانية ضغطها على البولنديين "بلغة واضحة لاتقبل تأويل" لتعلن عن رغبتها في إرسال مندوب مفوض الى برلين.

إلا أن السفير البريطاني في وارشو سلك سبيلاً آخر. فأبرق الى هاليفاكس في ٣١ آب: "يبدو أن سفير صاحب الجلالة في برلين يعتبر المقترحات الألمانية معقولة واني اخشى الا اكون قادراً على الإتفاق معه. من وجهة نظر وارشو" (برقية هندرسن الى هاليفاكس (١٢, ٣٠ ب.ظ) ٣١ آب. (و.س.ب.خ - ج ٧ ص ٤٤٠. رسالة الى هاليفاكس، المرجع السالف الص ٤٦٥ - ٤٦٧. برقية (١٢, ٣٠) ليلاً ١ أيلول، المرجع السالف الص ٤٦٨ - ٤٦٩. برقية كينارد الى هاليفاكس ٣١ آب، المرجع السالف ص ٦١٨.

٧٧- وقعت حادثة أخرى فيها بعض الغرابة في هذا اليوم الأخير من أيام السلم تستأهل حاشية. عاد (داليروس) من زيارته لبسكي الى السفارة البريطانية. ومن مكتب هندرسن إتصل ظهراً بالسفير هوراس ويلسن في وزارة الخارجية البريطانية بلندن وأبلغه أن المقترحات الألمانية "سمحاء للغاية" إلا ان السفير البولندي رفضها قبل قليل. واستطرد يقول له "من الواضح أن البولنديين يضعون العراقيين في احتمالات قيام المفاوضات".

في هذه اللحظة سمع (ويلسن) اصوات واضحة في الخط التلفوني الخارجي. جعلته يرجح ان الألمان ينصتون الى المكالمات. فحاول انهاء الحديث الا ان (داليروس) ظل منطلقاً في ثرثرته عن خروج البولنديين على حدود المعقولات غير آبه بشيء. وقد ذكر هوراس ويلسن في محضر المكالمات الذي دونه فيما بعد للحفظ في وزارة الخارجية. "عدت اكرر على داليروس، ان يقطع حديثه. ولما لم يفعل أغلقت الخط". وأبلغ ويلسن رؤساءه أن عدم التبصر هذا قد حصل في مكتب سفير جلالته ببرلين. وفي الساعة الواحدة ظهراً ابرق هاليفاكس الى هندرسن بالجفوة: "ينبغي لك ان تكون حذراً في إستخدام التلفون إن مكالمات (د) (كان يشا رالي داليروس في الرسائل المتبادلة بين وزارة الخارجية وسفارة برلين. قد سمعها الألمان دون شك" (و.س.ب.خ) ج ٧ ص ٤٤١-٤٤٣.

اليوم الأخير من السلم

بعد أن خيل للحكومتين الفرنسية والبريطانية، أنهما نجحتا في حمل الألمان والبولنديين على الرضى بالتفاوض المباشر، راحتا الآن تركزان جهودهما -وهما في ريبة عظيمة من هتلر- في تحقيق المفاوضات فعلاً. وفي هذا كان للبريطانيين السهم الأوفر. تساعدهم فرنسا دبلوماسياً في برلين وبخاصة في وارشو. ومع أن البريطانيين لم ينصحوا البولنديين بقبول إنذار هتلر والعمل على إرسال مبعوث بصلاحيات مطلقة الى برلين في ٣٠ آب متعللين بأن هذا مطلب "غير معقول بالمرّة" كما وصفه هاليفاكس لهندرسن، إلا أنهم طلبوا من العقيد (بيك) أن يعلن عن إستعداداته للتفاوض مع برلين "بدون تأخير". وكان هذا فحوى الرسالة التي بعث بها هاليفاكس الى سفيره في وارشو في ساعة متأخرة من ٣٠ آب. كان على (كينارد) إبلاغ (بيك) بمحتوى المذكرة البريطانية لألمانيا التي قدمها هندرسن الى ريبنتروب مؤكداً له إصرار بريطانيا على الوفاء بالتزاماتها لبولندا الا انه أوضح اهمية موافقة بولندا على الشروع بمفاوضات مع ألمانيا على الفور.

"[جاء في برقية هاليفاكس] من وجهة نظر الموقف الداخلي في ألمانيا والرأي العام العالمي نحن نجدها على اعظم درجة من الأهمية ومادامت الحكومة الألمانية تعلن إستعدادها للتفاوض فلن يعطى لها فرصة لإلقاء اللوم على بولندا عند وقوع الحرب^(٧٨)".

قابل كينارد الوزير بيك في نصف الليل ووعده هذا باطلاع حكومته على الأمر واعطائه "الجواب اللائق" في ظهر يوم ٣١ آب. ووصلت رسالة كينارد في وصف المقابلة الى وزارة الخارجية في الثامنة صباحاً ولم يكن هاليفاكس مرتاحاً منها تماماً. وفي الحال -كان هذا آخر يوم من شهر آب- أبرق الى كينارد بأن يتفق مع السفير الفرنسي في وارشو (ليون نوئيل) بأن يقترحاً على البولنديين "إبلاغ الحكومة الألمانية، ويستحسن أن يكون مباشرة - أو بواسطتنا بأنهم احيطوا علماً بأخر رد لنا على الحكومة الألمانية وانهم يؤكدون قبولهم بمبدأ المباحثات المباشرة. تخشى الحكومة الفرنسية أن تستفيد الحكومة الألمانية من صمت الحكومة البولندية^(٧٩)".

مازال لورد هاليفاكس قلقاً بخصوص موقف حلفائه البولنديين. وبعد أقل من ساعتين (١٠، ٤٥) ظهراً عاد يبرق الى كينارد: "أرجو الإتصال حالاً بالحكومة البولندية والنصح لها - بعد قبولها مبدأ المفاوضات المباشرة، أن تصدر حالاً تعليمات الى سفيرها في برلين للإتصال بالحكومة الألمانية والسؤال منها إذا كان لديها اية مقترحات فهو مستعد لايصالها الى حكومته حتى تتفرغ الى

٧٨- الكتاب البريطاني الأزرق ص ١٤٤.

٧٩- المرجع السالف ص ١٤٧.

دراستها لتقابلها بإقتراحات للتفاوض العاجل".^(٨٠)

لكن - وقبل إرسال برقيته بقليل، كان (بيك) قد ابلىغ السفير البريطاني بمذكرة خطية ان الحكومة البولندية "تؤكد إستعدادها... لتتبادل فوراً وجهات النظر مع الحكومة الألمانية" على أثر المذكرة التي قدّمها السفيران البريطاني والفرنسي في منتصف ليلة أمس. واعلم السفير شفويّاً أنه اصدر تعليماته الى سفيره لبيبسكي بضرب موعد مع ريبنتروب ليبلغه "ان بولندا وافقت على الإقتراحات البريطانية" وعندما سأله كينارد ماذا سيكون موقف لبيبسكي ان قدم له (ريبنتروب) المقترحات الألمانية؟ أجابه الوزير أن سفيره في برلين غير مخول في قبولها "فالتجارب السابقة تحمل على الاعتقاد أنها قد تكون مرفقةً بإنذارٍ ما" وقال (بيك) إن المهم هو إعادة ربط الصلة "وبعدها يشرع بالبحث في الأسس التي ستقوم عليها المفاوضات واين ستبدأ ومع من؟" ولم تكن وجهة نظر وزير الخارجية على ضوء "التجارب الماضية" غير معقولة أو لا محل لها وهو المعروف بموالاته للنازيين. وابرق كينارد الى لندن أن (بيك) قال ايضاً "إنه لن يذهب بالطبع الى برلين إن طلب منه ذلك، لأنه لايرغب أن يعامل معاملة الدكتور هاشا"^(٨١).

والذي حدث فعلاً أن (بيك) لم يرسل الى لبيبسكي هذه التعليمات بالضبط. فبدلاً من قوله "بولندا وافقت" على الإقتراحات البريطانية، أبلغ (ليبسكي) أن ينقل للألمان أن بولندا "تميل للأخذ" بالمقترحات البريطانية وستبعث بجواب رسمي "خلال الساعات القلائل التالية على أكثر تقدير". وكان في تعليمات (بيك) للسفير أكثر من هذا، وقد وصلت الى علم الألمان لأنهم وقّفوا الى حل الجفرة البولندية.

لسبب معقول بسيط سيكشف عنه بعد قليل، لم يكن الألمان متلهفين إلى إستقبال السفير البولندي في برلين فقد فات الوقت!، في الساعة الواحدة بعد الظهر (عقب وصول تعليمات السفير من بولندا بدقائق) طلب لبيبسكي مقابلة مع ريبنتروب لغرض تقديم رسالة من حكومته وانتظر ساعتين وبعدها إتصل به فايسبيكر تلفونيا وسأله نيابةً عن وزير الخارجية هل سيأتي بوصفه مبعوثاً مطلق الصلاحية "أو بصفة أخرى؟"

ذكر لبيبسكي في تقريره الأخير فيما بعد^(٨٢): "فأجبتني طلبت مقابلة" بوصفي سفيراً لأقدم تصريحاً صادراً من حكومتي".

ومرت فترة انتظار طويلة أخرى. وفي الساعة ٥ عصراً زار (أتوليكو) الوزير ريبنتروب وأعلمه "برغبة الدوتشي الملحة" في أن يسمح (الزعيم) بمقابلة لبيبسكي لينشيء على الأقل الحد الأدنى من

٨٠ - المرجع السالف ص ١٤٧.

٨١ - نص الرد البولندي الموجه الى بريطانيا في ٣١ آب. المرجع السالف ١٤٨-١٤٩ تقرير كينارد المؤرخ ٣١ آب (لم يصل لندن حتى الساعة ١٥، ٧ مساءً) المرجع نفسه ١٤٨.

٨٢ - تجد تقرير (ليبسكي) الأخير في الكتاب البولندي الابيض، طبعت مقتبسات منه في [مؤامرة النازيين وعدوانهم: ج٨ الص ٤٩٩-٥١٢]

الصلة الضرورية "اجتناباً لقطع العلاقة النهائي" فوعد الوزير الألماني "بنقل" رغبات الدوتشي الى (الزعيم) (٨٣).

ولم تكن هذه أولى زورات السفير الإيطالي لقلهلمشتراسه في هذا اليوم الأخير من شهر آب في محاولة منه لإنقاذ السلم. في الساعة التاسعة صباحاً أبلغ أتوليكو روما أن الموقف "ميتوس" منه. وان لم "يظهر شيء الى الوجود فستدور رحى الحرب خلال بضع ساعات" وفي روما وضع تشيانو وموسوليني رأسيهما معاً ليجدا شيئاً جديداً. وكانت النتيجة الأولى أن اتصل تشيانو بهاليفاكس ليقول له أن موسوليني لا يمكنه التدخل إلا إذا كان قادراً على تقديم "هدية سمينية اي الدانزك" ولم يتحمس الوزير البريطاني للفكرة وابلغ تشيانو إن أول ما يجب عمله هو ايجاد صلة مباشرة بين الألمان والبولنديين عن طريق (ليپسكي).

و بناء على ذلك زار أتوليكو (فايسيكير) في وزارة الخارجية في الساعة ١١, ٣٠ صباحاً وانتهى اليه اتصال موسوليني بلندن وإقتراحه عليهم إعادة الدانزك كخطوة اولية لحسم النزاع الألماني البولندي وان الدوتشي بحاجة الى "وقت معين" لإحكام خطته لأجل السلم. وفي الوقت نفسه ألا يمكن الحكومة الألمانية إستقبال (ليپسكي) ؟

استقبل ريبنتروب (ليپسكي) في الساعة ٦, ١٥ عصرًا، بعد مرور أكثر من خمس ساعات على طلب المقابلة ولم تدم طويلاً، تصرف السفير البولندي رغم ارهاقه وتوتره العصبي بحكمة ووقار، فتلا على وزير الخارجية النازي المذكرة الخطية: "أبلغت الحكومة البولندية ليلة أمس، من طرف الحكومة البريطانية بوجوب تبادل وجهات نظر مع حكومة الرايخ حول امكان المفاوضات المباشرة بين الحكومتين البولندية والألمانية. إن الحكومة البولندية تميل إلى الأخذ بالمقترح البريطاني، وستجيب اجابة خطية رسمية على الموضوع خلال الساعات القلائل التالية".

وروى (ليپسكي) بعدئذ "واضفت قائلاً إنني حاولت تقديم هذا التصريح منذ الساعة الواحدة ظهراً" وعندما سأله ريبنتروب هل جاء بوصفه مبعوثاً مخولاً بالمفاوضات، اجابه السفير أنه "في الوقت الحاضر لم يخول إلا بتقديم المذكرة التي تلاها على مسامعه الآن. قال هذا وسلمها لوزير الخارجية. قال له ريبنتروب انه كان يتوقع قدوم (ليپسكي) بوصفه مندوباً مفوضاً مطلق الصلاحية وعندما كرر السفير أنه ليس مخولاً بهذا الدور، صرفه وزير الخارجية بقوله أنه سيُعلم الزعيم (٨٤). روى ليپسكي بعدئذ: "عند عودتي، وجدت نفسي عاجزاً عن الإتصال بوارشو لأن الألمان قطعوا تلفوني".

كان سؤال فايسيكير وريبنتروب عن صفة السفير وهل هو مفوض سؤالاً شكلياً بحثاً، ولتشبث ذلك في المحاضر الرسمية لا غير. لأن الألمان كانوا يعلمون منذ منتصف النهار بأنه لن يأتي اليهم بوصفه

٨٣ - وثائق سياسة ألمانيا الخارجية ج ٧ ص ٤٦٢.

٨٤ - رواية ليپسكي في تقريره الأخير (المصدر السابق). رواية الدكتور شميدت بنصها الألماني عن المقابلة [وثائق عن السياسة الألمانية الخارجية ج ٧ ص ٤٦٣].

مندوباً مطلق الصلاحية كما ارادوا. عرفوا ذلك منذ تسلم (ليپسكي) المذكرة برقباً في الحال. وارسلت نسخة منها الى غورنك الذي أطلع (داليروس) عليها وطلب منه أن يأخذها حالاً الى هندرسن حتى "تتبين الحكومة البريطانية بأسرع ما يمكن كم كان سلوك البولنديين يتسم بالمرأوغة" هذا ما أفاد به غورنك أثناء محاكمته في نورمبرغ. وزاد فقرأ على المحكمة نص التعليمات السرية التي ارسلت الى السفير. ومجملها أن السفير يجب ان يرفض الشروع بمفاوضات رسمية "مهما كانت الظروف" وان يصبر على انه لا يملك قط "صلاحية موفد مفاوض" وانما خول بتقديم مذكرة حكومته الرسمية فقط. واستند الفيلدمارشال على هذا استناداً كلياً في مجهوده العقيم لإقناع قضاة نورمبرغ أن بولندا "قوضت" عروض هتلر الأخيرة للسلام، وانه هو شخصياً لم يرد الحرب وقد فعل كل شيء في طاقته لمنعها. لكن ادعاء غورنك ومدى صحته لم يكن إلا ظلاً خفيفاً لإدعاء ريبنتروب. وكمثال على ذلك، هو تأكيده للمحكمة ثانية إن هتلر لم يقرر "الغزو في اليوم التالي" إلا بعد زيارة (ليپسكي) لفللمشتراسه في الساعة ١٥، ٦ من عصر الحادي والثلاثين من آب.

و الحقيقة هي بعكس ذلك تماماً. والواقع هو أن كل الحركات المستعجلة التي قام بها الدبلوماسيون المرهقون في (الساعة الحادية عشرة) بأشراف من رجال أضعافهم العمل في عصر ومساءً وليل آخر يوم من شهر آب ١٩٣٩، لم تكن إلا شيئاً أشبه بطحن الهواء وقبض الريح وعيشاً باطلاً وصرخات في وادٍ. أما عند الألمان فهي مقصودة تستهدف الخداع والتغطية.

ففي الساعة ٣٠، ١٢ من ظهر (٣١ آب) وقبل إلحاح هاليفاكس على البولنديين أن يتحلوا باللين والمرونة، بل وقبل مقابلة ليپسكي الوزير ريبنتروب وقبل أن ينشر الألمان على الملأ مقترحاتهم "الكريمة" لبولندا بل وقبل محاولة موسوليني التدخل، كان هتلر قد اتخذ قراره الأخير وصادر أمره البات الذي قدر له أن يقذف كوكبنا هذا إلى اتون افطع حرب دموية.

من القائد الأعلى للقوات المسلحة

سري للغاية

برلين: ٣١ آب ١٩٣٩

الأمر التوجيهي رقم (١) لإدارة الحرب

١: الآن وبعد أن [استنفدت] كُل [الإحتمالات السياسية] لاصلاح الموقف في الحدود الشرقية الذي لا تتحمله ألمانيا - واحبطت الوسائل السلمية. فقد إعتزمت [الحل بالقوة]^(٨٥).

٢: إن [الهجوم على بولندا] يجب ان يتم طبقاً للإستعدادات التي اتخذت (للقضية البيضاء) مع التغييرات التي قد تنجم بصورة طارئة بقدر ما يتعلق الأمر بالجيش، وإن كان قد اكمل تقريباً كل تدابير في الوقت نفسه.

توزيع الواجبات واهداف العمليات. يبقى على حاله.

٨٥ - الكلمات والعبارات المحصورة بالاقواس وردت في الاصل بالاحرف المائلة دليل الإهتمام بها.

تاريخ الهجوم: اليوم الأول من أيلول ١٩٣٩.

ساعة الهجوم: الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين فجراً (كتب التاريخ بالمداد الأحمر).
هذا التاريخ والتوقيت ينطبق أيضاً على العمليات في "غدينيا" وخليج الدانزك وجسر ديرتشاو Dirschau

٣- في [الغرب] من المهم أن تقع كل مسؤولية بدء الأعمال العدوانية على عاتق إنجلترا وفرنسا. في الوقت الحاضر كل الإشتباكات الصغيرة التي تقع على الحدود يجب أن تقابل بعمل موضعي بحت. إن حياد كل من بلجيكا وهولندا ولكسمبرگ وسويسرا الذي ضمنه يجب المحافظة عليه بصورة دقيقة.

[في البر] لا تعبر الحدود الألمانية الغربية إلا بموافقتي الصريحة.
[في البحر] يطبق الأمر السابق على العمل والأعمال شبه الحربية التي يمكن إعتبارها كذلك^(٨٦).

٤- إذا بدأت بريطانيا وفرنسا بالأعمال العدائية ضد ألمانيا فمن واجب تشكيلات (الفيروماخت) العاملة في الغرب ان تحافظ على قواتها بأقصى مايمكنها وبذلك تصل إلى حالة تتحقق بها نتائج طافرة من العمليات في بولندا. وبهذه الحدود فقط يعمد إلى إلحاق الضرر بقوات العدو واقتصادهم العسكري ومواردهم بأقصى مايمكن. وأنا احتفظ لنفسي، مهما كانت الظروف باصدار الأوامر للشروع بالهجوم. * يبقى الجيش صامداً في الجدار الغربي ويتخذ الأهبة لثلاثا يجري تطويقه من الشمال في حالة خرق حياد الأراضي البلجيكية والهولندية، بهجوم الدول الغربية. * يقوم الأسطول بشن الحرب على السفن التجارية المتجهة إلى إنجلترا بصورة خاصة... ومهمة القوة الجوية بالدرجة الأولى هي ان تمنع القوة الجوية البريطانية والفرنسية من مهاجمة الجيش الألماني والمجال الحيوي الألماني (ليننزاوم). * في ادارة دفعة الحرب ضد إنجلترا. يجب اتخاذ الأهبة لإستخدام اللوفتوافه في تدمير التموين البريطاني من البحر ومصانع السلاح ومواصلات النقل العسكرية في فرنسا. لاتضيع اية فرصة لهجوم فعال على تجمع من الوحدات البحرية البريطانية وبخاصة ضد البوارج وحاملات الطائرات وانا احتفظ لنفسي بأوامر الهجوم على لندن.

تتخذ الأهبة للهجوم على الجزر البريطانية نفسها. مع الحرص على اجتناب اي نجاح جزئي بقوات غير كافية مهما كانت الظروف.

أدولف هتلر^(٨٧)

٨٦ - ان الحاشية التي وردت في أصل الأمر التوجيهي توضح الغموض في هذه النقطة وهذه هي "وعليه فإن قوات الأطلنطي ستبقى في الوقت الحاضر في حالة الترقب والإنتظار".

٨٧- النص الألماني لأمر هتلر في (محاكمات مجرمي الحرب الكبار: ج٣٤ الص ٤٥٦ - ٤٥٩. وثائق نورمبرگ - C١٢٦) ترجمة إنكليزية في (مؤامرة النازيين وعدوانهم الص ٩٣٥ - ٩٣٩، ج٦) و[وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ الص ٤٧٧ - ٤٧٩].

بعد ظهر يوم ٣١ آب بقليل، كان هتلر قد فرغ من اصدار امره بالهجوم على بولندا في فجر يوم الغد، رسمياً وخطياً وهو كما يشير أمره التوجيهي الأول مازال غير متأكد ماذا سيكون موقف فرنسا وإنجلترا. سيمتنع عن مهاجمتهما ولن يكون الباديء، وإن قامت بعمل حربي فسيقابله. وربما قام البريطانيون بايفاء عهودهم لبولندا وشنوا حرباً "زائفة" غير جدية، كما ذكر الجنرال هالدر في يوميته المؤرخة ٢٨ آب، وإن فعلاً ذلك، فلن "تضيع" عند الزعيم وسيفهمها.

ولعل الدكتاتور النازي اصدر أمره الحاسم قبل الساعة ٣٠، ١٢ ظهراً بقليل وقبل يوم من هذا وفي الساعة ٤٠، ٦ مساءً خط الجنرال هالدر في يومياته رسالة من المقدم (كورت سيشرت Curt Siewert) مرافق (الجنرال فون برواختش): "اتخذ كل التدابير بحيث يمكن البدء في الساعة ٣٠، ٤ من فجر يوم ١ أيلول. وإذا تطلبت المفاوضات في لندن تأجيلاً، فليكن في ٢ أيلول، وفي هذه الحالة ستخطر في الساعة ٣ من مساء الغد... (الزعيم): إما الأول من أيلول وإما الثاني، كل شيء سينطلق بعد الثاني من أيلول. بسبب امطار الخريف، يجب ان يشرع في الهجوم حالاً أو يلغى نهائياً. وفي ساعات الصباح الأولى من ٣١ آب وفيم ظل هتلر يدعي انه ينتظر المبعوث البولندي، تسلم الجيش الألماني أوامره. وفي الساعة ٣٠، ٦ صباحاً دون هالدر: "نبأ من مستشارية الرايخ":

"إن الأمر بالوثوب قد عين يوم (١) أيلول". وفي الساعة ٣٠، ١١ "الجنرال شتولپنباغل Stuelpnagel يبلغ بتحديد ساعة الهجوم [٤٥، ٤ صباحاً]. يقال ان التدخل الغربي لامناص منه. رغم ذلك قرر (الزعيم) الهجوم" وبعد ذلك بساعة نشر الأمر الأول رسمياً. أذكر أن برلين كانت تعيش ذلك اليوم في جو مكفهر صامت، وكان كل أمرٍ يروح ويحيى كالمصروع أو المأخوذ. في الساعة ٢٥، ٧ صباحاً اتصل (فايسيك) تليفونياً بأولريخ فون هاسل (أحد المؤتمرين) وطلب منه الإسراع بالقدوم. لم يجد وكيل وزارة الخارجية غير أمل أخير واحد: إن يقوم هندرسن بإقناع (ليپسكي) وحكومته بإرسال مبعوث مفوض بولندي حالاً. أو على الأقل إعلان العزم عن إرسال مبعوث. هل يستطيع المتقاعد (هاسل) أن يلتقي بصديقه (هندرسن) حالاً، وكذلك يزور غورنك لهذه الغاية؟ ففعل (هاسل)، قابل هندرسن مرتين وگورنك مرة واحدة إلا أن الدبلوماسي القديم والحصم للدود للنازي الآن، لم يكن فيما يبدو يدرك ان الأحداث جردت هذه المجهودات التافهة من اي نفع ولم يتفهم أبعاد تشوشه وحيرته، وحيرة كل من (فايسيك) وسائر الألمان الطيبين الذين ارادوا السلم - بالشروط الألمانية. فقد اتضح لهم في ٣١ آب ان الحرب واقعة لامحالة ان لم يتراجع هتلر أو البولنديون. وانه لايلوح أقل احتمال في تنازل أحدهما للآخر. ومع هذا فقد اوضحت يومية هاسل في هذا التاريخ أن الرجل كان يتوقع تراجع البولنديين، وسلوكهم السبيل المهلكة التي سبقهم اليها النمساويون والچيك.

لما حاول (هندرسن) أن يثبت لهاسل أن "العقبة الكبرى" هي اساليب الألمان في محاولة إملاء رغباتهم على البولنديين والتحكم بهم "كأنهم أطفال صغار حمقى"، رد عليه (هاسل) "إن صمت البولنديين المتواصل مما يؤاخذ عليه أيضاً" واستطرد يقول "كل شيء يتوقف الآن على اظهار ليپسكي

نفسه لا لإلقاء أسئلة بل ليعلن عن رغبته في التفاوض" حتى (هاسل) نفسه يرى ألا يفترض في البولنديين إلقاء أسئلة، ها هم الآن مهددون بهجوم وشيك، بسبب تهم نازية كاذبة من نسج الخيال. وعندما لخص السفير السابق "إستنتاجاته الأخيرة" حول اندلاع الحرب وأنحى باللوم على هتلر وربنتروب لتعمدهما المغامرة بحرب ضد الدول الغربية "لم يبخل بصب قدر كبير من المسؤولية على رؤوس البولنديين، بل حتى على الفرنسيين والإنجليز. فكتب يقول "والبولنديون من جهتهم بغرورهم البولندي ونزقهم السلافي، وثقتهم بالعون الفرنسي-الإنكليزي، أضاعوا كل ماتبقى من فرص لاجتناب الحرب" (لايسع المرء إلا ان يتساءل اي فرصة اضاعوا غير فرصة الإستسلام لمطالب هتلر الكاملة). واستطرد هاسل "لقد خرجت الحكومة البريطانية من حلبة السباق في آخر الأيام وتبنت موقف (بأسهم بينهم والى سقر!) وسارت فرنسا على النهج نفسه لكن بشيء من التردد كثير حاول موسوليني كل ما في وسعه لإجتناح الحرب"^(٨٨). شخص مثقف واسع الاطلاع كثير التجارب مثل هاسل ان كان تفكيره يبلغ هذه الدرجة من الضحولة وضيق الأفق فلاعجب أن سهل على هتلر خداع جماهير الشعب الألماني.

ثم كان فاصل غريب، إستغرق ساعات يوم السلم الأخير. على ضوء ما علم الآن عن قرارات هذا اليوم، المفترض أن يكون بالنسبة الى القائد العام للسلاح الجوي الألماني يوماً مرهقاً حافلاً بالمهام الثقيلة التي تحتتها عمليات جوية بعيدة المدى في اجواء بولندا فجر اليوم التالي إلا أن الأمر كان مختلفاً فقد دعاه داليروس الى الغداء في فندق إسبلاندا Esplanda واتحفه بأطياب الأكال ومعتق الخمر. وكان الكونياك في غاية النفاسة حتى أن غورنك أصر على أخذ قنيتين منه عند إنصرافه، وبعد أن بلغ الفليدمارشال درجة الإنشراح وطيب النفس المناسبة اقترح (داليروس) دعوة (هندرسن) لحديث ففعل غورنك بعد الاستئذان من هتلر، ودعاه هو (وفوريس) الى عصرية شاي في منزله في الساعة الخامسة مساءً ويقول داليروس (لم يذكر هندرسن حضوره الدعوة لا في كتابه ولا في تقريره الأخير) انه اقترح قيام غورنك ممثلاً عن ألمانيا بمقابلة موفد بولندي في هولندا، ووعد هندرسن بتقديم الاقتراح الأخير: وذكر عن الزيارة ان غورنك "تكلم زهاء ساعتين حول إعتداءات البولنديين ورغبة هر هتلر وإهتمامه بالصدافة البريطانية. وكان حديثاً لا يؤدي الى غاية... وانطباعي العام أنه يتضمن محاولة أخيرة يائسة من جانبه لفصل بريطانيا عن البولنديين... وازدادت عنفاً في حديثي منطلقاً من زاوية معرفتي انه في وضع يستطيع معه أن يخصص لي هذا الكثير من وقته في مثل هذا الموقف... إنه ما كان بقادر على تبديد وقت في هذه اللحظة بتبادل الحديث لو لم يقصد إفهامي بأن كل شيء قد تم إعداده للعمل الى أصغر التفاصيل".

واطرف الروايات الثلاث لحفلة الشاي تلك، سردها (فوريس) اجابة على سؤال موجه من محامي غورنك في نورمبرگ. قال: "كان الجو سلبياً، لايلوح فيه بارقة أمل بل يخيم عليه القنوط، وإن ساد

٨٨ - هاسل: المرجع السالف ٦٨ - ٧٣.

شعور الصداقة... وكان تصريح غورنك للسفير البريطاني: لو بقي البولنديون معاندين ولم يخضعوا فسوف تسحقهم ألمانيا كما تسحق القملة. وإن قررت بريطانيا إعلان الحرب فسيأسف لذلك أسفاً عظيماً، وسيكون ذلك قلة فطنة وطيشاً كبيراً من جانب بريطانيا^(٨٩). ويذكر هندرسن في تقريره الذي كتبه في ساعة متأخرة من تلك الليلة وأرسله إلى لندن "لا فائدة قط في أن أقدم أي مقترحات أخرى. مادامت الأحداث قد سبقتها وإن السبيل الوحيدة الباقية لنا هو إظهار عزماتنا الصلبة في مجابهة القوة بالقوة"^(٩٠).

يبدو أن انقشاع الغمامة عن أبصار السر نقيض هندرسن كان كاملاً. فرغم جهوده المرهقة طوال السنوات الماضية لتهذبة الدكتاتور النازي النهم الذي لا يشبع، أقر أن بعثته في ألمانيا (كما دعاها) قد اخفقت. ففي آخر ساعات اليوم الأخير من شهر آب حاول هذا الإنكليزي الضحل الفكر المجامل الذي كانت دبلوماسيته الشخصية تمتاز بالعمى التام، حاول أن يواجه الانهيار الفظيع الذي أصاب آماله الخلافة ومشاريعه الفاشلة. ومع أن القدر إدخر له معاناة خيبة نموذجية لاتصدق، في اليوم التالي وهو أول أيام الحرب، فقد بدأت الحقيقة الأزلية تبرز له: ألا وهي هناك اوقات وظروف يجب أن تقابل القوة بالقوة... كما قال^(٩١).

عندما خيم ليل ٣١ آب ١٩٣٩ على أوروبا. وشرع مليون ونصف مليون جندي ألماني بالحركة الى الأمام لإحتلال مواقعهم الأخيرة على الحدود البولندية والوثوب عند الفجر، لم يبق لهتلر من عمل غير أن يقترب جريمة نصب دعائية، ليهيء الشعب الألماني لصدمة حرب عدوانية. كان الشعب الألماني في حاجة إلى واحدة من الحيل التي بات هتلر حاذقاً في حبكها بمساعدة غوبلز وهملر. كنت انتقل في شوارع برلين أتحدث مع الناس العاديين فكتبت في مفكرتي صبيحة ذلك اليوم

٨٩ - شهادة داليروس في نورمبورگ (محاكمات مجرمي الحرب الكبار، ج٩، الص ٤٧٠ - ٤٧١) إجابة فوريس على سؤال محامي دفاع غورنك إقتبسه ناميبه (تمهيد دبلوماسي: الص ٣٧٦-٣٧٧). رواية هندرسن: في تقريره الأخير ص١٩.

٩٠ - ربما كتبه في تلك الليلة إلا أنه لم يدفع به الى لندن حتى الساعة ٣.٤٥ عصر اليوم التالي بعد إثنتي عشرة ساعة تقريباً من بدء الهجوم الألماني على بولندا وقد بعث به بعد عدد من البرقيات أمليت مثله بالتلفون. فكان وصول الجميع في آن واحد. وكانت البرقيات تتحدث عن نشوب الحرب. وقد جاء فيه "عدم الثقة المتبادل بين الألمان والبولنديين. بلغ حده الأقصى، حتى أصبحت لأشعر بامكاني الانصياع [هكذا] لتقبل أي مقترحات أخرى بصورة مفيدة من هنا حيث أنها ستتأخر عن الأحداث. أو لاتؤدي الى شيء كنتيجة للاساليب التي تلت أو لاعتبارات تتعلق بالشرف والمكانة. "الأمل الأخير هو في العزم الذي لا ينثلم بمقابلتنا القوة بالقوة" (و.س.ب.خ) ج٧، ص٤٨٣. حديث هندرسن في تقريره هذا الأخير (ص١٩) وفي كتابه المرجع السالف الص ٢٩١-٢٩٢.

٩١ - لما كان الاصدقاء الذين قرأوا هذا الجزء من كتابي، وابدوا شكاً في موضوعية الكاتب بحكمه على هندرسن. فمن الخير أن اثبت هنا رأياً آخر في السفير البريطاني في برلين. لقد وصفه المؤرخ البريطاني السير ل. ب. ناميبير Sir L. B. Namier بمابلي: "معجب بنفسه مغرور معتز بفكرته متمسك بأرائه الشخصية تمسكاً مشوباً بالجمود والعناد يصب البرقيات والتقارير والرسائل صبا باعداد لاتصدق وباسهاب واطناب مابعده زيادة لمستزيد ويكرر مائة مرة وجهة نظره وآراءه الفجة الخلطة بنفسها. بليد الى الحد الذي يجعله مصدر خطر. وليس غيباً الى الحد الذي يجعله غير مؤد (لقد برهن على أنه رجل منحوس an homme nefaste). ناميبير في عصر النازي ص١٦٢.

"الكل ضد الحرب. الناس يصرحون بأرائهم هذه علانية. كيف يمكن لبلاد الدخول في حرب كبرى ومواطنوها يكرهون ذلك كرهاً مميتاً؟" رغم كل تجاربي في الرايخ الثالث سألت هذا السؤال الساذج! وهتلر يعرف الجواب معرفة جيدة. ألم يعد جنرالاته قبل أسبوع في مقره البافاري على قمة الجبل بأنه "سيؤمن الأسباب الإعلامية، لإثارة الحرب" ونبيههم إلى "أن لا يهتموا بقوة حجج تلك الأسباب أو ضعفها" وقال لهم "أن المنتصر لن يُسأل فيما بعد هل تكلم حقاً أو باطلاً في مباشرة حربٍ أو اثارتها، ليس المهم الصواب والحق، بل النصر".

في التاسعة مساءً. سمع الكل مقترحات الزعيم البولندية السلمية تذاع من كل محطات الراديو الألمانية فيدت معتدلة جداً لهذا المراسل المخدوع [يقصد نفسه] وكانت الحقيقة أن هتلر لم يقدمها للبولنديين. ولم يقدمها للبريطانيين إلا بشكل ملتو غامض غير رسمي، ثم طرحها جانباً بعد أقل من أربع وعشرين ساعة على إذاعتها. وظهر المستشار بمساعدة غوبلز بأنه لم يفقد شيئاً من براعته في الخداع والمراوغة بتصريحه المطول الذي شرح فيه للشعب الألماني كيف ان حكومته استنفذت كل الوسائل الدبلوماسية للمحافظة على السلم. قال البيان: بعد أن عرضت الحكومة البريطانية في ٢٨ آب وساطتها بين ألمانيا وبولندا، أجابت الحكومة الألمانية في اليوم التالي بما يلي:

"رغم أنها ترتاب في وجود رغبة للحكومة البولندية للتوصل الى تفاهم فقد ابدت إستعدادها لقبول الوساطة البريطانية أو المقترحات التي ترتأىها حفظاً للسلم... وقد إعتبرت العمل بسرعة ضرورياً جداً... إن كان المراد اجتناب الكارثة. واعلنت الحكومة [الألمانية] إستعدادها لإستقبال شخصية تعينها الحكومة البولندية حتى موعد أقصاه ٣٠ آب مزود بتخويل ينص على تمتعه لا بصلاحيات المباحثات وحدها، بل للسير في المفاوضات وعقد إتفاق. وبدلاً من تسلم الحكومة الألمانية تصريحاً حول وصول شخصية مخولة. كان الجواب الذي وصلها مقابل إستعدادها للتفاهم، أنباء عن التعبئة في بولندا... لا ينتظر من حكومة الرايخ أن تظل مبدية إستعدادها لفتح باب المفاوضات الى ما شاء الله، بل وان تكون فعلاً مستعدة لذلك. بينما لاتجد من الجانب البولندي غير التسويف والمماطلة بتعاليل جوفاء وتصريحات لا معنى لها.

ولقد اتضح ذلك مرة أخرى بنتيجة (التنبية) الذي قام به السفير البولندي في هذه الآونة، فهو نفسه لم يكن يملك تخويلاً او تفويضاً لا بالدخول في اي مباحثات ولا بالتفاوض.

وهكذا بقي الزعيم والحكومة الألمانية في إنتظار مفاوض بولنديّ يومين كاملين دون جدوى. في هذه الظروف، تجد الحكومة الألمانية أن مقترحاتها في هذه المرة أيضاً... قد رُفضت، إنها تعتبر هذه المقترحات بالشكل الذي أوضحت للحكومة البريطانية أيضاً - أكثر من مخلصه وعادلة وعملية. تعلم هتلر وغوبلز بالتجربة أن الدعاية الحسنة، تحتاج الى اكثر من الكلمات لتكون ذات تأثير في النفس. انها تحتاج أيضاً الى وقائع مهما بالغ اصحابها في اختراعها. فبعد أن اقنعا الشعب الألماني بأن البولنديين رفضوا عروض هتلر السلمية (وهذا ما لا يتردد المؤلف في الشهادة به من تجربته الشخصية)

بقي عليهما تدبير واقعة تزودهما بـ"الدليل" على أن البولنديين لا الألمان هم الذين هاجموا أولاً. ويذكر القاريء أن الألمان قد استعدوا لهذا العمل المشبوه إستعداداً دقيقاً بأشرف من هتلر نفسه. كان ألفريد ناويوكس رجل الحرس الأسود المثقف الشقي ينتظر منذ ستة أيام في (غلايقتز) القريبة من الحدود البولندية للقيام بالغارة البولندية المزيفة على محطة الراديو فيها. لقد جرى تعديل في الخطة وانيط برجال من الحرس الأسود يرتدون الزي العسكري البولندي واجب الإغارة عليها وإطلاق النار، وان يترك في الميدان بعض نزلاء معسكرات الإعتقال المحقونين بالسّم موتى "كإصابات" في المعركة الخيالية، وهذا الجزء المستع الأخير من العملية أعطي كما رأينا المصطلح الرمزي المعبر "المعلبات" ورسم أن تقوم عدة هجمات بولندية مزيفة في أنحاء أخرى. إلا ان الهجوم الرئيس كان سيتم على محطة الراديو في (غلايقتز).

[ذكر ناويوكس في إفادته المؤيدة بالقسم في نورمبرغ] في ظهر يوم ٣١ آب قال: وصلتني من (هيدريخ) كلمة السر للبدء بالهجوم الذي تقرر توقيته بالساعة الثامنة من مساء اليوم نفسه. قال هيدريخ "بالنظر للشروع بالهجوم، أطلب من (مولر) "البضاعة المعلبة" فصعدتُ بما أمرت واعلمت (مولر) بوجوب جلب الشخص الى محل قريب من محطة الإذاعة. تسلمت الشخص وامرت بإلقائه في مدخل المحطة. وكان حياً إلا أنه فاقد الوعي تماماً وحاولت فتح عينيه ولم استطع التأكد من بقية حياة فيه من عينيه أو من أنفاسه. ولم أرَ جراح الرصاص لكن دماً كثيراً لطح وجهه. وكان بشياب مدنية. احتلنا دار الإذاعة حسب الأوامر وأذعنا كلمة امتدت ثلاث أو أربع دقائق من محوّل خارجي^(٩٢). واطلقنا عدة طلقات مسدسات وتركنا الموضع^(٩٣).

كانت برلين في مساء هذا اليوم منقطعة عن العالم الخارجي تقريباً. إلا ما صدر عنها من اخبار المراسلين الصحفية والإذاعات التي نقلت بيان عروض الزعيم لبولندا. وحاولتُ الإتصال تلفونياً بوارشو ولندن وباريس فقبل لي ان الخطوط مقطوعة عنها. أما برلين نفسها فبذت عادية المظهر ولم يجر فيها عملية إخلاء النساء والأطفال كما كان يجري في لندن وباريس ولم تعبأ اكياس الرمل أو تحشى نوافد البيوت بالأثاث كما تواترت به الأنباء عن العواصم الأخرى. شارفت الساعة الرابعة صباحاً عندما عدت من دار الإذاعة الى فندق أدلون بالسيارة ولم أجد في طريقي وسائط نقل وكان

٩٢- املى هيدريخ الخطبة بالبولندية على (ناويوكس) وتتضمن شتائم مهيجية للألمان وألمانيا وتصرح ان البولنديين يباشرون الآن الإغارة.

٩٣- استخدم هتلر "غارة البولنديين" على غلايقتز في خطبة أمام الرايخستاغ في اليوم التالي كدليل. واتخذها ريبنتراب مبرراً لعدوان النازي وجرى على نهجه (فايسيك) وآخرون من مسؤولي وزارة الخارجية في دعاياتهم وقد نشرت خبرها واخبار عدد من مثيلاتها جريدة نيويورك تايمس في طبعات ١ أيلول ويقتضي السياق ايراد الشهادة التي ادلى بها الجنرال لاهوزن Lahousen التابع لقسم الإستخبارات. فقد اوضحت ان كل رجال الحرس الأسود الذين قاموا بالهجوم المفتعل وكانوا متنكرين بالزي العسكري البولندي "تمت تصفيتهم وغابت آثارهم تماماً" (مراجع الحاشية: محاكمات مجرمي الحرب الكبار) مراجع المتن: (إفادة ناويوكس المصدر السابق).

الظلام يخيم عن المنازل والناس يغطون في سباتهم ويخيل لي أنهم آووا الى مضاجعهم وهم يمنون النفس بالخير والسلام.

في ذلك اليوم كان هتلر في أقصى حالاته النفسية وفي الساعة السادسة من مساء اليوم دون الجنرال هالدر في في يوميته "الزعيم هاديء النفس... نام نوماً جيداً. رفضه إجراء عملية الاخلاء [في الغرب] دليل على انه لايتوقع من فرنسا وإنجلترا القيام بأي عمل حربي"^(٩٤).

اما الاميرال كاناريس رئيس قسم الإستخبارات العسكرية (ق.ع.ق.م) وأحد زعماء المتآمرين على النازية، فقد كانت حالته النفسية مختلفة. كان الدكتاتور الألماني في هذا الوقت يدفع ألمانيا الى الحرب دفعاً، وهو عملٌ كانت حلقة تأمر كاناريس قد اقسمت الأيمان على الحيلولة دونه بالقضاء على هتلر. ها هي مناسبة المؤامرة قد حلت، ولا مؤامرة هناك. لم يسبق حتى التفكير فيها.

استدعى العقيد (اوشتر)، كزيفيوس بعد ظهر اليوم الى مقر القيادة العليا للقوات المسلحة، المركز العصبي لجبروت ألمانيا العسكري الذي كان آنذاك يغلي غلياناً ويعج بالحركة. وانتحى كاناريس بكزيفيوس في ممر قليل النور وقال له بصوت خنقته العبارة "هذا يعني نهاية ألمانيا!"^(٩٥).

٩٤- وجد هتلر فسحة من وقت فراغ في هذا اليوم ليرسل برقية الى دوق ويندسور الذي كان يعيش في جزر الأنتيب بفرنسا، وهذا نصها:

برلين في ٣١ آب ١٩٣٩

"اشكرك على برقيتك المؤرخة في ٢٧ آب. ولتكن على ثقة بأن موقفني من بريطانيا ورغبتي في تجنب حرب أخرى بين شعبيها لم تتغير. والأمر في التوصل الى علاقات طيبة مقبلة بين بريطانيا وألمانيا كما هي رغبتي، يتوقف على بريطانيا على كل حال"

توقيع: أدولف هتلر

[وثائق عن سياسة... ج ٧ ص ٤٧٢]. هذا هو اول ذكر لملك بريطانيا السابق ولن يكون الأخير في الوثائق الألمانية المستولى عليها. ظل دوق وندسور لفترة معينة من الوقت -كما سنذكر فيما بعد- يحتل جانباً كبيراً من افكار ريبنتروب وهتلر في حسابات معينة.

٩٥- كزيفيوس المرجع السالف الص ٣٧٤- ٣٧٥.

الفصل التاسع

نشوب الحرب العظمى الثانية

- ١ -

في التاريخ الذي ضربه هتلر في أمره التوجيهي الأول (للقضية البيضاء) منذ ٣ نيسان وبانبلج فجر اليوم الأول من أيلول ١٩٣٩ تدفقت الجيوش الألمانية عبر الحدود البولندية واطبقت على وارشو من الشمال والجنوب والغرب.

وكان هدير الطائرات الحربية الألمانية فوق الرؤوس يملأ الأجواء، وهي منطلقة الى أهدافها: وراحت تقصف أرتال العساكر البولندية وكدس العتاد، والجسور، والسكك الحديد، والمدن المفتوحة. في دقائق معدودات طفت تذيقي البولنديين جنوداً ومدنيين. أول طعم لموت الفجأة والدمار المتحدر من السماء تعانيه البشرية وبأوسع نطاق جرى على ظهر هذا الكوكب في الماضي. وبهذا اشاعت فزعاً وهولاً كان سيصبح القضاء الرهيب المألوف لمئات الملايين في أوروبا وآسيا وأفريقيا، رجالاً ونساءً وأطفالاً خلال السنوات الست القادمة. والذي كان شبحتها (بعد مجيء القنبلة النووية) سيظل يطارد كل اذهان أبناء البشرية مهدهداً بالإبادة المطلقة.

كان يوماً عبوساً، وصباحاً قائضاً بعض الشيء في برلين. بغيوم طخياء تهمين على برلين فتمنحها بعض حماية من القاصفات المعادية التي كان يخشى منها. الا انها لم تأت.

لاحظت أن البلادة والخمول كانتا تسودان حركة الناس في الشارع، رغم كثرة الأنباء التي طالعتهم من اجهزة راديواتهم ومن طبوعات الصحف الصباحية الخاصة^(١) ورأيت عبر الشارع وانا في فندق (آدلون) وجبة العمال الصباحية متفرغة الى عملها في بناية شركة (فاربن) الجديدة كأنما لم يحصل شيء وعندما كان باعة الصحف الصبيان يملأون بهم منادين على بضاعتهم من الطبوعات الخاصة، لم يلق أحد منهم أداة عمله ليبتاع نسخة وعللت ذلك لنفسني بان الشعب الألماني ربما لم يستفك بعد من صدمة النبأ الصباحي الأول حين استيقظوا ليجدوا أنفسهم في غمار حرب كانوا واثقين أن (الزعيم) سيتجنبها. لم يصدقوا تماماً، والآن هاهي ماثلة أمامهم حقيقة واقعة.

وأي تباین؟ المرء لايسعه الا أن يقارن بين هذا التبلد الأغبر وبين الحماسة التي رافقت الألمان في

١- أذيع بيان هتلر الى الجيش معلناً فيه بدء العمليات العدوانية من الراديو الألماني في الساعة ٥.٤٠ صباحاً. وكانت طبوعات الصحف الخاصة قد نزلت للشوارع بعد ذلك بقليل.

١٩١٤. كان دخولهم تلك الحرب مشوباً بحماسة ونشوة هائلة. فقد نظم الأهالي وقتذاك تظاهرات صاخبة جنونية في الشوارع ونشروا الأزهار على الجنود وهم يسيرون الى الجبهة، وهتفوا هتافاً يشق عنان السماء للقيصر قلهلم الثاني رب الحرب الأعلى.

في هذه المرة لم يكن ثم تظاهرات كهذه للعساكر أو لرب الحرب النازي الذي انطلق من دار المستشارية قبيل العاشرة صباحاً الى الرايخشتاغ يشق طرقاً خالية كثيبة ليلقي كلمته أمام الشعب حول أحداث الساعة. بعد أن قام هو متعمداً وبكل برودة دم بتفجيرها الآن حتى آلات الرايخشتاغ المتحركة، أولئك الناس الذين عينهم بنفسه وانتقى معظمهم من رجال حزيه لم يستجيبوا بحماسة كبيرة حين مضى الدكتاتور قدماً في توضيح الأسباب التي أدت بألمانيا الى ان تجرد نفسها في صبيحة هذا اليوم - مشتبكة بحرب. كان الهتاف أقل بكثير من السابق، وفي المناسبات التي تقل عنها أهمية أثناء ماراح الزعيم يلقي خطابه من المنبر الكثير الزخرف في دار أوبرا (كرول).

ومع قسوة وشدة كانت تظهر في مواضع من خطبته، إلا أن موقف الدفاع كان يغلب عليها. وتكون عندي اعتقاد وأنا اصغي الى أقواله أنه يعاني وطأة هم غريب، وخيل لي أنه ذاهل اللب هو نفسه للمأزق الذي تورط فيه. وهو الآن يظهر شيئاً من التحرج ويبدو أن تفسيراته لتقاعس إيطاليا الحليفة عن الوفاء بالتزاماتها العفوية في الإسراع الى معونة لم يقنع بها حتى الحاضرون الذين انتقاهم بنفسه.

"[قال] ارغب هنا أن أخص باعظم الشكر إيطاليا التي عاونتنا دائماً ابداً. ولكنكم تدركون أننا في خوض غمار هذا الكفاح لاننوي طلب المعونة من الخارج ولسوف نهض به وحدنا".

ولما كان قد اعتمد كثيراً على الأكاذيب وهو طريقه الى الحكم وفي نهجه الى تركيز السلطان بيده، فهو لا يتعفف في هذه الساعة التاريخية الخطيرة من نثر عدد آخر منها على اسماع الشعب الألماني السهل الخداع، تبريراً لعمله الشرير.

"انكم لاتجهلون المحاولات المستمرة التي بذلها للتوصل الى تفاهم وحسم سلمي لمشكلة النمسا ثم ارض السوديت وبوهيميا وموارفيا... وكانت كلها عبثاً... في محادثات مع ساسة بولندا... بلورت بالأخير المقترحات الألمانية... وكانت في غاية الاعتدال والإخلاص. واني لأرغب في ايضاح ذلك للعالم أجمع. كنت أنا وحدي في موقف القادر على عرض مثل هذه المقترحات لأنني كنت مدركاً إدراكاً تاماً بأنني سأصطدم بمعارضة ملايين في اقدامي على هذا العمل... لقد رُفضت تلك المقترحات.

"انتظرت أنا وحكومتي يومين كاملين. لنرى هل توافق الحكومة البولندية على إرسال مندوب مفوض ام لا؟... لكن يساء الحكم علي إن اعتبروا جبي بالسلم وطول صبري ضعفاً أو جبناً... لا يمكنني أن أجد بعد الآن اي رغبة من جانب الحكومة البولندية في إجراء مفاوضات جدية معنا... ولذلك قررت أن أكلم بولندا باللغة التي دأبت على استعمالها ضدنا خلال الأشهر المنصرمة..."

في هذه الليلة الماضية أطلق الجيش النظامي البولندي لأول مرة النار على حدودنا ودخلوا أراضيها.

ومنذ الساعة ٤٥ ، ٤ صباحاً ونحن نرد عليهم بالنار ومن هذه الساعة فصاعداً سندر القنبرة بالقنبرة. وهكذا استخدم مستشار ألمانيا الهجوم الألماني المفتعل على محطة (غلايشتير) سبباً لتبرير اعتدائه الغاشم على بولندا، ويذكر القاريء أن الغارة قام بها رجال الحرس الأسود المتنكرين بالزى العسكري البولندي تحت اشراف (ناويوكس). والواقع أن أول نشرة حربية صدرت عن القيادة العليا الألمانية وصفت عملياتها العسكرية "بالهجمات المضادة". حتى (فايسيك) نفسه بذل جهداً كبيراً في ترويح هذه الخدعة الغادرة المفضوحة فقد عمم برقية في ذلك اليوم الى كل البعثات الدبلوماسية الألمانية عن وزارة الخارجية يشير عليها بالسبيل الذي تتعبه:

"صدراً للهجمات البولندية، تحركت القوات الألمانية للعمل ضد بولندا فجر هذا اليوم. هذا العمل لا ينعث في الوقت الحاضر بالحرب. بل مجرد إشتباكات نجمت عن الهجمات البولندية"^(٢).

حتى جنود الألمان الذين كانوا في موقف يتسببون منه اي الطرفين بادأ الآخر بالهجوم من الحدود البولندية، قصفت كذبة هتلر اذهانهم قصفاً. فقد جاء في بيان طنان وجهه الزعيم الى الجيش الألماني في ١١ أيلول: "رفضت الحكومة البولندية تسوية سلمية للخلافات لطالما رغبت فيها، ولجأت الى حكم السلاح... سلسلة من اعتداءات على الحدود لا يمكن ان تصبح عليها دولة معظمة، دلت على ان بولندا ليست راغبة بعد في إحترام حدود الرايخ. ولأجل وضع حد لهذا الجنون، لم يكن لي بد من مجابهة القوة بالقوة من الآن فصاعداً.

في ذلك اليوم لم يتكلم هتلر بالحق إلا مرة واحدة: "[قال للرايخشتاغ] إنني لأطلب من أي فردٍ شيئاً أكثر مما اعددت نفسي لبذله وعمله خلال أربع سنوات... إنني من هذه اللحظة والى الأخير الجندي الأول للرايخ الألماني فحسب. لقد عدت مرة أخرى فليست تلك السترة التي هي أعز واقدس شيء عندي ولن أنزعها أبداً حتى نحرز النصر، أو سأقضي على حياتي بخلاف ذلك".

وقد صدق والحق يقال في وعده عند مجيء النهاية. ولكن لا أحد ممن قابلتهم من الألمان في برلين يومذاك، لاحظ أن ماقاله الزعيم بكل صراحة هو الشيء الذي لا يستطيع مواجهته أو احتماله، إن كانت النتيجة الهزيمة والإندحار.

وفي خطبته هذه، عين غورنك خلفاً له إن حصل أي شيء. واضاف يقول أن (هس) سيليه في التسلسل. "فاذا حصل (لهس) شيء، فعندئذ يدعى مجلس الشيوخ بحكم القانون وينتخب من بين اعضائه الأليق -واعني بذلك الأشجع- ليكون خلفاً". اي قانون؟ اي مجلس شيوخ؟ كلاهما لا وجود لهما!

أفسح خلق هتلر المكبوت بعض الشيء في الرايخشتاغ، السبيل لهياج نفسي أقبح حال عودته. ووجده (داليروس) المتزلف الذي دأب السير في اعقاب غورنك - هناك في أقصى حالة "من الهياج

٢- [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية... ج٧، ص ٤٩١.

العصبي والثورة النفسية".

"[شهد الوسيط السويدي فيما بعد] قال: "كان يشك دائماً في أن بريطانيا تريد الحرب. وقال لي أيضاً أنه سيسحق بولندا ويضم كل أراضيها..."

"وزاد هياجه زيادة مطردة وبدأ يلوح بذراعيه ويصرخ في وجهي قائلاً: إن شاءت بريطانيا ان تقاتل عاماً فسأقاتل عاماً. إن ارادت إنكلترا القتال عامين فسأقاتل عامين..." وسكت ثم صاح فجأة بصوتٍ حادٍ ليغدو صراخاً وذراعه تتحركان في الهواء حركات عنيفة "إن ارادت إنكلترا الحرب ثلاثة اعوام فسأقاتل ثلاثة أعوام".

وراحت تشنيتات جسمه الآن تتبع تلويحات ذراعيه، وعندما صرخ أخيراً Und wenn ederforderlich ist, will Ich zuhn Jahre kaempfen (وعند الضرورة سأقاتل عشرة اعوام)، لوح بقبضة يده وانحنى الى الأسفل حتى كاد يلمس رأسه^(٣) الأرضية.

مع كل هذه الهستيريا لم يكن هتلر مقتنعاً قط بأنه سيحارب بريطانيا العظمى. الآن مضت ساعات الظهير وأرتال الجيش الألماني المصفحة قد قطعت اميالاً عديدة متوغلة داخل الأراضي البولندية وهي تتقدم بسرعة ومعظم مدن بولندا وبضمنها وارشو ذقت طعم القصف الجوي وسقطت ضحايا كثيرة. ولكن لم يصدر شيء من لندن أو باريس يشير الى أن بريطانيا وفرنسا في عجلة من امرهما للوفاء بالتزاماتهما لبولندا.

كان سبيل الدولتين واضحاً. إلا ان (داليروس) و(هندرسن) كانا يحاولان بذل أقصى مجهوداتها كما يبدو لإيقاع الخلل فيه.

في الساعة ٣٠. ١٠ صباحاً تلقى البريطاني رسالة لهايلفاكس. "[قال فيها] علمت أن البولنديين نسفوا جسر (درشاو) أثناء الليل^(٤) والحرب ناشبة بين البولنديين واهالي الدانزك. فلما بلغت الأنباء هتلر أمر أن يطرد البولنديون من خط الحدود، وأن يقوم غورنك بتحطيم القوة الجوية البولندية على طول الحدود.

وفي ختام الرسالة فقط نوه هندرسن بأن...

"هذه المعلومات مستقاة من غورنك نفسه" وقد يطلب هتلر مواجهتي بعد الرايخشتاغ للقيام بآخر مجهود لإنقاذ السلم^(٥)."

٣- من كتاب داليروس (المرجع السالف الص ١١٩-١٢٠) ومن شهادته في (محاكمات مجرمي الحرب الكبار، ج٩، ص٤٧١).

٤- كانت عملية الألمان للإستيلاء على جسر درشاو فوق الفستولا قبل أن ينسفه البولنديون قد تم وضع خطتها في الصيف. وتردد ذكرها باستمرار في أوراق (القضية البيضاء). وقد أمر بتنفيذها بشكل واضح في أمر هتلر التوجيهي رقم (١١) المؤرخ ٣١ آب. وقد فشلت العملية فعلاً، بسبب ضباب الفجر الذي حال دون إسقاط المظليين الذين كلفوا بإحتلاله. وقد نجح البولنديون في نسفه في الوقت المناسب.

٥- (و.س.ب.خ، ج٧ الص ٤٦٦-٤٦٧).

أي سلم هذا؟ أسلم لبريطانيا؟ ست ساعات مرت وألمانيا تخوض حرباً - ويكل جيروتها العسكري- ضد حليفة بريطانيا.

لم يرسل هتلر بطلب (هندرسن) بعد خطابه في الرايخشتاغ. فادركته الخيبة بعد أن تبرع بنقل أكاذيب غورنك الى مرجعه في لندن حول مبادأة البولنديين بالهجوم. إلا انه لم يخب أمله تماماً. وفي الساعة ١٠, ٥٠ صباحاً تلقن رسالة أخرى لهاليفاكس، يكشفه بفكرة جديدة نبطت في ذهنه الخصب، المشوش:

"[قال] أشعر من واجبي الاعراب عن اعتقادي -مهما كانت احتمالات النجاح ضعيفة- أن الأمل الممكن الوحيد لحفظ السلم في الوقت الحاضر، هو قيام المارشال (سميگلي ريدز) بالإعلان عن إستعداده للقدوم حالاً الى ألمانيا كعسكري ومفوض مطلق الصلاحية ولبحث المشكلة كلها مع الفيلدرماشال غورنك^(٦).

ولم يخطر ببال هذا السفير البريطاني العجيب، أن المارشال (سميگلي-ريدز) في هذا الوقت بالذات ربما كان متفرغاً لمحاولة صد الهجوم الألماني الجبار المباغت وإن استطاع أن يتخلص من ذلك العمل، ليأتي برلين "مندوباً مطلق الصلاحية" فسيكون قدومه موازياً للإستسلام تحت هذه الظروف. وقد تلحق بالبولنديين الهزيمة السريعة لكنهم لن يستسلموا. وكان (داليروس) أشد نشاطاً من رفيقه هندرسن خلال اول يوم لهجوم ألمانيا على بولندا. في الساعة ٨ صباحاً كان في طريقه الى غورنك. فابتدريه الأخير قائلاً "لقد نشبت الحرب لان البولنديين أغاروا على محطة الراديو في غلايخيتير ونسفوا الجسر القريب من (درشاو)" فبادر السويدي في الحال إلى تلفنة الأنباء لوزارة الخارجية في لندن.

وشهد فيما بعد عند إستجوابه في محكمة نورمبرگ: "أبلغت أحد الموجودين بأنه وصلتني معلومات تفيد أن البولنديين قد بادأوا الألمان الهجوم. وهم بالطبع كانوا مستغربين مما حصل عندما أنبأتهم بهذه المعلومات^(٧)".

وكان هذا على كل ما سيتلفنه سفير جلالته في برلين بعد ذلك بساعتين. وتسجل مذكرة سرية لوزارة الخارجية البريطانية ان نداء الوسيط السويدي وصل في الساعة ٩, ٥٠ صباحاً. وقد أصر هذا على لندن - مقلداً غورنك "بأن البولنديين يفسدون كل شيء" وأن لديه "دلائل على أنهم لا يريدون التفاوض"^(٨).

وفي الساعة ١٢, ٣٠ ظهراً عاد يتصل بوزارة الخارجية ثانية. وفي هذه المرة كان محدثه (كادوگان) فراح ينحي مرة أخرى باللائمة على البولنديين بافساد مشاريع السلم بنسفهم (جسر

٦- المرجع السالف.

٧- (محاكمات مجرمي الحرب الكبار: ج٩، ص٤٣٦). ان شهادة داليروس كما طبعت هنا تحوي خطأ طبوغرافياً. يجعل كلامه يبدو وكأن البولنديين "هم الذين هوجموا" وبهذا يغمض الأمر تماماً.

٨ - (و.س.ب.خ) ج٧ الص ٤٧٤ - ٤٧٥.

درشاو) واقتراح ان يطير الى لندن بصحبة (فورييس). لكن (كادوگان) الصلب غير المؤمن بسياسة المسكنات، ضاق الآن ذرعاً بـ(داليروس) وبخاصة بعد ان اندلعت الحرب التي كان يحاول منعها، فقال للسويدي "لا يمكن الآن عمل اي شيء". إلا ان (كادوگان) لم يكن إلا مجرد وكيل الوزارة الدائم، وهو موظف لا يتمتع بعضوية البرلمان. ولذلك أصر داليروس ان يعرض طلبه على مجلس الوزراء نفسه مبلغاً (كادوگان) بلهجة متعطرسة بأنه سيتصل به بعد ساعة. وقد فعل ذلك ونال الجواب الذي ينشده:

"[قال كادوگان] لا تقبل أصلاً أية فكرة في التوسط، مادامت القوات الألمانية في حالة غزو بولندا. والسبيل الوحيد الذي يمكن سلوكه لتجنب العالم كارثة حرب عالمية هو (اولاً) إيقاف الأعمال العدوانية و(ثانياً) انسحاب القوات الألمانية حالاً من الأراضي البولندية"^(٩).

في الساعة العاشرة صباحاً قابل السفير البولندي (زاتجنسكي) في لندن، لورد هاليفاكس وابلغه رسمياً بنياً العدوان الألماني وزاد يقول: "ان القضية واضحة كما نصت عليه المعاهدة". فأجاب وزير الخارجية: إنه لا يشك قط في الوقائع. وفي الساعة ٥٠ , ١٠ صباحاً استدعى الوزير القائم بالأعمال الألماني (ثيودور كوردت) وسأله عما اذا تسلم معلومات ما. فأجاب (كوردت) ليست لديه أية معلومات عن الهجوم الألماني على بولندا. ولا تعليمات ما من حكومته وهنا صارحه هاليفاكس بأن التقارير التي وصلته "تخلق وضعاً خطيراً للغاية" وإنه لن يمضي أبعد من هذا. فقام (كوردت) بنقل المقابلة الى برلين تليفونياً في الساعة ٤٥ , ١١ صباحاً. إذن فهتلر كان وقت الظهور يأمل أن لا تدخل بريطانيا الحرب على كل وان كانت تعتبر الموقف خطيراً. ولكن سرعان ما تلاشى املة هذا.

في الساعة ١٥ , ٧ مساءً حين إتصل احد أعضاء السفارة البريطانية في برلين بوزارة الخارجية تليفونياً وطلب أن يعين وزير الخارجية موعداً لمقابلة (هندرسن) و(كولوندر) "في قضية هامة جداً وعاجلة بأسرع وقت ممكن" وقامت السفارة الفرنسية بإجراء مماثل بعد دقائق قليلة فرفض ريبنتروب مقابلة السفيرين معاً. واستقبل (هندرسن) في التاسعة ليلاً واستقبل (كولوندر) في العاشرة. وتسلم من السفير البريطاني مذكرة رسمية للحكومة البريطانية:

"[تقول المذكرة] .. إن لم تكن الحكومة الألمانية على إستعداد لإعطاء حكومة جلالته تأكيدات مقنعة بأن الحكومة الألمانية قد أوقفت كل عملٍ عدواني ضد بولندا، وهي مستعدة فوراً لسحب قواتها من الأراضي البولندية فان حكومة جلالته ستقوم بدون تردد بالوفاء بالتزاماتها تجاه بولندا"^(١٠) ولم تختلف المذكرة الفرنسية عن اختها الإنكليزية حتى في الصيغة وكان جواب ريبنتروب

٩- المرجع السالف: الارقام ٦٥١ و ٦٥٢. الص ٤٧٩-٤٨٠.

١٠- النص هو في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية، ج٧، ص٤٩٢] وفي الكتاب البريطاني الأزرق (ص١٦٨). ملاحظات الدكتور شميدت على تعليمات ريبنتروب لهندرسن وكولوندر هي في [وثائق وزارة الخارجية الألمانية، ج٧، الص ٤٩٣ و ٤٩٥].

للسفيرين بأنه سيعرض مذكرتيها على هتلر. ثم بدأ حديثاً طويلاً قال فيه انه "لايوجد مشكلة عدوان ألماني" بل مشكلة عدوان بولندي وردد الكذبة التي أصبحت الآن مفضوحة بمجوعة: وهي أن جنوداً "نظاميين" بولنديين هاجموا التربة الألمانية في اليوم السابق. مازالت الأصول الدبلوماسية الدقيقة محافظاً عليها ولم يفت السفير هندرسن ذكر هذه الظاهرة في تقريره لتلك الليلة واصفاً ريبنتروب بأنه "كان مجاملاً ومؤدباً" وفيما كان يهم بالإنصراف وقع نقاش بينهما حول هل كان وزير الخارجية يقرأ النص الألماني للمقترحات البولندية قراءة استعجال في إجتماعهما العاصف قبل ليلتين. قال (هندرسن) إن وزير الخارجية كان مستعجلاً. وادعى ريبنتروب أنه قرأها ببطء ووضوح، بل زاد على ذلك بتفسيرها له شفوياً وشرح النقاط الأساسية. وكان مقتنعاً أن هندرسن فهم كل شيء فيها" ولم تحسم نقطة النقاش فيما بينه. أبدأً لكن ماهو أثرها في الوقت الحاضر؟^(١١).

في مساء يوم (١١) أيلول، فيم كانت الجيوش الألمانية تتوغل في بولندا (واللوفتوافه) تقصف وتقصف دون انقطاع ادرك هتلر من المذكرتين الفرنسية والبريطانية أنه سيواجه حرباً عالمية، إن لم يوقف جيوشه ويسحبها فوراً وهو ما لايمكن التفكير فيه. أو هل ظل يأمل تلك الليلة أن حظه، حظه في مونيخ. سيقترن بالسعد أيضاً؟ ذلك لان صديقه موسوليني، وقد أفزعه دنو الحرب وارعبته فكرة قيام قوات أنكلو-فرنسية برية وبحرية متفوقة بالوثوب على إيطاليا، راح يحاول بجهد اليأس تدبير مونيخ أخرى.

- ٢ -

تدخل موسوليني في آخر لحظة

يذكر القاريء أن الدوتشي في رسالته المؤرخة ٢٦ آب التي تملص فيها من إلتزامات إيطاليا بموجب الميثاق الفولاذي، كان قد ألح على (الزعيم) بفسح السبيل لإحتمال "ايجاد حل سياسي" يكسب ألمانيا "منفعة مادية وأدبية كاملتين"، فلم يتعب هتلر نفسه في مناقشة الأمر مع صديقه وحليفه، وهذا ماخيّب أمل شريكه الأصغر في المحور. مع ذلك قام موسوليني وتشيانو في ٣١ آب، كما رأينا، بالطلب من هتلر مقابلة السفير البولندي على الأقل، وابلغاه أنهما يحاولان حمل الحكومة البريطانية على الرضى بإعادة الدانزك "كخطوة أولى" في مفاوضات السلم وقد فعلا ذلك بعد أن أنذرهما سفيرهما في برلين بخطورة الموقف.

ولكن الوقت ماعاد يسمح لهتلر بأن تغريه وجبة طعام صغيرة. ولم تكن الدانزك إلا حجة وذريعة كما قال لجنرالاته. ولم يكن يريد إلا سحق بولندا وإن جهل موسوليني الحقيقة. وفي الأول من أيلول

١١ - رواية شמידت عن المناقشة في (وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية، ج٧، ص ٤٩٣) ادلى هندرسن برواية مختصرة في تقريره مساء يوم ١ أيلول ١٩٣٩ (الكتاب البريطاني الأزرق ص ١٦٩).

كان موسوليني نفسه يواجه أمرين عليه ان يختار بينهما. إما ان يعلن فوراً حياد إيطاليا أو يغامر باحتمال هجوم أنكلو-فرنسي على بلاده. توضح يوميات ختنه المرعوب تشيانو اي كابوس كان يجثم على صدره.^(١٢)

في الصباح الباكر من ١ أيلول اتصل الدكتاتور الإيطالي التاعس شخصياً بسفيره الإيطالي في برلين ويقول تشيانو بالحرف "إنه اشارة عليه باقناع هتلر بأن يوجه اليه [اي الدوتشي] برقية يحله فيها من التزامات الحلف وواجباته^(١٣)."

فأسرع هتلر بطيبة خاطر إلى تلبية طلبه. وقبل أن يترك المستشارية إلى الرايخشتاغ في الساعة ٩, ٤٠ صباحاً أرسل برقية لصديقه وتلفنت إلى السفارة الألمانية في روما إختصاراً للوقت: ايها الدوتشي:

اشكرك شكراً لا مزيد عليه للعون الدبلوماسي والسياسي اللذين تدعم بهما ألمانيا وتساند قضيتها العادلة في الآونة الأخيرة، اني لمقتنع بأننا قادرون على انجاز مهمتنا التي فرضت علينا بالقوات العسكرية الألمانية. لذلك فأنا لا اتوقع ان تدعو الحاجة إلى العون العسكري الإيطالي في هذه الاحوال. واني لأشكرك ايها الدوتشي ايضاً على كل ماستفعله في المستقبل للقضية المشتركة، قضية الفاشية والقومية الاشتراكية.

أدولف هتلر^(١٤)

في الساعة ١٢, ٤٥ ظهراً بعد إلقاء هتلر خطابه في الرايخشتاغ وبعد أن تخلص من تأثير انفجاره العصبي بحضور من داليروس (على ما يبدو) مالت نفسه الى كتابة رسالة أخرى لموسوليني مصرحاً فيها أنه مستعد لحل المشكلة البولندية بطريق التفاوض "واني بقيت انتظر عبثاً يومين بطولهما مقدّم المفاوضات البولندي" وفي "اللية الأخيرة وحدها جرى اكثر من أربع عشرة حادثة خرق للحدود الألمانية" وانه لهذا السبب قرر "الآن مجابهة القوة بالقوة". واعرب مرة أخرى عن امتنانه لشريكه المخلص. و... "أنا اشكرك ايها الدوتشي على كل مجهوداتك. واشكرك بصورة خاصة على عرضك التوسط. إلا اني كنت من البدء مرتاباً في نجاح مثل هذه المحاولات اذ لو كان للحكومة البولندية اية نية في حسم

١٢- قرار موسوليني وصل بريطانيا فعلاً الليلة السابقة. في الساعة ١١, ١٥ من صباح يوم ٣١ آب تسلمت وزارة الخارجية رسالة من سفيرها في روما السريسي لورين "اتخذت الحكومة الإيطالية قرارها. إيطاليا لن تخوض حرباً ضد فرنسا أو إنكلترا... ابلغني تشيانو بذلك في الساعة ٢١, ١٥ [٩, ١٥ مساءً] بكل سرية" (و.س.ب.خ: ج٧, رقم ٦٢١, ص٤٥٩). في تلك الليلة أربع البريطانيون الطلبان يقطعهم كل الإتصالات التلفونية مع روما بعيد الساعة الثامنة مساءً وخشي تشيانو ان تكون مقدمة لهجوم أنكلو-فرنسي.

١٣- يوميات تشيانو، ص١٣٥.

١٤- "وثائق وزارة الخارجية الألمانية، ج٧، ص٤٨٣". بعد إجتماع مجلس الوزراء في روما اعلن الراديو الإيطالي في الساعة ٤, ٣٠ ب.ظ بيان الحكومة "الى الشعب الإيطالي بان إيطاليا لن تتخذ اية خطوة في اي عملية عسكرية". وتلت ذلك حالاً رسالة هتلر لموسوليني يحل بها إيطاليا من التزاماتها، أذيعت مباشرة.

النزاع بصورة حُبية لفعلت ذلك في اي وقت. إلا انها رفضت... ولهذا السبب لا اريد ايها الدوتشي تعريضك لخطر اضطلاعك بدور الوسيط الذي يبدو مضيعةً للوقت نظراً الى الموقف المتعنت الذي تقفه الحكومة البولندية^(١٥)."

التوقيع: أدولف هتلر

لكن موسوليني - باغراءٍ من تشيانو- قام بآخر محاولة يائسة لتعريض نفسه الى مخاطر مهمة الوسيط. كان تشيانو قبل يوم واحد قد اقترح على السفيرين الإنكليزي والفرنسي في روما أن يقوم الدوتشي في حالة موافقة حكومتيها - بدعوة ألمانيا الى مؤتمر في الخامس من أيلول لغرض "إعادة النظر في بنود معاهدة فرساي التي كانت علة المشاكل الحاضرة".

ربما ظن أن أنباء الغزو الألماني لپولندا صباح اليوم التالي للإقتراح الإيطالي جعلت إقتراحه عديم القيمة، ولدهشة الإيطاليين وجدوا أن (جورج بونيه) رئيس المهادنين يتلفن لسفيره في روما (فرانسو بونسيه) في الساعة ٤٥، ١١ صباح الاول من أيلول ويطلب منه ان يخبر تشيانو أن الحكومة الفرنسية رحبت بمؤتمر كهذا، شريطة ألا يتدخل في مشاكل بلادٍ غير ممثلة فيه والا يحدد عمله بايجاد "حلول جزئية أو مؤقتة لمشاكل فورية ومحدودة النطاق" ولم يذكر بونيه شيئاً عن إنسحاب القوات الألمانية أو حتى وقف زحفها كشرط لاقامة هذا المؤتمر^(١٦).

إلا ان البريطانيين ظلوا مصرين على هذا الشرط حتى نجحوا في حمل الحكومة الفرنسية المنشقة على نفسها بأن تنتهج نهجهم ليصبح ممكناً توجيه مذكرتين تحذيريتين متشابهتين الى برلين في مساء الأول من أيلول. ولما كانت نصوص هاتين المذكرتين قد اعلنت للسلأ واصبح معلوماً أن الحكومتين البريطانية والفرنسية ستدخلان الحرب إلا اذا إنسحبت القوات الألمانية من پولندا، فما يستعري الإهتمام أن نرى موسوليني يتشبث تشبث اليأس بكل قشة - حتى بالقش الذي ليس يملكه لنجده في صبيحة اليوم التالي يرسل نداءً آخر لهتلر كأنما لم يأخذ التحذير الأنكلو-فرنسي مأخذ الجد! كان الثاني من أيلول كما وصفه هندرسن في تقريره الأخير. يوم قمة التوتر النفسي^(١٧). انتظر هو

١٥- المرجع السالف الص ٤٨٥-٤٨٦.

١٦-"بونيه: الى فرنسو بونسيه الساعة ٤٥، ١١ صباحاً (١) أيلول (الكتاب الفرنسي الأصفر) الطبعة الفرنسية الص ٣٧٧-٣٧٨. فصل مشروع موسوليني لمؤتمر ٥ أيلول في تقرير من فرانسو بونسيه الى بونيه في ٣١ آب. المرجع السالف الص ٣٦٠-٣٦١:

طلب (بونيه) من سفيره (نوئيل) في وارشو مرتين في عصر يوم (١) أيلول أن يسأل (بيك) هل توافق پولندا على إقتراح إيطاليا بعقد مؤتمر. وتسلم الجواب في ساعة متأخرة من الليل "نحن الآن نخوض غمار حرب بسبب عدوان لا مبرر له والمسألة لم تعد مسألة مؤتمر وانما قضية عمل اجماعي يقوم به الحلفاء لمقاومته" رسالة بونيه وجواب بيك مثبتان في (الكتاب الفرنسي الأصفر). لم تشارك الحكومة البريطانية في جهود بونيه. وهناك محضر في وزارة الخارجية البريطانية مذيّل بتوقيع (ر.م. ماكينز R. M. Makins) ذكر فيه ان الحكومة البريطانية لم تستشّر (بالإقتراح) ولم تبلغ به (و.س.ب.خ: ج٧، الص ٥٣٠-٥٣١).

١٧- في الليلة التي سبقت هذا التاريخ. وبناءً على تعليمات لورد هاليفاكس قام هندرسن باتلاف الجفرة الخاصة =

(وكولوندر) يقلق جواب هتلر على مذكرتيهما ولكن لم يرد شيء. وبعد الظهيرة بقليل وصل (أتوليكو) السفارة البريطانية وعليه علام العجلة واعلم هندرسن أنه يريد أن يفهم منه شيئاً واحداً. هل أن المذكرة البريطانية المقدمة ليلة أمس إنذاراً أم لا؟
وكتب هندرسن فيما بعد "قلت له أنني مخول أن أجيب وزير الخارجية الألماني عند سؤاله - أنه ليس إنذاراً نهائياً بل تحذير، ولكنه لم يسألني." (١٨)
بعد أن حصل السفير الإيطالي على جوابه أسرع إلى قللمشتراسه. كان أتوليكو في العاشرة من صباح هذا اليوم قد جاء وزارة الخارجية حاملاً رسالة من موسوليني. ولما قيل له أن ريبنتروب يشكو وعكة، سلمها إلى فايسبكر.

"٢ أيلول ١٩٣٩

للمعلومات، ترغب إيطاليا أن يكون واضحاً (والأمر كله بالطبع مرهون بالزعيم) أنها مازالت تأمل في حمل بريطانيا وفرنسا وبولندا على الرضى بعقد مؤتمر على الأسس التالية:

- ١- هدنة تترك الجيوش حيث هي الآن.
 - ٢- عقد المؤتمر خلال يومين أو ثلاثة.
 - ٣- حسم الخلاف البولندي الألماني. بشكل يكون فيه نفع لألمانيا. نظراً لطبيعة الموقف الحالي. إن الفكرة التي كانت بالأصل من بدع الدوتشي. تعضدها فرنسا بصورة خاصة. (١٩)
- الدانزك أصبحت الآن ألمانية. وقد بات في يد ألمانيا الآن وعود تضمن لها اعظم جانب من إدعاءاتها. واكثر من هذا أنها نالت "ثأرها الأدبي" وان قبلت بإقتراح عقد المؤتمر فستحقق كل اهدافها وتجنب الحرب في الوقت ذاته تلك الحرب التي تبدو حتى في الوقت الحاضر حرباً عامة طويلة الأمد جداً.

إن الدوتشي لا يقصد الإلحاح، لكن عرض المقترحات المدرجة اعلاه على (الزعيم) وريبنتروب هو أعظم سعادة له (٢٠).

فلا عجب أن نرى ريبنتروب الذي أبل فوراً من وعكته يقابل أتوليكو في الساعة ٣٠، ١٢ ظهراً ويقول له أن إقتراح الدوتشي لا يمكن "التوفيق" بينه وبين المذكرتين الأنكلو- فرنسية اللتين تسلمهما ليلة أمس، "وفيها صفة إنذار نهائي".

فما كان من السفير الإيطالي (وحرصه على اجتناب حرب عالمية لا يقل عن حرص رئيسه بل يفوقه

= بالسفارة والوثائق السرية وطلب رسمياً من القائم بالأعمال الأمريكي "أن يتكرم لبرعى المصالح البريطانية في حالة نشوب الحرب" (الكتاب البريطاني الأزرق، ص ٢٢١).

١٨- تقرير هندرسن الأخير ص ٢٢.

١٩- يدعي تشيانو ان المذكرة ارسلت بناءً على "شدة إلحاح الفرنسيين" إلا ان هذا تضليل اكيد (يوميات تشيانو، ص ١٣٦). ومع أن يونيه كان يبذل أقصى ما في طوقه لعقد مؤتمر إلا ان موسوليني كان يفوقه في جهوده المستميتة.

٢٠- النص في (وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية) ج٧، الص ٥٠٩-٥١٠.

اخلاصاً) إلا ان قاطع ريبنتروب قائلاً ان التصريح الأنكلو فرنسي "قد يطل أثره بآخر رسالة للدوتشي" ولم يكن (أتوليكو) مخولاً بالطبع ليدلي بتصريح غير صحيح كهذا لكنه ظن في هذه الساعة المتأخرة أنه لن يخسر شيئاً إن قصر في مهام وظيفة وظل ثابتاً على وجهة نظره عندما أعرب وزير الخارجية الألماني عن شكه.

"[قال] إن تصريحَي البريطانيين والفرنسيين ماعادا الآن محل اعتبار فقد تلفن الكونت تشيانو في الساعة ٨,٣٠ من صباح هذا اليوم، أعني في الوقت الذي أذيع التصريحان من راديو إيطاليا. ويترتب على ذلك أنهما باتا في حكم الملغيين. وبين الكونت تشيانو أيضاً أن فرنسا تحبذ بصورة خاصة إقتراح الدوتشي. إن الضغط يأتي الآن من فرنسا، لكن إنكلترا ستتبعها"^(٢١).

بقي ريبنتروب شاكاً. وقال أنه بحث قبل هنيهة مع هتلر، مقترحات موسوليني. وما يريد الزعيم معرفته هو: هل أن المذكرتين الأنكلو فرنسية إنذار؟ وأخيراً وافق على إقتراح المبعوث الإيطالي بأن يستفسر من (هندرسن وكولوندر) عن صفة المذكرتين.

وهذا هو السبب الذي حدا بأتوليكو الى زيارة السفارة البريطانية. كتب شميدت الذي كان يقوم بالترجمة فيما بعد. "مازال يراود مخيلتي شخص (أتوليكو) الذي لم يبق فيه عرق من عروق الشباب، وهو يركض ركضاً من غرفة ريبنتروب ويهبط الدرج مهطعاً للاستفسار من هندرسن وكولوندر... ثم يعود بعد نصف ساعة راكضاً كما خرج متقطع الانفاس لاهثاً"^(٢٢).

وبعد ان التقط انفاسه أبلغ ريبنتروب بما قاله هندرسن حول المذكرة البريطانية مؤكداً انها ليست إنذاراً. فأجاب الوزير "في الوقت الذي لا يمكن أن يكون الجواب الألماني عن المذكرتين الأنكلو فرنسية إلا بالسلب، فان الزعيم يدرس مقترحات الدوتشي وإن أيدت روما بأن المذكرتين الأنكلو- فرنسية لا تتضمنان إنذاراً ما فسوف يكتب جواباً له خلال يوم أو إثنين". فألح (أتوليكو) بالرد في وقت أقصر وأخيراً وافق ريبنتروب على أن يتم اعداد الرد ظهر اليوم التالي. الموافق الأحد ٣ أيلول.

في هذا الوقت تحطمت آمال موسوليني في روما. ففي الساعة الثانية بعد الظهر استقبل تشيانو سفيرى بريطانيا وفرنسا وفي أثناء وجودهما اتصل تلفونياً بكل من لورد هاليفاكس وبونيه وابلغهما بمحادثات (أتوليكو) مع وزير الخارجية الألماني. وكان بونيه مجاملاً كالعادة. (وكما ذكر هو نفسه في الكتاب الفرنسي الأصفر) شكر تشيانو بحارة على جهوده في سبيل السلم، أما هاليفاكس فكان اشد صلابة. أكد أن التصريح الأنكلو- فرنسي ليس إنذاراً (ان المرء ليدركه العجب من اختصام السياسة الشديد حول كلمة واحدة حيث أن التصريحين الأنكلو- فرنسي واضحان كل الوضوح. وعباراتها دقيقة لاتقبل تأويلاً). إلا أنه زاد يقول ان رأيه الشخصي في إقتراح موسوليني هو أن الحكومة البريطانية لايسعها قبوله الا اذا انسحبت الجيوش الألمانية من بولندا.

٢١- من ملاحظات شميدت الرسمية التي بني عليها هذا الجزء من الفصل. المرجع السالف، الص ٥١٢-٥١٣.

٢٢- شميدت، المرجع السالف ص ١٥٦.

وهو ما سكت عنه (بونيه) مرة أخرى. ثم وعد هاليفاكس أن يبلغ تشيانو قرار الحكومة البريطانية في الموضوع تلفونياً.

وصدر القرار بعيد الساعة مساءً. الحكومة البريطانية تقبل عرض موسوليني شريطة ان يسحب هتلر قواته الى ماوراء الحدود البولندية. وادرك وزير الخارجية الإيطالية أن هتلر لن يقبل قط بهذا "وألأ شيء يمكن عمله بعد الآن" كما ذكر في يومياته.

"[قال تشيانو] ليس من واجبي الجواب عن هتلر بأنه سيرفض ذلك رفضاً قاطعاً وربما بإزدراء. قلت ذلك لهاليفاكس وللسفارين وللدوتشي، وأخيراً اتصلت تلفونياً ببرلين واخبرتهم إننا سنتخلى عن المداولات إلا اذا نصحونا بعكس ذلك. إن نعمة السلام الأخيرة قد ماتت^(٢٣).

وهكذا نجد أتوليكيو المرهق المحطم في الساعة ٨, ٥٠ من مساء يوم ٢ أيلول يجر قدميه مرة أخرى جراً الى قلهمشتراسه. وفي هذه المرة استقبله ريبنتروب في المستشارية حيث كان يتبادل الحديث مع هتلر وتسجل وثيقة ألمانية مستولى عليها المشهد:

"حمل السفير الإيطالي رسالة وزير الخارجية التي تضمنت أن البريطانيين غير مستعدين للدخول في مفاوضات على الأسس التي وردت في إقتراح الوساطة الإيطالي. ان البريطانيين يطلبون قبل البدء بالمفاوضات الانسحاب الفوري لكل القوات الألمانية من أراضي بولندا التي إحتلتها ومن الدانزك...

وفي الختام ذكر السفير الإيطالي أن الدوتشي يعتبر إقتراح وساطته لا وجود له الآن وتسلم وزير الخارجية الرسالة من السفير دون تعليق^(٢٤).

لم توجه كلمة شكرٍ واحدة لأتوليكيو الكادح على كل ما بذله من مجهود! إلا إزدراء الصمت تجاه حليف يحاول حرمان ألمانيا من اسلابها البولندية.

تلاشى الآن الإحتمال الطفيف باجتناح حرب عالمية ثانية. وكان ذلك واضحاً للجميع ماعداً ممثلاً واحداً في هذه الدراما. في الساعة التاسعة مساءً تلفن (بونيه) ذلك الوضع النفس، لتشيانو حتى يؤكد له مرة أخرى بأن المذكرة الفرنسية لألمانيا ليس فيها "صفة الإنذار". وكرر قائلاً أن الحكومة الفرنسية مستعدة للانتظار حتى ظهر يوم ٣ أيلول لتسلم الجواب الألماني. ومهما يكن، "ولأجل أن يحقق المؤتمر نتائج طيبة" فان الحكومة الفرنسية تتفق مع البريطانيين على وجوب قيام القوات الألمانية "بإخلاء" بولندا وكانت أول مرة يذكر (بونيه) ذلك، نزولاً عند اصرار البريطانيين. فأجاب تشيانو أنه لا يظن إمكان قبول الحكومة الألمانية بهذا الشرط إلا أن (بونيه) لم ييأس وجرب أثناء الليل محاولة التملص الأخيرة من إلتزامات فرنسا لبولندا المشخنة بالجراح. واثبت تشيانو هذه المحاولة الشاذة في اولى فقرات يوميته المؤرخة ٣ أيلول.

٢٣- يوميات تشيانو، الص ١٣٦-١٣٧.

٢٤- "وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية" ج٧، الص ٥٢٤-٥٢٥.

"في أثناء الليل ايقظتني الوزارة من نومي. لأن (بونيه) كان قد سأل غواريليا Guariglia [السفير الإيطالي في باريس] هل نستطيع أن نحصل على انسحاب رمزي للقوات الألمانية من بولندا؟... القيت الاقتراح في سلة المهملات دون أن أكلف نفسي عناء إبلاغه للدوتشي. لكن هذا يوضح أن فرنسا تتحرك نحو الإمتحان الأعظم بتردد تام وبدون اي حماسة^(٢٥).

-٣-

الحرب البولندية تنقلب الى: الحرب العالمية الثانية

نهار الأحد الموافق ٣ أيلول ١٩٣٩، كان يوماً من أيام نهاية الصيف الرائعة في برلين. الشمس مشرقة لتحجبها الغيوم والهواء منعش. كتبتُ في مفكرتي عنه "أنه من الأيام التي يهوى البرلينيون قضاءها في الغابات أو على ضفاف البحيرات القريبة". وفيما كان فجره ينفلق وصلت السفارة البريطانية برقية لورد هاليفاكس الى السر نفيل هندرسن يوصيه ان يطلب مقابلة وزير الخارجية الألمانية في الساعة ٩ صباحاً ويقدم له رسالة" أملي عليه نصها.

لقد بلغت حكومة جمبرلين خاتمة الطريق. وقبل حوالي إثنين وثلاثين ساعة أبلغت هتلر ان إنكلترا ستدخل الحرب إلا اذا سحبنا ألمانيا جيوشها من بولندا فلم تتسلم جواباً. والآن باتت الحكومة البريطانية مصممة على الوفاء بعهددها. في يوم أمس كان يخشى ان يعتمد هتلر التأخير في رده لإبتلاع اكبر قدر ممكن من أراضي بولندا اضافة الى اخذه الدانزك والممر ومناطق أخرى وحينئذ يقوم بإقتراح سلم الرجل "الشهم الكريم" المستند الى نقاطه الست عشرة^(٢٦).

وهذا ما ابلغه شارك كوربان Charles corbin السفير الفرنسي في لندن لبونيه المتردد في الساعة ٣، ٢ ظهراً.

واحباطاً لهذا الفخ إقترح هاليفاكس على الفرنسيين انه إن لم تُدل الحكومة الألمانية بجواب مرضٍ خلال الساعات القليلة القادمة على المذكرتين الأنكلو- فرنسية المؤرختين (١) أيلول، فالدولتان الغربيتان ستعلنان أنهما في حالة حرب مع ألمانيا. وعلى اثر اجتماع الوزارة البريطانية في عصر الثاني من أيلول حيث توصل الى قرار واضح، اقترح هاليفاكس بصورة خاصة أن يقدم الحليفان إنذاراً الى برلين في منتصف تلك الليلة بالذات. ينتهي أجله في السادسة من صباح الثالث من أيلول^(٢٧) إلا

٢٥- يوميات تشيانو، ص ١٣٧. ان دي مونزي de Monzie وهو شيخ فرنسي اندحاري النزعة يؤيد القصة في كتابه Ci-Devont الص ١٤٦-١٤٧.

٢٦- تقرير (كوربان): (الكتاب الفرنسي الأصفر) الطبعة الفرنسية ص ٣٩٥.

٢٧- هذا القسم مبني على (و.س.ب.خ) ج ٧. حول يومي ٢-٣ أيلول. هناك ملخص ممتاز جداً في كتاب "خافة الحرب" سنة ١٩٣٩ نشره ارنولد وثيرونكا توينبي مبني على وثائق وزارة الخارجية البريطانية السرية والمراجع الفرنسية الزهيدة الميسورة. وكتاب نامير "تمهيد دبلوماسي" هو ايضاً مفيد. لقد استغنيت عمداً عن اثبات المراجع في =

أن (بونيه) صم اذنيه عن سماع أي نصح بهذا العمل الأهوج. والواقع أن الوزارة الفرنسية المنشقة على نفسها انشقاقاً شديداً كانت تعاني فترة عصبية خلال الأسبوع المنصرم في محاولاتها التوصل الى قرار يحقق الوفاء بالتزامات فرنسا ازاء بولندا، وبريطانيا بالدرجة الأولى. وفي اليوم الثالث والعشرين النحس من شهر آب قرعتها أنباء وصول ريبنتروب الى موسكو لابرام ميثاق عدم اعتداء سوفيتي- نازي فاقنع بونيه رئيس الوزراء دالاديه بعقد جلسة لمجلس الدفاع الوطني للبت فيما ستفعله فرنسا^(٢٨). وقد حضره خلاف بونيه ودالاديه وزراء القوات المسلحة الثلاثة. والجنرال كاملان وقادة الجيش والأسطول والطيران العامون، وأربعة جنرالات آخرون- فكان عددهم إثني عشر. وتوضح المحاضر أن دالاديه طرح اسئلة ثلاثة:

اولاً: هل يمكن أن تبقى فرنسا ساكنة في حين تمحى بولندا ورومانيا (او احدهما) من خارطة أوروبا؟
ثانياً: ماهي الوسائل التي تملكها للحيلولة دون هذا؟
ثالثاً: ماهي الإجراءات التي يجب اتخاذها الآن؟

بعد أن شرح (بونيه) خطورة الأحداث طرح سؤالاً بقي يحتل طليعة افكاره الى الأخير: "بعد تأمل ملي في الموقف أكون الأفضل لنا أن نظل مخلصين لتعهداتنا وندخل الحرب حالاً. أو أن نعيد النظر في موقفنا ونتتفع بالمهلة التي سنحصل عليها جراء ذلك؟... ان الجواب على هذا السؤال هو بالجوهري عسكري الطابع.

وعندما توجهت الانظار الى (كاملان) والأميرال دارلان Darlan أجابا بمايلي: "ان الجيش والأسطول على إستعداد. وفي اولى مراحل الحرب لن يكون تأثيرهما كبيراً على ألمانيا. إلا أن النفير العام الفرنسي سيؤدي بحد ذاته إلى تخفيف الضغط عن بولندا نوعاً ما باحتجاز جانب كبير من الوحدات الألمانية على حدودنا.

"... وسئل الجنرال كاملان، كم من الوقت يخمن أن بولندا ورومانيا ستصمدان فاجاب يعتقد أن بولندا ستصمد صموداً مشرفاً، مما سيمنع مجموع القوات الألمانية من التحول نحو فرنسا قبل الربيع القادم. وعندئذ ستكون، بريطانيا العظمى الى جانبها^(٢٩).

= مواضعها وهي عشرات من وثائق (و.س.ب.خ) لثلا أملاً الصحائف بالارقام.
٢٨- وقائع الجلسة الى دونها الجنرال دكامب Decamp. رئيس مجلس دالاديه العسكري ظهرت في محاكمة ريوم Riom. ولم يعرض المحضر لأحد من أعضاء المجلس للتنقيح في وقتها. ويدعي الجنرال كاملان في كتابه Servie انها مقتضبة الى الحد الذي اصبحت مضللة. الا ان الجنرال الأكبر يؤكد خطواتها الرئيسية.
٢٩- أيد كاملان في كتابه انه تردد في توجيه الإهتمام الى بعض مواطن الضعف العسكري الفرنسية لأنه لم يثق ببونيه. واورد مقال له دالاديه فيما بعد "لقد اصبحت بعملك. ولو أنك كشفت عن مواطن الضعف لوصلت الى علم الألمان في اليوم التالي". وادعى كاملان ايضاً (في كتابه) انه اشار فعلاً الى ضعف موقف فرنسا العسكري في المؤتمر. ويقول انه شرح الأمر: "لو ان ألمانيا قطعت على بولندا، ثم ألقت بكل ثقلها على فرنسا فستكون فرنسا في وضع عسير". وقال "وفي هذه الحالة لايعود بإمكان فرنسا الدخول في المعركة... وعند مجيء الربيع وبمساعدة بريطانيا والامدادات الامريكية أوئل ان نكون في مركز نستطيع معه خوض معركة دفاعية (اذا ألجأتنا الضرورة طبعاً). واضفت الى =

وبعد حديث طويل، وصل الفرنسيون أخيراً إلى قرار وثبت حالاً في محضر الجلسة: "بنتيجة المداولة. وجد أننا لو زدنا قوةً في غضون أشهر قليلة فإن ألمانيا ستحصل من هذه الفترة على أكثر مما وصلنا إليه لأنها ستسيطر على موارد بولندا ورومانيا بلا منازع. لذلك ليس لفرنسا مجال اختيار.

"الحل الوحيد... التمسك بعهودنا لبولندا قبل المفاوضات التي بدأت مع الإتحاد السوفياتي." بعد أن صح عزم الحكومة الفرنسية على هذا، شرعت في العمل وأعلنت حالة الاستنفار عقب الاجتماع مباشرة (٢٣ آب). الأمر الذي وضع كل قوات الحدود في مواقعها الحربية. وفي اليوم التالي دعي إلى الخدمة (٣٦٠٠٠٠) مقاتل من الاحتياط. وفي ٣١ آب أصدرت الوزارة بياناً رسمياً أعلنت فيه أن فرنسا "ستفي وفاءً تاماً" بالتزاماتها. وفي اليوم التالي - يوم الهجوم الألماني على بولندا أقنع هاليفاكس (بونييه) بتوحيد إنذاري الدولتين وتقديمه معاً إلى حكومة برلين. وفيه أن بريطانيا وفرنسا ستكونان امينتين على عهدهما مع حليفتهما.

لكن الجنرال غاملان وهيئة أركان الحرب العامة الفرنسية أحجما عندما ألح البريطانيون على توجيه إنذار نهائي إلى هتلر في (٢) أيلول. لامراء في أن الفرنسيين هم وحدهم سيتحملون عبء القتال إن اختار الألمان الهجوم في الغرب حالاً ولن يجدوا إلى جانبهم جندياً بريطانياً واحداً. وأصرت دائرة الأركان العامة على مهلة ثمان وأربعين ساعة أخرى لإنجاز التعبئة العامة دون عائق.

في الساعة السادسة مساءً تلقى هاليفاكس للسير اريك فيبس Sir Eric Phipps السفير البريطاني في باريس: "ثمان وأربعون ساعة أمر مستحيل لاتطبيقه الحكومة البريطانية. ان الموقف الفرنسي يجرح حكومة جلالته للغاية".

وفعلاً وصل الإحراج حد الخطورة بعد ساعتين فقط عندما نهض چمبرلين ليخاطب مجلس عموم باتت أغلبية أعضائه بصرف النظر عن الأحزاب التي تنتمي إليها، ساخطة على تلكو الحكومة في البر بعهودها. ولم يعد في قوس صبرهم منزع بعدما تكلم رئيس الوزراء فأبلغ المجلس المستاء انه لم يرد جواب من برلين حتى الآن فإن لم يرد حاوياً تأكيدات الألمان بالانسحاب من بولندا، فإن الحكومة "لا سبيل لها إلا اتخاذ الإجراءات" وإن وافق الألمان على الإنسحاب. فإن الحكومة البريطانية ستكون رغبة في "أن تنظر إلى الوضع مثلما كان قبل عبور القوات الألمانية الحدود البولندية". وقال ايضاً، إن الحكومة في الوقت نفسه على إتصال دائم بفرنسا لتعيين الوقت المحدد للإنذار الذي سيوجه إلى ألمانيا.

بعد الثلاثين والتسع ساعات من الحرب في بولندا، لم يكن المجلس في مزاج يتمكن معه من تقبل هذه المناورات التعويقية. وبدا له أن ريحاً مونيخية خبيثة تهب عليهم من مقاعد الحكومة فصاح

= هذا قولي: انه لا يمكن لنا أن نأمل بالنصر إلا بعد حرب طويلة الأمد. لقد كان من رأيي دائماً أننا لانستطيع قط ان ننقلب إلى حالة الهجوم بأقل من سنتين تقريباً... اعني في ١٩٤١-١٩٤٢". إن نظرات الجنرال الاكبر الفرنسي المترددة الحذرة تفسر كثيراً أحداث التاريخ القادمة.



الأميرال دارلان

(ليوپولد اميري (Leopold Amery) من مقاعد المحافظين: "تكلم من أجل إنكلترا!" بينما وقف للكلام وكيل زعيم المعارضة العمالي (آرثر گرينوود (Arther Greenwood) فقال: "إن العجب ليدركني، إلى كم نحن نتذبذب ونتأرجح في وقت باتت بريطانيا وكل ما ترعاه بريطانيا والحضارة البشرية في خطر... يجب علينا أن نتقدم مع الفرنسيين..."

تلك هي الورطة. لقد تبين في هذه اللحظة أنه يصعب حمل الفرنسيين أنفسهم على التقدم. إلا ان چمبرلين كان مضطرب النفس للغاية بسبب مزاج مجلس العموم الغاضب بحيث تدخل في المناقشة الحادة ليقول: انه يتطلب وقت لإقرا "العلم بالعمل مع باريس وتنسيق الافكار مع التطبيق عن طريق التلفون". واذاف يقول: "إنني لأستنكر واستفزع أن

يظن المجلس لحظة واحدة بأن البيان الذي أدليت به أمامهم ينم عن أقل ضعفٍ سواء من جانب هذه الحكومة أو من جانب الحكومة الفرنسية" وسيصلنا نبأ عنها في "الساعات القلائل التالية". وعلى كل حاول التأكيد لأعضاء المجلس الثائرين "أؤمل ألا يكون هناك إلا جواب واحد سأقدمه للمجلس غداً... واثقاً أن المجلس... سيصدقني ويؤمن اني أتحدث باخلاص تام".

إن معالجة أفسى محنة واعظمها في تاريخ بريطانيا تم الإفصاح عنه كما قال (ناميه) بتلكؤٍ فريد في بابه".

كان چمبرلين يدرك إدراكاً جيداً (كما توضحه الوثائق السرية البريطانية) بأنه على خلاف عميق مع شعبه وأن حكومته في هذه اللحظة الحرجة من حياة بلاده - معرضة الى خطر التنحية.

ما أن غادر مجلس العموم حتى اتصل بدلادييه. وكان زمن المكالمة المسجل ٩, ٥٠ مساءً. وقد دون المنصت الى الحديث صورة له للحفظ:

چمبرلين: الوضع هنا خطير جداً... حدث مشهد ساخط في مجلس العموم... وإن اصرت فرنسا على مهلة ثمان وأربعين ساعة تبتديء من منتصف يوم الغد، فمن المستحيل على حكومتي ان تمسك بزمam الموقف هنا.

وقال رئيس الوزراء انه يدرك تماماً أن فرنسا هي التي ستحمل عبء الهجوم الألماني. الا انه واثق بوجوب اتخاذ خطوة ما في هذا المساء.

واقترح حلاً وسطاً؛ إنذار يقدم في الساعة الثامنة من صباح الغد... وينتهي أمده ظهر اليوم نفسه.

اجاب دالادييه: إن لم تكن القاصفات الإنكليزية مستعدة للعمل فوراً فمن الأفضل لفرنسا أن تؤخر إن أمكن، الهجمات على الجيوش الألمانية بضع ساعات.

وبعد أقل من ساعة، (٣٠، ١٠ ليلاً) اتصل هاليفاكس تلفونياً (ببونييه). وألح بالفرنسيين للموافقة على الحل الوسط البريطاني أي ان يُقدم إنذار نهائي الى برلين في الثامنة من صباح الغد (٣ أيلول) ينتهي اجله ظهر اليوم نفسه. ولم يوافق وزير الخارجية الفرنسي واحتج لهاليفاكس بأن الالحاح البريطاني على هذا الإسراع قد يخلق "إنطباعاً غير مستحب" وطلب من لندن التريث حتى الظهر على الأقل، قبل تقديم اي إنذار لهتلر.

"هاليفاكس: هذا مستحيل! يتعذر عل حكومة جلالته الانتظار حتى تلك الساعة... من المشكوك فيه جداً أن تستطيع الحكومة [البريطانية] السيطرة على زمام الموقف هنا".

كان موعد الجلسة التالية لمجلس العموم ظهر يوم الأحد الثالث من أيلول وكان واضحاً لجمبرلين وهاليفاكس من الجو الذي ساد جلسة السبت مساءً أن بقاء الحكومة مرهون باعطاء البرلمان الجواب الذي طلبه. وفي الساعة الثانية بعد إنتصاف الليل أنذر السفير الفرنسي في لندن، وزير خارجيته بأن وزارة جمبرلين تخاطر بوجودها إن لم تقدم للبرلمان كلمة جازمة قاطعة. ولذلك اقترح هاليفاكس في ختام حديثه التلفوني مع بونييه أن تعمل "بريطانيا وحدها".

وصلت برقية هاليفاكس الى هندرسن في حوالى الرابعة فجراً.^(٣٠)

إن الرسالة التي كان سيبلغها الى الحكومة الألمانية نهار الأحد الساعة ٩ صباحاً (٣ أيلول)، تشير الى المذكرة البريطانية المؤرخة (١) أيلول التي صرحت الحكومة البريطانية فيها بعزمها على الوفاء بالتزاماتها الى بولندا إلا اذا سحبت القوات الألمانية من بولندا فوراً.

"واستطردت المذكرة: ومع أن هذه المذكرة قد سلمت منذ أربع وعشرين ساعة فلم يصل اي رد عليها، إلا ان هجمات الألمان على البولنديين استمرت وبصورة عنيفة، ولذلك لي الشرف لأبلغكم: إن لم تقدم الحكومة الألمانية في زمن لايتعدى الساعة ١١ صباحاً بتوقيت بريطانيا الصيفي من هذا اليوم الثالث من أيلول - تأكيدات مقنعة الى حكومة صاحب الجلالة في لندن بإنجازها ماذكر اعلاه،

٣٠- أرسل وزير الخارجية الى هندرسن برقيتين تحذيريتين أثناء الليل. الأولى في ١١، ٥٠ ليلاً. وهذا نصها: "ربما ارسلت اليك تعليمات هذه الليلة للإلتصال الفوري بالحكومة الألمانية. أرجو ان تكون على إستعداد للعمل. ومن الأفضل ان تخطر مقدماً وزير الخارجية بأنك قد تطلب مواجهته في اية لحظة". وقد يبدو من هذه البرقية أن الحكومة البريطانية، لم تحزم أمرها بعد على قرار معين تقوم به بمفردها رغم موقف الفرنسيين. لكن هاليفاكس ابرق الى هندرسن ثانية في الساعة ١٢، ٢٥ بعد نصف الليل (٣ أيلول): "عليك ان تطلب موعداً لمقابلة وزير الخارجية في الساعة التاسعة من صباح يوم ٣ أيلول الموافق الأحد. التعليمات آتية اليك"؛ (برقيتا هاليفاكس الى هندرسن في الساعة ١١، ٥٠ ليلاً (٢ أيلول) و.س.ب.خ: ج.٧، رقم ٧٤٦، ص٥٢٨، وفي الساعة ١٢، ٢٥ ليلاً (٣ أيلول) المرجع نفسه ص٥٣٣. ان البرقية الحاسمة من هاليفاكس هي المؤرخة (صباح يوم ٣ أيلول بتوقيت لندن ويقول هندرسن انه تسلمها في الساعة ٤ صباحاً (تقريره الأخير).

فإن حالة حرب ستقوم بين البلدين اعتباراً من تلك الساعة^(٣١).
في أولى ساعات فجر الأحد وجد هندرسن الإتصال بثلهلمشتراسه أمراً صعباً. وأعلم أن ريبنتروب لن يكون ميسوراً في الساعة التاسعة صباح الأحد، ألا أن بإمكانه ترك رسالته لدى الترجمان الرسمي الدكتور شميدت.

في هذا اليوم التاريخي إستيقظ الدكتور شميدت متأخراً. فبادر مسرعاً الى وزارة الخارجية بالتاكسي. ولمح السفير البريطاني وهو يصعد درج الوزارة، فاسرع بالدخول من باب جانبي وتمكن من التسلل الى مكتب ريبنتروب حالما ارسلت الساعة دقائقها التسع وفي الوقت الذي دخل هندرسن. كتب شميدت فيما بعد "دخل وعليه علائم الجذ الخيطير وصافحني إلا أنه أبى الجلوس وظل واقفاً في وسط الغرفة"^(٣٢) وقرأ الإنذار البريطاني وسلمه لشميدت ثم ودعه وانصرف. وأسرع الترجمان الرسمي ينهب درجات الثلهلمشتراسه نهياً الى دار المستشارية حاملاً الإنذار. ووجد خارج مكتب (الزعيم) معظم أعضاء الوزارة وعدداً من كبار رجال الحزب وموظفيه مجتمعين منتظرين بقلق "أنباء".

"كتب شميدت بعدئذٍ عند دخولي الغرفة الثانية وجدت هتلر جالساً وراء مكتبه وريبنتروب واقفاً قرب الشباك فنظرا الي معاً مستطلعين عند دخولي. وقفت على مسافة يسيرة من مكتب هتلر ثم بدأت أترجم الإنذار البريطاني ببطء. وكان الصمت عاماً عندما فرغت.

ظل هتلر جالساً بلا حراك وابصاره شاخصة الى أمام... وبعد هنيهة خيل لي انها دهر التفت إلى ريبنتروب الذي بقي في وقفته قرب الشباك وسأله "ماذا الآن؟" ورشقه بنظرة وحشية كأنما يريد ان يشير الى أن وزير خارجيته ضلله بخصوص رد الفعل البريطاني المحتمل".

فأجاب ريبنتروب بهدوء: "أعتقد أن الفرنسيين سيسلمونا إنذاراً مشابهاً خلال ساعة"^(٣٣).
انسحب شميدت بعد انجاز واجبه. وتوقف قليلاً في الغرفة الخارجية لإخبار الآخرين بما حصل. فران الصمت عليهم أيضاً ثم: "التفت إلى غورنك وقال: إن خسرتنا هذه الحرب، فالله يرحمنا!".
ووقف غوبلز في زاوية وحيداً مشغول البال، كسير الحاطر وكان كل من في الغرفة مغموماً قلقاً^(٣٤).

في الوقت نفسه كان (داليروس) فريد عصره وأوانه، يقوم بأخر مجهود في هوايته الجديدة، في

٣١- (النص موجود في الكتاب البريطاني الأزرق ص ١٧٥، وفي "وثائق وزارة الخارجية الألمانية، ج ٧، ص ٥٢٩) ارسل هاليفاكس برقية اضافية في الساعة ٥ صباحاً يعلم السفير أن كولوندر لن يقدم رسالة ماثلة الى الحكومة الألمانية حتى ظهر اليوم (الأحد) "وهو لا يدرى بتوقيت الإنذار الفرنسي لكنه يرجح أن يصدر في اي ساعة بين (السادسة والتاسعة) - وثائق وزارة الخارجية البريطانية، ج ٧، رقم ٧٥٨، ص ٥٣٥.

٣٢- رواية شميدت في كتابه (المرجع السالف، ص ١٥٧) انظر ايضاً شهادته في نورمبرگ (محاكمات مجرمي الحرب الكبار، ج ١٠، ص ٢٠٠.

٣٣- شميدت (المرجع السالف، الص ١٥٧-١٥٨) ايضاً شهادته في نورمبرگ (محاكمات مجرمي الحرب الكبار) ج ١٠، الص ٢٠٠-٢٠١.

٣٤- المرجع نفسه.

سبيل الحيلولة دون ما لا مفر منه. في الساعة الثامنة صباحاً أعلمه فوريس بالإنذار البريطاني الذي قدم رسمياً بعدها بساعة. فأسرع الى مقر قيادة اللوفتوافه العامة لمواجهة غورنك وكما ورد في آخر رواية له في نورمبرغ، ناشده أن يعمل على أن يكون جواب ألمانيا على الإنذار البريطاني "معتدلاً" ثم اقترح علي أن يعلن الفيلدمارشال بنفسه قبل الساعة الحادية عشرة، عن إستعداده للسفر الى لندن بالطائرة "للتفاوض" وادعى السويدي في كتابه أن غورنك وافق على ذلك. ولم يذكر عن ذلك شيء في الوثائق الألمانية. ووضح الدكتور شميدت بأن غورنك لم يكن في مقره بعد التاسعة بدقائق وإنما كان في غرفة انتظار (الزعيم) بدار المستشارية.

وعلى أية حال، ليس هناك شك بأن الوسيط السويدي تلقى الى وزارة الخارجية البريطانية - ليس مرة واحدة بل مرتين- وفي المكاملة الاولى (الساعة ١٥ ، ١٠ صباحاً) تعهد من تلقاء نفسه أن يعلم الحكومة البريطانية بأن الرد الألماني على الإنذار البريطاني هو الآن في الطريق وأن الألمان مازالوا "مهتمين جداً بارضاء الحكومة البريطانية وتقديم تأكيدات مقنعة بألا يعتدوا على إستقلال بولندا!!" وهو يأمل أن تدرس لندن رد هتلر "درساً على اساس من حسن الظن" (٣٥).

بعد ذلك بنصف ساعة (٥٠ ، ١٠ صباحاً) قبل أن تنتهي المدة المحددة بالإنذار، بعشر دقائق. كان دايروس متصلاً بالتلفون الخارجي بوزارة الخارجية البريطانية، ليتقدم هذه المرة بإقتراح قيام غورنك -بموافقة هتلر- بالسفر حالاً الى العاصمة البريطانية، ولم يدرك أن الوقت قد فات على هذه الفرائد "الدبلوماسية إلا أن الوقت لم يطل به ليصححو على الحقيقة. فكان الجواب الذي تسلمه من هاليفاكس جازماً. قال له ان إقتراحه لا يمكن الأخذ به "لقد سئلت الحكومة الألمانية سؤالاً واضحاً محدداً، والمفروض فيها ان ترسل جواباً واضحاً محدداً". إن حكومة صاحب الجلالة لا يمكنها الانتظار لمباحثات أخرى مع غورنك" (٣٦).

فاقفل (دايروس) التلفون واختفى في زوايا التاريخ ليظهر مرة أخرى ولفترة قصيرة في محاكمات نورمبرغ بعد انتهاء الحرب - وقد روى في كتابه محاولته العجيبة لإنقاذ السلم العالمي (٣٧).

كان نبيل القصد، ناضل في سبيل السلم ووجد نفسه خلال لحظات في وسط اضواء مسرح تاريخ العالم الباهرة، لكنه كما جرى لكل امرء آخر تقريباً، غرق في لجة من الإضطراب كانت اقوى من أن تدعه يرى الأمور على حقيقتها وأقر في نورمبرغ أنه لم يكن يدرك كم خدعه الألمان.

بعد الحادية عشرة صباحاً بقليل وبإنقضاء اجل الإنذار، أرسل ريمنتروب بطلب السفير البريطاني

٣٥- وثائق وزارة الخارجية البريطانية، ج٧، رقم ٧٦٢، ص ٥٣٧- ن: ١.

٣٦- المرجع السالف.

٣٧- ظهر ظهوراً خاطئاً في ٢٤ أيلول. حين التقى بفوريس في (اوسلو). "ليتأكد فيما اذا كان يوجد امل في اجتناب حرب عالمية" على ماروي في محاكمة نورمبرغ قبل ان يؤمر بالسكوت. (محاكمات مجرمي الحرب الكبار، ج٩، ص ٤٧٣).

ليسلمه الرد الألماني (بعد ان رفض مقابلته قبل ساعتين!): ويقول الرد أن الحكومة الألمانية ترفض "ان تتسلم أو تقبل، بل أن تطبق" ماجاء في الإنذار البريطاني. واورد بعدئذ تصريحات دعاية رخيصة مبتذلة قام بتدبيجها بسرعة -على ما يبدو- كل من هتلر وريبنتراب في غضون الساعتين المنصرمتين. وهي بالأصل مما ديج ونظم لخداع الشعب الألماني السهل الخداع. ترددت فيه كل الاكاذيب المألوفة لدينا الآن ومنها كذبة "الغارات" البولندية على الأراضي الألمانية. والقي اللوم على بريطانيا بكل ما حصل ورفض كل محاولة "لإرغام ألمانيا على سحب قواتها التي انما جردت وعبئت دفاعاً عن الرايخ" وصرح زيفاً وبهتاناً أن ألمانيا، رضيت بآخر المقترحات التي اعلنها موسوليني لإنقاذ السلم. مدعياً أن بريطانيا رفضتها. واتهم حكومة بريطانيا (بعد كل تنازلات چمبرلين) "بالدعوة الى القضاء التام على الشعب الألماني وابادته".

قرأ (هندرسن) الوثيقة (لقد وصفها فيما بعد: بالوثيقة التي زيفت فيها الوقائع تريفاً تاماً) ثم عقب يقول "التاريخ هو الذي سيحكم اي جانب هو الملموم" فأجاب ريبنتراب أن "التاريخ سبق وأصدر حكمه على الوقائع" (٣٨).

كنت واقفاً في شارع قلهمشتراسه أمام المستشارة في ساعات الظهر، عندما اعلنت مكبرات الصوت بصورة مفاجئة أن بريطانيا العظمى، قد اعلنت انها في حالة حرب مع ألمانيا (٣٩).

ولم يكن حولي من الناس مايزيد عن مائتين وخمسين واقفين يتشمسون وراحوا ينصتون بإهتمام إلى الإذاعة. وبعد أن انتهت لم أسمع همسة واحدة أو لفظاً. ظلوا مسمرين في أمكنتهم ذاهلين مصدومين وكان يصعب عليهم أن يتفهموا أن هتلر دفع بهم الى هاوية الحرب. ومالبث باعة الطبعات الخاصة من الصبيان أن نزلوا الى الشوارع برزمهم رغم ان اليوم أحد. في الواقع اني لاحظت انهم يوزعونها ولا يبيعونها فاخذت واحدة وكانت صحيفة "دويتشه الغماينه تزايتنگ". وعناوينها الضخمة تكاد تحتل صدرها من جانب الى جانب:

[الإنذار البريطاني يرفض]، [بريطانيا تعلن انها في حالة حرب مع ألمانيا]، [المذكرة البريطانية،

تطلب سحب قواتنا من بولندا]، [الزعيم يرحل الى الجبهة هذا اليوم]

٣٨- كانت العجلة الشديدة تبدو في صياغة هذه المذكرة الركيكة الى حد انها ختمت بالعبارة المضحكة التالية؟ "لقد أحطنا علماً بنية الحكومة البريطانية الواضحة في مذكرتها. وهي بالأصل نية السيد (كنگ هول) التي قضت على الشعب الألماني بحكم الفناء وبمصير اسوء مما ادخرته له معاهدة فرساي. ونحن بناءً على هذا، سندد على كل عمل عدواني يصدر من إنكلترا بالسلاح نفسه والاسلوب نفسه". لاشك وان الحكومة البريطانية لم تتبن اي نية من نوايا سيتفن كنگ هول Stephen King Hall وهو ضابط بحري متقاعد كان يكتب روايات خيالية عن مغامرات شخصية روائية بحتة، وكان هندرسن قد إحتج لدى وزارة الخارجية البريطانية على نشر مطبوعاته في ألمانيا. فرجت الحكومة البريطانية الناشر ان يكف.

٣٩- في الساعة الحادية عشرة صباحاً سلم (هاليفاكس) القائم بالأعمال الألماني مذكرة رسمية ورد فيها "ما لم تصل من الحكومة الألمانية تأكيد ما في الساعة ١٧٠، فلي عظيم الشرف بإبلاغكم ان حالة الحرب قد وجدت فعلاً بين البلدين من الساعة ١١ من صباح هذا اليوم الثالث من أيلول".

أما العنوان الذي وضع في صدر النص الرسمي، فقد بدا وكأن ريبنتروب أملاه بنفسه:
[المذكرة الألمانية تثبت جيمة بريطانيا]

وربما "صدق" بذلك الشعب الألماني السهل القياد والإنخداع. إلا أن التأليب الصحفي لم يولد أي شعور بالسخط على الإنجليز خلال ذلك اليوم. وعندما مررت بالسفارة البريطانية، وكانت حركة الانتقال منها جارية إلى فندق (آدلون) القريب في المنعطف لم أجد غير شرطي Schupo واحد يسير جيئةً وذهاباً أمام البناية ولا يفعل شيئاً إلا هذا.

وتلكاً الفرنسيون قليلاً. وظل (بونيه) يتشبث بالوقت إلى آخر لحظة متعلقاً تعلقاً عنيداً بأمل قيام موسوليني بإطلاق عملية تسوية مع هتلر قد تحل فرنسا من إلتزاماتها. بل راح يناشد السفير البلجيكي لحمل الملك ليوبولد على استخدام نفوذه مع نفوذ موسوليني للتأثير على هتلر. وظل طوال السبت ٢ أيلول يتناقش مع أعضاء الوزارة ومع البريطانيين زاعماً أنه وعد تشيانو بانتظار الجواب الألماني (حتى ظهر الثالث من أيلول) على مذكرتي التحذير الأنكلو فرنسية المؤرخة ١ أيلول وأنه لا يسعه الإخلال بوعده. والحق يقال أنه أعطى تأكيدات لوزير الخارجية الإيطالي. ولكن أجل الموعد لم يكن يتعدى التاسعة من مساء ٢ أيلول في ذلك الوقت كان إقتراح الدوتشي بعقد مؤتمر قد أصبح ميتاً كالحجر الأصم وكما حاول تشيانو أن يفهم (بونيه). وفي تلك الساعة - أيضاً كان البريطانيون يناشدونه تقديم إنذار نهائي إلى برلين في منتصف الليل.

قبل منتصف ليل ٢ أيلول بقليل حزمت الحكومة الفرنسية أخيراً أمرها وابتق بونيه إلى كولوندر في برلين بأن يقدم صباح الغد شروط "التحذير الثاني" إلى فلهلمشتراسه في الساعة ١٢ ظهراً^(٤٠). فنفذ الأمر في الساعة ٢٠. ١٠ صباح الأحد ٣ أيلول، قبل انتهاء أجل الإنذار البريطاني بأربعين دقيقة. وكان الإنذار الفرنسي مشابهاً في الصيغة بإستثناء موضوع واحد أن الحكومة الفرنسية تصرح في حالة الأجابة السلبية - بأنها ستعنى بإلتزاماتها لبولندا "وهي الإلتزامات التي تعرفها الحكومة الألمانية" حتى في هذه المرحلة الحتامية. أبى بونيه أن يتخذ الصيغة المألوفة لإعلان الحرب.

يذكر الكتاب الأصفر الفرنسي الرسمي أن نص الإنذار الفرنسي الذي أبرق إلى (كولوندر) جعل الساعة الخامسة فجراً نهاية مدة الإنذار - إلا أن هذا الموعد لم يكن الساعة التي ثبتت في البرقية الأصلية. ففي الساعة ٨, ٤٥ صباحاً أبلغ السفير (فيس) هاليفاكس من باريس:

"يقول لي بونيه أن التوقيت الفرنسي للإنذار سينتهي في الساعة الخامسة من فجر يوم الإثنين [٤ أيلول]". وهذا هو الوقت الذي ذكر في برقية بونيه.

ومع أن الأجل المضروب للإنذار كان فيه امتياز انتزع دالاديه انتزاعاً من هيئة الأركان العامة الفرنسية - في يوم الأحد صباحاً، بعد أن ظلت مصرّة على ثمان وأربعين ساعة كاملة تبدأ من وقت

٤٠- بل حتى بعد هذا قام بونيه (انظر ما سبق) بمحاولة الدقيفة الأخيرة لإبعاد فرنسا عن الحرب، بإقتراحه على الإيطاليين أثناء الليل أن يحملوا هتلر على تدبير إنسحاب "رمزي" من بولندا.

تقديم الإنذار الى برلين ظهراً، إلا أنه ضايق الحكومة البريطانية وأزعجها حتى أنها صارت باريس باستيائها بصيغة فاضحة قبل ظهر اليوم. ولذلك بادر دالادييه ببذل مجهود أخير مع العسكريين فزار الجنرال كولستون Colston في هيئة الأركان في الساعة ٣٠، ١١ صباحاً والح ان يختصر الوقت المحدد. فوافق الجنرال متردداً على خصم إثنيتي عشرة ساعة أي جعله في الساعة ٥ فجراً. وهكذا فما كاد (كولوندر) يهم بترك السفارة الفرنسية في برلين قاصداً فلهمشتراسه حتى اتصل به (بونيه) تلفونياً وأشار عليه أن يقوم بإجراء التعديل الضروري على ساعة الصفر^(٤١).

ولم يكن ريبنتروب موجوداً في الوزارة ظهر اليوم. فقد كان يشارك في حفلة صغيرة اقيمت بدار المستشارية احتفاءً بالسفير السوفيتي الجديد الكساندر شكفارزيف Alexander Shkvarzev، حيث استقبله (الزعيم) بحرارة - وكانت مناسبة أضفت على يوم الأحد التاريخي هذا في برلين لوناً شاذاً. وأصر (كولوندر) على تطبيق تعليماته حرفياً بالحضور الى فلهمشتراسه في الساعة الثانية عشرة ظهراً بالضبط، فاستقبله (فايسيك) وعندما سأله السفير هل أن وكيل الوزارة مخول باعطاء "جواب مقنع" للفرنسيين أجاب فايسيك أنه ليس في موقف يتمكن من اعطاء "أي جواب كان" وتبع ذلك هزلية دبلوماسية صغيرة في هذه الساعة الخطيرة. فعندما حاول (كولوندر) اعتبار جواب (فايسيك) رداً ألمانياً سلبياً توقعه فعلاً وان يسلمه إنذار فرنسا الرسمي، رفض فايسيك قبوله ورجا السفير "أن يتكرم بالانتظار فترة قصيرة أخرى ليقابل وزير الخارجية شخصياً" فخاب - ولم تكن الخيبة الأولى وبقي ينتظر حوالي نصف ساعة. حتى اذا ازفت الساعة ٣٠، ١٢ ظهراً طلب منه الذهاب الى المستشارية لمقابلة ريبنتروب^(٤٢).

ومع ان وزير الخارجية النازي كان يعرف مهمة السفير، فانه لم يدع الفرصة تمر وهي آخر فرصة تعن، دون أن يتحف المبعوث الفرنسي بنموذج من مراوغاته المألوفة في عالم التاريخ. فبعد أن نوّه بأن موسوليني أثناء تقديم مقترحاته السلمية قد أوضح ان فرنسا وافقت عليها وان ألمانيا "أبلغت الدوتشي يوم أمس أنها أيضاً مستعدة" للموافقة على الاقتراح. ولكن بعد مرور ساعات من اليوم نفسه أبلغنا الدوتشي أن إقتراحه قد أفسده التدخل البريطاني". إلا أن (كولوندر) كان قد سمع الكفاية من اكاذيب ريبنتروب وتزييفه طوال الاشهر الماضية. ويعد أنه أصغى فترة أخرى اليه وهو يعرب عن أسفه لسير فرنسا على نهج بريطانيا وأن ألمانيا ليس لديها نية في مهاجمة فرنسا. وصل إلى السؤال الذي جاء ليطرحة: هل تعني ملاحظات وزير الخارجية أن رد الحكومة الألمانية على المذكرة الفرنسية المؤرخة (١) أيلول هو السلب؟ فأجاب ريبنتروب "نعم!" وهنا قام السفير بتسليم وزير الخارجية الإنذار الفرنسي مصدراً اياه بالمقدمة: "للمرة الأخيرة" يجب عليه أن يبين "مسؤولية حكومة

٤١- هذا ماوراه بونيه بالذات: المرجع السالف، الص ٣٦٥ - ٣٦٨.

٤٢- تقرير فايسيك عن الاجتماع "وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية، ج ٧، ص ٣٥٢.

الرايخ الضخمة" في الاغارة على بولندا "دون إعلان الحرب عليها"، وفي رفض الطلب الأنكلو-فرنسي بسحب القوات الألمانية فقال ريبنتروب "أذن فستكون فرنسا الدولة المعتدية". فأجاب كولوندر "الحكم في هذه القضية للتاريخ وحده". في نهار الأحد هذا، يظهر أن كل المشاركين في الفصل الأخير من هذه التمثيلية في برلين راحوا يحتكمون الى التاريخ.

* * *

مع أن فرنسا في الوقت الراهن كانت تحشد جيوشاً تحقق التفوق الساحق، على القوات الألمانية في المغرب، فإن بريطانيا العظمى؟ بجيشها الحاضر الذي لا يعد شيئاً مذكوراً؟ كانت تحتل الحيز الأكبر من رأس هتلر المتلاطم المصطخب بوصفها العدو الأساسي والخصم المسؤول وحده تقريباً عن المفازة الصعبة التي وجد نفسه فيها، هذا ما كان يشعر به ويوم ٣ أيلول ١٩٣٩ يتلاشى ويدخل بطون التاريخ. وقد كشف عن ذلك في بيانين اصدرهما بعد ظهر اليوم الى الشعب الألماني والى جيش الغرب. فجر فيهما حقد الميرر وغيظه الهستيري على البريطانيين:

ففي: "نداء الى الشعب الألماني" قال: ظلت بريطانيا العظمى قروناً تتابع هدف إخضاع الشعوب الأوروبية وجعلها عديمة الحيلة ازاء السياسة البريطانية الهادفة الى السيطرة على العالم... [و] ادعت حق الهجوم على تلك الدولة الأوروبية وتحطيمها متذرعة بحجج واهية لأن تلك الدولة في الوقت الحاضر تمثل أعظم خطر عليها... لقد كنا نحن أنفسنا شهوداً عدولاً لسياسة التطويق... انتهجتها بريطانيا العظمى ضد ألمانيا منذ ما قبل الحرب... إن مثيري الحروب البريطانيين.. اضطهدوا الشعب الألماني بمعاهدة فرساي المفروضة فرضاً..."

وفي النداء الذي وجهه الى الجنود الذين ظلوا عدة أسابيع لا يواجهون إلا الجيش الفرنسي، قال: ياجنود جيش الغرب!... إن بريطانيا العظمى قد سلكت سياسة تطويق ألمانيا... إن الحكومة البريطانية بتحرير من تجار الحروب الذين عرفناهم في الحرب الأخيرة قد قرروا اماطة اللثام عن أوجههم وتزويق اقنعتهم بإعلان الحرب متعللين بحجج واهية..."

ولم يذكر فرنسا بكلمة واحدة.

وفي لندن واجه وجمبرلين مجلس العموم في الدقيقة السادسة بعد الساعة الثانية عشرة وأبلغه أن بريطانيا هي الآن في حالة حرب مع ألمانيا. ومع أن هتلر اصدر بتاريخ ١ أيلول أمراً بمنع الاستماع الى الإذاعات الاجنبية وفرض عقوبة الموت على المخالفين. فقد التقطنا في برلين كلمات جمبرلين كما نقلتها دار الإذاعة البريطانية. وقد وجدنا نحن الذين رأينا يقامر بحياته السياسية في كودسبرغ ومونيخ لإسكات هتلر، ان كلماته كانت حادة لاذعة.

"يومنا هذا يوم كئيب للجميع وليس ثم كائن يفوقني شعوراً بالكآبة فيه. كل ما جاهدت لأجله، كل

ما ماأمنت به طوال حياتي السياسية تحطم وتقوض. ولم يتبق لي من عملٍ إلا أن أوقف ماتخلف في كياني من قوة ونشاط لتحقيق النصر. نصر القضية التي يجب علينا أن نضحي من أجلها الكثير... وأتمنى ان اعيش لتكتحل عيني باليوم الذي أرى فيه الهتلرية تتحطم، وأن يعاد إنشاء أوروبا حرة". ولم يشأ القدر أن يعيش چمبرلين ليرى ذلك اليوم فقد قضى نحبه رجلاً محطماً يائساً -وان ظل عضواً في الوزارة حتى التاسع من تشرين الثاني ١٩٤٠ ولا نجد بعد كل ماورد عنه في هذه الصفحات إلا أن نثيت هنا ما قال چرچل في رثائه. وهو الذي كان قد حرمه من معالجة شؤون الشعب البريطاني أمداً طويلاً فما لبث أن خلفه في رأسه الوزارة في ١٠ أيار ١٩٤٠. قال چرچل في تأبينه في مجلس العموم بتاريخ ١٢ تشرين الثاني ١٩٤٠:

"... في واحدة من أعظم الأزمات التي عاناها عالمنا، قضت الأقدار على نثيل چمبرلين أن تتجاوزبه الأحداث ويصاب بخيبة الآمال ويقع ضحية غش وخداع رجل شرير. لكن ما هي آماله التي آلت الى الخيبة؟ ماهي رغباته التي أخفق في تحقيقها؟ ماهو ذلك الإيمان الذي لحقته الإهانة؟ لاشك انها من أسمى وأنبيل وأفضل عواطف القلب البشري. انها حب السلم والعمل في سبيل السلم، الجهاد في سبيل السلم الى حد التعرض الأعظم المهالك، والإزدراء التام بالشهرة والمجد".

بعد أن فشلت دبلوماسية هتلر في إبعاد بريطانيا عن ميدان القتال. أولى إهتمامه الشؤون العسكرية في ساعات العصر. فأصدر الأمر السري للغاية المرقم (٢) لادارة الحرب. جاء فيه: رغم إعلان فرنسا وبريطانيا الحرب "فأن الهدف العسكري الألماني يبقى في الوقت الحاضر، انها العمليات سريعاً في بولندا بتحقيق الظفر... في الغرب تترك المبادأة بالأعمال العدوانية للعدو... ضد إنكلترا يسمح بالهجوم البحري" ولايهاجم سلاح الجو الألماني اي هدف حتى القوات البحرية إلا اذا بادأ البريطانيون باعمال مماثلة على اهداف ألمانية- وعندئذ يرد عليها في حالة كون احتمالات النجاح كبيرة بنوع خاص" وصدر الأمر بتوجيه كل الصناعة الألمانية الى الاقتصاد الحربي^(٤٣).

وفي الساعة التاسعة مساء غادر برلين كل من هتلر وريبنتروب في قطارين خاصين منفصلين متجهين الى مقر القيادة العامة في الشرق لم يسافرا إلا بعد أن أقدما على عمليتين دبلوماسيتين. إن فرنسا وإنكلترا هما الآن في حرب مع ألمانيا لكن هناك دولتين معظمتين أخريين في أوروبا شجعته مساندتهما على تنفيذ مغامرته، وعليه الآن أن يتولى أمر الإهتمام بها: إيطاليا حليفته التي ألوت برأسها عنه في آخر لحظة وروسيا السوفيتية التي (وإن كان الدكتاتور النازي يشك في نواياها) طوقته بفضلها اذ جعلته يقامر في حرب تسوى المقامرة.

وقبل مغادرته العاصمة بعث برسالة الى موسوليني. أرسلها برقياً في الساعة ٨، ٥١ مساءً قبل حركة قطاره الخاص بتسع دقائق. هذه الرسالة رغم شائبة عدم الصراحة ووجود الكذب فيها، تعرض أفضل صورة يمكن أن نتحف بها مخيلتنا لأدولف هتلر في اول رحلة له من عاصمة الرايخ الثالث

٤٣- النص في (وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية، ج ٧، الص ٥٤٨ - ٥٤٩).

المكفهرة، لتسلم دوره بوصفه رب الحرب الألماني الأعلى. وقد عشر عليها بين الأوراق النازية المضبوطة.

أيها الدوتشي: "وجب علي ان اشكرك أولاً لمحاولتك الأخيرة في الوساطة. لقد كنت على إستعداد للقبول لو وجدت احتمالاً صغيراً يعطيني نوعاً من الضمان بنجاح المؤتمر. ذلك لأن القوات الألمانية مشتبكة منذ يومين وهي تتقدم متوغلة داخل بولندا بسرعة مدهشة غير اعتيادية. وقد يكون من المستحيل ان يضحي بالدم المهرق هناك على مذبح المكائد الدبلوماسية.

وعلى كل حال فأنا أعتقد أنه كان يمكن التوصل الى مخرج لو لم تحزم بريطانيا أمرها من البداية على إبلاغ الأمور إلى حالة الحرب لامحالة. ولم أخضع لتهديد بريطانيا إنني ايها الدوتشي، لم أعد أومن بأن السلم يمكن الابقاء عليه اكثر من ستة اشهر أو عام واحد على اكثر تقدير. في هذه الظروف، رأيت اللحظة الراهنة هي رغم كل شيء أنسب لحظة النزال.

... سيتصدع الجيش البولندي ويخر متقوضاً في فترة قصيرة جداً ولأدري هل كان يمكن تحقيق هذا النجاح السريع في عام مقبل أو عامين. اراني مضطراً الى القول إنني اشك جداً في ذلك. فسوف تمضي فرنسا وإنجلترا قدماً في تسليح حلفائها إلى درجة لايعود يمكن ملاحظة وجود التفوق التكني الساحق للفيرماخت الألماني كما يلاحظ اليوم. واني لمدرک ايها الدوتشي بأن الكفاح الذي اخوضه اليوم هو كفاح حياة او موت... إلا أنني مدرک ايضاً ان كفاحاً كهذا لايمكن اجتنابه في النهاية وأن وقت القتال يجب أن يتم اختياره بتأمل متزن هاديء بحيث تزداد احتمالات الثقة بالنصر وتتأكد. وإيماني بهذا النجاح يا ايها الدوتشي ثابت ثبات الصخرة".

بعد هذا تأتي عبارات تحذير لموسوليني: "لقد تلطفت فأكدت لي إنك قد تستطيع مساعدتي في بعض المبادي. إنني اقبل ذلك منك مع سبق الشكر، الا اني اعتقد أيضاً - وان كانت سبلنا الآن مختلفة، فإن القدر سيربط مصائرنا معاً. لو قدر لألمانيا القومية الاشتراكية أن تتحطم على يد الديمقراطيات الغربية، فستواجه إيطاليا الفاشية أيضاً مستقبلاً مظلماً. ولقد كنت شخصياً مدرکاً على الدوام بأن مستقبل نظامينا مترابطان. واني عالم ايها الدوتشي بأنك تشاركني الرأي تماماً"، وختم هتلر رسالته بعد تعداده انتصارات الألمان الأولى في بولندا - بالعبارة التالية:

.....في الغرب، سأبقي متخذاً وضع الدفاع. وبإمكان فرنسا أن تريق دمها هناك أولاً. وبعد ذلك ستحين الساعة عندما نستطيع أن نلقي بانفسنا هناك أيضاً على العدو بكل قوى الأمة.

أرجو أن تقبل شكري مرة أخرى ايها الدوتشي لكل ماقدمته لي من عون في الماضي، وأنا أسأل ألاّ تأباه عليّ في المستقبل كذلك. أدولف هتلر^(٤٤)

أفلح هتلر في اخفاء ألمه لعدم قيام إيطاليا بالوفاء بعهدا، تحت اطباق عميقة من ضبط النفس - حتى بعد أن وفّت بريطانيا وفرنسا بالتزاماتهما وأعلنتا الحرب في هذا اليوم. إن إيطاليا الصديقة وإن

٤٤ - النص في (المرجع السالف) ج ٧، الص ٥٣٨-٥٣٩.

لم تكن حليفة نزال، هي مصدر عون، بطبيعة الحال.
إلا أن روسيا قد تكون أكثر عوناً.

أوضحت أوراق النازي السرية التي استولي عليها فيما بعد ان الحكومة السوفيتية قدمت لسلح الجو الألماني في اول يوم من الهجوم الألماني على بولندا، خدمة فريدة في بابها. ففي ساعات فجر ذلك اليوم الأولى إتصل الجنرال هانس يشونيك Hans Jeschonnek رئيس أركان القوة الجوية، بالسفارة الألمانية في موسكو ليقول إنه يكون ممثناً لو أن محطة الراديو الروسية في (منسك)، تقوم بالإفصاح عن هويتها باستمرار عبر الأثير، وبذلك تقدم لطياريه مساعدة ملاحية في قصف بولندا عبر عنها بعبارة "اختبارات ملاحية ضرورية". واستطاع السفير فون شولنبرگ أن يعلم برلين عصر اليوم نفسه بأن الحكومة السوفيتية "كانت مستعدة لتلبية رغبتكم" ووافق الروس على إعلان هوية المحطة بأكثر مايمكن خلال برنامجهم الاذاعي وأن يمددوا فترة اذاعة راديو منسك ساعتين حتى تمتد مساعدة الطيارين الألمان الى وقت متأخر من الليل^(٤٥).

لكن هتلر وريبنتروب كانا قبل مغادرتهم بولن مساء ٣ أيلول يفكران في مساعدة جوهريه عسكرية روسية اكبر بكثير من هذه في اتمام إحتلال بولندا. في الساعة ٦, ٥٠ مساءً بعث ريبنتروب إلى السفارة الألمانية في موسكو ببرقية "مهمة للغاية" صدرت بعبارة "سري جداً" وبدأت هكذا: "للسفير وحده او لرئيس البعثة الدبلوماسية أو ممثله شخصاً. يُعنى جداً بالكتمان. تفك رموزها بيده. سري للغاية".

باعظم مايمكن من الكتمان دعا الألمان الإتحاد السوفياتي إلى مشاركتهم في الهجوم على بولندا.
[وجاء في البرقية].

"نحن نتوقع جزءاً أن نهزم الجيش البولندي هزيمة ساحقة خلال أسابيع قلائل. وعندئذ سنخضع الأقاليم التي ثبتت في موسكو بوصفها مجال النفوذ والمصالح الألمانية للإحتلال العسكري. ولأسباب عسكرية سيترتب علينا بطبيعة الحال الإستمرار في عملياتنا ضد القوات العسكرية البولندية التي ستكون في ذلك الوقت معسكرة في المناطق البولندية التي ستعود الى المجال الروسي. نرجو ان تبحت في الأمر حالياً مع مولوتوف، وأن ترى ألا يحبذ الإتحاد السوفياتي أن تقوم القوات الروسية في الوقت المناسب بالحركة ضد القوات البولندية في الجزء الروسي وتحتل من جانبها المنطقة الخاصة بها. وفي تقديرنا أن ذلك سيكون نجدة لنا، كذلك سيكون في مصلحة السوفييت أيضاً بمقتضى إتفاقية موسكو^(٤٦).

من الواضح ان حركة كهذه يقوم بها الإتحاد السوفياتي ستكون نجدة لهتلر وريبنتروب. لانها ستقتضي على اي خلاف أو احتكاك بين الألمان والروس في اقتسام الأراضي، وكذلك سترفع بعض

٤٥- ذلك موضح في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية المرجع السالف ص ٤٨٠].

٤٦- نص البرقية في المرجع السالف الص ٥٤٠ - ٥٤١.

الوزر عن كاهل ألمانيا لعدوانها على بولندا. وتضعه على عاتق الإتحاد السوفياتي. إن كانتا شريكتين في الغنم، فلم لا تكونان شريكتين في الغرم؟
كان أشد الألمان البارزين في الحكم غمماً (في برلين بعد أن إنتشر نبأ دخول بريطانيا الحرب) هو الأميرال الأعظم (رايدر) القائد العام للأسطول الألماني. فقد سبقته الحرب بأربع سنوات أو خمس. ذلك لأن برنامج (Z) البحري لن يتم إلا في ١٩٤٤-١٩٤٥ ليؤمن لألمانيا أسطولاً كبيراً تطاول به الأسطول البريطاني. لكن اليوم هو الثالث من أيلول عام ١٩٣٩. و(رايدر) يعلم وإن خالفه هتلر بأنه لا يملك من القطع البحرية العائمة ولا الغائصة أيضاً ما يكفي لشن حرب فعالة على بريطانيا العظمى. ولجأ الى يومياته ليكتب مايلي:

"اليوم إندلعت الحرب بيننا وبين فرنسا وإنجلترا، الحرب التي أكد (الزعيم) في الماضي بأنها لن تحصل قبل ١٩٤٤. لقد اعتقد الزعيم الى آخر دقيقة ان بالامكان اجتنابها حتى ولو أدى ذلك الى تأجيل التسوية النهائية للمشكلة البولندية..."

ويقدر مايتعلق الأمر بالأسطول. فلاشك أنه غير مجهز تجهيزاً جيداً لخوض حرب كبيرة مع بريطانيا... إن سلاح الغواصات ضعيف جداً، بحيث لن يكون له تأثير حاسم في الحرب. والسلاح العائم فضلاً عن ذلك أقل عدداً وعدة من الأسطول البريطاني، بحيث لا يستطيع وهو في أقصى منعه أن يفعل أكثر من ان يظهر بأنه يعرف كيف يموت ميتة الأبطال...^(٤٧)

ومهما يكن، ففي الساعة التاسعة من مساء ٣ أيلول ١٩٣٩ وفي اللحظة التي كان هتلر يترك برلين ضرب الأسطول الألماني ضربته.

أطلقت الغواصة (و-٣٠) طوربيداً على باخرة الركاب البريطانية آثينيا Athenia في نقطة تبعد زهاء مائتي ميل غرب (هيبرايدس Hebrides) وهي في طريقها الى مونتريال من ليفربول فأغرقتها. وكانت تقل (١٤٠٠) راكب وفقد ١١٢ منهم حياتهم وبين هؤلاء الموتى ثمانية وعشرون أمريكياً. ها قد بدأت الحرب العالمية الثانية.

٤٧- "مؤمرات الزعيم في الشؤون البحرية - ١٩٣٩" النص ١٣-١٤.

